الفوائد الغراء

من تهذيب

سير أعلام النبلاء

قدم له

الدكتور محمد موسى الشريف

جمع وترتيب

الشريف فهد بن أحمد بن عبد الله المهدلي

ساهم في الطبع

الشيخ محمد عائض غرامة الأسمري

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين



الطبعة الأولىٰ
١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م


الفوائد الغراء
من تهذيب
سير أعلام النبلاء


بسم الله الرحمن الرحيم



الإهداء

إلىٰ كل من يبحث جاهداً لمعرفة تاريخ سلفه العظيم . . .

إلىٰ والدي العزيز ووالدتي الفاضلة اللذين أرجو رضاءهما . . .

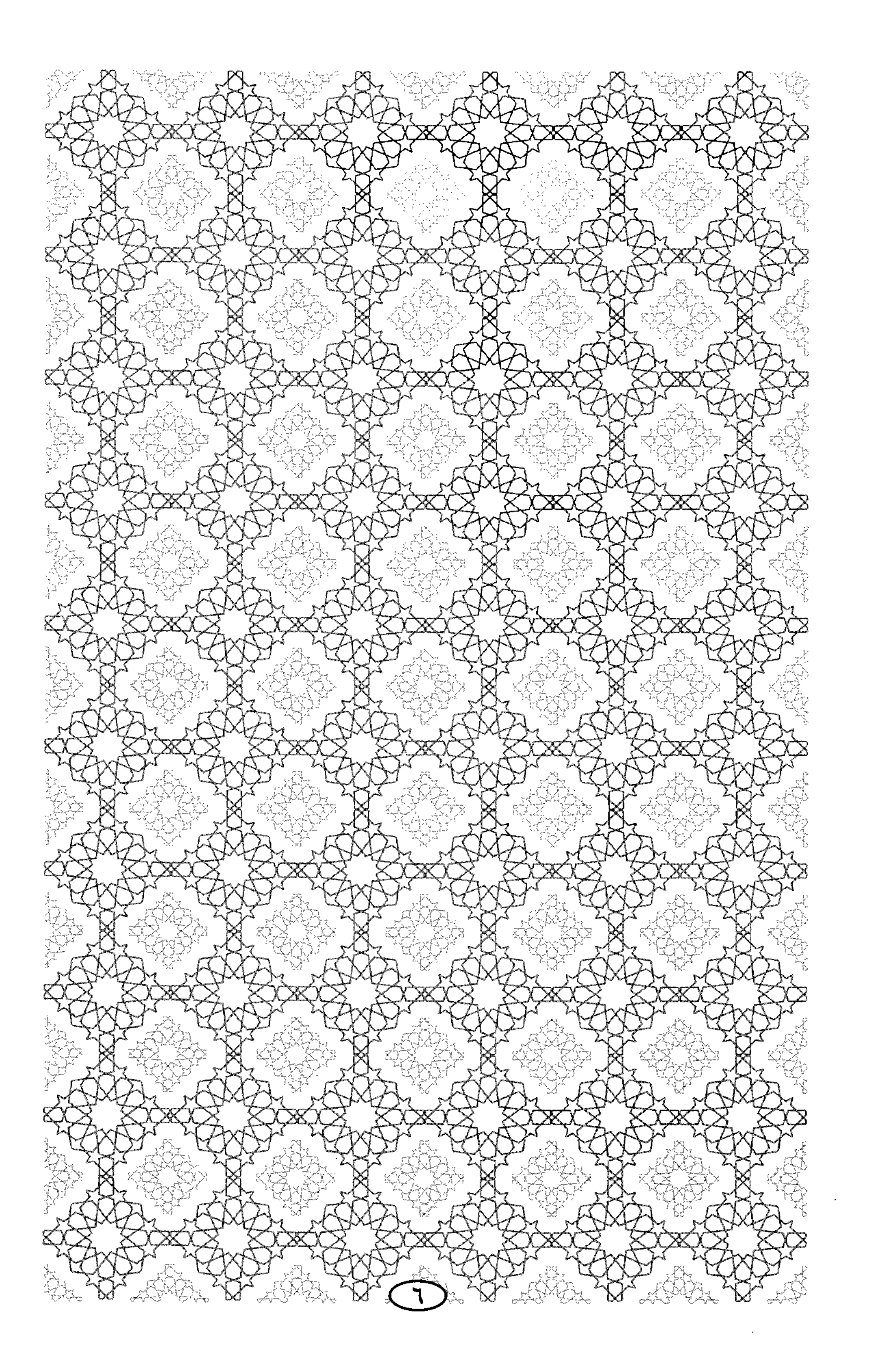
إلىٰ إخواني وأخواتي . . .

إلىٰ أساتذتي وشيوخي الأفاضل . . .

إلىٰ طُلابي ، عسىٰ أن يقتدوا بأعلام أمة الإسلام . . .

أهدي إليهم هٰذا العمل المتواضع . . .

* * *



تَقْدِيمٌ

فضيلة الشيخ الدكتور

محمد بن حسن بن موسى الشريف

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام علىٰ سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين ، وبعد :

فقد اختصرت كتاب « **سِيَر أعْلام النُّبَلاء** » من أكثر من عشر سنوات ، وسمّيته « **نُزهَة الفُضَلاء تَهذيب سِيَر أعْلام النُّبَلاء** » ، وقد وضع الله له من القبول في صدور الناس ما وضع ، وطُبع عدّة طبعات ، ولكن كثيراً من الناس كان يَودُّ لو أن فَهارس الفَوائد تُبسَّط بحيث توضع الفائدة تحت عنوانها ، وذلك أخْصَر وأحسن لعين القارىء ، وأجمع لوقته ، وقد كنتُ أرىٰ أن هٰذا عمل نافع ، لكن عندي من الأعمال ما يَشغلني عنه ، ومرت السنون دون أن يتحقق شيء ، حتىٰ جاءني الأخ في الله تعالىٰ **فَهْد المهْدلي** بعمل مماثل لما طُلِبَ منِّي عمله ، وألفيتُه كافياً ، ووافياً بالمُراد ، سهلاً على القارىء المُطالِع ، والباحِث الجامع ، والمُبتَغي فائدةً ما ، وأسألُ الله تعالىٰ أن ينفع بهٰذا الكتاب كما نفع بأصليه « **نُزهَة الفُضَلاء تَهذيب سِيَر أعْلام النُّبَلاء** » ، وأصله « **سِيَر أعْلام النُّبَلاء** » . . إنه علىٰ ذلك قدير ، وبالإجابة حقيق وجدير ، وصلى الله وسلَّم علىٰ سيدنا محمَّد وآله وصحبه أجمعين .

والحَمدُ لله رَبِّ العَالَمين

وكتبه

محمد بن موسى الشريف

جدة : ١/٦/ ١٤٢٥هـ



مقدمة

الحمد لله جعل لكل عصر رجالاً يقومون بإعزاز دينه ونشر علومه ، وأشهد ألاَّ إلـٰه إلاَّ الله وحده لا شَريكَ له ، وأنَّ مُحمَّداً عبدُه ورَسولُه ، وبعد

فلا يَخفىٰ علىٰ عاقل أن كتب التاريخ هي تراث للأمم ، فيها تجاربهم وعظمتهم وعزتهم .

وها نحن أمام كتاب من أهم كتب التاريخ المَعْني بالسِّيَر والتَّراجِم ، وهو « **سِيَر أعْلام النُّبَلاء** » لمؤلفه الإمام مؤرِّخ الإسلام ، ناقِد المُحدِّثين ، أبي عبد الله الحافِظ الذَّهَبيّ ، غَفرَ الله له ، ووسَّعَ في ضَريحه .

وهـٰذا الكتاب لا يَخفَىٰ علىٰ طالب العلم حجمه وقوته ، حتىٰ غدا هـٰذا الكتاب من أهم مراجع أهل الحديث ، ومع أهمية هـٰذا الكتاب فإن شَريحة من الدارسين الذين استفادوا منه ممَّا جعل شيخنا الموفَّق الدكتور محمد موسى الشَّريف يقوم بتهذيب هـٰذه المجلَّدات حتىٰ غَدت سهلة مُيسَّرة ، ولم يَكتَفِ بذلك ، بل قام بتذييل هـٰذا التهذيب بفَهْرَسة فوائد مُرتَّبَة علىٰ نَسق عقلي ومنطقي مناسب للقارىء الباحث عن الفائدة ، وأهمية هـٰذا الفهرس ظاهرة ، فهو علىٰ طوله وتشعُّبه مفيد في استيفاء العناصر للموضوعات والدروس والخطب ، وفيه مئات من الأبيات الشعرية المختلفة التي تُضْفي على الموضوعات المطروحة حلاوة وطلاوة ، وفيه ما تَفتَّقت عنه قَرائحُ الأئمَّة في كلامهم عن مختلف الجوانب الإيمانية والعلمية والأدبية والأخلاقية بي مدىٰ ثمانية قرون هي المدَّة الزمنية التي تكفَّل هـٰذا الكتاب بإبرازها ، والذي أريدُ أن أصلَ إليه هو أن هـٰذه الفوائد التي وضعها الدكتور الشَّريف كانت عناوين ، وكل عنوان له رقم بالصحفة ورقم للفقرة أو الفقرات التي تحتويه ، ثم إنني قمت بإلحاق العنوان بالفائدة وجمعت هـٰذه الفوائد ورتبتها فأصبحت متناسقة مترابطة تُعطي موضوعاً متكاملاً متواصلاً .

وأخيراً فهـٰذا عمل متواضع أسأل الله أن ينفع به إخواني المسلمين في كل مكان ، وأن يجعله من العلم النافع الذي يبلغنا أجره بعد الممات .

وآخرُ دَعْوانا أن الحَمدُ لله رَبِّ العَالَمين .

كتبه

الشَّريف/ فهد بن أحمد بن عبد الله المهْدَلي

ص . ب . ٥٢٧٠ ـ الخَفجي ـ السعودية

Email: fahad1395@hotmail.com

تَرْجَمَةُ الإمَامِ الذَّهَبِيّ

هو محمد بن أحمد بن عُثمان بن قَايْمَاز ابن الشيخ عبد الله التُّرْكمانيّ ، الفَارقيّ ، ثم الدِّمَشْقيّ ، الشَّافعيّ ، شَمسُ الدين أبو عبدُ الله الذَّهَبيّ .

والفَارقيُّ نسبَةً إلىٰ « مَيَّافارقين »[1] أشهر مدن ديار بكر ، فهو تُركُمانيٌّ فارقيُّ الأصل ، دِمَشْقيُّ المَوْلِد والوَفاة .

قال تلميذه تاج الدِّين عبد الوهّاب السُّبكي : « شيخُنا وأستاذُنا الإمام الحافظ شمس الدين أبو عبد الله التركماني الذهبي محدِّث العصر ، بصرٌ لا نظير له ، وكنزٌ هو الملجأ إذا نزلت المعضلة ، إمام الجود حفظاً ، وذهب العصر معنىً ولفظاً ، وشيخ الجرح والتعديل ، ورجل الرجال في كل سبيل ، كأنَّما جُمعت الأمَّة في صعيد واحد فنظرها ثم أخَذَ يُخبِرُ عنها إخْبارَ مَنْ حَضرَها .

مولده ثالث شهر ربيع الآخر ، سنة ثلاث وسبعين وستمائة في قرية كَفْر بَطْنا[2] ، وطلب الحديث وله ثماني عشرة سنة ، فسمع بدمشق ، وببَعْلَبَكَّ ، وبمصر ، والإسكندرية ، وبمكة ، وبحلب ، وبنابلس. . . وفي شيوخه كثرة ، وسمع منه الجمع الغفير ، وما زال يخدم هـٰذا الفن إلىٰ أن رسخت فيه قدمه ، وأقام بدمشق يُرحَلُ إليه من سائر البلاد ، صنَّف التاريخ الكبير ، والتاريخ الأوسط المسمَّىٰ بالعِبَر ، وهو حسن جداً ، والصغير المسمَّىٰ دول الإسلام ، وكتاب النُّبَلاء ، والميزان في الضُّعَفاء ، وهو من أجَلِّ الكُتب ، ومختصر سنن البيهَقي ، وهو حسن ، وطبقات الحُفَّاظ ، وطبقات القُرَّاء. . . ومختصرات كثيرة ، وقرأ القرآن بالروايات وأقرأه . تُوفِّيَ سنة ثمانٍ وأربَعين وسبعمائة ، وكان قد أضرَّ قبل موته بمدَّة يسيرة »[3] .

---

(١) مكانها الآن قرية صغيرة في تركيا تُسمَّىٰ « سافا » .

(٢) قرية من قُرىٰ غوطة دمشق الشرقية ، وهي عامرة إلى الآن ، وتبعد عن دمشق بضعة كيلو مترات .

(٣) طبقات الشافعية الكبرىٰ : ٩/ ١٠٠ـ١٢٣ . .

الإيمَان

١ـ يَجِبُ قَرْنُ الإيمَان بالعَمَلِ الصَّالِحِ :

عن وَهب بن مُنبِّه قال : « الإيمانُ عُريان ، ولباسُه التَّقوَىٰ ، وزينتُه الحَياء ، ومالُه الفِقه »[1] .

٢ـ الإيمَانُ قَوْلٌ وعَمَلٌ يَزِيدُ ويَنْقُصُ :

قال الرَّبيع سمعتُ الشافعي يقول : « الإيمان قَولٌ وعَملٌ ، يَزيدُ ويَنقُص »[2] .

وجاءَ في تَرجَمَةِ أبي عبد الله البُخاريّ ، قال الذهَبيُّ : وقال وَرَّاقُه ، محمدُ بنُ أبي حاتم : سَمعتُه قبلَ مَوته بشهر يقولُ : « كَتبتُ عن ألفٍ وثمانين رجلاً ، ليس فيهم إلاَّ صاحبُ حَديث ، كانوا يقولون : الإيمانُ قَولٌ وعَملٌ ، يَزيدُ ويَنقُص »[3] .

٣ـ اسْتِعْلاءُ الإيمَانِ :

قال الإمامُ الذهبي في ترجمته للإمام نصر بن عبد الرزَّاق ابن شيخ الإسْلام عبد القادر قال ابن النجار كان مِقداماً رجلاً من الرجال سمعته يقول : كنتُ في دار الوزير القُمِّي وهناك جماعة ، إذ دخلَ رجلٌ ذو هيئة ، فقاموا له وخَدموه ، فقمتُ وظننتُه بعضَ الفُقهاء ، فقيلَ : هـٰذا ابنُ كرمٍ اليَهوديُّ عامِلُ دار الضَّرْب ، فقلتُ له : تعالَ إلىٰ هنا ، فجاءَ ووقفَ ، فقلتُ له : وَيْلَك توَهمتُك فقيهاً فقُمتُ إكْراماً لك ، ولستَ ـ وَيْلَك ـ عندي بهـٰذه الصِّفة ، ثم كرَّرتُ ذلك عليه وهو قائمٌ يقولُ : اللهُ

---

(١) انظر السير : (وهب بن منبه) ٤/ ٥٤٤ـ٥٥٧ ، وانظر النزهة : ٥/٥٥٤

(٢) انظر السير : (الإمام الشافعي) ١٠/ ٥ـ٩٩ ، وانظر النزهة : ٣/٨٤٧

(٣) انظر السير : (أبو عبد الله البخاري) ١٢/ ٣٩١ـ٤٧١ ، وانظر النزهة : ١/١٠١١

يَحفظُك! الله يبقيك! ، ثم قلت له : اخسأ هناك بعيداً عنَّا ، فذهب[١] .

وقال : حدَّثني أبو صالح أنه رُسِمَ له برزقٍ من الخَليفَة ، وأنَّه زارَ يومئذ قبرَ الإمام أحمد فقِيلَ لي : دُفِعَ رَسمُك إلى ابن توما النَّصْرانيّ فامضِ إليه فخُذهُ ، فقلتُ : والله لا أمضي ولا أطلبُه فبَقيَ ذلك الذهبُ عنده إلىٰ أن قُتِلَ لَعنَه الله في السَّنة الأخرىٰ ، وأُخِذَ الذهبُ من داره فنُفِّذَ إليَّ[٢] .

٤ـ قِصَّةٌ تُقَوِّي الإيمَانَ بالله عَزَّ وجَلّ :

قال يوسُفُ بنُ الحُسين الرَّازيّ : حَضرْتُ ذا النُّونِ فقيل له : يا أبا الفيض ، ماكان سَببُ تَوبَتِك ؟ قال : نِمتُ في الصحراء ، ففتحت عَينَيَّ فإذا قُنْبُرَةٌ[٣] .عَمياءُ سقطتْ من وكْر ، فانشقت الأرضُ ، فخرجَ سُكُرُّجَتان فأكَلَت وشَرِبَت فقلتُ : حَسبي ، فتُبتُ ولَزِمتُ البابَ إلىٰ أن قَبلَني[٤] .

٥ـ مَعْرِفَةُ الله :

(أ) هَل الكُفَّارُ يَعْرِفُونَ الله ؟

(ب) مَعْرِفَةُ المُؤمنين لرَبِّهم ولنَبِيِّهم مُتفَاوِتَةٌ :

حكَى القاضي عِياضُ قال : حَدَثَ في القَيْروان مَسألةٌ في الكفَّار ، هل يَعرفون اللهَ تعالىٰ أم لا ؟ فوقع فيها اختلافُ العلماء ، ووقعتْ في ألسِنَةِ العامَّة وكثُر المِراءُ ، واقْتَتلوا في الأسْواق إلىٰ أن ذَهبوا إلىٰ أبي عِمْرانَ الفاسي ، فقال : إنْ أنصَتُّم عَلَّمْتُكم قالوا : نعم قال : لا يُكَلِّمُني إلاَّ رجلٌ ، ويَسْمع الباقون فنَصَبوا واحداً ، فقال له : أرأيْتَ لو لَقيتَ رجلاً ، فقلتَ له : أتعرفُ أبا عِمْرانَ الفاسي ؟ قال : نعم، فقلتُ له : صِفْه لي ، قال : هو بَقَّالٌ في سُوق كَذا ، ويَسكُنُ سَبْتَة ، أكانَ يعرفُني ؟ فقال :

---

(١) انظر السير : (نصر بن عبد الرزاق) ٢٢/٣٩٦ـ٣٩٩ ، وانظر النزهة : ٢/١٧٠٧.

(٢) انظر السير : (نصر بن عبد الرزاق) ٢٢/٣٩٦ـ٣٩٩ ، وانظر النزهة : ١/١٧٠٨.

(٣) القُنْبُرة والقُنْبَرة والقُبَّرَة والقُنْبُراء والقُنْبَراء : عصفورة من فصيلة القُبَّريات ، ورتبة الجواثم المخروطية المناقير ، سُمر في أعلاها ضاربة إلىٰ بياض في أسفلها ، وعلىٰ صدرها بقعة سوداء ، دائمة التغريد.

(٤) انظر السير : (ذو النون المصري) ١١/ ٥٣٢ـ٥٣٦ ، وانظر النزهة : ٣/٩٦٧.

لا فقال : لو لقيتَ آخر فسألتَه كما سألتَ الأول ، فقال : أعْرِفُهُ ، يُدَرِّسُ العلمَ ، ويُفْتِي ، ويسكن بغرب الشمّاط أكان يعرفني ؟ قال : نعم قال : فكذلك الكافرُ قال : لربِّه صاحبةٌ وولدٌ ، وأنَّه جسمٌ ، فلم يَعرفْ الله ولا وصَفَهُ بصفته بخلاف المؤمن فقالوا : شَفَيْتنا ودَعَوْا له ولم يَخُوضوا بعدُ في المَسألَة .

قال الإمامُ الذهبيُّ : المشركون والكتابيون وغيرُهم عَرَفوا اللهَ تعالىٰ بمعنىٰ أنهم لَم يَجحَدوه ، وعَرَفوا أنه خالقُهم ، قال تعالىٰ : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾[1] .

وقال تعالىٰ : ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[2] ، فهـؤلاء لم يُنكروا البارىء ، ولا جَحَدوا الصَّانع ، بل عرفوه ، وإنَّما جَهِلُوا نُعُوتَه المقدَّسة ، وقالوا عليه ما لا يعلمون ، والمؤمن عَرفَ ربَّه بصفات الكمال ، ونفىٰ عنه سمات النَّقْص في الجُملة ، وآمَنَ بربِّه ، وكفَّ عمَّا لا يعلم فبهـٰذا يتبين لك أنَّ الكافرَ عَرَفَ اللهَ من وجهٍ وجهلَه من وجوه ، والنَّبيُّون عرفوا اللهَ تعالىٰ ، وبعضُهم أكمَلُ معرفةً لله ، والأولياء عرفوه معرفة جيدة ، ولكنها دون معرفة الأنبياء ، ثم المؤمنون العالمون بعدهم ثم الصالحون دُونهم فالنَّاسُ في مَعرِفَة ربِّهم مُتفَاوتون ، كما أنَّ إيمانَهُم يزيد وينقص ، بل وكذلك الأمة في الإيمانِ بنبيِّهم والمعرفةِ له مَراتبُ أربعة ، فأرفعُهُم في ذلك أبو بكر الصِّدِّيق مَثلاً ، ثم عددٌ من السَّابقين ، ثم سائرُ الصَّحابَة ، ثم علماءُ التابعين ، إلىٰ أن تنتهي المعرفة به والإيمان به إلىٰ أعرابيٍّ جاهل وامرأةٍ من نساء القُرىٰ ، ودون ذلك ، وكذلك القولُ في مَعْرفَة النَّاسِ لدينِ الإسلام[3] .

* * *

---

(١) سورة الزخرف ، الآية (٨٧)

(٢) سورة إبراهيم ، الآية (١٠)

(٣) انظر السير : (أبو عمران الفاسي) ١٧/ ٥٤٥ـ٥٤٨ ، وانظر النزهة : ١/١٣٦٠

من الدَّلائِل علىٰ قُوَّةِ الإيمَان

أولاً : الدَّعْوَةُ إلى الله

١ـ الاهْتِمامُ بأحْوالِ المُسلِمين ومُشَارَكتِهم هُمُومَهُم :

عن سعيد بن عبد العزيز ، أنَّ أبا مسلم الخَولاني استبطأ خبرَ جيشٍ كان بأرض الرُّوم ، فدخل طائرٌ فوقع ، فقال : أنا رتبابيل مُسلي الحُزن من صدور المؤمنين ، فأخبرهُ خبرَ الجيش فقال : ما جئتَ حتى استبطأتُك ؟[١] .

وعن أصبع بن زيد ، قال : كان أُوَيس القَرني إذا أمسىٰ يقول : هـٰذه ليلةُ الرُّكوع ، فيركع حتىٰ يُصبح ، وكان إذا أمسىٰ يقول هـٰذه ليلةُ السُّجود ، فيسْجُد حتىٰ يُصبح ، وكان إذا أمسىٰ تصَدَّق بما في بيته من الفَضْل من الطَّعام والشَّراب ثم قال : اللهُمَّ مَنْ ماتَ جُوعاً فلا تُؤاخِذْني به ، ومَنْ مات عُرياً فلا تُؤاخِذْني به[٢] .

ومن محاسن الإمام ابن نُجَيْد أنَّ شَيخَه الزَّاهد أبا عثمان الحِيريَّ طلبَ في مجلسه مالاً لبعض الثُّغور ، فتأخَّرَ ، فتألمَ وبكىٰ علىٰ رؤوس النَّاس فجاءَهُ ابنُ نُجَيْد بألْفَي درهم ، فدعا له ، ثمَّ إنَّه نوَّهَ به ، وقال : قد رَجَوتُ لأبي عمرو بما فعل ، فإنَّه نابَ عن الجماعة ، وحمل كذا وكذا ، فقام ابنُ نُجَيْد ، وقال : لكن إنَّما حملتُ من مال أمي وهي كارهة ، فينبغي أن تردَّه لترضىٰ ، فأمر أبو عثمان بالكيس فَرُدَّ إليه ، فلمَّا جَنَّ الليلُ جاءَ بالكيسِ ، والتَمَسَ من الشيخ سترَ ذلك ، فبكىٰ ، وكان بعد ذلك يقول : أنا أخشىٰ من هِمَّة أبي عمرو[٣] .

---

(١) انظر السير : (أبو مسلم الخولاني) ٤/٧ـ ١٤ ، وانظر النزهة : ٣/٤٣٢

(٢) انظر السير : (أويس القرني) ٤/١٩ـ ٣٣ ، وانظر النزهة : ٥/٤٣٥

(٣) انظر السير : (ابن نجيد) ١٦/١٤٦ـ ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٢/١٢٧٥

٢ـ هدايةُ فَرد قد تكونُ عِزاً لأمَّة :

عن ابنِ عُمرَ وغيره ـ من وجوه جيدة ـ أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال : « اللّهمَّ أَعِزَّ الإسلامَ بعُمرَ بنِ الخطَّاب »[1] .

قال عِكْرِمَة : لَمْ يَزل الإسلام في اختفاءٍ حتىٰ أسلَمَ عُمرُ[2] .

قال ابنُ مَسْعود : ما زِلنا أعِزَّةً منذ أسْلَمَ عُمر[3] .

٣ـ الدُّعاةُ الصَّالِحُونَ بِهِم يَنْشُرُ اللهُ دِينَه :

قال إبراهيمُ بنُ بشَّار : سَمعتُ إبراهيمَ بنَ أدْهم يقول : وأيُّ دينٍ لو كان له رجال![4] .

٤ـ رِجَالُ العامَّة :

وقال إبراهيم بن سعيد الجَوْهري : قلتُ لأبي أسامة : أيُّهما أفضلُ : فُضَيل ابنُ عِيَاض ، أو أبو إسحاقَ الفَزاري ؟ فقال : كان فُضَيلُ رجلَ نفسه ، وكان أبو إسحاق رجلَ عامَّة[5] .

قال الجُبَّائي : قال لي الشيخُ عبد القادر الجيلاني : أتمنَّىٰ أن أكون في الصَّحاري والبَراري كما كُنتُ في الأول لا أرى الخَلقَ ولا يَروني ، ثم قال : أرادَ اللهُ منِّي منفعةَ الخَلق فقد أسلمَ علىٰ يديَّ أكثرُ من خمس مئة ، وتابَ علىٰ يديَّ أكثرُ من مئة ألف ، وهٰذا خيرٌ كثير[6] .

---

(١) انظر السير : (عُمر بن الخطاب) ، وانظر النزهة : ٢/٤٤ .
(٢) انظر السير : (عُمر بن الخطاب) ، وانظر النزهة : ٣/٤٤ .
(٣) انظر السير : (عُمر بن الخطاب) ، وانظر النزهة : ١/٤٥ .
(٤) انظر السير : (إبراهيم بن أدهم) ٧/ ٣٨٧ـ ٣٩٦ ، وانظر النزهة : ٩/٧٠٨ .
(٥) انظر السير : (أبو إسحاق الفزاري) ٨/ ٥٣٩ـ ٥٤٣ ، وانظر النزهة : ١/٧٩١ .
(٦) انظر السير : (الشيخ عبد القادر) ٢٠/ ٤٣٩ـ ٤٥١ ، وانظر النزهة : ٣/١٥٧٥ .

٥ـ انتِقالُ الدَّاعِيَةِ من بَلَدٍ لآخَرَ إذا تَطَلَّبَ الأمْرُ ذلكَ :

عن أبي بكر بن جابر خادم أبي داود السِّجِسْتاني ـ رحمه الله ـ قال : كنتُ مع أبي داود ببغداد ، فصلَّيْنا المغرب ، فجاءه الأميرُ أبو أحمدَ المُوَفَّق ـ يعني وليَّ العَهد ـ فدخل ، ثم أقبل عليه أبو داود ، فقال : ما جاء بالأمير في مثل هٰذا الوقت ؟ قال : خِلالٌ ثلاث قال : وما هي ؟ قال : تنتقلُ إلى البَصرة فتتَّخذَها وطناً ليرحلَ إليك طلبةُ العلم ، فتعمُر بك ، فإنها قد خَرِبَتْ ، وانقطَعَ عنها النَّاسُ ، لِمَا جَرَىٰ عليها من مِحْنَة الزِّنج فقال : هٰذه واحدة قال : وتَرْوي لأولادي « السُّنَن » قال : نعم ، هاتِ الثالثة قال : وتُفْرِد لهم مَجْلساً ، فإن أولاد الخلفاء لا يَقعُدون مع العامَّة قال : أمَّا هٰذه فلا سبيلَ إليها ، لأنَّ النَّاسَ في العِلم سَواء .

قال ابنُ جابر : فكانوا يحضُرُون ويقعُدون في كمٍّ حِيرِي ، عليه سِتْر ويسمعون مع العامَّة[١] .

٦ـ قَاعِدَةٌ في الدَّعْوَةِ :

قال ابنُ عُيَيْنَة : قال عَمرو بنُ العاص : ليس العاقلُ من يعرفُ الخيرَ من الشَّرِ ، ولكنْ هو الذي يعرفُ خَيرَ الشَّرَّيْن[٢] .

٧ـ مِنْ وَسَائِلِ الدَّعْوَةِ :

(أ) التَّآلُف :

عن المغيرة بن شبل ، قال : قال جَرير بنُ عبد الله : لما دَنَوتُ من المدينة ، أَنَخْتُ راحلتي ، وحَلَلْتُ عيبتي ، ولبستُ حُلتي ، ثم دخلتُ المسجد ، فإذا برسول الله صلى الله عليه وسلم يخطبُ ، فرماني النَّاسُ بالحدق فقلتُ لجليسي : يا عبد الله ، هل ذكرَ رسولُ الله من أمري شيئاً ؟ قال : نعم ، ذكَرَكَ بأحسنِ الذِّكر ، بينما هو يخطُبُ إذ

---

(١) انظر السير : (أبو داود السجستاني) ١٣/ ٢٠٣ـ ٢٢١ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٧١ .

(٢) انظر السير : (عمرو بن العاص) ٢/ ٥٤ـ ٧٧ ، وانظر النزهة : ٢/٣٣٦ .

عرضَ له في خُطبته ، فقال : « إنَّه سَيدخُلُ عليكم من هـٰذا الفَجِّ من خير ذي يَمَن ، ألا وإنَّ علىٰ وَجهه مسحةَ مَلَك » قال : حَمدتُ اللهَ .

قال الذهبيُّ : كان بَديعَ الحُسْنِ ، كاملَ الجَمَال .

وعن عديٍّ بن حاتم قال : لمَّا دخلَ - يعني جريراً - على النبي صلى الله عليه وسلم ، ألقىٰ له وسادةً فجلسَ على الأرض فقال النبي صلى الله عليه وسلم « أشهدُ أنَّك لا تبغِي عُلُواً في الأرض ولا فساداً » فأسلمَ ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم « إذا أتاكم كريمُ قومٍ فأكرِمُوه »[1] .

وعن صَفوانٍ قال : أتيتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم ، فأعطاني ، فما زال يُعطيني ، حتىٰ إنَّه لأحَبُّ الخَلقِ إليَّ[2] .

وعن ابن إسحاق قال : حدثنا عبدُ الله بن أبي بكر وغيرُه ، قالوا : أعْطَىٰ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم المؤلَّفةَ قلوبُهم فأعْطىٰ جُبَيْرَ بن مُطعم مئةً من الإبل[3] .

وعن حُصَين ، قال ابنُ عُمر : إنِّي لأخْرُجُ وما لي حاجةٌ إلاَّ أنْ أُسَلِّم على النَّاس ، ويُسَلِّمون عليَّ[4] .

وعن وَهب بن منبه قال : احتمالُ الذُّلِّ خيرٌ من انتصار يَزِيدُ صاحبَه قَمْأةً[5] .

وقال يونُس بن محمد المؤدِّب أخْبَرني زياد ، قال : كان زُبيدُ بن الحارث مؤذِّنَ مسجدِه ، فكان يقولُ للصِّبيان : تَعالوا فَصَلُّوا ، أَهَبْ لكم جَوزاً فكانوا يُصلون ثم يُحيطونَ به ، فقلتُ له في ذلك ، فقال : وما عليَّ أن أشْتري لهم جَوزاً بخَمسَة دَراهم ، ويتَعَوَّدون على الصَّلاة[6] .

---

(١) انظر السير : (جرير بن عبد الله) ٢/ ٥٣٠ـ٥٣٧ ، وانظر النزهة : ٣/٣٠٢ .
(٢) انظر السير : (صفوان بن أمية) ٢/ ٥٦٢ـ٥٦٧ ، وانظر النزهة : ٣/٣٠٥ .
(٣) انظر السير : (جبير بن مطعم) ٣/ ٩٥ـ٩٩ ، وانظر النزهة : ٣/٣٤١ .
(٤) انظر السير : (عبد الله بن عمر) ٣/ ٢٠٣ـ٢٣٩ ، وانظر النزهة : ٧/٣٦٩ .
(٥) انظر السير : (وهب بن منبه) ٤/ ٥٤٤ـ٥٥٧ ، وانظر النزهة : ١/٥٥٧ .
(٦) انظر السير : (زبيد بن الحارث) ٥/ ٢٩٦ـ٢٩٨ ، وانظر النزهة : ٢/٦٠٥ .

وقيل : دَخَلَ علىٰ مالك بن دينار لصٌّ ، فما وَجَدَ ما يأخُذُه ، فناداه مالك : لم تجد شيئاً من الدنيا ، فترغَبُ في شيءٍ من الآخرة ؟ قال : نعم، قال : توضأ وصَلِّ ركعتين ، ففعل ثم جلسَ وخَرجَ إلى المسجد فسُئِلَ مَنْ ذا ؟ قال : جاءَ ليسْرق ، فسَرَقناه[1] .

وقال أحمد بن أبي خيثمة : سمعتُ ابنَ معين يقول : كان علي ابن المَديني إذا قَدِم علينا ، أظْهَرَ السُّنة ، وإذا ذهبَ إلى البَصرة أظْهَرَ التَشَيُّعَ .

قال الذهبيُّ : كان إظهارُه لمناقب الإمام عليٍّ بالبصرة ، لمكان أنَّهم عُثمانيّة ، فيهم انحرافٌ علىٰ عليّ[2] .

وقال عبدُ الصمد بن سعيد القاضي : سَمعتُ محمّدَ بن عوف يقولُ : كُنتُ ألعبُ في الكَنيسة بالكرةِ وأنا حَدَثٌ ، فدخلت الكرةُ ، فوقعت قُربَ المُعَافَى بن عِمْران الحِمصيِّ ، فدخلتُ لأَخْذها ، فقال : ابنُ مَنْ أنتَ ؟ قلتُ : ابنُ عَوف بنُ سُفيان ، أمَا إنَّ أباكَ كان من إخْواننا فكان ممَّن يَكتُبُ معنا الحديثَ والعلمَ ، والذي كان يُشْبهُك أن تَتَّبعَ ما كان عليه والدُكَ فصِرتُ إلىٰ أمِّي فأخبرتُها فقالت : صَدقَ ، هو صَديقٌ لأبيك ، فألبَسَتني ثوباً وإزاراً ، ثم جِئتُ إلى المُعَافَىٰ ومعي مِحْبَرةٌ ووَرَقٌ ، فقالَ لي : اكتُب : حَدَّثَنا إسماعيلُ ابن عيَّاش بن عبد ربِّه بن سُليمَان[3] .

(ب) مَعْرِفَةُ أسْبابِ فَسَادِ النَّاسِ :

قال أبو العتاهية[4] :

إنَّ الشَّبَــابَ والفَــرَاغَ والجِــدَة	مَفْسَـــدةٌ للمَـــرءِ أيُّ مَفْسَـــدَة
حَسْبُــكَ ممَّــا تبْتَغِيــه القُــوتُ	مــا أكثَـرَ القُـوتَ لمــن يَمُــوتُ
هــيَ المَقَــاديــرُ فَلُمْنــي أو فَــذَرْ	إنْ كُنتُ أخطأتُ فما أخطَا القَدَرْ

(١) انظر السير : (مالك بن دينار) ٥/ ٣٦٢ـ٣٦٤ ، وانظر النزهة : ٨/٦٠٩ .

(٢) انظر السير : (علي بن المديني) ١١/ ٤١ـ٦٠ ، وانظر النزهة : ٦/٩٠٧ .

(٣) انظر السير : (محمد بن عوف) ١٢/ ٦١٣ـ٦١٦ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٤٠ .

(٤) انظر السير : (أبو العتاهية) ١٠/ ١٩٥ـ١٩٨ ، وانظر النزهة : ٥/٨٦٦ .

(ج) تَعْلِيمُ الصِّغارِ والتَّأثِيرُ فِيهِم :

جاء في « تاريخ الإماميّة » أنَّ ابنَ أبي طَيّ قال : كان الشيخُ المُفيد (محمّد بن محمّد بن النُّعمان) شيخ الرافِضَة أوْحدَ في جميع فُنون العلم : الأصْلَين ، والفِقْه ، والأخبار ، ومَعرفَة الرجال ، والتفسير ، والنَّحْو ، والشعر ، كان يُناظِرُ أهلَ كلِّ عَقيدة مع العَظَمة في الدولة البويهيّة ، والرُّتبةِ الجَسيمَة عند الخُلَفاء ، وكان قَويَّ النَّفْسِ ، كَثيرَ البرِّ ، عظيمَ الخُشوع ، كَثيرَ الصَّلاةِ والصَّوم ، يَلبَسُ الخَشن من الثِّياب ، وكان مديماً للمُطالعة والتَّعليم ، ومن أحْفَظ النَّاس ، قيل : إنَّه ما تَركَ للمُخالِفين كتاباً إلاَّ وحَفظَه ، وبهٰذا قَدَر علىٰ حَلِّ شُبه القَوم ، وكان من أحْرَص النَّاس على التعليم ، يَدورُ على المَكاتب وحَوانيت الحاكة فيتلمَّح الصَّبيَّ الفَطِن ، فيَسْتأجرُه من أبوَيْه ـ يعني فيُضِلَّه ـ قال : وبذلك كَثُر تلامذتُه[1] .

(د) تَخْصِيصُ بعض النَّاسِ بالعِلْمِ ، وكَوْنُ هٰذا العِلْمَ في البُيُوتِ :

قال أبو سعيد بن الأعرابي في « طبقات النُّسَّاك » : كان عامَّةُ مَنْ ذكرنا من النُّسَّاك يأتون الحَسَن البَصريّ ويَسمَعون كلامَه ويُذعِنُون له بالفِقه ، في هٰذه المعاني خاصة ، وكان عَمرو بن عُبَيد ، وعبد الواحد ابن زَيد من الملازمين له ، وكان له مجلسٌ خاصٌّ في مَنزِله ، لا يكاد يَتكلَّمُ فيه إلاَّ في مَعاني الزُّهد والنُّسك وعلوم الباطن ، فإنْ سألَه إنسانٌ غيرَها ، تبرَّم به وقال : إنَّما خَلَوْنا مع إخْوانِنا نتذاكَر ، فأمَّا حَلَقَتُهُ في المسجد فكان يمرُّ فيها الحديثُ ، والفقهُ ، وعلمُ القرآن ، واللُّغَة ، وسائر العلوم ، وكان ربَّما يُسأل عن التصوُّف فيُجيب ، وكان منهم مَنْ يصحَبُه للحديث ، ومنهم من يَصحَبُه للقرآن والبَيان ، ومنهم من يَصحَبُه للبلاغَة ، ومنهم من يَصحَبُه للإخلاص وعلمِ الخصوص ، كعَمرو بن عُبَيد ، وأبي جَهير ، وعبد الواحد بن زَيد ، وصالح المُرِّيّ ، وشُمَيط ، وأبي عُبَيدة النَّاجي ، وكل واحد من هٰؤلاء اشتهَرَ بحالٍ ـ يعني في العبادة[2] .

---

(١) انظر السير : (الشيخ المفيد) ١٧/ ٣٤٤ـ٣٤٥ ، وانظر النزهة : ٢/١٣٤٤ .

(٢) انظر السير : (الحسن البصري) ٤/ ٥٦٣ـ٥٨٨ ، وانظر النزهة : ٨/٥٦١ .

(هـ) الاقْتِداءُ :

قـال مـوسـى التيمـي : مـا رأيـتُ أحـداً أجمـعَ للـدِّيـنِ والمملكـةِ والشَّـرَفِ مـن عبد الرَّحمَـٰن بنِ أبان بن عُثمان بن عَفَّان وقيل : كان يَشتري أهلَ البيت فيَكسُوهم ويُعْتِقُهُم ويقولُ : أستعينُ بهم علىٰ غَمَراتِ الموت فماتَ وهو نائم في مسجده ، وقِيل : كان كَثير العبادة والتأله رآهُ عليٌّ ابن عبد الله بن عبَّاس فأعجَبهُ نُسُكُه وهَديُه ، فاقْتَدىٰ به في الخير[1] .

(و) من وَسَائِلِ الدَّعْوَةِ حَالَ الحَاجَةِ إليها :

١ـ السِّرِّيَّة :

قال إبراهيمُ بن رُسْتم : قال أبو حَمزة (السُّكَّريّ) : اختلَفْتُ إلىٰ إبراهيمَ الصَّائغ نيفاً وعشرين سنة ، ما علِم أحدٌ من أهل بيتي أين ذهبتُ ، ولا من أين جئتُ .

قال الذهبيُّ : لأنَّ إبراهيمَ الصَّائغ كان في السِّجن ، سجن المُسَوِّدة[2] ولا يذهبُ أحدٌ إليه إلاَّ مُتَخَفِّياً .

قال العبَّاس بن مُصعب المَرْوَزيُّ : كان أبو حَمزة مُستجَابَ الدَّعوة[3] .

وقال الصُّوليُّ : كان الإمام أبو عبد الله الخُزاعيّ ، وسَهل بن سلامة حين كان المأمون بخُراسان بايعا النَّاس على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ثم قَدِمَ المأمونُ فبايعه سهل ولَزِم ابنُ نصرٍ بيتَه ، ثم تحرَّكَ في آخر أيام الواثق ، واجتمعَ إليه خلقٌ يأمرون بالمعروف قال : إلىٰ أنْ مَلَكُوا بغداد وتعدَّىٰ رجلان مُوسِران من أصحابه فبذلا مالاً وعَزما على الوثُوب في سنة إحدىٰ وثلاثين فنمَّ الخبرُ إلىٰ نائب بغداد إسحاق بن إبراهيم ، فأخذَ أحمدَ وصاحبَيْه وجماعةً ، ووجدَ في منزِلِ أحدهما أعلاماً ، وضربَ خادماً لأحمد ، فأقرَّ بأنَّ هـٰؤلاء كانوا يأتون أحمدَ ليلاً ، ويُخبرونَه

(١) انظر السير : (عبد الرحمـٰن بن أبان) ٥/ ١٠ـ ١١ ، وانظر النزهة : ٢/٥٧٥ .
(٢) المُسَوِّدة : وهم العباسيون سُمّوا بذلك لأن شعارهم لبس السواد .
(٣) انظر السير : (أبو حمزة السُّكريّ) ٧/ ٣٨٥ـ ٣٨٧ ، وانظر النزهة : ٦/٧٠٦ .

بما عملوا فحُملوا إلىٰ سَامَرَّاء مُقيَّدين ، فجلسَ الواثقُ لهم ، وقال لأحمد : دَعْ ما أُخِذْت له ، ما تقولُ في القُرآنِ ؟ قال : كلامُ الله قال : أفمَخلوقٌ هو ؟ قال : كلامُ الله قال : فتَرَىٰ ربَّكَ في القيامة ؟ قال : كذا جاءت الرِّواية قال : ويْحَك يُرَىٰ كما يُرَى المحدودُ المُتَجَسِّم ، ويَحْويه مكانٌ ويَحْصُرُه ناظرٌ ؟ أنا كفرتُ بمَنْ هـٰذه صِفَتُه ، ما تَقُولون فيه ؟ فقال قاضي الجانب الغربي : هو حلالُ الدَّم ، ووافقَه فُقَهاءٌ ، فأظهَرَ أحمدُ بن أبي دُواد أنَّه كارهٌ لقتله وقال : شيخٌ مُخْتل ، تَغَيَّرَ عقلُه ، يُؤَخَّر قال الواثقُ : ما أراهُ إلا مُؤَدِّياً لكُفره قائماً بما يَعتقدُه ، ودعا بالصَّمْصَامَة وقام وقال : أحتسِب خُطَايَ إلىٰ هـٰذا الكافر فضَرَب عُنُقَه بعد أن مَدُّوا لَه رأسَه بحَبلٍ وهو مُقَيَّد ونُصِبَ رأسُه بالجانب الشَّرقي ، وتُتُبِّع أصحابُه فَسُجِنُوا[١] .

٢ـ الاختِفَاء :

جاء في ترجمة الإمام أبي عبد الله أحمد بن حَنبل الشَّيْبانيّ في فتنة الواثق : قال الإمامُ الذهبيُّ رَحمَه الله : قال حَنبلُ : لَم يَزلْ أبو عبد الله بعد أن بَرِىءَ من الضرب يَحضرُ الجُمُعة والجماعة ، ويُحدِّث ويُفتي ، حتىٰ مات المعتصم ووَليَ ابنُه الواثق فأظهَرَ ما أظهَرَ من المحْنة والميْل إلىٰ أحمد ابن أبي دُوَاد وأصحابِه فلمَّا اشتدَّ الأمرُ علىٰ أهل بغداد وأظْهَرت القُضاةُ المحنةَ بخَلْق القرآن ، وفُرِّق بين فَضلِ الأنماطيّ وبين امرأتِه ، وبين أبي صالح وبين امرأتِه ، كان أبو عبد الله يَشْهَد الجُمُعة ويُعِيدُ الصَّلاةَ إذا رَجَع ، ويقولُ : تُؤتى الجُمُعة لفَضلِها والصلاةُ تُعادُ خَلف مَنْ قال بهـٰذه المقالة[٢] .

وجاء نفرٌ إلىٰ أبي عبد الله وقالوا : هـٰذا الأمرُ قد فَشا وتَفاقَم ونحنُ نَخافُه علىٰ أكثَرَ من هـٰذا ، وذَكروا ابن أبي دُوَاد ، وأنَّه علىٰ أن يأمرَ المعلِّمين بتعليم الصِّبيان في المكاتب : القرآنُ كذا وكذا ، فنحن لا نَرضىٰ بإمارتِه فمنَعَهُم من ذلك ، وناظَرَهم وحكىٰ أحمدُ قَصْدَه في مناظرَتِهم ، وأمَرَهم بالصَّبر قال : فبَيْنا نحنُ في أيام الواثق إذ

---

(١) انظر السير : (الخُزاعيّ) ١١/١٦٦ـ١٦٩ ، وانظر النزهة : ٣/٩١٨ .

(٢) انظر السير : (أحمد بن حنبل) ١١/١٧٧ـ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ١/٩٤١ .

جاءَ يعقوبُ ليلاً برسالةِ الأمير إسحاق بن إبراهيم إلىٰ أبي عبد الله : يقول لك الأمير : إنَّ أميرَ المؤمنين قد ذَكَرَكَ فلا يَجْتَمعَنَّ إليك أحدٌ ، ولا تُسَاكِنِّي بأرضٍ ولا مدينةٍ أنا فيها ، فاذهبْ حيثُ شِئْتَ من أرضِ الله قال : فاختفىٰ أبو عبد الله بقيّة حياةِ الواثق وكانت تلك الفتنة ، وقُتل أحمدُ بنُ نصر الخُزاعيّ ولَمْ يَزَلْ أبو عبد الله مختفياً في البيت لا يَخرجُ إلى الصَّلاةِ ولا إلىٰ غيرِها حتىٰ هَلَكَ الواثقُ[1] .

وعن إبراهيم بن هانىء قال : اختفىٰ أبو عبد الله عندي ثلاثاً ثم قال : اطلبْ لي مَوضِعاً ، قُلتُ : لا آمَنُ عليكَ ، قال : افعلْ ، فإذا فعلتَ أفدتُكْ ، فطلبتُ له موضعاً ، فلمَّا خَرجَ قال : اخْتَفىٰ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم في الغارِ ثلاثةَ أيام ثم تحَوَّل[2] .

(ز) الشِّعْر :

عن ابن المسَيَّب قال : كان حسَّانُ بن ثابت في حلقةٍ فيهم أبو هُريرة ، فقال : أنشدُكَ الله يا أبا هُريرة ، هل سمعتَ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول : « أَجِبْ عَنِّي ، أيَّدَكَ الله برُوحِ القُدُس » ؟ فقال : اللّـهُمَّ نعم[3] .

وعن البَراء : أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال لحسَّان بن ثابت : « اهْجُهُم وهاجِهِم وجبريلُ معك »[4] .

عن أبي سَلَمة ، أنَّ حسَّانَ بن ثابت قال : والذي بعثكَ بالحق لأفرينَّهم بلساني هٰذا ، ثم أطلع لسانه كأنَّه حيَّة .

فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « إنَّ لي فيهم نَسَباً ، فائتِ أبا بَكر ، فإنَّه أعلمُ قريشٍ بأنْسَابِها ، فيُخَلِّص لك نَسَبي » ، قال : والذي بعثك بالحق لأسُلَّنَّكَ منهم

---

(١) انظر السير : (أحمد بن حنبل) ١١/ ١٧٧ـ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٢/٩٤١ .
(٢) انظر السير : (أحمد بن حنبل) ١١/ ١٧٧ـ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٣/٩٤١ .
(٣) انظر السير : (حسّان بن ثابت) ٢/ ٥١٢ـ٥٢٣ ، وانظر النزهة : ٧/٢٩٨ .
(٤) انظر السير : (حسّان بن ثابت) ٢/ ٥١٢ـ٥٢٣ ، وانظر النزهة : ٨/٢٩٨ .

ونَسَبَكَ سَلَّ الشَّعْرة من العَجين فهجَاهم فقال له رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم : « لقد شَفَيْتَ واشْتَفَيْتَ »[١] .

وعن محمد بن السَّائب بن بركة ، عن أُمِّه أنها طافَت مع عائشة ومعها نِسْوةٌ فوقَعْنَ في حَسَّان ، فقالت : « لا تسبُّوه ، قد أصَابَه ما قاله الله : ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ وقد عَمي ، والله إني لأرجو أن يُدخِلَه اللهُ الجَنَّةَ بكلماتٍ قالهنَّ لأبي سُفيان بن الحارث[٢] :

هَجَوتَ محمَّداً فأجَبْتُ عنه ... وعند الله في ذاكَ الجَزَاءُ

فإنَّ أبي ووالِدَه وعِرْضِي ... لِعِرضِ محمَّدٍ منكُم وِقَاءُ

أتَهْجُوهُ ولَسْتَ له بكفءٍ ... فشَرُّكُما لخَيْرِكُما الفِداءُ

وقال عبد الرحمـٰن بن كعب ، عن أبيه أنَّه قال : يا رسولَ الله ، قد أنْزَل اللهُ في الشُّعَرَاء ما أنزل قال صلى الله عليه وسلم : « إنَّ المُجَاهِدَ ، مُجَاهِدٌ بسَيْفِه ولسَانِه والذي نفسي بيَدِه لكأنَّكما ترمونَهم به نُضح النَّبل »[٣] .

قال ابنُ سيرين : أمَّا كعبٌ فكان يذكرُ الحربَ ويقول : فَعَلْنَا ونَفْعَلُ ويُهَدِّدُهم ، وأمَّا حسَّانُ فكان يذكرُ عُيوبهم وأيامَهم ، وأمَّا ابنُ رَوَاحَة فكان يُعَيِّرُهم بالكُفر[٤] .

وقد أسْلَمَتْ دوسٌ فرقاً من بيتٍ قاله كعب.

نُخَيِّرُها[٥] وَلَو نَطَقَتْ لَقَالَت ... قَواطِعُهُنَّ دَوْساً أو ثقيفا[٦]

---

(١) انظر السير : (حسّان بن ثابت) ٢/ ٥١٢ـ ٥٢٣ ، وانظر النزهة : ٢/٢٩٩ .

(٢) انظر السير : (حسّان بن ثابت) ٢/ ٥١٢ـ ٥٢٣ ، وانظر النزهة : ٣/٢٩٩

(٣) انظر السير : (كعب بن مالك) ٢/ ٥٢٣ـ ٥٣٠ ، وانظر النزهة : ٥/٢٩٩ .

(٤) انظر السير : (كعب بن مالك) ٢/ ٥٢٣ـ ٥٣٠ ، وانظر النزهة : ٢/٣٠٠ .

(٥) قوله (نخيرها) الضمير يعود إلى السيوف في البيت الذي قبله ، وهو :

قضينا من تهامة كل ريب ... وخيبر ثم أجمعنا السيوفا

(٦) انظر السير : (كعب بن مالك) ٢/ ٥٢٣ـ ٥٣٠ ، وانظر النزهة : ٢/٣٠٠ .

٨ـ من صِفاتِ الدَّاعِيَة :

(أ) التَّوازُن :

قال حمَّادُ بنُ سَلَمَة : حدثنا حَجَّاجُ الأسْود أنَّ مُعاوية بن قرة قال : مَنْ يدُلُّني علىٰ رجلٍ بَكَّاء بالليل ، بسَّام بالنهار[١] .

(ب) تَشْجِيعُ الغَيْرِ :

قال ابن جُريج عن عَطَاء بن أبي رَبَاح : إنَّ الرَّجلَ ليُحَدِّثُني بالحديث ، فأنْصِتُ له كأنِّي لم أسْمعْه ، وقد سمعتُه قبلَ أن يُولَد[٢] .

(ج) حُبُّ الوَحْدَةِ وكَرَاهِيَةُ الفُرْقَةِ :

قال موسى بن عُقْبة في « مَغازيه » : غَزوةُ عمرو بن العاص هي غَزوةُ ذات السلاسل من مَشارف الشّام فخاف عَمرو من جانبه ذلك فاسْتمدَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فانتدب أبا بكر وعُمر في سراة من المهاجرين فأمَّر نبيُّ الله صلى الله عليه وسلم عليهم أبا عُبَيْدَة ، فلمَّا قَدِموا علىٰ عَمرو بن العاص قال : أنا أميرُكم فقال المهاجرون : بل أنت أميرُ أصحابك ، وأميرُنا أبو عُبَيْدَة فقال عَمرو : إنما أنتم مددٌ أُمْدِدْتُ بكم فلمَّا رأىٰ ذلك أبو عُبَيْدَة ابن الجَرَّاح ، وكان رجلاً حَسَنَ الخُلُق ، ليِّن الشِّيمة ، مُتَّبعاً لأمرِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم وعَهْدِه ، فَسَلَّم الإمارةَ لعَمرو[٣] .

ولما تفرَّغ الصِّدِّيقُ من حرب الرِّدة ، وحرب مُسَيْلِمة الكذّاب جهَّز أُمراءَ الأجناد لفتح الشام فبعث أبا عُبَيْدَة ، ويزيدَ بنَ أبي سُفيان ، وعَمرو بنَ العاص ، وشُرَحْبيلَ بنَ حَسنة ، فتمَّت وقعةُ أجْنادين بقُرب الرملة ، ونصَرَ اللهُ المؤمنين فجاءت البُشْرى الصِّدِّيقَ في مرض الموت ، ثم كانت وَقعةُ فِحْل ، ووقعةُ مرج الصُّفَّر ، وكان قد سَيَّر أبو بكر خالداً لغَزو العراق ، ثم بعثَ إليه ليُنْجِدَ مَنْ بالشام ، فقطع المَفاوِزَ علىٰ برية

---

(١) انظر السير : (معاوية بن قرة) ٥/ ١٥٣ـ ١٥٥ ، وانظر النزهة : ٣/ ٥٩٤ .

(٢) انظر السير : (عطاء بن أبي رباح) ٥/ ٨٧ـ ٨٨ ، وانظر النزهة : ٣/ ٥٨٣ .

(٣) انظر السير : (أبو عبيدة بن الجرَّاح) ١/ ٥ـ ٢٣ ، وانظر النزهة : ٢/ ١٢٢ .

السماوة ، فأمَّره الصِّدّيقُ على الأمراءِ كلِّهم وحاصَروا دِمَشْقَ ، وتُوفِّي أبو بكر فبادَرَ عمرُ بعَزلِ خالدَ ، واسْتعملَ على الكُلِّ أبا عُبَيْدَة ، فجاءهُ التقليدُ ، فكتَمَه مُدّة ، وكل هٰذا من دينِه ولينِه وحلمِه ، فكان فتحُ دمشقَ علىٰ يده ، فعند ذلك أظهَرَ التقليدَ ، ليَعقِدَ الصُّلحَ للرُّوم ، ففَتَحُوا له باب الجابية صُلحاً ، وإذا بخالد قد افتَتَحَ البلدَ عُنوَةً من الباب الشَّرقي ، فأمضىٰ لهم أبو عُبَيْدَة الصُّلح .

فعن المغيرة : أنَّ أبا عُبَيْدَة صَالحَهُم علىٰ أنصَاف كنائسِهِم ومَنازِلِهم ، ثم كان أبو عُبَيْدَة رأسُ الإسلام يومَ وَقعة اليَرموك ، والتي استأصَلَ الله فيها جُيُوشَ الرُّوم ، وقُتلَ منهم خلقٌ عظيم[1] .

ومن أفضل أعمال عبد الرحمـٰن بن عَوْف عزلُ نفسِه من الأمر وقْتَ الشورىٰ ، واختيارُه للأمة مَنْ أشارَ به أهلُ الحِلِّ والعَقد ، فنهض في ذلك أتمَّ نُهوض علىٰ جَمع الأُمة علىٰ عُثمان بن عَفَّان ، ولو كان مُحَاباً فيها ، لأخَذَها لنفسه ، أو لَولاَّها ابنَ عمِّه وأقربَ الجماعة إليه سعدَ بن أَبي وَقَّاص[2] .

٩ـ من آدابِ الدَّعْوَةِ

(أ) عَدَمُ إطَالَةِ المَجْلِس :

عن الزُّهري ، قال : إذا طَالَ المجلسُ كان للشَّيْطانِ فيه نصيب[3] .

(ب) خَتْمُهُ بالدُّعاءِ :

عن اللَّيث : كان ابنُ شِهاب الزُهريّ يخْتِم حديثَه بدعاء جَامع ، يقول : اللَّهُمَّ أسألك من كلِّ خيرٍ أحَاطَ به علمُك في الدنيا والآخرة ، وأعُوذُ بك من كلِّ شرٍّ أحَاطَ به علمُك في الدنيا والآخرة وكان من أسخىٰ مَنْ رأيتُ ، كان يُعطي ، فإذا فرغ ما معه يَسْتَلفُ من عَبيده ، يقول : يا فلان أسْلِفني كما تعرف ، وأضْعِفُ لك كما تَعلم ،

---

(١) انظر السير : (أبو عبيدة بن الجرَّاح) ١/ ٥ـ ٢٣ ، وانظر النزهة : ٥/١٢٣ .
(٢) انظر السير : (عبد الرحمـٰن بن عوف) ١/ ٦٨ـ ٩٢ ، وانظر النزهة : ٤/١٣١ .
(٣) انظر السير : (أخبار الزهري) ٥/ ٣٢٦ـ ٣٥٠ ، وانظر النزهة : ٢/٦٠٧ .

وكان يُطعِمُ النَّاس الثَّرِيدَ ، ويسقيهم العَسلَ ، وكان يَسْمُرُ على العَسلِ كما يَسْمُرُ أهلُ الشَّرابِ علىٰ شَرابهم ، ويقول : اسقُونا وحدِّثُونا وكان يُكثِر شُربَ العَسل ، وسمعتُه يبكي على العِلْم بلسانه ، ويقول : يذهبُ العِلْمُ وكثيرٌ ممن كان يعملُ به فقلتُ له : لو وضَعتَ من علمك عند مَنْ تَرجو أن يكونَ لك خلفاً قال : واللهِ ما نَشَرَ أحدٌ العلمَ نَشْري ، ولا صَبَرَ عليه صَبْري ، ولقد كنَّا نجلسُ إلى ابن المسَيِّب ، فما يستطيعُ أحدٌ منَّا أن يسأله عن شيء نزل به إلاَّ أنْ يبتدىء الحديثَ ، أو يأتي رجلٌ يسأله عن شيءٍ قد نزلَ به[1] .

(ج) العُزْلَةُ الشُّعُورِيَّة :

عن هشامِ بنِ عُروة بن الزبير قال : لمَّا اتَّخَذ عُروة قَصرَه بالعَقيق[2] قال له النَّاسُ : جَفَوتَ مسجدَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم قال: رأيتُ مَساجدَهم لاهيةً ، وأسْواقَهم لاغِيةً ، والفاحِشَةَ في فِجَاجِهم عاليةً ، فكان فيما هنالك ـ عمَّا هم فيه ـ عافية .

وقيل : لمَّا فرغ من بنائه وبئاره[3] دعا جماعةً ، فَطَعِمَ النَّاسُ وجعلوا يُبرِّكون وينصرفون وبئرُ عُروة مَشهور بالعَقيق ، طيِّبُ الماء[4] .

وعن وُهَيب بن الوَرد ، قال : جاء رجلٌ إلىٰ وَهْب بن مُنَبِّه فقال : قد حدَّثتُ نفسي أن لا أُخالِطَ النَّاس ، قال : لا تفعلْ إنَّه لا بُدَّ لك من النَّاس ، ولا بُدَّ لهم منك ، ولهم إليك حَوَائج ولك نَحْوَها ، ولكن كُنْ فيهم أَصَمَّ سَميعاً ، أعمىٰ بَصيراً ، سَكُوتاً نَطُوقاً[5] .

وقيل لابن المبارك : إذا أنتَ صَلَّيْتَ لِمَ لا تجلسُ مَعَنا ؟ قال : أجلسُ مع الصَّحَابة والتابعين ، أنظُرُ في كُتبِهم وآثارِهم ، فما أصنعُ مَعَكُم ؟ أنتم تَغْتَابون النَّاس[6] .

---

(١) انظر السير : (أخبار الزهري) ٥/٣٢٦ـ٣٥٠ ، وانظر النزهة : ٦/٦٠٦ .
(٢) العَقيق : موضع بناحية المدينة .
(٣) بئاره : حفر آباره .
(٤) انظر السير : (عُروة) ٤/٤٢١ـ٤٣٧ ، وانظر النزهة : ١/٥٢٧ .
(٥) انظر السير : (وهب بن منبه) ٤/٥٤٤ـ٥٥٧ ، وانظر النزهة : ٩/٥٥٤ .
(٦) انظر السير : (عبد الله بن المبارك) ٨/٣٧٨ـ٤٢١ ، وانظر النزهة : ٦/٧٦٨ .

(د) مُخَالَطَةُ النَّاسِ بقَدَرْ :

قال يونُسُ بن عبد الأعلىٰ : سَمِعْتُ الشَّافعيَّ يقولُ : يا يونُس ؛ الانقِبَاضُ عن النَّاس مَكسَبَةٌ للعَدَاوة ، والانبساطُ إليهم مَجلَبَةٌ لقُرَناءِ السُّوء ، فكُن بين المُنقَبِض والمُنبَسِط[1] .

(هـ) إقْلالُ مُخَالَطَـةَ النَّاسِ إلاَّ لغَرَضٍ صَحِيحٍ :

قال الحُميديُّ :[2] .

لقَــاءُ النَّــاس ليْـسَ يُفِيـدُ شيئـاً	سِـوى الهَـذَيَـان مـن قِيـلٍ وقـالِ
فــأَقْلِــلْ مــن لِقَــاءِ النَّــاس إلاَّ	لأَخـذِ العِلـمِ أو إصْـلاحِ حـالِ

(و) مُراعَاةُ العُرْفِ :

رَوَىٰ سعيدُ بنُ عبد العزيز : عن أبي عبد رب : رأيتُ مُعاوية يخضِبُ بالصُّفرة كأنَّ لِحْيَتَه الذَّهب .

قال الذهبي : كان لائقاً في ذلك الزمان ، واليوم لو فُعل ، لاستُهجن[3] .

وقال الذهبي : بلغَنا أنَّ يَحيى بن يَحيىٰ أَوْصَىٰ بثياب بدنه لأحمدَ ابنِ حَنبل ، فلمَّا قَدِمَت علىٰ أحمدَ ، أخذَ منها ثوباً واحداً للبَركة ، وردَّ الباقي وقال : إنَّه لَيْس تفصيلَ ثيابه من زِيِّ بَلَدِنا[4] .

قال الحاكم : سمعتُ الأستاذ أبا الوليد يقول : قيل لأبي العبَّاس الدَّغولي : لم لا تَقنُتُ في صلاة الفَجر ؟ فقال : لراحَة الجَسَد ، وسُنَّة أهلِ البَلد ، ومداراةِ الأهْلِ والوَلَد .

وقال أبو بكر أحمد بن علي بن الحُسَين الحافظ : خَرَجْنا مع الإمام أبي بكر ابن

---

(١) انظر السير : (الإمام الشافعي) ١٠/ ٥ـ٩٩ ، وانظر النزهة : ٣/٨٥٣ .
(٢) انظر السير : (الحميدي) ١٩/ ١٢٠ـ ١٢٧ ، وانظر النزهة : ٣/١٤٦٩ .
(٣) انظر السير : (مُعاوية بن أبي سفيان) ٣/ ١١٩ـ ١٦٢ ، وانظر النزهة : ١/٣٤٨ .
(٤) انظر السير : (يحيى بن يحيىٰ) ١٠/ ٥١٢ـ٥١٩ ، وانظر النزهة : ٤/٨٨٩ .

خُزيمة إلىٰ سَمرقند لتَهنئة الأمير الشَّهيد ، والتَعزية عن الأمير أبي إبراهيم الماضي ، فلمَّا انصرفنا قلتُ لابن خُزيمة : ما رأينا في سفرنا مثل أبي العبَّاس الدَّغولي فقال أبو بكر : ما رأيت أنا مثل أبي العبَّاس .

قال الذهبي : ما أطلقَ ابن خُزيمة هـٰذا القَول إلاَّ عن أمرٍ كبير من سَعةِ علم أبي العبَّاس رحمه الله[1] .

(ز) الصَّبْرُ على المُتعَلِّمين :

قال أبو حاتم : عبد الله بن مَسلَمَة بن قَعْنَب ، ثقةٌ حُجَّة لم أرَ أخشَع منه ، سألناه أن يَقْرأ عَلينا « المُوَطَّأ » فقال : تعالَوا بالغَداة ، فقُلنا : لنا مجلس عند حجَّاج بن مِنْهال ، قال : فإذا فرغتم منه قلنا نأتي حينئذٍ مسلم بن إبراهيم قال : فإذا فرغتُم قلنا : نأتي أبا حُذيفة النَّهْدي قال : فبعَد العَصْر قلنا : نأتي عارماً أبا النُّعمان ، قال : فبعد المغرب فكان يأتينا بالليل فيخرُج علينا وعليه كَبلٌ[2] ما تَحْته شيءٌ في الصَّيف ، فكان يقرأ علينا في الحر الشديد حينئذٍ .

قال عمرو بن علي بن الفلاَّس : كان القَعْنَبيُّ مُجابَ الدَّعوَة[3] .

١٠ـ القُدْواتُ لا يَأخُذونَ بالتَّقيَّة :

قال محمد بن إبراهيم البُوشَنْجي : جعلوا يُذاكرون أبا عبد الله (أحمدَ ابن حنبل) بالرَّقة في التَّقيَّة وما رُوي فيها ، فقال : كيف تصنعون بحديث خَبَّاب : « إنَّ مَنْ كان قَبلَكم كان يُنشَرُ أحدُهم بالمِنْشار ، لا يَصُدُّه ذلكَ عن دينِه » فأيسْنا منه[4] .

قال أبو عبد الله : ما رأيتُ أحداً علىٰ حَدَاثة سِنِّه ، وقدْرِ عِلمه أقومَ بأمر الله من محمد بن نوح ، إني لأرجو أن يكون قد خُتم له بخير قال لي ذات يوم : يا أبا

---

(١) انظر السير : (الدَّغولي) ١٤/ ٥٥٧ـ ٥٦٢ ، وانظر النزهة : ٦/١١٧٢ .
(٢) الكبل : الفرو الكبير .
(٣) انظر السير : (القَعْنَبي) ١٠/ ٢٥٧ـ ٢٦٤ ، وانظر النزهة : ٨٧٥/ ٢ .
(٤) انظر السير : (أحمد ابن حنبل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ١/٩٣٤ .

عبد الله ، اللهَ اللهَ ، إنَّك لستَ مثلي أنت رجلٌ يُقتَدىٰ بك قد مَدَّ الخَلقُ أعناقَهم إليك ، لِمَا يكون منك ، فاتَّقِ اللهَ واثبُت لأمر الله ، أو نحو هٰذا فماتَ وصَلَّيتُ عليه ودفنتُه .

قال صالحُ : وصارَ أبي إلىٰ بغداد مُقيَّداً ، ثم حُبسَ في دارٍ اكتُريت عند دار عُمارة ثم حُوِّلَ إلىٰ حَبسِ العامَّة في درب المَوْصِليَّة فقال : كنتُ أُصَلي بأهل السِّجن وأنا مُقيَّد فلمَّا كان في رمضان سنة تسع عشر ـ قلتُ : وذلك بعد موت المأمون بأربعة عشر شهراً ـ حُوِّلتُ إلىٰ دار إسحاق بن إبراهيم ، يعني : نائب بغداد .

فلمَّا كان في الليلة الرابعة ، وَجَّه ـ يعني المعتصم ـ بِبُغا الكبير إلىٰ إسحاقَ فأمَرَه بحَملي إليه ، فأُدخِلتُ علىٰ إسحاق فقال : يا أحمد إنَّها والله نفسُك ، إنَّه لا يقتُلُك بالسَّيف ، إنَّه قد آلىٰ إنْ لمْ تُجبْه أن يضربَك ضرباً بعد ضرب ، وأن يقتُلَك في موضع لا يُرىٰ فيه شمسٌ ولا قمر أليس قد قال الله تعالىٰ : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[1] أفيَكُون مَجعُولاً إلاَّ مَخلُوقاً ؟ فقلتُ : فقد قال تعالىٰ : ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾[2] أفَخَلقَهم ؟ قال : فسَكَتَ ، فلمَّا صِرنا إلى المَوضِع المَعْروف بباب البُستان أُخْرِجتُ وجِيء بدابَّة فأُركِبتُ وعليَّ الأقياد ، ما معي من يُمسكُني ، فكِدتُّ غيرَ مرَّة أن أخِرَّ علىٰ وجهي لثِقَل القُيود فجِيء بي إلىٰ دار المعتصم ، فأُدخِلتُ حُجرة ، ثم أُدخِلتُ بيتاً وأُقفلَ البابُ عليَّ في جَوف الليل ولا سِرَاج ، فأردتُ الوُضوء ، فمددت يدي ، فإذا بإناءٍ فيه ماء ، وطست موضوع ، فتَوضأتُ وصَليتُ .

فلمَّا كان من الغد ، أَخرَجتُ تكَّتي وشَددتُ بها الأقيادَ أحملها وعطفتُ سَراويلي فجاءَ رسولُ المعتصم ، فقال أجِبْ ، فأخذَ بيدي وأُدخِلتُ عليه والتِّكَّة في يدي ، أحملُ بها الأقياد ، وإذا هو جالسٌ وأحمدُ بنُ أبي دُوَاد حاضرٌ ، وقد جَمَعَ خَلقاً كثيراً من أصحابه فقال لي المعتصم : ادنُه ادنُه ، فلم يَزَل يُدنيني حتىٰ قَربتُ منه ، ثم قال : اجْلس فجَلستُ ، وقد أثقلَتني الأقْياد ، فمكثتُ قليلاً ثم قُلتُ : أتأذن في الكلام ؟ قال : تَكلَّم ، فقُلتُ : إلىٰ ما دعا اللهُ ورسولُه ؟ فسكتَ هُنَيَّة ، ثم قال : إلىٰ شَهادةِ أن

---

(١) سورة الزخرف ، الآية (٣) .

(٢) سورة الفيل ، الآية (٥) .

لا إلـه إلاَّ الله ، فقلتُ : فأنا أشهدُ ألاَّ إلـه إلاَّ الله ثم قلتُ : إنَّ جَدَّك ابنَ عبَّاس يقول : لما قَدمَ وفدُ عبد القيس علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سألوه عن الإيمان ، فقال : « أتَدرُونَ ما الإيمان ؟ » قالوا : اللهُ ورسولُه أعلم قال : « شَهادةُ أن لا إلـهَ إلاَّ اللهَ ، وأنَّ محمداً رسولُ الله ، وإقامِ الصَّلاة ، وإيتاءِ الزَّكاة ، وأن تُعطوا الخُمسَ من المَغنَم » قال أبي : فقال ـ يعني المعتصم ـ : لولا أنِّي وجَدتُك في يد مَنْ كان قَبلي ، ما عَرضتُ لك[1] .

عن الرَّبيعِ بنِ سُليمان قال : كان الإمام يوسُف بنُ يحيى البُوَيْطي حين مَرض الشَّافعيُّ بمصر هو وابن عبد الحَكم والمُزني ، فتنازعوا الحلقة ، فبلغ ذلك الشَّافعي ، فقال : الحلقة للبُوَيْطي فلهـٰذا اعتزل ابن عبد الحكم الشَّافعيَّ وأصحابه ، وكانت أعظم حلقة في المسجد فكان البُوَيْطي يصومُ ، ويتلو غالباً في اليوم والليلة خَتمَةً مع صنائع المعروف إلى النَّاس[2] .

فسُعِيَ بالبُوَيْطي حتىٰ كَتَبَ فيه ابن أبي دُوَاد إلىٰ والي مصر ، فامتَحَنَه فلم يُجب ، وكان الوَالي حَسَنَ الرَّأي فيه ، فقالَ له : قل فيما بيني وبينك ، قال : إنَّه يَقتَدي بي مائة ألف ، ولا يَدرُون المعنىٰ ، قال : وقد كان أُمِرَ أن يُحمَل إلىٰ بغداد في أربعين رِطل حَديد[3] .

١١ـ قلـَّةُ الزِّيارةِ بين الدُّعاةِ لا تَعنِي وجُودَ جَفَاء :

قال أحمدُ بن محمد بن الصَّقْر ، سمعتُ أبا الحَسَن بن قريش يقولُ : حَضرتُ إبراهيمَ الحربي ـ وجاءَه يوسُفُ القاضي ، ومعه ابنُه أبو عُمَر ـ فقال له : يا أبا إسحاق ، لو جئناك علىٰ مقدار واجب حقِّك ، لكانت أوقاتُنا كُلُّها عندك فقال : ليس كلُّ غَيْبَة جَفْوَةً ، ولا كلُّ لقاءٍ مَوَدَةً ، وإنَّما هو تَقَارُب القُلوب[4] .

---

(١) انظر السير : (أحمد ابن حنبل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٤/٩٣٤ .
(٢) انظر السير : (البُويطي) ١٢/ ٥٨ـ ٦١ ، وانظر النزهة : ٤/٩٨١ .
(٣) انظر السير : (البُويطي) ١٢/ ٥٨ـ ٦١ ، وانظر النزهة : ١/٩٨٢ .
(٤) انظر السير : (إبراهيم الحربي) ١٣/ ٣٥٦ـ ٣٧٢ ، وانظر النزهة : ٤/١٠٩٤ .

١٢ـ صُورٌ من الدَّعْوَةِ :

عن عِكرمة قال : قَدِمَ مُصعبُ بنُ عُمَير المدينة يُعَلِّم النَّاسَ فبعثَ إليه عَمرو ابن الجَموح ، ما هٰذا الذي جِئتُمونا ؟ قالوا : إنْ شِئتَ جئناكَ ، فأَسْمَعنَاكَ القُرآن قال : نعم فَقَرَأَ صَدْراً من سُورة يُوسُف فقال عَمرو : إنْ لنَا مؤامرةً في قومنا ـ وكان سَيِّد بني سلمة ـ فخرجوا ، ودخلَ علىٰ مَنَاف فقال : يا مَنَاف ، تعلمُ والله ما يُريدُ القومُ غيرَك ، فهل عنك من نكير ؟ قال : فَقَلَّدَه السَّيفَ وخرجَ ، فقامَ أهلُه فأخذوا السَّيفَ ، فلمَّا رجعَ قال : أين السَّيفُ يا مَنَاف ؟ ويحَك! إنَّ العَنزَ لتمنعُ اسْتَها والله ما أرىٰ في أبي جعار غداً من خير ثم قال لهم : إنِّي ذاهبٌ إلىٰ مالي فاسْتَوْصُوا بمَنَاف خيراً فذهبَ ، فأخذوه فكَسَروه وربَطُوه مع كلبٍ ميِّتٍ ألقَوه في بئر ، فلمَّا جاء قال : كيف أنتم ؟ قالوا : بخير يا سَيِّدَنا طَهَّرَ الله بُيُوتَنا من الرِّجْس ، قال : والله إني أراكم قد أسأتم خِلافتي في مَنَاف قالوا : هو ذاك ، انظُر إليه في ذلك البئر فأشرَفَ فرآه ، فبعث إلىٰ قومه فجاؤوا فقالوا : ألستم علىٰ ما أنا عليه ؟ قالوا : بلىٰ أنت سَيِّدُنا قال : فأُشهِدُكم أنِّي قد آمنت بما أُنزلَ علىٰ محمَّد[١] .

وأسلمَ سعدُ بن مُعاذ علىٰ يد مُصعب بن عمير فقال ابنُ إسحاق : لمَّا أسلَمَ وقفَ علىٰ قومه ، فقال : يا بني عبد الأشْهَل كيف تعلمون أمري فيكم ؟ قالوا : سَيِّدُنا فضلاً ، وأيمَنُنا نقيبةً قال : فإنَّ كلامَكُم عليَّ حرام ، رجالُكم ونساؤكم حتىٰ تُؤمِنوا بالله ورسُولِه قال : فوالله ما بقي في دار بني عبد الأشْهَل رجلٌ ولا امرأةٌ إلاَّ وأسلموا[٢] .

وقال أبو الزَّاهِريَّة : كان أبو الدَّرداء من آخرِ الأنصار إسْلاماً ، وكان يَعبدُ صَنماً ، فدخلَ ابنُ رواحة ، ومحمدُ بن مَسْلمة بيتَه فكَسَرا صَنَمَه ، فرجعَ فجعلَ يجمع الصَّنَمَ ويقولُ : ويْحَكَ! هلاَّ امْتَنعتَ! ألا دَفَعْتَ عن نفسك! ، فقالت أمُّ الدَّرداء : لو كان يَنفعُ أو يَدفعُ عن أحدٍ لَدفعَ عن نفسه ونفعها!!

---

(١) انظر السير : (عَمرو بن الجموح) ١/ ٢٥٢ـ ٢٥٥ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٧ .

(٢) انظر السير : (سعد بن مُعاذ) ٢٧٩ ـ ٢٩٧ ، وانظر النزهة : ١/١٦٣ .

فقال أبو الدَّرداء : أعدِّي لي ماءً في المغتَسَل ، فاغتَسَلَ ، ولبسَ حُلَّتَه ، ثم ذهب إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم فنظرَ إليه ابنُ رَوَاحة مُقبلاً ، فقال : يا رسولَ الله ، هٰذا أبو الدّرداء ، وما أراه إلا جاءَ في طلبنا فقال صلى الله عليه وسلم : « إنمَّا جاءَ ليُسلِم ، إنَّ رَبِّي وَعَدَني بأبي الدَّرداءِ أن يُسلِم »[1] .

وقال مسلمُ بن إبراهيم : حدَّثنا إياسُ بن أبي تميمة : شهدتُ الحسنَ البَصْري في جنازة أبي رجاء علىٰ بغلة ، والفَرَزْدقُ إلىٰ جنبه علىٰ بَعِير ، فقال له الفَرَزْدقُ : قد استشرفَنا النَّاس يقولون : خيرُ النَّاس وشَرُّ النَّاس ، قال : يا أبا فراس ، كم من أشعثَ أغبَرَ ، ذي طِمرَين ، خيرٌ منِّي ، وكم من شيخٍ مُشرِكٍ أنتَ خيرٌ منه ، ما أعدَدتَ للموت ؟ قال : شهادةُ أن لا إلَـه إلاَّ الله قال : إنَّ معها شُروطاً ، فإيَّاك وقَذفُ المُحْصَنَة ، قال : هل من توبةٍ قال : نعم[2] .

وقال أبو محمد الخَلاَّل : قال لي ابنُ سَمْعون : ما اسمُك ؟ قلتُ : حَسَن قال : قد أعطاكَ الله الاسم فَسَلْهُ المعنىٰ[3] .

١٣ـ فِقْهُ الخِلافِ :

(أ) الاختِلافُ لا يمنَعُ الحُبَّ في الله :

قال أبو بكر بن عياش عن عاصم : كان أبو وائل عُثمانياً وكان زِرُّ ابنُ حُبَيش عَلَويّاً ، وما رأيت واحداً منهما قطُّ تكلَّم في صاحبه حتىٰ ماتا وكان زرٌّ أكبرُ من أبي وائل ، فكانا إذا جلسا جميعاً لم يُحَدِّث أبو وائل مع زرٍّ ـ يعني يتأدب معه لِسنِّه[4] .

وعن الأعمش قال : أدركتُ أشياخَنا زِراً وأبا وائل ، فمنهم مَنْ عثمانُ أحبُّ إليه من عليٍّ ، ومنهم مَنْ عليٌّ أحبُّ إليه من عثمان وكانوا أشَدَّ شيءٍ تحاباً وتواداً .

---

(١) انظر السير : (أبو الدَّرداء) ٢/ ٣٣٥ـ٣٥٣ ، وانظر النزهة : ٣/٢٦٩ .
(٢) انظر السير : (الحسن البصري) ٤/ ٥٦٣ـ٥٨٨ ، وانظر النزهة : ٣/ ٥٦٢ .
(٣) انظر السير : (ابن سمعون) ١٦/ ٥٠٥ـ ٥١١ ، وانظر النزهة : ٢/١٣١٠ .
(٤) انظر السير : (زرُّ بن حُبيش) ٤/١٦٦ـ ١٧٠ ، وانظر النزهة : ٥/٤٧٠ .

وعن عاصم قال : مرَّ رجلٌ علىٰ زرٍّ وهو يؤذِّن فقال : يا أبا مريم قد كنتُ أُكرمُك عن ذا ، قال : إذاً لا أكلمُك كلمةً حتىٰ تلحقَ بالله .

وعن إسماعيل ، قلتُ لزرٍّ : كم أتىٰ عليك ؟ قال : أنا ابن مائة وعشرين سنة .

وعن الشّعبي : أنَّ زرّاً كتبَ إلىٰ عبدِ الملك بن مَرْوان كتاباً يعظُه[1] .

وقال يونس الصَّدَفيُّ : ما رأيت أعقلَ من الشَّافعي ، ناظرتُه يوماً في مسألة ، ثم افترقنا ، ولَقيَني ، فأخذ بيدِي ، ثم قال : يا أبا موسىٰ ، ألا يستقيمُ أن نكون إخواناً وإنْ لمْ نَتفقْ في مَسألة .

قال الذهبي : هـٰذا يدل علىٰ كمال عقل هـٰذا الإمام وفقهِ نَفسِه ، فما زالَ النُّظَرَاء يختلِفُون[2] .

(ب) تَركُ بعْضِ السُّنَن حِفاظاً على الوُدِّ ومَنْعاً للخِلافِ :

قال الحاكم : أخبَرَنا أبو عبد الله محمدُ بن يعقوب ، سمعتُ أبا عمرو المستملي ، سمعتُ محمد بن رافع يقول : كنتُ مع أحمدَ ابنِ حَنبل وإسحاق عند عبد الرَّزَّاق ، فجاءنا يوم الفطر ، فخرجنا مع عبد الرَّزَّاق إلى المُصَلَّىٰ ومعنا ناسٌ كثير فلمَّا رجعنا من المُصَلَّىٰ دعانا عبد الرزَّاق إلى الغَداء ، فجعلنا نتغذىٰ معه ، فقال لأحمد وإسحاق : رأيتُ اليومَ منكما شيئاً عجيباً ، لم تُكبِّرا ! ، قالا : يا أبا بكر ، نحن ننظرُ إليك هل تُكبِّر ، فلمَّا رأيناكَ لم تُكَبِّر أَمْسَكنَا قال : وأنا كنتُ أنظرُ إليكما هل تُكَبِّران فأُكَبِّر[3] .

(ج) الاخْتِلافُ رَحْمَةٌ :

قال يَحيى القطَّان : فُقَهَاءُ المدينة عَشرةٌ ، ذكر منهم القاسم ابن محمد رَوَىٰ أفلحُ بن حُميد عن القاسم قال : اختلافُ الصحابةِ رحمة[4] .

---

(١) انظر السير : (زرُّ بن حُبيش) ٤/١٦٦ـ ١٧٠ ، وانظر النزهة : ٦/٤٧٠ .
(٢) انظر السير : (الإمام الشافعي) ١٠/ ٥ـ ٩٩ ، وانظر النزهة : ٢/٨٤٦ .
(٣) انظر السير : (محمد بن رافع) ١٢/ ٢١٤ـ ٢٢١ ، وانظر النزهة : ٢/٩٩٥ .
(٤) انظر السير : (القاسم بن محمد) ٥/٥٣ـ ٦٠ ، وانظر النزهة : ٨/٥٧٩ .

عن أبي يزيد البَسطاميّ قال : ما وَجدتُ شيئاً أشَدَّ عليَّ من العِلم ومتابَعَته ، ولولا اختلافُ العلماء لبَقيتُ حائراً[1] ،[2] .

(د) الاخْتِلافُ لا يَمْنَعُ قَولَ الحَقِّ وإنْصَافَ المُخْتَلَفِ مَعَهُ :

قال أحمدُ بنُ حَفص السعدي ، شيخُ ابن عدي : سمعتُ أحمدَ ابنَ حَنبل يقول : لَم يَعْبُر الجسرَ إلىٰ خُراسان مثل إسحاق ـ يعني ابن راهَوَيْه ـ وإن كان يخالفُنا في أشياءَ ، فإنَّ النَّاس لم يزلْ يُخَالِفُ بعضُهم بعضاً[3] .

* * *

---

(١) حلية الأولياء : ١٠/٣٦ ، وتتمة الخبر : واختلاف العلماء رحمة إلا في تجريد التوحيد .

(٢) انظر السير : (أبو يزيد البسطامي) ١٣/٨٦ـ ٨٩ ، وانظر النزهة : ٣/١٠٥٤ .

(٣) انظر السير : (إسحاق بن راهويه) ١١/٣٥٨ـ ٣٨٣ ، وانظر النزهة : ٤/٩٥٢ .

ثانياً : العبادة

١ـ ضَابطٌ في الجَمْعِ بينَ أمُورِ الدُّنيا وأمُورِ الآخِرَةِ :

عن خَيثمة : قال أبو الدَّرداء : كنتُ تاجراً قبل المبعَث ، فلمَّا جاءَ الإسلامُ جمعتُ التجارةَ والعبادةَ ، فلَم يَجتَمعا ، فتركتُ التجارةَ ولَزِمتُ العبادة[١] .

قال الذهبي : الأفضلُ جمعُ الأمرين مع الجهاد ، وهـٰذا الذي قاله هو طريقُ جماعة من السَّلف والصُّوفية ، ولا ريبَ أنَّ أمْزِجَةَ النَّاس تختلفُ في ذلك ، فبعضُهم يَقوَىٰ على الجمع بين أمور الدنيا والآخرة كالصِّديق ، وعبد الرحمـٰن بن عوف ، وكما كان ابنُ المبارك ، وبعضُهم يَعجِزُ ويقتَصِرُ على العبادة ، وبعضُهم يَقوَىٰ في بدايته ، ثم يَعجِزُ ، وبالعكس ، وكلٌّ سائغٌ ولكن لا بُدَّ من النهضة بحُقوق الزَّوجة والعيال .

وعن إسماعيلَ بنِ عُبيدِ الله قال : بينا أبو ثَعلبَة الخُشَني وكعبٌ جالسَان ، إذ قال أبو ثعلبة : يا أبا إسحاق ، ما من عبد تَفَرَّغَ لعبادة الله إلاَّ كَفَاهُ اللهُ مَؤُونة الدنيا قال كعبٌ : فإن في كتاب الله المُنزَّل : مَنْ جَعَلَ الهُمومَ هَماً واحداً ، فجَعَله في طاعة اللهِ ، كفاهُ اللهُ ما هَمَّه ، وضمن السماوات والأرض ، فكان رزقُه على الله وعملُه لنفسه ومَنْ فَرَّقَ هُمومَه ، فجَعَلَ في كلِّ وادٍ هَمَّاً ، لَمْ يُبَالِ اللهُ في أيِّها هَلَك[٢] .

قال الذهبيُّ : من التفرُّغ للعبادة السَّعيُ في السَّبَب ، ولا سيما لمن له عِيال ، قال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم : « إنَّ أفضَلَ ما أكَلَ الرَّجُلُ من كَسْبِ يَمِينِه »

أمَّا مَنْ يَعجِزُ عن السَّبب لضَعفٍ ، أو لقِلَّةِ حِيلَةٍ ، فقد جَعَلَ اللهُ له حظاً في الزَّكاة .

---

(١) انظر السير : (أبو الدّرداء) ٢/ ٣٣٥ـ ٣٥٣ ، وانظر النزهة : ٢/٢٦٩ .

(٢) انظر السير : (أبو ثعلبة الخشني) ٢/ ٥٦٧ـ ٥٧١ ، وانظر النزهة : ٦/٣٠٥ .

٢ـ تَوطينُ النَّفسِ على الاسْتعْدادِ للعِبَادَةِ :

قال سعيدُ بن عامر ، عن سَلام بن أبي مُطيع أو غيره قال : ما كان يونُس بن عُبيد بأكثرِهم صَلاةً ولا صَوماً ، ولكن لا والله ما حَضَرَ حقٌّ لله إلاَّ وهو مُتَهَيِّءٌ له[١] .

٣ـ العِبَادةُ المِثَاليَّة :

عن عبد الله بن عَمرو ، قال : جَمعتُ القرآنَ ، فقرأتُه كُلَّه في ليلة واحدة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اقرَأْهُ في شَهْر » قلتُ : يا رسولَ الله دَعني أَسْتمتعُ من قُوَّتي وشَبابي ، قال صلى الله عليه وسلم : « اقرَأْهُ في عشرين » قلتُ : دَعني أَسْتمتعُ قال صلى الله عليه وسلم : « اقرَأْهُ في سَبعِ ليالٍ » قلتُ : دَعني يا رسولَ الله أَسْتمتعُ قال : فأَبَىٰ .

وصَحَّ أَنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم نازَلَهُ إلىٰ ثلاثِ ليالٍ ، ونَهَاهُ أن يَقرَأه في أقلَّ من ثلاثٍ ، وهـٰذا كان في الذي نَزَلَ من القرآن ، ثم بعد هـٰذا القول نَزَلَ ما بقِيَ من القرآن فأقلُّ مراتبِ النَّهي أن تُكرهَ تلاوةُ القرآن كلِّه في أقلَّ من ثلاثٍ ، فما فَقُهَ ولا تَدبَّرَ من تَلا في أقلَّ من ذلك ، ولو تَلا ورَتَّلَ في أُسبُوعٍ ولازَمَ ذلك لكان عملاً فاضلاً ، فالدِّينُ يُسْر ، فواللهِ إنَّ ترتيلَ سُبُعِ القرآن في تَهَجُّد قِيَام اللَّيل مع المحافظةِ على النَّوافل الراتبة ، والضُّحىٰ ، وتحية المسجد ، مع الأذكار المأثورة الثابتة والقول عند النَّوم واليقظة ، ودُبُرَ كلّ صلاة مكتوبة والسَّحر ، مع النَّظر في العِلم النَّافع والاشْتِغَال به مُخلصاً لله ، مع الأمر بالمعروف وإرشاد الجاهل وتَفهيمِه ، وزَجْر الفاسِق ، ونَحْو ذلك ، مع أداء الفرائض في جماعة بخُشُوع وطُمأنينة وانكسارٍ وإيمان ، مع أداء الواجب ، واجتناب الكبائر ، وكثرة الدعاء والاستغفار والصَّدقة وصِلة الرَّحم والتَّواضُع والإخْلاص في جميع ذلك ، لشُغلٌ عظيم جَسيم ، ولَمَقَامُ أصحاب اليَمين وأولياء الله المُتَّقين ، فإنَّ سائر ذلك مطلُوب فمتىٰ تَشَاغَلَ العابِد بخَتمَةٍ في كلِّ يوم ، فقد خالفَ الحَنيفية السَّمحة ، ولم يَنهضْ بأكثرِ ما ذكرناه ولا تَدبَّرَ ما يَتلُوه .

---

(١) انظر السير : (يونس بن عُبيد) ٦/ ٢٨٨ـ٢٩٦ ، وانظر النزهة : ١/ ٦٥٢ .

هـٰذا السَّيدُ العَابِدُ الصَّاحبُ كان يقولُ لمَّا شَاخَ : ليتَني قَبلتُ رخصةَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكذلك قالَ عليه السلام في الصَّوم ، وما زالَ يُنَاقِصه حتىٰ قال صلى الله عليه وسلم له : « صُمْ يَوماً وأَفْطِر يوماً ، صَومَ أخي داود عليه السلام » .

وكلُّ مَن لم يُلزِمْ نفسَه في تَعَبُّدِه وأَورَادِه بالسُّنة النَبَويّة الصحيحة ، يَندم ويَترَهَّب ويَسوءُ مِزَاجُه ويَفُوتُه خيرٌ كثير من متابَعَة سُنَّة نَبيِّه الرَّؤوفِ الرَّحيمِ بالمؤمنين ، الحَرِيصِ علىٰ نَفعِهم ، وما زالَ صلى الله عليه وسلم مُعَلِّماً للأمة أفضَلَ الأعمال ، وآمراً بهَجرِ التبتُّل والرَّهبَانيَّة التي لَم يُبعَث بها ، فنَهَىٰ عن سَردِ الصَّوم ، ونَهَىٰ عن الوِصَال ، وعن قِيَام أكثر الليل إلاَّ في العَشر الأخير من رمضان ، ونَهَىٰ عن العُزبَة للمُستطيع ، ونَهَىٰ عن ترك اللَّحم إلىٰ غير ذلك من الأوامر والنَّواهي ، فالعَابدُ بلا مَعرِفَة لكثير من ذلك مَعذُورٌ مَأجُور ، والعَابدُ العالِمُ بالآثار المحمَّدية ، المُتَجاوِز لها مَفضُول مَغرُور ، وأَحَبُّ الأعمَال إلى الله أَدوَمُها وإن قَلَّ ، أَلهَمَنَا اللهُ وإيّاكم حُسن المُتابَعَة وجَنَّبَنَا الهَوىٰ والمُخالَفَة[1] .

وعن عبد الله بن عَمرو قال : زَوَّجَني أبي امرأةً من قُريش ، فلمَّا دخلَتْ عليَّ جعلتُ لا أنحاشُ لها ممَّا بي من القُوَّة على العِبادة ، فجاءَ أبي إلىٰ كِنَّتِه[2] فقال : كيف وجدتِ بَعْلَكِ ؟ قالت : خيرُ رجلٍ لَم يُفَتِّش لها كنفاً ولم يقرب لها فِراشاً ، قال : فأقبلَ عليَّ وعَضَّني بلسانه ، ثم قال : أنكحتُكَ امرأةً ذاتَ حسبٍ فَعَضَلْتَها وفعلتَ ، ثم انطلقَ ، فَشَكَاني إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، فطَلَبَني فأتيته ، فقال لي : « أتَصُومُ النَّهَارَ وتقومُ الليل ؟ » قلتُ : نعم قال صلى الله عليه وسلم : « لكِنِّي أَصُومُ وأُفطِر ، وأُصلِّي وأنام ، وأَمَسُّ النِّساءَ ، فمَن رَغِبَ عن سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي »[3] .

وعن أحمد بن أبي الحَواري قال : قلتُ لراهبٍ في دَير حَرملَة ، وأشرَفَ من صومعته : ما اسمُك ؟ قال : جُرَيْج قلت : ما يَحْبِسُك ؟ قال : حَبَستُ نفسي عن

---

(١) انظر السير : (عبد الله بن عَمرو بن العاص) ٣/ ٧٩ـ ٩٤ ، وانظر النزهة : ٣٣٨/ ٤ .

(٢) الكِنَّة : زوج الولد ، وقولها : « لم يُفتِّش لها كنفاً » : الكنف الجانب ، أرادت أنه لم يَقربها .

(٣) انظر السير : (عبد الله بن عمرو بن العاص) ٣/ ٧٩ـ ٩٤ ، وانظر النزهة : ٣٤٠/ ٢ .

الشَّهَوَات قلت : أَمَا كان يستقيمُ لك أنْ تذهبَ معنا هاهُنا وتجيءُ وتمنعَهَا الشَّهَوَات ؟ قال : هَيهَات!! هـٰذا الذي تَصِفُه قوَّةٌ وأنا في ضعف ، قلت : ولِمَ تفعلُ هـٰذا ؟ قال : نجدُ في كتبنا أنَّ بَدَنَ ابنِ آدمَ خُلِقَ من الأرض ، ورُوحَهُ خُلِقَ من مَلَكوت السَّمَاء ، فإذا أَجَاعَ بدنَه وأعْرَاه وأَسْهَرَه وأقمَأَه نازَع الرُّوح إلى الموضع الذي خَرج منه ، وإذا أطعَمه وأراحَه أخلَدَ البدنُ إلى الموضع الذي خُلِقَ منه ، فأَحَبَّ الدُّنيا قلت : فإذا فعلَ هـٰذا يجعلُ له في الدُّنيا الثَّواب ؟ قال : نعم نُورٌ يُوازيه قال : فحَدَّثتُ بهـٰذا أبا سُليمانَ الدَّارانِي ، فقال : قاتَلَه الله إنَّهُم يَصِفُون[1] .

وقال الإمامُ الذهبيُّ : الطريقةُ المُثلىٰ هي المُحَمَّديَّة ، وهو الأخذُ من الطَّيِّبات وتناوُل الشَّهَوَات المُبَاحة من غير إسرافٍ ، كما قال تعالىٰ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴾[2] .

وقد قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « لكنِّي أَصُومُ وأُفطِر ، وأَقُومُ وأَنَامُ ، وآتي النِّساءَ ، وآكلُ اللَّحمَ فَمَن رَغِبَ عن سُنَّتِي فلَيسَ مِنِّي » فلَم يَشْرَع لنا الرَّهبَانيَّةَ ولا التَّمَزُّق ولا الوِصَال ، بل ولا صَومَ الدَّهر ، ودينُ الإسلام يُسرٌ وحَنيفِيَّة سَمحَةٌ ، فليأكل المسلم من الطَّيِّب إذا أمكنَه ، كما قال تعالىٰ : ﴿ لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٖ مِّن سَعَتِهِۦۖ ﴾[3] .

وقد كانَ النِّسَاءُ أَحبَّ شيءٍ إلىٰ نبينا صلى الله عليه وسلم ، وكذلك اللحمُ والحلواء والعسلُ والشرابُ الحُلوُ البارد ، والمِسْكُ ، وهو أفضلُ الخلق وأَحَبُّهم إلى الله تعالىٰ[4] .

ثمَّ العابدُ العَرِيُّ من العلم ، متىٰ زَهِدَ وتبَتَّلَ وجَاعَ ، وخَلا بنفسِه ، وترك اللَّحمَ والثِّمارَ واقتصَرَ على الدُّقَّة والكِسرة ، صَفَتْ حَواسُّه ولَطُفَت ، ولازَمَته خطَرَاتُ النَّفس ، سَمعَ خِطاباً يتولَّدُ من الجُوع والسَّهر ، ولا وُجُود لذلك الخطاب ـ والله ـ في

(١) انظر السير : (أحمد بن أبي الحواريّ) ١٢/ ٨٥ـ ٩٤ ، وانظر النزهة : ٦/٩٨٥ .
(٢) سورة المؤمنون : الآية (٥١) .
(٣) سورة الطلاق : الآية ٧ .
(٤) انظر السير : (أحمد بن أبي الحواريّ) ١٢/ ٨٥ـ ٩٤ ، وانظر النزهة : ١/٩٨٦ .

الخارج ، وَوَلِجَ الشَّيطَانُ في باطِنِه وخرجَ ، فيعتقدُ أنَّه قد وصلَ ، وخُوطِب وارتَقَىٰ ، فيتمكَّنُ منه الشَّيطانُ ، ويُوَسْوسُ له ، فينظرُ إلى المؤمنينَ بعَينِ الازدراء ، ويتذكَّرُ ذُنوبَهم ، وينظرُ إلىٰ نفسِه بعَينِ الكَمَال ، وربُمَا آلَ به الأمرُ إلىٰ أن يَعتقدَ أنَّه وَليٌّ ، صاحبُ كراماتٍ وتمكُّن ، وربما حصلَ به شكٌّ ، وتزَلزَلَ إيمانُه فالخُلوة والجُوع أبو جادِ التَّرَهُّب ، وليس ذلك من شَريعتنا في شيء ، بل السُّلوكُ الكامل هو الوَرَعُ في القُوت ، والوَرَعُ في المَنطِق ، وحِفظُ اللِّسَان ، ومُلاَزَمَةُ الذِّكر ، وتركُ مخالَطَة العَامَّة ، والبُكاء على الخطيئة ، والتِّلاوة بالتَّرتيل والتَّدَبُّر ، ومقتُ النَّفس وذَمِّها في ذاتِ الله ، والإكثَارُ من الصَّوم المَشْروع ، ودوامُ التَّهَجُّد ، والتَّواضُع للمسلمين ، وصِلَةُ الرَّحم والسَّماحة وكثرةُ البِشر ، والإنفاقُ مع الخَصَاصَة ، وقولُ الحقِّ المُرِّ برِفق وتُؤَدةٍ ، والأمرُ بالمعروف والأخذُ بالعَفو ، والإعرَاضُ عن الجاهلين ، والرِّباطُ بالثَّغر ، وجهادُ العَدُو ، وحَجُّ البَيتِ ، وتناوُل الطَّيِّبات في الأحايين ، وكثرةُ الاستغفار في السَّحَر ، فهٰذه شَمَائلُ الأوليَاء ، وصفاتُ المُحَمَّدِيِّين ، أَمَاتَنَا اللهُ علىٰ مَحَبَّتِهم[1] .

وقال أبو محمد الجَريري : سمعتُ الجُنَيد يقول : ما أخذنا التَّصوفَ عن القال والقيل ، بل عن الجوع ، وتركِ الدنيا وقطع المألوفات[2] .

قال الذهبي : هٰذا حَسَن ، ومُراده : قَطعُ أكثر المألوفات ، وتركُ فضول الدُّنيا ، وجوعٌ بلا إفراط ، أمَّا مَن بالَغَ في الجُوعِ كما يفعله الرُّهبان ، ورَفَضَ سائرَ الدُّنيا ومألوفات النَّفس من الغِذاء والنَّوم والأهل فقد عرَّض نفسه لبلاء عريض ، وربما خُولِطَ في عقله ، وفاتَه بذلك كثيرٌ من الحنيفيَّة السَّمحَة ، وقد جعلَ اللهُ لكل شيء قدراً ، والسَّعادةُ في متابعة السنن ، فَزِنِ الأمورَ بالعدل وصُم وأَفْطِر ، ونَمْ وقُمْ ، والْزَم الوَرَعَ في القُوت وارْضَ بما قَسَمَ الله لك ، واصْمُتْ إلاَّ من خيرٍ ، فرحمةُ الله على الجُنَيد ، وأين مثلُ الجُنَيد في علمه وحاله ؟[3] .

---

(١) انظر السير : (أحمد بن أبي الحواريّ) ١٢/ ٨٥ـ ٩٤ ، وانظر النزهة : ٢/٩٨٦ .
(٢) انظر السير : (الجُنيد) ١٤/ ٦٦ـ ٧٠ ، وانظر النزهة : ٤/١١٣٣ .
(٣) انظر السير : (الجُنيد) ١٤/ ٦٦ـ ٧٠ ، وانظر النزهة : ٥/١١٣٣ .

٤ـ العِبادةُ الكثيرةُ إنْ لم تكنْ أثَريَّة فهي مَفْضُولَةٌ :

رُوي من وجوه متعددة أنَّ أبا بكر بنَ عيّاش مَكَثَ نحواً من أربعين سنة يَختمُ القرآنَ في كل يومٍ وليلة مَرَّةً[١] .

يقولُ الذهبيُّ : هٰذه عبادة يُخضَعُ لها ، ولكنَّ مُتابعة السُّنَّة أَوْلَىٰ فقد صَحَّ أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم نَهَىٰ عبدَ الله بنَ عَمرو أن يقرأ القرآن في أقلَّ من ثلاثٍ وقال صلى الله عليه وسلم : « لَمْ يَفْقَه مَنْ قَرَأَ القُرآنَ في أقلَّ من ثلاث » .

وقال الفضلُ بنُ محمد الشَّعرَاني : سمعتُ يَحيَى بن أَكْثَم يقولُ : صَحبتُ وَكِيعاً في الحَضَر والسَّفَر ، وكان يَصومُ الدَّهرَ ، ويَختمُ القرآنَ كلَّ ليلة[٢] .

قال الذهبيُّ : هٰذه عبادة يُخضَع لها ولكنها من مثلِ إمامٍ من الأئمةِ الأثَريَّة مَفضُولة ، قد صَحَّ نَهيُه عليه السلام عن صَوم الدهر ، وصَحَّ أنَّه نَهَىٰ أن يُقرأ القُرآنُ في أقل من ثلاث ، والدِّينُ يُسرٌ ، ومتابعةُ السُّنة أَولَىٰ ، فرضيَ اللهُ عن وَكيعٍ ، وأين مثلُ وكيع ؟ ومع هٰذا فكان مُلازِماً لشُرب نَبيذ الكوفة الذي يُسكِرُ الإكثارُ منه ، فكان مُتأوِّلاً في شُربه ، ولَم يَترُكْه تَوَرُّعاً ، ولو تَرَكَه تَوَرُّعاً لكان أَولَىٰ به ، فإنَّ مَن تَوَقَّى الشُبهات ، فقد اسْتَبرَأَ لدينِه وعِرضِه ، وقد صحَّ النَّهيُ والتحريمُ للنبيذ المذكور وليس هٰذا مَوضعَ هٰذه الأمور .

٥ـ القَصْدُ في العِبادَةِ :

عن سعيد بن أبي بردة ، عن أبيه ، عن أبي موسىٰ أنَّ النَّبيَ صلى الله عليه وسلم لمَّا بَعَثَهُ ومُعَاذاً إلى اليمن ، قال لهما : « يَسِّرا ولا تُعسِّرا وتَطَاوَعَا ولا تُنَفِّرا » ، فقال له أبو موسىٰ : إنَّ لنا بأرضنا شَراباً يُصنَعُ من العَسَل يُقالُ له : البِتْعُ ، ومن الشَّعير يُقال له : المِزْرُ ، قال صلى الله عليه وسلم : « كلُّ مُسْكرٍ حَرَام » فقال لي مُعاذٌ : كيف تَقرأُ

---

(١) انظر السير : (أبو بكر بن عياش) ٨/ ٤٩٥ـ٥٠٨ ، وانظر النزهة : ٧٨٧/ ٥ .
(٢) انظر السير : (وكيع) ٩/ ١٤٠ـ١٦٨ ، انظر النزهة : ٨٠٨/ ٤ .

القرآنَ ؟ قلتُ : أقرأهُ في صَلاتي وعلىٰ راحِلَتي وقائماً وقاعداً ، أتَفَوَّقُ تَفَوُّقاً ، يعني شيئاً بعد شيء ، قال : فقال مُعاذٌ : لكنِّي أَنَامُ ثم أقومُ ، فَأَحْتَسِبُ نَومَتي كما أَحْتَسِبُ قَوْمَتي ، قال : وكأن مُعاذاً فُضِّلَ عليه[1] .

عن طارق بن شِهاب عن سَلمان قال : إذا كان الليلُ ، كان النَّاسُ منه علىٰ ثلاثِ منازلَ : فمنهم مَن له ولا عليه ، ومنهم مَن عليه ولا له ، ومنهم مَن لا عليه ولا له!! فقلتُ : وكيف ذاك ؟ قال : أمَّا مَن له ولا عليه ، فرجلٌ اغتَنَمَ غَفلَةَ النَّاس وظُلمةَ الليل ، فتوضأ وصَلَّىٰ ، فذاك له ولا عليه ، ورجلٌ اغتَنَمَ غَفلَةَ النَّاس وظُلمةَ الليل ، فمشَىٰ في مَعَاصي الله ، فذاك عليه ولا له ، ورجلٌ نامَ حتىٰ أصبحَ ، فذاك لا له ولا عليه[2] .

قال طارقٌ : فقلتُ : لأُصحَبنَّ هـٰذا فضُرب على النَّاس بعثٌ فخرجَ فيهم فصحبتُه وكنتُ لا أَفْضُلُهُ في عمل ، إنْ أنا عَجَنتُ خَبَزَ وإنْ خَبَزتُ طَبَخَ ، فنزلنا مَنزِلاً فبِتْنا فيه ، وكانت لطارق ساعةٌ من اللَّيل يقومُها ، فكنت أتيَقَّظُ لها فأجِدُه نائماً فأقولُ : صاحبُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، خيرٌ مِنِّي نائمٌ ، فأنامُ ثم أقومُ فأجدُه نائماً فأنامُ ، إلاَّ أنَّه كان إذا تَعَارَّ من الليل قال وهو مُضطجعٌ : سبحانَ الله ، والحمدُ لله ، ولا إلـٰه إلاَّ الله ، والله أكبر ، لا إلـٰه إلاَّ الله وحده لا شَريك له ، له الملكُ وله الحمدُ ، وهو علىٰ كُلِّ شيءٍ قدير حتىٰ إذا كان قُبيل الصُّبح قامَ فتوضأَ ثم ركَعَ أربع ركعات فلمَّا صَلَّينا الفجرَ قلتُ : يا أبا عبدَ الله ، كانت لي ساعة من الليل أقومُها وكنتُ أتيَقَّظُ لها فأجدُكَ نائماً ، قال : يا ابن أخي! فأَيشٍ كنتَ تَسمَعُني أقولُ ؟ فأخبرَتُه ، فقال : يا ابن أخي تلك الصلاة ، إنَّ الصَّلَواتِ الخمسَ كَفَّاراتٌ لما بَينهُن ما اجتُنبَت المَقتَلة ، يا ابن أخي عليك بالقَصدِ فإنَّه أبلغ[3] .

---

(١) انظر السير : (مُعاذ بن جبل) ١/ ٤٤٣ـ ٤٦١ ، وانظر النزهة : ٢/١٩١ .

(٢) انظر السير : (سلمان الفارسي) ١/ ٥٠٥ـ ٥٥٨ ، وانظر النزهة : ١/٢٠٤ .

(٣) انظر السير : (سلمان الفارسي) ١/ ٥٠٥ـ ٥٥٨ ، وانظر النزهة : ٢/٢٠٤ .

رَوَىٰ عَونُ بنُ أبي جُحَيفة ، عن أبيه أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم آخىٰ بين سَلمانَ وأبي الدَّرداء ، فجاء سَلمانُ يزوره ، فإذا أمُّ الدَّرداء مُتَبَذِّلَة ، فقال : ما شأنُكِ ؟ قالت : إنَّ أخاكَ لا حاجَةَ له في الدُّنيا ، يقومُ الليلَ ويصومُ النَّهارَ .

فجاءَ أبو الدَّرداء فرَحَّبَ به ، وقَرَّبَ إليه طعاماً فقال له سَلمانُ : كُلْ قال : إنِّي صائم قال : أقسمتُ عليك لتُفطِرَنَّ فأكلَ معه ثم باتَ عنده ، فلمَّا كان من اللَّيل أرادَ أن يقومَ ، فمَنَعَه سَلمانُ وقال : إنَّ لجَسَدِكَ عليك حقاً ولرَبِّك عليك حقاً ولأهلِك عليك حقاً ، صُم وأَفطِر ، وصَلِّ وائتِ أهلكَ ، وأعطِ كُلَّ ذي حقٍّ حَقَّه .

فلمَّا كان وَجهُ الصُّبح ، قال : قُم الآن إنْ شِئتَ ، فقاما فتَوَضآ ، ثم رَكَعَا ، ثم خَرَجَا إلى الصلاة ، فَدَنا أبو الدَّرداء ليُخبِرَ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بالذي أَمَرَه به سَلمان : فقال له صلى الله عليه وسلم : « يا أبا الدَّرداء ، إنَّ لجَسَدِك عليك حقاً ، مثل ما قالَ لكَ سَلمان »[١] .

٦ـ الوَسْوَسَةُ في العِبادَةِ يَنْفَرِدُ بها أهلُ الإسْلام :

عن الأعمش قال : آية التَّقَبُّل الوسوَسَة ، لأن أهل الكتابَين لا يَدرُون ما الوَسوَسَة ، وذلك لأنَّ أعمالَهم لا تَصعدُ إلى السَّماء[٢] .

٧ـ العِباداتُ الباطِنَةُ وصُعُوبَتُها :

عن جعفر بن بُرقان قال : بلغني عن يونُسَ بنِ عُبيد فضلٌ وصلاحٌ ، فأحبَبَتُ أن أكتبَ إليه أسأله فكتبَ إليه : أتاني كتابُك تَسألُني أن أكتبَ إليك بما أنا عليه فأُخبرُك أنِّي عَرَضْتُ علىٰ نَفسِي أن تُحبَّ للنَّاس ما تُحبُّ لها وتَكرَهُ لهم ما تَكرَهُ لها ، فإذا هي من ذاك بعيدةٌ ثم عَرَضْتُ عليها مرةً أخرىٰ تَركَ ذكرِهم إلاَّ من خير ، فوجدتُ الصَّوم في اليوم الحَارِّ أيْسَر عليها من ذلك هٰذا أمري يا أخي والسلام[٣] .

---

(١) انظر السير : (أبو الدرداء) ٢/ ٣٣٥ـ٣٥٣ ، انظر النزهة : ٢/٢٧٠ .

(٢) انظر السير : (الأعمش) ٦/٢٢٦ـ٢٤٨ ، وانظر النزهة : ٢/٦٤٦ .

(٣) انظر السير : (يونس بن عُبيد) ٦/٢٨٨ـ٢٩٦ ، وانظر النزهة : ٤/٦٥١ .

٨ـ عِبادَةُ التَّفَكُّرِ والاعْتِبَار :

عن عَون بن عبد الله : قلت لأُمِّ الدَّرداء : أيُّ عِبادة أبي الدَّرداء كانت أكثر ؟ قالت : التَّفَكُّر والاعْتبَار

وعن أبي الدَّرداء : تَفَكُّرُ ساعةٍ خَيرٌ من قيام ليلة[١] .

وقال بُردٌ ـ مولى ابن المسيِّب ـ لسعيد بن المسيِّب : ما رأيتُ أحسنَ ما يصنعُ هٰؤلاء قال سعيد : وما يصنعون ؟ قال : يُصَلِّي أحدُهم الظُّهرَ ، ثم لا يزالُ صافّاً رجلَيه حتىٰ يُصَلِّي العَصرَ فقال : ويحك يا بُرد أمَا والله ما هي بالعبادة ، إنَّمَا العبادةُ التَّفَكُّر في أمرِ الله ، والكَفُّ عن مَحَارِمِ الله[٢] .

وعن يُوسُف بنِ أسْباط : قال لي سُفيان الثَّوري بعد العِشَاء : ناولْني المِطْهَرَةَ[٣] . أتوضأ ، فناولتُه فأخذَها بيمِينِه ووضعَ يَسَارَهُ علىٰ خَدِّه فَبَقِيَ مُفَكِّراً ، ونِمتُ ، ثم قُمتُ وقتَ الفجر ، فإذا المِطْهَرَةُ في يده كما هي ، فقلتُ : هٰذا الفجرُ قد طَلَع فقال : لم أزَل منذ ناولتَني المِطْهَرَةَ أتَفَكَّرُ في الآخرة حتى السَّاعة[٤] .

٩ـ كَيْفِيَّةُ الوُصُولِ إلىٰ حَلاوَةِ العِبادَةِ :

وقال بِشرُ بن الحارث : لا تجدُ حَلاوةَ العبادة حتىٰ تجعلَ بينك وبين الشَّهوات سدّاً[٥] .

قال أحمدُ بن حرب : عبدتُ اللهَ خمسين سنةً ، فما وجدتُ حَلاوةَ العبادة حتىٰ تركتُ ثلاثةَ أشياء : تركتُ رِضَا النَّاس حتىٰ قَدِرت أن أتكلَّم بالحق ، وتركتُ صُحبَةَ الفاسِقين حتىٰ وجدتُ صُحبةَ الصَّالحين ، وتركتُ حَلاوةَ الدُّنيا حتىٰ وجدتُ حَلاوةَ الآخرة[٦] .

---

(١) انظر السير : (أبو الدَّرداء) ٢/ ٣٣٥ـ٣٥٣ ، وانظر النزهة : ١/٢٧٢ .

(٢) انظر السير : (سعيد بن المُسَيِّب) ٤/ ٢١٧ـ٢٤٦ ، وانظر النزهة : ٥/٤٨٨ .

(٣) المِطْهَرَة : الإناء الذي يُتوَضأ به ويُتَطَهَّرُ به .

(٤) انظر السير : (سُفيان الثَّوري) ٧/ ٢٢٩ـ٢٧٩ ، وانظر النزهة : ١/٦٩٦ .

(٥) انظر السير : (بشر بن الحارث) ١٠/ ٤٦٩ـ٤٧٧ ، وانظر النزهة : ٥/٨٨٦ .

(٦) انظر السير : (أحمد بن حرب) ١١/ ٣٢ـ٣٥ ، وانظر النزهة : ٤/٩٠٦ .

١٠ـ عِقابُ النفْسِ عند التَّقْصيرِ في العِبادَةِ :

عن المُنْكَدِر بن محمد بن المُنْكَدِر عن أبيه : أن تميماً الدَّاري نامَ ليلةً لمْ يَقُم بتَهَجُّد ، فقامَ سَنةً لمْ ينَم فيها ، عُقوبةً للذي صَنع[١] .

وعن نافع أنَّ ابنَ عُمرَ كان إذا فاتَتْه العِشاء في جماعة أَحْيَىٰ بقيَّةَ ليلته[٢] .

وقال عبد الرحمـٰن رُستَه : حدّثَنا يَحييٰ بنُ عبد الرحمـٰن بن مهدي أنَّ أباهُ قامَ ليلةً ، وكان يُحيي الليلَ كُله ، قال : فلمَّا طَلعَ الفجرُ رمىٰ بنفسِه على الفِراش حتىٰ طلعت الشمسُ ، ولم يُصَلِّ الصُّبحَ ، فجعلَ علىٰ نفسِهِ أن لا يجعلَ بينه وبين الأرض شيئاً شهرين ، فقرَّح فَخِذَاه جميعاً[٣] .

قال أبو نعيم : سَمعتُ أبا الفَرج الورثاني ، سمعتُ عليَّ بنَ عبد الرحيم يقول : دخلتُ على النُّوريِّ فرأيتُ رجليه مُنتفخَتين ، فسألتُه عن أمره فقال : طالبَتني نفسي بأكل تَمر ، فدافَعتُها ، فأبَت عليَّ فاشتريتُه فلمَّا أكلتُ قلتُ : قومي فصَلِّي ، فأبت ، فقلتُ : لله عليَّ إن قَعَدتِ على الأرض أربَعين يوماً فما قَعدتُ ـ يَعني إلاَّ في صَلاة[٤] .

١١ـ مَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فِعلَ القُرُباتِ :

قال الفُضيلُ بنُ عِياض : إذا لم تَقدر علىٰ قِيام الليل ، وصِيام النهار ، فاعلم أنَّك مَحرُوم كَبَّلتكَ خَطيئَتُك[٥] .

١٢ـ المُحافَظَةُ على الأوْرادِ والعَمَلِ الصَّالحِ :

عن أنَس بن سيرين قال : كان لمحمد بنِ سيرين سَبعةُ أوراد ، فإذا فاته شيءٌ من الليل قرأه بالنهار[٦] .

---

(١) انظر السير : (تميم الدّاري) ٢/ ٤٤٢ـ ٤٤٨ ، وانظر النزهة : ١/٢٨٩ .

(٢) انظر السير : (عبد الله بن عُمر) ٣/ ٢٠٣ـ ٢٣٩ ، وانظر النزهة : ٢/٣٦٨ .

(٣) انظر السير : (عبد الرحمـٰن بن مهدي) ٩/ ١٩٢ـ ٢٠٩ ، وانظر النزهة : ٣/٨١٧ .

(٤) انظر السير : (النُّوري) ١٤/ ٧٠ـ ٧٧ ، وانظر النزهة : ٣/١١٣٤ .

(٥) انظر السير : (الفُضيل بن عياض) ٨/ ٤٢١ـ ٤٤٢ ، وانظر النزهة : ٧/٧٧٧ .

(٦) انظر السير : (محمد بن سيرين) ٤/ ٦٠٦ـ ٦٢٦ ، وانظر النزهة : ٥/٥٧٠ .

وقال بَكَّارُ بنُ محمد السِّريني : كان لعبدِ الله بنِ عَونٍ سُبْعٌ يقرؤه كُلَّ ليلة ، فإذا لَمْ يقرأه أتَمَّه بالنهار ، وكان يَغْزو علىٰ ناقته إلى الشام فإذا صار إلى الشام رَكبَ الخَيلَ ، وقد بارَزَ روميّاً فقَتلَ الرُّوميَّ[1] .

وقال عفَّانُ : قد رأيتُ مَن هو أَعبَدُ من حَمَّاد بن سَلَمة ، لكن ما رأيتُ أشَدَّ مواظبةً على الخَيرِ ، وقراءةِ القُرآن ، والعمل لله تعالىٰ منه[2] .

وقال يَحيىٰ بنُ أيوب : حدَّثني بعضُ أصحاب وَكيع الذين كانوا يَلزَمُونه أنَّ وَكيعاً كان لا ينامُ حتىٰ يقرأ جزأَه من كلِّ ليلة ثُلُثَ القرآن ، ثم يقومُ في آخر الليل فيقرأ المُفَصَّل ، ثم يجلسُ ، فيأخُذُ في الاستغفار حتىٰ يطلعَ الفجرُ[3] .

وقال ابنُ طاهر : لمَّا عَزَمَ سعدٌ الزنجاني على المجاورة ، عَزَمَ علىٰ نَيِّفٍ وعشرين عَزيمةً ، أن يُلزِمَهَا نفسَه من المُجَاهَدَات والعِبَادات ، فبَقِي به أربعين سنةً لم يُخِلَّ بعَزيمةٍ منها ، وكانَ يُملِي في بيتِه ـ يَعني خوفاً من دولة العُبيديَّة[4] .

وقال الشيخُ العِماد : سمعتُ أخي الحافظَ أبي عُمر يقولُ : نحن إذا جاءَ أحدٌ اشتغلنا به عن عملنا ، وإنَّ خالي أبي عُمر فيه للدُّنيا والآخرة يُخَالِطُ النَّاسَ ولا يُخلي أوراده[5] .

١٣ـ أخْذُ النفْسِ بالشِّدَّةِ في العِبادَةِ :

عن نافعٍ قال : كان ابنُ عُمرَ يُزَاحِمُ على الرُّكن حتىٰ يَرعُفَ[6] .

وقال عثمانُ بنُ أبي العاتكة : علَّق أبو مُسلم الخَولاني سَوطاً في المسجد ، فكان

---

(١) انظر السير : (عبد الله بن عون) ٦/ ٣٦٤ـ ٣٧٥ ، وانظر النزهة : ٧/٦٥٧ .
(٢) انظر السير : (حمَّاد بن سلمة) ٧/ ٤٤٤ـ ٤٥٦ ، وانظر النزهة : ١/٧١٥ .
(٣) انظر السير : (وكيع) ٩/ ١٤٠ـ ١٦٨ ، وانظر النزهة : ٥/٨٠٩ .
(٤) انظر السير : (الزنجاني) ١٨/ ٣٨٥ـ ٣٨٩ ، وانظر النزهة : ١/١٤٢٤ .
(٥) انظر السير : (الشيخ أبو عُمر) ٢٢/ ٥ـ ٩ ، وانظر النزهة : ١/١٦٦٢ .
(٦) انظر السير : (عبد الله بن عُمر) ٣/ ٢٠٣ـ ٢٣٩ ، وانظر النزهة : ٢/٣٧٣ .

يقولُ : أنا أَوْلَىٰ بالسَّوطِ من البَهَائم ، فإذا فَتَرَ مَشَقَ[1] .سَاقَيْه سَوطاً أو سَوطَين ، قال : وكان يقولُ : لو رأيتُ الجَنَّةَ عَيَاناً أو النَّارَ عَيَاناً ما كان عندي مُستَزاد[2] .

وعن إبراهيمَ قال : لمَّا كَبِر عَمرو بنُ ميمون ، أَوتَد له في الحائط ، فكان إذا سَئِمَ من القيام أمسَكَ به ، أو يَتَعَلَّقُ بحبل[3] .

وقال يونُس بنُ مَيسَرة : كُنَّ النِّسَاءُ يَتَعَبَّدن مع أمِّ الدَّرداء ، فإذا ضَعُفنَ عن القِيام ، تَعَلَّقنَ بالحِبال[4] .

ورَوىٰ حفصُ بن غياث ، عن ابنِ إسحاق ، قال : قدمَ علينا عبدُ الرحمـٰن بنُ الأسوَد حاجَّاً ، فاعتلَّت رجلُه ، فصَلَّىٰ علىٰ قدمٍ حتىٰ أصبح[5] .

وقال هلالُ بنَ خَبَّاب : كان عبد الرحمـٰن بن الأسود ، وعُقبة مَولَىٰ أديم ، وسعد أبو هشام يُحْرِمون من الكُوفة ، ويَصُومون يوماً ، ويُفطِرون يوماً حتىٰ يَرجِعُوا[6] .

وقالَ الزُّبَيرُ بنُ بَكَّار : كان أبو عامر بنُ عبد الله ابن الزُّبَيرِ لما يُرَىٰ منه يقولُ : قد رأيتُ أبا بكرٍ وعُمرَ ولم يكونا هـٰكذا[7] .

وقال نافعٌ القارىء : كان أبو جعفر القارىء يقومُ الليل فإذا قرأ يَنْعُسُ ، فيقولُ لهم : ضَعُوا الحَصَىٰ بين أصَابعي وضُمُّوها ، فكانوا يَفعَلون ذلك ، والنَّومُ يُغَالِبه وكان يُصلي خَلفَ القُرَّاء في رمضان ، يُلَقِّنُهم ، يُؤمر بذلك[8] .

وقال يعقوبُ السَّدُوسي : سمعتُ عليَّ بن المدَينيِّ يقولُ : كان جَريرُ ابنُ

---

(١) مَشَقَ : أي ضربه بسرعة .

(٢) انظر السير : (أبو مسلم الخولاني) ٤/ ٧ـ ١٤ ، وانظر النزهة : ٣/٤٣٠ .

(٣) انظر السير : (عَمرو بن ميمون) ٤/ ١٥٨ـ ١٦١ ، وانظر النزهة : ٨/٤٦٧ .

(٤) انظر السير : (أم الدَّرداء) ٤/ ٢٧٧ـ ٢٧٩ ، وانظر النزهة : ٤/٤٩٧ .

(٥) انظر السير : (عبد الرحمـٰن بن الأسود) ٥/ ١١ـ ١٢ ، وانظر النزهة : ٥/٥٧٥ .

(٦) انظر السير : (عبد الرحمـٰن بن الأسود) ٥/ ١١ـ ١٢ ، وانظر النزهة : ٦/٥٧٥ .

(٧) انظر السير : (عامر بن عبد الله بن الزبير) ٥/ ٢١٩ـ ٢٢٠ ، وانظر النزهة : ٢/٥٩٦ .

(٨) انظر السير : (أبو جعفر القارىء) ٥/ ٢٨٧ـ ٢٨٨ ، وانظر النزهة : ٢/٦٠٤ .

عبد الحميد صاحبَ ليلٍ ، وكان له رَسَنٌ ، يقولون : إذا أَعْيَىٰ تَعَلَّقَ به ـ يُريدُ أنَّه كان يُصَلِّي[1] .

١٤ـ أقْوالٌ بَلِيغَةٌ في العُبُودِيَّةِ :

قال أبو عبد الرحمـٰن السلمي : سمعتُ جَدِّي ابن نجيد يقول : لا يَصفُو لأحدٍ قَدَمٌ في العُبوديَّة حتىٰ تكونَ أفعالُه عنده كلُّها رِياء ، وأحوالُه كلُّها عنده دَعَاوَىٰ[2] .

١٥ـ الاشْتِيَاقُ إلى العِبادَةِ :

عن عَدي بنِ حاتم الطائي قال : ما دخلَ وقتُ صلاةٍ حتىٰ أشتاقَ إليها . وعنه : ما أُقيمت الصَّلاة مُنذُ أسلمتُ إلاَّ وأنا علىٰ وُضُوءٍ[3] .

١٦ـ مِنْ صِفاتِ عُبَّادِ السَّلَفِ :

قال كُرْزُ بنُ وَبَرة الحارثيّ : لا يكونُ العبدُ قارئاً حتىٰ يَزهَدَ في الدِّرهَم[4] .

قال الإمامُ الذهبي بعدما أورد قَولَةَ كُرْز : هـٰكذا كان زُهَّادُ السَّلف وعُبَّادُهم ، أصحابَ خَوف وخُشُوع وتَعَبُّد وقُنُوع ، ولا يدخلون في الدُّنيا وشَهَوَاتها ، ولا في عِبَاراتٍ أحدَثَهَا المُتَأخِّرون من الفَنَاء ، والمَحو ، والاصْطِدام ، والاتِّحاد ، وأشباه ذلك ، ممَّا لا يَسُوغُه كِبَارُ العلماء ، فنسألُ الله التَّوفيقَ والإخلاصَ ، ولُزُوم الاتِّباع[5] .

١٧ـ مَنْ فُتِحَ له بابٌ من أبْوابِ العِبادَةِ فلْيَلْزَمْهُ :

قال الحافظُ ابنُ عبد البَرِّ في « التمهيد » هـٰذا كتبتُه من حِفظي ، وغاب عني أصلي : إنَّ عبدَ الله العُمري العابد كتبَ إلىٰ مالك يَحُضُّه على الانفراد والعمل ، فكتبَ

---

(١) انظر السير : (جرير بن عبد الحميد) ٩/ ٩ـ ١٨ ، وانظر النزهة : ٧٩٥/ ٤ .

(٢) انظر السير : (ابن نُجيد) ١٦/ ١٤٦ـ ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٤/١٢٧٥ .

(٣) انظر السير : (عدي بن حاتم) ٣/ ١٦٢ـ ١٦٥ ، وانظر النزهة : ٢/٣٥٨ .

(٤) انظر السير : (كُرز) ٦/ ٨٤ـ ٨٦ ، وانظر النزهة : ٦/٦٣٣ .

(٥) انظر السير : (كُرز) ٦/ ٨٤ـ ٨٦ ، وانظر النزهة : ٧/٦٣٣ .

إليه مالكٌ : إنَّ الله قَسَّمَ الأعمالَ كما قَسَّمَ الأرزاقَ ، فرُبَّ رجلٍ فُتحَ له في الصَّلاةِ ، ولم يُفتحْ له في الصَّوم ، وآخرُ فُتحَ له في الصَّدَقة ولم يُفتحْ له في الصَّوم ، وآخرُ فُتحَ له في الجِهَاد فنَشْرُ العِلمِ من أفضلِ أعمالِ البرّ ، وقد رضيتُ بما فُتحَ لي فيه ، وما أظُنُّ ما أنا فيه بدون ما أنتَ فيه ، وأرجو أن يكونَ كِلانا علىٰ خيرٍ وبِرٍّ[1] .

١٨ـ الاجْتِهادُ في العِبادَةِ إذا شَعرَ الإنْسانُ بدُنُوِّ أجَلِهِ :

رَوَىٰ صالحُ بنُ موسى الطَّلحي عن أبيه ، قال : اجتهدَ أبو موسى الأشعَري قبل موته اجتهاداً شديداً ، فقِيلَ له : لو أمسكتَ ورفقتَ بنفسك ؟ قال : إنَّ الخَيلَ إذا أُرسِلَت فقارَبَت رأسَ مجراها ، أخرَجَت جميعَ ما عندها ، والذي بَقِيَ من أجلي أقلُّ من ذلك[2] .

١٩ـ صُوَرٌ من عِبادَةِ السَّلَفِ :

وكان سُهَيلُ بن عَمرو بَعدُ كثيرَ الصَّلاة والصَّوم والصَّدقة ، خرجَ بجماعته إلى الشَّام مُجَاهِداً ، ويُقالُ : إنَّه صَامَ وتَهَجَّد حتىٰ شَحَبَ لونُه وتَغَيَّرَ ، وكان كثيرَ البُكاء إذا سمعَ القرآن ، وكان أميراً علىٰ كُردُوسٍ[3] يوم اليَرموك واستُشهِد يوم اليَرموك[4] .

وقال أبو الدَّرداء : إنْ كُنَّا لنَكونُ مع رسولِ الله صلى الله عليه وسلم في السفر في اليوم الحارِّ ما في القومِ أحدٌ صائمٌ إلاَّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، وعبد الله ابنُ رَواحَة .

وعن ابن أبي ليلىٰ قال : تَزَوَّجَ رجلٌ امرأةَ ابنِ رَواحَة ، فقال لها : تَدرين لِمَ تَزَوجتُك ؟ لتُخبريني عن صَنِيع عبد الله في بيته فذكَرَت له شيئاً لا أحفظُه ، غيرَ أنها قالت : كان إذا أراد أن يخرجَ من بيته ، صَلَّىٰ ركعتين ، وإذا دخلَ صَلَّىٰ ركعتين لا يدعُ ذلك أبداً[5] .

---

(١) انظر السير : (مالك الإمام) ٨/ ٤٨ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٣/٧٣٧ .
(٢) انظر السير : (أبو موسى الأشعري) ٢/ ٣٨٠ـ ٤٠٢ ، وانظر النزهة : ١/٢٨١ .
(٣) الكُردُوس : الطائفة العظيمة من الخيل والجيش ، والجمع كَراديس .
(٤) انظر السير : (سُهيل بن عَمرو) ١/ ١٩٤ـ ١٩٥ ، وانظر النزهة : ٦/١٤٦ .
(٥) انظر السير : (عبد الله بن رواحة) ١/ ٢٣٠ـ ٢٤٠ ، وانظر النزهة : ٣/١٥٣ .

وقِيل لنافع : ما كان يصنعُ ابنُ عُمرَ في منزِله ؟ قال : لا تُطِيقُونَه الوضوءُ لكلِّ صَلاة ، والمُصحَفُ فيما بينهما[١] .

وقال عَمرو بن عبد الرحمـٰن بن مُحَيْريز : كان جدِّي عبد الله ابن مُحيريز يَختمُ في كُلِّ جُمُعة ، ورُبَّما فَرَشنا له فلمْ يَنَمْ عليه[٢] .

وعن أنس بن عِياض قال : رأيتُ صَفوانَ بنَ سُليم ، ولو قيل له : غداً القيامة ، ما كان عنده مَزيدٌ علىٰ ما هو عليه من العبادة[٣] .

رَوىٰ مُثنى بن مُعاذ عن أبيه قال : ما كنتُ أُشَبِّه عبادةَ سُليمان التَيْميّ إلاَّ بعبادةِ الشَّاب أولَ ما يَدخلُ في تلك الشِّدَّة والحِدَّة[٤] .

وعن حمَّاد بن سَلمة قال : ما أتينا سُليمان التَيْميّ في ساعةٍ يُطاعُ الله فيها إلاَّ وجدناه مُطِيعاً ، وكنا نَرىٰ أنَّه لا يُحْسِن يَعصي الله[٥] .

وعن سُليمان التَيْميّ أنَّه رُبَّما أَحْدَثَ الوُضوءَ في الليل من غير نومٍ وذَكَرَ جريرُ بن عبد الحميد أنَّ سُليمانَ التيمي ، لم تمرَّ ساعةٌ قَط عليه إلاَّ تَصَدَّقَ بشَيء فإن لم يكنْ شيءٌ صَلَّىٰ ركعتين[٦] .

وقال أحمدُ بن إبراهيمَ الدَّورَقيّ : حَدَّثنا الهيثمُ بنُ معاوية عمَّن حَدَّثه قال : كان كَهْمَس يُصَلي في اليوم والليلة ألفَ ركعة ، فإذا ملَّ ، قال : قومي يا مَأوَىٰ كلِّ سوء فوالله ما رضيتُك لله ساعة[٧] .

وقال الوليدُ بن مسلم : رأيتُ الأوزاعيَّ يَثبُتُ في مُصَلاه يذكرُ اللهَ حتىٰ تطلُع

---

(١) انظر السير : (عبد الله بن عُمر) ٣/ ٢٠٣ـ ٢٣٩ ، وانظر النزهة : ١/٣٦٨ .
(٢) انظر السير : (عبد الله بن مُحيريز) ٤/ ٤٩٤ـ ٤٩٦ ، وانظر النزهة : ١/٥٣٩ .
(٣) انظر السير : (صفوان بن سليم) ٥/ ٣٦٤ـ ٣٦٩ ، وانظر النزهة : ٥/٦١٠ .
(٤) انظر السير : (سُليمان بن طَرْخان) ٦/ ١٩٥ـ ٢٠٢ ، وانظر النزهة : ٣/٦٤١ .
(٥) انظر السير : (سُليمان بن طَرْخان) ٦/ ١٩٥ـ ٢٠٢ ، وانظر النزهة : ٤/٦٤١ .
(٦) انظر السير : (سُليمان بن طَرْخان) ٦/ ١٩٥ـ ٢٠٢ ، وانظر النزهة : ٩/٦٤١ .
(٧) انظر السير : (كَهْمَس) ٦/ ٣١٦ـ ٣١٧ ، وانظر النزهة : ٢/٦٥٣ .

الشَّمسُ ويُخبِرُنا عن السَّلف : أنَّ ذلكَ كان هَديَهُم فإذا طَلَعت الشَّمسُ قامَ بعضُهم إلىٰ بعضٍ فأفاضوا في ذِكر الله ، والتَفَقُّه في دينه[١] .

وقال الواقديُّ تلميذُ ابنُ أبي ذئب : وكان يُصلي الليلَ أجمَع ويجتهدُ في العبادة ، ولو قيل له إنَّ القيامةَ تقومُ غداً ما كان فيه مَزيدٌ من الاجتهاد[٢] .

وقال أبو بَحر البكراوي : ما رأيتُ أحداً أعبَدَ لله من شُعْبَة ، لقد عَبَدَ اللهَ حتىٰ جَفَّ جِلدُه علىٰ عظمه واسْوَدَّ[٣] .

وقال أحمدُ بنُ سَلمة النَّيسابُوري الحافظ : كان هَنَّاد بن السَّريّ رحمه الله كثيرَ البُكاء ، فَرَغَ يوماً من القراءة لنا ، فتوضأ ، وجاءَ إلى المسجد فصَلَّىٰ إلى الزَّوال وأنا معه في المسجد ، ثم رجعَ إلىٰ منزِله ، فتوضأ وجاءَ فصَلَّىٰ بنا الظُّهرَ ، وأخذَ يقرأُ في المُصحف حتىٰ صَلَّى المغرب قال : فقلتُ : لبعضِ جيرانِه : ما أصْبَرَه على العبادة فقالَ : هٰذه عِبادتُه بالنَّهارِ منذ سَبعين سنة ، فكيف لو رأيتَ عبادَته بالليل ، وما تَزَوَّجَ قَط ، ولا تسرَّىٰ ، وكان يُقال له : راهبُ الكوفة[٤] .

ونقلَ بعضُ العلماء من كتابٍ لحفيد بَقِيِّ بن مَخْلَد (عبد الرحمٰن ابن أحمد) : كان جَدِّي قد قَسَّمَ أيامَه علىٰ أعمال البِّر : فكان إذا صَلَّى الصُّبْح قرأَ حِزْبَه من القرآن في المُصْحَف ، سُدسَ القرآن ، وكان أيضاً يَختمُ القرآنَ في الصَّلاة في كل يوم وليلة ، ويخرجُ كلَّ ليلة في الثُّلثِ الأخيرِ إلى المسجد ، فيختمُ قُربَ انصِدَاعِ الفَجر ، وكان يُصلي بعد حِزْبِه من المُصحف صلاةً طويلةً جداً ثم يَنقَلِبُ إلىٰ دَارِه ـ وقد اجتمعَ في مَسْجِده الطلبةُ ـ فيُجَدِّدُ الوُضُوءَ ، ويخرجُ إليهم ، فإذا انقضت الدُّوَل ، صارَ إلىٰ صَوْمَعَة المسجد ، فيُصلي إلى الظُّهر ، ثم يكونُ المُبتَدِىءَ بالأذان ، ثم يَهبطُ ثم يُسمِع إلى العَصر ، ويُصَلِّي ويُسمع ، ورُبَّما خرجَ في بقية النهار ، فيَقعُدُ بين القُبُور يبكي

---

(١) انظر السير : (الأوزاعي) ٧/ ١٠٧ـ ١٣٤ ، وانظر النزهة : ٦٨١/ ٤ .
(٢) انظر السير : (ابن أبي ذئب) ٧/ ١٣٩ـ ١٤٩ ، وانظر النزهة : ٦٨٥/ ٦ .
(٣) انظر السير : (شُعبة) ٧/ ٢٠٢ـ ٢٢٨ ، وانظر النزهة : ٦٩٣/ ٣ .
(٤) انظر السير : (هَنَّاد بن السري) ١١/ ٤٦٥ـ ٤٦٦ ، وانظر النزهة : ٩٥٩/ ٣ .

ويَعتَبر ، فإذا غَربت الشَّمسُ أتىٰ مَسْجِدَه ، ثم يُصَلي ويَرجِعُ إلىٰ بيتِه فيُفطِر ، وكان يَسْرُد الصَّومَ إلاَّ يومَ الجُمُعة ، ويخرجُ إلى المَسْجد ، فيخرجُ إليه جِيرانُه ، فيتكَلَّمُ معهم في دِينِهم ودُنيَاهم ، ثم يُصَلي العِشاء ويدخلُ بيتَه ، فيُحَدِّثُ أهلَه ، ثم ينامُ نَومَةً قد أخَذَتْها نَفسُه ، ثم يقومُ هـٰذا دأبه إلىٰ أن تُوفِّي وكان جَلْداً ، قوياً على المشي[1] .

وجاءَ في ترجمة الجُنيد :

قال الذهبيُّ : هو ابنُ محمد بن الجُنَيد النَّهاوندي ، ثم البغداديُّ القواريريُّ هو شيخُ الصُّوفية ، وُلِدَ سَنَةَ نيِّف وعشرين ومئتين ، وتَفَقَّه علىٰ أبي ثَور ، وأتْقَنَ العِلمَ ، ثم أقبلَ علىٰ شأنه ، وتَأَلَّهَ وتَعبَّد ، ونَطَقَ بالحكمة وقلَّ ما رَوَىٰ .

قال ابنُ المُنادي : سمعَ الكثيرَ وشاهَدَ الصَّالحين ، وأهلَ المعرفة ورُزقَ الذَّكاءَ وصوابَ الجَواب ، لم يُرَ في زمانه مثلُه في عِفَّةٍ وعُزوفٍ عن الدنيا .

قِيل لي : إنَّه قال مرةً : كنتُ أُفتِي في حَلقة أبي ثور الكلْبيِّ وليَ عشرون سنة .

وعن الجُنَيد : قال ما أخرجَ الله إلى الأرض عِلماً وجعلَ للخَلقِ إليه سبيلاً إلاَّ وقد جَعَلَ لي فيه حظاً[2] .

وقيل إنَّه كان في سُوقِه ووِرْدُه كلَّ يوم ثلاثُ مئة ركعة ، وكذا كذا ألفَ تَسْبيحة[3] .

وقال ابنُ باكُويَه : سمعتُ ابنَ خَفيف يقول : كنتُ في بدايتي رُبَّما أقرأُ في ركعةٍ واحدة عشرةَ آلاف (قل هو الله أحد) ورُبَّما كنتُ أقرأُ في ركعةٍ القرآنَ كُلَّه[4] .

وقال السَّمعاني : إنَّ الإمامَ أبا منصور الخَيَّاط ، صالحٌ ثقةٌ عابدٌ مُلقِّن ، له وِرْدٌ بين العِشاءَين بسُبْعٍ ، وكان صاحبَ كَرامات[5] .

---

(١) انظر السير : (بَقِيّ بن مخلد) ١٣/ ٢٨٥ـ٢٩٦ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٨٧ .

(٢) انظر السير : (الجُنيد) ١٤/ ٦٦ـ ٧٠ ، وانظر النزهة : ١/١١٣٢ .

(٣) انظر السير : (الجُنيد) ١٤/ ٦٦ـ ٧٠ ، وانظر النزهة : ٢/١١٣٢ .

(٤) انظر السير : (ابن خفيف) ١٦/ ٣٤٢ـ٣٤٧ ، وانظر النزهة : ٣/١٢٩٨ .

(٥) انظر السير : (الخَيَّاط) ١٩/ ٢٢٢ـ٢٢٤ ، وانظر النزهة : ٢/١٤٧٣ .

وقال الذهبيُّ في ترجمة عبد الغني المقدسي : كان لا يُضَيِّعُ شيئاً من زمانه بلا فائدة ، فإنَّه كان يُصَلِّي الفجرَ ، ويُلَقِّنُ القرآنَ ، وربما أَقْرَأَ شيئاً من الحَديث تلقيناً ، ثم يقومُ فيتوضأُ ويُصَلِّي ثلاثَ مئة ركعة بالفاتحة والمُعوِّذَتين إلىٰ قبل الظهر ، وينامُ نَوْمةً ثم يُصَلِّي الظُهر ويشتغلُ إمَّا بالتَّسْميع أو النَّسْخ إلى المغرب ، فإذا كان صائماً أفطرَ ، وإلاَّ صَلَّىٰ من المغرب إلى العشاء ويُصَلِّي العشاءَ ، وينامُ إلىٰ نصفِ الليل أو بعدَه ، ثم قامَ كأنَّ إنسَاناً يُوقِظهُ ، فيُصَلِّي لحظةً ثم يتوضأ ويصلي إلىٰ قُرب الفجر ، رُبما توضأ سبعَ مرات أو ثمانياً في الليل ، وقال : ما تطيبُ لي الصلاةُ إلاَّ ما دامت أعضائي رطبة ، ثم ينامُ نَومةً يسيرةً إلى الفجر ، وهـٰذا دأبُه .

وعن مُوفق الدين قال : كان الحافظُ عبد الغنيِّ جامعاً للعلم والعمل ، وكان رفيقي في الصِّبا ، وفي طلب العلم ، وما كُنَّا نَسْتَبِقُ إلىٰ خيرٍ إلاَّ سَبقَني إليه إلاَّ قليلاً ، وكَمَّل الله فضيلته بابتلائه بأذىٰ أهل البدعة وعَدَاوتهم ، ورُزِقَ العلمَ وتحصيلَ الكُتُب الكثيرة إلاَّ أنَّه لم يُعمَّر .

قال الضِّياءُ : وكان يستعملُ السِّوَاكَ كثيراً حتىٰ كأنَّ أسْنانَه البَرَد .

سمعتُ محمودَ بنَ سَلامة التَّاجر الحَرَّانيَّ يقول : كان الحافظُ عبدُ الغنيِّ نازلاً عندي بأصْبَهَان ، وما كان ينامُ من الليل إلاَّ قليلاً ، بل يُصَلي ويَقرأُ ويبكي .

وسمعتُ نصرَ بن رضوان المقرىء يقول : ما رأيتُ أحداً علىٰ سيرة الحافظ ، كان مشتغلاً طول زمانه[(١)] .

كان الشيخُ أبو عُمر محمد بن قُدامة المقدسي لا يَسمعُ دعاءً إلاَّ ويحفظُه في الغالب ، ويدعُو به ، ولا حَديثاً إلاَّ وعملَ به ، ولا صلاةً إلاَّ صَلاَّها ، وكان يُصلي بالنَّاس في النصف[(٢)] مائة ركعة وهو مُسِن ، ولا يتركُ قيامَ الليل من وقت شُبُوبيّتِه ، وإذا رافقَ ناساً في السَّفر ناموا وحَرَسَهم يُصلِّي[(٣)] .

---

(١) انظر السير : (عبد الغني) ٢١/٤٤٣ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ١٦٤٥ .

(٢) يعني في النصف من شعبان .

(٣) انظر السير : (الشيخ أبو عُمر) ٢٢/٥ـ ٩ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٦١ .

قال الذهبيُّ : كان أبو عُمر بنُ قُدامة قُدوةً صالحاً ، عابداً قانتاً لله ، رَبَّانياً ، خاشعاً مُخلصاً، عَديمَ النَّظير ، كَبيرَ القَدْر ، كثيرَ الأورَاد والذِّكر والمَروءة والفُتُوة والصِّفات الحَميدة ، قَلَّ أنْ ترى العُيونُ مثلَه .

قيل : كان رُبَّما تَهَجَّدَ، فإن نَعَسَ ضَرَبَ علىٰ رجلَيه بقَضِيبٍ حتىٰ يطيرَ النُّعَاس ، وكان يُكثِرُ الصِّيامَ ، ولا يَكَادُ يَسمعُ بجَنَازَةٍ إلاَّ شَهِدَها ولا مريضٍ إلاَّ عَادَه ، ولا جهادٍ إلاَّ خَرَجَ فيه ، ويتلو كل ليلة سُبعاً مرتلاً في الصلاة ، وفي النهار سُبعاً بين الصلاتين ، وإذا صلى الفجر تلا آياتِ الحرس ويس والواقعة وتبارك ، ثم يُقرِىء ويُلقِّن إلى ارتفاع النهار ، ثم يصلي الضحىٰ ، فيُطيل ويصلي طويلاً بين العِشاءَين ويُصلي صلاةَ التَّسابيح كلَّ ليلةِ جمعة ، ويُصلي يومَ الجمعة ركعتين بمائة (قل هو الله أحد) فقيل : كانت نَوافلُه في كلِّ يومٍ وليلةٍ اثنتين وسبعين ركعة ، وله أذكار طويلة ، ويقرأ بعد العشاء آيات الحرس ، وله أورادٌ عند النَّوم واليَقظة وتَسابيح ، ولا يَترك غُسل الجمعة ، ويَنسخُ « الخِرَقي » من حفظه ، وله مَعرفةٌ بالفِقْه والعَربيّة والفَرائض وكان قاضياً لحَوائج الناس ، ومن سافرَ من الجماعة يتفقَّدُ أهاليهم ، وكان الناسُ يأتونَه في القضايا فيُصلحُ بينهم ، وكان ذا هَيْبَة ووقْعٍ في النُّفوس .

وقال الشيخ الموفق : ربَّانا أخي ، وعلَّمنا ، وحرصَ علينا ، كان للجماعة كالوالد يحرصُ عليهم ويقومُ بمصالحهم ، وهو الذي هاجرَ بنا ، وهو سَفَّرَنا إلىٰ بغداد ، وهو الذي كان يقوم في بناء الدَّير ، وحين رجعنا زَوَّجَنَا وبنىٰ لنا دُوراً خارج الدَّير ، وكان قلَّما يتخلفُ عن غَزَاة .

وكان هو وأصحابُه في خيمة علىٰ حصار القُدس، فزارَه الملك العادلُ فلم يجدْهُ ، فجلسَ ساعةً ، وكان الشيخُ يُصلِّي فذهبوا مرتين فلم يجىء فأحضروا للعادل أقراصاً فأكلَ وقامَ وما جاءَ الشيخُ[1] .

وقال الضياءُ : كان ابنُ قُدامة يُصلي بخُشُوع ولا يَكادُ يُصلي سُنَّة الفجر والعشاءَين

(١) انظر السير : (الشيخ أبو عُمر) ٢٢/٥ـ٩ ، وانظر النزهة : ٣/١٦٦١ .

إلاَّ في بيته ، وكان يُصلي بين العشاءَين أربعاً « بالسَّجدَة » و« يَس » و« الدُّخان » و« تَبَارك » ، لا يكادُ يُخِلُّ بِهِنَّ ويقومُ السَّحرَ بسُبع وربما رفعَ صَوتَه ، وكان حَسَنَ الصَّوت[1] .

٢٠ـ الوُضُوء :

(أ) استعمال قَليلٍ من الماءِ فيه :

قال محمدُ بنُ عبد الله بن عبد الحَكَم : ما رأيتُ أحداً أقلَّ صَبَّاً للماء في تمام التَطَهُّر من الشَّافعيّ[2] .

(ب) تَجْديدُ الوُضُوء :

يقول الإمامُ الذهبيُّ : بَلَغَنَا عن أبي القاسم التيميِّ تَعَبُّد وأورادٌ وتَهَجُّد ، فقال أبو موسىٰ : سمعتُ من يحكي عنه في اليومِ الذي قُدِم بولده ميّتاً ، وجلسَ للتعزية أنه جَدَّدَ الوضوءَ في ذلك اليوم مراتٍ نحوَ الثلاثين ، كلُّ ذلك يُصلي ركعتين[3] .

وقال الذهبيُّ في ترجمة عبد الغني المَقْدسي : كان لا يُضَيِّعُ شيئاً من زمانه بلا فائدة ، فإنَّه كان يُصَلِّي الفجرَ ، ويُلَقِّنُ القرآنَ ، وربما أَقْرَأ شيئاً من الحَديث تلقيناً ، ثم يقومُ فيتوضأُ ويُصَلِّي ثلاثَ مئة ركعة بالفاتحة والمُعوِّذَتين إلىٰ قبل الظهر ، وينامُ نَوْمةً ثم يُصَلِّي الظهر ويشتغلُ إمَّا بالتَّسْميع أو النَّسْخ إلى المغرب ، فإذا كان صائماً أفطرَ ، وإلاَّ صَلَّىٰ من المغرب إلى العشاء ويُصَلِّي العشاءَ ، وينامُ إلىٰ نصفِ الليل أو بعدَه ، ثم قامَ كأنَّ إنسَاناً يُوقِظهُ ، فيُصَلِّي لحظةً ثم يتوضأ ويصلي إلىٰ قُرب الفجر ، رُبما توضأ سبعَ مرات أو ثَمانياً في الليل ، وقال : ما تطيبُ لي الصلاةُ إلاَّ ما دامت أعضائي رطبة ، ثم ينامُ نَومةً يسيرةً إلى الفجر ، وهـٰذا دأبُه .

---

(١) انظر السير : (ابن قدامة) ٢٢/ ١٦٥ـ١٧٣ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٨٢ .
(٢) انظر السير : (الشافعي) ١٠/ ٥ـ٩٩ ، وانظر النزهة : ٢/٨٥٠ .
(٣) انظر السير : (التيمي) ٢٠/ ٨٠ـ٨٨ ، وانظر النزهة : ٤/١٥٣٢ .

وعن مُوفق الدين قال : كان الحافظُ عبد الغنيِّ جامعاً للعلم والعمل ، وكان رفيقي في الصِّبا ، وفي طلب العلم ، وما كُنَّا نَسْتَبِقُ إلىٰ خيرٍ إلاَّ سَبَقَني إليه إلاَّ قليلاً ، وكَمَّل الله فضيلته بابتلائه بأذىٰ أهل البدعة وعَدَاوتهم ، ورُزِقَ العلمَ وتحصيلَ الكُتُب الكثيرة إلاَّ أنَّه لم يُعمَّر .

قال الضِّياءُ : وكان يستعملُ السِّوَاكَ كثيراً حتىٰ كأنَّ أسْنانَه البَرَد

سمعتُ محمودَ بنَ سَلامة التَّاجر الحَرَّانيَّ يقول : كان الحافظُ عبدُ الغنيِّ نازلاً عندي بأَصْبَهَان ، وما كان ينامُ من الليل إلاَّ قليلاً ، بل يُصَلي ويَقرأُ ويبكي

وسمعتُ نصرَ بن رضوان المقرىء يقول : ما رأيتُ أحداً علىٰ سيرة الحافظ ، كان مشتغلاً طول زمانه[١] .

٢١ـ الصَّلاة

(أ) الصَّلاة رُكنُ الدِّين :

قال المسْوَر بنُ مَخْرَمة : لمَّا أصبحَ عُمرُ من الغد ـ وهو مَطعون ـ فَزّعوه فقالوا : الصَّلاة ، ففَزِعَ وقال : نعم ولا حَظَّ في الإسلام لمَنْ تَركَ الصَّلاة ، فصَلَّىٰ وجُرحُه يَثعُبُ دماً[٢] .

(ب) صُور من الحِرْص علىٰ صلاة الجَماعة :

عن ابنِ المُسَيِّب قال : ما فاتَتْني الصَّلاةُ في جماعة منذُ أربعين سنة[٣] .

وعن عثمان بن حكيم ، سمعتُ سعيدَ ابنَ المُسَيِّب يقول : ما أَذَّنَ المُؤذِّنُ منذ ثلاثين سَنَةً إلاَّ وأنا في المسجد[٤] .

---

(١) انظر السير : (عبد الغنيّ) ٢١/ ٤٤٣ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ١٦٤٥ .
(٢) انظر السير : (عُمر بن الخَطَّاب) ، وانظر النزهة : ٥٦/ ١ .
(٣) انظر السير : (سعيد بن المسيّب) ٤/ ٢١٧ـ٢٤٦ ، وانظر النزهة : ٤٨٢/ ٤ .
(٤) انظر السير : (سعيد بن المسيّب) ٤/ ٢١٧ـ٢٤٦ ، وانظر النزهة : ٤٨٢/ ٥ .

وعن ابنِ شِهاب ، قلتُ لسعيدِ بنِ المسَيِّب : لو تَبَدَّيْتَ ، وذَكَرتُ له البادية وعيشها والغنم ، فقال : كيف بشُهُود العَتَمَةِ[1] .

وعن ابن حرملة ، عن سعيد بنِ المُسَيِّب أنَّه اشتكىٰ عَينَه فقالوا : لو خرجتَ إلى العقيق فنظَرتَ إلى الخُضْرة ، لوجدتَ لذلك خِفَّةً قال : فكيفَ أصنعُ بشُهُود العَتَمَة والصُّبح[2] .

وعن أبي حَيَّانَ ، عن أبيه ، قال : كان الربيعُ بنُ خثيم يُقَادُ إلى الصَّلاةِ وبه الفَالِجُ ، فقيلَ له : قد رُخِّصَ لك قال : إنِّي أسمعُ « حيّ على الصَّلاة » فإن استطعتُم أن تأتُوها ولو حَبْواً[3] .

وقال إبراهيمُ بن يزيد : إذا رأيتَ الرَّجُلَ يَتهَاونُ في التَّكبيرَةِ الأُولىٰ فاغسِل يَدَكَ منه[4] .

وقال مُصْعَبُ : سَمعَ عامرُ بنُ عبد الله المُؤَذِّنَ ، وهو يَجُودُ بنفسِه ، فقال : خُذوا بيَدي فقيل : إنَّكَ عَليل قال : أسمعُ داعي الله فلا أُجِيبُهُ ، فأَخَذُوا بيده ، فدخل مع الإمام في المغرب فرَكَعَ ركعةً ثم مات[5] .

وقال يَحيى القَطَّان : الأعمشُ عَلاَّمَةُ الإسلام ، قال وكيعُ بنُ الجَرَّاح : كان الأعمش قريباً من سبعين سنة ، لم تَفُتْهُ التَّكبِيرَةُ الأُولىٰ[6] .

وقال محمدُ بنُ المبارك الصُّوري : كان سعيدُ بن عبد العزيز إذا فاتته صلاة الجماعة بكىٰ[7] .

---

(1) انظر السير : (سعيد بن المسيّب) ٤/ ٢١٧ـ ٢٤٦ ، وانظر النزهة : ٤/٤٨٣ .
(2) انظر السير : (سعيد بن المسيّب) ٤/ ٢١٧ـ ٢٤٦ ، وانظر النزهة : ٢/٤٨٨ .
(3) انظر السير : (الربيع بن خثيم) ٤/ ٢٥٨ـ ٢٦٢ ، وانظر النزهة : ٦/٤٩٣ .
(4) انظر السير : (إبراهيم بن يزيد) ٥/ ٦٠ـ ٦٢ ، وانظر النزهة : ٦/٥٨٠ .
(5) انظر السير : (عامر) ٥/ ٢١٩ـ ٢٢٠ ، وانظر النزهة : ٣/٥٩٦ .
(6) انظر السير : (الأعمش) ٦/ ٢٢٦ـ ٢٤٨ ، وانظر النزهة : ١/٦٤٤ .
(7) انظر السير : (سعيد بن عبد العزيز) ٨/ ٣٢ـ ٣٨ ، وانظر النزهة : ٦/٧٢٣ .

وقال غَسَّانُ : حَدَّثني ابنُ أخي بِشْر بن منصور قال : ما رأيتُ عَمِّي فاتَتْهُ التَّكبِيرةُ الأُولىٰ[1] .

قال عبدُ الرَّحمـٰن رُستَه : سألتُ ابن مهديٍّ عن الرَّجُل يَبني بأهله ، أَيَتْرُكُ الجَمَاعةَ أيَّاماً ؟ قال : لا ، ولا صلاةً واحدةً وحَضَرتُه صَبيحَةَ بُنِيَ على ابنتِه ، فخرجَ ، فأَذَّنَ ، ثم مَشَىٰ إلىٰ بابهِما ، فقال للجارية : قُولي لهُما : يَخرُجان إلى الصَّلاة ، فخَرَجَ النِّساءُ والجَوَاري ، فقُلن : سُبحانَ الله!! أيُّ شيء هـٰذا ؟ فقال : لا أبْرَحُ حتىٰ يَخرُجا إلى الصَّلاة ، فخَرَجا بَعدَما صَلَّىٰ ، فبَعَثَ بهِما إلىٰ مَسجد خارج من الدَّرْب .

قال الذهبيُّ : هكَذا كان السَّلفُ في الحِرصِ على الخَيْرِ .

وقال بُنْدَار : سمعتُ عبدَ الرحمـٰن بن مهدي يقول : ما نعرفُ كتاباً في الإسلام بعدَ كتابِ الله أَصَحَّ من « مُوطَّأ مالك »[2] .

ويُقال: كان المُزَنيُّ إذا فاتَه صلاةُ الجماعة صَلَّىٰ تلك الصَّلاةَ خمساً وعشرين مرة[3] .

ورُوي عن ابن خفيف أنَّه كان به وَجَعُ الخاصِرة، فكان إذا أصابَه أقعَدَه عن الحَرَكة، فكان إذا نُودي بالصلاة يُحملُ علىٰ ظهر رجل ، فقيل له : لو خَفَّفتَ علىٰ نفسك ؟ قال : إذا سَمعتُم حيّ على الصَّلاة ولم تَرَوْني في الصَّف فاطلُبُوني في المَقبَرة[4] .

(ج) رؤيا فيها حثٌّ علىٰ صلاة الجماعة :

قال البغويُّ : سَمعتُ عُبَيدَ الله القواريري يقول : لم تكنْ تَفُوتُني صلاةُ العَتَمَة في جماعة فنزل بي ضيفٌ ، فشُغلتُ به فخرجتُ أطلبُ الصَّلاةَ في قبائلِ البَصْرَة ، فإذا

---

(١) انظر السير : (بِشْر بن منصور) ٨/ ٣٥٩ـ ٣٦٢ ، وانظر النزهة : ٣/٧٦٤ .
(٢) انظر السير : (عبد الرحمـٰن بن مهدي) ٩/ ١٩٢ـ ٢٠٩ ، وانظر النزهة : ٢/٨١٨ .
(٣) انظر السير : (المزني) ١٢/ ٤٨٩ـ ٤٩١ ، وانظر النزهة : ٤/١٠٢٤ .
(٤) انظر السير : (ابن خفيف) ١٦/ ٣٤٢ـ ٣٤٧ ، وانظر النزهة : ٤/١٢٩٨ .

النَّاسُ قد صَلُّوا فقلتُ في نفسي يُروَىٰ عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « صلاةُ الجَميع تَفْضُلُ صَلاةَ الفَذِّ إحْدَىٰ وعشرين دَرَجَةً » ، ورُوِيَ « خَمْسَاً وعشرين دَرَجَةً » ، ورُوِيَ « سَبْعَاً وعشرين » فانقلبتُ إلىٰ مَنزِلي ، فصَلَّيْتُ العَتَمَةَ سَبْعَاً وعشرين مرةً ، ثم رقدتُ فرأيتُنِي مع قومٍ راكبي أفراسٍ ، وأنا راكبٌ ونحن نَتَجَارىٰ وأفراسُهم تَسْبقُ فَرَسي ، فجعلتُ أضربُه لألحَقَهُم ، فالتَفَتَ إليَّ آخرُهم فقال : لا تُجْهِد فَرَسَك فلسْتَ بلاحِقِنا قال : فقلتُ : ولِمَ ؟ قال : لأنَّا صَلَّينا العَتَمَةَ في جماعة[1] .

(د) الخُشُوع في الصَّلاة :

قال مُجاهِد : كان عبدُ الله بن الزُّبير إذا قامَ إلى الصَّلاةِ كأنَّه عُود ، وحَدَّثَ أنَّ أبا بكرٍ رضي الله عنه كان كذلك[2] .

وعن عَمرو ابنِ دينار قال : كان ابنُ الزُّبير يَصَلِّي في الحِجْر والمِنْجَنيقُ يَصُبُّ تُوبَه[3] . فما يَلتفتُ ، يَعني : لمَّا حاصَرُوه[4] .

وعن أبي الحُسَين المجاشعي ، قال لعامر بن عبد قيس : أتُحَدِّثُ نفسَكَ في الصَّلاة ؟! قال : أُحَدِّثُها بالوُقوفِ بين يدي الله ، ومُنصَرَفي[5] .

وقال زُبيدُ : رأيتُ زاذانَ يُصلِّي كأنَّه جِذْع[6] .

وعَن أبي نُوحٍ الأَنصَاري قال : وَقَعَ حريقٌ في بيتٍ فيه عليُّ ابنُ الحُسَين وهو ساجِدٌ ، فجَعَلوا يَقُولون : يا ابنَ رسولِ الله النَّار فما رَفَعَ رأسَه حتىٰ طُفِئَت فقيل له في ذلك فقال : ألهَتني عنهَا النَّارُ الأُخرىٰ[7] .

---

(١) انظر السير : (القواريري) ١١/٤٤٢ـ٤٤٦ ، وانظر النزهة : ١/٩٥٩ .
(٢) انظر السير : (عبد الله بن الزُّبير) ٣/٣٦٣ـ ٣٨٠ ، وانظر النزهة : ٢/٣٩٥ .
(٣) التُّوب : حجر المنجنيق .
(٤) انظر السير : (عبد الله بن الزُّبير) ٣/٣٦٣ـ ٣٨٠ ، وانظر النزهة : ٣/٣٩٥ .
(٥) انظر السير : (عامر بن قيس) ٤/١٥ـ١٩ ، وانظر النزهة : ٤/٤٣٣ .
(٦) انظر السير : (زاذان) ٤/ ٢٨٠ـ ٢٨١ ، وانظر النزهة : ٣/٤٩٨ .
(٧) انظر السير : (عليّ بن الحُسَين) ٤/٣٨٦ـ ٤٠١ ، وانظر النزهة : ٢/٥١٨ .

وعن عبد الله بنِ أبي سُليمان قال : كان عليُّ بنُ الحُسَين إذا مشىٰ لا تُجَاوِزُ يَدُه فَخذَيه ولا يَخطرُ بهما ، وإذا قامَ إلى الصَّلاة ، أَخَذَته رِعدَة ، فقِيل له ، فقال : تدرون بين يَدَي مَنْ أقومُ ومَنْ أُناجِي ؟

وعنه أنَّه كانَ إذا تَوضَأ اصفرَّ[1] .

عن عبدِ الله بن مسلم بن يَسَار : أنَّ أبَاه كان إذا صَلَّىٰ كأنَّه وَدٌّ[2]لا يميلُ لا هٰكذا ولا هٰكذا[3] .

وقال غَيلانُ بنُ جَرير : كان مسلمُ بنُ يَسَار إذا صلىٰ كأنَّه ثوبٌ مُلْقَىٰ ، وقال ابنُ شَوذب : كان مسلم بن يَسَار يقولُ لأهله إذا دخلَ في الصَّلاة : تَحَدَّثوا فلسْتُ أسمعُ حَديثَكم[4] .

ورُويَ أنَّه وقع حَريقٌ في دارِه وأُطفِىءَ ، فلمَّا ذُكِرَ ذلكَ لهُ قالَ : ما شَعَرتُ[5] .

وقال الأعمشُ : كان إبراهيمُ التيمي إذا سَجَدَ كأنَّه جِذْمُ حائطٍ يَنزلُ عن ظهرِه العصافير[6] .

وقال زيادُ بنُ أَيُّوب : حَدَّثَنا أبو بكر قال : كان عاصمُ بنُ أبي النُّجود إذا صَلَّىٰ يَنتَصِبُ كأنَّه عُود ، وكان يكونُ يومَ الجُمُعَة في المسجد إلى العصر ، وكان عَابداً خَيِّراً يُصَلِّي أَبَداً ، رُبَّما أتىٰ حاجةً ، فإذا رَأىٰ مسجداً قال : مِلْ بنا ، فإنَّ حَاجَتَنا لا تَفوتُ ، ثم يدخلُ فيُصَلِّي[7] .

---

(١) انظر السير : (عليّ بن الحُسَين) ٤/ ٣٨٦ـ ٤٠١ ، وانظر النزهة : ٣/٥١٨ .
(٢) الوَدّ : الوتد .
(٣) انظر السير : (مسلم بن يَسَار) ٤/ ٥١٠ـ ٥١٤ ، وانظر النزهة : ٢/٥٤٧ .
(٤) انظر السير : (مسلم بن يَسَار) ٤/ ٥١٠ـ ٥١٤ ، وانظر النزهة : ٣/٥٤٧ .
(٥) انظر السير : (مسلم بن يَسَار) ٤/ ٥١٠ـ ٥١٤ ، وانظر النزهة : ٤/٥٤٧ .
(٦) انظر السير : (إبراهيم بن يزيد) ٥/ ٦٠ـ ٦٢ ، وانظر النزهة : ٢/٥٨٠ .
(٧) انظر السير : (عاصم بن أبي النُّجود) ٥/ ٢٥٦ـ ٢٦١ ، وانظر النزهة : ٦/٥٩٩ .

عن الوليدِ بن مَزْيَد : سُئلَ الأوْزَاعيُّ عن الخُشُوعِ في الصَّلاة قال : غَضُّ البَصَر ، وخَفْضُ الجَنَاح ، ولِينُ القَلْبِ ، وهو الحَزَن ، والخَوف[1] .

وقال أحمدُ بنُ سِنان : رأيتُ وكيعاً إذا قامَ في الصَّلاة ليسَ يَتَحَرَّكُ منه شيءٌ ، لا يَزولُ ولا يَميلُ علىٰ رجلٍ دون الأخرىٰ[2] .

وقال أحمدُ بنُ سِنان : ما رأيتُ عالِماً قَطُّ أَحْسَنَ صَلاةً من يَزيد ابن هارون ، يقومُ كأنَّه أُسطوانة[3] .

وبَلغَ من زُهد يَعقُوبَ الحَضْرميّ أنَّه سُرِقَ رداؤُه عن كتفِه وهو في الصَّلاة ، ولم يَشْعُر ، ورُدَّ إليه ، فلم يَشْعُر ، لشُغله بعبادة ربِّه ، وبَلَغَ من جاهِه بالبَصْرَة أنَّه كان يَحبِسُ ويُطلِق ، مات يعقوبُ سنةَ خمس ومئتين[4] .

وقال محمد بن أبي حاتم : دُعي محمدُ بنُ إسماعيل إلىٰ بُستَان بعضِ أصحابِه ، فلمَّا صَلَّىٰ بالقومِ الظُّهرَ ، قامَ يَتَطوَّعُ ، فلمَّا فَرَغَ من صلاته ، رَفَعَ ذَيلَ قميصِه ، فقال لبعضِ مَنْ معه : انظر هل ترىٰ تحت قميصي شيئاً ؟ فإن زنبوراً قد أَبَرَهُ في ستة عشر أو سبع عشر موضعاً ، وقد تورَّم من ذلك جسدُه فقال له بعضُ القوم : كيف لَم تخرج من الصَّلاة أوّلَ ما أَبَرَك ؟ قال : كنتُ في سورةٍ ، فأحبَبْتُ أن أُتِمَّها ! ![5] .

قال أبو بكر الصِّبغي : أدركتُ إمامَين لمْ أُرزَق السَّماعَ منهما : أبو حاتم الرَّازي ، ومحمد بن نصر المَرْوزي ، فأمَّا ابنُ نصر فما رأيتُ أَحْسَنَ صَلاةً منه ، لقد بَلغَني أن زُنبُوراً قَعَدَ علىٰ جَبهتِه فسالَ الدَّمُ علىٰ وجهه ، ولم يتحَرَّك[6] .

---

(١) انظر السير : (الأوزاعي) ٧/ ١٠٧ـ ١٣٤ ، وانظر النزهة : ١/٦٨٢ .
(٢) انظر السير : (وكيع) ٩/ ١٤٠ـ ١٦٨ ، وانظر النزهة : ٨/٨١١ .
(٣) انظر السير : (يزيد بن هارون) ٩/ ٣٥٨ـ ٣٧١ ، وانظر النزهة : ١/٨٣٠ .
(٤) انظر السير : (يعقوب الحضرمي) ١٠/ ١٦٩ـ ١٧٤ ، وانظر النزهة : ٤/٨٦٣ .
(٥) انظر السير : (أبو عبد الله البخاريّ) ١٢/ ٣٩١ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ٢/١٠١٦ .
(٦) انظر السير : (محمد بن نصر) ١٤/ ٣٣ـ ٤٠ ، وانظر النزهة : ١/١١٢٦ .

وقال محمدُ بنُ يَعقُوب بن الأخْرَم : ما رَأيتُ أحسَنَ صَلاةً من محمد بنِ نصر كان الذُّبابُ يقعُ علىٰ أُذُنِه ، فيَسِيلُ الدَّمُ ، ولا يَذُبُّه عن نفسه ، ولقد كُنَّا نتعَجَّبُ من حُسن صَلاتِه وخُشُوعه وهَيْئَتِهِ للصَّلاة ، كان يضعُ ذَقنَه علىٰ صَدره فيَنْتَصِبُ كأنَّه خَشَبَةٌ مَنْصُوبة قال : وكان مِن أحسَنِ النَّاس خَلْقاً ، كأنَّما فُقِيءَ في وجهه حَبُّ الرُّمان ، وعلىٰ خَدَّيه كالوَرد ، ولِحيَتُه بيضاء[1] .

(هـ) التَّهَجُّد :

١ـ قولٌ جميلٌ في فائدة التَهَجُّد :

قال مروانُ الطَّاطَرِي : قال الأوزاعِيُّ : مَنْ أَطالَ قيامَ اللّيل ، هوَّنَ الله عليه وقوفَ يوم القيامة[2] .

٢ـ رؤىٰ فيها حثٌّ على التهَجُّد :

وقال جعفرُ بنُ سُليمان الضُّبعي : حَدَّثنا هشامُ بنُ زِياد أخو العَلاء ابن زياد ، أنَّ العَلاء كان يُحْيي ليلةَ الجُمُعة ، فنامَ ليلةَ جُمُعةٍ ، فأتاه مَن أَخَذَ بناصِيته ، فقال : قُم يا ابنَ زِياد ، فاذكُر الله يَذْكُركْ فقامَ ، فما زالت تلكَ الشَّعراتُ التي أَخَذَها منه قائمةً حتىٰ مات[3] .

قال إبراهيمُ الحَربي : حَدَّثنا داودُ بنُ رشيد قال : قمتُ ليلةً أُصَلّي ، فأخَذَني البَردُ لِمَا أنا فيه من العُريّ ، فأخَذَني النَّومُ ، فرأيتُ كأنَّ قائلاً يقولُ : يا داود ، أنَمْناهم وأقَمْناكَ فتبكي علينا ؟ قال الحَربيُّ : فأظُنُّ داودَ ما نامَ بعدها ، يَعنِي : ما تركَ تَهَجُّد الليل[4] .

وقال الخلديّ : رأيتُ أحمدَ بنَ محمد النُّوري الزَّاهد في النَّوم ، فقلتُ :

---

(١) انظر السير : (محمد بن نصر) ١٤/ ٣٣ـ ٤٠ ، وانظر النزهة : ٢/١١٢٦ .
(٢) انظر السير : (الأوزاعيّ) ٧/ ١٠٧ـ ١٣٤ ، وانظر النزهة : ٤/٦٨٣ .
(٣) انظر السير : (العلاء بن زياد) ٤/ ٢٠٢ـ ٢٠٦ ، وانظر النزهة : ٤/٤٧٨ .
(٤) انظر السير : (داود بن رشيد) ١/ ١٣٣ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٢/٩١٦ .

ما فعلَ الله بك ؟ فقال : طاحَت تلكَ الإشارات وغابَت تلكَ العِبَارات ، وفَنِيَت تلكَ العُلوم ، ونفِدَت تلكَ الرُسُوم ، وما نفَعَنا إلاَّ رَكَعاتٌ كُنَّا نركَعُها في الأَسحار[1] .

٣ـ الحَثُّ على التَّهَجُّد :

وقال إبراهيمُ بنُ محمد بن سُفيان : سمعتُ عاصمَ بنَ عصام البَيْهَقي يقولُ : بتُّ ليلةً عند أحمد بنِ حنبل ، فجاءَ بماءٍ فَوَضَعَه ، فلمَّا أصبحَ نَظَرَ إلى الماءِ بحالِه ، فقال : سُبحانَ الله ! ! رجلٌ يَطلُبُ العِلمَ لا يكونُ له وردٌ بالليل[2] .

٤ـ صورٌ من التَّهَجُّد :

وعن عَون بن عبد الله ، عن أخيه عُبَيد الله قال : كان عبدُ الله ابن مَسْعود إذا هَدَأَت العُيون قامَ فسَمِعتُ له دوياً كَدوِيِّ النحل[3] .

وعن عبَّاسٍ الجُرَيريِّ ، سمعتُ أبا عُثمان النَّهدي قال : تَضَيَّفتُ أبا هريرةَ سبعاً ، فكان هو وامرأتُه وخادمُه يَعْتَقِبُون الليلَ أثْلاثاً ، يُصَلي هـٰذا ، ثم يُوقِظُ هـٰذا ، ويُصَلي هـٰذا ثم يُوقِظُ هـٰذا[4] .

وكان أبو بَرْزَة الأَسْلميّ يقومُ إلىٰ صلاة الليل ، فيتوضأ ، ويوقظُ أهلَه رضي الله عنه ، وكان يقرأُ بالستِّين إلى المئة[5] .

عن عُمر بن محمد بن زيد ، أخبرنا أبي أنَّ عبدَ الله بن عُمر كان له مِهْراسٌ[6] فيه ماءٌ فيصلي فيه ما قُدِّر له ، ثم يصير إلى الفِراش ، فيُغفي إغْفاءة الطائر ، ثم يقوم فيتَوضَّأ ويُصلي ، يفعلُ ذلك في الليل أربع مرات أو خمسة[7] .

---

(١) انظر السير : (النُّوريّ) ١٤/ ٧٠ـ ٧٧ ، وانظر النزهة : ٣/١١٣٥ .
(٢) انظر السير : (أحمد بن حنبل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ١/ ٩٤٥ .
(٣) انظر السير : (عبد الله بن مسعود) ١/ ٤٦١ـ ٥٥٠ ، وانظر النزهة : ٤/ ١٩٧ .
(٤) انظر السير : (أبو هريرة) ٢/ ٥٧٨ـ ٦٣٢ ، وانظر النزهة : ٤/ ٣١١ .
(٥) انظر السير : (أبو برزة الأسلمي) ٣/ ٤٠ـ ٤٣ ، وانظر النزهة : ٥/ ٣٢٨ .
(٦) المهراس : صخرة منقورة تسع الكثير من الماء ، وقد يُعمل منها حياض للماء .
(٧) انظر السير : (عبد الله بن عُمر) ٣/ ٢٠٣ـ ٢٣٩ ، وانظر النزهة : ٣/ ٣٦٨ .

وعن ابن أبي مُلَيْكَة : صَحِبتُ ابنَ عَبَّاسٍ من مكةَ إلى المدينةِ ، فكان يُصَلّي ركعتين ، فإذا نَزَلَ ، قامَ شَطرَ اللَّيلِ ، ويُرَتِّلُ القرآنَ حَرفاً حَرفاً ، ويُكثِرُ في ذلك من النَّشِيجِ والنَّحِيب[1] .

وعن أصبغ بن زيد قال : كان أُوَيْسُ القَرنيّ إذا أمسَىٰ يقول : هـٰذه ليلةُ الرُّكوع ، فيَركعُ حتىٰ يُصْبِح ، وإذا أمسَىٰ يقول : هـٰذه ليلةُ السُّجُود ، فيَسْجُدُ حتىٰ يُصْبِح ، وكان إذا أمسىٰ تَصَدَّقَ بما في بيته من الفَضْل من الطَّعَام والشَّرَاب ، ثم قال : اللَّهُمَّ مَن ماتَ جُوعاً فلا تُؤاخِذْني به ، ومَن ماتَ عُرْياً فلا تُؤاخِذْني به[2] .

ورَوَى الوليدُ بنُ عليٍّ عن أبيه قال : كان سُوَيدُ بنُ غَفَلة يَؤمُّنا في شهر رمضان في القيام ، وقد أتىٰ عليه عِشرون ومائة سنة[3] .

قال الذهبيُّ : بَلغَنا عن مُرَّة الطيب أنَّه سَجَدَ حتىٰ أكلَ التُّرَابُ جَبهَتَه[4] .

وقال سُفيانُ بنُ عُيَيْنَة : سَمعتُ عَطاءَ بنَ السَّائِب يقولُ : رأيتُ مُصَلَّىٰ مُرَّةَ الهمذانيّ مثل مَبرِك البَعير ، ونقل عَطاءٌ أو غَيرُه أنَّ مُرَّةَ كان يُصَلي في اليوم والليلة سِتَّ مئة قال الذهبيُّ : ما كان هـٰذا الوَلِيُّ يَكادُ يَتَفرَّغُ لنَشْرِ العِلم ، ولهـٰذا لم تَكثُر رِوايتُه ، وهل يُرادُ من العِلم إلاَّ ثَمَرَتُه[5] .

وقال أبو الأشْهب : كان أبو رَجاء العَطارديّ يَخْتمُ بنا في قيامٍ لكل عشرة أيام[6] .

وعن عبد الله بنِ محمد بن عقيل قال : كنتُ أنا وأبو جعفر الباقر نختلفُ إلىٰ جابر نكتبُ عنه في ألواح ، وبلغَنا أنَّ أبا جعفر كان يُصَلي في اليوم والليلة مئة وخمسين ركعة[7] .

---

(١) انظر السير : (عبد الله بن عباس البحر) ٣/ ٣٣١ـ ٣٥٩ ، وانظر النزهة : ٣/٣٩١ .
(٢) انظر السير : (أُويس القَرني) ٤/ ١٩ـ ٣٣ ، وانظر النزهة : ٥/٤٣٥ .
(٣) انظر السير : (سُويد بن غَفَلة) ٤/ ٦٩ـ ٧٣ ، وانظر النزهة : ١/٤٤٧ .
(٤) انظر السير : (مُرَّة الهمذاني) ٤/ ٧٤ـ ٧٥ ، وانظر النزهة : ٣/٤٤٧ .
(٥) انظر السير : (مُرَّة الهمذاني) ٤/ ٧٤ـ ٧٥ ، وانظر النزهة : ٤/٤٤٧ .
(٦) انظر السير : (أبو رجاء العطاردي) ٤/٢٥٣ـ ٢٥٧ ، وانظر النزهة : ٢/٤٩٢ .
(٧) انظر السير : (أبو جعفر الباقر) ٤/٤٠١ـ ٤٠٩ ، وانظر النزهة : ١/٥٢٢ .

وقال الذهبيُّ : بَلغَنا أنَّ مُعاذةَ بنتَ عبد الله زوجة السَّيد القُدوة صِلَةَ بن أشيم تُحيي الليلَ عِبادةً ، وتقولُ : عجبتُ لعينٍ تنامُ وقد عَلمَتْ طُولَ الرُّقادِ في ظُلَم القُبور[١] .

وقال ابنُ شُبْرُمَةَ : كان زُبيدُ بنُ الحارث يُجَزِّىءُ اللّيلَ ثلاثةَ أجزاء : جزءاً عليه ، وجزءاً على ابنِه ، وجزءاً على ابنه الآخَر عبدِ الرَّحمـٰن فكان يُصَلّي ، ثم يقولُ لأحدِهما : قُم ، فإن تَكاسَلَ صَلّىٰ جُزءَه ، ثم يقولُ للآخَر : قُم ، فإن تَكاسَلَ أيضاً صَلّىٰ جُزءَه ، فيُصَلّي اللّيلَ كُلَّه[٢] .

وعن مالك بنِ أنس قال : كان صَفوانُ بنُ سُليم يُصَلّي في الشِّتاءِ في السطح وفي الصَّيْف في بَطنِ البَيْت ، يَتيَقَّظُ بالحَرِّ والبَرد ، حتىٰ يُصبِح ، ثم يقول : هـٰذا الجَهْدُ من صفوان وأنتَ أعلمُ ، وإنَّه لَترِمُ رِجْلاه حتىٰ يعودَ كالسِّقْطِ من قيام اللّيل ، ويظهَرُ فيه عروقٌ خُضر[٣] .

وقالت بنتٌ لجار مَنصور بنُ المعتمِر : يا أبتِ أين الخشبةُ التي كانت في سطح منصور قائمة ؟ قال : يا بنية ذاك منصورُ ، كان يقومُ الليلَ[٤] .

وعن سلام قال : كان أيوبُ السَّختِيَاني يقومُ الليلَ كُلَّه فيُخْفِي ذلك ، فإذا كان عند الصُّبحِ رَفَعَ صَوتَه كأنَّه قامَ تلك السَّاعة[٥] .

وقال ابنُ سَعْد : كان سُليمانُ بنُ طرخان من العُبَّاد المجتهدين ، كثيرَ الحديث ، ثقةٌ يُصَلّي اللّيلَ كُلَّه بوضوءِ عِشاء الآخرة ، وكان هو وابنُه يَدُوران باللّيل في المسَاجِد فيُصَليان في هـٰذا المسجِدِ مرةً وفي هـٰذا المسجِد مرة حتىٰ يُصبِحا[٦] .

عن القاضي أبي يوسُف قال : بينما أنا أمشي مع أبي حَنيفة ، إذ سَمعتُ رجُلاً يقولُ

---

(١) انظر السير : (مُعاذة) ٤/٥٠٨ـ٥٠٩ ، وانظر النزهة : ٥/٥٤٦ .
(٢) انظر السير : (زُبيد بن الحارث) ٥/٢٩٦ـ٢٩٨ ، وانظر النزهة : ٧/٦٠٤ .
(٣) انظر السير : (صفوان بن سُليم) ٥/٣٦٤ـ٣٦٩ ، وانظر النزهة : ٤/٦١٠ .
(٤) انظر السير : (منصور بن المعتمر) ٥/٤٠٢ـ٤١٢ ، وانظر النزهة : ٣/٦١٧ .
(٥) انظر السير : (أيوب السَّختياني) ٦/١٥ـ٢٦ ، وانظر النزهة : ٢/٦٢٦ .
(٦) انظر السير : (سُليمان بن طرخان) ٦/١٩٥ـ٢٠٢ ، وانظر النزهة : ٨/٦٤٠ .

لآخَر : هـٰذا أبو حَنيفة لا ينام الليل فقال أبو حَنيفة : والله لا يُتَحدَّثُ عنِّي بما لَمْ أفعل فكان يُحيي الليلَ صَلاةً وتَضرُّعاً ودُعاءً[١] .

وكان الحسنُ بنُ صالح من أئمة الاجتهاد ، وقد قال وكيعٌ : كان الحسنُ بنُ صالح وأخوه وأمُّهُما قد جَزَّؤوا الليلَ ثلاثةَ أجزاء ، فكلٌّ واحدٍ يقومُ ثلثاً ، فماتت أمُّهُما ، فاقتسما الليلَ ، ثم مات عليٌّ ، فقام الحسنُ الليلَ كلَّه[٢] .

وقال إسحاقُ السَّلولي : حَدَّثتني أمُّ سَعيدٍ ، قالت : كان بَيْننا وبين داودَ الطَّائي جِدَارٌ قصير ، فكنتُ أسمعُ حَنينَهُ عامَّة اللّيل ، لا يَهدأ ، ورُبَّمَا تَرنَّم في السَّحَر بالقرآنِ ، فأرَىٰ أنَّ جميعَ النَّعيم قد جُمعَ في تَرَنُّمِه ، وكان لا يسرج عليه[٣] .

وعن الوليدِ بنِ مسلم قال : كان سعيدُ بنُ عبد العزيز يُحْيي الليلَ ، فإذا طلعَ الفَجرُ ، جَدَّدَ وضُوءَه وخَرَجَ إلى المَسْجِد[٤] .

قال عُبيسُ بنُ مَيمون العطَّار ، حَدَّثتني عَبدة بنتُ أبي شَوَّال ، وكانت تَخدمُ رابعةَ العَدَويّة ، قالت : كانت رابعةُ تُصَلّي اللّيلَ كُلَّه ، فإذا طَلَعَ الفَجرُ ، هَجَعَت هَجعَةً حتىٰ يُسْفِر الفَجرُ ، فكنتُ أسمعُها تقول : يا نفسُ كم تَنامين ؟ ، وإلىٰ كم تَقومين ؟ ، يوشِكُ أنْ تَنامي نومةً لا تقومين منها إلاَّ ليومِ النُّشُور[٥] .

وعن إسحاقَ بن إبراهيمَ الطَّبَريّ قال : ما رأيتُ أحداً أخْوَفَ علىٰ نفسِه ، ولا أرْجَىٰ للنَّاس من الفُضَيْل كانت قراءتُه حَزينَة ، شَهيَّةً ، بَطيئة ، مُتَرَسِّلة ، كأنَّه يُخَاطِبُ إنسَاناً ، وكان إذا مَرَّ بآيةٍ فيها ذِكرُ الجَنَّة يُرَدِّدُ فيها ، وسَأل ، وكانت صَلاتُه بالليل أكثر ذلك قاعداً ، يُلقىٰ له الحصيرُ في مسجده فيُصَلي من أول الليل ساعةً ، ثم تَغلِبُه عينُه فيُلقي نفسَه على الحصير ، فينامُ قليلاً ، ثم يقومُ ، فإذا غَلَبَه النَّومُ نَامَ ، ثم

(١) انظر السير : (أبو حنيفة) ٦/ ٣٩٠ـ ٤٠٤ ، وانظر النزهة : ٧/٦٦٢ .
(٢) انظر السير : (الحسن بن صالح) ٧/ ٣٦١ـ ٣٧١ ، وانظر النزهة : ٣/٧٠٣ .
(٣) انظر السير : (داود الطّائي) ٧/ ٤٢٢ـ ٤٢٥ ، وانظر النزهة : ٤/٧١٢ .
(٤) انظر السير : (سعيد بن عبد العزيز) ٨/ ٣٢ـ ٣٨ ، وانظر النزهة : ٧/٧٢٣ .
(٥) انظر السير : (رابعة العدوية) ٨/ ٢٤١ـ ٢٤٣ ، وانظر النزهة : ٤/٧٤٧ .

يقوم هٰكذا حتىٰ يُصْبِح ، وكان دأبُهُ إذا نَعَسَ أن يَنَامَ ويُقالُ : أَشَدُّ العِبادةِ ما كان هٰكذا[1] .

وعن أبي عبد الله النَّخَعِي قال : لم يُفْرَش لأبي بكر بن عيَّاش فراشٌ خمسين سنة[2] .

وعن عاصمِ بنِ عليٍّ قال : كنتُ أنا ويزيدُ بنُ هارون عند قَيس ابنِ الرَّبيع ، فأمَّا يزيدُ فكان إذا صَلَّى العَتَمَةَ ، لا يزالُ قائماً حتىٰ يُصَلي الغَدَاةَ بذلك الوُضوء ، نَيِّفاً وأربعين سنة[3] .

وعن محمد بنِ إسماعيل ، حَدَّثني حُسَين الكَرَابيسي ، قال : بتُّ مع الشَّافعيِّ ليلةً ، فكان يُصَلي نَحوَ ثُلُثِ الليلَ ، فما رَأيتُه يزيدُ علىٰ خَمسين آية ، فإذا أكثرَ فمئة ، وكان لا يَمُرُّ بآيةِ رحمةٍ إلاَّ سألَ الله ، ولا آيةِ عذابٍ إلاَّ تَعوَّذَ ، وكأنَّما جُمعَ له الرَّجاءُ والرَّهبةُ جميعاً[4] .

وقال المروذيّ : رأيتُ أبا عبد الله أحمدَ بنَ حَنْبل يقومُ لورْدِه قريباً من نصف الليل حتىٰ يُقَارِب السَّحَر ، ورأيتُه يركعُ فيما بين المغرب والعشاء[5] .

وقال محمدُ بنُ يَحيى بن مَندة : لم يُحَدِّثْ بِبَلَدِنا منذُ أربعينَ سنة أوثقُ من أحمد بن مَهديّ ، صَنَّفَ « المُسند » ولم يُعرَف له فِراشٌ منذ أربعين سنة ، صاحبُ عِبادةٍ رحمه الله[6] .

وقال الرازيُّ : سَمعتُ الواعظَ أبا عبد الله القَزْويني يقولُ : إذا صَلَّيتَ مع عبد الرحمٰن بنِ أبي حاتم فَسَلِّم إليه نَفْسَك ، يَعملُ بها ما شاء دخلنا يوماً بغَلسٍ علىٰ

---

(١) انظر السير : (الفُضيل بن عياض) ٨/ ٤٢١_٤٤٢ ، وانظر النزهة : ٧/٧٧٤ .
(٢) انظر السير : (أبو بكر بن عيّاش) ٨/ ٤٩٥_٥٠٨ ، وانظر النزهة : ٧٨٦/ ٤ .
(٣) انظر السير : (يزيد بن هارون) ٩/٣٥٨_ ٣٧١ ، وانظر النزهة : ٣/٨٢٩ .
(٤) انظر السير : (الإمام الشافعي) ١٠/٥_٩٩ ، وانظر النزهة : ٥/٨٤٨ .
(٥) انظر السير : (أحمد بن حنبل) ١١/١٧٧_٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٢/٩٣٠ .
(٦) انظر السير : (أحمد بن مَهديّ) ١٢/٥٩٧_٥٩٨ ، وانظر النزهة : ١/١٠٣٨ .

عبد الرحمـٰن في مرض موته ، فكان على الفِراش قائماً يُصلي ، وركَعَ فأطالَ الرُّكوع[1] .

قال الحاكمُ : سَمعتُ عبدَ الله ولدَ عليِّ بن حَمْشاد يقولُ : ما أعلمُ أنَّ أبي ترَكَ قِيامَ الليل[2] .

وقال الحاكمُ : سَمعتُ محمدَ بنَ حَمْدون يقول : صَحِبتُ أبا بكر ابن إسْحاق الصِّبْغي سنين ، فما رَأيتُه قَطُّ ترَكَ قِيَامَ الليل لا في سَفَرٍ ولا في حَضَر[3] .

وقال أبو بكر الخَطِيب : كان وِردُ ابن الباقِلاّني في كل ليلة عشرين تَرويحَةً في الحَضَر والسَّفَر ، فإذا فَرَغَ منها كَتَبَ خَمساً وثلاثين ورقة من تصنيفه[4] .

٥ـ ترديدُ آيةٍ أو آياتٍ في التَّهَجُّد حتى الصُّبح أو قريباً منه :

عن مَسروق قال : قال لي رجلٌ من أهل مكة : هـٰذا مَقَامُ أخيكَ تَميم الدَّاريّ : صَلىٰ ليلةً حتىٰ أَصْبَحَ أو كاد ، يقرأُ آيةً يُرَدِّدُها ، ويَبْكي : ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾[5]،[6] .

وقال حمَّادُ بنُ سَلَمَة : قرأ ثابتُ بنُ أسْلَم : ﴿ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴾[7] ، وهو يُصَلي صَلاة الليل يَنْتَحبُ ويُرَدِّدُها[8] .

وعن القاسم بن معن : أنَّ أبا حَنيفة قامَ ليلةً يُرَدِّدُ قولَه تعالىٰ : ﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ

---

(١) انظر السير : (عبد الرحمـٰن بن أبي حاتم) ١٣/ ٢٦٣ـ٢٦٩ ، وانظر النزهة : ٣/١٠٧٩ .
(٢) انظر السير : (علي بن حمشاد) ١٥/ ٣٩٨ـ٤٠٠ ، وانظر النزهة : ٤/١٢٤١ .
(٣) انظر السير : (الصِّبغي) ١٥/ ٤٨٣ـ٤٨٨ ، وانظر النزهة : ١/١٢٥١ .
(٤) انظر السير : (ابن الباقلاني) ١٧/ ١٩٠ـ١٩٣ ، وانظر النزهة : ٣/١٣٣٤ .
(٥) سورة الجاثية ، الآية (٢١) .
(٦) انظر السير : (تميم الدّاري) ٢/ ٤٤٢ـ٤٤٨ ، وانظر النزهة : ٥/٢٨٨ .
(٧) سورة الكهف ، الآية (٣٧) .
(٨) انظر السير : (ثابت بن أسلم) ٥/ ٢٢٠ـ٢٢٥ ، وانظر النزهة : ١/٥٩٧ .

﴿وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾[1] ويَبكي ويَتضرَّعُ إلى الفَجر[2] .

وعن أبي سُليمان الدَّاراني قال : ما رأيتُ أحداً الخوفُ أظْهَرُ علىٰ وجهِه والخُشُوع من الحَسَن بن صالح ، قامَ ليلةً بـ ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾[3] فغُشِيَ عليه ، فلم يَخْتِمْها إلى الفَجر[4] .

(و) أحوالُ السَّلف مع الصَّلاة :

عن سعيدِ بنِ المُسَيِّب أنَّ أبا سُفيانَ بنَ الحَارِث كان يُصَلي في الصَّيْفِ نصفَ النهارِ حتىٰ تُكْرَه الصَّلاةُ ، ثُمَّ يُصَلي من الظُّهرِ إلى العصر[5] .

وعن عَديِّ بنِ حاتم قال : ما دخَلَ وقتُ صَلاةٍ حتىٰ أشْتَاقُ إليها .

وعنه : ما أُقيمَت الصلاةُ منذُ أسْلَمتُ إلاَّ وأنا علىٰ وُضُوء[6] .

وعن شُرَحْبيلَ ، أنَّ رجلين أتَيا أبا مُسلم الخَولاني ، فلَم يجداه في منزله ، فأتَيا المسجد ، فوجَداه يركَعُ فانتظراه فأحْصَىٰ أحدُهما أنَّه ركعَ ثلاثَ مئةِ ركعة[7] .

ورَوَىٰ أنسُ بنُ سيرين عن امرأة مَسْروق قالت : كان مَسْروقٌ يُصَلي حتىٰ تَوَرَّم قَدَماه ، فَرُبَّما جَلَسْتُ أبكي ممَّا أراهُ يَصنَعُ بنفسِه[8] .

وقال سعيدُ بنُ جُبَير ، قال لي مَسْروق : ما بَقِيَ شيءٌ يُرغَبُ فيه إلاَّ أن نُعَفِّرَ وجوهَنا في التُّراب ، وما آسىٰ علىٰ شيءٍ إلاَّ السُّجودَ للهِ تعالىٰ[9] .

---

(١) سورة القمر ، الآية (٤٦) .
(٢) انظر السير : (أبو حنيفة) ٦/ ٣٩٠ـ ٤٠٤ ، وانظر النزهة : ٤/٦٦٣ .
(٣) سورة النبأ ، الآية (١) .
(٤) انظر السير : (الحسن بن صالح) ٧/ ٣٦١ـ ٣٧١ ، وانظر النزهة : ٤/٧٠٣ .
(٥) انظر السير : (أبو سفيان بن الحارث) ١/ ٢٠٢ـ ٢٠٥ ، وانظر النزهة : ٦/١٤٨ .
(٦) انظر السير : (عدي بن حاتم) ٣/ ١٦٢ـ ١٦٥ ، وانظر النزهة : ٢/٣٥٨ .
(٧) انظر السير : (أبو مسلم الخولاني) ٤/ ٧ـ ١٤ ، وانظر النزهة : ١/٤٣١ .
(٨) انظر السير : (مسروق) ٤/ ٦٣ـ ٦٩ ، وانظر النزهة : ٢/٤٤٥ .
(٩) انظر السير : (مسروق) ٤/ ٦٣ـ ٦٩ ، وانظر النزهة : ٧/٤٤٥ .

وعن مُعتَمِر ، عن أبيهِ قال : كان أبو عُثمانَ النَّهديّ يُصَلي حتىٰ يُغشَىٰ عليه[1] .

وعن أبي العالية قال : كنتُ أرحَلُ إلى الرَّجُل مسِيرةَ أيَّامٍ لأسمعَ منهُ ، فأتَفَقَّدُ صَلاتَه ، فإن وجَدتُه يُحْسِنُها ، أَقَمتُ عليه ، وإن وَجَدتُه يُضَيِّعُها ، رَحَلتُ عنه ولَمْ أسمَعْ منه ، وقلتُ هو لِمَا سِواها أَضْيَع[2] .

وعن ابنِ حَرمَلَة ، قلتُ لبَردٍ مَولَى ابنِ المُسَيِّب : ما صَلاةُ ابنِ المُسَيِّب في بَيتِه ؟ قال : ما أدري إنَّه يُصَلي صَلاةً كَثيرةً إلاَّ أنَّه يقرأ بـ ﴿ صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ﴾[3] ،[4] .

وقال ابنُ الأعْرابيّ : كان أبو رَجَاء العَطاردي عابداً ، كثيرَ الصلاةِ وتلاوةِ القرآن ، كان يقولُ : ما آسَىٰ علىٰ شيءٍ من الدنيا إلاَّ أنْ أُعَفِّرَ في التُّراب وجهي كلَّ يومٍ خمسَ مرات[5] .

وعن مالكٍ : أحْرَمَ عليُّ بنُ الحُسَين فلمَّا أرادَ أن يُلَبي ، قالَهَا ، فأُغْمِيَ عليه ، وسَقَطَ من نَّاقَتِهِ فهُشِّم ، ولقد بَلَغَني أنَّه كان يُصَلي في كلِّ يومٍ وليلة ألفَ ركعة إلىٰ أن مات ، وكان يُسمَّىٰ زين العابدين لعبادته[6] .

وكان عُبَيد الله بن عبد الله بن عُتبة يُطَوِّلُ الصَّلاةَ ، ولا يَعجَلُ عنها لأحد[7] .

وقال ابنُ عُيَيْنة : سَمعتُ عبدَ الكريم يقول : كان طَلقُ بنُ حَبيب لا يَركَعُ إذا افتَتَحَ سُورةَ « البَقَرة » حتىٰ يَبلُغَ « العَنكبوت » ، وكان يقولُ : أشْتَهي أنْ أقومَ حتىٰ يَشْتَكِي صُلبي[8] .

ورَوىٰ حفصُ بنُ غياث عن ابنِ إسْحاق ، قال : قَدِمَ علينا عبدُ الرحمـٰن ابنُ الأسْوَد

---

(١) انظر السير : (أبو عثمان النهدي) ٤/ ١٧٥ـ١٧٨ ، وانظر النزهة : ١/٤٧٢ .
(٢) انظر السير : (أبو العالية) ٤/٢٠٧ـ٢١٣ ، وانظر النزهة : ٢/٤٧٩ .
(٣) سورة ص ، الآية (١) .
(٤) انظر السير : (سعيد بن المسيب) ٤/٢١٧ـ٢٤٦ ، وانظر النزهة : ٣/٤٨٨ .
(٥) انظر السير : (أبو رجاء العطاردي) ٤/ ٢٥٣ـ٢٥٧ ، وانظر النزهة : ٣/٤٩١ .
(٦) انظر السير : (عليّ بن الحسين) ٤/ ٣٨٦ـ ٤٠١ ، وانظر النزهة : ٤/٥١٨ .
(٧) انظر السير : (عُبيد الله بن عبد الله بن عُتبة) ٤/ ٤٧٥ـ٤٧٩ ، وانظر النزهة : ٦/٥٣٥ .
(٨) انظر السير : (طلق بن حبيب) ١٤/ ٦٠١ـ ٦٠٣ ، وانظر النزهة : ٢/٥٦٧ .

حاجّاً ، فاعْتلَّتْ رجلُه ، فصلَّىٰ علىٰ قدمٍ حتىٰ أصبح[1] .

وعن ابنِ جُرَيْجٍ قال : لَزِمتُ عَطَاءَ بنَ أبي رَبَاح ثمانيَ عَشْرَة سَنَة ، وكان بعدما كَبرَ وضَعُفَ يقُومُ إلى الصَّلاةِ ، فيقرأُ مِئتي آية من البقرةِ وهو قائمٌ لا يَزُول منه شيءٌ ولا يَتحَرَّك[2] .

وقال الأوزاعيّ : كان بلالُ بنُ سَعد من العِبادة علىٰ شيءٍ لَمْ نَسمَعْ أحَداً قَوِيَ عليه ، كان له كلَّ يومٍ وليلةٍ ألفُ ركعة[3] .

وعن حَمَّاد بنِ سَلَمَة قال : كان ثابتُ بنُ أسْلَم يقول : اللَّهُمَّ إنْ كنتَ أعطيتَ أحداً الصلاةَ في قبرِه فأعطني الصلاةَ في قَبري ، فيُقَالُ : إنَّ هـٰذه الدَّعوة استُجيبَت له ، وأنَّه رُئِيَ بعد موته يُصَلي في قَبره فيما قيل[4] .

وقال ابنُ المُبَارَك : كان لعَليِّ بنِ عبد الله بنِ عَبَّاس خَمسُمِئة شَجَرَة يُصَلي عندَ كُلِّ شَجَرَة رَكعَتَينِ ، وذلك كلَّ يومٍ[5] .

وقال أبو إسحاقَ السبيعيّ : ذهبت الصَّلاةُ منِّي وضَعُفْتُ ، وإنِّي لأُصَلي فما أقرأُ وأنا قائمٌ إلاَّ البقرةَ وآلَ عِمران ، ثمَّ قال الأخنَسيُّ : حَدَّثَنا العَلاءُ بنُ سالم العَبديّ قال : ضَعُفَ أبو إسحاق قبل مَوته بسَنتَين ، فما كان يَقدِرُ أن يقومَ حتىٰ يُقَامَ ، فإذا استَتَم قائماً قرأ وهو قائمٌ ألفَ آية[6] .

وقال محمدُ بنُ سَمَاعَة الرَّمليّ : سَمعتُ ضَمْرَةَ بنَ رَبيعَةَ يقول : حَجَجْنَا مع الأَوْزاعِيِّ سَنَةَ خَمسِينَ ومئة ، فمَا رأيتُه مُضطَجِعاً في المَحْمِل[7] في ليلٍ ولا نَهارٍ قَطُّ ،

---

(١) انظر السير : (عبد الرحمـٰن بن الأسود) ٥/ ١١ـ ١٢ ، وانظر النزهة : ٥/٥٧٥ .
(٢) انظر السير : (عطاء بن أبي رباح) ٥/ ٧٨ـ ٨٨ ، وانظر النزهة : ٤/٥٨٣ .
(٣) انظر السير : (بلال بن سعد) ٥/ ٩٠ـ ٩٢ ، وانظر النزهة : ٢/٥٨٤ .
(٤) انظر السير : (ثابت بن أسلم) ٥/ ٢٢٠ـ ٢٢٥ ، وانظر النزهة : ٧/٥٩٦ .
(٥) انظر السير : (علي بن عبد الله) ٥/ ٢٨٤ـ ٢٨٥ ، وانظر النزهة : ٧/٦٠٣ .
(٦) انظر السير : (أبو إسحاق السبيعي) ٥/ ٦٠١ـ ٦٠٣ ، وانظر النزهة : ٢/٦١٦ .
(٧) المَحْمِل : شقان على البعير فيهما العديلان .

كان يُصَلي فإذا غَلَبَه النَّوم اسْتَنَدَ إلى القَتَب[1] .

وعن خالدِ بن عَمرو قال : رأيتُ مِسْعَراً كأنَّ جَبهَتَه رُكبَة عَنْزٍ من السُّجود ، وكان إذا نظرَ إليكَ حَسِبتَ أنَّه يَنظُرُ إلى الحائطِ من شِدَّة حَوْلته[2] .

وقال البغويّ : حَدَّثَني جَدِّي أحمدُ بنُ مَنِيع : سَمعتُ أبا قطن يقول : ما رأيتُ شُعْبَةَ ركعَ قَطُّ إلاَّ ظَنَنتُ أنَّه نَسِيَ ، ولا قَعَدَ بين السَجْدَتَين إلاَّ ظَنَنتُ أنَّه نَسِي[3] .

وقال ابنُ وَهبٍ : رأيتُ الثَّورِي في الحَرَم بعدَ المغرِب صَلىٰ ثم سَجَدَ سَجدةً ، فلَمْ يَرفَعْ حتىٰ نُودِيَ بالعِشَاء[4] .

وقال عليُّ بنُ المديني : ما رأيتُ أخْوَفَ لله من بِشْر بنِ منصور ، كان يُصَلي كلَّ يومٍ خَمسَ مئة رَكعةٍ ، وقال القَواريريُّ عنهُ : هو أفضَلُ مَن رأيتُ من المشَايخ[5] .

وعن ابنِ سَمَاعة قال : كان وِرْدُ أبي يُوسُفَ القاضي في اليومِ مئتَي ركعة[6] .

وقال أحمدُ بنُ عبد الله العِجْليُّ : يَزيدُ بنُ هارون ثِقةٌ ثَبتٌ مُتَعَبِّدٌ حَسَن الصلاة جداً ، يُصَلي الضُّحىٰ سِت عشرة ركعة ، بها من الجَودة غيرُ قليل ، قال : وكان قد عَمِيَ[7] .

وقال عبدُ الله بنُ أحمدَ بنِ حنبل : كان أبي يُصَلي في كُلِّ يومٍ وليلة ثلاثَ مئة ركعة ، فلمَّا مَرِضَ من تلك الأَسْواط ، أضْعَفَتهُ ، فكان يُصَلي كلَّ يومٍ وليلة مئة وخمسين ركعة[8] .

وذَكر أبو عُبيدَة قال : كان بَقِيُّ بنُ مَخْلد يَختِمُ القرآنَ كل ليلة في ثلاث عَشر

---

(١) انظر السير : (الأوزاعيّ) ٧/ ١٠٧ـ ١٣٤ ، وانظر النزهة : ٦٨٣/ ٥ .
(٢) انظر السير : (مِسْعَر) ٧/ ١٦٣ـ ١٧٣ ، وانظر النزهة : ٦٨٩/ ٣ .
(٣) انظر السير : (شُعبة) ٧/ ٢٠٢ـ ٢٢٨ ، وانظر النزهة : ٦٩٣/ ٢ .
(٤) انظر السير : (سُفيان) ٧/ ٢٢٩ـ ٢٧٩ ، وانظر النزهة : ٦٩٨/ ٦ .
(٥) انظر السير : (بشر بن منصور) ٨/ ٣٥٩ـ ٣٦٢ ، وانظر النزهة : ٧٦٤/ ١ .
(٦) انظر السير : (القاضي أبو يوسف) ٨/ ٥٣٥ـ ٥٣٩ ، وانظر النزهة : ٧٨٨/ ٤ .
(٧) انظر السير : (يزيد بن هارون) ٩/ ٣٥٨ـ ٣٧١ ، وانظر النزهة : ٨٢٩/ ٤ .
(٨) انظر السير : (أحمد بن حنبل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٩٢٨/ ٣ .

ركعة ، وكان يُصَلي بالنَّهار مئةَ ركعة ، ويَصُوم الدهرَ ، وكان كثيرَ الجِهَادِ ، فاضلاً ، يُذكَرُ عنه أنَّه رابَطَ اثنتين وسبعين غَزْوة[1] .

ونقلَ بعضُ العلماء من كتاب لحَفيد بَقيّ بنِ مخلد ، (عبدِ الرحمـٰنِ ابنِ أحمد) : كان جَدِّي قد قَسَّمَ أيَّامَه علىٰ أعمالِ البرِّ : فكان إذا صَلى الصُّبحَ قرأَ حِزْبَه من القرآن في المُصحف ، سُدسَ القرآنِ ، وكان أيضاً يَخْتِمُ القرآنَ في الصَّلاةِ في كل يومٍ وليلة ، ويخرجُ كلَّ ليلةٍ في الثُّلُثِ الأخيرِ إلى المَسجِد ، فيَختِمُ قُربَ انصداعِ الفَجر ، وكان يُصَلي بعد حِزبه من المُصحف صلاةً طويلةً جداً ، ثم يَنْقَلِبُ إلىٰ داره ـ وقد اجتَمَعَ في مَسجِده الطَّلَبةُ ـ فيُجَدِّدُ الوُضوءَ ويَخْرجُ إليهم ، فإذا انقضَت الدُّوَل ، صارَ إلىٰ صَومَعَةِ المَسجِد ـ فيُصَلي إلى الظُّهر ، ثُمَّ يكونُ هو المُبتدىءُ بالأذان ، ثم يَهبِطُ ثم يُسْمِعُ إلى العصر ، ويُصَلي ويُسْمِع ، ورُبَّمَا خرجَ في بَقِيَّةِ النَّهار ، فيَقْعُدُ بين القُبور يَبكِي ويَعتَبر ، فإذا غَرُبَت الشَّمسُ أَتَىٰ مَسجِدَهُ ، ثم يُصَلي ويَرجِعُ إلىٰ بَيتِه فيُفْطِرُ ، وكان يَسْرُدُ الصَّومَ إلاَّ يومَ الجُمُعَة ، ويخرجُ إلى المَسجِد ، فيَخرُجُ إليه جِيرانُه ، فيَتَكلَّمُ معهم في دِينِهم ودُنيَاهم ، ثم يُصَلي العِشاءَ ويدخُلُ بَيتَه ، فيُحَدِّثُ أهلَه ، ثم يَنَامُ نَومَةً قد أخَذَتْها نفسُه ، ثمَّ يقومُ ، هـٰذا دَأْبُه إلىٰ أن تُوفِّيَ وكان جَلداً قوياً على المشي[2] .

قال إبراهيمُ بنُ مضارب : سمعتُ أبي يقولُ : كان الحُسَينُ بنُ الفَضل يركعُ في اليومِ والليلة ستَّ مئة ركعة ، ويقولُ : لولا الضعف والسنُّ لم أُطعَم بالنهار .

وسَمعتُ أبا زكريا العَنبريَّ : سمعتُ أبي يقول : لمَّا قَلَّدَ المأمونُ عبد الله ابنَ طاهر خُراسان ، قال : يا أميرَ المؤمنين! حاجة قال : مَقْضِيَّة قال : تُسعِفُني بثلاثة : الحُسَينِ بن الفَضل ، وأبي سَعيدِ الضَّرير ، وأبي إسحاقَ القُرشي قال : أسْعَفناك ، وقد أخليتُ العِراقَ من الأفراد[3] .

---

(١) انظر السير : (بَقيّ بن مخلد) ١٣/ ٢٨٥ـ٢٩٦ ، وانظر النزهة : ١/١٠٨٧ .
(٢) انظر السير : (بَقيّ بن مخلد) ١٣/ ٢٨٥ـ٢٩٦ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٨٧ .
(٣) انظر السير : (الحُسين ابن الفَضل) ١٣/ ٤١٤ـ٤١٦ ، وانظر النزهة : ٣/١٠٩٦ .

وقيلَ : إنَّ محمدَ بنَ الجُنَيد النَّهَاوندِيّ كان في سُوقه ووِرْدُهُ كلَّ يومٍ ثلاثُ مئة رَكعَة ، وكذا كذا ألفَ تَسْبيحَة[1] .

(ز) رُؤيا تُفيدُ الحَثَّ علىٰ كثرة الصَّلاة :

قال نَصرُ بنُ عليّ الجَهضمي : رأيتُ يَزيدَ بنَ زُرَيْع في المَنَام ، فقلتُ : ما فَعَلَ الله بك ؟ قال : أُدخِلتُ الجَنَّةَ . قلتُ : بماذا ؟ قال : بكثرَةِ الصَّلاة[2] .

(ح) مَن كان يَتَحاشى الصَّلاةَ خلفَ مَن يُطَوّل :

قال عَبدانُ الأهوازيّ : كُنا لا نُصَلي خَلفَ هُدبة بن خالد من طُولِ صَلاته ، يُسَبِّحُ في الرُّكوعِ والسُّجودِ نيفاً وثلاثين تَسْبيحَة قال : وكان من أشْبَه خَلْقِ الله بهشامِ بن عَمَّار لِحْيَتِه ووَجْهِه وكلّ شيءٍ منه حتىٰ صَلاتُه[3] .

(ط) مُكابَدةُ الصَّلاة :

عن ابنِ أبي رُزَين ، أنَّ ثابتَ بنَ أسْلم قال : كَابَدتُ الصَّلاةَ عِشرينَ سَنَةً ، وتَنَعَّمتُ بها عِشرين سَنَة[4] .

قال محمدُ بنُ عَوْف الحِمْصِيّ : رأيتُ أحمدَ بنَ أبي الحواري عندنا بأَنطَرسُوس[5] فلمَّا صَلى العَتَمَةَ[6] قامَ يُصَلِّي ، فاسْتَفتَحَ بـ (الحمد لله) إلىٰ ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[7] ، فطُفتُ الحائطَ كُلَّه ثمَّ رَجَعتُ ، فإذا هو لا يُجَاوِزُها ، ثمَّ نِمتُ ، ومَرَرتُ في السَّحَرَ ، وهو يقرأُ : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ فلَم يَزَلْ يُرَدِّدُها إلى الصُّبح[8] .

---

(١) انظر السير : (الجُنَيد) ١٤/ ٦٦ـ ٧٠ ، وانظر النزهة : ٢/١١٣٢ .
(٢) انظر السير : (يزيد بن زُريع) ٨/ ٢٩٦ـ ٢٩٩ ، وانظر النزهة : ٥/٧٥٩ .
(٣) انظر السير : (هُدبَة بن خالد) ١١/ ٩٧ـ ١٠٠ ، وانظر النزهة : ٥/٩١٤ .
(٤) انظر السير : (ثابت بن أسلم) ٥/ ٢٢٠ـ ٢٢٥ ، وانظر النزهة : ٩/٥٩٦ .
(٥) في معجم البلدان أنطرسوس : بلد من سواحل بحر الشام .
(٦) العَتَمَة : أي صلاة العشاء لأنها تُصَلَّىٰ في العتمة أي في الظُلمة .
(٧) سورة الفاتحة ، الآيات (١ ـ ٤) .
(٨) انظر السير : (أحمد بن أبي الحَواري) ١٢/ ٨٥ـ ٩٤ ، وانظر النزهة : ٣/٩٨٥ .

عن أحمدِ بنِ سَهلِ الهَرَويّ قال : كنتُ ساكناً في جِوار بَكّار ابن قُتَيْبَة فانصَرفتُ بعدَ العِشاء ، فإذا هو يقرأُ ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾[1] قال : ثمَّ نزَلتُ في السَّحرِ ، فإذا هو يَقْرَؤُها ، ويَبْكِي ، فعَلِمتُ أنَّه كان يَتْلُوها من أوَّلِ الليل[2] .

٢٢ـ الصِّيام

(أ) نقدُ الذهبيّ ـ رَحمه الله ـ مَن صامَ الدَّهر :

قال الحاكمُ : سَمعتُ الصِّبغيَّ يقول : صامَ أبو عَمرو الخَفَّاف الدهرَ نيِّفاً وثلاثينَ سَنَة .

قال الذهبيُّ : ليتَه أفْطَرَ وصَامَ ، فما خَفِيَ والله عليه النَّهْيُ عن صِيامِ الدَّهر ، ولكن له سَلَفٌ ، لو صَاموا أفضَلَ الصَّومِ لَلَزموا صَومَ داوودَ عليه السلام ولم يكن يُعَقِّب .

قال : وسمعتُ أبا زكريَّا العَنْبريّ يقولُ : فلمَّا آيسَ من الوَلَد ، تَصَدَّقَ بأموالٍ كان يُقالُ : إنَّ قِيمَتَها خمسَةُ آلافِ ألفِ درهم ، على الأشْرافِ والفُقَراء والمَوالي[3] .

(ب) صورٌ من صَوم الصَّالحين :

وقال أبو الدَّرداء : إنْ كُنَّا لَنَكُونُ مع رسولِ الله صلى الله عليه وسلم في السَّفرِ في اليوم الحَارّ ما في القَومِ أحدٌ صائمٌ إلاَّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وعبدُ الله ابنُ رَوَاحَة[4] .

وعن شُعبة : أخْبَرَنا عبدُ الرحمـٰن بنُ القاسم ، عن أبيه : أنَّ عائشةَ كانت تَصُومُ الدَّهرَ[5] .

---

(١) سورة ص ، الآية (٢٦) .
(٢) انظر السير : (بكّار بن قُتيبة) ١٢/ ٥٩٩ـ ٦٠٥ ، وانظر النزهة : ٥/١٠٣٨ .
(٣) انظر السير : (أبو عَمرو الخَفَّاف) ١٣/ ٥٦٠ـ ٥٦٤ ، وانظر النزهة : ٣/١١١٦ .
(٤) انظر السير : (عبد الله بن رواحة) ١/ ٢٣٠ـ ٢٤٠ ، وانظر النزهة : ٣/١٥٣ .
(٥) انظر السير : (عائشة أم المؤمنين) ٢/ ١٣٥ـ ٢٠١ ، وانظر النزهة : ٤/٢٤٤ .

وعن أبي أُمَامَةَ البَاهِلِيّ قال ، قلتُ : يا رسُولَ الله ادْعُ اللهَ لي بالشَّهَادة ، فقال صلى الله عليه وسلم : « اللَّهُمَّ سَلِّمْهُم وغَنِّمْهُم » فَغَزَوْنا ، فَسَلِمْنا وغَنِمْنا ، وقلتُ : يا رسولَ الله مُرْنِي بعَمَلٍ قال صلى الله عليه وسلم : « عَلَيْكَ بالصَّومِ فإنَّه لا مِثْلَ له » فكان أبو أُمَامَة وامرأتُه وخادمُه لا يُلفَوْنَ إلاَّ صِياماً[1] .

وعن عطيَّةَ بنِ قيس قال : دَخَلَ ناسٌ من أهلِ دمَشْقَ علىٰ أبي مُسلِم الخولاني وهو غازٍ في أرضِ الرُّوم ، وقد احتَفَرَ جُورةً في فُسْطاطِه[2] ، وجَعَلَ فيها نِطْعاً وأَفْرَغَ فيه الماءَ وهو يَتصلَّقُ فيه[3] ، فقالوا : ما حَمَلَكَ على الصِّيامِ وأنتَ مُسافِر ؟ قال : لو حَضَرَ قِتالٌ لأفطَرتُ ، ولتَهَيَّأتُ له وتَقَوَّيتُ ، إنَّ الخَيلَ لا تجري الغايات[4] وهُنَّ بُدَّن ، إنَّما تَجري وهُنَّ ضُمَّر ، ألا وإنَّ أيامَنَا باقيةٌ جائيةٌ لها نعمل[5] .

وعن هشام بن عُروة بنِ الزُّبَيْر ، أنَّ أباه ماتَ وهو صائمٌ ، وجَعَلوا يَقُولون له : أَفْطِر ، فلَم يُفْطِر[6] .

وعن هشام بنِ عُروة بنِ الزُّبَيْر ، أنَّ أباهُ كان يَصُومُ الدهرَ إلاَّ يومَ الفِطرِ ويومَ النَّحرِ ، ومات وهو صائمٌ[7] .

وقال شُعيبُ بنُ الحَبْحَاب : حَدَّثتني هُنَيدَة امرأةُ إبراهيمَ النَّخْعِي : أنَّ إبراهيمَ كان يَصومُ يوماً ويُفطِرُ يوماً[8] .

عن أيُّوبَ ، قال : كان محمدُ بنُ سِيرين يَصُومُ يَوماً ويُفْطِرُ يوماً[9] .

---

(١) انظر السير : (أبو أمامة الباهلي) ٣/ ٣٥٩ـ٣٦٣ ، وانظر النزهة : ١/٣٩٣ .
(٢) الفسطاط : البيت من الشعر .
(٣) تصَّلق : تَقلَّب وتَلوَّىٰ علىٰ جنبيه
(٤) الغايات : النهايات .
(٥) انظر السير : (أبو مسلم الخولاني) ٤/ ٧ـ ١٤ ، وانظر النزهة : ٢/٤٣١ .
(٦) انظر السير : (عروة) ٤/ ٤٢١ـ٤٣٧ ، وانظر النزهة : ٤/٥٢٧ .
(٧) انظر السير : (عروة بن الزبير) ٤/ ٤٢١ـ ٤٣٧ ، وانظر النزهة : ٤/٥٢٨ .
(٨) انظر السير : (إبراهيم النخعيّ) ٤/ ٥٢٠ـ٥٢٩ ، وانظر النزهة : ٦/٥٤٨ .
(٩) انظر السير : (محمد بن سيرين) ٤/ ٦٠٦ـ ٦٢٢ ، وانظر النزهة : ٤/٥٦٩ .

وقال ابنُ عَون : كان محمدُ بنُ سيرين يَصومُ عَاشُوراءَ يومين ثم يُفْطِرُ بعد ذلك يَومَين[1] .

وعن مُعاويةَ بنِ صالح أنَّ أبا جَبَلة حَدَّثَه قال : كنتُ مع ابنِ شِهابِ الزُّهريّ في سَفَرٍ فصَامَ يومَ عاشوراءَ ، فقِيلَ له : لِمَ تَصومُ وأنتَ تُفْطِرُ في رمضانَ في السَّفر ؟ قال : إنَّ رمضانَ له عِدّةٌ من أيامٍ أُخَر ، وإنَّ عَاشوراءَ يَفُوتُ[2] .

وقال سُفيانُ بنُ عُيَيْنة : صَامَ منصُورُ بنُ المُعتَمر ستينَ سنةً ، يقومُ ليلَهَا ويَصُومُ نَهَارَهَا رحمَه الله[3] .

قال محمدُ بنُ عبدِ الأعْلىٰ : قال لي مُعْتَمِرُ بنُ سُليمان التيميّ : لولا أنَّك من أهلي ما حَدَّثتُك بذا عن أبي ، مكثَ أبي أربعينَ سَنَةً يَصُومُ يوماً ويُفطِرُ يوماً ، ويُصَلي صَلاةَ الفَجرِ بوُضوءِ عِشاءِ الآخرة[4] .

وقال أبو عاصم النبيل : كان ابنُ جُرَيج من العُبَّاد كان يَصومُ الدَّهرَ سِوىٰ ثلاثة أيام من الشهر[5] .

وقال بَكَّارُ بنُ محمد : كان ابنُ عَون يَصومُ يوماً ويُفطِرُ يوماً .

وقال عبدُ الرحمـٰن بنُ مَهدِي : ما كان بالعراقِ أعْلَمَ بالسُّنَّة من ابنِ عَون[6] .

قال الفلاس : سمعتُ ابنَ أبي عَديّ يقول : صامَ داوُدُ بنُ أبي هندٍ أربعينَ سَنَةً لا يَعلمُ به أهلُه كان خَزَّاراً يَحمِلُ معه غَدَاءَه فيَتَصَدَّقُ به في الطَّريق[7] .

وقال أخو محمدُ بنُ أبي ذئب : كان أخي يَصومُ يوماً ويُفطِرُ يوماً ، ثم سَرَدَ

---

(1) انظر السير : (محمد بن سيرين) ٤/ ٦٠٦_ ٦٢٢ ، وانظر النزهة : ٥/٥٦٩ .
(2) انظر السير : (أخبار الزُّهريّ) ٥/ ٣٢٦_ ٣٥٠ ، وانظر النزهة : ٣/٦٠٧ .
(3) انظر السير : (منصور بن المعتمر) ٥/ ٤٠٢_ ٤١٢ ، وانظر النزهة : ٣/٦١٨ .
(4) انظر السير : (سُليمان التيميّ) ٦/ ١٩٥_ ٢٠٢ ، وانظر النزهة : ١/٦٤١ .
(5) انظر السير : (ابن جُريج) ٦/ ٣٢٥_ ٣٣٦ ، وانظر النزهة : ٢/٦٥٥ .
(6) انظر السير : (عبد الله بن عون) ٦/ ٣٦٤_ ٣٧٥ ، وانظر النزهة : ٧/٦٥٦ .
(7) انظر السير : (داوُد بن أبي هند) ٦/ ٣٧٦_ ٣٧٩ ، وانظر النزهة : ٢/٦٥٩ .

الصَّومَ ، وكان شَديدَ الحالِ ، يتعَشَّى الخُبزَ والزَّيتَ ، وله قميصٌ وطَيْلَسان ، يَشتو فيه ويَصِيف قال وكان من رجال النَّاس صَرامَةً وقَولاً بالحَقّ ، وكان يَحفَظُ حَديثَه ، لَم يكن له كتاب ، وكان يَروحُ إلى الجُمُعة باكراً ، فيُصَلي إلىٰ أن يَخرُجَ الإمَامُ ورأيتُه يأتي دار أجْدَادِه عند الصَّفا فيأخُذُ كِراءَها ولا يُغَيِّرُ شَيْبَه[1] .

وقال يَحيَىٰ بنُ مَعِين : أخْرَجَ غُنْدَرٌ إلينا ذاتَ يوم جِراباً فيه كُتُبٌ ، فقال : اجْهَدُوا أنْ تُخرِجوا فيها خَطَأً ، قال : فما وجدْنا فيه شيئاً ، وكان يَصومُ يوماً ويُفطِرُ يوماً منذُ خَمسينَ سَنَةً[2] .

وقال عُبَيدُ بنُ محمد الوَرَّاق : مَرَّ معروفٌ الكَرخِي وهو صائمٌ بسقَّاءٍ يقولُ : رَحِمَ الله مَن شَرِب ، فشَرِبَ رَجاءَ الرَّحمَة[3] .

وذَكَرَ أبو عُبيدَة قال : كان بَقِيُّ بن مخلد يَختمُ القرآن كلَّ ليلة ، في ثلاثَ عشرةَ ركعة ، وكان يُصَلي بالنَّهار مئةَ ركعة ، ويَصومُ الدَّهرَ ، وكان كَثيرَ الجِهادِ ، فاضِلاً يُذكَرُ عنه أنَّه رابَطَ اثنتين وسبعينَ غَزوة[4] .

وقال جماعةٌ من شُيوخ قَزْوين : لَم يَرَ أبو الحَسَن القَطَّان رحمه الله مثلَ نفسه في الفَضلِ والزُّهد أدامَ الصِّيامَ ثلاثين سَنَةً ، وكان يُفْطِرُ على الخُبز والمِلْح ، وفَضائِلُه أكثرُ من أن تُعَدَّ[5] .

قال الإمامُ الذهبيُّ : وُلِدَ الإمامُ الصُّوريّ سَنَةَ ستٍّ أو سَنَةَ سَبعٍ وسَبعين وثلاث مئة ، وكان ـ رحمهُ الله ـ يَسرُدُ الصَّومَ إلاَّ الأعياد[6] .

---

(١) انظر السير : (ابن أبي ذئب) ٧/ ١٣٩ـ ١٤٩ ، وانظر النزهة : ٧/٦٨٥ .
(٢) انظر السير : (غُنْدَر) ٩/ ٩٨ـ ١٠٢ ، وانظر النزهة : ٤/٨٠٢ .
(٣) انظر السير : (معروف الكرخي) ٩/ ٣٣٩ـ ٣٤٥ ، وانظر النزهة : ٢/٨٢٧ .
(٤) انظر السير : (بقيّ بن مخلد) ١٣/ ٢٨٥ـ ٢٩٦ ، وانظر النزهة : ١/١٠٨٧ .
(٥) انظر السير : (القطّان) ١٥/ ٤٦٣ـ ٤٦٦ ، وانظر النزهة : ٤/١٢٤٩ .
(٦) انظر السير : (الصُّوريّ) ١٧/ ٦٢٧ـ ٦٣١ ، وانظر النزهة : ١/١٣٦٩ .

٢٣ـ الحَجّ

(أ) وصفٌ جميلٌ لبعضِ مشاعرِ الحجّ :

قال الخليلُ بنُ أحمد : سمعتُ سُفيانَ الثَّوريّ يقولُ : قَدِمتُ مكةَ فإذا أنا بأبي عبدِ الله جعفر بن محمد قد أناخَ بالأبطح ، فقلتُ : يا ابنَ رسولِ الله ، لِمَ جُعل الموقفُ مِن وراءِ الحَرَم ؟ ولَمْ يُصَيَّر في المَشْعَرِ الحَرَام ؟ فقال : الكعبةُ بيتُ الله ، والحَرَمُ حِجَابُه ، والموقفُ بابُه فلَمَّا قَصَدَهُ الوافِدون ، أَوْقَفَهُم بالباب يَتضرَّعون ، فلَمَّا أُذِنَ لهم في الدُّخُولِ أَدْنَاهم من الباب الثاني وهو المُزدَلِفَة ، فلَمَّا نَظَرَ إلىٰ كثرة تَضرُّعهم وطُول اجتهادهم رَحِمَهم ، فلَمَّا رَحِمَهم أَمَرَهم بتقريب قُرْبانِهم ، فلَمَّا قَرَّبوا قُربانَهم ، وقَضَوا تَفَثَهم وتَطَهَّروا من الذُّنوبِ التي كانت حِجاباً بينَه وبينهم أَمَرَهم بزيارةِ بَيْتِه علىٰ طَهارة قلتُ : فلِمَ كُرِهَ[1] الصَّومُ أيامَ التَشْريق ؟ قال : لأنَّهم في ضِيافةِ الله ولا يَجبُ على الضَّيْفِ أن يَصُومَ عند مَن أضَافَه قلتُ : جُعلتُ فداك ، فما بالُ النَّاسِ يَتَعلَّقون بأسْتارِ الكَعبة ؟ وهي خِرَقٌ لا تنفع شيئاً ؟ قال : ذاك مَثلُ رجلٍ بينه وبين رجلٍ جُرمٌ ، فهو يَتَعلَّقُ به ، ويطوفُ حَولَه رَجاء أن يَهَبَ له ذلك ، ذاكَ الجُرم[2] .

---

(١) أي : حَرُمَ ، لما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم من النهي عن صوم أيام التشريق ، والسلف كانوا يستعملون الكراهة في معناها الذي استعملت به في كلام الله ورسوله صلى الله عليه وسلم قال تعالىٰ : ﴿ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾ (الإسراء ٣٨) ، وفي الحديث الصحيح : « إنَّ الله كرِهَ لكم قِيلَ وقالَ وكثْرةَ السُّؤال وإضاعةَ المال » وقال ابنُ وهب : سمعت مالكاً يقول : لم يكن من أمر الناس ولا مَن مضىٰ من سلفنا ، ولا أدركتُ أحداً أقتدي به يقول في شيءٍ : هـٰذا حلالٌ وهـٰذا حرام ، وما كانوا يجترئون علىٰ ذلك ، وإنما كانوا يقولون : نكره كذا ، ونرىٰ هـٰذا حسناً ، فينبغي هـٰذا ، ولا نرىٰ هـٰذا وزاد عتيق بن يعقوب ـ علىٰ هـٰذا ـ ولا يقولون : حلال ولا حرام أما سمعت قول الله تعالىٰ : ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾ [يونس : ٥٩] الحلالُ ما أحلَّه اللهُ ورسولُه صلى الله عليه وسلم، والحَرامُ ما حرَّمَه اللهُ ورسولُه صلى الله عليه وسلم .

(٢) انظر السير : (جعفر بن محمد) ٦/ ٢٥٥ـ ٢٧٠ ، وانظر النزهة : ٦/٦٤٨ .

(ب) رؤية الحُجّاج وهم ذاهبون إلى الحجّ تُرقّقُ القلب :

شَيَّعَ السلطانُ مَلِكْشاه (أبو الفَتح بنُ أرْسلان) مرةً رَكبَ العراق إلى العُذَيْب[1] فصادَ شيئاً كثيراً ، فبنىٰ هناك منارةَ القُرون من حَوافِر الوُحُوش وقُرونِها ، ووقفَ يتأملُ الحُجَّاجَ ، فَرَقَّ ونزلَ وسَجَد ، وعَفَّرَ وجهَه وبكىٰ ، وقال بالعجمية : بَلِّغوا سَلامي إلىٰ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، وقولوا : العبدُ العَاصي الآبق أبو الفتح بنُ أرسلان يَخدِمُ ويقول : يا نبيَّ الله ، لو كنتُ ممّن يَصلُح لتلكَ الحضرةِ المقدَّسَة ، كنتُ في الصُّحبَة ، فَضَجَّ النَّاسُ وبَكَوا ودَعَوا له[2] .

(ج) مناجاة حاج :

عن محمد بنِ يزيد الرِّفاعيّ ، سَمعتُ عَمِّي يقولُ : خرجتُ مع عُمرَ ابنِ ذَرٍّ إلىٰ مكةَ فكان إذا لبَّىٰ لم يُلَبِّ أحدٌ من حُسن صَوته ، فلمَّا أتى الحَرَمَ قال : ما زلنا نَهبطُ حُفرةً ونَصعَدُ أَكَمَةً ، ونَعلُوا شَرفاً ويبدو لنا عَلَمٌ حتىٰ أَتَينَاك بها نَقيَّةٌ أخفَافُها ، دَبِرَةً ظُهُورُها ذَبِلَةً أسنامُها فليس أعظَمَ المؤنة علينا إتعابُ أبدانِنا ولا إنفاقُ أموالِنا ، ولكنَّ أعظَمَ المؤنةَ أن نرجعَ بالخُسْران! يا خيرَ مَن نزلَ النَّازِلون بفِنائِه[3] .

وعن أبي الصَّلت قال : سمعتُ عليَّ بنَ موسىٰ بالموقِف يدعو : اللَّهُمَّ كما سَتَرتَ عليَّ ما أعلَمُ فاغْفِر لي ما تَعلَمُ ، وكما وَسعني علمُك ، فليَسَعْني عَفوُك ، وكما أَكرَمتَني بمعرفتك فاشْفَعها بمغفرتِك يا ذا الجَلالِ والإكْرام[4] .

(د) الاجتماع في المساجد يوم عرفة لمن لم يحج :

قال الأثرَمُ : سألتُ أبا عبدِ الله (أحمدَ بنَ حَنبل) عن التعريفِ في الأمصار ، يَجتمعون في المساجِد يومَ عَرَفَةَ ، فقال : أرجو أن لا يكونَ به بأسٌ ، فَعَلَه غَيرُ

---

(١) العُذيب : وهو ماءٌ بين القادسية والمغيثة ، بينه وبين القادسية أربعة أميال .

(٢) انظر السير : (السلطان ملكشاه أبو الفتح بن أرسلان) ١٩/ ٥٤ـ٥٨ ، وانظر النزهة : ٤/١٤٥٥ .

(٣) انظر السير : (عمر بن ذر) ٦/ ٣٨٥ـ٣٩٠ ، وانظر النزهة : ٣/٦٦٠ .

(٤) انظر السير : (عليّ الرِّضا) ٩/ ٣٨٧ـ٣٩٣ ، وانظر النزهة : ٥/٨٣١ .

واحدٍ : الحَسَنُ ، وبكرُ بنُ عبد الله ، وثابتٌ ، ومحمدُ بنُ واسع ، كانوا يَشهَدون المسجِدَ يومَ عَرَفَة ، وسألتُه عن القراءةِ بالألحَان ، فقال : كلُّ شيءٍ مُحْدَثٍ فإنَّه لا يُعجِبُني ، إلاَّ أن يكونَ صوتَ الرجُلِ لا يَتَكَلَّفُه[1] .

(هـ) **كثرة الحَجِّ والعُمرَة :**

عن أبي إسحاقَ قالَ : حَجَّ الأسودُ بنُ يَزيد ثمانينَ ، من بين حَجَّةٍ وعُمرة[2] .

وقال أبو إسحاق : حجَّ عَمرو بنُ ميمون ستينَ مرةً من بين حَجَّةٍ وعُمرة[3] .

كان أبو عُثمانَ النَّهديّ مِن قُضاعة ، وسَكَنَ الكُوفة ، فلمَّا قُتلَ الحُسَينُ ، تَحَوَّلَ إلى البَصرَةِ وقال : لا أسْكُنُ بلداً قُتل فيه ابنُ بنتِ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ، قال : وحَجَّ سِتين مرةً ما بينَ حَجَّةٍ وعُمرة وقال : أَتَتْ عليَّ ثلاثُون ومئةَ سنة وما شَيءٌ إلاَّ وقد أنكَرتُه خَلا أَمَلي فإنَّه كما هو[4] .

وعن عبد الرحمـٰن بن حَرملة : سَمعتُ ابنَ المُسَيِّب يقولُ : حَجَجْتُ أربعينَ حَجَّةً[5] .

عن هلالِ بنِ خَبَّاب قال : خرجتُ مع سعيد بن جُبَيْر في رَجَبٍ ، فأَحْرَمَ من الكُوفة بعُمرةٍ ، ثمَّ رَجَعَ من عُمرتِه ، ثمَّ أَحْرَمَ بالحَجِّ في النِّصْفِ من ذي القعدة ، وكان يُحرِمُ في كل سَنَةٍ مَرَّتين ، مرةً للحَجِّ ومرةً للعُمرة[6] .

عن معاويةَ بن قُرة ، قال : كان مُسلم بنُ يَسار يَحُجُّ كلَّ سَنَةٍ ويُحَجِّجُ معه رجالاً من إخوانه تَعَوَّدوا ذلك ، فأبطَأ عاماً حتىٰ فاتَتْ أيامُ الحَجّ ، فقالَ لأصحَابِه : اخرُجُوا ، فقالوا : كيف!! ؟ قال : لا بُدَّ أن تَخرُجوا ، فَفَعَلوا استحياءً منه فأصابهم حين

---

(١) انظر السير : (الأثـرَم) ١٢/ ٦٢٣ـ٦٢٨ ، وانظر النزهة : ٦/١٠٤٠ .
(٢) انظر السير : (الأسود بن يزيد) ٤/ ٥٠ـ٥٣ ، وانظر النزهة : ٥/٤٤١ .
(٣) انظر السير : (عَمرو بن ميمون) ٤/١٥٨ـ ١٦١ ، وانظر النزهة : ٧/٤٦٧ .
(٤) انظر السير : (أبو عثمان النهدي) ٤/ ١٧٥ـ ١٧٨ ، وانظر النزهة : ٤/٤٧١ .
(٥) انظر السير : (سعيد بن المسيب) ٤/٢١٧ـ٢٤٦ ، وانظر النزهة : ٦/٤٨٢ .
(٦) انظر السير : (سعيد بن جبير) ٤/ ٣٢١ـ ٣٤٣ ، وانظر النزهة : ٧/٥٠٥ .

جَنَّ عليهم الليلُ إعصارٌ شَديدٌ ، حتىٰ كادَ لا يَرَىٰ بعضُهم بعضاً ، فأصبَحوا وهم يَنظرُون إلىٰ جِبالِ تِهامَة ، فَحَمِدوا الله ، فقال : ما تَعجَبُون من هـٰذا في قُدرة الله تعالىٰ[١] .

وقال ابنُ حَبَّان : كان طاووسُ بنُ كيسان من عُبَّادِ أهلِ اليَمن ، ومن ساداتِ التابعين ، مُستجَابَ الدعوة ، حَجَّ أربعينَ حَجَّةً[٢] .

وعن هشامَ بنِ حَسَّان : أنَّ أيُّوبَ السختياني حَجَّ أربعينَ حَجَّةً[٣] .

ورَوىٰ سُليمانُ بنُ أيُّوب ، سمعتُ سُفيانَ بن عُيَينة يقولُ : شَهدتُ ثمانينَ مَوقِفاً .

ويُروىٰ أنَّ سُفيانَ بنَ عُيَيْنة كان يقولُ في كلِّ موقِفٍ : اللَّهُمَّ لا تجعَلهُ آخرَ العَهدِ منك ، فلمَّا كان العامُ الذي ماتَ فيه لَمْ يَقُلْ شيئاً ، وقال : قد استَحيَيتُ من الله تعالىٰ[٤] .

قال أحمدُ بنُ جَنَاب : غَزَا عيسىٰ بنُ يُونُس خَمساً وأربعينَ غَزوةً ، وحَجَّ كذلك[٥] .

عن سُحنونَ الفَقيه قال : كان عبدُ الله بنُ وَهْب قد قَسَّمَ دَهرَه أثلاثاً ثُلثاً في الرِّباط ، وثُلثاً يُعَلِّمُ النَّاسَ بمصرَ ، وثُلثاً في الحَجِّ وذَكَرَ أنَّه حَجَّ سِتاً وثلاثين حَجَّةً[٦] .

قال ابنُ طاهر : كان هَيَّاجُ بنُ عُبَيد قد بَلَغَ مِن زُهدِه أنَّه يَصومُ ثلاثةَ أيامٍ ويُوَاصِلُ ، لكن يُفطِر علىٰ ماءِ زَمزَم ، فمَن أتَاهُ بعد ثلاثٍ بشيءٍ أكَلَه وكان قد نَيَّفَ علىٰ الثمانين ، وكان يَعتَمِرُ كلَّ يومٍ ثلاثَ عُمَرٍ ، ويُدَرِّسُ عِدَّةَ دُروس ، ويَزُورُ ابنَ عَبَّاسٍ بالطائفِ كُلَّ سَنَةٍ مرةً ، لا يأكلُ في الطريقِ شيئاً ويَزورُ قبرَ النَّبي صلى الله عليه وسلم كُلَّ سَنَةٍ مع أهل

(١) انظر السير : (مسلم بن يسار) ٤/ ٥١٠ـ ٥١٤ ، وانظر النزهة : ٥/ ٥٤٧ .
(٢) انظر السير : (طاووس بن كيسان) ٥/ ٣٨ـ ٤٩ ، وانظر النزهة : ٨/٥٧٨ .
(٣) انظر السير : (أيوب السختياني) ٦/ ١٥ـ ٢٦ ، وانظر النزهة : ١١/٦٢٦ .
(٤) انظر السير : (سفيان بن عيينة) ٨/ ٤٥٤ـ ٤٧٥ ، وانظر النزهة : ٥/٧٨٤ .
(٥) انظر السير : (عيسى بن يونس) ٨/ ٤٨٩ـ ٤٩٤ ، وانظر النزهة : ٤/٧٨٥ .
(٦) انظر السير : (عبد الله بن وهب) ٩/ ٢٢٣ـ ٢٣٤ ، وانظر النزهة : ٣/٨١٩ .

مكةَ ، فيخرُج فمَن أَخَذَ بيده ، كان في مَؤونَتِه حتىٰ يَرجِع ، وكان يَمشِي حافِياً من مكةَ إلى المدينة ، وسَمعتُ من يَشكو إليه أنَّ نَعلَيْهِ سُرقتَا ، فقال : أتَّخِذُ نَعلَين لا يَسْرِقُهما أحدٌ ـ يَعني الحَفَاء ـ ورُزِقَ الشَّهادةَ في كائنةٍ بين السُّنَّةِ والرَّافِضة ، وذلك أنَّ بعضَ الرَّافضةِ شَكَا إلىٰ أميرِ مكةَ أنَّ أهلَ السُّنَّة يَنالونَ مِنَّا ، فأنفذ ، وطلبَ هَيَّاجاً وأبا الفَضلِ بنَ قَوَّام وابنَ الأنماطيّ ، وضَرَبَهم ، فماتَ هـٰذانِ في الحَال ، وحُمِلَ هَيَّاج ، فماتَ بعد أيام ـ رضي الله عنهم[1] .

(و) أحوال السلف حالَ أداء المناسك :

رَوَىٰ شُعبةُ عن أبي إسحاق قالَ : حَجَّ مسروقٌ فلَم يَنَمْ إلاَّ ساجداً علىٰ وجهه حتىٰ رَجع[2] .

وقال منصورٌ : كان شُرَيحٌ القاضي إذا أَحْرَمَ كأنَّه حَيَّة صَمَّاء[3] .

وعن مالك قال : أَحْرَمَ عليُّ بنُ الحُسَين ، فلمَّا أرادَ أن يُلَبِّي ، قالها : فأُغميَ عليه ، وسَقَطَ من ناقتِه فهُشِّم ، ولقد بَلَغَني أنَّه كان يُصَلي في كلِّ يومٍ وليلة ألفَ ركعة إلىٰ أن مَاتَ ، وكان يُسَمَّىٰ زَين العابدين لعبادته[4] .

وقال شُجاعُ بنُ الوليد : كُنتُ أَحُجُّ مع سُفيانَ الثَّوريّ ، فما يكادُ لسانُه يَفتُر من الأمرِ بالمعروفِ والنَّهي عن المنكر ذاهباً وراجعاً[5] .

وقال الحاكمُ : سمعتُ ابنَي المؤمل بن الحسن بن عيسىٰ يقولان : أنفق جَدُّنا في الحَجَّةِ التي تُوُفِّيَ فيها ثَلاثَ مئة ألف[6] .

---

(١) انظر السير : (هيّاج بن عُبيد) ١٨/ ٣٩٣ـ ٣٩٥ ، وانظر النزهة : ٢/١٤٢٥ .
(٢) انظر السير : (مسروق) ٤/ ٦٣ـ ٦٩ ، وانظر النزهة : ١/٤٤٥ .
(٣) انظر السير : (شريح القاضي) ٤/ ١٠٠ـ ١٠١ ، وانظر النزهة : ٨/٤٥٦ .
(٤) انظر السير : (علي بن الحسين) ٤/ ٣٨٦ـ ٤٠١ ، وانظر النزهة : ٤/٥١٨ .
(٥) انظر السير : (سُفيان الثوري) ٧/ ٢٢٩ـ ٢٧٩ ، وانظر النزهة : ٧/٦٩٧ .
(٦) انظر السير : (الحسن بن عيسى بن ماسَرْجس) ١٢/ ٢٧ـ ٣٠ ، وانظر النزهة : ١/٩٧٧ .

٢٤ـ الدعاء

(أ) فَضل الدعاء :

عن أُمِّ الدَّردَاءِ قالت : كان لأبي الدَّرداء سِتُّون وثلاث مئة خَليل في الله يدعو لهم في الصلاة ، فقلتُ له في ذلك ، فقال : إنَّه ليس رجلٌ يدعو لأخيه في الغيب إلاَّ وَكَّلَ الله به مَلَكَين يقولان : ولك بمثل أَفَلا أرغبُ أنْ تدعُوَ لي الملائكةُ[١] .

(ب) من آداب الدعاء :

١ـ الخشوع فيه :

قال القَعْنَبيّ سمعتُ مالكاً يقول : كان عامرُ بنُ عبد الله يقفُ عند مَوضِع الجَنائز يدعو وعليه قَطيفة ، فتَسقُط وما يَشْعُر[٢] .

٢ـ الإلحاح :

عن مُورِّق قال : ما امتلأتُ غَضباً قَطّ ، ولقد سألتُ اللهَ حاجةً منذ عشرين سنة ، فما شَفَّعَني فيها ، وما سَئِمتُ من الدُّعاءِ[٣] .

٣ـ الإطالة :

عن مالك قال : رُبَّما انصرفَ عامرُ بنُ عبد الله بن الزُّبَير من العَتَمَة فيَعْرِضُ له الدُّعاءُ ، فلا يزالُ يدعو إلى الفَجر[٤] .

دخَلَ موسى الكاظمُ مسجدَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم فسَجَدَ سَجدةً في أولِ الليلِ ، فسُمِعَ وهو يقولُ في سُجُودِه : عَظُمَ الذَّنبُ عندي فليَحسُن العَفوُ من عندك يا أهلَ التقوىٰ ويا أهلَ المغفرة فجَعَلَ يُرَدِّدُها حتىٰ أصبح[٥] .

---

(١) انظر السير : (أبو الدرداء) ٢/ ٣٣٥ـ ٣٥٣ ، وانظر النزهة : ٢/٢٧٣ .
(٢) انظر السير : (عامر بن عبد الله بن الزبير) ٥/ ٢١٩ـ ٢٢٠ ، وانظر النزهة : ٤/٥٩٦ .
(٣) انظر السير : (مورّق) ٤/ ٣٥٣ـ ٣٥٥ ، وانظر النزهة : ٢/٥١٠ .
(٤) انظر السير : (عامر بن عبد الله بن الزبير) ٥/ ٢١٩ـ ٢٢٠ ، وانظر النزهة : ٥/٥٩٦ .
(٥) انظر السير : (موسى الكاظم) ٦/ ٢٧٠ـ ٢٧٤ ، وانظر النزهة : ٢/٦٥٠ .

وقال يَحيىٰ بنُ الحَسَن العَلَوي : حدَّثني عَمَّارُ بنُ أَبَان قال : حُبسَ موسى ابنُ جعفر عند السَّنديّ بنِ شاهك ، فَسَألته أختُه أنْ تُولَّىٰ حَبْسَه وكانت تَدَيَّنُ ففعل ، فكانت علىٰ خِدمته ، فَحُكِي لنا أنَّها قالت : كان إذا صَلَّى العَتَمَة ، حَمِدَ اللهَ ومَجَّدَه ودَعَاه ، فلَم يَزَلْ كذلك حتىٰ يَزُولَ الليلُ فإذا زالَ الليلُ قامَ يُصَلي حتىٰ يُصَلي الصُّبحَ ، ثم يَذكرُ حتىٰ تَطلُعَ الشمسُ ، ثم يَقعُدُ إلى ارتفاع الضُّحىٰ ، ثم يَتَهيَّأُ ويَستاكُ ويأكلُ ، ثم يَرقُدُ إلىٰ قبلِ الزَّوالِ ، ثم يَتوضَّأ ويُصَلي العصرَ ثم يَذكُر في القبلةِ حتى المغرب ، ثم يُصَلي ما بينَ المغرب إلى العَتَمَة ، فكانت تقولُ : خابَ قومٌ تعَرَّضُوا لهٰذا الرجل ، وكان عبداً صالحاً[1] .

٤ـ اقتفاء طريقة دعاء الأنبياء :

عن ابنِ وَهب : سُئِلَ مالكٌ عن الدَّاعي يقولُ : يا سَيدي فقال : يُعجبني دُعَاءُ الأنبياء : ربَّنا ربَّنا[2] .

٥ـ رفع اليدين :

وعن أبي موسىٰ قالَ : لمَّا فَرَغَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم من حُنَين ، بَعَثَ أبا عامر الأشعَريّ علىٰ جَيشٍ أوطَاس[3] ، فلَقِيَ دُرَيْدَ بنَ الصِّمَّة فقُتل دُرَيدُ ، وهَزَمَ الله أصحَابَه ، فرَمَىٰ رجلٌ أبا عامرٍ في رُكبَته بسَهمٍ ، فأثبَتَه فقلتُ : يا عمُّ ، مَن رَمَاكَ ؟ ، فأشَارَ إليه ، فقَصَدتُ له فلَحِقتُه ، فلمَّا رآني ، وَلَّىٰ ذاهباً ، فجَعَلتُ أقولُ له ألا تَستَحِي ؟ أَلَسْتَ عَرَبياً ؟ ألا تَثبُت ؟ قال : فَكَفَّ ، فالتَقَيتُ أنا وهو ، فاختَلَفنا ضَربَتَين ، فقَتَلتُه ثم رَجَعتُ إلىٰ أبي عامر ، فقلتُ : قد قَتَلَ الله صاحبَك قال : فانزَعْ هٰذا السهمَ ، فنَزَعتُه ، فنزَا منه الماءُ ، فقال : يا ابنَ أخي ، انطلق إلىٰ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، فأقْرِه منِّي السَّلامَ ، وقُلْ له : يَسْتَغفِر لي، واسْتَخلَفَني أبو عامر على النَّاسِ ، فمَكَثَ يسيراً ، ثم ماتَ فلمَّا قَدِمنا ، وأخبرتُ النبيَّ صلى الله عليه

(١) انظر السير : (موسى الكاظم) ٦/ ٢٧٠ـ ٢٧٤ ، وانظر النزهة : ١/٦٥١ .

(٢) انظر السير : (مالك الإمام) ٨/ ٤٨ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٦/٧٣٣ .

(٣) أوطاس : وادٍ في ديار هوازن ، وهو غير وادي حُنين .

وسلم ، تَوَضَّأَ ، ثم رَفَعَ يديه ، ثم قال : « اللَّهُمَّ اغفِر لعُبَيدِك أبي عامر » حتىٰ رأيتُ بياضَ إبطَيْه ثم قال : « اللَّهُمَّ اجعَلهُ يومَ القيامة فوقَ كثيرٍ من خَلقِك » فقلتُ : وليَ يا رسولَ الله ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « اللَّهُمَّ اغفِر لعبدِ الله بن قيسٍ ذنبَه وأدخِلهُ يومَ القيامة مُدخَلاً كريماً »[1] .

وعن محمد بنِ أسامة بن زيد عن أبيه قال : لمَّا ثَقُلَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم هَبَطتُ وهَبَطَ النَّاسُ المدينةَ ، فدخلتُ عليه ، وقد أصْمَتَ فلا يَتكلمُ ، فجعلَ يضعُ يَدَيْهِ عليَّ ثم يرفعُها ، فأعرفُ أنَّه يدعو لي[2] .

عن مُغيرةَ بن حَكيم : قالت فاطمةُ بنتُ عبد الملك بن مَرْوان امرأةُ عُمرَ بنِ عبد العزيز : حَدَّثنا مُغيرةُ أنَّه يكونُ في النَّاسِ مَن هو أكثرُ صلاةً وصياماً من عُمرَ بنِ عبد العزيز ، وما رأيتُ أحداً أشَدَّ فَرَقاً من ربِّه منه ، كان إذا صَلَّى العِشاءَ قَعَدَ في مَسْجِدِه ، ثمَّ يَرفعُ يَدَيْه فلَم يَزَلْ يَبكي حتىٰ تَغلِبُه عَينُه ، ثم يَنتَبهُ ، فلا يزالُ يَدعُو رافعاً يديْه يبكي حتىٰ تَغلِبُه عينُه ، يفعلُ ذلك ليلَهُ أَجْمَع[3] .

قال سُليم بنُ عامر : دخلتُ على الجَرَّاح ، فرفعَ يديه ، فرفع الأمراءُ أيديَهم ، فمكثَ طويلاً ، ثم قال لي : يا أبا يحيىٰ ، هل تدري ما كُنَّا فيه ؟ قلتُ : لا ، وجدتُكم في رغبةٍ ، فرفعتُ يَدَيَّ معكم ، قال : سألنا اللهَ الشهادةَ ، فوالله ما بَقِيَ منهم أحدٌ في تلك الغزوة حتى استُشهد[4] .

٦ـ التواضع فيه :

قال أحمدُ بنُ أبي الحَوَاريّ : جاءَ إلىٰ أبي مُعَاويةَ الأسْود جماعةٌ ، ثمَّ قالوا : ادعُ اللهَ لنَا فقالَ : اللَّهُمَّ ارحَمْنِي بهم ، ولا تَحرمْهم بي[5] .

---

(١) انظر السير : (أبي موسى الأشعري) ٢/ ٣٨٠ـ ٤٠٢ ، وانظر النزهة : ٦/٢٧٨ .
(٢) انظر السير : (أسامة بن زيد) ٢/ ٤٩٦ـ ٥٠٧ ، وانظر النزهة : ٤/٢٩٧ .
(٣) انظر السير : (عمر بن عبد العزيز) ٥/ ١١٤ـ ١٤٨ ، وانظر النزهة : ١/٥٩١ .
(٤) انظر السير : (أبو عُقْبة الجَرَّاح) ٥/ ١٨٩ـ ١٩٠ ، وانظر النزهة : ٢/٥٩٥ .
(٥) انظر السير : (معاوية بن الأسود) ٩/ ٧٨ـ ٧٩ ، وانظر النزهة : ٤/٧٩٩ .

(ج) الذنوب تمنع الإجابة :

قال يَحْيىٰ بنُ مُعَاذ : لا تَسْتَبْطِىء الإجابةَ وقد سَدَدتَ طريقَها بالذُّنوب[1] .

(د) صور من إجابة الدعاء :

وعن قَيسٍ أخبَرَني سعدُ بنُ أبي وقَّاص أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال : « اللَّهُمَّ اسْتَجِبْ لسَعدٍ إذا دَعَاكَ » .

وعن جابر بنِ سمرة ، قال : شَكا أهلُ الكُوفَة سَعداً إلىٰ عُمرَ ، فقالوا : إنَّه لا يُحْسنُ أن يُصلِّي فقال سعدٌ : أمَّا أنا ، فإنِّي كنتُ أصلِّي بهم صَلاةَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، صَلاتَي العَشيّ لا أَخرمُ منها ، أَرْكُدُ[2] في الأُولَيَيْن وأحذِفُ في الأُخْرَيَيْنِ ، فقال عمرُ : ذاكَ الظَّنُّ بك يا أبا إسْحاق ، فبعث رجالاً يسألون عنه بالكوفة ، فكانوا لا يأتون مسجداً من مساجد الكوفة ، إلاَّ قالوا خَيراً ، حتىٰ أتوا مَسجداً لبني عيسىٰ ، فقال رجلٌ يُقالُ له أبو سعدة : أما إذا نَشدتُمونا بالله ، فإنَّه كان لا يَعْدِلُ في القَضيَّة ، ولا يَقْسمُ بالسَّويَّة ، ولا يَسيرُ بالسَّريَّة ، فقالَ سعدٌ : اللَّهُمَّ إنْ كان كاذباً ، فأعْمِ بَصَرَه ، وأَطِلْ عُمُرَه ، وعَرِّضْهُ للفِتَنِ .

قالَ عبدُ الملك : فأنا رأيتُهُ بعدُ يتعرَّض للإماءِ في السِّكَك ، فإذا سُئلَ كيف أنتَ ؟ يقولُ : كبيرٌ مَفتونٌ ، أصابَتْني دَعوةُ سعد » مُتفقٌ عليه[3] .

وعن ابنِ المُسَيِّب أنَّ رَجُلاً كان يَقَعُ في عليّ وطلحة والزُّبَير ، فجَعَلَ سعدُ بنُ أبي وَقَّاص يَنْهَاه ويقولُ : لا تَقَعْ في إخواني ، فَأَبَىٰ فقَامَ سعدٌ ، وصَلَّىٰ ركعَتَين ودعا ، فجاءَ بُختيٌّ[4] يشُقُّ النَّاسَ فأخَذَه بالبلاط ، فوضَعَه بين كِركِرته والبلاط حتىٰ سَحَقَه ، فأنا رأيتُ النَّاسَ يَتْبَعونَ سعداً ويقولون : هَنيئاً لك يا أبا إسحاق ! ! اسْتُجيبَت دعوتُك .

---

(١) انظر السير : (يحيى بن معاذ) ١٣/ ١٥-١٦ ، وانظر النزهة : ٣/١٠٤٧ .

(٢) أركد : أي أُطيل .

(٣) انظر السير : (سعد بن أبي وقاص) ١/ ٩٢-١٢٤ ، وانظر النزهة : ٢/١٣٥ .

(٤) البختي : الإبل الخراسانية تنتج من بين عربي ودخيل ، والكركرة : زور البعير .

قال الذهبيُّ : وفي هـٰذا كرامةٌ مُشْتَرَكةٌ بينَ الدَّاعي والذين نِيْلَ منهم[1] .

وعن هشام بنِ عُروة ، عن أبيه أنَّ أَرْوَىٰ بنتَ أويسٍ ادَّعَتْ أنَّ سعيدَ ابنَ زَيدٍ أَخَذَ شَيئاً من أرضِها فخَاصَمَته إلىٰ مَرْوان ، فقال سعيدُ : أنا كُنتُ آخُذُ مِن أرضِها شيئاً بعدَ الذي سَمعتُ من رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ؟!! ، سَمعتُه يقولُ : « مَنْ أَخَذَ شَيْئاً مِن الأرضِ طُوِّقَهُ إلىٰ سَبْعِ أرْضِين » ، قال مَروانُ : لا أسألُكَ بيِّنَةً بعدَ هـٰذا ، فقال سعيدُ : اللَّهُمَّ إنْ كانتْ كاذبةً فأعْمِ بَصَرَها ، واقْتُلْها في أرضِها ، فما ماتت حتىٰ عَمِيَتْ ، وبينا هي تمشي في أرضِها إذ وَقَعَتْ في حُفرةٍ فماتت[2] .

وعن أنسٍ مرفوعاً قال : « كمْ مِنْ ضَعِيفٍ مُتَضَعَّفٍ ذي طِمرَيْنِ لَوْ أَقْسَمَ على اللهِ لأَبَرَّه ، منهم البَرَاءُ بنُ مالك » .

وإنَّ البَرَاءَ لقِيَ المشركين وقد أوجَعَ المشركون في المسلمين ، فقالوا له : يا بَرَاء ، إنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال : إنَّكَ لَو أَقْسَمتَ على الله لأَبَرَّك ، فأَقْسِم علىٰ رَبِّك قال : أُقسِمُ عليك يا ربِّ لما مَنَحتَنا أكتافَهم[3] .

قال ابنُ شَوْذَب : بَلَغَ ابنَ عُمَرَ أنَّ زِيادَ بنَ أبيه كَتَبَ إلىٰ مُعاوية : إنِّي قد ضَبَطتُ العراقَ بيَمِينٍ ، وشِمالي فَارِغة ، وسَأَلَه أن يُوَلِيه الحِجَازَ فقال ابنُ عُمَر : اللَّهُمَّ إنَّك إنْ تَجعَلْ في القَتلِ كَفَّارةً ، فمَوْتاً لابن سُميّة لا قَتلاً فَخَرجَ في أصْبعه طاعونٌ فمات .

وقال الحَسَنُ البَصْريّ : بَلَغَ الحَسَنَ بنَ عليّ أنَّ زِيَاداً يَتَتَبَّعُ شِيعَةَ عليّ بالبَصرةِ ، فيَقْتُلُهُم فدَعَا عليه[4] .

وقال الوَاقِديُّ : جَهَّزَ مُعَاويةُ بنُ أبي سُفيان ، عُقبَةَ بن نافعٍ القُرَشيّ علىٰ عشرةِ آلاف ، فافتَتَحَ إفريقية واخْتَطَّ قَيروانَهَا ، وكان المَوضِعُ غَيْضَةً لا يُرامُ من السِّباعِ والأفاعِي فدعا عليها ، فلَمْ يَبْقَ فيها شيءٌ ، وهَرَبُوا حتىٰ إنَّ الوُحُوشَ لَتَحمِلُ أولادها .

---

(١) انظر السير : (سعد بن أبي وقاص) ١/ ٩٢ـ ١٢٤ ، وانظر النزهة : ٤/١٣٥ .
(٢) انظر السير : (سعيد بن زيد) ١/ ١٢٤ـ ١٤٣ ، وانظر النزهة : ٣/١٣٩ .
(٣) انظر السير : (البراء بن مالك) ١/ ١٩٥ـ ١٩٨ ، وانظر النزهة : ٣/١٤٧ .
(٤) انظر السير : (زياد بن أبيه) ٣/ ٤٩٤ـ ٤٩٧ ، وانظر النزهة : ٢/٤١٥ .

فحَدَّثني موسىٰ بنُ عليّ عن أبيه ، قالَ : نادَىٰ : إنَّا نازِلونَ فاظْعَنوا ، فخَرَجْنَ من جِحَرَتِهنَّ هَوارب .

ورَوَىٰ نَحوَه محمدُ بنُ عَمرو ، عن يَحْيَىٰ بنِ عبد الرحمـٰن بنِ حاطِب قال : لمَّا افْتَتَحَ عُقْبَةُ إفْريقيَّةَ ، قال : يا أهلَ الوَادي ، إنا حالُّون إنْ شاءَ الله ، فاظْعَنوا ، ثلاثَ مرَّات ، فما رَأيْنا حَجَراً ولا شَجَراً إلاَّ يَخرُجُ من تَحْته دابَّةٌ حتىٰ هَبَطْنَ بَطنَ الوَادي ، ثم قال للنَّاسِ : انزِلوا باسمِ الله .

وعن مُفضَّل بن فَضَالة ، قال : كان عُقبَة بن نافع مُجابَ الدَّعوة[1] .

وعن محمَّدِ بنِ زِياد ، عن أبي مُسلم الخَولانيّ أنَّ امرأةً خَبَّبَتْ عليه[2] امرأتَه ، فدَعَا عليها فعَمِيَت ، فأتَتْه فاعترَفَت وتابَتْ قال : اللَّهُمَّ إنْ كانت صادِقَةً ، فارْدُدْ إليها بَصَرَها ، فأبْصَرَت[3] .

وعن بلال بنِ كعب ، أنَّ الصِّبيانَ قالوا لأبي مُسلمِ الخَولانيّ : أُدْعُ الله أنْ يَحبسَ علينا هـٰذا الظَّبيَ فنأخُذَه ، فَدَعَا الله فحَبَسَه فأخَذُوه[4] .

وعن قَتَادَة قال : كان عامرُ بنُ قَيْس يَسْألُ رَبَّه أنْ يَنزِعَ شَهوةَ النِّساء من قَلبه ، فكَانَ لا يُبَالي أَذَكَراً لَقِيَ أمْ أُنثَىٰ ، وسَأَلَ رَبَّه أنْ يَمْنَعَ قَلبَه من الشَّيطانِ وهو في الصَّلاة فلَم يَقْدِر عليه[5] .

وقالَ مهديُّ بنُ مَيْمون : حدَّثنا غيلانُ بنُ جَرير أنَّه كان بين مطرفِ ابنِ عبد الله وبين رجلٍ كلامٌ فَكَذَبَ عليه فقال : اللَّهُمَّ إنْ كان كاذباً فَأمِتْه فخرَّ مَيِّتاً مكانه قال : فرُفِعَ ذلك إلىٰ زِياد فقال : قَتَلتَ الرجلَ قال : لا ولكنَّها دعوةٌ وافقَتْ أَجَلاً[6] .

---

(١) انظر السير : (عقبة بن نافع القرشيّ) ٣/ ٥٣٢ـ ٥٣٤ ، وانظر النزهة : ٣/٤٢٠ .
(٢) يُقالُ: خَبَّبَ فلان علىٰ فلان صديقه إذا أفسده عليه .
(٣) انظر السير : (أبو مسلم الخولاني) ٤/ ٧ـ ١٤ ، وانظر النزهة : ٥/٤٣١ .
(٤) انظر السير : (أبو مسلم الخولاني) ٤/ ٧ـ ١٤ ، وانظر النزهة : ١/٤٣٢ .
(٥) انظر السير : (عامر بن قيس) ٤/ ١٥ـ ١٩ ، وانظر النزهة : ٣/٤٣٣ .
(٦) انظر السير : (مطرف بن عبد الله) ٤/ ١٨٧ـ ١٩٥ ، وانظر النزهة : ١/٤٧٥ .

وعن عليّ بنِ زَيد قال : قال لي سعيدُ بنُ المُسَيِّب : قُلْ لقائِدِكَ يقومُ فيَنظُر إلىٰ وَجْهِ هـٰذا الرجلَ وإلىٰ جَسَدِه ، فقامَ وجاءَ قال : رأيتُ وَجْهَ زِنجيٍّ وجَسَدُه أبيَضُ ، فقال سعيدٌ : إنَّ هـٰذا سَبَّ هـٰؤلاء : طلحَةَ والزُّبَيرَ وعَلياً رضي الله عنهم ، فنَهَيْتُه فأَبَىٰ فدَعَوتُ اللهَ عليه ، قلتُ : إنْ كُنتَ كاذِباً فَسَوَّدَ الله وجهَك ، فخَرَجَتْ بوجهِهِ قَرْحَةٌ ، فاسْوَدَّ وجهُه[1] .

وعن أصبغ بن زَيد قال : كان لسعيد بن جُبير ديكٌ ، كان يقومُ من الليل بصِيَاحِه ، فلَم يَصِحْ ليلةً من الليالي حتىٰ أصْبَحَ ، فلَمْ يُصَلِّ سعيدٌ تلك الليلة فشَقَّ عليه ، فقال : مَا لَه قَطَعَ الله صَوتَه ؟ فمَا سُمعَ له صَوتٌ بعد ذلك فقالت له أُمُّه : يا بُنَيَّ لا تَدْعُ علىٰ شيءٍ بعدها[2] .

وقال سُليمُ بنُ عامر : دخَلتُ على الجَرَّاح ، فرَفَعَ يَدَيْه ، فرَفَعَ الأُمراءُ أيدِيَهُم ، فمَكَثَ طويلاً ، ثمَّ قال لي يا أبا يَحيَىٰ ، هل تَدرِي ما كُنَّا فيه ؟ قلت : لا وَجدتُكم في رَغبَةٍ ، فرَفَعْتُ يدي معكم ، قال : سألْنَا الله الشَّهادةَ ، فوالله ما بَقِيَ منهم أحَدٌ في تلك الغَزْوةِ حتى اسْتُشهِد[3] .

وكان الخَليلُ بنُ أحمدَ الفَراهيديّ رأساً في لسَان العَرَب ، دَيِّناً ، وَرِعاً ، مُتَواضِعاً ، كَبيرَ الشَأن ، يُقالُ : إنَّه دَعَا اللهَ أنْ يَرزُقَه عِلماً لا يُسْبَقُ إليه ، فَفَتَحَ الله عليه بالعَروض ، وله كتاب « العَيْن » في اللغة[4] .

وقال أحمدُ بنُ فُضَيل العَكِّيّ : غَزَا أبو مُعَاوية الأسْود ، فحَضَرَ المسلمون حِصْناً فيه عِلْجٌ لا يَرمي بحَجَرٍ ولانُشَّابٍ إلاَّ أَصَاب ، فشَكَوا إلىٰ أبي مُعَاوية ، فقرأَ : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ﴾[5] ، اسْتُروني منه ، فلمَّا وَقَفَ قال : أينَ تُريدُونَ

---

(1) انظر السير : (سعيد بن المسيب) ٤/٢١٧ـ ٢٤٦ ، وانظر النزهة : ٧/٤٨٨ .
(2) انظر السير : (سعيد بن جُبير) ٤/٣٢١ـ ٣٤٣ ، وانظر النزهة : ٢/٥٠٥ .
(3) انظر السير : (الجرَّاح) ٥/١٨٩ـ ١٩٠ ، وانظر النزهة : ٢/٥٩٥ .
(4) انظر السير : (الخليل بن أحمد الفراهيدي) ٧/٤٢٩ـ ٤٣١ ، وانظر النزهة : ٩/٧١٢ .
(5) سورة الأنفال : (١٧) .

بإذنِ الله ؟ قالوا المَذاكير فقَالَ : أيْ ربِّ قد سَمعتَ ما سَألُوني ، فأعْطِنِي ذلك : باسْمِ الله ، ثُمَّ رَمَىٰ المَذاكِير ، فوَقَع[1] .

رَوَىٰ أبو نُعَيم ، عن أبيه ، عن خاله ، أنَّ النِّباجيَّ كان مُجَابَ الدَّعوةِ ، وله آياتٌ وكَرَاماتٌ ، كان في سَفَرٍ ، فأصَابَ رجلٌ عائِنٌ ناقتَه بالعَيْن ، فجَاءَه النِّباجيُّ ، ودعا عليه بألفاظٍ ، فخَرَجَتْ حَدَقَتَا العائِن ، ونَشَطَتْ النَّاقَةُ[2] .

وقال عَبَّاسُ الدُّوريّ : حَدَّثنا عليُّ بنُ أبي فَزَارَة جَارُنا ، قال : كانت أُمي مُقعَدَة من نَحوِ عشرين سنة فقالت لي يوماً : اذهَبْ إلىٰ أحمدَ بنِ حنبل ، فَسَلْه أنْ يَدعُوَ لي ، فأتَيْتُ ، فدَقَقْتُ عليه وهو في دِهلِيزه ، فقال : مَنْ هـٰذا ؟ قلتُ : رجلٌ سَألَتنِي أُمِّي وهي مُقعَدَةٌ أنْ أسْألَكَ الدُّعاء فسَمِعتُ كَلامَه كَلامَ رجلٍ مُغْضَب فقال : نَحْنُ أَحْوَجُ أنْ تَدعُوَ اللهَ لنا فوَلَّيتُ مُنصَرِفاً ، فخَرَجَتْ عَجُوزٌ ، فقالت : قد تركتُه يَدعُو لها ، فجِئتُ إلىٰ بَيْتِنا ودقَقتُ البَابَ ، فخَرَجَتْ أُمي علىٰ رِجلَيْها تَمشِي .

هـٰذه الواقِعَةُ نقَلَهَا ثِقتَان عن عَبَّاس الدُّوريّ[3] .

وقال أحمدُ بنُ بُندار الشَّعار : حدثنا أبو يَحيَىٰ بنُ الرَّازيّ : سَمعتُ عليَّ بنَ سعيدٍ الرَّازي قال : صِرنا مع أحمدَ بنِ حنبل إلىٰ بابِ المُتوكل ، فلَمَّا أَدْخَلُوه من بابِ الخَاصَّة قال : انصرِفُوا ، عافاكم الله فمَا مَرِضَ منَّا أَحَدٌ بعد ذلكَ اليَوم[4] .

قال السُّلَميُّ في « مِحَن الصُّوفيّة » قال محمدُ بنُ الفَرْخيّ : كنتُ مع ذي النُّون في زَوْرَقٍ ، فمَرَّ بنا زَوْرقٌ آخر ، فقِيلَ لذي النُّون : إنَّ هـٰؤلاء يَمُرُّونَ إلى السلطان ، يَشهَدُون عليكَ بالكُفر فقال : اللَّهُمَّ إن كانوا كاذبين ، فغَرِّقهم ، فانقلَبَ الزَّوْرَقُ وغَرِقُوا فقلتُ له : فما بالُ المَلاَّح ؟ قال : لِمَ حَمَلَهم وهو يعلمُ قَصْدَهُم ؟ ولأَنْ يقفُوا بين يَدَي الله غَرقَىٰ خَيرٌ لهم من أن يقفوا شُهُودَ زُور ، ثم انتَفَضَ وتَغيَّر ، وقال :

---

(١) انظر السير : (أبو معاوية الأسود) ٩/٧٨-٧٩ ، وانظر النزهة : ٥/٧٩٩ .

(٢) انظر السير : (النِّباجيّ) ٩/٥٨٦ ، وانظر النزهة : ١/٨٤٢ .

(٣) انظر السير : (أحمد بن حنبل) ١١/١٧٧-٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٢/٩٢٨ .

(٤) انظر السير : (أحمد بن حنبل) ١١/١٧٧-٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٢/٩٤٥ .

وعِزَّتِكَ وجَلالِكَ لا أدْعُو علىٰ أحدٍ بعدها ثم دَعَاهُ أميرُ مصرَ ، وسَأَلَهُ عن اعتِقَادِه ، فتَكَلَّمَ ، فرَضِيَ أَمرَه وطَلَبَه المتوكل ، فلمَّا سَمعَ كَلامَه ولِعَ به وأَحَبَّه وكان يقولُ : إذا ذُكِرَ الصَّالحونَ ، فَحَيَّهلا بذي النون[1] .

وقال الحاكمُ : حَدَّثَنا الحافِظُ أبو علي النَّيسَابُوري عن شُيوخِه أنَّ ابنَ المُبَارك نَزَلَ مرةً برأسِ سِكَّةِ عيسىٰ ، وكان الحَسَنُ بنُ عيسىٰ يَركبُ فيُجتَازُ به وهو في المَجلس وكان من أحسَنِ الشَّباب وجهاً ، فسَأَلَ ابنُ المُبارك عنه فقِيلَ : هو نَصْرَانيّ فقالَ : اللَّهُمَّ ارزُقهُ الإسلامَ ، فاسْتُجيبَ له .

قال أبو العَبَّاس السَّرَّاج : حَدَّثنا الحَسَنُ بنُ عيسىٰ مَولَىٰ عبد الله ابن المُبارك ، وكان عاقِلاً ، عُدَّ في مَجلِسِه ببابِ الطَّاقِ[2] اثنا عَشر ألفَ محبَرَة[3] .

وقال عليُّ بنُ عُمر الحَرَّانِيّ سَمعتُ حَمزَةَ بنَ محمد الحَافِظ ، وجاءَه غَريبٌ فقال : إنَّ عَسْكَرَ أبي تَميمٍ ـ يَعني المَغَارِبة ـ قد وصَلُوا إلى الإسْكندرية فقالَ : اللَّهُمَّ لا تُحْيِيني حتىٰ تُرِيني الرَّايَاتِ الصُّفْر ، فمَاتَ حَمزةُ ودَخَلَ عَسْكَرُهم بعد مَوْته بثلاثة أيام[4] .

قال الذهبيُّ : هٰؤلاء عَسكرُ المُعزِّ العُبَيديّ الإسماعيليّة ، تَملَّكوا مصرَ في هٰذا الوقت ، وبنوا في الحال مدينة القاهرة المُعِزِّيَّة ، فأماتوا السُّنَّة ، وأظْهَروا الرَّفضَ ، ودامت دولتُهم أزيَدَ من مئتي عام ، حتىٰ أبادَهم السلطانُ صلاحُ الدين ، ونَسَبُهم إلىٰ عليٍّ رضي الله عنه غيرُ صحيح[5] .

وقال أبو سَعدٍ السَّمعانيُّ : سَمعتُ مَنْ أَثِقُ بِه أَنَّ ابنَي أبي بكرٍ الشَّاشيِّ قاما في مجلسِ وَعْظِ يُوسُف ابن أيُّوب وقالا له : إنْ كُنتَ تَنْتَحِلُ مَذْهَبَ الأَشْعَرِيِّ وإلاَّ فانزل

(١) انظر السير : (ذي النون المصريّ) ١١/ ٥٣٢ـ٥٣٦ ، وانظر النزهة : ٢/٩٦٨ .
(٢) وهي محلة كبيرة ببغداد بالجانب الشرقي بين الرصافة ونهر المعلّىٰ ، وتُعرف أيضاً بطاقةِ أسماء ، نسبةً إلىٰ أسماء بنت المنصور .
(٣) انظر السير : (الحَسَن بن عيسَى بن ماسَرْجس) ١٢/ ٢٧ـ ٣٠ ، وانظر النزهة : ٣/٩٧٦ .
(٤) انظر السير : (حمزة بن محمد) ١٦/ ١٧٩ـ ١٨١ ، وانظر النزهة : ١/١٢٨١ .
(٥) انظر السير : (حمزة بن محمد) ١٦/ ١٧٩ـ ١٨١ ، وانظر النزهة : ٢/١٢٨١ .

فقال : اقْعُدا لا مُتِّعتُما بشبابِكُما ، فسَمِعتُ جماعةً أنَّهما ماتا قبلَ أن يَتكَهَّلا[١] .

ورَوَى ابنُ عَساكِر عن الإمام أبي الحَجَّاج الفَنْدلاويّ قال : كان حَسَنَ المُفاكَهَة ، حُلوَ المُحاضَرَة ، شَديدَ التَعصُّب لمَذهَب أهلِ السُّنَّةِ ، كَرِيماً مُطَّرِحاً للتَّكلُّفِ ، قَويَّ القلبِ ، وكان يَخْطُبُ ليلةَ الخَتمِ في رمَضَانَ رجلٌ في حَلقةِ الفَنْدلاويّ وعنده أبو الحَسَن بنُ المُسلم الفَقيه ، فرَمَاهُم واحدٌ بحَجَرٍ ، فلَمْ يُعرَف ، فقال الفَنْدَلاويّ : اللَّهُمَّ اقطَعْ يَدَه فما مضىٰ إلاَّ يَسيرٌ حتىٰ أُخِذَ حُضَيرٌ من حَلقَة الحَنابلة ، ووُجِدَ في صُندوقِه مفَاتيحُ كثيرةٌ للسَّرِقَة فأمَرَ شَمسُ المُلوكِ بقَطعِ يَدَيْه ، فمَاتَ من قطعِهما[٢] .

وقال الحَسَنُ بنُ أحمدَ الأوقيُّ : كانوا يَأتُون السِّلَفيَّ ، ويطلُبون منه دُعاءً لعُسْرِ الوِلادةِ ، فيَكتُبُ لمَن يَقْصِدُه ، قال : فلمَّا كَثُرَ ذلك نَظَرْتُ فيما يَكتُب ، فوَجَدتُّه يكتُب : اللَّهُمَّ إنَّهم قد أَحْسَنُوا ظَنَّهم بي ، فلا تُخَيِّب ظَنَّهم فيَّ[٣] .

وحَكَى القاضي ضياءُ الدِّين بنُ الشَّهرزوريِّ أنَّ القاضي لمَّا سَمِعَ أنَّ العادلَ أخَذَ مصرَ ، دعا بالموتِ خشيةَ أنْ يَستَدعيَه وزيرُهُ ابنُ شُكرٍ ، أو يُهينَهُ ، فأَصْبَحَ مَيْتاً ، وكان ذا تَهَجُّدٍ ومُعَامَلَة[٤] .

وقالَ الحَافِظُ الضِّيَاء سَمعتُ الإمامَ عبدَ الرَّحمـٰنِ بنَ محمدِ بنِ عبدِ الجَبَّار يقولُ : حَدثني جماعةٌ من جَمّاعيل منهم خالي عُمر بنُ عَوض قال : وَقَعَت في جَمّاعيل فِتنةٌ فخَرَجَ بعضُهم إلىٰ بعضٍ بالسُّيُوف ، وكان ابنُ راجح عندنا قالوا : فسَجَدَ ودعا ، قالوا : فضَرَبَ بعضُهم بعضاً بالسُّيوف فمَا قَطَعَتْ شَيئاً قال ابنُ عُمر فلقد رأيتُني ضَربتُ بسَيْفي رجلاً ، وكان سَيفاً مَشْهُوراً ، فمَا قَطَعَ شيئاً ، وكانوا يَرَونَ أنَّ هـٰذه ببرَكَةِ دُعائه[٥] .

---

(١) انظر السير : (يُوسُف بن أيُّوب) ٢٠/٦٦ـ ٦٩ ، وانظر النزهة : ٣/١٥٣١ .

(٢) انظر السير : (الفَندلاويّ) ٢٠/٢٠٩ـ ٢١٠ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٤٢ .

(٣) انظر السير : (السِّلفيّ) ٢١/٥ـ ٣٩ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٩٣ .

(٤) انظر السير : (القاضي الفاضل) ٢١/٣٣٨ـ ٣٤٤ ، وانظر النزهة : ٣/١٦٣٠ .

(٥) انظر السير : (ابن راجح) ٢٢/١٥٦ـ ١٥٨ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٨٠ .

(هـ) مُتفرِّقاتٌ في الدُّعاء :

١ـ مَنْ دَعا بالاسْمِ الأعْظَم فاسْتُجيبَ له ولكنَّه عُوقِب :

قال الرَّازيُّ : سَمعتُ عليَّ بنَ محمد المصريّ ـ ونحن في جنازةِ ابنِ أبي حاتم ـ يقول : قَلَنْسُوة عبد الرحمـٰن من السَّماء ، وما هو بعجب ، رجلٌ مُنذُ ثَمانينَ سنةً علىٰ وتيرةٍ واحدة ، لَم يَنحَرِفْ عن الطريق ، وسَمعتُ عليَّ بنَ أحمد الفَرَضي يقول : ما رأيتُ أحداً ممن عَرَفَ عبدَ الرَّحمـٰن ذَكَرَ عنه جَهَالةً قَطُّ وسَمعتُ أحمدَ بنَ محمد بنِ الحُسَيْن الحافظ يَحكي عن عليّ بنِ الحُسَيْن الدَّرستيني ، أنَّ أبا حاتم كان يَعرفُ الاسمَ الأعْظَم ، فَمَرِضَ ابنُه ، فاجتَهَدَ أنْ لا يَدعُوَ به ، فإنَّه لا يُنالُ به الدُّنيا ، فلمَّا اشْتَدَّت العِلة ، حَزِنَ ودعا به ، فعُوفِي ، فرأىٰ أبو حاتم في نومه : استجبتُ لك ولكنْ لا يُعقِبُ ابنُك فكان عبدُ الرحمـٰن مع زوجته سَبعين سنةً فلَم يُرزَق ولداً[١] .

٢ـ الدُّعَاء بطُول البَقَاء :

رَوَىٰ أبو عُمَر الضَّرير ، عن أبي عَوانة قال : دخلتُ علىٰ هَمَّام ابنِ يَحيىٰ وهو مريضٌ ، أعُودُه ، فقال لي : يا أبا عوانة أُدْعُ الله أنْ لا يُميتَني حتىٰ يَبلغَ ولدي الصغار فقلتُ : إنَّ الأجَلَ قد فُرغَ منه ، فقال لي : أنتَ بعدُ في ضلالك[٢] .

قال الذهبيُّ : بئسَ المقالُ هـٰذا ، بل كُلُّ شيء بقدرٍ سابق ، ولكنْ وإنْ كان الأجَلُ قد فُرغَ منه ، فإنَّ الدعاءَ بطولِ البقاءِ قد صَحَّ دعا الرسول صلى الله عليه وسلم لخادِمِه أَنَس بطولِ العُمر ، والله يَمحُو ما يشاءُ ويُثبتُ فقد يكونُ طولُ العُمرِ في عِلمِ الله مَشْروطاً بدعاء مُجاب ، كما أنَّ طَيَرانَ العُمر قد يكونُ بأسبابٍ جعلها من جَوْرٍ وعَسف ، و« لا يَرُدُّ القَدَرَ إلاَّ الدُّعاء » والكتاب الأول فلا يَتَغيَّر[٣] .

---

(١) انظر السير : (عبد الرحمـٰن بنُ أبي حاتم الرَّازي) ١٣/ ٢٦٣ـ ٢٦٩ ، وانظر النزهة : ١/١٠٧٩ .
(٢) انظر السير : (أبو عوانة) ٨/ ٢١٧ـ ٢٢٢ ، وانظر النزهة : ٤/٧٤٥ .
(٣) انظر السير : (أبو عوانة) ٨/ ٢١٧ـ ٢٢٢ ، وانظر النزهة : ٥/٧٤٥ .

٣ـ طَلبُ الدُّعَاء من المَلائكة :

عن بِشْرِ بنِ الحارث ، سمعَ أبا بكر بنَ عَيَّاش يقول : يا مَلَكَيَّ ادعُوَا الله لي ، فإنَّكُما أطْوَعُ لله منِّي[١] .

٤ـ الدُّعَاء بعدَ الصَّلاة :

وعن ابنِ أبي روَّاد قال : رأيتُ طاوُوساً وأصحابَه إذا صَلوا العَصرَ ، استقبَلوا القِبلةَ ، ولم يُكلِّموا أحَداً ، وابتَهَلُوا بالدعاء[٢] .

عن ابنِ شَوْذَب قال : كان أيُّوبُ السِّخْتياني يَؤمُّ أهلَ مسجَدِه في شهر رمضَان ، ويُصلي بهم في الركعةِ قدرَ ثلاثين آية ، ويُصلي لنفسِه فيما بين التَّرويحَتَين بقدر ثلاثين آية وكان يقول هو بنفسه للناس : الصلاة ، ويُوتِرُ بهم ، ويَدعو بدُعاء القرآن ، ويُؤَمِّنُ مَنْ خلفَه ، وآخر ذلك يُصلي على النبيِّ صلى الله عليه وسلم ويقولُ : اللَّهُمَّ استعمِلنا بسُنَّته وأَوْزِعنا بهَديِه واجعَلنا للمتقين إماماً ، ثمَّ يَسجُدُ ، وإذا فَرَغَ من الصَّلاة دعا بدَعَوَات[٣] .

٥ـ رُؤيا فيها حَثٌّ على الدُّعَاء :

قال الحاكمُ : سَمعتُ الشيخَ أبا بكر الصّبغيّ يقولُ : رأيتُ في مَنَامي كأنِّي في دار فيها عُمَرُ بنُ الخطَّاب ، وقد اجتمَعَ النَّاسُ عليه يَسألونَه المَسَائلَ ، فأشَارَ إليَّ : أنْ أُجيبَهم ، فما زِلتُ أُسألُ وأُجيبُ وهو يقولُ لي : أصَبتَ امضِ ، أصَبتَ امضِ ، فقلتُ : يا أميرَ المؤمنين ، ما النَّجَاةُ من الدُّنيا أو المَخرَجُ منها ؟ فقال لي بإصْبعه : الدعاء ، فأعدتُ عليه السُّؤالَ فجَمَعَ نفسَه كأنَّه ساجِدٌ لخُضُوعِه ثم قال : الدعاء[٤] .

---

(١) انظر السير : (أبو بكر بن عياش) ٨/ ٤٩٥ـ٥٠٨ ، وانظر النزهة : ٧٨٧/ ٤ .

(٢) انظر السير : (طاووس) ٥/ ٣٨ـ٤٩ ، وانظر النزهة : ٥٧٩/ ٣ .

(٣) انظر السير : (أيوب السختياني) ٦/ ١٥ـ٢٦ ، وانظر النزهة : ٦٢٦/ ١٠ .

(٤) انظر السير : (الصبغيّ) ١٥/ ٤٨٣ـ٤٨٨ ، وانظر النزهة : ١٢٥٠/ ٦ .

(و) أدعية مُجرّبة في كشف الضر :

عن طاووس : سَمعتُ عليَّ بنَ الحُسَين وهو ساجدٌ في الحِجْرِ يقولُ : عُبَيدُكَ بِفِنائِك ، مِسْكينُكَ بِفِنائِك ، سائِلُكَ بِفِنائِك ، فقيرُكَ بِفِنائِك قال : فوالله ما دَعَوتُ بها في كربٍ قَطُّ إلاَّ كُشِفَ عنِّي[1] .

وعن عبدِ الملكِ بن عُمَير قال : حدثني أبو مُصعب أنَّ عبدَ الملك ابنَ مَرَوان كتبَ إلىٰ هشام بنِ إسماعيل متولِّي المدينة : بلغَني أنَّ الحَسَنَ ابنَ الحَسَن يُكَاتِبُ أهلَ العِراق فاستَحْضِرهُ قال : فجِيءَ به فقال له عليُّ ابنُ الحُسَين : يا ابنَ عمٍّ قُلْ كَلمَاتِ الفَرَجْ[2] : « لا إلَـٰهَ إلاَّ اللهُ الحَليمُ الكَريم ، لا إلَـٰهَ إلاَّ اللهُ العَليُّ العَظِيم ، لا إلَـٰهَ إلاَّ اللهُ رَبُّ السَّموات السَّبعِ ورَبُّ الأرضِ رَبُّ العَرشِ الكريم » قال : فخُلِّي عنه[3] .

وعن الفضلِ بنِ الرَّبيع عن أبيه قال : دعاني المنصورُ فقال : إنَّ جَعفَرَ بنَ محمد يُلحِدُ في سُلطاني قتلني الله إنْ لَم أقتُلْه فأتَيتُه فقلتُ : أَجِبْ أميرَ المؤمنين فتَطَهَّرَ ولبسَ ثياباً ، أحسَبُه قال : جُدُداً ، فأقبلتُ به فاستأذَنتُ له ، فقال : أدْخِلْه قتلني الله إنْ لَم أقتُلْه ، فلمَّا نَظَرَ إليه مُقبلاً قامَ من مجلسِه فتَلَقَّاهُ وقال : مرحباً بالنَّقيِّ السَّاحة ، البَرِيءُ من الدَّغَلِ والخِيانَة ، أخي وابنُ عمي ، فأقعَدَه معه علىٰ سَريرِه وأقبلَ عليه بوجهِه وسَأَله عن حالِه ، ثمَّ قال : سَلْنِي عن حاجتِك فقال : أهلُ مكةَ والمدينة قد تأخَّرَ عطاؤُهم فتأمُر لهم به قال : أفعَل ، ثم قال : يا جارية ائْتِنِي بالتُّحْفَةِ فأتَتْهُ بمُدْهُن زجاج فيه غالية فغلفه بيده وانصرف فاتبعته فقلتُ : يا ابنَ رسولِ الله ، أتيتُ بك ولا أشُكُّ أنَّه قاتِلُك ، فكان منه ما رأيت وقد رأيتُك تُحَرِّكُ شَفَتَيْكَ بشيءٍ عند الدُّخُولِ فما هو ؟ قال : قلتُ : اللَّهُمَّ احْرُسْني بعينِك التي لا تَنَام واكنُفْنِي برُكنِك الذي لا يُرَام واحفَظنِي

---

(١) انظر السير : (عليُّ بن الحسين) ٤/ ٣٨٦ـ ٤٠١ ، وانظر النزهة : ٥/٥١٨ .

(٢) وأخرجه البخاري (١١/ ١٢٣) في الدعوات باب الدعاء عند الكرب ، ومسلم (٢٧٣٠) في الذكر والدعاء باب دعاء الكرب من حديث ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول عند الكرب « لا إلـٰه إلاّ الله العظيم الحليم ، لا إلـٰه إلاّ الله ربّ العرش العظيم ، لا إلـٰه إلاّ الله ربّ السماوات وربّ الأرض وربّ العرش العظيم » .

(٣) انظر السير : (الحسن) ٤/ ٤٨٣ـ ٤٨٧ ، وانظر النزهة : ١/٥٣٧ .

بقُدرتك عليَّ ولا تُهلكِني وأنتَ رَجَائِي ربِّ كم من نِعمَةٍ أنعمتَ بها عليَّ قَلَّ لكَ عندها شُكرِي وكم من بَلِيَّة ابتَليتَنِي بها قَلَّ لك عندها صَبري ؟ فيا مَنْ قَلَّ عند نِعمَتِه شُكري فلَمْ يَحْرمني ، ويا مَنْ قلَّ عند بَليَّتِه صَبري فلَمْ يَخْذُلني ، ويا مَنْ رآني على المعاصي فلَمْ يَفْضَحنِي ، ويا ذا النِّعَمِ التي لا تُحْصَىٰ أبداً ، ويا ذا المَعرُوفِ الذي لا يَنقَطِعُ أبداً ، أعِنِّي علىٰ ديني بدُنيا وعلىٰ آخرتي بتقوىٰ ، واحفَظْني فيما غِبتُ عنه ولا تَكِلني إلىٰ نفسِي فيما خطرت يا مَنْ لا تَضُرُّه الذُّنوب ولا تنقصُه المَغفِرة اغفِرْ لي ما لا يَضُرُّك ، وأعطِني ما لا يَنْقُصُك يا وهَّابُ أسألك فَرَجاً قريباً وصَبراً جَمِيلاً ، والعافيةَ من جميع البَلايا وشكر العافية مات جعفرٌ الصَّادق في سنةِ ثمانٍ وأربعين ومئة ، وعُمرُه ثمانٍ وستِّين سنة رَحِمَه الله[1] .

وعن بَقيَّة ، قال : كُنَّا مع إبراهيمَ بنِ أدْهَم في البحرِ ، فهاجَت ريحٌ واضطَرَبَت السَّفينةُ ، وبَكَوْا فقُلنا : يا أبا إسحاق! ما ترى ؟ فقالَ : يا حيُّ حين لا حيَّ ، ويا حيُّ قبلَ كُلِّ حيٍّ ،ويا حيُّ بعد كُلِّ حيٍّ ، ويا حيُّ يا قيُّومُ يا مُحسِنُ ، يا مُجمِلُ! قد أرَيتَنَا قُدرتَك ، فأرِنا عَفوَكَ فهَدَأتْ السَّفينةُ من ساعته[2] .

عن عَمرو بنِ السَّرحْ : قلتُ لذِي النُّونِ المِصْريّ : كيفَ خَلُصتَ من المُتوكِّل وقد أَمَرَ بقتلك!! ؟ قال : لمَّا أوصَلني الغُلام ، قلتُ في نفسِي : يا مَنْ ليسَ في البحارِ قَطَرَاتٌ ، ولا في دَيْلَجِ الرِّياح دَيْلَجاتٌ ، ولا في الأرضِ خَبيئاتٌ ، ولا في القُلوبِ خَطَراتٌ ، إلاَّ وهي عليكَ دَليلاتٌ ، ولكَ شاهداتٌ ، وبرُبُوبيَّتِكَ مُعتَرفاتٌ ، وفي قُدرتِك مُتَحَيِّراتٌ ، فبالقُدرةِ التي تُجيرُ بها من في الأرضِين والسَّماوات إلاَّ صَلَّيتَ علىٰ محمدٍ وعلىٰ آلِ محمدٍ ، وأخَذتَ قَلبَه عَنِّي ، فقامَ المُتوكِّل يَخطُو حتىٰ أعْتَقَنِي ، ثم قال : أتْعَبنَاكَ يا أبا الفَيض[3] .

وقال الضِّياءُ : اعتُقِلَ الإمامُ عبدُ الغنيّ المَقدِسيّ في دارٍ أسبوعاً ، فسمعتُ أبا

---

(١) انظر السير : (جعفر بن محمد) ٦/ ٢٥٥ـ ٢٧٠ ، وانظر النزهة : ٢/٦٤٩ .
(٢) انظر السير : (إبراهيم بن أدهم) ٧/ ٣٨٧ـ ٣٩٦ ، وانظر النزهة : ٣/٧٠٨ .
(٣) انظر السير : (ذو النون المصريّ) ١١/ ٥٣٢ـ ٥٣٦ ، وانظر النزهة : ٥/٩٦٨ .

موسىٰ يقول : سمعتُ أبي يقول : ما وجَدتُ راحةً في مصرَ مثل تلك اللَّيالي قال : وكانت امرأةٌ في دارٍ إلىٰ جانب تلك الدَّار ، فسَمعتُها تبكي وتقولُ : بالسِّرِّ الذي أوْدَعته قَلبَ موسىٰ حتىٰ قَوِيَ علىٰ حملِ كلامِك قال : فدَعَوتُ به فخلصتُ تلك الليلة[1] .

(ز) مُناجَاةٌ :

قال الإمامُ الذهبيُّ : تُوفِّي كهْمَس في سنةِ تسعٍ وأربعين ومئة وكان من حملة الحجة قال أبو عَطاء الرَّمليّ : كان كَهْمَس يقولُ في الليل : أَتُراكَ مُعذِّبي وأنت قُرَّةُ عيني ، يا حبيبَ قلباه![2] .

وعن محمد بنِ يَزيد الرِّفاعيّ قال : سَمعتُ عَمِّي يقول : خَرجتُ مع عُمر ابنِ ذَر إلىٰ مَكةَ ، فكان إذا لبَّىٰ لم يُلَبِّ أحدٌ من حُسنِ صَوتِه ، فلمَّا أتَى الحَرَمَ قال : ما زِلنَا نَهبِطُ حُفرةً ونَصعَدُ أَكَمَةً ونَعلُو شَرَفاً ويبدُو لنا عَلَمٌ حتىٰ أتَيْناك بها نَقِبَةً أخفافُها ، دَبِرَةً ظُهورُها ذَبِلَةً أسْنامُها فليس أعظَمَ المؤنَةِ علينا إتْعابُ أبدانِنا ولا إنفاقُ أموالِنا ، ولكن أعظم المؤنَةِ أنْ نرجعَ بالخُسرانِ! يا خيرَ مَن نَزَلَ النَّازلون بفنائه[3] .

وعن أبي يزيدٍ البِسْطاميّ قال : هـٰذا فَرَحي بك وأنا أخافُك ، فكيف فَرَحي بك إذا أمِنْتُك ؟ ليس العَجَبُ من حُبِّي لك وأنا عبدٌ فَقِيرٌ ، إنَّما العَجَبُ من حُبِّكَ لي وأنتَ مَلِكٌ قديرٌ[4] .

(ح) نَمَاذجُ من دُعاء الصَّالحين :

وعن عبدِ الله بنِ مَسْعُود أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم مَرَّ بين أبي بكرٍ وعُمَرَ ، وعبدُ الله بنُ مسعودٍ قائمٌ يُصَلي فافتَتَحَ سورةَ النِّساء يُسَجِّلُها[5] ، فقال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ أَحبَّ أنْ يَقْرَأَ القُرآنَ غَضاً كما أُنزِلَ فليَقْرَأ قراءَةَ ابنِ أُمِّ عَبد » فأخَذَ عبدُ الله

---

(١) انظر السير : (عبد الغني المقدسي) ٢١/٤٤٣ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ١/١٦٤٩ .
(٢) انظر السير : (كهمس) ٦/٣١٦ـ ٣١٧ ، وانظر النزهة : ٥/٦٥٣ .
(٣) انظر السير : (عُمرُ بن ذَر) ٦/ ٣٨٥ـ ٣٩٠ ، وانظر النزهة : ٣/٦٦٠ .
(٤) انظر السير : (أبو يزيد البسطامي) ١٣/٨٦ـ ٨٩ ، وانظر النزهة : ٤/١٠٥٤ .
(٥) أي يقرؤها قراءة مفصّلة .

في الدُّعاءِ فجَعَلَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يقولُ : « سَلْ تُعْطَ » فكان فيما سَأَلَ : اللَّهُمَّ إنِّي أسْأَلُكَ إيماناً لا يَرتَدُّ ونَعيماً لا يَنفَدُ ومُرافَقَةَ نَبيِّكَ محمد صلى الله عليه وسلم في أعلىٰ جِنَانِ الخُلْد ، فأتىٰ عُمَرُ عبدَ الله يُبَشِّرُهُ ، فوَجَدَ أبا بكرٍ خارجاً قد سَبَقَه ، فقال : إنَّكَ لسَبَّاقٌ بالخير[1] .

وعن القاسمِ بنِ عبدِ الرَّحمـٰنِ أنَّ بنَ مَسْعودٍ كان يقولُ في دُعائِه : خائِفٌ مُستَجيرٌ ، تائِبٌ مُستَغفِرٌ ، راغِبٌ راهِبٌ[2] .

وعن مالكِ بنِ مِغوَل : حدثنا ابنُ بُرَيدَة عن أبيه قال : جاءَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إلى المسجد ، وأنا علىٰ بابِ المسجدِ ، فأخَذَ بيدي فأدخَلَني المسجدَ ، فإذا رجلٌ يُصَلي ، يَدعُو يقول : اللَّهُمَّ إنِّي أسألُك بأنِّي أشهَدُ أنَّكَ أنتَ الله لا إلَـٰهَ إلاَّ أنْتَ الأحَدُ الصَّمَدُ الذي لَمْ يَلِدْ ولَمْ يُولَد ولَمْ يكُنْ لَهُ كُفُواً أحَدٌ .

قال صلى الله عليه وسلم : « والذي نفسِي بيَدِه لَقَدْ سَأَلَ الله باسمِهِ الأعْظَم ، الذي إذا سُئِلَ به أعْطَىٰ وإذا دُعِيَ به أجاب » وإذا رجلٌ يَقرأ فقال صلى الله عليه وسلم : « لقد أُعْطِيَ هـٰذا مِزْماراً من مَزَامِيرِ آلِ داود » ، قلتُ يا رسولَ الله ، أُخْبِرُهُ ؟ قال صلى الله عليه وسلم : « نعم » فأخْبَرتُه فقال لي : لا تزالُ لي صَديقاً ، وإذا هو أبو موسىٰ[3] .

وعن مَسروقٍ قال : خَرَجنا مع أبي موسىٰ في غَزَاةٍ ، فَجَنَّنا الليلُ في بُستانٍ خَرِبٍ ، فقام أبو موسىٰ يُصلي ، وقَرَأَ قِراءةً حَسَنَة ، وقال : اللَّهُمَّ أنتَ المُؤمنُ تُحِبُّ المُؤمنَ ، وأنتَ المُهيمنُ تُحِبُّ المُهيمنَ ، وأنتَ السَّلامُ تُحِبُّ السَّلام[4] .

وكان مُطرِّفُ بنُ عبد الله بن الشِّخِّير يقولُ : اللَّهُمَّ ارضَ عَنَّا ، فإنْ لَمْ تَرضَ عنَّا فاعفُ عنَّا فإنَّ المَولَىٰ قد يَعفُو عن عبدِه وهو عنهُ غيرُ راضٍ[5] .

---

(١) انظر السير : (عبد الله بن مسعود) ١/ ٤٦١ـ ٥٠٠ ، وانظر النزهة : ١٩٤/ ٤ .
(٢) انظر السير : (عبد الله بن مسعود) ١/ ٤٦١ـ ٥٠٠ ، وانظر النزهة : ١٩٧/ ٥ .
(٣) انظر السير : (أبو موسى الأشعري) ٢/ ٣٨٠ـ ٤٠٢ ، وانظر النزهة : ٢٧٩/ ٣ .
(٤) انظر السير : (أبو موسى الأشعري) ٢/ ٣٨٠ـ ٤٠٢ ، وانظر النزهة : ٢٨٠/ ٨ .
(٥) انظر السير : (مطرف بن عبد الله) ٤/ ١٨٧ـ ١٩٥ ، وانظر النزهة : ٤٧٦/ ٥ .

وكان سعيدُ بنُ المُسيِّب يُكثِرُ أنْ يقولَ في مجلسِه : اللَّهُمَّ سَلِّم سَلِّم[1] .

وقال الشُّعبيُّ : خَطَبَ عبدُ الملكِ بنُ مَروان فقال : اللَّهُمَّ إنَّ ذُنوبي عِظامٌ ، وهي صِغارٌ في جنبِ عَفوِكَ يا كريم ، فاغفِرْها لي .

قال الذهبيُّ : كان عبدُ الملكِ بنُ مَروان من رجالِ الدَّهرِ ودُهاةِ الرِّجال ، وكان الحَجَّاجُ ابنُ يوسف الثَّقَفيّ من ذُنُوبِه[2] .

وعن سعيدِ بن جُبَير قال : التَّوَكُّلُ على الله جِماعُ الإيمان وكان يَدعُو : اللَّهُمَّ إنِّي أسْأَلُكَ صِدقَ التَّوَكُّلِ عَليكَ وحُسنَ الظَّنِّ بك[3] .

وعن عليِّ بنِ الحُسَين قال : فَقْدُ الأحِبَّةِ غُربة وكان يقولُ: اللَّهُمَّ إنِّي أعوذُ بك أنْ تُحَسِّنَ في لَوَائحِ[4] العُيونِ عَلانِيَتي وتُقَبِّحَ في خَفيَّاتِ العُيونِ سَريرَتي اللَّهُمَّ كما أسأتُ وأحْسَنتَ إليَّ ، فإذا عُدتُ فعُد عليَّ[5] .

قال زَيدُ بنُ أسْلَم : كان من دُعاءِ عليِّ بنِ الحُسَين : اللَّهُمَّ لا تَكِلْني إلىٰ نفسي فأعجزَ عنها ، ولا تَكِلْني إلى المَخلُوقين فيُضَيِّعُوني[6] .

وقال عُتبةُ بنُ عبد الله العَنبَريّ : سمعتُ بكراً المُزَنيّ يقولُ في دُعائِه : أصبحتُ لا أملِكُ ما أرجو ، ولا أدفَعُ عن نفسي ما أكره أمري بيدِ غَيرِي ، ولا فقيرَ أفقرُ منِّي[7] .

قال أبو الأشهب : سمعتُ بكرَ المزنيّ يقول : اللَّهُمَّ ارزُقنا رزقاً يَزيدُنا لك شُكراً ، وإليكَ فاقَةً وفَقْراً ، وبكَ عمَّن سِواكَ غِنَىً

---

(١) انظر السير : (سعيد بن المسيب) ٤/ ٢١٧ـ٢٤٦ ، وانظر النزهة : ٧/٤٨٢ .

(٢) انظر السير : (عبد الملك بن مروان) ٤/ ٢٤٦ـ٢٤٩ ، وانظر النزهة : ٥/٤٩٠ .

(٣) انظر السير : (سعيد بن جبير) ٤/ ٣٢١ـ٣٤٣ ، وانظر النزهة : ٦/٥٠٥ .

(٤) لوائح الشيء : ما يبدو منه وتظهر علامته عليه .

(٥) انظر السير : (علي بن الحسين) ٤/ ٣٨٦ـ٤٠١ ، وانظر النزهة : ٦/٥١٩ .

(٦) انظر السير : (علي بن الحسين) ٤/ ٣٨٦ـ٤٠١ ، وانظر النزهة : ٧/٥١٩ .

(٧) انظر السير : (بكر بن عبد الله) ٤/ ٥٣٢ـ٥٣٦ ، وانظر النزهة : ٥/٥٥٠ .

قال حُمَيدُ الطَّويل : كان بكرُ ابنُ عبد الله مُجابَ الدَّعوة[1] .

وعن طَلقِ بنِ حَبيبٍ ، أنَّه كان يقول في دعائِه : اللَّهُمَّ إنِّي أسألُكَ عِلمَ الخائفين منْكَ وخَوفَ العالِمين بكَ ، ويَقينَ المُتوكلين عليكَ وتَوَكُّلَ المُوقِنين بكَ ، وإنابَةَ المُخبِتين إليكَ وإخْباتَ المُنيبين إليكَ ، وشُكرَ الصَّابرين لكَ وصَبرَ الشَّاكرين لكَ ، ولَحَاقاً بالأحْياءِ المَرزُوقين عندك[2] .

وعن اللَّيْثِ : كانَ ابنُ شِهابٍ الزُّهريّ يَختِمُ حديثَه بدُعاءٍ جامعٍ يقولُ : اللَّهُمَّ إنِّي أسْألُكَ من كُلِّ خيرٍ أحاطَ به عِلمُك في الدُّنيا والآخرةِ ، وأعوذُ بكَ من كُلِّ شيءٍ أحاطَ به عِلمُك في الدُّنيا والآخرةِ ، وكان من أَسْخَىٰ مَنْ رأيتُ ، كان يُعطِي ، فإذا فَرَغَ ما معه يَسْتَلِفُ من عَبيدِه ، ويقولُ : يا فُلانُ أسْلِفني كما تَعرفُ ، وأُضْعِفُ لكَ كما تَعلمُ ، كان يُطعِمُ النَّاسَ الثَّريدَ ويَسْقِيهِمُ العَسَلَ ، وكان يَسْمُرُ على العَسَلِ كما يَسْمُرُ أهلُ الشَّرابِ علىٰ شَرَابِهِم ، ويقول : اسْقُونا وحَدِّثُونا وكان يُكثِرُ شُربَ العَسَلِ ، وسَمِعتُهُ يَبكي على العِلمِ بلِسَانِه ، ويقولُ : يَذْهَبُ العِلمُ ، وكثيرٌ ممن كان يعملُ به فقلتُ له : لَو وَضَعْتَ من عِلمِكَ عند مَنْ تَرجُو أنْ يكونَ لكَ خَلَفاً قال : والله ما نَشَرَ أحدٌ العِلمَ نَشْرِي ، ولا صَبرَ عليه صَبْرِي ، ولقد كُنَّا نَجلِسُ إلى ابنِ المُسَيَّب ، فما يَستطِيعُ أحدٌ منَّا أنْ يَسْألَه عن شيءٍ إلاَّ أنْ يَبتدِىءَ الحديثَ أو يأتيَ رجلٌ يسْألُه عن شيءٍ قد نزَلَ به[3] .

وعن ابنِ شَوذَب قال : كان أيُّوب السَّختيانيّ يؤُمُّ أهلَ مسجده في شهرِ رمضانَ ، ويُصلي بهم في الركعةِ قدرَ ثلاثينَ آية ، ويُصلي لنفسِه فيما بين الترويحَتين بقدر ثلاثين آية وكان يقولُ هو بنفسه للنَّاس : الصَّلاة ، ويُوترُ بهم ، ويَدعُو بدُعاء القُرآن ، ويُؤَمِّنُ مَنْ خلفَه وآخرُ ذلكَ يُصلِّي على النبيِّ صلى الله عليه وسلم ويقولُ : اللَّهُمَّ اسْتعمِلنا

---

(١) انظر السير : (بكر بن عبد الله) ٤/ ٥٣٢ـ٥٣٦ ، وانظر النزهة : ١/ ٥٥١ .
(٢) انظر السير : (طلق بن حبيب العنزي) ٤/ ٦٠١ـ٦٠٣ ، وانظر النزهة : ٣/ ٥٦٧ .
(٣) انظر السير : (أخبار الزهريّ) ٥/ ٣٢٦ـ ٣٥٠ ، وانظر النزهة : ٦/٦٠٦ .

بسُنَّتِه وأوْزِعنا بهَديهِ واجعَلنا للمُتقين إماماً ثم يَسجُدُ ، وإذا فَرَغَ من الصَّلاة دعا بدَعَواتٍ[1] .

وكان عَطَاءٌ السَّليميّ يقولُ في دُعائِه : اللَّهُمَّ ارْحَم غُربتِي في الدُّنيا ، وارْحَمْ مَصْرَعِي عند المَوت ، وارْحَم قِيامِي بين يديكَ[2] .

ودَخَلَ موسى الكاظِمُ مسجدَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم فسَجَدَ سجدةً في أولِ الليلِ وهو يقولُ في سُجُودِه : عَظُمَ الذَّنبُ عندي فليَحْسُن العَفوُ من عندكَ يا أهلَ التَّقوىٰ ويا أهلَ المَغفِرَة فجعَلَ يُردِّدُها حتىٰ أصبَحَ[3] .

قال محمدُ بنُ يَزيدَ الرِّفاعيّ : حَدَّثني عَمِّي كثيرُ بنُ محمد قال : سَمعتُ عُمرَ بنَ ذرٍّ يقولُ : اللَّهُمَّ إنَّا قد أطَعْنَاكَ في أحَبِّ الأشياءِ إليكَ أنْ تُطَاعَ فيه : الإيمانُ والإقرارُ بك ، ولَمْ نَعْصِكَ في أبغَضِ الأشياءِ أنْ تُعْصَىٰ فيه : الكُفرُ والجَحْدُ بك ، اللَّهُمَّ فاغْفِر لنا بينهما ، وأنتَ قلتَ : ﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾[4] ، ونحنُ نُقسِمُ بالله جَهْدَ أيمَانِنا لَتبْعَثَنَّ مَنْ يَمُوت أَفَتُراكَ تَجمَعُ بينَ أهلِ القَسَمَينِ في دارٍ واحدة ؟[5] .

وعن حَمزَةَ بنِ دهقان قال : قلتُ لبشرِ بنِ الحَارِث : أُحِبُّ أنْ أخْلُوَ معَكَ قال : إذا شِئتَ فيكُونُ يوماً فرَأيتُه قد دَخَلَ قُبَّةً ، فصَلىٰ فيها أربَعَ ركعاتٍ لا أُحسِنُ أصلي مثلها ، فسمعتُه يقولُ في سُجودِه : اللَّهُمَّ إنَّكَ تَعْلمُ فوقَ عَرشِك أنَّ الذُّلَّ أَحَبُّ إليك من الشَّرفِ ، اللَّهُمَّ إنَّكَ تَعلمُ فوقَ عَرشِك أنَّ الفقْرَ أَحَبُّ إليك من الغِنَىٰ ، اللَّهُمَّ إنَّكَ تعلمُ فوقَ عَرشِك أنِّي لا أُوثِرُ علىٰ حُبِّكَ شيئاً ، فلمَّا سَمعتُه ، أخَذَنِي الشَّهِيقُ والبُكاءُ ، فقال : اللَّهُمَّ أنت تَعلمُ أنِّي لَو أعلمُ أنَّ هـٰذا ها هُنا لَم أتَكَلَّم[6] .

---

(1) انظر السير : (أيوب السختياني) ٦/ ١٥ـ ٢٦ ، وانظر النزهة : ٦٢٦/ ١٠ .

(2) انظر السير : (عَطاء السَّليميّ) ٦/ ٨٦ـ ٨٨ ، وانظر النزهة : ٦٣٤/ ٣ .

(3) انظر السير : (موسى الكاظم) ٦/ ٢٧٠ـ ٢٧٤ ، وانظر النزهة : ٦٥٠/ ٢ .

(4) سورة النحل : ٣٨

(5) انظر السير : (عُمر بن ذر) ٦/ ٣٨٥ـ ٣٩٠ ، وانظر النزهة : ٦٦٠/ ٤ .

(6) انظر السير : (بشر بن الحارث) ١٠/ ٤٦٩ـ ٤٧٧ ، وانظر النزهة : ٦/٨٨٦ .

وفي طبقات السُبكيّ (٥/ ٢٣٧) نقلاً عن شَهدَة بنتِ أحمد ابن الفَرَج الإبري قالت : سمعتُ القاضي الإمامَ عزيزي بن عبد الملك من لفظه سَنَةَ تسعين وأربع مئة يقولُ : اللَّهُمَّ يا واسعَ المَغفِرة ، ويا باسِطَ اليَدَيْنِ بالرَّحْمَةِ افعَلْ بي ما أنتَ أهلُه ، إلـٰهِي أذْنَبتُ في بعضِ الأوقاتِ ، وآمَنْتُ بكَ في كُلِّ الأوقاتِ ، فكَيْفَ يَغلِبُ بعضُ عُمرِي مُذنِباً جَمِيعَ عُمرِي مُؤمِناً إلـٰهِي لو سَألتَنِي حَسَنَاتِي لجَعلتُها لكَ مع شِدَّةِ حاجَتِي إليها وأنا عَبدٌ ، فكَيْفَ لا أرْجُو أنْ تَهَبَ لي سَيئاتِي مع غِنَاكَ عنها وأنتَ رَبٌّ ، فيا مَنْ أعْطَانِي خَيْرَ ما في خَزَائِنِه ، وهو الإيمانُ به قبلَ السُّؤالِ لا تَمنَعْنا أَوسَعَ ما في خَزَائِنِك وهو العَفْوُ مع السُّؤالِ ، إلـٰهِي حُجَّتي حاجَتِي ، وعُدَّتِي فاقَتِي فارْحَمْنِي إلـٰهي كيف أمتَنِعُ بالذَّنبِ من الدُّعاءِ ولا أراكَ تَمنَعُ مع الذَّنبِ من العَطَاء ، فإنْ غَفَرتَ فخيرُ راحِمٍ أنتَ وإنْ عَذَّبتَ فغيرُ ظالِمٍ أنتَ إلـٰهي أسأَلُكَ تَذَلُّلاً فأعْطِنِي تَفَضُّلاً[١] .

قال الضِّياءُ : لَمْ أَرَ أحداً أَحسَنَ صلاةً من الإمامِ العِمادِ المَقدِسيّ ، ولا أَتَمَّ بخُشُوعٍ وخُضُوعٍ ، قِيلَ : كان يُسَبِّحُ عَشْراً يَتَأَنَّىٰ فيها ، وكان يَصُومُ يوماً ويُفْطِرُ يوماً وكان يَمضِي يومَ الأربعاء إلىٰ مَقَابرِ بابِ الصَّغير عندَ الشُّهَدَاءِ ، فيدعُو ويَجتَهِدُ ساعةً طويلة[٢] .

ومن دُعائِه المَشهُور : اللَّهُمَّ اغْفِر لأقسَانا قلباً وأكبَرِنا ذَنْباً وأثْقَلِنا ظَهْراً وأعظَمِنَا جُرماً[٣] .

وكان يَدعُو : يا دَلِيلَ الحَيَارَىٰ دُلَّنَا علىٰ طريقِ الصَّادِقِينَ ، واجعَلنا من عِبادِكَ الصَّالحين[٤] .

(ط) ضابطٌ في الدُّعاء عند القُبور والأماكن والأوقات الفاضِلَة :

جاء في ترجمة السيدة نفيسة ابنة أمير المؤمنين الحَسَنِ بنِ زَيْد ابنِ الحَسَنِ بنِ عليّ بنِ أبي طالب ، قال الذهبيُّ : قِيلَ : كانت من الصَّالحات والعَوَابِد ، والدُّعاء

---

(١) انظر السير : (شَيْذَلَه) ١٩/ ١٧٤ـ ١٧٥ ، وانظر النزهة :/ هامش (٢) .
(٢) انظر السير : (العماد المقدسيّ) ٢٢/ ٤٧ـ ٥٢ ، وانظر النزهة : ١/١٦٦٥ .
(٣) انظر السير : (العماد المقدسيّ) ٢٢/ ٤٧ـ ٥٢ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٦٥ .
(٤) انظر السير : (العماد المقدسيّ) ٢٢/ ٤٧ـ ٥٢ ، وانظر النزهة : ٣/١٦٦٥ .

مُستَجَابٌ عِندَ قَبرِها ، بل وعند قُبُورِ الأنبياءِ والصَّالحين وفي المَساجِد ، وعَرَفَة ومُزْدَلِفَة ، وفي السَّفَرِ المُبَاح ، وفي الصَّلاة ، وفي السَّحَر ، ومن الأَبَوَين ، ومن الغائب لأخِيه ، ومن المُضطرِّ ، وعند قُبُورِ المُعَذَّبين ، وفي كلِّ وقتٍ وحين ، لقوله تعالىٰ : ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[1] ، ولا يُنهَى الدَّاعِي عن الدُّعاءِ في وقتٍ إلاَّ وقتَ قَضَاءِ الحاجَة ، وفي الجِمَاع ، وشِبه ذلك ويتأكَّدُ الدُّعاءُ في جَوفِ الليلِ ، ودُبُرِ المَكتُوبات ، وبعدَ الأذان[2] .

وقال صاحب النُّزْهَة : لم يَثبُت عنه صلى الله عليه وسلم شيءٌ في كَوْنِ الدُّعاء مُسْتَجاباً عند قُبُورِ الأنبياء والصَّالحين ، والسَّلفُ الصَّالح لا يُعرَف عنهم أنَّهم كانوا يَقصِدون قُبورَ الأنبياء والصَّالحين للدُّعاء عندهم ، ويَرَى ابنُ الجَزَرِيّ في « الحِصْنِ الحَصين » أنَّ اسْتِجابةَ الدُّعاء عند قُبُور الأنبياء والصَّالحين ثَبُتَتَ بالتَّجرِبة ، وأقَرَّهُ عليه الشَّوكاني في « تُحفَةِ الذَّاكرين » (ص ٤٧) لكن قَيَّدَه بشَرْطِ ألاَّ تَنشَأَ عن ذلك مَفسَدَة ، وهي أنْ يُعتَقَدَ في ذلك المَيِّت ما لا يجوزُ اعتِقادُه كما يَقَعُ لكثيرٍ من المُعتَقِدِين في القُبُور ، فإنَّهم قد يَبلُغون الغُلُوَّ بأهلها إلىٰ ما هو شِركٌ بالله عَزَّ وجَلَّ فيُنادُونَهم مع الله ، ويَطلُبُون منهم ما لا يُطلَبُ إلاَّ من الله عَزَّ وجَلّ ، وهـٰذا مَعلُومٌ من أحوالِ كثيرٍ من العاكِفينَ على القُبورِ خُصُوصاً العامَّة الذين لا يَفطنُون لدَقائِقِ الشِّرْك[3] .

* * *

(١) سورة غافر ، الآية : ٦٠

(٢) انظر السير : (نفيسة بنت الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب) ١٠/١٠٦ـ١٠٧ ، وانظر النزهة : ٨٥٦/ ٣ .

(٣) انظر السير : (نفيسة بنت الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب) ١٠/١٠٦ـ١٠٧ ، وانظر النزهة : ٨٥٦/ هامش (٣) .

ثالثاً : حُبُّ الله وحُبُّ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم

١ـ مِنْ وسَائِلِ نَيْلِ مَحبَّةِ الله :

سُئل أبو محمّد عبد الله محمّد المُرْتَعِش ، بماذا يَنَالُ العبدُ المَحبَّةَ ؟ قال : بمُوالاةِ اللهِ ومُعاداةِ أعداءِ الله[١] .

٢ـ مَحبَّةُ الله فَرْضٌ :

قال أبو الفتح عبدُ الرَّحيمِ خادمُ ابن خَفيف : سَمعتُ الشَّيخَ ـ يَعنِي ابنَ خَفيفٍ ـ يقول : سألنا يوماً أبو العبَّاس بنُ سُرَيْج بشِيراز ونحنُ نَحضُرُ مَجلِسَه للفقه فقال : أَمَحبَّةُ الله فرضٌ أو لا ؟ فقُلنا : فَرض قال : ما الدَّليلُ ؟ فما فينا مَنْ أجَابَ بشيءٍ ، فسألنَاه فقال : قولُه تعالىٰ : ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ ﴾ إلىٰ قولِهِ تعالَىٰ : ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ الآية[٢] قال : فَتوعَّدَهُم الله علىٰ تفضيل مَحبَّتِهم لغيرِه علىٰ مَحبَّتِه ، والوعيدُ لا يَقعُ إلاَّ علىٰ فَرْضٍ لازِم[٣] .

٣ـ مَنْ أَحبَّ اللهَ أَطَاعَه :

عن عُتبة الغلام قال : مَن عَرَفَ اللهَ أَحبَّه ، ومَن أحبَّه أطاعَه[٤] .

(أ) مِنْ ثِمَارِ الطَّاعَة :

عن الأعمش ، قال لي شقيقُ بنُ سَلَمَة : نِعمَ الرَّبُّ رَبُّنا ، لو أطَعْناهُ ما عَصَانا[٥] .

---

(١) انظر السير : (المُرتَعش) ١٥/ ٢٣٠ـ ٢٣١ ، وانظر النزهة : ٤/١٢٢٣ .
(٢) سورة التوبة ، الآية : ٢٤ .
(٣) انظر السير : (ابن خَفيف) ١٦/ ٣٤٢ـ ٣٤٧ ، وانظر النزهة : ٢/١٢٩٨ .
(٤) انظر السير : (عُتبَة الغُلام) ٧/ ٦٢ـ ٦٣ ، وانظر النزهة : ٩/٦٧٦ .
(٥) انظر السير : (شَقيق بن سلمة) ٤/ ١٦١ـ ١٦٦ ، وانظر النزهة : ٥/٤٦٩ .

(ب) اسْتِغْلالُ مَوَاسِمِ الطَّاعَة :

عن أبي حَرِيز ، أنَّ سعيدَ بنَ جُبَيْر قال : لا تُطفِئُوا سُرُجَكُم ليالي العَشر ، تُعجِبُه العِبادة ويقول : أيقِظُوا خَدَمَكم يَتَسَحَّرُون لصومِ يومِ عَرَفَة[1] .

(ج) الطَّاعَةُ تُورِثُ التَّمَتُّعَ بالجَوارِحِ :

قال القاضي ابنُ بكران الشَّاميّ : قلتُ للقاضي أبي الطَّيب الطَّبَري شَيخِنا وقد عُمِّر : لقد مُتِّعتَ بجَوَارِحِكَ أيُّها الشَّيخ! قال : ولِمَ ؟ وما عَصَيتُ اللهَ بواحدةٍ منها قطُّ أو كما قال[2] .

(د) اغْتِنَامُ القُوَّةِ حَالَ الشَّباب :

وقال أبو الأحْوَص : قال لنا أبو إسحاق السَّبيعي : يا معشَرَ الشَّباب اغتَنِموا ـ يَعني : قُوَّتَكم وشَبَابَكم ـ قَلَّما مَرَّت بي ليلةٌ إلاَّ وأنا أقرأُ فيها ألفَ آيَة ، وإنِّي لأقرَأُ البَقَرَةَ في رَكعَةٍ ، وإنِّي لأَصُومُ الأَشْهُرَ الحُرُمَ ، وثلاثَةَ أيامٍ من كل شَهر والإثنين والخميس[3] .

(هـ) صِيانَةُ الجَوَارِحِ عن المَعَاصِي :

عن عبدِ الله بنِ عُروَة قال : نَظَرَ أبي إلىٰ رِجليْهِ في الطِّست ، فقال : إنَّ اللهَ يَعلمُ أنِّي ما مَشَيتُ بكِ إلىٰ مَعصِيَةٍ قطُّ وأنا أعلم[4] .

٤ـ حُبُّ الصَّحَابَةِ للرَّسُولِ صلى الله عليه وسلم :

وقال عُروَةُ : جاءَ الزُّبَيْرُ بِسَيفِه ، فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « مَا لَكَ ؟ » قال : أُخْبِرتُ أنَّكَ أُخِذتَ ، قال صلى الله عليه وسلم : « فكنتَ صانِعاً ماذا ؟ » قال : كُنتُ أضْرِبُ به مَنْ أخَذَكَ ، فدَعا له ولسَيْفِه[5] .

---

(١) انظر السير : (سعيد بن جبير) ٤/ ٣٢١ـ ٣٤٣ ، وانظر النزهة : ٤/٥٠٦ .
(٢) انظر السير : (أبو الطِّيب الطبري) ١٧/ ٦٦٨ـ ٦٧١ ، وانظر النزهة : ٣/١٣٧٣ .
(٣) انظر السير : (أبو إسحاق السَّبيعي) ٥/ ٣٩٢ـ ٤٠١ ، وانظر النزهة : ١/٦١٦ .
(٤) انظر السير : (عُروة) ٤/ ٤٢١ـ ٤٣٧ ، وانظر النزهة : ٣/٥٢٧ .
(٥) انظر السير : (الزبير بن العوّام) ١/ ٤١ـ ٦٧ ، وانظر النزهة : ١/١٢٧ .

ولمَّا قَدِمَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم المدينةَ كان يُبعَثُ إليه كلَّ يومٍ جفنةً من ثَريد اللَّحمِ أو ثَريدٍ بلَبَنٍ أو غَيرِه ، فكانت جفنةُ سعدِ بنِ عُبادَة تدُورُ مع رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم في بُيُوتِ أزواجِه[1] .

وعن أُسَيدِ بنِ حُضَيْر ـ وكان فيه مِزَاح ـ أنَّه كان عِندَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، فَطَعنَه النبيُّ بعُودٍ كان معه فقال : أَصْبِرني[2] قال صلى الله عليه وسلم : « اصْطَبِر » ، قال : إنَّ عَلَيْكَ قميصاً وليس عليَّ قميصٌ ، قال: فكَشَفَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم قميصَه ، قال : فجَعَلَ يُقَبِّلُ كشحه ويقولُ : إنَّما أَرَدْتُ هـٰذا يا رسولَ الله[3] .

وعن زَيدِ بنِ أَسْلَم عن أبيه قال : قَدِمنا الشَّامَ مع عُمَرَ فأذَّن بلالٌ فذَكرَ النَّاسُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم ، فلَمْ أَرَ يوماً أكثر باكياً مِنهُ[4] .

وعن أنسٍ قال : قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم : « يَقدُمُ عليكم غداً قَومٌ هم أَرَقُّ قُلُوباً للإسلام منكم » ، فَقَدِمَ الأشْعَرِيُّون ، فلمَّا دَنَوا جَعَلوا يرتَجِزُون :

غَـــداً نَلْقَـــى الأَحِبَّـــة   مُحَمَّـــداً وحِـــزْبَـــهْ

فلمَّا أنْ قَدِمُوا تَصافَحُوا ، فكانوا أولَ مَنْ أَحْدَثَ المُصافَحَة[5] .

وعن أبي رُهم : أنَّ أبا أيُّوبَ الأنصَاريّ حَدَّثَه : أنَّ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم نَزَلَ في بَيتِنا الأسْفَل وكُنتُ في الغُرفةِ ، فأُهْريقَ ماءٌ في الغُرفَةِ ، فقُمتُ أنا وأُمُّ أيُّوب بقَطِيفَةٍ لنا نَتَتَبَّعُ الماءَ ، ونَزَلتُ فقلتُ : يا رسولَ اللهِ لا يَنْبَغِي أن نَكونَ فَوْقَكَ ، انتَقِلْ إلى الغُرفَة فأَمَرَ بمَتَاعِهِ فنُقِلَ ـ ومَتَاعُهُ قليل ـ قلتُ : يا رسولَ الله ، كنتَ تُرسِلُ بالطَّعامِ ، فأنظُرُ فإذا رأيتُ أثَرَ أصابِعِكَ ، وضَعتُ فيه يَدِي[6] .

---

(١) انظر السير : (سعد بن عبادة) ١/ ٢٧٠ـ ٢٧٩ ، وانظر النزهة : ٢/١٦١ .
(٢) أصبرني : أقدني ، واصطبر : استقدّ .
(٣) انظر السير : (أسيد بن حضير) ١/ ٣٤٠ـ ٣٤٣ ، وانظر النزهة : ٣/١٧٤ .
(٤) انظر السير : (بلال بن رباح) ١/ ٣٤٧ـ ٣٦٠ ، وانظر النزهة : ٢/١٧٦ .
(٥) انظر السير : (أبو موسى الأشعري) ٢/ ٣٨٠ـ ٤٠٢ ، وانظر النزهة : ٤/٢٧٨ .
(٦) انظر السير : (أبو أيوب الأنصاري) ٢/ ٤٠٢ـ ٤١٣ ، وانظر النزهة : ١/٢٨٣ .

وعن أبي قَتَادَة الأنصاريّ قال : كُنَّا مع رسولِ الله صلى الله عليه وسلم في بعض أسْفَارِه ، إذ تأخَّرَ عن الراحِلَة ، فدَعَمتُه بيَدي ، حتى استيقظَ ، فقال صلى الله عليه وسلم : « اللَّهُمَّ احفَظْ أبَا قَتَادَة كما حَفِظَني مُنذُ الليلةَ ما أرَانا إلاَّ قَد شَقَقْنا عَليكَ »[١] .

وقال المغيرةُ بنُ شعبَة : بَعَثَتْ قريشٌ عامَ الحُدَيْبِيَة عُروَةَ بنَ مَسْعُود إلىٰ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ليُكَلِّمَه فأتاه ، فكَلَّمَه ، وجَعَلَ يَمَسُّ لِحيَتَه ، وأنا قائمٌ علىٰ رأسِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم مُقَنَّعٌ في الحديد ، فقال المُغيرةُ لعُروَةَ : كُفَّ يَدَكَ قبل أن لا تصلَ إليكَ ، فقال : مَنْ ذا يا مُحمَّد ؟ ما أفَظَّه وأغْلَظَه قال : ابنُ أخِيكَ ، فقال : يا غُدَرُ ، والله ما غَسَلتُ عنِّي سَوْءَتَكَ[٢] إلاَّ بالأمسِ[٣] .

قال ضِمَامُ بنُ إسماعيل : حَدَّثنِي يَزيدُ بنُ أبي حَبيب ، وموسى ابنُ وَرْدان ، عن كعب بنِ عُجْرة قال : أتيتُ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم يوماً ، فرأيتُه مُتَغَيِّراً ، قلتُ : بأبي وأمي ، ما لي أراكَ مُتَغَيِّراً ؟ قال صلى الله عليه وسلم : « ما دَخَلَ جَوْفِي شيءٌ منذُ ثلاثٍ » فذهَبتُ ، فإذا يَهوديٌّ يَسْقِي إبلاً له ، فَسَقَيتُ له علىٰ كلِّ دلوٍ بتَمْرَةٍ ، فجَمَعْتُ تَمْراً ، فأتَيتُه به فقال صلى الله عليه وسلم : « أتُحِبُّني يا كعْبُ » ؟ قلتُ : بأبي أنت ـ نَعَم قال صلى الله عليه وسلم : « إنَّ الفَقرَ أسْرَعُ إلىٰ مَنْ يُحِبُّني من السَّيلِ إلىٰ مَعَادِنِه ، وإنَّكَ سَيُصِيبُكَ بَلاءٌ فأعِدَّ له تِجْفَافاً » قال : ففَقَدَهُ النبيُّ صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : مرِضَ ، فأتاهُ ، فقال له صلى الله عليه وسلم : « أبْشِر يا كعْبُ » فقالت أُمُّه : هَنيئاً لكَ الجَنَّة فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « مَنْ هـٰذِهِ المُتَأليَةُ على الله ؟ » قال : هي أُمِّي قال صلى الله عليه وسلم : « ما يُدرِيكِ يا أُمَّ كعْب ، لَعَلَّ كعْباً قال ما لا يَنْفَعُه ، أو مَنَعَ ما لا يُغْنِيه »[٤] .

---

(١) انظر السير : (أبو قتادة الأنصاري) ٢/ ٤٤٩ـ ٤٥٦ ، وانظر النزهة : ٢/٢٩٠ .

(٢) أراد عروة بقوله هـٰذا أن المغيرة بن شعبة قبل إسلامه قتل ثلاثة عشر رجلاً من بني مالك من ثقيف ، فتهايج الحيّان من ثقيف ، بنو مالك رهط المقتولين ، والأحلاف رهط المغيرة ، فودىٰ عروة المقتولين ثلاث عشرة دية ، وأصلح ذلك الأمر .

(٣) انظر السير : (المغيرة بن شعبة) ٣/ ٢١ـ ٣٢ ، وانظر النزهة : ٤/٣٢٣ .

(٤) انظر السير : (كعب بن عجرة) ٣/ ٥٢ـ ٥٤ ، وانظر النزهة : ٧/٣٣١ .

٥ـ حُبُّ مَنْ بَعْدِهِم له صلى الله عليه وسلم :

عن عبدِ الرحمَـٰنِ بنِ رَزين قال : أتينا سَلَمَةَ بنَ الأكْوَع بالرَّبَذَة ، فأخْرَجَ إلينا يَداً ضَخمَةً كأنَّها خُفُّ البَعِير ، فقال : بايَعتُ بِيَدِي هـٰذه رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وقال : فأخَذْنا يَدَه فقَبَّلْناها[1] .

قال محمدُ : وقلتُ لعَبيدَة بن عَمرو : إنَّ عِندَنا من شَعرِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم شيئاً من قِبَلِ أنسِ بنِ مالك ، فقال : لأَنْ يَكونَ عِندي مِنْهُ شَعرَةٌ أَحَبُّ إليَّ من كُلِّ صَفْراءٍ وبيْضَاءٍ علىٰ ظَهرِ الأرض .

قال الذهبيُّ : هـٰذا القَولُ من عُبَيْدَة هو مِعْيارُ كَمالِ الحُبِّ ، وهو يُؤثِرُ شَعرَةً نَبَوِيَّةً علىٰ كُلِّ ذهبٍ وفِضَّةٍ بأَيْدِي النَّاس .

ومِثْلُ هـٰذا يقُولُه الإمامُ بعدَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم بخَمسينَ سنةٍ ، فما الذي نَقُولُه نحنُ في وقتِنا لو وَجَدْنا بعضَ شَعرِه بإسْنادٍ ثابت ، أو شِسْعَ نعلٍ كان له ، أو قُلامَةَ ظُفرٍ أو شَقْفَةً من إناءٍ شَرِبَ فيه صلى الله عليه وسلم فلَو بَذَلَ الغَنيُّ مُعظَمَ مالِه في تحْصيلِ شيءٍ من ذلك عِندَه أكُنتَ تَعُدُّه مُبَذِّراً أو سَفِيهاً ؟ كلاَّ فابذُل مالَكَ في زَورَةِ مسجِدِه الذي بني فيه بيَدِه والسَّلامِ عليه عندَ حُجرَتِه في بَلَدِه ، والتَذَّ بالنَظَرِ إلىٰ أُحُدِه وأحِبَّه ، فقد كان نبيُّكَ صلى الله عليه وسلم يُحِبُّه وتَمَلَّ بالحُلُولِ في رَوضَتِه ومقعَدِه ، فلَنْ تكونَ مُؤمِناً حتّىٰ يكونَ هـٰذا السيِّدُ أحَبَّ إليكَ من نفسِك ووَلَدِك وأموالِك والنَّاسِ كلِّهم وقَبِّلْ حَجَراً مُكَرَّماً نَزَلَ من الجَنَّة ، وضَعْ فَمَكَ لاثِماً مكاناً قَبَّلَه سَيِّدُ البَشَر بيَقِين ، فهنَّأكَ الله بما أعطاك ، فما فوقَ ذلك مَفْخَر ولو ظَفِرنا بالمِحجَن الذي أشَارَ به الرسولُ صلى الله عليه وسلم إلى الحَجَرِ ثمَّ قَبَّلَ مِحجَنَه ، لحُقَّ لنا أنْ نَزدَحِمَ علىٰ ذلك المِحْجَن بالتَّقْبيل والتَّبْجيل ، ونحن نَدْرِي بالضَّرُورة أنَّ تَقبيلَ الحَجَرِ أرْفَعُ وأفْضَلُ من تَقْبِيل مِحْجَنِه ونَعْلِه صلى الله عليه وسلم .

---

(١) انظر السير : (سلمة بن الأكوع) ٣/٣٢٦ـ٣٣١ ، وانظر النزهة : ٣٨٨/٤ .

وقد كان ثابتُ البُنانيُّ إذا رَأىٰ أنَسَ بنَ مالك أخَذَ يَدَه فَقَبَّلَها ويقولُ يدٌ مَسَّتْ يَدَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، فنقولُ نَحنُ إذْ فاتَنا ذلك : حَجَرٌ مُعَظَّمٌ بمَنزلَةِ يَمينِ اللهِ في الأرضِ مَسَّته شَفَتَا نَبيِّنا صلى الله عليه وسلم لاثِماً له ، فإذا فاتَكَ الحَجُّ وتَلَقَّيتَ الوَفْدَ فالْتَزِم الحَاجَّ وقَبِّل فَمَه ، وقُلْ : فمٌ مَسَّ بالتَّقبيل حَجَراً قَبَّلَه خَلِيلِي صلى الله عليه وسلم[١] .

وعن عَبدَة بنتِ خالدِ بنِ معدان قالت : قَلَّما كان خالدٌ يَأوِي إلىٰ فِرَاشِه إلاَّ وهو يَذكُرُ شَوْقَهُ إلىٰ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم وإلىٰ أصحَابِه من المُهاجِرينَ والأنْصَارِ ، ثُمَّ يُسَمِّيهم ويقولُ : هُم أَصْلِي وفَصْلِي ، وإليهِم يَحِنُّ قَلبي ، طالَ شَوقِي إليهم فعَجِّل ربِّ قَبضِي إليك ، حتّىٰ يَغلِبَه النَّومُ وهو في بعضِ ذلك[٢] .

وعن بكَّار بنِ محمدٍ قال : كان ابنُ عَون قد أوصىٰ إلىٰ أبي وصحبته دهراً ، فما سَمعتُه حالِفاً علىٰ يَمينٍ بَرَّةٍ ولا فاجِرَةٍ ، كان طَيِّبَ الرِّيح ، لَيِّنَ الكُسوة ، وكان يَتمنَّىٰ أنْ يَرَى النبيَّ صلى الله عليه وسلم في النَّومِ فلَمْ يَرَهُ إلاَّ قَبْلَ مَوتِه بيَسِير ، فسُرَّ بذلك سُروراً شديداً قال : فنزَلَ من درجتِه إلى المسجِدِ فسَقَطَ فأُصِيبَتْ رِجلُه ، فلَمْ يَزَلْ يُعالجُها حتّىٰ ماتَ رحمَه الله[٣] .

ونَقَلَ الشَّيخُ مُحْيِي الدِّين النَّوَويّ : أنَّ أبا جَعْفَرَ التِّرمِذِيّ جَزَم بطَهَارَةِ شَعرِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، وقد خَالَفَ في هٰذه المسألةِ جُمهُورَ الأصْحاب .

قال الإمامُ الذَّهبيُّ : يَتعَيَّنُ علىٰ كلِّ مُسلمٍ القَطعُ بطَهَارَةِ ذلك ، وقد ثَبَتَ أنَّه صلى الله عليه وسلم لمَّا حَلَقَ رَأسَه ، فرَّقَ شَعرَه المُطَهَّر علىٰ أصحَابه ، إكْرَاماً لهم بذلك ، فوَالَهَفِي علىٰ تَقْبيلِ شَعْرَةٍ منها[٤] .

---

(١) انظر السير : (عَبيدة بن عَمرو) ٤/ ٤٠ـ ٤٤ ، وانظر النزهة : ٤/٤٣٩ .

(٢) انظر السير : (خالد بن معدان) ٤/ ٥٣٦ـ ٥٤١ ، وانظر النزهة : ٦/٥٥١ .

(٣) انظر السير : (عبد الله بن عون) ٦/ ٣٦٤ـ ٣٧٥ ، وانظر النزهة : ٤/٦٥٧ .

(٤) انظر السير : (أبو جعفر الترمذيّ) ١٣/ ٥٤٥ـ ٥٤٧ ، وانظر النزهة : ٣/١١١٥ .

٦ـ حُبُّ الرَّسُولِ صلى الله عليه وسلم صَحَابَتَه :

عن عائشة أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قَبَّلَ عُثمانَ بنَ مَظْعون وهو ميّت ، ودُموعُه تَسيلُ علىٰ خدِّ عُثمان بن مَظْعون[١] .

وعن ابن عُمَرَ قال : سمعَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم نساءَ الأنصار يبكين علىٰ هَلكاهنَّ فقال صلى الله عليه وسلم : « لكنَّ حَمْزَةَ لا بَواكيَ له » ، فجِئنَ فبكَين علىٰ حَمْزَة عنده إلىٰ أن قال صلى الله عليه وسلم : « مُروهنَّ لا يَبكين علىٰ هالكٍ بعدَ اليوم »[٢] .

وعن أسماء بنت عُمَيس قالت : دخل عليَّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، فدَعا بني جَعْفَر ، فرأيتُه شمَّهم وذَرفَت عَيناه ، فقلتُ : يا رسولَ الله! أبَلغَكَ عن جَعْفر شيءٌ ؟ قال : « نعم ، قُتِلَ اليومَ » ، فقُمنا نبكي ، ورجَعَ ، فقال صلى الله عليه وسلم : « اصْنَعوا لآلِ جَعْفَرٍ طَعاماً ، فقد شُغِلُوا عن أنفُسِهم » .

وعن عائشَة ، رَضيَ اللهُ عنها ، قالت : لمَّا جاءت وفاةُ جَعْفَر ، عَرفْنا في وجْه النبيّ صلى الله عليه وسلم الحُزْن[٣] .

عن أسلم ، عن أبيه قال : ما كنَّا نَدعو زَيدَ بنَ حارثة إلاَّ زَيْدَ بن محمّد ، فنزلت : ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾[٤] .

وعن أبي عَمرو الشَّيْباني قال : أخْبرني جبلةُ بنُ حارثة قال : قَدمتُ علىٰ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم فقُلْتُ : يا رسولَ الله! ابعَثْ معي أخي زَيداً قال صلى الله عليه وسلم : « هُوَ ذا فإن انْطَلَقَ ، لَمْ أمْنَعْهُ » ، فقال زيدٌ : لا والله! لا أخْتارُ عليكَ أحداً أبداً قال : فرأيتُ رأيَ أخي أفضلَ من رأيي[٥] .

---

(١) انظر السير : (عُثمان بن مَظْعون) ١/ ١٥٣ـ ١٦٠ ، وانظر النزهة : ٣/١٤٢ .
(٢) انظر السير : (حَمزَة بن عبد المطلب) ١/ ١٧١ـ ١٨٤ ، وانظر النزهة : ٧/١٤٣ .
(٣) انظر السير : (جَعْفَر بن أبي طالب) ١/ ٢٠٦ـ ٢١٧ ، وانظر النزهة : ١/١٥٠ .
(٤) سورة الأحزاب ، الآية : ٥ .
(٥) انظر السير : (زيد بن حارثة) ١ / ٢٢٠ـ ٢٣٠ ، وانظر النزهة : ١/١٥٢ .

عن محمد بنِ أسامة ، عن أبيه قال : قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم لزَيدِ ابنِ حارِثَة : « يا زَيدُ أنتَ مَوْلايَ ، ومِنِّي وإليَّ ، وأحَبُّ القومَ إليَّ » .

وعن عبدِ الله بنِ دِينار ، سَمِعَ ابنَ عُمَرَ أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، أمَّرَ أسامةَ علىٰ قومٍ فَطَعَنَ النَّاسُ في إمارَتِه فقال صلى الله عليه وسلم : « إنْ تَطعَنُوا في إمارَتِه ، فقد طَعَنتُم في إمارَةِ أبيهِ ، وايمُ الله إنْ كان لخَلِيقاً للإمارة ، وإن كان لمِنْ أحَبِّ النَّاسِ إليَّ ، وإنَّ ابنَه هـٰذا لأحَبُّ النَّاسِ إليَّ بَعْدَه » .

وقال ابنُ عُمَرَ : فَرَضَ عُمرُ لأسامةَ بنِ زَيدٍ أكثرَ مِمَّا فَرَضَ لي ، فَكَلَّمتُه في ذلك فقال : إنَّه كان أحَبَّ إلىٰ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم مِنكَ ، وإنَّ أباهُ كان أحَبَّ إلىٰ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم مِنْ أبيك[١] .

عن مُعاذ قال : لَقيَني النبيُّ صلى الله عليه وسلم ، فقال : « يا مُعاذُ! إنِّي لأُحِبُّكَ في الله » قلتُ : وأنا والله يا رسولَ الله أُحبُّكَ في الله قال صلى الله عليه وسلم : « أفلا أُعَلِّمُكَ كلماتٍ تقولُهنَّ دُبُرَ كلِّ صَلاة : رَبِّ أَعِنِّي علىٰ ذِكرِكَ وشُكرِكَ وحُسْنِ عِبادَتِك »[٢] .

قال عَمرُو بنُ العاص في مرضِه ، وقد جَزِعَ ، فقِيلَ له : قد كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يُدنيك ويَستَعمِلُك ، قال : والله ما أدْرِي ما كان ذاكَ مِنهُ ، أحُبٌّ أو كان يَتَألَّفُني ، ولكنْ أشْهَدُ علىٰ رَجُلَين أنه ماتَ وهو يُحِبُّهُما : ابنِ أمِّ عبدٍ وابنِ سُمَيَّة[٣] .

عن عائشةَ قالت : أرادَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم أنْ يَمسحَ مُخاطَ أسامة بن زَيد ، فقُلتُ : دَعني حتىٰ أكونَ أنا التي أفعلُ ، فقال صلى الله عليه وسلم : « يا عائشةُ ، أَحِبِّيه ، فإنِّي أُحِبُّه » .

قال الذهبيُّ : كان سِنُّه في سِنِّها[٤] .

---

(١) انظر السير : (زَيد بن حارثة) ١/ ٢٢٠ـ ٢٣٠ ، وانظر النزهة : ٣/١٥٢ .

(٢) انظر السير : (مُعاذ بن جَبل) ١/٤٤٣ـ ٤٦١ ، وانظر النزهة : ٤/١٩١ .

(٣) انظر السير : (عبد الله بن مسعود) ١/٤٦١ـ ٥٠٠ ، وانظر النزهة : ٣/١٩٥ .

(٤) انظر السير : (أسامة بن زَيد) ٢/٤٩٦ـ ٥٠٧ ، وانظر النزهة : ١/٢٩٧ .

٧ـ من مُقْتَضَياتِ حُبِّه صلى الله عليه وسلم :

(أ) اتِّبَاعُ سُنَّتِه :

عن منصور الكلبيّ : أنَّ دِحْيَةَ الكلبيّ خَرَجَ من المِزَّة إلىٰ قَدْر قرية ـ عقبة من الفسطاط ، وذلك ثلاثة أميال في رمضان ، ثم أَفْطَرَ ، وأفْطَرَ معه أُناسٌ ، وكَرِهَ الفِطرَ آخرون ، فلمَّا رَجَعَ إلىٰ قريته ، قال : والله لقد رأيتُ اليومَ أمراً ما كنتُ أظُنُّ أنِّي أراه : إنَّ قوماً رَغِبُوا عن هَدْيِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم وأصحابِه ـ يقولُ ذلك للذين صاموا ـ ثم قال عند ذلك : اللَّهُمَّ اقْبِضنِي إليك[١] .

قال الإمامُ الذهبيُّ : وفي مُسْند الشَّافعيّ سَماعنا أَخْبَرَنِي أبو حنيفة بنُ سَمَّاك ، حَدَّثَني ابنُ أبي ذِئب عن المَقْبري عن أبي شُرَيْح أَنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال : « مَنْ قُتِلَ له قَتِيلٌ فهو بخَيرِ النَّظَرَيْن : إنْ أَحَبَّ أَخَذَ العَقلَ ، وإنْ أَحَبَّ فَلَهُ القَوَد »[٢] .

وقال عبدُ الرَّحمـٰنِ بنُ مَهْدِيّ : سَمعتُ سُفيانَ ـ يَعنِي الثَّورِيّ ـ يقولُ : ما بَلَغَنِي عن رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم حَديثٌ قَطُّ إلاَّ عَمِلتُ به ولَو مَرَّة[٣] .

وقال عبدُ الرَّحمـٰنَ بنُ مَهْديّ : حَدَّثَنا عبدُ الواحِد بنُ زِيادٍ ، قال : لَقِيتُ زُفَرَ بن الهُذَيل رَحِمَه الله ، فقُلتُ له : صِرتُم حَدِيثاً في النَّاسِ وضُحْكَة قال : وما ذاكَ : قلتُ : تَقولونَ : « ادْرَؤوا الحُدودَ بالشُّبُهاتِ » ، ثُمَّ جِئتُم إلىٰ أَعْظَمِ الحُدودِ فقُلتُم : تُقامُ بالشُّبُهات قال : وما هو ؟ قلتُ : قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « لا يُقْتَلُ مُسْلِمٌ بِكافِرٍ » فقُلتُم : يُقتَلُ به ـ يَعنِي بالذِّميّ ـ قال : فإنِّي أُشْهِدُكَ السَّاعةَ أنِّي قَد رَجَعتُ عنه .

قال الذهبيُّ : هـٰكذا يكونُ العَالِمُ وَقَّافاً مع النَّص[٤] .

---

(١) انظر السير : (دحية الكلبيّ) ٢/ ٥٥٠ـ٥٥٦ ، وانظر النزهة : ٤/٣٠٤

(٢) انظر السير : (ابن أبي ذئب) ٧/ ١٣٩ـ١٤٩ ، وانظر النزهة : ١/٦٨٦ .

(٣) انظر السير : (سُفيان الثوريّ) ٧/ ٢٢٩ـ٢٧٩ ، وانظر النزهة : ٥/٦٩٦

(٤) انظر السير : (زُفَر بن الهُذَيل) ٨/ ٣٨ـ٤١ ، وانظر النزهة : ١/٧٢٥ .

وقال يَحْيَىٰ بنُ يَحْيَى التَّمِيميّ : سَمعتُ أبا يُوسُفَ ـ يَعني القاضِي ـ عندَ وَفَاتِه يقول : كُلُّ ما أَفْتَيْتُ به فقد رَجَعتُ عَنه إلاَّ ما وافَقَ الكتابَ والسُّنة ، وفي لفظٍ إلاَّ ما في القُرآن واجتمعَ عليهِ المُسلِمون[1] .

وقال المروذيُّ : قال لي أحمدُ بنُ حَنبَل : ما كَتَبتُ حَديثاً إلاَّ وقد عَمِلتُ به حتّىٰ مَرَّ بي أَنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم ، احْتَجَمَ وأعطَىٰ أبا طَيْبَةَ ديناراً ، فأعْطَيتُ الحَجَّام ديناراً حِينَ احْتَجَمتُ[2] .

وقال سعيدُ بنُ عبد العزيز : سَمعتُ أحمدَ بنَ أبي الحَوَارِيّ يقولُ : مَنْ عَمِلَ بلا اتِّباعِ سُنَّةٍ فَعَمَلُه باطِلٌ[3] .

رُؤْيا تَدُلُّ علىٰ قُوَّةِ الاتِّبَاع للنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم :

قال محمدُ البُخَاريُّ : سَمعتُ النَّجْمَ بنَ الفُضَيل يقولُ : رأيتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم كأنَّه يَمشِي ، ومحمدُ بنُ إسْماعِيلَ يَمشِي خَلْفَه فكُلَّما رَفَعَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم قَدَمَه وَضَعَ محمدُ بنُ إسْماعِيلَ قَدَمَه في المكانِ الذي رَفَعَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم قَدَمَه[4] .

كان ابنُ عُمَرَ شَديدَ التَّأَسِّي برسُولِ الله صلى الله عليه وسلم :

عن نافِعٍ قال : لَوْ نَظَرْتَ إلى ابنِ عُمَرَ إذا اتَّبَعَ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم لَقُلتَ : هـٰذا مَجْنون[5] .

وعن نافِعٍ : أَنَّ ابنَ عُمَرَ كان يَتَّبِعُ آثارَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم كلَّ مكانٍ صَلَّىٰ فيه ، حتىٰ إنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم نَزَلَ تحتَ شَجَرةٍ ، فكان ابنُ عُمَرَ يَتعاهَدُ

---

(١) انظر السير : (القاضي أبو يوسف) ٨/ ٥٣٥ـ ٥٣٩ ، وانظر النزهة : ٧٨٨/ ٥ .
(٢) انظر السير : (أحمد بن حنبل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٩٢٩/ ٣ .
(٣) انظر السير : (أحمد بن أبي الحواريّ) ١٢/ ٨٥ـ ٩٤ ، وانظر النزهة : ٩٨٥/ ٤ .
(٤) انظر السير : (أبو عبد الله البخاريّ) ١٢/ ٣٩١ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ١٠١٢/ ٢ .
(٥) انظر السير : (عبد الله بن عُمر) ٣/ ٢٠٣ـ ٢٣٩ ، وانظر النزهة : ٣٦٦/ ٢ .

تلك الشَّجرةَ ، فيَصُبُّ في أصْلِها الماءَ لكَيْلا تَيْبَس[1] .

وعن ابنِ عُمرَ قال : قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « لَوْ تَرَكنَا هـٰذا البَابَ للنِّساءِ » قال نافعٌ : فلَمْ يَدخُلْ منهُ ابنُ عُمَرَ حتّىٰ ماتَ .

قال الشُّعبيُّ : جَالسْتُ ابنَ عُمرَ سنةً ، فما سَمعتُه يُحدِّث عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم إلاّ حَدِيثاً واحداً[2] .

(ب) حُبُّ آلِ بَيْتِهِ الصَّالِحِين :

لمَّا تُوُفِّيَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم تَعلَّقَتْ آمالُ فَاطِمَةَ الزَّهْراءِ بِميراثِه ، وجاءَتْ تَطْلُبُ ذلكَ من أبي بكرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه ، فَحَدَّثَها أنَّه سَمِعَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم يقولُ : « لا نُورَثُ ، ما تَرَكْناهُ صَدَقَةٌ » فَوَجَدْتْ عَلَيْه ، ثُمَّ تَعَلَّلَتْ[3] ،[4] .

وعن الشَّعبيِّ قال : لمَّا مَرِضَتْ فاطمةُ الزَّهْراءُ ، أَتَىٰ أبو بكر رضي الله عنه فاسْتَأْذَنَ ، فقالَ عليٌّ : يا فاطمةُ ، هـٰذا أبو بكر يَسْتَأْذِنُ عليكِ ، فقالت : أتُحِبُّ أنْ آذَنَ له قال : نَعَمْ

قال الذهبيُّ : عَمِلَتْ السُّنَةَ رَضي الله عنها ، فَلَمْ تأْذَنْ في بيتِ زَوْجِهَا إلاَّ بِأَمْرِه .

قال : فأذِنَتْ له ، فدَخَلَ عليها يَتَرَضَّاها ، وقال : والله ما تَرَكْتُ الدَّارَ والمالَ والأهلَ والعَشيرَةَ إلاَّ ابتِغاءَ مَرْضاةِ اللهِ ورَسُولِه ومَرْضاتِكُم أَهْلَ البَيْتِ .

قال : ثُمَّ تَرَضَّاها حتّىٰ رَضِيَتْ[5] .

---

(١) انظر السير : (عبد الله بن عُمر) ٣/ ٢٠٣ـ ٢٣٩ ، وانظر النزهة : ٣/٣٦٦ .

(٢) انظر السير : (عبد الله بن عُمر) ٣/ ٢٠٣ـ ٢٣٩ ، وانظر النزهة : ٤/٣٦٦ .

(٣) تعَلَّلَتْ : أَيْ تلَهَّتْ عَنه وتَشاغَلَتْ .

(٤) انظر السير : (فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم) ٣/ ٢٨٠ـ ٣٢١ ، وانظر النزهة : ٢/٢٢٩ .

(٥) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٨/ ٢٧) وإسناده صحيح ، لكنه مرسل ، وذكره الحافظ في الفتح (٦/ ١٣٩) ونسبه إلى البيهقي ، وقال : وهو وإن كان مرسلاً فإسناده إلى الشعبي صحيح .

تُوفِّيَتْ رضيَ اللهُ عنها بعدَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم بخَمْسَةِ شُهور أو نحوها، وعاشَتْ أربَعاً أو خَمْساً وعشرينَ سنةً[1].

وعنِ الحُسَينِ قال: صَعَدتُ المِنْبَرَ إلىٰ عُمرَ، فقُلتُ: انْزِلْ عن مِنْبَرِ أبي واذْهَبْ إلىٰ مِنبَرِ أبيكَ فقال رضي الله عنه: إنَّ أبي لَمْ يَكُنْ له مِنْبَر! فأَقْعَدَنِي مَعَه، فلَمَّا نَزَلَ قال: أيْ بُنَيَّ! مَنْ عَلَّمَكَ هٰذا؟ قُلتُ: ما عَلَّمَنيه أحَدٌ قال: أيْ بُنَيَّ! وهَلْ أَنْبَتَ علىٰ رُؤوسِنا الشَّعْرَ إلاَّ الله ثُمَّ أنتُم، وَوَضَعَ يَدَه علىٰ رَأْسِه، وقال: أيْ بُنَيَّ! لَوْ جَعَلْتَ تأتِينا وتَغْشَانا[2].

وعن عبدِ الرَّحمٰنِ الهَمْدانيّ قال: دَخَلَ أبو الطُّفَيل علىٰ مُعاويةَ فقال: ما أبقَىٰ لكَ الدَّهرُ من ثُكلِكَ عَلِيّاً؟ قال: ثُكل العَجُوز المِقْلاتِ والشَّيخ الرَّقُوب قال: فكَيْفَ حُبُّكَ له؟ قال: حُبُّ أُمِّ مُوسَىٰ لموسىٰ، وإلى الله أشْكُو التَّقْصِيرَ.

وكان أبو الطُّفَيل ثِقَةً فيما يَنْقُله، صادِقاً، عالِماً، شاعِراً، فارِساً، عُمِّر دَهْراً طَويلاً وشَهِدَ مع عليٍّ حُرُوبه[3].

(ج) شِعرٌ في حُبِّ آلِ البَيْتِ:

عن الرَّبيعِ بنِ سُلَيْمانَ قال: حَجَجْنا مع الشَّافِعيِّ، فما ارْتَقَىٰ شَرَفاً ولا هَبَطَ وادِياً إلاَّ وهو يَبكِي ويُنْشِدُ:[4].

يا راكِباً قِفْ بالمحصَّبِ مِنْ مِنَى ... واهتِفْ بقاعِدِ خَيْفَنا والنَّاهِضِ

سَحَراً إذا فاضَ الحَجيجُ إلىٰ مِنَى ... فَيْضاً كمُلتَطِمِ الفُراتِ الفائِضِ

إنْ كانَ رفْضاً حُبُّ آلِ مُحمَّدِ ... فليَشْهَدِ الثقَلانِ أَنِّي رافِضي

---

(١) انظر السير: (فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم) ٣/ ٢٨٠ـ ٣٢١، وانظر النزهة: ٣/٢٢٩.

(٢) انظر السير: (الحُسين الشهيد) ٣/ ٢٨٠ـ ٣٢١، وانظر النزهة: ٤/٣٨٢.

(٣) انظر السير: (أبو الطُّفيل) ٣/ ٤٦٧ـ ٤٧٠، وانظر النزهة: ٣/٤١٠.

(٤) انظر السير: (الإمام الشافعيّ) ١٠/ ٥ـ ٩٩، وانظر النزهة: ٨/٨٥٠.

رابعاً : الأُخُوَّة

١ـ فائدة الأُخُوَّة :

عن عبَّاس بنِ يَزيد قال : قال وهبُ بنُ مُنَبِّه : اسْتكثِرْ من الإخْوانِ ما اسْتطَعْتَ ، فإن اسْتغنَيْتَ عنهم لَمْ يَضُرُّوكَ ، وإن احْتَجْتَ إليهم نَفَعُوك[١] .

٢ـ ضَياعُ من كان بلا إخْوة :

عن الإمام الشافعيّ : ضَيَاعُ العالِمِ أن يكونَ بلا إخْوان ، وضَيَاعُ الجاهِلِ قلةُ عَقْلِه ، وأضْيَعُ منهما مَنْ واخَىٰ مَنْ لا عَقْلَ له[٢] .

قال الصُّعْلوكيّ : إذا كان رِضَا الخَلق مَعسُوراً لا يُدْرَك ، كان رِضَا الله مَيْسُوراً لا يُترك إنَّا نَحْتاجُ إلىٰ إخْوانِ العُشْرة لوقتِ العُسْرة[٣] .

٣ـ الأُخُوَّة في الله عِوَضٌ عن أُخُوَّة النَّسَب :

قال القاسمُ بنُ محَمَّدٍ : قد جَعَلَ الله في الصَدِيقِ البَار المُقْبِل عِوَضاً من ذِي الرَّحمِ العاقِّ المُدْبِر[٤] .

٤ـ قد يكونُ الأخُ في النَّسَبِ مُؤذِياً :

قال أبو إسْحاقَ الحَضْرَميّ : كان ابنُ المُعذَّل من الفِقْهِ والسَّكِينةِ والأدَبِ والحَلاوَةِ في غَاية ، وكان أخُوهُ عبدُ الصَّمَد الشَّاعِرُ يُؤذِيه ، فكان أحمدُ يقولُ له : أنتَ كالأُصْبع

---

(١) انظر السير : (وهب بن منبه) ٤/ ٥٤٤ـ٥٥٧ ، وانظر النزهة : ٧/٥٥٤ .
(٢) انظر السير : (الإمام الشافعيّ) ١٠/ ٥ـ٩٩ ، وانظر النزهة : ٤/٨٤٩ .
(٣) انظر السير : (الصعلوكي) ١٧/ ٢٠٧ـ٢٠٩ ، وانظر النزهة : ٤/١٣٣٧ .
(٤) انظر السير : (القاسم بن محمد) ٥/ ٥٣ـ٦٠ ، وانظر النزهة : ٧/٥٧٩ .

الزَّائِدَة ، إنْ تُرِكَتْ ، شانَتْ ، وإنْ قُطِعَتْ آلَمَتْ وقد كان أهلُ البَصْرَةِ يُسَمُّونَ أحمدَ الرَّاهِب لِتَعَبُّدِه ودِينِه[1] .

٥ـ قاعدةٌ في حُقوق الأُخوة :

قال حُمَيْدُ الطَّويل : كان الحَسَنُ البَصْرِيّ يقول : اصْحَب النَّاسَ بما شِئْتَ أن تَصْحَبَهم ، فإنَّهم سَيَصْحَبُونكَ بمثله[2] .

٦ـ ضوابطٌ لاستمرار الأخُوَّة :

يُرْوَىٰ عن رَجَاءِ بنِ حَيْوَة قال : مَنْ لَمْ يُؤاخِ إلاَّ مَنْ لا عَيْبَ فيه قَلَّ صديقُه ، ومَنْ لَمْ يَرْضَ من صديقِه إلاَّ بالإخْلاصِ له دامَ سُخْطُه ، ومَنْ عاتَبَ إخْوانَه علىٰ كُلِّ ذنبٍ كَثُرَ عَدُوُّه[3] .

٧ـ فقدُ الأُخوة غُربة :

عن أبي الحُسَيْن العَتَكيّ قال : سَمعتُ إبراهيمَ الحَربيّ يقول لجَمَاعةٍ عنده : مَنْ تَعُدُّون الغَريبَ في زَمانِكم ؟ فقال رجلٌ : الغَريبُ مَنْ نَأَىٰ عن وطنِه ، وقال آخرون : الغَريبُ مَنْ فارقَ أحباءه فقال إبراهيمُ الحَربيُّ : الغَريبُ في زمانِنَا رجلٌ صالحٌ عاشَ بين قومٍ صالحين ، إنْ أمَرَ بمعروفٍ آزَرُوه وإنْ نَهَىٰ عن مُنْكرٍ عانُوه ، وإنْ احْتَاجَ إلىٰ سَببٍ من الدنيا مانُوه ، ثم ماتوا وتركوه .

قال المَسْعُوديُّ : كانت وَفَاةُ الحَربيّ المُحَدِّث الفَقيه في الجانب الغربيّ وله نَيِّفٌ وثمانونَ سَنةً ، وكان صَدُوقاً ، عالماً ، فَصِيحاً ، جَوَاداً ، عفيفاً ، زَاهِداً ، عابِداً ، ناسِكاً ، وكان مع ذلك ضَاحِكَ السِّن ظَرِيفَ الطَّبْع ولَمْ يكُنْ معه تَكَبُّرٌ ولا تَجبُّرٌ ، ورُبَّما مَزَحَ مع أصدقائِه بما يُسْتَحْسَنُ منه ، ويُسْتَقبَحُ من غَيْرِه ، وكان شيخَ البغداديّين في وقتِه وظَرِيفَهم وزاهِدَهم وناسِكَهم ومُسْنِدَهم في الحديث[4] .

---

(١) انظر السير : (أحمد بن المعذل) ١١/٥١٩ـ٥٢١ ، وانظر النزهة : ٢/٩٦٤ .

(٢) انظر السير : (الحسن البصري) ٤/٥٦٣ـ٥٨٨ ، وانظر النزهة : ٢/٥٦٢ .

(٣) انظر السير : (رَجاء بن حَيوة) ٤/٥٥٧ـ٥٦١ ، وانظر النزهة : ٢/٥٥٨ .

(٤) انظر السير : (إبراهيم الحربيّ) ١٣/٣٥٦ـ٣٧٢ ، وانظر النزهة : ٦/١٠٩٤ .

٨ـ تَبَسُّمك في وجْه أخيك صَدَقَة :

قال عارمٌ : حَدَّثنا حَمَّادٌ قال : ما رأيتُ رجلاً قَطُّ أَشَدَّ تَبَسُّماً في وُجُوهِ الرِّجالِ من أيُّوبَ السِّخْتيانيّ[١] .

٩ـ الزِّيارة بين الإخْوَة :

قال السُّلَميُّ : سَمعتُ محَمَّدَ بنَ عليّ الحِيريَّ يقولُ : سَمعتُ أبا عُثْمانَ الحِيريَّ يقولُ : لَو وَجَدتُ من نَفسِي قُوةً لَرَحَلْتُ إلىٰ أخي محَمَّدَ بنِ الفَضْلِ ، فأسْتَروِحُ برؤيتِه[٢] .

١٠ـ قلَّةُ الزِّيارَة بين الإخْوَة لا تَعني وجُودَ جَفاء :

قال أحمدُ بنُ محَمَّد بنُ الصَّقْر : سَمعتُ أبا الحُسَيْن بنَ قُرَيشٍ يقولُ : حَضَرْتُ إبراهيمَ الحَربيّ ـ وجَاءَهُ يُوسُفُ القاضي ، ومعه ابنُه أبو عُمَر ـ فقال له : يا أبا إسحاق! لو جئناكَ علىٰ مقدارِ واجبِ حَقِّكَ ، لكانت كُلُّها عِندَكَ فقال ليس كلُّ غَيْبَةٍ جَفْوَةً ، ولا كلُّ لقاءٍ مَوَدَّةً ، وإنَّما هو تَقَارُبُ القُلُوب[٣] .

١١ـ الصَّبرُ علىٰ قَسْوة بعض الإخْوَة :

قال محَمَّدٌ بنُ الفَيْضِ : قَدِمَ ابنُ أكْثَمَ دِمَشْقَ مع المأمون ، فبَعَثَ إلىٰ أحمدَ بنِ أبي الحَوَاريّ ، فجاءَ إليه وجالَسَه ، فخَلَعَ يَحْيىٰ عليه طويلةً وملبوساً ، وأعْطاهُ خَمْسَةَ آلافِ درهم ، وقال : فَرِّقْها يا أبا الحَسَن حيثُ تَرَىٰ ، فدَخَلَ بها المَسْجِدَ وصلَّىٰ صَلَواتٍ بالخِلعَة ، فقال قاسمُ الجوعيّ : أَخَذَ دراهمَ اللُّصُوص ، ولَبسَ ثيابَهم ، ثمَّ أتى الجَامعَ ومَرَّ به وهو في التَّحيَّاتِ ، فلمَّا حذاه لَطَمَ القَلَنْسُوة ، فَسَلَّمَ أحمَدَ ، وأعْطَى القَلَنْسُوةَ ابنَه إبراهيمَ ، فذَهَبَ بها ، فقال له مَنْ رَآهُ : ما رأيتَ ما فَعَل ؟[٤] .

---

(١) انظر السير : (أيوب السختياني) ٦/ ١٥ـ ٢٦ ، وانظر النزهة : ٣/٦٢٦ .

(٢) انظر السير : (واعظ بلخ) ١٤/ ٥٢٣ـ ٥٢٦ ، وانظر النزهة : ١/١١٧١ .

(٣) انظر السير : (إبراهيم الحربيّ) ١٣/ ٣٥٦ـ ٣٧٢ ، وانظر النزهة : ٤/١٠٩٤ .

(٤) انظر السير : (الجُوعيّ) ١٢/ ٧٧ـ ٧٩ ، وانظر النزهة : ٢/٩٨٤ .

١٢ـ التَّجَمُّل عند التزاوُر :

قال أبو خَلْدَة : سَمعتُ أبا العالية يقولُ : زَارَنِي عبدُ الكريم أبو أُمَيَّةَ وعليه ثِيابُ صُوفٍ ، فقُلتُ له : هـٰذا زِيُّ الرُّهْبان ، إنَّ المسلمينَ إذا تَزاوَرُوا تَجَمَّلُوا[١] .

١٣ـ الحُبُّ في الله :

عن عائشةَ قالت : حَضَرَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو بكر وعُمَرُ سَعدَ ابنَ مُعاذٍ وهو يَمُوتُ في القُبَّةِ التي ضَرَبَها عليه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم في المسجدِ.

قالت : والذي نَفْسُ محمَّدٍ بيدِه إنِّي لأعْرِفُ بُكاءَ أبي بكرٍ من بُكاءِ عُمَر ، وإنِّي لفي حُجْرَتِي ، فكأنَّما كما قال الله ﴿ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾[٢] ،[٣] .

وقال ابنُ فُضَيْل ، حَدَّثني أبي قال : أتَيْتُ أبا إسْحاقَ السبيعيّ بعدما كُفَّ بَصَرُه ، قال : قلتُ : تَعْرِفُنِي ؟ قال : فُضَيْل ؟ قلتُ : نَعَم قال إنِّي والله أُحِبُّكَ ، ولَوْلا الحَيَاءُ مِنْكَ لَقَبَّلْتُك ، فَضَمَّنِي إلىٰ صَدْره ، ثمَّ قال : حَدَّثني أبو الأَحْوَص عن عبدِ الله ﴿ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ﴾[٤] ، نَزَلَتْ في المُتَحابِّين[٥] .

١٤ـ الأدَبُ بين الإخْوان :

قال غَسَّانُ الغَلاَبِيُّ : كُنتُ أَرَاهُ ـ يَعنِي بِشْرَ ابنَ منصُور ـ إذا زَارَهُ الرَّجُلُ من إخْوَانِه قامَ معه حتىٰ يأخُذَ بِركابِه ، وفَعَلَ بي ذلك كثِيراً[٦] .

وهـٰذا مثالٌ فَقَط ، وهناكَ أمثِلةٌ كثِيرةٌ أُخْرىٰ في بابِ الأَدَب .

---

(١) انظر السير : (أبو العالية) ٤/ ٢٠٧ـ ٢١٣ ، وانظر النزهة : ٤/٤٨٠ .

(٢) سورة الفتح ، الآية : ٢٩

(٣) انظر السير : (سعد بن معاذ) ١/ ٢٧٩ـ ٢٩٧ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٤ .

(٤) سورة الأنفال ، الآية : ٦٣

(٥) انظر السير : (أبو إسحاق السبيعي) ٥/ ٣٩٢ـ ٤٠١ ، وانظر النزهة : ٨/٦١٥ .

(٦) انظر السير : (بشر بن منصور) ٨/ ٣٥٩ـ ٣٦٢ ، وانظر النزهة : ٤/٧٦٤ .

١٥ـ الخِلافُ لا يُفسِدُ للوُدِّ قَضيَّة :

قال يُونُسُ الصَّدَفيُّ : ما رأيتُ أعْقَلَ من الشَّافِعيّ ، ناظَرْتُه يوماً في مَسْألةٍ ، ثم افْتَرَقْنا ، ولَقِيَنِي ، فأَخَذَ بيَدِي ثم قال : يا أبا موسَىٰ ، ألا يَسْتَقِيمُ أنْ نكونَ إخْوَاناً ، وإنْ لَمْ نتَّفِقْ في مَسْألة .

قال الذهبيُّ : هٰذا يَدُلُّ علىٰ كَمالِ عَقْلِ هٰذا الإمام وفِقْهِ نَفْسِه ، فما زَالَ النُّظَراءُ يَخْتلِفون[١] .

١٦ـ فَضْلُ الدُّعاء للإخْوان :

عن أمِّ الدَّرْداءِ قالت : كان لأبي الدَّرْداءِ سِتُّونَ وثلاث مائةِ خليلٍ في الله يَدعُو لهم في الصَّلاة ، فقُلتُ له في ذلك ، فقالَ : إنَّه ليْسَ رجلٌ يَدعُو لأخِيه في الغَيبِ إلاَّ وَكَّلَ اللهُ به مَلَكَيْن يقولان : ولك بمِثْل أفلا أرْغَبُ أنْ تَدْعُوَ لي الملائكةُ[٢] .

وقال ابنُ بكرٍ : سَمعتُ النِّبَاجيَّ يقول : يَنْبَغِي أنْ نكونَ بدُعاءِ إخْوانِنا أوْثَقَ منَّا بأعمالِنا ، نَخَافُ في أعمالنا التَّقصِيرَ ، ونَرْجُو أنْ نكونَ في دعائِهم لنا مُخْلِصين[٣] .

وقال أبو مَيْسَرة ، أحمدُ بنُ نزار ، لرجلٍ : يا أخي فائِدَةُ الاجتماع الدُّعاءُ ، فادْعُ لي إذا ذَكَرْتَنِي ، وأَدْعُو لكَ إذا ذَكَرْتُك فنكون كأنَّا التَقَيْنا وإنْ لَمْ نَلْتَقِ[٤] .

١٧ـ صُورتان للدُّعاء للإخْوَة :

قال الحَارثُ بنُ سُريج : سَمعتُ يَحْيَى القَطَّان يقول : أنا أَدْعُو اللهَ للشَّافعيِّ ، أَخُصُّه به[٥] .

وقال عبدُ الله بنُ حَنْبَل : رُبَّما سَمعتُ أبي في السَّحَرِ يَدْعُو لأقوامٍ بأسْمائِهم ، وكان

---

(١) انظر السير : (الإمام الشافعي) ١٠/ ٥ـ ٩٩ ، وانظر النزهة : ٢/٨٤٦ .

(٢) انظر السير : (أبو الدرداء) ٢/ ٣٣٥ـ ٣٥٣ ، وانظر النزهة : ٢/٢٧٣ .

(٣) انظر السير : (النِّباجي) ٩/ ٥٨٦ ، وانظر النزهة : ٣/٨٤٢ .

(٤) انظر السير : (أبو ميسرة) ١٥/ ٣٩٥ـ ٣٩٦ ، وانظر النزهة : ١/١٢٤١ .

(٥) انظر السير : (الإمام الشافعي) ١٠/ ٥ـ ٩٩ ، وانظر النزهة : ٤/٨٤٦ .

يُكْثِرُ الدُّعاءَ ويُخْفِيه ، ويُصَلِّي بين العِشاءَيْن ، فإذا صَلَّى العِشاءَ الآخِرة ، رَكَعَ رَكَعَاتٍ صالِحَة ، ثم يُوتِرُ ويَنَامُ نَوْمَةً خَفيفةً ، ثم يَقومُ فيُصَلِّي ، وكانت قِراءَتُه لَيِّنَة ، رُبَّما لَمْ أفْهَم بَعْضَها ، وكان يَصُومُ ويُدمِنُ ، ثم يُفطِرُ ما شاءَ الله ، ولا يَتْرُكُ صَوْمَ الإثنينِ والخميسِ وأيامَ البِيْضِ ، فلمَّا رَجَعَ من العَسْكَر ، أدْمَنَ الصَّومَ إلىٰ أنْ مات[1] .

١٨ـ أمثلةٌ على الأخُوَّة :

عن عبدِ الله بن مَسْعود أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم مَرَّ بَيْن أبي بكرٍ وعُمَرَ ، وعبدُ الله ابنُ مَسْعُودٍ قائمٌ يُصَلِّي ، فافْتَتَحَ سورةَ النِّساءِ يُسَجِّلُها[2] ، فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ أَرَادَ أنْ يَقْرَأَ القُرْآنَ غَضّاً كما أُنْزِلَ فلْيَقْرَأْ قِراءَةَ ابنِ أُمِّ عَبْد » فأَخَذَ عبدُ الله في الدُّعاء ، فجَعَلَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يقُولُ : « سَلْ تُعْطَ » فكان فيما سَأَلَ : اللَّهُمَّ إنِّي أسْأَلُكَ إيماناً لا يَرْتَدُّ ونَعِيماً لا يَنْفَدُ ، ومُرَافَقَةَ نَبِيِّكَ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم في أَعْلىٰ جِنَانِ الخُلدِ ، فأتىٰ عُمَرُ عبدَ الله يُبَشِّرُه ، فوَجَدَ أبا بكرٍ رضي الله عنه خارِجاً قد سَبَقَه ، فقال رضي الله عنه : إنَّك لَسَبَّاقٌ بالخَير[3] .

وعن مالكِ بنِ مِغوَل : حدثنا ابنُ بُرَيدَة عن أبيه قال : جاءَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إلى المسجد ، وأنا علىٰ بابِ المسجدِ ، فأخَذَ بيدي فأدخَلَني المسجدَ ، فإذا رجلٌ يُصَلي ، يَدعُو يقول : اللَّهُمَّ إنِّي أسألُك بأنِّي أشهَدُ أنَّكَ أنتَ الله لا إلَـٰهَ إلاَّ أنْتَ الأحَدُ الصَّمَدُ الذي لَمْ يَلِدْ ولَمْ يُولَد ولَمْ يكُنْ لَهُ كُفُواً أحَدٌ .

قال صلى الله عليه وسلم : « والذي نفسِي بيَدِه لَقَدْ سَأَلَ الله باسمِهِ الأعْظَم ، الذي إذا سُئِلَ به أعْطَىٰ وإذا دُعِيَ به أجاب » وإذا رجلٌ يَقْرأ فقال صلى الله عليه وسلم : « لقد أُعْطِيَ هـٰذا مِزْماراً من مَزامِيرِ آلِ داود » ، قلتُ : يا رسولَ الله ، أُخْبِرُهُ ؟ قال صلى الله عليه وسلم : « نعم » فأخْبَرتُه فقال لي : لا تزالُ لي صَديقاً ، وإذا هو أبو موسىٰ[4] .

---

(١) انظر السير : (أحمد بن حنبل) ١١/ ١٧٧ـ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٣/٩٣٠ .

(٢) يُسَجِّلها : أي يقرؤها قراءة مفصلة .

(٣) انظر السير : (عبد الله بن مسعود) ١/ ٤٦١ـ ٥٠٠ ، وانظر النزهة : ٤/ ١٩٤ .

(٤) انظر السير : (أبو موسى الأشعريّ) ٢/ ٣٨٠ـ٤٠٢ ، وانظر النزهة : ٣/٢٢٩ .

وجاءَ في قِصَّةِ كَعْبِ بنِ مَالِك عندما تَخَلَّفَ عن غَزْوةِ تَبُوك ، وفي نِهايةِ القِصَّة : فقامَ إليَّ طَلْحةُ يُهَرول حتىٰ صَافَحَني وهَنَّأني ، فكان لا يَنْسَاها لِطَلْحَة[1] .

وقالت مُعاذَةُ ، زَوجَةُ صِلَةَ بنَ أشْيَم : كان أصحابُه ـ تعني صِلَةَ ابنَ أشْيَم ـ إذا التَقَوا عانَقَ بعضُهم بعضاً[2] .

عن مُطَرِّفِ بنِ عبدِ الله أنَّه قالَ لبعضِ إخْوانِه : يا أبا فُلان إذا كانت لك حَاجَةٌ فلا تُكَلِّمني واكْتُبها في رُقْعَةٍ فإنِّي أكْرَهُ أنْ أرَىٰ في وَجْهِكَ ذُلَّ السُّؤال[3] .

وعن قَتَادَةَ قال : دخَلْنا على الحَسَنِ البَصْرِي وهو نائِمٌ ، وعند رأسِهِ سَلَّة ، فجَذَبناها فإذا خُبزٌ وفاكِهَةٌ ، فجَعَلْنا نأكُلُ ، فانتَبَه فرَآنا ، فَسَرَّه ذلك ، فتَبَسَّمَ وهو يَقْرَأُ : ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾[4] لا جُنَاحَ عليكُم[5] .

وعن أبي ثَورٍ قال : كان الشَّافعيُّ من أَسْمَحِ النَّاس ، يَشْتَري الجَارِيَةَ الصَّناع التي تَطبُخُ وتَعمَلُ الحَلْواء ، ويَشْتَرِطُ عليها هو أنْ لا يَقْرَبَها ، لأنَّه كان عَلِيلاً لا يُمكِنُه أنْ يَقْرَبَ النِّساء لباسُورٍ به إذ ذاك ، وكان يقولُ لنا : اشْتَهوا ما أرَدْتُم[6] .

* * *

---

(١) انظر السير : (كعب بن مالك) ٢/ ٥٢٣ـ ٥٣٠ ، وانظر النزهة : ١/٣٠٢ .

(٢) انظر السير : (صلة بن أشيم) ٣/ ٤٩٧ـ ٥٠٠ ، وانظر النزهة : ٥/٤١٥ .

(٣) انظر السير : (مطرف بن عبد الله) ٤/ ١٨٧ـ ١٩٥ ، وانظر النزهة : ٦/٤٧٦ .

(٤) يَقْصِدُ الآية ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ (النور ٦١) .

(٥) انظر السير : (الحسن البصري) ٤/ ٥٦٣ـ ٥٨٨ ، وانظر النزهة : ٤/٥٦١ .

(٦) انظر السير : (الإمام الشافعي) ١٠/ ٥ـ ٩٩ ، وانظر النزهة : ١/٨٤٩ .

خامساً : الأمْرُ بالمَعْروفِ والنَّهْيُ عن المُنْكر

١ـ هَل يَجب على الآمِر بالمعْروف العَملُ بما أمَرَ به ؟ :

عن أبي الدَّرْداء : إنِّي لآمُرُكُم بالأمرِ وما أفْعَلُه ، ولكنْ لَعَلَّ اللهَ يَأْجُرُني فيه[١] .

٢ـ إذا ظَهَر المُنكرُ وعمَّ ولم يُغيَّر أخَذَ اللهُ كلَّ النَّاس :

عنْ عَمرِو بنِ قَيْس ، سَمِعَ يَزيدَ بنَ مُعَاوِيَةَ يقولُ على المِنْبَرِ : إنَّ الله لا يُؤاخِذُ عامَّةَ النَّاسِ بخاصَّةٍ إلاَّ أنْ يَظهَرَ مُنكَرٌ فلا يُغَيَّرُ فيُؤاخِذُ الكُلَّ[٢] .

٣ـ من عُقوبَة تارِك الأمْرِ والنَّهْي :

قال أبو المُنْذِر إسماعيلُ بنُ عُمَرَ : سَمعتُ أبا عبدِ الرَّحمَـٰنِ العُمريَّ الزَّاهِدَ يقول : إنَّ من غَفْلَتِكَ عن نفسِكَ إعْراضُكَ عن الله ، بأن تَرىٰ ما يُسْخِطُه فتُجَاوِزَه ، ولا تأمُرُ ولا تَنْهَىٰ خَوْفاً من المَخْلُوقِ مَنْ تَرَكَ الأمرَ بالمعْرُوفِ خَوْفَ المَخْلُوقين نُزِعَتْ منه الهَيْبَةُ ، فلَوْ أمَرَ وَلَدَه ، لاسْتَخَفَّ به[٣] .

٤ـ القائم بالأمْرِ والنَّهْي لا يَرضَىٰ عنه النَّاسُ كلُّهم :

عن يَحْيَىٰ بنِ المُتَوَكِّل قال : قال سُفيانُ الثَّوْريُّ : إذا أثْنَىٰ على الرَّجُلِ جِيرانُه أجْمَعونَ فهو رجُلَ سُوءٍ لأنَّه رُبَّما رآهم يَعْصُونَ ، فلا يُنْكِرُ ، ويَلْقاهم ببِشْر[٤] .

---

(١) انظر السير : (أبو الدَّرْداء) ٢/ ٣٣٥ـ٣٥٣ ، وانظر النزهة : ٢٧١/ ٢ .
(٢) انظر السير : (يزيد ابن معاوية) ٤/ ٣٥ـ ٤٠ ، وانظر النزهة : ٤٣٧/ ٦ .
(٣) انظر السير : (العُمريّ) ٨/ ٣٧٣ـ٣٧٨ ، وانظر النزهة : ٧٦٥/ ٣ .
(٤) انظر السير : (سُفيان الثوريّ) ٧/ ٢٢٩ـ ٢٧٩ ، وانظر النزهة : ٧٠٠/ ٤ .

٥ـ سُفيانُ الثَّوْرِيُّ رَحمَه اللهُ كانَ يَبولُ دَماً إذا لم يَستَطِعْ الإنْكار :

عن سُفيانَ الثَّوْرِيِّ ، قال : إنِّي لأرى الشيءَ عليَّ أنْ أتَكَلَّمَ فيه ، فلا أفْعَلُ ، فأبُولُ دَماً[١] .

٦ـ الاجتهاد في إزالة المنكر والكتابة فيه إلىٰ أولي الأمر :

كان ابنُ قُدَامَة إذا سَمِعَ بمُنكَرٍ اجْتَهَدَ في إزالَتِه ، ويكتبُ فيه إلى المَلِكِ ، حتىٰ سمعنا عن بعضِ المُلُوكِ أنَّه قال : هـٰذا الشَّيخُ شَرِيكِي في مُلْكِي[٢] .

٧ـ الإنكارُ لله يجعلُ لصاحبه هيبةً في النفوس :

ذَكَرُوا أنَّ العَادِلَ قال : ما خِفْتُ من أَحَدٍ ما خِفْتُ من هـٰذا ـ يَعْنِي الإمامَ عبدَ الغَنِيِّ المَقْدِسيّ ـ فقُلنا : أيُّها المَلِكُ هـٰذا رجلٌ فَقِيهٌ قال : لمَّا دَخَلَ ما خُيِّلَ إليَّ إلاَّ أنَّه سَبْعٌ[٣] .

٨ـ الشجاعةُ في الإنكار وتعريضُ النفس للأذىٰ :

وقال ابنُ جهضم : حدَّثني أبو بكر الجلاء قال : كان النُّورِيُّ إذا رأىٰ مُنْكَراً غَيَّرَه ، ولو كان فيه تَلَفُه ، نَزَلَ يوماً فرَأىٰ زَوْرَقاً فيه ثلاثُون دَنّاً ، فقال للمَلاَّحِ : ما هـٰذا ؟ قال : ما يَلْزَمُك ؟ ، فأَلَحَّ عليه فقال : أنت والله صُوفِيٌّ كثيرُ الفُضُولِ ، هـٰذا خَمْرٌ للمُعْتَضِدِ ، قال : أعْطِنِي ذلك المِدْرِيّ ، فاغْتَاظَ وقال لأجيرِه : ناوِلْهُ حتىٰ أُبصِرَ ما يَصْنعُ ، فأخَذَه ونَزَلَ فكَسَّرَها كُلَّها غيرَ دَنٍّ ، فأُخِذَ وأُدْخِلَ على المُعْتَضِدِ ، فقال : مَنْ أنتَ وَيْلك ؟ قال : مُحْتَسِبٌ ، قال : مَنْ وَلاَّكَ الحِسْبَةَ ؟ قال : مَنْ وَلاَّكَ الإمَامَةَ يا أميرَ المؤمنين! فأطْرَقَ وقال : ما حَمَلَكَ علىٰ فِعْلِك ؟ قال : شَفَقَةً منِّي عليك! قال : كيفَ سَلِم هـٰذا الدَّنُّ ؟!! ، فذَكَرَ أنَّه كان يَكْسِرُ الدِّنان فنفسُه مُخْلِصَةٌ خاشِعَةٌ ،

---

(١) انظر السير : (سُفيان الثوريّ) ٧/٢٢٩ـ٢٧٩ ، وانظر النزهة : ٦/٦٩٦ .

(٢) انظر السير : (الشيخ أبو عمر) ٢٢/٥ـ٩ ، وانظر النزهة : ٤/١٦٦٢ .

(٣) انظر السير : (عبد الغني المقدسي) ٢١/٤٤٣ـ٤٧١ ، وانظر النزهة : ٤/١٦٤٦ .

فلمَّا وَصَلَ إلىٰ هـٰذا الدَّنِ أعْجَبَتْه نَفْسُه فارتابَ فيها فتَرَكَه[1] .

وقال الحاكمُ : كان محَمَّدُ بنُ جَرير ممَّن لا تأخُذُه في الله لَوْمَةُ لائِمٍ مع عَظيمِ ما يَلْحَقُه من الأذَىٰ والشَّناعاتِ من جاهِلٍ وحاسِدٍ ومُلحِدٍ ، فأمَّا أهلُ الدِّينِ والعِلْمِ ، فغَيْرُ مُنْكِرين عِلْمَه وزُهدَه في الدُّنيا ورَفْضَه لها وقَنَاعَتَه ـ رَحِمَه الله ـ بما كان يَرِدُ عليه من حِصَّةٍ من ضَيْعَةٍ خلَّفَها له أبُوه بطَبَرِسْتان يسيرة[2] .

نقل أبو عبد الرحمـٰن السُّلميّ في « مِحَن الصُّوفيّة » : أن بُناناً الحَمَّال قام إلىٰ وزير خُمارويه ـ صاحب مصر ـ وكان نَصْرانيّاً فأنزله عن مَركوبه وقال : لا تركب الخيلَ وعيِّر ، كما هو مَأخوذ عليكم في الذِّمَّة ، فأمر خُمارويه بأن يُؤخَذ ويُوضع بين يدي سَبُع ، فطُرِحَ ، فبقي ليلةً ، ثم جاؤوا والسَّبُعُ يلحَسُه وهو مستقبل القِبْلَة ، فأطلَقَه خُمارويه واعتذر إليه[3] .

وقال ابنُ طاهِر : سَمعتُ شَيخَ الإسْلام أبا إسماعيلَ عبدَ الله الهَرَويّ يقول : عُرِضْتُ على السَّيفِ خَمْسَ مَرَاتٍ لا يُقالُ لي : ارْجِعْ عن مَذْهَبِك ، لكن يُقالُ لي : اسْكُتْ عمَّنْ خَالَفَك فأقولُ : لا أَسْكُتُ وسَمعتُه يقول : أحْفَظُ اثني عشرَ ألفَ حديثٍ أسْرُدُها سَرْداً[4] .

كان الحافظُ عبدُ الغَنِيّ المَقْدِسيّ لا يَرَىٰ مُنْكَراً إلاَّ غَيَّرَه بيَدِه أو بلِسَانِه ، وكان لا تأخُذْه في الله لَوْمَةُ لائِمٍ قد رَأَيْتُه مَرَةً يَهْرِيقُ خَمْراً فجبَذَ صاحبُه السَّيْفَ فلَمْ يَخَفْ منه ، وأَخَذَه من يَدِه وكان قَوِيّاً في بَدَنِه ، وكثيراً ما كان بدِمَشْقَ يُنْكِرُ ويَكْسِرُ الطَّنابِيرَ والشَّبابَّات[5] .

وسمعتُ أبا بكر بنَ الطَّحَان قال : كان بعضُ أولادِ صَلاحِ الدِّين قد عُملَتْ لهم

---

(١) انظر السير : (النُّوريّ) ١٤/ ٧٠ـ ٧٧ ، وانظر النزهة : ١١٣٤/٥ .
(٢) انظر السير : (محمد بن جرير) ١٤/ ٢٦٧ـ ٢٨٢ ، وانظر النزهة : ١١٥١/٢ .
(٣) انظر السير : (بُنانُ الحَمَّال) ١٤/ ٤٨٨ـ ٤٩٠ ، وانظر النزهة : ١١٦٩/١ .
(٤) انظر السير : (شيخ الإسلام الهَرَويّ) ١٨/ ٥٠٣ـ ٥١٨ ، وانظر النزهة : ١٤٣٧/٣ .
(٥) انظر السير : (عبد الغني المقدسي) ٢١/ ٤٤٣ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ١٦٤٦/١ .

طَنَابِير ، وكانوا في بُسْتانٍ يَشْرَبُون ، فلَقِيَ الحافظُ الطَّنَابيرَ فكَسَرَها قال : فحَدَّثَني الحافظُ ، قال : فلمَّا كنتُ أنا وعبدُ الهَادِي عند حَمَّامِ كافور إذا قومٌ كثيرٌ معهم عِصِيّ فخَفَّفْتُ المَشْيَ ، وجَعلْتُ أقولُ : « حَسْبِيَ الله ونِعْمَ الوَكِيلُ » ، فلَمَّا صِرْتُ على الجِسْرِ لَحِقُوا صاحِبِي ، فقال : أنا ما كَسَرْتُ لكم شيئاً ، هـٰذا هُوَ الذي كَسَر قال : فإذا فارسٌ يَرْكُضُ فتَرَجَّلَ ، وقَبَّلَ يدِي ، وقال : الصِّبيَانُ ما عَرَفُوكَ ، وكان قد وَضَعَ الله له هَيْبَةً في النُّفُوسِ[1] .

وسمعتُ أبا بكرِ بنَ الطَّحَان ، قال : كان في دَوْلَةِ الأَفْضَلِ جَعَلُوا المَلاهِيَ عند الدَّرَج ، فجَاءَ الحافظُ عبدُ الغَنِيّ المَقدِسيّ ، فكَسَّرَ شيئاً كثيراً ، ثم صَعَدَ يقرأُ الحَدِيثَ ، فجَاءَ رسولُ القاضِي يأمُرُه بالمَشْيِ إليهِ ليُنَاظِرَه في الدُّفِّ والشَّبّابة فقال : ذاكَ عِنديَ حَرامٌ ولا أَمشِي إلَيْهِ ، ثُمَّ قَرَأَ الحَدِيثَ فعَادَ الرَّسولُ فقال : لا بُدَّ من المَشْيِّ إليه ، أنْتَ قد بَطَّلْتَ هـٰذه الأشياءَ على السُّلطان ، فقال الحافظُ : ضَرَبَ الله رَقَبَتَه ورَقَبَةَ السُّلطان ، فمَضَى الرَّسولُ وخِفْنا ، فمَا جَاءَ أحدٌ[2] .

٩ـ من ضُرب حتىٰ أغمي عليه لأجل إنكاره :

قال الضِّياءُ : بَلَغَنِي أنَّ العِمادَ أخَا الحافظِ عبدِ الغَنِيّ المَقْدِسيّ أتىٰ فُسَّاقاً ، فكَسَرَ ما معهم فضَرَبُوه حتىٰ غُشِيَ عليه ، فأرَادَ الوالِي ضَرْبَهم ، فقال : إنْ تَابُوا ولازَمُوا الصَّلاةَ فلا تُؤْذِهم وهم في حِلٍّ ، فتابُوا .

ثم قال الضِّياءُ : أعْرِفُ وأنا صَغِيرٌ أنَّ جَمِيعَ مَنْ كان في الجَبَلِ يَتَعَلَّمُ القُرآنَ كان يَقرَأُ على العِمادِ ، وخَتَمَ عليه جَماعَةٌ ، وكان يَبْعَثُ بالنَّفَقَةِ سِراً إلى النَّاس ويأخُذُ بقَلْبِ الطَّالِبِ ، وله بِشْرٌ دائِمٌ[3] .

---

(١) انظر السير : (عبد الغني المقدسي) ٢١/ ٤٤٣ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ٣/١٦٤٦ .
(٢) انظر السير : (عبد الغني المقدسي) ٢١/ ٤٤٣ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ٥/١٦٤٦ .
(٣) انظر السير : (العماد) ٢٢/ ٤٧ـ ٥٢ ، وانظر النزهة : ٥/١٦٦٥ .

١٠ـ الذكاء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

قِيلَ : كان لتاجرٍ علىٰ أميرٍ مالٌ ، فماطَلَه ، ثمَّ جَحَدَه ، فقال له صاحبٌ له : قُمْ معي ، فأتىٰ بي خَيَّاطاً في مَسْجِدٍ ، فقامَ مَعَنَا إلى الأميرِ ، فلمَّا رآه ، هابَه ، ووَفَّاني المالَ ، فقُلتُ للخَيَّاطِ : خُذْ مِنِّي ما تُرِيدُ ، فغَضِبَ ، فقُلتُ له : فحَدِّثني عن سَبَبِ خَوفِه مِنْكَ ، قال : خَرَجتُ ليلةً ، فإذا بتُرْكيٍّ قد صادَ امرأةً مَلِيحَةً وهي تَتَمَنَّعُ منه وتَسْتَغِيثُ ، فأَنْكَرْتُ عليه فضَرَبَنِي ، فلمَّا صَلَّيْتُ العِشاءَ جَمَعْتُ أصْحَابِي وجِئْتُ بابَه ، فخَرَجَ في غِلْمَانِه وعَرَفَنِي ، فضَرَبَنِي وشَجَّنِي ، وحُمِلتُ إلىٰ بَيْتِي ، فلمَّا تَنَصَّفَ الليلُ ، قُمتُ فأذَّنتُ في المَنَارَةِ ، لكي يَظُنَّ أنَّ الفَجْرَ طَلَعَ فيُخَلِّيَ المرأةَ ، لأنَّها قالت : زَوْجِي حالِفٌ عليَّ بالطَّلاقِ أنِّي لا أَبيتُ عن بَيْتِي ، فما نَزَلتُ حتىٰ أحاطَ بي بدرٌ وأعْوانُه ، فأُدْخِلتُ على المُعْتَضِد ، فقال : ما هٰذا الأذانُ ؟!! ، فحَدَّثتُه بالقِصَّةِ ، فطَلَبَ التُّرِكِيَّ ، وجَهَّزَ المرأةَ إلىٰ بَيْتِها ، وضَرَبَ التُّرِكِيَّ في جوالق حتىٰ ماتَ ، ثم قال لي : أَنْكِرِ المُنْكَرَ ، وما جَرَىٰ علَيْكَ فأذِّن كما أذَّنتَ ، فدَعَوْتُ له ، وشَاعَ الخَبَرُ ، فما خاطَبْت أحداً في خَصْمِه إلاَّ أطاعَنِي وخَاف[1] .

قال ابنُ جَرير : وفي سنة أربع وثمانين ومئتين : عَزَمَ المُعْتَضِدُ علىٰ لَعْنَةِ مُعَاوِيَةَ على المَنَابِر ، فخَوَّفَه الوَزِيرُ ، فلَمْ يَلْتَفِتْ ، وحَسَمَ مادة اجتماع الشِّيعَةِ وأهلِ البيتِ ومَنَعَ القُصَّاصَ من كلامِه جُملة ، وتَجَمَّعَ الخَلْقُ يومَ الجُمُعَةِ لقِراءَةِ ما كُتِبَ في ذلك ، وكان من إنْشاءِ الوَزِير ، فقال يوسُفُ القاضِي : راجِعْ أميرَ المؤمنين فقال : يا أميرَ المؤمنين! تَخافُ الفِتْنَةَ ؟ فقال : إنْ تَحَرَّكَت العامَّةُ وضَعْتُ السَّيْفَ فيهم قال : فما تَصْنَعُ بالعَلَوِيَّةِ الذين هم في كُلِّ قُطْرٍ قد خَرَجُوا علَيْكَ ؟ فإذا سَمِعَ النَّاسُ هٰذا من مَنَاقِبِهم كانوا إلَيْهِم أمْيَلَ وأبْسَطَ ألسِنَةً فأعْرَضَ المُعْتَضِدُ عن ذلك[2] .

---

(١) انظر السير : (المعتضد بالله) ١٣/ ٤٦٣ـ٤٧٩ ، وانظر النزهة : ١١٠٦/٤ .

(٢) انظر السير : (المعتضد بالله) ١٣/ ٤٦٣ـ٤٧٩ ، وانظر النزهة : ١١٠٨/١ .

١١ـ التواصي على الحضّ على الإنكار والصبر عليه :

كان الحافظُ عبدُ الغَنِيّ المَقدِسِيّ لا يَصْبِرُ علىٰ إنْكارِ المُنكرِ إذا رآه ، وكُنَّا مرةً أنكَرْنا علىٰ قومٍ وأَرَقْنا خَمْرَهم وتَضارَبْنا ، فسَمِعَ المُوَفَّقُ أبو عُمَرَ ، فضَاقَ صَدْرُه وخاصَمَنَا ، فلمَّا جِئْنا إلى الحافظ طَيَّبَ قُلُوبَنَا ، وصَوَّبَ فِعْلَنَا وتلا قولَ الله تعالَىٰ : ﴿ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ﴾[١] ،[٢] .

١٢ـ الإنكار يتطلب البُعدَ عن أموال النَّاس :

ذكَرَ ناصرٌ المَرْوزيُّ أنَّ بعضَ الفُقَهاءِ المختلفين إلى القَفَّال احتسبَ علىٰ بعضِ أتْباعِ متولِّي مَرْو ، فرُفِعَ ذلك إلى السُّلطانِ محمود ، فقال : أيأخُذُ القَفَّالُ شيئاً من دِيوانِنَا ؟ قال : لا قال : فهل يَتَلَبَّسُ بشيءٍ من الأوْقافِ ؟ قال : لا قال : فإنَّ الاحْتِسابَ لهم سائغٌ ، دَعْهُم[٣] .

١٣ـ الصَّدعُ بالحق :

عن أبي حَرْبِ بنِ الأسْوَد : سَمعتُ عبدَ الله بنَ عَمرٍو : سَمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقولُ : « ما أَقلَّتِ الغَبْراءُ ، ولا أَظَلَّتِ الخَضْراءُ مِنْ رَجُلٍ أَصْدَقَ لَهْجَةً مِنْ أبي ذَرٍ » .

وعن أبي اليَمَانِ ، وأبي المُثَنَّىٰ ، أنَّ أبا ذَرٍّ قال : بايَعَنِي رسولُ الله صلى الله عليه وسلم خَمْسَاً ووَاثَقَنِي سَبْعَاً ، وأشْهَدَ الله عليَّ سَبْعَاً : ألاَّ أخافَ في اللهِ لَوْمَةَ لائمٍ[٤] .

وقال السّلفيُّ : كان شَيخُنا ابنُ الحُطَيئة شَديداً في دينِ الله فَظَّاً غَلِيظاً علىٰ أعداءِ الله ، لقد كان يَحْضُرُ مَجْلسَه داعيَ الدُّعاةِ[٥] مع عِظَمِ سُلطَانِه ونُفُوذِ أمْرِه ، فمَا

---

(١) سورة لقمان ، الآية : ١٧

(٢) انظر السير : (عبدالغنيّ) ٢١/ ٤٤٣ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٤٦ .

(٣) انظر السير : (القفَّال) ١٧/ ٤٠٥ـ ٤٠٨ ، وانظر النزهة : ٣/١٣٤٧ .

(٤) انظر السير : (أبو ذر الغفاريّ) ٢/ ٤٦ـ ٧٨ ، وانظر النزهة : ٤/٢١٩ .

(٥) وهو أبو القاسم هبة الله ابن كامل المصري التنوخي ، قاضي الخليفة العاضد متوفىٰ سنة ٥٦٩ ، مُترجَم=

يَحْتَشِمُهُ ، ولا يُكْرِمُهُ ، ويقول : أَحْمَقُ النَّاس في مسْأَلةِ كذا وكذا الرَّوَافِضُ ، خَالَفُوا الكتابَ والسُّنَّةَ وكفَرُوا بالله[1] .

قال السّلفيُّ : كنتُ عند ابنِ الحُطَيئةِ يوماً في مَسْجِدِه بشرفِ مِصْرَ وقد حَضَرَه بعضُ وُزَرَاءُ المِصْريِّين أَظُنُّه ابنَ عبَّاس ، فاسْتَسْقَىٰ في مَجْلِسه ، فأتاه بعضُ غِلْمَانِه بإناءِ فِضَّةٍ فلمَّا رآهُ ابنُ الحُطَيئَةَ وضَعَ يَدَه علىٰ فُؤادِه وصَرَخَ صَرْخَةً مَلأَتْ المسجدَ ، وقال : واحَرَّها علىٰ كَبِدِي ، أَتَشْرَبُ في مجلسٍ يُقْرَأُ فيه حَديثُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم في آنِيَةِ الفِضَّة ؟ لا والله لا تَفعلُ ، وطَرَدَ الغُلامَ فخَرَجَ ، وطَلَبَ الشَّيخُ كُوزاً ، فجِيءَ بكُوزٍ قد تثلَّم ، فشَرِبَ ، واسْتَحْيَىٰ من الشَّيخِ ، فرأيتُه والله كما قال تعالىٰ : ﴿ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ ﴾[2] .

قال : وأتىٰ رجلٌ إلىٰ شيخِنا ابنِ الحُطَيئَة بمِئْزَرٍ ، وحَلَفَ بالطَّلاقِ ثلاثاً لا بُدَّ أن يُقَبِّلَه ، فوَبَّخَه علىٰ ذلك ، وقال : عَلِّقْهُ علىٰ ذلكَ الوَتَد ، فلَمْ يَزَلْ على الوَتَدِ حتىٰ أكلَه العُثُّ ، وتَساقَطَ ، وكان ينسَخُ بالأُجْرةِ وكان له على الجزْيَةِ في السَّنَةِ ثلاثةُ دنانيرِ ، ولقد عَرَضَ عليه غَيرُ واحدٍ من الأُمَرَاءِ أن يَزِيدَ جامكيَّتَه[3] ، فما قَبِل ، وكان له من الموقعِ في قُلوبِهم مع كثرةِ ما يُهِينُهم ما لَم يكنْ لأحدٍ سواه ، وعَرَضوا عليه القَضَاءَ بمصرَ ، فقال : والله لا أقْضِي لهم إلىٰ أنْ قال شجاع : وكَتَبَ « صَحيحَ مُسْلِم » كُلَّه بقلمٍ واحدٍ ، وسَمعتُه وقِيلَ له : فلانٌ رُزِقَ نِعمَةً ومَعِدَةً ، فقال : حَسَدُوه على التَّرَدُّدِ إلى الخَلاءِ ، وسَمعتُه كثيراً إذا ذُكِرَ عُمَرُ بنَ الخَطَّابِ رضي الله عنه يقول : طُوِيَتْ سَعادَةُ المُسْلمين في أكْفَانِ عُمَر .

وقرأتُ بخَطِّ ابنِ الأنْماطِيِّ قال لي شَيْخُنا شُجاعٌ : كان الشَّيخُ أبو العبَّاسِ قد أخَذَ

= في الخريدة (قسم بمصر) ١/١٨٦ ، و« الروضتين » ١/ ٢٢٤ ، و« العبر » ٤/ ٢٠٩ ، و« شذرات الذهب » ٤/ ٢٣٥ .

(١) انظر السير : (ابن الحُطيئة) ٢٠/ ٣٤٤ـ٣٤٨ ، وانظر النزهة : ٤/١٥٥٩ .

(٢) سورة إبراهيم ، الآية : ١٧ .

(٣) الجامكيَّة : رواتب خدام الدولة ، تعريب جامكي ، وهو مركب من « جامه » أي قيمة ، ومن « كي » وهو أداة النسبة

نفسَه بتقْليلِ الأكلِ ، بحيثُ بلَغَ في ذلك إلى الغايَةِ وكان يَتَعَجَّبُ ممَّن يأكُلُ ثلاثينَ لُقْمَةً[1] .

١٤ـ ضابط للصَّدعِ بالحق :

قال الذهبيُّ : الصَّدْعُ بالحَقِّ عَظيمٌ ، يَحتاجُ إلىٰ قُوةٍ وإخْلاصٍ ، فالمُخْلِصُ بِلا قُوةٍ يَعْجِزُ عن القِيام به ، والقَوِيُّ بِلا إخْلاصٍ يُخْذَلُ ، فمَنْ قامَ بهما كاملاً فهو صِدِّيقٌ ومَنْ ضَعُفَ ، فلا أَقَلَّ من التألُّمِ والإنْكارِ بالقلبِ ليْسَ وَراءَ ذلكَ إيمانٌ ، فَلا قُوَّةَ إلاَّ بالله .

عن ثَوْبانٍ قال : قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « إنَّ أَخْوَفَ ما أخَافُ علىٰ أُمَّتِي الأئِمَةُ المُضِلُّون ، وإذا وُضِعَ السَّيْفُ عَلَيْهِم ، لَمْ يُرْفَعْ عَنهُم إلىٰ يوم القِيامَةِ ، ولا تَزَالُ طائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي على الحَقِّ ظاهِرِينَ ، لا يَضُرُّهُم مَنْ خَالَفَهُم أوْ خَذَلَهُم حَتَّىٰ يَأْتِيَ أَمْرُ الله »

عن أبي سَعيدٍ قال : قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « لا يَحْقِرَنَّ أَحَدُكُم نَفْسَهُ أنْ يَرَىٰ أَمْراً لله فِيهِ مَقَالٌ ، فَلا يَقُولُ فِيهِ ، فَيُقَالُ له : ما مَنَعَكَ ؟ فَيَقُولُ : مَخَافَةُ النَّاسِ فَيَقُولُ : فَإِيَّايَ كُنْتَ أَحَقَّ أنْ تَخَافَ »[2] .

١٥ـ الإنكار بمنكر أَشَدُّ أَشَدُّ من الإنكار الأصلي :

قد حُبِّبَ في الآخرِ إلىٰ صاحبِ مِصْرَ الحاكمِ بأمْرِ الله العُزْلَةُ ، وبَقِيَ يَرْكَبُ وَحْدَه في الأسْواقِ علىٰ حِمارٍ ، ويُقِيمُ الحِسْبَةَ بنفسِه ، وبَيْنَ يدَيْه عبدٌ ضَخْمٌ فاجِرٌ ، فمَنْ وَجَبَ عليه تأدِيبٌ ، أَمَرَ العَبدَ أنْ يُولِجَ فيه ، والمَفعُولُ به يَصِيحُ .

وقِيلَ : إنَّه أَرَادَ ادِّعاءَ الإلَهيَّةِ ، وشَرَعَ في ذلك ، فَكَلَّمَهُ الكُبَرَاءُ وخَوَّفُوهُ من وُثُوبِ النَّاسِ ، فتَوَقَّفَ[3] .

---

(١) انظر السير : (ابن الحُطيئة) ٢٠/ ٣٤٤ـ٣٤٨ ، وانظر النزهة : ١/١٥٦٠ .

(٢) انظر السير : (أحمد بن حَنبل) ١١/ ١٧٧ـ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٦/٩٣١ .

(٣) انظر السير : (الحاكم بأمر الله) ١٥/ ١٧٣ـ١٨٤ ، وانظر النزهة : ٧/١٢٠٨ .

١٦ـ الإنكار الشديد في غير محله :

قال أبو إسْماعِيلَ الأنْصاريّ : سَمعتُ مُحمَّدَ بنَ أحمدَ البَلْخِيّ المُؤَذِّنَ يقولُ : كُنتُ مع الشَّيخِ أبي مُحمَّد بنِ أبي شُرَيْح في طريق غُور ، فأتاه إنْسَانٌ في بعضِ تلكَ الجبالِ ، فقال : إنَّ امْرَأَتي وَلَدَتْ لسِتَّةِ شُهورٍ ، فقال : هُو وَلَدُكْ ، قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « الوَلَدُ للفِراشِ » فعَاوَدَه ، فَرَدَّ علَيهِ كذلك ، فقال الرَّجلُ : أنا لا أقولُ بهـٰذا ، فقال : هـٰذا الغَزْوُ ، وسَلَّ عليه السَّيفَ ، فأكْبَبْنا عليه وقُلنا : جَاهِلٌ لا يَدْري ما يقول .

وقال الذهبيُّ : كان سَبيلُه أنْ يُوَضِّحَ له ، ويقولُ : لَكَ أنْ تَنْتَفِيَ منْهُ باللِّعانِ ، ولكنَّه احْتَمَىٰ للسُّنةِ وغَضِبَ لها[١] .

وعن يَحْيَىٰ بنِ مندة قال : سَمعتُ عَمِّي عبدَ الرَّحمَـٰنِ ، سَمعتُ مُحمَّدَ ابنَ عُبَيْدِ الله الطَّبَرَانِيَّ يقول : قُمتُ يوماً في مَجْلِسِ والِدِكَ رحمَه الله فقُلتُ : أيُّها الشَّيخُ ، فِينَا جَماعَةٌ ممَّنْ يدخُلُ علىٰ هـٰذا المَشْؤومِ ـ أعْنِي أبا نُعَيْمٍ الأشْعَرِيّ ـ فقال : أَخْرِجُوهم ، فأَخْرَجْنا من المَجْلِسِ فُلاناً وفُلاناً ثم قال : على الدَّاخِلِ عليهم حَرَجٌ أنْ يدخُلَ مَجْلِسَنا ، أو يَسْمعُ مِنَّا ، أو يَرْوِيَ عَنَّا ، فإنْ فَعَلَ فليْسَ هو مِنَّا في حِلٍّ .

قال الذهبيُّ : رُبَّما آلَ الأمرُ بالمَعْروفِ بصاحِبه إلى الغَضَبِ والحِدَّةِ ، فَيَقَعُ الهجْرانُ المُحَرَّم ، ورُبَّما أَفْضَىٰ إلى التَّكْفيرِ والسَّعْي في الدَّم ، وقد كان أبو عبدُ الله يَحْيَىٰ بنُ مندة وافِرَ الجَاهِ والحُرْمَةِ إلى الغايَةِ ببلَدِه وشغب علىٰ أحمدَ بنِ عبدِ الله الحافظِ ، بحَيْثُ إنَّ أحمَدَ اخْتَفَىٰ[٢] .

١٧ـ خُلفاءٌ شَدَّدوا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

من مَحَاسِنِ الحَكَمِ بنِ عبد الرَّحمَـٰنِ بنِ مُحمَّد أنَّه شَدَّد في مَمْلَكَتِه في إبْطَالِ الخُمُورِ تَشْدِيداً عَظِيماً[٣] .

---

(١) انظر السير : (ابن أبي شُريح) ١٦/ ٥٢٦ـ٥٢٨ ، وانظر النزهة : ٣/١٣١٣ .

(٢) انظر السير : (ابن مندة) ١٧/ ٢٨ـ ٤٣ ، وانظر النزهة : ٤/١٣٢٢ .

(٣) انظر السير : (الحكم ابن عبد الرحمـٰن ابن محمّد) ٨/ ٢٦٩ـ ٢٧١ ، وانظر النزهة : ٣/٧٥٨ .

من مَحَاسِنِ المُسْتَنْصِرِ بالله أنَّه شَدَّد في الخَمرِ في مَمَالِكِه ، وأبْطَلَه بالكُلِّية وأَعْدَمَه[1] .

١٨ـ الإنكار على الخُلَفاء والمُلُوك :

(وانظُر عَلاقَةَ العُلَمَاءِ بالمُلُوكِ والأُمَرَاءِ فَفِيهِ المَزِيد) .

قال ابنُ عَفيفٍ : مِنْ أخْبارِ مُنْذِر بنِ سَعيدٍ المَحْفُوظَة : أنَّ أميرَ المؤمنين النَّاصِرَ عَمِلَ في بعضِ سُطُوحِ الزَّهراءِ قُبَّةً بالذَّهَبِ والفِضَّةِ وجَلَسَ فيها ودَخَلَ الأعْيانُ ، فجاءَ مُنْذِرُ بنُ سَعيدٍ ، فقال له الخَليفَةُ كما قالَ لِمَنْ قَبْلَه : هل رأيتَ أو سَمعتَ أنَّ أَحَداً من الخُلَفاءِ قَبلِي فَعَلَ مثلَ هذا ؟ فأَقْبَلَتْ دُموعُ القاضِي تَتَحَدَّرُ ، ثمَّ قال : والله ما ظَنَنْتُ يا أميرَ المؤمنين أنَّ الشَّيْطانَ يَبلُغُ منْكَ هذا المَبْلَغَ أنْ أنْزَلَكَ مَنَازِلَ الكُفَّارِ ، قال : لِمَ ؟ فقال : قال الله عَزَّ وجَلَّ : ﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ ﴾ إلىٰ قولِهِ تَعالىٰ : ﴿ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[2] ، فنَكَّسَ النَّاصِرُ رَأسَه طَويلاً ، ثمَّ قال : جَزَاكَ اللهُ عَنَّا خَيْراً وعن المسلمين ، الذي قُلتَ هو الحَقُّ ، وأَمَرَ بنَقْضِ سَقْفِ القُبَّةِ[3] .

١٩ـ خَطيبٌ عُزِلَ لإنكاره على الخليفة :

وقد اسْتغرَقَ مُنذِرُ بنُ سَعيدٍ مَرَّةً في خُطبَتِه بجامعِ الزَّهْراء فأَدْخَلَ فيها ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾[4] ، فتَخَيَّرَ النَّاصِرُ لخِطَابَةِ الزَّهْراءِ أحمدَ بنَ مطرف إذا حَضَرَ النَّاصِرُ[5] .

---

(١) انظر السير : (المستنصر) ١٦/ ٢٣٠ـ ٢٣١ ، وانظر النزهة : ٦/١٢٩٠ .
(٢) سورة الزخرف ، الآيات : ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ .
(٣) انظر السير : (مُنذر بن سعيد البَلُّوطيّ) ١٦/ ١٧٣ـ ١٧٨ ، وانظر النزهة : ٣/١٢٧٩ .
(٤) سورة الشعراء ، الآيات : ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ .
(٥) انظر السير : (مُنذر بن سعيد البَلُّوطيّ) ١٦/ ١٧٣ـ ١٧٨ ، وانظر النزهة : ١/١٢٨٠ .

٢٠ـ الإغْلاظُ على الظالمين :

عن ابنِ عُمَرَ أنَّه قامَ إلى الحَجَّاجِ وهو يَخْطُبُ ، فقال : يا عَدُوَّ الله! اسْتُحِلَّ حَرَمُ الله ، وخُرِّبَ بَيْتُ الله فقال : يا شَيْخاً قد خَرِفَ فلمَّا صَدَرَ النَّاسُ ، أَمَرَ الحَجَّاجُ بعضَ مُسَوِّدَتَه ، فأخَذَ حَرْبَةً مَسْمُومَةً وضَرَبَ بها رِجْلَ ابنَ عُمَرَ ، فمَرِضَ ، وماتَ منها ودَخَلَ عليه الحَجَّاجُ عائِداً : فسَلَّمَ عليه فلَمْ يَرُدَّ عليه ، وكَلَّمَه ، فلَمْ يُجِبْه[1] .

وعن خالِدِ بنِ سُمَيْرٍ قال : خَطَبَ الحَجَّاجُ ، فقال : إنَّ ابنَ الزُّبَيْرِ حَرَّفَ كتابَ الله ، فقالَ ابنُ عُمَرَ : كَذَبتَ كَذَبتَ ، ما يَسْتطِيعُ ذلك ولا أَنْتَ مَعَه قال : اسْكُتْ فقد خَرِفْتَ وذَهَبَ عَقلُك ، يُوشِكُ شَيخٌ أن يُضْرَبَ عُنُقُه ، فيَخِرَّ وقد انتُفَخَتْ خِصْيَتَاه ويَطُوفُ به صِبيَانُ البَقِيعِ .

ولابنِ عُمَرَ أقوالٌ وفتَاوَىٰ يَطُولُ الكِتابُ بإيرادِها .

وقال أبو نَعِيمٍ : ماتَ سَنَةَ ثلاثٍ وسَبعينَ ، تُوفِّيَ في آخرِ سَنَةِ ثلاثٍ ، وهو القائلُ : كنتُ يومَ أُحُدٍ ابنَ أربع عَشْرَةَ سَنَةً ، فَعَلىٰ هـٰذا يكون عُمرُه خَمْساً وثَمانِينَ سَنَةً رضي الله عنه[2] .

٢١ـ الإنكار علىٰ أعوان الظالمين :

عن سَعيدِ بنِ المُسَيِّبِ قال : لا تَمْلؤُوا أَعْيُنَكم من أَعْوانِ الظَّلَمةِ إلاَّ بإنْكارٍ من قُلُوبِكم ، لِكَيْلا تَحْبَطَ أعْمَالُكم[3] .

٢٢ـ تَعليلٌ لمَنْع المأمون الأمرَ بالمعروفِ والنهيَ عن المنكر :

قال أبو المُظَفَّر في كتابِ « مِرْآةُ الزَّمانِ » قال عبدُ الصَّمَد بنُ المُهْتَدِي : لمَّا دَخَلَ المَأْمُونُ بَغْدادَ نادىٰ بتَرْكِ الأَمْرِ بالمَعْروفِ والنَّهيِ عن المُنْكَرِ ، وذلك لأنَّ الشُّيوخَ بَقَوْا

---

(١) انظر السير : (عبد الله ابن عُمر) ٣/ ٢٠٣ـ ٢٣٩ ، وانظر النزهة : ٢/٣٧١ .
(٢) انظر السير : (عبد الله ابن عُمر) ٣/ ٢٠٣ـ ٢٣٩ ، وانظر النزهة : ١/٣٧٢ .
(٣) انظر السير : (سعيد ابن المسيب) ٤/ ٢١٧ـ ٢٤٦ ، وانظر النزهة : ٢/٤٨٥ .

يَضرِبُونَ ويَحْبسُون ، فنَهَاهُم المَأمُونُ وقال : قد اجْتَمَعَ النَّاسُ علىٰ إمامٍ ، فمَرَّ أبو نُعَيمٍ ، فرأىٰ جُندِياً وقد أَدْخَلَ يَدَيْه بَينَ فَخِذَي امْرَأَةٍ ، فنَهَاه بعُنْفٍ ، فحَمَلَه إلى الوَالِي ، فحَمَلَه الوَالِي إلى المَأمُونِ قال : فأُدخِلتُ عليه بُكرَةً وهو يُسَبِّحُ ، فقال : تَوَضَّأ فتَوَضَّأتُ ثلاثاً ثلاثاً علىٰ ما رَوَاهُ عبدُ خَيرٍ ، عن عليٍّ ، فصَلَّيْتُ رَكعَتَيْنِ ، فقال : ما تقولُ في رَجلٍ ماتَ عن أبَوَيْنِ ؟ فقُلتُ : للأُمِّ الثُّلُثُ ، وما بَقِيَ للأبِ ، قال : فإنْ خَلَّفَ أبَوَيْه وأَخَاهُ ؟ قُلتُ : المَسْأَلَةُ بِحَالِها ، وسَقَطَ الأَخُ ، قال : فإنْ خَلَّفَ الأَبَوَيْنِ وأَخَوَيْنِ ؟ قُلتُ : للأُمِّ السُّدُسُ ، وما بَقِيَ للأَبِ قال : في قَولِ النَّاسِ كُلِّهِم ؟ قُلتُ : لا ، إنَّ جَدَّكَ ابنَ عَبَّاسٍ يا أميرَ المؤمنين ما حَجَبَ الأُمَّ عن الثُّلُثِ إلاَّ بثلاثَةِ إخْوَةٍ فقال : يا هـٰذا ، مَنْ نَهَىٰ مِثْلَكَ عن الأمرِ بالمَعْرُوفِ ؟!! إنَّما نَهَيْنا أقْوَاماً يَجْعَلونَ المَعْرُوفَ مُنْكَراً ثمَّ خَرَجْتُ[1] .

٢٣ـ صُورٌ على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

عن إسْماعيلَ بنِ عُبَيْد بنِ رِفاعَةَ عن أبيه : أنَّ عُبَادَةَ بنَ الصَّامِت مَرَّتْ عليه قِطارَةٌ[2] وهو بالشَّامِ ، تَحمِلُ الخَمرَ ، فقال : ما هـٰذه ؟ أَزَيْتٌ ؟ قِيلَ : لا بَلْ خَمرٌ يُبَاعُ لفُلانٍ ، فأَخَذَ شِفْرَةً من السُّوقِ ، فقامَ إليها ، فلَمْ يَذَرْ فيها راويةً إلاَّ بَقَرَها ـ وأبو هُرَيْرَةَ إذْ ذاكَ بالشَّامِ ـ فأَرسَلَ فُلانٌ إلىٰ أبي هُرَيْرَة ، فقال : ألا تُمْسِكُ عنَّا أخاكَ عُبادَة ، أمَّا بالغَدَوَاتِ ، فيَغْدو إلى السُّوقِ يُفسِدُ علىٰ أهلِ الذِّمَةِ مَتَاجِرَهم ، وأمَّا بالعَشيِّ ، فيَقْعُدُ في المَسْجِدِ ليْسَ له عَمَلٌ إلاَّ شَتْمُ أعراضِنا وعَيْبِنا! قال : فأَتاه أبو هُرَيْرَة ، فقال : يا عُبَادَة ، مالَكَ ولِمُعاوِيةَ ؟ ذَرْهُ وما حُمِّل فقال : لَمْ تكنْ مَعَنا إذْ بايَعْنا على السَّمْعِ والطَّاعَةِ ، والأمْرِ بالمَعْرُوفِ والنَّهْي عن المُنْكرِ وألاَّ يأْخُذَنا في الله لَوْمَةُ لائمٍ فسَكَتَ أبو هُرَيْرَة ، وكَتَبَ فُلانٌ إلىٰ عُثْمانَ : إنَّ عُبادَةَ قد أَفْسَدَ عليَّ الشَّامَ[3] .

وعن سالمٍ قال : أَعْرَسْتُ ، فدَعا أبي النَّاسَ ، فيهم أبو أيُّوبَ الأَنْصاريّ وقد

---

(١) انظر السير : (أبو نُعيم) ١٠/١٤٢ـ١٥٧ ، وانظر النزهة : ١/٨٦٠ .
(٢) القِطارة والقِطار : أن تُشدّ الإبل علىٰ نسق ، واحد خلف واحد .
(٣) انظر السير : (عُبادة بن الصّامت) ٢/٥ـ١١ ، وانظر النزهة : ٣/٢٠٩ .

سَتَروا بيتِي بجُنَادِيّ[1] أخْضَر فجاءَ أبو أيُّوب فطَأْطَأَ رأسَه ، فنَظَرَ فإذا البَيْتُ مُستَّرٌ فقال : يا عبدَ الله تَسْتُرُونَ الجُدُر ؟!! ، فقال أبي واسْتَحْيَىٰ : غَلَبَنا النِّساءُ يا أبا أيُّوب فقال : مَنْ خَشيتُ أنْ تَغْلِبَه النِّساءُ ، فلَم أخْشَ أنْ يَغْلِبَنَّكَ لا أَدْخُلُ لكُم بَيْتاً ولا آكُلُ لكُم طَعَاماً[2] .

وقال مَالِكُ بنُ دِينَارٍ : حَدَّثَنِي فُلانٌ أنَّ عامِرَ بنَ قَيْسٍ مَرَّ في الرَّحْبَةِ وإذا رجلٌ يُظْلَمُ ، فأَلْقَىٰ رداءَه وقال : لا أَرَىٰ ذِمَّةَ الله تُخْفَرُ وأنا حَيّ ، فاسْتَنْقَذَه ، ويُرْوَىٰ أنَّ سَبَبَ إبْعادِه إلى الشَّامِ ، كَوْنُه أنْكَرَ وخَلَّصَ هـٰذا الذِّميَّ[3] .

وقِيلَ : إنَّ عبدَ الله بنَ مُحَيْرِيزٍ رَأَىٰ علىٰ خالدِ بنِ يَزِيدِ بنِ مُعاوِيَةَ جُبَّةَ خزٍّ ، فقال : أَتَلْبَسُ الخزَّ ؟ قال : إنَّما أَلْبَسُ لِهؤلاءِ ، وأَشَارَ إلى الخَلِيفَةِ ، فغَضِبَ ، وقال : ما يَنْبَغِي أنْ يَعْدِلَ خَوْفُكَ من الله بأَحَدٍ من خَلْقِه[4] .

قال أبو المُظَفَّر في كتابِ « مِرْآةُ الزَّمانِ » قال عبدُ الصَّمَد بنُ المُهْتَدِي : لمَّا دَخَلَ المَأْمُونُ بَغْدادَ نادىٰ بتَركِ الأمْرِ بالمَعْروفِ والنَّهيِ عن المُنْكَرِ ، وذلك لأنَّ الشُّيوخَ بَقَوْا يَضْرِبُونَ ويَحْبِسُون ، فنَهَاهُم المَأْمُونُ وقال : قد اجْتَمَعَ النَّاسُ علىٰ إمامٍ ، فمَرَّ أبو نُعَيمٍ ، فرأىٰ جُنْدِياً وقد أَدْخَلَ يَدَيْه بينَ فَخِذَي امْرَأَةٍ ، فنَهَاه بعُنْفٍ ، فحَمَلَه إلى الوَالِي ، فحَمَلَه الوَالِي إلى المَأْمُونِ قال : فأُدخِلتُ عليه بُكرَةً وهو يُسَبِّحُ ، فقال : تَوَضَّأ فتَوَضَّأتُ ثلاثاً ثلاثاً علىٰ ما رَوَاهُ عبدُ خَيرٍ ، عن عليٍّ ، فصَلَّيْتُ رَكعَتَيْنِ ، فقال : ما تقولُ في رَجلٍ ماتَ عن أبوَيْنِ ؟ فقُلتُ : للأُمِّ الثُّلُثُ ، وما بَقِيَ للأبِ ، قال : فإنْ خَلَّفَ أَبَوَيْه وأَخَاهُ ؟ قُلتُ : المَسْأَلَةُ بِحَالِها ، وسَقَطَ الأخُ ، قال : فإنْ خَلَّفَ الأَبَوَيْنِ وأَخَوَيْنِ ؟ قُلتُ : للأُمِّ السُّدُسُ ، وما بَقِيَ للأَبِ قال : في قَولِ النَّاسِ كُلِّهم ؟ قُلتُ : لا ، إنَّ جَدَّكَ ابنَ عَبَّاسٍ يا أميرَ المؤمنين ما حَجَبَ الأُمَّ عن الثُّلُثِ إلاَّ بثلاثَةِ إخْوَةٍ

---

(١) وهو جنس من الثياب يستر بها الجدران .

(٢) انظر السير : (أبو أيوب الأنصاريّ) ٢/٤٠٢ـ٤١٣ ، وانظر النزهة : ٢/٢٨٣ .

(٣) انظر السير : (عامر بن قيس) ٤/١٥ـ١٩ ، وانظر النزهة : ٣/٤٣٤ .

(٤) انظر السير : (عبد الله بن محيريز) ٤/٤٩٤ـ٤٩٦ ، وانظر النزهة : ٥/٥٣٩ .

فقال : يا هـٰذا ، مَنْ نَهَىٰ مِثْلَكَ عن الأمْرِ بالمَعْرُوفِ ؟!! إنَّما نَهَيْنا أقْوَاماً يَجْعَلونَ المَعْرُوفَ مُنْكَراً ثمَّ خَرَجْتُ[1] .

وقال إسْماعيلُ بنُ نُجَيْد : رَأَيْتُ أبا العبَّاسِ السَّراجَ يَركبُ حِمَارَه وعبَّاسٌ المُسْتمليّ بينَ يَدَيه ، يَأمُرُ بالمَعْرُوفِ ويَنْهَىٰ عن المُنْكرِ ، يقول : يا عبَّاسُ غَيِّرْ كَذَا ، اكْسِرْ كَذَا[2] .

٢٤ـ من وَسائل الإصْلاح :

قال الإمامُ أبو عبدِ الله الحَكيم : صَلاحُ خَمْسَةٍ في خَمْسَةٍ : صَلاحُ الصَّبيِّ في المَكْتَبِ ، وصَلاحُ الفتَىٰ في العِلْمِ ، وصَلاحُ الكَهْلِ في المَسْجِدِ ، وصَلاحُ المَرْأَةِ في البَيْتِ ، وصَلاحُ المُؤْذِي في السِّجْنِ[3] .

* * *

---

(١) انظر السير : (أبو نُعيم) ١٠/ ١٤٢ـ ١٥٧ ، وانظر النزهة : ١/٨٦٠ .

(٢) انظر السير : (السَّراج) ١٤/ ٣٨٨ـ ٣٩٨ ، وانظر النزهة : ١/١١٦٤ .

(٣) انظر السير : (أبو عبد الله الحكيم) ١٣/ ٤٣٩ـ ٤٤٢ ، وانظر النزهة : ٤/١١٠٠ .

سادساً : الجِهاد

١ـ الصَّالِحُونَ مُهْتَمُّونَ بالجِهَاد :

عن سعيد بن عبد العزيز ، أنَّ أبا مسلم الخَولاني استبطأ خبرَ جيشٍ كان بأرض الرُّوم ، فدخل طائرٌ فوقع ، فقال : أنا رتابيل مُسلي الحُزن من صدور المؤمنين ، فأخبرهُ خبرَ الجيش فقال : ما جئتَ حتى استبطأتُك ؟[1] .

ومن محاسن الإمام ابن نُجَيْد أنَّ شَيخَه الزَّاهد أبا عثمان الحِيريَّ طلبَ في مجلسه مالاً لبعض الثُّغور ، فتأخَّرَ ، فتألمَ وبكىٰ علىٰ رؤوس النَّاس فجاءَهُ ابنُ نُجَيْد بألْفَي درهم ، فدعا له ، ثمَّ إنَّه نوَّهَ به ، وقال : قد رَجَوتُ لأبي عمرو بما فعل ، فإنَّه نابَ عن الجماعة ، وحمل كذا وكذا ، فقام ابنُ نُجَيْد ، وقال : لكن إنَّما حملتُ من مال أمي وهي كارهة ، فينبغي أن تردَّه لترضىٰ ، فأمر أبو عثمان بالكيس فَرُدَّ إليه ، فلمَّا جَنَّ الليلُ جاءَ بالكيسِ ، والتَمَسَ من الشيخ سترَ ذلك ، فبكىٰ ، وكان بعد ذلك يقول : أنا أخشىٰ من هِمَّة أبي عمرو[2] .

٢ـ التَّحَسُّرُ علىٰ فَوَاتِ الجِهَاد :

قِيلَ : إنَّ يُونُسَ بنَ عُبَيدٍ نَظَرَ إلىٰ قَدَمَيهِ عند المَوتِ وبَكَىٰ فقِيلَ : ما يُبكِيكَ أبا عبد الله ؟ قال : قَدَمايَ لَمْ تُغبَّرْ في سَبيلِ الله[3] .

٣ـ مَنْ مَنَعَهُ الجِهَادُ من العِبادَةِ الكثيرة :

قال قَيْسُ بنُ أبي حَازِم : سَمعتُ خَالدَ بنَ الوَلِيدِ يقولُ : مَنَعَنِي الجِهادُ كثيراً من

---

(١) انظر السير : (أبو مسلم الخولانيّ) ٤/ ٧ـ ١٤ ، وانظر النزهة : ٣/٤٣٢ .
(٢) انظر السير : (ابن نُجَيد) ١٦/ ١٤٦ـ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٢/١٢٧٥ .
(٣) انظر السير : (يُونس بن عُبيد) ٦/ ٢٨٨ـ٢٩٦ ، وانظر النزهة : ٢/٦٥٢ .

القِراءَةِ ورَأَيتُه أُتِي بسُمٍّ ، فقال : ما هـٰذا ؟ قالوا : سُمٌّ ، قال : بِسْمِ الله وشَرِبَه .

قال الذهبيُّ : هـٰذه والله الكَرامَةُ ، وهـٰذه الشَّجاعَةُ[1] .

٤ـ مَنْ فَضَّلَ اتِّبَاعَ السُّنَّة والذَّبَّ عنها على الجِهَاد :

وقال عليُّ بنُ عبدِ العَزيز ، سَمعتُ أبا عُبَيدٍ ـ القاسِمَ بنَ سَلام ـ يقولُ : المُتَّبِعُ للسُّنَّةِ كالقابِضِ على الجَمْرِ هو اليومَ عِندِي أَفْضَلُ من ضَرْبِ السَّيفِ في سَبيلِ الله[2] .

قال نَصْرُ بنُ زكَرِيّا : سَمعتُ مُحمَّدَ بنَ يَحْيَى الذُّهليّ : سَمعتُ يَحْيَىٰ بنَ مَعِين يقولُ : الذَّبُّ عن السُّنَّةِ أَفْضَلُ من الجِهادِ في سبيلِ الله فقُلْتُ ليَحْيَىٰ بنِ يَحْيَىٰ : الرَّجُلُ يُنفِقُ مالَه ويُتْعِبُ نَفْسَه ، ويُجاهِدُ ، فهـٰذا أَفْضَلُ منه ؟!! قال : نَعَم ، بكثير[3] .

٥ـ الحَثُّ على الجِهَاد :

قال ابنُ المُبارَكِ في « الجهاد » له : عن هِشَامِ بنِ سَعدٍ عن زَيْدِ ابنِ أَسْلَم عن أبيهِ قال : بَلَغَ عُمَرَ أنَّ أبا عُبَيْدَةَ حُصِرَ بالشَّام ، ونَالَ منْه العَدُوُّ فكَتَبَ إليْه عُمَرُ : أمَّا بَعْدُ فإنَّه ما نَزَلَ بعَبْدٍ مُؤمنٍ شِدَّةٌ إلاَّ جَعَلَ الله بعدَها فَرَجاً ، وإنَّه لا يَغْلبُ عُسْرٌ يُسْرَيْن ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[4] .

قال : فَكَتَبَ إليْه أبو عُبَيْدَة : أمَّا بعْدُ فإنَّ اللهَ يقولُ : ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ إلىٰ قَولِهِ تَعالىٰ : ﴿ مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾[5] . قال : فخَرَجَ عُمَرُ بكِتابِه ، فقَرَأَهُ على المِنْبَرِ فقال : يا أَهْلَ المَدِينَةِ إنَّمَا يُعَرِّضُ بكم أبو عُبَيْدَة أَوْ بِي ، ارْغَبُوا في الجِهَاد[6] .

---

(١) انظر السير : (خالد بن الوليد) ١/ ٣٦٦ـ ٣٨٤ ، وانظر النزهة : ٦/١٧٩ .

(٢) انظر السير : (أبو عُبيد) ١٠/ ٤٩٠ـ ٥٠٩ ، وانظر النزهة : ٣/٨٨٧ .

(٣) انظر السير : (يَحيى بن يَحيى النيسابوري) ١٠/ ٥١٢ـ ٥١٩ ، وانظر النزهة : ١/٨٩٠ .

(٤) سورة آل عمران ، الآية : ٢٠٠ .

(٥) سورة الحديد ، الآية : ٢٠ .

(٦) انظر السير : (أبو عُبيدة بن الجرَّاح) ١/ ٥ـ ٢٣ ، وانظر النزهة : ٨/١٢٢ .

٦ـ رُؤىٰ فيها الحَثُّ على الجِهَاد :

قال مُحمَّدُ بنُ الفُضَيْلِ بنِ عِيَاض : رَأيتُ ابنَ المُبَارَكِ في النَّوم ، فقُلتُ : أيُّ العَمَلِ أَفْضَل ؟ قال : الأَمْرُ الذِي كُنْتُ فيه قُلتُ : الرِّبَاطُ والجِهَادُ ؟ قال : نَعَم قُلتُ : فمَا صَنَعَ بك رَبُّك ؟ قال : غَفَرَ لِي مَغْفِرَةً ما بَعْدَها مَغْفِرَة رَوَاها رَجُلانِ عن مُحمَّد[١] .

عن عليِّ بنِ مَعْبَدٍ قال : رَأيتُ ابنَ القَاسِم في النَّومِ فقُلتُ : كيفَ وجَدتَ المَسَائلَ ؟ فقال : أُفٍّ أُفٍّ قلتُ : فما أحْسَنَ ما وجَدْتَ ؟ قال : الرِّبَاطُ بالثَّغْرِ قال : ورَأيتُ ابنَ وَهْبٍ أَحْسَنَ حالاً منْه[٢] .

٧ـ النَّصْرُ مُرتَبِطٌ بتَوْفِيقِ الله لا بالأَشْخاصِ والقِيادَات :

قال ابنُ عَوْن : وَلِيَ عُمَرُ ، فقال : لأَنْزِعَنَّ خالداً ـ يَعنِي ابنَ الوَلِيد ـ حتّىٰ يُعْلَمَ أنَّ اللهَ إنَّما يَنْصُرُ دِينَه ـ يَعنِي بغَيْرِ خالد ـ[٣] .

قال القُطْبُ النيسابُورِيُّ لِنُورِ الدِّين زِنْكِي : بالله لا تُخاطِر بنَفسِك ، فإنْ أُصِبْتَ في مَعركَةٍ لا يَبْقَىٰ للمُسلمينَ أَحَدٌ إلاَّ أَخَذَهُ السَّيفُ ، فقال : ومَنْ مَحْمُودٌ حتّىٰ يُقالُ هـٰذا ؟ حَفِظَ الله البِلادَ قَبْلِي ، لا إلـٰهَ إلاَّ هُو[٤] .

٨ـ الفُروسِيَّة :

يُروَىٰ عن عبد الله بنِ كَعْب بن مالك قال : كان عُمَر بنُ الخطَّاب يأخذ بيدِه اليُمنَىٰ أُذُنَ فَرَسِه اليُسرَىٰ ويثِبُ عليه ، فكأنَّما خُلِقَ علىٰ ظَهْره[٥] .

وعن مالكِ بنِ عبد الله قال : ما رأيتُ أشْرفَ من رجلٍ رأيتُهُ يومَ اليَرْموك إنَّه خَرجَ إليه عِلْجٌ فقتَلَه ، ثم آخَرُ فقتَلَه ، ثم انْهَزَموا وتَبِعَهم وتبعتُه ، ثم انصرَفَ

---

(١) انظر السير : (عبد الله بن المبارك) ٣٧٨ـ ٤٢١ ، وانظر النزهة : ٧٧١/ ٤ .
(٢) انظر السير : (عبد الرحمـٰن بن القاسم) ٩/ ١٢٠ـ ١٢٥ ، وانظر النزهة : ٨٠٥/ ٧ .
(٣) انظر السير : (خالد بن الوليد) ١/ ٣٦٦ـ ٣٨٤ ، وانظر النزهة : ١٧٩/ ٧ .
(٤) انظر السير : (نور الدين زنكي) ٢٠/ ٥٣١ـ ٥٣٩ ، وانظر النزهة : ١٥٨١/ ٤ .
(٥) انظر السير : (عُمر بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ٤٤/ ١ .

إلىٰ خِباءٍ عظيم له فنزل ، فدعا بالجِفانِ ودعا مَنْ حَولَه ، قلتُ : مَنْ هـٰذا ؟ قالوا : عَمرو بن مَعْدي كَرِب[1] .

٩ـ من أَسْبابِ النَّصر :

(أ) التَّمَسُّكُ بالإسلام :

قال خَليفَةُ : افْتَتَحَ عَمرُو بنُ العَاصِ طَرابُلُسَ الغَرْب سَنَةَ أَرْبَعٍ وعِشْرِين .

قال عَمرُو بنُ العَاص : خَرَجَ جَيشٌ من المُسْلمين أنا أَميرُهم حتّىٰ نَزَلْنَا الإسْكَندَريّة فقالَ عَظِيمٌ مِنْهُم : أَخْرِجُوا إليَّ رَجُلاً أُكَلِّمُه ويُكَلِّمُنِي فقُلتُ : لا يَخْرُجُ إليْه غَيْرِي فخَرَجْتُ معِي تُرجُمانِي ومَعَه تُرْجُمان ، حتّىٰ وُضِعَ لنا مِنْبَرَان ، فقال : ما أَنْتُم ؟ قُلتُ نحنُ العَرَبُ ، ومِنْ أَهْلِ الشَّوْكِ والقرظ ، ونَحنُ أهلُ بَيْتِ اللهِ ، كُنَّا أَضْيَقَ النَّاس أَرْضاً وشَرَّهُم عَيْشاً نَأْكُلُ المَيْتَةَ والدَّمَ ويُغِيرُ بَعضُنا علىٰ بعضٍ ، كُنَّا بشَرِّ عَيْشٍ عَاشَ به النَّاسُ حتّىٰ خَرَجَ فينا رَجلٌ لَيْسَ بأَعْظَمِنا يومَئِذٍ شَرَفاً ولا أَكْثَرَنا مالاً ، قال : أنا رسولُ الله إليكُم يأمرُنا بما لا نَعرفُ ، ويَنْهَانا عمَّا كنَّا عليه ، فشَنِفْنا له ، وكَذَّبْناه ورَدَدْنا عليه ، حتّىٰ خَرَجَ إليه قَومٌ من غَيْرِنا ، فقالُوا : نحنُ نُصَدِّقُك ونُقَاتِلُ مَنْ قاتَلَك ، فخَرَجَ إليهِم وخَرَجْنَا إليْه وقاتَلْنَاه ، فظَهَرَ عليْنَا وقاتَلَ مَنْ يَلِيهِ من العَرَب ، فظَهَرَ عليهم ، فلَوْ تَعْلَمُ ما وَرَائِي من العَرَبِ ما أنتُم فيه من العَيْشِ لَمْ يَبْقَ أَحَدٌ إلاَّ جاءَكم ، فَضَحِكَ ، ثم قال : إنَّ رسُولَكم قد صَدَقَ ، وقد جَاءَتْنا رُسُلٌ بمِثْلِ ذلك ، وكُنَّا عليه حتّىٰ ظَهَرَتْ فِيْنا مُلُوكٌ ، فعَمِلوا فِينا بأَهْوائِهم ، وتَرَكُوا أَمْرَ الأنْبِيَاءِ ، فإنْ أنتُم أَخَذْتُم بأَمْرِ نَبِيِّكُم ، لَمْ يُقاتِلْكُم أَحَدٌ إلاَّ غَلَبْتُموهُ ، وإذا فَعَلْتُم مِثْلَ الذي فَعَلْنا فتَرَكْتُم أَمْرَ نَبِيِّكُم لَمْ تَكُونوا أَكْثَرَ عَدَداً مِنَّا ولا أَشَدَّ مِنَّا قُوَةً[2] .

(ب) الصَّبْرُ :

قال سُلَيْمانُ بنُ عبدِ المَلِك لمُوسَىٰ بنِ نُصَيْر يوماً : ما كُنتَ تَفْزَعُ إليه عِندَ الحَرْبِ ؟

---

(١) تاريخ دمشق ٤٦/ ٣٧٨، والإصابة ٤/ ٦٨٨.

(٢) انظر السير : (عَمرو بن العاص) ٣/ ٥٤ـ ٧٧ ، وانظر النزهة : ١/٣٣٦ .

قال : الدُّعَاءُ والصَّبْرُ ، قال : فأيُّ الخَيْلِ رأيتَ أَصْبَرُ ؟ قال : الشُّقْرُ قال : فأيُّ الأُمَمِ أَشَدُّ قِتَالاً ؟ قال : هم أَكْثَرُ مِنْ أَنْ أَصِف ، قال : فأَخْبِرني عن الرُّوم ، قال : أُسُدٌ في حُصُونِهِم عِقْبَانٌ علىٰ خُيُولِهِم ، نِسَاءٌ في مَرَاكِبِهم ، إنْ رَأَوا فُرصَةً انتُهَزُوها ، وإنْ رَأَوا غَلَبَةً فأَوْعالٌ تَذهَبُ في الجِبال ، لا يَرَوْنَ الهَزِيمَةَ عاراً قال : فالبَرْبَرُ ؟ قال : هم أَشْبَهُ العُجْمِ بالعَرَبِ لِقاءً ونَجْدَةً وصَبْراً وفُرُوسِيَّةً ، غَيرَ أنَّهم أَغْدَرُ النَّاس قال : فأَهْلُ الأندَلُسِ ؟ قال : مُلُوكٌ مُتْرَفُون ، وفُرْسانٌ لا يَجْبُنُون قال : فالفِرِنْجُ ؟ قال : هناك العَدَدُ والجَلَدُ والشِّدةُ والبَأْسُ ، قال : فكَيْفَ كانت الحَرْبُ بَيْنَكَ وبَيْنَهم ؟ قال : أَمَّا هٰذا فَوَاللهِ ما هُزِمَتْ لي رَايَةٌ قَطُّ ، ولا بُدِّدَ لي جَمْعٌ ، ولا نُكِبَ المُسلِمونَ معي مُنذُ اقْتَحمتُ الأربَعِين إلىٰ أنْ بَلَغتُ الثَّمانِين ، ولقد بَعَثتُ إلى الوَلِيدِ بِتَورِ زَبَرْجَدٍ كان يُجْعَلُ فيه اللَّبَنُ حتىٰ تُرَىٰ فيه الشَّعرَةُ البَيْضاءُ ثم أَخَذَ يُعَدِّدُ ما أَصابَ من الجَوْهَرِ والزَبَرْجَدِ حتّىٰ تَحَيَّرَ سُلَيْمانُ[1] .

(ج) الدُّعَاءُ والتَّذَلُّلُ :

لمَّا هَمَّ المُسلِمون بالهَزِيمَةِ كَشَفَ مُوسَىٰ بنُ نُصَيْر سُرادِقَه عن بَنَاتِه وحَرَمِه ، وبَرَزَ ورَفَعَ يَدَيْه بالدُّعاءِ والتَّضرُّعِ والبُكاءِ ، فكُسِرَتْ بينَ يَدَيْه جفُونِ السُّيوفِ وصَدَقُوا اللِّقاءَ ونَزَلَ النَّصرُ ، وغَنِمُوا ما لا يُعَبَّرُ عَنه ، من ذلك مائِدَةُ سُلَيْمانُ عليه السلام من ذَهَبٍ وجَوَاهِر ، وقِيلَ : ظَفَرَ بستَّةَ عَشَرَ قُمْقُماً عليها خَتمُ سُلَيْمان عليه السلام ففَتَحَ أربَعَةً ونَقَبَ منْها واحِداً فإذا شَيْطانٌ يقولُ : يا نَبِيَّ الله لا أَعُودُ أُفْسِدُ في الأَرضِ ثمَّ نَظَرَ فقال : والله ما أَرَىٰ سُلَيْمانَ ولا مُلْكَه ، وذَهَبَ ، فطُمِرَت البَوَاقِي[2] .

(د) وُجُودُ الصَّالِحِين :

قال الأَصْمَعِيُّ : لمَّا صَافَّ قُتَيْبَةُ بنُ مُسلِمٍ للتُرْك ، وهالَهُ أَمْرُهم سَأَلَ عن مُحمَّدِ بنِ واسعٍ فقِيلَ : هو ذاكَ في المَيْمَنَة جامحٌ علىٰ قَوْسِه يُبَصْبِصُ بأُصْبعِه نَحوَ السَّماء قال :

---

(١) انظر السير : (موسى بن نُصير) ٤/٤٩٦ـ٥٠٠ ، وانظر النزهة : ١/٥٤١ .
(٢) انظر السير : (موسى بن نُصير) ٤/٤٩٦ـ٥٠٠ ، وانظر النزهة : ١/٥٤٠ .

تِلكَ الأُصْبعُ أَحَبُّ إليَّ من مِئَةِ ألفِ سَيْفٍ شهيرٍ وشابٌّ طرير[1] .

١٠ـ الفَرَحُ بانْتِصارِ المُسْلِمين :

قال ابنُ أبي حاتِمٍ : حَدَّثني أحمَدُ بنُ سِنانٍ قال : بَلَغَنِي أنَّ أحمدَ ابنَ حَنبَلٍ جَعَلَ المُعْتَصِمَ في حِلٍّ يومَ فَتَحَ عاصِمةَ بابك وظَفِرَ به ، أَوْ في فَتْحِ عَمُّورِيَةَ ، فقال : هو في حِلٍّ من ضَرْبِي[2] .

١١ـ من صِفاتِ قَائِدِ المجَاهِدِين :

عن أحمَدَ بنِ إسْحاقَ قال : يَنْبَغِي لقائِدِ الغُزَاةِ أنْ يكونَ فِيه عَشْرُ خِصالٍ : أنْ يكونَ في قَلبِ الأَسَدِ لا يَجْبُن ، وفي كِبْرِ النَمِرِ لا يَتَوَاضَع ، وفي شَجَاعَةِ الدُّبّ يَقْتُلُ بجَوَارِحِه كُلِّها ، وفي حَمْلَةِ الخِنْزِيرِ لا يُوَلِّي دُبُرَه ، وفي غارَةِ الذِّئْبِ إذا أَيِسَ من وَجْهٍ أَغَارَ من وَجْه ، وفي حَمْلِ السِّلاح كالنَّملَةِ تَحْمِلُ أكْثَرَ من وَزْنِها ، وفي الثَّبَاتِ كالصَّخْرِ ، وفي الصَّبرِ كالحِمارِ ، وفي الوَقَاحَةِ كالكَلْبِ لو دَخَلَ صَيْدُه النَّارَ لدَخَلَ خَلفَه ، وفي التِماسِ الفُرصَةِ كالدِّيك .

وكان إبراهيمُ بنُ شِمَاسٍ يقولُ : كُنتُ أُكاتِبُ أحمدَ بنَ إسْحاقَ السُّرْمَارِيّ ، فكَتَبَ إليَّ : إذا أرَدْتَ الخُرُوجَ إلىٰ بلادِ الغُزِّيَّة في شِراءِ الأَسْرَىٰ ، فاكْتُبْ إليَّ فكَتَبتُ إليه ، فقَدِمَ سَمَرْقَنْدَ ، فخَرَجْنَا ، فلمَّا عَلِمَ جَعْبَوَيْه ، استَقْبَلَنا في عِدَّةٍ من جُيُوشِه ، فأَقَمْنا عِندَه ، فعَرَضَ يوماً جَيْشَه ، فمرَّ رجلٌ فعَظَّمَه وخَلَعَ عليه ، فسَأَلَنِي عنه السُّرْماريّ ، فقُلتُ : هٰذا رجلٌ مُبارِزٌ ، يُعَدُّ بألفِ فارسٍ قال : أنا أُبارِزُه فسَكَتُّ فقال جَعْبَوَيْه : ما يقولُ هٰذا ؟ قُلتُ يقولُ : كَذَا وكَذَا قال : لَعَلَّه سَكْرانٌ لا يَشْعُر ، ولكن غَداً نَركَبُ فلمَّا كان الغَدُ رَكِبُوا ، فرَكِبَ السُّرْماريُّ معَه عَمُودٌ في كُمِّه فقامَ بإزاء المُبارِز فقَصَدَه ، فهَرَبَ أحمَدُ حتّىٰ باعَدَهُ من الجَيْشِ ، ثمَّ كَرَّ وضَرَبَه بالعَمُودِ فقتَلَه ، وتَبِعَ إبراهيمَ بنَ شِمَاسٍ ، لأنَّه كان قد سَبَقَه فلَحِقَه ، وعَلِمَ جَعْبَوَيْه ، فجَهَّزَ في طلبه خمسِينَ فارساً

---

(١) انظر السير : (محمّد بن واسع) ٦/ ١١٩ـ ١٢٣ ، وانظر النزهة : ٦/٦٣٨ .

(٢) انظر السير : (أحمد بن حنبل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ١/٩٤٠ .

نَقَاوةً ، فأدْرَكُوه ، فثَبَتَ تحتَ تَلٍّ مُخْتَفِياً حتّىٰ مَرُّوا كُلُّهم واحِداً بعدَ واحِد ، وجَعَلَ يَضْرِبُ بعَمُودِه من وراءِهم إلىٰ أنْ قَتَلَ تسْعَةً وأربعِينَ ، وأَمْسَكَ واحِداً ، قَطَعَ أنْفَه وأُذُنَيْه ، وأَطْلَقَه ليُخْبِر ، ثمَّ بعدَ عامَيْن تُوُفِّي أحمدُ ، وذَهَبَ ابنُ شِمَاسٍ في الفِداءِ ، فقال له جَعْبَوَيْه : مَنْ ذَاكَ الذي قَتَلَ فرسانَنا ؟ قال : ذاكَ أحمدُ السُّرْمارِيّ قال : فلِمَ لَمْ تَحْمِلْه مَعَكَ ؟ قُلتُ : تُوُفِّيَ ، فَصَكَّ في وَجْهِي ، وقال : لَوْ أَعْلَمْتَنِي أنَّه هو لكُنتُ أُعْطِيهِ خَمْسَ مئةِ بِرْذَوْن[1] وعَشْرَةَ آلافِ شاة .

وعن عِمْرانَ بنِ مُحمَّد المطَّوعيّ : سَمعتُ أبي يقولُ : كان عَمُودُ المطَّوِّعيِّ السُّرْمارِيّ وزْنُه ثمانِيَةَ عَشْرَةَ مَناً[2] ، فلمَّا شَاخَ جَعَلَه اثنَيْ عَشَرَ مَنّاً ، وكان به يُقاتِلُ[3] .

١٢ـ تَأديبُ العُلَماءِ أهلَ الثَّغر وتَعْليمُهم السُّنَّة :

قال أحمَدُ العِجْلي : كان أبو إسْحاقَ الفَزَارِيّ ثِقَةً وصاحِبَ سُنَّة ، صالحاً ، هو الذي أَدَّبَ أَهْلَ الثَّغْرِ وعَلَّمَهُم السُّنَّة ، وكان يَأمُرُ ويَنْهَىٰ وإذا دَخَلَ الثَّغْرَ رجُلٌ مُبْتَدِعٌ ، أَخْرَجَه ، وكان كَثيرَ الحديثِ ، وكان له فِقْهٌ .

أَمَرَ سُلطَاناً ونَهَاه ، فضَرَبَه مِئَتَيْ سَوْطٍ ، فغَضِبَ له الأَوْزَاعِيُّ ، وتَكَلَّمَ في أَمْرِه .

قال الذَّهبيُّ : من أَبْناءِ الثَّمانين هو ، أو جَاوَزَها بقَليل ، مات سنةَ ستٍّ وثمانين ومائة[4] .

١٣ـ الاسْتِعْدادُ للجِهاد :

قال ابنُ أبي حاتِم : كان أبو عبدِ الله البخاريّ يركَبُ إلى الرَّميِّ كثيراً ، فما أعلَمُنِي رأيتُه في طُولِ ما صَحِبتُه أخْطَأَ سَهْمُه الهَدَفَ إلاَّ مَرَّتَيْن ، فكان يُصِيبُ الهَدَفَ في كُلِّ ذلك ، وكان لا يُسْبَق[5] .

---

(١) البِرْذَوْن : ضرب من الدواب ، يخالف الخيل العراب ، عظيم الخِلقَة ، غليظ الأعضاء .
(٢) المَنّ : زِنَة رطلين .
(٣) انظر السير : (أحمد بن إسحاق السّرماري) ١٣/ ٣٧ـ ٤٠ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٤٩ .
(٤) انظر السير : (أبو إسحاق الفَزاري) ٨/ ٥٣٩ـ٥٤٣ ، وانظر النزهة : ١/٧٩٠ .
(٥) انظر السير : (أبو عبد الله البخاريّ) ١٢/ ٣٩١ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ٥/١٠١٦ .

وقال مَجدُ الدِّين بنُ الأثير في نقل سبطِ الجَوْزِيِّ عن نُورِ الدِّين زِنْكِي : لَمْ يَلْبَسْ نُورُ الدِّين حَرِيراً ولا ذَهَباً ، ومَنَعَ بَيعَ الخَمرِ في بلادِه ، قال : وكان كَثيرَ الصَّومِ ، وله أَوْرَادٌ كثيرةٌ في اللَّيلِ والنَّهارِ ، ويُكثِرُ اللَّعِبَ بالكُرَةِ ، فأنكَرَ عليه فقيرٌ فكَتَبَ إليه : واللهِ ما أَقْصِدُ اللَّعِبَ ، وإنَّما نَحنُ في ثَغْرٍ ، فربَّما وَقَعَ الصَّوتُ ، فتكونُ الخَيلُ قد أدمَنَت على الانْعِطافِ والكَرِّ والفَرِّ .

وأُهْدِيَتْ له عَمَامَة من مِصْرَ مُذَهَّبَة ، فأعطَاهَا لابنِ حَمُّويه شَيخِ الصُّوفِيَّة فبِيعَتْ بألفِ دينار[1] .

قال عبدُ الواحد : لمَّا تَجَهَّزَ السُّلطانُ يُوسُفُ بنُ عبد المُؤمن لغَزْوِ الرُّوم ، أَمَرَ العُلَماءَ أن يَجْمَعوا أحَادِيثَ في الجِهَاد تُملَىٰ على الجُند ، وكان هو يُملِي بنفسِه ، وكِبارُ المُوَحدِين يَكتُبُون في أَلْوَاحِهم وكان يُسَهِّلُ عليه بَذْلَ الأموَالِ سِعَةُ الخَرَاجِ ، كان يأتِيه من إفريقيةَ في العامِ مئةٌ وخمسونَ وَقْرَ بغْلٍ واسْتَنْفَرَ في سنةِ تِسْعٍ وسَبعينَ أهلَ السَّهْلِ والجَبَلِ والعَرَبِ ، فعَبَرَ إلى الأندُلُسِ ، وقَصَدَ شَنْتَرِيْنَ بِيَدِ[2] ابنِ الرِّيقِ ، لعَنَه الله ، فحَاصَرَها مُدَّةً ، وجَاءَ البَردُ فقال : غداً نتَرَحَّلُ ، فكان أولَ مَنْ قَوَّضَ مُخَيَّمَه عليُّ بنُ القاضِي الخَطِيب ، فلمَّا رَآه النَّاسُ ، قَوَّضُوا أخْبِيَتَهم ، فكَثُر ذلك ، وعَبَرَ لَيْلَئِذٍ العَسْكَرُ النَّهرَ ، وتَقَدَّموا خَوفَ الازْدِحام ، ولَمْ يَدْرِ بذلك أبو يَعقُوب ، وعَرَفَتِ الرُّوم ، فانْتَهَزُوا الفُرْصَةَ ، وبَرَزُوا ، فحَمَلُوا على النَّاسِ ، فكَشَفُوهم ، ووَصَلوا إلىٰ مُخَيَّمِ السُّلطانِ ، فقُتِلَ علىٰ بابه خَلقٌ من الأبطال ، وخُلِصَ إلى السُّلطانِ ، فطُعِنَ تحتَ سُرَّتِه طَعْنَةً مات بعدَ أيامٍ منْها ، وتَدَارَكَ النَّاسُ ، فهَزَموا الرُّومَ إلى البلدِ وهَرَبَ الخَطيبُ ، ودَخَلَ إلىٰ صاحِبِ شَنْتَرِينَ ، فأكْرَمَه ، واحْتَرَمَه ، ثم أخَذَ يُكاتِبُ المُسلمينَ ، ويَدُلُّ علىٰ عَوْرَةِ العَدُوِّ فأحْرَقُوه ، ولَمْ يَسِيرُوا بأبي يَعقُوبَ إلاَّ لَيْلَتَيْنِ وتُوفِّي ، وصَلَّىٰ عليْه وصُبِّر في تابوتٍ ، وبُعِثَ إلىٰ تِيْنَمَلَّ[3] ، فدُفِنَ مع أبيه وابنِ

(١) انظر السير : (نور الدين زنكي) ٢٠/ ٥٣١ـ٥٣٩ ، وانظر النزهة : ١/١٥٨٢ .
(٢) يعني التي بيده .
(٣) جبال بالمغرب بينها وبين مرّاكش ثلاثة فَراسخ .

تومرت ، مات سنةَ ثمانين وخَمس مئة ، وبايَعُوا ابنَه يَعقُوبَ[1] .

قال المُوَفَّقُ عبدُ اللَّطِيف : أَتَيْتُ ، وصَلاحُ الدِّين بالقُدسِ ، فَرَأيتُ مَلِكاً يَمْلأُ العُيُونَ رَوْعَةً والقُلُوبَ مَحبَّةً ، قَرِيباً بَعِيداً ، سَهْلاً مُحَبَّباً ، وأصحابُه يَتَشَبَّهون به ، يَتَسابَقُون إلى المَعْروفِ كما قالَ تَعالىٰ : ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾[2] ، وأَوَّلُ ليلةِ حَضَرْتُه وَجَدْتُ مَجْلِسَه حَفْلاً بأَهْلِ العِلْمِ يَتَذَاكَرُون ، وهو يُحْسِنُ الاسْتِمَاعَ والمُشَارَكَة ، ويَأخُذُ في كَيْفِيَّةِ بناء الأَسْوارِ وحَفْرِ الخَنَادِقْ ، ويأتِي بكُلِّ معنىً بدِيع ، وكان مُهْتَمّاً في بِنَاءِ سُورِ بَيْتِ المَقْدِس وحَفْرِ خَنْدَقِه ، ويَتَولَّىٰ ذلك بنفسه ، ويَنقُلُ الحِجَارةَ علىٰ عاتِقِه ويَتَأَسَّىٰ به الخَلْقُ حتّى القاضي الفاضلُ ، والعِمَادُ إلىٰ وقْتِ الظُّهر ، فيمُدُّ السماطَ ويَسْتريحُ ، ويركَبُ العَصْرَ ، ثُمَّ يَرجِعُ في ضَوْءِ المَشَاعِلْ ، قال له صانعٌ : هـٰذه الحِجَارةُ التي تُقطَعُ من أَسْفَلِ الخَنْدَق رخْوَةٌ ، قال : كذا تكونُ الحِجَارةُ التي تَلِي القَرَارَ والنَّدَاوَة ، فإذا ضَرَبَتْها الشَّمسُ ، صَلُبَتْ ، وكان يَحفظُ « الحَمَاسَة » ويظُنُّ أنَّ كلَّ فَقِيهٍ يَحْفَظُها ، فإذا أَنْشَدَ ، وتَوَقَّفَ ، اسْتَطعَمَ فلا يُطعَمُ ، وجَرَىٰ له ذلكَ مع القاضي الفاضِل ، ولَمْ يكنْ يَحفَظُها ، وخَرَجَ ، فمَا زَالَ حتّىٰ حَفِظَها .

وكانت وَقْعَتُه بمصْرَ مع السُّودانِ ، وكانوا نَحْوَ مِئَتَيْ ألفٍ ، فنُصِرَ عليهم ، وقَتَلَ أكثَرَهم .

حُمَّ صَلاحُ الدِّين ، فقَصَدَه من لا خِبْرَةَ له ، فَخَارَت القُوَّةُ ومات ، فوَجَدَ النَّاسُ عليه شَبِيهاً بما يَجِدُونَه على الأنْبِيَاءِ ، وما رَأَيتُ مَلِكاً حَزُنَ عليه النَّاسُ لمَوْتِهِ سِواه ، لأنَّه كان مُحَبَّباً ، يُحِبُّه البَرُّ والفاجِرُ ، والمُسْلِمُ والكافِرُ ، ثمَّ تَفَرَّقَ أولادُه وأصحابُه أيادي سَبَأٍ وتَمَزَّقوا[3] .

واستَجَدَّ أميرُ المُؤمنين المُسْتَنْصِرُ بالله العبَّاسِيّ عَسْكَراً كثيراً لمَّا عَلِمَ بظُهورِ التَّتار بحيْثُ إنَّه يُقال : بَلَغَ عِدَّةُ عَسْكَرِه مئةَ ألفٍ ، وفيه بُعدٌ ، فلَعَلَّ ذلك نما في طاعتِه من

---

(١) انظر السير : (ابن عبد المؤمن) ٢١/٩٨ـ١٠٣ ، وانظر النزهة : ١/١٦٠٣ .

(٢) سورة الحجر ، الآية : ٤٧ .

(٣) انظر السير : (صلاح الدين وبنوه) ٢١/٢٧٨ـ٢٩١ ، وانظر النزهة : ١/١٦٢١ .

مُلُوكِ مصْرَ والشَّامِ والجَزِيرة ، وكان يُخْطَبُ له بالأندَلُسِ ، والبلادِ البَعِيدةِ .

تُوُفِّيَ المُسْتَنصِرُ باللهِ سنةَ أربعين وسِتِّ مئة ، وكانت دولتُه سَبْعَ عشْرَةَ سنةً ، وعاشَ اثنتَيْنِ وخمسينَ سَنَةً[1] .

١٤ـ أمْرُ العُلمَاءِ الوُلاةَ بالاسْتِعدادِ للجِهَاد :

قال حَيْوَةُ بنُ شُرَيْحٍ مرةً لبعضِ نُوَّابِ مصرَ : يا هـٰذا لا تُخْلِيَنَّ بلادَنا من السِّلاح ، فنحنُ بين قِبطٍ لا نَدْرِي متىٰ يَنْقَضُّ ، وبين حَبَشِيٍّ لا نَدرِي متىٰ يَغْشَانا ، وبين رُومِيٍّ لا نَدرِي متىٰ يَحُلُّ بساحَتِنا ، وبَرْبَرِيٍّ لا نَدرِي متىٰ يَثُور[2] .

وكَتَبَ عبدُ الملِكِ بنُ حَبِيبٍ الفَقِيهُ إلىٰ عبدِ الرَّحمـٰنِ بنِ الحَكَمِ أميرِ الأندَلُسِ يُحَرِّضُه علىٰ بنَاءِ سُورِ إشْبِيلِيَةَ يقولُ له : حَقْنُ دِماءِ المُسلمين ـ أيَّدَكَ الله وأعْلَىٰ يَدَكَ بابْتِناءِ السُّورِ ـ أحَقُّ وأوْلَىٰ فأخَذَ برَأْيِه[3] .

١٥ـ العُلماءُ المُجَاهِدون :

عن مُفضل بنِ لاحِق قال : كُنَّا بأرضِ الرُّوم ، فخَرَجَ رومِيٌّ يَدعُو إلى المُبَارَزَة ، فخَرَجَ إليه رجلٌ فقتَلَه ، ثمَّ دَخَلَ في النَّاسِ ، فجَعَلتُ ألودُ به لأعْرِفَه ، وعليه المِغْفَرُ قال : فوَضَعَ المِغْفَرَ يمْسَحُ وجْهَه ، فإذا هو عبدُ الله بنُ عَوْن[4] .

وقال رِيَاح القَيْسِيّ : باتَ عُتْبَةُ الغُلامُ عِندِي فسَمِعْتُه يقولُ في سُجُودِه : اللَّهُمَّ احْشُر عُتْبَةَ من حَوَاصِلِ الطَّيرِ وبُطُونِ السِّبَاع[5] .

وقال مَخْلَدُ بنُ الحُسَين : جَاءَنَا عُتْبَةُ الغُلامُ غَازِياً وقال : رَأَيْتُ أنِّي آتِي المَصِّيصَةَ[6] في النَّومِ وأغْزُو فأُسْتَشْهَدُ قال : فأعْطَاهُ رجلٌ فَرَسَه وسِلاحَه وقال : إنِّي

---

(١) انظر السير : (المستنصر بالله العباسي) ٢٣/ ١٥٥ـ١٦٨ ، وانظر النزهة : ٢/١٧١٩ .
(٢) انظر السير : (حَيوة بن شريح) ٦/ ٤٠٤ـ٤٠٦ ، وانظر النزهة : ٢/٦٦٥ .
(٣) انظر السير : (عبد الرحمـٰن بن الحكم) ٨/ ٢٦٠ـ٢٦١ ، وانظر النزهة : ٢/٧٥٣ .
(٤) انظر السير : (عبد الله بن عون) ٦/ ٣٦٤ـ٣٧٥ ، وانظر النزهة : ٣/٦٥٧ .
(٥) انظر السير : (عُتبة الغلام) ٧/ ٦٢ـ٦٣ ، وانظر النزهة : ٢/٦٧٦ .
(٦) المَصِّيصَة (بفتح الميم ، وكسر الصاد الثقيلة ، بعدها ياء ساكنة ثم صاد مفتوحة) : مدينة علىٰ شاطىء=

عَلِيلٌ فاغْزُ عَنِّي فلَقُوا الرُّومَ فكان أَوَّلَ من اسْتُشْهِد[1] .

وقال أبو حاتم الرَّازِي : حَدَّثَنا عَبدةُ بنُ سُلَيْمانَ المَرْوزيّ قال : كُنَّا سَرِيَّةً مع ابنِ المُبَارَك في بلاد الرُّوم ، فصَادَفنا العدُوّ ، فلمَّا التَقَى الصفَّان ، خَرَجَ رجلٌ من العَدُوِّ فدَعا إلى المُبارزَةِ ، فخَرَجَ إليه رجلٌ فقتَلَه ، ثم آخرُ فقتَلَه ، ثم دَعَا إلى المُبارزَة ، فخَرَجَ إليه رجلٌ فطَارَدَه ساعَةً فطعَنَه فقتَلَه ، فازْدَحَمَ إليه النَّاسُ ، فنَظَرْتُ فإذا هو عبدُ الله ابنُ المُبارَك ، وإذا هو يَكْتُمُ وجْهَهُ بكُمِّه ، فأَخَذْتُ بطَرْفِ كُمِّه فمَدَدْتُه فإذا هُوَ هُوَ فقال : وأنتَ يا أبا عَمْرٍو مِمَّن يُشَنِّعُ عَلَينا[2] .

وقال المَروذيُّ عن أحمَدَ : إنَّ عِيسَىٰ بنَ يُونُسَ ثَبتٌ ، وكُنَّا نُخَبَّرُ أنَّه سَنَةً في الغَزْوِ ، وسَنَةً في الحَجِّ ، وقَدِمَ بَغْدادَ في شيءٍ من أَمرِ الحُصُون ، فأُمِرَ له بمَالٍ ، فأبَىٰ أنْ يَقْبَلَه وقِيلَ : إنَّه زَارَ ابنَ عُيَيْنَةَ ، فقال : مرحباً بالفَقِيهِ ابنِ الفَقِيه ابنِ الفَقِيه[3] .

وقال أحمَدُ ابنُ جَناب : غَزَا ابنُ يُونُس خَمساً وأربَعِين غَزْوَةً ، وحَجَّ كذلك[4] .

وجاء في تَرجَمَةِ يُوسُفَ بنِ أَسْباط ، قال الإمامُ الذهبيُّ : نَزَلَ الثُّغُورَ مُرابِطاً[5] .

وقد جاءَ عنِ شيخ خُراسان الإمامِ شَقِيقِ البَلْخِيّ مع تَأَلُّهِه وزُهْدِه أنَّه كان من رُؤوسِ الغُزَاة[6] .

وقُتِلَ شَقِيقٌ في غَزاةِ كُولان سَنَةَ أَرْبعٍ وتسْعِينَ ومِئَة[7] .

وجاءَ في ترْجَمَةِ أَسَدِ بنِ الفُرَاتِ : قال الإمامُ الذهبيُّ : الإمامُ العَلاَّمَةُ القاضِي الأَمِيرُ ، مُقدمُ المُجاهِدين ، أبو عبد الله الحَرَّانيّ ثُمَّ المَغرِبيّ .

= جيحان من ثغور الشام بين أنطاكية وبلاد الروم تقارب طرسوس .

(١) انظر السير : (عُتبة الغلام) ٧/ ٦٢ـ ٦٣ ، وانظر النزهة : ٣/٦٧٦ .

(٢) انظر السير : (عبد الله بن المبارك) ١٠/ ٢٢٥ـ ٢٢٨ ، وانظر النزهة : ٥/٧٦٧ .

(٣) انظر السير : (عيسى بن يونس) ٨/ ٤٨٩ـ ٤٩٤ ، وانظر النزهة : ٢/٧٨٥ .

(٤) انظر السير : (عيسى بن يونس) ٨/ ٤٨٩ـ ٤٩٤ ، وانظر النزهة : ٤/٧٨٥ .

(٥) انظر السير : (يوسف بن أسباط) ٩/ ١٦٩ـ ١٧١ ، وانظر النزهة : ٢/٨١٤ .

(٦) انظر السير : (شَقيق البلخيّ) ٩/ ٣١٣ـ ٣١٦ ، وانظر النزهة : ٦/٨٢٣ .

(٧) انظر السير : (شَقيق البلخيّ) ٩/ ٣١٣ـ ٣١٦ ، وانظر النزهة : ٣/٨٢٤ .

مَوْلِدُه بحَرَّان سَنَةَ أربعٍ وأربَعينَ ومِئَة ، ودَخَلَ القَيْرَوَانَ مع أبِيهِ في الجِهَاد ، وكان أبُوهُ الفُراتُ بنُ سِنان من أعْيَانِ الجُنْدِ وغَلَبَ عليه عِلْمُ الرَّأْيِّ ، وكَتَبَ عِلْمَ أبي حَنِيفَة[1] .

ومَضَىٰ أسَدُ بنُ الفُراتِ أمِيراً من قِبَلِ زِيادةُ الله الأَغْلِبيّ مُتَوَلِّي المَغرِب ، فافْتَتَحَ بَلَداً من جَزِيرَةِ صَقِلِّية ، وأدْرَكَه أجَلُه هناك في سَنَةِ ثلاث عَشْرَة ومِئَتَين[2] .

وكان أَسَدُ بنُ الفُراتِ مع تَوَسُّعِه في العِلمِ فارِساً بَطَلاً شُجَاعاً مِقْدَاماً ، زَحَفَ إليه صاحبُ صَقِلِّية في مئةِ ألفٍ وخمسين ألفاً قال رجلٌ : فلقدْ رَأيْتُ أَسَداً وبِيَدِه اللِّواءُ يقْرَأُ سورةَ ﴿يس﴾ ثم حَمَلَ بالجَيْشِ ، فهَزَمَ العدُوَّ ، ورَأيتُ الدَّمَ وقد سَالَ علىٰ قَنَاةِ اللِّواءِ وعلىٰ ذِراعِه[3] .

وجاءَ في تَرْجَمَةِ الإمامِ يَحْيَىٰ بن مُحمَّد بنِ يَحْيَى الذُّهْليّ : الحَافِظُ المُجَوِّدُ الشَّهِيدُ أبو زَكَرِيّا ، قال الحاكِمُ : هو إمامُ نِيسَابُورَ في الفَتْوَىٰ والرِّئاسَة ، وابنُ إمامِهَا أميرُ المُطَّوِّعَةِ بخُراسَان بِلا مُدَافَعَة ، يَعْنِي : الغُزَاةَ قال : وكان يَسْكُنُ دارَ أبيه ولكل منهُما صَوْمَعَةٌ وآثارٌ لعِبادَتِهِما ، والسِّكَّةُ والمَسْجدُ مَنسُوبانِ إلىٰ حَيْكان[4] .

قال الخَطِيبُ : كان زُهَيْرُ بنُ مُحمَّد بنُ قُمَير ثِقَةً صَادِقاً وَرِعاً زَاهِداً ، انتَقَلَ في آخِر عُمرِه من بَغْدادَ إلىٰ طَرْسُوسَ ، فرَابَطَ بها إلىٰ أنْ مات[5] .

وقال البَغَوِيُّ : ما رَأيْتُ بعدَ أحْمدَ بن حَنْبَل أفْضَلَ من زُهَيْرِ بنِ مُحمَّد ابنِ قُمَير ، سَمِعتُه يقول : أَشْتَهِي لَحماً من أربَعينَ سَنَة ، ولا آكُلُه حتىٰ أدْخُلَ الرُّومَ ، فآكُلُ من مَغَانِمِ الرُّومِ[6] .

---

(١) انظر السير : (أسد بن الفرات) ١٠/ ٢٢٥ـ٢٢٨ ، وانظر النزهة : ٨٧٠/ ١ .
(٢) انظر السير : (أسد بن الفرات) ١٠/ ٢٢٥ـ٢٢٨ ، وانظر النزهة : ٨٧١/ ١ .
(٣) انظر السير : (أسد بن الفرات) ١٠/ ٢٢٥ـ٢٢٨ ، وانظر النزهة : ٨٧١/ ٢ .
(٤) انظر السير : (يَحيى الذُّهليّ) ١٢/ ٢٨٥ـ ٢٩٤ ، وانظر النزهة : ١/١٠٠١ .
(٥) انظر السير : (زُهير بن محمد بن قمير) ١٢/ ٣٦٠ـ ٣٦٢ ، وانظر النزهة : ٣/١٠٠٧ .
(٦) انظر السير : (زُهير بن محمد بن قمير) ١٢/ ٣٦٠ـ ٣٦٢ ، وانظر النزهة : ٤/١٠٠٧ .

وقال أبو سَعيد بنُ يُونُس : كان المُزْنيُّ ثِقَةً ، وكان يَلْزَمُ الرِّباطَ[1] .

جاءَ في تَرْجَمَةِ أحمَدَ بنِ إسْحاقَ قال الإمامُ الذهَبيُّ : الإمامُ الزَّاهِدُ ، العَابِدُ المُجَاهِدُ ، فارِسُ الإسْلام أبو إسْحاقَ ، من أَهْلِ سُرْماري ، من قُرىٰ بُخَارَىٰ وكان أَحَدَ الثِّقاتِ ، وبشَجَاعَتِه يُضْرَبُ المَثَلُ[2] .

وقال إبراهيمُ بنُ عَفَّانَ البَزَّار : كُنتُ عندَ أبي عبدِ الله البُخَاريّ فجَرَىٰ ذِكرُ أبي إسْحَاقَ السُّرْمارِيّ ، فقال : ما نَعْلَمُ في الإسْلام مِثْلَه فخَرَجْتُ فإذا أُحَيْدُ رَئيسُ المُطَّوِّعَة ، فأخْبَرتُه ، فغَضِبَ ودَخَلَ على البُخَاريّ ، وسَأَلَه فقال : ما كذا قُلتُ ، بل : ما بَلَغَنَا أنَّه كان في الإسْلامِ ولا في الجَاهِلِيَّةِ مِثلُه .

وقال أبو صَفْوَانُ (ابنُ أحمد السُّرْماريّ) : دَخلتُ علىٰ أبي يوماً وهو يَأكُلُ وحْدَه ، فرَأَيْتُ في مائِدَتِه عُصْفُوراً يأكُلُ معَه ، فلمَّا رَآني طَارَ[3] .

وعن أحمَدَ بنِ إسْحاقَ قال : يَنْبَغِي لقائِدِ الغُزَاةِ أنْ يكونَ فِيه عَشْرُ خِصالٍ : أنْ يكونَ في قَلبِ الأَسَدِ لا يَجْبُن ، وفي كِبْرِ النَمرِ لا يَتَوَاضَع ، وفي شَجَاعَةِ الدُّبّ يَقْتُلُ بجَوَارِحِهِ كُلِّها ، وفي حَمْلَةِ الخِنْزِيرِ لا يُوَلِّي دُبُرَه ، وفي غارَةِ الذِّئْبِ إذا أَيِسَ من وَجْهٍ أَغَارَ من وَجْه ، وفي حَمْلِ السِّلاح كالنَّملَةِ تَحْمِلُ أكْثَرَ من وَزْنِها ، وفي الثَّبَاتِ كالصَّخْرِ ، وفي الصَّبرِ كالحِمارِ ، وفي الوَقَاحَةِ كالكَلْبِ لو دَخَلَ صَيْدُه النَّارَ لدَخَلَ خَلفَه ، وفي التِماسِ الفُرصَةِ كالدِّيك .

وكانَ إبراهيمُ بنُ شِمَاسٍ يقولُ : كُنتُ أُكاتِبُ أحمَدَ بنَ إسْحاقَ السُّرْمَاريّ ، فكَتَبَ إليَّ : إذا أَرَدْتَ الخُرُوجَ إلىٰ بلادِ الغُزَيّة في شِراءِ الأَسْرَىٰ ، فاكْتُبْ إليَّ فكَتَبتُ إليه ، فقَدِمَ سَمَرْقَنْدَ ، فخَرَجْنَا ، فلمَّا عَلِمَ جَعْبَوَيْه ، استَقْبَلَنا في عِدَّةٍ من جُيُوشِه ، فأَقَمْنا عِندَه ، فعَرَضَ يوماً جَيْشَه ، فمرَّ رجلٌ فعَظَّمَه وخَلَعَ عليه ، فسَأَلَني عنه السُّرْمارِيّ فقُلتُ : هـٰذا رجلٌ مُبارِزٌ ، يُعَدُّ بألفِ فارسٍ قال : أنا أُبارِزُه فسَكَتُّ فقال جَعْبَوَيْه :

---

(١) انظر السير : (المُزني) ١٢/ ٤٩٢ـ٤٩٧ ، وانظر النزهة : ١٠٢٤/ ٦ .
(٢) انظر السير : (أحمد بن إسحاق السّرماري) ١٣/ ٣٧ـ ٤٠ ، وانظر النزهة : ١٠٤٨/ ١ .
(٣) انظر السير : (أحمد بن إسحاق السّرماري) ١٣/ ٣٧ـ ٤٠ ، وانظر النزهة : ١٠٤٩/ ١ .

ما يقولُ هـٰذا ؟ قُلتُ يقولُ : كَذَا وكَذَا قال : لَعَلَّه سَكْرانٌ لا يَشْعُر ، ولكن غَدَاً نركَبُ فلمَّا كان الغَدُ رَكِبُوا ، فرَكِبَ السُّرْمارِيُّ معه عَمُودٌ في كُمِّه فقامَ بإزاء المُبارز فقصَدَه ، فهرَبَ أحمَدُ حتّىٰ باعَدَهُ من الجَيْشِ ، ثمَّ كَرَّ وضَرَبَه بالعَمُودِ فقتَلَه ، وتَبِعَ إبراهيمَ بنَ شِمَاسٍ ، لأنَّه كان قد سَبَقَه فلَحِقَه ، وعَلِمَ جَعْبَوَيْه ، فجَهَّزَ في طلبه خمسِينَ فارساً نَقَاوةً ، فأدْرَكُوه ، فثَبَتَ تحتَ تَلٍّ مُخْتَفِياً حتّىٰ مَرُّوا كُلُّهم واحِداً بعدَ واحِد ، وجَعَلَ يَضْرِبُ بعَمُودِه من وراءِهم إلىٰ أنْ قَتَلَ تسْعَةً وأربعِينَ ، وأَمْسَكَ واحِداً ، قَطَعَ أنْفَه وأُذُنَيْه ، وأَطْلَقَه ليُخْبِر ، ثمَّ بعدَ عامَيْن تُوُفِّي أحمدُ ، وذَهَبَ ابنُ شِمَاسٍ في الفِداءِ ، فقال له جَعْبَوَيْه : مَنْ ذاكَ الذي قَتَلَ فرسانَنا ؟ قال : ذاكَ أحمدُ السُّرْمارِيّ قال : فلِمَ لَمْ تَحْمِلْه مَعَكَ ؟ قُلتُ : تُوُفِّيَ ، فَصَكَّ في وَجْهِي ، وقال : لَوْ أَعْلَمْتَنِي أنَّه هو لكُنتُ أُعْطِيهِ خَمْسَ مئةِ بِرْذَوْن[1] وعَشْرَةَ آلافِ شاة .

وعن عِمْرانَ بنَ مُحمَّد المطَّوعيّ : سَمعتُ أبي يقولُ : كان عَمُودُ المطَّوِّعيِّ السُّرْمارِيّ وزْنُه ثمانِيَةَ عَشْرَةَ مَنّاً[2] ، فلمَّا شَاخَ جَعَلَه اثنَيْ عَشْرَ مَنّاً ، وكان به يُقاتِلُ .

وعن عُبيد الله بنِ واصل ، سَمعتُ أحمدَ السُّرْماريَّ يقولُ ، وأخرجَ سَيْفَه ، فقال : أعلَمُ يَقيناً أنِّي قَتلتُ به ألفَ تُركيّ ، وإنْ عِشْتُ قَتلتُ به ألفاً أخْرىٰ ، ولولا خَوْفي أن يكونَ بدعةً لأمَرتُ أن يُدفَن معي[3] .

وعن محمودِ ابنِ سَهْلٍ الكاتب ، قال : كانوا في بعض الحروب يحاصِرون مكاناً ، ورئيسُ العدوِّ قاعدٌ علىٰ صُفَّة[4] ، فرمى السُّرماريُّ سَهْماً ، فغرزَه في الصُّفَّة ، فأوْمأ الرئيسُ لينزَعه ، فرماه بسَهمٍ آخر خاطَ يدَه ، فتطاوَلَ الكافرُ لينزعَه من يده ، فرماه بسَهمٍ ثالثٍ في نَحرِه ، فانهزَمَ العَدوُّ ، وكان الفتح .

قال الذهبيُّ : أخبارُ هـٰذا الغازي تسُرُّ قلبَ المسلم .

---

(١) البِرْذَوْن : ضرب من الدواب ، يخالف الخيل العراب ، عظيم الخِلقَة ، غليظ الأعضاء .

(٢) المَنّ : زِنَة رطلين .

(٣) انظر السير : (أحمد بن إسحاق السّرماري) ١٣/ ٣٧ـ ٤٠ ، وانظر النزهة : ١٠٤٩/٢ .

(٤) الصُفَّة : الظُلة ، والبَهو الواسع العالي السقف .

تُوفِّي في سنة اثنتين وأربعين ومئتين ، رحمَه الله تعالىٰ ، فإنه كان مع فَرْط شجاعته من العلماء العاملين العُبَّاد[1] .

وجاء في تَرجَمَةِ أبي حَمْزَةَ البَغْدادِيّ قال الإمامُ الذهَبيُّ : كان بَصِيراً بالقِراءَاتِ ، وكان كَثيرَ الرِّباطِ والغَزْوِ[2] .

وذكر أبو عُبَيْدَة قال : كان بَقِيُّ بنُ مخلد يَخْتِمُ القُرآنَ كُلَّ لَيلَةٍ ، في ثلاث عَشْرَةَ رَكعَةً ، وكان يُصلِّي بالنَّهارِ مئَةَ رَكعةٍ ، ويَصُومُ الدَّهرَ ، وكان كَثيرَ الجِهَادِ ، فاضِلاً ، يُذْكَرُ عنه أنَّه رَابَطَ اثْنَتين وسَبْعِينَ غَزْوَةً[3] .

وقُتِلَ الفَنْدَلاوِيُّ وزَاهِدُ دِمَشْقَ عبدُ الرَّحْمَـٰن الحلحوليُّ سَنَةَ ثلاثٍ وأربَعِينَ وخمسِ مِئة بالنَّيْرَب[4] في حَربِ الفِرَنْج ومُنازَلَتِهم دِمَشْقَ ، فقُبِرَ الفَنْدَلاوِيُّ بظاهِرِ باب الصَّغِير ، وقُبِرَ الحلحوليُّ بالجَبَلِ رحمَهُما الله[5] .

وقال الضِّياءُ : سَمعتُ البَهَاءَ يَصِفُ الإمامَ بنَ قُدَامَةَ بالشَّجاعَةِ ، وقال : كان يَتَقَدَّمُ إلى العَدُوِّ وجُرِحَ في كَفِّه ، وكان يُرامِي العَدُوَّ[6] .

١٦ـ سُؤالُ الله الشَّهَادَة :

عن داوُدَ بنِ أبي هِنْدٍ قال : لمَّا أَخَذَ الحَجَّاجُ سَعيدَ بنَ جُبَيْر قال : ما أَرانِي إلاَّ مَقْتُولاً وسَأُخْبرُكم : إنِّي كُنتُ أنا وصاحِبانِ لي دَعَوْنا حين وَجَدْنا حَلاوَةَ الدُّعاء ، ثم سَأَلْنا اللهَ الشَّهَادَةَ ، فكِلا صاحِبَيَّ رُزِقَها ، وأنا أَنتَظِرُها ، قال : فكَأَنَّه رأىٰ أَنَّ الإجابَةَ عند حَلاوَةِ الدُّعاء .

---

(١) انظر السير : (أحمد بن إسحاق السّرماري) ١٣/ ٣٧ـ ٤٠ ، وانظر النزهة : ١/١٠٥٠ .
(٢) انظر السير : (أبو حمزة البغدادي) ١٣/ ١٦٥ـ ١٦٨ ، وانظر النزهة : ١/١٠٦٧ .
(٣) انظر السير : (بقيّ بن مخلد) ١٣/ ٢٨٥ـ ٢٩٦ ، وانظر النزهة : ١/١٠٨٧ .
(٤) النَّيْرب : محلة تلي الربوة من جهة دمشق وهي كلمة سريانية تعني الوادي ، وهنا يُراد بها سفح قاسيون مما يلي الربوة .
(٥) انظر السير : (الفَنْدلاوي) ٢٠/ ٢٠٩ـ ٢١٠ ، وانظر النزهة : ٣/١٥٤٢ .
(٦) انظر السير : (ابن قدامة) ٢٢/ ١٦٥ـ ١٧٣ ، وانظر النزهة : ١/١٦٨٢ .

قال الذَّهبيُّ : ولمَّا عَلِمَ من فَضْلِ الشَّهَادَةِ ثَبَتَ للقتلِ ولَمْ يَكْترِثْ ، ولا عَامَلَ عَدوَّه بالتُّقيَة المُباحَة له ، رحِمَه اللهُ تَعَالَىٰ[1] .

وقال رِيَاح القَيْسي : باتَ عُتْبَةُ الغُلامُ عندي ، فسَمعتُه يقُولُ في سُجُودِه : اللَّهُمَّ احْشُر عُتْبَةَ من حَوَاصِل الطَّيْر وبُطُونِ السِّباع[2] .

عن عليِّ بنِ أحمَدَ الحافِظ ، أخْبَرَنِي أبو الوَلِيدِ بنُ الفَرَضيّ قال : تَعَلَّقْتُ بأسْتارِ الكَعْبَة ، وسَألتُ اللهَ تَعَالَى الشَهَادَةَ ، ثُمَّ فَكَّرْتُ في هَوْلِ القَتْلِ فندِمْتُ ، وهَمَمْتُ أنْ أرْجِعَ ، فأسْتَقِيلَ الله ذلك ، فاسْتَحْيَيْتُ قال الحَافِظُ عليٌّ : فأخْبَرَنِي مَنْ رَآهُ بيْنَ القَتْلَىٰ ، ودَنَا منه ، فسَمِعَه يقولُ بصَوتٍ ضَعِيفٍ : « لا يُكلَمُ أحَدٌ في سَبيلِ اللهِ ، واللهُ أعْلَمُ بمَنْ يُكْلَمُ في سَبيلِه إلاَّ جَاءَ يَوْمَ القِيامَةِ وجُرْحُه يَثْعَبُ دَمَاً ، اللَّوْنُ لَوْنُ الدَّم ، والرِّيحُ رِيحُ المِسْكِ » كأنَّه يُعِيدُ علىٰ نَفسِه الحَديثَ ، ثُمَّ قَضَىٰ علىٰ إثْرِ ذلك رَحِمَه الله[3] .

وكان نُورُ الدِّين زِنْكِي بَطَلاً شُجَاعَاً وافِرَ الهَيْبَة ، حَسَنَ الرَّميِّ ، مَليحَ الشَّكْلِ ، ذا تَعَبُّد وخَوْف ووَرَع ، وكان يَتَعرَّضُ للشَّهَادَةِ ، سَمِعَه كاتِبُه أبو اليُسْرِ يَسْألُ الله أنْ يُحْشَرَ من بُطُونِ السِّباعِ وحَوَاصِلِ الطَّيْر .

وبنىٰ دَارَ العَدْلِ ، وأَنْصَفَ الرَّعِيَّة ، ووَقَفَ على الضُعفَاءِ والأيْتام والمُجاوِرين وأَمَرَ بتَكْميل سُورِ المدينة النَّبَويَّة ، واسْتَخْرَاجِ العَيْن بأُحد دَفَنَهَا السَّيْلُ ، وفَتَحَ دَرْبَ الحِجَاز ، وعَمَّر الخَوَانِق والرُّبُطَ والجُسُورَ والخاناتِ بدِمَشْقَ وغيرها وكذا فعل إذْ مَلَكَ حَرَّانَ وسنْجَارَ والرُّها والرَّقَّة ومَنْبِج وشَيْزَر وحِمْصَ وحَمَاة وصَرْخَد وبَعْلَبَكَّ وتَدْمُرَ ووَقَفَ كُتُباً كثيرةً مُثَمَّنَة ، وكَسَرَ الفِرنْجَ والأَرْمَنَ علىٰ حارِم وكانوا ثلاثين ألفاً فقَلَّ مَنْ نَجَا ، وعلىٰ بانياس[4] .

---

(١) انظر السير : (سعيد بن جبير) ٤/ ٣٢١ـ ٣٤٣ ، وانظر النزهة : ٦/٥٠٧ .
(٢) انظر السير : (عُتبة الغلام) ٧/ ٦٢ـ ٦٣ ، وانظر النزهة : ٢/٦٧٦ .
(٣) انظر السير : (ابن الفَرضيّ) ١٧/ ١٧٧ـ ١٨٠ ، وانظر النزهة : ٣/٣٣٣١ .
(٤) انظر السير : (نور الدين زنكي) ٢٠/ ٥٣١ـ ٥٣٩ ، وانظر النزهة : ١/١٥٨٠ .

وقال ابنُ وَاصِل : كان نورُ الدِّين زِنْكِي من أَقْوَى النَّاسِ قَلْبَاً وبَدَناً ، لَمْ يُرَ علىٰ ظَهرِ فَرَسٍ أحَدٌ أَشَدَّ منه ، كأنَّما خُلِقَ عليه لا يَتحرَّك ، وكان يقولُ : طَالَمَا تعرَّضتُ للشَّهادَةِ فلَمْ أُدْرِكْها .

قال الذَّهبيُّ : قد أَدْرَكَها علىٰ فِرَاشِه ، وعلىٰ أَلْسِنَةِ النَّاس : نُورُ الدِّينِ شَهِيدٌ[1] .

١٧ـ صُوَرٌ من الشَّهادَة :

جاءَ من رِوَايَةِ الوَاقِدِيّ أنَّ مُحمَّدَ بنَ ثابت بنِ قَيْس قال : لمَّا انْكَشَفَ المُسْلِمونَ يومَ اليَمَامَةِ ، قال سَالِمُ مَوْلَىٰ أبي حُذَيْفَة : ما هكَذا كُنَّا نَفْعَلُ مع رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ، فَحَفَرَ لنفْسِه حُفْرَةً ، فقَامَ فيها ومَعَه رَايَةُ المُهاجِرينَ يومَئِذٍ ، ثُمَّ قاتَلَ حتىٰ قُتِلَ رضي الله عنه[2] .

ورَمَىٰ أبُو دُجَانَةُ بنَفْسِه يومَ اليَمَامَةِ إلىٰ داخِلِ الحَديقَة ، فانْكَسَرَتْ رِجْلُه ، فقَاتَلَ وهو مَكْسُورُ الرِّجْلِ حتىٰ قُتِلَ رضي الله عنه[3] .

وعن عاصِم بنِ عُمَر قال : لمَّا كان من غَدْرِ عَضَل والقَارَة بخُبَيْبِ ابنِ عَدِيّ وأصْحابِه رضي الله عنهم ، قَدِمُوا به وبزَيْد بنِ الدِّثِنَّة ، فأمَّا خُبَيْب فابْتاعَه حُجَير بنُ أبي إهاب لعُقْبَة بنِ الحارث بنِ عامِر ، وكان أخا حُجَير لأُمِّه ليَقْتُلَه بأبيه .

فلمَّا خَرَجُوا به ليَقْتُلُوه ، وقد نَصَبُوا خَشَبَتَه ليَصْلبوه ، فانتهىٰ إلى التنْعِيم ، فقال : إنْ رَأَيْتُم أنْ تدَعُوني أرْكَعُ رَكْعتَيْن فقالوا : دُونَك ، فصَلَّىٰ ثم قال : والله لَوْلا أنْ تَظُنُّوا أنَّما طَوَّلْتُ جَزَعاً من القَتْلِ ، لاسْتَكْثَرْتُ من الصَّلاةِ ، فكان أَوَّلَ مَنْ سَنَّ الصَّلاةَ عند القَتْلِ ، ثمَّ رَفَعُوه علىٰ خَشَبَتِه ، فقال : اللَّهُمَّ أَحْصِهِم عَدَداً واقْتُلْهم بَدَداً ، ولا تُغادِرْ منهم أَحَداً ، اللَّهُمَّ إنَّا قد بلَّغْنا رِسَالَةَ رسُولَك ، فبَلِّغْهُ الغَدَاةَ ما أَتَىٰ إلينا .

قال : وقال مُعَاوية : كُنْتُ فيمَن حَضَرَه ، فلَقَد رأيتُ أبا سُفْيانَ يُلْقِيني إلى

---

(١) انظر السير : (نور الدين زنكي) ٢٠/ ٥٣١ـ٥٣٩ ، وانظر النزهة : ٤/١٥٨٢ .

(٢) انظر السير : (سالم مولىٰ أبي حُذيفة) ١/ ١٦٧ـ ١٧٠ ، وانظر النزهة : ٣/١٤٣ .

(٣) انظر السير : (أبو دجانة الأنصاريّ) ١/ ٢٤٦ـ٢٤٩ ، وانظر النزهة : ١/١٥٥ .

الأرضِ ، فَرَقاً من دَعْوَةِ خُبَيْب وكانوا يقولون : إنَّ الرَّجُلَ إذا دُعِيَ عليه فاضْطَجَع ، زَلَّتْ عنه الدَّعوَة[1] .

وقال عِكْرِمَةُ : فلمَّا كان يومَ أُحُدٍ قال رسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : « قُومُوا إلىٰ جَنَّةٍ عَرْضُها السَّمَاوَاتُ والأَرْضُ أُعِدَّتْ للمُتَّقِين » فقَامَ عَمرُو ابنُ الجَمُوح وهو أَعْرَجُ فقالَ : واللهِ لأقْحزَنَّ[2] عليها في الجَنَّة ، فقَاتَلَ حتىٰ قُتِل رضي الله عنه[3] .

ولمَّا نَدَبَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم المُسْلِمينَ يومَ بَدْرٍ ، فأَسْرَعُوا قال خَيْثَمَةُ لابنِه سَعْد : آثِرْنِي علىٰ نَفْسِك بالخُرُوجِ ، وأَقِمْ معَ نِسَائِك فأَبَىٰ وقالَ : لَوْ كان غَيْرُ الجَنَّة ، آثَرْتُكَ به ، فاقْتَرَعا ، فخَرَجَ سَهْمُ سَعْدٍ ، فخَرَجَ واسْتُشْهِدَ ببَدْرٍ ، واسْتُشْهِدَ أَبُوهُ خَيْثَمَةُ يومَ أُحُدٍ[4] .

وشَهِد زَيْدُ بنُ الخَطَّاب بَدْراً والمَشَاهِدَ ، وكان قد آخَى النبيُّ صلى الله عليه وسلم بينه وبينَ مَعْنِ بنِ عَدِيّ العَجْلانيّ ، ولقد قال له عُمَرُ يومَ بَدْرٍ : الْبَسْ دِرْعِي قال : إنِّي أريدُ من الشَّهَادَةِ ما تُرِيدُ قال : فترَكَاها جَميعاً ، وكانت رايَةُ المُسْلِمين معَه يومَ اليَمَامَة ، فلَمْ يَزَلْ يَقْدُم بها في نَحْرِ العَدُوِّ ، ثُمَّ قاتَلَ حتىٰ قُتِلَ ، فوَقَعَتْ الرَّايَةُ ، فأخَذَها سَالِمُ مَوْلَىٰ أبي حُذَيْفَة وحَزِنَ علَيْه عُمَرُ ، وكان يقولُ : أَسْلَمَ زَيْدٌ قَبْلِي ، واسْتُشْهِدَ قَبْلِي ، وكان يقولُ : ما هَبَّت الصَّبا إلاَّ وأنا أَجِدُ رِيحَ زَيْد[5] .

وعن أَنَسٍ أَنَّ ثابتَ بنَ قَيْسٍ جاءَ يومَ اليَمَامَةِ ، وقد تَحَنَّطَ ، ولَبِسَ ثَوْبَيْنِ أَبْيَضَيْنِ فَكُفِّنَ فيهما ، وقد انْهَزَمَ القَوْم ، فقال : اللَّهُمَّ إنِّي أَبْرَأُ إلَيْكَ ممَّا جَاءَ به هٰؤلاء ، وأَعْتَذِرُ من صَنِيعِ هٰؤلاء ، بِئْسَ ما عَوَّدْتُم أَقْرَانَكُم! خَلُّوا بَيْنَنَا وبَيْنَهم ساعَةً ، فَحَمَلَ ، فقَاتَلَ حتىٰ قُتِلَ رضي الله عنه[6] .

---

(١) انظر السير : (خُبَيب بن عَدِيّ) ١/ ٢٤٦ـ٢٤٩ ، وانظر النزهة : ٤/ ١٥٥ .
(٢) أي لأثِبَنَّ .
(٣) انظر السير : (عمرو بن الجموح) ١/ ٢٥٢ـ٢٥٥ ، وانظر النزهة : ١/ ١٥٨ .
(٤) انظر السير : (سعد بن خيثمة) ١/ ٢٦٦ ، وانظر النزهة : ٤/ ١٥٩ .
(٥) انظر السير : (زيد بن الخطاب) ١/ ٢٩٧ـ٢٩٩ ، وانظر النزهة : ٤/ ١٦٦ .
(٦) انظر السير : (ثابت بن قيس) ١/ ٣٠٨ـ٣١٤ ، وانظر النزهة : ٣/ ١٦٧ .

وعن مُحمَّدِ بنِ عبد الرَّحْمَـٰنِ بنِ أبي صَعْصَعَةَ ، أنَّ رسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قال : « مَنْ رَجُلٌ يَنْظُرُ لي ما فَعلَ سَعْدُ بنُ الرَّبيع ؟ » ، فقالَ رَجُلٌ من الأَنْصَارِ : أنا ، فخَرَجَ يَطُوفُ في القَتْلَىٰ ، حتىٰ وَجَدَ سَعْداً جَريحاً مُثْبَتاً بآخِرِ رَمَقْ فقال : يا سَعْدُ إنَّ رسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم أَمَرَني أنْ أنْظُرَ في الأَحْيَاءِ أنْتَ أمْ في الأمْوَاتِ ؟ قال : فإنِّي في الأمْوَاتِ ، فأَبْلِغْ رسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم السَّلامَ ، وقُلْ : إنَّ سَعْداً يقُولُ : جزَاكَ اللهُ عَنِّي خَيْرَ ما جزَا نَبيّاً عن أُمَّتِهِ ، وأَبْلِغْ قَوْمَكَ مِنِّي السَّلامَ ، وقُلْ لَهُم : إنَّ سَعْداً يَقُولُ لكُم : إنَّه لا عُذْرَ لكُم إنْ خُلِصَ إلىٰ نَبيِّكم ومِنْكُم عَيْنٌ تَطْرِف[1] .

وقالَ الشَّافِعيُّ : كان عِكْرِمَةُ بنُ أبي جَهْلٍ مَحْمُودَ البَلاءِ في الإسْلامِ رضي الله عنه نَزَلَ عِكْرِمَةُ يومَ اليَرْمُوكِ ، فقَاتَلَ قِتَالاً شَدِيداً ، ثُمَّ اسْتُشْهِدَ ، فوَجَدُوا به بِضْعاً وسَبْعِينَ من طَعْنَةٍ ورَمْيَةٍ وضَرْبَةٍ[2] .

وقال ابنُ سَعْد : قالوا : وكان عبدُ الله بنُ عَمرِو بن حِرام أولَ مَنْ قُتِلَ يومَ أُحُدٍ ، وكان عَمْرُو بنُ الجَمُوح طَويلاً فَدُفِنا مَعاً عِندَ السَّيْلِ ، فَحفَرَ السَّيْلُ عنهُما ، وعليهِمَا نَمِرَةٌ ، وقد أصَابَ عبدَ الله جُرْحٌ في وَجْهِه فيَدُهُ علىٰ جُرْحِه ، فأُمِيطَتْ يَدُهُ ، فانْبَعَثَ الدَّمُ ، فرُدَّتْ ، فسَكَنَ الدَّمُ[3] .

وعن طَلْحَة بنِ خِرَاش ، سَمِعَ جابِراً يقولُ : قال لي رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم : « ألا أُخْبِرُكَ أنَّ اللهَ كلَّمَ أبَاكَ كفَاحاً ، فقَالَ : يا عَبْدِي! سَلْنِي أُعْطِكَ ، قَالَ : أَسْأَلُكَ أنْ تَرُدَّنِي إلى الدُّنْيَا فأُقْتَلُ فِيكَ ثانِياً ، فقَالَ : إنَّه قَدْ سَبَقَ مِنِّي أنَّهُم إلَيْهَا لا يُرْجَعُونَ قَالَ : يا رَبِّ! فَأَبْلِغْ مَنْ وَرَائِي ، فأَنْزَلَ اللهُ : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾[4] »[5] .

---

(١) انظر السير : (سعد بن الربيع) ١/٣١٨ـ ٣٢٠ ، وانظر النزهة : ٣/١٦٩ .
(٢) انظر السير : (عكرمة بن أبي جهل) ١/٣٢٣ـ ٣٢٤ ، وانظر النزهة : ٥/١٧١ .
(٣) انظر السير : (عبد الله بن عمرو بن حِرام) ١/ ٣٢٤ـ ٣٢٨ ، وانظر النزهة : ١/١٧٢ .
(٤) سورة آل عمران ، الآية : ١٦٩
(٥) انظر السير : (عبد الله بن عمرو بن حِرام) ١/ ٣٢٤ـ ٣٢٨ ، وانظر النزهة : ٤/١٧٢ .

وعن معقلِ بنِ يَسَارٍ : أنَّ عُمَرَ شَاوَرَ الهُرْمُزَانَ في أصْبَهانَ وفارسَ وأذْرَبيجانَ فقال : أصْبَهانُ : الرَّأسُ وفَارِسُ وأذْرَبيجانُ : الجَنَاحانُ ، فإذا قَطَعْتَ جَنَاحاً فَاءَ الرَّأسُ وجَنَاحٌ ، وإنْ قَطَعْتَ الرَّأسَ وَقَعَ الجَناحَان ، فقال عُمَرُ للنُّعْمانِ بنِ مُقَرِّن : إنِّي مُسْتَعْمِلُك ، فقال : أمَّا جَابِياً فلا ، وأمَّا غَازِياً فنعَمْ قال : فإنَّك غَازٍ فَسَرَّحَه ، وبَعَثَ إلىٰ أَهْلِ الكُوفَة ليَمُدُّوه وفيهم حُذَيْفَةُ ، والزُّبَيْرُ والمُغِيرَةُ والأشْعَثُ ، وعَمرُو ابنُ مَعْدِي كَرِبْ ، فذَكَرَ الحَديثَ بطُولِه ، وهو في « مُسْتَدْرَكِ الحَاكم » وفيه : فقالَ : اللَّهُمَّ ارْزُقْ النُّعْمانَ الشَّهَادَةَ بنَصْرِ المُسْلِمين ، وافْتَحْ علَيْهِم ، فأمَّنُوا ، وهَزَّ لِواءَه ثلاثاً ثُمَّ حَمَلَ ، فكان أوَّلَ صَرِيعٍ ، رضي الله عنه ، ووَقَعَ ذُو الحَاجِبَيْن من بَغْلَتِه الشَّهْباء ، فانْشَقَّ بَطْنُه ، وفتَحَ اللهُ ، ثُمَّ أتَيْتُ النُّعْمَانَ وبه رَمَقٌ ، فأتَيْتُه بماءٍ فصَبَبْتُ علىٰ وَجْهه أغْسِلُ التُّرابَ ، فقال : مَنْ ذَا ؟ قُلتُ : معْقلُ بنُ يَسَار قال : ما فَعَلَ النَّاسُ ؟ قُلتُ : فَتَحَ اللهُ فقال : الحَمْدُ لله ، اكْتُبُوا إلىٰ عُمَرَ بذلك ، وفَاضَتْ رُوحُه رضي الله عنه[(١)] ، [(٢)] .

قال الصُّولِيُّ : كان أحمدُ بنُ نَصْرالخُزاعِيّ وسَهلُ بنُ سَلامَة حين كان المَأمُونُ بخُرَاسَان بايَعَا النَّاسَ على الأمر بالمَعْروف والنَّهيِّ عن المُنكَر ، ثم قَدِمَ المَأمُونُ فبايَعَه

---

(١) أخرج البخاري في الجزية (٣١٥٩) عن جبير بن حيّة ، قال : بعث عُمر الناس في أفناء الأمصار يقاتلون المشركين ، فأسلم الهرمزان ، فقال : إني مستشيرك في مغازيَّ هـٰذه ، قال : نعم ، مثلها ومثل من فيها من الناس ، من عدو المسلمين ، مثل طائر له رأس وله جناحان وله رجلان ، فإن كُسر أحد الجناحين نهضت الرجلان بجناح والرأس ، فإن كُسر الجناح الآخر نهضت الرجلان والرأس ، وإن شُرخ الرأس ذهبت الرجلان والجناحان والرأس ، فالرأس كسرىٰ ، والجناح قيصر ، والجناح الآخر فارس ، فمُر المسلمين فلينفروا إلىٰ كسرىٰ و(١٩٢) عن جبير بن حيَّة قال : فندبنا عُمرُ ، واستعمل علينا النُّعمان بن مقرِّن ، حتىٰ إذا كنا بأرض العدو ، خرج علينا عامل كسرىٰ في أربعين ألفاً ، فقام ترجمانٌ فقال : ليكلمني رجلٌ منكم ، فقال المغيرة : فسل عمَّا شئت قال : ما أنتم ، قال : « نحن أناس من العرب ، كنا في شقاء شديد وبلاء شديد ، نمصُّ الجلد والنوىٰ من الجوع ، ونلبس الوبر والشعر ، ونعبد الشجر والحجر فبينا نحن كذلك إذ بعث ربُّ السَّماوات وربُّ الأرضين ـ تعالىٰ ذكره وجلت عظمته ـ إلينا نبياً من أنفسنا ، نعرف أباه وأمه ، فأمرنا نبينا رسول ربِّنا صلى الله عليه وسلم أن نقاتلكم حتىٰ تعبدوا الله وحده ، أو تؤدوا الجزية ، وأخبرنا نبيُّنا صلى الله عليه وسلم أنه من قُتل منَّا صار إلى الجنة في نعيم لم يرَ مثلها قطّ ، ومن بقي منَّا ملكَ رقابكم »

(٢) انظر السير : (النُّعمان بن مقرّن) ١/ ٤٠٣ـ ٤٠٥ ، وانظر النزهة : ٥/ ١٨٢ .

سَهْلٌ ، ولَزِمَ ابنُ نَصْرٍ بَيْتَه ، ثمَّ تَحرَّكَ في آخِرِ أيام الوَاثِق ، واجتمَعَ إليه خَلْقٌ يَأمُرُونَ بالمَعْروف ، قال : إلىٰ أنْ مَلَكُوا بَغْدادَ ، وتَعَدَّىٰ رَجُلانِ موسِران من أصحابه فبَذَلا مالاً وعَزَما على الوُثُوبِ في سنة إحْدَىٰ وثلاثين فنَمَا الخَبَرُ إلىٰ نائِبِ بَغْدادَ إسْحاقَ بنِ إبْراهِيمَ ، فأخَذَ أحمَدَ وصاحِبَيْه وجَمَاعَةً ، ووَجَدَ في مَنزل أحَدِهما أعْلاماً ، وضَرَبَ خادِماً لأحْمَدَ ، فأقَرَّ بأنَّ هـٰؤلاء كانوا يَأتُونَ أحمَدَ ليلاً ويُخْبرُونه بما عَمِلوا فحُمِلُوا إلىٰ سَامَرَّاء مُقَيَّدِين فجَلَسَ الوَاثِقُ لهم ، وقال لأحمَدَ : دَعْ ما أُخِذْتَ له ، ما تقُولُ في القُرْآنِ ؟ : قال : كَلامُ الله قال : أفَمَخْلُوقٌ هو ؟ قال : كَلامُ الله قال : فتَرَىٰ رَبَّكَ في القِيامَة ؟ قال : كَذَا جاءَت الرِّوايَةُ قال : وَيْحك يُرَىٰ كَمَا يُرَى المَحْدُودُ المُتَجَسِّمُ ، ويَحْويه مكانٌ ويَحْصُرُه نَاظِرٌ ؟ أنا كَفَرتُ بمَنْ هَـٰذِه صِفَتُه ، ما تَقُولُون فيه ؟ فقال قاضي الجانِبِ الغَرْبيّ : هو حَلالُ الدَّمْ ، ووَافَقَه فُقَهاءُ ، فأظْهَرَ أحمَدُ ابنُ أبي دُواد أنَّه كارِهٌ لقَتْله وقال شَيخٌ مُختلٌّ تَغيَّرَ عَقلُه يُؤَخَّر ، قال الوَاثِقُ ما أَرَاه إلاَّ مُؤَدياً لكُفْرِه قائماً بما يَعْتَقِدُه ، ودعَا بالصَّمْصَامَة وقام ، وقال : أَحْتَسِبُ خُطَايَ إلىٰ هـٰذا الكَافِرِ ، فضَرَبَ عُنُقَه بعد أن مَدُّوا له رَأسَه بحَبْلٍ وهو مُقَيَّد ونُصِبَ رأسُه بالجانبِ الشَّرقِيّ ، وتُتُبِّعَ أصحابُه فسُجِنُوا[1] .

وقال عليُّ بنُ أبي أُمَيَّة : لمَّا كان من دُخُولِ الزِّنْجَ البَصْرَة ما كان وقَتْلِهم بها مَنْ قَتَلُوا ، وذلك في شَوَّال سَنَةَ سَبعٍ ، بَلَغَنا أنَّهم دَخَلُوا علىٰ عبَّاس بنِ الفَرج الرِّياشِيّ المَسجِد بأسْيَافِهم ، والرِّياشِيّ قائِمٌ يُصلِّي الضُّحَىٰ ، فضَرَبُوه بالأسْيافِ : وقالوا : هاتِ المَالَ ، فجَعَلَ يقولُ : أيُّ مالٍ ؟ حتىٰ ماتَ فلمَّا خَرَجَتِ الزِّنْجُ عن البَصْرة ، دَخَلْناها ، فمَرَرْنا ببَنِي مازِنِ الطَّحانين ـ وهناك كان يَنزلُ الرِّياشِيّ ـ فدَخَلْنا مَسجدَه ، فإذا به مُلْقىً وهو مُسْتَقبلٌ القِبلَةَ كأنَّما وُجِّه إليها ، وإذا بشَمْلَةٍ تُحرِّكُها الرِّيحُ وقد تَمَزَّقَت ، وإذا جَميعُ خَلْقِه صحيحٌ سَويٌّ لَمْ يَنْشَقَّ له بَطْن ، ولَمْ يَتَغَيَّر له حال ، إلاَّ أنَّ جِلْدَه قد لَصُقَ بعَظْمِه ويَبُس ، وذلك بعد مَقْتَلِه بسَنَتَيْن رَحمَه الله[2] .

(١) انظر السير : (أحمد بن نصر الخُزاعيّ) ١١/ ١٦٦ـ ١٦٩ ، وانظر النزهة : ٣/٩١٨ .
(٢) انظر السير : (الرِّياشيّ) ١٢/ ٣٧٢ـ ٣٧٦ ، وانظر النزهة : ٣/١٠٠٩ .

وجاءَ في تَرْجَمَة الشَّهيد : الإمامُ القُدوَةُ الشَّهِيدُ أبو بَكْر مُحمَّدُ ابنُ أحمَدَ بنِ سَهْل الرَّمليّ ، ويُعْرفُ بابنِ النَّابُلسيّ[1] .

وقال أبو ذَرٍّ الحافِظُ : سَجَنَه بنُو عُبَيْد وصَلَبُوه على السنَّة ، سَمعتُ الدَّارَقُطنِيّ يَذْكُرُه ويَبْكِي ، ويقولُ : كان يقولُ ، وهو يُسْلَخ : ﴿ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴾[2] .

وقال أبو الفَرج بنُ الجَوْزيّ : أقامَ جَوْهَرٌ القائِدُ لأبي تَميمٍ صاحِبِ مِصْرَ أبا بَكر النَّابُلسي ، وكان يَنزِلُ الأكْواخَ فقال له : بَلَغَنا أنَّكَ قُلتَ : إذا كان مع الرَّجُلِ عَشرةُ أَسْهُم ، وجَبَ أن يَرْمِيَ في الرُّوم سَهْماً وفِينَا تِسْعَةً ، قال : ما قُلتُ هٰذا ، بَلْ قُلتُ : إذا كان معه عَشْرةُ أَسْهُمٍ وَجَبَ أن يَرمِيَكم بتِسعَةٍ وأن يَرمِيَ العاشِرَ فيكم أيضاً ، فإنَّكم غَيَّرتُم المِلَّة ، وقَتَلتُم الصَّالِحين ، وادَّعَيْتُم نُورَ الإلَهِيَّة ، فشَهَره ثُمَّ ضَرَبَه ، ثُمَّ أَمَرَ يَهُودِيّاً فسَلَخَه وحُشِيَ تِبْناً ، وصُلِبَ .

وقال مُعمَّرُ بنُ أحمَد بنُ زِياد الصُّوفيّ : أخْبَرَني الثِّقَةُ أنَّ أبا بَكْر سُلِخَ من مَفْرِقِ رَأسِه حتّىٰ بَلَغَ الوَجْه ، فكان يَذْكُرُ اللهَ ويَصْبر حتّىٰ بَلَغَ الصَّدْرَ ، فرَحِمَه السَّلاَّخُ ، فوَكَزَه بالسِّكِّينِ مَوْضِعَ قَلبه فقَضَىٰ عليه ، وأَخْبَرَني الثِّقَةُ أنَّه كان إماماً في الحَدِيثِ والفِقْه ، صائِمَ الدَّهرِ ، كبيرَ الصَوْلَة عند العامَّة والخاصَّة ، ولمَّا سُلِخَ كان يُسْمَعُ من جَسَدِه قِراءَةُ القُرآن[3] .

قال الذَّهبيُّ : لا يُوصَفُ ما قَلَبَ هٰؤلاء العُبَيْدِيَّة الدِّينَ ظَهْراً لبَطْن ، واسْتَوْلَوا على المَغْرِب ، ثم علىٰ مصرَ والشَّامَ ، وسَبُّوا الصَّحابةَ[4] .

وحَكى ابنُ السَّعْساع المِصْريّ ، أنَّه رأَىَ في النَّومِ أبا بَكْر ابن النَّابُلسي بعدما صُلِبَ وهو في أحْسَنِ هَيْئَة ، فقال : ما فَعَلَ اللهُ بك ؟ فقال :[5] .

---

(١) انظر السير : (الشَّهيد) ١٦/١٤٨ـ ١٥٠ ، وانظر النزهة : ١٢٧٦/١ .

(٢) سورة الإسراء ، الآية : ٥٨ .

(٣) انظر السير : (الشَّهيد) ١٦/١٤٨ـ ١٥٠ ، وانظر النزهة : ١٢٧٦/٢ .

(٤) انظر السير : (الشَّهيد) ١٦/١٤٨ـ ١٥٠ ، وانظر النزهة : ١٢٧٦/٣ .

(٥) انظر السير : (الشَّهيد) ١٦/١٤٨ـ ١٥٠ ، وانظر النزهة : ١٢٧٦/٤ .

حبَانـي مـالِكـي بـدَوامِ عِـزّ ... وواعــدَنــي بقُــرْبِ الانْتِصــارِ
وقَــرَّبَنـي وأَدْنـانـي إليــه ... وقـالَ : انْعَـمْ بعَيْشٍ في جِـواري

ونَزَلَتِ التَّتارُ علىٰ خَوارزْمَ في سَنَةِ ثَمانِي عشرة وستِّ مِئَة فخَرَجَ الإمَامُ نَجْمُ الدِّين الكُبْرَىٰ فِيمَنْ خَرَجَ للجِهَادِ ، فقَاتَلُوا علىٰ بابِ البَلَدِ حتىٰ قُتِلُوا رضِيَ اللهُ عنهم ، وقُتِلَ الشَّيْخُ وهو في عَشْرِ الثَّمانِين .

وفي كلامِه شيءٌ من تَصَوُّفِ الحِكْمَة[1] .

١٨ـ الأُمَرَاءُ المُجَاهِدون :

قُتِلَ أبو المَلِكِ النَّاصِرِ لدينِ الله شابّاً وعُمْرُ النَّاصِر لدينِ الله عِشْرُونَ يوماً ، فكَفَلَه جَدُّهُ ، فلمَّا ماتَ جَدُّهُ ، بُويعَ هـٰذا سَنَةَ ثلاثِ مِئَة مع وُجُودِ الأكَابر من أعْمَامِه وأعْمام أبيهِ ، فوَلِيَ وعُمْرُه اثْنَتَانِ وعِشْرُونَ سَنَةً ، فضَبَطَ المَمَالِكَ ، وخافَتْهُ الأعْداءُ ، وعَمِلَ الزَّهْراءَ علىٰ بَرِيدٍ[2] من قُرطُبَة ، فشَيَّدَها وزَخْرَفَها ، وأنْفَقَ عليها قَنَاطِيرَ من الذَّهَبِ ، وكان لا يَمَلُّ من الغَزْوِ ، فيه سُؤْدُدٌ وحَزْمٌ وإقْدامٌ ، وسَجَايا حَمِيدَةٌ .

وقد تُوُفِّيَ النَّاصِرُ قبلَ تَتِمَّةِ زَخْرَفَةِ مدينَةِ الزَّهْراءِ ، فأتَمَّها ابنُه المُسْتَنْصِرُ ، وبها جامِعٌ عَدِيمُ المِثْلِ ، وكَذَا مَنَارَتُه[3] .

وافْتَتَحَ النَّاصِرُ لِدِينِ الله (صاحبُ الأنْدَلُسِ) سَبعِينَ حِصْناً من أعْظَمِ الحُصُونِ ، وقد مَدَحَتْه الشُّعَرَاءُ .

قال الإمامُ الذَّهَبيُّ : تُوفِيَ سَنَةَ خَمسِين وثلاثِ مِئَة وله اثنَتَانِ وسَبعُون عاماً رَحِمَهُ الله[4] .

قال الذَّهَبيُّ : وقد كُنتُ ذَكَرتُ تَرجَمَتَه مع جَدِّهم ، فأعَدْتُها بزَوائِدَ وفَوَائِدَ ، وإذا

---

(١) انظر السير : (نجم الدين الكُبرىٰ) ٢٢/ ١١١ـ ١١٤ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٧٠ .
(٢) البريد اثنا عشر ميلاً .
(٣) انظر السير : (صاحب الأندلس) ١٥/ ٥٦٢ـ ٥٦٤ ، وانظر النزهة : ٦/١٢٥٨ .
(٤) انظر السير : (صاحب الأندلس) ١٥/ ٥٦٢ـ ٥٦٤ ، وانظر النزهة : ١/١٢٥٩ .

كانَ الرَّأسُ عَالِيَ الهِمَّةِ في الجِهَادِ ، احْتُمِلَتْ له هَنَاتٌ ، وحِسَابُه على الله أمَّا إذا أمَاتَ الجِهَادَ ، وظَلَمَ العِبَادَ ، وللخَزَائِنِ أبَادَ ، فإنَّ رَبَّكَ لبالمِرْصَادِ[1] .

وجاءَ في تَرجَمَةِ سَيْفِ الدَّولَة ، قال الذَّهبيُّ : أبو الحَسَنْ عليُّ ابنُ عبدِ الله ابنِ حَمْدان ، صاحِبُ حَلَبْ ، مَقْصِدُ الوُفُودِ ، وكَعْبَةُ الجُودِ ، وفارِسُ الإسْلامِ ، وحامِلُ لِواءِ الجِهَادِ كان أدِيباً مَلِيحَ النَظْمِ ، فيه تَشَيُّع[2] .

ويُقالُ : تَمَّ له من الرُّومِ أرْبَعُونَ وَقْعَةً ، أكثَرُها يَنْصُرُه اللهُ عَلَيْهم[3] .

وتُوفِّيَتْ أخْتُ سَيْفِ الدَّولَةِ فخَلَّفَتْ له خَمسَ مِئَةِ ألف دينار ، فافْتَكَّ بها جَميعَ الأَسْرَىٰ[4] .

وكان مَوْلِدُهُ في سَنَةِ إحْدَىٰ وثلاثِ مِئَة ، وله غَزْوٌ ما اتَّفَقَ لمَلِكٍ غَيْرُه ، وكان يُضْرَبُ بشَجَاعَتِه المَثَلُ ، وله وَقْعٌ في النُّفُوسِ ، فاللهُ يَرْحَمُهُ[5] .

ماتَ بالفَالِج ، وقِيلَ : بعُسْرِ البَوْلِ ، سَنَةَ سِتٍّ وخَمسِين ، وكان قد جَمَعَ من الغُبارِ الذي يَقَعُ عليه وقْتَ المصافات قدرَ الكَفِّ ، وأَوْصَىٰ أن يُوضَعَ علىٰ خَدِّه وكانت دولَتُه نَيِّفاً وعِشْرين سَنةً[6] .

قال الذهبيُّ : كان ابنُ أبي عامر بَطلاً شُجاعاً ، حازِماً ، سائساً ، غَزَّاءً ، عالماً ، جَمَّ المَحاسِنِ ، كَثيرَ الفُتوحات ، عاليَ الهِمَّة ، عَديمَ النَّظير .

دامَ في المملكة نَيِّفاً وعشرين سنة ، ودانَت له الجَزيرة[7] وأمنت به[8] .

وقد غَزَا أبو عَامِر (الملكُ المَنْصُورُ) في مُدَّتِهِ نَيِّفاً وخمسينَ غَزْوَةً ، وكَثُرَ السَّبْيُ

---

(١) انظر السير : (صاحب الأندلس) ١٥/ ٥٦٢ـ٥٦٤ ، وانظر النزهة : ٢/١٢٥٩ .
(٢) انظر السير : (سيف الدولة) ١٦/ ١٨٧ـ١٨٩ ، وانظر النزهة : ٤/١٢٨٢ .
(٣) انظر السير : (سيف الدولة) ١٦/ ١٨٧ـ١٨٩ ، وانظر النزهة : ٦/١٢٨٢ .
(٤) انظر السير : (سيف الدولة) ١٦/ ١٨٧ـ١٨٩ ، وانظر النزهة : ٨/١٢٨٢ .
(٥) انظر السير : (سيف الدولة) ١٦/ ١٨٧ـ١٨٩ ، وانظر النزهة : ٩/٢٨٢١ .
(٦) انظر السير : (سيف الدولة) ١٦/ ١٨٧ـ١٨٩ ، وانظر النزهة : ١/١٢٨٣ .
(٧) يعني بلاد الأندلس .
(٨) انظر السير : (ابن أبي عامر) ١٧/ ١٥ـ١٦ ، وانظر النزهة : ١/١٣٢٠ .

حتىٰ لأُبيعَتْ بنتُ عَظِيمٍ ذاتِ حُسْنٍ بعِشْرينَ ديناراً ، ولقد جُمِعَ من غُبارِ غزَوَاتِه ما عُمِلَتْ منه لَبِنَةٌ ، وأُلْحِدَتْ علىٰ خَدِّه ، أو ذُرَّ ذلك علىٰ كَفَنِه[1] .

تُوفِّيَ ابنُ أبي عامِرٍ بأقْصَى الثُّغُورِ ، سنةَ ثلاثٍ وتسعينَ وثلاثِ مِئَة ، وكان جَوَاداً مُمَدَّحاً مِعْطَاءاً[2] .

ومن مَفَاخِرِ المَنْصُورِ حاجِب صاحِب الأنْدَلُسِ (هِشَامِ بنِ المُؤَيَّدِ) أنَّه قَدِمَ من غَزْوَةٍ ، فتَعَرَّضَتْ له امرأةٌ عند القصرِ ، فقالت : يا مَنصُورُ! يَفْرَحُ النَّاسُ وأبْكِي ؟! إنَّ ابْنِي أسيرٌ في بلادِ الرُّومِ فثَنىٰ عَنَانَه وأَمَرَ النَّاسَ بغَزْوِ الجِهَةِ التي فيها ابنُهَا[3] .

وقد عَصَاهُ مرةً ولَدٌ له ، فهَرَبَ ، ولَجَأَ إلىٰ مَلِكِ سَمّورة ، فغَزَاها المَنصُورُ وحاصَرَها ، وحَلَفَ ألاَّ يرْحَلَ إلاَّ بابْنِه ، فسَلَّمُوهُ إليه ، فأَمَرَ بقَتْلِه ، فقُتِلَ بقُرْبِ سَمّورة[4] .

ومن رُجْلَةِ المَنصُورِ : أنَّه أُحِيطَ به في مدينة فُتّة ، فرَمَىٰ بنفسِه من أَعْلَىٰ جَبَلِها ، وصَارَ في عَسْكَرِه ، فبَقِيَ مُفْدَعَ[5] القَدَمَيْنِ لا يَركَبُ ، إنَّما يُصنَعُ له مَحْمَلٌ علىٰ بَغْلٍ يُقَادُ به في سَبْعِ غَزَوَاتٍ وهو بِضْعَةُ لَحمٍ ، فانْظُر إلىٰ هـٰذه الهِمَّة العَلِيَّة والشَّجاعَةِ الزَائِدَة[6] .

وجاءَ في تَرجَمَةِ السُّلطانِ ، قال الذهبيُّ : المَلِكُ يَمِينُ الدَّولَةِ ، فاتِحُ الهِنْدِ ، أبو القَاسِمِ ، مَحمُودُ بنُ سَيِّدِ الأُمَرَاءِ ، ناصِرُ الدَّولَةِ سُبُكْتِكِين ، التُّرْكِيُّ ، صاحِبُ خُراسَان والهِنْد وغير ذلك .

فَرَضَ علىٰ نَفْسِه كُلَّ سَنَةٍ غَزْوَ الهِنْدِ ، فافْتَتَحَ بلاداً شاسِعَةً .

---

(١) انظر السير : (ابن أبي عامر) ١٧/ ١٥ـ١٦ ، وانظر النزهة : ١٣٢٠/ ٣ .
(٢) انظر السير : (ابن أبي عامر) ١٧/ ١٥ـ١٦ ، وانظر النزهة : ١٣٢٠/ ٤ .
(٣) انظر السير : (هِشَام المُؤَيَّد بالله) ١٧/ ١٢٣ـ ١٣٣ ، وانظر النزهة : ١٣٢٧/ ١ .
(٤) انظر السير : (هِشَام المُؤَيَّد بالله) ١٧/ ١٢٣ـ ١٣٣ ، وانظر النزهة : ١٣٢٧/ ٢ .
(٥) الفدع مُحرّكة : عِوج وميل في المفاصل قد زالت عن مواضعها ، لا يُستطاع بسطها معه ، وأكثر ما يكون في الرسغ من اليد والقدم .
(٦) انظر السير : (هِشَام المُؤَيَّد بالله) ١٧/ ١٢٣ـ ١٣٣ ، وانظر النزهة : ١٣٢٧/ ٣ .

وكان السُّلطانُ مائِلاً إلى الأثَرِ إلاّ أنَّه من الكرّاميّة[١] .

وقال عبدُ الغَافِرِ الفَارِسيُّ في ترجَمَةِ مَحمُود سبكتكين : كان صادِقَ النِيّة في إعْلاء الدين ، مُظَفَّراً كثيرَ الغَزْوِ ، وكان ذَكيّاً بَعِيدَ الغَوْر ، صائِبَ الرأيِّ ، وكان مَجْلسُه مَوْرِدَ العُلماء وقَبْرُه بغَزْنَة يُزارُ .

مَولِدُ مَحمُود في إحْدَىٰ وستِّين وثلاث مِئَة ، ومات بغَزْنة سنةَ إحْدَىٰ وعِشْرين وأرْبع مِئَة[٢] .

وكانت غَزَواتُ السُّلطانِ مَحْمودٍ مَشْهُورةً عَدِيدةً وفُتُوحاتُه المُبتَكَرَة عظِيمةً[٣] .

وبَلَغَ السُّلطانَ أنَّ الهُنودَ قالوا : أَخْرَبَ أكْثرَ بلادِ الهِنْدِ غَضَبُ الصَّنَمِ الكبيرِ سُومَنات علىٰ سائِرِ الأصْنام ومَنْ حَوْلَها ، فعَزَمَ علىٰ غَزْوِ هـٰذا الوَثَنَ ، وسَارَ يَطوِي القِفَارَ في جَيشِه إليه ، وكانوا يقُولونَ : إنَّه يَرْزُقُ ويُحْيِي ويُميتُ ويَسْمَعُ ويَعِي ، يَحُجُّون إليه ويُتْحِفُونَه بالنَّفائِس ، ويَتَغَازَلُون فيه كثيراً ، فتَجمَّعَ عند هـٰذا مالٌ يَتَجَاوَزُ الوَصْفَ ، وكانوا يَغْسِلُونَه كلَّ يوم بماءٍ وعَسَلٍ ولَبَن ، ويَنْقُلُونَ إليه الماءَ من نَهْرِ حيل مَسيرَةَ شَهرٍ ، وثلاثُ مِئَةٍ يَحْلِقُونَ رُؤُوسَ حُجَّاجِه ولِحَاهُم ، وثلاثُ مِئَةٍ يُغَنُّونَ فسَارَ الجَيشُ من غَزْنة ، وقَطَعُوا مَفَازَةً صَعبَةً وكانوا ثلاثينَ ألفَ فارسٍ وخَلْقاً من الرَّجَّالَةِ والمُطَّوِّعَة ، وقَوَّى المُطَّوِّعَةَ بخَمْسِينَ ألفَ دينارٍ ، وأَنْفَقَ في الجَيْشِ فَوقَ الكِفَايةِ ، وارْتَحَلَ من المُليا ثانِيَ يوم الفِطْرِ سنةَ ٤١٦ هـ ، وقاسُوا مَشَاقَّ وبقُوا لا يَجدُونَ الماءَ إلاّ بعدَ ثلاثٍ ، غَطَّاهُم في يومٍ ضَبَابٌ عظيمٌ ، فقالت الكَفَرَةُ : هـٰذا من فِعْلِ الإلَهِ سُومَنات .

ثمَّ نازَلَ مدينةَ أَنْهَلْوَارَة ، وهَرَبَ ملِكُها إلىٰ جَزيرَةٍ ، فأخْرَبَ المُسلمُونَ بلَدَه ، ودكُّوها ، وبينَها وبَيْنَ الصَّنَمِ مَسِيرَةَ شَهرٍ في مَفَاوِزَ ، فسَارُوا حتىٰ نَازَلُوا مدينة

---

(١) انظر السير : (السلطان) ١٧/ ٤٨٣ـ ٤٩٥ ، وانظر النزهة : ١/١٣٥٢ .

(٢) انظر السير : (السلطان) ١٧/ ٤٨٣ـ ٤٩٥ ، وانظر النزهة : ١/١٣٥٣ .

(٣) انظر السير : (السلطان) ١٧/ ٤٨٣ـ ٤٩٥ ، وانظر النزهة : ٢/١٣٥٣ .

دَبُولوارة ، وهي قَبْلَ الصَّنَمِ بيَوْمَيْن ، فأُخِذَت عُنْوَةً ، وكُسِرَتْ أصْنَامُهَا ، وهي كثيرةُ الفَوَاكِه ، ثمَّ نَازَلُوا سُومَنات في رابعِ عَشَرَ ذي القِعدَة ، ولها قَلْعَةٌ مَنِيعَةٌ على البحرِ ، فوَقَعَ الحِصَارُ فنُصِبَت السَّلالِمُ عليها ، فهَرَبَ المُقاتِلَةُ إلى الصَّنَمِ وتَضَرَّعُوا له ، واشْتَدَّ الحالُ وهم يَظُنُّون أنَّ الصَّنَمَ قد غَضِبَ عليهم ، وكان في بيتٍ عظِيمٍ مَنِيعٍ علىٰ أبْوَابه السُّتُورُ الدِّيبَاجُ وعلى الصَّنَمِ من الحُليِّ والجَوَاهِر ما لا يُوصَف والقَنَادِيلُ تُضِيءُ ليلاً ونهاراً ، علىٰ رَأسِه تاجٌ لا يُقَوَّمُ ، يَنْدَهِشُ منه النَّاظِرُ ويَجْتَمِعُ عندَه في عِيدِهم نَحْوَ مِئَةِ ألفِ كافِرٍ ، وهو علىٰ عَرْشٍ بَدِيعِ الزَّخْرَفَةِ عُلُوَّ خَمسةِ أَذْرُعٍ ، وطُولُ الصَّنَمِ عَشرَةَ أذْرُعٍ ، وله بَيْتُ مالٍ فيه من النَّفَائِسِ والذَّهَبِ ما لا يُحْصَىٰ ، ففَرَّقَ مَحمُودٌ في الجُنْدِ مُعْظَمَ ذلك ، وزَعْزَعَ الصَّنَمَ بالمَعَاوِلِ ، فخَرَّ صَرِيعاً ، وكانت فِرقَةٌ تَعْتَقِدُ أنَّه مَنَاتْ ، وأنَّه تَحَوَّلَ بنفسه في أيَّام النُّبُوَّةِ من سَاحِلِ جُدَّة ، وحَصَلَ بهـٰذا المَكَان ليُقْصَدَ ويُحَجَّ إليه مُعَارَضَةً للكَعْبَةِ ، فلمَّا رَآهُ الكُفَّارُ صَرِيعاً مَهِيناً ، تَحَسَّرُوا وسُقِطَ في أيدِيهِم ، ثمَّ أُحْرِقَ حتىٰ صَارَ كلساً ، وأُلقِيَت النِّيرَانُ في قُصُورِ القَلْعَة ، وقُتِلَ بها خَمسُونَ ألفاً ، ثمَّ سارَ مَحمُودٌ لأَسْرِ المَلِكِ بهيم ، ودَخَلُوا بالمَرَاكِبِ ، فهَرَبَ ، وافْتَتَحَ مَحمُودٌ عِدَّةَ حُصُونٍ ومَدَائِنَ ، وعادَ إلىٰ غَزْنَة فدَخَلَها في ثامِنِ صَفَر سَنَةَ سَبْعَ عَشْرَةَ ، ودَانَتْ له المُلُوكُ ، فكانت مُدَّةُ الغَيْبَةِ مِئَةً وثلاثةً وستِّينَ يوماً

وقد خُطِبَ له بالغُورِ وبخُراسَان والسِّنْدِ والهِنْدِ وناحِيَةَ خَوَارِزْم وبَلْخ ، وهي من خُرَاسَان ، وبجُرجان وطَبَرِسْتان والرَّيِّ والجِبَال ، وأصْبَهَان وأذْرَبِيجان وهَمَذَان وأرْمِينيَة .

وكان مُكْرِماً لأُمَرَائِه وأصْحابه ، وإذا نَقَمَ عَاجَل ، وكان لا يَفْتُرُ ولا يَكَادُ يَقِرُّ وكان يَعْتَقِدُ في الخَلِيفَةِ ، ويَخْضَعُ لجَلالِه ، ويَحْمِلُ إليه قَنَاطِيرَ من الذَّهَبِ والفِضَّةِ ، وكان إلْباً على القَرَامِطَة والإسْمَاعيليّة وعلى المُتَكَلِّمين ، علىٰ بِدْعَةٍ فيه فيما قَبْل ، ويَغْضَبُ للكرّاميّة ، وتَصَرُّفه على الأخْلاقِ الزَّكيَّة ، وكان فيه شِدَّةُ وَطْأةٍ على الرَّعِيَّة ، ولكن كانوا في أَمْنٍ وإقامَة سِياسَة .

وقال مَحمُودٌ يوماً للأميرِ أبي طاهِر السَّامانيّ : كَمْ جَمَعَ آباؤُك من الجَوْهَرِ ؟ قال :

سَمعتُ أنَّه كان عند الأميرِ الرَّضي سَبْعَةُ أرْطالٍ فسَجَدَ شُكراً وقال : أنا في خِزَانَتِي سَبْعُون رَطْلاً[1] .

كان المُظَفَّرُ بنُ الأفْطس رأساً في العِلْمِ والأدَبِ والشَّجَاعَة والرَّأيّ ، فكان مُنَاغِراً[2] للرُّوم شَجَىً في حُلـُوقِهم ، لا يُنَفِّسُ لهم مَخْنَقاً ولا يُوجدُ لهم إلى الظُّهُورِ علَيْه مُرْتقَىً ، وله آدابٌ تُغيرُ سَرَايَاها ، فتَسْبِي عَذَارَىٰ مَعَانٍ لا تَعْشقُ المَحَامِدَ إلاَّ إيَّاها ، ألفَاظٌ كالزِّلْزال ، وأغْراضٌ أبعدُ من الهِلال ، رائِقُ النَّظْمِ ذَكيُّ النُّورِ رَصِيفُ المَعَانِي ، شاهِقُ الغَورِ ، وله تأليفٌ كبيرٌ في الآدابِ علىٰ هيْئَةِ « عُيُون الأخْبار » لابنِ قُتَيْبَة ، يكون عَشرَ مُجَلَّدات ، ومن نَثْرِه ـ وقد غَنِمَ بلادَ شلمنكة وهي مُجاوِرَتُه ، فكتَبَ إلى المُعْتَمِد بالله يَفْخَرُ ، ويُنَكِّتُ عليه بمُسالَمَتِه للرُّومِ ، فقِيلَ : إنَّه حَصَّلَ من هـٰذه الغَزْوَةِ ألفَ جارِيةٍ حَسْناءَ من بَنَاتِ الأصْفَر ـ : مَنْ يَصِدْ صَيْداً فلْيَصِدْ كَمَا صَيْدِي ، صَيْدِي الغَزَالَةَ من مَرَابِضِ الأسَدِ أيُّها المَلِكُ إنَّ الرُّومَ إذا لَمْ تُغْزَ غَزَتْ ، ولَوْ تَعَاقَدنا تَعَاقُدَ الأوْلياءِ المُخْلِصين فَلَلْنا حَدَّهم وأذْلَلْنا جَدَّهم[3] ، ورأيُ السيِّدِ المُعتَمِدِ على الله سِراجٌ تُضِيءُ به ظُلُماتِ المُنَىٰ .

وللمُظَفَّرِ تَفسِيرٌ للقُرآنِ ، وكان مع اسْتغْراقِه في الجِهَادِ لا يَفْتُرُ عن العِلْمِ ، ولا يَتْرُكُ العَدلَ[4] .

وكان كاتبُه الوَزِيرُ أبو مُحمَّد عبدُ الله بنُ النَّحويّ أحَدَ البُلَغَاءِ فكتب أذفونش ـ لعَنَهُ الله ـ يُرْعِدُ ويُبْرِقُ ، فأجَابَ : وصَلَ إلى المَلِكِ المُظَفَّرِ من عَظِيمِ الرُّومِ كتابُ مُدَّعٍ في المَقَادِيرِ ، يُرْعِدُ ويُبْرِقُ ، ويَجمَعُ تارةً ويُفَرِّقُ تارةً ، ويُهدِّدُ بالجُنُودِ الوافِرَةِ ، ولَمْ يَدْرِ أنَّ لله جُنُوداً أعَزَّ بهم الإسْلامَ ، وأظْهَرَ بهم دينَ نبيِّنا صلى الله عليه وسلم ، يُجَاهِدُون في سَبيلِ الله ، ولا يَخافُونَ في الله لَوْمَةَ لائِمٍ ، فأمَّا تَعْيِيرُكَ للمُسلمينَ فيما

---

(١) انظر السير : (السلطان) ١٧/ ٤٨٣ـ ٤٩٥ ، وانظر النزهة : ٣/١٣٥٣ .
(٢) أي مُغيظاً لهم .
(٣) الجدُّ : الجَلالُ والعظمة .
(٤) انظر السير : (المُظفَّر بن الأفطس) ١٨/ ٥٩٤ـ٥٩٧ ، وانظر النزهة : ١/١٤٤٦ .

وَهَنَ من أحْوَالِهِم ، فبالذُّنوبِ المَركُوبَة ، والفِرَقِ المَنْكُوبَة ، ولو اتَّفَقَتْ كلمَتُنا عَلمت أيَّ صائبٍ أذَقْناكَ ، كما كانت آباؤُك مع آبائِنا ، وبالأمْس كانت قَطيعَةُ المَنْصُورِ علىٰ سَلَفِك ، أهْدَى ابنتَه إليه ، مع الذَّخائِرِ التي كانت تَفِدُ في كلِّ عامٍ عليه ، ونحنُ فإن قَلَّتْ أعْدادُنا ، وعُدِمَ من المَخْلُوقِين اسْتِمْدادُنا فما بَيْنَنا وبَيْنَك بَحرٌ تُبْصِرُه في يَومِك ، وبالله وملائِكَتِه نَتَقَوَّىٰ عَلَيْك ، لَيْسَ لنا سِواهُ مَطْلَبٌ ، ولا إلىٰ غَيرِه مَهْرَبٌ ، وهل تَربَّصُونَ بِنَا إلاَّ إحْدَى الحُسْنَيَيْنِ : شَهَادةٌ ، أو نَصْرٌ عَزيزٌ .

ولمَّا تُوفِّيَ المُظَفَّرُ بعد السبعِينَ وأربع مِئةٍ أو قبلَها ، قامَ في المُلْكِ بعدَه وَلَدُهُ المُلَقَّبُ بالمُتَوَكِّلِ على الله أبو حَفْصٍ عُمَرُ ابنُ الأفطَسِ صاحِبُ بَطَلْيَوس ويابُرة وشَنْتَرين وأشْبُونَة فكان نَحْواً من أبيه في الشَّجاعَةِ والبَرَاعَةِ والأدَبِ والبَلاغَةِ فبَقِيَ إلىٰ أن قَتَلَه المُرابِطُون جُندُ يُوسُفَ بنَ تاشفينَ صَبراً ، وقتَلوا مَعَه ولَدَيْهِ الفَضْلَ وعَبَّاساً ، في سنةِ خَمْسٍ وثَمَانِينَ وأربعِ مِئَة ، إذ اسْتَولَوا على الأنْدَلُسِ[1] .

وكان نُورُ الدِّين زِنْكِي بَطَلاً شُجَاعَاً وافِرَ الهَيْبَة ، حَسَنَ الرَّميِّ ، مَليحَ الشَّكْلِ ، ذا تَعَبُّد وخَوْف ووَرَع ، وكان يَتَعرَّضُ للشَّهَادَةِ ، سَمِعَه كاتِبُه أبو اليُسْرِ يَسْألُ الله أنْ يُحْشَرَ من بُطُونِ السِّباعِ وحَواصِلِ الطَّيْر .

وبنىٰ دَارَ العَدْلِ ، وأَنْصَفَ الرَّعِيَّة ، ووَقَفَ على الضُعَفَاءِ والأيْتام والمُجاوِرين وأَمَرَ بتَكْميل سُورِ المدينة النَّبَويَّة ، واسْتَخْرَاجِ العَيْن بأُحد دَفَنَهَا السَّيْلُ ، وفَتَحَ دَرْبَ الحِجَاز ، وعَمَّر الخَوَانِق والرُّبُطَ والجُسُورَ والخاناتِ بدِمَشْقَ وغيرها وكذا فعل إذْ مَلَكَ حَرَّانَ وسنْجَارَ والرُّها والرَّقَّة ومَنْبج وشَيْزَر وحِمْصَ وحَمَاة وصَرْخَد وبَعْلَبَكَّ وتَدْمُرَ ووَقَفَ كُتُباً كثيرةً مُثَمَّنَة ، وكَسَرَ الفِرنْجَ والأَرْمَنَ علىٰ حارِم وكانوا ثلاثين ألفاً فقَلَّ مَنْ نَجَا ، وعلىٰ بانياس[2] .

وكانت الفِرنْجُ قد استضَرَّتْ علىٰ دِمَشقَ ، وجعلوا عليها قطيعةً ، وأتاهُ أميرُ الجُيُوشِ شَاوَرُ مُستَجيراً به ، فأكْرَمَه ، وبَعَثَ معه جَيشاً ليُرَدَّ إلىٰ مَنصِبه ، فانتَصَرَ ،

---

(١) انظر السير : (المُظفَّر بن الأفطس) ١٨/ ٥٩٤ـ٥٩٧ ، وانظر النزهة : ٢/١٤٤٦ .

(٢) انظر السير : (نور الدين) ٢٠/ ٥٣١ـ٥٣٩ ، وانظر النزهة : ١/١٥٨٠ .

لكنَّه تَخَابَثَ وتَلائَمَ ، ثم استنجَدَ بالفِرنْجِ ، ثم جَهَّزَ نورُ الدين رحِمَه الله جَيشاً لَجِباً مع نائِبه أَسَدِ الدين شِيركُوه ، فافتَتَحَ مِصرَ ، وقَهَرَ دولتَها الرَّافِضِيَّة ، وهَرَبَتْ منه الفِرنْجُ ، وقُتِلَ شَاوَرُ وصَفَتِ الدِّيارُ المِصْرِيَّة لشِيركُوه نائبِ نورِ الدين ، ثم لصَلاحِ الدين ، فأَبَادَ العُبَيْدِيينَ واسْتَأْصَلَهم ، وأَقَامَ الدَّعوةَ العَبَّاسِيَّة .

وكان نورُ الدِّين مَلِيحَ الخَطِّ ، كثيرَ المُطالَعَةِ ، يُصَلِّي في جَماعَةٍ ويَصُومُ ويَتْلُو ويُسَبِّحُ ، ويَتَحَرَّىٰ في القُوتِ ويَتَجَنَّبُ الكِبرَ ، ويَتَشَبَّه بالعُلَمَاءِ والأَخْيَارِ ، ذَكَرَ هٰذا ونَحْوَه الحافِظُ ابنُ عَسَاكِرٍ ، ثم قال : رَوَىٰ الحَدِيثَ ، وأَسْمَعَه بالإجازَةِ ، وكان مَنْ رَآهُ شَاهَدَ من جَلالِ السَّلْطَنَةِ وهَيْبَةِ المُلكِ ما يَبْهَرُهُ ، فإذا فَاوَضَهُ ، رَأَىٰ من لَطَافَتِه وتَوَاضُعِهِ ما يُحَيِّرُه ، حَكَىٰ مَنْ صَحِبَهُ حَضَراً وسَفَراً أَنَّه ما سُمِعَ منه كَلِمَةُ فُحْشٍ في رِضَاهُ ، ولا في ضَجَرِه ، وكان يُواخِي الصَّالِحين ، ويَزُورُهم ، وإذا احْتَلَمَ مَمَالِيكُهُ أَعْتَقَهُم ، وزَوَّجَهُم بجَوَارِيهِ ، ومتىٰ تشكَّوْا من وُلاتِهِ عَزَلَهُم ، وغَالِبُ ما تَمَلَّكَهُ من البُلْدَانِ تَسَلَّمَهُ بالأَمانِ ، وكان كُلَّما أَخَذَ مدينةً ، أَسْقَطَ عن رَعِيَّتِه قِسْطاً[1] .

وقال أبو الفَرَجْ بنُ الجَوْزِيّ : جاهَدَ نورُ الدِّين وانْتَزَعَ من الكُفَّارِ نَيِّفاً وخَمْسِين مدينةً وحِصْناً ، وبَنَىٰ بالمَوْصِلِ جامِعاً غَرِمَ عليه سَبْعِينَ ألفَ دِينَار ، وتَرَكَ المُكُوسَ قبلَ مَوْتِه ، وبَعَثَ جُنُوداً فَتَحُوا مِصْرَ ، وكان يَمِيلُ إلى التَّواضُعِ وحُبِّ العُلَمَاءِ ، والصُلَحَاءِ ، وكاتَبَنِي مِراراً ، وعَزَمَ علىٰ فَتْحِ بَيْتِ المَقْدِسِ ، فتُوُفِّيَ سَنَةَ تسعٍ وسِتِّينَ وخَمْسِ مِئَة[2] .

وقال المُوَفَّقُ عبدُ اللَّطِيفِ : كان نورُ الدِّين لَمْ يَنْشَفْ له لِبدٌ من الجِهَادِ ، وكان يأكُلُ من عَمَلِ يَدِه ، يَنْسِجُ تارةً ، ويَعْمَلُ أَغْلافاً تارةً ، ويَلْبَسُ الصُّوفَ ، ويُلازِمُ السَّجادَةَ والمُصْحَفَ ، وكان حَنَفِيّاً يُراعِي مَذْهَبَ الشَّافِعِيِّ ومَالِك وكان ابنُهُ الصَّالِحُ إسْماعِيلُ أَحْسَنَ أَهْلِ زَمَانِه[3] .

---

(١) انظر السير : (نور الدين) ٢٠/ ٥٣١ـ ٥٣٩ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٨٠ .
(٢) انظر السير : (نور الدين) ٢٠/ ٥٣١ـ ٥٣٩ ، وانظر النزهة : ١/١٥٨١ .
(٣) انظر السير : (نور الدين) ٢٠/ ٥٣١ـ ٥٣٩ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٨١ .

وقال ابنُ الأثير : جاءَ نورَ الدين زِنكي رجلٌ يَطْلُبُه إلى الشَّرْعِ ، فجاءَ معَهُ إلىٰ مَجْلِسِ كمَالِ الدين الشَّهرَزوريِّ ، وتَقَدَّمَه الحَاجِبُ يقولُ للقاضي : قد قالَ لكَ : اسْلُك مَعَهُ ما تَسْلُك مع آحَادِ النَّاسِ ، فلمَّا حَضَرَ سَوَّىٰ بينَه وبينَ خَصْمِه وتَحَاكَمَا فلَمْ يَثْبُتْ للرَّجُلِ عليه حَقٌّ ، وكان مِلْكَاً ، ثم قال السُّلطَانُ : فاشْهَدُوا أنِّي قد وَهَبْتُهُ له .

قال العِمَادُ في « البَرْقِ الشَّامِيّ » أكثَرَ نورُ الدين عامَ مَوْتِه من البرِّ والأوْقَافِ وعِمَارَةِ المَسَاجِد ، وأسْقَطَ ما فيه حَرَامٌ ، فما أبْقَىٰ سِوَى الجِزْيَةَ والخَرَاجَ والعُشْرَ ، وكَتَبَ بذلك إلىٰ جَميعِ البِلادِ ، فكَتَبْتُ له أكثَرَ من ألْفِ مَنْشُورٍ[1] .

وقال ابنُ وَاصِل : كان نورُ الدِّين من أَقْوَى النَّاسِ قَلْباً وبَدَناً ، لَمْ يُرَ علىٰ ظَهْرِ فَرَسٍ أَحَدٌ أَشَدَّ منهُ ، كأنَّما خُلِقَ عليه لا يَتَحَرَّكُ ، وكان يقولُ : طالَمَا تَعَرَّضْتُ للشَّهَادَةِ ، فلَمْ أُدْرِكْها .

قال الذَّهبيُّ : قد أدْرَكَها علىٰ فِراشِه ، وعلىٰ ألْسِنَةِ النَّاسِ : نُورُ الدِّينِ شَهِيدٌ[2] .

قال سِبطُ الجَوزِيّ : حَكَىٰ لي نَجْمُ الدِّين بنُ سَلام عن وَالِدِه أنَّ الفِرنْجَ لمَّا نزَلَت علىٰ دِمْياطَ ، ما زالَ نورُ الدِّين عِشْرِين يوماً يَصُومُ ، ولا يُفطِرُ إلاَّ على المَاءِ ، فضَعُفَ وكادَ يَتْلَفُ ، وكان مَهِيباً ، ما يَجْسُرُ أحدٌ يُخاطِبُه في ذلك ، فقال إمامُه يَحْيَىٰ : إنَّه رَأَى النبيَّ صلى الله عليه وسلم في النَّوم يقولُ : يا يَحْيَىٰ ، بَشِّرْ نورَ الدِّينِ برَحِيلِ الفِرنْجَ عن دِمْياطَ ، فقلتُ : يا رسُولَ الله ، رُبَّما لا يُصَدِّقُني قال : قُلْ لَهُ : بعَلامَةِ يوم حارِمٍ وانتَبَهَ يَحْيَىٰ ، فلمَّا صَلَّىٰ نورُ الدِّين الصُّبحَ ، وشَرَعَ يَدْعُو ، هَابَه يَحْيَىٰ فقال له : يا يَحْيَىٰ تُحَدِّثُنِي أوْ أُحَدِّثُكَ ؟ فارْتَعَدَ يَحْيَىٰ ، وخَرُسَ ، فقال نورُ الدين : أنا أُحَدِّثُكَ ، رَأَيْتَ النَبيَّ صلى الله عليه وسلم هـٰذِهِ الليلَةَ ، وقال لكَ كَذَا وكَذَا ، قال : نَعَم فبالله يا مَوْلانا ما مَعْنَىٰ قوله بعَلامَةِ يوم حارِمٍ ؟ فقال : لمَّا الْتَقَيْنَا العَدُوَّ ، خِفْتُ على الإسْلامِ ، فانْفَرَدْتُ ونَزَلْتُ ، ومَرَّغْتُ وَجْهِيَ على التُّرابِ ، وقُلتُ : يا سَيِّدِي مَنْ

---

(١) انظر السير : (نور الدين) ٢٠/ ٥٣١ـ٥٣٩ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٨٢ .
(٢) انظر السير : (نور الدين) ٢٠/ ٥٣١ـ٥٣٩ ، وانظر النزهة : ٤/١٥٨٢ .

مَحمُودٌ في البَيْن ، الدِّينُ دِينُك ، والجُنْدُ جُنْدُك ، وهـٰذا اليَوْم افْعَلْ ما يَلِيقُ بكَرَمِكْ ، قال : فنَصَرَنا اللهُ عَليهِم .

وتَمَلَّكَ بعدَهُ ابنُه المَلِكُ الصَّالِحُ أشْهُراً ، وسَلَّمَ دِمَشْقَ إلى السُّلطانِ صَلاحِ الدِّين وتَحَوَّلَ إلىٰ حَلَبَ فدَامَ صَاحِبَها تِسْعَ سِنينَ وماتَ بالقُولَنْج ، وله عِشْرُونَ سنةً ، وكان شاباً دَيِّناً رَحِمَهُ اللهُ[1] .

وجاءَ في تَرجَمَةِ صَلاح الدِّين : قال الذَّهبيُّ : السُّلطَانُ الكَبِيرُ ، المَلِكُ النَّاصِرُ ، صَلاحُ الدِّينِ ، أبو المُظَفَّر ، يُوسُفُ بنُ الأميرِ نَجْمِ الدِّينِ أيُّوبَ بنِ شَاذِي التَّكْرِيتِيّ المَوْلد .

وُلِدَ في سَنَةِ اثنتَين وثلاثين وخَمْسِ مِئَة إذْ أبُوهُ نَجْمُ الدِّينِ مُتَوَلِّي تِكْريتَ نِيَابَةً .

ودُويْنُ : بُلَيْدَةٌ بطَرفِ أذْرِبيجَانَ من جِهَةِ أرانَ ، والكَرَج ، أهْلُها أكْرادٌ هَذَبانيَّة[2] .

وكان نُورُ الدِّينِ قد أَمَّرَه ، وبَعَثَه في عَسْكَرِه مع عَمِّه أَسَدِ الدِّين شِيركُوه ، فحَكَمَ شِيركُوه مِصْرَ ، فما لَبِثَ أنْ تُوُفِّيَ ، فقَامَ بَعْدَه صَلاحُ الدِّين ، ودَانَتْ له العَساكِرُ ، وقَهَرَ بني عُبَيْدٍ ، ومَحَا دَوْلَتَهُم واستَولَىٰ علىٰ قَصْرِ القَاهِرَة بما حَوَىٰ من الأَمْتِعَةِ والنَّفَائِس ، منها الجبلُ الياقُوتُ الذي وزْنُه سَبْعةَ عَشَرَ دِرْهَماً ، قال مُؤَلِّفُ « الكَامِلْ » ، ابنُ الأثِير : أنا رَأيْتُه ووَزَنْتُه .

وخَلا القَصْرُ من أهْلِه وذَخَائِرِه ، وأقَامَ الدَّعْوَةَ العَبَّاسيَّة .

وكان خَلِيقاً للإمَارَةِ ، مَهِيباً ، شُجَاعَاً حَازِمَاً ، مُجَاهِداً كَثِيرَ الغَزْوِ ، عَالِيَ الهِمَّة ، كانت دَوْلَتُه نيِّفاً وعِشْرينَ سنةً .

وتَمَلَّكَ بعد نُورِ الدِّين ، واتَّسَعَتْ بلادُه .

ومنذُ تَسلْطَنَ ، طَلَّقَ الخَمْرَ واللَّذاتِ ، وأنْشَأَ سُوراً على القاهِرةِ ومِصْرَ[3] وبَعَثَ

---

(١) انظر السير : (نور الدين) ٢٠/٥٣١ـ٥٣٩ ، وانظر النزهة : ٥/١٥٨٢ .

(٢) انظر السير : (صلاح الدين وبنوه) ٢١/٢٧٨ـ٢٩١ ، وانظر النزهة : صلاح الدين : ١/٩١٦١ .

(٣) يعني فسطاط مصر ، وكانت لفظة مصر وحتى اليوم تُطلق على الفسطاط .

أخَاه شَمْسَ الدِّين في سَنَةِ ثمانٍ وستينَ ، فافْتَتَحَ بَرْقَةَ ، ثمَّ افْتَتَحَ اليَمَنَ وسَارَ صَلاحُ الدِّين ، فأخَذَ دِمَشْقَ من ابنِ نُورِ الدِّين[1] .

وفي سَنَةِ إحْدَىٰ وسَبْعين وثَبَتْ عليه البَاطِنيَّةُ فجَرَحُوه .

وفي سَنَةِ ثلاثٍ كَسَرَتْه الفِرنْجُ على الرَّمْلَةِ ، وفَرَّ في جَمَاعَةٍ ونجا ، وفي سَنَةَ خَمْسٍ الْتَقَاهُم وكَسَرَهُم .

وفي سَنَةِ ثمانٍ عَدَّى الفُرَاتَ ، وأَخَذَ حَرَّانَ ، وسَرُوجَ ، والرَّقَّةَ ، والرُّهَا ، وسِنْجَار ، والبِيْرَةَ ، وآمِدَ ، ونَصِيْبِينَ ، وحَاصَرَ المَوْصِلَ ، ثمَّ تَمَلَّكَ حَلَبَ ، وعَوَّضَ عنها صاحِبَها زِنْكِي بسِنْجَار ، ثم إنه حاصر المَوْصِلَ ثانياً وثالثاً ، ثمَّ صَالَحَه صاحِبُها عِزُّ الدِّين مَسْعُود[2] .

وفي سَنَةِ ثلاثٍ وثمَانِينَ فَتَحَ طَبَرِيَّةَ ، ونَازَلَ عَسْقَلانَ ، ثمَّ كانت وَقْعَةُ « حِطِّيْنَ » بَيْنَه وبَيْنَ الفِرَنْج ، وكانوا أرْبَعِينَ ألفاً ، فحَالَ بيْنَهُم وبينَ المَاءِ علىٰ تَلٍّ ، وسَلَّمُوا نُفُوسَهُم ، وأُسِرَتْ مُلُوكُهم ، وبَادَرَ ، فأَخَذَ عَكَّا وبَيْرُوتَ وكَوْكَبَ ، وسَارَ فحَاصَرَ القُدْسَ ، وجَدَّ في ذلك فأخَذَها بالأمَانِ[3] .

ثمَّ إنَّ الفِرَنْجَ قامَتْ قِيامَتُهُم علىٰ بَيْتِ المَقْدِس ، وأَقْبَلُوا كقِطَعِ اللَّيلِ المُظْلِم بَرّاً وبَحْرَاً ، وأَحَاطُوا بعكَّا ليَسْتَرِدُّوها ، وطَالَ حِصَارُهم لها ، وبَنَوا علىٰ نفُوسِهِم خَنْدَقاً ، فأحَاطَ بهم السُّلطَانُ ، ودَامَ الحِصَارُ لهم وعليْهِم نَيْفاً وعِشْرينَ شَهْراً ، وجَرَىٰ في غُضُونِ ذلك مَلاحِمُ وحُرُوبٌ تُشَيِّبُ النَّوَاصِي ، وما فُكُّوا حتّىٰ أخَذُوها ، وجَرَتْ لهُم وللسُّلطَانِ حُرُوبٌ وسِيَرٌ وعِنْدَما ضَرِسَ الفَرِيقَان ، وكَلَّ الحِزْبَان ، تَهَادَنَ المِلَّتان[4] .

وكانت له هِمَّةٌ في إقامَةِ الجِهَادِ ، وإبادَةِ الأضْدَادِ ، ما سُمِعَ بمثلِها في دَهْرٍ[5] .

---

(١) انظر السير : (صلاح الدين وبَنوه) ٢١/٢٧٨ـ ٢٩١ ، وانظر النزهة : صلاح الدين : ٢/١٦١٩ .
(٢) انظر السير : (صلاح الدين وبَنوه) ٢١/٢٧٨ـ ٢٩١ ، وانظر النزهة : صلاح الدين : ٣/١٦١٩ .
(٣) انظر السير : (صلاح الدين وبَنوه) ٢١/٢٧٨ـ ٢٩١ ، وانظر النزهة : صلاح الدين : ١/١٦٢٠ .
(٤) انظر السير : (صلاح الدين وبَنوه) ٢١/٢٧٨ـ ٢٩١ ، وانظر النزهة : صلاح الدين : ٢/١٦٢٠ .
(٥) انظر السير : (صلاح الدين وبَنوه) ٢١/٢٧٨ـ ٢٩١ ، وانظر النزهة : صلاح الدين : ٣/١٦٢٠ .

قال ابنُ واصِلٍ في حِصَارِ عزاز : كانت خَيْمَةٌ كان السُّلطانُ يَحْضُرُ فيها ، ويَحُضُّ الرِّجَالَ ، فحَضَرَ باطِنيَّةٌ في زِيِّ الأجْنَادِ ، فقفَزَ عليه واحدٌ ضَرَبَه بسِكِّينٍ لَوْلا المِغْفَرُ الزَّرَدُ[1] الذي تحتَ القَلَنْسُوة لقتَلَه ، فأمْسَكَ السُّلطَانُ يَدَ البَاطِنيِّ بيَدَيْه ، فبَقِيَ يَضْرِبُ في عُنُقِ السُّلطَانِ ضَرْباً ضَعِيفاً ، والزَّرَدُ تَمْنَع ، وبادَرَ الأميرُ بازكوج ، فأمْسَكَ السِّكِّينَ ، فجَرَحَتْه ، وما سَيَّبَها الباطِنيُّ حتّىٰ بَضَّعُوه ، ووَثَبَ آخَرُ ، فوَثَبَ عليه ابنُ منكلان ، فجَرَحَه الباطِنيُّ في جَنْبِه ، فمَاتَ ، وقُتِلَ الباطِنيُّ ، وقَفَزَ ثالثٌ ، فأمْسَكَه الأميرُ عليُّ بنُ أبي الفَوَارِس ، فضَمَّه تحتَ إبطِه ، فطَعَنَهُ صاحِبُ حمص ، فقتَلَهُ ، ورَكِبَ السُّلطانُ إلىٰ مُخَيَّمِه ، ودَمُه يَسِيلُ علىٰ خَدِّه ، واحْتَجَبَ في بَيْتِ خَشَبٍ ، وعَرَضَ جُنْدَهُ ، فمَنْ أنْكَرَهُ ، أبْعَدَهُ[2] .

قال المُوفَّقُ عبدُ اللَّطيف : أتَيْتُ ، وصَلاحُ الدِّين بالقُدْسِ ، فرَأيْتُ مَلِكاً يَمْلأُ العُيُونَ رَوعَةً ، والقُلُوبَ مَحَبَّةً ، قريباً بَعِيداً ، سَهْلاً مُحَبَّباً ، وأصْحَابُه يَتَشَبَّهُون به يَتَسابقُون إلى المَعْرُوف كما قال تعالَىٰ : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا ﴾[3] وأولُ ليلةٍ حَضَرْتُه وَجَدْتُ مَجْلِسَه حَفْلاً بأهْلِ العِلْمِ يَتَذَاكرُون ، وهو يُحْسِنُ الاسْتِمَاعَ والمُشَارَكَةَ ، ويأخُذُ في كَيْفِيَّةِ بناءِ الأسْوارِ ، وحَفْرِ الخَنَادِق ، ويأتي بكُلِّ مَعْنىً بَدِيع ، وكان مُهْتَمّاً في بِنَاءِ سُورِ بَيْتِ المَقْدِسِ وحَفْرِ خَنْدَقِه ، ويَتَولّىٰ ذلك بنَفْسِه ، ويَنْقُلُ الحِجَارَةَ علىٰ عاتِقِه ويَتَأسَّىٰ به الخَلْقُ حتّى القاضِي الفَاضِل ، والعِمَادُ إلىٰ وَقْتِ الظُّهْر ، فيَمُدُّ السماطَ ويَسْتَرِيحُ ، ويَرْكَبُ العَصْرَ ، ثمَّ يَرْجِعُ في ضَوْءِ المَشَاعِل ، قال له صَانِعٌ : هٰذه الحِجَارَةُ التي تُقَطَّعُ من أسْفَلِ الخَنْدَقِ رِخْوَةٌ ، قال : كذا تَكُونُ الحِجَارَةُ التي تَلِي القَرَارَ والنَّدَاوَةَ ، فإذا ضَرَبَتْها الشَّمسُ ، صَلُبَتْ وكان يَحْفَظُ « الحَمَاسَة » ، ويَظُنُّ أنَّ كُلَّ فَقِيهٍ يَحْفَظُها ، فإذا أنْشَدَ وتَوَقَّفَ ، اسْتَطْعَمَ فلا يُطْعَمُ ، وجَرَىٰ له ذلك مع القاضِي الفَاضِل ، ولَمْ يَكُنْ يَحْفَظُها ، وخَرَجَ ، فما زَالَ حتّىٰ حَفِظَها .

---

(١) الزَّرَدُ : زرد يُنسج من الدروع علىٰ قدر الرأس ، يُلبَس تحت القلنسوة .

(٢) انظر السير : (صلاح الدين وبَنوه) ٢١/ ٢٧٨ـ ٢٩١ ، وانظر النزهة : صلاح الدين : ١٦٢٠/ ٤ .

(٣) سورة الحجر ، الآية : ٤٧ .

وكانت وَقْعَتُهُ بِمِصْرَ مع السُّودان ، وكانوا نَحْوَ مِئَتَيْ ألفٍ ، فنُصِرَ عليهم ، وقَتَلَ أكثرَهم .

حُمَّ صَلاحُ الدِّين ، ففَصَدَه مَنْ لا خِبْرَةَ له ، فخَارَتْ القُوَّةُ ، وماتَ ، فوَجَدَ النَّاسُ عليه شَبِيهاً بما يَجِدُونَه على الأنْبِيَاءِ ، وما رَأيْتُ مَلِكاً حَزِنَ النَّاسُ لمَوْتِه سِواهُ ، لأنَّه كان مُحَبَّباً ، يُحِبُّه البَرُّ والفَاجِرُ ، والمُسْلِمُ والكَافِرُ ، ثمَّ تَفَرَّقَ أوْلادُه وأصْحَابُه أيَادِيَ سَبَأٍ ، وتَمَزَّقُوا ولقَدْ صَدَقَ العِمَادُ في مَدْحِهِ حَيْثُ يقولُ :[1] .

وللنَّاسِ بالمَلِكِ النَّاصِرِ الصَّلا	حِ صَلاحٌ ونَصْرٌ كَبِيرُ
هوَ الشَّمسُ أَفْلاكُهُ فِي البِلا	دِ ومَطْلَعُهُ سِرْجُهُ والسَّرِيرُ
إذ مَا سَطَا أوْ حَبَا واحْتَبَى	فمَا اللَّيْثُ مِنْ حَاتِمٍ ما ثَبِيرُ[2]

وفي سَنَةِ ثلاثٍ وثمَانِينَ افْتَتَحَ صَلاحُ الدِّينِ بلادَ الفِرَنْجَ ، وقَهَرَهم ، وأبَادَ خَضْراءَهم ، وأَسَرَ مُلُوكَهم علىٰ « حِطِّينَ » وكان قد نَذَرَ أنْ يَقْتُلَ أرْناطَ صاحِبَ الكَرَكِ ، فأُسِرَ يومَئذٍ ، كان قد مَرَّ به قومٌ من مِصْرَ في حَالِ الهُدنَةِ ، فغَدَرَ بهم ، فناشَدُوهُ الصُّلْحَ ، فقال ما فيه اسْتِخْفافٌ بالنَبِيِّ صلى الله عليه وسلم ، وقتَلَهم ، فاسْتَحْضَرَ صلاحُ الدِّين المُلُوكَ ، ثمَّ ناوَلَ المَلِكَ جِفْرِي شَرْبَةَ جلابٍ ثلجٍ فشَرِبَ ، فناوَلَ أرْناطَ فشَرِبَ ، فقال السُّلطانُ للتُّرجُمَانِ ، قُلْ لجِفْرِي : أنْتَ الذي سَقَيْتَه ، وإلاَّ أنا فمَا سَقَيْتُه ، ثمَّ اسْتَحْضَرَ البرِنْسَ أرْنَاطَ في مَجْلِسٍ آخَرَ ، وقال : أنا أنْتَصِرُ لمُحمَّدٍ صلى الله عليه وسلم مِنْكَ ، ثمَّ عَرَضَ عليه الإسْلامَ ، فأبَىٰ فحَلَّ كَتِفَه بالنِّيمجاه[3] وافْتَتَحَ عامَةُ ما لَمْ يَفْتَحْهُ مَلِكٌ ، وطارَ صِيتُه في الدُّنيا ، وهَابَتْهُ المُلُوكُ .

تُوفِّيَ بقَلعَةِ دِمَشْقَ سَنَةَ تِسْعٍ وثمَانِينَ وخَمسِ مِئَة .

مَحاسِنُ صلاحُ الدِّين جَمَّةٌ ، لا سِيَّمَا الجِهَادُ ، فلَه فيه اليَدُ البَيْضاءُ ببَذْلِ الأمْوالِ

---

(١) انظر السير : (صلاح الدين وبَنوه) ٢١/٢٧٨ـ ٢٩١ ، وانظر النزهة : صلاح الدين : ١/١٦٢١ .

(٢) انظر السير : (صلاح الدين وبَنوه) ٢١/٢٧٨ـ ٢٩١ ، وانظر النزهة : صلاح الدين : ١/١٦٢٢

(٣) النِّيمجاه : خنجر مقوس يُشبِه السيفَ القصير .

والخَيْلِ المُثَمَّنَة لجُنْدِه ، وله عَقلٌ جَيِّدٌ ، وفَهمٌ وحَزمٌ وعَزمٌ[١] .

قال العِمادُ : لا يَلْبَسُ إلاَّ ما يَحِلُّ لُبْسُهُ كالكِتَّانِ والقُطْنِ ، نَزَّهَ المجالِسَ من الهَزلِ ، ومَحَافلُه آهِلَةٌ بالفُضَلاءِ ، ويُؤْثِرُ سَمَاعَ الحَدِيثِ بالأسانيدِ ، حَليماً ، مُقيلاً للعَثْرةِ ، تَقِيّاً نَقِيّاً وَفِيّاً صَفِيّاً ، يُغْضي ولا يَغْضَبُ ، ما رَدَّ سائِلاً ، ولا خَجَّلَ قائلاً ، كَثيرَ البرِّ والصَّدَقاتِ ، أنْكرَ عليَّ تَحْلِيَةَ دَواتِي بفِضَّةٍ فقُلتُ : في جَوَازِهِ وَجْهٌ ذَكَرَه أبو مُحمَّد الجُوَيْنيُّ ، وما رَأيتُه صلَّىٰ إلاَّ في جَمَاعَةٍ .

قال الذهبيُّ : وحَضَرَ وفَاتَه القاضي الفَاضِلُ[٢] .

وذَكرَ أبو جَعفَر القُرطُبيُّ إمامُ الكلاَّسةِ[٣] : إنَّني انتَهيتُ في القراءةِ إلىٰ قولِه تعالَىٰ : ﴿ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ﴾[٤] ، فَسَمعتُ صَلاحَ الدِّين وهو يقول : صَحِيح وكان ذِهْنُه قبلَ ذلك غَائِباً[٥] ، ثمَّ ماتَ ، وارْتَفَعَتِ الأصْواتُ بالبُكَاءِ ، وعَظُمَ الضَّجيجُ ، حتىٰ إنَّ العاقِلَ ليُخَيَّلُ له أنَّ الدُّنْيا كُلَّها تَصيحُ صَوْتاً واحداً ، وغَشِيَ النَّاسَ ما شَغَلَهم عن الصَّلاةِ عليه ، وتَأَسَّفَ النَّاسُ عليه حتى الفِرنْجُ لما كان من صِدْقِ وَفائِه[٦] .

وفي الرَّوضَتَين لأبي شامَة : أنَّ السُّلطانَ لَمْ يُخَلِّفْ في خَزَانَتِه من الذَّهبِ والفِضَّةِ إلاَّ سَبعَةً وأربَعينَ درهماً ، وديناراً صُورِيّاً ، ولَمْ يُخَلِّفْ مِلْكاً ولا عَقَاراً رحمه الله ، ولَمْ يَخْتلِفْ عليه في أيَّامِه أحدٌ من أصْحَابِه وكان النَّاسُ يَأمَنُون ظُلمَه ، ويَرجُونَ رِفدَه ، وأكثرُ ما كان يَصِلُ عَطَاؤُه إلى الشُّجعانِ ، وإلى العُلَماءِ وأرْبَابِ البُيُوتاتِ ، ولَمْ يكُنْ لمُبطِلٍ ولا لمَزَّاحٍ عنده نَصِيبٌ .

---

(١) انظر السير : (صلاح الدين وبَنوه) ٢١/٢٧٨ـ ٢٩١ ، وانظر النزهة : صلاح الدين : ٢/١٦٢٢ .

(٢) انظر السير : (صلاح الدين وبَنوه) ٢١/٢٧٨ـ ٢٩١ ، وانظر النزهة : صلاح الدين : ٣/١٦٢٢ .

(٣) كان الشيخ أبو جعفر قد استدعي ليبيت عنده يقرأ القرآن ويُلقنه الشهادة عند حضور الوفاة ، وتُوفي أبو جعفر هـٰذا سنة ٥٩٦ .

(٤) سورة الحشر ، الآية : ٢٢

(٥) وتمام الخبر أن القاضي الفاضل جاءه عند آذان الصبح وكان في آخر رمق ، فلما قرأ القارىء ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ تبسّم وتهلّل وجهُه وأسلم روحه إلىٰ ربه سبحانه .

(٦) انظر السير : (صلاح الدين وبَنوه) ٢١/٢٧٨ـ ٢٩١ ، وانظر النزهة : صلاح الدين : ١/١٦٢٣ .

قال المُوفَّقُ : وكان إذا نَازَلَ بَلَداً ، وأشْرَفَ علىٰ أخْذِه ، ثمَّ طَلَبُوا منه الأمَانَ ، آمَنهُم ، فيَتَألَّمُ لذلك جَيشُه ، لفَوَاتِ حَظِّهم[١] .

وكتَبَ القاضِي الفاضِلُ تَعْزِيَةً إلىٰ صاحِبِ حَلَبْ : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾[٢] ، ﴿ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾[٣] ، كَتَبْتُ إلىٰ مَولانا المَلِكِ الظَّاهِرِ أحْسَنَ اللهُ عَزَاءَه ، وجَبَرَ مُصَابَه وجَعَلَ فيه الخَلَفَ من السَّلَفِ في السَّاعةِ المَذْكُورة ، ولقَدْ زُلْزِلَ المُسْلِمُونَ زِلْزالاً شَدِيداً ، وقد حَضَرَت الدُّموعُ المَحَاجِرَ وبلَغَت القُلوبُ الحَنَاجِرَ ، وقد ودَّعتُ أبَاكَ ومَخْدُومي وَدَاعاً لا تَلاقِيَ بعدَه ، وقَبَّلتُ وجهَه عنِّي وعَنْكَ ، وأسْلَمْتُه إلى اللهِ وَحْدَه مَغْلُوبَ الحِيلَةِ ضَعِيفَ القُوَّةِ راضِياً عن اللهِ ، ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلاَّ باللهِ وبالبابِ من الجُنُودِ المُجَنَّدَةِ والأسْلِحَةِ المُعَمَّدَةِ ما لَمْ يَدْفَعِ البَلاءَ ولا ما يَرُدُّ القَضَاءَ ، تَدْمَعُ العَينُ ويَخْشَعُ القَلبُ ، ولا نقولُ إلاَّ ما يُرضِي الرَّبَ ، وإنَّا بك يا يُوسُفُ لمَحْزُونُون .

ولِلْعَلَمِ الشَّاتانيِّ فيه قَصِيدةٌ مَطلَعُها :

أرَى النَّصْرَ مَقرُوناً برَايَتِكَ الصَّفْرَا ... فسِرْ وامْلُكِ الدُّنيا فأنْتَ بها أحْرَىٰ[٤]

وقال المُنْذِرِيُّ : أنْشَأَ الكَامِلُ دارَ الحَدِيثِ بالقاهِرةِ ووَقَفَ الوُقُوفَ علىٰ أنوَاعِ البِرِّ ، وله المَوَاقِفُ المَشْهُورَةُ في الجِهَادِ بدِمْياطَ المُدَّةَ الطويلة ، وأنفَقَ الأموالَ وكافَحَ الفِرَنْجَ بَراً وبَحْراً يَعْرِفُ ذلكَ مَنْ شَاهَدَهُ ، ولَمْ يَزَلْ علىٰ ذلكَ حتىٰ أعَزَّ اللهُ الإسْلامَ ، وخَذَلَ الكُفْرَ ، وكان مُعَظِّماً للسُّنَّةِ وأهْلِها ، رَاغِباً في نَشْرِها والتَّمَسُّكِ بها ، مُؤثِراً للاجْتِمَاعِ بالعُلَمَاءِ والكَلامِ مَعَهُم حَضَراً وسَفَراً[٥] .

ومِن هِمَّتِه أنَّ الفِرنْجَ لمَّا أَخَذُوا دِمْياطَ أنشَأَ علىٰ بَرِيدٍ منها مَدِينَةَ المَنْصُورَةَ

---

(١) انظر السير : (صلاح الدين وبنوه) ٢١/ ٢٧٨ـ ٢٩١ ، وانظر النزهة : صلاح الدين : ٢/١٦٢٣ .
(٢) سورة الأحزاب ، الآية : ٢١
(٣) سورة الحج ، الآية : ١
(٤) انظر السير : (صلاح الدين وبنوه) ٢١/ ٢٧٨ـ ٢٩١ ، وانظر النزهة : صلاح الدين : ٣/١٦٢٣
(٥) انظر السير : (الكامل) ٢٢/ ١٢٧ـ ١٣١ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٧٥ .

واسْتَوطَنَهَا مُرابِطاً حتىٰ نَصَرَهُ الله فإنَّ الفِرنْجَ طَمِعُوا في أخْذِ مِصْرَ ، وعَسْكَرُوا بقُربِ المَنصُورَة ، والْتَحَمَ القِتَالُ أيّاماً وألَحَّ الكَامِلُ علىٰ إخْوَته بالمَجِيء ، فجاءَهُ أَخَوَاهُ الأشْرَفُ والمُعَظَّمُ في جَيْشٍ لَجِبٍ ، وهَيْئَةٍ تامَّةٍ فقَوِيَ الإسْلامُ ، وضَعُفَتْ نُفُوسُ الفِرنْجِ ورُسُلُهُم تَتَرَدَّدُ ، وبَذَلَ لهم الكَاملُ قبلَ مَجِيءِ النَّجدَةِ القُدسَ وطَبَرِيَّة وعَسْقَلانَ وجَبْلَة واللاَّذِقيّة وأشياءَ علىٰ أن يَرُدُّوا له دِمْياطَ فأبَوا ، وطلَبُوا مع ذلك ثلاثَ مِئَةِ ألفِ دينار ليُعَمِّرُوا بها أسْوارَ القُدسِ ، وطَلَبُوا الكَرَكَ ، فاتَّفَقَ أنَّ جماعَةً من المُسلِمين فَجَّرُوا من النِّيلِ ثَلْمَةً علىٰ مَنْزِلَةِ العَدُوِّ ، فأحَاطَ بهم النِّيلُ في هَيَجَانِه ، ولا خِبْرَةَ لهم بالنِّيلِ ، فحَالَ بينهم وبين دِمْياطَ ، وانقَطَعتْ المِيرَةُ عنهُم ، وجاءُوا وذَلُّوا ، فأرسَلُوا في طلَبِ الأمَانِ علىٰ تَسْلِيمِ دِمْياطَ ، وعَقْدِ هُدنَة ، فأُجِيبُوا فسَلَّمُوا دِمْياطَ بعد اسْتِقرارِهم بها ثلاثَ سِنينَ ، فللَّه الحَمْدُ[1] .

١٩ـ مُحاوَلَةُ صَلاحِ الدِّينِ الاسْتِنْجَادَ بسُلطَانِ المُوَحِّدِينَ ضِدَّ الصَّلِيبيينَ فما اسْتَجابَ لعُذْرٍ سَمِجٍ :

كَتَبَ صَلاحُ الدِّينِ إلىٰ يَعْقُوبَ (صَاحِبُ المَغْرِبِ) يَسْتَنْجِدُ به في حِصَارِ عَكَّا ، ونَفَّذ إليه تَقدمةً ، وخَضَعَ له ، فما رَضِيَ لكَوْنِه ما لَقَّبَهُ بأمِيرِ المُؤمِنِينَ[2] .

٢٠ـ صُوَرٌ من الجِهَادِ :

(ويدخل معها فقرة الأمراء المجاهدون التي ذكرت آنفاً)

وعن ابنِ عُيَيْنَةَ : عن ابنِ أبي خَالِدٍ ، مَوْلَىٰ لآلِ خالدِ بنِ الوَلِيدِ ، أنَّ خَالِداً قال : ما مِنْ لَيْلَةٍ يُهْدَىٰ إليَّ فيها عَرُوسٌ أنا لها مُحِبٌّ أَحَبَّ إليَّ من لَيْلَةٍ شَدِيدَةِ البَرْدِ ، كثِيرَةِ الجَلِيدِ في سَرِيَّةٍ أُصَبِّحُ فيها العَدُوَ[3] .

عن أَنَسٍ : أنَّ أبا طَلْحَةَ قَرَأَ : ﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾[4] . فقال : اسْتَنْفَرَنا اللهُ ،

---

(١) انظر السير : (الكامل) ٢٢/١٢٧ـ١٣١ ، وانظر النزهة : ٣/١٦٧٥ .

(٢) انظر السير : (صاحب المغرب) ٢١/٣١١ـ٣١٩ ، وانظر النزهة : ١/١٦٢٩ .

(٣) انظر السير : (خالد بن الوليد) ١/٣٦٦ـ٣٨٤ ، وانظر النزهة : ٥/١٧٩ .

(٤) سورة التوبة ، الآية : ٤١ .

وأَمَرَنَا شُيُوخَنا وشَبابَنا ، جَهِّزُونِي فقال بَنُوهُ : يَرحَمُك اللهُ! إنَّكَ قد غَزَوْتَ علىٰ عَهْدِ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ، وأبي بَكرٍ رضي الله عنه ، وعُمَرَ رضي الله عنه ، ونَحنُ نَغزُو عَنكَ الآن قال : فغَزَا البَحرَ ، فمَاتَ ، فلَمْ يَجِدُوا له جَزِيرَةً يَدفِنُونَهُ فيها ، إلاَّ بعدَ سَبعَةِ أيَّامٍ ، فلَمْ يَتَغَيَّر[1] .

وشَهِدَ أبو سُفيَانَ بنُ حَرب قِتَالَ الطَّائِفِ ، فقُلِعَتْ عَيْنُه حِينَئِذٍ ، ثم قُلِعَتْ الأُخْرىٰ يومَ اليَرْمُوكِ ، وكان يَومَئِذٍ قد حَسُنَ إنْ شَاءَ اللهُ إيمَانُه ، فإنَّه كان يومَئِذٍ يُحَرِّضُ على الجِهَادِ ، وكان تحت رايَةِ ولَدِهِ يَزِيد ، فكان يَصِيحُ : يا نَصْرَ الله اقْتَرِبْ ، وكان يَقِفُ على الكَرَادِيسِ[2] يُذَكِّرُ ، ويقولُ : اللهَ اللهَ ، إنَّكُم أنْصَارُ الإسْلامِ ودَارَةُ العرَبِ ، وهَؤُلاءِ أنْصَارُ الشِّرْكِ ودَارَةُ الرُّومِ ، اللَّهُمَّ هـٰذا يومٌ من أيَّامِك ، اللَّهُمَّ أَنْزِلْ نَصْرَكَ .

قال الذَّهبيُّ : فإنْ صَحَّ هـٰذا عنه ، فإنَّه يُغْبَطُ بذلك ، ولا رَيْبَ أنَّ حَدِيثَهُ عن هِرَقْلَ عظِيمِ الرُّومِ ، وكِتَابُ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم يدُلُّ علىٰ إيمَانِه ، ولله الحَمْدُ[3] .

وقال الذَّهبيُّ في تَرجَمَةِ أُمِّ عُمَارَة : شَهِدَتْ أُمُّ عُمَارَة (نُسَيْبَةُ بنتُ كَعْب) لَيْلَةَ العَقَبَةَ ، وشَهِدَتْ أُحُداً ، والحُدَيْبِيَة ، ويومَ حُنَيْنٍ ، ويومَ اليَمَامَة وجاهَدتْ ، وفَعَلَتْ الأفَاعِيلَ ، وقُطعَت يدُها في الجِهَادِ .

وكان ضَمْرَةُ بنُ سَعِيدٍ المَازِنِيّ يُحَدِّثُ عن جَدَّتِه ، وكانت قد شَهِدَتْ أُحُداً ، قالت : سَمعتُ رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم يقولُ : « لَمُقَامُ نَسِيبَةَ بنت كَعْبٍ اليومَ خَيرٌ مِنْ مُقَامِ فُلان وفُلان »

وكانت تَرَاهَا تُقَاتِلُ أَشَدَّ ما يكونُ القِتَالُ ، وإنَّها لحَاجِزَةٌ ثَوْبَها علىٰ وَسَطِهَا حتىٰ جُرِحَتْ ثَلاثَةَ عَشَرَ جُرْحاً ، وكانت تقولُ : إنِّي لأنْظُرُ إلى ابنِ قَمِئَة وهو يَضْرِبُها علىٰ عَاتِقِها ، وكان أَعْظَمَ جِرَاحَهَا ، فدَاوَتْهُ سَنةً ثم نادَىٰ مُنَادِي رسُولِ الله صلى الله عليه

---

(١) انظر السير : (أبو طلحة الأنصاريّ) ٢/٢٧ـ٣٤ ، وانظر النزهة : ٣/٢١٤ .

(٢) الكراديس : كتائب الخيل ، واحدها كردوس ، يُقالُ : كردس القائد خيله : أي جعلها كتيبة كتيبة .

(٣) انظر السير : (أبو سفيان بن حرب) ٢/١٠٥ـ١٠٧ ، وانظر النزهة : ٤/٢٢٤ .

وسلم : إلىٰ حَمْراءِ الأَسَد فشَدَّتْ عليها ثِيَابَها ، فما اسْتَطَاعَتْ من نَزْفِ الدَّمِ رَضِيَ الله عنها وأَرْضاها ورَحِمَها .

وعن عُمَارَةِ بنِ غزيّة قال : قالَتْ أُمُّ عُمَارَة : رَأيتُنِي ، وانْكَشَفَ النَّاسُ عن رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ، فما بَقِيَ إلاَّ نُفَيْرٌ ما يُتِمُّونَ عَشرة ، وأنا وابْنَايَ وزَوْجِي بينَ يَدَيْهِ نَذُبُّ عنه ، والنَّاسُ يَمُرُّونَ به مُنْهَزِمينَ ، ورَآنِي ولا تُرْسَ مَعِي ، فرَأىٰ رَجُلاً مُوَلِّياً ومعه تُرْسٌ ، فقال : أَلْقِ تُرْسَكَ إلىٰ مَنْ يُقَاتِلُ فألْقَاهُ فأَخَذْتُه فجَعَلتُ أتَرِّسُ به عن رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ، وإنَّما فَعَلَ بنا الأفَاعِيلَ أصْحابُ الخَيْلِ ، لَوْ كانُوا رِجَّالةً مِثلَنا أَصَبْناهم ، إنْ شَاءَ اللهُ فيُقْبِلُ رَجلٌ علىٰ فَرَسِه يَضْرِبُنِي ، وتَرَّسْتُ له ، فلَمْ يَصْنَعْ شَيئاً ، فأَضْرِبُ عُرقوبَ فَرَسِه ، فوَقَعَ علىٰ ظَهْرِه فجَعَلَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم يَصِيحُ : « يا ابْنَ أُمِّ عُمَارَةَ ، أمَّكَ! أُمَّكَ! » ، قالت : فعَاوَنَنِي عليه ، حتىٰ أَوْرَدْتُه شعوب[1] .

وعن مُحمَّدِ بنِ يَحْيَىٰ بنِ حَبَّانٍ قال : جُرِحَتْ أُمُّ عُمَارَة بأُحُدٍ اثْنَيّ عَشرَ جُرْحاً ، وقُطِعَتْ يَدُها يومَ اليَمَامَةِ ، وجُرِحَتْ يومَ اليَمَامَةِ سِوَىٰ يدِها أَحَدَ عَشَرَ جُرْحاً ، فقَدِمَتِ المدينةَ وبها الجِرَاحَةُ ، فلقد رُئِيَ أبو بكرٍ رضي الله عنه وهوَ خَلِيفةٌ ، يأتِيهَا يَسْأَلُ عنها[2] .

جَاءَ في تَرجَمَةِ أُمِّ سُلَيم (الغُمَيْصَاء) : قال الذَّهَبيُّ : شَهِدَتْ حُنَيْناً ، وأُحُداً من أَفَاضِلِ النِّساء .

وعن أَنَسٍ : أنَّ أُمَّ سُلَيم اتَّخَذتْ خِنْجَراً يومَ حُنَين ، فقال أبو طَلْحَة : يا رسُولَ الله هـٰذه أُمُّ سُلَيم معها خِنْجَرٌ! فقالت : يا رسُولَ الله ، إنْ دَنَا مِنِّي مُشْرِكٌ بَقَرْتُ بَطْنَهُ .

وعن إسْحاقَ بنِ عبدِ الله ، عن جَدَّتِهِ أُمِّ سُلَيم : أنَّها آمَنَتْ برسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ، قالت : فجاء أبو يُونُس ، وكان غائِبَاً ، فقال : أَصَبَوْتِ ؟ فقالَت : ما صَبَوْتُ ، ولكنِّي آمَنْتُ! وجَعَلَتْ تُلَقِّنُ أَنَساً : قُلْ : لا إلَـٰهَ إلاَّ الله ، قُلْ : أَشْهَدُ أنَّ

---

(١) شعوب : من أسماء المنيّة .

(٢) انظر السير : (أم عُمارة) ٢/٢٧٨ـ٢٨٢ ، وانظر النزهة : ٤/٢٥٨ .

مُحمَّداً رسُولُ الله ، ففعَلَ فيقُولُ لهَا أبُوهُ : لا تُفْسِدِي عليَّ ابنِي ، فتقُولُ : إنِّي لا أُفْسِدُه! .

فخَرَجَ مَالِكٌ ، فلَقِيَهُ عَدُوٌّ له فقتَلَهُ فقالت : لا جَرَمَ ، لا أَفْطِمُ أَنَساً حتىٰ يَدَعَ الثَّدْيَ ، ولا أتزَوَّجُ حتىٰ يأمُرَنِي أَنَسٌ .

فخَطَبَها أبو طَلْحَةَ ، وهو يومَئِذٍ مُشْركٌ ، فأَبَتْ[(١)] .

عن أيُّوبَ ، عن مُحمَّدٍ قال : شَهِدَ أبو أيُّوبَ بَدْراً ، ثم لَمْ يَتَخَلَّفْ عن غَزَاةٍ إلاَّ عاماً ، اسْتُعمِلَ على الجَيشِ شَابٌّ ، فقَعَدَ ، ثم جَعَلَ يَتَلَهَّفُ ، ويقولُ : ما عليَّ مَنِ اسْتُعمِلَ عليَّ فمَرِضَ ، وعلى الجَيشِ يَزِيدُ ابنُ مُعاوِيَة ، فأتاه يَعُودُه ، فقال : حاجَتُكَ ؟ قال : نعَم إذا أنا مِتُّ ، فارْكَبْ بِي ثم تَبَيَّغْ[(٢)] في أرضِ العَدُوِّ ما وَجَدتَ مَسَاغاً ، فإذا لَمْ تَجِدْ مَسَاغاً ، فادْفِنِّي ، ثم ارْجِع[(٣)] .

عن أبي قَتَادَةَ ، قال : خَرَجْنا مع رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم عامَ حُنَين ، فلمَّا الْتَقَيْنا ، رَأيتُ رَجُلاً قد عَلا المُسلمينَ ، فاسْتَدَرْتُ له من وَرَائِه ، فضَرَبْتُه بالسَّيفِ علىٰ حَبْلِ عاتِقِه ضَربةً قَطَعَتْ منها الدِّرْعَ ، فأقبَلَ عليَّ وضَمَّنِي ضَمَّةً وجَدْتُ منها رِيحَ المَوتِ ، ثم أرْسَلَنِي ، وماتَ إلىٰ أنْ قالَ : فقال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ قَتَلَ قَتِيلاً لَهُ بَيِّنَةٌ فلَهُ سَلَبُهُ » ، فقُمتُ ، فقلتُ : مَنْ يَشْهدُ لِي ؟ وقَصَصْتُ عليه ، فقالَ رجُلٌ : صَدَقَ يا رسُولَ الله ، وسَلَبُ ذلك القَتِيلِ عِنْدِي فأَرْضِهِ منه فقال أبو بكرٍ رضي الله عنه : لا ها الله ، إذاً لا يَعْمِدُ إلىٰ أَسَدٍ من أُسْدِ الله يُقَاتِلُ عن اللهِ ورسُولِه

---

(١) انظر السير : (أم سُليم الغُميصاء) ٢/ ٣٠٤ـ ٣١١ ، وانظر النزهة : ١/٢٦٤ .

(٢) قوله : (ثم تبيّغ) كذا الأصل ، وقد أثبت فوق الكلمة (صح) ، يُقال : تَبيّغ به الدم ، أي : تردّد فيه الدم ، وتَبيّغ الماء إذا تردّد فتحيّر في مجراه مرةً كذا ، ومرةً كذا ، وفي « الطبقات » ، و« النهاية » ، و« أسد الغابة » ، و« تهذيب ابن عساكر ، (ثم سغ) ، وفسّره ابن الأثير فقال : أي ادخل فيها ما وجدت مدخلاً ، وساغت به الأرض ، أي : ساخت ، وساغ الشراب في الحلق يسوغ ، أي : دخل سهلاً .

(٣) انظر السير : (أبو أيوب الأنصاريّ) ٢/ ٤٠٢ـ ٤١٣ ، وانظر النزهة : ٧/٢٨٢ .

صلى الله عليه وسلم فيُعْطِيكَ سَلَبَه! فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « صَدَق » فأعْطانِيه ، فبِعْتُ الدِّرعَ ، وابْتَعتُ به مَخْرَفاً في بَنِي سَلَمَة ، فإنَّه لأوَّلُ مالٍ تَأَثَّلْته في الإسْلام[1] .

وسَكَنَ بُرَيْدَةُ بنُ الحَصِيبِ بنِ عبدِ الله البَصْرة مُدَّةً ، ثم غزَا خُراسَانَ زَمَنَ عُثْمان ، فحَكَىٰ عنه مَنْ سَمِعَه يقولُ : وَرَاءَ نَهْرِ جَيْجُون :

لا عَيْشَ إلاَّ طِرادُ الخَيْلِ بالخَيْل[2] .

وقال يَزِيدُ (مَوْلَىٰ سَلَمَةَ بنِ الأَكْوَع) : رَأيتُ سَلَمَةَ يُصَفِّرُ لِحْيَتَه وسَمِعتُه يقولُ : بايَعْتُ رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم على المَوتِ ، وغَزَوْتُ معه سَبْعَ غَزَوَاتٍ[3] .

وعن إيَاسِ بنِ سَلَمَةَ ، عن أبيهِ قال : بَيَّتْنا هَوَازِنَ مع أبي بَكرٍ الصِّدِّيق رضي الله عنه فقَتَلْتُ بيَدِي لَيْلَتَئِذٍ سَبْعَةَ أهلِ أبْيَاتٍ[4] .

وقال حَمَّادُ بنُ سَلَمَة : أخْبَرَنا ثابتٌ : أنَّ صِلَةَ بنَ أشْيَم كان في الغَزْوِ ، ومعَه ابنُه ، فقال : أيّ بُنَي! تَقَدَّم ، فقَاتِل حتىٰ أَحْتَسِبَك ، فحَمَلَ ، فقَاتَلَ حتىٰ قُتِلَ ، ثم تَقَدَّمَ صِلَةُ ، فقُتِلَ ، فاجْتَمَعَ النِّساءُ عند امْرَأتِه مُعَاذَة ، فقالت : مَرْحَباً إنْ كنْتُنَّ جِئْتُنَّ لتُهَنِّئْنَنِي ، وإنْ كنْتُنَّ جِئْتُنَّ لغيرِ ذلك فارْجِعْنَ[5] .

وقِيلَ إنَّ يَزِيدَ بنَ الأَسْوَدِ الجُرَشِيّ قال : قُلتُ لقَومِي : اكْتُبُونِي في الغَزْوِ ، قالوا : قد كَبُرْتَ قال : سُبحانَ الله اكْتُبُونِي فأيْنَ سَوَادِي في المُسلمين ؟ قالوا : أمَا إذْ فَعَلْتَ ، فأَفْطِر وتَقَوَّ على العَدُوِّ ، قال : ما كُنتُ أرَانِي أبْقَىٰ حتىٰ أُعَاتِبَ نَفْسِي ، والله لا أُشْبِعُها من الطَّعَامِ ولا أُوطِئُها من مَنَامٍ حتىٰ تَلْحَقَ بالله[6] .

---

(١) انظر السير : (أبو قتادة الأنصاري السلمي) ٢/ ٤٤٩ـ ٤٥٦ ، وانظر النزهة : ٤/٢٨٩ .

(٢) انظر السير : (بُريدة بن الحصيب) ٢/٤٢٩ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ٢/٢٩١ .

(٣) انظر السير : (سلمة بن الأكوع) ٣/٣٢٦ـ ٣٣١ ، وانظر النزهة : ٢/٣٨٨

(٤) انظر السير : (سلمة بن الأكوع) ٣/٣٢٦ـ ٣٣١ ، وانظر النزهة : ٣/٣٨٨

(٥) انظر السير : (صِلة بن أشيم) ٣/ ٤٩٧ـ ٥٠٠ ، وانظر النزهة : ٢/٤١٦

(٦) انظر السير : (الجُرَشيّ) ٤/١٣٦ـ ١٣٧ ، وانظر النزهة : ٢/٤٦٢

وقِيلَ : إنَّ مُوسَىٰ بن نُصَيْر قال مَرةً : واللهِ لَوْ انْقَادَ النَّاسُ لِي ، لقُدتُّهم حتىٰ أُوْقِفَهم علىٰ رُومِيَّةَ ، ثم لَيَفْتَحَنَّها اللهُ علىٰ يَدِي[1] .

وجَاءَ في تَرجَمَةِ طَارِق مَوْلَىٰ مُوسَىٰ بنِ نُصَيْر ، قال الذَّهبيُّ : وله فُتُوحَاتٌ عَظِيمةٌ جداً في المَغْرِبِ ، كمَا كان لقُتَيْبَةَ بنِ مُسْلِم في المَشْرِق ـ في هـٰذا الوَقْت ـ فُتُوحَاتٌ لَمْ يُسْمَعْ بمثلِها[2] .

ثم قال الذَّهبيُّ : وفي هـٰذه المُدَّةِ وبعدَها كانت غَزْوَةُ القُسْطَنْطِينيَّة في البَرِّ والبَحْرِ ، ودَامَ الحِصَارُ نَحْواً من سَنَة ، وكان عَلَمُ الجِهَادِ في أطْرَافِ البِلادِ مَنْشُوراً ، والدِّينُ مَنْصُوراً ، والدَّوْلَةُ عَظِيمَةٌ ، والكَلِمَةُ واحِدَةٌ .

قال سَعيدُ بنُ عبدِ العَزِيزِ : أخْبَرَنِي رَجُلٌ أنَّ سُلَيْمانَ هَمَّ بالإقامَةِ ببَيْتِ المَقْدِسِ ، وقَدِمَ عليه مُوسَى ابنُ نُصَيْر وأخُوهُ مَسْلَمَةُ ، فجَاءَه الخَبَرُ أنَّ الرُّومَ طَلَعُوا من سَاحِلِ حَمْص ، وسَبوا جَماعةً فيهم امْرأَةٌ لها ذِكْرٌ ، فغَضِبَ سُلَيْمانُ وقال : ما هُوَ إلاَّ هـٰذا ، نَغْزُوهُم ويَغْزُونا ، واللهِ لأَغْزُوَنَّهم غَزْوَةً أفْتَحُ فيها القُسْطَنْطِينيَّةَ أوْ أمُوتْ ثم الْتَفَتَ إلىٰ مَسْلَمَةَ وإلىٰ مُوسَىٰ بنِ نُصَيْرٍ ، فقال : أَشِيرا عليَّ ، فقال مُوسَىٰ : يا أميرَ المُؤمنين ، إنْ أَرَدْتَ ذلك ، فسِرْ سِيرَةَ الصَّحَابَةِ فيما فَتَحُوهُ ، كُلَّمَا فَتَحُوا مدينةً اتَّخَذُوها دَاراً ، وحَازُوهَا للإسْلام ، فابْدَأ بالدُّرُوبِ وافْتَحْ حُصُونَها حتىٰ تَبْلُغَ القُسْطَنْطِينيَّة ، فإنَّهم سَيُعْطُون بأيدِيهم ، فقال لمَسْلَمَة : ما تقُولُ أنْتَ ؟ قال : هـٰذا الرَّأيُ إنْ طَالَ عُمْرٌ إليه ، أو كان الذي يأتي علىٰ رأيك ويُريدُ بذلكَ ، خَمْسَ عَشرَ سَنَةً ، ولكنِّي أرَىٰ أنْ تُغْزِي المُسلِمينَ بَرّاً وبَحْراً القُسْطَنْطِينيَّةَ ، فيُحاصِرُونَها ، فإنَّهم ما دَامَ عليهِم البَلاءُ أَعْطُوا الجِزْيَةَ ، أو أُخِذَتْ عُنوَة ، فمتىٰ وَقَعَ ذلك ، كان ما دُونَها من الحُصُونِ بيَدِك ، قال : هـٰذا الرأيُ .

فأغْزَىٰ أهلَ الشَّامِ ، والجَزِيرَةِ في البَرِّ في نَحْوٍ من عِشرِينَ ومِئَةِ ألفٍ ، وأَغْزَىٰ أهلَ

---

(١) انظر السير : (موسى بن نصير) ٤/٤٩٦ـ٥٠٠ ، وانظر النزهة : ٢/٥٤١

(٢) انظر السير : (طارق) ٤/٥٠٠ـ٥٠٢ ، وانظر النزهة : ٣/٥٤٢

مِصْرَ والمَغْرِبَ في البَحْرِ في ألفِ مَركب عليهم عُمَرُ بنُ هُبَيْرَة ، وعلى الكُلِّ مَسْلَمَةُ بنُ عبد المَلِكِ .

قال الوَليدُ بنُ مُسلم : فأخْبَرنِي غَيرُ واحدٍ أنَّ سُلَيْمانَ أخْرَجَ لهم العَطاءَ ، وبَيَّنَ لهم غزْوَتَهُم وطُولَها ، ثم قَدِمَ دِمَشْقَ وصَلَّى الجُمُعَةَ ، ثمَّ عَادَ إلى المِنْبَرِ ، وأخْبَرَهُم بيَمِينِه من حِصَارِه القُسْطَنْطِينِيَّة ، فانفِرُوا علىٰ بَرَكَةِ الله ، وعلَيْكم بتَقْوَى الله ، ثم الصَّبْرَ الصَّبْرَ وسَارَ حتىٰ نزَلَ بدَابِق[١] ، وسارَ مَسْلَمَةُ وأخَذَ معه ألِيُونَ الرُّوميَّ المرعشيَّ ليَدُلَّه على الطريقِ والعُوار ، وأخَذَ مِيثَاقَه على المُناصَحَةِ إلىٰ أنْ عَبَرُوا الخَلِيجَ وحَاصَرُوا القُسْطَنْطِينِيَّةَ إلىٰ أنْ بَرَّحَ بهم الحِصَارُ ، وعَرَضَ أهلُها الفِدْيَة ، فأبىٰ مَسْلَمَةُ إلاَّ أنْ يَفْتَحَها عُنوَةً ، قالوا : فابْعَثْ إلينا أليُونَ ، فإنَّه منَّا ويَفْهَمُ كَلامَنا ، فبَعَثَه ، فغَدرَ وقال : إنْ مَلَّكتُمُونِي أمِنْتُم ، فمَلَّكُوه ، فخَرجَ وقال : قد أجَابُونِي أنْ يَفْتَحُوها ، لكنْ لا يَفْتَحُونَها حتىٰ تَتَنَحَّىٰ عنهم ، قال : أخْشَىٰ غَدْرَك ، فحَلَفَ له أنْ يَدفَعَ إليه كُلَّ ما فيها من سَبيٍ ومَالٍ ، فانتَقَلَ مَسْلَمَةُ ودَخَلَ ألِيُونُ لَعَنَه الله فلَبِسَ التَّاجَ ، وأَمَرَ بنَقْلِ العُلوفاتِ من خَارجٍ فمَلؤوا الأهراءَ[٢] ، وجاء الصَّريخُ إلىٰ مَسْلَمَةَ ، فكَبَّرَ بالجَيْشِ فأدْرَكَ شَيْئاً من العُلُوفاتِ ، فغَلَّقُوا الأبْوابَ دُونَه ، فبَعَثَ إلىٰ ألِيُونَ يُنَاشِدُهُ عَهْدَهُ ، فأرْسَلَ إليه ألِيُونُ يقولُ : مُلْكُ الرُّوم لا يُبَاعُ بالوَفَاءِ ، ونَزَلَ مَسْلَمَةُ بفِنائِها ثلاثينَ شَهراً حتىٰ أَكَلَ النَّاسُ في المُعَسْكَرِ المَيْتَةَ والعَذَرَةَ من الجُوعِ ، هٰذا وفي وَسَطِ المُعَسْكَرِ عُرمةُ حِنْطَةٍ مثلُ الجَبَلِ يَغبِطُونَ بها الرُّومَ .

قال مُحمَّدُ بنُ زِيَاد الألهَانيّ : غَزَوْنا القُسْطَنْطِينِيَّةَ ، فجُعْنَا حتّىٰ هَلَكَ ناسٌ كثيرٌ ، فإن كان الرجُلُ يَخرُجُ إلىٰ قَضَاءِ الحَاجَةِ ، والآخَرُ يَنْظُرُ إليهِ ، فإذا قَامَ أقْبَلَ ذاكَ علىٰ رَجيعِه فأكَلَه ، وإنْ كان الرجُلُ ليَذْهَبُ إلى الحَاجَةِ ، فيُؤْخَذُ ويُذْبَحُ ويُؤْكَلُ ، وإنَّ الأهراءَ من الطَّعَامِ كالتِّلالِ لا نَصِلُ إليهَا نُكَايِدُ بها أهلَ القُسْطَنْطِينِيَّة .

---

(١) دابق : قريةٌ قُربَ حَلَب .

(٢) مفردها هُرْي : وهو بيتٌ ضخمٌ يُجمع فيه طعام السلطان .

فلمَّا اسْتُخْلِفَ عُمرُ بنُ عبدِ العَزيزِ ، أَذِنَ لهم في التَّرَحُّلِ عنها[١] .

وعن الضَّحَّاكِ ، قالَ : كُنتُ ابنَ ثَمانِينَ سَنة جَلْداً غَزَّاءً ، وكانت وَفاةُ الضَّحَّاكِ في سَنَةِ اثْنَتَيْنِ ومِئَة[٢] .

وقد كان سُليْمانُ بنُ عبدِ المَلِكِ من أَمْثَلِ الخُلَفَاءِ ، نَشَرَ عَلَمَ الجِهَادِ ، وجَهَّزَ مِئَةَ ألفٍ بَراً وبَحْراً ، فنَازَلُوا القُسْطَنْطِينِيَّةَ ، واشْتَدَّ القِتالُ والحصَارُ عليها أكْثَرَ من سَنَةٍ[٣] .

وجاءَ في تَرجَمَةِ عبدِ الرَّحمَـٰنِ بن الحَكَم بن هشام ، ابنُ الدَّاخِل ، قال الذَّهبيُّ : فلمَّا كانت سَنَة ثلاثينَ ومِئَتَيْن طَرَقَ المَجُوسُ الأردمانيُّون[٤] إشْبيلِيَة في ثَمانينَ مَرْكَباً في الوادِي ، فصَادَفُوا أهلَهَا علىٰ غِرارَةٍ بمُطاوَلَةِ أُمُدِ الأمانِ لهم مع قِلَّةِ خِبْرتِهم بحَرْبِهم ، فطَلَعُوا من المَرَاكِبِ ، وقد لاحَ لهم خَوَرٌ من أَهْلِها ، فقاتَلُوهم ، وقَوُوا على المسلمينَ ، ووَضَعُوا السَّيْفَ فيهِم ، ومَلَكُوا إشْبيلِيَة بعد القَتْلِ الذَّريعِ في أهلِها حتىٰ في النِّساءِ والبَهَائِمِ ، وأَقامُوا بها سَبْعَةَ أيَّامٍ ، فوَرَدَ الخَبَرُ على الخَلِيفَةِ عبدِ الرَّحمَـٰن ابن الحَكَم فاسْتنفَرَ جيشَه وبعَثَ بهم إلىٰ إشْبيليّة فحلُّوا بالشرق ، ووقع القتالُ ، واشتدَّ الخطبُ ، وانتصرَ المسلمون ، واستَحرَّ القتلُ بالملاعين حتىٰ فني جَمعُ الكَفَرَة ، لعنَهم الله ، وحرق المسلمون ثلاثين مركَباً من مراكبهم ، فكان بين دخولهم إلىٰ إشْبيليّة وهروبهم عنها ثلاثة وأربعون يوماً وهـٰذا كان السببُ في بناء سور واديها ومات في سنة ثمانٍ وثلاثين ومئتين[٥] .

وفي دَولَة الحَكَمِ بنِ عبدِ الرَّحمَـٰنِ هَمَّت الرُّومُ بأخْذِ مَوَاضِعَ من الثُّغُورِ ، فقَوَّاها

---

(١) انظر السير : (طارق) ٤/ ٥٠٠ـ ٥٠٢ ، وانظر النزهة : ٥٤٢/ ٤ .

(٢) انظر السير : (الضحّاك بن مزاحم) ٤/ ٥٩٨ـ ٦٠٠ ، وانظر النزهة : ٥٦٦/ ٧

(٣) انظر السير : (عمر بن عبد العزيز) ٥/ ١١٤ـ ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٥٨٨/ ١

(٤) هم النورمان ، كانوا يُغيرون على الأندلس من المنافذ النهرية ، وسمّاهم المسلمون المجوس لأنهم كانوا يُشعلون النيران كثيراً فظن المسلمون أنهم يعبدونها انظر ابن عذاري ٢/ ١٣٠ .

(٥) انظر السير : (عبد الرحمـٰن بن الحكم بن هشام) ٨/ ٢٦٠ـ ٢٦١ ، وانظر النزهة : ٧٥٣/ ٣

بالمَالِ والجُيُوشِ وغزَا بنفسه ، وزَادَ في القَطِيعَةِ على الرُّومِ ، وأَذَلَّهم وكان مَوْتُه بالفَالِجِ سنةَ سِتٍّ وسِتِّينَ وثلاثِ مِئَة[1] .

وفي سَنةِ ثَمَانِينَ غزَا صَاحِبُ ما وَرَاءَ النَّهرِ إسْماعِيلُ بنُ أحْمَد بنِ أَسَد بلادَ التُّرْكِ وأَسَرَ مَلِكَهم في نَحوٍ من عَشْرَةِ آلافِ نَفْسٍ ، وقَتَلَ مِثْلَهم[2] .

وغزَا المُسلمُونَ بلادَ الرُّومِ فافْتَتَحُوا مَلَـُوريه[3] .

وفي سَنةِ إحْدَىٰ وتِسْعِينَ ومِئَتَين : أَقْبَلَتْ جُموعُ التُّرْكِ ، فبيَّتَهُم وَالِي خُراسَانَ إسْماعيلُ ، وقَتَلوا منهم مَقتَلَةً عظِيمَةً ، وأَقْبَلَتْ الرُّومُ في مِئَةِ ألفٍ ، وأَتَوا إلى الحَدَث[4] فأحْرَقُوه وقَتَلُوا وسَبُوا[5] .

وفيها : سَارَ عَسْكرُ طرسوسَ ، فافْتَتَحُوا أَنْطاكِيَة ، وحَصَّلَ سَهمُ الفَارِسِ ألفَ دينارٍ[6] .

تُوُفِّيَ ابنُ الأَغْلَبِ صاحِبُ المَغْربِ غَازِياً بصِقِلِّيَة سَنةَ تِسْع وثَمانِينَ ومِئَتَين ، وتَمَلَّك ابنُه عبدُ الله ، فكان دَيِّناً ، عَالِماً ، بَطَلاً ، شُجَاعَاً ، شَاعِراً ، فقتَلَه غِلْمَانُه غِيلةً بعدَ عامٍ[7] .

٢١ـ غَزَواتٌ ومَعَارِك

(أ) من أَخْبَارِ بعض الغَزَوات :

بَنُو قُرَيْظَة :

عن جَابرٍ قال : رُمِيَ سعدٌ يومَ الأَحْزابِ ، فقَطَعُوا أَكْحلَه ، فحَسَمَهُ النبيُّ صلى الله عليه وسلم بالنَّارِ ، فانْتَفَخَتْ يَدُه ، فتَرَكَه ، فنَزَفَه الدَّمُ ، فحَسَمَه أُخْرَىٰ ، فانْتَفَخَتْ

---

(١) انظر السير : (الحَكم بن عبد الرحمـٰن بن محمد) ٨/ ٢٦٩ـ ٢٧١ ، وانظر النزهة : ٤/٧٥٨

(٢) انظر السير : (المعتضد بالله) ١٣/ ٤٦٣ـ ٤٧٩ ، وانظر النزهة : ١/١١٠٧

(٣) انظر السير : (المعتضد بالله) ١٣/ ٤٦٣ـ ٤٧٩ ، وانظر النزهة : ٢/١١٠٧

(٤) الحَدَث : قلعة حصينة من الثغور الشامية .

(٥) انظر السير : (المكتفي بالله) ١٣/ ٤٧٩ـ ٤٨٥ ، وانظر النزهة : ٢/١١٠٩

(٦) انظر السير : (المكتفي بالله) ١٣/ ٤٧٩ـ ٤٨٥ ، وانظر النزهة : ٣/١١٠٩

(٧) انظر السير : (ابن الأغلب) ١٣/ ٤٨٧ـ ٤٨٩ ، وانظر النزهة : ٢/١١١١

يَدُه ، فلمَّا رَأَىٰ ذلكَ ، قال : اللَّهُمَّ لا تُخْرِجْ نَفْسِي حتىٰ تُقِرَّ عَينِي من بَنِي قُرَيْظَة فاسْتَمْسَكَ عِرْقُه ، فما قَطَرَتْ منه قَطْرَةٌ حتىٰ نزَلُوا علىٰ حُكْمِ سَعدِ بنِ مُعاذ ، فأرْسَلَ إليه رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم فحَكَمَ أنْ يُقْتَلَ رِجَالُهم ، وتُسْبَىٰ نِسَاؤُهم وذَرَارِيهم ، قال : وكانُوا أَرْبَعَ مِئَةٍ ، فلمَّا فُرِغَ من قَتْلِهم ، انْفَتَقَ عِرْقُه[١] .

وعن عَامِرِ بنِ سَعدٍ ، عن أبِيهِ قال : لمَّا حَكَمَ سَعدٌ في بَنِي قَرَيْظَةَ أن يُقْتَلَ مَنْ جَرَتْ عليه المَواسِيّ ، قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم : « لَقَدْ حَكمَ فِيهِمْ بِحُكمِ الله الذِي حَكمَ بهِ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ »[٢] .

مُؤْتَة :

عن خالِدِ بنِ شُمَيرٍ قالَ : قَدِمَ علينا عبدُ الله بنُ رَبَاحْ ، فاجْتَمَعَ إليهِ ناسٌ فقال : حَدَّثَنا أبُو قَتَادَة قال : بَعَثَ رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم جَيْشَ الأُمَرَاءِ وقال صلى الله عليه وسلم : « عَلَيْكم زَيْدٌ ، فإنْ أُصِيبَ فجَعْفَرٌ ، فإنْ أُصِيبَ جَعْفَرٌ ، فابنُ رَوَاحَة » فوَثَبَ جَعْفَرٌ ، وقال : بأبِي أَنْتَ وأُمِّي! ما كُنتُ أَرْهَبُ أنْ تَسْتَعمِلَ زَيْداً عليَّ قال صلى الله عليه وسلم : « امْضُوا ، فإنَّكَ لا تَدْرِي أيُّ ذلكَ خَيْرٌ » فانْطَلَقَ الجَيشُ ، فلَبِثُوا ما شَاءَ اللهُ ثم إنَّ رسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم صَعِدَ المِنْبَرَ ، وأَمَرَ أنْ يُنَادَىٰ : الصَّلاةُ جَامِعَةٌ قال صلى الله عليه وسلم : « أَلا أُخْبِرُكم عن جَيشِكم ، إنَّهم لَقُوا العَدُوَّ ، فأُصِيبَ زَيْدٌ شَهِيداً ، فاسْتَغْفِرُوا اللهَ لَهُ ، ثمَّ أَخَذَ اللِّوَاءَ جَعْفَرٌ ، فَشَدَّ على النَّاسِ حتىٰ قُتِلَ ، ثمَّ أَخذَهُ ابنُ رَوَاحَة ، فأثْبَتَ قَدَمَيْهِ حتىٰ أُصِيبَ شَهِيداً ، ثمَّ أَخَذَ اللِّوَاءَ خالِدٌ ـ ولَمْ يَكنْ من الأُمَرَاءِ ، هُوَ أَمَّرَ نَفسَه » ـ فرَفَعَ رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم أُصْبُعَيْهِ وقال : « اللَّهُمَّ هُوَ سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِكَ فانْصُرْهُ » ـ فيَومَئذٍ سُمِّيَ سَيفُ الله ـ ثم قال صلى الله عليه وسلم : « انْفِرُوا فامْدُدُوا إخْوَانَكم ، ولا يَتَخَلَّفَنَّ أَحَدٌ » ، فنَفَرَ النَّاسُ في حَرٍّ شَديدٍ .

---

(١) انظر السير : (سعد بن مُعاذ) ١/ ٢٧٩ـ ٢٩٧ ، وانظر النزهة : ١٦٤/ ١

(٢) انظر السير : (سعد بن مُعاذ) ١/ ٢٧٩ـ ٢٩٧ ، وانظر النزهة : ١٦٥/ ٢

قال ابنُ إسْحاقَ : حَدَّثنا يَحْيَىٰ بنُ عَبَّادٍ ، عن أبيه قال : حَدَّثني أبي الذي أرْضَعَنِي وكان من بَنِي مُرَّةَ بنِ عَوْفٍ قال : لَكَأنِّي أَنْظُرُ إلىٰ جَعْفَرَ يومَ مُؤْتَة حينَ اقْتَحَمَ عن فَرَسٍ لَهُ شَقْرَاء فعقَرَها ثم قَاتَلَ حتىٰ قُتِلَ .

قال ابنُ إسْحاقَ : وهُوَ أَوَّلُ مَنْ عَقَرَ في الإسْلامِ وقال :

يَـا حَبَّـذ الجَنَّـةُ واقْتِـرابُهَـا ... طَيِّبَـةٌ وبَـارِدٌ شَـرَابُهَـا

والـرُّومُ رُومٌ قَـد دَنَـا عَـذَابُهَـا ... علـيَّ إنْ لَقِيتُهـا ضِـرابُهَـا

وعن ابنِ عُمَرَ قال : فَقَدْنَا جَعْفَراً يومَ مُؤْتَة ، فوَجَدْنا بَينَ طَعْنَةٍ ورَمْيَةٍ بِضْعاً وتِسْعِينَ ، وَجَدْنا ذلكَ فيمَا أَقْبَلَ من جَسَدِه[1] .

وقِيلَ : لمَّا جَهَّزَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم إلىٰ مُؤْتَة الأُمَرَاءَ الثَّلاثَةَ ، فقال صلى الله عليه وسلم : « الأَمِيرُ زَيْدٌ ، فإنْ أُصِيبَ فجَعْفَرٌ ، فإنْ أُصِيبَ فابنُ رَوَاحَة » ، فلمَّا قُتِلا ، كَرِهَ ابنُ رَوَاحَة الإقْدَامَ فقال :

أَقْسَمْـتُ يـا نَفْسِـي لتَنْـزِلِنَّـه ... طَـائِعَـةً أوْ لا لَتُكْـرَهِنَّـه

فَطَـالَمَـا قَـد كُنـتِ مُطْمَئِنَّـه ... مَـالِـي أَرَاكِ تَكْـرَهِيـنَ الجَنَّـه

وعن أَنَسٍ قالَ : دَخَلَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم مَكَّةَ في عُمْرَةِ القَضَاءِ ، وابنُ رَوَاحَة بَينَ يَدَيْهِ يقولُ :

خَلُّـوا بَنِـي الكُفَّـارِ عَـن سَبِيلِـهِ ... اليَـومَ نَضْـرِبُكُـم علـىٰ تَنْـزِيلِـهِ

ضَـربـاً يُـزِيـلُ الهَـامَ عَـن مَقِيلِـهِ ... ويُـذْهِـلُ الخَلِيـلَ عَـن خَلِيلِـهِ

فقال عُمَرُ : يا ابنَ رَوَاحَةَ! في حَرَمِ اللهِ وبَينَ يَدَيّ رسُولِ اللهِ تقُولُ الشِّعْرَ ؟ فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « خَلِّ يا عُمَرُ ، فَهُوَ أَسْرَعُ من نَضْحِ النَّبْلِ » .

وفي لَفْظٍ : « فَوَالذِي نَفْسِي بِيَدِهِ ، فَكلامُهُ عَليهِم أَشَدُّ مِنْ وَقْعِ النَّبْلِ » .

قال التِّرْمِذِيُّ : وجاءَ في غيرِ هٰذا الحَدِيثِ أَنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم دَخَلَ مَكَّةَ في عُمْرَةِ القَضَاءِ وكَعْبٌ يقُولُ ذَلِكَ .

---

(١) انظر السير : (جعفر بن أبي طالب) ١/٢٠٦ـ٢١٧ ، وانظر النزهة : ٣/١٤٩

قال : وهَـٰذا أَصَحُّ عِندَ بَعضِ أَهْلِ العِلْمِ ، لأنَّ ابنَ رَوَاحَة قُتِلَ يومَ مُؤْتَة ، وإنَّما كانت عُمْرَةُ القَضَاءِ بعدَ ذلكَ .

قال الذهبيُّ : كلاَّ ، بلْ مُؤْتَة بعدَها بستّة أشْهرٍ جَزْماً(١) .

وعن قَيْسٍ ، سَمعتُ خالِداً يقولُ : رَأَيْتُنِي يومَ مُؤْتَة انْدَقَّ في يَدِي تِسْعَةُ أَسْيَافٍ فصَبَرَتْ في يَدِي صَفِيحَةٌ يَمَانِيَّة(٢) .

وعن عُمَارةَ بنِ خُزَيْمَة ، عن أبيهِ قال : حَضَرْتُ مُؤْتَة ، فبَارَزْتُ رَجُلاً فأَصَبْتُهُ وعَلَيْهِ بَيْضَةٌ فيها ياقُوتَةٌ ، فلَمْ يَكنْ هَمِّي إلاَّ اليَاقُوتَة ، فأَخَذْتُها ، فلمَّا انْكَشَفْنَا وانْهَزَمْنا ، رَجَعْتُ بها إلى المَدِينَةِ ، فأَتَيْتُ بها النبيَّ صلى الله عليه وسلم ، فَنَفَلَنِيها ، فبِعْتُها زَمَنَ عُمَرَ بمِئَةِ دِينارٍ(٣) .

تَبُوك :

عن عبدِ الرحمَـٰنِ بنِ عبدِ اللهِ بنِ كَعْبٍ ، عن أبيه : سَمعتُ كعْباً يقولُ : لَمْ أَتَخَلَّفْ عن رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم في غَزْوةٍ ، حتىٰ كانت تَبـُوك إلاَّ بَدْراً ، وما أُحِبُّ أنِّي شَهِدتُها ، وفاتَتْنِي بَيْعَتي ليلةَ العَقَبَة(٤) وقَلَّما أرادَ رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم غَزْوةً إلاَّ وَرَّىٰ عنها بغيرِها ، فأَرادَ في غَزْوَةِ تَبُوك أنْ يَتَأَهَّبَ النَّاسُ أُهبةً وكنتُ أَيْسَرَ ما كنتُ ، وأنا في ذلك أَصْغُو(٥) إلى الظِّلالِ وطَيِّبِ الثِّمَارِ ، فلَمْ أَزَلْ كذلك حتىٰ خَرَجَ فقُلتُ : أَنْطَلِقُ غَداً ، فأَشْتَري جِهَازِي ، ثم أَلْحَقُ بهِم فانْطَلَقْتُ إلى السُّوقِ ، فعَسُرَ عليَّ ، فرَجَعتُ ، فقُلتُ : أَرْجِعُ غَداً فلَمْ أَزَلْ حتى الْتَبَسَ بي الذنْبُ ، وتَخَلَّيْتُ ، فجعَلتُ أمشِي في أَسْواقِ المدِينَةِ ، فيُحْزِنُنِي أنِّي لا أَرَىٰ إلاَّ مَغْمُوصاً(٦) عليه في

---

(١) انظر السير : (عبد الله بن رواحة) ١/ ٢٣٠ـ ٢٤٠ ، وانظر النزهة : ٥/١٥٣

(٢) انظر السير : (خالد بن الوليد) ١/ ٣٦٦ـ ٣٨٤ ، وانظر النزهة : ٤/١٧٩

(٣) انظر السير : (خُزيمة بن ثابت) ٢/ ٤٨٥ـ ٤٨٧ ، وانظر النزهة : ٣/٢٩٣

(٤) في البخاري ومسلم : ولقد شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بيعة العقبة حين تواثقنا على الإسلام ، وما أحب أن لي بها مشهد بدر ، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها .

(٥) أصغو : أميل .

(٦) أي مطعوناً عليه في دينه، متهماً بالنفاق، وقيل: معناه مستحقراً، فتقول غمصتُ فلاناً إذا استحقرته . =

النِّفاقِ ، أو ضَعِيفاً وكان جَميعُ مَنْ تَخَلَّفَ عن رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم بِضْعَةً وثَمانِينَ رَجُلاً[1] .

ولمَّا بَلَغَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم تَبُوك ذَكَرَنِي ، وقال : « ما فَعَلَ كعْبٌ ؟ » فقال رجُلٌ من قَوْمِي : خَلَّفَهُ يا نَبيَّ اللهِ بَرَادُه ، والنَّظَرُ في عِطْفَيْه ، فقال مُعاذٌ : بِئْسَ ما قُلتَ : واللهِ ما نَعْلَمُ إلاَّ خَيْراً .

إلىٰ أنْ قال : فلَمَّا رَآنِي صلى الله عليه وسلم تَبَسَّمَ تَبَسُّمَ المُغْضَب وقال صلى الله عليه وسلم : « أَلَمْ تَكن ابْتَعْتَ ظَهْرَكَ ؟ » قُلتُ : بلَىٰ قال : « فمَا خَلَّفَكَ ؟ » قُلتُ : واللهِ لَوْ بَينَ يَدَيّ أَحَدٍ غيرِك جَلَسْتُ لخَرَجْتُ من سُخْطِهِ عليَّ بعدُ ، لقد أُوتيتُ جَدَلاً ، ولكنْ قد عَلِمتُ يا نَبيَّ الله أنِّي أُخْبِرُكَ اليومَ بقَولٍ تَجِدُ عليَّ فيه وهُوَ حَقٌّ فإنِّي أَرْجُو فيه عُقْبَى الله .

إلىٰ أنْ قالَ : والله ما كُنتُ قَطُّ أَيْسَرَ ولا أَخَفَّ حاذاً[2] منِّي حين تَخَلَّفْتُ عَنْكَ فقَالَ صلى الله عليه وسلم : « أمَّا هـٰذا فقَدْ صَدَقَكم ، قُمْ حتىٰ يَقْضِيَ اللهُ فِيكَ » فقُمتُ .

إلىٰ أن قال : ونَهىٰ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم الناسَ عن كلامنا أيُّها الثلاثةُ[3] .

فجعلتُ أخرجُ إلى السوق ، فلا يُكلِّمني أحدٌ ، وتَنكَّرَ لنا الناسُ ، حتىٰ ما هُم بالذين نعرفُ ، وتَنكَّرَت لنا الحيطانُ والأرضُ ، وكنتُ أطوفُ وآتي المسْجدَ ، فأدخلُ وآتـي النبـيَّ صلـى الله عليـه وسلـم فـأسَلِّـمُ عليـه ، فـأقـولُ : هـل حَـرَّكَ شَفَتَيـه بالسلامِ!! ؟[4] .

---

(١) انظر السير : (كعب بن مالك) ٢/ ٥٢٣ـ ٥٣٠ ، وانظر النزهة : ٣٠٠/ ٣

(٢) الحاذ : الحال .

(٣) أيُّها الثلاثةُ : مبني على الضم في محل نصب على الاختصاص ، أي : مختصين بذلك دون بقية الناس .

(٤) انظر السير : (كعب بن مالك) ٢/ ٥٢٣ـ ٥٣٠ ، وانظر النزهة : ٣٠٠/ ٤ .

أوْطَاس :

عن أبي مُوسَىٰ قال : لمَّا فَرَغَ رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم من حُنَينٍ ، بَعَثَ أبا عَامِرٍ الأَشْعَرِيّ علىٰ جَيشٍ أَوْطَاسَ[1] ، فلَقِيَ دُرَيْدَ بنَ الصِّمَّة ، فقُتِلَ دُرَيْدٌ ، وهَزَمَ اللهُ أَصْحَابَه ، فرَمَىٰ رجلٌ أبا عَامِرٍ في رُكْبَتِه بسَهمٍ ، فأَثْبَتَه فقُلتُ : يا عَمِّ ، مَنْ رَمَاكَ ؟ فأشَارَ إليهِ فقَصَدْتُ له ، فلَحقْتُه ، فلمَّا رَآنِي ، ولَّىٰ ذاهِباً فجَعَلتُ أقولُ لهُ : ألا تَسْتَحِي ؟ أَلَسْتَ عَرَبيّاً ؟ ألا تَثْبُتْ ؟ قال : فَكَفَّ ، فالْتَقَيْتُ أنا وهُوَ ، فاخْتَلَفْنا ضَربتَينِ ، فقَتَلتُه ثم رَجَعتُ إلىٰ أبي عَامِرٍ ، فقُلتُ : قد قَتَلَ اللهُ صاحِبَكَ قال : فانْزِعْ هـٰذا السَّهمَ فنَزَعتُه فنزَا منهُ المَاءُ فقال : يا ابنَ أخِي ، انْطَلِقْ إلىٰ رسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم فأَقْرِهِ منِّي السَّلامَ ، وقُلْ له : يَسْتَغْفِر لِي واسْتَخْلَفَنِي أبو عَامِرٍ على النَّاسِ ، فمَكَثَ يَسِيراً ثم مَاتَ فلمَّا قَدِمْنا ، وأَخْبَرتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم تَوَضَّأَ ، ثم رَفَعَ يَدَيْه ، ثم قالَ صلى الله عليه وسلم : « اللَّهُمَّ اغْفِرْ لعُبَيْدٍ أبي عَامِرٍ » حتىٰ رَأيتُ بَيَاضَ إبطَيْه ثم قال صلى الله عليه وسلم : « اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ يومَ القِيَامَةِ فَوقَ كثيرٍ من خَلْقِك » فقُلتُ : ولِيَ يا رسُولَ الله ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « اللَّهُمَّ اغْفِرْ لعَبدِ الله ابنِ قَيْس ذَنبَه ، وأَدْخِلْهُ يومَ القِيامَةِ مُدْخَلاً كرِيماً »[2] .

(ب) من أَخْبَارِ مَعَارِك الصَّحَابَة :

فَتحُ بلاد الشَّام :

قال ابنُ إسْحَاق : لمَّا قَفلَ أبو بكر عن الحجِّ بعثَ عَمرو بنَ العاص قِبلَ فلسطين ، ويَزِيدَ بنَ أبي سُفيانَ وأبا عُبَيدَة بنَ الجرَّاح وشُرَحْبيلَ ابنَ حَسَنَة ، وأمرَهم أن يَسْلُكوا على البَلْقاء .

ورَوَى ابنُ جَرير قال : قالوا لَمَّا وَجَّه أبو بكر الجنودَ إلى الشَّام أولَ سَنة ثلاث عَشرة ، فأوّلُ لِواءٍ عَقَدَه لِواءُ خالد بن سعيد بن العاص ، ثم عَزَلَه قبل أن يَسير خالد ،

---

(١) أوطاس : وادٍ في ديار هوازن ، وهو غير وادي حُنين .

(٢) انظر السير : (أبو موسى الأشعريّ) ٢/ ٣٨٠ـ ٤٠٢ ، وانظر النزهة : ٦/٢٨٧ .

وقيل : بلْ عَزَلَه بعد أشهر من مَسيره ، وكَتَبَ إلىٰ خالد فسار إلى الشَّام ، فأغَارَ علىٰ غَسّانَ بمَرْجِ راهِط ، ثم سار فنزَل علىٰ قَناة بُصْرَىٰ ، وقَدِمَ أبو عُبَيْدة وصاحباه فصالَحوا أهلَ بُصْرَىٰ ، فكانت أول ما فُتِحَ من مَدائن الشَّام ، وصالَح خالدٌ في وجهه ذلك أهلَ تَدْمُر .

قال ابنُ إسحاق : ثم ساروا جميعاً قِبَلَ فلسْطين ، فالْتَقوا بأجْنادين بين الرّملةَ وبيتَ جبرين ، والأمراء كلٌّ علىٰ جُندِه ، وقيل : إنَّ عَمْراً كان عليهم جميعاً ، وانهَزَمَ المشركون .

وقال الواقِديُّ : الثبتُ عندنا أنَّ أجْنادين كانت في جُمادَى الأولىٰ وبُشِّرَ بها أبو بكر وهو بآخر رَمَق[١] .

وَقْعَةُ مَرْج الصّفر :

قال خليفةُ : كانت وَقْعةُ مَرْج الصّفر لاثنتي عشرة خَلَت من جُمادَى الأولىٰ ، والأميرُ خالد بنُ سعيد .

وقال سعيدُ بنُ عبد العزيز : التَقَوا على النَّهر عند الطَّاحونة فقُتِلَت الرُّومُ يومئذ حتىٰ جَرَى النَّهرُ وطحنت طاحونتها بدمائهم فأُنْزِل النَّصْرُ .

وقَتلت يومئذ أمُّ حَكيم سَبعةً من الرُّومِ بعَمودِ فُسْطاطِها[٢] .

اليَمامَة :

قِيلَ : كَتَبَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ إلىٰ أُمَرَاءِ الجَيشِ : لا تَسْتَعمِلُوا البَراءَ علىٰ جيشٍ فإنَّه مُهْلِكةٌ من المَهَالِكِ يَقْدُمُ بهم .

وبلَغَنا أنَّ البَراءَ يومَ حربِ مُسَيْلِمَةَ الكذَّاب أمَرَ أصْحابَه أنْ يَحْتَمِلُوه علىٰ تُرسٍ ، علىٰ أَسِنَّةِ رِماحِهم ، ويُلْقُوا به في الحَديقةِ فاقْتَحَمَ إليهم ، وشَدَّ عليهم ، وقاتلَ حتى

---

(١) انظر السير : (أبو بكر الصدِّيق) ، وانظر النزهة : ٢٤ .
(٢) انظر السير : (أبو بكر الصدِّيق) ، وانظر النزهة : ٤٣ .

افْتَتَحَ بابَ الحديقةِ ، فجُرِحَ يومئذٍ بضْعةً وثمانين جُرحاً ، ولذلك أقامَ خالدُ ابنُ الوَليدِ عليه شَهراً يُداوِي جِراحَه ، وقد اشْتَهَرَ أنَّ البَراءَ قَتلَ في حُروبِه مِئَةَ نفسٍ من الشُّجعانِ مُبارَزَةً[١] .

ورَمَىٰ أبو دُجَانَةَ بنَفسِهِ يومَ اليَمامَةِ إلىٰ داخِلِ الحديقةِ ، فانْكَسرتْ رِجْلُه ، فقَاتَلَ وهو مَكْسُورُ الرِّجْلِ حتىٰ قُتِلَ رضي الله عنه[٢] .

عن مِعْقَلِ بنِ يَسَارٍ : أنَّ عُمَرَ شَاوَرَ الهُرمُزَانَ في أَصْبَهَانَ ، وفارسَ ، وأَذَرْبيجانَ فقال : أَصْبَهَانُ : الرَّأسُ ، وفارسُ وأَذَرْبيجانُ : الجَنَاحَان ، فإذا قَطَعْتَ جَنَاحاً فَاءَ الرَّأسُ وجَنَاحٌ ، وإنْ قَطَعْتَ الرَّأسَ وَقَعَ الجَنَاحَان ، فقال عُمَرُ : للنُّعْمانِ بنِ مُقَرِّن : إنِّي مُسْتَعْمِلُك ، فقال : أمَّا جَابِياً فلا ، وأمَّا غَازِياً ، فنَعَم ، قال : فإنَّكَ غَازٍ فسَرَّحَهُ ، وبَعَثَ إلىٰ أهلِ الكُوفَة ليَمُدُّوه وفيهِم حُذَيْفَةُ ، والزُّبَيْرُ ، والمُغِيرَةُ ، والأَشْعَثُ ، وعَمْرُو بنُ مَعْدِي كَرِبْ ، فذَكَرَ الحَدِيثَ بطُولِه وهو في « مُسْتَدْرَكِ الحَاكِم » ، وفيه : فقال : اللَّهُمَّ ارْزُقْ النُّعْمانَ الشَّهَادَةَ بنَصْرِ المُسلمينَ ، وافْتَحْ عليهِم ، فأَمَّنُوا ، وهَزَّ لِواءَهُ ثلاثاً ، ثمَّ حَمَلَ ، فكانَ أوَّلَ صَرِيعٍ رضي الله عنه ووَقَعَ ذُو الحَاجِبَيْنِ من بَغْلَتِه الشَّهْباء ، فانْشَقَّ بَطْنُه وفتَحَ اللهُ ، ثم أَتَيْتُ النُّعْمانَ وبه رَمَقٌ ، فأَتَيْتُه بماءٍ ، فصَبَبْتُ علىٰ وَجْهِهِ أغْسِلُ التُّرابَ ، فقال : مَنْ ذَا ؟ قُلتُ : مِعْقَلُ ، قال : ما فَعَلَ النَّاسُ ؟ قُلتُ : فَتَحَ اللهُ فقال : الحَمْدُ لله ، اكْتُبُوا إلىٰ عُمَرَ بذلكَ ، وفاضَتْ نفْسُه رضي الله عنه[٣] .

---

(١) انظر السير : (البَراء بن مالك) ١/ ١٩٥ـ١٩٨ ، وانظر النزهة : ٢/١٤٧ .

(٢) انظر السير : (أبو دُجانة الأنصاريّ) ١/ ٢٤٣ـ٢٤٦ ، وانظر النزهة : ١/١٥٥ .

(٣) أخرج البخاري في الجزية (٣١٥٩) عن جُبير ابن حبّة ، قال : بعث عُمر الناس في أفناء الأمصار يقاتلون المشركين ، فأسلم الهرمزان ، فقال له عُمر : إني مُستشيرك في مغازيّ هـٰذه قال : نعم مثلها ومثل ما فيها من الناس ، من عدو المسلمين ، مثل طائر له رأس وله جناحان وله رجلان ، فإن كُسر أحد الجناحين نهضت بجناح والرأس ، فإن كُسر الجناح الآخر نهضت الرجلان والرأس ، وإن شُرِخ الرأس ذهبت الرجلان والجناحان والرأس ، فالرأس كسرىٰ ، والجناح قيصر ، والجناح الآخر فارس فمر المسلمين فلينفروا إلىٰ كسرىٰ عن جُبير ابن حبة قال : فندَبنا عُمرُ ، واستعمل علينا النعمان بن مقرّن حتىٰ إذا كنا بأرض العدو ، وخرج علينا عامل كسرىٰ في أربعين ألفاً فقام تُرجمان فقال : ليكلمني رجلٌ منكم ، فقال المغيرة : فسل عمّا شئت قال : ما أنتم!! ؟ ، قال : « نحن أناس من العرب ، كنا=

وعن اللَّيثِ قالَ : كانَ عبدُ الله بنُ سَعد والِياً لعُمَرَ على الصَّعِيدِ ، ثمَّ ولاَّه عُثمانُ مِصْرَ كُلَّها ، وكان مَحموداً غَزَا إفْرِيقِيَّةَ فقَتَلَ جُرْجِيرَ صاحِبَها ، وبَلَغَ السَّهمُ للفارِسِ ثلاثةُ آلافِ دينارٍ ، وللرَّاجِلِ ألفُ دينارٍ ، ثمَّ غَزَا ذاتَ الصَّوارِي ، فلَقُوا ألفَ مَركَبٍ للرُّومِ ، فقُتِلَتِ الرُّومُ مَقْتَلةً عظيمةً ، لَمْ يُقْتَلُوا مثلها قطُّ ، ثمَّ غزوةُ الأسَاوِدِ[1] .

(ج) مَعارِكُ عظيمةٌ في التاريخ الإسْلاميّ :

قال اليَسَعُ بنُ حَزْمٍ : هَمَّت الرُّومُ بما لَمْ يَنَالُوا من طَلَبِ الثُّغُورِ ، فنَكَثُوا العَهْدَ ، فتَجهَّزَ الحَكَمُ بنِ هشَام ، إليهم حتىٰ جازَ جَبَلَ السَّارة ـ شَمَالِيَ طُلَيْطِلَةَ ـ ففرَّت الرُّومُ أمَامَه حتىٰ تَجمَّعوا بمدينةِ سَمُّورَة ، فلمَّا الْتَقَى الجَمْعانِ ، نَزَلَ النَّصْرُ ، وانْهَزَمَ الكُفْرُ ، وتَحَصَّنُوا منه بمدينةِ سَمُّورةَ ، وهي كبيرةٌ جداً فحَصَرَها المُسلمُون بالمِنْجَنِيقِ حتى افْتَتَحُوها عُنْوَةً ، ومَلَكُوا أكثرَ شَوارِعَها ، واشْتَغَلَ الجُندُ بالغَنَائِمِ ، وانضمَّت الرُّومُ إلىٰ جِهَةٍ من البَلَدِ ، وخَرجُوا علىٰ حَميَّة فقتَلوا خَلْقاً في خُروجِهم ، فكانت غَزْوتُه من أعْظَمِ المَغازِي لولا ما طَرَأَ فيها من تَضْييعِ الحَزْمِ ، ورامَت الرُّومُ السِّلْمَ ، فأبَىٰ عليهم الحَكَمُ ، ثمَّ خَرَجَ من بلادِهم خَوفاً من الثُّلُوجِ ، فلمَّا كان العَامُ الآتِي اسْتَعَدَّ أعْظَمَ اسْتِعدَادٍ ، وقَصَدَ سَمُّورةَ فقتَلَ فيها وسَبَىٰ كُلَّ ما مَرَّ به ، ثمَّ نَازَلَها شَهْرَينِ ، ثمَّ دَخلُوها بعد جَهْدٍ ، وبَذَلُوا فيها السَّيفَ إلى المَسَاءِ ، ثمَّ انْحَازَ المُسلمونَ فبَاتُوا علىٰ أسْوارِها ، ثمَّ صَبَّحوها من الغَدِ لا يُبْقُونَ علىٰ مُحْتَلِمٍ .

قال الرَّازِيُّ في « مَغَازِي الأنْدَلُسِ » : الذي أُحْصِيَ ممَّن قُتِلَ في سَمُّورةَ ثلاثُ مِئَةِ ألفِ نَفْسٍ ، فلمَّا بَلَغَ الخَبَرُ مَلِكَ رُوميَّة كَتَبَ إلى الحَكَمِ يَرْغَبُ في الأمَانِ ، فوَضَعَ

= في شقاء شديد وبلاء شديد ، نمص الجلد والنوىٰ من الجوع ، ونلبس الوبر والشعر ، ونعبد الشجر والحجر فبينا نحن كذلك إذ بعث رب السماوات ورب الأرضين ـ تعالىٰ ذكره وجلت عظمته ـ إلينا نبياً من أنفسنا ، نعرف أباه وأمه ، فأمرنا نبينا رسول ربنا صلى الله عليه وسلم أن نقاتلكم حتىٰ تعبدوا الله وحده ، أو تؤدوا الجزية ، وأخبرنا نبينا صلى الله عليه وسلم عن رسالة ربنا أنه مَن قُتل منا صار إلى الجنة في نعيم لم يُرَ مثلها قطّ ، ومَن بقي منا ملك رقابكم » .
انظر السير : (النُّعمان بن مُقرِّن) ١/ ٤٠٣ـ ٤٠٥ ، وانظر النزهة : ٥/١٨٢ .

(١) انظر السير : (عبد الله بن سعد) ٣/ ٣٣ـ ٣٦ ، وانظر النزهة : ٣/٣٢٦ .

الحَكَمُ على الرُّوم ما كان جَدُّه وَضَعَ عليهم ، وزَادَ عليهم أن يَجْلِبُوا من تُرابِ مدينةِ رُوميَّةَ نفسِها ما يُصْنَعُ به أكْوامٌ بشَرْقِي قُرْطُبَةَ صَغَاراً لهم ، وإعْلاءً لمَنَارَةِ الإسْلامِ ، فهُما كَوْمانِ من التُّرابِ الأحْمَرِ في بَسِيطِ مدرَتِها السَّوْداء[1] .

قال أبو المُظَفَّر بنُ الجَوْزيّ : مُحمَّدُ بنُ عبد الرَّحمَـٰن بنِ الحَكَم هو صاحِبُ وقْعَةِ سَليط[2] ، وهي مَلْحَمَةٌ مَشْهُورَةٌ لَمْ يُعْهَد قَبلَها بالأَنْدَلُسِ مِثلَها ، يُقالُ : قُتِلَ فيها ثلاثُ مِئَةِ ألفِ كافِرٍ ، وهـٰذا شيءٌ لَمْ نَسْمَع بمِثْلِه ، قال : وللشُّعَرَاءِ فيه مَدَائحُ كثيرةٌ .

قال الذهبيُّ : ماتَ في سَنَةِ ثلاثٍ وسَبعِين ومِئَتَيْنِ عن أرْبَعٍ وسِتينَ سَنة رحِمَه الله[3] .

جاءَ في تَرجَمَةِ المُعْتَمِدِ على الله قال الذهبيُّ : وفي سَنَةِ سَبعِين نازَلتِ الرُّومُ في مِئَةِ ألفٍ طَرَسُوسَ ، فبيَّتَهم يازْمانُ الخادِمُ فقِيلَ : قُتِلَ منهُم سَبعُونَ ألفاً ، وقُتِلَ مَلِكُهُم ، وأُخِذَ منهم صَليبُ الصَّلَبُوت فالحَمدُ لله علىٰ هـٰذا النَّصْرِ العَزيزِ الذي لَمْ يُسْمَع بمِثْلِه ، مع تمَامِ المِنَّةِ على الإسْلامِ بمَصْرَعِ الخَبيث .

وعادَ المُوَفَّقُ إلىٰ بَغْدَادَ مَرِيضاً من نِقْرسٍ ، ثمَّ صَارَ داءَ الفِيلِ وقَاسَىٰ بلاءً ، فكان يقولُ : في دِيوانِي مِئَةُ ألفِ مُرْتَزِقٍ ، ما أَصْبحَ فيهم أسْوَأَ حالاً منِّي ، ثمَّ ماتَ .

وفي سَنَةِ تَسعٍ وسَبعينَ خُلِعَ المُفَوَّضُ بنُ المُعْتَمِد من وِلايَةِ العَهْدِ ، وقُدِّمَ عليه أبو العَبَّاس المُعْتَضِدُ بنُ المُوفَّق نَهَضَ بذَلِك الأُمَرَاءُ .

وفيها مَنَعَ أبو العَبَّاسِ القُصَّاصَ والمُنَجِّمينَ ، وأَلْزَمَ الكُتبيِّينَ أنْ لا يَبِيعُوا كُتُبَ الفَلْسَفَةِ والجَدَلِ ، وضَعُفَ أمْرُ عَمِّه المُعْتَمِد معَه ، ثمَّ ماتَ فَجأَةً لإحدَىٰ عَشر ليلةً بَقِيَتْ من رَجَبَ سَنَةَ تِسْعٍ وسَبْعِينَ ومِئَتينِ ببَغْدَادَ ونُقِلَ فدُفِنَ بسَامرَّاءَ ، فكانت خِلافَتُه ثلاثاً وعِشْرينَ سَنةً وثلاثةَ أيَّامٍ[4] .

---

(١) انظر السير : (الحَكم بن هشام) ٨/ ٢٥٣ـ ٢٦٠ ، وانظر النزهة : ١/٧٥١ .

(٢) انظر « الكامل » لابن الأثير : ٧/ ٧٣ ، ٧٤ ، وانظر « نفح الطيب » ١/ ٣٥٠ .

(٣) انظر السير : (محمد بن عبد الرحمـٰن بن الحكم) ٨/ ٢٦٢ـ ٢٦٣ ، وانظر النزهة : ٤/٧٥٤ .

(٤) انظر السير : (المعتمد على الله) ١٢/ ٥٤٠ـ٥٥٣ ، وانظر النزهة : ١/١٠٣٤ .

وافْتَتَحَ ابنُ سُبُكْتِكِين عِدةَ مَدائِنَ بالهِنْدِ ، ووَرَدَه كِتابُ القَادِرِ باللهِ ، ففِيهِ : صَدَرَ العَبدُ من غَزْنَةَ في أوّلِ سَنةِ عَشرٍ وأرْبَعِ مِئَة ، وانْتَدَبَ لتَنفِيذِ الأَوامِرِ فرَتَّبَ في غَزْنَةَ خَمسةَ عَشرَ ألفَ فارسٍ ، وأَنْهَضَ ابنَه في عِشرينَ ألفاً وشَحَنَ بَلْخَ وطَخَارُسْتَانَ باثني عَشرَ ألفَ فارسٍ ، وعَشرةَ آلافِ راجلٍ ، وانتُخَبَ ثلاثينَ ألفَ فارسٍ ، وعَشرَةَ آلافِ راجلٍ لصُحْبَةِ رَايَةِ الإسْلامِ ، وانْضَمَّ إليه المُطَّوِّعَةُ ، فافْتَتَحَ قِلاعَاً وحُصُوناً وأَسْلَمَ زُهَاءَ عِشرينَ ألفاً ، وأَدَّوْا نَحوَ ألْفِ ألْفٍ من الوَرِقِ ، وثلاثين فِيلاً ، وعِدَّةُ الهَلْكَىٰ خمسُونَ ألفاً ووَافَى العَبدُ مدينةً لهم عَايَنَ فيها نَحوَ ألفِ قَصْرٍ ، وألفَ بيتٍ للأَصْنَامِ ، ومَبْلَغُ ما على الصَّنَمِ ثمَانِيَةٌ وتِسْعونَ ألفَ دينارٍ ، وقَلَعَ أَزْيَدَ من ألفِ صَنَمٍ ، ولهم صَنَمٌ مُعَظَّمٌ يُؤَرِّخُونَ مُدَّتَه بجَهَالَتِهم بثلاثِ مِئَةِ ألفِ سَنَةٍ ، وحَصَّلْنا من الغَنَائِمِ عِشْرينَ ألفِ ألفِ درهمٍ ، وأُفْرِدَ الخُمْسُ من الرَّقِيقِ ، فبَلَغَ ثلاثةً وخَمْسِينَ ألفاً ، واسْتَعْرَضْنَا ثلاثَ مِئَةٍ وستةٍ وخَمسِينَ فِيلاً .

وفي سَنَةِ اثْنتَينِ وعِشرينَ وأرْبَعِ مِئَةٍ ، ماتَ القَادِرُ باللهِ ، وعَاشَ سَبْعاً وثمَانِينَ سَنةً سِوَىٰ شهرٍ وثمانيةَ أيَّامٍ ، وما عَلِمْتُ أحداً من خُلَفَاءِ هـٰذهِ الأُمَّة بَلَغَ هـٰذا السِّنَّ ، ولا حتىٰ عُثْمانَ رضي الله عنه[1] .

وجاءَ في تَرجَمَةِ المَنْصُورِ العُبَيْدِيِّ الباطِنِيّ قال الذهبيُّ : وقد كان في سَنَةِ أَرْبَعِين جَهَّزَ أبو الطَّاهِرِ إسْماعِيلُ بنُ القَائِمِ بنِ المَهْدِيِّ جَيْشَه في البَحْرِ إلىٰ صِقِلِّيَّةَ ، فهَزَمُوا النَّصارَىٰ وكانت مَلْحَمَةً عُظْمَىٰ ، قُتِلَ فيها من العَدُوِّ ثلاثُونَ ألفاً وأُسِرَ منهم أُلُوفٌ ، وغَنِمَ الجُندُ ما لا يُعبَّر عنه .

وقِيلَ : إنَّه افْتَتَحَ مدينةَ جَنْوَةَ .

وحَكَمَ علىٰ مَمْلَكَةِ صِقِلِّيَة وافْتَتَحَ له نائِبُه عليها فُتُوحاتٍ ، وانْتَصَرَ على العَدُوِّ وفَرِحَ بذَلك المُسلمونَ ، وتَوطَّدَ سُلطَانُه .

---

(١) انظر السير : (القادر بالله) ١٥/١٢٧ـ١٣٨ ، وانظر النزهة : ٣/١١٩٤ .

وكان المَنْصُورُ مُحَبَّباً إلى الرَّعِيَّة مُقْتَصِراً علىٰ إظْهَارِ التَّشَيُّع وقام بعدَه المُعِزُّ وَلَدُه[1] .

وفي سَنَةِ أَرْبَعِينَ وأربع مئة غَزَتْ الغُزُّ مع إبراهِيمَ يَنَال السَّلْجُوقِيّ ، وقِيلَ : ما كانَ مَعَهُم ، فغَزَوْا إلىٰ قَرِيبِ القُسْطَنْطِينِيَّة ، وغَنِمُوا وسَبُوا أَزْيَدَ من مِئَةِ ألفٍ ، وقِيلَ : جُرَّت المَكَاسِبُ علىٰ عَشْرةِ آلافِ عَجلَةً ، وكان فَتْحاً عَظِيماً وكان الرَّفْضُ أيْضاً قَوِيّاً بالعِراقِ[2] .

وجاءَ في تَرجَمَةِ طغَان خَان التُّرْكِيِّ صاحِبِ تُرْكِسْتان وبَلاَسَاغُون ، وكاشغر ، وخَتن ، وفاراب : قَصَدَتْهُ جُيوشُ الصِّينِ والخَطَا[3] في جَمْعٍ ما سُمِعَ بمِثْلِه ، حتىٰ قِيلَ : كانوا ثلاثَ مِئَةِ ألفٍ

وكان مَرِيضاً فقال : اللَّهُمَّ عافِنِي لأَغْزُوَهم ، ثمَّ تَوَفَّنِي إنْ شِئْتَ ، فعُوفِيَ ، وجَمَعَ عَسَاكِرَه ، وسَاقَ ، فبَيَّتَهم ، وقَتَلَ منهم مِئَتَيْ ألفٍ ، وأَسَرَ مِئَةَ ألفٍ ، وكانت مَلْحَمَةً مَشْهُودةً في سَنَةِ ثمَانٍ وأَرْبَعِ مِئَةٍ ، ورَجَعَ بغَنَائِمَ لا تُحْصَىٰ إلىٰ بَلاَسَاغُون ، فتَوَفَّاه اللهُ عَقِيبَ وُصُولِه .

وكان دَيِّناً عَادِلاً ، بَطَلاً شُجَاعاً[4] .

وبَلَغَ السُّلطانَ المَلِكَ يَمِينَ الدَّولَةِ مَحمُودَ سُبُكتِكِين أنَّ الهُنودَ قالوا : أَخْرَبَ أكْثَرَ بلادِ الهِنْدِ غَضَبُ الصَّنَمِ الكبيرِ سُومَنات علىٰ سائِرِ الأَصْنامِ ومَنْ حَوْلَها ، فعَزَمَ علىٰ غَزْوِ هٰذا الوَثَنَ ، وسَارَ يَطوِي القِفَارَ في جَيشِه إليه ، وكانوا يقُولونَ : إنَّه يَرْزُقُ ويُحْيِي ويُميتُ ويَسْمَعُ ويَعِي ، يَحُجُّون إليه ويُتْحِفُونَه بالنَّفائِس ، ويَتَغَازَلُون فيه كثيراً ، فتَجَمَّعَ عند هٰذا مالٌ يَتَجَاوَزُ الوَصْفَ ، وكانوا يَغْسِلُونَه كلَّ يومٍ بماءٍ وعَسَلٍ ولَبَن ، ويَنْقُلُونَ

---

(١) انظر السير : (المنصور) ١٥/١٥٦ـ١٥٩ ، وانظر النزهة : ١/١٢٠٣ .

(٢) انظر السير : (المستنصر بالله) ١٥/١٨٦ـ١٩٦ ، وانظر النزهة : ٢/١٢١١ .

(٣) قال القلقشندي : إن اسم الخَطَا يُطلق علىٰ بلاد متاخمة للصين يسكنها جنس من الترك ، وقد أسسوا دولتهم في القرن السادس الهجري ، والثاني عشر الميلادي وكانت بينهم وبين المسلمين حروب طويلة .

(٤) انظر السير : (طغان خان) ١٧/٢٧٨ـ٢٧٩ ، وانظر النزهة : ٢/١٤٣١ .

إليه الماءَ من نَهْرٍ حيل مَسيرَةَ شَهرٍ ، وثلاثُ مِئَةٍ يَحْلِقُونَ رُؤُوسَ حُجَّاجِه ولِحَاهُم ، وثلاثُ مِئَةٍ يُغَنُّونَ فسَارَ الجَيشُ من غَزْنة ، وقَطَعُوا مَفَازَةً صعبةً وكانوا ثلاثينَ ألفَ فارسٍ وخَلْقاً من الرَّجَّالَةِ والمُطَّوِّعَة ، وقوَّى المُطَّوِّعَةَ بخَمْسِينَ ألفَ دينارٍ ، وأَنْفَقَ في الجَيْشِ فَوقَ الكِفَايةِ ، وارْتَحلَ من المُليا ثانِيَ يوم الفِطْرِ سنةَ ٤١٦ هـ ، وقاسُوا مَشَاقَّ وبَقُوا لا يَجِدُونَ الماءَ إلاَّ بعدَ ثلاثٍ ، غَطَّاهُم في يومٍ ضَبَابٌ عظيمٌ ، فقالت الكَفَرَةُ : هـٰذا من فِعْلِ الإلَٰهِ سُومَنات .

ثمَّ نازَلَ مدينةَ أَنْهَلْوَارَة ، وهَرَبَ ملِكُها إلىٰ جزيرةٍ ، فأَخْرَبَ المُسلمُونَ بلَدَه ، ودَكُّوها ، وبينَها وبَيْنَ الصَّنَمِ مَسِيرَةَ شَهرٍ في مَفَاوِزَ ، فسَارُوا حتىٰ نَازَلُوا مدينةَ دَبُولوارة ، وهي قَبْلَ الصَّنَمِ بيَوْمَيْن ، فأُخِذَت عُنْوَةً ، وكُسِرَتْ أَصْنَامُهَا ، وهي كثيرةُ الفَوَاكِه ، ثمَّ نَازَلُوا سُومَنات في رابِعَ عَشَرَ ذي القِعدَة ، ولها قَلْعَةٌ مَنِيعَةٌ على البحرِ ، فوَقَعَ الحِصَارُ فنُصِبَت السَّلالِمُ عليها ، فهَرَبَ المُقاتِلَةُ إلى الصَّنَمِ وتَضرَّعُوا له ، واشْتَدَّ الحالُ وهم يَظُنُّون أنَّ الصَّنَمَ قد غَضِبَ عليهم ، وكان في بيتٍ عظِيمٍ مَنِيعٍ علىٰ أبْوَابه السُّتُورُ الدِّيبَاجُ وعلى الصَّنَم من الحُليِّ والجَوَاهِر ما لا يُوصَف والقَنَادِيلُ تُضِيءُ ليلاً ونهاراً ، علىٰ رَأسِه تاجٌ لا يُقَوَّمُ ، يَنْدَهِشُ منه النَّاظِرُ ويَجْتَمِعُ عنده في عِيدِهم نَحْوَ مِئَةِ ألفِ كافِرٍ ، وهو علىٰ عَرْشٍ بَدِيعِ الزَّخْرَفَةِ عُلُوَّ خَمسةِ أَذْرُعٍ ، وطُولُ الصَّنَمِ عَشَرَةَ أَذْرُعٍ ، وله بَيْتُ مالٍ فيه من النَّفَائِسِ والذَّهَبِ ما لا يُحْصَىٰ ، فَفَرَّقَ مَحمُودٌ في الجُنْدِ مُعْظَمَ ذلك ، وزَعْزَعَ الصَّنَمَ بالمَعَاوِلِ ، فخَرَّ صَرِيعاً ، وكانت فِرقَةٌ تَعْتَقِدُ أنَّه مَنَاتْ ، وأنَّه تَحَوَّلَ بنفسِه في أيَّام النُّبُوَةِ من سَاحِلِ جُدَّة ، وحَصَلَ بهـٰذا المَكَان ليُقْصَدَ ويُحَجَّ إليه مُعَارَضَةً للكَعْبَةِ ، فلمَّا رَآهُ الكُفَّارُ صَرِيعاً مَهِيناً ، تَحَسَّرُوا وسُقِطَ في أيدِيهم ، ثمَّ أُحْرِقَ حتىٰ صَارَ كلساً ، وأُلقِيَت النِّيرَانُ في قُصُورِ القَلْعَة ، وقُتِلَ بها خَمسُونَ ألفاً ، ثمَّ سارَ مَحمُودٌ لأَسْرِ المَلِكِ بهيم ، ودَخَلُوا بالمَرَاكِبِ ، فهَرَبَ ، وافْتَتَحَ مَحمُودٌ عِدَّةَ حُصُونٍ ومَدَائِنَ ، وعادَ إلىٰ غَزْنَة فدَخَلَها في ثامِنِ صَفَر سَنَةَ سَبْعَ عَشْرَةَ ، ودَانَتْ له المُلُوكُ ، فكانت مُدَّةُ الغَيْبَةِ مِئَةً وثلاثَةً وستِّينَ يوماً .

وقد خُطِبَ له بالغُورِ وبخُرَاسَان والسِّنْدِ والهِنْدِ وناحِيَةَ خَوَارِزْم وبَلْخ ، وهي من

خُرَاسَان ، وبجُرجان وطَبَرِستان والرَّيِّ والجِبَال ، وأَصْبَهَان وأَذْرَبِيجان وهَمَذَان وأَرْمِينِيَة .

وكان مُكْرِماً لأُمَرَائِه وأَصْحابِه ، وإذا نَقَمَ عَاجَل ، وكان لا يَفْتُرُ ولا يَكَادُ يَقِرُّ وكان يَعْتَقِدُ في الخَلِيفَةِ ، ويَخْضَعُ لجَلالِه ، ويَحْمِلُ إليه قَنَاطِيرَ من الذَّهَبِ والفِضَّةِ ، وكان إلْباً على القَرَامِطَة والإسْمَاعيليّة وعلى المُتَكَلِّمين ، علىٰ بِدْعَةٍ فيه فيما قَبْل ، ويَغْضَبُ للكرّاميّة ، وتَصرُّفه على الأَخْلاقِ الزَّكيّة ، وكان فيه شِدَّةٌ وَطْأَةٍ على الرَّعِيّة ، ولكن كانوا في أَمْنٍ وإقامَة سِياسَة .

وقال مَحمُودٌ يوماً للأميرِ أبي طاهِر السَّامانيّ : كَمْ جَمَعَ آباؤُك من الجَوْهَرِ ؟ قال : سَمعتُ أنَّه كان عند الأميرِ الرَّضي سَبْعَةُ أَرْطالٍ فسَجَدَ شُكراً وقال : أنا في خِزانَتِي سَبْعُون رَطْلاً[1] .

جاءَ في تَرجَمَةِ السلطانِ أَلْب آرْسَلان قال الذهبيُّ : عَظُمَ أَمْرُ السلطانِ أَلْب آرسَلان ، وخُطِبَ له علىٰ مَنَابِرِ العِراقِ والعَجَم وخُراسَان ، ودانَتْ له الأُمَمُ ، وأَحَبَّتْه الرَّعَايَا ، ولا سِيَّمَا لمَّا هَزَمَ العَدُوَّ فإنَّ الطَّاغِيَةَ عَظِيمَ الرُّومِ أَرمانُوس حَشَدَ ، وأقْبَلَ في جَمْعٍ ما سُمِعَ بمِثْلِه في نَحوٍ من مِئَتَيّ أَلفِ مُقاتِلٍ من الرُّومِ والفِرَنْج والكَرْج وغيرِ ذلك ، ووَصَلَ إلىٰ مَنازْكِرْد[2] وكان السُّلطانُ بِخُوَيّ[3] قد رَجَعَ من الشَّامِ في خَمسَةَ عشرَ ألف فارسٍ ، وباقي جُيُوشِه في الأَطْرافِ ، فصَمَّمَ على المَصافّ ، وقال : أنا أَلْتَقِيهم ـ وحَسْبِيَ اللهُ ـ فإنْ سَلِمْتُ ، وإلاَّ فابْنِي مَلِكْشاه وَلِيُّ عَهْدِي ، وسَارَ ، فالْتَقىٰ يَزَكُهُ[4] ، ويَزَكُ القوم فكَسَرَهم يَزَكُه ، وأَسَروا مُقَدَّمَهم ، فقَطَعَ السُّلطانُ أَنْفَه ، ولمَّا الْتَقى الجَمْعانِ وتَراءَى الكُفْرُ والإيمانُ ، واصْطَدَمَ الجَبَلانِ ، طَلَبَ السُّلطانُ الهُدْنَةَ ، قال أَرْمَانُوسُ : لا هُدنَةَ إلاَّ ببَذْلِ الرَّيّ ، فحَمَي السُّلطانُ وشَاطَ ، فقال إمامُه : إنَّكَ تُقاتِلُ عن دينٍ وَعَدَ اللهُ بنَصْرِهِ ، ولَعَلَّ هٰذا الفَتْحُ باسْمِك ، فالتَقِهم وقْتَ الزَّوَالِ ـ وكان يومَ

---

(١) انظر السير : (السلطان) ١٧/ ٤٨٣ـ ٤٩٥ ، وانظر النزهة : ٣/١٣٥٣ .

(٢) مَنازْكِرْد : بلد في أرمينية ، وأهله أرمن وروم .

(٣) خُوَيّ : بلد بأذربيجان .

(٤) اليَزَك : كلمة فارسية معناها : مقدمة الجيش .

جُمُعَة ـ قال : فإنَّه يكونُ الخُطَبَاءُ على المَنَابِرِ ، وإنَّهم يَدْعُونَ للمُجَاهِدينَ ، فَصَلَّوْا ، وبَكَى السُّلطانُ ، ودَعَا وأَمَّنُوا ، وسَجَدَ ، وعَفَّرَ وجْهَهُ وقال : يا أُمَرَاءُ! مَنْ شَاءَ فلْيَنْصَرِفْ ، فمَا ها هُنَا سُلطانٌ ، وعَقَدَ ذَنَبَ حصانِه بيَدِه ، ولَبِسَ البَيَاضَ وتَحَنَّطَ ، وحَمَلَ بجَيْشِه حَمْلَةً صادِقَةً ، فوَقَعُوا في وَسَطِ العَدُوِّ يَقْتُلُون كيفَ شَاؤُوا ، وثَبُتَ العَسْكَرُ ، ونَـزَلَ النَّصْرُ ، ووَلَّـتِ الـرُّومُ ، واسْتَحَرَّ بهـم القَتْـلُ ، وأُسِـرَ طـاغِيَتُهـم أرْمانُوس ، أَسَرَهُ مَمْلُوكٌ وهَمَّ بقَتْلِه ، فقال إفْرِنْجِيٌّ : لا لا ، فهـٰذا المَلِكُ وقرأتُ بخَطِّ القِفْطِيِّ أنَّ ألْبَ آرسَلان بالَغَ في التَّضَرُّعِ والتَّذَلُّلِ ، وأخْلَصَ للهِ وكَيْفِيَّةُ أَسْرِ الطَّاغُوتِ أنَّ مَمْلُوكاً وَجَدَ فَرَساً بلِجَامٍ مُجَوهَرٍ وسِرْجٍ مُذَهَّب مع رَجُلٍ ، بينَ يَدَيْه مِغْفَرٌ من الذَّهَبِ ، ودِرْعٌ من الذَّهَبِ ، فهَمَّ الغُلامُ فأتىٰ به بينَ يَدَيِ السُّلطانِ ، فقَنَّعَه بالمِقْرَعَةِ ، وقال : ويْلَكَ! أَلَمْ أبْعَثْ أطلُبُ منْكَ الهُدنَةَ ؟ فقال : دَعْنِي من التَّوبِيخِ ، قال : ما كان عَزْمُكَ لَو ظَفِرْتَ بِي ؟ قال : كُلُّ قَبيحٍ قال : فما تُؤَمِّلُ وتَظُنُّ بِي ؟ قال : القَتْلُ أو تُشَهِّرُني في بلادِك والثالثةُ بَعِيدَةٌ : العَفْوُ وقَبُولُ الفِداءِ قال : ما عَزَمْتُ علىٰ غيرِها فاشْتَرَىٰ نفسَه بألفِ ألفِ دينارٍ وخَمسِ مِئَةِ ألفِ دينارٍ ، وإطْلاقِ كُلِّ أسيرٍ في بلادِه ، فخَلَعَ عليهِ ، وبَعَثَ معه عُدَّةً وأعْطَاهُ نَفَقَةً تُوصلُه ، وأمَّا الرُّومُ فبَادَرُوا ، ومَلَّكُوا آخَرَ ، فلمَّا قَرُبَ أرْمانُوسُ ، شَعَرَ بزَوالِ مُلْكِه ، فلَبِسَ الصُّوفَ وتَرَهَّبَ ، ثمَّ جَمَعَ ما وَصَلَتْ يدُه إليهِ نَحوَ ثلاثِ مِئَةِ ألفِ دينارٍ ، وبَعَثَ بها ، واعْتَذَرَ وكانت المَلْحَمَةُ في سَنَةِ ثلاثٍ وسِتين .

وقد غزَا بلادَ الرُّوم مرَّتَيْن وافْتَتَحَ قِلاعاً ، وأَرْعَبَ المُلُوكَ ، ثمَّ سَارَ إلىٰ أَصْبَهَانَ وذَهبَ إلىٰ شِيرازَ ، ثمَّ عادَ إلىٰ خُراسَانَ ، وكادَ أنْ يَتَمَلَّكَ مِصْرَ .

ثمَّ في سَنَةِ خَمسٍ عَبَرَ السُّلطانُ بجُيُوشِه نَهْرَ جَيْحُونَ ، وكانوا مِئَتَيّ ألفَ فارسٍ فأُتِيَ بِعِلْجٍ يُقَالُ له : يُوسُف الخَوَارِزميّ كانت بيَدِهِ قَلعَةٌ ، فأَمَرَ أنْ يُشْبَحَ في أرْبَعَةِ أوْتادٍ ، فصَاحَ : يا مُخَنَّثُ ؛ مِثْلِي يُقتَلُ هـٰكذا ؟!! ، فاحْتَدَّ السُّلطانُ ، وأخَذَ القَوْسَ ، وقال : دَعُوهُ ورَمَاهُ فأخْطَأَهُ ، فظَفَرَ[1] يُوسُفُ إلى السَّرِيرِ ، فقامَ السُّلطانُ فعَثَرَ علىٰ

(١) ظَفَرَ : أي وثبَ في ارتفاع .

وجْهِهِ ، فبَرَكَ العِلْجُ على السُّلطانِ ، وضَرَبَه بسَكِّينٍ ، وتَكاثَرَ المَماليكُ فهبَّرُوهُ ، وماتَ منها السُّلطانُ ، وذلكَ سَنَةَ خَمسٍ وسِتينَ وأرْبَعِ مِئَةٍ ، وله أرْبَعُونَ سَنَةً[1] .

وجاء في تَرجَمَةِ المُعْتَمِدِ بنِ عَبَّادٍ صاحِبِ الأَنْدَلُسِ قال الذهبيُّ : قال ابنُ خَلِّكان : كان الأذْفونشُ قد قَوِيَ أمْرُهُ ، وكانت المُلُوكُ بالأَنْدَلُسِ يُصالِحُونَه ، ويَحْمِلُون إليه ضَرائِبَ ، وأخَذَ طُلَيْطِلَةَ في سَنةِ ثَمانٍ وسَبعِين بعد حِصارٍ شَديدٍ من القَادِرِ بنِ ذي النُّونِ ، فكانَ ذلكَ أوَّلَ وَهْنٍ دَخَلَ من الفِرَنْجِ على المُسلِمين ، وكان المُعْتَمِدُ بنُ عَبَّاد يُؤَدِّي إليه ، فلمَّا تَمكَّنَ لَمْ يَقبَلِ الضَّريبَةَ وتَهَدَّدَه ، وطَلَبَ منه أنْ يُسَلِّمَ حُصُوناً ، فضَرَبَ الرسُولَ وقتَلَ مَنْ معَه ، فتَحَرَّكَ اللَّعِينُ ، واجْتَمَعَ العُلَمَاءُ واتَّفَقُوا علىٰ أنْ يُكاتِبُوا الأميرَ أبا يَعْقُوبَ بنَ تاشِفينَ صاحِبِ مَرَّاكُش ليُنْجِدَهم ، فعَبَرَ ابنُ تاشِفين بجُيُوشِه إلى الجَزيرَة ، ثمَّ اجْتَمَعَ بالمُعْتَمِدِ ، وأقْبَلَتِ المُطَّوِّعَةُ من النَّواحِي ، ورَكِبَ الأذفونُش في أرْبَعِينَ ألفَ فارسٍ ، وكَتَبَ إلى ابنِ تاشِفين يَتَهَدَّدُه ، فكَتَبَ في ظَهْرِ كِتَابه : « الذي يكُونُ سَتَراه » ثمَّ الْتَقَى الجَمْعَانِ واصْطَدَمَ الجَبَلانِ بالزَّلاَّقَةِ من أرْضِ بَطَلْيَوْس[2] فانْهَزَمَ الكَلْبُ ، واسْتُؤْصِلَ جَمْعُه ، وقَلَّ مَنْ نَجَا في رَمَضَانَ سَنة تِسْعٍ وسَبعِين ، وجُرِحَ المُعْتَمِدُ في بَدَنِه ووَجْهِه ، وشُهِدَ له بالشَّجاعَةِ والإقْدامِ ، وغَنِمَ المُسْلِمون ما لا يُوصَفُ ، وغَدَا[3] ابنُ تاشِفين[4] .

وقال الذهبيُّ : وفي سَنةِ خَمْسِمِئَة وثلاثٍ وأرْبَعِينَ جاءَتْ ثَلاثَةُ مُلُوكٍ من الفِرَنْجِ إلى القُدْسِ ، منهُم طَاغِيَةُ الأَلْمانِ ، وصَلَّوْا صَلاةَ المَوتِ ، وفرَّقُوا علىٰ جُندِهم سَبعَ مِئَةِ ألفِ دينارٍ ، فلَمْ يَشْعُرْ بهم أهلُ دِمَشْقَ إلاَّ وقد صَبَّحُوهم في عَشْرَةِ آلافِ فارسٍ وسِتينَ ألفِ رَجْلٍ ، فخَرَجَ المُسلِمُونَ فارسُهُم وراجِلُهُم ، والْتَقَوا ، فاسْتُشْهِدَ نَحوَ المِئَتَيْنِ ، منهُم الفَنْدَلاوِيُّ ، وعبدُ الرَّحمَـٰنِ الحَلْحُولِيّ ، ثمَّ اقْتَتَلُوا من الغَدِ ، وقُتِلَ خَلْقٌ من

---

(١) انظر السير : (ألب آرسلان) ١٨/ ٤١٤ـ٤١٨ ، وانظر النزهة : ١٤٢٦/٥ .
(٢) مدينة كبيرة بالأندلس ، تقع على الحدود الشرقية للبرتغال ، كانت عاصمة بني الأفطس التجيبيين في عهد ملوك الطوائف .
(٣) أي رجع إلىٰ بلاده .
(٤) انظر السير : (المعتمد بن عباد) ١٩/ ٥٨ـ٦٧ ، وانظر النزهة : ١٤٥٨/١ .

الفِرَنْج ، فلمَّا كان خامِسُ يوم وَصَلَ من الجَزِيرَةِ غَازِي ابنُ زِنْكِي في عِشْرِينَ ألفاً ، وتَبِعَهُ أَخُوهُ نُورُ الدِّينِ وكان الضَّجِيجُ والدُّعاءِ والتَّضَرُّعِ بدِمَشْقَ لا يُعَبَّرُ عنه ، ووَضَعُوا المُصْحَفَ العُثْمَانِيَّ في صَحْنِ الجَامِعِ ، وكان قِسِّيسُ العَدُوِّ قال وعَدَنِي المَسِيحُ بأَخْذِ دِمَشْقَ ، فحفُّوا به ورَكِبَ حِمَارَه وفي يدِه الصَّلِيبُ ، فشَدَّ عليه الدَّماشِقَةُ ، فقَتَلُوهُ ، وقَتَلُوا حِمَارَه ، وجاءَتِ النَّجَدَاتُ ، فانْهَزَمَ الفِرَنْجُ[1] .

وقال الذهبيُّ : وفي سَنَةِ خَمسٍ وثَمَانِينَ غَزَا صاحِبُ المَغرِبِ السُّلطانُ يَعْقُوبُ بنُ يُوسُفَ الفِرَنْجَ ، ثمَّ رَجَعَ ، فمَرِضَ ، وتَكَلَّمَ أَخُوهُ أبو يَحْيَىٰ في المُلْكِ ، فلمَّا عُوفِيَ قَتَلَهُ ، وتَهَدَّدَ القَرَابَةَ[2] .

وفي سَنَةِ تسْعِينَ انْتُقَضَتْ الهُدنَةُ ، فتَجَهَّزَ ، وعَرَضَ جُيوشَه بإشْبيلية ، وأَنْفَقَ الأموالَ ، فقَصَدَهُ الْفُنْشُ فالْتَقَوْا ، وكان النَّصرُ عَزيزاً ، ما نَجَا الْفُنْشُ إلاَّ في شُرَيْذِمَةٍ ، واسْتُشْهِدَ من الكِبارِ جَماعَةٌ ، واسْتَوْلَىٰ يَعْقُوبُ علىٰ قِلاعٍ ، ونَازَلَ طُلَيْطِلَةَ ، ثمَّ رَجَعَ ، ثمَّ غَزَا ووَغَّلَ ، بحيثُ انْتَهىٰ إلىٰ أرْضٍ ما وَصَلَتْ إليها المُلوكُ ، فطَلَبَ الْفُنْشُ المُهادَنَةَ ، فعُقِدَتْ عَشْراً ، ثمَّ رَدَّ السُّلطانُ إلىٰ مرّاكُش بعد سَنَتَينِ ، وصَرَّحَ بقَصْدِ مِصْرَ .

وكان يَتَوَلَّى الصَّلاةَ بنفسه أَشْهُراً ، فتَعَوَّقَ يوماً ، ثمَّ خَرَجَ ، وهم يَنْتَظِرُونَه ، فلامَهُم ، وقال : قد قَدَّمَ الصَّحابَةُ عبد الرَّحمـٰنِ ابنَ عَوْفٍ للعُذرِ ، ثمَّ قَرَّرَ إماماً عنه ، وكان يَجْلِسُ للحُكْمِ ، حتى اخْتَصَمَ إليه اثنانِ في نِصْفٍ[3] ، فقَضَىٰ ، ثمَّ أَدَّبَهُما ، وقال : أَمَا كان في البَلَدِ حُكَّامٌ

وكان يَجْمَعُ الأيْتَامَ في العَامِ ، فيَأمُرُ للصَّبيِّ بدينارٍ وثَوبٍ ورَغِيفٍ ورُمَّانَةٍ[4] .

وقال الذهبيُّ : وفي سَنَةِ إِحْدَىٰ وتِسعِينَ كانت بالأَنْدَلُسِ المَلْحَمَةُ العُظْمَىٰ ، وَقْعَةُ

---

(١) انظر السير : (المقْتفي لأمر الله) ٢٠/ ٣٩٩ـ ٤١٢ ، وانظر النزهة : ٤/١٥٦٨ .
(٢) انظر السير : (صاحب المغرب) ٢١/ ٣١١ـ ٣١٩ ، وانظر النزهة : ١/١٦٢٧ .
(٣) يعني في نصف درهم .
(٤) انظر السير : (صاحب المغرب) ٢١/ ٣١١ـ ٣١٩ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٢٧ .

الزَّلَّاقَة بينَ يَعْقُوبَ وبينَ الفُنْش الذي اسْتَوْلَىٰ علىٰ بلادِ الأَنْدَلُسِ ، فأَقْبَلَ اللَّعِينُ في مِئَتَيِ ألفٍ وعَرَضَ يَعْقُوبُ جُنْدَه فكانوا مِئَةَ ألفٍ مُرْتَزقَة ، ومِئَةَ ألفٍ مُطَّوِّعَة ، عَدوا البَحرَ إلى الأَنْدَلُسِ ، فنَزَلَ النَّصْرُ ونَجَا قَليلٌ من العَدُوِّ ، قال أبو شَامَة : عِدَّةُ القَتْلَىٰ مِئَةُ ألفٍ وسِتةٌ وأَرْبَعُونَ ألفاً ، وأُسِرَ ثلاثونَ ألفاً ، وأُخِذَ من خِيَامِهم مِئَةُ ألفِ خَيْمَة وخَمسُونَ ألفاً ، ومن الخَيْلِ ثمَانُونَ ألفَ رأسٍ ومن البِغَالِ مِئَةَ ألفٍ ، ومن الحَمِيرِ التي لأَثْقَالِهم أَرْبَع مِئَةِ ألفٍ ، وبِيعَ الأَسِيرُ بدِرهمٍ والحِصَانُ بخَمْسَة ، وقَسَّمَ السُّلطانُ الغَنِيمَةَ على الشَّرِيعَةِ ، واسْتَغْنَوا[1] .

(د) مَعاركُ خَسِرَ فيها المُسلِمونَ وسَبَبُها :

وقال الإمامُ الذهبيُّ في تَرجَمَةِ صاحِبِ المغرْبِ السُّلطانُ أبو عبدِ الله المَلِكِ النَّاصِرِ بنِ السُّلطانِ يَعْقُوبَ : تَمَلَّكَ البلادَ بعهدٍ من أبيه مُتَقَدِّم إلىٰ أن قال : ثمَّ فَرَغَتْ هُدنَةُ الفِرَنْجِ ، فعَبَرَ السُّلطانُ بجُيُوشِه إلىٰ أشْبيلِيَّةَ ، ثمَّ تَحرَّكَ في سَنةِ ثمانٍ وستٍّ مِئَةٍ لجِهَادِ العَدُوِّ ، فنَازَلَ حِصناً لهم فأَخَذَهُ فسَارَ الْفُنشُ في أقاصِي المَمَالك يَسْتَنْفِرُ عُبَّادَ الصَّلِيبِ ، فاجْتَمَعَتْ له جُيوشٌ ما سُمِعَ بمثلِها ، ونَجَدَتْه فِرَنْجُ الشَّامِ ، وعَسَاكِرُ القُسْطَنْطِينيَّة ، ومَلكُ أرْغُن البَرْشلونيّ ، واسْتَنْفَرَ السُّلطانُ أيضاً النَّاسَ ، والْتَقى الجَمعَانِ ، وتُعْرَفُ بوَقْعَةِ العِقابِ ، فتَحَمَّلَ الْفُنشُ حَمْلةً شَديدةً ، فهَزَمَ المُسلِمينَ ، واسْتُشْهِدَ خَلْقٌ كثيرٌ ، وكان أكْبَرَ أسْبابِ الكَسْرَةِ غَضَبُ الجُندِ من تأَخُّرِ عطَائِهم ، وثَبُتَ السُّلطانُ ثبَاتاً كُلِّياً ، لَوْلاهُ لاسْتُئْصِلَ جَيشُه ، وكانت المَلْحَمَةُ في صَفَرَ ، سَنةَ تِسعٍ وستِّ مِئَةٍ ، ورَجَعَ العَدُوُّ بغَنائِمَ لا تُوصَفُ ، وأخَذُوا بيّاسة عُنْوةً ، فإنَّا لله وإنَّا إليْهِ راجِعُونَ.

مَرِضَ السُّلطانُ أيَّاماً ، ومَاتَ سَنةَ عَشْرٍ وستٍّ مِئَةٍ وكانت أيَّامُه خَمْسَةَ عَشرَ عاماً ، وقَامَ بعدَه ابنُه المُسْتَنْصِرُ يُوسُف عَشْرَةَ أعْوَامٍ[2] .

---

(١) انظر السير : (الناصر لدين الله) ٢٢/ ١٩٢ـ ٢٤٢ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٨٨ .
(٢) انظر السير : (صاحب المغرب) ٢٢/ ٣٣٧ـ ٣٣٩ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٩٨ .

وقال الإمامُ الذهبيُّ في تَرجَمَةِ مُحمَّدِ بنِ يُوسُفَ بن هُودٍ : بعدَما خَلُصَت الأَنْدَلُسُ كُلُّها له ، فَرِحَ النَّاسُ به فَرَحاً عَظِيماً ، فلمَّا تَمَهَّدَ أَمْرُه أَنْشَأَ غَزْوةً للفِرَنْجِ علىٰ مدينةِ ماردة بغَربِ الأَنْدَلُسِ ، واسْتَدْعَى النَّاسَ من الأَقْطارِ ، فانتُدبَ الخَلْقُ له بجِدٍّ واجْتِهَادٍ وخُلُوصِ نِيَّةِ المُرتَزِقَةِ والمُطَّوِّعَةِ ، واجْتَمَعَ عليه أَهْلُ الأَنْدَلُسِ كُلُّهم ، ولَمْ يَبْقَ إِلاَّ مَنْ حَبَسَه العُذرُ ، فدَخَلَ بهم إلى الإفْرَنْجِ ، فلمَّا تَرَاءَى الجَمْعانِ وقَعَتِ الهَزِيمَةُ على المُسلمينَ ، أَقْبَحَ هَزِيمَةٍ ، فإنَّا للهِ وإنَّا إليه راجِعُونَ ، وكانت تلكَ الأَرْضُ مَدْيَسَةً بماءٍ وعَزْقٍ تَسَمَّرَتْ فيها الخَيلُ إلىٰ آباطِها ، وهَلَكَ الخَلْقُ ، وأَتْبَعَهُم الفِرَنْجُ بالقَتلِ والأَسْرِ ولَمْ يَبْقَ إلاَّ القَليلُ ، ورَجَعَ ابنُ هُودٍ في أَسْوَأِ حالٍ إلىٰ إِشْبيلِيَّةَ ، فنَعُوذُ باللهِ من سُوءِ المُنْقَلَبِ ، فلَمْ تَبْقَ بُقْعَةٌ من الأَنْدَلُسِ إلاَّ وفيها البُكاءُ والصِّياحُ العظِيمُ والحُزْنُ الطَّويلُ ، فكانت إِحْدَىٰ هَلَكَاتِ الأَنْدَلُسِ ، فمَقَتَ النَّاسُ ابنَ هُودٍ ، وصارُوا يُسَمُّونَه « المَحْرُوم » ، ولَمْ يَقْدِرْ أَنْ يفْعَلَ مع الفِرَنْجِ كبيرَ فِعلٍ[١] .

(هـ) تَواريخُ عدد من الفُتوحات :

قال اللَّيثُ بنُ سعد : اسْتُخلِفَ عُمرُ فكان فَتحُ دِمَشقَ ، ثم كان اليَرموك سنةَ خَمسَ عشرة ، ثم كانت الجابية سنة ست عشرة ، ثم كانت إيلياء وسَرْغ لسنة سبع عشرة ، ثم كان فتح باب ليُون وقَيْسارِيّة بالشَّام ، ومَوْت هِرَقْلَ سنة عشرين ، وفيها فُتِحَت مصرُ ، وسنة إحدىٰ وعشرين فُتِحَت نَهاوَند ، وفُتِحَت الإسكندريةُ سنة اثنتين وعشرين وفيها فُتِحَت إصطخر وهمذان ، ثمَّ غزا عَمرُو بنُ العاص أطْرابُلسَ المَغرب ، وغَزوَة عَمُّورية وأميرُ مصرَ وَهبُ بنُ عُمَير الجمحيّ، وأميرُ أهلِ الشَّامِ أبو الأَعْوَر سنة ثلاث وعشرين[٢] .

فَتْحُ دِمشْق :

قال ابنُ جَرير : سارَ أبو عُبَيْدة إلىٰ دِمَشْقَ ، وخالدٌ علىٰ مقدمة النَّاس ، وقد اجتمَعت الرُّومُ علىٰ رَجلٍ يُقالُ له بَاهان بدِمَشْقَ ، وكان عُمرُ عَزَلَ خالداً واسْتعمَلَ أبا

---

(١) انظر السير : (محمد بن يوسف بن هود) ٢٣/ ٢٠ـ ٢٢ ، وانظر النزهة : ٣/١٧١١ .

(٢) انظر السير : (عُمر بن الخطاب) ، وانظر النزهة : ٧/٢٥ .

عُبَيْدة على الجَميع ، والْتَقَى المسلمون والرُّومُ فيما حَولَ دِمَشْقَ ، فاقْتَتلوا قتالاً شديداً ، ثمّ هَزَمَ اللهُ الرُّومَ ، ودَخلُوا دِمَشْقَ وغَلَّقوا أبوابَها ، ونازَلَها المسلمون حتىٰ فُتِحَت ، وأعْطُوا الجِزْيَةَ ، وكان قَدِمَ الكتابُ علىٰ أبي عُبَيْدة بإمارَته وعَزْلِ خالد فاسْتَحيا أبو عُبَيْدة أن يُقْرِىء خالداً الكتابَ حتىٰ فُتِحَت دِمَشْقَ وجَرَى الصُّلحُ علىٰ يد خالد ، وكُتِبَ الكتابُ باسْمه ، فلمَّا صالَحَت دِمَشْقُ لَحِقَ باهانُ صاحبُ الرُّوم بهِرَقْل .

وقيل كان حِصارُ دِمَشْقَ أربعَةَ أشهر[1] .

وكان صاحبُ دِمَشْقَ قد جاءَه مَوْلُودٌ فصَنعَ طعاماً واشْتَغلَ يومئذ ، وخالدُ بنُ الوَليد الذي لا يَنامُ ولا يُنِيمُ قد هيَّأَ حِبالاً كَهيئة السَّلالم ، فلمَّا أمْسَىٰ هيَّأَ أصحابَه وتَقدَّم هو والقَعْقاعُ بنُ عَمْرو ، ومَذْعورُ بنُ عَديّ وأمثالُهم ، وقالوا : إذا سَمعتُم تَكْبيرَنا على السُّور فارْقَوْا إلينا وانْهَدوا البابَ قال : فلمَّا انتهىٰ خالدٌ ورُفَقاؤُه إلى الخَنْدقِ رَموا بالحِبال إلى الشُّرَفِ ، وعلىٰ ظُهورِهم القِرَبُ التي سَبَحوا بها في الخَنْدق ، وتَسلَّقَ القَعْقاعُ ومَذْعورٌ فلَم يَدعا أُحْبُولَةً حتىٰ أثْبَتاها في الشُّرَفِ ، وكان ذلك المكانُ أحْصَنُ مكانٍ بدِمَشْقَ ، فاسْتوىٰ على السُّورِ خَلقٌ من أصحابه ثمّ كَبَّروا ، وانْحَدَرَ خالدٌ إلى البابِ فقَتَلَ البوَّابينَ ، وثارَ أهلُ البَلدِ إلىٰ مَواقفِهم لا يَدرونَ ما الشأنُ ، فتَشاغَلَ أهلُ كُلِّ جِهَةٍ بما يَليهم ، وفَتحَ خالدٌ البابَ ، ودَخلَ أصحابُه عُنْوَةً ، وقد كان المسلمون دَعَوْهم إلى الصُّلحِ والمُشاطَرَة فأبَوا ، فلمَّا رَأوا البَلاءَ بذَلوا الصُّلحَ ، فأجابَهم مَنْ يَليهِم ، وقَبِلُوا ، فقالوا : ادْخُلوا وامْنَعُونا من أهل ذاكَ الباب ، فدخلَ أهْلُ كلِّ باب بصُلحٍ ممّا يَليهِم ، فالْتَقىٰ خالدٌ والأمَراءُ في وَسَطِ البَلدِ ، هـٰذا اسْتِعْراضاً ونَهْباً ، وهـٰؤلاء صُلْحاً فأجْروا ناحيةَ خالد على الصُّلح بالمُقاسَمَة ، وكُتِبَ إلىٰ عُمَرَ بالفَتْح .

وكَتَبَ عُمرُ إلىٰ أبي عُبَيْدة أن يُجهِّزَ جَيشاً إلى العِراق نَجْدةً لسَعدِ ابنِ أبي وَقَّاص ، فجَهَّزَ له عشرةَ آلاف عليهم هاشمُ بنُ عُتْبَة ، وبَقِيَ بدِمَشْقَ يَزيدُ بنُ أبي سُفْيان في طائفةٍ من أمْداد اليَمَن[2] .

---

(١) انظر السير : (عُمر بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ١/٦٠ .

(٢) انظر السير : (عُمر بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ٢/٦٠ .

فَتْحُ حمْص :

قال أبو مسهر : حَدَّثني عبدُ الله بنُ سالم قال : سارَ أبو عُبَيْدة إلىٰ حمْصَ في اثني عشرَ ألفاً ، منهم من السَّكُون ستَّةُ آلاف ، فافْتَتَحَها[1] .

مَعْركةُ القادسيَّة :

كانت وَقعةُ القادسيَّة بالعِراق في آخر السَّنةِ الخامسة عشرة فيما بلَغَنا ، وكان على الناس سَعدُ بنُ أبي وقَّاص ، وعلى المشركين رُسْتُم ومعه الجالينُوس ، وذو الحاجب.

وقال أبو وائل : كان المسلمون ما بين السَّبعة إلى الثمانية آلاف ، ورُسْتُم في ستّين ألفاً ، وقيلَ : كانوا أربَعين ألفاً ، وكان معهم سَبعُون فيلاً .

وذَكرَ المَدائنيُّ أنَّهم اقْتَتَلوا قتالاً شديداً ثلاثة أيام في آخر شَوَّال ، وقيلَ : إنَّ رُسْتُم ماتَ عَطَشاً وتَبِعَهم المسلمون فقُتِل جالينُوس وذو الحاجب .

وعن أبي وائل قال : رأيتُني أعبرُ الخَنْدَقَ مَشْياً على الرِّجالِ ، قَتلَ بعضُهم بعضاً .

وقال المَدائِنيُّ : ثمَّ سارَ سَعدٌ من القادسيَّة يَتْبَعُهم ، فأتاه أهلُ الحيرَة فقالوا : نحنُ علىٰ عَهْدنا .

وقطعَ سَعدٌ الفُراتَ ، ثم سارَ سَعدٌ بالنَّاسِ حتى المَدائِنَ فافْتَتحَها[2] .

فَتْحُ المَدائِن :

قال الطَّبَريُّ : وفي سَنةِ سِتَّ عشرة دَخَلَ المسلمون مَدينةَ بَهْرَسِير[3] ، وافْتَتحوا المَدائِنَ[4] ، فهَربَ منها يَزْدَجِرْد بنُ شَهْريار[5] .

---

(١) انظر السير : (عُمر بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ٦٢ .
(٢) انظر السير : (عُمر بن الخَطَّاب) ، وانظر النزهة : ٦٤ .
(٣) هي من نواحي سواد بغداد قرب المدائن .
(٤) قال ياقوت : وإنما سمتها العرب المدائن لأنها سبع مدائن بين كل مدينة إلى الأخرىٰ مسافة قريبة أو بعيدة .
(٥) قال صاحب النزهة : هو كسرى الفرس .

فلمَّا نزلَ سعدُ بنُ أبي وَقَّاص بَهُرَسيرَ ـ وهي المدينة التي فيها مَنزِلُ كِسْرَىٰ ـ طلبَ السُّفُنَ ليَعبُرَ بالنَّاسِ إلى المَدينة القُصْوَىٰ ، فبَقِيَ أيّاماً حتىٰ أتاهُ أعْلاجٌ فدَلُّوهُ علىٰ مَخاضَة ، فأبَىٰ ، ثم إنه عَزَمَ له أنْ يَقْتَحمَ دِجْلَة ، فاقْتَحَمَها المسلمون وهي زائدةٌ تَرمي بالزَّبَد ، ففَجِىءَ أهلَ فارس أمرٌ لمْ يكُنْ لهم في حساب ، فقاتَلوا ساعةً ثم انْهَزَموا ، وتَرَكُوا جُمْهُورَ أمْوالِهم ، واسْتَولَى المسلمون علىٰ ذلك كله ، ثم أتَوا إلى القَصرِ الأبْيَض ، وبه قَومٌ قد تَحَصَّنوا ثم صالَحُوا[١] .

وقِيلَ : إنَّ الفُرْسَ لمَّا رَأوا اقْتحامَ المسلمين الماءَ تَحيَّروا وقالوا : والله ما نُقاتِلُ الإنْسَ ولا نُقاتِلُ إلاَّ الجِنَّ ، فانْهَزَموا .

ونزَلَ سَعدٌ القَصرَ الأبْيض ، واتَّخذَ الإيوانَ مُصَلَّىٰ ، وإنَّ فيه لتَماثيل جَصّ فما حرَّكَها .

ولمَّا انتَهىٰ إلىٰ مكان كِسْرَىٰ أخَذَ يقْرأُ ﴿ كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٢٥ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ الآية[٢] .

قالوا : وأتَمَّ سَعدٌ الصَّلاةَ يومَ دَخلَها ، وذلك أنَّه أرادَ المُقامَ بها ، وكانت أوّلَ جُمُعَة جُمِعَت بالعِراق ، وذلك في صَفَر سنةَ ست عشرة .

قال الطبريُّ : قسَّمَ سَعدٌ الفَيءَ بعد ما خمَّسَه ، فأصابَ الفارسَ اثنا عشرَ ألفاً ، وكلُّ الجَيشِ كانوا فُرْساناً[٣] .

وقسَّمَ سَعدٌ دُورَ المَدائن بين النَّاسِ وأُوطِنُوها ، وجَمَعَ سَعدٌ الخُمسَ وأدْخلَ فيه كلَّ شيءٍ من ثياب كِسْرَىٰ وحُليِّه وسَيفِه وقال للمسلمين : هلْ لكم أن تَطيبَ أنفُسُكم عن أرْبَعةِ أخْماس هٰذا القِطْف فنبعَثَ به إلىٰ عُمر ، فيَضَعَه حيثُ يَرىٰ ويقَعَ من أهلِ المَدينَة مَوْقِعاً ؟ قالوا : نعَم ، فبعَثَه علىٰ هَيئَتِه وكان ستِّينَ ذِراعاً في ستِّين ذِراعاً بساطاً واحداً

---

(١) انظر السير : (عُمر بن الخَطَّاب) ، وانظر النزهة : ١/٦٦ .

(٢) سورة الدخان ، الآيتان : ٢٥ ، ٢٦ .

(٣) انظر السير : (عُمر بن الخَطَّاب) ، وانظر النزهة : ٢/٦٦ .

مقدار جَرِيب[١] ، فيه طرقٌ كالصورِ ، وفصُوص كالأنهار ، وخلال ذلك كالدرِّ ، وفي حافاته كالأرض المَزرُوعة ، والأرض كالمُبْقلة بالنَّباتِ في الرَّبيع من الحَرير علىٰ قَصَبات الذَّهَب ونوَّاره[٢] بالذَّهَب والفِضَّة ونحوه فقطَّعَه عُمرُ وقَسَّمَه بين النَّاس فأصابَ عَليّاً قطعةٌ منه فباعَها بعشْرين ألفاً[٣] .

واسْتَولَى المسلمون في ثلاثة أعْوام علىٰ كُرسيّ مَمْلَكة كِسْرَىٰ ، وعلىٰ كُرْسيّ مَمْلَكة قَيْصَر ، وعلىٰ أمَّيْ بلادِهما ، وغَنِمَ المسلمون غَنائم لَمْ يُسْمَع بمثلها قَطّ من الذَّهبِ والجَوْهَر والحَرير والرَّقيقِ والمَدائِن والقُصُور فسُبحان الله العَظيم الفتَّاح[٤] .

مَعْرَكة جَلُولاء :

قال ابنُ جَرير الطَّبَرِيّ : فقَتلَ الله من الفُرسِ مائَةَ ألف ، جَلَّلَت[٥] القَتْلَى المَجال وما بَينَ يَديْه وما خَلفَه ، فسُمِّيَت جَلُولاء .

وعن أبي وائل قال : سُمِّيَت جَلُولاء لما تَجلَّلَها من الشَّر .

وقال سَيفٌ : كانت سَنةَ سَبعَ عشرة .

وقال خَليفَةُ بنُ خَيّاط : هَرَبَ يَزْدَجرْد بنُ كِسْرَىٰ من المَدائن إلىٰ حُلوان ، فكَتبَ إلى الجبال ، فجَمَعَ العَساكِرَ ووَجَّهَهم إلىٰ جَلُولاء ، فاجْتمعَ له جَمعٌ عَظيم ، عليهم خُرَّزاد بنُ خرهرمز ، فكَتبَ سَعدٌ إلىٰ عُمرَ يُخبرُه ، فكَتبَ إليه : أقِمْ مَكانَك ووَجِّه إليه جَيشاً ، فإنَّ اللهَ ناصِرُك ومُتَمِّم وَعْدَه ، فعَقَدَ لابنِ أخيه هاشم بنَ عُتْبَة بنَ أبي وَقَّاص ، فالْتَقوا ، فجَالَ المسلمون جَوْلةً ، ثم هَزَمَ الله المشركين ، وقُتِلَ منهم مَقْتلةٌ عظيمة ، وحَوَى المسلمون عَسْكرَهم وأصابوا أمْوالاً عظيمة وسَبايا ، فبَلغَت الغَنائمُ ثمانية عشرَ ألفَ ألف .

---

(١) الجريب : ثلاثة آلاف وستمائة ذراع .

(٢) قال صاحب النزهة : النوَّار : الورد .

(٣) انظر السير : (عُمر بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ١/٦٧ .

(٤) انظر السير : (عُمر بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ٢/٦٧ .

(٥) قال صاحب النزهة : أي غطت .

وجاءَ عن الشّعبيّ أنَّ فَيْءَ جَلُولاء قُسِّم علىٰ ثلاثينَ ألف ألف .

وقال أبو وَائل : سُمِّيَت جَلُولاء « فَتْحَ الفُتوح » .

وقال ابنُ جَرير : أقام هِشامُ بنُ عُتْبَة بجَلُولاء ، وخَرَجَ القَعْقاعُ بنُ عَمرُو في آثار القَوم إلىٰ خانقين ، فقَتلَ مَنْ أدْرَكَ منهم ، وقُتِلَ مَهْران وأفْلَتَ الفَيْرُزانُ ، فلمَّا بلَغَ ذلك يَزْدَجِرْد تقَهْقَرَ إلى الريّ .

وفيها جَهَّزَ سَعدٌ جُنْداً فافْتَتحُوا تِكْريت واقْتَسَمُوها ، وخَمَّسُوا الغَنائِمَ ، فأصابَ الفارِسَ منها ثلاثةُ آلافِ درهم .

وفيها سارَ عُمرُ إلى الشَّام وافْتَتَحَ بيتَ المَقْدِسِ ، وقَدمَ إلى الجابية ـ وهي قَصَبَة حَوْران ـ فخَطَبَ بها خُطبَةً مَشْهورَةً مُتواترَةً عنه[1] .

قِنَّسْرين :

وفي السَّنةِ السادسة عشرَة بَعَثَ أبو عُبَيْدَة عَمرو بنَ العاص ـ بعد فَراغِه من اليَرْموك ـ إلىٰ قِنَّسْرين ، فصالَحَ أهلَ حَلَبَ ومَنبِج وأنْطاكيَة على الجِزْيَة ، وفَتَحَ سائرَ بلادِ قِنَّسْرين عَنوَة .

وفيها افتُتِحَت سَرُوج والرُّها علىٰ يَدي عِياض بنِ غَنْم .

وفيها قال ابنُ الكَلبيّ : سار أبو عُبَيْدَة وعلىٰ مقدمته خالدُ بنُ الوَليد ، فحاصَرَ أهلَ إيْلِيَاء ، فسألُوه الصُّلحَ علىٰ أن يكونَ عُمرُ هو الذي يُعطيهم ذلك ويَكْتُبُ لهم أماناً ، فكَتَبَ أبو عُبَيْدَة إلىٰ عُمَرَ ، فقَدِمَ عُمرُ إلى الأرضِ المُقدَّسَة فصالَحهم وأقامَ أيّاماً ثم شَخصَ إلى المَدينة[2] .

تُسْتَر :

قال الوَليدُ بنُ هِشام القَحْذَميّ ، عن أبيه وعمِّه أنَّ أبا موسىٰ لمَّا فَرَغَ من الأَهْوازِ ، ونَهرِ تيرىٰ ، وجُنْدَيْسابُور ، ورامَهُرْمُز ، تَوجَّه إلىٰ تُسْتَر ، وكَتَبَ يَستمِدُّ عُمرَ ، فكَتَبَ

(١) انظر السير : (عمر بن الخطّاب) ، وانظر النزهة : ٦٨ .
(٢) انظر السير : (عُمر بن الخطّاب) ، وانظر النزهة : ٦٩ .

إلىٰ عمَّار بنِ ياسر أنْ أمِدَّه ، فكَتَبَ إلىٰ جَرير وهو بحُلوان أنْ سِرْ إلىٰ أبي موسىٰ ، فسارَ في ألفٍ فأقاموا أشْهُراً ، ثم كَتَبَ أبو موسىٰ إلىٰ عُمرَ : إنَّهم لَمْ يُغْنُوا شَيئاً ، فكَتَبَ عُمرُ إلىٰ عمَّار أنْ سِرْ بنَفسِك ، وأَمَدَّه عُمرُ من المَدينة .

وعن عبد الرحمَـٰن بن أبي بَكْرَة قال : أقاموا سَنةً أو نَحْوَها ، فجاءَ رَجلٌ من تُسْتَر وقال لأبي موسىٰ : أسْأَلُكَ أنْ تَحْقِنَ دَمي وأهلَ بَيْتي ومالي ، علىٰ أنْ أدُلَّكَ على المَدخَل ، فأعْطاه ، قال : فابْغِني إنْساناً سابِحاً ذا عَقلٍ يَأتيك بأمرٍ بيِّن ، فأرسلَ معه مجْزأةَ بنَ ثَور السدوسيّ ، فأُدْخِلَ من مَدْخَل الماء يَنْبَطِحُ علىٰ بَطنِه أحْياناً ويَحْبُو حتىٰ دَخلَ المَدينةَ وعَرفَ طُرقَها ، وأراه العِلجُ الهُرمزانَ صاحبَها ، فهَمَّ بقَتلِه ثم ذَكرَ قولَ أبي موسىٰ : « لا تَسْبقْني بأمْرٍ » ورَجعَ إلىٰ أبي موسىٰ ، ثم إنه دَخلَ بخَمْسةٍ وثلاثين رجُلاً كأنَّهم البَطُّ يَسْبَحُون ، وطَلَعُوا إلى السُّورِ وكَبَّروا ، واقْتَتلوا هو ومَنْ عندَهم على السُّور ، فقُتِلَ مجْزأة ، وفَتَحَ أولـٰئك البَلدَ ، فتَحصَّنَ الهُرمُزانُ في بُرج[1] .

وقال قَتادَة ، عن أنَس : لَمْ تُصَلَّ يومئذ الغَداةُ[2] حتى انْتَصفَ النَّهارُ فما يَسرُّني بتلك الصَّلاة الدُّنيا كُلُّها .

وعن الشَّعبيّ قال : حاصَرَهم أبو موسىٰ ثمانيَة عشَر شَهْراً ، ثم نَزلَ الهُرمُزانُ علىٰ حُكْم عُمَر ، فقال حميدُ ، عن أنَس : نَزلَ الهُرمُزانُ علىٰ حُكْمِ عُمَر[3] .

فلمَّا انتهَيْنا إليه ـ يَعني إلىٰ عُمَر بالهُرْمُزان ـ قال : تَكلَّم ، قال : كَلامُ حَيٍّ أو كَلامُ مَيِّت ؟ قال : تَكلَّم فلا بأسَ ، قال : إنَّا وإيّاكم مَعشَر العَرب ما خَلى الله بيننا وبينكم ، كُنَّا نَغصِبُكم ونَقْتلُكم ونفعَلُ ، فلمَّا كان الله معكم لَمْ يكُنْ لنا بكُم يَدان ، قال : يا أنَس ما تقولُ ؟ قُلتُ : يا أميرَ المؤمنين تَركتُ بَعدي عَدداً كثيراً وشَوْكةً شَديدة فإنْ تَقتُلْه يَيْأس القَومُ من الحَياة ويكُون أشَدَّ لشَوْكَتهم ، قال : فأنا أَسْتَحْيي قاتلَ البَراء ومجْزَأة بنَ ثَور !! فلمَّا أحْسَسْتُ بقَتلِه قُلتُ : لَيسَ إلىٰ قَتلِه سَبيل ، قد قُلتَ له : تَكلَّم فلا بأس ،

---

(١) انظر السير : (عمر بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ١/٧١ .

(٢) قال صاحب النزهة : هي صلاة الفجر .

(٣) انظر السير : (عمر بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ٢/٧١ .

قال : لتأتيَنِّي بمَنْ يَشْهدُ به غَيرُك ، فلَقيتُ الزُّبَيْرَ فشَهِدَ معي ، فأمْسَكَ عنه عُمرُ ، وأسْلَمَ الهُرمُزانُ ، وفَرضَ له عُمرُ ، وأقامَ بالمَدينة[١] .

فَتْحُ مِصْر :

رَوىٰ خَليفَةُ ـ عن غَير واحد ـ وغَيرُه أنَّه في سَنة عشرين ، كَتبَ عُمَرُ إلىٰ عَمْرو بنِ العاص أن يَسيرَ إلىٰ مِصْرَ ، فسارَ وبَعثَ عُمَرُ الزُّبَيْرَ بنَ العوَّام مَدداً له ، ومعه بُسْر بن أرْطأة ، وعُمَيْر بن وَهب الجُمَحيّ ، وخارِجَة ابن حُذافة العَدَويّ ، حتىٰ أتىٰ باب أليون[٢] فتَحصَّنوا ، فافْتَتحَها عَنْوةً وصالحَه أهلُ الحِصْن ، وكان الزُّبَيرُ أولَ من ارْتَقىٰ سورَ المدينة ثم تَبعَه النَّاسُ ، فكَلَّم الزُّبَيْرُ عَمْراً أن يَقْسِمَها بين مَنْ افْتَتحَها ، فكَتبَ عَمرو إلىٰ عُمرَ ، فكَتَبَ عُمرُ أكلَة ، وأكلات خَيرٌ من أكلَة ، أَقِرُّوها[٣] .

وعن عَمرو بنِ العاص أنَّه قالَ على المِنْبَر : لقد قَعدْتُ مِقْعدي هـٰذا وما لأحَد من قِبْط مِصْرَ عليَّ عَهدٌ ولا عَقدٌ ، إنْ شِئتُ قَتلتُ ، وإنْ شِئتُ بِعْت ، وإنْ شِئتُ خَمَّستُ إلاَّ أهلَ أنْطابُلس[٤] فإنَّ لهم عَهداً نَفي به

وعن عليِّ بنِ رَباح قال : المَغربُ كلُّه عَنوَة

وعن ابنِ عُمرَ قال : افْتُتحَت مِصْرُ بغير عَهد ، وكذا قال جماعةٌ

وقال يَزيدُ بنُ أبي حَبيب : مِصْرُ كلُّها صُلح إلاَّ الإسْكَندريّة[٥] .

وعن عيَّاشِ بنِ عبّاس القتباني ، وعن غير واحد أنَّ عَمْراً سار من فلَسْطين بالجَيشِ من غير أمْرِ عُمَرَ إلىٰ مِصْرَ فافْتَتحَها ، فعَتبَ عُمرُ عليه إذْ لـمْ يُعْلِمْه ، فكَتَبَ يسْتأذنُ عُمرَ بمُناهَضة أهلِ الإسْكندريّة ، فسارَ عَمرُو في سنة إحدىٰ وعشرين ، وخَلَّفَ على الفُسْطاط خارِجَةَ ابنَ حُذافَة العَدويّ ، فالتَقَى القِبطَ فهَزَمَهم بعد قتالٍ شَديد ، ثم

---

(١) انظر السير : (عمر بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ١/٧٢ .

(٢) حصن بقرب الفسطاط بمصر القديمة .

(٣) قال صاحب النزهة : أي نهاهم أن يقسموها بين من افتتحها ، وأمرهم بتحصيل خراجها فقط .

(٤) قال صاحب النزهة : مدينة من مدن ليبيا قديماً .

(٥) انظر السير : (عمر بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ٧٠ .

التَقاهم عند الكرْيَوْن[1] فقاتَلوا قتالاً شَديداً ، ثم انتَهىٰ إلى الإسْكندريّة ، فأرسَلَ إليه المُقَوْقِسُ يَطلبُ الصُّلحَ والهُدنةَ منه ، فأبىٰ عليه ثم جَدَّ في القتال حتىٰ دخلَها بالسَّيفِ ، وغَنم ما فيها من الرُّوم ، وجعلَ فيها عَسْكراً عليهم عبدُ الله بنُ حُذافَة السَّهميّ ، وبَعثَ إلىٰ عُمرَ بالفَتحِ ، وبلَغَ الخَبرُ قُسْطَنْطينَ بنَ هِرَقْل فبَعثَ خَصيّاً له يُقال له منويل في ثلاثمائة مَركب حتىٰ دخلوا الإسْكندريّة ، فقَتلوا بها المسلمين ونَجا مَنْ هَربَ ، ونقَضَ أهلُها ، فزَحفَ إليها عَمرٌو في خَمسة عشر ألفاً ، ونصَبَ عليهم المَجانيقَ ، وجَدَّ في القتالِ حتىٰ فتَحها عَنْوةً ، وخرَّبَ جُدُرَها ، رُئِيَ عَمرو يُخرِّبُ بيَدِه[2] .

بَرْقَة :

وفي سنة إحْدىٰ وعشرين سارَ عَمرو بنُ العاص إلىٰ بَرْقَة فافْتَتَحها ، وصالحَهم علىٰ ثلاثة عشر ألف دينار[3] .

نَهَاوَنْد :

عن السَّائبِ بنِ الأقْرع قال : زَحفَ للمسلمين زَحْفٌ لم يُرَ مثلُه قطّ ، رَجفَ له أهلُ ماهَ وأهلُ أصْبَهان ، وأهلُ هَمَذان والريّ وقومس ونَهاوَنْدَ وأذَرْبيجانَ ، قال : فبَلَغَ ذلك عُمَرَ فشاوَرَ المسلمين ، فقال عليٌّ رضي الله عنه : أنت أفْضَلُنا رأياً وأعلَمُنا بأهلك فقال : لأسْتَعملَنَّ على النَّاسِ رجلاً يكون لأول أسِنَّة يلقاها ، يا سائبُ اذهبْ بكتابي هـٰذا إلى النُّعْمان بن مُقَرِّن ، فليَسِرْ بثلثي أهل الكُوفَة ، وليَبْعَث إلىٰ أهل البَصْرَة ، وأنت علىٰ ما أصابوا من غَنيمَة ، فإنْ قُتِل النُّعمانُ فحُذَيْفَةُ الأميرُ ، فإن قُتِلَ حُذَيْفَةُ فجَريرُ بنُ عبد الله ، فإن قُتِلَ ذلك الجَيشُ فلا أراك[4] .

ورَوىٰ عَلْقَمةُ بنُ عبد الله المُزنيّ ، عن مَعْقلِ بنِ يَسَارٍ : أنَّ عُمرَ شَاوَرَ الهُرْمُزَانَ في أصْبَهانَ وفارِسَ وأذْرَبيجانَ بأيّتهن يبدأ ، فقال : يا أميرَ المؤمنين أصْبَهانُ : الرَّأسُ

---

(١) اسم موضع قرب الإسكندرية .

(٢) انظر السير : (عمر بن الخطّاب) ، وانظر النزهة : ٧٣ .

(٣) انظر السير : (عمر بن الخطّاب) ، وانظر النزهة : ١/٧٥ .

(٤) انظر السير : (عمر بن الخطّاب) ، وانظر النزهة : ١/٧٣ .

وفَارسُ وأذْربيجانُ : الجَناحانُ ، فإن قُطعَ أحدُ الجَناحَين مالَ الرَّأسُ بالجَناحِ الآخَر ، وإنْ قَطَعْتَ الرَّأسَ وَقعَ الجَناحَان ، فدخلَ عُمَرُ المسجدَ فوجدَ النُّعْمانَ بنَ مُقَرِّن يُصلِّي فسَرَّحَهُ وسرَّحَ معه الزُّبَيرَ بنَ العَوَّام ، وحُذَيفَة بنَ اليَمان ، والمُغيرَةَ بنَ شُعْبَة ، وعَمرو بنَ مَعْد يَكرب ، والأشْعَثَ بنَ قَيْسَ ، وعبدَ الله بنَ عُمر ، فسارَ حتىٰ أتىٰ نَهاوَنْدَ ، فذَكرَ الحديثَ إلىٰ أنْ قالَ النُّعْمانُ لمَّا التقى الجَمعانِ : إنْ قُتلتُ فلا يُلْوي عليَّ أحدٌ ، وإنِّي داعٍ بدَعْوَةٍ فأمِّنُوا[١] .

ثم دَعا : اللَّهُمَّ ارزُقني الشَّهادَةَ بنَصْرِ المسلمينَ والفَتْحِ عليهم ، فأمَّنَ القومُ وحَملوا ، فكان النُّعْمانُ أوَّلَ صَرِيعٍ رضي الله عنه .

ورَوَىٰ خَليفَةُ بإسنادٍ قال : التَقَوْا بنَهاوَنْدَ يومَ الأربعاء فانكشَفت مَجْنبةُ المسلمين اليُمنَىٰ شيئاً ، ثم التَقَوْا يومَ الخَميس فثَبُتَتْ المَيْمنَةُ وانكَشَف أهلُ المَيْسَرَة ، ثم التَقَوْا يومَ الجُمُعَة فأقْبَلَ النُّعْمانُ يخْطبُهم ويَحضُّهم على الحَملَة ففَتحَ اللهُ عليهم[٢] .

وقال ابنُ جَرير في وَقْعَة نَهاوَنْد : لمَّا انتَهى النُّعْمانُ إلىٰ نَهاوَنْد في جيشه طرَحوا له حَسَكَ[٣] الحَديد ، فبَعثَ عُيوناً فساروا لا يَعلمون بالحَسَك فزَجَر بعضُهم فَرسَه وقد دَخلَ في حافِره حَسَكةٌ ، فلَمْ يَبْرَحْ ، فنزلَ فإذا الحَسَك ، فأقْبلَ بها ، وأخْبرَ النُّعْمانَ ، فقال النُّعْمانُ : ما تَرَونَ ؟ فقالوا : تَقهْقَر حتىٰ يَرَوا أنَّك هاربٌ فيَخرُجُوا في طلَبك ، فتأخَّرَ النُّعْمانُ ، وكَنسَت الأعاجمُ الحَسَكَ وخَرجُوا في طلَبه فعَطفَ عليهم النُّعْمانُ وعبَّأ كَتائبَه وخَطبَ النَّاسَ وقال : إنْ أُصِبتُ فعلَيكم حُذَيْفَة ، فإنْ أُصِيبَ فعليكم جَرير البجليّ ، وإنْ أُصِيبَ فعليكم قَيْسُ بنُ مَكْشوح ، فوَجدَ المُغيرَةُ في نفْسِه إذْ لَمْ يَسْتَخْلِفْهُ ، قال وخَرجَت الأعاجمُ وقد شَدُّوا أنفُسَهم في السَّلاسِل لئَلاَّ يَفرُّوا ، وحَملَ عليهم المسلمون ، فرُمِيَ النُّعْمانُ بسَهمٍ فقُتِلَ ، ولفَّهُ أخُوهُ سُويدُ بنُ مُقَرِّن في ثَوبِه وكَتَمَ قَتلَه حتىٰ فَتحَ اللهُ تعالىٰ عليهم ، ودَفعَ الرَّايةَ إلىٰ حُذَيْفَة .

---

(١) انظر السير : (عمر بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ٧٤/ ١ .
(٢) انظر السير : (عمر بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ٧٤/ ٢ .
(٣) قال صاحب النزهة : الحَسَك ، هو الشَّرك .

وَقَتل اللهُ ذا الحَاجِب[1] ـ يَعني مقدمَهم ـ وافْتُتِحَت نَهاوَنْدُ ، ولم يكُنْ للأعاجِم بعد ذلك جَماعة[2] .

٢٢ـ من عَجَائِبِ غَنَائِم الجِهَاد :

قال اللَّيْثُ : بَعَثَ مُوسَىٰ بنُ نُصَيْر ابنه مَرْوَانَ على الجَيشِ ، فأصَابَ من السَّبْي مِئَةَ ألفٍ ، وبَعَثَ ابنَ أخِيهِ فسَبَىٰ أيْضاً مِئَةَ ألفٍ من البَرْبَرْ ، ودَلَّه رجُلٌ عَجُوزٌ علىٰ كَنْزٍ بالأنْدَلُسِ ، فنزَعُوا بابَه ، فسَالَ عليهم من اليَاقُوتِ والزَّبَرْجَدِ ما بَهَرَهُم قال اللَّيْثُ : إنْ كانت الطَّنْفسةُ لتُوجَدُ مَنْسُوجَةً بالذَّهَبِ واللُّؤْلُؤِ واليَاقُوتِ لا يَسْتطِيعُ اثْنانِ حَمْلَها فيَقْسِمَانِها بالفَأْسِ[3] .

ولمَّا تَمَادَىٰ في سَيْرِهِ في الأنْدَلُسِ ، أتَىٰ أرْضاً تَمِيدُ بأهْلِها ، فقال عَسْكَرُهُ : إلىٰ أينَ تُرِيدُ أنْ تذْهَبَ بنا ؟ حَسْبُنَا ما بأيْدِينَا ، فقال : لَوْ أَطَعْتُمُونِي لوَصَلْتُ إلى القُسْطَنْطِينيَّةَ ، ثمَّ رَجَعَ إلى المَغْرِبِ وهو رَاكِبٌ علىٰ بَغْلَةٍ وهو يَجُرُّ الدُّنْيَا بينَ يَدَيْه ، أَمَرَ بالعَجَلِ تَجُرُّ أوْقَارَ الذَّهَبِ والحَرِيرِ ، واسْتَخْلَفَ ابنه بإفْرِيقِيَّةَ ، وأخذَ معه مِئَةً من كُبَرَاءِ البَرْبَرِ ، ومِئَةً وعِشْرينَ من المُلُوكِ وأوْلادِهم ، فقَدِمَ مِصْرَ في هَيْئَةٍ ما سُمِعَ بمثلِها ، فوَصَلَ العُلَمَاءَ والأشْرافَ ، وسَارَ إلى الشَّامِ ، فبَلَغَهُ مَرَضُ الوَلِيدُ ، وكَتَبَ إليه سُلَيْمانُ يَأْمُرُه بالتَّوَقُّفِ : فمَا سَمِعَ منه ، فآلَىٰ سُلَيْمانُ إنْ ظَفِرَ به لَيَصْلِبَنَّه ، وقَدِمَ قَبْلَ مَوتِ الوَلِيدُ ، فأخَذَ ما لا يُحَدُّ من النَّفَائِسِ ، ووَضَعَ باقِيهِ في بَيْتِ المالِ ، وقُوِّمَتِ المَائِدَةُ بمِئَةِ ألفِ دينارٍ .

ووَلِيَ سُلَيْمانُ فأهَانَه ، ووُقِّفَ في الحَرِّ ـ وكان سَمِيناً ـ حتىٰ غُشِيَ عليه ، وبقِيَ عُمرُ بنُ عبدِ العَزيزِ يَتَألَّمُ له ، فقال سُلَيْمانُ : يا أبا حَفْصٍ ما أظُنُّ أنِّي خَرجْتُ من يَميني .

وضَمَّه يَزِيدُ بنُ المُهَلَّبِ إليه ، ثمَّ فَدَىٰ نَفسَه ببَذْلِ ألفِ ألفِ دينارٍ ، وقِيلَ له : أنْتَ

---

(١) ذا الحاجب : هو مردانشاه المُلقب ببهمن ، وسُمي ذا الحاجب لأنه كان يعضب حاجبيه ليرفعهما عن عينيه كبراً ، ويُقال إن اسمه رُسْتم .

(٢) انظر السير : (عمر بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ٣/٧٤ .

(٣) انظر السير : (موسى بن نصير) ٤/٤٩٦ـ٥٠٠ ، وانظر النزهة : ٢/٥٤٠ .

في خَلْقٍ من مَوَالِيكَ وجُنْدِكَ ، أفَلا أَقَمْتَ في مَقَرِّ عِزِّكَ ؟! ، وبَعَثْتَ بالتقادم قال : لَوْ أَرَدْتُ لصارَ ، ولكِنْ آثَرْتُ اللهَ ولَمْ أَرَ الخُروجَ ، فقال له يَزِيدُ : وكُلُّنا ذاكَ الرجُلُ ـ أرادَ بهٰذا قُدُومَهُ على الحَجَّاجِ[1] .

وقال مُوسَىٰ بن نُصَيْرٍ مَرَّةً : يا أمِيرَ المُؤمنينَ ـ يَعنِي سُلَيْمانَ ـ لقدْ كانت الألْفُ شَاةٍ تُبَاعُ بمِئَةِ درهمٍ ، وتُبَاعُ النَّاقَةُ بعَشْرةِ دراهِم ، وتَمُرُّ النَّاسُ بالبَقَرِ ، فلا يَلْتَفِتُونَ إليها ، ولقدْ رَأَيْتُ العِلْجَ الشَّاطِرَ وزَوْجَتَهُ وأوْلادَهُ يُباعُونَ بخَمسِينَ درهماً .

وكان فَتْحُ إقْلِيمِ الأنْدَلُسِ في رَمَضَانَ سَنَةَ اثْنَتَيْنِ وتِسْعِينَ علىٰ يَدِه[2] .

وافْتَتَحَ ابنُ سُبُكْتِكِين عِدةَ مَدائِنَ بالهِنْدِ ، ووَرَدَه كِتابُ القَادِرِ باللهِ ، ففِيهِ : صَدَرَ العَبدُ من غَزْنَةَ في أوَّلِ سَنَةِ عَشرٍ وأربَعِ مِئَة ، وانتُدَبَ لتَنفِيذِ الأوامِرِ فرَتَّبَ في غَزْنَةَ خَمسةَ عَشرَ ألفَ فارسٍ ، وأَنْهَضَ ابنَه في عِشرينَ ألفاً وشَحَنَ بَلْخَ وطَخَارُسْتَانَ باثني عَشرَ ألفَ فارسٍ ، وعَشرةَ آلافِ راجلٍ ، وانتُخَبَ ثلاثينَ ألفَ فارسٍ ، وعَشرَةَ آلافِ راجلٍ لصُحْبَةِ رَايَةِ الإسْلامِ ، وانْضَمَّ إليه المُطَّوِّعَةُ ، فافْتَتَحَ قِلاعَاً وحُصُوناً وأَسْلَمَ زُهَاءَ عِشرينَ ألفاً ، وأَدَّوْا نَحوَ ألْفِ ألْفٍ من الوَرِقِ ، وثلاثين فِيلاً ، وعِدَّةُ الهَلْكَىٰ خمسُونَ ألفاً ووَافَى العَبدُ مدينةً لهم عَايَنَ فيها نَحوَ ألفِ قَصْرٍ ، وألفَ بيتٍ للأَصْنَامِ ، ومَبْلَغُ ما على الصَّنَمِ ثَمَانِيَةٌ وتِسْعونَ ألفَ دينارٍ ، وقَلَعَ أَزْيَدَ من ألفِ صَنَمٍ ، ولهم صَنَمٌ مُعَظَّمٌ يُؤَرِّخُونَ مُدَّتَه بجَهَالَتِهم بثلاثِ مِئَةِ ألفِ سَنَةٍ ، وحَصَّلْنا من الغَنَائِمِ عِشْرينَ ألفِ ألفِ درهمٍ ، وأُفْرِدَ الخُمْسُ من الرَّقِيقِ ، فبَلَغَ ثلاثةً وخَمْسِينَ ألفاً ، واسْتَعْرَضْنا ثلاثَ مِئَةٍ وسِتةٍ وخَمسِينَ فِيلاً .

وفي سَنَةِ اثْنتَينِ وعِشرينَ وأرْبَعِ مِئَةٍ ، ماتَ القَادِرُ باللهِ ، وعَاشَ سَبْعاً وثَمَانِينَ سَنةً سِوَىٰ شهرٍ وثمانيةَ أيَّامٍ ، وما عَلِمْتُ أحداً من خُلَفَاءِ هٰذهِ الأُمَّة بَلَغَ هٰذا السِّنَّ ، ولا حتىٰ عُثْمانَ رضي الله عنه[3] .

---

(١) انظر السير : (موسى بن نصير) ٤/ ٤٩٦ـ ٥٠٠ ، وانظر النزهة : ٤/ ٥٤٠ .

(٢) انظر السير : (موسى بن نصير) ٤/ ٤٩٦ـ ٥٠٠ ، وانظر النزهة : ١/ ٥٤٢ .

(٣) انظر السير : (القادر بالله) ١٥/ ١٢٧ـ ١٣٨ ، وانظر النزهة : ٣/ ١١٩٤ .

قال الذهبيُّ : وفي سَنةِ أَرْبَعِينَ وأربع مئة غَزَتِ الغُزُّ مع إبراهيمَ يَنَال السَّلْجُوقيِّ وقِيلَ : ما كان معهم ، فغَزَوْا إلىٰ قَريبِ القُسْطَنْطِينيَّة ، وغَنِمُوا وسَبَوْا أَزْيَدَ من مِئَةِ ألفٍ ، وقِيلَ : جُرَّتِ المَكاسِبُ علىٰ عَشْرةِ آلافِ عَجَلةٍ وكان فَتْحاً عَظيماً ، وكان الرَّفْضُ أيضاً قَويّاً بالعِراقِ[1] .

وقال الذهبيُّ : وفي سَنةِ إحْدَىٰ وتِسعِينَ كانت بالأَنْدَلُسِ المَلْحَمَةُ العُظْمَىٰ ، وَقْعَةُ الزَّلاَّقَة بينَ يَعْقُوبَ وبينَ الفُنْش الذي اسْتَوْلَىٰ علىٰ بلادِ الأَنْدَلُسِ ، فأَقْبَلَ اللَّعِينُ في مِئَتَيّ ألفٍ وعَرَضَ يَعْقُوبُ جُنْدَه فكانوا مِئَةَ ألفِ مُرْتَزِقَة ، ومِئَةَ ألفِ مُطَّوِّعَة ، عَدوا البَحرَ إلى الأَنْدَلُسِ ، فنَزَلَ النَّصْرُ ونَجَا قَليلٌ من العَدُوِّ ، قال أبو شَامَة : عِدَّةُ القَتْلَىٰ مِئَةُ ألفٍ وسِتةٌ وأَرْبَعُونَ ألفاً ، وأُسِرَ ثلاثونَ ألفاً ، وأُخِذَ من خِيَامِهم مِئَةُ ألفِ خَيْمَة وخَمسُونَ ألفاً ، ومن الخَيْلِ ثمَانُونَ ألفَ رأسٍ ومن البِغَالِ مِئَةُ ألفٍ ، ومن الحَمِيرِ التي لأَثْقَالِهم أَرْبَعُ مِئَةِ ألفٍ ، وبِيعَ الأَسِيرُ بدِرهمٍ والحِصَانُ بخَمْسَة ، وقَسَّمَ السُّلطانُ الغَنِيمَةَ على الشَّرِيعَةِ ، واسْتَغْنَوا[2] .

٢٣ـ المعَاركُ الإسلاميّة معَاركُ نَظيفة ليس فيها تَعدٍّ ولا جَوْر :

قال هشامُ بنُ عُرْوَة ، عن أبيه قال : جَعلَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يقولُ في مَرضِه : « أَنفِذُوا جَيْشَ أُسَامَة » فسارَ حتىٰ بلَغَ الجُرْف ، فأرسَلتْ إليه امرأتُه فاطمةُ بنتُ قَيْس تقولُ : لا تَعْجَل فإنَّ رسولَ الله ثَقيلٌ ، فلمَّا يَبْرَح حتىٰ قُبِضَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، فلمَّا قُبِضَ رَجعَ إلىٰ أبي بكرٍ فقال : إنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بَعثَني وأنا علىٰ غير حالكم هـٰذه ، وأنا أَتخوَّفُ أنْ تكفُر العَربُ ، وإنْ كَفرَت كانوا أوّلَ مَنْ يُقاتل ، وإنْ لمْ تَكفُر مَضَيتُ ، فإنَّ مَعي سَرواتُ النَّاس وخيارُهم ، قال : فخَطبَ أبو بكر النَّاسَ ، ثم قال : والله لأنْ تَخطَّفَني الطَّيرُ أَحبُّ إليَّ من أنْ أبدأ بشيءٍ قِبَلَ أمرِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، قال فبَعثَه أبو بكر ، واستأذنَ لعُمَرَ أنْ

---

(١) انظر السير : (المستنصر بالله) ١٥/ ١٨٦ـ١٩٦ ، وانظر النزهة : ٢/١٢١١ .

(٢) انظر السير : (الناصر لدين الله) ٢٢/ ١٩٢ـ ٢٤٢ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٨٨ .

يَتركَه عنده ، وأَمَرَ أنْ لا يَجْزِرَ في القومِ ـ أنْ يَقطَعَ الأيْدي ، والأرْجُلَ والأوْساطَ في القتال ـ قال : فمَضىٰ حتىٰ أغارَ ، ثم رجَعوا وقد غَنِموا وسَلِموا .

فكان عُمرُ يقولُ : ما كُنتُ لأحَيّي أحَداً بالإمارَة غيرَ أسامة ، لأنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قُبِضَ وهو أمير .

وقيل : كان ابنَ عشرين سنةً[١] .

٢٤ـ الفِتنَةُ تَمْنَعُ من الجِهَادِ :

قال سَعيدُ بنُ عبد العَزيزِ : لمَّا قُتِلَ عُثْمانُ ، ووَقَعَ الاختِلافُ ، لَمْ يكُنْ للنَّاسِ غَزْوٌ حتى اجْتَمَعُوا علىٰ مُعاوِيَة ، فأغْزاهُم مَراتٍ ، ثمَّ أغْزَى ابنَه في جَماعةٍ من الصَّحابَةِ براً وبَحْراً حتىٰ أجازَ بهم الخَليجَ ، وقاتَلُوا أهلَ القُسْطَنْطِينيَّة علىٰ بابِها ، ثمَّ قفَلَ[٢] .

٢٥ـ المِيْتَةُ الجَاهِليّة :

قال الإمامُ الذهبيُّ : بعْدَ مَقُولَةِ يَزيدِ بنِ المُهَلَّبِ حِينَما سُئِلَ : ألا تُنْشِىء لكَ دَاراً ؟!! ، قال : لا إنْ كُنتُ مُتَوَلِّياً فدَارُ الإمَارَةِ وإنْ كُنتُ مَعْزُولاً فالسِّجنُ قال رَحِمَهُ الله : هٰكذا هو ، وإنْ كان غَازِياً فالسَّرْجُ ، وإنْ كان حَاجّاً فالكُورُ[٣] ، وإنْ كان مَيْتاً فالقَبْرُ ، فهل من عامِرٍ لدَارِ مَقَرِّه ، ثمَّ إنَّ يَزيدَ بنَ المُهلَّب ، لما استُخلِفَ يَزيدُ بنُ عبد المَلِكِ غَلَبَ على البَصْرَةِ ، وتَسَمَّىٰ بالقَحْطانِيّ ، فسَارَ لحَرْبِه مَسْلَمَةُ بنُ عبد المَلِكِ ، فالْتَقَوْا ، فقُتِلَ يَزيدُ في سَنةِ اثنتَيْنِ ومِئَة[٤] .

وقال شُعْبَةُ بنُ الحَجَّاج : سَمِعتُ الحَسَنَ البَصْرِيَّ يقولُ في فِتْنَةِ يَزيدِ ابنِ المُهَلَّبِ : هٰذا عَدُوُّ اللهِ يَزيدُ بنُ المُهَلَّبِ ، كُلَّما نَعَقَ بهم ناعِقٌ اتَّبَعُوه[٥] .

قال الذهبيُّ مُعَقِّباً : قُلتُ : قُتِلَ عن تسعٍ وأرْبَعينَ سَنَةً ، ولقد قَاتَلَ قِتالاً عَظِيماً ،

---

(١) انظر السير : (أبو بكر الصدِّيق) ، وانظر النزهة : ٣٦/ جيش أسامة .

(٢) انظر السير : (معاوية بن أبي سفيان) ٣/ ١١٩ـ ١٦٢ ، وانظر النزهة : ٣٥٤/ ١ .

(٣) الكور : الرَحْل .

(٤) انظر السير : (يَزيدُ بن المُهلَّب) ٤/ ٥٠٣ـ ٥٠٦ ، وانظر النزهة : ٥٤٥/ ٧ .

(٥) انظر السير : (يَزيدُ بن المُهلَّب) ٤/ ٥٠٣ـ ٥٠٦ ، وانظر النزهة : ٥٤٥/ ٨ .

وتَفَلَّلت جُمُوعُه ، فما زَالَ يَحْمِلُ بنفسِه في الأُلُوفِ ، لا لِجِهادٍ بلْ شَجَاعةً وحَمِيَّةً ، حتىٰ ذَاقَ حِمَامَهُ نَعُوذُ باللهِ من هٰذه القَتْلَةِ الجاهِلِيَّة[1] .

٢٦ـ رُؤيَا باهِرةٌ في أمر الجِهَاد :

قال سِبطُ الجُوزِيّ : حَكَىٰ لي نَجْمُ الدِّين بنُ سَلام عن وَالِدِه أنَّ الفِرنْجَ لمَّا نَزَلَت علىٰ دِمْياطَ ، ما زالَ نورُ الدِّين عِشْرين يوماً يَصُومُ ، ولا يُفطِرُ إلاَّ على المَاءِ ، فضَعُفَ وكادَ يَتْلَفُ ، وكان مَهِيباً ، ما يَجْسُرُ أحدٌ يُخاطِبُه في ذلك ، فقال إمامُه يَحْيَىٰ : إنَّه رَأَى النبيَّ صلى الله عليه وسلم في النَّومِ يقولُ : يا يَحْيَىٰ ، بَشِّرْ نورَ الدِّينِ برَحِيلِ الفِرنْجَ عن دِمْياطَ ، فقلتُ : يا رسُولَ الله ، رُبَّما لا يُصَدِّقُني قال : قُلْ لَهُ : بعَلامَةِ يوم حارِمٍ وانْتَبَهَ يَحْيَىٰ ، فلمَّا صَلَّىٰ نورُ الدِّين الصُّبحَ ، وشَرَعَ يَدْعُو ، هَابَه يَحْيَىٰ فقال له : يا يَحْيَىٰ تُحَدِّثُنِي أوْ أُحَدِّثُكَ ؟ فارْتَعَدَ يَحْيَىٰ ، وخَرُسَ ، فقال نورُ الدين : أنا أُحَدِّثُكَ ، رَأَيْتَ النَبيَّ صلى الله عليه وسلم هٰذهِ الليلَةَ ، وقال لكَ كَذَا وكَذَا ، قال : نَعَم فبالله يا مَوْلانا ما مَعْنَىٰ قوله بعَلامَةِ يوم حارِمٍ ؟ فقال : لمَّا الْتَقَيْنَا العَدُوَّ ، خِفْتُ على الإسْلام ، فانْفَرَدْتُ ونزَلْتُ ، ومَرَّغْتُ وَجْهِيَ على التُّرابِ ، وقُلتُ : يا سَيِّدِي مَنْ مَحمُودٌ في البَيْن ، الدِّينُ دِينُك ، والجُنْدُ جُنْدُك ، وهٰذا اليَوْم افْعَلْ ما يَلِيقُ بكَرَمِكْ ، قال : فنَصَرَنا اللهُ عَليهِم .

وتَمَلَّكَ بعدَهُ ابنُه المَلِكُ الصَّالحُ أشْهُراً ، وسَلَّمَ دِمَشْقَ إلى السُّلطانِ صَلاحِ الدِّين وتَحَوَّلَ إلىٰ حَلَبَ فدَامَ صَاحِبُها تِسْعَ سِنينٍ وماتَ بالقُولَنْج ، وله عِشْرُونَ سنةً ، وكان شاباً دَيِّناً رَحِمَهُ الله[2] .

٢٧ـ شِعْرٌ في الجِهَادِ :

عن مُحمَّدِ بنِ إبراهِيمَ بنِ أبي سُكَيْنَةَ ، قال : أمْلَىٰ عليَّ ابنُ المُبَارَكِ سَنَةَ سَبعٍ وسَبعِينَ ومِئَةٍ ، وأنْفَذَها مَعِي إلى الفُضَيْلِ بنِ عِيَاضٍ من طَرسُوسَ :

---

(١) انظر السير : (يَزيدُ بن المُهلَّب) ٤/٥٠٣ـ٥٠٦ ، وانظر النزهة : ١/٥٤٦ .

(٢) انظر السير : (نور الدين) ٢٠/٥٣١ـ٥٣٩ ، وانظر النزهة : ٥/١٥٨٢ .

يا عَابِدَ الحَرَمَيْنِ لَوْ أبْصَرتَنا ... لعَلِمْتَ أنَّك في العِبَادةِ تلعَبُ
مَنْ كان يَخْضِبُ جيدَه بدُمُوعِهِ ... فنُحُورُنا بدِمائِنا تَتَخَضَّبُ
أَوْ كان يُتْعِبُ خَيْلَهُ في بَاطِلٍ ... فخُيُولُنا يومَ الصبيَّحَةِ تَتْعَبُ
رِيحُ العَبيرِ لكُم ونَحنُ عَبيرُنا ... رَهَجُ السَّنابِكِ والغُبَارُ الأطيب[1]
ولَقَدْ أتَانا من مَقَالِ نَبيِّنا ... قَولٌ صَحيحٌ صَادِقٌ لا يُكْذَبُ
لا يَسْتَوِي وغُبَارُ خَيْلِ اللهِ في ... أنْفِ امْرِىءٍ ودُخَانُ نَارٍ تَلْهَبُ[2]
هـٰذا كتابُ اللهِ يَنطِقُ بيننا ... لَيسَ الشَّهيدُ بمَيِّتٍ لا يُكْذَبُ

فلَقيتُ الفُضَيْلَ بكتابِه في الحَرَمِ ، فقَرَأَ وبَكَىٰ ، ثمَّ قالَ : صَدَقَ أبو عبد الرَّحمَـٰنِ ونَصَحَ[3] .

وقال حِبَّانُ بنُ مُوسَىٰ : سَمعتُ ابنَ المُبَارَكِ يُنشِدُ :

كَيفَ القَرارُ وكَيفَ يَهْدَأُ مُسلِمٌ ... والمُسْلِمَاتُ مَعَ العَدُوِّ المُعْتَدِي
الضَّارِباتُ خُدُودَهُنَّ بِرَنَّةٍ ... الدَّاعِيَاتُ نَبيَّهُنَّ مُحمَّدِ
القَائِلاتُ إذا خَشِينَ فَضيحَةً ... جَهْدَ المَقَالَةِ لَيْتَنَا لَمْ نُولَدِ
ما تَسْتَطِيعُ وما لَهَا مِن حِيلَةٍ ... إلاَّ التَّسَتُّرُ من أخيهَا باليَدِ[4]

ولابْنِ حَزْمٍ[5] :

مُنَايَ مِنَ الدُّنيا عُلُومٌ أَبُثُّهَا ... وأنْشُرُهَا في كُلِّ بَادٍ وحَاضِرِ
دُعَاءٌ إلى القُرآنِ والسُّنَنِ التي ... تَنَاسَىٰ رِجَالٌ ذِكْرَهَا في المَحَاضِرِ
وأَلْزَمُ أطْرافَ الثُّغُورِ مُجَاهِداً ... إذا هيْعَةٌ ثَارَتْ فأوَّلُ نَافِرِ

---

(١) الرَّهْجُ والرَّهَجُ : الغبار ، والسنابك جمع سنبك وهو طرف حافر الخيل وجانباه من قُدّام .
(٢) يشير إلى الحديث الذي أخرجه أحمد (٢/٢٥٦ ، ٣٤٢ ، ٤٤١) ، والنسائي (٦/١٢) يقول صلى الله عليه وسلم : « لا يَجْتمعُ غُبارٌ في سبيلِ اللهِ ودُخانُ جَهَنَّمَ في جَوْفِ عبدٍ أبداً ، ولا يَجْتمعُ الشُّحُّ والإيمَانُ في قلبِ عبدٍ أبداً » .
(٣) انظر السير : (عبد الله بن المبارك) ، وانظر النزهة : ٤/٧٧٠ .
(٤) انظر السير : (عبد الله بن المبارك) ، وانظر النزهة : ١/٧٧١ .
(٥) انظر السير : (ابن حزم) ١٨/ ١٨٤ـ٢١٢ ، وانظر النزهة : ١/١٤٠٣ .

لأَلْقَىٰ حِمامِي مُقْبِلاً غيرَ مُدْبِرِ | بسُمرِ العَوَالِي والرِّقاقِ البَواتِرِ
كِفاحاً مع الكُفَّارِ في حَوْمَةِ الوَغَى | وأَكْرَمُ مَوْتٍ للفَتَىٰ قَتْلُ كافِرِ
فيَا رَبِّ لا تَجْعَلْ حِمامِي بغَيْرِها | ولا تَجْعَلَنِّي من قَطِينِ المَقَابِرِ

وشِعْرُهُ فَحْلٌ كَما تَرَىٰ ، وكان يَنْظِمُ على البَدِيهِ ، ومن شِعْرِهِ :

أنا الشَّمسُ في جَوِّ العُلُومِ مُنِيرَةٌ | ولكنَّ عَيْبِي أنَّ مَطْلَعِيَ الغَرْبُ
ولَوْ أنَّنِي مِنْ جَانِبِ الشَّرْقِ طَالعٌ | لَجَدَّ علىٰ ما ضَاعَ مِنْ ذِكرِيَ النَّهْبُ
ولِي نَحوَ أَكْنافِ العِراقِ صَبَابَةٌ | ولا غَرْوَ أنْ يَسْتَوحِشَ الكَلِفُ الصَّبُ
فإنْ يُنْزِلِ الرَّحمَٰنُ رَحْلِيَ بَينَهُمْ | فحِينَئِذٍ يَبدُو التَّأَسُّفُ والكَرْبُ
هُنَالِكَ يُدْرَىٰ أنَّ للبُعْدِ قِصَّةً | وأنَّ كَسَادَ العِلْمِ آفَتُهُ القُرْبُ

٢٨ـ فَتحُ المسلمين إمْبراطُوريّات فارسَ والرّوم في مُدَّة وَجيزَة لم تُعهَد في التاريخ ولم يُسمَع بمثلها :

اسْتَولى المسلمون في ثلاثة أعْوامٍ علىٰ كُرسيّ مَمْلكَة كِسْرَىٰ ، وعلىٰ كُرسيّ مَمْلكَة قَيْصَر ، وعلىٰ أُمّيْ بلادهما ، وغَنِمَ المسلمون غنائم لمْ يُسْمَعْ بمثلها قَطّ من الذَّهَب والجَوْهَر والحَرير والرَّقيق والمَدائن والقُصور، فسُبحان الله العظيم الفتَّاح[1] !

٢٩ـ التَّسَرُّعُ في المَعْركَة مَهْلَكَة :

قال أبو عُبَيد الثَّقَفيّ ـ قائدُ المسلمين يومَ مَعركة الجِسْر ـ إنْ قُتِلتُ فعَليكم ابني جَبْر ، فإنْ قُتِلَ فعَليكم حَبيبُ بنُ رَبيعَة أخو أبي مِحْجَن ، فإنْ قُتِلَ فعَليكم أخي عبدُ الله ، فقُتِلَ جَميعُ الأُمَراء ، واسْتَحرَّ القَتلُ في المسلمين فطَلَبوا الجِسْرَ ، وأخَذَ الرَّايَة المُثَنَّىٰ بنُ حارثَة فحَماهم في جَماعة ثبتُوا معه[2] .

وسَبَقَهم إلى الجِسْر عبدُ الله بنُ يَزيد فقَطعَه ، وقال : قاتلوا عن دينكم ، فاقْتَحَم النَّاسُ الفُراتَ ، فغَرِقَ ناسٌ كثير ، ثم عَقدَ المُثنى الجِسْرَ وعَبرَ النَّاسُ .

---

(١) انظر السير : (عُمر بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ٦٧/ ٢ .
(٢) انظر السير : (عُمر بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ٦١/ ١ .

واسْتُشْهِدَ يومئذ فيما قال خَليفَةُ ألفٌ وثَمانمائة ، وقال سَيفٌ : أربَعَةُ آلاف ما بين قَتيلٍ وغَريق .

وعن الشَّعبيّ قال : قُتِلَ أبو عُبَيد في ثَمانمائة منَ المُسلمينَ[1] .

٣٠ـ الهَاتفُون بالتَّثْبيت في المعَارك :

عن ابنِ المُسَيّب عن أبيه ، قال : خَمدَت الأصْواتُ يومَ اليَرْموك ، والمسلمون يُقاتلون الرُّومَ إلاَّ صَوتُ رَجلٍ يقولُ : « يا نَصْرَ الله اقْتَرِبْ ، يا نَصْرَ الله اقْتَرِبْ » ، فرَفعتُ رأسي فإذا هو أبو سُفْيانُ بنُ حَرْب تحت رايَة ابنه يَزيد بن أبي سُفْيان[2] .

وعن جُبَيرِ بنِ الحُوَيْرث : حَضرتُ اليَرْموكَ فلا أسْمعُ إلاَّ نَقْفَ الحَديد إلاَّ أني سَمعتُ صائحاً يقولُ : يا مَعشَرَ المسلمين يومٌ من أيّام الله أبْلُوا لله فيه بَلاءً حَسناً ، فإذا هو أبو سُفْيان تحتَ رايَة ابنِه[3] .

ذكرَ الأزْديّ في « فُتُوحِ الشَّام » (ص ٢٢٠) : أنَّ أبا سُفْيان تَجهَّزَ في أحْسَن الجَهاز وأحْسَن الهَيئة ، ثم خرجَ ، وصَحبَه أُناسٌ من المسلمين كَثير ، كانوا خَرجوا مُتطوِّعينَ ، فأحْسنَ أبو سُفْيان صُحْبتَهم حتىٰ قَدموا علىٰ جماعة المسلمين ، فلمَّا كان يومَ خَرجَ المسلمون إلىٰ عَدُوِّهم باليَرْموك كان أبو سُفْيان يومئذ يَسيرُ في النَّاسِ ، ويَقفُ علىٰ أهل كلِّ راية ، وعلىٰ كلِّ جَماعة ، فيُحرِّضُ النَّاسَ ويَحُضُّهم ، ويَعِظُهم ، ويقولُ : إنَّكم يا مَعشرَ المسلمين أصْبَحتُم بإزاء عَدوٍّ كَثيرٌ عَددُهم ، شَديدٌ عليكم حُنْقُهم ، وقد وَتَرْتُموهم في أنفُسِهم ونسائِهم وأولادِهم وأمْوالِهم وبلادِهم ، فلا والله لا يُنْجيكُم منهم اليومَ وتَبلُغون رضْوانَ الله إلاَّ بصِدْق اللّقاء والصَّبرِ في المَواطن المَكْروهَة ، فامْتنِعوا بسُيوفِكم ، وتَقرَّبوا بها إلىٰ خالقِكم ، ولْتَكُن هي الحُصون التي تلجُون إليها ، وبها تُمْنَعون وقاتلَ أبو سُفْيان يومئذ قتالاً شَديداً ، وأبْلَىٰ بَلاءً حَسناً[4] .

---

(١) انظر السير : (عُمر بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ١/٦٢ .
(٢) انظر السير : (عُمر بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ١/٦٣ .
(٣) انظر السير : (عُمر بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ٢/٦٣ .
(٤) انظر السير : (عُمر بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ٦٤/ هامش (١) .

٣١ـ من فِقْه الجِهَاد :

قال قَتادَةُ : عن أنَس ، قال : لَمْ تُصَلِّ الغَداةُ[1] يومَ فَتح تُسْتَر حتى انتَصَف النَّهارُ ، فما يَسُرني بتلك الصَّلاة الدُّنيا كلها[2] .

٣٢ـ إجْلاءُ اليَهود عن الجَزيرة العربية :

قال الذهبيُّ : وفي سنَة عشرين قَسَّم عُمرُ خَيْبَر وأجْلَىٰ عنها اليَهودَ ، وقَسَّمَ وادي القُرىٰ ، وأجْلَىٰ يَهُودَ نَجْرانَ إلى الكُوفَة[3] .

* * *

(١) الغداة ، أي صلاة الفجر .
(٢) انظر السير : (عُمر بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ٢/٧١ .
(٣) انظر السير : (عُمر بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ٢/٧٢ .

من لَوازِمِ الإيمَان

أولاً : الابْتِلاءُ

١ـ فَضْلُ المُبْتَلَى الصَّابِرِ :

قال عبدُ الله بنُ أحمد بنِ حَنْبَل : حَدَّثني ثابتُ بنُ أحمد بنِ شَبُّويه قال : كان يُخَيَّلُ إليَّ أنَّ لأبي فَضِيلَةً علىٰ أحمَدَ بنِ حَنْبَل لجِهَادِهِ ، وفِكَاكِ الأسْرَىٰ ، فسَألْتُ أخي عبدَ اللهِ ، فقال : أحمَدُ بنُ حَنْبَل أرْجَحُ ، فلَمْ أقْنَعْ ، فأُرِيتُ شَيْخاً حَوْلَهُ النَّاسُ ، يَسْألُونَه ، ويَسْمَعُونَ منه ، فسَألْتُهُ عنهُما ، فقال : سُبْحانَ اللهِ!! ، إنَّ أحمَدَ ابنَ حَنْبَلٍ ابتُلِيَ فصَبَرَ ، وإنَّ شبُّويه عُوفِي ، المُبتَلَى الصَّابرُ كالمُعَافَى ؟!! هَيْهَات[1] .

٢ـ التَّصْبيرُ حَالَ الابْتِلاء :

قال التَّنُوخيُّ : حَدَّثنَا جَعْفَرُ بنُ وَرْقاء الأميرُ قال : اجْتَزْتُ عبدَ الله ابنَ الجَصَّاص وكان مُصاهِري ، فرَأيْتُه علىٰ حَوْشِ دَارِهِ حافِياً حاسِراً ، يَعْدُو كالمَجْنونِ ، فلمَّا رَآنِي اسْتَحْيَىٰ ، فقُلْتُ : ما لَكَ ؟ قال : يَحِقُّ لي ، أخَذُوا منِّي أمْراً عَظِيماً ، فلُمْتُهُ وقُلْتُ : ما بَقِيَ يَكْفِي ، وإنَّمَا يَقْلَقُ هـٰذا القَلَقَ مَنْ يَخَافُ الحَاجَةَ ، فاصْبِرْ حتىٰ أُبَيِّنَ لكَ غِنَاكَ قال : هاتِ قُلتُ : أَلَيْسَ دارُكَ هـٰذه بآلَتِها وفُرُشِها لك ؟ وعَقَارُكَ بالكَرْخِ وضِياعُكَ ؟ قال : بلَىٰ فما زِلتُ أُحاسِبُه حتىٰ بَلَغَ قِيمَةَ سَبعِ مِئَةِ ألفِ دينارٍ ، ثمَّ قُلتُ : واصْدُقْني عمَّا سَلِمَ لك ، فحَسَبْناهُ ، فإذا هو بثلاثِ مِئَةِ ألفِ دينار ، قُلتُ : فمَنْ له ألفُ ألفِ دينارٍ ببَغْداد ؟ هـٰذا وجاهُكَ قائمٌ فلِمَ تَغْتَمُّ ؟!! فسَجَدَ لله وحَمِدَهُ وبَكَىٰ ، وقال : أنْقَذَنِي اللهُ بكَ ، ما عَزَّانِي أحدٌ بأنْفَعَ من تَعْزِيَتِك ما أكَلْتُ شيئاً منذُ ثلاثٍ ، فأقِمْ عندي لنأكُلَ ونتَحدَّث فأقَمتُ عنده يومَينِ[2] .

---

(١) انظر السير : (ابن شَبُّويه) ١١/ ٧ـ٩ ، وانظر النزهة : ٣/٩٠٥ .

(٢) انظر السير : (ابن الجصّاص) ١٤/ ٤٦٩ـ٤٧٣ ، وانظر النزهة : ٤/١١٦٦ الوزير .

٣ـ الصَّبرُ حالَ الابْتِلاء :

عن زِرٍّ ، عن عبدِ الله ، أوَّلُ مَنْ أظْهَرَ إسْلامَهُ سَبْعَةٌ : رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم ، وأبُو بَكرٍ ، وعَمَّارٌ ، وأُمُّه سُمَيَّةُ ، وبِلالٌ ، وصُهَيْبٌ ، والمِقْدَادُ ، فأمَّا النبيُّ صلى الله عليه وسلم ، وأبُو بَكْرٍ فمَنَعَهُما اللهُ بقَومِهِما ، وأمَّا سائِرُهُم فأَخَذَهُم المُشْرِكُونَ ، فألْبَسُوهُم أدْراعَ الحَديدِ وصَهَرُوهُم في الشَّمْسِ ، فما مِنْهُم أحدٌ إلاَّ وأتاهُم علىٰ ما أرادوا إلاَّ بلال ، فإنَّه هَانَت عليه نفسُه في الله ، وهَانَ علىٰ قَوْمِه ، فأعْطَوهُ الوِلْدانَ ، فجَعَلُوا يَطُوفُونَ به في شِعابِ مَكّةَ ، وهو يقولُ : أَحَدٌ أَحَدٌ[١] .

عن هِشَامِ بنِ عُرْوَةَ ، أنَّ أبَاهُ خَرَجَ إلى الوَليدِ بنِ عبد المَلِك ، حتىٰ إذا كان بوادِي القُرىٰ ، وَجَدَ في رِجْلِهِ شيئاً فظَهَرتْ به قُرحَةٌ ، ثمَّ تَرَقَّىٰ به الوَجَعُ ، وقَدِمَ على الوَليدِ وهو في مَحمِلٍ ، فقال : يا أبا عبدِ الله اقْطَعْها ، قال : دُونَك فدَعا له الطَّبيبَ ، وقال : اشْرَبِ المُرقِد فلَمْ يَفْعَلْ ، فقَطَعَها من نِصْفِ السَّاقِ ، فما زَادَ أن يقولَ : حَسِّ ، حَسِّ ، فقال الوَليدُ : ما رأيتُ شَيْخاً قَطُّ أصْبَرَ من هَـٰذا ، وأُصِيبَ عُرْوَةُ بابنِه مُحمَّد في ذلكَ السَّفَرِ ، رَكَضَتْهُ بَغْلَةٌ في إصْطَبْلٍ لَمْ يُسْمَعْ منه في ذلكَ كَلِمَةٌ فلمَّا كان بِوادِي القُرَىٰ قال : ﴿ لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴾[٢] اللَّهُمَّ كان لِي بَنُونَ سَبْعَةٌ ، فأخَذْتَ واحِداً وأبْقَيْتَ لِي سِتَّةً ، وكان لِي أطْرَافٌ أرْبَعَةٌ ، فأخَذْتَ طَرفاً ، وأبْقَيْتَ ثلاثةً ، ولَئِنْ ابْتَلَيْتَ ، لقَدْ عافَيْتَ ، ولَئِنْ أخَذْتَ لقَد أبْقَيْتَ[٣] .

وقال الذهبيُّ : قَد أخْبَرَنِي عبدُ المُؤْمِنِ ـ شَيْخُنا ـ أنَّ أبا قِلابَةَ ممَّنِ ابْتُلِيَ في بَدَنِه ودِينِه ، أُرِيدَ على القَضَاءِ فهَرَبَ إلى الشَّام فمَاتَ بعَرِيضِ مِصْرَ سَنَةَ أرْبَع ، وقد ذَهَبَتْ يَدَاهُ ورِجْلاهُ وبَصَرُه ، وهوَ مَعَ ذلكَ حامِدٌ شَاكِرٌ[٤] .

---

(١) انظر السير : (بلال بن رَباح) ١/ ٣٤٧ـ ٣٦٠ ، وانظر النزهة : ٨/١٧٤ .

(٢) سورة الكهف ، الآية : ٦٢ .

(٣) انظر السير : (عُروَة) ٤/ ٤٢١ـ ٤٣٧ ، وانظر النزهة : ٢/٥٢٧ .

(٤) انظر السير : (أبو قِلابة) ٤/ ٤٦٨ـ ٤٧٥ ، وانظر النزهة : ٨/٥٣٤ (وانظر فهرس الصبر) .

٤ـ المِحْنَةُ المَحْمُودَةُ :

قال الإمامُ الذهبيُّ : ثَمَرَةُ المِحْنَة المَحْمودَة ، أنَّها تَرْفَعُ العَبدَ عند المُؤمِنينَ ، وبُكُلِّ حالٍ فهي بمَا كَسَبَتْ أيْدينَا ، ويَعْفُو اللهُ عن كَثِير : « ومَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْراً يُصِبْ مِنْهُ » ، وقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « كلُّ قَضَاءِ المُؤمِنِ خَيْرٌ لَهُ » ، وقال اللهُ تَعالَىٰ : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[1] ، وأنْزَلَ تَعالَىٰ في وَقْعَةِ أُحُدٍ قولَه : ﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾[2] وقال تعالَىٰ : ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾[3] فالمُؤمِنُ إذا امتُحِنَ صَبَرَ واتَّعَظَ واسْتَغْفَرَ ، ولَمْ يَتَشاغَلْ بذَمِّ مَنْ انتَقَمَ منه ، فاللهُ حَكَمٌ مُقْسِطٌ ، ثمَّ يَحْمَدُ اللهَ علىٰ سَلامَةِ دِينِه ، ويَعْلَمُ أنَّ عُقُوبَةَ الدُّنيا أهْوَنُ وخيرٌ له .

ولمَالِكٍ رحمَه اللهُ رِسَالةٌ في القَدَرِ ، كَتَبَها إلى ابنِ وَهْبٍ وإسْنادُهَا صَحيحٌ وله مُؤَلَّفٌ في النُّجوم ومَنَازِلِ القَمَرِ ، ورِسالةٌ في الأَقْضِيَة ، ورسَالةٌ إلى اللَّيْثِ في إجْماعِ أهْلِ المَدِينَةِ ، مَعْرُوفَة .

فأمَّا ما نَقَلَ عنهُ كِبارُ أصْحَابِه من المَسَائِلِ ، والفَتَاوَىٰ ، والفَوائِدِ ، فشيءٌ كَثيرٌ ، ومن كُنُوزِ ذلك : « المُدَوَّنَةُ » ، و« الواضِحَةُ » ، وأشْياء[4] .

٥ـ صُوَرٌ من الابْتِلاءِ :

وعن زِرٍّ ، عن عبدِ الله ، أولُ مَنْ أظْهَرَ إسْلامَه سَبْعةٌ : رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو بَكرٍ ، وعَمَّارٌ ، وأُمُّه سُمَيَّةُ ، وبِلالٌ ، وصُهَيْبٌ ، والمِقْدادُ ، فأمَّا النبيُّ صلى الله عليه وسلم ، وأبو بكرٍ فمَنَعَهُما الله بقَوْمِهما ، وأمَّا سائِرُهم فأخَذَهُم المُشْرِكُونَ ، فألْبَسُوهم أدْراعَ الحَديدِ ، وصَهَرُوهم في الشَّمسِ ، فما منهم أحدٌ إلاَّ وأتَاهُم علىٰ ما أرادُوا إلاَّ بلالٌ ، فإنَّه هانَتْ عليه نَفْسُه في الله ، وهان علىٰ قَوْمِه ،

---

(١) سورة محمد ، الآية : ٣١ .
(٢) سورة آل عمران ، الآية : ١٦٥ .
(٣) سورة الشورىٰ ، الآية : ٣٠ .
(٤) انظر السير : (مالك الإمام) ٨/٤٨ـ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٢/٧٣٠ .

فأعْطَوهُ الوِلْدانَ ، فجَعَلُوا يَطُوفُونَ به في شِعابِ مَكةَ ، وهو يقولُ : أَحَدٌ أَحَدٌ[1] .

وعن عبدِ الرَّحمَـٰن بنِ حاطِبِ بنِ أبي بَلْتَعَة : أنَّ أباه كَتَبَ إلىٰ كُفَّارِ قُرَيْشٍ كتاباً فدَعا رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم عَليّاً والزُّبَيْرَ ، فقال : « انْطَلِقَا حتّىٰ تُدْرِكا امْرأةً معَهَا كِتابٌ فأتِيَانِي به » فلَقِياها ، وطَلَبَا الكتابَ ، وأخْبَراها أنَّهما غيرُ مُنْصَرِفَيْنِ حتّىٰ يَنْزِعا كُلَّ ثَوبٍ عليها ، قالت : أَلَسْتُما مُسْلِمَيْنِ ؟!! قالا : بَلَىٰ ، ولكنَّ رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم حدَّثنا أنَّ معَكِ كتاباً ، فحَلَّتْهُ من رأسِها قال : فدَعا رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم حاطِباً حتىٰ قُرِىءَ عليه الكتابُ ، فاعْتَرَفَ فقال صلى الله عليه وسلم : « ما حَمَلَكَ ؟ » قال : كان بمَكَّةَ قَرابَتِي ووَلَدِي ، وكُنتُ غَريباً فيكم مَعْشَرَ قُرَيْش فقال عُمَرُ رضي الله عنه : ائْذَنْ لي يا رسُولَ الله في قَتْلِه قال صلى الله عليه وسلم : « لا ، إنَّه قد شَهِدَ بَدْراً ، وإنَّكَ لا تَدْرِي ، لَعَلَّ اللهَ قد اطَّلعَ علىٰ أَهْلِ بَدْرٍ فقال : اعْمَلُوا ما شِئْتُم ، فإنِّي غافِرٌ لكُم » .

إسْنادُه صَالحٌ ، وأصْلُهُ في الصَّحِيحَيْنِ[2] .

شَأنُ الإفْكِ :

كان في غَزوةِ المُرَيْسيع سَنةَ خَمسٍ من الهِجْرةِ وعُمرُ أُمِّ المؤمنينَ عائشةَ بنتِ أبي بَكر الصِّديق رَضِيَ اللهُ عنها يومَئذ اثْنَتا عَشرة سَنةً .

عـن ابـنِ شِهـابٍ : أَخْبَـرَنـي عُـروَةُ ، وابـنُ المُسَيِّـب ، وعَلْقَمَـةُ بـنُ وَقَّـاص ، وعُبَيْدُ الله بنُ عبد الله ، عن حَديثِ عائِشَةَ حينَ قالَ لها أَهْلُ الإفْكِ ما قالوا ، فبَرَّأها اللهُ تعَالَىٰ وكُلٌّ حَدَّثني بطائِفَةٍ من حَديثِها ، وبَعضُ حَديثِهم يُصَدِّقُ بَعضاً ، وإنْ كان بَعضُهم أَوْعَىٰ له من بَعضٍ ، قالت : كان رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم إذا أرادَ سَفَراً أَقْرَعَ بين نِسائِه ، فأيَّتُهنَّ خَرجَ سَهْمُها خَرجَ بها معَه فأقْرَعَ بيْنَنا في غَزْوةٍ غَزاها ، فخَرَجَ سَهْمِي ، فخَرَجْتُ مَعَه بعدَ ما نَزَلَ الحِجابُ ، وأنا أُحْمَلُ في هَوْدَجٍ وأُنْزَلُ فيه ، فسِرْنا ، حتىٰ إذا فَرَغَ رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم من غَزْوَتِه تِلكَ ، وقَفَلَ ودَنَوْنا من المَدينَةِ ، آذَنَ

---

(١) انظر السير : (بلال بن رباح) ١/ ٣٤٧ـ ٣٦٠ ، وانظر النزهة : ٨/١٧٤ .

(٢) انظر السير : (حاطب بن أبي بلتعة) ٢/ ٤٣ـ ٤٥ ، وانظر النزهة : ٣/٢١٦ .

ليلةً بالرَّحيلِ فقُمتُ حينَئِذٍ فمَشَيْتُ حتىٰ جاوَزْتُ الجَيشَ فلمَّا قَضَيْتُ حاجَتي ، أقْبَلْتُ إلىٰ رَحْلِي ، فإذا عِقْدٌ لي من جَزْعِ ظَفار[1] وقد انْقَطَعَ ، فالْتَمَسْتُه ، وحَبَسَنِي الْتِماسُهُ ، وأقْبَلَ الرَّهْطُ الذين كانوا يَرحَلُون بي ، فاحْتَمَلُوا هَوْدَجِي ، فرَحَلُوا علىٰ بَعيري ، وهم يَحْسَبون أنِّي فيه ، وكان النِّساءُ إذْ ذاكَ خِفافاً لَمْ يُثْقِلْهُنَّ اللَّحْمُ ، إنَّما يأكُلْنَ العُلْقَةَ[2] من الطعامِ فلَمْ يَسْتَنْكِروا خِفَّةَ المَحْمَلِ حين رَفَعُوه ، وكُنتُ جاريةً حَديثةَ السِّنِّ ، فبَعَثوا الجَملَ وساروا ، فوَجَدْتُ عِقْدِي بعدما اسْتَمرَّ الجَيشُ ، فجِئتُ مَنازِلَهم ولَيسَ بها دَاعٍ ولا مُجيب فأمَّمْتُ مَنْزِلي الذي كُنتُ فيه ، وظَنَنْتُ أنَّهم سَيَفْقِدُوني فيَرْجِعُون إليَّ فبَيْنا أنا جالِسَةٌ غَلَبَتْنِي عَيْنِي ، فنِمْتُ وكان صَفْوانُ بنُ المُعَطَّلِ السُّلَميّ ، ثمَّ الذَّكْوانيّ ، من وَراءِ الجَيشِ ، فأدْلَجَ ، فأصْبَحَ عند مَنْزِلي ، فرأىٰ سَوادَ إنْسانٍ نائِم ، فأتاني ، فعَرَفَني حين رآني ، وكان يَراني قبلَ الحِجابِ فاسْتَرْجَعَ ، فاسْتَيْقَظْتُ باسْتِرْجاعِه حين عَرَفَتُ فخَمَّرْتُ وَجْهيَ بِجِلْبابي ، واللهِ ما كَلَّمَني كَلِمَةً ، ولا سَمعتُ منه كَلِمَةً غيرَ اسْتِرجاعِه ، فأناخَ راحِلتَه ، فوَطِيءَ علىٰ يدَيْها فرَكِبْتُها فانْطَلَقَ يَقُودُ بي الرَّاحِلَةَ حتىٰ أتَيْنا الجَيشَ بعدما نزَلُوا مُوغِرينَ[3] في نَحْرِ الظَهِيرَة ، فهَلَكَ مَنْ هَلَكَ فيَّ وكان الذي تَوَلَّىٰ كِبْرَ هٰذا الإفْكَ عبدُ اللهِ بنُ أُبَيِّ بنِ سَلُول فقَدِمْنا المَدينَةَ ، فاشْتَكَيْتُ شَهْراً ، والنَّاسُ يُفيضُونَ في قَوْلِ أهْلِ الإفْكِ ولا أشْعُرُ بشيءٍ من ذلك ، ويَريبُني في وَجَعِي أنِّي لا أعْرِفُ من رسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم اللُّطْفَ الذي كُنتُ أرىٰ منه حين أشْتَكِي ، إنَّما يَدْخُلُ عليَّ ، فيُسَلِّمُ ، ثمَّ يَقُولُ : « كيْفَ تِيكم ؟ » ثمَّ يَنْصَرِفُ فذلك الذي يَريبُني ولا أشْعُرُ بالشَّرِّ ، حتىٰ خَرَجْتُ بعدما نَقَهْتُ .

فخَرَجْتُ مع أُمِّ مِسْطَحٍ قِبَلَ المَناصِع[4] ، وهو مُتَبَرَّزُنا وكُنَّا لا نَخْرُجُ إلاَّ لَيلاً إلىٰ لَيلٍ ، وذلك قَبلَ أنْ تُتَّخَذَ الكُنُفُ قَريباً من بُيُوتِنا ، وأمْرُنا أمْرُ العَرَبِ الأُوَل من التَّبَرُّز قِبل الغائط ، وكُنَّا نَتأذَّىٰ بالكُنُفِ أنْ نتَّخِذَها عند بُيُوتِنا فانْطَلَقْتُ أنا وأُمُّ مِسْطَح بنتُ

---

(١) الجزع : خرز يماني ، وظفار : قرية باليمن .

(٢) العُلقة (بضم العين) : كل ما يتبلغ به من العيش ، وهي من الطعام اليسير منه .

(٣) أي نازلين في وقت الوغرة ، وهي شدة الحر ، ونحر الظهيرة : وقت القائلة .

(٤) المناصع : مواضع خارج المدينة كانوا يتبرزون فيها .

أبي رُهم بنِ عبدِ مَناف ، وأُمُّها ابْنَةُ صَخْرِ بنِ عامِر خالَةُ أبي بَكْرٍ الصِّدِّيق ، وابنُها مِسْطَح بنُ أثاثَة بنِ المُطَّلِب ، فأقْبَلْتُ أنا وهي قِبَلَ بَيْتِي ، وقد فَرَغْنا من شَأْنِنا ، فعَثُرَتْ أُمُّ مِسْطَح في مِرْطِها ، فقالت : تَعِسَ مِسْطَح ، فقُلْتُ لها : بِئْسَ ما قُلْتِ !! ، أتَسُبِّينَ رجلاً شَهِدَ بَدْراً ؟!! قالت : أيْ هَنْتَاه[1] ، أوَلَمْ تَسْمَعِي ما قال ؟ قُلْتُ : وما ذَاكَ ؟ فأخْبَرَتْنِي الخَبَرَ ، فازْدَدْتُ مَرَضاً علىٰ مَرَضِي .

فلمَّا رَجَعتُ إلىٰ بَيْتِي ، ودَخَلَ عليَّ رسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم فسَلَّمَ ثم قال : « كيْفَ تِيكم ؟ » فقُلْتُ : أتَأذَنُ لي أنْ آتي أبَوَيَّ ؟ وأنا حينئذ أُريدُ أنْ أسْتَيْقِنَ الخَبَرَ من قِبَلهما فأذِنَ لي فجِئْتُ أبَوَيَّ ، فقُلْتُ : يا أُمَّتاه ، ما يَتَحدَّثُ النَّاسُ ؟ قالت : يا بُنَيَّةُ! هَوِّني عليك ، فواللهِ لَقَلَّما كانت امرأةٌ وَضِيئَةٌ عند رجُلٍ يُحِبُّها لها ضَرائِرُ إلاَّ كَثَّرْنَ عليها ، فقُلْتُ : سُبحانَ اللهِ!! وقد تَحدَّثَ النَّاسُ بهٰذا ؟ فبَكَيْتُ الليلةَ حتىٰ لا يَرْقأُ لي دَمْعٌ ولا أكْتَحِلُ بنَومٍ ثمَّ أصْبَحتُ أبْكِي .

فدَعا رسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم عليَّ بنَ أبي طالِبٍ وأُسامَةَ بنَ زَيْدٍ ، حين اسْتَلْبَثَ الوَحْيُ ، يَستأمِرُهما في فِراقِ أهْلِه فأمَّا أُسامَةُ ، فأشارَ علىٰ رسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم بالذي يَعْلَمُ من بَراءَةِ أهْلِه ، وبالذي يَعْلَمُ لهم في نَفسِه من الوُدِّ ، فقال : يا رسُولَ اللهِ أهْلُكَ ، ولا نَعْلمُ إلاَّ خَيْراً وأمَّا عليٌّ فقال : لَمْ يُضَيِّقِ اللهُ عليكَ ، والنِّساءُ سِواها كَثيرٌ ، واسْألِ الجارِيَةَ تَصْدُقْكَ فدَعا رسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم بريرةَ[2] فقال : « أيْ بريرةُ ، هَلْ رَأيْتِ من شَيْءٍ يَرِيبُكِ ؟ » قالت : لا والذي بَعَثَكَ بالحَقِّ ، إنْ رَأيتُ عليها أمْراً أغْمِصُه[3] عليها أكْثَرَ من أنَّها جارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ ، تَنامُ عن عَجينِ أهْلِها ، فيَأتي الدَّاجِنُ ، فيَأكُلُه .

---

(١) قال ابن الأثير : أي : يا هٰذه ، وتُفتح النون وتسكن ، وتُضم الهاء الآخرة وتسكن قال الجوهريّ : هٰذه اللفظة تختص بالنداء ، وقيل : معنىٰ يا هنتاه : أي يا بلهاء ، كأنها نُسبت إلىٰ قلة المعرفة بمكايد الناس وشرورهم .

(٢) كون الجارية بريرة هنا ، وهمٌ من بعض الرواة نبّه عليه ابن القيم في « زاد المعاد » ٣/ ٢٦٨ طبع مؤسسة الرسالة ، وأخذ عنه الزركشيّ في « الإجابة » ص ٤٨ .

(٣) أغمصه : أي أعيبه .

فقامَ رسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، فاسْتَعْذَرَ من عبدِ اللهِ بنِ أُبَيٍّ بن سَلُول ، فقال وهو على المِنْبَرِ : « يا مَعْشَرَ المُسْلِمينَ ، مَنْ يَعْذِرُني[1] مِنْ رَجلٍ قد بَلَغَنِي أذاهُ في أهْلِ بَيْتِي ، فوَاللهِ ما عَلِمْتُ علىٰ أهْلِي إلاَّ خيراً ، ولَقَد ذَكرُوا رَجُلاً ما عَلِمْتُ عليه إلاَّ خيراً وما كان يَدخُلُ علىٰ أهْلِي إلاَّ مَعِي » فقامَ سَعدُ بنُ مُعَاذٍ ، فقال : يا رسُولَ الله ، أنا أعْذِرُكَ مِنْه ، إنْ كانَ من الأَوْسِ ، ضَرَبْتُ عُنُقَه ، وإنْ كان منْ إخْوانِنا من الخَزْرَجِ أمَرْتَنا ، ففَعَلْنا أَمْرَكَ .

فقامَ سَعدُ بنُ عُبادَة ـ وهو سَيِّدُ الخَزْرَج ـ وكان قَبلَ ذلكَ رَجُلاً صالِحاً ، ولكنْ احْتَمَلَتْهُ الحَميَّة[2] ، فقال لسَعدٍ : كَذَبتَ لعَمْرُ اللهِ!! لا تَقْتُلُه ، ولا تَقْدِرُ علىٰ قَتْله فقامَ أُسَيْدُ بنُ حُضَيْر ـ وهو ابنُ عمِّ سَعدِ ابنِ مُعاذ ـ فقال : كَذَبْتَ!! لَعَمْرُ الله لَنَقْتُلَنَّه ، فإنَّكَ مُنافِقٌ تُجادِلُ عن المُنافِقين فتَثاوَرَ[3] الحَيَّان : الأَوْسُ والخَزْرَج ، حتىٰ هَمُّوا أنْ يَقْتَتلوا ، ورسُولُ الله صلى الله عليه وسلم قائمٌ على المِنْبَرِ فلَمْ يَزَلْ يُخَفِّضُهم حتىٰ سَكَتُوا وسَكَتَ صلى الله عليه وسلم .

قالت : فبَكَيْتُ يَومي ذلكَ ولَيلَتي ، لا يَرْقأُ لي دَمعٌ ، حتىٰ ظَنَنتُ أنَّ البُكاءَ فالقٌ كبِدِي فبينَما هما جالِسان عندي ، وأنا أبْكي ، اسْتأذَنَتْ عليَّ امرأةٌ من الأنْصارِ ، فأذِنْتُ لها ، فجَلَسَت تَبكي مَعي ، فبينما نحنُ علىٰ ذلك ، دَخَلَ علينا رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم ، فسَلَّمَ ثمَّ جلسَ ، ولَمْ يَجلِسْ عندي منذُ قِيلَ لي ما قِيل ، ولقد لَبِثَ شَهراً لا يُوحَىٰ إليه في شَأني شيءٌ قالت : فتَشَهَّدَ ، ثمَّ قال صلى الله عليه وسلم : « أمَّا بَعدُ ، يا عائِشَةُ ، فإنَّه قد بَلَغَني عنْكِ كذا وكذا ، فإنْ كنتِ بَريئَةً ، فسَيُبَرِّئُكِ اللهُ ، وإنْ كنتِ أَلْمَمْتِ بذَنبٍ ، فاسْتَغفِري اللهَ ، وتُوبي إليه ، فإنَّ العَبْدَ إذا اعْتَرَفَ بذَنبه ثمَّ تَابَ ، تَابَ اللهُ عَليهِ » فلمَّا قَضَىٰ مَقَالَتَه ، قَلصَ دَمْعي حتىٰ ما أُحِسُّ منه قَطرَة ، فقُلتُ لأبي :

---

(١) يعذرني : أي مَن يقوم بعذري إن جازيته علىٰ قبح فعله ، وسوء ما صدر منه وقيل : معناه من ينصرني ، والعذير : الناصر .

(٢) احتملته الحَمية : أي أغضبته .

(٣) تثاور : أي تواثبا ، وتناهضا للنزاع والعصبية .

أجِبْ رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم فيما قال ، قال : والله ما أدْري ما أقُولُ لرسُولِ الله صلى الله عليه وسلم فقُلتُ لأُمِّي : أجِيبِي رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم ، قالت : ما أدْري ما أقُولُ لرسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ، فقُلتُ وأنا يومَئذٍ حَديثةُ السِّنِّ لا أقْرأُ كثيراً من القُرآنِ : إنِّي والله لقد عَلمتُ ، لقد سَمعتُم هـٰذا الحَديثَ حتى اسْتقرَّ في أنفُسِكم ، وصَدَّقتُم به ، فلَئِنْ قُلتُ لكم : إنِّي بَريئةٌ - واللهُ يَعلَمُ أنِّي بَريئةٌ - لا تُصدِّقُوني بذلك ، ولَئِنْ اعْترفْتُ لكم بأمْرٍ ، واللهُ يَعلَمُ أنِّي بَريئةٌ ، لَتُصدِّقُنِّي واللهِ ما أَجِدُ لي ولَكُم مَثلاً إلاَّ قولَ أبي يُوسُفَ عليه السلام : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾[1] . ثمَّ تَحوَّلتُ ، فاضْطَجَعْتُ علىٰ فِراشي ، وأنا أَعْلَمُ أنِّي بَريئةٌ ، وأنَّ الله تعالَىٰ يُبَرِّئُني ببَراءَتي ، ولكنْ والله ماظَنَنتُ أنَّ اللهَ يُنزلُ في شأني وَحْياً يُتْلَىٰ ، ولَشأني كان في نَفْسِي أَحْقَرُ مِنْ أنْ يَتكَلَّمَ اللهُ فيَّ بأمْرٍ يُتْلَىٰ ، ولكنْ كُنتُ أَرْجُو أنْ يَرَىٰ رسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم في النَّومِ رُؤْيا يُبَرِّئُني اللهُ بها ، قالت : فَوَاللهِ ما قَامَ رسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، ولا خَرَجَ أحَدٌ من أهْلِ البَيْتِ ، حتىٰ نزَلَ عليه الوَحْيُ ، فأَخَذَهُ ماكان يأخُذُه من البُرَحَاء ، حتىٰ إنَّه لَيَتحَدَّرُ منه مِثلُ الجُمَان من العَرَقِ ، وهو في يَومٍ شَاتٍ ، من ثِقَلِ القَوْلِ الذي يَنزلُ عليه فلمَّا سُرِّيَ عنه وهو يَضْحَكُ ، كان أَوَّل كَلِمَةٍ تَكلَّمَ بها صلى الله عليه وسلم : « ياعَائِشَةُ ، أَمَا واللهِ ، لَقَدْ بَرَّأَكِ الله » فقالت أُمِّي : قُومي إليْه فقُلتُ : واللهِ لا أَقُومُ إلَيْه ، ولا أَحْمَدُ إلاَّ اللهَ وأنْزَلَ اللهُ تَعالَىٰ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ﴾[2] العَشْر الآياتِ كُلَّها .

فلمَّا أَنْزَلَ اللهُ هـٰذا في بَراءَتي ، قال أبُو بَكْر ، وكان يُنْفِقُ علىٰ مِسْطَح لِقَرابَتِه وفَقْرِه : واللهِ لا أُنْفِقُ علىٰ مِسْطَح شَيْئاً أبَداً بعد الذي قال لِعائِشَةَ فأُنْزِلَتْ : ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾[3] ، قال : بَلَىٰ واللهِ ، إنِّي لأُحبُّ أنْ يَغْفرَ اللهُ لِي

---

(١) سورة يوسف ، الآية : ١٨ .
(٢) سورة النور ، الآية : ١١ وما بعدها .
(٣) سورة النور ، الآية : ٢٢ .

فرَجَعَ إلىٰ مِسْطَح النَّفَقَةَ التي كان يُنْفِقُ عليه ، وقال واللهِ لا أَنْزِعُها منه أبَداً قالت : وكان رسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَسْأَلُ زَيْنَبَ بنتَ جَحْشٍ عن أمْري فقالت : أَحْمِي سَمْعِي وبَصَرِي ، ما عَلِمتُ إلاَّ خَيْراً ، وهي التي كانت تُسَامِيني[١] من أزْواجِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، فعَصَمَها اللهُ بالوَرَعِ ، وطَفِقَت أُختُها حِمْنةُ تُحارِبُ لها[٢] فهلَكَتْ فيمَنْ هَلَكَ من أصْحاب الإفْكِ[٣] .

قال الذهبيُّ في تَرْجَمة مُعَيْقِيب بنِ أبي فاطمَة الدَّوْسيّ : له هجرةٌ إلى الحَبشَة ، وقيل : إنَّه قَدم مع جَعفرٍ ليالي خَيْبَر ، وكان مُبْتَلىٰ بالجُذام .

عن محمود بن لُبَيد ، قال : أمَّرَني يَحْيَىٰ بنُ الحَكَم علىٰ جُرَش ، فقَدمتُها فحَدَّثوني أنَّ عبدَ الله بنَ جَعْفَر حَدَّثهم : أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال لصاحب هـٰذا الوَجَع ـ الجُذام ـ : « اتَّقُوهُ كمَا يُتَّقَى السَّبُعُ ، إذا هَبَطَ وَادِياً فاهْبِطُوا غَيْرَه » .

فقَدمتُ المدينةَ ، فسَألتُ عبدَ الله بنَ جعفر فقال : كَذبُوا واللهِ ! ! ما حَدَّثتُهم هـٰذا ، ولقد رأيتُ عُمَرَ بنَ الخَطَّاب يُؤتَىٰ بالإناء فيه الماءُ فيُعطيه مُعَيْقيباً ـ وكان رجُلاً قد أسْرعَ فيه ذاكَ الدَّاءُ ـ فيَشربُ منه ، ويُناولُه عُمَرَ ، فيَضعُ فَمَه مَوْضعَ فَمِه ، حتىٰ يَشرَبَ منه ، فعَرفتُ أنَّه يَفعلُه فِراراً من العَدْوَىٰ .

وكان يَطلب الطِّبَّ من كلِّ من سُمع له بطِبٍّ ، حتىٰ قَدم علينا رجلان من أهل اليَمن ، فقال : هل عندكما من طبٍّ لهـٰذا الرجل الصالح ؟ ، فقالا : أمَّا شيءٌ يُذهبُه ، فلا نَقدرُ عليه ، ولكنَّا سنُداويه دواءً يُوقِفُه ، فلا يَزيد فقال عُمرُ : عافيَةٌ عَظيمة فقالا : هل تُنْبتُ أرضُك الحَنْظَلَ ؟ قال : نعم قالا : فاجْمَعْ لنا منه ، فأمرَ ، فجُمعَ له ملءُ مِكتَلَيْنِ عظيمَين .

---

(١) تساميني : تعاليني ، من السُّمو والعُلو والارتفاع ، أي تطلب العُلو والرفعة والحظوة عند النبيّ صلى الله عليه وسلم ما أطلب .

(٢) تحارب لها : أي تجادل لها وتتغضب ، وتحكي ما قال أهل الإفك لتنخفض منزلة عائشة وتعلو مرتبة أختها زينب .

(٣) انظر السير : (عائشة أم المؤمنين) ٢/ ١٣٥ـ ٢٠١ ، وانظر النزهة : ٣/ ٢٣٤ ـ ٢٣٨ .

فشَقَّا كل واحدة نصفين ، ثم أضْجَعا مُعَيقِيباً ، وأخذَ كلُّ واحدٍ منهما برِجلٍ ، ثم جَعلا يُدلِّكان بُطونَ قدميه بالحَنْظلة ، حتىٰ إذا مُحقت ، أخذا أخرىٰ ، حتىٰ إذا رأيا مُعيقيباً يَتنخَمُه أخضراً مُرَّاً أرْسلاه ثم قالا لعُمرَ : لا يَزيدُ وَجعُه بعد هـٰذا أبداً قال : فوالله ما زالَ مُعَيقيباً مُتماسكاً ، لا يزيدُ وَجعُه حتىٰ مات .

عاشَ مُعَيقيبٌ إلىٰ خلافة عثمان رضي الله عنه .

والفِرارُ من المَجذوم ، وتَركُ مُؤاكلته جائزٌ ، لكن لِيَكُن ذلك بحيث لا يكادُ يَشْعرُ المَجذوم ، فإنَّ ذلك يُحْزِنُه ، ومَن واكَله ـ ثِقَةً بالله ، وتَوكُّلاً عليه ـ فهو مؤمن[1] .

عن ابنِ عبَّاسٍ قال : كان ابنُ أبي سَرْح يَكتبُ لرسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ، فأزَلَّه الشَّيْطانُ ، فلَحِقَ بالكُفَّارِ ، فأمَرَ به النبيُّ صلى الله عليه وسلم أنْ يُقتَلَ ، فاسْتَجارَ له عُثْمانُ[2] .

وقال الإمامُ الذهبيُّ في مِحْنَةِ آلامِ سَعيدِ بنِ المُسَيِّب ، قال الواقِديُّ : حدَّثنا عبدُ اللهِ بنُ جَعْفَر ، وغَيرُهُ من أصْحابِنا قالوا : اسْتَعْمَل ابنُ الزُّبَيْرِ جابرَ بنَ الأسْوَد بنِ عَوْف الزُّهْريّ على المَدينَة ، فدَعا النَّاسَ إلى البَيْعَة لابنِ الزُّبَيْر فقال سَعيدُ بنُ المُسَيِّب : لا ، حتىٰ يَجْتَمِعَ النَّاسُ فضَربَه سِتِّينَ سَوْطاً فبَلَغَ ذلكَ ابنَ الزُّبَيْر ، فكَتَبَ إلىٰ جابرٍ يَلُومَه ويقولُ : ما لَنا ولسَعِيدٍ ، دَعْهُ .

وعن عبد الواحِد بنِ أبي عَوْن ، قال : كان جابرُ بنُ الأسْوَدِ عامِلُ ابنِ الزُّبَيْرِ على المَدينَةَ قد تَزَوَّجَ الخامسَةَ قبلَ انقِضاءِ عِدَّةِ الرَّابعَةِ ، فلمَّا ضَرَبَ سَعيدَ بنَ المُسَيِّبِ صاحَ به سَعيدٌ والسِّياطُ تأخُذُه ، واللهِ ما رَبَّعْتَ علىٰ كتاب الله ، وإنَّكَ تَزَوَّجْتَ الخامسَةَ قبلَ انقِضاءِ عِدَّةِ الرَّابعَةَ ، وما هي إلاَّ لَيالٍ فاصْنَعْ ما بَدَا لَكَ ، فسَوْفَ يأتِيكَ ما تَكْرهُ فما مَكَثَ إلاَّ يَسيراً حتىٰ قُتِلَ ابنُ الزُّبَيْرِ[3] .

قال الواقِديُّ : حدَّثنا عبدُ الله بنُ جَعْفَر وغيرُه أنَّ عبدَ العَزيز ابنَ مَرْوانَ تُوفِّيَ بمِصْرَ

---

(١) انظر السير : (مُعَيقيب بن أبي فاطمة الدوسيّ) ٢/ ٤٩١ـ٤٩٣ ، وانظر النزهة : ٢/٢٩٤ .
(٢) انظر السير : (عبد الله بن سعد) ٣/ ٣٣ـ٣٦ ، وانظر النزهة : ٢/٣٢٦ .
(٣) انظر السير : (سعيد بن المسيّب) ٤/ ٢١٧ـ٢٤٦ ، وانظر النزهة : ٢/٤٨٤ .

سَنةَ أربعٍ وثمَانينَ ، فعقَدَ عبدُ المَلِك لابْنَيْه : الوَلِيدِ وسُلَيْمان بالعَهْدِ ، وكَتَبَ بالبَيْعَةِ لهُما إلى البُلْدان ، وعامِلُه يومَئذٍ على المَدينَة هشامُ بنُ إسْماعيل المَخْزوميّ ، فدَعا النَّاسَ إلى البَيْعَة ، فبايَعُوا ، وأبَىٰ سَعيدُ بنُ المُسَيِّب أن يُبايِعَ لهما وقال : حتىٰ أنْظُرَ ، فضَرَبَه هِشامُ سِتّينَ سَوْطاً ، وطَافَ به في تُبَّانٍ من شَعْر ، حتىٰ بَلَغَ به رأسَ الثَّنيَّةِ ، فلمَّا كَرُّوا به قال : أيْنَ تَكِرُّونَ بي ؟ قالُوا : إلى السِّجنِ ، فقال : واللهِ لَوْلا أنِّي ظَنَنْتُه الصَّلْبَ ، ما لَبِسْتُ هـٰذا التُّبَّانَ أبَداً فرَدُّوهُ إلى السِّجْنِ ، فحَبَسَه وكَتَبَ إلىٰ عبد المَلِك يُخْبِرُه بخِلافِه فكَتَبَ إليه عبدُ المَلِك يَلُومُه فيما صَنَعَ به ويقولُ : سَعيدٌ ، كان واللهِ أحْوَجَ إلىٰ أنْ تَصِلَ رَحِمَهُ من أنْ تَضْرِبَه وإنَّا لَنَعلَمُ ما عِنْدَهُ خِلافٌ[1] .

وقال أبو بكرِ بنُ أبي داوُدَ : كانت بنْتُ سَعيد بنِ المُسَيِّب قد خَطَبَها عبدُ المَلِكِ لابْنِهِ الوَلِيدِ ، فأبَىٰ عليه فلَمْ يَزَلْ يَحْتالُ عبدُ المَلِكِ عليه حتىٰ ضَرَبَهُ مِئَةَ سَوْطٍ في يومٍ بارِدٍ ، وصَبَّ عليه جَرَّةَ ماءٍ ، وألْبَسَهُ جُبَّةَ صُوفٍ .

وعن ابنِ أبي وَدَاعَةَ ـ يَعنِي كَثِيراً ـ قال : كُنتُ أُجالِسُ سَعيدَ ابنَ المُسَيِّبِ ، ففَقَدَنِي أيَّاماً ، فلمَّا جِئْتُهُ قال : أيْنَ كُنتَ ؟ قُلتُ : تُوفِّيَتْ أهْلِي فاشْتَغَلْتُ بها ، فقال : ألا أخْبَرْتَنا فشَهِدْناها ، ثمَّ قال : هَلْ اسْتَحْدَثْتَ امرأةً ؟ فقُلتُ : يَرْحَمُكَ اللهُ ، ومَنْ يُزَوِّجُنِي وما أمْلِكُ إلاَّ دِرْهَمَيْنِ أو ثلاثة ؟!! ، قال : أنا فقُلتُ : وتَفْعَلُ ؟!! قال : نَعَمْ ، ثمَّ تَحَمَّدَ ، وصَلَّىٰ على النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، وزَوَّجَنِي علىٰ دِرْهَمَيْنِ ـ أوْ قال : ثلاثة ـ فقُمتُ وما أدْرِي ما أصْنَعُ من الفَرَحِ فصِرتُ إلىٰ مَنْزِلي وجَعَلْتُ أتَفَكَّرُ فيمَنْ أسْتَدِينُ .

فصَلَّيْتُ المَغرِبَ ، ورَجَعْتُ إلىٰ مَنْزِلي ، وكُنتُ وَحْدِي صائِماً ، فقَدَّمْتُ عَشَائِي أُفْطِرُ ، وكان خُبْزاً وزَيْتاً ، فإذا بابي يُقْرَعُ ، فقُلتُ : مَنْ هـٰذا ؟ فقال : سَعيدُ ، فأفْكَرْتُ في كُلِّ مَنْ اسْمُه سَعيدٌ إلاَّ ابنَ المُسَيِّبِ ، فإنَّه لَمْ يُرَ أرْبَعِينَ سَنَةً إلاَّ بينَ بَيْتِهِ والمَسْجِدِ ، فخَرَجْتُ ، فإذا سَعيدٌ ، فظَنَنْتُ أنَّه قد بَدَا لَهُ ، فقُلتُ : يا أبا مُحمَّدٍ ألا أرْسَلتَ إليَّ فآتِيكَ ؟ قال : لا ، أنْتَ أحَقُّ أنْ تُؤتَىٰ ، إنَّكَ كُنتَ رجُلاً عَزَباً فتزَوَّجْتَ ،

---

(١) انظر السير : (سعيد بن المسيّب) ٤/٢١٧ـ٢٤٦ ، وانظر النزهة : ٣/٤٨٤ .

فكَرِهْتُ أنْ تَبيتَ اللَّيلَةَ وَحْدَكَ ، وهٰذه امرأتُكَ ، فإذا هي قائِمةٌ من خَلفِهِ في طُولِهِ ، ثمَّ أخَذَ بيَدِها فدَفعَها في البَابِ ، وردَّ البَابَ ، فسَقَطَتِ المَرأةُ من الحَيَاءِ ، فاسْتَوْثَقْتُ من البابِ ثمَّ وَضَعْتُ القَصْعَةَ في ظِلِّ السِّراجِ لكي لا تَرَاهُ ، ثمَّ صَعَدْتُ إلى السَّطحِ فرَمَيْتُ الجيرانَ ، فجَاؤوني فقالوا : ما شأنُكَ ؟!! فأخْبَرْتُهُم ونزَلُوا إليها ، وبَلَغَ أُمِّي ، فجاءَتْ وقالت : وَجْهي من وَجْهِكَ حَرامٌ إنْ مَسَسْتَهَا قبلَ أنْ أُصْلِحَها إلىٰ ثلاثةِ أيَّامٍ ، فأقَمْتُ ثلاثاً ثمَّ دَخَلْتُ بها ، فإذا هي من أَجْمَلِ النَّاسِ ، وأحْفَظِ النَّاسِ لكتابِ اللهِ ، وأعْلَمِهم بسُنَّةِ رسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، وأعْرَفِهم بحَقِّ زَوْجٍ فمَكَثْتُ شهراً لا آتِي سَعيدَ ابنَ المُسَيِّبِ ثم أتَيْتُهُ وهو في حَلْقَتِه ، فسَلَّمتُ ، فرَدَّ عليَّ السَّلامَ ولَمْ يُكلِّمْني حتىٰ تَقوَّضَ المَجْلِسُ ، فلمَّا لَمْ يَبْقَ غَيري قال : ما حالُ الإنْسانِ ؟ قُلتُ : خيراً يا أبا مُحمَّد ، علىٰ ما يُحِبُّ الصَديقُ ، ويَكْرَهُ العَدُوُّ قال : إنْ رابَكَ شَيءٌ فالعَصا فانْصَرَفْتُ إلىٰ مَنْزِلي ، فوَجَّهَ إليَّ بعِشرينَ ألفِ دِرْهم .

قال أبو بَكر بنُ أبي داوُد : ابنُ أبي وَداعَة هو كثير بن المطلب ابن أبي وَداعَة .

قال الذهبيُّ : هو سَهميٌّ مَكِّيٌّ ، روىٰ عن أبيه المطلب أحد مُسْلمَة الفَتح[1] .

عن هِشَام بنِ عُرْوَةَ ، أنَّ أبَاهُ خَرَجَ إلى الوَليدِ بنِ عبد المَلِك ، حتىٰ إذا كان بوادِي القُرىٰ ، وَجَدَ في رِجْلِهِ شيئاً فظَهَرتْ به قُرحَةٌ ، ثمَّ تَرَقَّىٰ به الوَجَعُ ، وقَدِمَ على الوَليدِ وهو في مَحمِلٍ ، فقال : يا أبا عبدَ الله اقْطَعْها ، قال : دُونَك فدَعا له الطَّبيبَ ، وقال : اشْرَبْ المُرقِد فلَمْ يَفْعَلْ ، فقَطَعَها من نِصْفِ السَّاقِ ، فما زَادَ أن يقولَ : حَسِّ ، حَسِّ ، فقال الوَليدُ : ما رأيتُ شَيْخاً قَطُّ أصْبَرَ من هٰذا ، وأُصِيبَ عُرْوَةُ بابنِه مُحمَّد في ذلكَ السَّفَرِ ، رَكَضَتْهُ بَغْلَةٌ في إصْطَبْلٍ لَمْ يُسْمَعْ منه في ذلكَ كَلِمَةٌ فلمَّا كان بِوَادِي القُرىٰ قال : ﴿ لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴾[2] اللَّهُمَّ كان لِي بَنُونَ سَبْعَةٌ ، فأخَذْتَ واحِداً وأبْقَيْتَ لِي سِتَّةً ، وكان لِي أطْرَافٌ أرْبَعَةٌ ، فأخَذْتَ طَرفاً ، وأبْقَيْتَ

---

(١) انظر السير : (سعيد بن المسيب) ٤/ ٢١٧ـ٢٤٦ ، وانظر النزهة : ٣/٣٨٥ .
(٢) سورة الكهف ، الآية : ٦٢ .

ثلاثةً ، ولئِنْ ابْتَلَيْتَ ، لقَد عافَيْتَ ، ولَئِنْ أخَذْتَ لقَد أبْقَيْتَ[1] .

وقال الذهبيُّ : قد أخْبرَنِي عبدُ المُؤمن ـ شَيْخُنا ـ أنَّ أبا قِلابَة ممَّن ابتُلِيَ في بَدَنِه ودِينِه ، أُرِيدَ على القَضاءِ فهَرَبَ إلى الشَّام فماتَ بعَرِيضِ مِصْرَ سَنَةَ أرْبعٍ ، وقد ذَهبَتْ يَداهُ ورِجْلاهُ وبَصَرُه ، وهو مع ذلك حامِدٌ شاكِرٌ[2] .

ولمَّا تَمادَىٰ مُوسَىٰ بنُ نُصَيْر في سَيْرِهِ في الأنْدَلُسِ ، أتَىٰ أرْضاً تَميدُ بأهْلِها ، فقال عَسْكَرُهُ : إلىٰ أيْنَ تُرِيدُ أنْ تذهَبَ بنا ؟ حَسْبُنَا ما بأيْدِينا ، فقال : لَوْ أطَعْتُمونِي لَوَصَلْتُ إلى القُسْطَنْطِينيَّة ، ثمَّ رَجَعَ إلى المَغْرِبِ وهو راكبٌ علىٰ بَغْلَةٍ وهو يَجُرُّ الدُّنيا بينَ يَدَيهِ ، أمَرَ بالعَجَلِ تَجُرُّ أوْقارَ الذَّهَبِ والحَرِيرِ ، واسْتَخْلَفَ ابْنَه بإفْرِيقِيَّة ، وأخَذَ معه مِئَةً من كُبَراءِ البَرْبَرِ ، ومِئَةً وعشرين من المُلُوكِ وأولادِهم ، فقَدِمَ مِصْرَ في هَيْئَةٍ ما سُمِعَ بمِثْلِها ، فوَصَلَ العُلَماءُ والأشْرافُ ، وسَارَ إلى الشَّامِ فبَلَغَهُ مَرَضُ الوَلِيدِ ، وكَتَبَ إليه سُلَيْمانُ يأمُرُهُ بالتَّوَقُّفِ ، فما سَمِعَ منهُ ، فآلَىٰ سُلَيْمانُ إنْ ظَفِرَ بهِ لَيَصْلِبَنَّهُ وقَدِمَ قبلَ مَوْتِ الوَلِيدِ ، فأخَذَ ما لا يُحَدُّ من النَّفائِسِ ، ووَضَعَ باقِيهِ في بَيْتِ المَالِ ، وقُوِّمَتِ المَائِدَةُ بمِئَةِ ألْفِ دينار .

ووَلِيَ سُلَيْمانُ فأهانَه ، ووُقِّفَ في الحَرِّ ـ وكان سَميناً ـ حتىٰ غُشِيَ عليهِ وبَقِيَ عُمَرُ بنُ عبد العَزِيزِ يَتألَّمُ له ، فقال سُلَيْمانُ : يا أبا حَفْصٍ ما أظُنُّ إلاَّ أنَّني خَرَجْتُ من يَمِيني .

وضَمَّهُ يَزِيدُ بنُ المُهَلَّبِ إليهِ ، ثمَّ فَدَىٰ نَفسَه ببَذْلِ ألفِ ألفِ دينارٍ ، وقِيلَ له : أنْتَ في خَلقٍ من مَوَالِيكَ وجُنْدِكَ ، أفَلا أقَمْتَ في مَقَرِّ عِزِّكَ ، وبَعثتَ بالتَّقادُمِ ، قال : لَوْ أرَدْتُ ، لَصارَ ، ولكنْ آثَرْتُ اللهَ ولَمْ أرَ الخُروجَ ، فقال له يَزِيدُ : وكُلُّنا ذاكَ الرجُلُ ـ أرادَ بهٰذا قُدومَهُ على الحَجَّاجِ[3] .

وقد امْتُحِنَ وَهْبُ بنُ مُنَبِّهٍ ، حُبِسَ وضُرِبَ ، فروىٰ حِبَّانُ بنُ زُهَيْر العَدَوِيّ ، قال :

---

(١) انظر السير : (عروة) ٤/ ٤٢١ـ ٤٣٧ ، وانظر النزهة : ٢/٥٢٧ .

(٢) انظر السير : (أبو قلابة) ٤/٤٦٨ـ ٤٧٥ ، وانظر النزهة : ٨/٥٣٤ .

(٣) انظر السير : (موسى بن نصير) ٤/٤٩٦ـ ٥٠٠ ، وانظر النزهة : ٤/٥٤٠ .

حدَّثني أبو الصَّيْداءَ صالحُ بنُ طَرِيفٍ ، قال : لمَّا قَدِمَ يُوسُفُ بنُ عُمَرَ العِراقَ بَكَيْتُ وقُلتُ : هٰذا الذي ضَرَبَ وَهْبَ بنَ مُنبِّهٍ حتّىٰ قتَلَه .

يَعْنِي لمَّا وَلِيَ إمْرَةَ اليَمَنِ ، ثمَّ نَقَلَهُ الخليفَةُ هِشامٌ إلىٰ إمْرَةِ العِراقِ ، وكان جَبَّاراً عَنِيداً مَهِيباً ، كان سِماطُهُ بالعِراقِ فيما حَكَى المَدائِنيُّ كلَّ يومِ خميسٍ مِئَةُ مائِدَةٍ ، أبْعَدُ المَوَائِدِ وأقْرَبُها سَواءٌ في الجَوْدَةِ .

ثمَّ إنَّه عُزِلَ عن العِراقِ عند مَقْتَلِ الوَلِيدِ الفاسِقِ ، ثمَّ ضُرِبَتْ عُنُقُهُ وللهِ الحَمْدُ في سَنَةِ سَبعٍ وعشرينَ ومِئَةٍ[١] .

قال الإمامُ الذهبيُّ في مِحْنَةِ الإمام مالك : قال ابنُ سَعْد : حدَّثنا الواقِديُّ قال : لمَّا دُعِيَ مالكٌ ، وشُووِرَ ، وسُمِعَ منه ، وقُبِلَ قَولُهُ ، حُسِدَ ، وبَغَوهُ بكُلِّ شيءٍ ، فلمَّا وَلِيَ جَعْفَرُ بنُ سُلَيْمانَ المَدِينَةَ ، سَعَوْا به إليه وكَثُروا عليه عندَه ، وقالوا : لا يَرَىٰ أيْمَانَ بَيْعَتِكُم هٰذه بشيءٍ ، وهو يأخُذُ بحَديثٍ رَوَاهُ عن ثابتِ بنِ الأحْنَفِ في طَلاقِ المُكْرَه : أنَّه لا يَجُوزُ عِنْدَه ، قال : فغَضِبَ جَعْفَرُ ، فدَعا بمَالِكٍ ، فاحْتَجَّ عليهِ بما رُفِعَ إليْهِ عنهُ ، فأمَرَ بتَجْريدِهِ ، وضَرْبِهِ بالسِّياطِ ، وجُبِذَتْ يَدُهُ حتى انْخَلَعَتْ منْ كَتِفِهِ ، وارتُكِبَ منه أمْرٌ عظيمٌ ، فو اللهِ ما زَالَ مالكٌ بَعدُ في رِفْعَةٍ وعُلُوٍّ[٢] .

وقال الذهبيُّ في مِحْنةِ وَكِيعٍ : مِحْنَةُ وَكِيعٍ ـ وهي غَريبَةٌ ـ تَورَّطَ فيها ولَمْ يُرِدْ إلاَّ خَيْراً ، ولكنْ فاتَتْه سَكْتةٌ ، وقد قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « كفَىٰ بالمَرْءِ إثْماً أنْ يُحَدِّثَ بكلِّ ما سَمِعَ ، فلْيَتَّقِ عبدٌ رَبَّه ، ولا يَخافَنَّ إلاَّ ذَنْبَه » .

قال عليُّ بنُ خَشْرَم : حَدَّثنا وَكيعٌ عن إسْماعيلَ عن أبي خالد ، عن عبدِ الله البَهِيّ ، أنَّ أبا بَكْرٍ الصِّديق جاءَ إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم بعد وَفاتِه ، فأكَبَّ عليه ، فقَبَّلَه ، وقال : بأبي وأُمِّي ، ما أطْيَبَ حَياتَكَ ومَيْتَتَكَ ، ثمَّ قال البَهِيُّ : وكان تُرِكَ يَوماً وليلةً حتىٰ رَبَا بَطْنُهُ ، وانْثَنَتْ خِنْصَراهُ ـ قال ابنُ خَشْرم : فلمَّا حدَّثَ وَكيعٌ بهٰذا بمَكةَ ، اجْتَمَعتْ قُرَيْشٌ ، وأرادُوا صَلْبَ وَكيعٍ ، ونَصَبوا خَشَبَةً لِصَلْبِه ، فجاء

---

(١) انظر السير : (وَهب بن مُنبّه) ٤/ ٥٤٤ـ ٥٥٧ ، وانظر النزهة : ٢/٥٥٧ .

(٢) انظر السير : (مالك الإمام) ٨/ ٤٨ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ١/٧٣٠ .

سُفْيانُ بنُ عُيَيْنَة ، فقال لهم : اللهَ اللهَ!! ، هٰذا فَقِيهُ أهْلِ العِراقِ ، وابنُ فقيهه ، وهٰذا حَديثٌ مَعروفٌ قال سُفيانُ : ولَمْ أكُنْ سَمعْتُه إلاَّ أنّي أرَدْتُ تَخْليصَ وَكيعٍ .

قال عليُّ بنُ خَشْرم : سَمعْتُ الحديثَ من وَكيع ، بعدما أرادُوا صَلْبَهُ فتعَجَّبتُ من جَسَارَتِهِ ، وأُخْبِرتُ أنَّ وَكيعاً احْتَجَّ ، فقال : إنَّ عِدَّةً من أصْحاب رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم منهم عُمَرُ رضي الله عنه قالوا : لَمْ يَمُتْ رسُولُ الله فأرادَ اللهُ أنْ يُرِيَهُم آيةَ المَوْتِ .

فهٰذه زَلَّةُ عَالِمٍ ، فما لوَكيعٍ ولرِوايَةِ هٰذا الخَبَرِ المُنْكَرِ المُنْقَطِعِ الإسْناد!! ، كادَتْ نفْسُه أنْ تَذهَبَ غَلطاً ، والقائمُونَ عليه مَعْذورُونَ ، بَلْ مَأجُورُونَ ، فإنَّهم تَخَيَّلُوا مِنْ إشاعَةِ هٰذا الخَبَرِ المَرْدودِ ، غَضَّاً ما لمَنْصِبِ النُّبُوَّة ، وهو في بادِىءَ الرَّأيِ يُوهِمُ ذلك ، ولكِنْ إذا تأمَّلْتَهُ ، فلا بَأسَ إنْ شاءَ اللهُ بذلك ، فإنَّ الحَيَّ قد يَرْبُو جَوْفُهُ ، وتَسْتَرْخِي مَفاصِلُه ، وذلك تَفَرُّعٌ من الأمْراضِ ، و« أشَدُّ النَّاسِ بَلاءً الأنْبياء » ، وإنَّما المَحْذورُ أنْ تُجَوِّزَ عليه تَغَيُّرَ سائِرِ مَوْتَى الآدَمِيِّينَ ورائِحَتَهم ، وأكْلَ الأرضِ لأجْسامِهِم ، والنبيُّ صلى الله عليه وسلم فمُفارِقٌ لسائِر أُمَّتِه في ذلك ، فلا يَبْلَىٰ ، ولا تَأكُلُ الأرضُ جَسَدَه ، ولا يَتَغَيَّرُ رِيحُه ، بَلْ هو الآن ، وما زالَ أطْيَبَ رِيْحاً من المِسْكِ ، وهو حيٌّ في لَحْدِه حَياةَ مِثْلِهِ في البَرْزَخ ، التي هي أكْمَلُ من حَياةِ سائِرِ النَّبِيِّينَ ، وحَياتُهم بلا رَيْبٍ أتَمُّ وأشْرَفُ من حَياةِ الشُّهَداءِ الذين هم بِنَصِّ الكِتَابِ أحياء عند ربهم يرزقون ، وهَؤلاءِ حَياتُهُم الآنَ التي في عالَمِ البَرْزَخِ حَقٌّ ، ولكِنْ لَيْسَت هي حَياةَ الدُّنْيا من كُلِّ وَجْهٍ ، ولا حَياةَ أهْلِ الجَنَّةِ من كُلِّ وَجْهٍ ، ولهُم شِبْهٌ بحَياةِ أهْلِ الكَهْفِ ، ومن ذلك : اجْتِماعُ آدَمَ ومُوسَىٰ ، لمَّا احْتَجَّ عليه مُوسَىٰ ، وحاجَّهُ آدَمُ بالعِلْمِ السَّابِق كان اجْتِماعُهُما حَقَّاً ، وهُما في عالَمِ البَرْزَخِ ، وكذلك نَبيُّنا صلى الله عليه وسلم أخْبَرَ أنَّه رَأىٰ في السَّماواتِ آدَمَ ومُوسَىٰ وإبْراهيمَ وإدْريسَ وعِيسَىٰ ، وسَلَّمَ عليهِم ، وطَالَتْ مُحاوَراتُه مع مُوسَىٰ ، هٰذا كُلُّه حَقٌّ والذي منهم لَمْ يَذُقِ المَوتَ بَعْدُ هو عيسَىٰ عليه السلام .

فقد تَبَرْهَنَ لك أنَّ نَبيَّنا صلى الله عليه وسلم ما زالَ طَيِّباً مُطَيَّباً ، وأنَّ الأرضَ مُحَرَّمٌ

عليها أَكْلُ أجْسادِ الأنبياءِ ، وهـٰذا شيءٌ سَبيلُهُ التَّوقيفُ ، وما عَنَّفَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم الصَّحابَةَ رضي اللهُ عنهُم لمَّا قالوا له بِلا عِلْمٍ : وكَيْفَ تُعْرَضُ صَلاتُنا عليك وقد أَرَمْتَ ؟ ـ يَعْنِي بَلِيتَ ـ فقال صلى الله عليه وسلم : « إنَّ اللهَ حَرَّمَ على الأَرْضِ أنْ تَأكلَ أجْسادَ الأنْبياءِ » .

وهـٰذا بَحثٌ مُعترِضٌ في الاعْتِذارِ عن إمام من أئِمَّةِ المسلمين ، وقد قَامَ في الدَّفْعِ عنْهُ مثْلُ إمامِ الحِجازِ سُفْيانَ بنِ عُيَيْنَة ، ولولا أنَّ هـٰذه الواقِعَةَ في عِدَّةِ كُتُبٍ ، وفي مثْلِ « تاريخِ الحافِظِ بنِ عَساكِر » ، وفي « كاملِ الحافِظِ ابنِ عَدِيّ » لأعْرَضْتُ عنها جُملَةً ، ففيها عِبْرةٌ .

قال عليُّ بنُ عثَّام : مَرِضَ وَكيعٌ ، فدَخَلْنا عليه ، فقال : إنَّ سُفْيانَ أتَانِي ، فبَشَّرَنِي بجِوارِهِ ، فأنا مُبادِرٌ إليه .

ماتَ وَكيعٌ سَنةَ سَبعٍ وتِسْعينَ ومِئَة يومَ عاشُوراءَ .

قال الذهبيُّ : عاشَ وَكيعٌ ثمَانياً وسِتِّينَ سَنةً سِوىٰ شَهرٍ أو شَهْرَينِ[1] .

قال ابنُ سَعدٍ : كان أبو مُسْهِرٍ راويَةَ سعيدِ بنِ عبد العَزيز ، وكان أُشْخِصَ من دِمَشْقَ إلى المَأمُونِ بالرَّقَّةِ ، فسَألَه عن القُرآنِ ، فقال : هُوَ كلامُ الله ، وأبَىٰ أنْ يقُولَ : مَخلُوقٌ ، فدَعَا له بالنَّطْعِ والسَّيْفِ ليَضرِبَ عُنُقَهُ ، فلمَّا رأىٰ ذلكَ ، قال : مَخلُوقٌ فتَرَكَهُ من القَتْلِ ، وقال : أمَا إنَّكَ لَوْ قُلتَ ذاكَ قبلَ السَّيْفِ ، لقَبلْتُ منْكَ ، ولكنَّكَ تَخرُجُ الآنَ فتقولُ : قُلتُ ذاكَ فَرَقاً من القَتْلِ ، فأمَرَ بحَبْسِه ببَغْدَادَ في ربيعِ الآخر سَنَةَ ثمَانِ عشرة وماتَ بعدَ قليلٍ في الحَبْسِ في غُرَّةِ رَجَبَ من السَّنَة ، فشَهِدَهُ قومٌ كثيرٌ منْ أهْلِ بَغْدَادَ[2] .

قال الصُّولِيُّ : كان أحمدُ بنُ نَصْرالخُزاعِيّ وسَهلُ بنُ سَلامَة حين كان المَأمُونُ بخُراسَان بايَعَا النَّاسَ على الأمر بالمَعْروف والنَّهي عن المُنكَر ، ثم قَدِمَ المَأمُونُ فبايَعَه

---

(١) انظر السير : (وَكيع) ٩/ ١٤٠ـ١٦٨ ، وانظر النزهة : ١/٨١٢ .

(٢) انظر السير : (أبو مُسْهر) ١٠/ ٢٢٨ـ٢٣٨ ، وانظر النزهة : ٤/٨٧١ .

سَهْلٌ ، ولَزِمَ ابنُ نَصْرٍ بَيْتَه ، ثمَّ تَحَرَّكَ في آخِرِ أيام الوَاثِق ، واجتمَعَ إليه خَلْقٌ يَأْمُرونَ بالمَعْروف ، قال : إلىٰ أنْ مَلَكُوا بَغْدادَ ، وتَعَدَّىٰ رَجُلانِ موسِران من أصحابه فبَذَلا مالاً وعَزَما على الوُثُوبِ في سنة إحْدَىٰ وثلاثين فنَمَا الخَبَرُ إلىٰ نائِبِ بَغْدادَ إسْحاقَ بنِ إبْراهِيمَ ، فأخَذَ أحمَدَ وصاحِبَيْه وجَماعَةً ، ووَجَدَ في مَنزِل أحَدِهما أعْلاماً ، وضَرَبَ خادِماً لأحْمَدَ ، فأقَرَّ بأنَّ هـٰؤلاء كانوا يَأْتونَ أحمَدَ ليلاً ويُخْبِرُونه بما عَمِلوا فحُمِلُوا إلىٰ سَامَرَّاء مُقَيَّدِين فجَلَسَ الوَاثِقُ لهم ، وقال لأحمَدَ : دَعْ ما أُخِذْتَ له ، ما تقُولُ في القُرآنِ ؟ : قال : كَلامُ الله قال : أفَمَخْلُوقٌ هو ؟ قال : كَلامُ الله قال فتَرَىٰ رَبَّكَ في القِيَامَة ؟ قال : كَذَا جَاءَت الرِّوايَةُ قال : وَيْحَك يُرَىٰ كَمَا يُرَى المَحْدُودُ المُتَجَسِّمُ ، ويَحْوِيه مكانٌ ويَحْصُرُه نَاظِرٌ ؟ أنا كَفَرتُ بمَنْ هـٰذِه صِفَتُه ، ما تَقُولُون فيه ؟ فقال قاضي الجانِبِ الغَرْبيّ : هو حَلالُ الدَّم ، ووَافَقَه فُقَهاءُ ، فأظْهَرَ أحمَدُ ابنُ أبي دُواد أنَّه كارِهٌ لقَتْله وقال شَيخٌ مُخْتلٌ تَغيَّرَ عَقلُه ، يُؤَخَّر قال الوَاثِقُ ما أَرَاه إلاَّ مُؤَدِياً لكُفْرِه قائماً بما يَعْتَقِدُه ، ودَعَا بالصَّمْصَامَة وقام ، وقال : أَحْتَسِبُ خُطَايَ إلىٰ هـٰذا الكَافِرِ ، فضَرَبَ عُنُقَه بعد أن مَدُّوا له رَأسَه بحَبْلٍ وهو مُقَيَّد ونُصِبَ رأسُه بالجانبِ الشَّرقِيّ ، وتُتُبِّعَ أصحابُه فسُجِنُوا[1] .

يقولُ الإمامُ الذهبيُّ في مِحْنَة الإمام أحمَد بن حَنْبَل : الصَّدْعُ بالحَقِّ عظيمٌ ، يَحْتاجُ إلىٰ قُوَّةٍ وإخْلاصٍ ، فالمُخْلِصُ بِلا قُوَّةٍ يَعْجزُ عن القِيامِ به ، والقَوِيُّ بلا إخْلاصٍ يُخْذَلُ ، فمَنْ قامَ بهما كاملاً ، فهُوَ صِدِّيقٌ ومَنْ ضَعُفَ ، فلا أقَلَّ من التَّألُّمِ والإنْكارِ بالقَلْبِ ، ليْسَ وَرَاءَ ذلك إيمانٌ ، فلا قُوَّةَ إلاَّ باللهِ .

عن ثَوْبانَ قال : قال رسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : « إنَّ أَخْوَفَ ما أخَافُ علىٰ أُمَّتِي الأئِمَّةُ المُضِلُّونَ ، وإذا وُضِعَ السَّيْفُ عليهِم ، لَمْ يُرْفَعْ عَنْهُم إلىٰ يوم القِيامَةِ ، ولا تَزَالُ طائِفَةٌ من أُمَّتِي على الحَقِّ ظاهِرِينَ ، لا يَضُرُّهُم مَنْ خَالَفَهُم أوْ خَذَلَهُم حتىٰ يَأْتِيَ أمْرُ اللهِ »

عن أبي سَعِيدٍ قال : قال رسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : « لا يَحْقِرَنَّ أَحَدُكمْ نَفْسَهُ

---

(١) انظر السير : (الخُزاعيّ) ١١/١٦٦ـ١٦٩ ، وانظر النزهة : ٣/٩١٨ .

أنْ يَرَىٰ أَمْراً للهِ فيهِ مَقَالٌ ، فَلا يَقُولُ فيهِ ، فيُقَالُ لَهُ : مَا مَنَعَكَ ؟!! فيَقُولُ : مَخَافَةُ النَّاسِ فيَقُولُ : فإيَّايَ كنْتَ أحَقَّ أنْ تخَافَ »[١] .

قِصَّةُ مُحمَّد بنِ إسْماعيلَ البُخاري مع مُحمَّدِ بنِ يَحْيَى الذُّهليّ رَحِمَهُما اللهُ

قال الحاكِمُ أبو عبدِ الله : سَمعتُ مُحمَّدَ بنَ حامِدٍ البَزَّازَ قال : سَمعتُ الحَسَنَ بنَ مُحمَّد بنِ جابِرٍ يقُولُ : سَمعتُ مُحمَّدَ بنَ يَحيىٰ قال لنا : لمَّا وَرَدَ مُحمَّدُ بنُ إسْماعيل البُخاريُّ نيسابُورَ : اذْهَبُوا إلىٰ هـٰذا الرجُلِ الصَّالحِ فاسْمَعوا منْه ، فذَهَبَ النَّاسُ إليه ، وأقْبَلُوا على السَّماعِ منه ، حتّىٰ ظَهَرَ الخَلَلُ في مَجْلِسِ مُحمَّدِ بنِ يَحيَىٰ ، فحَسَدَه بعدَ ذلكَ وتَكَلَّمَ فيه[٢] .

وقال الحاكِمُ : حَدَّثنا طاهِرُ بنُ مُحمَّد الوَرَّاق ، سَمعتُ مُحمَّدَ ابنَ شاذِل يقولُ : لمَّا وَقَعَ بينَ مُحمَّدِ بنِ يَحيَىٰ والبُخارِيِّ ، دَخَلْتُ على البُخارِيِّ فقُلتُ : يا أبا عبدَ اللهِ أَيش الحيلَةُ لنا فيما بَيْنَكَ وبينَ مُحمَّد ابنِ يَحيَىٰ كُلُّ مَنْ يَخْتلِفُ إلَيْكَ يُطْرَدُ ؟ ، فقال : كَمْ يَعْتَرِي مُحمَّدَ ابنَ يَحْيَى الحَسَدُ في العِلْمِ ، والعِلْمُ رِزْقُ الله يُعْطِيهِ مَنْ يَشاءُ فقُلتُ : هـٰذه المَسْأَلَةُ التي تُحكَىٰ عَنْكَ ؟ قال : يا بُنَيَّ ، هـٰذه مَسْأَلَةٌ مَشْؤومَةٌ ، رَأيْتُ أحْمَدَ بنَ حَنْبَلَ وما نالَهُ في هـٰذه المَسْأَلَة ، وجَعلتُ علىٰ نَفْسِي أن لا أتَكَلَّمَ فيها[٣] .

قال الإمامُ الذهبيُّ : المَسْأَلَةُ هي أنَّ اللَّفْظَ مَخْلوقٌ ، سُئِلَ عنها البُخاريُّ ، فوَقَفَ فيها ، فلمَّا وَقَفَ واحْتَجَّ بأنَّ أفعالَنا مَخْلُوقَةٌ ، واسْتَدَلَّ لذلكَ ، فَهِمَ منه الذُّهليُّ أنَّه يُوَجِّهُ مَسْأَلَةَ اللَّفْظِ ، فتكَلَّمَ فيه ، وأخَذَهُ بِلازِمِ قَوْلِهِ هو وغَيره[٤] ،[٥] .

---

(١) انظر السير : (أحمد بن حنبل) ١١/ ١٧٧ـ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٩٣١/ ٥ .

(٢) انظر السير : (أبو عبد الله البخاريّ) ١٢/ ٣٩١ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ١٠١٧/ ٢ .

(٣) انظر السير : (أبو عبد الله البخاريّ) ١٢/ ٣٩١ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ١٠١٧/ ٣ .

(٤) ولازم المذهب ليس كما هو مذهب جمهور المحققين من العلماء ، ونقل ابن ناصر الدين في مقدمة كتابه « الرد الوافر » ٢٠ عن الإمام الذهبي ـ ووصفه بإمام التعديل والجرح ، والمعتمد عليه في المدح والقرح ـ كلمة جاء فيها : ونعوذ بالله من الهوىٰ والمراء في الدين ، وأن نكفر مسلماً موحداً بلازم قوله ، وهو يفر من ذلك اللازم ، وينزه ويعظم الرب .

(٥) انظر السير : (أبو عبد الله البخاريّ) ١٢/ ٣٩١ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ١٠١٧/ ٤ .

قال الحاكِمُ : أَخْبَرَنا أبو عبدِ الله مُحمَّدُ بنُ يَعْقوبَ بنِ الأَخْرَمِ سَمعتُ ابنَ عليٍّ المَخْلَديّ ، سَمعتُ مُحمَّدَ بنَ يَحْيَىٰ يقولُ : قد أظْهَرَ هٰذا البُخاريُّ قَوْلَ اللَّفْظيَّةِ واللَّفْظيَّةُ عندي شَرٌّ من الجِهَميَّة .

قال مُحمَّدُ بنُ نَصْر المَرْوزيُّ : سَمعتُهُ يقولُ : مَنْ زَعَمَ أنِّي قُلتُ : لَفْظي بالقُرآنِ مَخْلُوقٌ فهُو كذَّابٌ ، فإنِّي لَمْ أقُلْهُ ، فقُلتَ له : يا أبا عبدَ الله ، قد خاضَ النَّاسُ في هٰذا وأكْثَروا فيه ، فقال : لَيْسَ إلاَّ ما أقُولُ[1] .

وقال سَمعتُ مُحمَّدَ بنَ صالحِ بنِ هانِىء : سَمعتُ أحمَدَ بنَ سَلَمَةَ يقُولُ : دَخَلتُ على البُخاريِّ ، فقُلتُ : يا أبا عبدَ الله ، هٰذا رَجلٌ مَقْبولٌ بخُراسانَ خُصُوصاً في هٰذه المَدينَةِ ، وقد لَجَّ في هٰذا الحَديثِ حتىٰ لا يَقْدِرُ أحَدٌ منَّا أنْ يُكَلِّمَهُ فيه ، فمَا تَرَى ؟ فقَبَضَ علىٰ لِحْيَتِه ، ثمَّ قال : ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾[2] اللَّهُمَّ إنَّكَ تَعْلَمُ أنِّي لَمْ أُرِدْ المُقامَ بنيسَابُورَ أَشَراً ولا بَطَراً ، ولا طَلَباً للرِّئاسَةِ ، وإنَّما أَبَتْ عليَّ نَفسِي في الرُّجوعِ إلىٰ وَطَنِي لغَلَبَةِ المُخالِفينَ وقد قَصَدَنِي هٰذا الرجُلُ حَسَداً لما آتاني اللهُ لا غَيْر ، ثمَّ قال لي : يا أحمدُ إنِّي خارِجٌ غداً لِتَتَخَلَّصُوا من حَدِيثِه لأجْلِي .

قال : فأخْبَرتُ جَماعَةَ أصْحابِنا ، فو الله ما شَيَّعه غَيري كُنتُ معهُ حين خَرَجَ من البَلَدِ ، وأقامَ علىٰ بَابِ البَلَدِ ثَلاثَةَ أيَّامٍ لإصْلاحِ أمْرِه[3] .

قال : وسَمعتُ مُحمَّدَ بنَ يَعْقُوبَ الحافِظَ يقولُ : لمَّا اسْتَوطَنَ البُخاريُّ نيسابُورَ أكْثَرَ مُسْلِمُ بنُ الحَجَّاجِ الاخْتِلافَ إليه ، فلمَّا وَقَعَ بينَ الذُّهليِّ والبُخاريِّ ما وَقَعَ في مَسْأَلَةِ اللَّفْظِ ونادَىٰ عليه ، ومَنَعَ النَّاسَ عنه ، انْقَطَعَ عنه أكْثَرُ النَّاسِ غَيرَ مُسْلمٍ .

فقال الذُّهليُّ يوماً : ألا مَنْ قالَ باللَّفْظِ فلا يَحِلُّ له أنْ يَحْضُرَ مَجْلِسَنا فأخَذَ مُسْلمٌ رِداءً فَوقَ عَمامَتِه وقام علىٰ رُؤوسِ النَّاسِ وبَعَثَ إلى الذُّهليِّ ما كَتَبَ عنه علىٰ ظَهْرِ

---

(١) انظر السير : (أبو عبد الله البخاريّ) ١٢/ ٣٩١ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ١/١٠١٨ .

(٢) سورة غافر ، الآية : ٤٤ .

(٣) انظر السير : (أبو عبد الله البخاريّ) ١٢/ ٣٩١ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ٢/١٠١٨ .

جمَّال وكان مُسْلمٌ يُظهِرُ القَوْلَ باللَّفْظِ ولا يَكْتُمُه[1] .

وقال مُحمَّدُ بنُ أبي حاتِمٍ : أتىٰ رَجلٌ أبا عبدَ اللهِ البُخاريَّ ، فقال : يا أبا عبدَ اللهِ ، إنَّ فُلاناً يُكفِّرُكَ!! فقال : قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « إذا قَالَ الرَّجُلُ لأخِيهِ : يا كافِرُ ، فقَدْ بَاءَ بِهِ أَحَدُهُمَا »[2] .

وكان كثيرٌ من أصْحابِهِ يقُولونَ له : إنَّ بَعْضَ النَّاسِ يَقَعُ فيك ، فيقُولُ : ﴿ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾[3] ويَتْلُو أيْضاً : ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾[4] ،[5] .

فقال له عبدُ المَجيدِ بنُ إبْراهيمَ : كَيْفَ لا تَدْعو اللهَ علىٰ هؤلاءِ الذين يَظْلِمونَكَ ويَتَناوَلُونَك ويَبْهَتُونَكَ!! ؟ ، فقال : قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « اصْبِرُوا حتّىٰ تَلْقَوْنِي على الحَوْضِ »[6] .

قال مُحمَّدُ بنُ أبي حاتِمٍ : وسَمعتُهُ يقولُ : لَمْ يَكُنْ يَتعرَّضُ لنا قَطُّ أحَدٌ من أفْناءِ النَّاسِ إلاَّ رُمِيَ بقارِعَةٍ ، ولَمْ يَسْلَمْ ، وكُلَّما حَدَّثَ الجُهَّالُ أنفُسَهم أنْ يَمْكُروا بنا رَأيتُ من لَيْلَتِي في المَنام ناراً توقَدُ ثمَّ تُطْفَأُ من غَيرِ أنْ يُنْتَفَعُ بها ، فأتَأوَّلُ قولَه تعالَىٰ : ﴿ كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ﴾[7] [8] .

وكان هِجِّيراه من اللَّيلِ[9] إذا أتَيْتُه في آخِرِ مَقْدَمِه من العِراقِ : ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ الآية[10] ،[11] .

---

(١) انظر السير : (أبو عبد الله البخاريّ) ١٢/ ٣٩١ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ٣/١٠١٨ .
(٢) انظر السير : (أبو عبد الله البخاريّ) ١٢/ ٣٩١ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ٤/١٠١٨ .
(٣) سورة النساء ، الآية : ٧٦ .
(٤) سورة فاطر ، الآية : ٤٣ .
(٥) انظر السير : (أبو عبد الله البخاريّ) ١٢/ ٣٩١ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ١/١٠١٩ .
(٦) انظر السير : (أبو عبد الله البخاريّ) ١٢/ ٣٩١ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ٢/١٠١٩ .
(٧) سورة المائدة ، الآية : ٦٤ .
(٨) انظر السير : (أبو عبد الله البخاريّ) ١٢/ ٣٩١ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ٣/١٠١٩ .
(٩) أي كلامه ودأبه وشأنه ، وفي حديث عُمَر رضي الله عنه : ما له هجيرىٰ غيرها ، أي : الدأب والعادة والدَّيْدَن .
(١٠) سورة آل عمران ، الآية ١٦٠ .
(١١) انظر السير : (أبو عبد الله البخاريّ) ١٢/ ٣٩١ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ٤/١٠١٩ .

وقال عبدُ الرَّحمَـٰن بنُ أبي حاتِمٍ في « الجَرْحِ والتَّعْدِيلِ » قَدِمَ مُحمَّدُ ابنُ إسْماعيل الرَّيَّ سَنَةَ خَمْسينَ ومِئَتَيْنِ ، وسَمِعَ منه أَبِي وأبو زَرْعَةَ وتَرَكا حَديثَهُ عندَما كَتَبَ إليهِما مُحمَّدُ بنُ يَحْيَىٰ أنَّه أَظْهَرَ عندَهُم بنِيسابُورَ أنَّ لَفْظَهُ بالقُرآنِ مَخْلُوقٌ[1] .

قال الإمام الذهبيُّ : إنْ تَرَكا حَديثَه ، أوْ لَمْ يَتْرُكاهُ ، البُخاريُّ ثِقَةٌ مَأمُونٌ مُحْتَجٌّ به في العَالَمِ[2] .

ذِكرُ مِحْنَةِ مُحمَّد بنِ إسْماعيلَ البُخاريّ مع أمير بُخارَى :

قال الحاكِمُ : سَمعتُ مُحمَّدَ بنَ العبَّاسِ الضَّبِّيِّ يقولُ : سَمعتُ أبا بَكرِ بنَ أبي عَمْرو الحافِظَ البُخاريّ يقُولُ : كان سَبَبُ مُنافَرَةِ أبي عبدِ الله أنَّ خالدَ بنَ أحمدَ الذُّهليَّ الأمير خليفة الطاهرية ببُخارَىٰ سَأَلَ أنْ يَحْضُرَ مَنزلَه ، فيَقرأَ « الجامعَ » و« التَّاريخَ » علىٰ أوْلادِهِ ، فامْتَنَعَ عن الحُضورِ عنده ، فراسَلَه بأن يَعْقدَ مَجْلِساً لأوْلادِه ، لا يَحْضُرُه غَيرُهم ، فامْتَنَعَ ، وقال : لا أَخُصُّ أَحداً ، فاسْتَعانَ الأميرُ بحُريثِ ابنِ أبي الوَرْقاء وغَيرِه حتّىٰ تَكلَّموا في مَذْهَبه ونَفَاهُ عن البَلَدِ ، فدَعا عَليهِم ، فلَمْ يَأْتِ إلاَّ شَهرٌ حتّىٰ وَرَدَ أمْرُ الطاهريَّة ، بأنْ يُنادَىٰ علىٰ خالدٍ في البَلَدِ ، فنُودِيَ عليهِ علىٰ أَتَانٍ ، وأمَّا حُريثُ ، فإنَّه ابْتُلِيَ بأهْلِهِ ، فرَأَىٰ فيها ما يَجِلُّ عن الوَصْفِ ، وأمَّا فُلانُ ، فابْتُلِيَ بأولادِهِ ، وأَرَاهُ اللهُ فيهم البَلايَا .

وقال الحاكِمُ : حَدَّثنا خَلَفُ بنُ مُحمَّد ، حَدَّثنا سَهْلُ بنُ شاذَوَيْه قال : كان مُحمَّدُ بنُ إسْماعيلَ يَسْكُنُ سِكَّةَ الدِّهْقانِ ، وكان جَماعَةٌ يَخْتلِفُونَ إليه يُظْهِرونَ شِعارَ أَهْلِ الحَديثِ من إفْرادِ الإقامَةِ ورَفْعِ الأَيْدِي في الصَّلاةِ ، وغَيرِ ذلكَ فقال حُريثُ بنُ أبي الوَرْقاء وغَيرُه : هـٰذا رَجلٌ مُشْغِبٌ ، وهو يُفْسِدُ علينا هـٰذه المَدينَةِ ، وقد أَخْرَجَهُ مُحمَّدُ بنُ يَحْيَىٰ من نِيسابُورَ ، وهو إمامُ أَهْلِ الحَديثِ ، فاحْتَجُّوا عليه بابنِ يَحْيَىٰ ، واسْتَعانُوا عليه بالسُّلطانِ في نَفْيِهِ من البَلَدِ ، فأُخْرِجَ ، وكان مُحمَّدُ بنُ

---

(١) انظر السير : (أبو عبد الله البخاريّ) ١٢/ ٣٩١ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ١٠١٩/٥ .

(٢) انظر السير : (أبو عبد الله البخاريّ) ١٢/ ٣٩١ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ١٠١٩/٦ .

إسْماعيلَ وَرِعَاً ، يَتَجَنَّبُ السُّلطانَ ولا يَدْخُلُ عليهِم[1] .

قال الذهبيُّ : خالد بن أحمد الأمير ، قال الحاكمُ : له بِبُخارَىٰ آثارٌ مَحْمودةٌ كلُّها ، إلاَّ مَوْجِدَته على البُخاريِّ ، فإنَّها زَلَّةٌ ، وسببٌ لزَوالِ مُلْكِه[2] .

وقال الإمامُ الذهبيُّ في تَرجَمَةِ ابنِ عَطاءٍ بعدَ قَوْلَةِ حُسَينِ ابنِ خاقان : « كان يَنامُ في اليومِ والليلةِ ساعَتين » ، قال الذهبيُّ رَحمَهُ الله : لكنَّه رَاجَ عليه حَالُ الحَلاَّجِ ، وصَحَّحَه ، فقال السُّلَميُّ : امتُحِنَ بسَبَبِ الحَلاَّجِ ، وطلبَه حامدٌ الوَزيرُ وقال : ما الذي تقُولُ في الحَلاَّجِ ؟ فقال : مَا لَكَ ولِذَاكَ ؟ عَليكَ بما نُدِبْتَ له من أخْذِ الأمْوالِ ، وسَفْكِ الدِّماءِ فأمَرَ به ، ففُكَّتْ أسْنانُه ، فصاحَ : قَطَعَ اللهُ يَدَيْكَ ورِجْلَيْك ، ومات بعد أرْبعَةَ عَشر يوماً ، ولكن أُجِيبَ دُعاؤُه ، فقُطِعَتْ أرْبَعَةُ حامد[3] .

وقال السُّلَميُّ في « مِحَنِ الصُّوفِيَّةِ » : لمَّا تَكَلَّمَ مُحمَّدُ بنُ الفَضْلِ ببَلَخ في فَهْمِ القُرآنِ وأحْوالِ الأئِمَّةِ ، أنْكرَ عليه فُقَهاءُ بَلْخ ، وقالوا : مُبْتَدعٌ وإنَّما ذاكَ بِسَببِ اعْتِقادِهِ مَذْهَبَ أهلِ الحَديثِ ، فقال : لا أخْرُجُ حتىٰ تُخْرِجُوني وتَطُوفُوا بِي في الأسْواقِ ففَعَلوا بهِ ذلكَ ، فقال : نَزَعَ اللهُ من قُلُوبِكُم مَحَبَّتَه ومَعْرِفَتَه فقِيلَ : لَمْ يَخْرُجْ منها صُوفِيٌّ من أهلِها فأتَىٰ سَمَرْقَنْدَ ، فبالَغُوا في إكْرامِه[4] .

وقال أبو الحُسَينِ بنُ الفَرَّاء : كان للبَرْبَهارِيّ مُجاهَدَاتٌ ومَقامَاتٌ في الدِّينِ ، وكان المُخالِفُون يُغْلِظُونَ قَلبَ السُّلطانِ عليه ففي سَنةِ إحْدَىٰ وعشرينَ وثلاثِ مِئَةٍ أرادُوا حَبْسَه ، فاخْتَفَىٰ وأُخِذَ كِبارُ أصْحابِهِ ، وحُمِلُوا إلى البَصْرَةِ ، فعاقَبَ اللهُ الوَزيرَ ابنَ مُقْلَةَ وأعَادَ اللهُ البَرْبَهاريَّ إلىٰ حِشْمَتِه ، وزَادَتْ ، وكَثُرَ أصْحابُهُ فبَلَغَنا أنَّه اجْتازَ بالجانِبِ الغَرْبِيِّ ، فعَطَسَ فشَمَّتَهُ أصْحابُهُ ، فارْتَفَعَتْ ضَجَّتُهُم حتىٰ سَمِعَها الخَليفَةُ ، فأُخْبِرَ بالحالِ ، فاسْتَهْوَلَها ، ثمَّ لَمْ تَزَلْ المُبْتَدِعَةُ تُوحِشُ قَلبَ الرَّاضِي ، حتىٰ نُودِيَ في

---

(١) انظر السير : (أبو عبد الله البخاريّ) ١٢/ ٣٩١ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ٧/١٠١٩ .

(٢) انظر السير : (أبو عبد الله البخاريّ) ١٢/ ٣٩١ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ١/١٠٢٠ .

(٣) انظر السير : (ابن عطاء) ١٤/ ٢٥٥ـ ٢٥٦ ، وانظر النزهة : ٤/١١٤٩ .

(٤) انظر السير : (واعظ بلخ) ١٤/ ٥٢٣ـ ٥٢٦ ، وانظر النزهة : ٣/١١٧١ .

بَغْدَادَ : لا يَجْتمِعُ اثْنانِ من أصْحابِ البَرْبَهارِيِّ فاخْتَفَىٰ[1] .

وقال السُّلَميُّ : كان الإمامُ أبو عُثْمانَ المَغْربيّ أوْحَدَ المَشايخِ في طَريقَتِهِ ، لَمْ نَرَ مِثْلَهُ في عُلُوِّ الحالِ وصَوْنِ الوَقْتِ ، امْتُحِنَ بسَببِ وِزْرٍ نُسِبَ إليه ، حتىٰ ضُرِبَ وشُهِرَ علىٰ جَمَلٍ ، ففارَقَ الحَرَمَ .

وقال الخَطيبُ : وكان من كِبارِ المَشايخِ ، له أحْوالٌ وكَراماتٌ .

وقال الحاكِمُ : سَمِعْتُهُ يقولُ ، وقد سُئِلَ : المَلائِكَةُ أفْضَلُ أم الأنْبياءُ ؟ فقال : القُرْبَ القُرْبَ ، هم أقْرَبُ إلى الحَقِّ وأطْهَرُ[2] .

قال عبدُ الغافِرِ بنِ إسْماعِيلَ : ومِنْ جُمْلَةِ أحْوالِ أبي القاسِمِ ماخُصَّ به مِنَ المِحْنَةِ في الدِّينِ ، وظُهُورِ التَّعصُّبِ ومَيْلِ بَعْضِ الوُلاةِ إلى الأهْواءِ ، وسَعْي بَعْضِ الرُّؤَساءِ إليهِ بالتَّخْليطِ ، حتىٰ أدَّىٰ ذلكَ إلىٰ رَفْعِ المَجالِسِ ، وتَفرُّقِ شَملِ الأصْحابِ ، وكان هو المَقصُودُ من بَيْنِهِم حَسَداً ، حتى اضْطُرَّ إلىٰ مُفارَقَةِ الوَطَنِ ، وامْتدَّ في أثناءِ ذلكَ : إلىٰ بَغْدادَ ، فَوَرَدَ على القَائمِ بأمْرِ اللهِ ، ولَقِيَ قَبُولاً ، وعُقِدَ له المَجْلِسُ في مَجالِسِه المُخْتصَّةِ بهِ ، وخَرَجَ الأمرُ بإعْزازِهِ وإكْرامِهِ فعَادَ إلىٰ نِيسابُورَ[3] .

وعن مَكيِّ بنِ عبد السَّلامِ الرُّمَيْلِيُّ قال : كان سَببُ خُروجِ الخَطِيبِ من دِمَشْقَ إلىٰ صُورٍ ، أنَّه كان يَخْتَلِفُ إليه صَبيٌّ مَليحٌ ، فتكلَّم النَّاسُ في ذلك ، وكان أميرُ البَلَدِ رافِضيّاً مُتعصِّباً ، فبلَغَتْهُ القِصَّةُ ، فجَعلَ ذلك سَبباً إلى الفَتْكِ به ، فأمَرَ صاحبَ شُرطَتِه أن يأخذَ الخَطيبَ باللّيلِ ، فيَقْتُلَه ، وكان صاحبُ الشُّرطَةِ سُنِّيّاً ، فقَصَدَه تلكَ اللّيلَةِ في جَماعَةٍ ، ولَمْ يُمْكِنْهُ أن يُخالِفَ الأميرَ ، فأخَذَه ، وقال : قد أُمِرتُ فِيكَ بكَذا وكَذا ، ولا أجِدُ لكَ حِيلَةً إلاَّ أنِّي أعْبُرُ بك عند دار الشَّريفِ ابنِ أبي الجِنِّ فإذا حَاذَيْتُ الدَّارَ اقْفِزْ وادْخُلْ ، فإنِّي لا أطْلُبُكَ ، وأرْجِعُ إلى الأميرِ فأُخْبِرُه بالقِصَّة ، ففَعَلَ ذلك ، ودَخَلَ دارَ الشَّريفِ ، فأرْسَلَ الأميرُ إلى الشَّريفِ أنْ يَبْعَثَ به فقال : أيُّها الأميرُ!! أنْتَ تَعْرِفُ

---

(1) انظر السير : (البَرْبَهاريّ) ١٥/ ٩٠-٩٣ ، وانظر النزهة : ٤/١١٨٥ .

(2) انظر السير : (أبو عثمان المغربي) ١٦/ ٣٢٠-٣٢١ ، وانظر النزهة : ٢/١٢٩٧ .

(3) انظر السير : (القُشَيريّ) ١٨/ ٢٢٧-٢٣٣ ، وانظر النزهة : ٣/١٤٠٧ .

اعْتِقادِي فيه وفي أمْثالِه ، وليْسَ في قَتْلِهِ مَصْلَحَةٌ ، هـٰذا مَشْهورٌ بالعِراقِ ، إنْ قَتَلْتَه ، قُتِلَ به جَماعَةٌ من الشِّيعَةِ ، وخُرِّبَتِ المَشاهِدُ قال : فما تَرى ؟ قال : أرَىٰ أنْ يَنْزَحَ من بَلَدِكَ فأمَرَ بإخْراجِهِ ، فَراحَ إلىٰ صُورٍ وبَقِيَ بها مُدَّة .

قال ابنُ الطَّاهِرِ : سَأَلْتُ هِبَةَ اللهِ بنَ عبد الوارِثِ الشِّيرازيّ : هلْ كان الخَطِيبُ كتَصانيفِهِ في الحِفْظِ ؟ قال : لا ، كُنَّا إذا سَألْناهُ عن شيءٍ أجابَنا بعد أيَّامٍ ، وإنْ ألْحَحْنا عليه غَضِبَ ، كانت له بادِرَةٌ وَحْشَةٍ ولَمْ يَكُنْ حِفْظُهُ علىٰ قَدْرِ تَصانيفِهِ[1] .

وقد نالَت ابنَ الجَوْزيِّ مِحْنَةٌ في أواخِرِ عُمرِه ، ووَشَوْا به إلى الخليفَةِ النَّاصرِ بأمرٍ اخْتُلِفَ في حَقيقَتِه ، فجاء مَنْ شَتَمَهُ ، وأهانَه ، وأخَذَهُ قَبْضاً باليدِ ، وخَتَمَ علىٰ دَارِه ، وشَتَّتَ عِيالَه ، ثمَّ أُقْعِدَ في سَفينَةٍ إلىٰ مَدينَةِ واسِط ، فحُبِسَ بها في بَيْتٍ حَرِجٍ ، وبَقِيَ هو يَغْسِلُ ثَوْبَه ويَطْبُخُ الشيءَ ، فبَقِيَ علىٰ ذلك خَمسَ سِنينَ ما دَخَلَ فيها حمَّاماً قامَ عليه الرُّكْنُ عبدُ السَّلامِ ابنِ عبدِ الوَهَّابِ ابنِ الشَّيْخِ عبدِ القادِرِ وكان ابنُ الجَوْزيِّ لا يُنْصِفُ الشيخَ عبدَ القادِرِ ، ويَغُضُّ من قَدْرِه ، فأبْغَضَهُ أولادُه ، ووزر صاحِبُهم ابنُ القَصَّاب ، وقد كان الرُّكْنُ رَدِيءَ المُعْتَقَدِ ، مُتَفَلسِفاً ، فأُحْرِقَت كُتُبُه بإشارة ابنِ الجَوْزيِّ ، وأُخِذَتْ مَدرَسَتُهم ، فأُعْطِيَت لابنِ الجَوْزيِّ ، فانسمّ الرُّكْنُ ، وقد كان ابنُ القَصَّاب الوَزيرُ يَتَرَفَّضُ ، فأتاه الرُّكْنُ ، وقال : أينَ أنْتَ عن ابنِ الجَوْزيِّ النَّاصِبيِّ ؟ وهو أيضاً من أولادِ أبي بكرٍ ، فصرَّفَ الرُّكْنَ في الشَّيخِ ، فجاءَ ، وأهانَه ، وأخَذَه معه في مَركَبٍ ، وعلى الشيخِ غُلالَةٌ بلا سَراويلَ ، وقد كان ناظِرُ واسط شِيعِيّاً أيضاً ، فقال له الرُّكْنُ : مَكِّنّي من هـٰذا الفاعِلِ لأرْميهِ في مَطْمورةٍ ، فزَجَرَه ، وقال : يا زِنْديق ، أفعلُ هـٰذا بمجَرَّدِ قولِك ؟! هاتِ خَطَّ أميرِ المُؤمنين ، واللهِ لو كان علىٰ مَذْهَبي ، لَبَذَلْتُ رُوحِي في خِدمَتِه ، فرُدَّ الرُّكْنُ إلىٰ بَغدادَ ، وكان السَّببُ في خَلاصِ الشَّيخِ أنَّ وَلدَه يُوسُف نَشَأ واشْتَغَلَ ، وعَمِلَ في هـٰذه المُدَّةِ الوعظَ وهو صَبيٌّ ، وتَوَصَّلَ حتىٰ شَفَعتْ أُمُّ الخَليفَةِ ، وأطْلَقَت الشَّيخَ ، وأتَىٰ إليه ابنُه يُوسُفُ ، فخَرَجَ ، وما ردَّ من واسِط حتىٰ قَرأ

---

(١) انظر السير : (الخطيب) ١٨/ ٢٧٠ـ٢٩٧ ، وانظر النزهة : ٣/١٤١٣ .

هو وابنُه بتَلْقِينِه بالعَشْرِ على ابنِ الباقِلانيِّ ، وسِنُّ الشَّيخِ نَحْوَ الثَّمَانِين ، فانْظُرْ إلىٰ هٰذه الهِمَّةِ العالِيَةِ .

قال المُوَفَّقُ عبدُ اللَّطيفِ : وكان يُراعِي حِفْظَ صِحَّتِه ، وتَلْطِيفَ مِزاجِه ، وما يُفيدُ عَقْلَه قُوَّةً ، وذِهْنَه حِدَّةً جُلُّ غِذائِه الفَراريجُ ، ويَعْتاضُ عن الفاكِهَةِ بالأشْرِبَةِ والمَعْجوناتِ ، ولِباسُهُ أفْضَلُ لِباسٍ : الأبْيَضُ النَّاعِمُ المُطَيَّبُ ، وله ذِهنٌ وَقَّادٌ ، وجَوابٌ حاضِرٌ ، ومُجُونٌ ومُداعَبةٌ حُلْوَةٌ ، ولا يَنْفَكُّ من جارِيَةٍ حَسْناءَ[١] .

وقال الحافظ الذهبيُّ في تَرْجَمة الإمام عبد الغني المَقْدسيّ :

ما ابْتُلي الحافظُ عبدُ الغَنيّ به :

قال الضِّياءُ : سَمعتُ أبا مُحمَّد عبدَ الرَّحمَـٰن بنَ مُحمَّد بنَ عبدِ الجَبَّار ، سَمعتُ الحافظَ عبد الغَني المَقدِسيّ يقولُ : سَألتُ اللهَ أنْ يَرْزُقَني مِثلَ حالِ الإمامِ أحْمَد فقد رَزَقَنِي صَلاتَه ، قال : ثمَّ ابْتُلِيَ بعدَ ذلكَ وأُوذِي .

سَمعتُ الإمامَ عبدَ اللهِ بنَ أبي الحَسَنَ الجُبَّائيَّ بأصْبَهانَ يقُولُ : أبو نُعَيم قد أخَذَ على ابنِ مَنْدَة أشْياءَ في كتابِ « الصَّحابَة » فكان الحافظُ أبو مُوسَىٰ يَشْتَهي أنْ يأخُذَ علىٰ أبي نُعَيمٍ في كتابِه الذي في الصَّحابَة فما كان يَجْسُر ، فلمَّا قَدِمَ الحافظُ عبدُ الغَنيّ أشَارَ إليه بذلك ، قال : فأخَذَ علىٰ أبي نُعَيمٍ نَحْواً من مِئَتَيْنِ وتِسْعينَ مَوْضِعاً ، فلمَّا سَمِعَ بذلكَ الصَّدرُ الخُجَنْديُّ طَلَبَ عبدَ الغَنيّ وأرادَ هَلاكَه ، فاخْتَفَىٰ .

وسَمعتُ مَحمُودَ بنَ سَلامَة يقولُ : ما أخْرجْنا الحافظَ من أصْبَهانَ إلاَّ في إزارٍ وذلكَ أنَّ بيْتَ الخُجَنْديِّ أشاعِرَةٌ ، كانوا يَتَعَصَّبونَ لأبي نُعَيم ، وكانوا رُؤسَاءَ البَلَد .

وسَمعتُ الحافظَ يقولُ : كُنَّا بالمَوْصِلِ نَسْمَعُ « الضُعَفَاء » للعُقَيْليِّ ، فأخَذَنِي أهلُ المَوْصِلِ وحَبَسُونِي ، وأرادُوا قَتْلِي من أجْلِ ذِكْرِ شيءٍ فيه[٢] ، فجاءَنِي رجلٌ طويلٌ ومعه سَيْفٌ ، فقُلتُ : يَقْتُلُني وأسْتَرِيحُ ، قال : فلَمْ يَصْنَعْ شيئاً ، ثمَّ أطْلَقُونِي ، وكان

---

(١) انظر السير : (أبو الفَرج بن الجَوزيّ) ٢١/ ٣٦٥ـ ٣٨٤ ، وانظر النزهة : ١/١٦٣٥ .

(٢) يعني من أجل ذكر الإمام أبي حنيفة .

يَسْمَعُ معه ابنُ البَرْنيِّ الواعِظُ فقَلَعَ الكُرَّاسَ الذي فيه ذلكَ الشيءَ فأرْسلوا ، وفَتَّشُوا الكتابَ ، فلَمْ يَجِدُوا شَيئاً ، فهٰذا سَبَبُ خَلاصِه .

وقال : كان الحافظُ يَقرأُ الحَديثَ بدِمَشْقَ ، ويَجتَمِعُ عليه الخَلْقُ ، فوَقَعَ الحَسَدُ ، فشَرعوا وعَمِلُوا لهم وَقْتاً لِقراءَةِ الحَديثِ ، وجَمَعوا النَّاسَ ، فكان هٰذا يَنامُ وهٰذا بِلا قَلْبٍ[١] ، فمَا اشْتَفُوا ، فأمَرُوا النَّاصِحَ ابنَ الحَنْبَليِّ بأنْ يَعِظَ تحتَ النسرِ يومَ الجُمُعَةِ وقتَ جُلوسِ الحافظِ ، فأوَّلُ ذلكَ أنَّ النَّاصِحَ والحافظَ أرادَا أنْ يَخْتلِفا في الوَقْتِ ، فاتَّفَقَا أنَّ النَّاصِحَ يَجْلسَ بعدَ الصَّلاةِ ، وأنْ يَجْلسَ الحافظُ العَصْرَ ، فدَسُّوا إلى النَّاصِحِ رَجُلاً ناقِصَ العَقلِ من بَنِي عَساكِر فقال للنَّاصِحِ في المَجْلسِ ما مَعْناه : إنَّكَ تقولُ الكذِبَ على المِنْبَرِ ، فضُرِبَ وهَرَبَ ، فتَمَّتْ مَكِيدَتُهم ، ومَشَوْا إلى الوالِي وقالوا : هَؤلاءِ الحَنابِلَةُ قَصْدُهُم الفِتْنَة ، واعْتِقادُهُم يُخالِفُ اعْتِقادَنا ، ونَحْوَ هٰذا ، فبَعَثَ الأَسْرَىٰ[٢] فرَفَعوا ما في جامعَ دِمَشْق من مِنْبرٍ وخَزانَةٍ ، ودَرابزينَ ، وقالُوا : نُريدُ أنْ لا تُجْعلَ في الجَامعِ إلاَّ صَلاةُ الشَّافِعيَّة وكَسَروا مِنْبَرَ الحافظِ ، ثمَّ إنَّ الحافظَ ضاقَ صَدْرُه ومَضَىٰ إلىٰ بَعْلَبَك ، فأقامَ بها مُدَّة ، فقال له أهلُها ، إنْ اشْتَهَيْتَ جِئْنا معَكَ إلىٰ دِمَشْقَ نُؤذِي مَنْ آذاكَ ، فقال : لا ، وتَوجَّه إلىٰ مِصْرَ فبَقِيَ بِنابُلِسَ مُدَّة يَقْرأُ الحَديثَ ، وكُنتُ أنا بِمصْرَ ، فجاءَ شابٌّ من دِمَشْقَ بِفَتاوٍ إلىٰ صاحِبِ مِصْرَ الملكِ العَزيزِ ومعه كُتُبٌ أنَّ الحَنابِلَةَ يَقولُونَ كَذا وكَذا مِمَّا يُشَنِّعون به عليهم ، فقالَ ـ وكان يَتَصَيَّدُ ـ : إذا رَجَعْنا أخْرَجْنا من بِلادِنا مَنْ يَقولُ بهٰذه المَقالَة ، فاتَّفَقَ أنَّه عَدا به الفَرَسُ ، فشَبَّ به فسَقَطَ فخُسِفَ صَدْرُه ، وبَقِيَ الحافظُ بمِصْرَ ، وهم يَنالُونَ منه ، حتىٰ عَزَمَ المَلِكُ الكاملُ علىٰ إخْراجه[٣] .

---

(١) يعني أنهم كانوا يجمعون الناس من غير اختيارهم ، فكان بعضهم ينام ، وكان البعض يحضر وقلبه غير حاضر .

(٢) هٰكذا في السِّيَر وفي الذَّيْلِ لابنِ رَجَبَ ، والظَّاهرَ أنه اسم لجمَاعة من أعوَان الوَالي من الشُّرطة أو الجَيش .

(٣) انظر السير : (الحافظ عبد الغنيّ) ٢١/ ٤٤٣ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ١٦٤٧/ ٤ .

٦ـ لماذا يُحْمدُ اللهُ عند المُصيبةِ ؟

قال شُرَيحٌ : إنِّي لأُصابُ المُصيبَةَ ، فأَحْمَدُ اللهَ عليها أَرْبَعَ مَرَّاتٍ ، أَحْمَدُ إذْ لَمْ يَكُنْ أَعْظَمَ منها ، وأَحْمَدُ إذْ رَزَقَني الصَّبرَ عليها ، وأَحْمَدُ إذْ وَفَّقَني للاسْتِرْجاع لِمَا أَرْجُو من الثَّوابِ ، وأَحْمَدُ إذْ لَمْ يَجْعَلْها في دِينِي[١] .

٧ـ رُؤْيا يَظْهرُ فيها فائِدَةُ الابْتِلاء والصَّبرِ عليه :

وقال عبدُ الله بنُ أحمدَ بن حَنْبَل : حَدَّثني ثابتُ بنُ أحمدَ ابن شبويه قال : كان يُخَيَّلُ إليَّ أنَّ لأبي فَضِيلَةً علىٰ أَحْمَدَ بنِ حَنْبَل لِجِهادِه ، وفِكاكِ الأَسْرىٰ فسَأَلْتُ أخي عبد اللهِ ، فقال : أَحْمَدُ ابنُ حَنْبَل أَرْجَحُ ، فلَمْ أَقْنَع ، فأُرِيتُ شَيْخاً حَوْلَه النَّاسُ ، يَسْأَلُونَه ، ويَسْمَعُون منه ، فسَأَلتُه عنهما ، فقال : سُبْحانَ الله!! ، إنَّ أَحْمَدَ ابنَ حَنْبَل ابْتُلِيَ فصَبَرَ ، وإنَّ ابنَ شبويه عُوفِي ، المُبْتَلَى الصَّابِرُ كالمُعافَى ؟!! هَيْهات[٢] .

* * *

---

(١) انظر السير : (شُريح القاضي) ٤/ ١٠٠ـ١٠١ ، وانظر النزهة : ٣/٤٥٧ .

(٢) انظر السير : (ابن شَبُّويه) ١١/ ٧ـ٩ ، وانظر النزهة : ٣/٩٠٥ .

ثانياً : الفِتَنُ

١ـ الفاروق رضي الله عنه كان دِرْعاً للفِتن عن المسلمين :

قال حُذَيْفَةُ : كنَّا جُلُوساً عند عُمَرَ فقال : أيُّكم يَحْفظُ قولَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم في الفِتْنَة ؟ قُلتُ : أنا قال : إنَّكَ لجَريء ، قُلتُ : فِتنَةُ الرجُلِ في أهْلِه ومَالِه ووَلدِه تُكفِّرُها الصَّلاةُ والصِّيامُ والصَّدَقةُ والأمرُ بالمَعْروفِ والنَّهْي عن المُنكَر ، قال : ليسَ عنها أسْألُك ، ولكن الفِتنةُ التي تَموجُ مَوجَ البَحرِ ، قُلتُ : ليسَ عَليكَ منها بَأسٌ إنَّ بَينكَ وبينها باباً مُغْلَقاً ، قال : أيُكْسَرُ أمْ يُفْتَحُ ؟ قُلتُ : بلْ يُكْسَرُ ، قال : إذاً لا يُغْلَقُ أبداً ، قُلنا لحُذَيْفَة : أكان عُمَرُ يَعلَم مَنِ الباب ؟ قال : نَعم ، كما يَعلمُ أنَّ دُون غَدِ اللَّيلة ، إنِّي حَدَّثْته حَديثاً ليسَ بالأغاليط ، فسألَه مَسْروقٌ : مَنْ البابُ ؟ قال : البابُ عُمَر[1] .

٢ـ الفتن في عهد عثمان رضي الله عنه :

قال إسماعيلُ بنُ أبي خالد : لمَّا نَزلَ أهلُ مِصْرَ الجُحْفَة ، وأتَوْا يُعاتِبون عُثمانَ ، صَعدَ عُثمانُ المِنْبَر فقال : جَزاكُم الله يا أصْحابَ محمد عَنِّي شَراً ، أذَعْتُم السَّيئةَ وكَتْمُتم الحَسَنةَ ، وأغْرَيْتم بي سُفهاء النَّاسِ ، أيُّكم يَذهبُ إلىٰ هـٰؤلاء القوم فيَسألُهم ما نَقَموا وما يُريدُون ؟ قال ذلك ثلاثاً ولا يُجيبُه أحد .

فقامَ عليٌّ فقال : أنا ، فقال عُثمانُ : أنتَ أقْرَبُهم رَحِماً ، فأتاهم فرَحَّبُوا به ، فقال : ما الذي نَقِمتُم عليه ؟ قالوا : نَقَمْنا عليه أنَّه مَحَا كتابَ الله ـ يَعني كَوْنُه جمعَ الأمَّةَ علىٰ مُصْحف ـ وحَمَى الحِمَىٰ ، واسْتعمَلَ أقْرباءَه ، وأعْطَىٰ مَرْوانَ مائةَ ألف ، وتَناولَ أصْحابَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم[2] .

---

(١) انظر السير : (عُمر بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ٥٠/ ٥ .

(٢) انظر السير : (عُثْمان بن عفَّان) ، وانظر النزهة : ٨٣/ ١ .

قال : فرَدَّ عليهم عُثمانُ : أمَّا القُرآنُ فمن عند الله ، إنَّما نَهَيْتُكم عن الاخْتِلاف فاقْرَؤوا علىٰ أيِّ حَرفٍ شِئتُم ، وأمَّا الحِمَىٰ فوالله ما حَمَيتُه لإبلِي ولا لغَنَمِي ، وإنَّما حَمَيتُه لإبلِ الصَّدَقَة ، وأمَّا قولُكم : إنِّي أعطَيتُ مَرْوانَ مائةَ ألف فهٰذا بَيتُ مالِهم فليَسْتَعمِلُوا عليه مَنْ أحَبُّوا ، وأمَّا قَولُكم : تَناولَ أصحابَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم فإنَّما أنا بَشرٌ أغْضَبُ وأرْضَىٰ ، فمَنْ ادَّعَىٰ قِبَلي حقاً أو مَظْلَمَةً فها أنا ذَا ، فإن شاءَ قوَداً وإنْ شاءَ عَفْواً فرَضِيَ النَّاسُ واصْطَلَحوا ودَخلُوا المدينة .

وقال محمدُ بنُ سَعد : قالوا : رَحلَ من الكُوفَةِ إلى المَدينة الأشْتَرُ النَّخْعيّ ـ واسْمُه مَالِكُ بنُ الحارث ـ ويَزيدُ بنُ مُكفَّف ، وثابتُ بنُ قَيْس ، وكَميلُ بنُ زياد ، وزَيدٌ وصَعْصَعة ابنا صوحان ، والحارثُ الأعْوَر ، وجُنْدُب بنُ زُهَير ، وأصْفَرُ بنُ قَيْس يَسألونَ عُثمانَ عَزْلَ سَعيد ابن العَاص عنهم فرَحَلَ سَعيدٌ أيْضاً إلىٰ عُثمانَ فوافَقَهم عندَه ، فأبىٰ عُثمانُ أنْ يَعزلَه ، فخَرجَ الأشْتَرُ من لَيلَته في نَفرٍ ، فسارَ عَشراً إلى الكُوفَة واسْتولَىٰ عليها وصَعدَ المِنبَر فقال : هٰذا سَعيدُ بنُ العَاص قد أتَاكُم يَزْعُمُ أنَّ السَّوادَ بُسْتانٌ لأُغَيْلِمَةٍ من قُرَيش ، والسَّوادُ مَساقِطُ رُؤوسِكم ومَراكِزُ رِماحُكم ، فمَنْ كان يَرىٰ لله عليه حَقاً فلْيَنْهَض إلى الجَرَعَة[1] ، فخرجَ النَّاسُ فعَسْكَروا بالجَرَعَة ، فأقبلَ سَعيدٌ حتىٰ نَزلَ العُذَيْب[2] فجَهَّزَ الأشْتَرُ إليه ألفَ فارسٍ مع يَزيدَ بنِ قَيْس الأرْحبيّ ، وعبد الله بن كِنَانَة العَبْديّ ، فقال : سِيرُوا وأزْعِجاه وألْحِقاهُ بصاحبه ، فإنْ أبَىٰ فاضْرِبا عُنقَه ، فأتَياه ، فلمَّا رأىٰ منهما الجدَّ رَجَع[3] .

وصَعدَ الأشْتَرُ مِنبَرَ الكُوفَة وقال : يا أهلَ الكُوفَة ما غَضِبتُ إلاَّ لله ولَكُم ، وقد وَليتُ أبا موسى الأشْعَري صَلاتَكم ، وحُذَيْفَة بنَ اليَمان فَيْئَكم ، ثم نَزلَ وقال : يا أبا موسى اصْعَد ، فقال : ما كُنتُ لأفْعلُ ، ولكن هَلمُّوا فبَايِعُوا لأميرِ المؤمنين وجَدِّدُوا

---

(١) الجَرَعَة : بالتحريك ، موضع قرب الكوفة ، المكان الذي فيه سهولة ورمل .

(٢) العُذَيب : ماءٌ بين القادسيّة والمغيثة .

(٣) انظر السير : (عُثمان بن عفَّان) ، وانظر النزهة : ٢/٨٣ .

البَيْعَةَ في رِقابِكُم ، فأجابَه النَّاسُ وكَتَبَ إلىٰ عُثمان بما صَنع ، فأعجبَ عُثمان ، فقال عُتبَةُ ابنُ الوَغْل شاعِرُ الكُوفَة :

تَصدَّق عَلينا يا بنَ عَفانٍ واحْتَسِبْ وأَمِّــرْ عَلينـــا الأشْعَــريَّ ليـــاليَـــا

فقال عُثمانُ : نَعم وشُهوراً وسِنينَ إنْ عِشتُ ، وكان الذي صَنعَ أهلُ الكُوفَة بسَعيدٍ أوّلُ وَهَن دخلَ علىٰ عُثمان حين اجتُرِىء عليه .

وعن الزهريّ قال : وَلِيَ عُثمانُ ، فعَمِلَ ستَّ سنين لا يَنْقِمُ عليه النَّاسُ شيئاً ، وإنَّه لأحَبُّ إليهم من عُمَر ، لأنَّ عُمَر كان شَديداً عليهم ، فلمَّا وَلِيَهم عُثمانُ لانَ لهم ووَصَلهم ، ثمَّ إنَّه تَوانَىٰ في أمرِهم واسْتعمَلَ أقْرِباءَه وأهلَ بَيته في السِّتِ الأواخِر ، وكَتبَ لمَرْوانَ بخُمْسِ مِصْرَ أو بخُمسِ إفْريقيَة ، وآثرَ أقْرِباءَه بالمال ، وتأوَّلَ في ذلك الصِّلَة التي أمَرَ اللهُ بها واتَّخذَ الأمْوالَ ، واسْتَسْلَفَ من بَيتِ المَال ، وقال : إنَّ أبا بَكر وعُمَر تَركا من ذلك ما هو لهُما ، وإنِّي أخَذْتُه فقَسَّمتُه في أقْربائي ، فأنْكَرَ النَّاسُ عليه ذلكَ .

قال الذهبيُّ : وممَّا نَقَموا عليه أنَّه عَزلَ عُمَيرَ بنَ سَعد عن حِمْصَ ، وكان صَالحاً زَاهداً ، وجَمَعَ الشَّامَ لمُعاويَة ، ونَزعَ عَمرَو بنَ العاص عن مِصْرَ ، وأمَّرَ ابنَ أبي سَرْح عليها ، ونَزعَ أبا موسى الأشْعَري عن البَصْرَة ، وأمَّرَ عليها عبدَ الله بنَ عامر ، ونَزَعَ المُغيرَة بنَ شُعْبَة عن الكُوفَة وأمَّرَ عليها سَعيدَ بنَ العَاص .

وممَّن قامَ علىٰ عُثمانَ محمدُ بنُ أبي بَكر الصدِّيق ، فسُئلَ سالمُ ابنُ عبد الله ـ فيما قيل ـ عن سَبب خُروج محمد ، قال : الغَضَبُ والطَمَعُ وكان من الإسْلامِ بمكان ، وغَرَّهُ أقْوامٌ فطَمِعَ ، وكانت له دالةٌ[1] ، ولَزِمَه حَقٌّ ، فأخَذَه عُثمانُ من ظَهْره .

وحَجَّ مُعاويَة ، فقيل : إنَّه لمَّا رَأىٰ لِينَ عُثمان واضْطِرابَ أمْرِه قال : انْطَلِق مَعي إلى الشَّامِ قَبلَ أنْ يَهْجمَ عليكَ مَنْ لا قِبَلَ لكَ به ، فإنَّ أهلَ الشَّام على الطَّاعَة ، فقال رضي الله عنه : أنا لا أبيعُ جِوارَ رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيء وإنْ كان فيه قَطعُ

(١) قال صاحب النزهة : الوثوق بمحبة الناس والجرأة عليهم « القاموس المحيط » : د ل ل .

خَيْط عُنُقي ، قال : فأَبعَثُ إليك جُنداً ، قال : أنا أُقَتِّرُ علىٰ جيران رسول الله صلى الله عليه وسلم الأرْزاقَ بجُند تُساكِنُهم ! ! ، قال : يا أميرَ المؤمنين والله لتُغْتالَنَّ ولَتُغزَيَنَّ ، قال رضي الله عنه : حَسْبيَ اللهُ ونِعْمَ الوَكيل .

وقد كان أهلُ مِصْرَ بايَعوا أشْياعَهم من أهل الكُوفَة والبَصْرَة وجَميعَ مَنْ أجابَهم ، واتَّعَدوا يوماً حيث شَخصَ أمراؤُهم فلم يَسْتقمْ لهم ذلك ، لكنَّ أهلَ الكُوفَة ثارَ فيهم يَزيدُ بنُ قَيْس الأرْحبيّ واجْتمَعَ عليه نَاسٌ ، وعلى الحَرب يومَئذ القَعْقاعُ بنُ عَمرو ، فأتاه وأحَاطَ النَّاسُ بهم فناشَدوهم ، وقال يَزيدٌ للقَعْقاع : ما سَبيلُك عليَّ وعلىٰ هـٰؤلاء ، فوالله إنِّي لسامعٌ مُطيعٌ ، وإنِّي لازِمٌ لجَماعَتي إلاَّ أنِّي أسْتَعْفي من إمَارة سَعيد ، ولم يُظْهِروا سِوىٰ ذلك ، واسْتَقبَلوا سَعيداً فرَدُّوه من الجَرَعَة ، واجْتمَعَ النَّاسُ علىٰ أبي موسىٰ فأقرَّه عُثمانُ .

ولمَّا رَجعَ الأمَراءُ لم يَكنْ للسَّبائي[1] سَبيلٌ إلى الخُروج من الأمْصَار ، فكاتَبُوا أشْياعَهم أنْ يتَوافُوا بالمَدينة ليَنْظُروا فيما يُريدُون ، وأظْهَروا أنَّهم يأمُرون بالمَعْروف ، وأنَّهم يَسْألون عُثمانَ عن أشياءَ لتَطيرَ في النَّاسِ ولتُحقَّق عليه ، فتَوافَقُوا بالمَدينة ، فأرسلَ عُثمانُ رجُلين من بَني مَخْزُوم ومن بَني زُهْرَة ، فقال : انْظُرا ما يُريدُون ، وكانا ممَّن ناله من عُثمانَ أدبٌ ، فاصْطَبَرا للحقِّ ولم يَضْطَغِنا ، فلمَّا رَأوْهما أتَوْهما وأخْبَروهما ، فقالا : مَنْ مَعَكم علىٰ هـٰذا من أهلِ المَدينة ؟ قالوا : ثلاثةٌ ، قالا : فكيف تَصْنَعون ؟ قالوا : نُريدُ أنْ نَذكُرَ له أشياءَ قد زَرَعناها في قُلوبِ النَّاسِ ، ثم نَرجِعُ إليهم ونَزْعُم لهم أنَّا قَرَّرْناه بها ، فلم يَخرجْ منها ولم يَتُبْ ، ثم نَخرجُ كأنَّنا حُجَّاجٌ حتىٰ نَقدمَ فنُحيطَ به فنَخْلعَه ، فإنْ أبَىٰ قَتلناه .

فرَجَعا إلىٰ عُثمانَ بالخَبرِ ، فضَحكَ وقال : اللَّهُمَّ سلِّم هـٰؤلاء فإنَّك إنْ لمْ تُسْلمهُم شَقُوا فأمَّا عمَّار فحَملَ علىٰ عبَّاسِ بنِ أبي لَهَب وعَرَكَه[2] ، وأمَّا محمدُ بنُ أبي بَكر فإنَّه أُعْجِب حتىٰ رأىٰ أنَّ الحُقوقَ لا تَلزَمُه ، وأمَّا ابنُ سارة فإنَّه يَتعرَّضُ للبَلاء .

---

(١) قال صاحب النزهة : هم أصحاب عبد الله بن سبأ اليهودي .

(٢) في تاريخ دمشق « عركه بي » ، يريد أنه حمله ذنبه وتركه .

وأرسَلَ إلى المِصْريِّن والكُوفيِّين ، ونادَىٰ : الصَّلاةُ جامعَة ـ وهم عندَه في أصْل المِنْبر ـ فأقبَلَ أصحابُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم فحَمدَ الله وأثْنَىٰ عليه ، وأخْبرَهم بالأمْر ، وقامَ الرجُلان ، فقال النَّاسُ : اقْتُل هـٰؤلاء فإنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال : « مَنْ دَعَا إلىٰ نَفْسِهِ أَوْ إلىٰ أحَدٍ ، وعلى النَّاسِ إمَامٌ فعَليهِ لَعْنَةُ اللهِ ، فاقْتُلُوه » .

وقال عُثمانُ : بَلْ نَعفُو ونَقْبَل ، ونُبَصِّرُهم بجَهْدنا ، إنَّ هـٰؤلاء قالوا : أتَمَّ الصَّلاةَ في السَّفرِ ، وكانت لا تَتمُّ ، ألا وإنِّي قَدمتُ بلداً فيه أهلي فأتْمَمتُ لهـٰذا .

وقالوا : وحَمَيتَ الحِمَىٰ ، وإنِّي والله ما حَمَيتُ إلاَّ ما حُميَ قَبلي ، وإنِّي قد وُليتُ وإنِّي لأكثرُ العَرب بَعيراً وشاءً ، فما لي اليومَ غير بَعيرَين لحَجَّتي ، أكَذلكَ ؟ قالوا : نَعم[1] .

قال : وقالوا كان القُرآنُ كُتُباً فترَكَها إلاَّ واحداً ، ألا وإنَّ القُرآنَ واحدٌ جاءَ من عندِ واحدٍ ، وإنَّما أنا في ذلكَ تابعُ هـٰؤلاء ، أكَذلكَ ؟ قالوا : نَعم .

وقالوا : إنِّي رَددتُ الحَكَمَ[2] وقد سَيَّره رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إلى الطَّائف ثم رَدَّه ، فرسولُ الله صلى الله عليه وسلم سَيَّرَه وهو رَدَّه ، أفكَذلكَ ؟ قالوا : نَعم .

وقالوا : اسْتَعمَلتَ الأحْداث ، ولَمْ أسْتعملْ إلاَّ مُجْتَمَعاً مَرضيّاً[3] ، وهـٰؤلاء أهلُ عَملي فسَلُوهم ، وقد وَلَّىٰ مَنْ قبلي أحْدَث منه ، وقِيل في ذلك لرسولِ الله صلى الله عليه وسلم أشَدُّ ممَّا قيل لي في استعماله أسامة ، أكَذلكَ ؟ قالوا : نَعم .

وقالوا : إنِّي أعطَيتُ ابنَ أبي سَرْح ما أفاءَ الله عليه ، وإنِّي إنَّما نَفَلْتُه خُمسَ الخُمسِ ، فكان مائةَ ألف ، وقد نَفَلَ مثلَ ذلك أبو بَكر وعُمَر ، وزَعمَ الجُندُ أنَّهم يَكرهون ذلك فرَدَدتُه عليهم ، وليس ذلك لهم ، أكَذلكَ ؟ قالوا : نَعم .

وقالوا : إنِّي أُحبُّ أهلي وأُعطيهم ، فأمَّا حبُّهم فلَم يُوجِب جَوْراً ، وأمَّا إعْطاؤهم

---

(١) انظر السير : (عُثمان بن عفَّان) ، وانظر النزهة : ١/٤٨ ـ ٨٦ .

(٢) هو الحَكَم بن أبي العاص بن أميّة بن عبد شمس .

(٣) المُجْتَمَع : الذي بلغ أشُدَّه ، يُقال : اجتمع الرجل ، استوت لحيته وبلغ غاية الشباب .

فإنَّما أُعطيهم من مالي ، ولا أسْتَحلُّ أموالَ المسلمين لنفسي ولا لأحَدٍ ، وكان قد قَسمَ مالَه وأرضَه في بَني أُميَّة ، وجعلَ وَلدَه كبعض مَنْ يُعطي .

قال : ورَجعَ أولـٰئك إلىٰ بلادهم وعَفا عنهم ، قال : فتكاتَبُوا وتَواعَدوا إلىٰ شوَّالَ ، فلمَّا كان شوَّالُ خَرجُوا كالحُجَّاجِ حتىٰ نَزلُوا بقُرب المَدينة ، فخَرجَ أهلُ مِصْرَ في أربعمائة ، وأُمَرَاؤهم عبدُ الرَّحمـٰن بنُ عُدَيْس البَلويّ ، وكِنانَةُ بنُ بِشْر اللَّيْثيّ ، وسُودانُ بنُ حُمران السَّكُونيّ ، وقُتَيْرَة السَّكُونيّ ، ومقدمهُم الغافِقيُّ بنُ حَرب العَكِّيّ ، ومعهم ابنُ السَّوْداء[1] .

وخَرجَ أهلُ الكُوفَة في نَحو عَدَد أهلِ مِصْرَ ، فيهم زَيْدُ بنُ صُوحان العَبْديّ ، والأشْتَر النَّخْعيّ ، وزِيادُ بنُ النَّضْر الحارثيّ ، وعبدُ الله بنُ الأصمّ ، ومقدمهُم عَمرُو بنُ الأصَمّ .

وخَرجَ أهلُ البَصْرَة وفيهم حُكَيمُ بنُ جَبَلَة ، وذَريحُ بنُ عبَّاد العبديّان ، وبِشْرُ بنُ شُرَيح القيسيّ ، وابنُ مُحَرِّش الحَنَفيّ ، وعليهم حُرْقُوصُ ابنُ زُهَير السَّعديّ .

فأمَّا أهلُ مِصْرَ فكانوا يَشتَهُون عَليّاً ، وأمَّا أهلُ البَصْرَة فكانوا يَشْتَهون الزُّبَيْرَ ، وأمَّا أهلُ الكُوفَة فكانوا يَشْتَهون طَلْحَة ، وخَرجُوا ولا تَشكُّ كلُّ فرقَة أنَّ أمْرَها سَيتمُّ دون الأخرىٰ ، حتىٰ كانوا من المدينة علىٰ ثلاث ، فتَقدَّم ناسٌ من أهل البَصْرَة فنزَلوا ذا خُشْب ، وتقدَّم ناسٌ من أهل الكُوفَة فنزَلوا الأعْوَصَ ، وجاءَهم أناسٌ من أهلِ مِصْرَ ، ونَزلَ عامَّتُهم بذي المَرْوة ، ومَشىٰ فيما بينَ أهل البَصْرَة وأهلِ مِصْرَ زيادُ بنُ النَّضْر ، وعبدُ الله بنُ الأصَم ليَكشفُوا خَبرَ المدينة ، فدَخلا فلَقِيا أزْواجَ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، وطَلْحَةَ ، والزُّبَيْرَ ، وعَليّاً ، فقالا : إنَّما نؤمُّ هـٰذا البيتَ ، ونَسْتعفي من بَعض عُمَّالِنا ، واستأذَنُوهم للنَّاسِ بالدُّخُول ، فكُلُّهم أبَىٰ ونَهَىٰ فرَجَعا ، فاجْتَمعَ من أهلِ مِصْرَ نفَرٌ فأتَوا عَليّاً ، ومن أهلِ البَصْرة نفَرٌ فأتَوا الزبَيرَ ، ومن أهلِ الكُوفَة نفَرٌ فأتَوا طَلحَةَ ، وقال كلُّ فَريقٍ منهم : إنْ بايَعنا صاحِبَنا وإلاَّ كِدْناهم وفرَّقنا جَماعتَهم ، ثم كَرَرْنا حتىٰ نَبغَتهم .

---

(١) قال صاحب النزهة : أي عبد الله بن سبأ اليهودي .

فأتَى المصْريُّون عَليّاً وهو في عَسْكرٍ عند أحْجارِ الزَّيت ، وقد سَرَّح ابنَه الحَسنَ إلىٰ عُثمانَ فيمَن اجْتمَع إليه ، فسلَّم علىٰ عَليٍّ المصريُّون ، وعَرَضوا له ، فصاحَ بهم وطَرَدَهم ، وقال : لقد عَلمَ الصَّالِحُون أنَّكم مَلعُونون ، فارْجِعوا لا صَحِبَكم الله ، فانْصَرَفوا ، وفَعلَ طَلحَةُ والزُّبَيرُ نَحوَ ذلك .

فذهبَ القَومُ وأظْهَروا أنَّهم راجعُون إلىٰ بلادِهم ، فذَهبَ أهلُ المدينة إلىٰ مَنازِلهم ، فلمَّا ذَهبَ القَومُ إلىٰ عَساكرِهم كَرُّوا بهم ، وبَغَتوا أهلَ المدينة ودَخلُوها ، وضَجُّوا بالتَّكْبير ، ونَزلُوا في مَواضع عَساكرهم ، وأحاطُوا بعُثمانَ وقالوا : مَنْ كَفَّ يَدَه فهو آمِنٌ .

ولَزِمَ النَّاسُ بيُوتَهم ، فأتَىٰ عليٌّ رضي الله عنه فقال : ما رَدَّكم بعد ذهابكم ؟ فقالوا : وجَدْنا مع بَريدٍ كتاباً بقَتْلِنا ، وقال الكُوفيُّون والبَصْريُّون : نحنُ نمَنعُ إخْوانَنا ونَنصرُهم ، فعَلمَ النَّاسُ أنَّ ذلكَ مكرٌ منهم .

وكَتبَ عُثمانُ إلىٰ أهل الأمْصَار يَستمدُّهم ، فساروا إليه على الصَّعبِ والذَّلُول ، فبَعثَ مُعاويَةُ إليه حَبيبَ بنَ مَسْلمَة ، وبَعثَ ابنُ أبي سَرْح مُعاويَةَ بنَ حُدَيْج ، وسارَ من الكُوفَة القَعْقاعُ بنُ عَمرُو[1] .

فلمَّا كان يومُ الجُمعة صلَّىٰ عثمانُ بالنَّاسِ وخطَبَ فقال : يا هـٰؤلاء الغُزَّاء اللهَ اللهَ ، فوالله إنَّ أهلَ المدينة ليَعلَمون أنَّكم مَلعونون علىٰ لسان محمد صلى الله عليه وسلم ، فامْحُوا الخَطأَ بالصَّواب ، فإنَّ الله لا يَمحُو السَّيِىءَ إلاَّ بالحَسَن ، فقام محمدُ بنُ مَسلَمَة ، فقال : أنا أشهَدُ بذلك ، فأقْعَده حُكَيمُ بنُ جَبَلَة ، فقام زَيْدُ بنُ ثابت ، فقال : ابغِني الكتابَ ، فثارَ إليه من ناحية أخرىٰ محمدُ بنُ أبي قُتَيْرَة فأقعدَه وتكلَّم فأفْظَعَ ، وثارَ القومُ بأجْمَعهم ، فحَصبوا النَّاسَ حتىٰ أخرجُوهم ، وحَصبوا عثمانَ حتىٰ صُرِعَ عن المِنبَر مَغْشِيّاً عليه ، فاحْتُمِلَ وأُدْخِلَ الدار .

وكان المصريُّون لا يَطمَعون في أحد من أهل المدينة أنْ يَنصُرَهم إلاَّ ثلاثة ، فإنَّهم

---

(١) انظر السير : (عُثْمان بن عفَّان) ، وانظر النزهة : ١/ ٨٧ ـ ٨٨ .

كانوا يُراسِلُونهم ، وهم : محمدُ بنُ أبي بكر الصديق ، ومحمدُ بن جعفر ، وعمَّار بن ياسر .

قال : واستقْتَلَ أناسٌ : منهم زَيْدُ بنُ ثابت ، وأبو هُريرَة ، وسعدُ ابنُ مالك ، والحسنُ بنُ عليّ ، ونهَضُوا لنُصْرَة عُثمانَ ، فبَعثَ إليهم يَعزِمُ عليهم لما انْصَرفوا ، فانْصَرفوا ، وأقبلَ عليٌّ حتىٰ دَخلَ علىٰ عُثمانَ هو وطَلحَةُ والزُّبَيرُ يَعودُونَه من صَرعَته ، ثم رجَعوا إلىٰ مَنازلهم .

وقال الواقديُّ : حَدَّثني ابنُ جُريج وغيرُه ، عن عَمرٍو ، عن جابر أنَّ المصريِّن لمَّا أقْبَلوا يُريدُون عُثمانَ ، دَعا عُثمانُ محمدَ بنَ مَسْلمَة ، فقال : اخرُج إليهم فارْدُدْهم وأعْطِهم الرِّضا ، وكان رُؤساؤُهم أربَعة : عبدَ الرحمـٰنَ بنَ عُدَيْس ، وسُودانَ بنَ حُمران ، وعَمرُو بنَ الحَمِق الخُزاعيّ ، وابنَ النِّبَاع ، فأتاهم ابنُ مَسْلمَة ، فلَم يزَلْ بهم حتىٰ رجَعوا ، فلمَّا كانوا بالبُوَيْب رَأوْا جَملاً عليه مِيسَم الصَّدَقة ، فأخذوه ، فإذا غُلامٌ لعثمان ، ففتَّشوا مَتاعَه ، فوَجدوا قَصبةً من رَصاص فيها كتابٌ في جَوف الإداوَة في الماء : إلىٰ عبد الله بنِ سَعد بنِ أبي سَرْح أن افْعَل بفُلان كَذا ، وبفُلان كَذا ، من القَوم الذين شَرَعوا في قَتل عُثمانَ ، فرَجَع القَومُ ثانيةً ونازَلوا عثمانَ وحَصَروه .

قال الواقديُّ : فحدَّثني عبدُ الله بنُ الحارث ، عن أبيه قال : أنكرَ عثمانُ أن يكون كَتبَ ذلك الكتاب ، وقال : فُعِلَ ذلك بلا أمْري .

وقال ابنُ سيرين : إنَّ عُثمانَ بعثَ إليهم عَليّاً فقال : تُعْطَوْن كتابَ الله وتُعْتَبون من كلِّ ما سَخطتُّم[1] ، فأقبل معه ناسٌ من وُجوههم ، فاصْطلَحوا علىٰ خَمسٍ : علىٰ أنَّ المَنفِيَّ يُقلَبُ[2] ، والمَحْرومَ يُعطَىٰ ، ويُوفَّرُ الفَيءُ ، ويُعْدَلُ في القَسْم ، ويُستعمَلُ ذو الأمانة والقُوة كَتبوا ذلكَ في كتاب ، وأن يردُّوا ابنَ عامر إلى البَصْرَة ، وأبا موسىٰ إلى الكوفَة .

وقال أبو الأشْهَب ، عن الحَسن قال : لقد رَأيتُهم تَحاصَبوا في المَسجد حتىٰ

---

(١) قال صاحب النزهة : أي تُرَضَّوْنَ ممّا أغضبكم .

(٢) قال صاحب النزهة : أي يرجع .

ما أبْصرُ السماءَ ، وإنَّ رَجلاً رَفعَ مُصْحَفاً من حُجُرات النبيِّ صلى الله عليه وسلم ثم نادَىٰ : أَلَمْ تعلَموا أنَّ محمداً قد بَرِىءَ ممَّن فرَّقُوا دينَهم وكانوا شِيَعاً .

وقال سلامٌ : سَمعتُ الحَسنَ قال : خرجَ عثمانُ يومَ الجُمعة ، فقامَ إليه رَجلٌ فقال : أسْألُكَ كتابَ الله ، فقال : وَيْحَك ، ألَيسَ معكَ كتابُ الله!! ، قال : ثم جاءَ رجلٌ آخر فنَهاه ، وقامَ آخرُ ، وآخرُ ، حتىٰ كَثُروا ، ثم تَحاصَبوا حتىٰ لمْ أرَ أديمَ السَّماءِ .

ورَوَىٰ بِشْرُ بنُ شَغاف ، عن عبد الله بنِ سلام قال : بينما عثمانُ يَخطبُ ، فقامَ رجلٌ فنال منه فوَذَأْتُه[1] ، فاتَّذَأ ، فقال رجلٌ : لا يَمنَعُك مكانُ ابنَ سلام أن تَسُبَّ نَعْثَلاً ، فإنَّه من شِيعَته ، فقُلتُ له : لقد قُلتَ القَولَ العَظيم في الخَليفَةِ من بعد نُوح[2] ، [3] .

وقال ابنُ عُمَر : بينما عُثمانُ يَخطُب إذْ قامَ إليه جهْجاه الغِفاريّ ، فأَخَذَ من يده العَصا فكَسَرها علىٰ رُكْبَته ، فدخلت منها شَظيةٌ في رُكبَتِه ، فوَقَعت فيها الأكَلَة[4] .

وقال غيرُه : ثم إنَّهم أحاطوا بالدَّارِ وحَصَروه ، فقال سعدُ ابنُ إبراهيم ، عن أبيه : سَمعتُ عُثمانَ يقولُ : إنْ وجدتم في الحَقِّ أن تَضَعوا رِجْلَي في القَيْدِ فضَعوهُما[5] .

وقال ثُمامَةُ بنُ حَزْن القُشَيْريّ : شَهدْتُ الدَّارَ وأشْرَفَ عليهم عُثمانُ فقال : ائْتُوني بصاحِبَيْكم اللذَين ألَّباكُم ، فدُعيا له كأنَّهما جَملان أو حِماران ، فقال : أنشُدُكم اللهَ أتَعلَمون أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قدِمَ المدينةَ وليسَ فيها ماءٌ عَذبٌ غير بِئرَ رُومَة ، فقال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ يَشْتَريها فيَكونُ دَلْوُه كدِلاءِ المسلمين ، وله الجَنَّةُ خيرٌ منها » ، فاشْتريتُها ، وأنتم اليوم تَمنَعوني أنْ أشْرَبَ منها حتىٰ أشْرَبَ من

---

(١) وَذَأْتُه : زجرتُه وقمعتُه .

(٢) قالوا لعثمان : نَعْثَلاً ، تشبيها له برجل مصري اسمه نَعْثَل كان طويل اللحية ، والنَّعْثَل : الذكر من الضباع ، وكان عُمرُ يُشبه بنوح في الشدة .

(٣) انظر السير : (عُثمان بن عفَّان) ، وانظر النزهة : ١/٨٩ .

(٤) انظر السير : (عُثمان بن عفَّان) ، وانظر النزهة : ١/٩٠ .

(٥) انظر السير : (عُثمان بن عفَّان) ، وانظر النزهة : ١/٩١ .

الماء المالح ؟ قالوا : اللَّهُمَّ نَعم ، قال : أنشُدُكم اللهَ والإسْلامَ ، هل تَعلمونَ أنَّ المَسجِدَ ضاقَ بأهله ، فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ يَشْتَري بُقْعَةً بخَيرٍ له منها في الجَنَّة » ، فاشْتريتُها وزِدْتُها في المَسجِدِ ، وأنتم تَمنَعُوني اليومَ أن أُصَلِّي فيها ؟ قالوا : اللَّهُمَّ نَعم ، قال : أنشُدُكم اللهَ ، هل تَعلمونَ أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم كان علىٰ ثَبيرِ[1] مكةَ ، فتحرَّكَ وعليه أبو بكر وعُمَرُ وأنا ، فقال صلى الله عليه وسلم : « اسْكنْ فلَيْسَ عليكَ إلاَّ نَبيٌّ وصِدِّيقٌ وشَهيدان » قالوا : اللَّهُمَّ نَعم ، فقال : الله أكبَر شَهِدوا وربِّ الكعبَة أنِّي شَهيد .

ورَواه أبو سلمَة بنُ عبد الرحمَـٰن بنَحوه ، وزادَ فيه أنَّه جَهَّزَ جَيشَ العُسْرَة .

ثم قال رضي الله عنه : ولكن طالَ عليكم أمري فاسْتعجَلتُم ، وأردتُم خَلعَ سِرْبالٍ سَرْبَلَنيه اللهُ ، وإنِّي لا أخلَعُه حتىٰ أموتَ أو أُقْتَل .

وعن ابنِ عُمَر قال : فأشْرَفَ عليهم وقال : عَلامَ تقْتُلوني ؟ فإنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا يَحِلُّ دَمُ امْرىءٍ مُسْلمٍ إلاَّ بإحْدَىٰ ثَلاثٍ : كفْرٍ بعدَ إسْلام ، أوْ رَجُلٍ زَنَىٰ بعدَ إحْصَانٍ ، أوْ رَجُلٍ قَتَلَ نَفْساً » ، فوالله ما زَنَيْتُ في جاهليّة ولا إسْلام ، ولا قَتلتُ رجلاً ولا كَفرتُ .

عن الحَسَن ، قال عُثمانُ : لئِنْ قَتلوني لا يُقاتِلُون عَدُواً جَميعاً أبداً ، ولا يَقْتسِمُون فَيئاً جَميعاً أبداً ، ولا يُصَلُّون جَميعاً أبداً .

وقال مثلَه عبدُ المَلك بنُ أبي سُليمان ، عن أبي ليلى الكنْديّ ، وزادَ فيه : ثم أرسلَ إلىٰ عبد الله بنِ سَلام فقال : ما تَرى ؟ قال : الكَفَّ الكَفَّ ، فإنَّه أبلَغُ لك في الحُجَّة ، فدَخلوا عليه فقَتلُوه وهو صائم رضي الله عنه .

وقال الحَسنُ : حدَّثني وثَّابٌ قال : بَعثَني عُثمانُ ، فدَعوتُ له الأشْتَرَ فقال : ما يريدُ النَّاسُ ؟ قال : إحْدَىٰ ثلاث : يُخَيِّرونَك بين الخَلْعِ ، وبين أن تَقتَصَّ من

---

(١) قال صاحب النزهة : هو جبل بمكّة .

نفسك ، فإنْ أبيتَ فإنَّهم قاتِلُوك ، فقال : ما كُنتُ لأخْلعُ سِرْبالاً سَرْبَلَنِيه اللهُ ، وبدني ما يقومُ لقَصاص[١] .

وقال حُمَيْدُ بنُ هلال : حَدَّثنا عبدُ الله بنُ مغفل قال : كان عبدُ الله بنُ سَلام يَجيءُ من أرضٍ له علىٰ حِمارٍ يومَ الجُمعة ، فلمَّا حُصِرَ عُثمانُ قال : يا أيُّها النَّاسُ لا تَقتُلوا عُثمانَ ، واسْتَعتِبُوه ، فوالذي نفسي بيده ما قَتَلتْ أُمَّةٌ نبيَّها فصَلُحَ ذات بينهم حتىٰ يُهْريقُوا دَمَ سَبعينَ ألفاً ، وما قَتَلتْ أُمَّةٌ خَليفتَها فيُصلِحُ اللهُ بينهم حتىٰ يُهْريقُوا دَمَ أربَعين ألفاً ، وما هَلكَت أُمَّةٌ حتىٰ يَرفَعوا القُرآنَ على السُّلطانِ قال : فلَمْ يَنظُروا فيما قال ، وقَتلُوه ، فجَلسَ علىٰ طريق عليٍّ بنِ أبي طالب ، فقال له : لا تأتي العِراقَ والْزَمْ مِنبرَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، فوالذي نفسي بيده لَئنْ تَركتَه لا تَراهُ أبداً ، فقال مَنْ حَولَ عليّ : دَعنا نَقتُله ، قال رضي الله عنه : دَعُوا عبدَ الله بنَ سَلام ، فإنَّه رجلٌ صالح[٢] .

ودخلَ ابنُ عُمَر علىٰ عُثمانَ وهو مَحْصورٌ ، فقال : ما تَرى ؟ قال : أرَىٰ أنْ تُعطيهم ما سَألوكَ من وَراء عَتَبةِ بابِك غيرَ أنْ لا تَخلعْ نفسَك ، فقال : دُونَك عَطاءك ـ وكان واجداً عليه ـ فقال : ليس هٰذا يوم ذاك ، ثم خَرجَ ابنُ عُمَر إليهم فقال : إيّاكم وقَتل هٰذا الشَّيخ ، والله لإنْ قَتلتُموه لَمْ تَحجُّوا البيتَ جَميعاً أبداً ، ولَمْ تُجاهِدوا عَدُوَّكم جَميعاً أبداً ، ولَمْ تقتَسِموا فَيْئكم جَميعاً أبداً ، إلاَّ أنْ تَجتمعَ الأجْسادُ والأهْواءُ مُختلِفَة ، ولقد رأيتُنا وأصحابَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم مُتوافِرون نَقولُ : أبو بَكر ، ثم عُمَرُ ، ثم عُثمانُ[٣] .

وعن أبي جَعفرٍ القاري قال : كان المصريُّون الذين حَصَروا عُثمانَ ستمائة ، رَأسُهم كِنانَةُ بنُ بِشْر ، وابنُ عُدَيْس البَلويّ ، وعَمرُو ابن الحَمِق والذين قَدِموا من الكُوفَة مائتين ، رأسُهم حُكَيْمُ بنُ جَبَلَة ، وكانوا يداً واحدة في الشَّرِ ، وكانت حُثالةٌ من النَّاسِ

(١) انظر السير : (عُثمان بن عفَّان) ، وانظر النزهة : ٢/٩١ .
(٢) انظر السير : (عُثمان بن عفَّان) ، وانظر النزهة : ١/٩٢ .
(٣) انظر السير : (عُثمان بن عفَّان) ، وانظر النزهة : ٢/٩٢ .

قد ضَوَوا إليهم ، وكان أصحابُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم الذين خَذلُوه كَرِهوا الفِتنةَ وظَنُّوا أنَّ الأمرَ لا يَبلغُ قَتلَه ، فلمَّا قُتِلَ نَدِموا علىٰ ما ضَيَّعوا في أمرِه ، ولَعَمْري لو قاموا أو قامَ بعضُهم فحَثا في وُجوه أولئكَ التُّرابَ لانْصَرفوا خاسِئين .

وقال حَبيبُ بنُ أبي ثابت ، عن أبي جَعفرٍ محمدِ بنِ عليّ : إنَّ عُثمانَ بَعثَ إلىٰ عليٍّ يَدعُوه وهو مَحْصور ، فأرادَ أنْ يأتيه ، فتَعلَّقوا به ومَنَعوه ، فحَسرَ عَمامةً سَوداءَ عن رأسه ، وقال : اللَّهُمَّ لا أرْضَىٰ قَتلَه ولا آمُرُ به .

وعن أبي إدْريسَ الخَوْلانيّ قال : أرْسلَ عُثمانُ إلىٰ سَعدٍ ، فأتاهُ ، فكلَّمَه ، فقال له سعدٌ : أرْسِل إلىٰ عليٍّ ، فإنْ أتاكَ ورَضِيَ صَلُحَ الأمرُ ، قال : فأنتَ رَسولي إليه ، فأتاهُ ، فقامَ عليٌّ ، فمَرَّ بمالك الأشْتَر ، فقال الأشْتَرُ لأصحابه : أينَ يريدُ هـٰذا ؟ قالوا : يُريدُ عُثمانَ ، فقال : والله لئِن دَخلَ عليه لتُقتَلُنَّ عن آخِركم ، فقام إليه في أصحابه حتى اخْتَلجَه عن سَعدٍ وأجْلسَه في أصحابه ، وأرسَلَ إلىٰ أهلِ مِصْرَ : إنْ كُنتُم تُريدُون قَتلَه فأسْرِعوا ، فدَخلُوا عليه فقَتلُوه[١] .

وعن أبي حَبيبَة قال : لمَّا اشْتدَّ الأمرُ ، قالوا لعُثمانَ ـ يَعني الذين عندَه في الدَّار ـ ائْذَن لنا في القتال فقال : أعْزِمُ علىٰ مَنْ كانت لي عليه طَاعَةٌ أنْ لا يُقاتِل[٢] .

وقال نافعٌ ، عن ابنِ عُمَر : أصْبحَ عُثمانُ يُحدِّثُ النَّاسَ ، قال : رأيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم الليلةَ في المَنام ، فقال صلى الله عليه وسلم : « أَفْطِرْ عِنْدَنا غَداً » ، فأصْبحَ صائماً ، وقُتِلَ من يومِه[٣] .

ومن وَجهٍ آخَر ، عن ابنِ سيرين ، قال : انطلَقَ الحسنُ والحُسَينُ وابنُ عُمَر ، ومَرْوانُ ، وابنُ الزُبَيْر ، كلُّهم شاكُ السِّلاحَ ، حتىٰ دَخلُوا علىٰ عُثمانَ ، فقال : أعْزِمُ عليكم لما رَجعتُم فوَضَعتُم أسْلِحَتكم ولَزِمْتُم بُيوتَكم ، فقال ابنُ الزُبَيْر ، ومَرْوَانُ :

---

(١) انظر السير : (عُثْمان بن عفَّان) ، وانظر النزهة : ١/٩٣ .
(٢) انظر السير : (عُثْمان بن عفَّان) ، وانظر النزهة : ٢/٩٣ .
(٣) انظر السير : (عُثْمان بن عفَّان) ، وانظر النزهة : ٣/٩٣ .

نحنُ نَعْزِمُ علىٰ أنفسِنا أن لا نَبرحَ ، وخَرجَ الآخَرون[١] .

وقال ابنُ سيرينَ : كان مع عُثمانَ يومئذ في الدَّارِ سبعمائة لو يَدعهم لضَربوهم حتىٰ يُخْرِجوهم من أقْطارِها[٢] .

وعن مُسلمٍ أبي سَعيد قال : أعْتقَ عُثمانُ عشرين مَمْلوكاً ، ثم دَعا بسَراويل ، فشدَّها عليه[٣] ، ولمْ يَلبَسْها في جاهليّة ولا إسْلام ، وقال : إنِّي رَأيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم البارِحَة ، وأبا بَكر وعُمرَ ، فقال صلى الله عليه وسلم : « اصْطَبِرْ فَإنَّكَ تُفْطِرُ عِنْدَنا القَابِلَة » ثم نشَرَ المُصْحفَ بين يَديْه ، فقُتلَ وهو بين يَديْه .

وقال ابنُ عَوْف ، عن الحَسَن : أنْبَأني وثَّابٌ مَوْلىٰ عُثمان قال : جاءَ رُوَيجلٌ كأنَّه ذِئبٌ ، فاطَّلع من باب ، ثم رَجعَ ، فجاءَ محمدُ بنُ أبي بكر في ثلاثة عشر رجلاً ، فدخلَ حتى انتَهىٰ إلىٰ عُثمانَ ، فأخَذَ بلِحْيته ، فقال بها حتىٰ سَمعَ وَقعَ أضْراسِه ، فقال : ما أغْنَىٰ عنكَ مُعاويَة ، ما أغْنَىٰ عنكَ ابنُ عامر ، ما أغْنَت عنكَ كُتبُك ، فقال رضي الله عنه : أرْسِل لِحْيَتي يا ابنَ أخي ، قال : فأنا رأيتُه اسْتَعدىٰ رجلاً من القَومِ عليه يُعينُه ، فقام إلىٰ عُثمانَ بمشْقَص ، حتىٰ وَجأَ به رأسَه ، ثم تَعاوَروا عليه حتىٰ قَتلُوه .

وعن ريطة مَولاة أسامة قالت : كُنتُ في الدَّارِ ، إذْ دَخلوا ، فجاءَ محمدٌ فأخَذَ بلِحْيَة عُثمانَ فهزَّها ، فقالَ : يا ابنَ أخي دَعْ لِحْيَتي ، لِتَجذِبَ ما يَعِزُّ علىٰ أبيك أن تُؤذيَها ، فرأيتُه كأنَّه اسْتَحىٰ ، فقامَ ، فجَعلَ بطَرف ثَوبه هٰكذا ، ألا ارجِعُوا ، قالت : وجاءَ رجلٌ من خلف عُثمانَ بسَعَفَة رَطبَة ، فضَربَ بها جَبهَتَه فرأيتُ الدمَ يَسيلُ ، وهو يَمسَحُه ويقولُ : « اللَّهُمَّ لا يُطلَبُ بدَمي غَيْرَك »[٤] ، وجاءَ آخرُ فضَربَه بالسَّيفِ علىٰ

---

(١) انظر السير : (عُثمان بن عفَّان) ، وانظر النزهة : ٩٣/ ٤ .

(٢) انظر السير : (عُثمان بن عفَّان) ، وانظر النزهة : ٩٤/ ١ .

(٣) إنما لبسها لئلا تبدو عورته إذا قُتلَ رضي الله عنه .

(٤) ورد من دعاء عثمان عليهم (في الثقات لابن حبان ٢/ ٢٦١) : اللهم فشتت أمرهم ، وخالف بين كلمتهم ، وانتقم لي منهم ، واطلبهم لي طلباً حثيثاً وقد استُجيب دعاؤه رضي الله عنه في كل ذلك وقال ابن كثير (في البداية والنهاية ٧/ ١٨٩) : لما بلغ سعد بن أبي وقاص ـ وكان مستجاب الدعاء ـ قتلَ=

صَدرِه فأقْعَصَه[1] ، وتَعاوَروه بأسْيافِهِم ، فرأيتُهم يَنْتَهِبُون بيتَه .

وعن الزهريّ قال : قُتِلَ عند صلاة العَصْر ، وشَدَّ عَبدٌ لعُثمانَ علىٰ كِنانَة بنِ بِشْر فقَتلَه ، وشَدَّ سُودانُ على العَبدِ فقَتلَه[2] .

وقال أبو نَضْرَة ، عن أبي سَعيد قال : ضَربُوه فجَرى الدمُ على المُصْحف علىٰ : ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[3] ، [4] .

وقال عِمْرانُ بنُ حُدير ، إلاَّ يكن عبدُ الله بن شقيف حدَّثني : إنَّ أوَّلَ قطرةٍ قَطرت من دَمه علىٰ : ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ ﴾ ، فإنَّ أبا حريث ذَكرَ أنَّه ذَهبَ هو وسُهَيل المريّ ، فأخرَجوا إليه المُصْحفَ ، فإذا قَطرةُ الدمِ علىٰ ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ ﴾ قال : فإنَّها في المصحف ما حُكَّت[5] .

وقال ابنُ لُهَيْعَة ، عن يزيدِ بنِ أبي حَبيب قال : بلغَني أنَّ الركْبَ الذين ساروا إلىٰ عُثمانَ عامَّتُهم جُنُّوا[6] .

وقال لَيثُ بنُ أبي سليم ، عن طاووس ، عن ابنِ عبَّاس سَمعَ عليّاً يقول : والله ما قَتَلتُ ـ يعني عُثمانَ ـ ولا أمَرتُ ، ولكن غُلِبتُ ، يقولُ ذلكَ ثلاثاً وجاءَ نَحوَه عن عليٍّ من طُرق .

وجاءَ عنه أنَّه لعنَ قَتلَةَ عُثمانَ .

وعن الشعبيّ قال : ما سَمعتُ من مَراثي عُثمان أحسَنَ من قول كعبِ بنِ مالك :

فكَـفَّ يَـدْيـه ثـم أغْلـقَ بـابَـه ... وأيْقَـنَ أنَّ اللهَ ليـسَ بغَـافـلِ

= عثمان : قال اللهم اندمهم ، ثم خذهم وقد أقسم بعض السلف بالله أنه ما مات أحد من قتلة عثمان إلا مقتولاً .

(1) أقْعصَه ، وقَعَصْتُه : إذا قَتلته قَتْلاً سريعاً .

(2) انظر السير : (عُثْمان بن عفَّان) ، وانظر النزهة : ٩٤/ ٢ .

(3) سورة البقرة ، الآية ١٣٧ .

(4) انظر السير : (عُثْمان بن عفَّان) ، وانظر النزهة : ٩٥/ ١ .

(5) انظر السير : (عُثْمان بن عفَّان) ، وانظر النزهة : ٩٥/ ٢ .

(6) انظر السير : (عُثْمان بن عفَّان) ، وانظر النزهة : ٩٥/ ٣ .

وقـال لأهـلِ الـدَّارِ : لاتَقتُلُـوهـم عَفا الله عن كُلِّ امْرِىءٍ لَمْ يُقاتِلِ
فكَيْـفَ رَأيـتَ اللهَ صَـبَّ عليهِـمُ ال عَـداوَةَ والبَغْضـاءَ بعـدَ التَّـواصُـلِ
وكَيـفَ رَأيـتَ الخَيـرَ أدْبَـرَ بَعـدَه عن النَّاسِ إدْبارَ النَّعَامِ الجَوافِلِ

ورَثاهُ حسَّانُ بنُ ثابت بقوله :

مَنْ سَرَّهُ المَوتُ صرَفاً لا مِزاجَ له فلْيـأتِ مـأدُبـةً فـي دارِ عُثمـانـا
ضَحَّوْا بأشْمَطَ[1] عنوان السُّجودِ به يَقْطَـعُ اللَّيْـلَ تَسْبيحـاً وقُـرآنـا
صَبراً فـدىً لكـم أمي ومـا وَلَـدَت قد يَنفَعُ الصَّبرُ في المَكْرُوهِ أحيْانا
لَتَسْمَعـنَّ وَشيكـاً فـي ديـارِهـم : اللهُ أكْبَـرُ يـا ثـاراتِ عثمـانـا[2]

٣ـ مُثيرُوا الفِتن قَليلُوا الفِقْه عادةً :

قال إسماعيلُ بنُ أبي خالد : لمَّا نَزلَ أهلُ مِصْرَ الجُحْفَة ، وأتَوْا يُعاتِبون عُثمانَ ، صَعدَ عُثمانُ المِنْبَر فقال : جَزاكُم الله يا أصْحابَ محمد عَنِّي شراً ، أذَعْتُم السَّيئةَ وكَتَمْتُم الحَسَنةَ ، وأغْرَيْتم بي سُفهاء النَّاسِ ، أيُّكم يَذهبُ إلىٰ هـٰؤلاء القوم فيَسألُهم ما نَقَموا وما يُريدُون ؟ قال ذلك ثلاثاً ولا يُجيبُه أحد .

فقامَ عليٌّ فقال : أنا ، فقال عُثمانُ : أنتَ أقْرَبُهم رَحِماً ، فأتاهم فرَحَّبُوا به ، فقال : ما الذي نَقِمتُم عليه ؟ قالوا : نَقِمْنا عليه أنَّه مَحَا كتابَ الله ـ يَعني كَوْنُه جَمعَ الأمَّةَ علىٰ مُصْحف ـ وحَمَى الحِمَىٰ ، واسْتعمَلَ أقْرباءَه ، وأعْطَىٰ مَرْوانَ مائةَ ألف ، وتَناولَ أصْحابَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم[3] .

قال : فرَدَّ عليهم عُثمانُ : أمَّا القُرآنُ فمن عند الله ، إنَّما نَهَيْتُكم عن الاخْتِلاف فاقْرَؤوا علىٰ أيِّ حَرفٍ شِئتُم ، وأمَّا الحِمَىٰ فوالله ما حَمَيتُه لإبلِي ولا لغَنَمِي ، وإنَّما حَمَيتُه لإبلِ الصَّدَقَة ، وأمَّا قَولُكم : إنِّي أعْطَيتُ مَرْوانَ مائةَ ألف فهـٰذا بَيتُ مالِهم

---

(١) الأشْمَط : الأشْيَب .
(٢) انظر السير : (عُثْمان بن عفَّان) ، وانظر النزهة : ٩٥/ ٤ .
(٣) انظر السير : (عُثْمان بن عفَّان) ، وانظر النزهة : ٨٣/ ١ .

فليَسْتعمِلُوا عليه مَنْ أَحَبُّوا ، وأمَّا قَولُكم : تَناولَ أصحابَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم فإنَّما أنا بَشرٌ أَغْضَبُ وأرْضَىٰ ، فمَنْ ادَّعَىٰ قِبَلي حقاً أو مَظْلمَةً فها أنا ذَا ، فإن شاءَ قِوَداً وإنْ شاءَ عَفْواً فرَضِيَ النَّاسُ واصْطَلَحوا ودَخلُوا المدينة[1] .

٤ـ ضَرُورَةُ التمَسُّك بالبيْعَة الشرعية حالَ الفتن :

وصَعدَ الأشْتَرُ مِنبرَ الكُوفَة وقال : يا أهلَ الكُوفَة ما غَضِبتُ إلاَّ لله ولَكُم ، وقد وَليتُ أبا موسى الأشْعَري صَلاتَكم ، وحُذَيْفَة بنَ اليَمان فَيْئَكم ، ثم نَزلَ وقال : يا أبا موسى اصْعَد ، فقال : ما كُنتُ لأفعلَ ، ولكن هَلمُّوا فبَايِعُوا لأميرِ المؤمنين وجَدِّدُوا البَيْعةَ في رِقابِكُم ، فأجابَه النَّاسُ وكَتبَ إلىٰ عُثمان بما صَنع ، فأعجبَ عُثمان ، فقال عُتبَةُ ابنُ الوَعْل شاعِرُ الكُوفَة :

تَصدَّق عَلينا يابنَ عَفانٍ واحْتَسِبْ   وأَمِّـرْ عَلينـا الأشْعَـريَّ لَيـاليَـا

فقال عُثمانُ : نَعم وشُهوراً وسِنينَ إنْ عِشتُ ، وكان الذي صَنعَ أهلُ الكُوفَة بسَعيدٍ أوّلَ وَهَن دخلَ علىٰ عُثمان حين اجتُرِىء عليه[2] .

٥ـ سَرْدٌ تاريخِيّ للفِتَنِ :

قال الذهبيُّ : لا رَيْبَ أنَّ أوّلَ وَهنٍ على الأُمَّةِ قَتْلُ خَلِيفَتِها عُثْمانَ صَبْراً رضي الله عنه ، فهاجَت الفِتْنَةُ ، وجَرَت وَقْعَةُ الجَمَلِ بِسَبَبها ، ثمَّ وَقْعَةُ صِفِّين ، وجَرَت سِيُولُ الدِّماءِ في ذلك .

ثمَّ خَرَجَت الخَوارِجُ ، وكَفَّرَت عُثمانَ وعَليّاً ، وحارَبُوا ، ودامَتْ حُروبُ الخَوارِجِ سِنينَ عِدَّة .

ثمَّ هاجَتْ المُسَوِّدَةُ بخُراسَانَ ، ومازالُوا حتىٰ قَلَعُوا دَولَةَ بَني أُمَيَّة ، وقامَت الدَّولَةُ الهاشِميَّةُ بعدَ قَتْلِ أُمَمٍ لا يُحْصيهم إلاَّ اللهُ .

---

(١) انظر السير : (عُثْمان بن عفَّان) ، وانظر النزهة : ٢/٨٣ .
(٢) انظر السير : (عُثْمان بن عفَّان) ، وانظر النزهة : ١/٨٤ .

ثمَّ اقْتَتَلَ المَنْصُورُ وعَمُّه عبدُ الله ثمَّ خُذِلَ عبدُ الله ، وقُتِلَ أبو مُسْلِم صاحِبُ الدَّعْوَة[1] .

٦ـ رُؤْيا فيها حَثٌّ على البُعدِ عن الفِتَنِ :

عن حُسَيْنِ بنِ خارِجَة الأشْجَعيّ قال : لمَّا قُتِلَ عُثمانُ رضي الله عنه ، أُشْكِلَتْ عَليَّ الفِتْنَةُ ، فقُلتُ : اللَّهُمَّ أرِني من الحَقِّ أمراً أتَمَسَّكُ به ، فرَأيتُ في النَّومِ الدُّنيا والآخِرَة بينَهُما حائِطٌ ، فهَبَطتُ الحائِطَ ، فإذا بنَفَرٍ ، فقالوا : نَحنُ المَلائِكَةُ ، قُلتُ : فأيْنَ الشُّهَداءُ ؟ قالوا : اصْعَد الدَّرَجاتِ ، فصَعَدتُ دَرَجَةً ثمَّ أُخْرَىٰ ، فإذا مُحمَّدٌ وإبْراهيمُ ، صَلَّى اللهُ عَلَيهِمَا ، وإذا مُحمَّدٌ يقُولُ لإبْراهيمَ : اسْتَغْفِرْ لأُمَّتي ، قال : إنَّكَ لا تَدْري ما أَحْدَثوا بَعْدَك ، إنَّهم اهْرَقُوا دِماءَهم ، وقَتَلُوا إمَامَهُم ، ألا فَعَلُوا كمَا فَعَلَ خَليلي سَعدٌ ؟ (يَعني ابنَ أبي وَقَّاص) .

قال : قُلتُ : لقَد رَأيتُ رُؤْيا ، فأتَيْتُ سَعداً فقَصَصْتُها عليه ، فمَا أكْثَرَ فَرَحاً ، وقال رضي الله عنه : قد خَابَ مَنْ لَمْ يَكنْ إبْراهيمُ عليه السلام خَليلَه ، قُلتُ : مع أيِّ الطَّائِفَتَينِ أنْتَ ؟ قال رضي الله عنه : ما أنا مع واحِدٍ منْهُما ، قُلتُ : فما تَأمُرُني ؟ قال : هَلْ لكَ من غَنَمٍ ؟ قُلتُ : لا ، قال : فاشْتَرِ غَنَماً ، فكُنْ فيها حتىٰ تَنْجَلي[2] .

٧ـ التَّأكدُ قَبلَ الوُلُوجِ في الفِتَنِ :

قال حَفْصُ بنُ غياث : قُلتُ لسُفْيانَ : يا أبا عبدِ الله إنَّ النَّاسَ قد أكْثَروا في المَهْديّ ، فما تَقُولُ فيه ؟ قال : إنْ مَرَّ علىٰ بَابِكَ ، فلا تَكُنْ فيه في شَيءٍ حتىٰ يَجْتَمعَ النَّاسُ عليه[3] .

---

(١) انظر السير : (المعتضد بالله) ١٣/ ٤٦٣ـ ٤٧٩ ، وانظر النزهة : ٢/١١٠٥ .
(٢) انظر السير : (سعد بن أبي وقاص) ١/ ٩٢ـ ١٢٤ ، وانظر النزهة : ٣/٦٣١ .
(٣) انظر السير : (سُفيان الثوريّ) ٧/ ٢٢٩ـ ٢٧٩ ، وانظر النزهة : ٤/٦٩٧ .

٨ـ ضَابِطٌ فيما جَرَىٰ بينَ السَّلَفِ من الفِتَنِ :

عن عليِّ بنِ أبي طَلْحَة مَوْلَىٰ بَني أُمَيَّة قال : حَجَّ مُعَاوِيَةُ ومَعَه مُعَاوِيَةُ بنُ حُدَيْج ، وكان من أَسَبِّ النَّاسِ لعَليٍّ رضي الله عنه ، فمَرَّ في المَدينَةِ ، والحَسَنُ جالِسٌ في جَمَاعةٍ من أصْحابه ، فأتَاهُ رسُولٌ ، فقال : أجبْ الحَسَن فأتَاهُ فسَلَّمَ عليه ، فقال له : أنْتَ مُعاوِيَةُ بنُ حُدَيْج ؟ قال : نعَم قال : فأنْتَ السَّابُّ عَليّاً رضي الله عنه ؟ قال : فكَأنَّه اسْتَحْيىٰ فقال : أمَا والله لَئِنْ وَرَدْتَ عَليهِ الحَوضَ ـ وما أَرَاكَ تَرِدُه ـ لَتَجِدَنَّه مُشمِّرَ الإزارَ علىٰ ساقٍ ، يَذُودُ عَنه راياتِ المُنافِقِينَ ذَوْدَ غَريبَةِ الإبِلِ ، قَولَ الصَّادِقِ المَصْدُوقِ : ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾[1] .

قال الذهبيُّ تَعْقيباً : كان هـٰذا عُثْمانِيّاً وقد كان بَينَ الطَّائِفَتينِ من أهْلِ صِفِّينَ ما هُو أبْلَغُ من السَّبِّ ، السَّيْفُ ، فإنْ صَحَّ شَيءٌ ، فسَبيلُنا الكَفُّ والاسْتِغْفارُ للصَّحابَةِ ، ولا نُحِبُّ ما شَجَرَ بينَهُم ، ونَعُوذُ بالله منهُ ، ونَتَولَّىٰ أميرَ المُؤمنِينَ عَليّاً[2] .

وخَلْفُ مُعاوِيَةَ خَلْقٌ كَثيرٌ يُحِبُّونَه ويَتَغالُون فيه ويُفَضِّلونَه ، إمَّا قد مَلَكَهُم بالكَرَمِ والحِلْمِ والعَطَاءِ ، وإمَّا قد وُلِدُوا في الشَّام علىٰ حُبِّه ، وتَرَبَّىٰ أولادُهم علىٰ ذلك ، وفيهِم جَماعَةٌ يَسيرَةٌ من الصَّحابَةِ ، وعَددٌ كَثيرٌ من التَّابِعينَ والفُضَلاءِ ، وحارَبُوا مَعه أهْلَ العِراقِ ، ونَشَؤوا على النَّصَبِ ، نَعُوذُ باللهِ من الهَوَىٰ كما قد نَشَأ جَيْشُ عَليٍّ رضي الله عنه ، ورَعيَّتُه ـ إلاَّ الخَوارِجَ منهُم ـ علىٰ حُبِّه والقِيام مَعَه ، وبُغْضِ مَنْ بَغَىٰ عليه والتَّبَرِّي منهم ، وغَلا خَلْقٌ منهُم في التَّشَيُّع فبالله كَيفَ يَكُونُ حَالُ مَنْ نَشَأ في إقْليمٍ ، لا يَكادُ يُشاهِدُ فيه إلا غَالِياً في الحُبِّ ، مُفْرِطاً في البُغْضِ ، ومن أينَ يَقَعُ له الإنْصافُ والاعْتِدالُ ؟!! فنَحْمَدُ الله على العافِيَةِ الذي أوْجَدَنا في زَمانٍ قد انْمَحَضَ فيه الحَقُّ ، واتَّضَحَ من الطَّرَفَيْنِ ، وعَرَفْنا مآخِذَ كُلِّ واحدٍ من الطَّائِفَتَيْن وتَبَصَّرْنا ، فعَذَرْنا ، واسْتَغْفَرْنا ، وأحْبَبْنا باقْتِصادٍ ، وتَرَحَّمْنا على البُغاةِ بتأويلٍ سائغٍ في الجُمْلَةِ ، أو بخَطَأٍ إنْ شاءَ اللهُ مَغْفُورٌ ، وقُلنَا كمَا عَلَّمَنا اللهُ : ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ

---

(١) سورة طه ، الآية : ٦١ .

(٢) انظر السير : (معاوية بن حُدَيج) ٣/ ٣٧ـ ٤٠ ، وانظر النزهة : ٣/٣٢٧ .

سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾[1] ، وتَرَضَّينا أيضاً عمَّن اعْتَزَلَ الفَريقَيْنِ ، كسَعْدِ بنِ أبي وَقَّاص ، وابنِ عُمَرَ ، ومُحمَّدِ بنِ مَسْلَمَة ، وسَعيدِ بنِ زَيْد ، وخَلْقٌ وتبَرَّأنا من الخَوَارِجِ المَارِقِينَ الذينَ حارَبُوا عَليّاً ، وكَفَّرُوا الفريقَيْنِ ، فالخَوارِجُ كِلابُ النَّارِ ، قد مَرَقُوا من الدِّينِ ، ومع هٰذا فلا نَقْطَعُ لهُم بخُلُودِ النَّارِ ، كمَا نَقْطَعُ به لعبَدَةِ الأَصْنامِ والصُّلْبان[2] .

ونَقَلَ ابنُ عبدِ البَرّ : أنَّهم لمَّا الْتَمَسُوا من عَائِشَةَ أنْ يُدْفَنَ الحَسَنُ في الحُجْرَةِ ، قالت : نعَم وكَرامَة ، فرَدَّهم مَرْوانُ ، ولَبِسُوا السِّلاحَ ، فدُفِنَ عندَ أُمِّه بالبَقِيعِ إلىٰ جانِبِها .

أعَاذَنا اللهُ من الفِتَنِ ، ورَضِيَ عن جَميعِ الصَّحابَةِ ، فتَرَضَّ عَنهُم يا شِيعِيُّ تُفْلِحْ ، ولا تَدخُلْ بَينَهم ، فاللهُ حَكَمٌ عَدْلٌ ، يَفْعَلُ فيهِم سَابِقَ عِلْمِه ، ورَحْمَتُه وَسِعَت كُلَّ شَيءٍ ، وهو القائلُ : « إنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي » و﴿ لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴾[3] فنَسأَلُ اللهَ أنْ يَعْفُوَ عنَّا وأنْ يُثَبِّتَنا بالقَولِ الثَّابِتِ آمين[4] .

وقال نُعَيْمُ بنُ حَمَّاد : سَمعتُ ابنَ المُبارَك يَقُولُ : السَّيْفُ الذي وَقَعَ بينَ الصَّحابَةِ فِتْنَةٌ ، ولا أَقُولُ لأحَدٍ منهُم هو مَفْتُونٌ[5] .

٩ـ الفِتْنَةُ تَمنَعُ من الجِهَاد :

قال سَعيدُ بنُ عبد العَزيز : لمَّا قُتِلَ عُثمانُ ، ووَقَعَ الاخْتِلافُ ، لَمْ يَكُنْ للنَّاسِ غَزْوٌ حتى اجْتَمَعُوا علىٰ مُعاوِيَةَ ، فأَغْزاهُم مَرَّاتٍ ، ثمَّ أغْزَى ابنَهُ في جَماعَةٍ من الصَّحابَةِ بَراً وبَحْراً حتىٰ أجَازَ بهم الخَليجَ ، وقاتَلُوا أَهْلَ القُسْطَنْطينيَّةَ علىٰ بابِها ، ثمَّ قَفَلَ[6] .

---

(١) سورة الحشر ، الآية : ١٠ .
(٢) انظر السير : (مُعاوية بن أبي سُفيان) ٣/ ١١٩ـ ١٦٢ ، وانظر النزهة : ١/٣٤٩ .
(٣) سورة الأنبياء ، الآية : ٢٣ .
(٤) انظر السير : (الحَسَن بن عليّ بن أبي طالب) ٣/ ٢٤٥ـ ٢٧٩ ، وانظر النزهة : ٤/٣٨١ .
(٥) انظر السير : (عبد الله بن المبارك) ٣٧٨ ـ ٤٢١ ، وانظر النزهة : ٥/٧٦٩ .
(٦) انظر السير : (مُعاوية بن أبي سفيان) ٣/ ١١٩ـ ١٦٢ ، وانظر النزهة : ١/٣٥٤ .

١٠ـ مَنْ كانَ عِندَهُ أخْبارُ الفِتَنِ :

عن الزُّهْريِّ : أخْبَرَني أبو إدْريس : حُذَيْفَةُ يقُولُ : والله إنِّي لأعْلَمُ النَّاسَ بكُلِّ فِتْنَةٍ هي كائِنَةٌ فيما بَيني وبَينَ السَّاعةِ .

قال حُذَيْفَةُ : كان النَّاسُ يَسْألُونَ رسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم عن الخَيْرِ ، وكُنتُ أسْألُه عن الشَّرِّ مَخافَةَ أنْ يُدْرِكَني[١] .

١١ـ فِتَنٌ وَقَعت بين الصَّحابَة رضِيَ اللهُ عنهُم :

عن علقَمَة بنِ وَقَّاصٍ اللَّيْثيِّ ، قال : لمَّا خَرجَ طَلْحَةُ بنُ عُبَيْدِ الله ، والزُّبَيْرُ وعائِشَةُ للطَّلَبِ بدَمِ عُثمانَ ، عَرَّجُوا عن مُنْصَرَفِهم بِذاتِ عِرْقٍ ، فاسْتَصْغَرُوا عُروَةَ بنَ الزُّبَيْر ، وأبا بَكْر بنَ عبدِ الرَّحمَـٰنِ فرَدُّوهُما ، قال : ورَأيتُ طَلْحَةَ ، وأَحَبُّ المَجالِسِ إليه أخْلاها ، وهو ضَارِبٌ بلِحْيَتِه علىٰ زَوْره ، فقُلْتُ : يا أبا مُحمَّد!! إنِّي أرَاكَ وأَحَبُّ المَجالِسِ إليكَ أخْلاها ، إنْ كُنتَ تَكْرَهُ هـٰذا الأمْرَ فَدَعْه ، فقال : يا علقَمَة!! لا تَلُمْني ، كُنَّا أمْس يداً واحِدَةً علىٰ مَنْ سِوانا ، فأصْبَحْنا اليومَ جَبَلَيْنِ من حَديدٍ ، يَزْحَفُ أحَدُنا إلىٰ صاحِبه ، ولكِنَّه كان منِّي شَيءٌ في أمْرِ عُثمانَ ، ممَّا لا أرَىٰ كَفَّارَته إلاَّ سَفْكُ دَمِي ، وطَلَبُ دَمِه .

قال الذهبيُّ : الذي كان منه في حَقِّ عُثمانَ تَمَغْفلٌ وتَأْليبٌ ، فَعَلَه باجْتِهادٍ ، ثمَّ تَغيَّرَ عندما شَاهَدَ مَصْرَعَ عُثمانَ رضي الله عنه ، فنَدِمَ علىٰ تَرْكِ نُصْرَته رَضِيَ الله عَنهُما ، وكان طَلْحَةُ أوَّلَ مَنْ بَايَعَ عَليّاً ، أرْهَقَهُ قَتَلَةُ عُثمانَ ، وأحْضَرُوهُ حتىٰ بَايَعَ[٢] .

وعن عبدِ الرَّحمَـٰنِ بنِ أبي لَيْلَىٰ قال : انْصَرَفَ الزُّبَيْرُ يومَ الجَمَلِ عن عَليٍّ ، فلَقِيَهُ ابنُهُ عبدُ الله ، فقال : جُبْناً ، جُبْناً!! قال : قد عَلِمَ النَّاسُ أنِّي لَسْتُ بجَبَانٍ ، ولكن ذَكَّرَني عَليٌّ شَيئاً سَمِعتُهُ من رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ، فحَلَفْتُ أنْ لا أُقاتِلَه ، ثمَّ قال :

تَرْكُ الأُمُورِ التي أَخْشَىٰ عَواقِبَها ... في الله أحْسَنُ في الدُّنيا وفي الدِّينِ

---

(١) انظر السير : (حُذيفة بن اليَمان) ٢/ ٣٦١ـ٣٦٩ ، وانظر النزهة : ٧/٢٧٥ .

(٢) انظر السير : (طلحة بن عُبيد الله) ١/ ٢٣ـ ٤٠ ، وانظر النزهة : ٣/١٢٥ .

وقِيلَ إنَّه أَنْشَدَ :

ولَقَد عَلِمْتُ لَوْ أنَّ عِلْمِي نافِعِي أنَّ الحَيـاةَ مِـنَ المَمَـاتِ قَـرِيـبُ

فلَمْ يَنْشَب أنْ قتَلَه ابنُ جُرْمُوز .

عن جونِ بنِ قَتادَة قال : كُنتُ مع الزُّبَيْرِ يومَ الجَمَلِ ، وكانوا يُسَلِّمونَ عليه بالإمْرَةِ ، إلىٰ أنْ قال : فطَعَنَه ابن جُرْمُوزٍ فأثْبَتَه ، فوَقَعَ ، ودُفِنَ بوادِي السِّباعِ ، وجَلَسَ عليٌّ رضي الله عنه ، يَبْكِي عَليهِ هو وأصْحابُه .

عن أبي نَضْرَة قال : جِيءَ برَأسِ الزُّبَيْرِ إلىٰ عَليٍّ فقال عَليٌّ رضي الله عنه : تَبَوَّأ يا أعْرابِيُّ مقعَدَكَ من النَّار ، حدَّثني رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم أنَّ قاتِلَ الزُّبَيْرِ في النَّارِ[1] .

وعن عبدِ الله بنِ سَلَمَة قال : رَأيتُ عَمَّاراً يومَ صِفِّينَ شَيخاً آدم ، طُوالاً وإنَّ الحَرْبَةَ في يَدِه لترعُد ، فقال : والذي نَفْسِي بِيَدِه لقَدْ قَاتَلْتُ بها مع رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ثلاثَ مَرَّاتٍ وهـٰذِهِ الرَّابِعَةُ ، ولَوْ قَاتَلُونا حتىٰ يَبْلُغوا بنا سَعْفاتِ هُجَر ، لعَرَفتُ أنَّا على الحَقِّ ، وأنَّهم على الباطِلِ[2] .

وعن أبي سَعيدٍ قال : أمَرَنا رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم ببناءِ المَسْجِدِ فجَعلْنا نَنقُلُ لَبِنَةً لَبِنَةً ، وعَمَّارٌ يَنقُلُ لَبِنَتَيْنِ لَبِنَتَيْنِ ، فتَرِبَ رَأسُه ، فحَدَّثني أَصْحابِي ولَمْ أسْمَعْه من رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم أنَّه جَعَلَ يَنْفُضُ رَأسَه ويَقُولُ : « وَيْحَكَ يا بنَ سُمَيَّة ! ! تَقْتُلُك الفِئَةُ البَاغِيَةُ » .

وعن خالد الحَذَّاء : عن عِكْرِمَةَ سَمِعَ أبا سَعيدٍ بهـٰذا ولَفْظُهُ : « وَيْحَ ابنَ سُمَيَّةَ ! ! تَقْتُلُهُ الفِئَةُ الباغِيَةُ ، يَدعُوهُم إلى الجنَّةِ ويَدْعُونَه إلى النَّارِ » فجَعَلَ يقُولُ : أعُوذُ باللهِ من الفِتَنِ[3] .

---

(١) انظر السير : (الزُّبَيْرُ بن العَوّام) ١/ ٤١ـ ٦٧ ، وانظر النزهة : ٣/١٢٨ .

(٢) انظر السير : (عمَّار بن ياسر) ١/ ٤٠٦ـ ٤٢٨ ، وانظر النزهة : ١/١٨٤ .

(٣) انظر السير : (عمَّار بن ياسر) ١/ ٤٠٦ـ ٤٢٨ ، وانظر النزهة : ٣/١٨٥ .

وعن عبدِ الله بنِ زِيادٍ ، قالَ عَمَّارٌ : إنَّ أُمَّنا ـ يَعْنِي عائِشَةَ ـ قد مَضَتْ لِسَبيلِها ، وإنَّها لَزَوْجَتُه في الدُّنيا والآخِرَة ، ولكنَّ اللهَ ابْتَلانا بها لِيَعْلَمَ إيَّاهُ نُطِيعُ أو إيَّاها[1] ،[2] .

وعن أبي الغادية ، قال : سَمعتُ عَمَّاراً يَقعُ في عُثمانَ يَشْتُمُه فتَوَعَّدتُه بالقَتْلِ ، فلمَّا كان يومَ صِفِّينَ ، جَعَلَ عَمَّارٌ يَحْمِلُ على النَّاسِ ، فقِيلَ : هٰذا عَمَّارٌ ، فطَعَنْتُه في رُكْبَتِه ، فوَقَعَ فقَتَلْتُه ، فقِيلَ : قُتِلَ عَمَّارٌ ، وأُخْبِرَ عَمْرُو بنُ العَاصِ ، فقال : سَمعتُ رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنَّ قَاتِلَهُ وسَالِبَهُ في النَّارِ »[3] .

عن عاصِمِ بنِ كُلَيْبٍ ، عن أبيهِ : قال : انْتَهَيْنا إلىٰ عليٍّ رضي الله عنه ، فذَكَرَ عائِشَةَ ، فقال : خَليلَةُ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم .

قال الذهبيُّ : هٰذا حَديثٌ حَسَن . ومُصْعب فصالحٌ لا بَأسَ به وهٰذا يقُولُه أميرُ المُؤمِنينَ في حَقِّ عائِشَةَ مع ما وَقَعَ بَينَهُما ، فرَضِيَ الله عنهُما ولا رَيْبَ أنَّ عائِشَةَ نَدِمَتْ نَدامَةً كُلِّيَّة علىٰ مَسِيرِها إلى البَصْرَةِ وحُضُورِها يومَ الجَمَلِ ، وما ظَنَّتْ أنَّ الأمرَ يَبلُغُ ما بَلَغَ[4] .

عن إسْماعيلَ : حدَّثنا قَيسٌ ، قال : لمَّا أقْبَلَتْ عائِشَةُ ، فلمَّا بلَغَتْ مياهَ بني عامِرٍ ليلاً نَبَحَت الكِلابُ ، فقالت : أيُّ ماءٍ هٰذا ؟ قالوا : ماءُ الحَوْأَبْ قالت : ما أظُنُّني إلاَّ أنَّني راجِعَةٌ قال بعضُ مَنْ كان معها : بَلْ تُقْدِمينَ فيَرَاكِ المُسلِمُونَ ، فيُصْلِحُ الله ذاتَ بَينِهم قالت : إنَّ رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم قال ذاتَ يومٍ : « كيْفَ إحْداكنَّ تَنْبَحُ عَلَيْها كلابُ الحَوْأَبِ » هٰذا حَديثٌ صَحيحُ الإسْنادِ .

عن صالِحِ بنِ كَيْسان وغَيرِه : أنَّ عائِشَةَ جَعلَتْ تقُولُ : إنَّ عُثمانَ قُتِلَ مَظْلُوماً ، وأنا أدْعوكُم إلى الطَّلَبِ بدَمِه ، وإعادَةِ الأمْرِ شُورَىٰ .

عن ابنِ عَبَّاسٍ ، أنَّه قالَ للزُّبَيْرِ يومَ الجَمَلِ : هٰذه عائِشَةُ تُمَلِّكُ المُلكَ لقَرابَتِها

---

(١) كان هٰذا في وقعة الجمل .

(٢) انظر السير : (عمّار بن ياسر) ١/٤٠٦ـ٤٢٨ ، وانظر النزهة : ٥/١٨٥ .

(٣) انظر السير : (عمّار بن ياسر) ١/٤٠٦ـ٤٢٨ ، وانظر النزهة : ٦/١٨٥ .

(٤) انظر السير : (عائشة أمُّ المؤمنين) ٢/١٣٥ـ٢٠١ ، وانظر النزهة : ٣/٢٤١ .

طَلْحَة ، فأنتَ عَلامَ تُقاتِلُ قَريبَكَ عَليّاً ! ! فرَجعَ الزُّبَيْرُ ، فلَقِيَهُ ابنُ جُرْمُوزٍ ، فقَتَلَه .

قال الذهبيُّ : قد سُقتُ وَقْعَةَ الجَمَلِ مُلَخَّصَةً في مَناقِبِ عَليٍّ رضي الله عنه ، وإنَّ عَليّاً وَقفَ علىٰ خِبَاءِ عائِشَةَ يَلُومُها علىٰ مَسيرِها فقالت : يا ابنَ أبي طَالِب ، مَلَكْتَ فأَسْجِحْ[1] ، فجَهَّزَها إلى المَدينَةِ ، وأعْطَاها اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفاً فرَضِيَ اللهُ عَنْهُ وعَنْهَا[2] .

وعن أبي وَائِلٍ : سَمِعَ عَمَّاراً يقُولُ ، حينَ بَعثَه عَليٌّ إلى الكُوفَة لِيَسْتَنْفِرَ النَّاسَ : إنَّا لَنَعْلَمُ إنَّها لَزَوجَةُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم في الدُّنيا والآخِرَةِ ، ولكنَّ اللهَ ابتَلاكُم بها ، لِتَتَّبِعُوهُ ، أوْ إيَّاها[3] .

وعن ابنِ عَبَّاسٍ ، قال : قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم : « أيَّتُكنَّ صاحِبَةُ الجَمَلِ الأدْبَبِ ، يُقْتَلُ حَوْلَهَا قَتْلَىٰ كثيرٌ ، وتَنْجُو بَعْدَ ما كادَتْ » .

قال ابنُ عبدِ البَرِّ : هـٰذا الحَديثُ من أَعْلامِ النُّبُوَّةِ[4] .

وعن أبي عاصِم الغَطَفانيّ ، قال : كان حُذَيْفَةُ لا يَزالُ يُحَدِّثُ الحَديثَ ، يَسْتَفْظِعُونَه فقِيلَ له : يُوشِكُ أنْ تُحَدِّثَنا : أنَّه يَكُونُ فينا مَسْخٌ ! ! قال رضي الله عنه : نَعَم : لَيَكُونَنَّ فيكُم مَسْخٌ : قِرَدَةٌ وخَنازِيرَ[5] .

وعن الحَسَنِ : قال : كان الحَكَمانِ : أبا مُوسَىٰ ، وعَمْراً ، وكان أحَدُهما يَبْتَغِي الدُّنيا ، والآخَرُ يَبْتَغِي الآخِرَةَ[6] .

وقال أبو عُبَيْد : كان عبدُ الله بنُ عَمْرو بنِ العاصِ علىٰ مَيْمَنَةِ جَيْشِ مُعاوِيَةَ يومَ صِفِّين .

عن حَنْظَلَةَ بنِ خُوَيْلِدِ العَنْبَرِيّ ، قال : بَيْنما أنا عندَ مُعاوِيَةَ إذ جاءَه رجُلانِ

---

(١) أي قدرت فسهِّل العفو ، وهو مَثَلٌ سائر .

(٢) انظر السير : (عائشة أمُّ المؤمنين) ٢/ ١٣٥ـ ٢٠١ ، وانظر النزهة : ٢٤١/ ٤ .

(٣) انظر السير : (عائشة أمُّ المؤمنين) ٢/ ١٣٥ـ ٢٠١ ، وانظر النزهة : ٢٤٢/ ١ .

(٤) انظر السير : (عائشة أمُّ المؤمنين) ٢/ ١٣٥ـ ٢٠١ ، وانظر النزهة : ٢٤٥/ ٣ .

(٥) انظر السير : (حُذيفة بن اليمان) ٢/ ٣٦١ـ ٣٦٩ ، وانظر النزهة : ٢٧٦/ ٢ .

(٦) انظر السير : (أبو موسى الأشعريّ) ٢/ ٣٨٠ـ ٤٠٢ ، وانظر النزهة : ٢٨٢/ ٤ .

يَخْتَصِمانِ في رَأسِ عَمَّارٍ رضي الله عنه ، فقال كُلُّ واحِدٍ منهُما : أنا قَتَلْتُه فقال عبدُ الله بنُ عَمْرو : لِيَطِبْ به أَحدُكُما نَفْساً لِصَاحِبِه ، فإنِّي سَمعتُ رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم يقُولُ : « تَقْتُلُهُ الفِئَةُ البَاغِيَةُ » ، فقال مُعاويَةُ : يا عَمْرُو!! ألا تُغْني عنَّا مَجْنُونَك ، فما بالُكَ مَعَنا!! ؟ قال : إنَّ أبي شَكاني إلىٰ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم فقال : « أَطِعْ أبَاكَ مادَامَ حَيَّاً » فأنا مَعَكُم ، ولَسْتُ أقَاتِلُ ، تُوفِّي عبدُ الله بنُ عَمْرو بمِصْرَ ، ودُفِنَ بدَارِه الصَّغيرَة سَنَةَ خَمسٍ وستِّين[1] .

وقال الواقِديُّ : لمَّا قُتِلَ عُثمانُ بَعَثَتْ نائِلَةُ بنتُ الفَرافِصَة امْرأتُه إلىٰ مُعاوِيَةَ كِتاباً بما جَرىٰ ، وبَعَثَتْ بقَميصِهِ بالدَّمِ ، فقَرَأَ مُعاوِيَةُ الكِتابَ ، وطَيَّفَ بالقَميصِ في أجْنادِ الشَّامِ ، وحَرَّضَهُم على الطَّلَبِ بدَمِه ، وأجْمَعَ على المَسيرِ إلىٰ صِفِّينَ ، وقَصَدَ كُلٌّ منهُما الآخَرَ ، فالْتَقَوْا لِسَبعٍ بَقِينَ من المُحَرَّم سَنَةَ سَبْعٍ وثلاثين .

وفي أوَّلِ صَفَرٍ شَبَّت الحَربُ وقُتِلَ خَلْقٌ ، وضَجِرُوا ، فرَفَعَ أهْلُ الشَّامِ المَصاحِفَ ، وقالُوا : نَدْعُوكُم إلىٰ كِتابِ الله والحُكْمِ بما فيه ، وكان ذلك مَكِيدَةً من عَمْرِو بنِ العاصِ ، فاصْطَلَحُوا وكَتَبُوا بَينَهُم كَتاباً علىٰ أنْ يُوافُوا أذْرُح[2] . ويُحَكِّمُوا حَكَمَيْنِ[3] .

قال : فلَمْ يَقَع اتِّفاقٌ ورَجَعَ عَليٌّ إلى الكُوفَةِ بالدَّغَلِ[4] من أصْحابِه والاخْتِلافِ فخَرَجَ منهُم الخَوارِجُ ، وأنْكَرُوا تَحْكِيمَه ، وقالوا : لا حُكْمَ إلاَّ لله ، ورَجَعَ مُعاويَةُ بالأُلْفَةِ والاجْتِماعِ ، وبَايَعَهُ أهْلُ الشَّامِ بالخِلافَةِ في ذي القِعْدَةِ سَنَةَ ثَمانٍ وثلاثين .

ثمَّ اسْتُشْهِدَ عَليٌّ في رَمَضانَ سَنَةَ أرْبَعِينَ وصَالَحَ الحَسَنُ بنُ عَليٍّ مُعاوِيَةَ ، وبَايَعَهُ ، وسُمِّيَ عامَ الجَماعَةِ وحَجَّ بالنَّاسِ سَنَةَ خَمسينَ .

ثمَّ اعْتَمَرَ سَنَةَ سِتٍّ وخَمسِينَ في رَجَبَ ، وكان بَينَه وبَينَ الحُسَيْنِ وابنِ عُمَرَ ، وابنِ

---

(١) انظر السير : (عبد الله بن عَمرُو بن العاص) ٣/ ٧٩ـ ٩٤ ، وانظر النزهة : ٣٤٠/ ٤ .
(٢) أَذْرُح : اسم بلد في أطراف الشام من نواحي البلقاء وعمان مجاورة لأرض الحجاز .
(٣) انظر السير : (مُعاوية بن أبي سُفيان) ٣/ ١١٩ـ ١٦٢ ، وانظر النزهة : ٣٥٠/ ٤ .
(٤) الدغل : الفساد .

الزُّبَيْرِ ، وابنِ أبي بَكْرٍ ، كَلامٌ في بَيْعَةِ العَهْدِ لِيَزِيدَ ، ثمَّ قال : إنِّي مُتَكَلِّمٌ بكَلامٍ ، فلا تَرُدُّوا عَليَّ أَقْتُلْكُم ، فخَطَبَ ، وأَظْهَرَ أنَّهم قد بَايَعُوا ، وسَكَتُوا ولَمْ يُنْكِروا ، ورَحَلَ علىٰ هٰذا وادَّعَىٰ زِيادٌ أنَّه أخُوهُ فوَلَّاه الكُوفَةَ بعدَ المُغِيرَة ، فكَتَبَ إليه في حُجْرِ بنِ عَديّ وأصْحابه ، وحَمَلَهم إليه فقتَلَهم بمَرْجِ عَذْراء ، ثمَّ ضَمَّ الكُوفَةَ والبَصْرَة إلىٰ زِيادٍ ، فمَاتَ ، فوَلاهُما ابنَه عُبَيْدَ الله بنَ زِيادٍ[1] .

قال الأوْزاعِيُّ : سَألَ رجلٌ الحَسَنَ البَصْريَّ عن عَليٍّ وعُثمانَ ، فقال : كانت لهٰذا سَابِقَةٌ ولهٰذا سَابِقَةٌ ، ولهٰذا قَرابَةٌ ولهٰذا قَرابَةٌ ، وابْتُلِيَ هٰذا ، وعُوفِيَ هٰذا ، فسَألَه عن عَليٍّ ومُعاويَة ، فقال : كان لهٰذا قَرابَةٌ ولهٰذا قَرابَةٌ ولهٰذا سَابِقَةٌ ولَيْسَ لهٰذا سَابِقَةٌ ، وابْتُلِيَا جَميعاً[2] .

قال الذهبيُّ : قُتِلَ بَينَ الفَريقَيْنِ نَحْواً من سِتِّينَ ألْفاً وقِيلَ : سَبْعُونَ ألْفاً وقُتِلَ عَمَّارٌ مع عَليٍّ ، وتَبَيَّنَ للنَّاسِ قَولُ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم : « تَقْتُلُهُ الفِئَةُ البَاغِيَةُ »[3] .

وعن أبي أُمَامَةَ ، قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم لِنسائِه : « لا تُبَكُّوا هٰذا » يَعني حُسَيْناً ، فكان يومُ أُمِّ سَلَمَة ، فنَزَلَ جِبْريلُ ، فقال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم لأُمِّ سَلَمَة : لا تَدَعِي أحَداً يَدخُلُ فجاءَ حُسَيْنٌ ، فبَكَىٰ ، فخَلَّتْه يَدخُلُ ، فدَخَلَ حتىٰ جَلَسَ في حِجْرِ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ، فقال جِبْريلُ : إنَّ أُمَّتَكَ سَتَقْتُلُه قال صلى الله عليه وسلم : « يَقْتُلُونَه وهُم مُؤمِنُون!! ؟ » قال : نَعَم ، وأَرَاهُ تُرْبَتَه[4] .

بَلَغَنا أنَّ الحُسَيْنَ لَمْ يُعْجِبْه ما عَمِلَ أخُوهُ الحَسَنُ من تَسْلِيمِ الخِلافَةِ إلىٰ مُعاوِيَةَ ، بَلْ كان رَأيُه القِتالُ ، ولكنَّه كَظَمَ ، وأطَاعَ أخَاهُ ، وبايَعَ وكان يَقْبَلُ جَوائِزَ مُعاوِيَةَ ، ومُعاوِيَةُ يَرَىٰ له ، ويَحْتَرِمُه ، ويُجِلُّه فلمَّا أنْ فَعَلَ مُعاوِيَةُ ما فَعَلَ بعدَ وَفاةِ السَّيِّدِ الحَسَنِ

---

(١) انظر السير : (مُعاوية بن أبي سُفيان) ٣/ ١١٩ـ ١٦٢ ، وانظر النزهة : ٣٥١/ ١ .
(٢) انظر السير : (مُعاوية بن أبي سُفيان) ٣/ ١١٩ـ ١٦٢ ، وانظر النزهة : ٣٥١/ ٢ .
(٣) انظر السير : (مُعاوية بن أبي سُفيان) ٣/ ١١٩ـ ١٦٢ ، وانظر النزهة : ٣٥١/ ٣ .
(٤) انظر السير : (الحُسينُ الشهيد) ٣/ ٢٨٠ـ ٣٢١ ، وانظر النزهة : ٣٨٢/ ٥ .

من العَهْدِ بالخِلافَةِ إلىٰ وَلَدِه يَزيدَ تَألَّمَ الحُسَيْنُ ، وحُقَّ له وامْتَنَعَ هو وابنُ أبي بَكْرٍ وابنُ الزُّبَيْرِ من المُبايَعَةِ ، حتّىٰ قَهَرَهُم مُعاوِيَةُ ، وأخَذَ بَيْعَتَهُم مُكْرَهينَ ، وغُلِبُوا ، وعَجَزوا عن سُلطَانِ الوَقْتِ فلمَّا مات مُعاويَةُ ، تَسَلَّمَ الخِلافَةَ يَزيدُ وبايَعَهُ أكْثَرُ النَّاسِ ، ولَمْ يُبايِع له ابنُ الزُّبَيْرِ ولا الحُسَيْنُ ، وأنِفُوا من ذلكَ ورَامَ كُلُّ واحِدٍ منهُما الأمْرَ لنَفْسِه ، وسَارُوا في اللَّيلِ من المَدينَةِ إلىٰ مَكَّةَ ، ونَزَلَ الحُسَيْنُ بمَكَّةَ دَارَ العَبَّاسِ ، ولَزِمَ عبدُ الله الحِجْرَ ، وجَعَلَ يُحَرِّضُ علىٰ بَني أُمَيَّة ، وكان يَغْدُو ويَرُوحُ إلى الحُسَيْنِ ، ويُشِيرُ عليه أنْ يَقْدُمَ العِراقَ ويَقُولُ : هم شِيْعَتُكم وكان ابنُ عَبَّاسٍ يَنْهاهُ وقال له أبو سَعيدٍ : اتَّقِ الله والْزَمْ بَيْتَكَ وكَلَّمَه جَابِرُ ، وأبُو وَاقِدٍ اللَّيْثيّ .

وأبَى الحُسَيْنُ علىٰ كُلِّ مَنْ أشَارَ عليهِ إلاَّ المَسِيرَ إلى العِراقِ .

ورَوى ابنُ سَعدٍ بأسانِيدِه : قالُوا : وأخَذَ الحُسَيْنُ طَرِيقَ العُذَيْبِ[1] حتىٰ نَزَلَ قَصْرَ أبي مُقاتِلٍ[2] ، فخَفَقَ خَفْقَةً ، ثمَّ اسْتَرْجَعَ ، وقال : رَأيتُ كأنَّ فارساً يُسَايِرُنا ، ويقُولُ : القَومُ يَسيرُونَ ، والمَنايَا تَسْري إليهِم ، ثمَّ نَزَلَ كَرْبلاءَ ، فسَارَ إليه عُمَرُ بنُ سَعدٍ كالمُكْرَه إلىٰ أنْ قالَ : وقُتِلَ أصْحابُه حَوْلَهُ ، وكانوا خَمْسينَ ، وتَحَوَّلَ إليه من أُولئِكَ عِشْرُونَ ، وبَقِيَ عَامَّةُ نَهَاره لا يَقْدُمُ عليه أحَدٌ ، وأحَاطَتْ به الرَّجَّالَةُ ، وكان يَشُدُّ عليهِم ، فيَهْزِمُهُم وهم يَكْرَهُونَ الإقْدَامَ عليهِ ، فصَرَخَ بهم شِمْر! ثَكِلَتْكُم أُمَّهاتِكُم ، ماذا تَنْتَظِرُون به ؟ وطَعَنَه سِنانُ بنُ أنَسٍ النَّخْعِيّ في تُرْقُوَتِه ، ثمَّ طَعَنَه في صَدْرِه فخَرَّ واحْتَزَّ رَأسَه خوليٌّ الأَصْبحيّ لا رَضِيَ الله عنهُما .

قال : ووُجِدَ بالحُسَيْنِ ثلاثٌ وثلاثُونَ جِراحَة .

ولَمْ يُفْلِتْ من أهْلِ بَيْتِ الحُسَيْنِ سِوىٰ وَلَدِه عَليٍّ الأصْغَر ، فالحُسَيْنيَّةُ من ذُرِّيَتِه ، كان مَرِيضاً ، وحَسَنِ بنِ حَسَنِ بنِ عَليّ ـ وله ذُرِّيَّةٌ ـ وأخيه عَمْرُو ، ولا عَقِبَ له ،

---

(١) قال ياقوت : العُذيب : ماءٌ بين القادسية والمغيثة .

(٢) في الطبريّ ٥/٤٠٧ ، وابن الأثير ٤/ ٥٠ : قصر بني مقاتل ، قال ياقوت في « معجم البلدان » ٤/ ٣٦٤ : وقصر مقاتل : كان بين عين التمر والشام وقال السكوني : هو قرب القطقطانة وسلم ثم القريّات منسوب إلىٰ مقاتل بن حسان بن ثعلبة بن أوس .

والقَاسِمِ بن عبدِ اللهِ بنِ جَعْفَر ، ومُحمَّدِ بنِ عَقيل ، فقَدِمَ بهم وبزَيْنَب وفاطِمَة بِنْتَي عَليّ ، وفاطِمَة وسُكَيْنَة بِنْتَي الحُسَيْنِ ، وزَوجَتِه الرَّباب الكَلْبيّة والِدَةِ سُكَيْنَة ، وأُمِّ مُحمَّد بِنْتِ الحَسَنِ بنِ عَليّ ، وعَبيدٍ وإماءٍ لهم .

ووَرَدَ البَشيرُ علىٰ يَزيدَ ، فلمَّا أخْبَرَه ، دَمِعَتْ عَيْناهُ ، وقال : كُنتُ أرْضَىٰ من طاعَتِكُم بدُونِ قَتْلِ الحُسَيْنِ وقالت سُكَيْنَةُ : يا يَزيدُ ، أبَنَاتُ رسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم سَبايَا!! ؟ ، قال : يا بِنْتَ أخِي هُوَ واللهِ عليَّ أشَدُّ منه عَليكِ ، أقْسَمتُ ولَوْ أنَّ بَينَ ابنَ زِيادٍ وبَينَ حُسَيْنٍ قَرابَةٌ ما أَقْدَمَ عَليهِ ، ولكنْ فَرَّقتْ بَينَه وبَينَه سُمَيَّة ، فرَحِمَ اللهُ حُسَيْناً ، عَجَّلَ عليه ابنُ زيادٍ ، أما واللهِ لَوْ كُنتُ صَاحِبَه ثمَّ لَمْ أَقْدِرْ علىٰ دَفْعِ القَتْلِ عنه إلاَّ بنَقْصِ بَعضِ عُمْري ، لأَحْبَبْتُ أنْ أدْفعَه عنه ولَوَدِدْتُ أنْ أُتِيتُ به سِلْماً .

ثمَّ أقْبَلَ علىٰ عَليِّ بنِ الحُسَيْنِ ، فقال : أبُوكَ قَطَعَ رَحِمي ، ونَازَعَني سُلطَانِي فقَامَ رَجلٌ ، فقال : إنَّ سِباءَهُم لنا حَلالٌ قال عَليٌّ : كَذَبْتَ إلاَّ أنْ تَخْرُجَ من مِلَّتِنا فأطْرَقَ يَزيدُ ، وأمَرَ بالنِّسَاءِ ، فأُدْخِلْنَ علىٰ نِسائِهِ وأمَرَ نِساءَ آلِ أبي سُفْيَانَ ، فأَقَمْنَ المَأْتَمَ على الحُسَيْنِ ثَلاثَةَ أيَّام ، إلىٰ أنْ قال : وبَكَتْ أُمُّ كُلثُوم بِنْتُ عبدِ اللهِ ابنِ عامِرٍ ، فقَالَ يَزيدُ وهو زَوْجُها : حُقَّ لها أنْ تعُولَ علىٰ كَبيرِ قُرَيْشٍ وسَيِّدِها فجَهَّزَهُم وحَمَلَهم إلى المَدينَةِ .

عن ابنِ عَبَّاسٍ قالَ : رَأيتُ رسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم في النَّومِ نِصْفَ النَّهَارِ ، أَشْعَثَ أغْبَرَ ، وبِيَدِهِ قارُورَةٌ فيها دَمٌ قُلتُ : يا رسُولَ اللهِ ، ما هـٰذا ؟ قال صلى الله عليه وسلم : « هـٰذا دَمُ الحُسَيْنِ وأصْحابِه ، لَمْ أَزَلْ مُنْذُ اليَومِ ألْتَقِطُهُ » فأُحْصِيَ ذَلكَ اليَومُ فوَجَدُوهُ قُتِلَ يومَئِذٍ رضي الله عنه(١) .

وقال الذهبيُّ في تَرْجَمَةِ مَرْوانَ بنِ الحَكَمِ بنِ أبي العاصِ ، المَلكُ أبو عبدِ المَلكِ القُرَشِيُّ الأُمَويُّ .

مَوْلِدُه بمَكّةَ ، وهو أصْغَرُ من ابنِ الزُّبَيْرِ بأرْبَعَةِ أشْهُر وقِيلَ : له رُؤْيَة ، وذلك مُحْتَمَلٌ .

---

(١) انظر السير : (الحُسينُ الشهيد) ٣/ ٢٨٠ـ ٣٢١ ، وانظر النزهة : ٦/ ٣٨٢ ـ ٣٨٤ .

وكان كاتِبَ ابنِ عمِّه عُثمانَ ، وإليه الخاتَم ، فخَانَه ، وأجْلَبُوا بسَبَبه علىٰ عُثمانَ ، ثمَّ نَجَا هو ، وسَارَ مع طَلْحَةَ والزُّبَيْرِ للطَّلَبِ بدَمِ عُثمانَ فقتَلَ طَلْحَةَ يومَ الجَمَلِ ، ونَجا ـ لا نُجِّيَ ـ ثمَّ وَلي المدينةَ غيرَ مرةٍ لمُعاوِيَة .

وكان أبُوه قد طَرَدَه النبيُّ صلى الله عليه وسلم إلى الطَّائِفِ ، ثمَّ أقْدَمَه عُثمانُ إلى المَدينَةِ لأنَّه عمُّه ولمَّا هَلَكَ ولَدُ يَزيد ، أقْبَلَ مَرْوانُ ، وانْضَمَّ إليه بَنُو أُمَيَّة وغيرُهم ، وحارَبَ الضَّحَّاكَ الفِهْرِيَّ ، فقتَلَه ، وأخَذَ دِمَشْقَ ، ثمَّ مِصْرَ ودَعَا بالخِلافَةِ .

وكان ذا شَهامَةٍ ، وشَجَاعَةٍ ، ومَكْرٍ ، ودَهَاءٍ ، أحْمَرَ الوَجْهِ[1] .

١٢ـ فِتنَةُ الحَرَّة :

دَخَلَ أبو سَعيدٍ الخُدْرِيّ يومَ الحَرَّةِ غَاراً ، فدَخَلَ عليه فيه رَجُلٌ ، ثمَّ خَرَجَ فقال لرَجُلٍ من أهْلِ الشَّامِ : أدُلُّكَ علىٰ رَجُلٍ تَقْتُلُه ؟ فلمَّا انْتَهَى الشَّاميُّ إلىٰ بَابِ الغَارِ ، وفي عُنُقِ أبي سَعيدٍ السَّيفُ ، قال لأبي سَعيدٍ : أُخْرُجْ ، قال : لا أخْرُجُ وإنْ تَدخُلْ أقْتُلْكَ ، فدَخَلَ الشَّاميُّ عليه ، فوَضَعَ أبو سَعيدٍ السَّيْفَ ، وقال : بُؤْ بإثْمي وإثْمِكَ ، وكُنْ من أصْحابِ النَّارِ قال : أنْتَ أبو سَعيدٍ الخُدْرِيّ ؟ قال : نَعَم قال : فاسْتَغْفِرْ لي ، غَفَرَ اللهُ لَكَ[2] .

قال الذهبيُّ في تَرجَمَةِ عبدِ الله بنِ حَنْظَلَة : كان عبدُ الله ابنُ حَنْظَلَة رَأسَ الثَّائِرينَ علىٰ يَزيدٍ نَوْبَةَ الحَرَّة .

وَفِدَ في بَنِيهِ الثَّمانِيَةِ علىٰ يَزيدٍ ، فأعْطَاهُم مِئَتَيّ ألْفٍ وخِلْعَاً فلمَّا رَجَعَ ، قال له كُبَرَاءُ المَدينَةِ : ما وَرَاءَك ؟ قال : جِئْتُ من عندِ رَجُلٍ لَوْ لَمْ أجِدْ إلاَّ بَنِيَّ ، لجاهَدْتُه بهم قالوا : إنَّه أكْرَمَكَ وأعْطاكَ قال : وما قَبِلْتُ إلاَّ لأتقَوَّىٰ به عَليه ، وحَضَّ النَّاسَ ، فبايَعُوهُ ، وأُمِّرَ على الأنْصارِ وأُمِّرَ علىٰ قُرَيشٍ عبدُ الله بنُ مُطيع العَدَويّ ، وعلىٰ باقي المُهاجِرينَ مَعْقِلُ بنُ سِنَانٍ الأشْجَعيّ ، ونَفَوا بَني أُمَيَّة .

---

(١) انظر السير : (مَروان بن الحَكم) ٣/٤٧٦ـ٤٧٩ ، وانظر النزهة : ١/٤١٢ .

(٢) انظر السير : (أبو سعيد الخُدريّ) ٣/١٦٨ـ١٧٢ ، وانظر النزهة : ٣/٣٦٠ .

فجهَّزَ يَزيدُ لهم جَيْشاً ، عليهم مُسْلِمُ بنُ عُقْبَة ـ ويُدْعَىٰ مُسْرِفاً ـ المُرِّيّ في اثْنَيّ عَشَر أَلْفاً ، فكَلَّمَه عبدُ الله بنُ جَعْفَر في أَهْلِ المَدينَةِ ، فقال : دَعْني أَشْتَفي ، لكنِّي آمُرُ مُسْلِمَ بنَ عُقْبَة أن يَتَّخِذَ المَدينَةَ طَريقَه إلىٰ مَكّةَ فإنْ هم لَمْ يُحارِبُوه ، وتَرَكُوهُ ، فيَمْضي لحَربِ ابنِ الزُّبَيْرِ ، وإنْ حارَبُوهُ قاتَلَهُم ، فإنْ نُصِرَ ، قتَلَ ، وأَنْهَبَ المَدينَةَ ثَلاثاً ، ثمَّ يَمْضي إلى ابنِ الزُّبَيْرِ .

وكَتَبَ عبدُ الله بنُ جَعْفَر إليهم ليَكُفُّوا ، فقَدِمَ مُسْلِمٌ ، فحارَبُوهُ ونالُوا من يَزيدَ فأَوْقَعَ بهم ، وأَنْهَبَهَا ثَلاثاً ، وسَارَ ، فمَاتَ بالشَّلَلِ ، وعَهِدَ إلىٰ حُصَينِ بنِ نُمَيْر في أَوَّلِ سَنَةِ أَرْبَعٍ وسِتِّينَ ، وذَمَّهُم ابنُ عُمَرَ علىٰ شَقِّ العَصَا .

قال زَيدُ بنُ أَسْلَم : دَخَلَ ابنُ مُطيع على ابنِ عُمَرَ لَيالي الحَرَّة فقال ابنُ عُمَرَ : سَمعتُ رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم يقُولُ : « مَنْ نَزَعَ يَداً مِنْ طَاعَةٍ لَمْ يَكنْ لَهُ حُجَّةٌ يَومَ القِيَامَةِ » .

قال المَدائِنيُّ : تَوَجَّهَ إليهم مُسْلِمُ بنُ عُقْبَة في اثْنَيّ عَشَر أَلْفاً وأَنْفَقَ فيهم يَزيدُ في الرَّجُلِ أَرْبَعينَ ديناراً فقال له النُّعْمانُ بنُ بَشِير : وَجِّهْني أَكْفِكَ قال : لا ، لَيسَ لهُم إلاَّ هٰذا الغُشَمة ، والله لا أُقِيلُهُم بعدَ إحْسَاني إليهم وعَفْوي عنهُم مَرَّةً بعدَ مَرَّة ، فقال : أَنْشُدُكَ اللهَ يا أميرَ المُؤمِنينَ في عَشيرَتِكَ ، وأَنْصارِ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم وكَلَّمَه عبدُ الله بنُ جعْفَر ، فقال : إنْ رَجَعُوا ، فلا سَبيلَ عليهِم ، فادْعُهُم يا مُسْلِمُ ثلاثاً ، وامْضِ إلى المُلْحِدِ ابنِ الزُّبَيْرِ ، قال : واسْتَوْصِ بعَليِّ ابنِ الحُسَيْنِ خَيراً .

عن الحَسَنِ ، قال : والله ما كَادَ يَنْجُو منهُم أَحدٌ ، لقد قُتِلَ وَلَدَا زَيْنَب بنْتِ أُمِّ سَلَمَة .

قال مُغيرَةُ بنُ مِقْسَم : أَنْهَبَ مُسْرِفُ بنُ عُقْبَة المَدينَةَ ثلاثاً ، وافْتُضَّ بها أَلْفُ عَذْراء .

قال السَّائِبُ بنُ خَلاَّد : سَمعتُ رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم يقُولُ : « مَنْ أَخَافَ أَهْلَ المَدينَةِ ، أَخَافَهُ اللهُ ، وعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ »[1] .

---

(١) وتمامه : « والمَلائِكَةِ والنَّاسِ أجْمَعِين ، لا يَقْبَلُ اللهُ مِنْهُ يومَ القِيامَةِ صَرْفاً ولا عَدْلاً » .

قال خَليفَةُ : أُصِيبَ من قُرَيشٍ والأنْصارِ يومَئذٍ ثلاثَ مِئَةٍ وسَتَّة رجالٍ ثم سَمَّاهُم .

وعن أبي جَعْفَرٍ البَاقِرِ ، قال : ما خَرَجَ فيها أَحَدٌ من بَنِي عبدِ المُطَّلِبِ ، لَزِمُوا بُيُوتَهُم ، وسَأَلَ مُسْرِفٌ عن أبي ، فجاءَه ومعه ابنا مُحمَّد بنِ الحَنَفيَّة فرَحَّبَ بأبي ، وأَوْسَعَ له ، وقال : إنَّ أميرَ المُؤمِنينَ أوْصاني بِكَ .

كانت الوَقْعَةُ لثلاثٍ بَقِينَ من ذي الحِجَّة سَنةَ ثلاثٍ وسِتِّين وأُصيبَ يومئذٍ عبدُ الله بنُ يَزيد بنِ عاصِمٍ حاكِي وُضُوءَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم ومَعْقِلُ بنُ سِنان ومُحمَّدُ بنُ أُبَيِّ بنِ كَعْب ، وعِدَّةٌ من أوْلادِ كُبَراءِ الصَّحابَةِ ، وقُتِلَ جماعَةٌ صَبراً .

وعن مالكِ بنِ أَنَسٍ ، قال : قُتِلَ يومَ الحَرَّةِ من حَمَلَةِ القُرآنِ سَبْعُ مِئَةٍ .

قال الذهبيُّ : فلمَّا جَرَتْ هذه الكائِنَةُ ، اشْتَدَّ بُغْضُ النَّاسِ لِيَزِيدَ مع فِعْلِهِ بالحُسَيْنِ رضي الله عنه وآلِهِ ، ومع قِلَّةِ دِينِه ، فخَرَجَ عليه أبُو بِلال مِرْداسُ ابنُ أُديّةَ الحَنْظَليّ وخَرَجَ نافِعُ بنُ الأزْرَق ، وخَرَجَ طَوَّافُ السّدوسيّ ، فما أَمْهَلَهُ الله ، وهَلَكَ بعدَ نَيِّفٍ وسَبعينَ يوماً[1] .

١٣ـ كراهِيَةُ الفِتَنِ والتَّحْذيرِ منْها :

وعن عبدِ الرَّحمَنِ بنِ أبي لَيْلَىٰ قال : انْصَرَفَ الزُّبَيْرُ يومَ الجَمَلِ عن عَليٍّ ، فلَقِيَهُ ابنُهُ عبدُ الله ، فقال : جُبْناً ، جُبْناً ! قال : قد عَلِمَ النَّاسُ أنِّي لَسْتُ بجَبَانٍ ، ولكن ذَكَّرَني عَليٌّ شَيئاً سَمعتُهُ من رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ، فحَلَفْتُ أنْ لا أُقاتِلَه ، ثمَّ قال :

تَرْكُ الأُمُورِ التي أَخْشَىٰ عَواقِبَها ... في الله أَحْسَنُ في الدُّنيا وفي الدِّينِ

وقِيلَ إنَّه أَنْشَدَ :

ولَقَد عَلِمْتُ لَوْ أنَّ عِلْمِي نافِعِي ... أنَّ الحَياةَ مِنَ المَماتِ قَرِيبُ

فلَمْ يَنْشَب أنْ قَتَلَه ابنُ جُرْمُوز .

---

(١) انظر السير : (عبد الله بن حنظلة) ٣/ ٣٢١ـ ٣٢٥ ، وانظر النزهة : ١/٣٨٦ .

عن جونِ بنِ قَتَادَة قال : كُنتُ مع الزُّبَيْرِ يومَ الجَمَلِ ، وكانوا يُسَلِّمونَ عليه بالإِمْرَةِ ، إلىٰ أنْ قال : فطَعَنَه ابن جُرْمُوزٍ فأثْبَتَه ، فوَقَعَ ، ودُفِنَ بوادِي السِّباعِ ، وجَلَسَ عليٌّ رضي الله عنه ، يَبْكِي عَليهِ هو وأصْحابُه .

عن أبي نَضْرَة قال : جِيءَ برَأسِ الزُّبَيْرِ إلىٰ عَليٍّ فقال عَليٌّ رضي الله عنه : تَبَوَّأْ يا أعْرابِيُّ مقعَدَكَ من النَّار ، حدَّثني رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم أنَّ قاتِلَ الزُّبَيْرِ في النَّارِ[1] .

وعن عامرِ بنِ سَعدٍ أنَّ أبَاهُ سَعداً كان في غَنَمٍ له ، فجاءَ ابنُه عُمَرُ ، فلمَّا رَآهُ قال : أعُوذُ بالله من شَرِّ هٰذا الرَّاكِبِ ، فلمَّا انتَهَىٰ إليهِ ، قال : يا أَبَتِ أرَضيتَ أنْ تَكُونَ أعْرابيّاً في غَنَمِك ، والنَّاسُ يَتَنازَعُونَ في المُلْكِ بالمَدينَةِ!! ؟ ، فضَرَبَ صَدرَ عُمَرَ ، وقال : اسْكُتْ فإنِّي سَمعتُ رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم ، يقول : « إنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ يُحِبُّ العَبْدَ التَّقِيَّ الغَنِيَّ الخَفِي »[2] .

عن حُسَيْنِ بنِ خارِجَة الأشْجَعيّ قال : لمَّا قُتِلَ عُثمانُ رضي الله عنه ، أُشْكِلَتْ عَليَّ الفِتْنَةُ ، فقُلتُ : اللَّهُمَّ أرِني من الحَقِّ أمراً أتَمَسَّكُ به ، فرَأيتُ في النَّومِ الدُّنيا والآخِرة بينَهُما حائِطٌ ، فهَبَطتُ الحائِطَ ، فإذا بنَفَرٍ ، فقالوا : نَحنُ المَلائِكَةُ ، قُلتُ : فأيْنَ الشُّهَداءِ ؟ قالوا : اصْعَد الدَّرجاتِ ، فصَعَدتُ دَرَجَةً ثمَّ أُخْرَىٰ ، فإذا مُحمَّدٌ وإبْراهيمُ ، صَلَّى اللهُ عَليهِمَا ، وإذا مُحمَّدٌ يقُولُ لإبْراهيمَ : اسْتَغْفِرْ لأُمَّتي ، قال : إنَّكَ لا تَدْري ما أحْدَثوا بَعْدَك ، إنَّهم أهْرَقُوا دَماءَهم ، وقَتَلُوا إمَامَهُم ، ألا فَعَلُوا كمَا فَعَلَ خَليلي سَعدٌ ؟ (يَعني ابنَ أبي وَقَّاص) .

قال : قُلتُ : لقَد رَأيتُ رُؤْيا ، فأتَيْتُ سَعداً فقَصَصْتُها عليه ، فمَا أكْثرَ فَرَحاً ، وقال رضي الله عنه : قد خَابَ مَنْ لَمْ يَكنْ إبْراهيمُ عليه السلام خَليلُه ، قُلتُ : مع أيِّ الطَّائِفَتَينِ أنْتَ ؟ قال رضي الله عنه : ما أنا مع واحدٍ منْهُما ، قُلتُ : فما تَأمُرُني ؟

---

(١) انظر السير : (الزُّبيْرُ بن العَوّام) ١/ ٤١ـ ٦٧ ، وانظر النزهة : ١٢٨/٣ .

(٢) انظر السير : (سعد بن أبي وقّاص) ١/ ٩٢ـ ١٢٤ ، وانظر النزهة : ١٣٤/٢ .

قال : هَلْ لكَ من غنَمٍ ؟ قُلتُ : لا ، قال : فاشْتَرِ غنَماً ، فكُنْ فيها حتىٰ تَنْجَلي[1] .

وعن أبي سَعيدٍ قال : أمَرَنا رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم ببناءِ المَسْجدِ فجَعلْنا نَنقُلُ لَبِنَةً لَبِنَةً ، وعَمَّارُ يَنقُلُ لَبِنتَيْنِ لَبِنتَيْنِ ، فترِبَ رَأسُه ، فحَدَّثني أصْحابي ولَمْ أسْمَعْه من رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم أنَّه جَعَلَ يَنْفُضُ رَأسَه ويَقُولُ : « وَيْحَك يا ابنَ سُمَيَّة ! ! تَقْتُلُكَ الفِئَةُ البَاغِيَةُ » .

وعن خالد الحَذَّاء : عن عِكْرِمَةَ سَمِعَ أبا سَعيدٍ بهـٰذا ولَفْظُهُ : « وَيْحَ ابنَ سُمَيَّةَ ! ! تَقْتُلُهُ الفِئَةُ الباغِيَةُ ، يَدعُوهُم إلى الجنَّةِ ويَدْعُونَه إلى النَّار » فجَعَلَ يقُولُ : « أعُوذُ باللهِ من الفِتَنِ »[2] .

وعن حَيَّان أبي سَعيدٍ التَّيْميّ ، قال : حَذَّرَ الأشْعَثُ من الفِتَنِ فقِيلَ له : خَرَجْتَ مع عَليٍّ ! فقال : ومَنْ لَكَ إمامٌ مِثلُ عَلي[3] .

وقال وَكيعٌ : سَلِمَ من الفِتْنَةِ من المَعروفينَ : سَعدٌ ، وابنُ عُمَرَ ، وأُسَامَةُ بنُ زَيْدٍ ، ومُحمَّدُ بنُ مَسْلَمَة .

قال الذهبيُّ : انْتَفَعَ أُسامَةُ من يومِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، إذ يقُولُ له : « كيْفَ[4] بِلا إلَـٰهَ إلاَّ الله يا أُسَامَة ! ! ؟ » ، فكَفَّ يَدَهُ ، ولَزِمَ مَنْزِلَه ، فأحْسَنَ[5] .

وعن الزُّهْريِّ ، قال : لَقِيَ عَليٌّ أُسامَةَ بنَ زَيْدٍ ، فقال : ما كُنَّا نَعُدُّكَ إلاَّ من أنْفُسِنا يا أُسامَةُ ، فلِمَ لا تَدْخُلْ مَعَنا ؟ قال : يا أبا حَسَن ، إنَّكَ والله لَوْ أخَذْتَ بمشْفرِ

---

(١) انظر السير : (سعد بن أبي وقّاص) ١/ ٩٢ـ١٢٤ ، وانظر النزهة : ٣/١٣٦ .

(٢) انظر السير : (عمّار بن ياسر) ١/ ٤٠٦ـ٤٢٨ ، وانظر النزهة : ٣/١٨٥ .

(٣) انظر السير : (الأشعث بن قيس) ٢/ ٣٧ـ٤٣ ، وانظر النزهة : ٥/٢١٥ .

(٤) أخرجه مسلم (٩٧) في الإيمان : باب تحريم قتل الكافر بعد أن قال : لا إلـٰه إلاَّ الله ، وفيه أن أسامةَ بن زيد قَتلَ رجلاً من المشركين بعد أن قال : لا إلـٰه إلاَّ الله ، فقال له رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « لِمَ قَتَلْتَه ؟ » قال يا رسُولَ الله ، أوجَعَ في المُسلمين ، وقتَلَ فُلاناً وفُلاناً ، وسَمَّيَ له نَفَراً ، وإنِّي حَمَلتُ عليه ، فلمَّا رَأى السَّيفَ قال : لا إلـٰه إلاَّ الله ، قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم : « أقَتَلْتَهُ ! ! ؟ » قال : نَعَم ، قال صلى الله عليه وسلم : « فكيْفَ تَصْنَعُ بِلا إلَـٰهَ إلاَّ الله إذا جاءَتْ يومَ القِيامَةِ ! ! ؟ » ، قال : يا رسُولَ الله ، اسْتَغْفِرْ لي .

(٥) انظر السير : (أسامة بن زيد) ٢/ ٤٩٦ـ٥٠٧ ، وانظر النزهة : ٥/٢٩٦ .

الأسَدِ ، لأخَذْتُ بمشْفرِهِ الآخَرِ مَعَكَ ، حتىٰ نَهْلَكَ جَميعاً ، أوْ نَحْيا جَميعاً ، فأمَّا هٰذا الأمْرُ الذي أنْتَ فيه ، فو اللهِ لا أدْخُلُ فيه أبَداً .

مات أسامَةُ بالجرفِ[1] .

وعن المَقْبُرِيِّ ، قال : شَهِدْتُ جَنازَةَ أسامَة ، فقال ابنُ عُمَر : عَجِّلُوا بِحِبِّ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم قَبْلَ أنْ تَطْلُعَ الشَّمسُ ، ماتَ أسامَةُ في آخِرِ خِلافَةِ مُعاويَة[2] .

وقال أبو عُبَيْد : كان عبدُ الله بنُ عَمْرو بنِ العاصِ علىٰ مَيْمَنةِ جَيشِ مُعاوِيَةَ يومَ صِفِّين .

عن حَنْظَلَةَ بنِ خُوَيْلِدٍ العَنْبَريّ ، قال : بَيْنما أنا عندَ مُعاوِيَةَ إذ جاءَه رجُلانِ يَخْتَصِمانِ في رَأسِ عَمَّارٍ رضي الله عنه ، فقال كُلُّ واحِدٍ منهُما : أنا قَتَلْتُه فقال عبدُ الله بنُ عَمْرو : لِيَطِبْ به أحَدُكُما نَفْساً لِصَاحِبِه ، فإنِّي سَمعتُ رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم يقُولُ : « تَقْتُلُهُ الفِئَةُ البَاغِيَةُ » ، فقال مُعاويَةُ : يا عَمْرُو!! ألا تُغْني عنَّا مَجْنُونَك ، فما بالُكَ مَعَنا!! ؟ قال : إنَّ أبي شَكاني إلىٰ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم فقال : « أَطِعْ أبَاكَ ما دَامَ حَيّاً » فأنا مَعَكُم ، ولَسْتُ أقَاتِلُ ، تُوفِّي عبدُ الله بنُ عَمْرو بمِصْرَ ، ودُفِنَ بدَارِه الصَّغيرَة سَنةَ خَمسٍ وسِتِّين[3] .

وقال ابنُ شَوْذَب : سَارَ الحَسَنُ يَطْلُبُ الشَّامَ ، وأقْبَلَ مُعاويَةُ في أهْلِ الشَّامِ فالْتَقَوا ، فكَرِهَ الحَسَنُ القِتالَ ، وبايَعَ علىٰ أنْ جَعَلَ له العَهْدَ بالخلافَةِ مِنْ بَعدِه ، فكان أصْحابُ الحَسَنِ يقُولونَ له : يا عَارَ المُؤمِنينَ ، فيقُولُ : العَارُ خَيرٌ من النَّارِ

قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم في الحَسَنِ : « إنَّ ابْني هٰذا سَيِّدٌ وسَيُصْلِحُ اللهُ به بَينَ فِئَتَيْنِ عَظيمَتَيْنِ من المُسلمينَ » ، ثمَّ إنَّ مُعاويَةَ أجَابَ إلى الصُّلْحِ ، وسُرَّ بذَلِكَ ودَخَلَ

---

(١) موضع علىٰ ثلاثة أميال من المدينة نحو الشام .

(٢) انظر السير : (أسامة بن زيد) ٢/ ٤٩٦ـ ٥٠٧ ، وانظر النزهة : ٥/٢٩٧ .

(٣) انظر السير : (عبد الله بن عَمرُو بن العاص) ٣/ ٧٩ـ ٩٤ ، وانظر النزهة : ٤/٣٤٠ .

هُوَ والحَسَنُ الكُوفَةَ رَاكِبَيْنِ ، وتَسَلَّمَ مُعاويَةُ الخِلافَةَ في آخِرِ رَبيعٍ وسُمِّيَ عَامَ الجَماعَةِ لاجْتِماعِهِم علىٰ إمامٍ ، وهو عامُ أحَدٍ وأرْبَعينَ[1] .

وعن ابنِ عُمَرَ رضي الله عنه قال : دَخَلتُ علىٰ حَفْصَة ونَوْساتُها تَنْطُفُ فقُلتُ : قد كان من النَّاسِ ما تَرَيْنَ ، ولَمْ يُجعَلْ لي من الأمرِ شيءٌ ، قالت : فالْحَقْ بهِم فإنَّهم يَنْتَظِرُونَك ، وإنِّي أخْشَىٰ أنْ يَكُونَ في احْتِباسِكَ عنهم فُرْقَةٌ فلَمْ يَرْعَهُ حتىٰ ذَهَبَ قال : فلمَّا تَفرَّقَ الحَكَمَانِ ، خَطَبَ مُعاويَةُ ، فقال : مَنْ كان يُريدُ أنْ يَتَكَلَّمَ في هٰذا الأمرِ ، فليُطلعْ إليَّ قَرْنَه ، فنحنُ أحَقُّ بذلِكَ منهُ ومن أبيهِ ، يُعَرِّضُ بابنِ عُمَر[2] .

عن الشّعبيِّ ، قال : كان مَسْروقٌ إذا قِيلَ له : أبْطَأتَ عن عَليٍّ وعن مَشَاهِدِه ، فيَقُولُ : أرَأيْتُم لَوْ أنَّه حين صَفَّ بَعضُكُم لبَعضٍ فنزَلَ بَيْنَكُم مَلَكٌ فقال : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾[3] أكانَ ذلكَ حَاجِزاً لكُم ؟

قالوا : نَعَم قال : فوَاللهِ لقَدْ نزَلَ بها مَلَكٌ كَريمٌ علىٰ لِسانِ نَبِيِّكُم ، وإنَّها لمُحْكَمَةٌ ما نَسَخَها شيء[4] .

وعن أبي عَقيلٍ بَشيرِ بنِ عُقْبَة قال : قُلتُ لِيَزيدَ بنِ الشِّخِّير : ما كانَ مُطَرِّفٌ يَصْنَعُ إذا هاجَ النَّاسُ ؟ ، قال : يَلْزَمُ قَعْرَ بَيتِه ، ولا يَقْرَبُ لهم جُمُعَةً ولا جَمَاعَةً حتىٰ تَنْجَلي[5] .

قال مُطَرِّفُ : لأَنْ آخُذَ بالثِّقَةِ في القُعُودِ أحَبُّ إليَّ منْ أنْ ألْتَمِسَ فَضْلَ الجِهادِ بالتَّغْريرِ[6] .

وقال أبو العاليَة : لمَّا كان زَمانُ عَليٍّ ومُعاويَة ، وإنِّي لشَابٌّ القِتالُ أحَبُّ إليَّ من

---

(١) انظر السير : (مُعاوية بن أبي سُفيان) ٣/١١٩ـ١٦٢ ، وانظر النزهة : ٣/٣٥٢ .
(٢) انظر السير : (عبد الله بن عُمَر) ٣/٢٠٣ـ٢٣٩ ، وانظر النزهة : ٧/٣٧٠ .
(٣) سورة النساء ، الآية : ٢٩ .
(٤) انظر السير : (مَسروق) ٤/٦٣ـ٦٩ ، وانظر النزهة : ٣/٤٤٦ .
(٥) انظر السير : (مُطرّف بن عبد الله) ٤/١٨٧ـ١٩٥ ، وانظر النزهة : ٩/٤٧٥ .
(٦) انظر السير : (مُطرّف بن عبد الله) ٤/١٨٧ـ١٩٥ ، وانظر النزهة : ١٠/٤٧٥ .

الطَّعَامِ الطَّيِّبْ ، فتَجَهَّزْتُ بجَهازٍ حَسَنٍ حتىٰ أتَيْتُهُم ، فإذا صَفَّانِ ما يُرَىٰ طَرَفاهُما ، إذا كَبَّرَ هـٰؤلاء ، كَبَّرَ هـٰؤلاء ، وإذا هَلَّلَ هـٰؤلاء ، هَلَّلَ هـٰؤلاء .

فراجَعْتُ نَفْسِي ، فقُلتُ : أيُّ الفَريقَيْنِ أُنْزِلُهُ كافِراً !! ؟ ، ومَنْ أَكْرَهَني علىٰ هـٰذا ؟ ، قال : فما أَمْسَيْتُ حتىٰ رَجَعْتُ وتَرَكْتُهُم[1] .

وقال : شُعْبةُ بنُ الحَجَّاجِ : سَمعتُ الحَسَنَ البَصْريّ يقُولُ في فِتْنَةِ يَزيدِ بنِ المُهَلَّبِ : هـٰذا عَدُوُّ اللهِ يَزيدُ بنُ المُهَلَّبِ ، كُلَّما نَعَقَ بهم ناعِقٌ اتَّبعُوه[2] .

* * *

(١) انظر السير : (أبو العالية) ٤/ ٢٠٧ـ٢١٣ ، وانظر النزهة : ٣/٤٧٩ .

(٢) انظر السير : (يَزيدُ بن المُهلّب) ٤/ ٥٠٣ـ٥٠٦ ، وانظر النزهة : ٨/٥٤٥ .

الإسْلام

١ـ الإسْلامُ دينُ يُسْرٍ وسَماحَةٍ لا تَشْديدَ فيه ولا تَنْفير :

عن ابنِ مَسْعُودٍ سَمعتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم يقولُ : « ما خُيِّرَ ابنُ سُمَيَّةَ بَينَ أَمْرَيْنِ إلاَّ اخْتارَ أيْسَرَهُما »[١] .

وعن سَعيدِ بنِ أبي بردَة ، عن أبيهِ ، عن أبي مُوسَىٰ أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم لمَّا بَعَثَه ومُعاذاً إلى اليَمَنِ ، قال لهُما : « يَسِّرا ولا تُعَسِّرا وتَطَاوَعا ولا تُنَفِّرا » فقال له أبو مُوسَىٰ : إنَّ لنا بأرضِنا شَراباً ، يُصْنَعُ من العَسَلِ يُقالُ له : البِتْعُ ، ومن الشَّعيرِ يُقالُ له : المِزْرُ ، قال صلى الله عليه وسلم : « كلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ » فقال لي مُعاذٌ : كَيفَ تَقرأُ القُرآنَ ؟ قُلتُ : أقْرَأُه في صَلاتِي ، وعلىٰ راحِلَتي وقائِماً وقاعِداً ، أتَفوَّقُ تَفَوُّقاً ـ يَعْني شَيئاً بعدَ شَيءٍ ، قال : فقال مُعاذٌ : لكنِّي أنامُ ثمَّ أقُومُ ، فأحْتَسِبُ نَوْمَتي كما أحْتَسِبُ قَوْمَتي ، قال : وكأنَّ مُعاذاً فُضِّلَ عليه[٢] .

وعن أبي شُرَيْحٍ : أنَّه سَمِعَ سَهْلَ بنَ أبي أُمامَة بنِ سَهْلٍ يُحَدِّثُ عن أبيهِ ، عن جَدِّهِ : أنَّ رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا تُشَدِّدُوا علىٰ أنْفُسِكُم ، فإنَّما هَلَكَ مَنْ كانَ قَبْلَكم بِتَشْديدِهِم علىٰ أنْفُسِهِم ، وسَتَجِدُونَ بَقَاياهُم في الصَّوامِعِ والدِّياراتِ ».

آخَى النبيُّ صلى الله عليه وسلم بينَ سَهْلٍ وعليٍّ[٣] .

وعنِ الأزْرَقِ بنِ قَيْسٍ قال : كُنَّا علىٰ شاطِىء نَهْرٍ بالأهْوازِ ، فجاءَ أبو بَرْزَةَ يَقُودُ فَرَساً ، فدَخَلَ في صَلاةِ العَصْرِ فقال رَجلٌ : انْظُروا إلىٰ هـٰذا الشَّيخِ ، وكان انْفَلَتَ فَرَسُه ، فاتَّبَعَها في القِبلَةِ حتىٰ أدْرَكَها فأخَذَ بالمِقْوَدِ ، ثمَّ صَلَّىٰ قال : فسَمِعَ أبو بَرْزَة

---

(١) انظر السير : (عمَّار بن ياسر) ١/٤٠٦ـ٤٢٨ ، وانظر النزهة : ٧/١٨٤ .

(٢) انظر السير : (مُعاذ بن جَبل) ١/٤٤٣ـ٤٦١ ، وانظر النزهة : ٢/١٩١ .

(٣) انظر السير : (سهل بن حُنيف) ٢/٣٢٥ـ٣٢٩ ، وانظر النزهة : ٣/٢٦٨ .

قَولَ الرَّجُلِ ، فجاءَ فقال : ما عَنَّفَني أحَدٌ مُنذُ فارَقْتُ رسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم غَيرُ هٰذا ، إنِّي شَيخٌ كَبيرٌ ، ومَنزِلي مُتراخٍ ، ولَوْ أقْبَلْتُ علىٰ صَلاتي ، وتَرَكتُ فَرَسي ، ثمَّ ذَهَبتُ أطْلُبُها ، لَمْ آتِ أهْلِي إلاَّ في جُنحِ اللَّيلِ ، لقد صَحِبتُ رسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم فرأيتُ من يُسْرِهِ ، فأقْبَلْنا نَعْتذِرُ ممَّا قال الرَّجُلُ[1] .

وعن أبي قَيْسٍ مَوْلىٰ عَمْرو بنِ العاص ، أنَّ عَمْراً كان علىٰ سَرِيَّةٍ فأصابَهُم بَرْدٌ شَديدٌ لَمْ يَرَوا مِثلَه ، فخَرَجَ لِصلاةِ الصُّبحِ ، فقال : احْتَلَمتُ البارحَةَ ، ولكِنِّي واللهِ ما رَأيتُ بَرْداً مِثلَ هٰذا ، فغَسَلَ مَغابِنَه[2] ، وتَوَضَّأَ للصَّلاةِ ، ثمَّ صَلَّىٰ بهِم فلمَّا قَدِمَ علىٰ رسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم سَأَلَ رسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم أصْحابَه : « كيفَ وَجَدتُم عَمْراً وصَحابَتَه ؟ » فأثْنَوا عليهِ خَيراً ، وقالوا : يا رسُولَ الله ، صَلَّىٰ بنا وهو جُنُبٌ ، فأرْسَلَ إلىٰ عَمْرو ، فسَألَه ، فأخْبَرَه بذلك وبالذي لَقِيَ من البَرْدِ ، وقال : إنَّ اللهَ قال : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾[3] ولَوْ اغْتَسَلْتُ مِتُّ فضَحِكَ رسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم .

ولمَّا تُوُفِّيَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم كان عَمْرٌو علىٰ عُمانَ ، فأتاهُ كِتابُ أبي بَكرٍ بِوَفاةِ رسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم[4] .

وعن عبدِ اللهِ بنِ شَدَّادٍ ، عن أبيهِ ، قال : خَرَجَ عَلينا رسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم وهو حامِلٌ حَسَناً أو حُسَيْناً ، فتَقَدَّمَ ، فوَضَعَه ، ثمَّ كَبَّرَ في الصَّلاةِ فسَجَدَ سَجْدَةً أطَالَها ، فرَفَعْتُ رَأسِي ، فإذا بالصَّبيِّ علىٰ ظَهْرِه ، فرَجَعتُ في سُجُودي فلمَّا قَضَىٰ صَلاتَه ، قالوا : يا رسُولَ الله : إنَّكَ أَطَلْتَ!! قال صلى الله عليه وسلم : « إنَّ ابْنِي ارْتَحَلَني ، فكرِهْتُ أنْ أُعْجِلَهُ حتّىٰ يَقْضِيَ حاجَتَهُ » .

قال الذهبيُّ : أيْنَ الفَقِيهُ المُتَنَطِّعُ عن هٰذا الفِعْلِ!! ؟[5] .

---

(١) انظر السير : (أبو بَرْزَةَ الأسْلميّ) ٣/ ٤٠ـ ٤٣ ، وانظر النزهة : ٢/٣٢٨ .

(٢) المَغابنُ : الأرفاغُ وهو بَواطِنُ الأفْخاذِ عندَ الحَوالِبِ ، جَمْعُ مِغْبَنْ من غَبَنَ الثَّوبَ : إذا ثناه وعَطَفه .

(٣) سورة النساء ، الآية : ٢٩ .

(٤) انظر السير : (عَمرو بن العاص) ٣/ ٥٤ـ ٧٧ ، وانظر النزهة : ٣/٣٣٥ .

(٥) انظر السير : (الحَسن بن عليّ) ٣/ ٢٤٥ـ ٢٧٩ ، وانظر النزهة : ٢/٣٨٠ .

٢ـ مَظاهِرُ من عِزَّةِ الإسْلامِ نَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَرُدَّها :

(أ) قِصَّةُ عُمر مع الهُرْمُزان :

قال ابنُ سَعد : بعثَه أبو موسى الأشْعَرِيُّ إلىٰ عُمرَ ومعَه اثنا عشرَ نَفساً من العَجَم ، عليهم ثِيابُ الدِّيباج ومَناطِقُ الذَّهَب وأساوِرَة الذَّهب ، فقَدِموا بهم المَدينةَ ، فعَجبَ النَّاسُ من هَيْئَتِهِم ، فدَخلوا فوَجدوا عُمرَ نائماً في المَسْجد مُتوَسِّداً رِداءَه ، فقالَ الهُرمُزان : هـٰذا مَلِكُكُم ؟! قالوا : نعم ، قالَ : أمَا له حاجبٌ ولا حارسٌ ؟ قالوا : اللهُ حارسُه حتىٰ يأتيه أجَلُه ، قال : هـٰذا المَلكُ الهَنيُّ[1] .

فقال عُمرُ : الحَمدُ لله الذي أذَلَّ هـٰذا وشيعَتَه بالإسْلام ، ثمَّ قالَ للوَفْد : تَكلَّموا ، فقال أنَسُ بنُ مالك : الحَمدُ لله الذي أنْجَزَ وَعْدَه وأعزَّ دينَه وخَذلَ مَنْ حادَّه ، وأوْرثَنا أرْضَهم وديارَهم ، وأفاءَ علينا أبناءَهم وأمْوالَهم ، فبَكىٰ عُمرُ ثم قال للهُرمُزان : كيفَ رأيتَ صَنيعَ الله بكم ؟ فلَمْ يُجِبْه ، قالَ : ما لَكَ لا تَتكلَّم ؟ قال : أكلامُ حَيٍّ أمْ كلامُ ميِّت ؟ قال : أوَلَسْتَ حَياً ؟ فاسْتَسْقى الهُرمُزان ، فقال عُمرُ : لا يُجْمَعُ عليكَ القَتلُ والعَطشُ ، فأتَوْهُ بماءٍ فأمْسَكه ، فقال عُمرُ : اشْربْ لا بأْسَ عليك ، فرَمىٰ بالإناءِ وقال : يا مَعْشرَ العَرب كُنتم وأنتم علىٰ غَير دينٍ نَسْتعبِدُكم ونَقْتلُكم وكُنتم أسْوأَ الأُمَمِ عندنا حالاً ، فلمَّا كانَ الله مَعكم لمْ يَكنْ لأحَد بالله طاقَة ، فأمَرَ عُمرُ بقَتلِه ، فقال : أوَلَمْ تُؤَمِّنِّي ؟! قال : وكيف ؟ قال : قُلتَ لي : تَكلَّم لا بأسَ عليكَ ، وقُلتَ : اشْرَب لا أقتُلك حتىٰ تَشرَبه ، فقال الزُّبَيرُ وأنسٌ : صَدقَ ، فقال عُمرُ : قاتَله الله أخَذَ أماناً وأنا لا أشْعرُ ، فنَزَعَ ما كان عليه ، فقال عُمرُ لسُراقَةَ بنِ مالك بنِ جَعْشَم ـ وكان أسْودَ نَحيفاً ـ : إلْبَسْ سوارَيّ الهُرمُزان ، فلَبِسَهما ولبسَ كِسْوتَه[2] .

فقال عُمرُ : الحَمدُ لله الذي سَلبَ كِسْرَىٰ وقَومَه حُليَّهم وكِسْوتَهم وألْبَسَها سُراقَةَ ،

---

(١) انظر السير : (عُمرُ بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ٣/٥٧ .

(٢) انظر السير : (عُمرُ بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ١/٥٨ .

ثم دَعا الهُرمُزانَ إلى الإسْلام فأبَىٰ ، فقال عليٌّ ابنُ أبي طالب : يا أميرَ المؤمنين فرِّقْ بين هٰؤلاء ، فحَملَ عُمرُ الهُرمُزانَ وجُفَيْنَةَ وغيرَهما في البَحر ، وقال : اللَّهُم اكْسر بهم ، وأرادَ أن يَسيرَ بهم إلى الشَّام فكسرَ بهم ولمْ يَغْرَقوا فرَجَعوا فأسْلَموا ، وفَرضَ لهم عُمرُ أَلْفَين أَلفَين ، وسَمَّى الهُرمُزانَ عَرْفَطة .

قال المِسْوَرُ بنُ مَخْرَمة : رأيتُ الهُرمُزانَ بالرَّوْحاءِ مُهلاً بالحَجِّ مع عُمرَ ، وقال عليُّ بنُ زَيد بنُ جُدعان ، عن أنسٍ قال : ما رأيتُ رَجلاً أَخْمَصَ بَطْناً ولا أَبْعدَ ما بينَ المِنْكَبين من الهُرمُزان[1] .

(ب) حِوارُ سَعدِ بنِ مُعاذٍ مع أبي جَهْلٍ وأُمَيَّةِ بنِ خَلَف :

عن ابنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قال : انْطَلَقَ سَعدُ بنُ مُعاذٍ مُعْتَمِراً ، فنَزَلَ علىٰ أُمَيَّةَ بنِ خَلَفْ وكان أُمَيَّةُ إذا انطَلَقَ إلى الشَّامِ يَمُرُّ بالمَدينَةِ ، فيَنْزِلُ عليه ، فقال أُمَيَّةُ له : انتُظِرْ حتىٰ إذا انتُصَفَ النَّهارُ وغَفَلَ النَّاسُ طُفْتَ فبَيْنما سَعدٌ يَطُوفُ إذ أتاهُ أبو جَهْلٍ ، فقال : مَنْ الذي يَطُوفُ آمِناً ؟ قال : أنا سَعدٌ فقال : أَتَطُوفُ آمِناً وقد آوَيْتُم مُحمَّداً وأصْحابَه!! ؟ قال : نَعَم فتَلاحَيَا فقال أُمَيَّةُ : لا تَرْفَعْ صَوْتَكَ علىٰ أبي الحَكَمِ ، فإنَّه سَيِّدُ أهْلِ الوادي فقال سَعدٌ : والله لَوْ مَنَعْتَني ، لَقَطَعْتُ عليكَ مَتْجَرَكَ بالشَّامِ قال : فجَعَلَ أُمَيَّةُ يقُولُ : لا تَرْفَعْ صَوْتَك فغَضِبَ وقال : دَعْنا منك ، فإنِّي سَمعتُ مُحمَّداً صلى الله عليه وسلم يقُولُ : يَزْعُمُ أنَّه قاتِلُك ، قال : إيّايَ ؟ قال : نَعَم قال : واللهِ ما يَكْذِبُ مُحمَّدٌ فكادَ يُحْدِثُ ، فرَجَعَ إلى امْرأتِه فقال : أما تَعْلَمينَ ما قال لي أخي اليَثْرِبيّ ؟ زَعَمَ أنَّه سَمعَ مُحمَّداً يَزْعُمُ أنَّه قاتِلي قالت : والله ما يَكْذِبُ مُحمَّدٌ فلمَّا خَرَجوا لبَدْرٍ قالت امْرأتُه : ما ذَكَرْتَ ما قال لكَ أخُوكَ اليَثْربيّ ؟ فأرادَ أنْ لا يَخْرُجَ فقال له أبو جَهْلٍ : إنَّك من أشْرافِ أهْلِ الوادي ، فسِرْ مَعَنا يوماً أو يَومَينِ ، فسَارَ معهم ، فقَتَلَهُ الله[2] .

---

(١) انظر السير : (عُمرُ بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ٢/٥٨ .

(٢) انظر السير : (سعد بن مُعاذ) ١/ ٢٧٩ـ٢٩٧ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٣ .

(ج) مُخاطَبةُ المُغيرَةِ لعامِلِ كسْرىٰ :

أَخْرَجَ البُخاريُّ[1] عن جُبَيْرِ بنِ حَيَّةَ ، قال : بَعَثَ عُمَرُ رضي الله عنه النَّاسَ في أَفْناءِ الأَمْصارِ يُقاتِلُونَ المُشْركين فأَسْلَمَ الهُرمُزانُ ، فقال : إنِّي مُسْتَشِيرُكَ في مَغازِيَّ هٰذه قال : نَعَم مَثَلُها ومَثَلُ مَنْ فيها من النَّاسِ ، من عَدُوِّ المُسلِمينَ ، مَثَلُ طائِرٍ له رَأْسٌ ، وله جَناحان وله رِجْلان ، فإنْ كُسِرَ أَحَدُ الجَناحَيْنِ نهَضَتْ الرِّجْلانِ بجَناحٍ والرَّأْسِ ، فإنْ كُسِرَ الجَناحُ الآخَر نَهَضَتْ الرِّجْلانِ والرَّأْسِ وإنْ شُرِخَ الرَّأْسِ ذَهَبَتِ الرِّجْلانِ والجَناحانِ والرَّأْسُ فالرَّأْسُ كِسْرىٰ ، والجَناحُ قَيْصَرُ ، والجَناحُ الآخَرُ فارِسُ فمُرِ المُسلِمينَ فلْيَنْفِرُوا إلىٰ كِسْرىٰ .

عن جُبَيْرِ بنِ حَيَّةَ قال : فنَدَبَنا عُمَرُ ، واسْتَعْمَلَ علينا النُّعْمانَ ابنَ مُقَرِّن حتىٰ إذا كُنَّا بأَرْضِ العَدُوِّ ، وخَرَجَ عَلينا عامِلُ كِسْرىٰ في أَرْبَعِينَ أَلْفاً فقال : لِيُكَلِّمَني رَجُلٌ منكُم فقال المُغيرَةُ : فسَلْ عَمَّا شِئْتَ قال : ما أنتُم ؟ قال : « نَحنُ أُناسٌ من العَرَبِ ، كُنَّا في شَقَاءٍ شَديدٍ وبَلاءٍ شَديدٍ ، نَمُصُّ الجِلْدَ والنَّوَىٰ من الجُوعِ ، ونَلْبَسُ الوَبَرَ والشَّعرَ ، ونَعْبُدُ الشَّجَرَ والحَجَرَ فبَيْنا نَحنُ كذلكَ إذْ بَعَثَ رَبُّ السَّمواتِ ورَبُّ الأَرْضينَ ـ تَعالَىٰ ذِكْرُهُ وجَلَّتْ عَظَمَتُه ـ إلَيْنا نَبياً من أنْفُسِنا ، نَعْرِفُ أَباه وأُمَّه ، فأَمَرَنا نَبيُّنا رسُولُ رَبِّنا صلى الله عليه وسلم أنْ نُقاتِلَكُم حتىٰ تَعْبُدوا اللهَ وَحْدَه ، أو تُؤَدُّوا الجِزْيَةَ وأَخْبَرَنا نبيُّنا صلى الله عليه وسلم عن رِسالَةِ رَبِّنا أنَّه مَنْ قُتِلَ مِنَّا صَارَ إلى الجَنَّةِ في نَعيمٍ لَمْ يُرَ مِثْلُها قَطُّ ، ومَنْ بَقِيَ مِنَّا مَلَكَ رِقابَكُم »[2] .

(د) لبسُ أسامَةَ بنَ زَيد لِحُلَّة ذي يَزن :

عن عِراكِ بنِ مالك أنَّ حَكيمَ بنَ حِزام قال : كان مُحمَّدٌ صلى الله عليه وسلم أَحَبَّ النَّاسِ إليَّ في الجاهِلِيَّةِ فلمَّا نُبِّىءَ وهاجَرَ شَهِدَ حَكيمُ المَوْسِمَ كافِراً ، فوَجَدَ حُلَّةً لذِي يَزَن تُباعُ ، فاشْتَراها بخَمسينَ ديناراً لِيُهْدِيَها إلىٰ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم فقَدِمَ بها

---

(١) صحيح البخاري : باب الجزية (٣١٥٩) .

(٢) انظر النزهة : ١٨٣/ هامش (١) .

عليه المَدينَةَ ، فأرادَه علىٰ قَبْضِها هَديّةً ، فأبَىٰ ، قال عبدُ الله حَسِبْتُه قال : « إنَّا لا نَقْبَلُ من المُشْرِكينَ شَيئاً ، ولَكِنْ إنْ شِئْتَ بالثَّمَنِ » ، قال : فأعطَيتُه حينَ أبَىٰ عليَّ الهَديَّة[1] .

وفي رِوايَةِ ابنِ صالحٍ زِيادَةٌ : « فلَبِسَها ، فرَأيْتُها عليه على المِنْبَرِ ، فلَمْ أرَ شَيئاً أحْسَنَ منه يَوْمئذٍ فيها ، ثمَّ أعْطاها أُسامَةَ فرآها حَكيمُ علىٰ أُسامَة ، فقال : يا أُسامَةُ!! أتَلْبَسُ حُلَّةَ ذي يَزَن ؟ قال : نَعَم والله لأنا خَيْرٌ منه ، ولأَبي خَيْرٌ من أبيه فانْطَلَقْتُ إلىٰ مَكّةَ فأعْجَبْتُهُم بقَولِه »[2] .

(هـ) أمانُ عبدِ الرَّحمـٰن الدَّاخِل للنَّصارَىٰ :

قال الإمامُ الذهبيُّ في تَرجمة عبد الرحمـٰن بن معاوية بن هشام : وأمَّا الإسْلامُ فكان عَزيزاً مَنيعاً بالأنْدلُسِ في دَولَةِ الدَّاخِل ، فانْظُر إلىٰ هـٰذا الأمانِ الذي كُتِبَ عنه للنَّصارَىٰ :

بِسْمِ اللهِ الرَّحمَـٰنِ الرَّحيم

كِتابُ أمانٍ ورَحْمةٍ ، وحَقْنِ دِماءٍ وعِصْمَة ، عَقَدَه الأميرُ الأكْرَمُ المَلِكُ المُعَظَّمُ عبدُ الرَّحمَـٰن بنِ مُعاويَة ، ذو الشَّرَفِ الصَّميمِ ، والخَيْرِ العَميم ، للبَطارِقَةِ والرُّهْبانِ ، ومَنْ تَبِعَهُم من سائرِ البُلْدانِ ، أهْل قَشْتالَة وأعْمالها ، ما دامُوا على الطَّاعَة في أداءِ ما تَحَمَّلُوه ، فأشْهَدَ علىٰ نَفسِه أنَّ عَهْدَه لا يُنْسَخُ ما أقامُوا علىٰ تأدِيَةِ عَشْرَةِ آلافِ أُوقِيَّة من الذهَبِ ، وعَشْرَةِ آلافِ رَطْلٍ من الفِضَةِ ، وعَشْرَةِ آلافِ رأسٍ من خِيارِ الخَيْلِ ، ومِثلِها من البِغَالِ ، مع ذلك ألفُ دِرْعٍ وألفُ بَيْضَةٍ ، ومن الرِّماحِ الدَّردار مِثلِها في كُلِّ عامٍ ، ومتىٰ ثَبُتَ عليهم النَّكثُ بأسيرٍ يَأسِرُونَه ، أو مُسْلمٍ يَغْدِرونَه ، انتَكَثَ ما عُوهِدُوا عليه ، كُتِبَ لهم هـٰذا الأمانُ بأيْدِيهِم إلىٰ خَمسِ سِنينَ ، أوَّلُها صَفَرُ عام اثْنَينِ وأرْبَعين ومِئَة .

---

(١) انظر السير : (حَكيم بن حِزام) ٣/ ٤٤ـ ٥١ ، وانظر النزهة : ٦/٣٢٩ .

(٢) انظر السير : (حَكيم بن حِزام) ٣/ ٤٤ـ ٥١ ، وانظر النزهة : ١/٣٣٠ .

وقال أبو المُظفَّر الأبيوَرْديّ في أخْبارِ بَني أُمَيَّة : كان النَّاسُ يَقُولون : مَلَكَ الأرضَ ابْنا بَرْبَريَّتَيْنِ ـ يَعْني عبدَ الرَّحمَـٰن والمَنْصُور .

وكان المَنْصُورُ يقُولُ عن عبدِ الرَّحمَـٰنِ بنِ مُعاويَة : ذاكَ صَقْرُ قُرَيْشٍ ، دَخَلَ المَغْرِبَ وقد قُتِلَ قَومُه ، فلَمْ يَزَلْ يَضْرِبُ العَدْنانيَّةَ بالقَحْطانيَّةِ حتىٰ مَلَكَ .

وقال سَعيدُ بنُ عُثمانَ اللّغَويّ المُتَوفَّىٰ سَنَةَ أرْبعِ مِئَة : كانت بِقُرطُبَة جَنَّةٌ اتَّخَذَها عبدُ الرَّحمَـٰن بنُ مُعاويَة ، كان فيها نَخْلَةٌ أدْركتُها .

وغزَا عِدَّةَ غَزَواتٍ ، من ذلك : غَزْوةُ قَشْتالَة ، جازَ إليها من نَهْرِ طُلَيْطِلَة ، وفَرَّتِ الرُّومُ أمامَه ، وتَعَلَّقَتْ بالحِبالِ ، فلَمْ يَزَلْ حتىٰ وَصَلَ مَدينَةَ بَرْنيقَة ، من مَملكَةِ قَشْتالَة ، فنزَلَ عليها ، وأمَرَ برَفْعِ الخِيامِ ، وشَرَعَ في البِناءِ ، وأخَذَ النَّاسُ يَبْنُونَ ، فسَلَّموا إليه بالأمانِ عندَ إياسِهِم من النَّجْدَةِ ، وخَرَجُوا بِثيابِهِم فَقَط ، وما يُزَوِّدُهم ، ثمَّ كَتَبَ لأهْلِ قَشْتالَة ذلكَ الأمانَ الذي تَقَدَّم ، وهو بِخَطِّ الوَزيرِ بِشْرِ بنِ سَعيد الغافِقيّ[1] .

(و) المُعتَصِمُ وطَاغِيَةُ الرُّومِ :

قال الرِّياشيُّ : كتَبَ طاغِيَةُ الرُّومِ إلى المُعتَصِم يَتَهَدَّدُه ، فأمَرَ بجَوابِه ، فلمَّا عُرِضَ عليه رَماهُ ، وقال للكاتِبِ : اكْتُبْ : « أمَّا بعدُ ، فقد قَرأتُ كتابَكَ ، وسَمعتُ خِطابَكَ ، والجَوابُ ما تَرَىٰ لا ما تَسْمَع » ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾[2] [3] .

(ز) قِصَّةُ المَازِنيّ مع اليَهُوديّ :

قال الذهبيُّ : قِيلَ : كان المَازِنيُّ ذا وَرَعٍ ودينٍ ، وبَلَغَنا أنَّ يَهُودِيّاً حَصَّلَ النَّحْوَ فجاءَ لِيَقْرأَ على المَازِنيّ « كِتابَ سِيْبَوَيْه » ، فبَذَلَ له مِئَةَ دينارٍ ، فامْتَنَعَ وقال : هـٰذا الكِتابُ يَشْتَمِلُ علىٰ ثلاثِ مِئَةِ آيةٍ ونَيِّفٍ ، فلا أُمَكِّنُ منهما ذِمِّياً[4] .

---

(١) انظر السير : (عبد الرحمـٰن بن معاوية بن هشام) ٨/ ٢٤٤ـ٢٥٣ ، وانظر النزهة : ١/٧٤٩ .

(٢) سورة الرعد ، الآية : ٤٢ .

(٣) انظر السير : (المعتصم) ١٠/ ٢٩٠ـ٣٠٦ ، وانظر النزهة : ٥/٨٧٨ .

(٤) انظر السير : (المازنيّ) ١٢/ ٢٧٠ـ٢٧٢ ، وانظر النزهة : ١/٨٩٩ .

(ح) قِصَّةُ طُغرلبك مع مَلِكِ الرُّومِ :

قال الذهبيُّ في تَرجَمَة طُغْرُلْبَك : ولَمْ يُرْزَق طُغرلبَك ولَداً ، وعاشَ سَبعينَ عاماً ، وكان بيَدِه خُوارَزْم ونيسابُور وبَغْداد والريّ وأصْبَهان ، وكان أخُوهُ إبراهيم يَنال قد حارَبَه ، وجَرَتْ أمُور ، وحصل في يدِه مَلِكٌ كَبيرٌ للرُّوم ، فبَذَلَ في نَفسِه أمْوالاً عَظيمَةً ، فأبَىٰ عليه فبَعَثَ نَصْرُ الدَّولَة صاحِبُ الجَزيرَة وميَّافارِقين يَشْفَعُ في فِكاكِه ، فبَعَثَه طُغرلبَك إلىٰ نَصرِ الدَّولَة بِلا فِداءٍ فانتَخَىٰ مَلِكُ الرُّومِ ، وأهْدَىٰ إلىٰ طُغرلبَك مِئَتَيْ ألفِ دينارٍ ، وخَمسَ مِئَةِ أسير ، وألْفاً وخَمسَ مِئَةَ ثَوْبٍ ، ومِئَةَ لَبِنَةٍ فِضَّة ، وألْفَ عَنْزٍ أبيض وثلاثِ مِئَة شِهْرِي[1] ، وبَعثَ إلىٰ نَصرِ الدَّولَة تُحَفاً ومِسْكاً كَثيراً[2] .

(ط) رِسالَةُ المُظَفَّر إلىٰ مَلِكِ الرُّوم :

وكان كاتبُ المُظَفَّر بن الأفْطَس الوَزِيرُ أبو مُحمَّد عبدُ الله بنُ النَّحويّ أحَدُ البُلَغاءِ فكتب أذفونش ـ لعَنَهُ الله ـ يُرْعِدُ ويُبْرِقُ ، فأجَابَ : وصَلَ إلى المَلِكِ المُظَفَّرِ من عَظيمِ الرُّوم كتابُ مُدَّعٍ في المَقَادِيرِ ، يُرْعِدُ ويُبْرِقُ ، ويَجمَعُ تارةً ويُفَرِّقُ تارةً ، ويُهدِّدُ بالجُنودِ الوافِرَةِ ، ولَمْ يَدْرِ أنَّ لله جُنُوداً أعَزَّ بهم الإسْلامَ ، وأظْهَرَ بهم دينَ نبيِّنا صلى الله عليه وسلم ، يُجَاهِدُون في سَبيلِ الله ، ولا يَخافُونَ في الله لَوْمَةَ لائِمٍ ، فأمَّا تَعْيِيرُكَ للمُسلمينَ فيما وَهَنَ من أحْوالِهم ، فبالذُّنوبِ المَركُوبَة ، والفِرَقِ المَنْكُوبَة ، ولو اتَّفَقَتْ كلمَتُنا عَلمتَ أيَّ صائبٍ أذَقْناكَ ، كما كانت آباؤُك مع آبائِنا ، وبالأمْس كانت قَطيعَةُ المَنْصُورِ علىٰ سَلَفِك ، أهْدَى ابنتَه إليه ، مع الذَّخائِرِ التي كانت تَفِدُ في كلِّ عامٍ عليه ، ونحنُ فإن قَلَّتْ أعْدادُنا ، وعُدِمَ من المَخْلُوقين اسْتِمْدادُنا فما بَيْنَنا وبَيْنَك بَحرٌ تُبْصِرُه في يَومِك ، وبالله وملائِكَتِه نَتَقَوَّىٰ عَلَيْك ، لَيْسَ لنا سِواهُ مَطْلَبٌ ، ولا إلىٰ غَيرِه مَهْرَبٌ ، وهل تَرَبَّصُونَ بِنَا إلاَّ إحْدَى الحُسْنَيَيْنِ : شَهَادةٌ ، أو نَصْرٌ عزيزٌ .

ولمَّا تُوفِّيَ المُظَفَّرُ بعد السبعِينَ وأربع مِئَةٍ أو قبلَها ، قامَ في المُلْكِ بعدَه ولَدَهُ

---

(١) قال في (الأساس) والبرذون الشهري بين الرمكة والفرس العتيق .

(٢) انظر السير : (طُغرلبَك) ١٨/١٠٧ـ١١١ ، وانظر النزهة : ٢/١٣٩٠ .

المُلَقَّبُ بالمُتَوَكِّلِ على الله أبو حَفْصٍ عُمَرُ بنُ الأفْطَسِ صاحِبُ بَطَلْيَوس ويابُرة وشَنْتَرين وأشْبُونَة فكان نَحْواً من أبيه في الشَّجاعَةِ والبَرَاعَةِ والأدَبِ والبَلاغَةِ فبَقِيَ إلىٰ أن قَتَلَه المُرابِطُون جُندُ يُوسُفَ بنَ تاشفينَ صَبراً ، وقَتلوا مَعَه ولَدَيْهِ الفَضْلَ وعَبَّاساً ، في سنةِ خَمْسٍ وثَمَانِينَ وأربعِ مِئَة ، إذ اسْتَولَوا على الأنْدَلُسِ[1] .

(ي) صَلاحُ الدِّينِ مع أرْناط :

قال الإمامُ الذهبيُّ : وفي سَنَةِ ثلاثٍ وثمَانِينَ افْتَتَحَ صَلاحُ الدِّينِ بلادَ الفِرَنْجَ ، وقَهَرَهم ، وأبَادَ خَضْراءَهم ، وأسَرَ مُلُوكَهم علىٰ « حِطِّينَ » ، وكان قد نَذَرَ أنْ يَقْتُلَ أرْناطَ صاحِبَ الكَرَكِ ، فأُسِرَ يومَئذٍ ، كان قد مَرَّ به قومٌ من مِصْرَ في حَالِ الهُدنَةِ ، فغَدَرَ بهم ، فنَاشَدُوهُ الصُّلْحَ ، فقال ما فيه اسْتِخْفافٌ بالنَبِيِّ صلى الله عليه وسلم ، وقتَلَهم ، فاسْتَحْضَرَ صلاحُ الدِّين المُلُوكَ ، ثمَّ ناوَلَ المَلِكَ جِفْرِي شَرْبَةَ جلابِ ثلج فشَرِبَ ، فنَاوَلَ أرْناطَ فشَرِبَ ، فقال السُّلطانُ للتُّرجُمَانِ : قُلْ لجِفْري : أنْتَ الذي سَقَيْتَه ، وإلاَّ أنا فمَا سَقَيْتُه ، ثمَّ اسْتَحْضَرَ البرِنْسَ أرْنَاطَ في مَجْلِسٍ آخَرَ ، وقال : أنا أنتَصِرُ لمُحمَّدٍ صلى الله عليه وسلم مِنْكَ ، ثمَّ عَرَضَ عليه الإسْلامَ ، فأبَىٰ فحَلَّ كَتِفَه بالنَّيمجاه[2] .

وافْتَتَحَ عامَهُ ما لَمْ يَفْتَحْهُ مَلِكٌ ، وطارَ صِيتُه في الدُّنيا ، وهَابَتْهُ المُلُوكُ .

تُوفِّيَ بقَلعَةِ دِمَشْقَ سَنَةَ تِسْعٍ وثمَانِينَ وخَمسِ مِئَة .

مَحاسِنُ صلاحُ الدِّين جَمَّةٌ ، لا سِيَّمَا الجِهادُ ، فلَه فيه اليَدُ البَيْضاءُ ببَذْلِ الأمْوالِ والخَيْلِ المُثَمَّنَة لجُنْدِه ، وله عَقلٌ جَيِّدٌ ، وفَهمٌ وحَزمٌ وعَزمٌ[3] .

٣ـ نَواحٍ حَضَارية في الإسلام :

(أ) بدء التاريخ الهجري :

وفي سَنة سِتّة عَشر كُتبَ التاريخُ في شَهر رَبيع الأوّل ، فعَن ابنِ المُسَيَّب قال : أوَّلُ

---

(١) انظر السير : (المُظفَّر بن الأفطس) ١٨/ ٥٩٤ـ ٥٩٧ ، وانظر النزهة : ٢/١٤٤٦ .

(٢) النيمجاه : وهو خنجر مقوس يشبه السيف القصير .

(٣) انظر السير : (صلاح الدين وبَنوه) ٢١/ ٢٧٨ـ ٢٩١ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٢٢ .

مَنْ كَتبَ التاريخَ عُمرُ بنُ الخَطَّاب لسَنتَينِ ونصف من خِلافَته ، فكُتبَ لستٍّ عَشرة من الهجرة بمَشُورة عليٍّ رضي اللهُ عنهما[1] .

(ب) بناءُ مُدن جديدة :

قال الذهبيُّ في تَرجمة عبد الرحمَـٰنِ بنِ محَمَّد بن عبدِ اللهِ المَرْوَانِيّ :

وابْتَدَأ ببنَاءِ مَدينَةِ الزَّهْرَاءِ في أوَّلِ سَنَةِ خَمسٍ وعِشْرينَ وثَلاثِ مِئَةٍ فكانَ يُقَسِّمُ دَخْلَ مَمْلَكَته أثْلاثاً : فثُلُثٌ يَرصُده للجُند ، وثُلثٌ يَدّخرُه في بيَتِ المَال وثُلثٌ يُنْفقُه في الزَّهْراءِ[2] .

ولَمْ يَزَلْ عبدُ الرحمَـٰن يَغْزُو حتّىٰ أقَامَ العِوَجَ ، ومَهَّدَ البلادَ ، ووَضَعَ العَدلَ ، وكَثُرَ الأمْنُ ، ثمّ بَعثَ جَيشاً إلى المَغربِ ، فغَزَا بَرْغَواطة بنَاحيَةِ سَلا[3] ولَمْ تَزَلْ كَلِمَتُه نافِذَةٌ ، وسِجلماسة[4] وجَميعَ بلادِ القِبلَة ، وقَتَلَ ابنَ حَفْصون[5] .

وصَارَتْ الأندلُس أقْوَىٰ ما كانت وأحْسَنها حَالاً ، وصَفَا وَجْهُهُ للرُّوم ، وشَنَّ الغَاراتِ على العَدُوِّ ، وغزَا بِنَفْسه بلادَ الرُّوم اثْنَتَيْ عَشْرَة غَزْوَةً ودَوَّخَهُم ، ووَضَعَ عليهِم الخَرَاجَ ، ودَانَتْ له مُلُوكُها ، فكانَ فيمَا شَرَطَ عليهِم اثْنَا عَشَرَ ألْفَ رَجُلٍ يَصْنَعُون في بِناءِ الزَّهْرَاءِ التي أقَامَهَا لسُكْنَاه علىٰ فَرْسَخ من قُرطُبَة[6]

وسَاقَ إليها أنهَاراً ، ونقَبَ لها الجَبَلَ ، وأنْشَأها مُدَوَّرةً ، وعِدَةُ أبْرَاجِهَا ثَلاثُ مئة بُرْج ، وشُرُفَاتِهَا من حَجَرٍ واحدٍ ، وقَسَّمَها أثْلاثاً ، فالثُلُثُ المُسْنَدُ إلى الجَبَلِ قُصُورُه ، والثُلُثُ الثاني دُورُ المَماليك والخَدَمِ ، وكَانُوا اثْني عَشَرَ ألْفاً بمَنَاطِقِ الذَّهَبِ ، يَرْكَبُونَ لرُكُوبِه ، والثُلُثُ الثَّالثُ بَسَاتين تحْتَ القُصُورِ وعَمِلَ مَجْلِساً مُشْرِفاً على البَسَاتين ،

---

(١) انظر السير : (عُمرُ بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ١/٦٩ .

(٢) انظر السير : (عبد الرحمـٰن بن محمد بن عبد الله) ٨/ ٢٦٥_٢٦٩ ، وانظر النزهة : ٣/٧٥٦ .

(٣) مدينة بالمغرب علىٰ ساحل المحيط الأطلسي قرب المعمورة ويقربها برغواطة .

(٤) مدينة داخلية في جنوب المغرب بينها وبين فاس عشرة أيام .

(٥) انظر السير : (عبد الرحمـٰن بن محمد بن عبد الله) ٨/ ٢٦٥_٢٦٩ ، وانظر النزهة : ٤/٧٥٦ .

(٦) انظر السير : (عبد الرحمـٰن بن محمد بن عبد الله) ٨/ ٢٦٥_٢٦٩ ، وانظر النزهة : ١/٧٥٧ .

صفَّحَ عُمُدَهُ بالذَّهَبِ ، ورَصَّعَهُ باليَاقُوتِ والزُّمُرُّدِ ، واللُّؤْلُؤِ ، وفرَشَه بمَنْقُوشِ الرُّخَامِ ، وصَنَعَ قُدَّامَه بُحَيْرَةً مُستديرَة مَلأها زِئْبَقاً ، فكان النُّورُ يَنْعَكِسُ مِنْه إلى المَجْلِسِ ، فدَخَلَ عليه قاضيه ، مُنْذِرُ بنُ سَعيد البَلُّوطِيّ ، فوَقَفَ وقرَأَ : ﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴾[١] .

فقال : وَعَظْتَ أبا الحَكَم ، ثمّ قَامَ عن المَجْلِس ، وأَمَرَ بنَزْعِ الذَّهَبِ والجَوَاهِر .

ويُقَالُ : إنَّ بِنَاءَ الزَّهْراءِ أُكْمِلَ في اثْنَتَيْ عَشْرَةَ سَنَة ، بألْفِ بَنَّاءٍ في اليوم ، مع البَنَّاءِ اثْنَا عَشَرَ فَاعِلاً[٢] .

(ج) الاهتمام بالطِّبِّ وبناء المُستشفيات :

قال صَالحُ بنُ مُحمّد جزرة : سَمعتُ الرَّبيعَ ، سَمعتُ الشَّافِعيَّ يَقولُ : لا أَعْلَمُ عِلْماً بَعدَ الحَلالِ والحَرامِ أنْبَلُ من الطِّبِّ ، إلاَّ أنَّ أهْلَ الكتاب قد غَلَبُونا عليه[٣] .

قال حَرملةُ : كان الشَّافِعيُّ يَتَلَهَّفُ علىٰ ما ضَيَّعَ المُسلمُونَ من الطِّبِّ ، ويقُولُ : ضَيَّعُوا ثُلُثَ العِلمِ ، ووَكَلُوهُ إلى اليَهُودِ والنَّصَارَىٰ[٤] .

وقِيلَ : إنَّ المَازِرِيَّ مَرِضَ مَرْضَةً ، فلَمْ يَجدْ مَنْ يُعالِجُه إلاَّ يَهُوديّاً ، فلمَّا عُوفِي علىٰ يَدِه ، قال : لَوْلا التِزامِي بحِفْظ صِناعَتِي لأعْدَمْتُك المسلمينَ فأثَّرَ هـٰذا عند المَازِرِيِّ ، فأقْبَلَ علىٰ تعَلُّمِ الطِّبِّ حتّىٰ فَاقَ فيه ، وكان مِمَّنْ يُفْتِي فيه كمَا يُفْتِي في الفِقْهِ[٥] .

وبَنَىٰ صَاحبُ المَغربِ السُّلطانُ يَعْقُوبُ بنُ يُوسُف مارستاناً ما أظنُّ مثله ، غَرسَ فيه

---

(١) سورة الزخرف ، الآيتين : ٣٣ ، ٣٤ .

(٢) انظر السير : (عبد الرحمـٰن بن محمد بن عبد الله) ٨/ ٢٦٥ـ ٢٦٩ ، وانظر النزهة : ٢/٧٥٧ .

(٣) انظر السير : (الشافعي) ١٠/ ٥ـ ٩٩ ، وانظر النزهة : ٤/٨٥٠ .

(٤) انظر السير : (الشافعي) ١٠/ ٥ـ ٩٩ ، وانظر النزهة : ٥/٨٥٠ .

(٥) انظر السير : (المَازِريّ) ٢٠/ ١٠٤ـ ١٠٧ ، وانظر النزهة : ١/١٥٣٤ .

من جَميعِ الأشْجَارِ ، وزَخْرَفَهُ وأجْرَىٰ فيه المياهَ ، ورَتَّبَ له كُلَّ يومٍ ثَلاثينَ دينَاراً للأدويةِ ، وكان يَعُودُ المَرضَىٰ في الجُمُعَة .

وكان لا يقُولُ بالعِصْمَةِ في ابنِ تومرت .

وسَأَلَ فَقِيهاً : ما قَرأتَ ؟ قال : تَوالِيفَ الإمَامِ ، قال : فَزَوَرَنِي ، وقال : ما كذا يقُولُ الطَّالِبُ! حُكمكَ أنْ تقولَ : قَرأتُ كتَابَ اللهِ ، وقَرأتُ من السُّنَّةِ ، ثمَّ بعدَ ذا قُلْ ما شِئْتَ .

وكانت مَجَالِسُه مُزَيَّنَةً بحُضُورِ العُلَمَاءِ والفُضَلاءِ ، تُفْتَتَحُ بالتِّلاوَة ثمّ بالحَديثِ ، ثمّ يَدعُو هوَ ، وكان يُجِيدُ حِفْظَ القُرآنِ ، ويَحفَظُ الحَديثَ ، ويَتكلَّمُ في الفِقْهِ ، ويُنَاظِرُ ، ويَنْسبُونَه إلىٰ مَذْهبِ الظَّاهِرِ ، وكان فَصيحاً ، مَهيباً ، حَسَنَ الصُّورَة ، تَامَّ الخِلْقَة ، لا يُرَىٰ منه اكْفِهْرارٌ ، ولا عن مُجالِسِه إعْراضٌ ، بِزِيِّ الزُّهَّادِ والعُلماء ، وعَليه جَلالَةُ المُلُوكِ ، صَنَّفَ في العِبادات ، وله (فَتَاوٍ) ، وبَلَغَني أنَّ السُّودانَ قَدَّموا له فِيلاً فوَصَلَهم ، وردَّه ، وقال : لا نُريدُ أن نكونَ أصْحَابَ الفيلِ ، وكان يَجْمَعُ الزَّكاةَ ، ويُفَرِّقُها بنَفْسِه ، وعَمِلَ مَكْتَباً للأيْتام ، فيه نَحْوُ ألفِ صَبيٍ ، وعَشْرَةُ مُعَلِّمُونَ ، حَكَىٰ لي بَعضُ عُمَّالِه : أنَّه فرَّقَ في عيدٍ نَيِّفاً وسَبعينَ ألْفَ شاةٍ .

وقال عبدُ الواحد : كان مُهْتَمّاً بالبناءِ ، كُلَّ وَقتٍ يُجَدِّدُ قَصراً أو مَدينةً ، وأنَّ الذين أسْلَمُوا كُرهاً أمَرَهُم بلِبْسٍ كُحْليٍّ وأكْمَامٍ مُفْرطَةِ الطُّولِ ، وكلوتاتٍ ضخمةٍ بَشِعَةٍ ، ثمَّ ألْبَسَهم ابنُهُ العَمَائِمَ الصُّفْرِ ، حَمَلَ يَعقُوبَ علىٰ ذلكَ شَكُّهُ في إسْلامِهم ، ولَمْ تَنْعَقِد عندنا ذِمَّةٌ ليَهُوديٍّ ولا نَصْرانيّ مُنذُ قَامَ أمْرُ المَصَامِدَة ، ولا في جَميعِ المَغْربِ كَنِيسَةٌ ، وإنَّمَا اليَهُودُ عندنا يُظْهِرونَ الإسْلامَ ، ويُصَلُّونَ ، ويُقْرِئُونَ أوْلادَهُم القُرآنَ جارينَ علىٰ مِلَّتِنا .

وكان ابنُ رُشْد الحفيدُ قد هَذَّبَ له كتابَ « الحَيَوان » ، وقال : الزُّرافة رأيتُها عند مَلِكِ البَرْبَر ، كذا قال غيرَ مُهتبل ، فأحْنَقَهُم هـٰذا ، ثمَّ سَعَىٰ فيه مَنْ يُناوِئُه عند يَعقُوبَ فَأَرَوْهُ بخَطِّهِ حاكياً عن الفَلاسِفَة أنَّ الزُّهْرةَ أحَدُ الآلِهَة ، فطَلَبَه ، فقال : أهـٰذا خَطُّك ؟

فأنْكَرَ ، فقال : لَعَنَ اللهُ مَنْ كَتَبَه ، وأمَرَ الحاضِرينَ بلَعْنِه ، ثمَّ أقامَه مُهاناً ، وأحْرَقَ كُتُبَ الفَلْسَفَةِ سِوَى الطِّبِّ والهَنْدَسَة[١] .

وجَاءَ في تَرْجَمَةِ الرَّحبيّ ، قال الذَّهبيُّ : البارعُ العَلاَّمَةُ إمَامُ الطِّبِّ رَضِيُّ الدينِ يُوسُفُ بنُ حَيْدَرَة بن حَسَن الرَّحْبيّ الحَكِيم[٢] .

كان أبُوه كَحَّالاً من أهْلِ الرَّحْبة ، فوُلدَ له يُوسُفُ بالجَزِيرَة العُمَريّة وأقَامَ بنَصِيبين مُدّة وبالرَّحْبةِ ، ثمّ قَدِمَا دِمَشْقَ في سنة خَمسٍ وخَمسينَ وخَمسِ مِئَة ، ثمَّ أقْبَلَ يُوسُفَ على الدَّرْسِ والنَّسْخِ ومُعالَجَة المَرضَىٰ ، ولازَمَ المُهَذَّبَ ابنَ النقَّاش ، وبرَعَ ، فنَوَّهَ المُهَذَّبُ باسْمِه ، وحَسُنَ مَوقِعُهُ عند السُّلطان صَلاح الدين ، وقَرَّرَ له ثلاثينَ ديناراً على القَلعَةِ والبيمارسْتان واسْتَمرتْ عليه حتّىٰ نَقَضَها المُعَظَّمُ ، ولَمْ يَزَلْ مُبَجّلاً في الدَّولَةِ وكان رَئيساً عَالِيَ الهِمَّة كَثيرَ التحقيقِ ، فيهِ خَيْرٌ وعَدَمُ شَرٍّ ، تَصَدَّرَ للإفادَة ، وخَرَّجَ له عِدّةَ أطِبَّاءَ كِبار[٣] .

وقال الرَّحْبيُّ : جَميعُ مَنْ قَرأَ عليَّ سُعِدُوا وانْتَفَعَ النَّاسُ بهم . وكان لا يُقْرِىءُ أحَداً من أهْلِ الذِمَّةِ بلىٰ ، قَرأَ عليه منهُم عِمْرانُ اليَهُوديّ ، وإبْراهيمُ السَّامريُّ تَشَفَّعا إليه ، وكُلٌّ منهُمَا بَرَعَ[٤] .

قال ابنُ أبي أُصَيْبِعة : قَرَأْتُ عليه في سنة اثْنَتَين وثلاثٍ وعِشْرين كُتُباً وانْتَفَعتُ به ، وكان مُحِبّاً للتجارةِ مُغْرىً بها ويُراعِي مزاجَه ، ولا يَصْعَدُ في سلَّم ، وله بُسْتانٌ ، وكان الوَزِيرُ ابنُ شُكر يَلْزَمُ أكْلَ الدَّجاجِ حتّىٰ شَحبَ لَوْنُه ، فقالَ له الرَّضي : الْزَمْ لَحْمَ الضَّأْنِ فَفَعَلَ فظَهَرَ دَمُهُ .

مات الرَّحْبيُّ سَنَةَ إحْدَىٰ وثَلاثينَ وسِتِّ مِئَة ، ولَه سَبْعٌ وتِسْعُونَ سَنَةً[٥] .

---

(١) انظر السير : (صاحب المغرب) ٢١/٣١١ـ٣١٩ ، وانظر النزهة : ١/١٦٢٨ .
(٢) انظر السير : (الرَّحبيُّ) ٢٢/ ٣٧١ـ ٣٧٢ ، وانظر النزهة : ٣/١٧٠٣ .
(٣) انظر السير : (الرَّحبيُّ) ٢٢/ ٣٧١ـ ٣٧٢ ، وانظر النزهة : ٤/١٧٠٣ .
(٤) انظر السير : (الرَّحبيُّ) ٢٢/ ٣٧١ـ ٣٧٢ ، وانظر النزهة : ١/١٧٠٤ .
(٥) انظر السير : (الرَّحبيُّ) ٢٢/ ٣٧١ـ ٣٧٢ ، وانظر النزهة : ٢/١٧٠٤ .

وقال الذهبيُّ في تَرجَمَةِ المُسْتَنْصِر باللهِ : قال ابنُ النجَّار : فنَشَرَ العَدْلَ ، وبَثَّ المَعْرُوفَ ، وقرَّبَ العُلماءَ والصُّلَحَاءَ ، وبَنَى المَسَاجِدَ والمَدَارِسَ والرُّبطَ ، ودُورَ الضِّيافَةِ والمارستانات ، وأجْرَى العَطِيَّاتِ ، وقَمَعَ المُتَمَرِّدَةَ وحَمَلَ النَّاسَ علىٰ أقْوَمِ سَنَن ، وعَمَّرَ طُرُقَ الحَاجّ وعَمَّرَ بالحَرَمَيْنِ دُوراً للمَرْضَىٰ وبَعَثَ إليها الأدْويَةَ :

تَخْشَـى الإلَـهَ فمَـا تَنَـامُ عِنَـايَـةً   بـالمُسْلِمِيـنَ وكُلهُّـمُ بِـكَ نَـائِـمُ

إلىٰ أنْ قالَ : ثمَّ قَامَ بأمرِ الجِهَادِ أحْسَنَ قِيام وجَمَعَ العَسَاكِرَ ، وقَمَعَ الطغام ، وبَذَلَ الأمْوالَ ، وحَفِظَ الثُّغُورَ ، وافْتَتَحَ الحُصُونَ ، وأطَاعَهُ المُلُوكُ .

قال الذهبيُّ : كانت دَولَتُهُ جَيدَةَ التَّمَكُّن وفيه عَدلٌ في الجُملَةِ ووَقْعٌ في النُّفُوسِ[1] .

وقال الذهبيُّ في ترجمَةِ ابنِ البيطار : العلاّمةُ ضياءُ الدينِ عبدُ اللهِ بنُ أحمَدَ المالقيُّ النَّباتيُّ الطَّبيبُ ، ابنُ البيطارِ ، مُصَنِّفُ كتابِ « الأدْويَةِ المُفْرَدَةِ » وما صُنِّفَ في مَعْنَاه مِثلُه .

انتَهَتْ إليه مَعْرفَةُ الحَشَائِش ، وسَافَرَ إلىٰ أقاصي بلادِ الرُّوم ، وحَرَّرَ شَأنَ النباتِ ، وكان أحَدَ الأذْكياءِ ، وخَدَمَ المَلكَ الكَاملَ ، وابنَهُ المَلكَ الصَّالح .

تُوُفِّيَ بدمَشْقَ سَنَةَ سِتٍّ وأرْبعينَ وستِّ مِئَة[2] .

(د) مَدَارسُ نظَام المُلك :

أنشَأَ الوزيرُ نِظَامُ المُلْكِ المَدْرسَةَ الكُبْرىٰ ببَغْدادَ ، وأُخْرَىٰ بنِيسَابُورَ وأُخْرَىٰ بِطُوسَ ورَغَّبَ في العِلْمِ ، وأدَرَّ على الطَّلَبَةِ الصِّلاتَ وأمْلَى الحَديثَ وبَعُدَ صِيتُه[3] .

(هـ) قانونُ مِنْ أيْنَ لكَ هَـٰذَا ؟ :

عن أيُّوبَ ، عن مُحمَّدٍ أنَّ عُمَرَ رضي الله عنه اسْتعْمَلَ أبا هُرَيْرَةَ رضي الله عنه على البَحْرَيْنِ ، فقَدِمَ بعَشْرةِ آلافٍ ، فقالَ له عُمَرُ : اسْتَأثَرْتَ بهـٰذهِ الأمْوالِ يا عَدُوَّ اللهِ ،

---

(١) انظر السير : (المستنصر بالله) ٢٣/ ١٥٥ـ ١٦٨ ، وانظر النزهة : ١/١٧١٩ .
(٢) انظر السير : (ابن البيطار) ٢٣/ ٢٥٦ـ ٢٥٧ ، وانظر النزهة : ١٧٣٤/ ابن البيطار .
(٣) انظر السير : (نظام الملك) ١٩/ ٩٤ـ ٩٦ ، وانظر النزهة : ٢/١٤٦٤ .

وعَدُوَّ كِتابه ؟ ، فقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ : فقُلتُ : لسْتُ بعَدُوِّ اللهِ وعَدُوِّ كِتابه ، ولكِنِّي عَدُوٌّ مَنْ عاداهُما ، قال عُمَرُ : فمِنْ أيْنَ هي لكَ ؟!! قُلتُ : خَيْلٌ نُتِجَتْ ، وغَلَّةُ رَقيقٍ لي ، وأُعْطِيَةٌ تَتابَعَتْ فنَظَرُوا ، فوَجَدُوا كَمَا قال[1] .

(و) الرِّفْقُ بالحَيَوانِ :

عن أبي إسْحاقَ الشِّيرازيِّ : أنَّ رَجلاً أخْسَأَ كَلْباً ، فقال : مَهْ!! ، الطَّرِيقُ بَيْنَكَ وبَيْنَه[2] .

وقِيلَ : إنَّ هِرَّةً نامَتْ علىٰ كُمِّ الشَّيخِ أحمَدَ الرِّفاعيِّ ، وقامَتِ الصَّلاةُ ، فقَصَّ كُمَّهُ ، وما أزْعَجَهَا ، ثُمَّ قَعَدَ ، فوَصَلَه ، وقالَ : ما تَغَيَّرَ شيءٌ[3] .

(ز) دُورُ الأيْتامِ والعَجَزَةِ والعُمْيان :

كانَ صاحِبُ إرْبل ، السُّلْطانُ مُظَفَّرُ الدين بكْتكين مُحِبّاً للصَّدَقَةِ ، له كُلُّ يوم قَناطِيرُ خُبْزٍ يُفَرِّقُهَا ، ويَكْسُو في العَامِ خَلْقاً ويُعْطِيهم دِيناراً ودِينارَيْنِ ، وبَنَىٰ أربعَ خَوانِكْ للزَّمْنَىٰ والأضِرَّاءِ ، وكان يَأتِيهم كُلَّ اثْنَيْنِ وخَميسٍ ويَسْألُ كُلَّ واحِدٍ عن حَالِه ويَتَفَقَّدُه ويُبَاسِطُه ويَمْزَحُ مَعَه وبَنَىٰ داراً للنِّسَاءِ ، وداراً للأيْتامِ ، وداراً للقَضَاءِ ورَتَّبَ بها المَرَاضِعَ ، وكان يَدُورُ علىٰ مَرْضَى البيمَارِسْتان ولَه دَارُ مُضيفٍ يَنْزِلُهَا كُلُّ وَارِدٍ ، ويُعْطَىٰ كُلَّ ما يَنْبَغِي له وبَنَىٰ مَدْرَسَةً للشَّافِعِيَّة والحَنَفيَّة وكان يَمُدُّ بها السِّماطَ ، ويَحْضُرُ السَّمَاعَ كَثيراً ، لَمْ يَكُنْ له لَذَّةٌ في شَيء غَيْرُهُ وكَانَ يَمْنَعُ من دُخُولِ مُنْكَرٍ بَلَدَه ، وبَنَىٰ للصُّوفيّة رِبَاطَيْنِ ، وكَانَ يَنْزِلُ إليهم لأجْلِ السَّماعات وكان في السَّنَة يُخْرِجُ سَبيلاً للحَجِّ ويَبْعثُ للمُجاوِرين بخَمْسَةِ آلافِ دينار ، وأجْرَى المَاءَ إلىٰ عَرَفَات

وأمَّا احْتِفالُه بالمَوْلِدِ فيَقْصُرُ التعْبيرُ عَنهُ ، كانَ الخَلْقُ يَقْصِدُونَه من العِراقِ والجَزيرَةِ وتُنْصَبُ قِبَابُ خَشَبٍ له ولأُمَرائِه وتُزَيَّنُ ، وفيها جوق المَغاني واللّعب ، ويَنْزِلُ كُلَّ يومٍ

---

(١) انظر السير : (أبو هُريرة) ٢/٥٧٨ـ ٦٣٢ ، وانظر النزهة : ٥/٢١٣ .

(٢) انظر السير : (أبو إسحاق الشيرازيّ) ١٨/ ٤٥٢ـ ٤٦٤ ، وانظر النزهة : ٣/١٤٢٩ .

(٣) انظر السير : (الرفاعيّ) ٢١/٧٧ـ ٨٠ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٠١ .

العَصْرَ فيَقِفُ علىٰ كُلِّ قُبَّةٍ ويَتَفرَّجُ ، ويَعْمَلُ ذلكَ أيّاماً ويُخْرِجُ من البَقَرِ والإبِلِ والغَنَمِ شيئاً كثيراً فتُنْحَرُ وتُطْبَخُ الألوانُ ، ويَعْمَلُ عِدَّةَ خِلَعٍ للصُّوفيَّةِ ، ويَتكلَّمُ الوُعَّاظُ في المَيْدانِ ، فيُنْفِقُ أمْوالاً جَزيلَةً ، وقد جَمَعَ له ابنُ دِحْيَةَ « كتابَ المَوْلِد » فأعْطَاهُ ألفَ دينار .

وكان مُتَواضِعاً ، خَيِّراً سُنِّياً ، يُحِبُّ الفُقَهاءَ والمُحَدِّثينَ ، ورُبَّما أعْطى الشُّعَرَاءَ ، وما نُقِلَ أنَّه انْهَزَمَ في حَرْبٍ ، وقد ذَكَرَ هٰذا وأمْثالَه ابنُ خَلْكان .

ماتَ سَنَةَ ثلاثينَ وستِّ مِئَة ، وعُمِلَ في تابُوتٍ ، وحُمِلَ مع الحُجَّاجِ إلىٰ مَكَّةَ ، فاتَّفَقَ أنَّ الوَفْدَ رَجَعُوا تِلكَ السَّنَةَ لعَدَمِ المَاءِ ، فدُفِنَ بالكُوفَةِ رَحِمَهُ اللهُ تعَالَىٰ ، وعاش اثْنَتَينِ وثَمَانينَ سَنَةً[1] .

وعاشَ أبُوهُ فَوقَ المِئَةِ ، وعُمِيَ وأصَمَّ ، وكان من كِبَارِ الدّولَةِ الأتابكيّة ، وما انْهَزَمَ قَطُّ ومَدَحَه الحَيْصُ بَيْص ، فقال : ما أعرفُ ما تقُولُ ولكنِّي أدْرِي أنَّكَ تُرِيدُ شَيئاً ! ! ، وأمَرَ له بخِلْعَةٍ وفَرَسٍ وخَمْسِ مِئَةِ دينار[2] .

(ح) المَدرسَة المُسْتنصِريّة :

قال الإمامُ الذهبيُّ : في سَنَةِ إحْدَىٰ وثلاثين أُديرَتْ[3] المُسْتَنصِريّة ببَغْدادَ ولا نَظيرَ لها في الحُسْنِ والسِّعَةِ ، وكَثْرةِ الأوْقافِ ، بها مِئَتانِ وثَمانيَةٌ وأرْبَعُونَ فَقيهاً وأربعةُ مُدرِّسينَ ، وشَيْخٌ للحَديثِ ، وشَيْخٌ للطِّبِّ ، وشَيْخٌ للنَّحْوِ ، وشَيْخٌ للفَرَائِضِ ، وإذا أقبَلَ وقْفُها غَلَّ أزْيَدَ من سَبعينَ ألفَ مِثْقال ، ولَعَلَّ قيمَةَ ما وُقِفَ عليها يُساوي ألفَ ألفِ دينار[4] .

* * *

---

(١) انظر السير : (صاحب إربل) ٢٢/ ٣٣٤ـ ٣٣٧ ، وانظر النزهة : ١/١٦٩٧ .

(٢) انظر السير : (صاحب إربل) ٢٢/ ٣٣٤ـ ٣٣٧ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٩٧ .

(٣) يعني ٱفتُتِحت .

(٤) انظر السير : (المستنصر بالله) ٢٣/ ١٥٥ـ ١٦٨ ، وانظر النزهة : ٢/١٧٢٠ .

عَقيدَةُ التَّوحيد

١ـ مِثالٌ للعَقيدَةِ الصَّحيحَة :

قال الحافظُ أبُو القاسِمِ اللاَّلَكَائِيّ : وجَدْتُ في كِتابِ أبي حاتِمٍ مُحمّدِ بنِ إدْريسَ الحَنْظَليّ ، ممَّا سَمِعَ منه ، يقولُ : مَذْهَبُنا واخْتيارُنا اتِّباعُ رسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم وأصْحابِه والتَّابِعين ، والتَّمَسُّكُ بمَذَاهِبِ أهْلِ الأثَر ، مثلُ الشَّافعيِّ ، وأحمَدَ ، وإسْحاقَ ، وأبي عُبَيْد ، ولُزُومُ الكتابِ والسُّنَّةِ ، ونَعْتَقِدُ أنَّ اللهَ ـ عَزَّ وجَلَّ ـ علىٰ عَرْشِهِ ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾[١] وأنَّ الإيمَانَ يَزيدُ ويَنقُصُ ، ونُؤمِنُ بعَذابِ القَبْرِ ، وبالحَوْضِ ، وبالمَسْألةِ في القَبْرِ ، وبالشَّفاعَةِ ، ونَتَرَحَّمُ علىٰ جَميعِ الصَّحابَةِ وذَكَرَ أشْياءَ[٢] .

٢ـ صاحبُ العَقيدَةِ الصَّحيحَة لا يَخافُ القُدومَ على اللهِ :

عن يَحْيَىٰ بنِ عَوْن ، قالَ : دَخَلتُ مع سُحْنُونَ على ابنِ القَصَّارِ وهو مَريضٌ ، فقال : ما هٰذا القَلَقُ!! ؟ قال له : المَوْتُ والقُدُومُ على اللهِ قال له سُحْنُونُ : ألَسْتَ مُصَدِّقاً بالرُّسُلِ والبَعْثِ والحِسابِ ، والجَنَّةِ والنَّارِ وأنَّ أفْضَلَ هٰذه الأُمَّةِ أبُو بَكْر ، ثُمَّ عُمَرُ ، والقُرآنَ كَلامُ اللهِ غَيرُ مَخْلُوقٍ وأنَّ اللهَ يُرَىٰ يومَ القِيامَةِ ، وأنَّهُ على العَرْشِ اسْتَوَىٰ ، ولا تَخْرُجُ على الأئِمَّةِ بالسَّيْفِ ، وإنْ جارُوا قالَ : إي واللهِ ، فقالَ : مُتْ إذا شِئْتَ ، مُتْ إذا شِئْتَ[٣] .

٣ـ صاحبُ العَقيدَةِ الصَّحيحَة لا يَأبَهُ باتِّهامِ النَّاسِ له في عَقيدَته :

عن السَّمْعانيِّ قال : سَمعتُ الحُسَيْنَ بنَ عبدِ المَلكِ الخَلاَّل ، سَمعتُ عبدَ

---

(١) سورة الشورىٰ ، الآية : ١١ .

(٢) انظر السير : (أبو حاتم الرازي) ١٣/ ٢٤٧ـ ٣٦٣ ، وانظر النزهة : ١/ ١٠٧٧ .

(٣) انظر السير : (سُحنون) ١٢/ ٦٣ـ ٦٩ ، وانظر النزهة : ٥/ ٩٨٣ .

الرَّحمَـٰنِ بنَ مَنْدَه يَقولُ : قد عَجِبْتُ من حالي ، فإنِّي وَجَدتُ أكثَرَ مَنْ لَقيتُه إنْ صَدَّقتُه فيما يَقُولُه مُداراةً له ، سَمَّاني مُوافِقاً ، وإنْ وَقَفْتُ في حَرفٍ من قَولِه أو في شَيءٍ من فِعْلِهِ ، سَمَّاني مُخالِفاً ، وإنْ ذَكَرتُ في واحدٍ منهما أنَّ الكتَابَ والسُّنَّةَ بخِلافِ ذلكَ ، سَمَّاني خارجيّاً ، وإن قُرِىءَ عليَّ حَديثٌ في التَّوحيدِ ، سَمَّاني مُشَبِّهاً ، وإنْ كان في الرُّؤْيةِ ، سَمَّاني سالمياً إلىٰ أنْ قالَ : وأنا مُتَمَسِّكٌ بالكِتابِ والسُّنَّةِ مُتبرِّىءٌ إلى اللهِ من الشِّبْهِ والمِثْلِ والنِّدِّ والضِّدِّ والأعْضاءِ والجِسْمِ والآلات ، ومن كُلِّ ما يَنْسِبُهُ النَّاسِبُونَ إليَّ ، ويَدَّعيهِ المُدَّعُونَ عليَّ من أنْ أقُولَ في اللهِ تعَالَىٰ شَيئاً من ذلكَ أو قُلتُهُ ، أو أرَاهُ ، أو أتَوَهَّمُه ، أو أصِفُه به[1] .

٤ـ وُجُوبُ التَّسْليم في أخْبارِ الصِّفات :

قال ابنُ القاسِم : سَألتُ مالِكاً عمَّنْ حَدَّثَ بالحَديثِ : الذين قالوا : « إنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ علىٰ صُورَتِه » ، والحَديثِ الذي جاءَ : « إنَّ اللهَ يَكشِفُ عَنْ سَاقِهِ » ، « أنَّه يُدْخِلُ يَدَهُ في جَهَنَّمَ حتَّىٰ يُخرِجَ مَنْ أرادَ » فأنْكَرَ مَالِكٌ ذلكَ إنْكاراً شَديداً ، ونَهَىٰ أنْ يُحَدِّثَ بها أحَدٌ ، فقِيلَ له : إنَّ ناساً من أهلِ العِلمِ يَتحدَّثون به ، فقال : مَنْ هو ؟!! ، قِيلَ : ابنُ عَجْلان عن أبي الزِّناد ، قال : لَمْ يَكُنِ ابنُ عَجلان يَعرفُ هـٰذه الأشْياءَ ، ولَمْ يَكُنْ عَالِمَاً ولمْ يَزلْ أبو الزِّناد عاملاً لهـٰؤلاء حتىٰ ماتَ ، وكان صاحب عُمَّال يتبعُهم .

قال الذهبيُّ : الخبرُ لمْ يَنفَرِدْ به ابنُ عَجْلان ، بلْ ولا أبو الزِّناد ، فقد رَواهُ شُعَيبُ بنُ أبي حَمزة عن أبي الزِّناد ، ورَواهُ قَتادَةُ عن أبي أيُّوبَ المَراغي ، عن أبي هُرَيْرَة ، ورَواهُ ابنُ لَهِيْعَة عن الأعْرج وأبي يُونُس ، عن أبي هُرَيْرَة ، ورَواهُ مُعمَّرُ عن هَمَّام ، عن أبي هُرَيْرَة ، وصَحَّ أيضاً من حَديث ابنِ عُمَر .

وقد قال إسْحاقُ بنُ راهَوَيْه ، عَالمُ خُراسان : صَحَّ هـٰذا عن رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ، فهـٰذا الصَّحيحُ مُخرجٌ في كتابَي البُخاري ومُسلم فنُؤمنُ به ونُفوِّضُ ونُسلِّمُ ولا نَخوضُ فيما لا يَعْنينا مع عِلْمنا بأنَّ اللهَ ليسَ كَمثْلِه شَيءٌ وهو السَّميعُ البَصيرُ .

---

(١) انظر السير : (ابن منده) ١٨/٣٤٩ـ٣٥٤ ، وانظر النزهة : ٢/١٤١٩ .

ماتَ أبو الزِّناد فَجأةً في مُغْتَسلِه ، وهو ابنُ سِتٍّ وسِتِّين سَنةً في سَنةِ ثلاثين ومِئَة[١] .

وقال رَبيعةُ مَولَىٰ آلِ مُنْكَدِر : وسُئِلَ كَيْفَ اسْتَوَى ؟!! ، فقالَ : الكَيْفُ غَيرُ مَعْقُولٍ ، وعَلى الرسُولِ البَلاغُ ، وعَلَيْنا التَّصْديقُ[٢] .

وسُئِلَ سُفيانُ عن أحاديثِ الصِّفاتِ فقال : أمِرُّوها كما جاءَت[٣] .

وعن جَعْفَرَ بنِ عبدِ الله قال : كُنَّا عندَ مالِك ، فجاءَهُ رجلٌ ، فقال : يا أبَا عبدَ الله ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾[٤] ، كَيْفَ اسْتَوَى ؟!! فما وَجَدَ مالكٌ مِنْ شَيءٍ ما وَجَدَ من مَسْألَتِه ، فنَظَرَ إلى الأرْضِ ، وجَعَلَ يَنْكُتُ بِعُودٍ في يَدِه ، حتّىٰ عَلاهُ الرَّحْضاءُ[٥] ، ثمَّ رَفَعَ رأسَه ، ورَمَىٰ بالعُودِ ، وقالَ : الكَيْفُ مِنْهُ غَيرُ مَعْقُولٍ ، والاسْتِواءُ مِنْهُ غَيرُ مَجْهُولٍ ، والإِيْمانُ به واجِبٌ ، والسُّؤالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ ، وأظُنُّكَ صاحِبَ بِدْعَةٍ ، وأمَرَ به فأُخْرِجَ[٦] .

وقال ابنُ القاسِم : سَألتُ مالِكاً عمَّنْ حَدَّثَ بالحَديثِ : الذين قالوا : « إنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ علىٰ صُورَتِه » ، والحَديثِ الذي جاءَ : « إنَّ اللهَ يَكشِفُ عَنْ سَاقِهِ » ، « أنَّه يُدْخِلُ يَدَهُ في جَهَنَّمَ حتّىٰ يُخْرِجَ مَنْ أرادَ » فأنْكَرَ مَالِكٌ ذلكَ إنْكاراً شَديداً ، ونَهَىٰ أنْ يُحَدِّثَ بها أحَدٌ ، فقِيلَ له : إنَّ ناساً من أهلِ العِلمِ يَتَحدَّثون به ، فقال : مَنْ هو ؟!! ، قِيلَ : ابنُ عَجْلان عن أبي الزِّناد ، قال : لَمْ يَكُنْ ابنُ عَجلان يَعرفُ هٰذه الأشْياءَ ، ولَمْ يَكُنْ عَالِماً[٧] .

قال الذهبيُّ : أنْكَرَ الإمامُ ذلكَ ، لأنَّه لَمْ يَثْبُتْ عِندَه ، ولا اتَّصَلَ به ، فهو مَعْذورٌ ،

---

(١) انظر السير : (أبو الزناد) ٥/ ٤٤٥ـ ٤٥١ ، وانظر النزهة : ٣/٦٢١ .
(٢) انظر السير : (ربيعة) ٦/ ٨٩ـ ٩٦ ، وانظر النزهة : ٣/٦٣٥ .
(٣) انظر السير : (سفيان) ٧/ ٢٢٩ـ ٢٧٩ ، وانظر النزهة : ١٠/٦٩٩ .
(٤) سورة طه ، الآية : ٥ .
(٥) الرحضاء : العرق أثر الحمىٰ أو عرق يفسد الجلد كثرةً .
(٦) انظر السير : (مالك الإمام) ٨/ ٤٨ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٦/٧٣٤ .
(٧) انظر السير : (مالك الإمام) ٨/ ٤٨ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٢/٧٣٥ .

كَما أنَّ صاحِبَيْ « الصَّحيحَيْنِ » مَعْذوران في إخْراجِ ذلكَ ـ أعْنِي الحَديثَ الأولَ والثاني ـ لثُبُوتِ سَنَدِهما ، وأمَّا الحَديثُ الثالث ، فَلا أعْرِفُه بهَـٰذا اللَّفظِ ، فقَوْلُنا في ذلكَ وبابِه : الإقْرارُ ، والإمْرار ، وتَفْويضُ مَعْناهُ إلىٰ قائِلِه الصَّادقِ المَعْصومِ صلى الله عليه وسلم[1] .

عن العَبَّاسِ الدُّوريّ قال : سَمعتُ أبا عُبَيدٍ القاسِم بن سَلاَّم ـ وذَكَرَ البابَ الذي يَرْوي فيهِ الرُّؤيَةَ ، والكُرْسيّ مَوضِع القَدَمينِ ، وضَحِكَ رَبِّنا ، وأيْنَ كان ربُّنا ـ فقال : هـٰذه أحاديثٌ صِحاحٌ ، حَمَلَها أصْحابُ الحَديثِ والفُقَهاءُ بَعضُهم عَن بَعضٍ ، وهي عندَنا حَقٌّ لا نَشُكُّ فيها ، ولكن إذا قِيلَ : كَيْفَ يَضْحَكُ!! ؟ وكَيْفَ وَضَعَ قَدَمَه!! ؟ قُلنَا : لا نُفَسِّرُ هـٰذا ، ولا سَمِعْنا أحَداً يُفسِّرُه[2] .

قال الإمامُ الذهبيُّ : قُلتُ : قد فَسَّرَ عُلماءُ السَّلَفِ المُهِمَّ من الألفاظِ وغَيْرَ المُهِمِّ ، وما أبْقَوا مُمْكِناً ، وآياتُ الصِّفاتِ وأحاديثُها لَمْ يَتعرَّضُوا لتأويلِها أصْلاً ، وهي أهَمُّ الدينِ ، فلَوْ كان تأويلُها سائِغاً أو حَتْماً ، لبادَرُوا إليه ، فعُلِمَ قَطْعاً أنَّ قِراءَتَها وإمْرارَها علىٰ ما جاءَتْ هُو الحَقُّ ، لا تَفْسيرَ لها غَيرَ ذلكَ ، فنُؤمِنُ بذَلكَ ، ونَسْكُتُ اقْتِداءً بالسَّلَفِ ، مُعْتَقِدِينَ أنَّها صِفاتٌ للهِ تَعالَىٰ ، اسْتأثَرَ اللهُ بعِلْمِ حَقائِقِها ، وأنَّها لا تُشْبهُ صِفاتِ المَخْلُوقين ، كمَا أنَّ ذاتَه المُقدَّسَةَ لا تُماثِلُ ذَواتَ المَخْلُوقين ، فالكِتابُ والسُّنَّةُ نَطَقَ بها ، والرسُولُ صلى الله عليه وسلم بَلَّغ ، وما تَعرَّضَ لتَأويلٍ ، مَعَ كَونِ البَاري قـال : ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[3] فعلَيْنـا الإيمـانُ والتَّسْليـمُ للنُّصوصِ ، والله يَهْدي مَنْ يَشاءُ إلىٰ صِراطٍ مُسْتَقيمٍ مات سَنَةَ أرْبعٍ وعِشْرينَ ومِئَتَيْنِ بِمَكَّةَ بَلَغَ سَبعاً وسِتِّينَ سَنَةً ، رَحمَهُ اللهُ[4] .

قال أبو سَهْل بنُ زياد القَطَّان ، أخْبرَنا محمدُ بنُ إسْماعيل التِّرمذيّ ، سَمعتُ

---

(١) انظر السير : (مالك الإمام) ٨/ ٤٨ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٣/٧٣٥ .
(٢) انظر السير : (أبو عُبَيد) ١٠/ ٤٩٠ـ ٥٠٩ ، وانظر النزهة : ٢/٨٨٨ .
(٣) سورة النحل ، الآية : ٤٤ .
(٤) انظر السير : (أبو عُبَيد) ١٠/ ٤٩٠ـ ٥٠٩ ، وانظر النزهة : ٣/٨٨٨ .

نُعَيمَ بنَ حمَّاد يقول : مَنْ شَبَّهَ اللهَ بخَلقِه فقد كَفَر ، ومَنْ أنْكرَ ما وَصفَ به نفسَه فقد كَفَر ، ولَيسَ في ما وَصَفَ اللهُ به نفسَه ولا رسُولُه تَشْبيه[1] .

قال الإمامُ الذهبيُّ : هـٰذا الكَلامُ حقٌّ ، نَعوذُ بالله من التَّشْبيه ومِن إنْكارِ أحاديثِ الصِّفات ، فمَا يُنكِرُ الثَّابتَ منها مَنْ فَقُهَ ، وإنَّما بعد الإيمان بها هنا مَقامان مَذمومان :[2] .

تأويلُها وصَرْفُها عن مَوضِع الخِطاب ، فما أوَّلَهَا السَّلَفُ ولا حَرَّفوا ألْفاظَها عن مَواضِعِها ، بل آمَنُوا بها ، وأمَرُّوها كما جاءَت[3] .

المَقامُ الثاني : المُبالَغَةُ في إثْباتِها ، وتَصَوُّرها من جِنسِ صِفاتِ البَشَر ، وتَشَكُّلِها في الذِّهْن ، فهـٰذا جَهلٌ وضَلالٌ ، وإنَّما الصِّفةُ تابعةٌ للمَوْصوفِ ، فإذا كانَ المَوْصوفُ عَزَّ وجَلَّ لَمْ نَرَه ، ولا أخْبرَنا أحدٌ أنَّه عايَنَه مع قَولِه لنا في تَنزيلِه : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾[4] فكَيفَ بَقي لأذْهانِنا مَجالٌ في إثْباتِ كَيفيَّةِ الباري ، تَعالى اللهُ عن ذلك ، فكذلك صِفاتُه المقدَّسَة ، نُقِرُّ بها ونَعتَقدُ أنَّها حقٌّ ، ولا نُمثِّلُها أصْلاً ولا نَتَشكَّلُها[5] .

ووَرَدَ عن إسْحاقَ بنِ راهَوَيْه أنَّ بعضَ المُتكَلِّمينَ قال له : كَفَرْتُ بربٍّ يَنزِلُ مِنْ سَماءٍ إلىٰ سَماءٍ فقال : آمَنْتُ بربٍّ يَفْعَلُ ما يَشاءُ .

قال الذهبيُّ : هـٰذه الصِّفاتُ من الاسْتِواءِ والإتْيانِ والنُّزولِ ، قد صَحَّتْ بها النُّصوصُ ، ونقَلَهَا الخَلَفُ عن السَّلَفِ ، ولَمْ يَتَعرَّضُوا لها بردٍّ ولا تأويلٍ ، بَلْ أنْكَرُوا علىٰ مَنْ تَأوَّلَها مع إصْفاقِهم علىٰ أنَّها لا تُشْبِهُ نُعُوتَ المَخْلوقينَ وأنَّ اللهَ ليْسَ كَمثلهِ شيءٌ ، ولا تَنْبَغي المُناظَرَةُ ، ولا التَّنَازُعُ فيها فإنَّ في ذلك مُحاوَلَةً للرَّدِّ

---

(١) انظر السير : (نعيم بن حماد بن معاوية) ١٠/ ٥٩٥ـ ٦١٢ ، وانظر النزهة : ٢/٨٩٩ .
(٢) انظر السير : (نعيم بن حماد بن معاوية) ١٠/ ٥٩٥ـ ٦١٢ ، وانظر النزهة : ٣/٨٩٩ .
(٣) انظر السير : (نعيم بن حماد بن معاوية) ١٠/ ٥٩٥ـ ٦١٢ ، وانظر النزهة : ٤/٨٩٩ .
(٤) سورة الشورىٰ ، الآية : ١١ .
(٥) انظر السير : (نعيم بن حماد بن معاوية) ١٠/ ٥٩٥ـ ٦١٢ ، وانظر النزهة : ١/٩٠٠ .

على اللهِ ورسُولِهِ ، أو حَوْماً على التكْييفِ أو التعْطيلِ[1] .

وقال مُحمّدُ بنُ إبْراهيمَ الصَّرَّام : سَمعتُ عُثْمانَ بنَ سَعيد الدَّارميَّ يقولُ : لا نُكيِّفُ هـٰذه الصِّفاتِ ، ولا نُكَذِّبُ بها ، ولا نُفَسِّرُها[2] .

وقالَ والدُ أبي حَفْص بن شاهين : حَضَرتُ أبا جَعْفَرٍ التِّرْمِذيّ فسُئِلَ عن حَديثِ النُّزولِ[3] ، فقالَ : النُّزُولُ مَعْقُولٌ ، والكَيْفُ مَجْهُولٌ ، والإيْمَانُ به واجِبٌ ، والسُّؤالُ عَنهُ بِدْعَةٌ .

قال أحمدُ بنُ كامل القاضي : لَمْ يَكُنْ للشَّافِعيَّة بالعِراقِ أَرْأَسُ ، ولا أَوْرَعُ ولا أَنْقَلُ من أبي جَعْفَرٍ التِّرمذيّ[4] .

وقالَ أبو سَعيد الدِّيْنَوَرِيُّ ، مُسْتَمْلِي مُحمّد ابن جَرير ، أخْبَرَنا أبو جَعْفَرٍ مُحمّدُ بنُ جَرير الطَّبَرِيُّ بعَقيدَتِه ، فمِنْ ذَلكَ : وحَسْبُ امْرِئٍ أنْ يَعْلَمَ أنَّ رَبَّهُ هُو الذي على العَرْشِ اسْتَوَىٰ ، فمَنْ تَجَاوَزَ ذَلكَ فقَدْ خَابَ وخَسِرَ وهـٰذا « تَفْسيرُ » هـٰذا الإمَامِ مَشْحُونٌ في آيَاتِ الصِّفاتِ بأقْوَالِ السَّلَفِ على الإثْباتِ لهَا ، لا على النَّفي والتَّأويل ، وأنَّها لا تُشْبِهُ صِفاتِ المَخْلُوقينَ أبَداً[5] .

ومن عِبارَة الشَّيخِ البَرْبَهاريِّ قال : احْذَرْ صِغارَ المُحْدَثاتِ من الأمُورِ فإنَّ صِغارَ البِدَعِ تَعودُ كِباراً ، فالكَلامُ في الرَّبِ عَزَّ وجَلَّ مُحْدَثٌ وبِدْعَةٌ وضَلالَةٌ ، فلا نَتكلَّمُ فيه إلاَّ بمَا وَصَفَ به نَفْسَه ، ولا نَقُولُ في صِفاتِهِ : لِمَ ؟ ولا كَيْفَ ؟[6] .

وقالَ مُحمَّدُ بنُ مَرْزُوق الزَّعْفَراني ، حَدَّثنا الحافِظُ أبو بَكْرٍ الخَطيب قال : أمَّا الكَلامُ في الصِّفاتِ ، فإنَّ ما رُوِيَ منها في السُّننِ الصِّحاحِ ، مَذْهَبُ السَّلَفِ إثْباتُها

---

(١) انظر السير : (إسحاق بن راهَويه) ١١/ ٣٥٨ـ٣٨٣ ، وانظر النزهة : ٩٥٣/ ٥ .

(٢) انظر السير : (الدَّارميّ) ١٣/ ٣١٩ـ٣٢٦ ، وانظر النزهة : ١٠٩٢/ ٤ .

(٣) ولفظه بتمامه : « يَنزلُ ربُّنا كلَّ ليلة إلىٰ سَماءِ الدُّنيا حين يَبقَىٰ ثلثُ الليلِ الآخر ، فيقولُ : مَنْ يَدعُوني فأسْتَجيبُ له ؟ ، مَنْ يَسْألُني فأُعْطيه ؟ ، مَنْ يَسْتغفِرُني فأغفِرُ له ؟ » .

(٤) انظر السير : (أبو جعفر الترمذيّ) ١٣/ ٥٤٥ـ ٥٤٧ ، وانظر النزهة : ١١١٦/ ١ .

(٥) انظر السير : (محمد بن جرير) ١٤/ ٢٦٧ـ ٢٨٢ ، وانظر النزهة : ١١٥٤/ ١ .

(٦) انظر السير : (البربهاريّ) ١٥/ ٩٠ـ٩٣ ، وانظر النزهة : ١١٨٥/ ٢ .

وإجْراؤها علىٰ ظَواهِرها ، ونَفْيُ الكَيْفيَّة والتَّشْبيه عنها وقد نفَاها قَومٌ ، فأبْطَلُوا ما أثْبَتَهُ اللهُ ، وحَقَّقَها قَومٌ من المثْبتين فخَرَجُوا في ذلك إلىٰ ضَرْبٍ من التَّشْبيه والتَّكْييفِ ، والقَصْدُ إنَّما هو سُلُوكُ الطَّريقَةِ المُتوسِّطَةِ بينَ الأمْرينِ ، ودينُ اللهِ تَعالىٰ بين الغالي فيه والمُقصِّرِ عنه والأصْلُ في هٰذا أنَّ الكَلامَ في الصِّفاتِ فَرْعُ الكَلامِ في الذَّاتِ ، ويُحْتَذَىٰ في ذَلكَ حَذْوُهُ ومِثالُه ، فإذا كان مَعْلُوماً أنَّ إثْباتَ رَبِّ العالَمِينَ إنَّما هُو إثْباتُ وُجُودٍ لا إثْباتُ كَيْفيَّةٍ ، فكذَلكَ إثْباتُ صِفاتِهِ إنَّما هو إثْباتُ وُجُودٍ لا إثْباتُ تَحْديدٍ وتَكْييف .

فإذا قُلنا : للهِ يَدٌ وسَمْعٌ وبَصَرٌ ، فإنَّما هي صِفاتٌ أثْبَتَها اللهُ لنَفْسه ، ولا نَقولُ : إنَّ مَعْنَى اليَدِ القُدْرَة ، ولا إنَّ مَعْنَى السَّمْع والبَصَر العِلْم ، ولا نَقُولُ : إنَّها جَوارِحُ ولا نُشَبِّهُها بالأيْدِي والأسْمَاع والأبْصَار التي هي جَوارِحُ وأدَواتٌ للفِعْلِ ، ونَقولُ : إنَّما وَجَبَ إثْباتُها لأنَّ التَّوقِيفَ وَرَدَ بها ووَجَبَ نَفْيُ التَّشْبيهِ عنها لقَولِهِ تَعالَىٰ : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾[1] ، وقَولِهِ تَعالَىٰ : ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾[2] [3] .

وقال السَّمعانيُّ : لمَّا وَرَدْتُ أصْبَهانَ كان الإمامُ عبدُ الجَليلِ كُوتَاه ما يَخرجُ عن دارِهِ إلاَّ لحَاجَةٍ مُهِمَّةٍ ، كان شَيخُهُ إسْماعيلُ الحَافِظُ هَجَرَهُ ، ومَنَعَهُ من حُضُورِ مَجْلِسه لمَسْألةٍ جَرَتْ في النُّزولِ ، وكان كوتاه يقولُ : النُّزولُ بالذَّاتِ فأنْكَرَ إسْماعيلُ هٰذا ، وأمَرَهُ بالرُّجُوعِ عَنهُ فمَا فَعَل[4] .

قال الذهبيُّ : ومَسْأَلَةُ النُّزولِ ، فالإيْمانُ به واجِبٌ ، وتَرْكُ الخَوضِ في لَوازِمه أوْلَىٰ وهو سَبيلُ السَّلَف ، فما قال هٰذا : نُزولُه بذاتِه ، إلاَّ إرْغاماً لمَنْ تَأوَّلَه .

وقال : نُزُولُه إلى السَّماءِ بالعِلْم فقَطْ نَعُوذُ باللهِ من المِراءِ في الدِّينِ .

---

(١) سورة الشورىٰ ، الآية : ١١ .

(٢) سورة الإخلاص ، الآية : ٤ .

(٣) انظر السير : (الخطيب) ١٨/ ٢٧٠ـ٢٩٧ ، وانظر النزهة : ٢/١٤١٤ .

(٤) انظر السير : (كُوتاه) ٢٠/ ٣٢٩ـ٣٣١ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٥٧ .

وكَذا قَولُه تَعالَىٰ : ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ ﴾[1] ونَحوُه ، فنَقولُ : جاءَ ويَنزِلُ ، ونُنْهَىٰ عن القولِ : سَيَنزِلُ بِذاتِه ، كما لا نقُولُ : يَنْزِلُ بعِلْمِهِ ، بلْ نَسْكُتُ ولا نَتَفاصَحُ على الرسُولِ صلى الله عليه وسلم بعِباراتٍ مُبْتَدَعَةٍ ، واللهُ أعْلَمُ[2] .

٥ـ لا يُوصَفُ اللهُ سُبحانَه إلاَّ بما وَصَفَ به نفسَه أو وصَفَه رسُولُه صلى الله عليه وسلم :

قال أبو إسْماعيل الأنْصَاريّ : سَمعتُ يَحْيَىٰ بنَ عمَّار الواعِظَ وقد سَألتُه عن ابنِ حبَّان ، فقال : نحنُ أخْرَجناه من سِجسْتان ، كان له عِلمٌ كثير ، ولَمْ يَكُنْ له كَبيرُ دين ، قَدِمَ علينا ، فأنْكَرَ الحدَّ لله ، فأخْرَجْناه .

قال الإمامُ الذهبيُّ : إنْكارُكُم عليه بدْعَةٌ أيْضاً ، والخَوضُ في ذلكَ ممَّا لَمْ يَأذَنْ به اللهُ ، ولا أتَىٰ نَصٌّ بإثْباتِ ذلكَ ولا بنَفْيه ، و« مِنْ حُسْنِ إسْلامِ المَرْءِ تَرْكُهُ مَا لاَ يَعْنِيه » وتَعالَى اللهُ أنْ يُحَدَّ أو يُوصَفَ إلاَّ بما وَصَفَ به نَفْسَه ، أوْ عَلَّمَه رُسُلَه بالمَعْنى الذي أرادَ بِلا مِثْلٍ ولا كَيْف ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾[3] ،[4] .

٦ـ تَفسيرُ آيَة الحَديد ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْۚ ﴾ :

قال معدانُ ـ الذي يَقولُ فيه عبدُ الله بنُ المُبارَك : هُوَ من الأبْدال[5] ـ سَألتُ الثَّوْريَّ عن قَولِهِ تَعالَىٰ : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْۚ ﴾[6] ، فقال : عِلْمُهُ[7] .

---

(١) سورة الفجر ، الآية : ٢٢ .

(٢) انظر السير : (كُوتاه) ٢٠/ ٣٢٩ـ ٣٣١ ، وانظر النزهة : ٣/١٥٥٧ .

(٣) سورة الشورىٰ ، الآية : ١١ .

(٤) انظر السير : (ابن حِبّان) ١٦/ ٩٢ـ ١٠٤ ، وانظر النزهة : ١/١٢٧٠ .

(٥) قوم من عباد الله الصالحين ، يهتدون بكتاب الله وسنة رسوله الصحيحة ، ويتصفون بحسن الخلق ، وصدق الورع ، وحسن النية ، وسلامة الصدر ، يستجيب الله دعاءهم ، ولا يخيب رجاءهم ، ورد في حقهم أحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أوردها السخاوي في « المقاصد الحسنة » ص ٨ ـ ١٠ ، وتكلم عليها فراجعه .

(٦) سورة الحديد ، الآية : ٤ .

(٧) انظر السير : (سفيان) ٧/ ٢٢٩ـ ٢٧٩ ، وانظر النزهة : ٩/٦٩٩ .

٧ـ المُتأوِّلُ بعضَ أخْبارِ الصِّفاتِ يُعْذَرُ :

قالَ الحاكمُ : سَمعتُ مُحمّدَ بنَ صَالح بن هانىء ، سَمعتُ ابنَ خُزَيْمَة يقُولُ : مَنْ لَمْ يُقِرّ بأنَّ اللهَ علىٰ عَرْشِهِ قَد اسْتَوَىٰ فَوْقَ سَبعِ سَماواتِه فهُو كافرٌ حَلالُ الدَّمِ ، وكان مالُهُ فَيْئاً .

قال الذهبيُّ : مَنْ أقَرَّ بذَلكَ تَصْديقاً لِكتابِ اللهِ ولأحاديثِ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ، وآمَنَ به مُفَوِّضاً مَعْناه إلى اللهِ ورَسُوله ، ولَمْ يَخُضْ في التَّأويلِ ولا عَمَّق ، فهُو المُسْلِمُ المُتَّبِعُ ، ومَنْ أنْكَرَ ذلكَ ، فلَمْ يَدْرِ بثُبُوتِ ذلكَ في الكِتابِ والسُّنَّة فهو مُقَصِّر ، واللهُ يَعْفُو عَنهُ ، إذْ لَمْ يُوجِبِ اللهُ علىٰ كُلِّ مُسْلم حِفْظَ ما وَرَدَ في ذَلكَ ومَنْ أنْكَرَ ذلكَ بعدَ العِلْمِ ، وقَفَا غيرَ سَبيلِ السَّلَفِ الصَّالح ، وتَمَعْقَلَ على النَّصِ ، فأمْرُهُ إلى اللهِ ، نَعُوذُ باللهِ من الضَّلالِ والهَوَىٰ .

وكَلامُ ابنِ خُزَيْمَة هٰذا ـ وإنْ كانَ حَقاً ـ فهُوَ فَجٌّ ، لا تَحْتَمِلُه نُفُوسُ كَثيرٍ من مُتأخِّري العُلَمَاء[1] .

قال الذهبيُّ : وكِتابُ ابنِ خُزَيْمَة في « التَّوحيدِ » مُجَلَّدٌ كَبيرٌ ، وقد تأوَّلَ في ذَلكَ حَديثَ الصُّورَةِ[2] ، [3] .

فلْيُعذَرْ من تأوَّلَ بَعضَ الصِّفاتِ ، وأمَّا السَّلَفُ فما خَاضُوا في التَّأويلِ ، بَلْ آمَنُوا

---

(١) انظر السير : (ابن خُزيمة) ١٤/ ٣٦٥ـ٣٨٢ ، وانظر النزهة : ٦/١١٦١ .

(٢) حديثُ الصورة ، أخرجه البخاري في « صحيحه » (١١/ ٢) أول الاستئذان ، ومسلم (٢٨٤١) في الجنة : باب يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير وأحمد : (٢/ ٣١٥) ، وابن خُزيمة في « التوحيد » (٣٩ ـ ٤٠) من طريق مُعمّر عن همّام بن مُنبه ، عن أبي هُريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « خَلَقَ اللهُ آدَمَ علىٰ صُورَتِه ، طُولُهُ ستُّونَ ذِراعاً ، فلمَّا خَلَقَه ، قالَ : اذْهَبْ ، فَسَلِّمْ علىٰ أُولَئِكَ ـ نَفَرٌ مِنَ المَلائِكَةِ جُلُوسٌ ـ فاسْتَمِعْ ما يُحَيُّونَكَ ، فإنَّها تَحِيَّتُكَ وتَحِيَّةُ ذُرِّيَّتِكَ ، فقَالَ : السَّلامُ عَليكُم فقَالُوا : السَّلامُ عَلَيْكَ ورَحْمَةُ اللهِ فزَادَهُ : « ورَحْمَةُ اللهِ » فكُلُّ مَنْ يَدْخُلُ الجَنَّةَ علىٰ صُورَةِ آدَمَ ، فَلَمْ يَزَلْ الخَلْقُ يَنْقُصُ بَعْدُ حتّى الآن » ورَاجعْ ما كَتبَه الحافظُ ابنُ حَجَر عن عَوْدِ الضَميرِ في (صورته) في الفَتح : (٥/ ١٣٣) ، (٦/ ٢٦٠) ، (١١/ ٢ـ٣) .

(٣) انظر السير : (ابن خُزيمة) ١٤/ ٣٦٥ـ٣٨٢ ، وانظر النزهة : ١/١١٦٢ .

وكَفُّوا ، وفَوَّضُوا عِلْمَ ذَلكَ إلى اللهِ ورسُولِه ، ولَوْ أنَّ كُلَّ مَنْ أخْطَأَ في اجْتِهَادِه ـ مع صِحَّةِ إيْمانِه وتَوَخِّيه لاتِّباع الحَقِّ ـ أهْدَرْناهُ وبَدَّعْناهُ ، لَقَلَّ مَنْ يَسْلَمُ من الأئِمَّة مَعَنا رَحِمَ اللهُ الجَميعَ بِمَنِّهِ وكَرَمِه[1] .

وقالَ أحمَدُ بنُ مُحمّد الخَفَّاف ، حَدَّثنا أبو العَبَّاسِ السَّرَّاج إمْلاءً قال : مَنْ لَمْ يُقِرَّ بأنَّ اللهَ تَعالَىٰ يَعْجَبُ ، ويَضْحَكُ ، ويَنْزِلُ كُلَّ لَيْلَةٍ إلى السَّماءِ الدُّنيا ، فيقُولُ : « مَنْ يَسْأَلُنِي فأُعْطِيهِ » الحديث ، فهُوَ زِنْديقٌ كافِرٌ ، يُسْتَتابُ ، فإنْ تابَ وإلاَّ ضُرِبَتْ عُنُقُه ، ولا يُصَلَّىٰ عليه ، ولا يُدْفَنُ في مَقابِرِ المُسلِمين .

قال الذهبيُّ : لا يُكَفَّرُ إلاَّ إنْ عَلِمَ أنَّ الرسُولَ صلى الله عليه وسلم قالَه فإنْ جَحَدَ بعدَ ذَلكَ فهـٰذا مُعانِدٌ نَسْأَلُ اللهَ الهُدَىٰ ، وإنْ اعْتَرَفَ أنَّ هـٰذا حَقٌّ ، ولكنْ لا أخُوضُ في مَعانِيه ، فقَدْ أحْسَنَ ، وإنْ آمَنَ وأوَّلَ ذَلكَ كُلَّه ، أو تَأوَّلَ بَعضَه ، فهو طَريقَةٌ مَعْروفَة .

وقد كانَ السَّرَّاجُ ذا ثَرْوَةٍ وتِجارَةٍ ، وبِرٍّ ومَعْروفٍ ، وله تَعَبُّدٌ وتَهَجُّدٌ إلاَّ أنَّه كانَ مُنافِراً للفُقَهَاءِ أصْحابِ الرَّأي ، واللهُ يَغْفِرُ له[2] .

وقال أبو شامَة : كان ابنُ قُدامَةَ المَقْدسيّ ـ صاحِبُ المُغْني ـ إماماً عَلَماً في العِلْمِ والعَمَلِ ، صَنَّفَ كُتُباً كَثيرة ، لَكنَّ كَلامَه في العَقائِد على الطَّريقَة المَشْهُورَةِ عن أهْلِ مَذْهَبِه ، فسُبْحانَ مَنْ لَمْ يُوَضِّحْ لَه الأمْرَ فيها علىٰ جَلالَتِه في العِلْمِ ومَعرفَتِه بمَعاني الأخْبار .

قال الذهبيُّ : وهو وأمْثالُه مَتَعَجِّبٌ منكُم مع عِلْمِكُم وذَكائِكُم كيفَ قُلْتُم ؟!! ، وكَذا كُلُّ فِرْقَةٍ تَتَعَجَّبُ من الأخْرىٰ ، ولا عَجَبَ في ذَلكَ ، ونَرجُو لكُلِّ مَنْ بَذَلَ جُهْدَه في تَطَلُّبِ الحَقِّ أنْ يُغْفَرْ له من هـٰذه الأمَّة المَرْحُومَة ، وانْتَقَلَ إلىٰ رَحمَةِ اللهِ سَنَةَ عِشْرينَ وستِّ مِئَة[3] .

---

(١) انظر السير : (ابن خُزيمة) ١٤/ ٣٦٥ـ ٣٨٢ ، وانظر النزهة : ٢/١١٦٢ .
(٢) انظر السير : (السَّرَّاج) ١٤/٣٨٨ـ ٣٩٨ ، وانظر النزهة : ٣/١١٦٤ .
(٣) انظر السير : (ابن قُدامة المقدسيّ) ٢٢/ ١٦٥ـ ١٧٣ ، وانظر النزهة : ٤/١٦٨٢ .

٨ـ النَّدَمُ على التَّعمُّق في عِلمِ الكَلام :

قال الإمامُ الذهبيُّ: وقَرَأْتُ بخَطِّ جَعْفَرٍ : سَمعتُ أبا المَعَالي يقُولُ : قَرأْتُ خَمسين ألفاً في خَمسين ألفاً ، ثُمّ خَلَّيْتُ أهْلَ الإسْلام بإسْلامِهِم فيها وعُلُومِهِم الظَّاهِرَة ، ورَكِبتُ البَحرَ الخِضَمَّ ، وغُصْتُ في الذي نَهَى أهلُ الإسْلامِ ، كُلُّ ذلكَ في طَلَبِ الحَقِّ ، وكُنتُ أهْرُبُ في سَالِفِ الدَّهْرِ من التَّقْليدِ ، والآنَ فقَدْ رَجَعتُ إلىٰ كَلِمَةِ الحَقِّ ، عَليكُم بدِينِ العَجَائِزِ ، فإنْ لَمْ يُدْركْني الحَقُّ بلَطِيفِ برِّهِ ، فأمُوتُ علىٰ دِينِ العَجَائِزِ ، ويَخْتِمُ عاقِبَةَ أمْري عند الرَّحيلِ علىٰ كَلمَةِ الإخلاصِ : لا إلَـٰهَ إلاَّ الله ، فالوَيْلُ لابنِ الجُوَيْنيّ[١] .

وقالَ الفَقيهُ غانِمُ المُوشِيليّ : سَمعتُ الإمَامَ أبا المَعَالِي يقُولُ : لَوْ اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أمْرِي ما اسْتَدْبَرتُ ما اشْتَغلتُ بالكَلام .

قال أبو المَعَالي في كِتابِ « الرِّسَالَة النِّظاميّة » : اخْتَلَفَتْ مَسَالكُ العُلماءِ في الظَّواهِرِ التي وَرَدَتْ في الكِتابِ والسُّنَّة ، وامْتَنَعَ علىٰ أهْلِ الحَقِّ فَحواهَا ، فرَأىٰ بَعضُهُم تأويلَهَا ، والْتَزَمَ ذلكَ في القُرآنِ وما يَصِحُّ من السُّنَنِ ، وذَهَبَ أئِمَّةُ السَّلَفِ إلى الانْكِفَافِ عن التَّأويلِ وإجْراءِ الظَّواهِرِ علىٰ مَوَارِدِها ، وتَفْويضِ مَعَانيها إلى الرَّبِّ تَعالَىٰ ، والذي نَرْتَضِيه رَأياً ، ونَدينُ اللهَ به عَقْداً اتِّباعُ سَلَفِ الأمّة ، فالأوْلَى الاتِّباع[٢] .

قد اعْتَرَفَ فَخْرُ الدِّينِ مُحمّدُ بنُ عُمَرَ القُرَشيّ في آخِرِ عُمْرِه حَيثُ يَقولُ : لقد تَأمَّلْتُ الطُّرُقَ الكَلاميّة والمَنَاهِجَ الفَلْسَفيّة فما رَأيتُها تُشْفِي عَليلاً ولا تَرْوِي غَليلاً ، ورَأيتُ أقْرَبَ الطُّرُقِ طَريقَةُ القُرآنِ ، أقْرأُ في الإثْباتِ : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾[٣] ، ﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ﴾[٤] ، ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾[٥] ومَنْ جَرَّبَ تَجْربَتي عَرَفَ مثلَ مَعْرِفَتي[٦] .

---

(١) انظر السير : (إمام الحرمين) ١٨/ ٤٦٨ـ ٤٧٧ ، وانظر النزهة : ١٤٣٢/٢ .

(٢) انظر السير : (إمام الحرمين) ١٨/ ٤٦٨ـ ٤٧٧ ، وانظر النزهة : ١٤٣٣/٣ .

(٣) سورة طه ، الآية : ٥ .

(٤) سورة فاطر، الآية : ١٠ .

(٥) سورة الشورىٰ ، الآية : ١١ .

(٦) انظر السير : (فخر الدين) ٢١/ ٥٠٠ـ ٥٠١ ، وانظر النزهة : ١٦٥٥/٣ .

٩ـ البُعدُ عن التَّوَسُّع في الألفاظِ العَقَديّة المُوهِمة :

قالَ أبُو بَكْرِ المَرْوِذيّ : ذَكَرَ أحمَدُ بنُ حَنْبَل هِشَامَ بنَ عَمّارٍ ، فقال : طَيّاشٌ خَفيف[١] .

قالَ الذهبيُّ : أمَّا قَولُ الإمامِ أحمَد عن هِشَامِ بنِ عَمّارٍ أنَّه طيّاش ، فلأنَّهُ بَلَغَهُ عَنهُ أنَّه قالَ في خُطْبَتِه : « الحَمْدُ للهِ الذي تَجلّىٰ لِخَلْقِه بخَلْقِه » ، فهَـٰذِهِ الكَلِمَة لا يَنْبَغي إطْلاقُها ، وإنْ كانَ لها مَعْنَىٰ صَحيح ، لكنْ يَحْتَجُّ بها الحُلُوليُّ والاتِّحاديُّ وما بَلَغَنَا أنَّه سُبْحانَه وتَعالَىٰ تَجَلَّىٰ لشَيءٍ إلاَّ بجَبَلِ الطُّورِ ، فصَيَّرَهُ دَكّاً وفي تَجَلِّيهِ لنَبيِّنا صلى الله عليه وسلم اخْتلافٌ أنْكَرَتهُ عائِشَةُ وأثْبَتَهُ ابنُ عَبَّاس[٢] .

وقالَ الإمامُ الذهبيُّ : وذَكَرَ أبُو المُظَفَّر الواعِظُ في « مِرْآةِ الزَّمانِ » قال : كان الحافِظُ عبدُ الغَنيّ يَقْرأُ الحَديثَ بعدَ الجُمُعَةِ ، قال : فاجْتَمَعَ القاضي مُحْيي الدّين ، والخَطيبُ ضِياءُ الدّين ، وجَمَاعَةٌ ، فصَعَدُوا إلى القَلْعَةِ ، وقالُوا لِوَالِيها : هَـٰذا قَدْ أضَلَّ النَّاسَ ، ويَقُولُ بالتَّشْبيهِ ، فعَقَدُوا له مَجْلِساً ، فنَاظَرَهُم ، فأخَذُوا عَلَيْه مَوَاضِعَ مِنْها : قَولُه : (لا أُنَزِّهُهُ تَنْزِيهاً يَنْفِي حَقيقَةَ النُّزولِ) ، ومِنْها : (كَانَ اللهُ ولا مَكان ، ولَيْسَ هُوَ اليَومَ علىٰ ما كان) ، ومِنْها : مَسْأَلَةُ الحَرْفِ والصَّوْتِ ، فقَالُوا : إذا لَمْ يَكُنْ علىٰ ما كانَ فقَدْ أثْبَتَّ له المَكانَ ، وإذا لَمْ تُنَزِّهْهُ عن حَقيقَةِ النُّزولِ فقَدْ جوَّزْتَ عليه الانْتِقَالَ ، وأمَّا الحَرْفُ والصَّوتُ فلَمْ يَصِحَّ عَنْ إمَامِكَ ، وإنَّما قالَ : إنَّهُ كَلامُ اللهِ ، يَعْنِي غَيْرَ مَخْلُوقٍ ، وارْتَفَعَتِ الأصْوَاتُ ، فقالَ وَالِي القَلْعَة الصَّارِمُ برغش : كُلُّ هَؤلاءِ علىٰ ضَلالَةٍ وأنْتَ على الحَقِّ!! ؟ قال : نَعَم فأمَرَ بِكَسْرِ مِنْبَرِه .

قالَ : وخَرَجَ الحافِظُ إلىٰ بَعْلَبَكَّ ، ثمّ سَافَرَ إلىٰ مِصْرَ إلىٰ أنْ قالَ : فأفْتَىٰ فُقَهاءُ مِصْرَ بإباحَةِ دَمِهِ ، وقالُوا : يُفْسِدُ عَقَائِدَ النَّاسِ ، ويَذْكُرُ التَّجْسيمَ ، فكَتَبَ الوَزيرُ بنَفْيِهِ إلى المَغْرِبِ ، فمَاتَ الحافِظُ قَبْلَ وُصُولِ الكِتاب[٣] .

---

(١) انظر السير : (هشام بن عمار) ١١/ ٤٢٠ـ ٤٣٥ ، وانظر النزهة : ١/٩٥٧ .

(٢) انظر السير : (هشام بن عمار) ١١/ ٤٢٠ـ ٤٣٥ ، وانظر النزهة : ٥/٩٥٧ .

(٣) انظر السير : (عبد الغني) ٢١/٤٤٣ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٤٩ .

وذَكَرَ أبُو المُظَفَّر الواعِظُ في « مِرْآةِ الزَّمانِ » : وفي ذِي القِعْدَة سَنَةَ سِتٍّ وتِسْعينَ وخَمسِ مِئَة كان ما اشْتُهِرَ من أمْرِ الحافظِ عبد الغَنيّ وإصْرارُه علىٰ ما ظَهَرَ من اعْتِقادِه وإجْمَاعُ الفُقَهاءِ على الفُتْيَا بتكْفِيره ، وأنَّه مُبْتَدِعٌ لا يَجُوزُ أنْ يُتْرَكَ بينَ المُسلمينَ ، فسَأَلَ أنْ يُمْهَلَ ثلاثَةَ أيّامٍ لِيَنْفَصِلَ عن البَلَدِ فأُجِيب[1] .

قال الذهبيُّ : قد بَلَوْتُ علىٰ أبي المُظَفَّر المُجازَفَةَ وقِلَّةَ الوَرَع فيما يُؤرِّخُه واللهُ المُوعِدُ ، وكان يَتَرَفَّضُ ، رأيتُ له مُصَنَّفاً في ذلكَ فيه دَواهٍ ، ولَوْ أَجْمَعَتِ الفُقَهاءُ علىٰ تَكْفيرِه كما زَعَمَ لمَا وَسِعَهُم إبْقَاؤهُ حيّاً ، فقَد كان علىٰ مَقَالَتِه بدِمَشْقَ أخُوهُ الشَّيخُ العِمَادُ والشَّيخُ مُوَفَّقُ الدّين ، وأخُوهُ القُدوَةُ الشَّيخُ أبُو عُمَرَ ، والعَلاَّمَة شَمسُ الدّين البُخاريّ ، وسائِرُ الحَنابلَة ، وعِدّةٌ من أهْلِ الأثَر ، وكان بالبَلَدِ أيْضاً خَلْقٌ من العُلَمَاء لا يُكَفِّرُونَه ، نَعَمْ ولا يُصَرِّحُون بمَا أطْلَقَهُ من العِبارَةِ لمَّا ضايَقُوهُ ، ولَوْ كَفَّ عن تِلْكَ العِبَاراتِ ، وقال بمَا وَرَدَتْ به النُّصُوصُ لأجَادَ ولَسَلِمَ ، فهُو الأوْلَىٰ ، فما في تَوْسِيعِ العِباراتِ المُوهِمَةِ خَيرٌ ، وأسْوأُ شَيءٍ قالَه أنْ ضَلَّلَ العُلَماءَ الحاضِرين ، وأنَّه على الحَقِّ ، فقَالَ كَلمَةً فيها شَرٌّ وفَسادٌ وإثارَةٌ للبَلاءِ ، رَحِمَ اللهُ الجَميعَ وغَفَرَ لهُم ، فمَا قَصْدُهُم إلاَّ تَعْظيمُ البَاري عَزَّ وجَلَّ من الطَّرَفَيْن ،ولكنَّ الأكْمَلَ في التَّعْظيمِ والتَّنْزيه الوُقُوفُ معَ ألْفاظِ الكِتابِ والسُّنَّةِ ، وهَـٰذا هو مَذْهَبُ السَّلَفِ رَضي اللهُ عنهم .

وبكُلِّ حالٍ فالحَافِظُ عبدُ الغَنيّ من أهْلِ الدّينِ والعِلْمِ والتَّألُّهِ والصَّدْع بالحَقِّ ، ومَحَاسِنُهُ كَثيرةٌ ، فنَعُوذُ باللهِ من الهَوَىٰ والمِراءِ والعَصَبيّةِ والافْتِراءِ ، ونَبْرأُ من كُلِّ مُجَسِّمٍ ومُعَطِّلٍ[2] .

١٠ـ البُعْدُ عن الفِتن الناشِئَة عن فُضُولِ الكَلامِ في أصُولِ الدّين وفُروعِه :

قالَ الذهبيُّ : يَنْبَغي للمُسْلِمِ أنْ يَسْتعيذَ من الفِتَنِ ، ولا يَشْغَبَ بذِكرِ غَريبِ المَذاهِبِ لا في الأصُولِ ولا في الفُروعِ ، فما رَأيتُ الحَرَكَةَ في ذلكَ تُحَصِّلُ خيراً ، بل

---

(١) انظر السير : (عبد الغنيّ) ٢١/٤٤٣ـ٤٧١ ، وانظر النزهة : ١/١٦٥٠ .

(٢) انظر السير : (عبد الغنيّ) ٢١/٤٤٣ـ٤٧١ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٥٠ .

تُثِيرُ شَراً وعَداوَةً ومَقْتاً للصُّلَحاءِ والعُبَّادِ من الفَريقَيْنِ فتَمَسَّكْ بالسُّنَّةِ ، والزَمِ الصَّمْتَ ، ولا تَخُضْ فيما لا يَعْنيكَ ، وما أُشْكِلَ عَلَيْكَ فرُدَّهُ إلى الله ورسُولِه ، وقِفْ ، وقُلْ : اللهُ ورسُولُه أعْلَم[1] .

١١ـ البُعدُ عن التَّكلُّف في مَسائل مثل : أمُؤمنٌ أنتَ حَقاً!! ؟ :

عن أبي إسْحاقَ الفَزَاريّ ، قال الأوْزاعيُّ في الرَّجُلِ يَسْألُ : أمُؤمنٌ أنْتَ حَقاً ؟ قالَ : إنَّ المَسْألَةَ عن ذَلكَ بدْعَةٌ ، والشَّهادَةُ عليه تَعمُّقٌ لَمْ نُكَلَّفْهُ في دينِنا ، ولَمْ يَشْرَعْهُ نَبيُّنا ، القَولُ فيه جَدَلٌ ، والمُنازَعَةُ فيه حَدَثٌ ، وذَكَرَ فَصْلاً نافِعاً[2] .

١٢ـ مَسائلُ عَقَديّة :

وقال المُبرِّدُ : عن أبي عُثمانَ المَازِنيّ قال : سُئِلَ عليُّ بن مُوسَى الرِّضَا : أيُكلِّفُ اللهُ العِبَادَ ما لا يُطِيقُونَ ؟ قال : هُوَ أعْدَلُ من ذَلكَ ، قِيلَ : فيَسْتَطيعُونَ أنْ يَفْعَلُوا ما يُريدُونَ ؟ قال : هُمْ أعْجَزُ من ذلكَ[3] .

سُئِلَ أبو القاسِمِ التَيْميُّ رحمَه الله : هَلْ يَجوزُ أنْ يُقالَ : للهِ حَدٌّ أوْ لا ؟ وهَلْ جرَىٰ هـٰذا الخِلافُ في السَّلَفِ ؟ فأجابَ : هـٰذه مَسْألةٌ أسْتَعْفي من الجَوابِ عَنْها لغُمُوضِها ، وقِلّة وُقوفي علىٰ غَرَضِ السَّائل منها لكنِّي أُشِيرُ إلىٰ بَعضِ ما بَلَغَني ، تَكلَّمَ أهلُ الحَقائقِ في تَفْسيرِ الحَدِّ بعِباراتٍ مُخْتلِفَة مَحْصُولُها أنَّ حَدَّ كُلِّ شَيءٍ مَوْضِعُ بَيْنُونَتِه عن غَيرِه ، فإنْ كانَ غَرَضُ القَائلِ : لَيْسَ للهِ حَدٌّ : لا يُحيطُ عِلمُ الحَقائقِ به ، فهُو مُصيبٌ ، وإنْ كانَ غَرَضُه بذلك : لا يُحيطُ عِلمُهُ تَعالَىٰ بنَفْسِه فهُو ضَالٌّ ، أوْ كانَ غَرَضُه أنَّ اللهَ بذاتِه في كُلِّ مَكانٍ فهُو أيْضاً ضالٌّ[4] .

قال الذهبيُّ : الصَّوابُ الكَفُّ عن إطْلاقِ ذلكَ ، إذْ لَمْ يَأتِ فيه نَصٌّ ، ولَوْ فَرَضْنا أنَّ

---

(١) انظر السير : (ابن المعتمد) ٢٠/ ١٣٩ـ ١٤٢ ، وانظر النزهة : ٣/١٥٣٨ .
(٢) انظر السير : (أبو إسحاق الفزاريّ) ٨/ ٥٣٩ـ ٥٤٣ ، وانظر النزهة : ٢/٧٩١ .
(٣) انظر السير : (علي الرّضىٰ) ٩/ ٣٨٧ـ ٣٩٣ ، وانظر النزهة : ١/٨٣٢ .
(٤) انظر السير : (التيميّ) ٢٠/ ٨٠ـ ٨٨ ، وانظر النزهة : ١/١٥٣٣ .

المَعْنَىٰ صَحيحٌ ، فلَيْسَ لنا أنْ نَتَفَوَّهَ بشيء لَمْ يَأْذَنْ بهِ اللهُ خَوْفاً من أنْ يَدخُلَ القَلبَ شيءٌ من البِدْعَةِ ، اللَّهُمَّ احْفَظْ عَلَيْنا إيْمانَنا[1] .

١٣ـ دَلائلُ عَقليّة علىٰ مَسائل عَقَديّة :

قال رُسْتَه : سَمعتُ ابنَ مَهْدي يَقولُ لِفَتىً من وَلَدِ الأميرِ جَعْفَرِ ابنِ سُلَيْمان : بَلَغَني أنَّكَ تَتكلَّمُ في الرَّبِّ ، وتَصِفُهُ وتُشَبِّهُه قالَ : نَعَمْ ، نَظَرْنا ، فلَمْ نَرَ مِنْ خَلْقِ الله شَيئاً أحْسَنَ من الإنْسانِ ، فأخَذَ يَتكلَّمُ في الصِّفَةِ ، والقامَةِ فقالَ له : رُوَيْدَكَ يا بُنَيَّ حتّىٰ نَتَكلَّمَ أولَ شَيءٍ في المَخْلوقِ ، فإنْ عَجَزْنا عنه ، فنَحنُ عن الخَالِقِ أعْجَزُ ، أخْبِرْني عمَّا حَدَّثني شُعبَة ، عن الشَّيْبانيّ ، عن سَعيدِ بنِ جُبَيْر ، عن عبد اللهِ : ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾[2] ، قالَ : رَأَىٰ جِبْريلَ لَه سِتُّ مِئَةِ جَنَاحٍ ، فبَقِيَ الغُلامُ يَنْظُرُ فقالَ : أنا أُهَوِّنُ عَليكَ صِفْ لي خَلْقاً له ثَلاثةُ أجْنِحَةٍ ، ورَكِّبِ الجَناحَ الثالثَ مِنْه مَوْضِعاً حتّىٰ أعْلم قالَ : يا أبا سَعيد ، عَجَزْنا عن صِفَةِ المَخْلوقِ ، فأُشْهِدُكَ أنِّي قد عَجَزْتُ ورَجَعْتُ[3] .

وقال أبُو يَحْيَىٰ زَكريا السَّاجِيُّ ، حَدَّثنا المُزَنيُّ ، قالَ : قُلتُ إنْ كانَ أحَدٌ يُخْرِجُ ما في ضَميري ، وما تَعَلَّقَ به خاطِري من أمْرِ التَّوحيدِ فالشَّافِعيُّ ، فصِرْتُ إليه ، وهو في مَسْجِدِ مِصْرَ ، فلمَّا جَثَوْتُ بينَ يَديْه ، قُلتُ : هَجَسَ في ضَميري مَسْألَةٌ في التَّوحيدِ فعَلِمتُ أنَّ أحَداً لا يَعلَمُ عِلمَكَ ، فما الذي عِندَكَ ؟ فغَضِبَ ، ثمّ قال : أتَدْري أينَ أنْتَ ؟ قُلتُ : نعَمْ ، قال : هـٰذا المَوْضِعُ الذي أغْرَقَ اللهُ فيه فِرْعَونَ .

أبَلَغَكَ أنَّ رسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم أمَرَ بالسُّؤالِ عن ذَلكَ ؟ قُلتُ : لا ، قَالَ : هَلْ تَكلَّمَ فيه الصَّحابَةُ ؟ قُلتُ : لا ، قالَ : تَدْري كَمْ نَجْماً في السَّماءِ ؟ قُلتُ : لا ، قالَ : فكَوْكَبٌ منها : تَعرفُ جِنْسَه ، طُلُوعَه ، أُفُولَه ، مِمَّ خُلِقَ ؟ قُلتُ : لا ، قالَ : فشَيءٌ تَراهُ بِعَيْنِكَ من الخَلْقِ لَسْتَ تَعْرِفُهُ ، تَتَكلَّمُ في عِلْمِ خالِقِه ؟!! ، ثُمَّ سَألَني

---

(١) انظر السير : (التيميّ) ٢٠/ ٨٠ـ ٨٨ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٣٣ .

(٢) سورة النجم ، الآية : ١٨ .

(٣) انظر السير : (عبد الرحمـٰن بن مهدي) ٩/ ١٩٢ـ ٢٠٩ ، وانظر النزهة : ٤/٨١٧ .

عن مَسْأَلَةٍ في الوُضُوءِ ، فأخْطَأتُ فيها ، فَفَرَّعَها علىٰ أرْبَعَةِ أوْجُهٍ ، فلَمْ أُصِبْ في شَيءٍ منه ، فقالَ : شَيءٌ تَحْتاجُ إلَيْهِ في اليَومِ خَمْسَ مَرَّاتٍ ، تَدَعُ عِلْمَه ، وتَتَكَلَّفُ عِلمَ الخَالِقِ ، إذا هَجَسَ في ضَميرِكَ ذلكَ ، فارْجِعْ إلى اللهِ ، وإلىٰ قَولِهِ تَعالَىٰ : ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ الآية[1] فاسْتَدِلَّ بالمَخْلُوقِ على الخَالِقِ ، ولا تتكَلَّفْ عِلمَ ما لَمْ يَبْلُغْهُ عَقْلُكَ ، قالَ : فتُبْتُ[2] .

وقالَ أبُو القاسِمِ القُشَيْرِيُّ : سَمِعتُ أبا بَكْرِ بنَ فُورك يَقولُ : سُئلَ الأسْتاذُ أبُو سَهْلٍ الصُّعْلوكيّ عن جَوازِ رُؤْيَةِ الله بالعَقْلِ ، فقالَ : الدَّليلُ عَليه شَوْقُ المُؤمِنينَ إلىٰ لِقائِه ، والشَّوْقُ إرادَةٌ مُفرِطَةٌ ، والإرادَةُ لا تَتَعَلَّقُ بمُحالٍ[3] .

وقالَ الضِّياءُ سَمِعتُ الحَافِظَ اليُونينيّ يقولُ : لمَّا كُنتُ أسْمَعُ شَناعَةَ الخَلقِ على الحَنابِلَة بالتَّشْبيهِ عَزَمْتُ علىٰ سُؤالِ الشَّيخِ المُوَفَّق ـ ابنَ قُدامَة ـ وبَقيتُ أشْهُراً أُريدُ أنْ أسْأَلَه ، فصَعَدتُ مَعَه الجَبَلَ ، فلمَّا كُنَّا عندَ دَارِ ابنِ مُحارب قُلتُ : يا سَيِّدي ، وما نَطَقْتُ بأكْثَرَ مِنْ سَيِّدي ، فقالَ لي : التَّشْبيهُ مُسْتَحيلٌ فقُلتُ : لِمَ ؟ قالَ : لأنَّ مِنْ شَرْطِ التَّشْبيهِ أنْ نَرَى الشَّيءَ ، ثمّ نُشَبِّهُه ، مَنِ الذي رَأى اللهَ ثمّ شَبَّهَه لنَا ؟!! ، وذَكَرَ الضِّياءُ حِكاياتٍ في كَرَامَاته[4] .

١٤ ـ مُناظَـرات :

قالَ اليَزيديُّ وآخَرُ : تَكَلَّمَ عَمرُو بنُ عُبَيد في الوَعيدِ سَنَةً ، فقالَ أبو عَمرِو بنُ العَلاء : إنَّكَ لألْكَنُ الفَهمِ ، إذْ صَيَّرتَ الوَعيدَ الذي في أعْظَمِ شَيءٍ مِثْلَهُ في أصْغَرِ شَيءٍ ، فاعْلَمْ أنَّ النَّهيَ عن الصَّغيرِ والكَبيرِ لَيْسا سَواء وإنَّما نَهَى اللهُ عَنهُما لِتَتِمَّ حُجَّتُه علىٰ خَلقِه ، ولِئلا يَعْدلَ عنْ أمْرِه ووَرَاءَ وَعيدِه عَفْوُهُ وكَرَمُه ثمَّ أنْشَدَ :

---

(١) سورة البقرة ، الآيتان : ١٦٣ ، ١٦٤ .

(٢) انظر السير : (الإمام الشافعيّ) ١٠/ ٥ـ ٩٩ ، وانظر النزهة : ٢/٨٤٧ .

(٣) انظر السير : (الصُّعلوكيّ) ١٦/ ٢٣٥ـ ٢٣٩ ، وانظر النزهة : ٢/١٢٩١ .

(٤) انظر السير : (ابن قدامة) ٢٢/ ١٦٥ـ ١٧٣ ، وانظر النزهة : ٣/١٦٨٢ .

ولا يَرْهَبُ ابنُ العَمِّ ما عِشْتُ صَوْلَتِي ... ولا أَخْتتِي[1] مِنْ صَوْلَةِ المُتَهَدِّدِ
وإنِّـي وإنْ أَوْعَـدْتُـهُ وَوَعَـدْتُـهُ ... لَمُخْلِفُ إيعـادِي ومُنْجِزُ مَوْعِدِي

فقالَ عَمرُو بنُ عُبَيد : صَدَقتَ إنَّ العَربَ تَتَمدَّحُ بالوَفاءِ بالوَعدِ والوَعيدِ ، وقد يُمْتَدَحُ بهما المَرءُ ، تَسَمَّعْ إلىٰ قَولِهِم :

لا يُخْلِفُ الـوَعْـدَ والـوَعِيـدَ ولا ... يَبِيـتُ مِـنْ ثَـأْرِهِ عَلَـىٰ فَـوْتِ

فقَدْ وافقَ هـٰذا قَولَه تَعالَىٰ : ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَـٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ﴾ الآية[2] .

قالَ أبُو عَمرٍو : قَد وافقَ الأوّلُ أخْبارَ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم والحَديثُ يُفسِّرُ القُرآنَ[3] .

وقالَ أبُو عليّ التَّنُوخيّ : حَدَّثنا أبُو الحَسَن بنُ الأزْرَق ، قال : كُنتُ بِحَضْرةِ الإمامِ أبي عبدِ الله بنِ الدَّاعي ، فسَألَه أبُو الحَسَن المُعْتَزليُّ عَمَّا يقُولُه في طَلْحَةَ والزُّبَيْرَ ، فقالَ : أعْتَقِدُ أنَّهُما مِنْ أهْلِ الجَنَّة ، قال : ما الحُجَّة ؟ قالَ : قد رُويَتْ تَوبَتُهما ، والذي هو عُمدَتي أنَّ اللهَ بَشَّرَهما بالجَنَّةِ ، قالَ : فمَا تُنْكرُ علىٰ مَنْ زَعَمَ أنَّه عليه السلام قالَ : إنَّهُما مِنْ أهلِ الجَنَّة ومَقالَتُه : فَلَوْ مَاتَا لَكَانَا في الجَنَّةِ ، فلمَّا أحْدَثا زَالَ ذَلكَ ، قالَ : هـٰذا لا يَلْزَمُ ، وذلكَ أنَّ نَقلَ المُسلمينَ أنَّ بِشارَةَ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم سَبَقَتْ لهُما فوَجَبَ أنْ تَكونَ مُوافاتُهُما القِيامَة علىٰ عَمَلٍ يُوجِبُ لهُما الجَنَّةَ وإلاَّ لَمْ يَكُنْ ذلكَ بِشارَةٌ ، فدَعا له المُعْتَزِليُّ واسْتَحْسَنَ ذلكَ ، ثمّ قالَ : ومُحالٌ أنْ يُعْتَقَدَ هـٰذا فيهِمَا ، ولا يُعْتَقَدُ مِثلُهُ في أبي بَكْرٍ وعُمَرَ ، إذْ البِشَارَةُ للعَشْرَةِ[4] .

وفي « فُنُون » ابنِ عَقيل : قالَ عَميدُ المُلْكِ : قَدِمَ أبُو المَعَالي فكَلَّمَ أبا القَاسِمِ بنَ

---

(١) ولا أختتي : أي لا أستتر خوفاً .
(٢) سورة الأعراف ، الآية : ٤٤ .
(٣) انظر السير : (أبو عمرو بن العلاء) ٦/ ٤٠٧ـ ٤١٠ ، وانظر النزهة : ١/٦٦٦ .
(٤) انظر السير : (ابن الداعي) ١٦/ ١١٤ـ ١١٦ ، وانظر النزهة : ٢/١٢٧١ .

بُرهان في العِبادِ ، هَلْ لهُم أفْعالٌ ؟ ، فقَالَ أبُو المَعَالي : إنْ وَجدتَ آيةً تقْتَضي ذا فالحُجَّةُ لَكَ ، فتَلا : ﴿ وَلَهُمْ أَعْمَـٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَـٰمِلُونَ ﴾[1] ، ومَدَّ بها صَوتَه ، وكَرَّرَ ﴿ هُمْ لَهَا عَـٰمِلُونَ ﴾ ، وقَوْلَه : ﴿ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴾[2] ، أيْ كانُوا مُسْتطيعين فأخَذَ أبُو المَعَالي يَسْتروِحُ إلى التَّأويلِ ، فقالَ : والله إنَّكَ باردٌ تتَأوَّلُ صَريحَ كَلامِ الله لِتُصَحِّحَ بتأويلِكَ كَلامَ الأشْعَريِّ وأكَلَّهُ ابنُ بُرْهان بالحُجَّةِ ، فبُهِتَ .

دَرَّسَ بِنظاميَّة نيسَابُور ، واسْتَقامَ الأمْرُ ، وبَقِيَ علىٰ ذَلكَ ثلاثينَ سَنةً غَيرَ مُزاحَمٍ ولا مُدافَعٍ ، مُسلَّماً له المِحْرابُ والمِنْبَرُ والخُطبَةُ والتَّدريسُ ومَجْلسُ الوَعْظِ يومَ الجُمُعة ، وظَهَرتْ تَصانيفُه وحَضَرَ دَرسَه الأكابرُ والجَمْعُ العَظيمُ من الطَّلَبَة ، كان يَقعُدُ بينَ يَدَيْه نَحوٌ من ثلاثِ مِئَة وتَفَقَّهَ به أئِمَّةٌ[3] .

١٥ـ أبْياتٌ شِعْريّة :

قالَ أبُو عَمرٍو الدَّاني في أرْجوزَته السائرة :

ومِـنْ صَحيـحِ مـا أتَـىٰ بـه الخَبَـر	وشَـاعَ فـي النَّـاسِ قَـديمـاً وانتَشَـر
نُـــزُولُ ربِّنَـــا بِـــلا امْتِـــرَاءِ	فـــي كُـــلِّ لَيْلَـــةٍ إلـــى السَّمـــاءِ
مِـــنْ غَيْـــرِ مـــا حَـــدٍّ ولا تَكْييـــفِ	سُبْحـــانَـــهُ مِـــنْ قـــادِرٍ لَطيـــفِ
ورُؤْيَـــةُ المُهَيْمِـــنِ الجَبَّـــارِ	وأنَّنَـــا نَـــراهُ بِـــالأبْصَـــارِ
يَـــوْمَ القِيـــامَـــةِ بِـــلا ازْدِحـــامِ	كَـــرُؤْيَـــةِ البَـــدْرِ بِـــلا غَمَـــامِ
وضَغْطَـــةُ القَبْـــرِ عَلَـــى المَقْبُـــورِ	وفِتْنَـــةِ المُنْكَـــرِ والنَّكِيـــرِ
فـــالحَمْـــدُ للهِ الـــذي هَـــدَانَـــا	لِـــوَاضِـــحِ السُّنَّـــةِ واجْتَبَـــانَـــا

وَهِيَ أُرْجُوزَةٌ طَويلةٌ جِداً[4] .

---

(١) سورة المؤمنون ، الآية : ٦٣ .

(٢) سورة التوبة ، الآية : ٤٢ .

(٣) انظر السير : (إمام الحرمين) ١٨/ ٤٦٨ـ ٤٧٧ ، وانظر النزهة : ١/١٤٣٢ .

(٤) انظر السير : (أبو عَمرو الداني) ١٨/ ٨٨ـ ٨٣ ، وانظر النزهة : ٢/١٣٨٧ .

قالَ المُرسيُّ :[1]

مَنْ كَانَ يَرْغَبُ في النَّجَاةِ فمَا لَهُ ... غَيرَ اتِّبَاعِ المُصْطَفَىٰ فِيمَا أَتَى
ذَاكَ السَّبيلُ المُسْتَقِيمُ وغَيْرُهُ ... سُبُلُ الضَّلالَةِ والغِوَايَةِ والرَّدَى
فَاتْبَعْ كِتَابَ اللهِ والسُّنَنَ التِي ... صَحَّتْ فَذَاكَ إنْ تَبعْتَ هُو الهُدىَ
وَدَعِ السُّؤالَ بِلِمْ وكَيْفَ فَإنَّهُ ... بَابٌ يَجُرُّ ذَوِي البَصِيرَةِ لِلْعَمَى
الدِّينُ مَا قَالَ الرَّسُولُ وصَحْبُهُ ... والتَّابِعُونَ ومَنْ مَنَاهِجَهُمْ قَفَا

١٦ـ المرتَدُّون بعد وَفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم :

قِصَّةُ الأَسْوَدُ العَنْسيّ :

عن الضحَّاك بنِ فَيروزَ الدَّيْلميّ ، عن أبيه قال : أوَّلُ رِدَّة كانت في الإسلام علىٰ عَهد رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم علىٰ يَدِ عَبهلةَ بنِ كَعب .

خرجَ بعد حَجَّة الوَداع ، وكان شِعْباذاً يُريهم الأعاجيبَ ، ويَسْبي قُلوبَ مَنْ يَستمعُ مَنْطقَه ، فوَثبَ هو ومَذْحِج بنَجْرانَ إلىٰ أنْ صارَ إلىٰ صَنعاءَ فأخذَها ، وصَفا له مُلكُ اليَمن .

عن عُبيد بن صَخر قال : غَلبَ الأَسْوَدُ علىٰ ما بين أعمالِ الطَّائفِ إلى البَحْرَين وغير ذلك واسْتغلَظَ أمرُه وغَلبَ علىٰ أكثر اليَمن ، وارْتدَّ معه خَلقٌ وعامَلَه المسلمون بالتُّقْيَة ، وأسْنَدَ أمرَ جُندِه إلىٰ قَيسِ ابنِ عبدِ يَغُوث .

قال : فبَينا نحنُ كذلكَ بحَضْرَمَوْت ولا نأمَنُ أنْ يَسيرَ إلينا الأَسْوَدُ ، وقد تَزَوَّجَ مُعاذُ في السُّكون[2] إذ جاءَتْنا كُتُبُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم يأمُرُنا فيها أنْ نَبعثَ الرِّجالَ لمُجاوَلَتِه ومُصاوَلَتِه ، فقامَ مُعاذٌ في ذلك ، فعَرفْنا القوَّةَ ووَثقْنا بالنصر .

عن جشنِس بنِ الديلمي قال : قَدمَ علينا وَبَرُ بنُ يُحَنَّس بكتاب رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم فأمَرَنا فيه بالنُّهوضِ في أمرِ الأَسْوَدِ فرَأينا أمراً كثيفاً ، ورَأينا الأَسْوَدَ قد تَغيَّرَ

---

(١) انظر السير : (المُرسيّ) ٢٣/ ٣١٢ـ٣١٨ ، وانظر النزهة : ٢/١٧٣٧ .
(٢) السُّكون : بطن من كندة .

لَقَيس بنِ عبدِ يَغوث ، فأخْبَرْنا قَيساً وأبلَغْناه عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، فكأنَّما وَقَعْنَا عليه من السَّماءِ فأجابَنا ، وجاءَ وَبَرُ وكاتَبْنا النَّاسَ ودَعَوْناهم ، فأخْبَرَ الأسْودَ شَيطانُه فأرسَلَ إلىٰ قَيسٍ فقالَ : ما يَقولُ المَلَكُ ؟ يَقولُ : عَمدتُ إلىٰ قَيسٍ فأكْرَمتَه ، حتىٰ إذا دَخلَ منك كُلَّ مَدخَل مالَ مَيْلَ عَدوك ، فحَلفَ له وتَنصَّل ، فقال : أتُكذِّبُ المَلَك ؟ قد صَدق وعَرفْتُ أنَّكَ تائبٌ ، قال : فأتانا قَيسٌ وأخْبَرَنا فقُلنا : نحنُ علىٰ حَذر ، وأرسلَ إلينا الأسْودُ : أَلَمْ أُشَرِّفْكُم علىٰ قَومِكم ، أَلَمْ يَبلغْني عَنكم ؟ فقُلنا : أَقِلْنا مَرَّتَنا هـٰذه ، فقالَ : فلا يَبْلُغني عَنكُم فأَقْتُلُكم ، فنَجَونا ولَمْ نَكَد ، وهو في ارْتياب من أمْرِنا .

قال : فدخَلتُ على امرأتِه آذادَ فقُلتُ : يا ابنةَ عَمٍّ ، قد عَرفتِ بلاءَ هـٰذا الرجل ، وقَتلَ زَوجك وقَومك وفَضح النِّساء ، فهل من مُمالأةٍ عليه ؟ قالت : ما خَلقَ اللهُ أبغَضَ إليَّ منه ، ما يقومُ علىٰ حقٍّ ولا يَنتَهي عن حُرمَة .

ثم قالت : هو مُتحرِّزٌ ، والحَرسُ يُحيطُونَ بالقَصْر سِوىٰ هـٰذا الباب فانْقُبوا عليه ، وهيَّأت لنا سِراجاً ، وخَرجتُ فتَلقَّاني الأسْودُ خارجاً من القَصرِ فقال : ما أدْخَلَك ؟ ووَجَأ رأسي فسَقطتُ ، فصاحَت المرأةُ وقالت : ابنُ عمِّي زارَني ، فقال : اسْكُتي لا أبا لك لقد وَهبتُه لك ، فأتَيتُ أصْحابي وقلتُ : النَّجاءَ ، وأخْبرتُهم الخَبرَ ، فأنا علىٰ ذلك إذْ جاءَني رسُولُها : لا تَدَعنَّ ما فارَقتُك عليه ، فقُلنا لفَيروزَ : ائتِها وأَتْقِنْ أمرَنا ، وجِئْنا باللَّيلِ ودَخلنا ، فإذا سِراجٌ تحتَ جَفْنة ، فاتَّقَيْنا بفَيروزَ ، وكانَ أنْجَدَنا ، فلمَّا دَنا من البَيتِ سَمعَ غَطيطاً شَديداً ، وإذا المَرأةُ جالسَةٌ فلمَّا قامَ فَيروزُ على الباب أجْلَسَ الأسْودَ شَيطانُه وكلَّمَه فقال أيضاً : فما لي ولكَ يا فَيروز ، فخَشي إنْ رَجَعَ أنْ يَهلك هو والمَرأةُ ، فعاجَلَه وخالَطَه وهو مثلُ الجَمَل ، فأخذَ برأسِه فدقَّ عُنقَه وقتَله ، ثم قامَ ليَخرُج فأخَذَت المرأةُ ثوبَه تناشِدُه ، فقال أُخْبرُ أصْحابي بقَتلِه ، فأتانا فقُمنا معه ، فأرَدْنا حَزَّ رأسِه فحَرَّكَه الشَّيطانُ واضْطَربَ ، فلَم يَضبِطْه فقال : اجلِسوا علىٰ صَدرِه ، فجلسَ اثْنان وأخَذَت المرأةُ بشَعرِه ، وسَمعنا بَربرةً[1] فألْجَمَته

(١) بربرةً : صِياحاً .

بمَلاءَة[1] ، وأمرَّ الشَّفرَةَ علىٰ حَلقِه ، فخارَ كأشدِّ خُوار ثَورٍ ، فابْتَدرَ الحَرسُ البابَ : ما هـٰذا ما هـٰذا ؟ قالت : النبيُّ يُوحَىٰ إليه ، قال : وسَمرنا لَيلتَنا كيف نُخبرُ أشْياعَنا ، فأجْمَعنا على النداء بشِعارِنا ثمَّ بالأذان ، فلمَّا طلعَ الفَجرُ نادىٰ داذويه بالشِّعارِ ، ففَزِعَ المسلمونَ والكافرونَ ، واجتمَع الحَرسُ فأحاطوا بنا ، ثم نادَيتُ بالأذان ، وتوافَت خُيولُهم إلى الحَرسِ فناديتُهم : أشْهدُ أنَّ مُحمَّداً رسُولُ الله ، وأنَّ عبهَلَةَ كذَّاب ، وألقَينا إليهم الرَّأسَ ، وأقامَ وبرٌ الصَّلاةَ ، وشَنَّها القومُ غارةً ، ونادينا : يا أهلَ صَنعاءَ مَنْ دَخلَ عَليه داخلٌ فتعَلَّقوا به ، فكَثُرَ النَّهبُ والسَّبيُ ، وخَلُصَت صَنعاء والجَند ، وأعزَّ اللهُ الإسْلامَ ، وتَنافَسنا الإمارةَ ، وتراجَعَ أصحابُ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ، فاصْطَلحْنا علىٰ مُعاذ بنِ جَبل ، فكان يُصلِّي بنا ، وكَتبنا إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم الخَبرَ فقدِمَت رسُلنا وقد قُبضَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم صَبيحتَئذٍ فأجابَنا أبو بَكْر عنه[2] .

خَبَر الرِّدَّة :

لَمَّا اشتهرت وفاةُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم بالنَّواحي ، ارْتدَّت طوائفُ كثيرةٌ من العرب عن الإسلام ومَنعوا الزكاة ، فنَهضَ أبو بَكْر الصِّديق رضي الله عنه لقِتالِهم ، فأشارَ عليه عُمرُ وغيرُه أنْ يَفتُرَ عن قِتالِهم فقال : والله لَوْ مَنعُوني عِقالاً أو عَناقاً[3] كانوا يُؤدُّونَها إلىٰ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتُهم علىٰ مَنْعِها ، فقالَ عُمرُ : كَيفَ تُقاتِلُ النَّاسَ وقد قالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « أُمِرْتُ أنْ أُقاتِلَ النَّاسَ حتَّىٰ يَقُولوا : لا إلَـٰهَ إلاَّ اللهَ وأنَّ مُحمَّداً رسُولُ الله فمَنْ قالَها عَصَمَ مِنِّي مَالَه ودَمَه إلاَّ بِحَقِّها وحِسَابُه على الله » ، فقال أبو بَكر : واللهِ لأُقاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَينَ الصَّلاةِ والزَّكاةِ ، فإنَّ الزَّكاةَ حَقُّ المالِ وقد قالَ : « إلاَّ بحَقِّها » ، فقال عُمرُ : فواللهِ ما هو إلاَّ أن رَأيتُ اللهَ قد شَرحَ صَدرَ أبي بَكْر للقِتالِ ، فعَرفْتُ أنَّه الحَقّ .

---

(١) ملاءة : خِرقة .

(٢) انظر السير : (أبو بكر الصِّديق) ، وانظر النزهة : ٣٣ ـ ٣٥/ قصة الأسْوَد العَنْسي .

(٣) العَناق : الأنثىٰ من ولد المَعز .

عن عُرْوة وغيرِه قال : فخَرجَ أبو بَكْر في المُهاجرين والأنْصار حتىٰ بلغَ نَقْعاً حِذاءَ نَجْد ، وهَرَبَت الأعْرابُ بذَراريهِم ، فكلَّمَ النَّاسُ أبا بَكْر وقالوا ارْجِعْ إلى المَدينة وإلى الذُّريَّة والنِّساءِ وأمِّر رَجُلاً على الجَيش ، ولَمْ يَزالوا به حتىٰ رَجعَ وأَمَّرَ خالدَ بنَ الوَليد ، وقال له : إذا أسْلَموا وأَعْطوا الصَّدقَةَ فمَنْ شاء منكم فلْيَرْجِع ، ورَجعَ أبو بَكْر إلى المَدينة .

فسارَ خالدٌ لقتال طُلَيْحَةَ الكذَّاب فهَزَمَه اللهُ ، وكان قد بايَع عُيَيْنَة ابنَ حِصْن ، فلمَّا رَأىٰ طُلَيْحَة كثرَةَ انْهِزام أَصْحابِه قال : ما يَهْزِمُكم ؟ فقال رجلٌ : أنا أُحدِّثك ، ليسَ منَّا رجلٌ إلاَّ وهو يُحبُّ أن يَموتَ صاحبُه قَبلَه ، وإنا نَلْقَىٰ قَوماً كلُّهم يُحبُّ أن يَموتَ قَبلَ صاحِبِه ، وكان طُلَيْحَة رجلاً شَديدَ البَأْسِ في القتال ، فقَتَلَ طُلَيْحَةُ يومئذٍ عُكاشةَ بنَ محصَن وثابتَ بنَ أقْرَم .

فلَّما غَلبَ الحقُّ طُلَيْحَة ترَجَّلَ ، ثم أَسْلمَ وأَهَلَّ بعُمْرة ، فركِب يَسيرُ في النَّاسِ آمِناً ، حتىٰ مَرَّ بأبي بَكْر بالمَدينة ، ثم سارَ إلىٰ مكَّة فقَضىٰ عُمرَتَه ، ثم حَسُنَ إسْلامُه .

عن عُرْوة قال : فسارَ خالدٌ ـ وكان سَيفاً من سُيوفِ الله تَعالَىٰ ـ فأَسْرعَ السيرَ حتىٰ نَزلَ ببزاخَة ، وبعثَتْ إليه طَيِّىء : إنْ شِئتَ أنْ تَقدُم علينا فإنَّا سامعون مُطيعون ، وإنْ شِئتَ ، نَسيرُ إليكَ ، قال خالدٌ : بلْ أنا ظاعِنٌ إليكم إنْ شاءَ الله ، فلَمْ يَزلْ ببزاخَة ، وجمعَ له هناك بَنو أسَد وغَطْفان فاقْتَتلوا ، حتىٰ قُتلَ من العَدوِّ خلقٌ وأُسِرَ منهم أُسارَىٰ .

ثم ظَعنَ يريدُ طَيِّئاً ، فأقْبلت بَنو عامِر وغَطفان والنَّاسُ مُسلمين مُقرِّين بأداءِ الحَقِّ ، فقَبلَ منهم خالد .

وقُتلَ في ذلك الوَجه مالكُ بنُ نُوَيْرَة التَّميمي في رجال معه من تَميم ، فقالت الأنْصارُ : نحنُ راجِعون ، قد أقرَّت العربُ بالذي كان عَليها ، فقال خالدٌ ومَنْ معه من المُهاجرين : قد لعَمري آذنُ لكم ، وقد أجمَعَ أميرُكم بالمَسير إلىٰ مُسَيْلِمَة بن ثمامَة الكذَّاب ، ولا نَرىٰ أنْ تَفرَّقوا علىٰ هـٰذه الحال ، فإنَّ ذلك غيرُ حَسَن ، وإنَّه لا حُجَّة لأحد منكُم فارَقَ أميرَه وهو أشَدُّ ما كان إليه حاجَة ، فأبَت الأنْصارُ إلاَّ الرُّجوعَ ، وعَزمَ

خالدٌ ومَنْ معَه ، وتخلَّفَت الأنْصارُ يوماً أو يومين ينظرون في أمرِهم ، ونَدِموا وقالوا : ما لكم واللهِ عُذرٌ عند الله ولا عند أبي بَكْر إنْ أُصيبَ هٰذا الطرفُ وقد خَذلناهم ، فأسْرَعوا نحو خالد ولَحقوا به ، فسارَ إلى اليَمامَة ، وكان مُجّاعة بن مُرارة سَيِّد بني حَنيفَة خَرجَ في ثلاثة وعشرين فارساً يطلبُ دماءً في بني عامر ، فأحاطَ بهم المسلمون ، فقُتل أصحابُ مُجّاعة[1] .

قِتالُ مُسيلمة الكذَّاب :

عن الزُّهريّ : قاتلَ خالدٌ مُسَيْلِمة ومن مَعه من بَني حَنيفَة ، وهم يَومئذ أكثرُ العَرب عَدداً وأشدُّه شَوكة ، فاسْتُشهد خلقٌ كثير ، وهَزمَ اللهُ بني حَنيفَة ، وقُتلَ مُسَيْلِمة ، قَتلَه وَحْشيٌّ بحَرْبة .

عن موسى بن أنَس ، عن أبيه قال : لمَّا كان يومُ اليَمامَة دخلَ ثابتُ ابنُ قَيْس فتَحنَّطَ ، ثم قامَ فأتى الصفَّ والنَّاسُ مُنهَزمون فقال : هٰكذا عن وجُوهنا ، فضارَب القوم ثم قالَ : بِئْسما عوَّدْتم أقْرانَكم ، ما هٰكذا كُنَّا نُقاتل مع رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ، فاسْتُشهد رضي الله عنه .

عن الزُّهريِّ قال : ثم تَحصَّن من بَني حَنيفَة من أهلِ اليَمامَة سِتةُ آلاف مُقاتل في حِصْنهم ، فنَزلوا علىٰ حُكْم خالد فاسْتَحْياهم .

عن عُروَة قال : وعَمدَت بَنو حَنيفَة حين انْهَزموا إلى الحُصُون فدَخَلوها ، فأراد خالد أن يَنهَد إليهم الكَتائب ، فلم يَزَل مُجّاعة حتىٰ صالَحه على الصَّفْراء والبَيْضاء ، والحلْقة والكُراع ، وعلىٰ نصف الرَّقيق ، وعلىٰ حائط من كل قَريَة ، فتَقاضوا علىٰ ذلك .

وقال سلامةُ بنُ عُمَير الحَنفي : يا بَني حَنيفَة قاتِلُوا ولا تُقاضوا خالداً علىٰ شيء فإنَّ الحصْنَ حَصينٌ ، والطَّعامَ كثيرٌ ، وقد حَضَرَ النِّساءُ ، فقال مُجّاعة : لا تُطيعوه فإنَّه

(١) انظر السير : (أبو بكر الصِّديق) ، وانظر النزهة : ٣٧ ـ ٣٨/ خبر الردة .

مَشْؤوم فأطاعوا مُجّاعة ثمَّ إنَّ خالداً دَعاهم إلى الإسلام والبَراءَة ممَّا كانوا عليه ، فأسْلَمَ سائرُهم[1] .

وَقْعَةُ جُواثا :

بعثَ الصدّيقُ رضي الله عنه العَلاءَ بنَ الحَضْرميّ إلى البَحرَين ، وكانوا قد ارْتَدُّوا ـ إلاَّ نَفراً ثَبَتوا مع الجارود ـ فالْتَقوا بجُواثا فهَزَمَهم اللهُ .

قال ابنُ إسْحاق : حاصَرَهم العَلاءُ بجُواثا حتىٰ كادَ المسلمون يَهلَكون من الجَهْد ، ثم إنَّهم سَكِروا لَيلةً في حِصْنِهم ، فبيَّتَهم العَلاءُ .

وفي نَفْسِ السَّنَة بَعثَ الصدِّيقُ عِكْرِمَةَ بنَ أبي جَهْل إلىٰ عُمانَ ، وكانوا ارْتَدُّوا ، وبَعثَ المُهاجِرَ بنَ أبي أُميّة المَخْزومي إلىٰ أهل النُّجَيْر[2] ، وكانوا ارْتَدُّوا ، وبعَثَ زيادَ بنَ لُبَيْد الأنْصاري إلىٰ طائفة من المُرتَدَّة .

بعد فَراغ قتالِ أهل الرِّدَّة بعَثَ أبو بَكْر الصدِّيق خالدَ بنَ الوَليد إلىٰ أرضِ البَصْرَة ، وكانت تُسمَّىٰ أرضَ الهِنْد ، فسارَ خالدٌ بمَنْ معَه من اليَمامَة إلىٰ أرضِ البَصْرَة ، فغَزَا الأُبلَّةَ[3] فافْتَتَحها ، ودَخلَ مَيْسانَ[4] فغَنِمَ وسَبىٰ من القُرىٰ ، ثم سارَ نحوَ السَّواد ، فأخذَ علىٰ أرض كَسْكَر[5] وزَنْدَوَرْد[6] ، وبعد أن اسْتَخلفَ على البَصْرَة قُطْبَةَ بنَ قَتادَة السّدوسي ، وصالَحَ خالدٌ أهلَ أُلَيْس[7] علىٰ ألف دينار في ظهر رَجَب من السَّنة ، ثم افْتَتَحَ نهرَ الملك[8] ، وصالَحَه ابنُ بُقَيلَة صاحبُ الحِيرَة علىٰ تسعينَ ألفاً ، ثم سارَ نحوَ أهلِ الأنْبارِ فصالَحُوه .

---

(١) انظر السير : (أبو بكر الصِّديق) ، وانظر النزهة : ٣٩/ قتال مسيلمة الكذَّاب .

(٢) النُّجَير ، بالتصغير : حصن باليمن قرب حضرموت منيع لجأ إليه أهل الردَّة مع الأشعث بن قيس .

(٣) الأُبلَّة : بلدة علىٰ شاطىء دجلة البصرة العظمىٰ في زاوية الخليج .

(٤) مَيْسان : اسم كورة واسعة كثيرة القرىٰ والنخيل بين البصرة وواسط قصبتها ميسان .

(٥) كَسْكَر : كورة واسعة قصبتها واسط بين الكوفة والبصرة .

(٦) زَنْدَوَرْد : مدينة كانت قرب واسط مما يلي البصرة خربت بعمارة واسط .

(٧) أُلَيْس : مُصغر بوزن فُلَيس ، الموضع الذي كانت فيه الواقعة بين المسلمين والفرس في أول أرض العراق من ناحية البادية .

(٨) نهر الملك : كورة واسعة ببغداد بعد نهر عيسىٰ .

ثم حاصَرَ عَينَ التَّمرِ[١] ونزلوا علىٰ حُكْمِه ، فقتَلَ وسَبىٰ .

قال محمَّدُ بنُ جَرير الطَّبَري : ولمَّا فَرَغَ خالدٌ من فُتوح مَدائنِ كسْرَى التي بالعِراق صُلْحاً وحرباً خَرجَ لخَمسٍ بَقينَ من ذي القعدة مُتكتِّماً بحَجَّتِه ، ومعَه جَماعةٌ تَعْتَسِفُ[٢] البلادَ حتىٰ أتَىٰ مكَّة ، فتأتَّىٰ له من ذلكَ ما لمْ يتَأتّ لدَليل ، فسارَ طَريقاً من طُرُقِ الحِيرَة لمْ يُرَ قَطُّ أعْجَبَ منه ولا أصْعَب ، فكانت غَيبَتُه عن الجُنْد يَسيرَة ، فلَمْ يَعلمْ بحَجِّه أحَدٌ إلاَّ مَنْ أفْضَىٰ إليه بذلك .

فلمَّا علمَ أبو بَكْر بحَجِّه عَتَبَه وعنَّفَه وعاقَبَه بأنْ صَرَفَه إلى الشَّام ، فلمَّا وافاهُ كتابُ أبي بَكْر عند مُنْصرَفِه من حَجِّه بالحِيرَة يأمُرُه بانْصِرافِه إلى الشَّامِ حتىٰ يأتي مَنْ بها من جُموع المسلمين باليَرْموك ، ويقولُ له : إيَّاكَ أنْ تَعودَ لمثلِها .

قلتُ : وإنمَّا جاءَ الكتابُ بأنْ يَسيرَ إلى الشَّامِ في أوائل سَنة ثلاث عشرة .

قلتُ : سارَ خالدٌ بجَيشِه من العِراقِ إلى الشَّام في البَرِّيَّة ، وكادُوا يَهْلكون عَطَشاً[٣] .

١٧ـ الوَلاءُ والبَراء

(أ) الوَلاءُ والبَراءُ سَببٌ لِمَحَبَّة الله عَبْدَه :

سُئِلَ المُرتَعشيُّ : بماذا يَنالُ العَبدُ المَحَبَّةَ ؟ قالَ : بِمُوالاةِ أوْلِيَاءِ الله ومُعَاداةِ أعْداءِ الله[٤] .

(ب) أمثلةٌ جَميلةٌ على الوَلاءِ لله سُبْحانَه ولِرَسُوله صلى الله عليه وسلم :

شَهِدَ أبُو عُبَيْدَةَ بَدْراً فقتَلَ يَومَئذٍ أبَاهُ ، وأبْلَىٰ يومَ أُحُدٍ بَلاءً حَسَناً ، ونزَعَ يَومَئذٍ الحَلْقَتَينِ اللَّتَينِ دَخَلَتا من المِغْفَرِ في وَجْنَةِ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم مِنْ ضَرْبَةٍ

---

(١) عين التمر : بلدة قريبة من الأنبار غربي الكوفة .

(٢) اعتسف الطريق : إذا قطعه دون صوب أو توخاه فأصابه .

(٣) انظر السير : (أبو بكر الصِّديق) ، وانظر النزهة : ٤٠ ـ ٤١/ وقعة جُواثا .

(٤) انظر السير : (المرتعشي) ١٥/ ٢٣٠ـ ٢٣١ ، وانظر النزهة : ١٢٢٣/ ٤ .

أَصَابَتْهُ فانْقَلَعتْ ثَنِيَّتَاهُ ، فحَسُنَ ثَغْرُهُ بذَهابِهِما حتّىٰ قِيلَ : ما رُئِيَ هَتْمٌ[1] أَحْسَنُ من هَتْمِ أبي عُبَيْدة[2] .

وعن عبدِ الله بنِ مَعْقِل ، قالَ : نَزَلَ ابنُ أمِّ مَكْتُوم علىٰ يَهُوديّةٍ بالمَدينَة كانَتْ تَرْفُقُه ، وتُؤْذيهِ في النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، فتَناوَلَها فضَرَبَها ، فقَتَلَها ، فرُفِعَ ذلكَ إلى النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، فقال هُوَ : أمَا والله إنْ كانت لَتَرْفُقُني ، ولكنْ آذَتْني في اللهِ ورسُولِه فقالَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم : « أَبْعَدَهَا اللهُ ، قَدْ أَبْطَلْتُ دَمَهَا »[3] .

وقال المُغيرةُ بنُ شُعبَة : بَعَثَتْ قُرَيشٌ عامَ الحُدَيْبِيَة عُرْوَةَ بنَ مَسْعُود إلىٰ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم لِيُكلِّمَه فأتَاهُ ، فكَلَّمَه ، وجَعَلَ يَمَسُّ لِحْيَتَه ، وأنا قائِمٌ علىٰ رَأسِ رسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم مُقَنَّعٌ في الحَديدِ ، فقالَ المُغيرةُ لِعُرْوَة : كُفَّ يَدَكَ قَبلَ أنْ لا تَصِلَ إلَيْكَ ، فقالَ : مَنْ ذَا يا مُحمَّد ؟ ما أفَظَّهُ وأغْلَظَه قال صلى الله عليه وسلم: « ابنُ أخِيكَ »، فقالَ: يا غُدَرُ واللهِ ما غَسَلْتُ عَنِّي سَوءَتَكَ إلاَّ بالأمْسِ[4]، [5].

(ج) أمْثلَةٌ علىٰ مُوالاةِ المُسلمينَ الكافِرينَ :

١ـ اسْتعانةُ المسلمين بالفِرَنْج ضِدَّ مسلمين :

وقالَ الإمامُ الذهبيُّ في تَرجَمَةِ العَاضِدِ صاحِبِ مِصْرَ : ثمَّ قَدَّمَ شَاوَرُ السَّعديُّ دِمَشْقَ جريدَةً إلىٰ نُورِ الدِّينِ مُسْتَنْجداً به ، فجَهَّزَ مَعهُ شِيرْكُوه ، بَلْ بَعْدَه بِسَنَة ، فاسْتَردَّ له الوَزارَةَ ، وتَمَكَّنَ ، ولَمْ يُجازِ شِيرْكُوهَ بما يَليقُ به ، فأضْمَرَ له الشَّرَّ ، واسْتَعانَ شَاوَرُ بالفِرَنْجِ ، وتَحَصَّنَ منهم شِيرْكُوهُ ببلْبيسَ ، فحَصَرُوهُ مُدَّةً ، حتّىٰ مَلُّوا .

---

(١) الهَتْمُ كَسْرُ الثنايا من أصُولِها .

(٢) انظر السير : (أبو عُبيدة بن الجرّاح) ١/ ٥ـ ٢٣ ، وانظر النزهة : ١٢١/ ٤ .

(٣) انظر السير : (ابن أم مكتوم) ١/ ٣٦٠ـ ٣٦٥ ، وانظر النزهة : ١٧٧/ ٤ .

(٤) قال ابن هشام في السيرة ٢/ ٣١٣ : أراد عروة بقوله هـٰذا أن المغيرة بن شعبة قبل إسلامه قتل ثلاثة عشر رجلاً من بني مالك من ثقيف ، فتهايج الحيَّان من ثقيف : بنو مالك رهط المقتولين ، والأحلاف رهط المغيرة ، فودىٰ عروة المقتولين ثلاث عشرة دية ، وأصلح ذلك الأمر .

(٥) انظر السير : (المُغيرة بن شُعبة) ٣/ ٢١ـ ٣٢ ، وانظر النزهة : ٣٢٣/ ٤ .

واغْتَنمَ نورُ الدين خُلوَّ الساحلِ منهُم فعَملَ المَصَافَّ علىٰ حارِم وأَسَرَ مُلوكاً في سَنة تسْع وخَمسينَ وخمسِ مئَة .

ورجعَ شِيرْكُوه بعد أمور طويلة الشرح[1] .

قالَ الإمامُ الذهبيُّ في تَرجَمَةِ هِشامِ المُؤيَّد بالله ابنِ صاحِبِ الأنْدَلُسِ النَّاصِر عبدِ الرَّحمَـٰن أَخِي المُظَفَّر ، وكان شنشولُ قد اسْتَعانَ بِعَسْكَرِ الفِرَنْج لأنَّ أمَّه مِنهُم ، وقامَ مَعَهُ ابنُ غومِش ، فجاءَ إلىٰ قُرطُبَة ، فتَسَحَّبَ جُنْدُهُ ، فقالَ له ابنُ غومِش : ارْجِعْ بنا قَبلَ أنْ تُؤخَذَ فأبَىٰ ، ومَالَ إلىٰ دَيْرِ شربش جَوْعانَ سَهْرانَ ، فأنْزَلَ له راهِبٌ دَجاجَةً وخُبْزاً ، فأكَلَ وشَرِبَ وسَكِرَ ، وجَاءَ لِحَرْبِه ابنُ عَمِّ المَهْدِيّ وحاجِبُهُ مُحمّدُ ابنُ المُغيرَةِ الأُمَويّ ، فقَبَضَ عليهِ ، فظَهَرَ منهُ الجَزَعُ ، وقَبَّلَ قَدَمَ ابنِ المُغيرَةِ ، وقالَ : أنا في طَاعَةِ المَهْديّ ثمَّ ضُرِبَتْ عُنُقُه ، وطِيفَ برَأسِهِ : هـٰذا شنشولُ المَأبُونُ المَخْذُولُ فلمَّا اسْتَوثَقَ الأمْرُ للمَهْديِّ أظْهَرَ من الخَلاعَةِ والفَسادِ أكْثَرَ مِمَّا عَمِلَهُ شنشولُ[2] .

قالَ الحُمَيْديُّ : فقَامَ على المَهْديِّ ابنُ عَمِّه هشامُ بنُ سُلَيْمانُ ابنُ النَّاصِر لدين الله ، في شَوَّال سَنَةَ تِسْعٍ وتِسْعينَ ، وقَامَ مَعهُ البَرْبَرُ ، وأُسِرَ هشامٌ هـٰذا فقتَلَه المَهْديُّ وتَحيَّزَ جُلُّهم إلىٰ قَلعَةِ رَبَاحٍ ، فهَرَبَ مَعهُم سُلَيْمانُ بنُ الحَكَمِ بنِ سُلَيْمَانَ بنِ النَّاصِر ، وهُو ابنُ أخِي هِشامِ المَقْتُولِ ، فبَايَعُوهُ ، وسَمَّوْهُ : المُسْتَعِينَ بالله ، وجَمَعُوا له مالاً ، حتّىٰ صَارَ له نَحْوٌ من مِئَةِ ألْفِ دينارٍ ، فتَوَجَّهَ بالبَرْبَرِ إلىٰ طُلَيْطِلَةَ ، فتَملَّكَها ، وقَتَلَ وَالِيَها ، فجَزعَ المَهْديُّ ، واعْتَدَّ للحِصَارِ ، وتَجرَّأتْ عليه العَامَّةُ ، ثم بَعَثَ عَسْكراً ، فهَزَمَهُم سُلَيْمانُ المُسْتَعِينُ ثمَّ سَارَ حتّىٰ شَارَفَ قُرْطُبَة ، فبَرزَ لِحَرْبِه عَسْكَرُ المَهْديّ ، فنَاجَزَهُم سُلَيْمانُ ثمَّ خَرَجَ أهلُ قُرطُبَةَ إلى المُسْتَعِينِ سُلَيْمانَ ، فأحْسَنَ مَلْقاهُم واخْتَفَىٰ مُحمّدٌ المَهْديُّ واسْتَوْثَقَ أمْرُ المُسْتَعِينِ ، ودَخَلَ قَصْرَ الإمارَةِ ، ووَارَى النَّاسُ قَتْلاهُم فكانُوا نَحْواً من اثْنَيْ عَشَرَ ألْفاً ، ثمَّ تَسَحَّبَ المَهْديُّ إلىٰ طُلَيْطِلَة ، فقامُوا مَعَهُ ، وكَتَبَ إلى الفِرَنْجِ ، ووَعَدَهُم بالأمْوالِ ، فاجْتَمَعَ إليهِ خَلقٌ عَظيمٌ وهو أوّلُ مال انْتُقلَ من بَيْتِ

---

(١) انظر السير : (العاضد) ١٥/٢٠٧ـ٢١٥ ، وانظر النزهة : ٣/١٢١٩ .

(٢) انظر السير : (هشام المُؤيد بالله) ١٧/١٢٣ـ١٣٣ ، وانظر النزهة : ١/١٣٢٨ .

المَالِ بالأنْدلُسِ إلى الفِرَنْجِ ، وكانت الثُّغُورُ كُلُّها باقِيةً علىٰ طاعَةِ المَهْديِّ ، فقَصَدَ قُرْطُبَة في جَحْفَلٍ عَظيمٍ ، فالْتَقى الجَمعانِ علىٰ عَقَبةِ البَقَرِ علىٰ بَريدٍ من قُرْطُبَة ، فاقْتَتَلُوا أشَدَّ قِتالٍ فانْهَزمَ سُلَيْمانُ المُسْتَعِينُ ، واسْتَوْلَى المَهديُّ علىٰ قُرْطُبَة ثانياً ، ثم خَرَجَ إلىٰ قِتالِ جَماهيرِ البَرْبَرِ ، فالْتَقاهُم بِوادِي آرُهْ ، فهَزَموهُ أقْبَحَ هَزيمَةٍ ، وقُتِلَ من جُندِه الفِرَنْجِ ثلاثةُ آلاف ، وغَرِقَ خَلقٌ ، فجَاءَ إلىٰ قُرْطُبَة ، ثم وَثَبَ عليه العَبيدُ ، فضَرَبَتْ عُنُقَه ، وقُطِعَتْ أرْبَعَتُه ، وكَفَى اللهُ شَرَّهُ في ثامِنِ ذي الحِجَّة عام أربعِ مِئَة ، وعَاشَ أرْبَعاً وثلاثينَ سَنَةً[1] .

المَأمونُ (مَلكُ طُلَيْطِلَة) :

قال الذهبيُّ في تَرْجَمَة المَأمُون مَلِكِ طُلَيْطِلَة ، أبو زَكريّا ، يَحْيَى بنُ صاحبِ طُلَيْطِلَةَ الأميرِ إسْماعيلَ بنِ عبدِ الرَّحمَـٰنِ بنِ عامِرْ الهَوَّاري ، الأنْدلُسيّ .

اسْتَوْلَىٰ أبُوهُ على البَلَدِ بعدَ العِشْرينَ وأرْبَع مِئَة ، ونَزَعُوا طاعَةَ المَرْوانيّة ، وتَمَلَّكَ المَأمُونُ بعدَ أبيه سَنَةَ خَمسٍ وثَلاثينَ ، فامْتَدَّتْ أيامُه خَمساً وعِشرينَ سَنَةً ، عَاكِفاً على اللَّذَّاتِ والخَلاعَة ، وصَادَرَ الرَّعِيَّة وهادَنَ العَدُوَّ ، وقَدِمَ الأطْرافَ ، فطَمِعَتْ فيه الفِرَنْجُ ، بَلْ في الأنْدلُسِ وأُخِذَتْ عِدَّةُ حُصُونٍ إلىٰ أنْ أخَذُوا منهم طُلَيْطِلَةَ في سَنَةِ ثَمانٍ وسَبعين وأربَع مِئَة ، وجَعَلُوها دارَ مُلْكِهم ـ فإنَّا لله وإنَّا إلَيْهِ راجِعُون ـ وكان المَأمُونُ أرادَ أنْ يَسْتَنْجِدَ بالفِرَنْجِ علىٰ تَمَلُّكِ مَدائنِ الأنْدلُسِ ، فكاتَبَ طاغِيَتَهم : أنْ تَعالَ في مِئَةِ فارسٍ ، والمُلْتَقىٰ في مكانِ كَذَا ، فسَارَ في مِئَتَينِ ، وأقْبَلَ الطَّاغِيَةُ في سِتَّةِ آلافٍ ، وجَعَلَهم كَميناً له ، وقالَ : إذا رَأيْتُمُونا قد اجْتَمَعْنا ، فأحِيطُوا بنَا فلمَّا اجْتَمَعَ المَلِكَانِ أحَاطَ بِهم الجَيشُ ، فنَدِمَ المَأمُونُ ، وحَارَ ، فقالَ الفِرَنْجيُّ : يا يَحْيَىٰ ، وحَقِّ الإنْجيلِ كُنتُ أظُنُّكَ عاقِلاً ، وأنْتَ أحْمَقُ!! جِئْتَ إليَّ ، وسَلَّمْتَ مُهْجَتَكَ بِلا عَهْدٍ ولا عَقْدٍ ، فلا نَجَوْتَ منِّي حتّىٰ تُعطِيَني ما أطْلُبُ قالَ : فاقْتَصِدْ فسَمَّىٰ له حُصُوناً ، وقَرَّرَ عليه مالاً في كُلِّ سَنَةٍ ، ورَجَعَ ذَليلاً مَخْذُولاً ، وذَلكَ بمَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ تُوفِّي سَنَةَ ستّينَ وأربَع مِئَة[2] .

---

(١) انظر السير : (هشام المُؤيد بالله) ١٧/ ١٢٣ـ ١٣٣ ، وانظر النزهة : ٢/١٣٢٨ .

(٢) انظر السير : (المأمون ـ ملك طُليطلة) ١٨/ ٢٢٠ـ ٢٢١ ، وانظر النزهة : ١٤٠٤ ـ ١٤٠٥.

أحمدُ بنُ عبد المَلك بن هُود :

وجاءَ في تَرجَمَةِ أحمدَ بنِ عبدِ المَلِكِ ابنِ هُود ، قال الذهبيُّ : المُلقَّبُ بالمُسْتَنْصِر بالله الأنْدلُسيّ ، مَنْ بيتِ مَمْلكَةٍ وحِشْمَةٍ ، وأمْوالٍ عَظيمَةٍ ، وكانَ بِيَدِه قِطْعَةٌ من الأنْدلُسِ ، فاسْتَعَانَ بالفِرَنْجِ علىٰ إقامَةِ دَولَتِه[1] .

ذَكرَهُ اليَسَعُ بنُ حَزْم ، فقالَ : انعَقَدَ الصُّلح بينَ المُسْتَنْصِرِ بن هُودٍ وبينَ السُّليطينِ مَلكِ الرُّومِ وهو ابنُ بِنتِ أذْفُونْش إلىٰ مُدَّةِ عِشرِينَ سَنة علىٰ أنْ يَدْفَعَ للفِرَنْجِ رُوطَة ، ويَدْفَعُوا إلَيْهِ حُصُوناً عِوَضاً عنها ، ويُعِينُوهُ بخَمْسين ألْفاً من الرُّوم ، يَخْرُجُ بها إلىٰ بِلادِ المُسلمينَ لِيُمَلَّكَ ، فجَعَلَ اللهُ تَدْميرَهُ في تَدْبيرِهِ ، وكُنَّا نَجِدُ في الآثارِ عنِ السَّلَفِ فَسَادَ الأنْدلُسِ علىٰ يَدَيْ بَنِي هُودٍ وصَلاحُها بَعدُ عَلىٰ أيْدِيهم ، فخَرَجَ اللَّعينُ السُّليطينُ وابنُ هُودٍ في نَحْوٍ من أرْبَعينَ ألْفَ فارسٍ ، وتاشْفينُ بالزَّهْراءِ ، فقَصَدَ ابنُ هُودٍ جِهَةَ إشْبيليَّة ، وبَقِيَ يُنْفِقُ علىٰ جُيُوشِ السُّليطينِ نَحوَ ثَمانيَةَ أشْهُر ، وشَرطَ عليهِم أنَّهم لا يَأسِرُونَ أحَداً ، فحَدَّثَني المُسْتَنْصِرُ ـ وقَد نَدِمَ علىٰ فِعْلِه من شَيْطَنَة الشَّبيبَة وطَلَبِ مُلكِ آبائِه ـ فقالَ لي : الذي أنْفَقتُ في تِلكَ السَّفْرَةِ من الذَّهَبِ الخالِصِ ثلاثَةُ آلافِ ألْفِ دينارٍ ، والذي دَفَعتُ إليهِم من مَخَازِنِ رُوطَة من الدُّروع أرْبَعُونَ ألْفَ دِرْعٍ ، ومن البِيضِ مِثلَها ، ومن الطَّوارِقِ ثَلاثُونَ ألْفاً ، وذَكَرَ لي جَماعَةٌ أنَّه دَفَعَ إلى السُّليطينِ خَيْمَةً كان يَحْمِلُها أرْبَعُونَ بَغْلاً ، وذَكَرَ لي مُحمّدُ بنُ مَالكٍ الشَّاعِرُ أنَّه أبْصَرَ تِلكَ الخَيْمَةَ ، قال : فمَا سُمِعَ بأكْبَرَ منها قَطُّ ، ولمَّا طالَتْ إقامَتُه على البلادِ ، ولَمْ يَخرُجْ إلى ابنِ هُودٍ أحَدٌ ، رَجَعَ ومَعَهُ ابنُ هُودٍ ، ولَمْ يَكنْ معَ ابنِ هُودٍ إلاَّ نَحوٌ من مِئَتَيْ فارسٍ ، فأقَامَ ابنُ هُودٍ بطُلَيْطِلَة ليَذْهَبَ منها إلىٰ حُصُونه التي عُوِّضَ بها ـ وبِئْسَ للظَّالِمينَ بَدَلاً ـ ثمَّ إنَّ قُرْطُبَةَ اضْطَرَبَ أمْرُها ، واشْتَغَلَ أميرُ المسلمين بما دَهَمَهُ من خُرُوجِ التُّومَرْتيَّة[2] فَجاءَ المُسْتَنْصِرُ باللهِ أحمَدُ من مَدينَةِ غرليطش وقَصَدَ قُرطُبَةَ ، وكان مُحَبَّباً إلى النَّاسِ بالصِّيتِ ، فبَرَزَ إليهِ ابنُ حَمْدين زَعيمُ قُرْطُبَة بِعَسْكَرِها ، فقَصَدَ عَسْكَرُها نَحوَ ابنِ هُودٍ

---

(١) انظر السير : (أحمد بن عبد الملك بن هود) ٢٠/ ٤١ـ ٤٤ ، وانظر النزهة : ١/١٥٢٧ .

(٢) هم جماعةُ مُحمّد ابن عبد الله ابن تومرت ـ مَهْديُّ المَغرب ـ زَعيمُ الموَحِّدين .

طائِعينَ فَفَرَّ حِينَئذٍ ابنُ حَمْدين إلىٰ بُلَيْدَة ، ودَخَلَ ابنُ هُودٍ قُرْطُبَةَ بِلا كُلْفَةٍ ولا ضَرْبَةٍ ولا طَعْنَةٍ ، فاسْتَوْزَرَ أبا سَعيدٍ المَعْرُوف بِفَرَجِ الدَّليل ، وكاتَبَ نُوَّابَ البِلادِ ، ففَرِحُوا به لأصالَتِه في المُلْكِ ، ثم خَرَجَ فَرَجُ الدَّليلِ إلىٰ حِصْنِ المُدَوَّر ، فقِيلَ لابنِ هُودٍ : قد نَافَقَ وفَارَقَ ، فخَرَجَ بنَفْسه واسْتَنْزَلَه من الحِصْنِ ، فنَزَلَ غيرَ مُظْهِرٍ خِلافاً ، وكان رَجُلاً صَالحاً فقتَلَه صَبْراً ، فسَاءَ ذَاكَ أهْلُ قُرْطُبَة ، وثارَتْ نُفُوسُهم ، وعَظُمَ عَليهم قَتْلُ أَسَدٍ من أُسْدِ الله ، فزَحفُوا إلى القَصْرِ ، فَفَرَّ ابنُ هُودٍ من قُرْطُبَة فقَصَدَها ابنُ حَمْدين ، فأدْخَلَهُ أهْلُهُ ، وكثُرَ الهيجُ ، واشْتَدَّ البَلاءُ بالأنْدَلُسِ ، وغلَتْ مَراجِلُ الفِتْنَة ، وأمَّا أبُو مُحمّد ابنُ عِياضٍ ، فكَانَ علىٰ مَمْلَكَةِ لاردَة ، فخَرَجَ في خَمْسِ مِئَةِ فارِسٍ لِيَسْعَىٰ في إصْلاحِ أمْرِ الأُمَّة وقَصَدَهُ أهلُ مَرْسِيّة وبَلَنْسِيَة لِيُمَلِّكُوهُ عليهم ، فامْتَنَعَ ، ثمَّ بايَعَ أهلُ بَلَنْسِيّة عن الخَليفَةِ عبدِ الله العَبَّاسيّ ، ثمَّ اتَّفَقَ ابنُ عِياضٍ وابنُ هُودٍ على اسْمَ الخِلافَة لأميرِ المُؤمِنينَ العَبَّاسيّ ، وأنَّ النَّظَرَ في الجُيُوشِ والأمْوالِ لابنِ عِياضٍ رَحِمَهُ الله ، وأنَّ السَّلْطَنَةَ لابنِ هُودٍ[1] .

محمد بن يوسف بن هود :

قالَ الإمامُ الذهبيُّ في تَرجَمَةِ ابنِ هُود حِينَما خَلُصَت الأنْدلُسُ كُلُّها له وقاتَلَ بها المُوَحِدِّينَ ثم جَهَّزَ الخَلقَ للقاءِ الإفْرَنْجِ فلمَّا تَراءَى الجَمْعانِ وَقَعتْ الهَزِيمَةُ للمُسلِمين أقْبَحَ هَزِيمَة ورَجَعَ ابنُ هُود في أسْوَإِ حَالٍ ، ثم قالَ الذهبيُّ قامَ عليه شُعَيْبُ بنُ هلالة بِلَبُلَة ، فصَالَحَ ابنُ هُود الأذفُونَش علىٰ مُحاصَرَةِ لَبُلَة ومُعاوَنَتِه علىٰ أنْ يُعْطيه قُرْطُبَة ، واتَّفَقَا علىٰ ذلكَ ، وقالَ لَهُ : لا يَسُوغُ أنْ يدخُلَها الفِرَنْجُ على البَديهَة ، وإنَّما تُهمِلُ أمْرَها ، وتُخْلِيها من حَرَسٍ ، ووَجِّهْ أنْتَ الفِرَنْجَ يَتعَلَّقُونَ بأسْوارِها باللَّيلِ ويَغْدُونَ بها ، ففَعَلُوا كذلكَ ووَجَّهَ ابنُ هُود إلىٰ والِيهِ بقُرْطُبَة فأعْلَمَه بذلكَ ، وأَمَرَهُ بضِياعِها من حَيّزِ الشَّرقيَّة فجَاءَ الفِرَنْجُ ، فوَجَدُوهُ خالياً ، فجَعَلُوا السَّلالِمَ واسْتَوَوا على السُّورِ فلا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلاَّ بالله[2] .

---

(١) انظر السير : (أحمد بن عبد الملك بن هود) ٢٠/ ٤١ـ٤٤ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٢٧ (أحمد بن هود).

(٢) انظر السير : (محمد بن يوسف بن هود) ٢٣/ ٢٠ـ ٢٢ ، وانظر النزهة : ٤/١٧١١ .

وكانت قُرْطُبَةُ مَدينَتَيْن : إحْداهُما الشَّرقِيَّة والأخرَى المَدينَةُ العُظْمَىٰ ، فقامَتْ الصَّيْحَةُ والنَّاسُ في صَلاةِ الفَجْرِ ، فرَكِبَ الجُنْدُ وقالوا للوَالِي : اخْرُجْ بِنَا للمُلْتَقَىٰ ، فقالَ : اصْبِرُوا حتّىٰ يُضْحي النَّهارُ ، فلمَّا أضْحَىٰ رَكِبَ وخَرَجَ مَعَهُم ، فلمَّا أشْرَفَ على الفِرَنْجِ قالَ : ارْجِعُوا حتّىٰ ألْبَسَ سِلاحِي!! ، فرَجَعَ بهم وهُم يُصَدِّقونَه ، وذا أمرٌ قد دُبِّرَ بِلَيلٍ ، فدَخَلَ الفِرَنْجُ علىٰ إثْرِهِم ، وانْتَشَرُوا ، وهَرَبَ النَّاسُ إلى البَلَدِ ، وقُتِلَ خَلْقٌ من الشُّيُوخِ والوِلْدانِ والنِّسْوانِ ، ونُهِبَ للنَّاسِ ما لا يُحْصَىٰ ، وانْحَصَرَتْ المَدينَةُ العُظْمَىٰ بالخَلْقِ فحاصَرَهُم الفِرَنْجُ شُهوراً ، وقاتَلُوهم أشَدَّ القِتَال ، وعُدِمَ أهلُها الأقْواتَ ، ومَاتَ خَلقٌ كثيرٌ جُوعاً ، ثُمَّ اتَّفَقَ رأيُهُم مع أدْفُونْشَ ـ لَعَنَه الله ـ علىٰ أنْ يسَلِّمُوها ويَخْرُجُوا بأمْتِعَتِهِم كُلِّها ، ففَعَلَ ، ووَفَّىٰ لهُم ووَصَلَهم إلىٰ مَأمَنِهِم في سَنَةِ أربَعٍ وثلاثينَ وسِتِّ مِئَة .

قال الذهبيُّ : ولَمْ يُمَتَّعْ بَعدَها ابنُ هُود ، بَلْ أخَذَهُ اللهُ في سَنَةِ خَمسٍ فكانَتْ دَولَتُه تِسعَةَ أعْوامٍ وتِسعَةَ أشْهرٍ وتِسعَةَ أيّامٍ ، وهَلَكَ بالمريّة جَهَزَ عليه مَنْ غَمَّهُ وهو نائمٌ ، وحُمِلَ إلىٰ مُرسيةَ فدُفِنَ هُناكَ ، ولَمْ يَمُتْ حتىٰ قَوِيَ أمْرُ المُوَحِّدينَ وقَامَ بَعدَهُ مُحمّدُ ابنُ يُوسُفَ بنُ نَصْر بنُ الأحْمَر ، ودَامَ المُلكُ في ذُرِيَّتِه[1] .

قالَ الإمامُ الذهبيُّ وفي سَنَة ثمانٍ وثلاثين وستِّ مئة سَلَّمَ الصَّالحُ إسْماعِيلُ قَلْعَةَ الشَّقِيفِ إلى الفِرَنْجِ ليُنْجِدُوهُ على المِصْريّين فأنْكَرَ عليه ابنُ الحاجِبِ وابنُ عبد السَّلامِ فسَجَنَهُما مُدَّةً[2] .

٢ـ مَنْ خَافَ من الصَّليبيّين فهادَنَهم وأعْطاهُم مالاً وبُلداناً إسْلاميّة :

قال الإمامُ الذهبيُّ في تَرجَمَة السُّلطانِ العَادِل سَيفِ الدِّين : خافَ من الفِرَنْجِ فصَالَحَهم وهادَنَهم وأعْطاهُم مَغَلّ الرَّملَة ولُدَّ ، وسَلَّمَ إليهِم يَافَا ، فقَوِيَتْ نُفوسُهم ، فالأمْرُ لله .

(١) انظر السير : (محمد بن يوسف بن هود) ٢٣/ ٢٠ـ ٢٢ ، وانظر النزهة : ١/١٧١٢ .

(٢) انظر السير : (المستنصر بالله) ٢٣/ ١٥٥ـ ١٦٨ ، وانظر النزهة : ٥/١٧٢٠ .

قال المُوَفَّقُ عبدُ اللَّطيف : كانَ أعْمَقَ إخْوَتِه فِكْراً ، وأطْوَلَهم عُمْراً وأنْظَرَهُم في العَوَاقِبِ ، وأحَبَّهُم للدِّرْهَم ، وكان فيه حِلمٌ وأَنَاةٌ وصَبْرٌ على الشَّدائِدِ ، سَعيدُ الجَدِّ[1] ، عاليَ الكَعْبِ ، مُظَفَّراً ، أكُولاً ، نَهِماً ، يَأكُلُ من الحَلْواءِ السُّكريَّةِ رَطْلاً بالدِّمَشْقيّ وكان كَثيرَ الصَّلاةِ ، ويَصُومُ الخَميسَ ، يُكْثِرُ الصَّدَقَةِ عندَ نُزُولِ الآفاتِ ، وكان قَليلَ المَرَضِ ، لقد أُحْضِرَ إليه أرْبَعُونَ حِمْلاً من البَطِّيخ فكَسَرَ الجَميعَ وبَالَغَ في الأكْلِ فحُمَّ يَوماً وكان كَثيرَ التَّمَتُّعِ بالجَوارِي ، ولا يُدْخِلُ عَلَيْهِنَّ خادِماً إلاَّ دُونَ البُلُوغِ .

نُجِبَ له عِدَّةُ أوْلادٍ سَلْطَنَهُم ، وزَوَّجَ بنَاتَهُ بمُلُوكِ الأطْرافِ[2] .

٣ـ مَنْ اسْتَنْجَدَ بالنَّصارَىٰ ضدَّ جَيْشٍ مُسْلِمٍ ظالِمٍ :

وجاءَ في تَرجمةِ الأميرِ جَوْهَر قائد الجُيوش الرُّوميّ المَغْربيّ ، قال الذهبيُّ : كان جَوْهَرٌ هـٰذا حَسَنَ السِّيرَة في الرَّعايَا ، عاقِلاً أدِيباً شُجاعاً ، مَهيباً ، لَكنَّه علىٰ نِحْلَةِ بَني عُبَيْد التي ظاهِرُها الرَّفْضُ وباطِنُها الانْحِلالُ ، وعُمُومُ جُيُوشِهم بَرْبَرٌ وأهْلُ زعارة وشَرٍّ ، لا سِيَّما مَنْ تَزَنْدَقَ منهُم ، فكانُوا في مَعْنَى الكَفَرَة ، فيَا ما ذَاقَ المُسلِمُونَ منهم من القَتلِ ، والنَّهبِ ، وسَبْي الحَريمِ ، ولا سِيَّما في أوائِلِ دَوْلَتِهم حتىٰ إنَّ أهلَ صُورٍ قامُوا عَلَيْهم وقَتَلُوا فيهم ، فهَرَبُوا حتىٰ إنَّ أهلَ صُورٍ اسْتَنْجَدُوا بنَصارَى الرُّوم فجاؤُوا في المَرَاكِبِ وكان أهلُ صُورٍ قد لَحِقَهُم من المَغَارِبَة من الظُّلْمِ والجُورِ وأخْذِ الحَريمِ من الحَمَّاماتِ والطُّرُقِ أمْرٌ كَبيرٌ[3] .

٤ـ مَنْ اسْتَنْجَدَ بالنَّصارَىٰ خَوفاً مِنْ حَربِ المُسلِمينَ له :

وجاءَ في تَرجَمةِ مُحمّد بن سَعد بنِ مُحمّد بن مَرْدنيش ، قال الذهبيُّ : كان صِهْراً للمَلِكِ المُجاهِدِ الوَرِعِ أبي مُحمّد عبد الله ابنِ عياض فلمَّا تُوفِيَ ابنُ عِياض ، اتَّفَقَ رأيُ

---

(١) الجَدّ : الحظ أو البخت .

(٢) انظر السير : (العادل وبنوه) ٢٢/ ١١٥ـ ١٢٠ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٧١ .

(٣) انظر السير : (جوهر) ١٦/ ٤٦٧ـ ٤٦٨ ، وانظر النزهة : ٣/١٣٠٦ .

أجْنادِه علىٰ تَقْديمِ ابن مَرْدنيش هـٰذا عليهم ، وكان صَغيرَ السِّنِّ شاباً ، لَكنَّه كان مِمَّن يُضْرَبُ بشَجاعَتِه المَثلُ وابْتُلي بجَيشِ عبدِ المُؤمن يُحارِبُونَه ، فاضْطَرَّ إلى الاسْتِعَانَة بالفِرَنْجِ فلمَّا تُوُفِّي الخَليفَةُ عبدُ المُؤمن تَمكَّنَ ابنُ مَرْدنيش ، وقَوِيَ سُلطانُه وجَرَتْ له حُروبٌ وخُطُوبٌ .

ذَكَرَهُ اليَسَعُ في « تاريخِه » وقال : نازَلَتِ الرُّومُ المَرِيَّةَ عندَ عِلمِهم بِمَوتِ ابنِ عِياض ، ولِكَونِ ابنِ مَرْدنيش شَاباً ، لَكنَّه عِندَهُ من الإقْدامِ ما لا يُوجَدُ في أحَدٍ حتىٰ أضَرَّ به في مَواضِعَ شاهَدْناها معه ، والرَّأيُ قبلَ الشَّجاعَةِ ، وإلاَّ فهُو في القُوَّةِ والشَّجاعَة في مَحلٍّ لا يَتمكَّنُ منه أحَدٌ في عَصْرِه ، ما اسْتَتَمَّ خَمسَةَ عَشَرَ عَاماً حتىٰ ظَهَرتْ شَجاعَتُه ، فإنَّ العَدُوَّ نازَلَ إفراغة ، فقَرُبَ فارِسٌ منهُم إلى السُّورِ ، فخَرَجَ مُحمّدٌ ، وأبُوهُ سَعدٌ لا يَعرِفُ ، فالْتَقَيَا علىٰ حافَّةِ النَّهْرِ ، فضَرَبَهُ مُحمّدٌ ألقاهُ مع حِصانِهِ في المَاءِ ، فلمَّا كان الغَدُ طَلَبَ فارِسٌ من الرُّومِ مُبارَزَتَه ، وقال : أيْنَ قاتِلُ فارِسِنا بالأمْسِ ؟ فامْتَنَعَ والِدُه من إخْراجِه له ، فلمَّا كان وَقتُ القَائِلَة وقد نَامَ أبُوهُ رَكِبَ حِصانَه ، وخَرَجَ حتّىٰ وَصَلَ إلىٰ خِيامِ العَدُوِّ ، فقِيلَ للمَلِك : هـٰذا ابنُ سَعد فأحْضَرَهُ مَجْلِسَه ، وأكْرَمَه وقال : ما تُريدُ ؟ قال : مَنَعَنِي أبي من المُبارَزَةِ ، فأيْنَ الذي يُبارِزُ ؟ فقال : لا تَعْصِ أبَاكَ فقالَ : لا بُدَّ فحَضَرَ المُبارِزُ فالْتَقَيَا ، فضَرَبَ العِلْجُ مُحمَّداً في طارِقَتِه ، وضَرَبَ هو العِلْجَ ألْقاهُ ثمَّ أوْمَأَ إليه بالرُّمْحِ ليَقْتُلَه ، فحالَتْ الرُّومُ بينَهُما ، وأعْطاهُ المَلِكُ جائِزَةً[1] .

وقال الذهبيُّ : كان السُّلطانُ المَلِكُ الصَّالِحُ عِمادُ الدِّين أبُو الخيس إسْماعِيلُ ابنُ المَلِكِ العادِل قَليلَ البَخْتِ ، بَطَلاً ، شُجاعاً ، مَهِيباً ، شَديدَ البَطْشِ ، مَليحَ الشَّكلِ ، كان في خِدمَة أخيه الأشْرَف ، فلمَّا ماتَ الأشْرَفُ تَوثَّبَ علىٰ دِمَشْقَ ، وتَملَّكَ ، فجَاءَ أخُوهُ السُّلطانُ المَلِكُ الكامل ، وحَاصَرَه ، وأخَذَ منه دِمَشْقَ ، ورَدَّهُ إلىٰ بَعْلَبَك ، فلمَّا ماتَ الكاملُ وتَمَلَّكَ الجَوادُ ثمّ الصَّالِحُ نَجْمُ الدين ، وسارَ نَجْمُ الدين يَقْصِدُ مِصْرَ ، هَجَمَ الصَّالِحُ إسماعيلُ بإعانَةِ صاحِبِ حِمْصَ المُجَاهد فتَملَّكَ دِمَشْقَ ثانياً في سَنَةِ سَبْعِ

---

(١) انظر السير : (محمد بن سعد) ٢٩/ ٢٤٠ـ٢٤٢ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٤٨ .

وثلاثين ، فبَقِيَ بها إلىٰ سَنَةِ اثْنَتَينِ وأرْبَعِينَ وحَارَبَه الصَّالِحُ بالخُوارِزْمِيّة ، واسْتَعانَ هو بالفِرَنْجِ ، وبَذَلَ لهم الشَّقِيفَ وغَيرَها فمُقِتَ لذلك وكان فيه جُورٌ واسْتَقصَىٰ على النَّاسِ الرَّفيعَ الجيليَّ ، وتَضَرَّرَ الرَّعِيَّةُ بدمَشْقَ في حِصارِ الخُوارزميّة حتىٰ أُبيعَ الخُبزُ رِطلٌ بستة دَراهم ، والجُبْنُ واللَّحمُ بِنِسْبَةِ ذلك ، وأكَلُوا المَيْتَةَ ووَقَعَ فيهم وَباءٌ شَديدٌ[١] .

٥ـ مَنْ حَاربَ مع النَّصارَىٰ ضدَّ المُسلمينَ يَأساً من أحْواله :

قال الذهبيُّ في تَرجَمَة السُّلطانِ المَلكِ الجَوَاد مُظَفَّر الدين يُونُس ابن مَمْدُود : كان جَواداً مُبَذِّراً للخزائِنِ ، قَليلَ الحَزْمِ ، وفيه مَحَبَّةٌ للصَّالحين ، والْتَفَّ حولَه ظَلَمَةٌ ثم تَزَلْزَلَ أمْرُهُ ، فكَاتَبَ المَلكَ الصَّالِحَ أيُّوبَ بنَ الكامل صَاحِبَ سِنْجار وغَيْرَها ، فبَادَرَ إليه وأعْطَاهُ دِمَشْقَ وعَوَّضَه بسِنْجارَ وعَانَةَ فخابَ البَيعُ ، فذَهَبَ إلى الجَزيرَةِ ، فلَمْ يَتمَّ له أمرٌ ، وأُخِذَتْ منه سِنْجارُ ، وبَقِيَ في عَانَةَ حَزيناً ، فتَرَكَها ومَضَىٰ إلىٰ بَغْدادَ فبَاعَ عَانَةَ للمُسْتَنصر بمالٍ ، ثمّ قَدِمَ على المَلكِ الصَّالح أيُّوبَ فما أقْبَلَ عليه ، وهَمَّ باعْتِقالِه ففَرَّ إلى الكَرْكِ ، فقَبَضَ عليه النَّاصِرُ ، ثمَّ هَرَبَ من مَخالِيبه ، فقَدِمَ علىٰ صاحِبِ دِمَشْقَ يومَئذٍ الصَّالح إسْماعِيلَ عَمِّه ، فمَا بشَّرَ به ، وتَراجَمَتْهُ الأحْوالُ ، فقَصَدَ الفِرَنْجيَّ مَلكَ بَيْرُوتَ ، فأكْرَمُوهُ وحَضَرَ مَعهُم وَقْعَةَ قلنسوةَ من عَملِ نابلس قَتَلُوا بها ألْفَ مُسلمٍ ، نَعُوذُ باللهِ من المَكْرِ والخِزْيِ ، ثم تَحَيَّلَ عَمُّه الصَّالحُ فسَجَنَه بعزتا ، ثم إنَّ الفِرَنْجَ ألَحُّوا على الصَّالحِ ، وكان مُصافِياً لهم ، في إطْلاقِ الجَوَادِ ، وقالوا : لا بُدَّ لنَا مِنهُ ، وكانت أمُّه إفْرَنْجيّة فيما قِيلَ ، فأظْهَرَ لهم أنَّه قد تُوُفيَ فقِيلَ : خَنَقَهُ في سَنَةِ إحْدَىٰ وأرْبعين وستِّ مِئَة ، وحُمِلَ فدُفِنَ عند المُعظَّمِ بسَفْحِ قاسيُونَ ، سَامَحَه اللهُ تَعالَىٰ[٢] .

٦ـ مُهادَنةُ الكامل للصَّليبيِّين وإعْطاؤُهم بَيتَ المَقْدس :

قال الذهبيُّ في ترجمة المستنصر بالله : وفي سَنَةِ خَمسٍ وعِشرينَ وستمائة اسْتَوْلَى الفِرَنجُ علىٰ صَيْدا وقَويَتْ نُفوسُهم وجاءَهم مَلكُ الألْمَانِ الأنبرُور وقد اسْتَولَىٰ علىٰ

---

(١) انظر السير : (الصالح) ٢٢/ ١٣٤ـ ١٣٧ ، وانظر النزهة : ١٦٧٦/ ٤ .

(٢) انظر السير : (الجواد) ٢٣/ ١٨٤ـ ١٨٥ ، وانظر النزهة : ١٧٢٦/ ٢ .

قُبرُصَ فكاتَبَه الكاملُ ليُعينَه على النَّاصرِ ، وخافَتْهُ مُلوكُ السَّواحِلِ والمُسلِمونَ فكاتَبَ مُلوكُ الفِرَنْجِ الكاملَ بأنَّهم يُمْسِكُونَ الأنبرور فبَعَثَ وأوْقَفَهم علىٰ عَزْمِهم فعَرَفَها الكاملُ[1] وأجابَه إلىٰ هَواهُ وتَرَدَّدت المُراسَلاتُ وخَضَعَ الأنبرور وقالَ : أنا عَتيقُكَ وإنْ أنا رَجَعتُ خائِباً انْكَسَرَتْ حُرْمَتي ، وهَـٰذِهِ القُدْسُ أصْلُ دِينِنَا وهي خَرابَةٌ ولا دَخْلَ لهَا ، فتَصَدَّقْ عليَّ بقَصَبَةِ البَلدِ وأنا أحْمِلُ مَحْصُولَها إلىٰ خَزَانَتِكَ ، فَلانَ لِذلك[2] .

قال الذهبيُّ : وفي سَنة ستٍّ وعشرين وستمائة سَلَّمَ الكاملُ القُدسَ إلى الفِرَنْجِ فَواغَوْثاهُ بالله[3] . وأتْبَعَ ذلكَ بحِصَارِ دِمَشْقَ وأذِيَّةِ الرَّعيَّةِ ، وجَرَتْ بينَهم وَقعاتٌ منها وَقْعةٌ قُتِلَ فيها خَلقٌ من الفَريقَينِ ، وأُحْرِقَتْ الحَواضِرُ وزَحَفُوا علىٰ دِمَشْقَ مِرارا ، واشْتدَّ الغَلاءُ ، ودَامَ البَلاءُ أشْهُراً ثمّ قَنِعَ النَّاصرُ بالكَرْكِ ونابلسَ والغُورَ ، وسَلَّمَ الكاملُ دِمَشْقَ للأشْرَفِ وعُوِّضَ عنها بحَرَّانَ والرَّقَّةَ ورأسِ عَين ، ثمّ حاصَرُوا الأمْجَدَ ببَعْلَبَكْ ، ورَمَوْها بالمَجانيقَ وأُخِذَتْ ، فتَحوَّلَ الأمْجَدُ إلىٰ دَارِه بدِمَشْقَ .

وفي سَنة ثلاثينَ : حَاصَرَ الكاملُ آمدَ فأخَذَها من المَلكِ المَسْعُودِ الأتَابكيّ وكان فاسِقاً يأخُذُ بَناتِ النَّاسِ قَهْراً[4] .

٧ـ الاحتفالُ بأعْيادِهم :

وجَاءَ في تَرجَمةِ المَلكِ الرَّحيمِ بَدْرِ الدِّينِ الأتَابكيّ ، قال الذهبيُّ : وكان يَحْتفِلُ لعيدِ الشَّعانينَ لبَقايَا فيه من شِعارِ أهْلِه ، فيَمُدُّ سِماطاً عَظيماً إلى الغايَة ، ويُحْضِرُ المَغَاني ، وفي غُضُونِ ذلك أوَاني الخُمورِ ، فيَفرَحُ ويَنْثُرُ الذَّهبَ من القَلعَةِ ،

---

(١) العبارة ملبسة بسبب الاختصار المخل وسرعة الصياغة ، والأصل في « تاريخ الإسلام » : (فكاتبوا الكامل : إذا حصل مصاف نمسك الأنبرور فسيّر إلى الأنبرور كتبهم ، وأوقفه عليها فعرف الأنبرور ذلك للكامل وأجابه إلىٰ كل ما يريد) .

(٢) انظر السير : (المستنصر بالله) ٢٣/ ١٥٥ـ ١٦٨ ، وانظر النزهة : ٣/١٧١٩ .

(٣) قال في « تاريخ الإسلام » : (وكانت هـٰذه من الوصمات التي دخلت على المسلمين) .

(٤) انظر السير : (المستنصر بالله) ٢٣/ ١٥٥ـ ١٦٨ ، وانظر النزهة : ١/١٧٢٠ .

ويَتَخاطَفَهُ الرِّجالُ ، فمُقِتَ لإحْياءِ شِعَارِ النَّصارَىٰ ، وقِيلَ فيه[1] :

يُعَظِّــمُ أعْيَــادَ النَّصَــارَىٰ مَحَبَّــةً ... ويَـزْعُـمُ أَنَّ اللهَ عيسَـى ابـنُ مَـرْيَـمِ
إذا نَبَّهَتْـــهُ نَخْـــوَةٌ أَرْيَحِيَّـــةٌ ... إلـى المَجْـدِ قَـالَـتْ أَرْمِنِيَّتُـهُ نَـمِ

* * *

(١) انظر السير : (الملك الرحيم) ٢٣/ ٣٥٦ـ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ١/١٧٤٠

البِدْعَة

١ـ ضابط لبعض صفات المبتدعة :

عن أبي قِلابَة ، قال : إذا حَدَّثتَ الرَّجُلَ بالسُّنَّةِ ، فقالَ : دَعْنا من هٰذا ، وهَاتِ كِتابَ اللهِ ، فاعْلَمْ أنَّهُ ضَالٌ[١] .

قال الذهبيُّ : وإذا رَأيتَ المُتكَلِّمَ المُبْتَدِعَ يقُولُ : دَعْنا من الكتاب والأحَاديثِ الآحادِ ، وهَاتِ العَقْلَ فاعْلَمْ أنَّه أبو جَهْل ، وإذا رَأيتَ السَّالِكَ التَّوحيديَّ يَقولُ : دَعْنا من النَّقْلِ ومن العقْلِ ، وهَاتِ الذَّوْقَ والوَجْدَ ، فاعْلَمْ أنَّه إبْليسٌ قد ظَهَرَ بصُورَةِ بَشَر ، أو قد حَلَّ فيه ، فإنْ جَبُنْتَ منه ، فاهْرُبْ ، وإلاَّ فاصْرَعْهُ وابْرُكْ علىٰ صَدرِهِ واقْرَأ عليه آيَةَ الكُرْسيّ واخْنُقْهُ[٢] .

(أ) تعريفُ البدعة المَذْمومَة :

قال الشافِعيُّ : المُحْدَثاتُ مِن الأمُورِ ضَرْبان : ما أُحْدِثَ يُخالِفُ كِتاباً أو سُنَّة أو أَثَراً أو إجْماعاً ، فهٰذه البِدْعَةُ ضَلالَةٌ ، وما أُحْدِثَ من الخَيْرِ لا خِلافَ فيه لواحِدٍ من هٰذا ، فهَٰذه مُحْدَثَةٌ غيرُ مَذْمومَة ، قد قالَ عُمَرُ في قِيامِ رَمَضَانَ : نِعْمَتِ البِدْعةُ هٰذه ، يَعني أنَّها مُحْدَثَةٌ لَمْ تَكُنْ ، وإذ كانَت فلَيْسَ فيها رَدٌّ لما مَضىٰ[٣] .

(ب) الْتِمَاسُ الذهبيّ العُذرَ لمَنْ تَلَبَّس ببعض البِدَع وهو حَسَنُ النيّة :

قال الذهبيُّ في تَرْجَمَة قَتَادَةَ بن دعامة قُدوة المُفَسِّرين : هُوَ حُجَّةٌ بالإجْماعِ إذا بَيَّنَ السَّماعَ ، فإنَّه مُدَلِّسٌ مَعْروفٌ بذَلكَ ، وكان يَرَى القَدَرَ ، نَسْألُ اللهَ العَفْوَ ، ومع هٰذا فما تَوَقَّفَ أحَدٌ في صِدْقِهِ ، وعَدالَتِهِ ، وحِفْظِهِ ، ولَعَلَّ اللهَ يَعْذُرُ أمْثالَه مِمَّن تَلَبَّسَ ببِدْعَة

---

(١) انظر السير : (أبو قلابة) ٤/٤٦٨ـ ٤٧٥ ، وانظر النزهة : ٣/٥٣٤ .

(٢) انظر السير : (أبو قلابة) ٤/٤٦٨ـ ٤٧٥ ، وانظر النزهة : ٤/٥٣٤ .

(٣) انظر السير : (الشافعي) ١٠/ ٥ـ ٩٩ ، وانظر النزهة : ٢/٨٥١ .

يُرِيدُ بها تَعْظيمَ البَارِي وتَنْزيهَه ، وبَذَلَ وُسْعَه ، والله حَكَمٌ عَدْلٌ لَطيفٌ بعِبادِه ، ولا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ ، ثُمَّ إنَّ الكَبيرَ من أَئِمَّةِ العِلْم إذا كَثُرَ صَوابُه ، وعُلِمَ تَحَرِّيهِ للحَقِّ ، واتَّسَعَ عِلمُه ، وظَهَرَ ذَكاؤُهُ ، وعُرِفَ صَلاحُه ووَرَعُه واتِّباعُه ، يُغْفَرُ لَه زَلَلُه ، ولا نُضَلِّلُهُ ونَطْرَحُه ، ونَنْسَىٰ مَحاسِنَه ، نَعَم ولا نَقْتَدي به في بِدْعَتِه وخَطَئِه ونَرْجُو له التَّوبَةَ من ذلك[1] .

قال أبو الفَرَج ابنُ الجَوْزيّ : رَأيتُ العَلاَّمَةَ أبا عبدِ الله العُثْمانيّ يَعِظُ بجَامِعِ القَصْرِ ، وكان غالياً في مَذهَبِ الأشْعَرِيِّ .

ماتَ في سَنة سَبعٍ وعِشرينَ وخَمسِ مِئَةَ[2] .

قال الذهبيُّ : غُلاةُ المُعتَزِلَة ، وغُلاةُ الشِّيعَةِ ، وغُلاةُ الحَنابِلَة ، وغُلاةُ الأشَاعِرَة ، وغُلاةُ المُرْجِئَةِ ، وغُلاةُ الجهْميَّة ، وغُلاةُ الكرّاميّة ، قد ماجَتْ بهم الدُّنيا ، وكَثُرُوا ، وفيهم أذْكيَاءُ وعُبَّادُ وعُلَماءُ ، نَسْأَلُ اللهَ العَفْوَ والمَغْفِرَةَ لأهْلِ التَّوحِيد ، ونَبْرَأُ إلى الله من الهَوَىٰ والبِدَعِ ونُحِبُّ السُّنَّةَ وأهْلَها ، ونُحِبُّ العَالِمَ علىٰ ما فيه من الاتِّباع والصِّفاتِ الحَميدَة ، ولا نُحِبُّ ما ابْتُدِعَ فيه بتأويلٍ سائغ ، وإنَّما العِبرَةُ بكَثْرَةِ المَحاسِن[3] .

٢ـ الاتِّباعُ يَنفي الابْتِداع :

يَقُولُ أبُو عُثْمانَ الحيْريّ : مَنْ أمَّرَ السُّنَّةَ علىٰ نَفْسه قَوْلاً وفِعْلاً ، نَطَقَ بالحِكْمَةِ ، ومَنْ أمَّرَ الهَوَىٰ علىٰ نَفْسه نطَقَ بالبِدْعَة ، قالَ تعالَىٰ : ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُواْ﴾[4] .

قال الذهبيُّ : وقالَ تعالَىٰ : ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[5] ،[6] .

---

(١) انظر السير : (قَتادة) ٥/ ٢٦٩ـ٢٨٣ ، وانظر النزهة : ٤/٦٠١ .
(٢) انظر السير : (العثماني) ٢٠/ ٤٤ـ٤٦ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٢٩ .
(٣) انظر السير : (العثماني) ٢٠/ ٤٤ـ٤٦ ، وانظر النزهة : ٣/١٥٢٩ .
(٤) سورة النور ، الآية : ٥٤ .
(٥) سورة ص ، الآية ٢٦ .
(٦) انظر السير : (أبو عثمان الحيري) ١٤/ ٦٢ـ٦٦ ، وانظر النزهة : ٢/١١٣١ .

٣ـ وُجُوبُ اتِّباعِ ما جاءَ به النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم :

قال مُطَرِّفُ بنُ عبدِ الله ، سَمعتُ مَالِكاً يَقُولُ : سَنَّ رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم ووُلاةُ الأمْرِ بَعدَهُ سُنَناً ، الأخْذُ بها اتِّباعٌ لِكِتابِ الله ، واسْتِكْمالٌ بطَاعَةِ الله ، وقُوةٌ علىٰ دِينِ الله ، لَيسَ لأحَدٍ تَغْييرُها ، ولا تَبْديلُها ، ولا النَّظَرُ في شيءٍ خالَفَها ، مَنْ اهْتَدَىٰ بها ، فهُوَ مُهْتَدٍ ، ومَنْ اسْتَنْصَرَ بها ، فهُوَ مَنْصُورٌ ، ومَنْ تَرَكَها ، اتَّبَعَ غَيرَ سَبيلِ المُؤمِنينَ ، ووَلاَّهُ اللهُ ما تَوَلَّىٰ ، وأصْلاهُ جَهَنَّمَ وسَاءَتْ مَصِيراً[١] .

٤ـ التَّحْذيرُ من تَرْك اتِّباع ما جاءَ به النبيُّ صلى الله عليه وسلم والاسْتماع إلى الجَدَلِ والآراء :

قال مَالكٌ : أكُلَّمَا جاءَنا رَجُلٌ أجْدَلُ من رَجُلٍ تَرَكْنَا ما نَزَلَ به جِبْريلُ علىٰ مُحمَّدٍ صلى الله عليه وسلم لِجَدَلِه ؟!![٢] .

٥ـ زَجْرُ أهلِ البِدَعِ والأهْواءِ ومَنْعهم من الكلام :

ذَكَرَ ابنُ أبي الدُّنيا أنَّ المَهْديَّ الخَليفَة العبَّاسيّ كَتَبَ إلى الأمْصارِ يَزْجُرُ أنْ يَتكلَّمَ أحدٌ من أهلِ الأهْواءِ في شيءٍ منها[٣] .

وعن يُوسُفَ الصَّائغَ قال : رَفَعَ أهلُ البِدَعِ رُؤوسَهم وأخَذُوا في الجَدَلِ فأمَرَ بِمَنْعِ النَّاسِ من الكَلام ، وأنْ لا يُخاضَ فيه[٤] .

٦ـ الحَثُّ على البُعد عنهم وتَجَنُّبِهم حتّىٰ لا يُضِلُّوا غيرَهم :

رَوَىٰ عَمْرُو بنُ مالك عن أبي الجَوْزاء ، قالَ : لأنْ أُجالِسَ الخَنازِيرَ أحَبُّ إليَّ مِنْ أنْ أُجالِسَ أحَداً مِنْ أهْلِ الأهْوَاءِ[٥] .

---

(١) انظر السير : (مالك الإمام) ٨/ ٤٨ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٧٣٤/ ٣ .
(٢) انظر السير : (مالك الإمام) ٨/ ٤٨ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٧٣٤/ ٤ .
(٣) انظر السير : (المَهديّ) ٧/ ٤٠٠ـ ٤٠٣ ، وانظر النزهة : ٧١١/ ١ .
(٤) انظر السير : (المَهديّ) ٧/ ٤٠٠ـ ٤٠٣ ، وانظر النزهة : ٧١١/ ٢ .
(٥) انظر السير : (أبو الجَوزاء) ٤/ ٣٧١ـ ٣٧٢ ، وانظر النزهة : ٥١٢/ ٥ .

وعن أبي قِلابَة ، قال : إذا حَدَّثتَ الرَّجُلَ بالسُّنَّةِ ، فقالَ : دَعْنا من هـٰذا ، وهَاتِ كِتابَ اللهِ ، فاعْلَمْ أنَّهُ ضَالٌّ[1] .

وقال عبدُ الصَّمَد مَرْدوَيه : سَمعتُ الفُضَيْلَ يَقُولُ : مَنْ أَحَبَّ صَاحبَ بِدْعةٍ ، أحْبَطَ اللهُ عَمَلَه وأخْرَجَ نُورَ الإسْلامِ من قَلبه ، لا يَرتَفِعُ لِصاحِبِ بِدعَةٍ إلى اللهِ عَمَلٌ نَظَرُ المُؤمِنِ إلى المُؤمِنِ يَجْلُو القَلبَ ، ونَظَرُ الرجُلِ إلىٰ صاحبِ البِدعَة يُورِثُ العَمَىٰ ، مَنْ جَلَسَ مع صاحِبِ بِدْعَةٍ لَمْ يُعْطَ الحِكْمَةَ[2] .

٧ـ التَّحْذيرُ من إلْقاءِ الشُّبَه على العامّة :

عن سُفْيانَ الثّوريّ : مَنْ سَمِعَ بِبِدْعَةٍ فلا يَحْكِهَا لجُلَسَائِه ، لا يُلْقِهَا في قُلُوبِهم[3] .

قال الذهبيُّ : أكْثرُ أئِمَّة السَّلَفِ علىٰ هـٰذا التَّحْذيرِ ، يَرَوْنَ أنَّ القُلوبَ ضَعيفَةٌ والشُّبَهَ خَطَّافَةٌ[4] .

٨ـ مُناقَشَة اعتقادات بعضِ الفِرَق المُبتدِعَة :

قال أحمدُ بنُ حَنْبَل : أخبَرَني رَجلٌ من أصْحابِ الحَديثِ أنَّ يَحْيَىٰ بنَ صالحٍ قال : لَوْ تَرَكَ أصْحابُ الحَديثِ عَشْرَةَ أحَادِيثَ ـ يَعْني هـٰذه التي في الرُّؤْية ـ ثم قال أحمدُ : كأنَّه نَزَعَ إلىٰ رَأيِ جهْم .

قال الذهبيُّ : والمُعْتَزِلَةُ تقُولُ : لَوْ أنَّ المُحَدِّثينَ تَرَكُوا ألْفَ حَديثٍ في الصِّفاتِ والأسْماءِ والرُّؤيَةِ ، والنُّزولِ ، لأصابُوا والقَدَريَّةُ تقُولُ : لَوْ أنَّهم تَرَكوا سَبْعينَ حَديثاً في إثْباتِ القَدَرِ .

والرَّافِضَةُ تقُولُ : لَوْ أنَّ الجُمهُورَ تَرَكوا من الأحَاديثِ التي يَدَّعُونَ صِحَّتَها ألفَ

---

(١) انظر السير : (أبو قلابة) ٤/٤٦٨ـ٤٧٥ ، وانظر النزهة : ٣/٥٣٤ .
(٢) انظر السير : (الفُضيل بن عياض) ٨/ ٤٢١ـ٤٤٢ ، وانظر النزهة : ٨/٧٧٧ .
(٣) انظر السير : (سُفيان الثوريّ) ٧/ ٢٢٩ـ٢٧٩ ، وانظر النزهة : ١/٦٩٨ .
(٤) انظر السير : (سُفيان الثوريّ) ٧/ ٢٢٩ـ٢٧٩ ، وانظر النزهة : ٢/٦٩٨ .

حَديثٍ ، لأصابوا ، وكَثيرٌ من ذَوي الرَّأيِ يَرُدُّونَ أحاديثَ شَافَهَ بها الحَافِظُ المُفْتِي المُجْتَهِدُ أبو هُرَيْرَةَ رسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم ، ويَزْعُمونَ أنَّه ما كانَ فَقيهاً ، ويَأْتُونَنا بأحاديثَ ساقِطَةٍ ، أو لا يُعْرَفُ لها إسْنادٌ أصْلاً مُحْتَجِّينَ بها .

ثم قال الذهبيُّ : ولِلكُلِّ مَوْقِفٌ بين يَدَي اللهِ تَعالَىٰ : يا سُبْحانَ الله!! أحَادِيثُ رُؤيَةِ اللهِ في الآخِرَةِ مُتَواتِرَةٌ ، والقُرآنُ مُصَدِّقٌ لها ، فأيْنَ الإنْصافُ ؟!![1] .

٩ـ كيْفيّةُ الرَّدِّ علىٰ بَعضِ أهلِ البِدَعِ :

عن أبي ثَوْرٍ قالَ : سَمعتُ الشَّافعيَّ يقُولُ : كان مَالكٌ إذا جاءَهُ بَعْضُ أهْلِ الأهْواءِ قال : إنِّي علىٰ بَيِّنةٍ من دينِي ، وأمَّا أنْتَ ، فشَاكٌّ ، اذْهبْ إلىٰ شَاكٍّ مِثْلِك فخاصِمْهُ[2] .

١٠ـ مَنْ كَفَّرَ ببِدْعَة فلَيسَ هو كالكَافِرِ الأصْليّ :

قال الإمامُ الذهبيُّ : مَنْ كُفِّرَ ببدْعَةٍ وإنْ جَلَّتْ ، لَيسَ هو مثلُ الكَافِرِ الأصْليِّ ، ولا اليَهُوديِّ والمَجُوسيِّ ، أبَى اللهُ أنْ يَجْعَلَ مَنْ آمَنَ باللهِ ورسُولهِ واليَومِ الآخِرِ ، وصَامَ وصَلَّىٰ وحَجَّ وزَكَّىٰ وإنِ ارْتَكَبَ العَظائِمَ وضَلَّ وابْتَدَعَ ، كمَنْ عَانَدَ الرسُولَ ، وعَبَدَ الوَثَنَ ، ونبَذَ الشَّرائِعَ وكَفَرَ ، ولكنْ نَبْرأُ إلى الله من البِدَعِ وأهْلِها[3] .

١١ـ الإنْكارُ على المُبْتَدِعَة يكُونُ بقَدَرٍ حتىٰ لا يُجاوزَ المُنْكِرُ الحَدَّ الشرعي في إنْكارِه :

جاءَ في تَرجمَةِ يَحْيَىٰ بنِ عَمَّار المُحَدِّث الواعِظ قال الذهبيُّ : كان مُتَحَرِّقاً على المُبْتدِعَة والجَهْميّة بحيثُ يَؤولُ به ذلك إلىٰ تَجاوُز طَريقة السَّلَف ، وقد جَعلَ الله لكلِّ شيءٍ قَدراً ، إلاَّ أنَّه كان له جَلالَةٌ عَجيبَة بِهَراةَ ، وأتْباعٌ وأنْصارٌ .

وكان فَصيحاً مُفَوَّهاً حَسَنَ المَوعِظَة ، رَأسا في التَّفْسير ، أكْمَلَ التَّفْسيرَ على المِنْبَرِ

---

(١) انظر السير : (الوحاظيّ) ١٠/ ٤٥٣ـ٤٥٦ ، وانظر النزهة : ٦/٨٨٢ .

(٢) انظر السير : (مالك بن أنس) ٨/ ٤٨ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٥/٧٣٤ .

(٣) انظر السير : (المَريسيّ) ١٠/ ١٩٩ـ٢٠٢ ، وانظر النزهة : ٥/٨٦٧ .

في سَنة اثْنتَين وتسعين وثلاثِ مِئَة ، ثم افْتَتَح خَتْمةً أخرىٰ فماتَ وهو يُفسِّرُ في سُورة القِيامَة ، وعاشَ تسعينَ سنةً .

قال أبو إسْماعيلَ الأنْصاريُّ : كان يَحْيىٰ بنُ عَمَّار مَلكاً في زِيِّ عالِمٍ ، كان له مُحِبٌّ مُتَمَوِّلٌ يَحملُ إليه كُلَّ عامٍ ألفَ دينارٍ هَرَوِيّة ، فلمَّا ماتَ يَحْيىٰ ، وجَدُوا له أرْبَعينَ بَدْرَةً لمْ يَفُكَّ خَتْمَها[1] .

١٢ـ خَوفُ الصَّالحين من الإقْدَام علىٰ أمُورٍ مَخَافَةَ الابْتِداع :

عن عُبَيدِ الله بنِ واصِل ، سَمعتُ أحمَدَ السُّرْماريَّ يَقولُ ، وأخْرَجَ سَيفَه ، فقالَ : أعْلَمُ يَقينا أنِّي قَتَلْتُ به ألفَ تُرْكيٍّ ، وإنْ عِشْتُ قَتلتُ به ألفاً أُخْرىٰ ، ولَولا خَوْفي أنْ يَكُونَ بِدعَةً لأمَرْتُ أنْ يُدْفَنَ مَعي .

وعن مَحمودِ بنِ سَهْل الكاتب ، قال : كانوا في بَعضِ الحُروبِ يُحاصِرونَ مَكاناً ، ورَئيسُ العَدوِّ قاعدٌ علىٰ صُفَّة فرَمَى السُّرْماريُّ سَهْماً ، فغَرَزَهُ في الصُّفَّة ، فأوْمَأ الرَّئيسُ لِيَنْزِعَهُ ، فرَماهُ بسَهْمٍ آخر خاطَ يَدَه ، فتَطاوَلَ الكافِرُ لِيَنْزِعَهُ من يَدِه ، فرَماهُ بسَهْمٍ ثالثٍ في نَحْرِه ، فانْهَزَمَ العَدوُّ ، وكان الفَتْحُ .

قال الذهبيُّ : أخْبارُ هـٰذا الغَازي تَسُرُّ قَلبَ المُسلِم .

تُوفِّي في سَنة اثنتَينِ وأرْبَعينَ ومِئَتين ، رَحِمَه اللهُ تَعالَىٰ ، فإنَّه كان مع فَرْطِ شَجاعَتِه من العُلَماءِ العامِلينَ العُبَّاد[2] .

* * *

---

(١) انظر السير : (يَحيى بن عمّار) ١٧/ ٤٨١ـ ٤٨٣ ، وانظر النزهة : ٢/١٣٥١ .

(٢) انظر السير : (أحمد بن إسحاق) ١٣/ ٣٧ـ ٤٠ ، وانظر النزهة : ١/١٠٥٠ .

التَّكفِير

١ـ تكفيرُ المُسلمِ أمرٌ عَظيم :

عن العَلاءِ بنِ زِيادٍ ، قال : ما يَضُرُّكَ شَهدْتَ علىٰ مُسْلمٍ بكُفْرٍ أو قَتَلْتَه[١] .

قال الذهبيُّ في تَرجَمَة إمام المُتكلِّمين عليُّ بنُ إسْماعيلَ الأشْعَريّ : رَأيتُ للأشْعَريِّ كَلمَةً أعْجَبَتْني وهي ثابِتةٌ رَواها البَيْهَقيُّ ، سَمعتُ أبا حازِمِ العَبْدَويَّ ، سَمعتُ زاهِرَ بنَ أحمَدَ السَّرْخَسيَّ يَقولُ : لمَّا قَرُبَ حُضُورُ أجَلِ أبي الحَسَنِ الأشْعريّ في دَاري ببَغْدادَ ، دَعاني فأتَيْتُه ، فقال : اشْهدْ عليَّ أنِّي لا أُكفِّرُ أحَداً من أهْلِ القِبْلَة ، لأنَّ الكُلَّ يُشيرُونَ إلىٰ مَعْبُودٍ واحدٍ ، وإنَّمَا هـٰذا كُلُّهُ اخْتلافُ العِبارات[٢] .

قال الذهبيُّ : وبنَحوِ هـٰذا أَدين ، وكذا كان شَيخُنا ابنُ تَيْميَة في أواخِرِ أيّامه ، يقولُ أنا لا أُكَفِّرُ أحَداً من الأُمَّة ، ويقولُ : قال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم : « لا يُحَافِظُ عَلى الوُضُوءِ إلاَّ مُؤمِنٌ » فمَنْ لازَمَ الصَّلَواتِ بوُضُوءٍ فهو مُسْلمٌ .

وقد أَلَّفَ الأهْوَازيُّ[٣] . جُزْءاً في مَثالِبِ ابنِ أبي بِشْر ، فيه أكاذيبٌ وجَمَعَ أبو القاسِمِ في مَنَاقِبة فَوائدَ بَعضُها أيْضاً غَيرُ صَحيحٍ ، وله المُناظَرَةُ المَشْهورَة مع الجُبَّائيّ في قَولِهِم : يَجبُ على الله أنْ يَفْعَلَ الأصْلَحَ .

وكان فيه دُعابَةٌ ومَزْحٌ كَثيرٌ وأَلَّفَ كُتُباً كَثيرَةً ، وكان يَقْنَعُ باليَسيرِ ، وله بَعضُ قَريةٍ من وَقْفِ جَدِّهم الأميرُ بِلالُ بنُ أبي بُرْدَة[٤] .

---

(١) انظر السير : (العلاء بن زياد) ٤/ ٢٠٢ـ ٢٠٦ ، وانظر النزهة : ٢/٤٨٧ .

(٢) انظر السير : (الأشعريّ) ١٥/ ٨٥ـ ٩٠ ، وانظر النزهة : ٤/١١٨٤ .

(٣) هو الحسن بن علي بن إبراهيم أبو علي الأهوازي ، مقرىء الشام في عصره ، أصله من الأهواز ، استوطن دمشق وتُوفي بها سنة ٤٤٦ .

(٤) انظر السير : (الأشعريّ) ١٥/ ٨٥ـ ٩٠ ، وانظر النزهة : ٥/١١٨٤ .

٢ـ ضَبطُ الذهبيِّ غُلوَّ بَعضِ السَّلفِ في التَّكْفير :

قال الحاكمُ : سَمعتُ مُحمّدَ بنَ صالِح ابن هَانىء ، سَمعتُ ابنَ خُزَيْمَةَ يقُولُ : مَنْ لَمْ يُقِرّ بأنَّ اللهَ علىٰ عَرشِهِ قد استَوَىٰ فَوقَ سَبعِ سَماواتِهِ فهُو كافِرٌ حَلالُ الدَّمِ ، وكان مَالُهُ فَيْئاً .

قال الذهبيُّ : مَنْ أقَرَّ بذلكَ تَصْديقاً لكتابِ الله ، ولأحَاديثِ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ، وآمَنَ به مُفَوِّضاً مَعْنَاه إلى اللهِ ورسُوله ، ولَمْ يَخُضْ في التَّأويلِ ولا عمَّق ، فهو المُسلمُ المُتبعُ ، ومَنْ أنْكَرَ ذلكَ ، فلَمْ يَدْرِ بثُبوتِ ذلكَ في الكتابِ والسُّنَّة فهو مُقَصِّرٌ ، واللهُ يَعفُو عَنه ، إذْ لَمْ يُوجِبْ اللهُ علىٰ كلِّ مُسلمٍ حِفْظَ ما وَرَدَ في ذلكَ ، ومَنْ أنْكَرَ ذلكَ بعدَ العِلم ، وقَفَا غَيرَ سَبيلِ السَّلَف الصَّالح ، وتَمَعْقَلَ على النَّصِّ ، فأمْرُهُ إلى الله ، نَعُوذُ باللهِ من الضَّلالِ والهَوَىٰ .

وكَلامُ ابنُ خُزَيْمَةَ هـٰذا ـ وإنْ كانَ حَقاً ـ فهُوَ فَجٌّ ، لا تَحْتَمله نُفوسُ كثيرٍ من مُتأخِّري العُلماءِ .

ولابنِ خُزَيْمَةَ عَظَمَةٌ في النُّفوسِ ، وجَلالَةٌ في القُلوبِ لِعلْمِه ودينِه واتِّباعِه السُّنَّة[1] .

وقال أحمَدُ بنُ مُحمّد الخفّاف ، حدَّثَنا أبو العبَّاسِ السَّرَّاج إمْلاءً قال : مَنْ لَمْ يُقِرَّ بأنَّ اللهَ تعالَىٰ يَعْجَبُ ، ويَضْحَكُ ، ويَنْزِلُ كلَّ لَيلةٍ إلى السَّماءِ الدُّنيا ، فيَقولُ : « مَنْ يَسْألُنِي فَأُعْطِيهِ » فهُو زِنْديقٌ كافرٌ ، يُسْتَتابُ ، فإنْ تَابَ وإلاَّ ضُرِبَتْ عُنقُه ، ولا يُصَلَّىٰ عَليه ، ولا يُدْفَنُ في مَقابِرِ المُسلِمين .

قال الذهبيُّ : لا يُكَفَّرُ إلاَّ إنْ عَلِمَ أنَّ الرسُولَ صلى الله عليه وسلم قال ، فإنْ جَحَدَ بعد ذلك فهَـٰذا مُعانِدٌ نَسألُ اللهَ الهُدَىٰ ، وإنِ اعْتَرَفَ أنَّ هـٰذا حَقٌّ ، ولكنْ لا أخُوضُ في مَعانِيه ، فقد أحْسَنَ ، وإنْ آمَنَ وأوَّلَ ذلك ، أو تَأوَّلَ بَعضَه ، فهُو طَريقَةٌ مَعروفَة .

---

(١) انظر السير : (ابن خزيمة) ١٤/ ٣٦٥ـ ٣٨٢ ، وانظر النزهة : ٦/١١٦١ .

وقد كان السَّرَّاجُ ذا ثَروَةٍ وتِجارَةٍ ، وبِرٍّ ومَعروفٍ ، ولَه تَعَبُّدٌ وتَهجُّدٌ إلاَّ أنَّه كان مُنافِراً للفُقَهاءِ أصْحابِ الرأيِ ، واللهُ يَغفرُ له[1] .

قال الإمامُ تَقيُّ الدين ابنُ الصَّلاحِ في فَتاويه : وَجَدْتُ عن الإمامِ أبي الحَسَنِ الوَاحديِّ المُفَسِّر رَحمَه الله أنَّه قال : صَنَّفَ أبو عبد الرحمَـٰنِ السلميُّ « حَقائقَ التَّفْسير » ، فإنْ كانَ اعْتَقَدَ أنَّ ذلكَ تَفْسيرٌ فقد كَفَر .

قال الذهبيُّ : واغَوْثاه!! ، واغُربَتَاه!![2] .

٣ـ لَومُ الذهبيِّ ابنَ خَفيف لأنَّه لَمْ يُكَفِّر الحَلاَّجَ واعتَقَدَ أنَّه مُوَحِّد :

قالَ ابنُ باكويه : سَمعتُ ابنَ خَفيف يُسألُ : ما تَعْتَقِدُ في الحَلاَّجِ ؟ قالَ : أعْتقدُ أنَّه رَجلٌ من المُسْلِمين فَقَط فقِيلَ له : قد كَفَّرَهُ المَشايخُ وأكْثَرُ المُسلِمينَ ، فقالَ : إنْ كانَ الذي رَأيْتُهُ مِنْهُ في الحَبْسِ لَمْ يَكُنْ تَوحِيداً ، فلَيسَ في الدُّنيا تَوحيدٌ .

قال الذهبيُّ : هـٰذا غَلَطٌ من ابنِ خَفيف ، فإنَّ الحَلاَّجَ عندَ قَتلِهِ ما زالَ يُوَحِّدُ اللهَ ويَصيحُ : اللهَ اللهَ في دَمي ، فأنا على الإسْلام وتَبرَّأ ممَّا سِوَى الإسْلام والزِّنْديقُ فيُوَحِّدُ اللهَ عَلانيَةً ، ولكنَّ الزَّنْدَقَةَ في سِرِّه ، والمُنافِقُونَ فقد كانوا يُوَحِّدُونَ ويَصُومُونَ ويُصَلُّونَ عَلانيَةً ، والنِّفاقُ في قُلوبِهم ، والحَلاَّجُ فما كان حِماراً حتىٰ يُظْهِرَ الزَّنْدَقَةَ بإزاءِ ابنِ خَفيف وأمْثالِه ، بلْ كان يَبُوحُ بذلك لمَنِ اسْتَوثَقَ مِنْ رِباطِه ، ويمكنُ أنْ يَكونَ تَزَندَقَ في وقْتٍ ، ومَرَقَ وادَّعَى الإلَهيّةَ ، وعَمِلَ السِّحرَ والمَخاريقَ الباطِلَةَ مُدّة ، ثم لمَّا نَزَلَ به البَلاءُ ورَأى المَوتَ الأحْمرَ أسْلَمَ ورَجَعَ إلى الحَقِّ ، واللهُ أعْلَمُ بسِرِّه ، ولكن مَقالَتَه نَبرأُ إلى اللهِ مِنْها ، فإنَّها مَحْضُ الكُفرِ ، نَسألُ اللهَ العَفْوَ والعَافيَةَ .

كان مَقْتَلُ الحَلاَّجِ في سَنَةِ تِسْعٍ وثلاثِ مِئَة[3] .

* * *

(١) انظر السير : (السَّرَّاج) ١٤/ ٣٨٨ـ ٣٩٨ ، وانظر النزهة : ٣/١١٦٤ .

(٢) انظر السير : (السلميّ) ١٧/ ٢٤٧ـ ٢٥٥ ، وانظر النزهة : ١/١٣٤٠ .

(٣) انظر السير : (الحَلاَّج) ١٤/ ٣١٣ـ ٣٥٤ ، وانظر النزهة : ١/١١٥٩ .

العَقائدُ الضالَّة

١ـ من أسبابِ انحرافِ مَنِ انْحَرَفَ من المُسلمين التَّأَثُّرُ بفكرِ الضالين نَتيجَةَ مُخالَطَتِهم :

عن ابنِ سيرين ، قال : تَزَوَّجَ عِمْرانُ بنُ حطَّان خارجيَّة وقال : سأرُدُّها ، قال فصَرَفَتْهُ إلىٰ مَذْهَبِها[١] .

وجاءَ في تَرجَمَةِ أبي العَلاء أحمَد بن عبد الله بن سُليْمانَ القَحْطانيّ المعريُّ ، قال الذهبيُّ : ارْتَحَلَ في حُدودِ الأرْبَع مِئَة إلىٰ طَرابُلسَ وبها كُتُبٌ كَثيرةٌ ، واجْتازَ باللاَّذِقيَّة ، فنزَلَ ديراً به راهِبٌ مُتَفَلسِفٌ ، فدَخَلَ كَلامُه في مَسامِعِ أبي العَلاءِ ، وحَصَلتْ له شُكوكٌ لَمْ يَكُنْ له نُورٌ يَدْفَعُها ، فحَصلَ له نَوْعُ انْحِلالٍ دَلَّ عليه ما يَنظُمُه ويَلْهَجُ به ويُقالُ : تَابَ من ذَلكَ وارْعَوَىٰ .

وقد سَارَت الفُضَلاءُ إلىٰ بابِه ، وأخَذُوا عنه .

وكان غِذاؤُه العَدَسَ ونَحْوَه ، وحَلوَاه التيِّن ، وثِيابُه القُطْن[٢] .

جاءَ في تَرجَمَةِ صاحبِ اليَمَنِ الصُّلَيْحيُّ ، قال الذهبيُّ : دَارَ به دَاعي البَاطِنيَّة عَامِرُ الزَّواخيُّ[٣] حتىٰ أجَابَه وهو حَدَثٌ ، فتَفَرَّسَ به عَامرٌ النَّجابَةَ ، وشَوَّقه ، وأَسَرَّ إليهِ أمُوراً ثم لَمْ يَنْشَبْ عَامرٌ أنْ هَلَكَ ، فأَوْصَىٰ بكُتُبهِ لعَليٍّ ، فعَكَفَ على الدَّرْسِ والمُطالَعَةِ ، وفَقُهَ وتَمَيَّزَ في رَأي العُبَيْديَّة ، ومَهَرَ في تَأويلاتِهم ، وقَلْبِهم للحَقائق .

ثم صَارَ يَحُجُّ بالنَّاسِ علىٰ طريقِ السَّراةِ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً ، وكان النَّاسُ يَقولُونَ له : سَتَملكُ اليَمنَ بأسْرِهِ فيُنْكِرُ على القَائلِ ، فلمَّا كان في سَنَةِ تِسْعٍ وعِشْرينَ وأرْبع مِئَة ، ثَارَ بجَبلِ مَسَار في سِتينَ رَجُلاً فأَوَوا إلىٰ ذِرْوَةِ شَاهِقٍ ، فما أمسوا حتىٰ أحاطَ بهم

---

(١) انظر السير : (عمران بن حطّان) ٤/ ٢١٤ـ٢١٦ ، وانظر النزهة : ٣/٤٨١ .

(٢) انظر السير : (أبو العلاء) ١٨/ ٢٣ـ٣٩ ، وانظر النزهة : ٢/١٣٧٩ .

(٣) قرية باليمن ، وإليها يُنسَب عامر بن عبد الله الزواخي صاحب الدعوة ، عن الصليحي .

عِشْرُونَ ألفاً وقالوا : انْزِلْ وإلاَّ قَتَلناكُم جُوعاً وعَطَشاً ، قال : ما فَعَلتُ هـٰذا إلاَّ خَوفاً أنْ يَملِكَه غيرُنا ، وإنْ تَرَكْتُمونا نَحْرُسُه ، وإلاَّ نزَلْنا إليكُم ، وخَدَعَهُم ، فانْصَرَفُوا فلَمْ يَمْضِ عليهِ أشْهرٌ حتىٰ بَنَاهُ وحَصَّنَه ، ولَحِقَ به كلُّ طَمَّاعٍ وذِي جَلادَةٍ ، وكَثُرُوا فاسْتَفْحَلَ أمرُه وأظْهَرَ الدَّعْوَةَ لصاحِبِ مِصْرَ المُسْتَنْصِر ، وكان يَخافُ من نَجَاحٍ صاحب تِهَامَة ، ويُلاطِفُه ويَتَحَيَّل عليه ، حتىٰ سَقاهُ مع جَارِيَةٍ مَليحَةٍ أهْداها له ، واسْتَولَىٰ على المَمَالِكِ اليَمَنيَّة في سَنة خَمسٍ وخَمسينَ وأرْبعِ مِئَة ، وخَطَبَ علىٰ مِنْبَرِ الجَنَد[1] ، فقالَ : وفي مثل هـٰذا اليَوم نَخْطُبُ علىٰ مِنْبَرِ عَدَنْ ، فقال رجلٌ : سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ ، يَسْتَهْزِىءُ بقَولِه ، فأمَرَ بأَخْذِه فاتَّفَقَ أنَّه أخَذَ عَدَنَ ، وخَطَبَ ، وصَيَّرَها دَارَ مُلْكِه ، وأنْشَأَ عِدَّةَ قُصُورٍ أنيقَة ، وأَسَرَ مُلوكاً ، وامْتَدَّتْ أيَّامُه ثمَّ حَجَّ ، وأحْسَنَ إلىٰ أهْلِ مَكَّة .

وكان أشْقَرَ أزْرَقَ ، يُسَلِّمُ علىٰ مَنْ مَرَّ عليهم ، وكان ذا ذَكاءٍ ودَهاءٍ ، كَسَا الكَعْبَةَ البَيَاضَ ، وخُطِبَ لزَوْجَتِه أيضاً معه على المَنابِر ، ثم إنَّه حَجَّ في سَنَةِ ثَلاثٍ وسَبعينَ واسْتَخْلَفَ على اليَمَنِ ابنَهُ أحمَدَ المَلِكَ المُكَرَّم فلمَّا نَزَلَ بالمَهْجَم[2] ، وَثَبَ عليه جَيَّاشُ بنُ نَجَاح وأخُوهُ سَعيدُ الأحْوَل ، فقَتَلاهُ بأبيهِما ، والتَفَّ أكْثَرُ العَسْكَرِ على ابنِ نَجاحٍ وتَمَلَّك .

ودام مُلكُ ولَدِه المُكَرَّم علىٰ شَطْرِ اليَمَن مُدّة ، وحارَبَ ابنَ نَجاح غَيرَ مرّة إلىٰ أنْ ماتَ سَنَةَ أربَعٍ وثَمانينَ فتَمَلَّك بعدَه ابنُ عمِّه سَبأ بنُ أحمَد إلىٰ سَنَةِ خَمسٍ وتِسْعين ، وصارَ المُلكُ إلىٰ آل نَجاحٍ مُدّة[3] .

وجاءَ في تَرجَمَةِ ابنِ عَقيل شَيخِ الحَنابلَة المُتلِّكم صاحب التَّصَانيف قال عنه الإمامُ الذهبيُّ : سَمعَ القاضي أبا يعلىٰ بنَ الفَرّاء ، وتَفَقَّهَ عليه ، وتَلا بالعَشْرِ علىٰ أبي الفَتْحِ بن شيطا ، وأخَذَ العَربيّةَ عن أبي القاسِمِ بن بُرهان ، وأخَذَ عِلمَ العَقْليَّاتِ عن

(١) مدينة باليمن بينها وبين صنعاء ثمانية وخمسون فرسخاً .

(٢) بلد من أعمال زبيد باليمن .

(٣) انظر السير : (الصُلَيحيّ) ١٨/٣٥٩ـ٣٦٢ ، وانظر النزهة : ٢/١٤٢١ .

شَيْخَيّ الاعْتزالِ أبي عليّ ابنِ الوَليد ، وأبي القاسِم بنِ التبَّان صاحِبَيْ أبي الحَسَنَ البَصْريّ ، فانْحَرَفَ عن السُّنَّة[1] .

وقال ابنُ الجَوْزيّ : كان أصْحابُنا الحَنابِلَةُ يُريدُونَ مِنِّي هِجْرانَ جَماعَةٍ من العُلَماء وكان ذلكَ يَحْرِمُني عِلماً نافِعاً .

قال الذهبيُّ : كانوا يَنْهَونَه عن مُجالَسَةِ المُعْتزلَة ، ويأبىٰ حتىٰ وَقَعَ في حَبائِلِهم ، وتَجَسَّرَ علىٰ تأويلِ النُّصوصِ ، نَسْألُ اللهَ السَّلامَةَ .

وفي « تاريخ ابنِ الأثير » ، قال : كان قد اشْتَغَلَ بمَذْهب المُعْتزلَة في حَداثَته على ابنِ الوَليدِ ، فأرادَ الحَنابلَةُ قَتلَهُ ، فاسْتَجارَ ببابِ المَراتِبِ عِدَّةَ سِنين ، ثم أظْهَرَ التَّوبَةَ[2] .

٢ـ عَرضٌ تاريخيّ لظُهور العَقائد المُخالِفَة :

قال الإمامُ الذهبيُّ : كانَ النَّاسُ أُمَّةً واحدَةً ، ودِينُهُم قَائماً في خِلافَةِ أبي بكرٍ وعُمَرَ فلَمَّا اسْتُشْهِدَ قُفْلُ باب الفِتْنَةِ عُمَرُ رضي الله عنه ، وانْكَسَرَ البَابُ ، قَامَ رُؤوسُ الشَّرِّ على الشَّهيدِ عُثْمانَ رضي الله عنه حتّىٰ ذُبِحَ صَبْراً وتفَرَّقَتْ الكَلمَةُ وتَمَّتْ وَقْعَةُ الجَمَلِ ، ثم وَقعَةُ صِفّينَ ، فظَهَرت الخَوارِجُ ، وكَفَّرَتْ سَادَةَ الصَّحابَةِ ، ثم ظَهَرَت الرَّوافِضُ والنَّواصِبُ[3] .

وفي آخِرِ زَمَنِ الصَّحابَة ظَهَرت القَدَريّة ، ثم ظَهَرَت المُعْتَزِلَةُ بالبَصْرَة ، والجَهْميّة والمُجَسِّمَة بخُراسَان في أثْناءِ عَصْرِ التَّابِعِين مع ظُهورِ السُّنَّةِ وأهْلِها إلىٰ بَعدِ المِئتَين ، فظَهَرَ المَأمُونُ الخَليفَة ـ وكانَ ذَكيّاً مُتَكلِّماً ، له نَظَرٌ في المَعْقُولِ ـ فاسْتَجْلَبَ كُتُبَ الأوائِل ، وعَرَّبَ حِكْمَةَ اليُونانِ ، وقَامَ في ذلكَ وقَعَدَ ، وخَبَّ ووَضَعَ ، ورَفَعَت الجَهْميّةُ والمُعْتزِلَةُ رُؤُوسَهَا ، بلْ والشِّيعَةُ ، وآلَ به الحَالُ إلىٰ أنْ حَمَلَ الأمَّةَ على القَولِ

---

(١) انظر السير : (ابن عقيل) ١٩/ ٤٤٣ـ ٤٥١ ، وانظر النزهة : ٢/١٤٩٧ .

(٢) انظر السير : (ابن عقيل) ١٩/ ٤٤٣ـ ٤٥١ ، وانظر النزهة : ٢/١٤٩٨ .

(٣) انظر السير : (أحمد بن حنبل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ١/٩٣٢ .

بخَلْقِ القُرآنِ ، وامْتَحَنَ العُلَماءَ ، فلَمْ يُمْهَلْ ، وهَلكَ لعامِه ، وخَلّىٰ بعدَه شراً وبلاءً في الدين فإنَّ الأُمَّة ما زالت علىٰ أنَّ القُرآنَ العَظيمَ كلامُ الله تَعالَىٰ ووَحْيُه وتنزيلُه ، لا يَعرفون غَير ذلك ، حتىٰ نبغَ لهم القولُ بأنَّه كلامُ الله مَخْلوق مَجْعول ، وأنَّه إنَّما يُضافُ إلى الله تَعالَىٰ إضافةَ تَشْريف ، كبَيت الله ، وناقَة الله فأنكرَ ذلك العلماءُ ولَمْ تكن الجَهْميَّة يَظهرون في دَولة المَهدي والرَّشيد والأَمين ، فلمَّا وَلِيَ المأمونُ ، كان منهم ، وأظهَرَ المَقالة .

رَوىٰ أحمدُ بنُ إبراهيم الدَّوْرَقي ، عن محمدِ بنِ نوح : أنَّ الرَّشيدَ قالَ : بَلَغَني أنَّ بِشْرَ بنَ غِياث المَريسي ، يقولُ : القُرآنُ مَخْلوق ، فلِلَّه عليَّ إنْ أظْفَرَني اللهُ به ، لأقْتُلَنَّه قال الدَّوْرَقيُّ : وكان مُتَوارياً أيام الرَّشيد ، فلمَّا ماتَ الرَّشيدُ ظَهَرَ ودَعا إلى الضَّلالَة[1] .

٣ـ أسْبابُ انْتشَارُ العَقائدِ الفَاسِدَة :

(أ) الجَهْلُ :

قال الذهبيُّ في تَرْجَمَة الخَبيث ، عَليِّ بنِ مُحمّد العَبْديّ ، قال : فادَّعَىٰ بعدَ الخَمْسينَ هَـٰذا الخَبيثُ بِهَجَر[2] أنَّه عَليُّ بنُ مُحمّد ابنِ الفَضْلِ بنِ حُسَيْنِ بنِ عبدِ الله بنِ عَبَّاس بنِ عَليِّ بنِ أبي طَالِب ، ودَعَا إلىٰ نَفْسِه ، فمَالَ إليه رَئيسُ هَجَر ، ونابَذَهُ قَومٌ ، فاقْتَتَلوا ، فتَحوَّلَ إلى الأحْسَاء ، واعْتَصَمَ ببَنِي الشمَّاس ، وإنَّما قَصَدَ البَحْرَين لِغَبَاوَةِ أهْلِها ، ورَوَاجِ المَخاريق عَليهِم ، فحَلَّ منهم مَحلّ نَبيٍّ ، وصَدَّقُوهُ بِمَرّةٍ ، ثم تَنَكَّروا له لدبره ، فَشَخَصَ إلى البَاديَة يَسْتَغْوي الأعَاريبَ بنُفوذِ حِيَلِه ، وشَعْوَذَتِه ، واعْتَقَدُوا فيه أنَّه يَعْلمُ مَنْطِقَ الطَّيْرِ ، وجَعَلَ يُغِيرُ على النَّواحي ، ثم تَمَّتْ له وَقْعَةٌ كبيرةٌ ، هُزِمَ فيها وقُتِلَ كُبَراءُ أتْباعِه وكَرِهَتْهُ العَربُ[3] .

وذَهبَ إلىٰ بَغْدادَ فأقَامَ سَنةً يَسْتَغوي النَّاسَ ويُضِلُّهُم ، فاسْتَمالَ عِدَّة من الحاكَة

---

(١) انظر السير : (أحمد بن حنبل) ١١/ ١٧٧ـ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٢/٩٣٢ .

(٢) هجر : مدينة في البحرين .

(٣) انظر السير : (الخَبيث) ١٣/ ١٢٩ـ١٣٦ ، وانظر النزهة : ٤/١٠٦٤ .

بمَخاريقِه ، والجَهَلَةُ أسبَقُ شيءٍ إلىٰ أرْبابِ الأحْوالِ الشَّيْطانيّة ، ومَاتَ مُتولِّي البَصْرَة ، وهَاجَت الأعْرابُ بها ، وفَتَحُوا السُّجونَ ، فتَخلَّصَ قَومُه فبَادَرَ إلى البَصْرَة في رمَضانَ سَنةَ خمس وخمسين ، وحَولَهُ جَماعَةٌ ، واسْتَجابَ له عَبيدٌ زُنوج للنَّاسِ ، فأفْسَدَهم وجَسَّرَهم ، عَمَدَ إلىٰ جَريدَةٍ ، فكَتَبَ علىٰ خِرقَةٍ عليها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾[1] وكَتَبَ اسْمَه ، وخَرَجَ بهم في السَّحَر للَيْلَتَين بَقِيَت من رمَضانَ في ألفِ نَفْسٍ ، فخَطَبَهُم ، وقال : أنتُم الأُمَراءُ وسَتَمْلِكُون ووَعَدَهم ، ومَنَّاهُم .

ثم لَمْ يَزَلْ يَنْهَبُ ويُغِيرُ ، ويَكْثُرُ جَمْعُه من كلِّ مائِقٍ[2] وقاطِع طريق ، حتى اسْتَفْحَلَ أمرُه ، وعَظُمَتْ فِتْنَتُه ، وغَنِمَ الخُيولَ والسِّلاحَ ، والأمْتِعةَ والأمْوالَ والمَواشي ، وصَارَ من المُلوكِ وصَارَ كُلَّما حارَبَه عَسكَرٌ وانْهَزَموا ، فَرَّ إليه غِلْمانُ العَسكَر ، فحَشَدَ له أهلُ البَصْرَة في ذي القعْدَة من العام ، والتَقَوا ، فهَزَمَهُم ، وقتَلَ منهم مَقْتَلَة ، ووَقَعَ رُعْبُه في النُّفوسِ ، فوَجَّهَ الخَليفَةُ جَيشاً ، فما نَفَعُوا .

ثم أخَذَ الأهْوازَ ، فخَافَه أهْلُ البَصْرة ، وانجَفَلُوا ، فأخَذَها بالسَّيفِ في شَوَّالَ ، سَنةَ سَبعٍ وخمسين ، وقْتَ صَلاةِ الجُمُعَة ، وهَرَبَ جُندُها فأحْرَقَ الجامعَ بمَنْ حَوَىٰ ، ولَمْ تَزَلْ الحَربُ بَينَه وبَينَ المُوَفَّقِ سِجالاً .

واسْتَباحَ واسطَ في سَنة أربعٍ وستِّين ، وحَصَلَ للخَبيثِ جَواهِرُ وأمْوالٌ ، فاسْتأثَرَ بها ، فأنْكَرَ عليه المُتَقَشِّفونَ من أصْحابِه ، وذَكَرُوا له سِيرَةَ أبي بَكْرٍ وعُمَرَ ، فقالَ : لَيسَ فيهما قُدْوَة .

وادَّعىٰ أنَّه هُو عَبدُ الله المَذْكُور في : ﴿قُلْ أُوحِيَ﴾[3] وزَعَمَ أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم ما يَمْتازُ عليه إلاَّ بالنُّبُوَّة .

وزَعَمَ أنَّه تَكلَّمَ في المَهْدِ ، صِيحَ به : يا عَليّ! فقالَ : يا لَبَّيْك .

---

(١) سورة التوبة ، الآية : ١١١ .

(٢) مائق : حاقد ، والمأقة : الحقد .

(٣) سورة الجن ، الآية : ١ .

وكان يَجمعُ اليَهودَ والنَّصارَىٰ ، يَسْألُهم عمَّا في التَّوْراةِ والإنْجيلِ مِنْ ذِكْرِه ، وهم يَسْخَرونَ منه ، ويَقْرَؤُونَ له فُصُولاً ، فيَدَّعي أنَّها فيه وزادَ من الإفْكِ فنَفَرَت منه قُلوبُ خَلقٍ من أَتْباعِه ومَقَتُوه وبَقِيَ المُوَفَّقُ يُكْرِمُ كلَّ مَنْ فَرَّ إليه ، ويَخْلَعُ عليهم ، وكَتَبَ إلى الخَبيثِ يَدعُوهُ إلى التَّوبَةِ من ادِّعاءِ مُخاطَبَةِ المَلائِكَة ، ومن تَحْريفِه القُرآنَ وضَلالَتِه ، فما أجابَ بشيءٍ ، وحَصَّنَ مَدينتَه (المُخْتارَة) التي بِنَهْرِ أبي الخَصيبِ ، حتَّىٰ بَقِيَتْ يُضْرَبُ بها المَثَلُ ، ونَصَبَ فيها المَجانيقَ والأَسْلِحَةَ بما بَهَرَ العُقولَ ، وبها نَحْوَ مِئَتَي ألفِ مُقاتِل ، فما قَدِرَ عليها الجَيشُ إلاَّ بالمُطاوَلَة ، وأنْشَأَ تِلْقاءَها المُوَفَّقُ مَدينَةً وسَكَنَها ، ولَمْ يَزَلْ إلىٰ أنْ أخَذَ (المُخْتارَة) فهَرَبَ الخَبيثُ إلىٰ مَضائِقَ في نَهْرِ أبي الخَصيب ، لا تَصِلُ إليها سَفينَةٌ ولا فارِسٌ ثم بَرَزَ في أَبْطَالِه وقَاتَلَ أشَدَّ قِتالٍ ، وهو يَقولُ :

وعَـزيمَتِـي مِثْـلُ الحُسَـامِ وهِمَّتِـي ... نَفْـسٌ أَصُـولُ بهـا كَنَفْـسِ القَسْـوَرِ
وإذا تُنـازِعُنـي أقُـولُ لهـا اسْكُتِـي ... قَتْـلٌ يُـريْحُـكِ أوْ صُعُـودُ المِنْبَـرِ[1]

وجاءَ في تَرجَمَة القِرمِطيّ الجَنّابيِّ ، عَدوِّ الله ، قال الذهبيُّ : واتَّفقَ أنَّ أبا السَّاجِ الأميرَ نَزَلَ بأبي سَعيدِ الجَنّابيِّ[2] فأكْرَمَه ، فلمَّا سَارَ لِحَرْبِه ، بَعَثَ يَقولُ : لكَ عليَّ حَقٌّ ، وأنْتَ في خَمْسِ مِئَة وأنا في ثلاثينَ ألفاً فانْصَرِفْ ، فقالَ للرسُولِ : كَمْ معَ صَاحِبِك ؟ قالَ : ثلاثُونَ ألفَ راكِبٍ ، قال : ولا ثَلاثَة ، ثم دَعَا بعَبْدٍ أسْوَدٍ ، فقالَ له : خَرِّقْ بَطْنَكَ بهـٰذه السِّكين ، فبَدَّدَ مَصارينَه ، وقالَ لآخَر : اغْرَقْ في النَّهْرِ ، ففَعَل ، وقال لآخَر : اصْعَدْ علىٰ هـٰذا الحَائِط ، وانْزِلْ علىٰ مُخِّكَ ، فهَلَك فقال للرسُولِ : إنْ كانَ مَعَهُ مِثلُ هـٰؤلاء ، وإلاَّ فمَا مَعَه أحَدٌ .

وقِيلَ صَعَدَ قِرْمِطيٌّ لقَلعِ المِيزاب ، فسَقَطَ ، فماتَ وكان ذلكَ سَنَةَ سَبعَ عَشْرَة ،

---

(١) انظر السير : (الخَبيث) ١٣/١٢٩ـ١٣٦ ، وانظر النزهة : ١/١٠٦٥ .
(٢) هـٰذه النسبة إلىٰ جنّابة ، وهي بلدة من أعمال فارس متصلة بالبحرين عند سيراف ، والقرامطة منها نُسبوا إليها .

وكان أميرُ العِراقَيْنِ مَنصُورٌ الدَّيلَميّ وجافَتْ[1] مكّةُ بالقَتْلَىٰ .

قال المَراغيُّ : حَدَّثنا أبو عبدِ الله بنُ محْرِم ، وكانَ رسُولَ المُقْتَدِرِ إلى القِرْمِطيِّ ، قال : سألتُه بعدَ مُناظَرَات عن اسْتِحْلالِه بما فَعَلَ بمَكّة فأحْضَرَ الحجر في الدِّيْباجِ ، فلمّا أُبْرِزَ كَبَّرتُ ، وأَرَيْتُهم من تَعْظيمِه والتَّبَرُّكِ به علىٰ حالَةٍ كبيرةٍ ، وافْتُتِنَتِ القَرامِطَةُ بأبي طاهر ، وكان أبُوهُ قد أطْلَعَه وحْدَه علىٰ كُنُوزٍ دفَنَها ، فلمَّا تَمَلَّكَ ، كان يقولُ : هُنا كَنْزٌ ، فَيَحْفِرُون ، فإذا هم بالمَالِ فيَفْتَتِنُونَ به ، وقالَ مَرّةً : أريدُ أنْ أحْفرَ هُنا عَيْناً ، قالوا : لا تَنْبُع ، فخَالَفَهُم ، فنَبَعَ المَاءُ ، فازْدادَ ضَلالُهُم به ، وقالوا : هُوَ إلَـٰهٌ ، وقالَ قَومٌ : هُوَ المَسيحُ ، وقِيلَ : نَبيٌّ وقد هَزَمَ جُيوشَ بَغْدادَ غيرَ مَرّة ، وعَتَا وتَمَرَّدَ[2] .

وقال الذهبيُّ في تَرْجَمَة طَغْتِكِين صاحِبِ دِمَشْقَ الأتابك : قد كان طَغْتِكِينُ سَيْفاً مَسْلُولاً على الفِرَنْج ، ولكن له خَرْمَةٌ ، كان قد اسْتَفْحَلَ البَلاءُ بدَاعِي الإسْماعيليّة بَهْرام بالشَّام ، وكان يَطُوفُ المَدائِنَ والقِلاعَ مُتَخفِّياً ، ويُغْوي الأغْتامَ والشُّطَّارَ ، ويَنْقادُ له الجُهَّالُ إلىٰ أنْ ظَهَرَ بدِمَشْقَ بتَقْريرٍ قَرَّرَهُ صاحبُ ماردين إيلغازي مع طَغْتِكِين ، فأَخَذَ يُكْرِمُهُ ، ويُبالِغُ ، اتِّقاءً لِشَرِّه ، فتَبِعَهُ الغَوْغاءُ ، والسُّفَهاءُ والفَلاَّحُونَ ، وكَثُرُوا ، ووَافَقَهُ الوَزيرُ طاهرُ المزدقانيُّ ، وبَثَّ إليه سِرَّه ، ثم الْتَمَسَ من المَلِكِ طَغْتِكِين قَلعَةً يَحْتَمي بها فأَعْطَاهُ بانياسَ في سَنَةِ عِشْرينَ وخَمسِ مِئَة ، فعَظُمَ الخَطْبُ ، وتَوَجَّعَ أهْلُ الخَير ، وتَسَتَّروا مِنْ سَبِّهم ، وكانوا قد قَتلُوا عِدَّة من الكِبار ، فما قَصَّرَ تاجُ المُلوكِ فقَتَلَ الوَزيرَ كَمالَ الدّين طاهِرَ ابنَ سَعد المَذْكور سَنةَ ثلاثٍ وعِشْرينَ بالقَلْعَة ، ونَصبَ رَأسَه ، ورَكِبَ جُندَه ، فوَضَعُوا السَّيفَ بدِمَشْقَ في المَلاحِدَة الإسْماعيليّة ، فسبَكوا منهم في الحالِ نَحْواً من سِتّة آلافِ نَفْسٍ في الطُّرُقات ، وكانوا قد تَظاهَروا ، وتَفاقَمَ أمرُهُم ، ورَاحَ في هـٰذه الكائِنَةِ الصَّالحُ بالطَّالِحِ[3] .

وجاءَ في تَرجَمَة سِنان (كَبيرُ الإسْماعيليّة) : وبَعثَ صَبَّاحٌ الدَّاعي أبا مُحمّدٍ إلى

---

(١) جافَت : أنتنت .

(٢) انظر السير : (القرمطيُّ) ١٥/ ٣٢٠ـ ٣٢٥ ، وانظر النزهة : ١/١٢٣١ .

(٣) انظر السير : (طَغْتِكِين) ١٩/ ٥١٩ـ ٥٢١ ، وانظر النزهة : ٣/١٥٠٥ .

الشَّامِ ، ومَعهُ جَماعَةٌ ، فقَوِيَ أمْرُه ، واسْتَجابَ له الجبليَّةُ ، واسْتَولَوا علىٰ قَلعَةٍ من جَبَلِ السَّماقِ[1] .

ثم هَلكَ هٰذا الدَّاعي ، وجَاءَ بَعدَه سِنانٌ ، فكانَ سَخطَةً وبَلاءً ، مُتَنَسِّكاً ، مُتَخَشِّعاً ، واعِظاً ، كان يَجلسُ علىٰ صَخْرةٍ كأنَّه صَخْرةٌ لا يَتحرَّك منْهُ سِوَىٰ لِسَانِه ، فرَبَطَهُم ، وغَلَوا فيه ، واعْتَقدَ منهم فيه الإلَهيَّة ، فتَبّاً له ولِجَهْلِهم ، فاسْتَغْواهُم بسِحْرٍ وسيمياءَ ، وكان له كُتبٌ كَثيرةٌ ومُطالَعَةٌ ، وطالَتْ أيّامُه .

وأمَّا الألَمُوت[2] فوَلِيَها بعدَ صَبَّاحٍ ابنُهُ مُحمّد ، ثمَّ بَعدَهُ حَفيدُه الحَسَنُ ابنُ مُحمّدٍ الذي أظْهَرَ شِعارَ الإسْلامِ ، ونبَذَ الانْحلالَ تَقيَّةً ، وزَعَمَ أنَّه رَأى الإمامَ عَليّاً ، فأمَرَه بإعادَةِ رسومِ الدين ، وقالَ لخَواصِّهِ : ألَيْسَ الدينُ لي ؟ قالوا : بلىٰ ، قال : فتارَةً أضَعُ علَيكُم التَّكاليفَ ، وتارَةً أرْفُضُها ، قالوا : سَمِعنا وأطَعْنَا ، واسْتَحْضَرَ فُقَهاءَ وقُرَّاءَ ليُعَلِّمُوهم[3] .

جاءَ في تَرْجَمةِ ابنِ عَديّ ، قال الذهبيُّ : الشَّيخُ الكَبيرُ المَدْعُو بتاجِ العَارفينَ حَسَنُ بنُ عَديّ بنِ أبي البَركاتِ بنِ صَخر بنِ مُسافر شَيخُ الأكْراد ، كان هٰذا مِنْ رِجَالِ العَالَمِ دَهاءً وهِمَّةً وسُمُواً ، له فَضيلَةٌ وأدَبٌ وتَوالِيفُ في التَّصوُّفِ الفَاسِدِ ، وله أتْباعٌ لا يَنْحَصِرون وجَلالَةٌ عَجيبَةٌ ، بَلَغَ من تَعْظيمِهم له أنَّ واعِظاً أتاهُ فتكَلَّمَ بَينَ يَديْه ، فبَكَىٰ تاجُ العَارفينَ وغُشِيَ عليه ، فوَثَبَ كُرديٌّ ، وذَبَحَ الواعِظَ ، فأفاقَ الشَّيخُ فرَأى الواعِظَ يَخْتَبِطُ في دَمِه ، فقال : أيش هٰذا ؟ فقالوا : أيُّ شيءٍ ، هٰذا مِنَ الكِلابِ حتّىٰ يُبْكِي سَيدي الشَّيخَ .

وزادَ تَمكُّنُ الشَّيخِ حتّىٰ خافَ منه بَدرُ الدِّينِ صاحِبُ المَوْصِل ، فتَحَيَّلَ عليه حتّى اصْطَادَهُ ، وخَنَقَهُ بالمَوْصِلِ ، خَوْفاً من غائِلَتِه[4] .

---

(١) انظر السير : (سِنان) ٢١/ ١٨٢ـ ١٩٠ ، وانظر النزهة : ١/١٦٠٨ .

(٢) انظر عن هٰذه القلعة وتاريخها ـ دائرة المعارف الإسلامية ـ ٤/ ٣٧١ (ط الجديدة) .

(٣) انظر السير : (سِنان) ٢١/ ١٨٢ـ ١٩٠ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٠٨ .

(٤) انظر السير : (ابن عديّ) ٢٣/ ٢٢٣ـ ٢٢٤ ، وانظر النزهة : ١/١٧٣١ .

وهُناكَ جَهلَةٌ يَعْتَقِدُونَ أنَّ الشَّيخَ حَسَناً لا بُدَّ أنْ يَرجعَ إلى الدُّنيا ، وكانَ يُلَوِّحُ في نَظْمِه بالإلْحادِ ، ويَزْعُمُ أنَّه رَأىٰ رَبَّ العِزَّة عِياناً ، واعْتِقَادُه ضَلالَةٌ .

قُتِلَ سَنةَ أرْبَعٍ وأرْبَعينَ وسِتِّ مِئَة ، وله ثلاثٌ وخَمْسُونَ سَنَةً[1] .

(ب) إباحَةُ المُحرَّمات :

جاءَ في تَرْجَمَة ابنِ أبي العَزاقِرِ الزِّنديقِ الرَّافضيِّ :

ومِنْ رَأيِّه تَركُ الصَّلاةِ والصَّومِ ، وإباحَةُ كلِّ فَرْجٍ ، وأنَّه لا بُدَّ للفاضِلِ أنْ يَنيكَ المَفْضُولَ ليُولِجَ فيه النُّورَ ، ومَنْ امْتَنَعَ مُسِخَ في الدَّورِ الثاني ، فرَبَطَ الجَهلَةَ وتَخَرَّقَ ، وأضَلَّ طائِفَةً ، فأظْهَرَ أمرَهُ أبُو القاسِم الحُسَينُ بنُ روح ـ رَأسُ الشِّيعَة ، المُلَقَّبُ بالبَاب ـ إلىٰ صاحِبِ الزَّمانِ ، فطُلِبَ ابنُ أبي العزاقر ، فاخْتَفَىٰ ، وتَسَحَّبَ إلى المُوصِل ، فأقامَ هناكَ سِنينَ ورَجَعَ ، فظَهَرَ عَنهُ ادِّعاءُ الرُّبوبيّةِ ، واتَّبَعَه الوَزيرُ حُسَينُ ابنُ الوَزيرِ القاسِمِ بنِ عُبَيدِ الله بنِ وَهْب ـ وَزيرُ المُقْتَدِر ـ فيما قِيلَ ، وابْنا بِسْطام وإبراهيمُ بنُ أبي عَون ، فطُلِبُوا ، فتَغَيَّبوا ، فلمَّا كان في شَوَّالَ من سَنَةِ اثنَتَينِ وعِشرينَ ظَفَرَ الوَزيرُ ابنُ مُقلة بهـٰذا ، فسَجَنَه ، وكَبَسَ دَارَه ، فوَجَدَ فيها رِقاعاً وكُتُباً مِمَّا يُدَّعَىٰ عليه ، وفيها خِطابُهُ بما لا يُخاطَبُ به بَشَر فعُرِضَتْ عليه فأقَرَّ أنَّها خُطُوطُهم ، وتَنصَّلَ ممَّا يُقالُ فيها ، وتَبرَّأَ منهم فمَدَّ ابنُ عَبْدُوس يَدَه ، فصَفَعَه ، وأمَّا ابنُ أبي عَون فمَدَّ يَدَه إليه فارْتَعَدَتْ يَدُه ، ثمَّ قَبَّلَ لِحيَتَه ورَأسَه وقال : إلـٰهي ، ورازِقِي ، وسَيِّدي! فقالَ له الرَّاضي بالله : قد زَعَمتَ أنَّكَ لا تَدَّعي الإلَهيَّة ، فمَا هَـٰذا ؟ قالَ : وما عليَّ مِنْ قَولِ هـٰذا ؟ والله يَعلَمُ أنَّني ما قُلتُ له : إنَّني إلَـٰهٌ قَطُّ .

فقالَ ابنُ عَبْدُوس : إنَّه لَمْ يَدَّعِ إلَـٰهيّة ، إنَّما ادَّعَىٰ أنَّه البابُ إلى الإمام المُنْتَظَر ثمَّ إنَّهم أُحْضِروا مَرَّاتٍ بمَحْضر الفُقَهاء والقُضاة ، ثمَّ في آخِر الأمْر أفْتَى العُلَماءُ بإباحَةِ دَمِه ، فأُحْرِقَ في ذي القَعْدة من السَّنَة وضُرِبَ ابنُ أبي عَون بالسِّياطِ ، ثمَّ ضُرِبَتْ عُنُقه وأُحْرِق .

---

(١) انظر السير : (ابن عديّ) ٢٣/ ٢٢٣ـ ٢٢٤ ، وانظر النزهة : ١/١٧٣٢ .

وله مُصَنَّفاتٌ أدبيَّة ، وكانَ من كِبارِ الكُتَّاب .

وقُتِلَ بسَبَبِه وَزيرُ المُقْتَدِر ، الحُسَينُ ، اتُّهِمَ بالزَّنْدَقَة ، وقُتِلَ أبُو إسْحاق إبراهيمُ بنُ أحمَدَ بنِ هِلال بنِ أبي عَون الأنْباريُّ الكاتِب .

وقد كانَ أبُو عليٍّ الحُسَينُ ـ ويُقالُ : الجمَّال ـ وزَرَ للمُقْتَدِر في سَنة تِسْع عَشرة وثلاث مِئَة ، ولَقَّبُوه عَميدَ الدولة ، وعُزِلَ بعدَ سَبعةِ أشْهرٍ وسُجِنَ ، وعُقِدَ له مَجْلسٌ في كائِنَةَ الشَّلْمَغانيّ ، ونُوظِرَ ، فظَهَرَت رِقاعُهُ يُخاطِبُ الشَّلْمَغانيَّ فيها بالإلَهيَّة ، وأنَّه يُحْييه ويُميتُه ، ويَسْألُه أنْ يَغْفِرَ له ذُنوبَه ، فأخْرِجَت تِلكَ الرِّقاعُ ، وشَهِدَ جماعَةٌ أنَّه خَطُّه ، فضُرِبَت عُنُقُه وطِيفَ برأسِه في ذي الحِجَّة سَنةَ اثنَتين وعِشْرينَ وثلاث مِئَة وعاشَ ثمانياً وسَبعينَ سَنةً[1] .

قال مُحمّدُ بنُ رزام الكُوفيّ : حَكَىٰ لي ابنُ حمْدان الطَّبيبُ ، قال : أقَمتُ بالقَطيفِ أُعالِجُ مَريضاً ، فقالَ لي رَجلٌ : إنَّ اللهَ ظَهرَ ، فخَرَجْتُ فإذا النَّاسُ يُهْرَعونَ إلىٰ دَارِ أبي طَاهِر ، فإذا هو ابنُ عِشْرينَ سَنة ، شَابٌّ مَليحٌ عَليه عَمامَةٌ صَفْراءُ ، وثَوبٌ أصْفَرُ علىٰ فَرسٍ أشْهَبَ ، وإخْوَتُه حَوْلَه فصَاحَ : مَنْ عَرَفَني عَرَفَني ، ومَنْ لَمْ يَعْرِفْني ، فأنا أبو طاهر سُلَيْمانُ بنُ أبي سَعيدِ الحَسَنُ الجَنَّابيُّ ، اعْلَمُوا أنَّا كُنَّا وإيّاكُم حَميراً ، وقد مَنَّ اللهُ عَلينَا بهَـٰذا ، وأشَارَ إلىٰ غُلامٍ أمْرَدَ ، فقالَ : هَـٰذا رَبُّنا وإلَـٰهُنا وكُلُّنا عِبادُهُ فأخَذَ النَّاسُ التُّرابَ ، فوَضَعُوهُ علىٰ رُؤوسِهم ثمَّ قالَ أبُو طاهر : إنَّ الدِّينَ قَد ظَهَرَ وهُو دينُ أبينا آدَمَ ، وجَميعُ ما أوْصَلَت إليكُم الدُّعاةُ باطِلٌ مِنْ ذِكْرِ مُوسَىٰ وعيسَىٰ ومُحمّد ، هَؤلاءِ دَجَّالُونَ وهـٰذا الغُلامُ هو أبُو الفَضْلِ المَجُوسيّ ، شَرَعَ لهُم اللِّواطَ ، ووَطْءَ الأُخْتِ ، وأمَرَ بقَتْلِ مَنْ امْتَنَعَ فأُدْخِلتُ عليه وبَينَ يَديْه عِدّةُ رُؤوسٍ ، فسَجَدْتُ له ، وأبُو طاهر والكُبَرَاءُ حَولَهُ قيامٌ فقالَ لأبي طاهر : المُلوكُ لَمْ تَزَلْ تعِدُّ الرُّؤوسَ في خَزائِنِها فسَلُوهُ كَيفَ بَقاؤُها ؟ فسُئِلْتُ ، فقُلتُ : إلَـٰهُنا أعْلمُ ، ولكِنِّي أقُولُ : فجُمْلةُ الإنْسانِ إذا مَاتَ يَحْتاجُ كَذَا وكَذَا صَبْراً وكافُوراً والرَّأسُ جُزْءٌ فيُعْطَىٰ حِسَابَه فقال :

---

(١) انظر السير : (ابن أبي العزاقر) ١٤/ ٥٦٦ـ٥٦٩ ، وانظر النزهة : ٤/١١٧٤ .

ما أَحْسَنَ ما قال ثم قالَ الطَّبيبُ : ما زِلْتُ أَسْمَعُهُم تِلكَ الأَيّامِ يَلْعَنونَ إبْراهيمَ ومُوسَىٰ ومُحمَّداً وعَليّاً ورَأيتُ مُصْحَفاً مُسِحَ بغَائِطٍ .

وقال أبُو الفَضْلِ يَوماً لكاتِبه : اكْتُبْ إلى الخَليفَةِ ، فصَلِّ لهم علىٰ مُحمَّد ، وكِلْ مِنْ جرابِ النُّورَة[1] قالَ : واللهِ ما تَنْبَسِطُ يَدي لذلك ، فافْتَضَّ أبُو الفَضْل أُخْتاً لأبي طاهر الجَنَّابيِّ ، وذَبَحَ ولَدَها في حِجْرِها ثمَّ قَتَلَ زَوجَها ، وهَمَّ بقَتْلِ أبي طاهر ، فاتَّفَقَ أبو طاهر مع كاتِبِه ابنِ سَنْبر ، وآخَر عليه فقالا : يا إلَـٰهنا ، إنَّ والِدَةَ أبي طاهر قد ماتَتْ فاحْضَرْ لِتَحْشُوَ جَوْفَها ناراً ، قال : وكان سُنَّةً له ، فأتَىٰ فقالَ : ألا تُجيبَها ؟ قال : لا فإنَّها ماتَتْ كافِرَةً ، فعاوَدَهُ ، فارْتابَ وقالَ : لا تَعْجَلا عليَّ ، دَعاني أَخْدِمُ دَوابَّكُما إلىٰ أنْ يَأتِيَ أبي ، قالَ ابنُ سَنْبر : وَيْلَكَ هَتَكْتَنا ، ونَحنُ نُرَتِّبُ هـٰذه الدَّعوَةَ من سِتِّينَ سَنةً ، فلَوْ رآكَ أبُوكَ لَقتلَكَ أَقْتُلُهُ يا أبا طاهر ، قال : أخافُ أنْ يَمْسَخَني ، فضَرَبَ أخُو أبي طاهر عُنُقَه ، ثمَّ جَمَعَ ابنُ سَنْبر النَّاسَ ، وقالَ : إنَّ هـٰذا الغُلامَ وَرَدَ بكَذِب سَرقه من مَعْدن حَقّ ، وإنَّا وَجَدْنا فَوْقَهُ مَنْ يَنْكِحُه ، وقد كُنَّا نَسْمَعُ أنَّه لا بُدَّ للمُؤمنينَ مِنْ فِتْنةٍ يَظْهَرُ بَعدَها حَقٌّ ، فأطْفِئُوا بُيُوتَ النِّيرانِ وارْجِعُوا مِنْ نِكاحِ الأُمِّ ، ودَعُوا اللِّواطَ ، وعَظِّمُوا الأنْبياءَ ، فضَجُّوا وقالوا : كلُّ وَقتٍ تَقولُونَ لنا قَوْلاً ، فأنْفَقَ أبُو طاهر الذَّهَبَ حتّىٰ سَكَنُوا قال الطَّبيبُ : فأخْرَجَ إليَّ أبُو طاهر الحَجَرَ ، وقالَ : هَـٰذا كانَ يُعْبَدُ قُلتُ : كلاّ ، قالَ : بَلَىٰ قُلتُ : أنْتَ أعْلَمُ ، وأخْرَجَهُ في ثَوبٍ دَبيقيٍّ[2] مُمَسَّك .

ثمَّ جَرَت لأبي طاهر مع المُسلمينَ حُروبٌ أوْهَنَتْه وقُتِلَ جُنْدُه ، وطَلَبَ الأمانَ علىٰ أنْ يَرُدَّ الحَجَرَ ، وأنْ يأخُذَ عن كلِّ حَاجٍّ ديناراً ويَخفِرَهم .

قال الذهبيُّ : ثمَّ هَلَكَ بالجُدَريِّ ـ لا رَحِمَهُ الله ـ سَنَةَ اثْنَتَينِ وثلاثِ مِئَة بهَجَر كَهْلاً وقامَ بَعدَه أبُو القاسِم سَعيد[3] .

وجاءَ في تَرْجَمَةِ سِنان كَبير الإسْماعليّة الباطِنيّ ، قال الذهبيُّ : أَوْصَىٰ يَوماً

---

(١) أي اعمل معهم بالتقيّة .

(٢) نسبة إلىٰ « دبيق » وهي بُليدَة كانت بين الفرما وتنيس ، من أعمال مصر .

(٣) انظر السير : (القرمطيّ) ١٥/ ٣٢٠ـ٣٢٥ ، وانظر النزهة : ١/١٢٣٢ .

أتْباعَه ، فقالَ : عَليكُم بالصَّفاءِ بَعضُكُم لبَعضٍ ، لا يَمْنَعَنَّ أَحدَكُم أَخاهُ شَيئاً له ، فأَخَذَ هـٰذا بِنتَ هـٰذا ، وأخَذَ هـٰذا أُخْتَ هـٰذا سِفاحاً ، وسَمَّوا نُفوسَهم الصُّفاةَ ، فاسْتَدْعاهُم سِنانُ مَرَّةً ، وقَتَلَ خَلْقاً منهم[1] .

قال ابنُ العديم : تَمَكَّنَ في الحُصونِ وانقادُوا له ، وأَخْبَرَني عليُّ ابنُ الهَوَّاريّ أنَّ صَلاحَ الدِّين سَيَّرَ رَسُولاً إلىٰ سِنانٍ يَتهدَّدُه ، فقالَ للرسُولِ : سأُريكَ الرِّجالَ الذين أَلْقاهُ بهم ، فأشَارَ إلىٰ جَماعَةٍ أنْ يَرْمُوا أنفُسَهم من الحِصْنِ من أَعْلاه ، فألْقَوا نُفوسَهم ، فهَلَكُوا[2] .

(ج) السِّحْر :

جاء في ترجمة السُّهْرَوَرْديِّ ، الفيلسوف السِّيماويِّ ، قال الذهبيُّ : قال ابنُ أبي أُصَيبِعَةَ : وحَدَّثني إبراهيمُ بنُ صدقَة الحَكيمُ ، قال : خَرَجْنا من بابِ الفرجِ معه ، فذَكَرْنا السِّيمياءَ فقالَ : ما أَحْسَنَ هـٰذه المَواضِعَ ، فنَظَرْنا من ناحيةِ الشَّرقِ جواسَقَ مُبيضةً كبيرةً مُزَخْرَفَةً ، وفي طاقاتِها نِساءٌ كالأَقْمارِ ومَغاني ، فتَعَجَّبنا ، وانْذَهَلْنا ، فبَقِينا ساعةً ، وعُدْنا إلىٰ ما كُنَّا نَعْهَدُه ، إلاَّ أنِّي عِندَ رُؤْيَة ذلك بَقيتُ أُحِسُّ من نَفْسِي كأنَّني في سَنةٍ خَفيةٍ ، ولَمْ يَكُنْ إدْراكِي كالحَالَةِ التي أتحَقَّقُها منِّي وحَدَّثني عَجَمِيٌّ قالَ : كُنَّا مع السُّهْرَوَرْديِّ بالقابُونِ[3] فقُلنَا : يا مَوْلانا ، نُريدُ رَأسَ غَنَم ، فأَعْطانا عَشْرَةَ دَراهِمَ ، فاشْتَرَيْنا بها رَأساً ، ثمَّ تَنَازَعْنا نَحنُ والتُّرْكُمانيّ[4] ، فقالَ الشَّيخُ : رُوحُوا بالرَّأسِ ، أنا أُرْضِيهِ ، ثمَّ تبِعَنا الشَّيخُ ، فقال التُّرْكُمانيُّ : أَرْضِني ، فما كَلَّمَه ، فجاءَ ، وجَذَبَ يَدَهُ ، فإذا بيَد الشَّيخ قد انْخَلَعَتْ من كَتِفِه ، وبَقِيَتْ في يَدِ ذَاكَ ، ودَمُها يَشْخَبُ ، فرَماها ، فأخَذَ الشَّيخُ يَدَه باليَدِ الأُخْرَىٰ ، وجاءَ .

وله كِتابُ « التَّلْويحاتِ اللَّوْحيَّة والعَرْشيَّة » ، وكِتابُ « اللَّمْحَة » ، وكِتابُ « هَياكِل

---

(١) انظر السير : (سِنان) ٢١/ ١٨٢ـ ١٩٠ ، وانظر النزهة : ١/١٦٠٩ .

(٢) انظر السير : (سِنان) ٢١/ ١٨٢ـ ١٩٠ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٠٩ .

(٣) هي قرية علىٰ باب دمشق في طريق من يتوجه إلىٰ حلب .

(٤) وهو صاحب الغنم .

النُّور » ، وكِتابُ « المَعارِجُ والمُطَارَحَات » ، وكِتابُ « حِكْمَةُ الإشْراقِ » وسائِرُها لَيْسَ من عُلُومِ الإسْلام .

قال ابنُ خلِّكان : وكان يُتَّهَمُ بالانْحِلالِ والتَّعْطِيلِ ، ويَعْتَقِدُ مَذهبَ الأوَائِل ، اشْتُهِرَ ذلكَ عَنه ، وأَفْتَىٰ عُلَمَاءُ حَلَبَ بقَتْلِه .

قال الذهبيُّ : أَحْسَنُوا وأَصَابُوا[1] .

قال المُوَفَّقُ يَعيشُ النَّحْويُّ : لمَّا تَكلَّمُوا فيه ، قالَ له تِلمِيذُه : إنَّكَ تَقُولُ : النُّبُوَّةُ مُكْتَسَبَةٌ ، فانْزِحْ بنا ، قالَ : حتّىٰ نَأْكُلَ بطبخَ حَلبْ ، فإنَّ بي طَرَفاً من السُّلِّ ، ثمَّ خَرَجَ إلىٰ قَريةٍ بها بطيخٌ ، فأقَمْنا أيّاماً ، فجَاءَ يوماً إلىٰ مَحْفرةٍ فحَفَرَ حتىٰ ظَهرَ له حَصَىٰ ، فدَهَنَه بدُهْنٍ معَه ، ولَفَّهُ في قُطنٍ ، وحَمَلَه في وَسَطِه أيّاماً ، ثمَّ ظَهرَ كُلُّهُ ياقُوتاً أَحْمَر ، فباعَ منه ، ووَهَبَ أَصْحابَه ، ولمَّا قُتِلَ كان مَعهُ منْهُ .

قال الذهبيُّ : كانَ أحمَقَ طيَّاشاً مُنْحَلاً .

قُتِلَ في أوائِل سَنةِ سَبعٍ وثمانينَ وخَمسِ مِئَة[2] .

(د) الخِدَع والحِيَل :

قال التَّنُوخيُّ : أخْبَرَنا أبي قال : مِنْ مَخاريق الحَلاَّجِ : أنَّه كان إذا أرادَ سَفراً ومَعه مَنْ يَتنمَّسُ عليه ويَهُوسُه ، قدَّمَ قبلَ ذلك من أصْحابه الذين يَكشِفُ لهم الأمرَ ، ثمَّ يَمْضي إلى الصَّحْراءِ ، فيَدْفِنُ فيها كَعْكاً ، وسُكَّراً وسَويقاً ، وفاكِهةً يابِسَةً ، ويعلِّمُ علىٰ مَواضِعها بحَجَر ، فإذا خَرَجَ القَومُ وتَعِبُوا قال أصْحابُه : نُريدُ السَّاعَةَ كَذا وكَذا فيَنْفَرِدُ ويُرَىٰ أنَّه يَدْعو ، ثمَّ يَجيءُ إلى المَوْضِعِ فيُخْرِجُ الدَّفينَ المَطلُوبَ منه ، أخْبَرَني بذلكَ الجَمُّ الغَفيرُ ، وأخْبَرُوني قالُوا : رُبَّما خَرَجَ إلىٰ بَساتينِ البَلَدِ ، فيُقدِّمُ مَنْ يَدْفنُ الفالوذَجَ الحار في الرُّقاقِ ، والسَّمَكَ السُّخنَ في الرُّقاقِ ، فإذا خَرَجَ طَلبَ منه الرَّجُلُ ـ في الحالِ ـ الذي دَفَنَه ، فيُخْرِجُه هو .

---

(١) انظر السير : (السُّهرورديّ) ٢١/٢٠٧ـ٢١١ ، وانظر النزهة : ١/١٦١٤ .
(٢) انظر السير : (السُّهرورديّ) ٢١/٢٠٧ـ٢١١ ، وانظر النزهة : ٢/١٦١٤ .

وقال التَّنُوخيُّ : أخبَرَنا أبي : سَمعتُ أحمَدَ بنَ يُوسُفَ الأزْرقُ : أنَّ الحَلاَّجَ لمَّا قَدمَ بَغدادَ اسْتَغْوَىٰ خَلقاً من النَّاسِ والرُّؤساءِ ، وكانَ طَمَعُه في الرَّافِضَةِ أقْوَىٰ لِدُخولِه في طَريقِهم ، فراسَلَ أبا سَهل ابنَ نوبخت يَسْتَغْويه وكانَ أبُو سَهلٍ فَطِناً ، فقالَ لرَسُولِه : هـٰذه المُعْجِزاتُ التي يُظْهِرُها يُمْكنُ فيها الحِيل ، ولَكنِّي رَجلٌ غَزِلٌ ، ولا لذَّةَ لي أكْبَرُ من النِّساءِ ، وأنا مُبْتَلىً بالصَّلَع ، فإنْ جَعَلَ لي شَعْراً وردَّ لِحْيَتي سَوداءَ ، آمَنْتُ بما يَدْعُوني إليه وقُلتُ : إنَّهُ بابُ الإمَام ، وإنْ شَاءَ قُلتُ : إنَّه الإمامُ ، وإنْ شاءَ قُلتُ : إنَّه النَّبيُّ ، وإنْ شاءَ قُلتُ : إنَّه اللهُ ، فآيَسَ الحَلاَّجُ منهُ وكَفَّ .

وقالَ الفَقيهُ أبو عليّ بنُ البَنَّاءِ : كانَ الحَلاَّجُ قَد ادَّعَىٰ أنَّه إلَـٰهٌ وأنَّه يَقولُ بحُلُولِ اللاَّهُوتِ في النَّاسُوتِ ، فأحْضَرَهُ الوَزيرُ عليُّ بنُ عيسَىٰ فلَمْ يَجْدهُ ـ إذْ سَألَه ـ يُحْسِنُ القُرآنَ والفِقْهَ ولا الحَديثَ فقالَ : تَعَلُّمُكَ الفَرضَ والطَّهورَ أجْدَىٰ عَليكَ من رَسائِلَ لا تَدْري ما تَقُولُ فيها كَمْ تَكتُبُ ـ وَيْلَك ـ إلى النَّاسِ : تَبارَكَ ذو النُّورِ الشَّعْشَعانيّ ؟! ما أَحْوَجَكَ إلىٰ أدَبٍ! وأمَرَ به فصُلِبَ في الجانِبِ الشَّرْقيِّ ، ثمَّ في الغَربيِّ ، ووَجَدَ في كُتُبِه : إنِّي مُغْرِقُ قَومِ نُوحٍ ، ومُهْلِكُ عادٍ وثَمُودَ .

وكان يَقولُ للواحِدِ من أصْحابِه : أنْتَ نُوحٌ ، ولآخَرَ : أنْتَ مُوسَىٰ ولآخَرَ : أنْتَ مُحمّدٌ .

وقالَ مُحمّدُ بنُ يَحْيَى الرَّازي : سَمعتُ عَمرَو بنَ عُثمانَ يَلْعنُ الحَلاَّجَ ويَقولُ : لَوْ قَدَرتُ عَليه لقَتَلْتُه بيَدِي فقُلتُ : أيش وَجَدَ الشَّيخُ عليه ؟ قالَ : قَرأتُ آيةً من كِتابِ الله فقال : يُمْكِنُني أنْ أُؤلِّفَ مِثلَه .

وقال أبُو يَعقُوبَ النُّعْمانيُّ : سَمعتُ أبا بَكرٍ مُحمّدَ بنَ داوُدَ الفَقيهَ يَقولُ : إنْ كانَ ما أَنْزَلَ اللهُ علىٰ نَبيِّه حَقاً ، فما يَقولُ الحَلاَّجُ باطِلٌ ، وكان شَديداً عَليه[1] .

---

(١) انظر السير : (الحلاّج) ١٤/ ٣١٣ـ ٣٥٤ ، وانظر النزهة : ١/١١٥٥ .

(هـ) إسْقاطُ الواجِبَات :

قالَ أبُو القاسِم التَّنُوخيّ : أخبرَنا أبي : حَدَّثني حُسَينُ بنُ عَبَّاس عَمَّنْ حَضَرَ مَجلِسَ حامِد وجاؤُوهُ بدَفاتِرِ الحَلاَّجِ ، فيها : أَنَّ الإنْسَانَ إذا أرادَ الحَجَّ فإنَّه يَسْتَغْني عنه بأنْ يَعمدَ إلىٰ بَيتٍ في داره ، فيَعْملَ فيه مِحْراباً ، ويَغْتَسلَ ويُحْرِمُ ويَقولَ كَذا وكَذا ، ويُصَلِّي كَذا وكَذا ، ويَطُوفَ بذلك البَيتِ ، فإذا فَرَغَ فقد سَقَطَ عَنهُ الحَجُّ إلى الكَعْبَةِ ، فأَقَرَّ به الحَلاَّجُ وقالَ : هـٰذا شيءٌ رَوَيتُه كَما سَمعتُه ، فتَعَلَّقَ بذلكَ عليه الوَزيرُ ، واسْتَفْتى القاضِيَينِ : أبا جَعفَر أحمدَ ابنَ البُهْلول ، وأبا عُمَرَ مُحمّدَ ابنَ يُوسُف ، فقال أبو عُمَر : هَـٰذه زَنْدَقَةٌ يَجبُ بها القَتلُ وقال أبو جَعفَر : لا يَجبُ بهـٰذا قَتلٌ إلاَّ أنْ يُقِرَّ أنَّه يَعْتَقدُه ، لأنَّ النَّاسَ قد يَرْوُونَ الكُفرَ ولا يَعْتَقدُونَه ، وإنْ أَخْبَرَ أنَّه يَعتَقِدُه اسْتُتيبَ منه ، فإنْ تابَ فلا شيءَ عليه ، وإلاَّ قُتِلَ ، فعَمِلَ الوَزيرُ علىٰ فَتْوَىٰ أبي عُمَر علىٰ ما شاعَ وذاعَ من أمْرِه ، وظَهرَ من إلْحادِه وكُفْرِه فاسْتُؤْذِنَ المُقتَدِرُ في قَتْلِه ، وكان قد اسْتَغْوَىٰ نَصْراً القَشُوريَّ من طَريقِ الصَّلاحِ والدِّين ، لا بما كان يَدعُو إليه ، فخَوَّفَ نَصرٌ السَّيدةَ أُمَّ المُقتَدِر من قَتْلِه وقال : لا آمَنُ أنْ يَلْحَقَ ابنَكِ عُقوبَةُ هـٰذا الصَّالِح فمَنَعَت المُقتدرَ من قَتْلِه ، فلَمْ يَقبَلْ ، وأمَرَ حامِداً بقَتْلِه ، فحُمَّ المُقتدرُ يَومَه ذلك ، فازْدادَ نَصرٌ وأُمُّ المُقتدِر افْتِتاناً ، وتَشَكَّكَ المُقتدرُ ، فأنْفَذَ إلىٰ حامد يَمنعُه من قَتْلِه ، فأخَّرَ ذلك أيَّاماً إلىٰ أنْ عُوفِيَ المُقتدرُ ، فألَحَّ عليه حامدٌ وقال : يا أميرَ المُؤمنينَ ، هـٰذا إنْ بَقِيَ قَلَبَ الشَّريعَةَ ، وارْتَدَّ خَلقٌ علىٰ يَدِه ، وأدَّىٰ ذلكَ إلىٰ زَوالِ سُلطانِك ، فدَعْني أَقْتُلهُ ، وإنْ أصابَكَ شَيءٌ فاقْتُلني ، فأذِنَ له في قَتْله ، فقَتَلَه مِنْ يَومِه ، فلمَّا قُتِلَ قال أصْحابُه : ما قُتِلَ وإنَّما قُتِلَ بِرْذَوْنٌ كان لفُلان الكاتب ، نَفَقَ[1] يومَئِذ وهو يَعودُ إلَيْنا بعدَ مُدّة ، فصارَتْ هـٰذه الجَهالَةُ مَقالَةَ طائِفَة قال : وكانَ أكْثَرُ مَخاريق الحَلاَّج أنَّه يُظْهِرُها كالمُعْجزاتِ ، يَسْتَغْوي بها ضَعَفَةَ النَّاسِ .

ثمَّ قُطِعَتْ يَدُه ، ثمَّ رِجلُه ، ثمَّ حُزَّ رَأسُهُ ، وأُحرِقَتْ جُثَّتُه ، ونُصِبَ الرَّأسُ يَومَينِ

---

(١) أي مات .

ببَغْدادَ ، ثمَّ حُمِلَ إلىٰ خُراسَانَ وطِيفَ به وأقْبَلَ أصْحابُه يَعِدُونَ أنْفُسَهُم برُجُوعِه بعدَ أرْبَعينَ يَوماً .

قال السُّلميُّ : وحُكِيَ عَنهُ أنَّه رُئِيَ واقِفاً في المَوْقِفِ ، والنَّاسُ في الدُّعاءِ ، وهو يَقولُ : أُنَزِّهُكَ عمَّا قَرَفَكَ به عبادُك ، وأبْرَأُ إليكَ ممَّا وَحَدَّكَ به المُوَحِّدون .

قال الذهبيُّ : هـٰذا عَينُ الزَّندَقَة ، فإنَّه تبَرَّأَ ممَّا وَحَّدَ اللهُ به المُوحِّدون الذين هم الصَّحابَةُ والتَّابِعُونَ وسائِرُ الأمَّة ، فهلْ وَحَّدوهُ تَعالَىٰ إلاَّ بكلِمَةِ الإخْلاصِ التي قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ قَالَهَا مِنْ قَلْبِه فقَدْ حَرُمَ مَالُهُ ودَمُهُ » ، وهي : شَهادَةُ أنْ لا إلَـٰهَ إلاَّ اللهُ وأنَّ مُحمَّداً رسُولُ الله فإذا بَرِىءَ الصُّوفيُّ منها ، فهُو مَلْعونٌ زِنْديقٌ ، وهو صُوفيُّ الزِّيِّ ، والظاهِر ، مُتسَتِّرٌ بالنَّسَبِ إلى العارِفينَ ، وفي الباطِنِ فهُو من صُوفيَّة الفَلاسِفَة أعْداءِ الرُّسُلِ كمَا كانَ جَماعَةٌ في أيّام النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم مُنْتَسِبون إلىٰ صُحْبَتِه وإلىٰ مِلَّتِه ، وهُم في البَاطِنِ من مَرَدَةِ المُنافِقين ، وقَد لا يَعْرِفُهُم نَبيُّ الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يَعْلَمُ بهم ، قال اللهُ تَعالَىٰ : ﴿ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ [1] ، [2] .

وجاءَ في تَرْجَمَة ابنِ أبي العَزاقِر الزِّنديقِ الرَّافضيّ :

ومِنْ رَأيِه تَركُ الصَّلاةِ والصَّومِ ، وإباحَةُ كلِّ فَرْجٍ ، وأنَّه لا بُدَّ للفاضِلِ أنْ يَنيكَ المَفْضُولَ ليُولِجَ فيه النُّورَ ، ومَنْ امْتَنعَ مُسِخَ في الدَّورِ الثاني ، فرَبَطَ الجَهلَةَ وتَخرَّقَ ، وأضَلَّ طائِفَةً ، فأظْهرَ أمرَهُ أبُو القاسِمِ الحُسَينُ بنُ روح ـ رأسُ الشِّيعَة ، المُلَقَّبُ بالبَاب ـ إلىٰ صاحِبِ الزَّمانِ ، فطُلِبَ ابنُ أبي العزاقر ، فاخْتَفَىٰ ، وتَسَحَّبَ إلى المُوصِل ، فأقامَ هناكَ سِنينَ ورَجَعَ ، فظَهَرَ عَنهُ ادِّعاءُ الرُّبوبيَّةِ ، واتَّبَعَه الوَزيرُ حُسَينُ ابنُ الوَزيرِ القاسِمِ بنِ عُبَيدِ الله بنِ وَهْب ـ وَزيرُ المُقْتَدِر ـ فيما قِيلَ ، وابْنا بِسْطام وإبراهيمُ بنُ أبي عَون ، فطُلِبُوا ، فتَغيَّبوا ، فلمَّا كان في شَوَّالَ من سَنةِ اثنتَينِ وعِشرينَ ظَفرَ الوَزيرُ ابنُ مُقلة بهـٰذا ، فسَجَنَه ، وكَبَسَ دارَه ، فوَجَدَ فيها رِقاعاً وكُتُباً مِمَّا يُدَّعَىٰ عليه ، وفيها

---

(١) سورة التوبة ، الآية : ١٠١ .

(٢) انظر السير : (الحلاَّج) ١٤/٣١٣ـ٣٥٤ ، وانظر النزهة : ١/١١٥٦ .

خِطابُهُ بما لا يُخاطِبُ به بَشَر فعُرِضَتْ عليه فأقَرَّ أنَّها خُطُوطُهم ، وتَنصَّلَ ممَّا يُقالُ فيها ، وتَبرَّأ منهم فمَدَّ ابنُ عَبْدُوس يَدَه ، فصَفَعَه ، وأمَّا ابنُ أبي عَون فمَدَّ يَدَه إليه فارْتَعَدَتْ يَدُه ، ثمَّ قَبَّلَ لِحْيَته ورَأسَه وقال : إلَـٰهي ، ورازِقِي ، وسَيِّدي! فقالَ له الرَّاضي بالله : قد زَعَمتَ أنَّكَ لا تَدَّعي الإلَهيَّة ، فمَا هَـٰذا ؟ قالَ : وما عليَّ مِنْ قَولِ هـٰذا ؟ واللهُ يَعلَمُ أنَّني ما قُلتُ له : إنَّني إلَـٰهٌ قَطُّ .

فقالَ ابنُ عَبْدُوس : إنَّه لَمْ يَدَّعِ إلَـٰهيّة ، إنَّما ادَّعَىٰ أنَّه البابُ إلى الإمام المُنْتَظَر ثمَّ إنَّهم أُحْضِروا مَرَّاتٍ بمَحْضر الفُقَهاء والقُضاة ، ثمَّ في آخِر الأمْر أفْتَى العُلماءُ بإباحَةِ دَمِه ، فأُحْرِقَ في ذي القَعْدة من السَّنَة وضُرِبَ ابنُ أبي عَون بالسِّياطِ ، ثمَّ ضُرِبَتْ عُنُقُه وأُحْرِق .

وله مُصَنَّفاتٌ أدبيّة ، وكانَ من كِبارِ الكُتَّاب .

وقُتِلَ بسَبَبِه وَزيرُ المُقْتَدِر ، الحُسَينُ ، اتُّهِمَ بالزَّنْدَقَة ، وقُتِلَ أبُو إسْحاق إبراهيمُ بنُ أحمَدَ بن هِلال بنِ أبي عَون الأنْبارِيُّ الكاتِب .

وقد كانَ أبُو عليٍّ الحُسَينُ ـ ويُقالُ : الجمَّال ـ وزَرَ للمُقْتَدِر في سَنة تِسْع عَشرةَ وثلاث مِئَة ، ولَقَّبُوه عَميدَ الدولة ، وعُزِلَ بعدَ سَبعةِ أشْهرٍ وسُجِنَ ، وعُقِدَ له مَجْلسٌ في كائِنَة الشَّلْمَغانيّ ، ونُوظِرَ ، فظَهَرَت رِقاعُهُ يُخاطِبُ الشَّلْمَغانيَّ فيها بالإلَهيَّة ، وأنَّه يُحْييه ويُميتُه ، ويَسْألُه أنْ يَغْفِرَ له ذُنوبَه ، فأخْرِجَت تِلكَ الرِّقاعُ ، وشَهِدَ جَماعَةٌ أنَّه خَطُّه ، فضُرِبَت عُنُقُه وطِيفَ برأسِه في ذي الحِجَّة سَنةَ اثنَتين وعِشْرينَ وثلاث مِئَة وعاشَ ثمانياً وسَبعينَ سَنةً(١) .

(و) التَّزَهُّد :

وجاءَ في تَرجَمَةِ المُعْتَضِد باللهِ قالَ الذهبيُّ : ولمَّا قُتِلَ المُعْتَزُّ ، ثُمّ المُسْتَعينُ والمُهْتَدي وضَعُفَ شَأنُ الخِلافَةِ تَوَثَّبَ ابْنا الصَّفَّارِ إلىٰ أنْ أخَذَا خُراسَانَ بعدَ أنْ كانا يَعْمَلانِ النُّحاسَ ، وأقْبَلا لأخْذِ العِراقِ وقَلْعِ المُعْتَمِد .

---

(١) انظر السير : (ابن أبي العزاقر) ١٤/٥٦٦ـ٥٦٩ ، وانظر النزهة : ٤/١١٧٤ .

وتَوَثَّبَ طُرُقِيٌّ داهيةٌ بالزِّنج على البَصْرَة ، وأبادَ العِباد ومزَّقَ الجُيوشَ ، وحارَبوه بِضْعَ عَشرةَ سنةً إلىٰ أنْ قُتلَ وكان مارِقاً ، بلغَ جُنْدُه مئة ألف[1] .

فبَقِيَ يَتَشبَّهُ بهَؤلاءِ كُلُّ مَنْ في رَأسِه رئاسَةٌ ، ويَتَحيَّلُ على الأُمَّة ليُرْديهم في دِينِهم ودُنْياهُم ، فتَحَرَّكَ بقُرى الكُوفَةِ رَجلٌ أَظْهَرَ التَّعبُّدَ والتَّزهُّدَ ، وكانَ يَسفُّ الخُوصَ ويُؤْثِر ، ويَدْعُو إلىٰ إمامِ أهْلِ البَيْتِ ، فتَلَفَّقَ له خَلقٌ وتَألَّهُوا إلىٰ سَنةِ سِتٍّ وثَمانينَ ، فظَهَرَ بالبَحْرَينِ أبو سَعيد الجَنَّابيّ ، وكانَ قَمَّاحاً ، فصَارَ مَعهُ عَسْكرٌ كَبيرٌ ، ونَهَبُوا ، وفَعَلُوا القَبَائِحَ ، وتَزَنْدَقُوا ، وذَهَبَ الأخَوانِ يَدْعُوان إلى المَهْديِّ بالمَغْرِبِ ، فثارَ مَعهُما البَرْبَرُ ، إلىٰ أنْ مَلَكَ عبدُ الله المُلَقَّبُ بالمَهْديِّ غَالِبَ المَغْربَ ، وأظْهَرَ الرَّفْضَ ، وأبْطَنَ الزَّنْدَقَةَ ، وقامَ بَعدَهُ ابنُهُ ، ثُمَّ ابنُ ابنِه ، ثُمّ تَمَلَّكَ المُعِزُّ وأوْلادُه مِصْرَ والمَغْرِبَ واليَمنَ والشَّامَ ، دَهْراً طَويلاً فَلا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلاَّ بالله .

وفي سَنةِ ثَمانينَ عاثَتْ بَنُو شَيْبانَ ، فسَارَ المُعْتَضِدُ ، فلَحِقَهُم بالسِّنِّ ، فقَتَّلَ وغَرَّقَ ومَزَّقَهُم ، وغَنِمَ العَسكَرُ من مَواشِيهِم ما لا يُوصَفُ ، حتّىٰ أُبيعَ الجَمَلُ بخَمسَةِ دَراهِم ، وصَانَ نِساءَهُم وذَراريهم ، ودَخَلَ المُوصِلَ ، فجاءَتْهُ بَنُو شَيْبانَ ، وذَلُّوا ، فأخَذَ منهُم رَهائِنَ ، وأعْطَاهُم نِساءَهُم ، ومَاتَ في السِّجْنِ المُفَوِّضُ إلى الله ، وقِيلَ : كانَ المُعْتَضِدُ يُنادِمُه في السِّرِّ[2] .

وجاءَ في تَرجَمَةِ الشِّيعِيِّ ، قال الذهبيُّ : الدَّاعي الخَبيثُ ، أبُو عبدِ اللهِ ، الحُسَينُ بنُ أحمَد بنُ مُحمّد الصَّنْعاني ، من دُهاةِ الرِّجالِ الخَبيرينَ بالجَدَلِ ، والحِيَلِ وإغْواءِ بَني آدَم .

قامَ بالدَّعْوَةِ العُبَيْديَّة ، وحَجَّ ، وصَحِبَ قَوماً من كُتامة[3] ، ورَبَطَهُم وتَألَّهَ وتَزَهَّدَ وشَوَّقَ إلىٰ إمَامِ الوَقتِ ، فاسْتَجابَ له خَلْقٌ من البَرْبَر ، وعَسْكَرَ وحَارَبَ أميرَ المَغْرِبِ ابنَ الأغْلَب ، وهَزَمَه غَيرَ مَرَّةٍ ، وإلىٰ أنْ جاءَ عُبَيْدُ الله المَهْديُّ ، فتَسَلَّمَ المُلكَ ، ولَمْ

---

(١) انظر السير : (المُعتَضد بالله) ١٣/ ٤٦٣ـ٤٧٩ ، وانظر النزهة : ١١٠٦/ ٢ .

(٢) انظر السير : (المُعتَضدُ بالله) ١٣/ ٤٦٣ـ٤٧٩ ، وانظر النزهة : ١١٠٦/ ٣ .

(٣) كُتامة : قبيلة من البربر ببلاد المغرب .

يَجعلْ لهَـٰذا الدَّاعي ولا لأخِيهِ أبي العَبَّاسِ كَبيرَ وِلايَةٍ ، فغَضِبَا ، وأفْسَدَا عليه القُلُوبَ وحَارَباهُ ، وجَرَتْ أمُورٌ إلىٰ أنْ ظَفرَ بهِما المَهديُّ فقَتَلَهُما في ساعَةٍ ، سَنةَ ثَمانٍ وتِسْعينَ ومِئَتَينِ[1] .

وقال الغزاليُّ في « سِرِّ العَالَمين » : شاهدتُ قصَّةَ الحَسَنِ ابنِ الصَّبَّاحِ لمَّا تَزَهَّدَ تَحتَ حِصْنِ الألَموتِ ، فكانَ أهلُ الحِصْنِ يَتمنَّونَ صُعودَه ، ويَتَمنَّعُ ويقولُ : أما تَرَونَ المُنْكَرَ كَيفَ فَشَا ، وفَسَدَ النَّاسُ ، فصَبا إليه خَلقٌ وذَهَبَ أميرُ الحِصْنِ يَتصيَّدُ ، فوَثَبَ على الحِصْنِ فتَمَلَّكَه ، وبَعَثَ إلى الأميرِ مَنْ قتَلَه ، وكَثُرَت قِلاعُهُم ، واشْتَغَلَ عَنهُم أولادُ مَلِكْشاه باخْتِلافِهِم[2] .

جاءَ في تَرجَمَة عليِّ بنِ مَهْديّ ، قالَ الذهبيُّ : كانَ أبُوهُ من قَريةٍ بزَبيد من الصُّلَحاءِ ، فنَشَأَ عليٌّ في تَزهُّد ، وحَجَّ ولَقِيَ العُلماءَ وحَصَّلَ ، ثمّ وَعَظَ ، وذَمَّ الجُندَ .

وكانَ فَصيحاً صَبيحاً طَويلاً ، أخْضَرَ اللَّونِ ، طَيِّبَ الصَّوتِ ، غَزيرَ المَحْفوظِ ، مُتَصَوِّفاً ، خَبيثَ السَريرَة ، دَاهيةً ، يَتكلَّمُ على الخَواطِرِ فرَبَطَ الخَلقَ ، وكانَ يَعِظُ ويَنْتَحِبُ .

قال عُمارَةُ اليَمَنيُّ : لازَمْتُه سَنةً ، وتَرَكتُ التَّفَقُّهَ ، ونَسَكْتُ فأعادَني أبي إلى المَدرسَةِ ، فكُنتُ أزُورُه في الشَّهرِ ، فلمَّا اسْتَفْحَلَ أمْرُهُ تَركتُه .

ولَمْ يَزَلْ من سَنةِ خَمسمائة وثلاثين يَعِظُ ويُخَوِّفُ في القُرىٰ ، ويَحُجُّ علىٰ نَجيب ، وأطْلَقَتْ له السَّيدَةُ أمُّ فاتِك ولأقارِبِه خَراجَ أمْلاكِهِم ، فتَمَوَّلُوا إلىٰ أنْ صار جَمْعُهُ نَحوَ أرْبَعينَ ألفَ مُقاتِل ، وحارَبَ ، وكان يَقُولُ : دَنا الوَقتُ ، أزِفَ الأمْرُ ، كأنَّكُم بما أقُولُ لكُم عَياناً ، ثُمّ ثارَ ببلادِ خَولان ، وعاثَ وسَبَىٰ ، وأهْلَكَ النَّاسَ ، ثُمّ لَقيتُه عند الدَّاعي بجبْلة سَنةَ تسْع وأرْبَعينَ يَسْتَنجِدُ به ، فأبَىٰ ، ثُمّ دَبَّرَ علىٰ قَتلِ وَزيرِ آلِ فاتِك ، ثُمّ زَحَفَ إلىٰ زَبيد ، فقاتَلَه أهْلُها نَيِّفاً وسَبعينَ زَحْفاً ، وقُتِلَ خَلائِقُ من الفَريقَينِ ، ثُمّ قُتِلَ فَاتِكُ مُتَوَلِّي زَبيد ، وأخَذَها ابنُ مَهْديّ في رَجبَ سَنةَ أرْبعٍ وخَمسينَ وخَمسِ مِئَة ، فمَا

---

(١) انظر السير : (الشيعيّ) ١٤/٥٨-٥٩ ، وانظر النزهة : ١/١١٢٩ .

(٢) انظر السير : (المُستظهِرُ بالله) ١٩/٣٩٦-٤١٢ ، وانظر النزهة : ٢/١٤٩١ .

مُتّع ، وهَلَكَ بعدَ ثَلاثةِ أشْهُر ، وقامَ بعدَه ابنُه عبدُ النَّبيِّ ، وعَظُمَ ، حتّى اسْتَولَىٰ علىٰ سائِرِ اليَمَنِ ، وجَمَعَ أمْوالاً لا تُحْصَىٰ ، وكانَ ـ أَعْنِي الأبَ ـ يَرَى التَّكْفيرَ بالمَعَاصي ، ويَسْتحِلُّ وَطْءَ سَبايا مَنْ خالَفَه ، ويَعْتَقِدُ فيه قَومُهُ فَوقَ اعْتِقادِ الخَلْقِ في نَبيِّهم .

قال : وحُكِيَ لي عَنهُ أنَّهُ لَمْ يَثِقْ بيَمينِ مَنْ يَصْحَبُه حتّىٰ يَذْبَحَ وَلدَهُ أوْ أخَاهُ ، وكانَ يَقتُلُ بالتَّعذيبِ في الشَّمسِ ، ولا يَشْفَعُ أحَدٌ عِندَه ، ولَيسَ لأحَدٍ من عَسْكَرِه فَرَسٌ يَمْلِكُه ولا سِلاحٌ ، بَلْ الكُلُّ عِندَهُ إلىٰ وَقتِ الحَربِ ، والمُنْهَزِمُ منهُم يُقْتَلُ جَزْماً ، والسَّكْرانُ يُقْتَلُ ، ومَنْ زَنَىٰ أوْ سَمِعَ غِناءً يُقتَلُ ، ومَنْ تَأخَّرَ عن صَلاةِ الجَماعَةِ قُتِلَ[1] .

(ز) ادِّعاءُ النِّسْبَةِ إلىٰ آلِ البَيْتِ :

قالَ الذهبيُّ في ترجمة الرِّياشيِّ : فِتْنَةُ الزِّنجِ كانَت عَظيمَةً ، وذلكَ أنَّ بَعضَ الشَّياطِينِ الدُّهاةِ كانَ طُرقيّاً أوْ مُؤدِّباً ، له نَظَرٌ في الشِّعْرِ والأخْبارِ ، ويَظْهَرُ من حَالِه الزَّنْدَقَةُ والمُروقُ ، ادَّعَىٰ أنَّه عَلَويٌّ ، ودَعَا إلىٰ نَفْسِه ، فالْتَفَّ عليه قُطَّاعُ طَريقٍ ، والعَبيدُ السُّودُ من غِلْمانِ أهْلِ البَصْرَةِ ، حتىٰ صارَ في عِدَّةٍ وتَحَيَّلوا وحَصَّلوا سُيوفاً وعِصيّاً ، ثمّ ثارُوا علىٰ أطْرافِ البَلَدِ ، فبَدَّعوا وقَتّلوا وقَوُوا ، وانْضَمَّ إليهم كُلُّ مُجرِمٍ ، واسْتَفْحَلَ الشَّرُّ بهم ، فسارَ جَيشٌ من العِراقِ لحَرْبِهم ، فكَسَروا الجَيشَ ، وأخَذُوا البَصْرَةَ ، واسْتَباحُوها ، واشْتَدَّ الخَطْبُ ، وصارَ قائِدُهم الخَبيثُ في جَيشٍ وأُهْبَة كاملة ، وعَزَمَ علىٰ أخْذِ بَغْدادَ ، وبَنَىٰ لنَفسِه مَدينَةً عَظيمَةً ، وحارَ الخَليفَةُ المُعْتَمدُ في نَفسِه ، ودامَ البَلاءُ بهـٰذا الخَبيثِ المَارِقِ ثلاثَ عَشرةَ سَنةً ، وهابَتْهُ الجُيوشُ ، وجَرَتْ معه مَلاحِمُ ووَقَعاتٌ يَطُولُ شَرحُها ، قد ذَكَرَها المُؤرِّخُونَ إلىٰ أنْ قُتِلَ ، فالزِّنجُ هم عِبارَةٌ عن عَبيدِ البَصْرَةِ الذين ثارُوا مَعَه ، لا بارَكَ اللهُ فيهِم[2] .

قال الذهبيُّ في تَرجَمَةِ المَهْديِّ : عُبَيْدُ الله أبو مُحمّد ، أوَّلُ مَنْ قامَ من الخُلَفاءِ

---

(١) انظر السير : (عليّ بن مَهدي) ٢٠/ ٣٢١ـ٣٢٢ ، وانظر النزهة : ١٥٥٥ ـ ١٥٥٦ .

(٢) انظر السير : (الرياشيّ) ١٢/ ٣٧٢ـ٣٧٦ ، وانظر النزهة : ١٠١٠/١ .

الخَوارِجِ العُبَيْديَّة الباطِنيَّة الذين قَلَبوا الإسْلامَ ، وأَعْلَنوا بالرَّفْضِ ، وأبْطَنُوا مَذْهَبَ الإسْماعِيليَّةِ ، وبَثُّوا الدُّعاةِ ، يَسْتَغْوونَ الجَبَليَّةَ والجَهَلَةَ .

وادَّعَىٰ هـٰذا المُدَبَّرُ ، أنَّه فاطِميٌّ من ذُرِّيَّةِ جَعْفَرٍ الصَّادِق .

وقِيلَ : كانَ أبُوهُ يَهُوديّاً[١] .

والمُحَقِّقُونَ علىٰ أنَّه دَعِيٌّ بحَيثُ إنَّ المُعِزَّ منهُم لمَّا سَأَلَهُ السَّيدُ ابنُ طَباطَبا عن نَسَبِه ، قال : غَداً أُخْرِجُهُ لَكَ ، ثمَّ أصْبَحَ وقد أَلْقَىٰ عَرَمَةً[٢] من الذَّهَبِ ، ثمَّ جَذَبَ نِصْفَ سَيْفِه من غِمْدِه ، فقالَ : هـٰذا نَسَبِي ، وأمَرَهُم بنَهْبِ الذَّهَبِ ، وقالَ : هـٰذا حَسَبِي .

وقد صَنَّفَ ابنُ الباقِلاَّنيُّ وغَيرُه من الأئِمَّة في هَتْكِ مَقالاتِ العُبَيْديَّة وبُطْلانِ نَسَبِهم ، فهَـٰذا نَسَبُهُم ، وهَـٰذِه نِحْلَتُهُم ، وقد سُقْتُ في حَوادِثِ « تاريخِنا » من أحْوالِ هَؤلاءِ وأخْبارِهِم في تَفارِيقِ السِّنينِ عَجائِبَ .

فرأىٰ عُبيدُ الله أنَّ ما يَرومَه من المُلك ، لا يَنبَغي أنْ يَكونَ ظُهورُه بالعِراق ولا بالشَّام ، فبعثَ أولاً له داعِيَيْن شَيطانَيْن داهِيَتَيْن ، وهما الأخَوان أبو عبد الله الشِّيعيّ ، وأخُوه العَبَّاس ، فظَهَرَ أحدُهما باليَمَن والآخَرُ بأفْريقية ، وأظْهَرَ كلٌّ منهما الزُّهْدَ والتَّألُّهَ وأدَّبا أولادَ النَّاسِ ، وشَوَّقا إلى الإمامِ المَهْديِّ[٣] .

٤ـ حادِثَةٌ فيها عِظَةٌ لفاسِدي العَقيدَة :

قالَ هارُونُ الحَمَّالُ : حَدَّثنا مُحمَّدُ بنُ أبي كَبْشَة قال : كُنتُ في سَفينَةٍ ، فسَمِعتُ هاتِفاً يقولُ : لا إلَـٰهَ إلاَّ الله ، كَذَبَ المَريسِيُّ على الله ، ثُمَّ عادَ الصَّوتُ يَقولُ : لا إلَـٰهَ إلاَّ الله ، علىٰ ثُمامَةَ والمَريسِيِّ لَعْنةُ الله ، قالَ : ومَعَنا رَجُلٌ من أصْحابِ المَريسِيِّ في المَرْكبِ ، فَخَرَّ مَيِّتاً[٤] .

---

(١) انظر السير : (المَهديّ وذريته) ١٥/١٤١ـ١٥١ ، وانظر النزهة : ١/١١٩٧ .

(٢) العَرَمَة : بالتحريك ، مجمع رمل ، وقد استعمله هنا بمعنىٰ كومة من الذهب .

(٣) انظر السير : (المَهديّ وذريته) ١٥/١٤١ـ١٥١ ، وانظر النزهة : ٢/١١٩٧ .

(٤) انظر السير : (ثُمامة بن أشرس) ١٠/٢٠٣ـ٢٠٦ ، وانظر النزهة : ٦/٨٦٨ .

٥ـ تَعْليلٌ لظُهورِ الكَشْفِ والإخْبارُ بالغَيبِ عند الضَّالِّينَ :

قال الذهبيُّ : كانَ يُونُسُ بنُ يُوسُف ذَا كَشْفٍ وحالٍ ، ولَمْ يَكُنْ عندَه كَبيرُ عِلمٍ ، ولَه شَطَحٌ ، وشِعْرٌ مَلْحُونٌ يَنْظِمُه علىٰ لِسانِ الرُّبوبيَّة ، وبَعضُهُ كأنَّه كَذِبٌ ، واللهُ أعْلَمُ بسِرِّه ، فلا يَغْتَرُّ المُسلِمُ بكَشْفٍ ولا بحالٍ ولا بإخْبارٍ عن مُغَيَّب ، فابنُ صائِدٍ وإخْوانُه الكَهَنَة لهم خَوارق ، والرُّهْبانُ فيهم مَنْ قد تَمَزَّقَ جُوعاً وخُلْوَةً ومُراقبَةً علىٰ غَيرِ أساسٍ ولا تَوْحيدٍ ، فصَفَتْ كَدُوراتُ أنفسِهُم وكاشَفُوا وفَشَروا ولا قُدْوَةَ إلاَّ في أهْلِ الصَّفْوَةِ وأرْبابِ الولايَةِ المَنوطَةِ بالعِلمِ والسُّنَن ، فنَسْألُ اللهَ إيْمانَ المُتَّقين ، وتَألُّهَ المُخْلِصين ، فكَثيرٌ من المَشايخِ نَتَوقَّفُ في أمْرِهِم حتّىٰ يَتَبَرهَنُ لنا أمْرُهُم ، وبالله الاسْتِعانَةُ .

تُوفِّيَ الشَّيخُ يُونُس سَنَة تِسعَ عَشرَةَ وستِّ مِئَة[١] .

وجاءَ في تَرجَمَةِ الحَريريّ ، عليُّ بنُ أبي الحَسَنِ بن المَنْصُورِ ، قال الذهبيُّ : ومِمَّنْ انْتَصَرَ له وخَضَعَ لِكَشْفِه الإمامُ أبو شامَة[٢] ، فقال : كانَ عندَه من القيامِ بواجِبِ الشَّريعَةِ ما لَمْ يَعْرِفْه أحدٌ من المُتَشَرِّعين ظاهراً وباطِناً ، وأكْثرُ النَّاسِ يَغْلِطُونَ فيه ، كان مُكاشِفاً لما في الصُّدورِ بحَيثُ قد أطْلَعَه اللهُ علىٰ سَرائِرِ أوْليائِه[٣] .

قال الذهبيُّ : ما هَـٰذا ؟!! ، اتَّقِ اللهَ ، فالكَهَنَةُ وابنُ صَائدٍ مُكاشِفُونَ لما في الضَّمائِرِ .

قالَ عن نَفْسِه[٤] .

فَقيرٌ ولكِنْ مِنْ صَلاحٍ ومِنْ تُقًى ... وشَيْـخٌ ولكِـنْ للفُسُـوقِ إمَـامُ

جاءَ في تَرجَمَة القَمّينيِّ ، قالَ الذهبيُّ : الشَّيخُ يُوسُفُ القَمّينيُّ المُوَلَّهُ بدِمَشْقَ ، كانَ للنَّاسِ في هـٰذا اعْتِقادٌ زائِدٌ لِمَا يَسْمَعونَ من مُكاشَفَتِه التي تَجْري علىٰ لسانِه كمَا يَتمُّ

---

(١) انظر السير : (يُونُس ابن يُوسُف) ٢٢/١٧٨ـ١٧٩ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٨٣ .

(٢) قال صاحب النزهة : لم نجد هـٰذا الكلام في ذيل الروضتين لابن شامة حين ترجم له في وفاته سنة ٥٤٦ هـ ، بل نجد خلاف ذلك ذماً له وقد نسب ابن تغري بردي إلىٰ أبي شامة أيضاً أنه أثنىٰ على الحريري .

(٣) انظر السير : (الحَريريّ) ٢٣/ ٢٢٤ـ٢٢٧ ، وانظر النزهة : ٥/١٧٣٣ .

(٤) انظر السير : (الحَريريّ) ٢٣/ ٢٢٤ـ٢٢٧ ، وانظر النزهة : ٦/١٧٣٣ .

للكاهِنِ في نُطْقِه بالمُغَيَّباتِ كانَ يَأوي إلى القَمامينَ والمَزابِلِ التي هي مَأوَى الشَّياطِينِ ، ويَمشِي حافِياً ، ويَكْنِسُ الزَّبَلَ بثِيابِه النَّجِسَة ببَوْلِه ، ويَتَرَنَّحُ في مَشْيِه ، وله أكْمامٌ طِوالٌ ، ورَأسُه مَكْشوفٌ ، والصِّبيانُ يَعْبَثون به ، وكان طَويلَ السُّكوتِ قَليلَ التَّبَسُّمِ ، يَأوي إلىٰ قُمِّين حَمَّام نورِ الدِّينِ ، وقد صارَ باطِنُه مَأوَىٰ لقَرينِه ، ويَجْري فيه مَجْرَى الدَّمِ ، ويَتكلَّمُ فيَخْضعُ له كُلُّ تالِفٍ ، ويَعْتقدُ أنَّه وَليٌّ لله ، فَلا قُوَّةَ إلاَّ باللهِ[1] .

وقد رَأيتُ غَيرَ واحدٍ من هٰذا النَّمَطِ الذين زَالَ عَقلُهُم أو نَقُصَ يَتَقلَّبُونَ في النَّجاساتِ ، ولا يُصَلُّونَ ، ولا يَصُومُون ، وبالفُحْشِ يَنْطِقُون ، ولهُم كَشفٌ كما واللهِ للرُّهبانِ كَشفٌ ، وكما للسَّاحِرِ كَشفٌ وكما لِمَنْ يُصْرَعُ كَشفٌ ، وكما لِمَنْ يَأكُلُ الحَيَّةَ ويَدخُلُ النَّارَ حالٌ مع ارْتِكابِه للفَواحِشِ ، فواللهِ ما ارْتَبَطُوا علىٰ مُسَيْلِمَةَ والأسْوَدِ إلاَّ لإتْيانِهِم بالمُغَيَّبات .

تُوفِّي سنة سبعٍ وخمسين وستِّ مئة[2] .

* * *

---

(١) انظر السير : (القُمّينيّ) ٢٣/ ٣٠٢ـ ٣٠٣ ، وانظر النزهة : ١/١٧٣٦ .

(٢) انظر السير : (القُمّينيّ) ٢٣/ ٣٠٢ـ ٣٠٣ ، وانظر النزهة : ٢/١٧٣٦ .

فِرَقٌ وآراءٌ اعْتقاديَّة

أولاً : الأشاعِرَة

١ـ عَقيدةُ أبي الحَسَن الأشْعَريّ :

قال الإمامُ الذهبيُّ في تَرجمَةِ أبي الحَسَنِ الأشْعَريّ : رَأيتُ لأبي الحَسَنِ أرْبعَةَ تَواليف في الأُصولِ يَذْكرُ فيها قَواعِدَ مَذهَبِ السَّلَفِ في الصِّفاتِ ، وقالَ فيها : تُمَرُّ كما جاءَتْ ، ثُمَّ قالَ : وبذلك أقُولُ ، وبه أَدينُ ، ولا تُؤَوَّل .

قال الذهبيُّ : ماتَ ببَغْدادَ سَنةَ أرْبعٍ وعِشْرينَ وثلاث مِئَة حَطَّ عليه جَماعَةٌ من الحَنابِلَة والعُلماءِ ، وكُلُّ أحَدٍ فيُؤخَذُ منَ قَولِه ويُتْرَك ، إلاَّ مَنْ عَصَمَ الله تَعالَى اللَّهُمَّ اهْدِنا ، وارْحَمنا .

ولأبي الحَسَنِ ذَكاءٌ مُفْرط ، وتَبَحُّرٌ في العِلمِ ، وله أشْياءُ حَسَنةٌ وتَصانيفُ جَمَّةٌ تَقضي له بسِعَة العِلمِ[١] .

٢ـ قال الذهبيُّ : الأشاعِرَةُ الأوائِلُ كانُوا علىٰ طَريقَةِ السَّلَف :

وقالَ الذهبيُّ بعدَ مَقُولَة أبي ذَرٍّ الهَرويّ : « قد بَينَّا دينَ الأُمَّة ، وأهْلِ السُّنَّة أنَّ هـٰذه الصِّفاتِ تُمَرُّ كما جاءت بغَيرِ تَكْييف ولا تَحْديد ولا تَجْنيس ولا تَصْوير » ، فهَـٰذا المَنْهجُ هو طَريقَةُ السَّلَفِ ، وهو الذي أَوْضَحَه أبو الحَسَن وأصْحابُه ، وهو التَّسْليمُ لنُصوصِ الكِتابِ والسُّنَّة ، وبه قالَ ابنُ الباقِلاَّنيّ وابنُ فُوْرَك ، والكِبارُ إلىٰ زَمَنِ أبي المَعالي ، ثم زَمنِ الشَّيخِ أبي حامِد فوَقَعَ اخْتلافٌ وألْوانٌ ، نَسأَلُ اللهَ العَفْوَ[٢] .

---

(١) انظر السير : (الأشْعريّ) ١٥/ ٨٥ـ ٩٠ ، وانظر النزهة : ٣/١١٨٤ .

(٢) انظر السير : (أبو ذر الهرويّ) ١٧/ ٥٥٤ـ ٥٦٣ ، وانظر النزهة : ١/١٣٦٣ .

قالَ عبدُ العَزيزِ بنُ أحمَدَ الكَتانيّ : وكانَ الخَطيبُ البَغْداديُّ يَذهبُ إلىٰ مَذهبِ أبي الحَسَنِ الأشْعَري ، رَحِمَهُ الله .

قالَ الذهبيُّ : صَدَقَ فقَد صَرَّحَ الخَطيبُ في أخْبارِ الصِّفاتِ أنَّها تُمَرُّ كما جاءَتْ بلا تَأويل[١] .

٣ـ الأشاعِرةُ الذَّابُّونَ عن الإسْلام :

ابنُ الباقِلاَّنيّ :

هو الإمامُ العَلاَّمَة ، أوْحَدُ المُتكَلِّمين ، مُقدَّمُ الأُصوليِّين ، القاضي أبُو بَكْر ، مُحمَّدُ ابنُ الطيِّب بنِ مُحمَّدٍ ، البَصْريّ ، البَغْداديّ ، ابنُ الباقِلاَّنيّ صاحبُ التَّصانيف ، وكان يُضْرَبُ المَثلُ بفَهْمِه وذَكائِه .

وكان ثِقةً إماماً بارِعاً ، صَنَّفَ في الرَّدِّ على الرَّافِضَة والمُعْتَزلَة والخَوارِج والجَهميَّة والكَرَّاميَّة ، وانْتَصَرَ لطَريقَةِ أبي الحَسَنِ الأشْعَريِّ ، وقد يُخالِفُه في مَضائِقَ ، فإنَّه من نُظَرائِه ، وقد أخَذَ عِلمَ النَّظَرِ عن أصْحابِه[٢] .

قالَ أبو بَكْر الخَطيبُ : كان وِرْدُه في كُلِّ لَيلةٍ عِشْرينَ تَرْويحَة في الحَضَر والسَّفَر ، فإذا فَرَغَ منها ، كَتَبَ خَمْساً وثَلاثينَ وَرَقَةً من تَصْنيفِه[٣] .

وقد سارَ القاضي رَسُولاً عن أميرِ المُؤمِنينَ إلىٰ طاغِيَةِ الرُّوم ، وجَرَتْ له أمُورٌ ، منها أنَّ المَلِك أدْخَلَه عليه من بابِ خوخةٍ[٤] ليَدخُلَ راكِعاً للمَلِكِ ففَطِنَ لها القاضي ، ودَخَلَ بظَهْرِه[٥] .

ومنها أنَّه قالَ لراهِبِهم : كَيفَ الأهْلُ والأوْلادُ ؟!! ، فقالَ المَلِكُ : مَهْ!! ، أمَا

---

(١) انظر السير : (الخطيب) ١٨/ ٢٧٠ـ٢٩٧ ، وانظر النزهة : ١/١٤١٢ .
(٢) انظر السير : (ابن الباقِلاَّنيّ) ١٧/ ١٩٠ـ١٩٣ ، وانظر النزهة : ٢/١٣٣٤ .
(٣) انظر السير : (ابن الباقِلاَّنيّ) ١٧/ ١٩٠ـ١٩٣ ، وانظر النزهة : ٣/١٣٣٤ .
(٤) باب خوخة : هو باب صغير ضمن باب كبير لا يتمكن الإنسان من دخوله إلاَّ أن يحني رأسه .
(٥) انظر السير : (ابن الباقِلاَّنيّ) ١٧/ ١٩٠ـ١٩٣ ، وانظر النزهة : ٤/١٣٣٤ .

عَلمْتَ أنَّ الرَّاهِبَ يَتنزَّهُ عن هـٰذا ؟ فقالَ : تُنَزِّهُونَه عن هـٰذا ، ولا تُنَزِّهُونَ رَبَّ العَالَمينَ عن الصَّاحِبَةِ والوَلَدِ ! ![1] .

وقِيلَ : إنَّ الطَّاغِيَةَ سَألَهُ : كَيفَ جَرَىٰ لزَوْجَةِ نَبيِّكُم ؟ ـ يَقْصِدُ تَوْبيخاً ـ فقالَ : كَما جَرَىٰ لمَرْيَمَ بنتِ عِمْرانَ ، وبرَّأهُمَا اللهُ ، لَكنَّ عائِشَةَ لَمْ تَأْتِ بوَلَدٍ فأفْحَمَهُ .

قالَ الخَطيبُ : سَمعتُ أبا بَكْر الخَوارِزْميَّ يَقولُ : كُلُّ مُصَنِّف ببَغْدادَ إنَّما يَنْقُلُ من كُتُبِ النَّاسِ سِوَى القاضي أبي بَكْر ، فإنَّما صَدْرُه يَحْوي عِلمَه وعِلمَ النَّاسِ[2] .

وقالَ أبُو مُحمّد البافي : لو أوْصَىٰ رَجلٌ بثُلثِ مالِه لأفْصَحِ النَّاسِ لوَجَبَ أنْ يُدْفَعَ إلىٰ أبي بَكْر الأشْعَريّ[3] .

وعَمِلَ بعضُهُم في مَوْتِ القاضي :

انْظُرْ إلىٰ جَبَلٍ تَمْشِي الرِّجَالُ به ... وانْظُرْ إلى القَبْرِ ما يَحْوِي من الصَّلَفِ
وانْظُرْ إلىٰ صَارِمِ الإسْلام مُنْغَمِداً ... وانْظُرْ إلىٰ دُرَّةِ الإسْلامِ في الصَّدَفِ

ماتَ سَنةَ ثلاثٍ وأربعِ مِئَة ، وصلَّىٰ عليه ابنهُ حَسَنٌ وكانت جِنازَتُه مَشْهودَة ، وكان سَيفاً على المُعْتَزِلَة والرَّافِضَة والمُشَبِّهَة ، وغالبُ قَواعِدِه على السُّنَّة ، وقد أمَرَ شَيخُ الحَنابِلَة أبُو الفَضْل التَّميميُّ مُنادياً يَقولُ بينَ يَديّ جِنازَته : هـٰذا ناصِرُ السُّنَّة والدين ، والذَّابُّ عن الشَّريعَةِ ، هـٰذا الذي صَنَّفَ ألفَ وَرَقَة ثم كان يَزورُ قَبرَه كُلَّ جُمُعَة[4] .

وقالَ أبو الوَليد الباجيُّ في كِتابِ « اخْتِصارُ فِرَق الفُقَهاء » من تَأليفِه في ذِكرِ القاضي ابن الباقِلاَّنيّ : لقد أخْبَرَني الشَّيخُ أبو ذَر ـ وكانَ يَميلُ إلىٰ مَذْهَبه ـ فسَألْتُه : مِنْ أيْنَ لكَ هـٰذا ؟ قالَ : إنِّي كُنتُ ماشياً ببَغْدادَ مع الحافِظِ الدَّارقُطنيِّ ، فلَقِينا أبا بَكْر ابنَ الطيِّب فالْتَزَمَه الشَّيخُ أبو الحَسَن وقَبَّلَ وَجْهَه وعَيْنَيه ، فلمَّا فارَقْناه ، قُلتُ له : مَنْ هَـٰذا الذي

---

(١) انظر السير : (ابن الباقِلاَّنيّ) ١٧/ ١٩٠ـ١٩٣ ، وانظر النزهة : ١/١٣٣٥ .
(٢) انظر السير : (ابن الباقِلاَّنيّ) ١٧/ ١٩٠ـ١٩٣ ، وانظر النزهة : ٢/١٣٣٥ .
(٣) انظر السير : (ابن الباقِلاَّنيّ) ١٧/ ١٩٠ـ١٩٣ ، وانظر النزهة : ٣/١٣٣٥ .
(٤) انظر السير : (ابن الباقِلاَّنيّ) ١٧/ ١٩٠ـ١٩٣ ، وانظر النزهة : ٤/١٣٣٥ .

صَنعْتَ به ما لَمْ أعْتَقِدْ أنَّكَ تَصْنَعُه وأنْتَ إمامُ وَقْتِكْ ؟!! فقالَ : هـٰذا إمامُ المُسْلِمينَ والذَّابُّ عن الدِّينِ ، هَـٰذا القاضِي أبو بَكْر مُحمَّدُ بنُ الطيِّب ، قال أبُو ذَر : فمِنْ ذلكَ الوَقتِ تكرَّرْتُ إليه مع أبي ، كُلُّ بَلَدٍ دَخَلتُه من بِلادِ خُراسَانَ وغَيرِها لا يُشارُ فيها إلىٰ أحَد من أهْلِ السُّنَّة إلاَّ مَنْ كان علىٰ مَذْهَبه وطَريقِه(١) .

قالَ الذهبيُّ عن الباقِلاَّنيّ : هو الذي كان ببَغْدادَ يُناظِرُ عن السُّنَّةِ وطَريقَةِ الحَديثِ والجَدَلِ والبُرهان ، وبالحَضْرةِ رُؤوسُ المُعْتَزلَة والرَّافِضَة والقَدَريَّة وألْوانِ البِدَعِ ، ولهُم دَولَةٌ وظُهورٌ بالدَّولةِ البُوَيْهيّة ، وكانَ يَرُدُّ على الكَرَّاميَّة ويَنْصُرُ الحَنابِلَةَ عليهِم ، وبَيْنَهُ وبَينَ أهْلِ الحَديثِ عامِرٌ ، وإنْ كانُوا قد يَخْتلِفُونَ في مَسائِلَ دَقيقَة ، فلهَـٰذا عامَلَهُ الدَّارَقُطْنيّ بالاحْتِرام ، وقد ألَّفَ كِتاباً سَمَّاهُ « الإبانَة » ، يَقولُ فيه : فإنْ قِيلَ : فما الدَّليلُ علىٰ أنَّ للهِ وَجْهاً ويَداً ؟ قال : قَولُهُ : ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾(٢) ، وقَولُهُ : ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾(٣) .

فأثْبَتَ تَعالَىٰ لنَفسه وَجْهاً ويَداً ، إلىٰ أنْ قالَ : فإنْ قِيلَ : فهَل تَقُولونَ : إنَّه في كُلِّ مَكانٍ ؟ قِيلَ : مَعاذَ اللهِ!! ، بَلْ هُوَ مُسْتوٍ علىٰ عَرْشِه كمَا أخْبَرَ في كِتابه ، إلىٰ أنْ قالَ : وصِفاتُ ذاتِه التي لَمْ يَزَلْ ولا يَزالُ مَوْصُوفاً بها : الحَياةُ والعِلْمُ والقُدْرَةُ والسَّمْعُ والبَصَرُ والكَلامُ والإرادَةُ والوَجْهُ واليَدَانِ والعَيْنانِ والغَضَبُ والرِّضَا فهَـٰذا نَصُّ كَلامِه وقالَ نَحْوَهُ في كِتابِ « التَّمْهيد » له ، وفي كِتابِ « الذَّبُّ عن الأشْعَريِّ » وقالَ : قَد بَيَنَّا دِينَ الأُمَّةِ وأهْلِ السُّنَّةِ أنَّ هـٰذه الصِّفاتِ تُمَرُّ كما جاءَتْ بغَيرِ تَكْييفٍ ولا تَحْديدٍ ولا تَجْنيسٍ ولا تَصْويرٍ(٤) .

قالَ الذهبيُّ : فهَـٰذا المَنْهجُ هو طَريقَةُ السَّلَفِ ، وهو الذي أَوْضَحه أبو الحَسَن وأصْحابُه ، وهو التَّسْليمُ لنُصوصِ الكِتابِ والسُّنَّة ، وبه قالَ ابنُ الباقِلاَّنيّ وابنُ فُوْرَك ،

---

(١) انظر السير : (أبو ذر الهروي) ١٧/ ٥٥٤ـ٥٦٣ ، وانظر النزهة : ١/١٣٦٢ .
(٢) سورة الرحمـٰن ، الآية : ٢٧ .
(٣) سورة ص ، الآية : ٧٥ .
(٤) انظر السير : (أبو ذر الهروي) ١٧/ ٥٥٤ـ٥٦٣ ، وانظر النزهة : ٢/١٣٦٢ .

والكِبارُ إلىٰ زَمَنِ أبي المَعالي ، ثم زَمنِ الشَّيخِ أبي حامِد فوَقَعَ اخْتلافٌ وألْوانٌ ، نَسألُ اللهَ العَفْوَ[1] .

٤ـ ذَمُّ الذهبيِّ بَعْضَ أصْحابِ الحَديثِ لشِدَّتِهم على الأشاعِرَة :

قال أبو طاهر السِّلَفيُّ : سَمعتُ أبا العَلاءِ مُحمَّدَ بنَ عبد الجبَّارِ الفُرْسانيَّ يَقولُ : حَضَرتُ مَجلِسَ أبي بَكْر بن أبي عليّ الذَّكْوانيّ المُعَدّل في صِغَري مع أبي ، فلمَّا فَرَغَ من إمْلائِه ، قال إنْسانٌ : مَنْ أرادَ أنْ يَحْضُرَ مَجلِسَ أبي نُعَيْم ، فلْيَقُمْ وكان أبو نُعَيْم في ذلك الوَقتِ مَهْجوراً بسَببِ المَذْهَب ، وكان بَيْنَ الأشْعَريَّة والحَنابِلَة تَعَصُّبٌ زائدٌ يُؤدِّي إلىٰ فِتْنَة ، وقِيلَ وقَالَ ، وصُداعٍ طَويلٍ ، فقامَ إليه أصْحابُ الحَديثِ بسَكاكين الأقْلامِ ، وكادَ الرَّجُلُ يُقْتَل .

قال الذهبيُّ : ما هَؤلاءِ بأصْحابِ الحَديثِ ، بَلْ فَجَرَةٌ جَهَلَةٌ ، أبْعدَ الله شَرَّهم[2] .

٥ـ رَدُّ الذهبيِّ علىٰ بَعضِ أصْحابِ الحَديثِ لشِدَّتِهم على الأشَاعِرَة :

عن يَحْيَى بن مَندة قال : سَمعتُ عمِّي عبدَ الرَّحمَـٰنِ ، سَمعتُ مُحمَّدَ ابنَ عُبَيْدِ الله الطَّبَرانيَّ يَقولُ : قُمتُ يَوماً في مَجْلِسِ والدِكَ رَحِمَه الله فقُلْتُ : أيُّها الشَّيخُ ، فينا جَماعَةٌ ممَّنْ يَدخُلُ علىٰ هـٰذا المَشْؤومِ ـ أعْنِي أبا نُعَيْمٍ الأشْعَريَّ ـ فقال : أخرِجُوهُم ، فأخْرَجْنا من المَجْلِس فُلاناً وفُلاناً ثم قال : على الدَّاخِلِ عليهم حَرجٌ أنْ يَدخُلَ مَجْلِسَنا ، أو يَسْمعَ منَّا ، أو يَرْوِيَ عنَّا ، فإنْ فَعَلَ فلَيْسَ هو منَّا في حِلّ .

قال الذهبيُّ : رُبَّما آلَ الأمرُ بالمَعْروفِ بصاحِبه إلى الغَضَبِ والحدَّةِ ، فيَقَعُ في الهُجْرانِ المُحرَّمِ ، ورُبَّما أفْضَىٰ إلى التَّكْفيرِ والسَّعْي في الدَّمِ ، وقد كان أبُو عَبدِ الله وافِرَ الجَاهِ والحُرْمَة إلى الغايَة ببَلَدِه ، وشَغبَ علىٰ أحمدَ بنِ عبد الله الحافِظِ ، بحَيثُ إنَّ أحمَدَ اخْتَفَىٰ[3] .

---

(١) انظر السير : (أبو ذر الهروي) ١٧/ ٥٥٤ـ ٥٦٣ ، وانظر النزهة : ١/١٣٦٣ .
(٢) انظر السير : (أبو نُعَيم) ١٧/ ٤٥٣ـ ٤٦٤ ، وانظر النزهة : ٢/١٣٤٩ .
(٣) انظر السير : (ابن مندة) ١٧/ ٢٨ـ ٤٣ ، وانظر النزهة : ٤/١٣٢٢ .

٦ـ الفِتَنُ بين الأشاعِرَة والحَنابلَة :

أبو جَعْفَر الهاشميّ

جاءَ في تَرجَمَة أبي جعفرٍ الهاشميّ ، قال الذهبيُّ : الإمامُ ، شَيخُ الحَنْبليَّة ، أبو جَعْفَر ، عبدُ الخالِق بنُ أبي مُوسَىٰ عيسَىٰ ، الهاشِميُّ ، العَبَّاسيُّ ، الحَنْبَليُّ ، البَغْداديّ ، مَوْلِدُه سَنَةَ إحْدَىٰ عَشْرَة وأرْبَع مِئَة .

قال أبو الحُسَيْن بنُ الفَرَّاء : لَزِمْتُه خَمسَ سِنينَ ، وكانَ إذا بَلَغَه مُنكَرٌ ، عَظُمَ عليه جِداً ، وكان شَديداً على المُبْتَدِعَة ، لَمْ تَزَلْ كَلمتُه عاليَةً عليهم ، وأصْحابُه يَقْمَعُونَهم ، ولا يَرُدُّهم أحَدٌ ، وكان عَفيفاً نَزِهاً دَرَّسَ بمَسْجدِه ، ثم انتَقلَ إلى الجانب الشَّرْقيِّ يُدرِّسُ ، ثم دَرَّس بجامع المَهْديِّ ، ولمَّا احْتَضَرَ أبو يَعْلىٰ ، أوْصاهُ أنْ يُغَسِّلَه ، وكذا لمَّا احْتَضَرَ الخَليفَةُ القائِمُ أوْصَىٰ أنْ يُغَسِّلَه أبو جَعْفرُ ، ففَعَل ، وما أخَذَ شَيئاً ممَّا وَصَّىٰ له به ، إلىٰ أنْ قالَ : وأُخِذَ أبو جَعْفَر في فِتْنة ابن القُشَيْريّ[1] ، وحُبِسَ أيَّاماً فسَرَدَ الصَّوْمَ ، وما أكَلَ لأحَد شَيئاً ، ودَخَلتُ فرَأيْتُهُ يَقرأُ في المُصْحَف ، ومَرِضَ فلمَّا ثَقُلَ وضَجَّ النَّاسُ من حَبْسِه ، أُخْرِجَ إلى الحريم فماتَ هناك ، وكانت جَنازَتُه مَشْهودَةً ، ودُفِنَ إلىٰ جانب قَبرِ الإمامِ أحمَدَ ولَزِمَ النَّاسُ قَبرَه مُدَّة حتىٰ قِيلَ : خُتِمَ علىٰ قَبرِه عَشْرةُ آلافِ خَتْمَة ، تُوفِّيَ سَنةَ سَبعينَ وأرْبَعِ مِئَة .

قال ابنُ النجَّار : كان مُنقَطِعاً إلى العِبادَةِ وخُشُونَةِ العَيْشِ والصَّلابَة في مَذْهَبِه ، حتىٰ أفْضَىٰ ذلكَ إلىٰ مُسارَعَة العَوامِّ إلىٰ إيْذاءِ النَّاسِ وإقامَةِ الفِتْنَة ، وسَفْكِ الدِّماءِ ، وسَبِّ العُلماءِ ، فحُبِسَ .

قال الذهبيُّ : كانَ يَومُ مَوتِه يَوماً مَشْهوداً ، رَحمَه الله[2] .

---

(١) التي وقعت بين الحنابلة والأشعرية ، انظر تفصيل ذلك في « ذيل طبقات الحنابلة » ١/ ٢٢١٩ ، و« طبقات السبكي » ٣/ ٣٨٩ ، وما بعدها .

(٢) انظر السير : (أبو جَعفر الهاشميّ) ١٨/ ٥٤٦ـ ٥٤٨ ، وانظر النزهة : ١٤٤٠ ـ ١٤٤١ (أبو جعفر الهاشمي) .

البَكريّ :

وجاءَ في تَرجَمَة البَكْريِّ ، قال الذهبيُّ : الوَاعِظُ العالِمُ ، أبو بَكْر ، عَتيقٌ البَكْريُّ ، المَغْربيُّ الأشْعَريُّ .

وَفِدَ على النِّظام الوَزير ، فنفَقَ عليه ، وكَتَبَ له تَوْقيعاً بأنْ يَعِظَ بجَوامِعِ بَغدادَ ، فقَدِمَ وجَلَسَ واحْتَفَلَ الخَلقُ ، فذَكَرَ الحَنابِلَةَ وحَطَّ وبالَغَ ، ونَبَزَهم بالتَّجْسيمِ ، فهاجَتْ الفِتنةُ ، وغلَتْ بها المَراجِلُ وكَفَّرَ هَؤلاءِ هَؤلاء ، ولمَّا عَزَمَ على الجُلُوسِ بجامعِ المَنْصُورِ ، قال نَقيبُ النُّقَباءِ : قِفُوا حتىٰ أنْقُلَ أهْلي ، فلا بُدَّ من قَتْلٍ ونَهْبٍ ثمَّ أُغْلِقَت أبوابُ الجامعِ ، وصَعَدَ البَكْريُّ ، وحَولَه التُّركُ بالقِسِيِّ ، ولُقِّبَ بعَلَمِ السُّنَّة فتَعَرَّضَ لأصْحابه طائِفَةٌ من الحَنابِلَة فشدت الدولةُ منهُ ، وكُبِسَتْ دُورُ بَني القاضي ابنِ الفَرَّاء ، وأُخِذَتْ كُتُبُهم ، وفيها كتابٌ في الصِّفاتِ ، فكان يُقرأُ بين يدَيْ البَكْريِّ ، وهو يُشَنِّعُ ويُشَغِّبُ ، ثم خَرَجَ البَكريُّ إلى المُعَسْكرِ مُتَشكِّياً من عَميدِ بَغدادَ أبي الفَتح بن أبي اللَّيْث وقِيلَ : إنَّه وَعَظَ وعَظَّمَ الإمامَ أحمدَ ، ثم تَلا ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ ﴾[1] فجاءَتْه حَصاةٌ ثم أخرَىٰ فكَشَفَ النَّقيبُ عن الحالِ ، فكانوا ناساً من الهاشِمِيِّينَ حَنابِلَةً قد تَخَبَّؤوا في بِطانَةِ السَّقفِ ، فعاقَبَهم النَّقيبُ ثم رَجَعَ البَكْريُّ عَليلاً ، وتُوفِّيَ سَنَةَ سِتٍّ وسَبعينَ وأرْبعِ مِئَة[2] .

وقال السِّلَفيُّ : كان القَيْروانيُّ مُشاراً إليه في الكَلامِ ، قال لي : أنا أدْرُسُ الكَلامَ ، من سَنَةِ ثلاثٍ وأرْبَعينَ ، جَرتَ بينَه وبينَ الحَنابِلَة فِتَنٌ وأُوذِيَ غايَةَ الإيْذاءِ ، سَألْتُهُ عن مَسْألَةِ الاسْتِواءِ ، فقالَ : أحَدُ الوَجْهَينِ للأشْعَريّ أنَّه يُحْمَلُ علىٰ ما وَرَدَ ولا يُفَسَّر[3] .

وقال ابنُ النجّار : كان ابنُ المُعْتَمِد الإسْفَراييني من أفْرادِ الدَّهْرِ في الوَعْظِ ، دَقيقَ

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ١٠٢ .

(٢) انظر السير : (البَكريّ) ١٨/ ٥٦١ـ ٥٦٢ ، وانظر النزهة : ١٤٤١ ـ ١٤٤٢ (البَكْري) .

(٣) انظر السير : (القَيروانيّ) ١٩/ ٤١٧ـ ٤١٨ ، وانظر النزهة : ١/١٤٩٥ .

الإشارَةِ ، وكان أوْحَدَ وَقتِه في مَذْهَب الأشْعَريّ ، وله في التَّصوُّفِ قَدمٌ راسِخٌ ، صَنَّفَ في الحَقيقةِ كُتُباً ، وكُلُّ كُتُبه نكتٌ وإشاراتٌ ، ظَهَرَ له القَبُولُ التَّامُّ ببَغْدادَ ، وكان يَتكلَّمُ بمَذْهَبِ الأشْعَريِّ ، فثارَت الحَنابِلَةُ ، فأمَرَ المُسْتَرشِدُ بإخْراجِه ، فلمَّا وَلِيَ المُقْتَفي رَجَعَ إلىٰ بَغدادَ ، وعادَ فعادَت الفِتَنُ ، فأخْرَجُوهُ إلىٰ بَلَدِه[1] .

وقال ابنُ الجَوْزيّ في « المُنْتَظَم » : قَدِمَ السُّلطانُ مَسْعودٌ بَغْدادَ ومَعَه الحَسَنُ بنُ أبي بَكْر النِّيسابُوريُّ الحَنَفيُّ ، أحَدُ المُناظِرينَ ، فجَلَسَ بجامِعِ القَصْرِ ، وكان يَلْعَنُ الأشْعَريَّ جَهْراً ، ويَقولُ : كُنْ شافِعيّاً ولا تَكُنْ أشْعَريّاً ، وكُنْ حَنَفِيّاً ولا تَكُنْ مُعْتَزِليّاً ، وكُنْ حَنْبَليّاً ولا تَكُنْ مُشَبِّهاً ، وكان علىٰ بابِ النِّظاميَّة اسْمُ الأشْعَريِّ ، فأمَرَ السُّلطانُ بمَحْوِهِ ، وكَتَبَ مَكانَه : الشَّافِعيَّ ، وكان الإسْفَرايينيُّ يَعِظُ في رِباطِه ويَذْكُرُ مَحاسِنَ مَذْهَبِ الأشْعَريّ ، فتَقَعُ الخُصُوماتُ ، فذَهَبَ الغَزْنَويُّ ، فأخْبَرَ السُّلطانَ بالفِتَنِ ، وقال : إنَّ أبا الفُتوحِ ـ يَعْني ابنَ المُعْتَمِدِ الإسْفَرايينيَّ ـ صاحِبُ فِتْنَة ، وقد رُجِمَ غَيرَ مَرَّة ، والصَّوابُ إخْراجُهُ فأُخْرِجَ[2] .

٧ـ أمْثلةٌ علىٰ ما وَقَعَ بينَ الأشاعِرَة والحَنابِلَة من أشْياءَ لا تُحْمَدُ :

قال الذهبيُّ في تَرجَمَة ابنِ نُجَيَّة الحَنْبَليّ : كان يَجْري بَينَه وبَينَ الشِّهابِ الطُّوسيِّ العَجائِبُ ، لأنَّه كان حَنْبَليّاً ، وكان الشِّهابُ أشْعَريّاً واعِظاً ، جَلَسَ ابنُ نُجَيَّةَ يوماً في جامِعِ القرافة ، فوَقَعَ عليه وعلىٰ جَماعَةٍ سَقفٌ ، فعَمَلَ الطُّوسيُّ فَصْلاً ذَكَرَ فيه ﴿ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ ﴾[3] ،[4] .

جاءَ يَوماً كَلبٌ يَشُقُّ الصُّفوفَ في مَجلِسِ ابنِ نُجَيَّة ، فقال : هـٰذا من هُناكَ ، وأشَارَ إلىٰ جِهَةِ الطُّوسيِّ .

---

(١) انظر السير : (ابن المُعتمد الإسفراييني) ٢٠/ ١٣٩ـ١٤٢ ، وانظر النزهة : ٥/١٥٣٧ .
(٢) انظر السير : (ابن المعتمد الاسفراييني) ٢٠/ ١٣٩ـ١٤٢ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٣٨ .
(٣) سورة النحل ، الآية : ٢٦ .
(٤) انظر السير : (ابن نُجيَّة) ٢١/ ٣٩٣ـ٣٩٦ ، وانظر النزهة : ١/١٦٤٠ .

قال أبو المُظَفَّرِ السِّبْطُ : اقْتَنى ابنُ نُجَيَّة أمْوالاً عَظيمَةً ، وتَنَعَّمَ تَنَعُّماً زائِداً ، بِحَيثُ إنَّه كان في داره عِشْرونَ جارِيَةً للفِراشِ ، تُساوِي كُلُّ واحِدَةٍ ألفَ دينارٍ وأكْثر ، وكان يُعْمَلُ له من الأطْعِمَة ما لا يُعْمَلُ للمُلوكِ ، أعْطاهُ الخُلَفاءُ والمُلوكُ أمْوالاً جَزيلَةً قال : ومع هذا ماتَ فَقيراً كَفَّنَه بَعضُ أصْحابِه[1] .

* * *

(١) انظر السير : (ابن نُجَيَّة) ٢١/ ٣٩٣ـ٣٩٦ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٤٠ .

ثانياً : الجَهْمِيَّة

عن عبدِ الرَّحْمَـٰنِ بنِ مُحمّدِ بنِ حَبيبٍ ، عن أبيهِ ، عن جَدِّه ، قال شَهدتُ خالداً القَسْريّ في يومِ أضْحَىٰ ، يَقولُ : ضَحُّوا تَقبَّلَ اللهُ منْكُم فإنِّي مُضَحٍّ بالجَعدِ بنِ دِرْهَم ، زَعَمَ أنَّ اللهَ لَمْ يَتَّخِذْ إبْراهيمَ خَليلاً ، ولَمْ يُكَلِّمْ مُوسَىٰ تَكْليماً ، تعالَى اللهُ عَمَّا يقُولُ الجَعدُ عُلُواً كَبيراً ، ثُم نَزَلَ فذَبَحه قُلتُ : هَـٰذه من حَسَناتِه ، هي وقَتْلِهِ مُغيرَةَ الكَذَّاب[1] .

قال الذهبيُّ في ترجمة المَريسيِّ : نَظَرَ المَريسيُّ في الكَلامِ ، فغَلَبَ عَليه ، وانْسَلَخَ من الوَرَعِ والتَّقْوَىٰ ، وجَرَّدَ القَوْلَ بخَلْقِ القُرآنِ ، ودَعا إليه ، حتىٰ كان عَيْنَ الجَهْميَّة في عَصْرِه وعالِمَهُم ، فمَقتَه أهْلُ العِلمِ ، وكَفَّرَه عِدَّة ، ولَمْ يُدْرِكْ جَهْمَ بنَ صَفْوانَ ، بلْ تَلَقَّفَ مَقالاتِه من أتْباعِه .

وقالَ أبو النَّضْرِ هاشِمُ ابنُ القاسِم : كان والِدَ بِشْرٍ يَهوديّاً قَصَّاراً صَبَّاغاً[2] .

ونَقَلَ غَيرُ واحدٍ أنَّ رَجلاً قال ليَزيدَ بنِ هارُونَ : عندَنا ببَغْدادَ رَجلٌ ، يُقالُ له : المَريسيّ ، يَقولُ : القُرآنُ مَخلوقٌ ، فقال : ما في فِتْيانِكُم مَنْ يَفْتِكُ به ؟!!

قال الذهبيُّ : قد أُخِذَ المَريسيُّ في دَولةِ الرَّشيدِ ، وأُهِينَ من أجْلِ مَقالَتِه .

وقال قُتَيْبَةُ : بِشْرٌ المَريسيُّ كافِرٌ .

وماتَ في آخِرِ سَنةِ ثَمانيَ عَشْرةَ ومِئَتَينِ ، وقد قارَبَ الثَّمانينَ .

فهُو بِشْرُ الشَّرِّ ، وبِشْرُ الحافي بِشْرُ الخَيْرِ ، كما أنَّ أحْمدَ ابنَ حَنْبَلَ هو أحْمدُ السُّنَّة ، وأحْمَدُ بنُ أبي دُواد أحْمدُ البِدْعَة[3] .

---

(١) انظر السير : (القَسريّ) ٥/ ٤٢٥ـ ٤٣٢ ، وانظر النزهة : ١/٦٢٠ .

(٢) انظر السير : (المَريسيّ) ١٠/ ١٩٩ـ ٢٠٢ ، وانظر النزهة : ٢/٨٦٧ .

(٣) انظر السير : (المَريسيّ) ١٠/ ١٩٩ـ ٢٠٢ ، وانظر النزهة : ٤/٨٦٧ .

ثالثاً : الخَوارِج

١ـ الخَوارِجُ دَوَّخوا الخُلَفاءَ وحارَبُوهُم ، ومَنَعُوهُم من الانْصِرافِ إلى الجِهادِ وهٰذه أمْثِلَةٌ علىٰ زُعَمائِهِم :

(أ) شَبيبُ بنُ يَزيد :

هو ابنُ أبي نُعَيْم الشَّيْبانيّ ، رَأسُ الخَوارِجِ بالجَزيرَة ، وفارِسُ زَمانِه ، بَعَثَ لحَرْبه الحَجَّاجُ خَمْسَةَ قُوَّادٍ فقَتَلَهم واحِداً بعْدَ واحِدٍ ، ثمَّ سارَ إلى الكُوفَةِ ، وحاصَرَ الحَجَّاجَ ، وكانت زَوْجَتُه غَزالةُ عَديمَةَ النَّظيرِ في الشَّجاعَةِ ، فعَيَّرَ الحَجَّاجَ شاعِرٌ[١] فقال :

أَسَدٌ عَلَيَّ وفي الحُرُوبِ نَعامَةٌ ... فَتْخاءُ تَنْفِرُ من صَفيرِ الصَّافِرِ
هَلاَّ بَرَزْتَ إلىٰ غَزالَةَ في الوَغَى ... بَلْ كانَ قَلْبُكَ في جَناحَيْ طائِر

وكانت أمُّ شَبيب جهيزة تَشْهدُ الحُروبَ .

غَرِقَ شَبيبٌ في القِتالِ بدُجَيلٍ[٢] سَنَةَ سَبعٍ وسَبعينَ وله إحْدَىٰ وخَمْسونَ سَنَةً[٣] .

قِيلَ : حَضَرَ عِتْبانُ الحَروريُّ عندَ عبدِ المَلِكِ بنِ مَرْوانَ فقالَ : أنْتَ القائِلُ :

فإنْ يَكُ مِنْكُم كانَ مَرْوانُ وابنُهُ ... وعَمْرو ومِنْكُم هاشِمٌ وحَبيبُ
فمِنَّا حُصَيْنٌ والبَطِينُ وقَعْنَبٌ ... ومِنَّا أميرُ المُؤمِنينَ شَبيبُ

فقالَ : إنَّما قُلتُ : ومِنَّا أميرَ المؤمِنينَ شَبيبُ « على النِّداءِ » فأعْجَبَه وأطْلَقَه[٤] .

---

(١) هو عِمْرانُ بنُ حِطَّان .
(٢) هو نهر بالأهواز ، حفره أردشير بابك ، أحدُ ملوك الفرس .
(٣) انظر السير : (شبيب بن يزيد) ٤/١٤٦ـ١٤٩ ، وانظر النزهة : ١/٤٦٤ .
(٤) انظر السير : (شبيب بن يزيد) ٤/١٤٦ـ١٤٩ ، وانظر النزهة : ٢/٤٦٤ .

ولمَّاغَرِقَ ، قِيلَ لأُمِّه فقالت : لمَّا وَلَدْتُه رَأيتُ كأنَّه خَرَجَ منِّي شِهابُ نارٍ ، فعَلِمْتُ أنَّه لا يُطْفِئُه إلاَّ الماءُ[1] .

وكان قد خَرَجَ صالحُ بنُ مُسرِّح العابدُ التَّميميُّ بدارا[2] وله أصْحابٌ يُفَقِّهُهم ويقصُّ عليهم ، ويَذمُّ عُثمانَ وعَليّاً كدَأب الخَوارج ، ويقولُ : تَأَهَّبُوا لجِهاد الظَّلَمَة ، ولا تَجزَعوا من القَتْلِ في الله ، فالقَتلُ أسْهَلُ من المَوت ، والموتُ لا بُدَّ منه فأتاه كتابُ شَبيب يقولُ : إنَّك شَيخُ المُسلمين ، لنْ نَعدِلَ بك أحَداً ، وقد اسْتَجَبْتُ لك ، والآجالُ غاديَةٌ ورائِحَة ، ولا آمَنُ أنْ تَخْتَرمَني المَنيَّة ولمْ أُجاهِد الظَّالمين ، فيا لَه غُبناً ، ويا لَه فَضْلاً مَتْروكاً ! جَعلَنا اللهُ ممَّن يُريد اللهَ بعَمَلِه ، ثمَّ أقْبَلَ هو وأخُوه مُصاد ، والمُحلل بنُ وائل ، وإبراهيمُ بنُ حَجَر ، والفَضلُ بنُ عامر الذُّهْليّ ، إلىٰ صالح ، فصاروا مئةً وعَشرةَ أنفُس ، ثم شَدُّوا علىٰ خَيلٍ لمحمَّد بنِ مَرْوان ، فأخَذوها وقَويَت شَوكتُهم ، فسارَ لحَربهم عَديُّ ابنُ عديٍّ بن عُميرَة الكندي ، فالتَقوا ، فانْهَزَمَ عَديٌّ ، وبعدَ مُدَيدَة تُوفي صالحٌ من جِراحات ، سنةَ ستٍّ وسبعين وعُهِدَ إلىٰ شَبيب فهَزمَ العَساكرَ ، وعَظُمَ الخَطبُ ، وهجَمَ على الكُوفَة وقَتلَ جماعة أعيان ، فنَدبَ الحجَّاجُ لحَربه زائدَةَ بنَ قُدامَة الثَّقفي ، فالتقوا ، فقُتلَ زائدَة ، ودَخلَت غَزالةُ جامعَ الكُوفَة ، وصَلَّت وِرْدَها وصَعدَت المنبرَ ، ووَفَت نَذْرَها ، وهَزمَ شَبيبٌ جُيوشَ الحجَّاج مرَّات ، وقَتلَ عِدَّةً من الأشْراف ، وتَزَلْزلَ له عبدُ المَلك بن مَرْوان ، وتَحيَّرَ الحجَّاجُ في أمْرِه ، وقال : أعْياني هـٰذا وجمَعَ له جَيشاً كَثيفاً نحو خَمسين ألفاً .

وعَرضَ شَبيبٌ جُندَه فكانوا ألفاً ، وقالَ : يا قَومِ ، إنَّ اللهَ نَصرَكم وأنتم مِئة ، فأنتم اليومَ مِئُون ، ثم ثَبتَ معه ستُّ مئة ، فحَملَ في مِئتَين على المَيْسَرَة هَزمها ، ثم قَتلَ مقدَّم العَساكر عتابَ بنَ وَرْقاءَ التَّميمي ، فلمَّا رآهُ شَبيبٌ صَريعاً توَجَّع له ، فقال خارجيٌّ له : يا أميرَ المُؤمنين تتَوجَّعُ لكافرٍ ؟!! ، ثم نادَىٰ شَبيبٌ برَفع السَّيفِ ، ودَعا إلىٰ طاعَتِه ، فبايَعوه ثم هَربوا في اللَّيلِ .

---

(١) انظر السير : (شبيب بن يزيد) ٤/١٤٦ـ١٤٩ ، وانظر النزهة : ٣/٤٦٤ .

(٢) دارا : بلدةٌ بين نصيبين وماردين ، وهي من بلاد الجزيرة .

ثم جاءَ المَددُ من الشَّام ، فالْتَقاهُ الحجَّاجُ بنفسه ، فجرَىٰ مَصافٌّ لم يُعهَد مثله ، وثَبتَ الفَريقان ، وقُتلَ مُصادٌ أخو شَبيب وزوجتُه غَزالَة ، ودَخلَ الليلُ وتقَهْقَر شَبيبٌ وهو يَخفقُ رأسَه ، والطلبُ في أثرِه ، ثم فَترَ الطلَبُ عنهم ، وساروا إلى الأَهْواز ، فبَرزَ مُتولِّيها محمدُ بنُ موسى بنِ طَلحَة ، فبارزَ شَبيباً ، فقَتلَه شبيبٌ ، ومَضىٰ إلىٰ كَرمانَ ، فأقامَ شَهْرَينِ ورَجَعَ ، فالْتَقاهُ سُفْيانُ بنُ أَبْرَد الكَلْبيُّ وحَبيبٌ الحَكَميُّ علىٰ جِسْرِ دُجَيْل ، فاقْتَتَلُوا حتىٰ دَخَلَ اللَّيلُ ، فعَبَرَ شَبيبٌ على الجِسْرِ فقُطِعَ به ، فغَرِقَ ، وقِيلَ : بَلْ نفَرَ به فَرَسُه ، فألْقاهُ في الماءِ سَنةَ سَبعٍ وسَبعينَ وعَليه الحَديدُ فقال : ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾[1] ،[2] .

(ب) قَطْريُّ بنُ الفُجاءَة :

هو الأميرُ أبو نَعامَة التَّيْميُّ المازِنيُّ ، البَطَلُ المَشْهُورُ ، رَأسُ الخَوارِج ، خَرَجَ زَمَنَ ابنِ الزُّبَيْرِ ، وهَزَمَ الجُيوشَ ، واسْتَفْحَلَ بَلاؤُه .

جَهَّزَ إليه الحَجَّاجُ جَيْشاً بعد جَيشٍ فيَكْسِرَهُم ، وغَلَبَ علىٰ بلادِ فارِس ، وله وَقائِعُ مَشْهودَةٌ ، وشَجاعَةٌ لَم يُسْمَعْ بِمِثْلِها وشِعرٌ فَصيحٌ سائرٌ ، فلَه :

أَقُولُ لها وقد طارَتْ شَعاعاً ... مِنَ الأبطالِ وَيْحَكِ لَنْ تُراعِي
فإنَّكِ لَوْ سَأَلْتِ بَقاءَ يَوْمٍ ... على الأَجَلِ الذي لَكِ لَمْ تُطاعِي
فصَبْراً في مَجالِ المَوْتِ صَبْراً ... فما نَيْلُ الخُلُودِ بِمُسْتَطاعِ
ولا ثَوْبُ الحَياةِ بثَوْبِ عِزٍّ ... فيُطْوَىٰ عَنْ أخِي الخَنَعِ اليَراعِ
سَبيلُ المَوتِ غَايَةُ كُلِّ حَيٍّ ... ودَاعِيَةٌ لأَهْلِ الأرضِ دَاعِي
ومَنْ لَمْ يَعْتَبِطْ يَهْرَمْ ويَسْأَمْ ... وتُسْلِمْهُ المَنُونُ إلى انْقِطاعِ
وما للمَرْءِ خَيْرٌ في حَياةٍ ... إذا ما عُدَّ مِنْ سَقَطِ المَتاعِ

واسْمُ الفُجَاءَة جَعونَةُ بنُ مازِن .

---

(١) سورة يس ، الآية : ٣٨

(٢) انظر السير : (شبيب بن يزيد) ٤/١٤٦ـ١٤٩ ، وانظر النزهة : ٤/٤٦٤ .

بقِيَ قُطْريٌّ يُحارِبُ نَيِّفَ عَشْرةَ سَنةً ، ويُسَلَّمُ عليه بالخِلافَة ، اسْتَوْفَى المبرِّدُ في « كامِلِه » أخْبارَه إلىٰ أنْ سارَ لحَرْبه سُفْيانُ بنُ الأبْرِدِ الكَلْبيُّ ، فانتُصِرَ عليه وقتَلَه وقِيلَ : عَثُرَ به الفَرَسُ فانْكَسَرَتْ فَخِذُه بطَبَرِسْتانَ ، فظَفِروا به ، وحُمِلَ رَأسُه سَنةَ تِسعٍ وسَبعينَ إلى الحَجَّاجِ ، وكان خَطيباً بَليغاً ، كَبيرَ المَحَلِّ من أفْرادِ زَمانِه[١] .

(ج) عُمَرُ بنُ حَفْصون :

جاءَ في تَرجَمَة المُنذِرِ بنِ مُحمّد بنِ عبد الرَّحمَـٰن بنِ الحَكَم : هو أبُو الحَكَم المَرْوانيُّ ، صاحبُ الأنْدَلُسِ ، تَمَلَّكَ بعدَ والِدِه ، فكانت دَولَتُه سَنتَيْنِ ، فماتَ وهو يُحاصِرُ عُمرَ بنَ حَفْصونَ ، رَأسَ الخَوارِجِ بالأنْدَلُسِ ، وكان هـٰذا بَدَوِيّاً يَجْلبُ السَّمكَ بالأنْدَلُسِ ، فآلَ به الأمرُ إلىٰ أنْ كَثُرَ جَمعُه ، واسْتَولَىٰ علىٰ جَماعَة حُصون .

ماتَ المُنْذرُ في سَنةِ خَمسٍ وسَبعينَ ومِئَتيْنِ ، وله سِتَّةٌ وأرْبَعونَ سَنةً[٢] .

٢ـ كان من الخَوارج عُلَماءُ؛ فمنهم:

عِمْرانُ بنُ حِطَّان :

هو ابنُ ظَبْيان، السَّدوسيُّ البَصْريُّ ، من أعْيانِ العُلَماءِ ، لكنَّه من رُؤوسِ الخَوارِجِ[٣] .

قال أبُو داود : لَيسَ في أهْلِ الأهْواءِ أصَحُّ حَديثاً من الخَوارِجِ ثُمَّ ذَكَرَ عِمْرانَ بنَ حِطَّان ، وأبا حَسَّانَ الأعْرَجِ[٤] .

قال الفَرَزْدَقُ : عِمْرانُ بنُ حِطَّان من أشْعَرِ النَّاسِ ، لأنَّه لَوْ أرادَ أنْ يقُولَ مِثْلَنا لقَالَ ، ولَسْنا نَقْدِرُ أنْ نَقولَ مِثلَ قَولِه[٥] .

عن ابنِ سيرينَ ، قال : تَزوَّجَ عِمْرانُ خارِجيَّةً وقالَ : سأرُدُّها ، قالَ : فصَرَفَتْه إلىٰ مَذْهَبِها[٦] .

---

(١) انظر السير : (قَطريُّ بن الفُجاءَة) ٤/ ١٥١ـ ١٥٢ ، وانظر النزهة : ١/٤٦٦ .
(٢) انظر السير : (المُنذِر بن مُحمّد) ٨/ ٢٦٣ـ ٢٦٤ ، وانظر النزهة : ١/٥٥٧ .
(٣) انظر السير : (عِمْران بن حِطّان) ٤/ ٢١٤ـ ٢١٦ ، وانظر النزهة : ٧/٤٨٠ .
(٤) انظر السير : (عِمْران بن حِطّان) ٤/ ٢١٤ـ ٢١٦ ، وانظر النزهة : ١/٤٨١ .
(٥) انظر السير : (عِمْران بن حِطّان) ٤/ ٢١٤ـ ٢١٦ ، وانظر النزهة : ٢/٤٨١ .
(٦) انظر السير : (عِمْران بن حِطّان) ٤/ ٢١٤ـ ٢١٦ ، وانظر النزهة : ٣/٤٨١ .

فذَكَرَ المَدائِنِيُّ أنَّها كانت ذاتَ جَمالٍ ، وكان دَميماً فأعْجَبَتْه يَوماً فقالَت : أنا وأنْتَ في الجَنَّةِ ، لأنَّكَ أُعْطيتَ فشَكَرْتَ ، وابْتُلِيتُ فصَبَرْتُ[1] .

ومِن شِعْرِه في مَصْرَعِ عليٍّ رضي الله عنه :

يـا ضَـرْبَـةً مـن تَقِـيٍّ مـا أرادَ بهـا ... إلاَّ لِيَبْلُغَ مِن ذِي العَرْشِ رِضْوانَا

إنِّـي لأذْكُـرُهُ حِينَـاً فـأَحْسَبُـهُ ... أوْفَـى البَـرِيَّـةِ عنـدَ اللهِ مِيـزانَـا

أَكْـرِمْ بقَـومٍ بُطُـونُ الطَّيْـرِ قَبْـرَهـمُ ... لَـمْ يَخْلِطُـوا دينَهُـم بَغْيـاً وعُـدْوانَـا

فبَلَغَ شِعْرُه عبدَ المَلِك ابنَ مَرْوانَ ، فأدْرَكَتْه حَمِيَّةٌ لقَرابَتِه من عليٍّ رضي الله عنه فنَذَرَ دَمَه ووَضَعَ عليه العُيونَ ، فلَمْ تَحْمِلْهُ أرضٌ ، فاسْتَجارَ برَوْحِ ابنِ زِنْباع ، فأقامَ في ضِيافَتِه ، فقالَ : مِمَّنْ أنتَ ؟ قال : من الأزْدِ فبَقِيَ عنده سَنةً فأعْجَبَه إعْجاباً شَديداً ، فسَمَرَ رَوحٌ ليلةً عند أميرِ المُؤمِنينَ ، فتَذاكَرا شِعْرَ عِمْرانٍ هٰذا ، فلمَّا انْصَرفَ رَوحٌ ، تَحدَّثَ مع عِمْرانَ بما جَرَىٰ ، فأنْشَدَه بقِيَّةَ القَصيدِ ، فلمَّا عادَ إلىٰ عبدِ المَلِكِ قال : إنَّ في ضِيافَتي رَجلاً ما سَمِعتُ منه حَديثاً قَطُّ إلاَّ وحَدَّثني به وبأحْسَن منه ، ولقد أنْشَدَني تِلكَ القَصيدَةَ كُلَّها قال : صِفْهُ لي ، فوَصَفَه له قالَ : إنَّكَ لَتَصِفُ عِمْرانَ بنَ حِطَّان ، اعْرِضْ عليه أنْ يَلْقاني قال : فهَرَبَ إلى الجَزيرَةِ ، ثمَّ لَحِقَ بعُمانَ فأكْرَمُوهُ[2] .

وبَلَغَنا أنَّ الثَّوْريَّ كان كَثيراً ما يَتَمثَّلُ بأبْياتِ عِمْرانَ هٰذه :

أرَىٰ أشْقياءَ النَّاسِ لا يَسْأمُونَها على ... أنَّهُـــم فيهـــا عُـــراةٌ وجُـــوَّعُ

أراهَـا وإنْ كـانـت تُحَـبُّ فـإنَّهـا ... سَحـابَـةُ صَيْـفٍ عـن قَليـلٍ تَقَشَّـعُ

كَرَكْبٍ قَضَوْا حاجاتِهم وتَرَحَّلُوا ... طَـريقُهُـم بـادِي العَـلامَـةِ مَهْيَـعُ

تُوفِّيَ عِمْرانُ ابنُ حِطَّان سَنةَ أرْبعٍ وثَمانين[3] .

---

(١) انظر السير : (عِمْران بن حِطَّان) ٤/ ٢١٤ـ٢١٦ ، وانظر النزهة : ٤٨١/ ٤ .

(٢) انظر السير : (عِمْران بن حِطَّان) ٤/ ٢١٤ـ٢١٦ ، وانظر النزهة : ٤٨١/ ٥ .

(٣) انظر السير : (عِمْران بن حِطَّان) ٤/ ٢١٤ـ٢١٦ ، وانظر النزهة : ٤٨١/ ٦ .

٣ـ إهَانَةُ الخَوارِج للأُمَراءِ ولَو كانوا صَحابَة :

عن زِيادِ بنِ كُسَيْب قال : كُنتُ مع أبي بَكْرَة تَحتَ مِنْبرِ ابنِ عامِر وهو يَخْطُبُ وعَليه ثِيابٌ رِقاقٌ ، فقالَ أبُو بِلال : انْظُروا إلىٰ أمِيركُم يَلبَسُ ثِيابَ الفُسَّاقِ ، فقالَ أبُو بَكْرَة : اسْكُتْ ، سَمعتُ رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم يقولُ : « مَنْ أَهَانَ سُلْطَانَ اللهِ في الأرْضِ أَهَانَهُ اللهُ » .

أبُو بِلال : هو مِرْداسُ بنُ أُدَيَّةَ ، مِنَ الخَوارِج[1] .

٤ـ مِن خَوارِجِ المَغْرِب :

جاءَ في تَرْجَمَة القائِمِ أبي القاسِم مُحمَّدِ بنِ المَهْديِّ عُبَيْدِ الله ، صاحِبِ المَغْرِبِ ، قالَ الذهبيُّ : خَرَجَ عليه في سَنةِ اثْنتَينِ وثلاثين وثلاثِ مِئَة ، أبُو يَزيدِ مَخْلَدُ بنُ كَيْداد البَرْبَريُّ وجَرَتْ بَينَهُما مَلاحِمُ ، وحَصَرَه مَخْلَدُ بالمَهْديَّة ، وضَيَّقَ عليه ، واسْتَولَىٰ علىٰ بِلادِه ، ثمَّ وُسْوِسَ القائِمُ ، واخْتَلَطَ وزالَ عَقلُه وكانَ شَيْطاناً مَريداً يَتَزَنْدَقُ[2] .

ذَكرَ القاضي عبدُ الجَبَّار المُتكلِّمُ ، أنَّ القائِمَ أظْهَرَ سَبَّ الأنْبياءِ وكان مُنادِيهِ يَصِيحُ : الْعَنوا الغَارَ وما حَوىٰ وأَبادَ عِدَّةً من العُلَماءِ وكان يُراسِلُ قَرامِطَةَ البَحْرَيْنِ ، ويأمُرُهم بإحْراقِ المَساجِدِ والمَصاحِفِ فتَجَمَّعتْ الإباضيَّةُ[3] والبَرْبَرُ علىٰ مَخْلَد ، وأَقْبَلَ ، وكانَ ناسِكاً قَصيرَ الدَّلَقِ[4] يَركَبُ حِماراً ، لَكنَّهُم خَوارِج ، وقامَ معه خَلقٌ من السُّنَّةِ والصُّلَحاءِ ، وكادَ أنْ يَتملَّكَ العالَمَ ، ورُكِّزَتْ بُنودُهُم عند جامِعِ القَيْرَوانِ فيها : لا إلَـٰهَ إلاَّ الله ، لا حُكمَ إلاَّ لله ، وبَنْدانِ أصْفَرانِ فيهما : نَصْرٌ من الله وفَتْحٌ قَريبٌ وبَنْدٌ لمَخْلَد فيه : اللَّهُمَّ انْصُرْ وَليَّكَ علىٰ مَنْ سَبَّ نَبيَّكَ وخَطَبَهُم أحْمدُ بنُ أبي الوَليد ، فحَضَّ على

---

(١) انظر السير : (عبد الله بن عامر) ٣/١٨ـ٢١ ، وانظر النزهة : ٣٢٢/٥ .

(٢) انظر السير : (القائم) ١٥/١٥٢ـ١٥٦ ، وانظر النزهة : ٣/١١٩٩ .

(٣) من أكبر فرق الخوارج ، وهم أصحاب عبد الله بن يحيى بن إباض ، الملقب بطالب الحق ، من أهل اليمن ، خلع طاعة مروان بن محمد وبُويع له بالخلافة ، واستولىٰ علىٰ صنعاء ومكة ، قُتل سنة ١٣٠هـ .

(٤) الدَلق : ثوب متسع الأكمام طويلها .

الجِهادِ ، ثمَّ سارُوا ، ونازَلُوا المَهْديَّةَ ولمَّا الْتَقَوا وأيْقَنَ مَخلدٌ بالنَّصْرِ ، تَحرَّكَتْ نَفسُه الخارِجيَّةُ ، وقال لأصْحابِه : انْكَشِفُوا عَن أهْلِ القَيْرَوانِ حتىٰ يَنالَ منهُم عَدُوُهم ، ففَعلوا ذلكَ فاسْتُشْهِدَ خَمسَةٌ وثَمانونَ نَفْساً من العُلَماءِ ، والزُّهادِ .

وخَوارِجُ المَغْربِ إباضيَّةٌ مَنسوبُونَ إلىٰ عبدِ الله بنِ يَحْيَىٰ بن إبَاض الذي خَرَجَ في أيّامِ مَرْوانَ الحِمار ، وانْتَشَرَ أتْباعُه بالمَغْربِ ، يَقولُ : أفْعالُنا مَخلوقَةٌ لنا ويُكَفِّرُ بالكَبائِرِ ، ويَقولُ : لَيسَ في القُرآنِ خُصوصٌ ، ومَنْ خالَفَه حَلَّ دَمَه .

وكانَ مَوتُ القائِمِ سَنَةَ أرْبعٍ وثَلاثينَ مَحْصوراً بالمَهْديَّةِ ، لَكنْ قامَ بَعدَه ابنُه المَنْصُورُ[1] .

وعُوتِبَ بَعضُ العُلماءِ في الخُروجِ مع أبي يَزيد الخارِجيِّ ، فقالَ : وكَيفَ لا أخْرُجُ وقد سَمعتُ الكُفرَ بأُذُني ؟!! حَضَرتُ عَقداً فيه جَمعٌ من سُنَّةٍ ومَشارِقَة ، وفيهِم أبو قُضاعَة الدَّاعِي ، فجاءَ رَئيسٌ ، فقالَ كَبيرٌ منهُم : إلىٰ هنا يا سَيِّدي ارْتَفِعْ إلىٰ جانِبِ رسُولِ اللهِ ، يَعْني أبا قُضاعَة ، فما نَطَقَ أحَدٌ .

ووُجِدَ بخَطِّ فَقيهٍ ، قال : في رَجَبٍ سَنَةَ ٣٣١ هـ ، قامَ المُكَوكب يَقْذِفُ الصَّحابَةَ ، ويَطْعَنُ على النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، وعُلِّقَتْ رُؤوسُ حَميرٍ وكِباشٍ على الحَوانيتِ ، كُتِبَ عليها أنَّها رُؤوسُ صَحابَةٍ[2] .

وخَرَجَ أبو إسْحاقَ الفَقيهُ مع أبي يَزيد ، وقال : هُمْ أهْلُ القِبْلَةِ وأولئكَ لَيْسوا أهْلَ قِبْلَةٍ ، وهُم بَنُو عَدُوِّ الله ، فإنْ ظَفِرْنا بهم ، لَمْ نَدخُلْ تَحتَ طاعَةِ أبي يَزيدَ ، لأنَّه خارِجيٌّ[3] .

وجاءَ في تَرْجمَة المَنْصورِ أبي طاهِر إسْماعيلَ بنِ القائِم بنِ المَهْديِّ ، العُبَيْديِّ ، الباطِنيِّ ، قال الذهبيُّ : وَلِيَ بعدَ أبيهِ ، وحارَبَ رَأسَ الإباضيَّة أبا يَزيد مَخْلدَ بنَ كَيْدادَ

---

(١) انظر السير : (القائم) ١٥/ ١٥٢ـ١٥٦ ، وانظر النزهة : ٤/١١٩٩ .
(٢) انظر السير : (القائم) ١٥/ ١٥٢ـ١٥٦ ، وانظر النزهة : ٢/١٢٠٠ .
(٣) انظر السير : (القائم) ١٥/ ١٥٢ـ١٥٦ ، وانظر النزهة : ١/١٢٠١ .

الزَّاهِد ، والْتَقى الجَمْعان مَرَّاتٍ ، وظَهَرَ مَخْلدُ علىٰ أَكْثرِ المَغْرِب ، ولَمْ يَبْقَ لِبَني عُبَيْد سِوَى المَهْدِيَّة[1] .

فنَهَضَ المَنْصورُ ، وأَخْفَىٰ مَوتَ أبيهِ ، وصَابَرَ الإِبَاضِيَّةَ حتىٰ تَرَحَّلوا عنه ، ونازَلُوا مَدينَةَ سُوسَة ، فبَرَزَ المَنصُورُ من المَهْدِيَّة ، والْتَقوا فانْكَسَرَ جَيشُ مَخْلد علىٰ كَثْرَتِهم ، وأُسِرَ هو في سَنَةِ ٣٣٦ هـ ، فماتَ بعدَ الأَسْرِ بأَرْبَعَةِ أيّامٍ من الجِراحِ ، فسُلِخَ وحُشِيَ قُطْناً ، وصُلِبَ .

وبَنَوْا مَدينَةَ المَنْصوريَّةِ مكانَ الوَقْعَةِ ، فنَزَلَها المَنْصورُ .

وكان بَطَلاً شُجاعاً ، رابِطَ الجأشِ ، فَصيحاً مُفَوَّهاً يَرْتَجِلُ الخُطَبَ وفيه إِسْلامٌ في الجُمْلَة وعَقلٌ بخِلافِ أبيهِ الزِّنْديقِ[2] .

٥ـ قِصةُ وَهْبِ بن مُنَبِّه ـ رَحِمَهُ الله ـ مع خارِجيٍّ وهِدايَتُه له :

قال داودُ بنُ قَيْسٍ : كان لي صَديقٌ يُقالُ له : أَبُو شَمِر ذُو خَوْلان ، فخَرَجتُ من صَنْعاءَ أُريدُ قَرْيته ، فلمَّا دَنَوتُ منها وَجَدتُ كِتاباً مَخْتوماً إلىٰ أبي شَمِر ، فجِئْتُهُ فوَجَدتُه مَهْموماً حَزيناً ، فسَأَلتُه عن ذٰلكَ فقالَ : قَدِمَ رسُولٌ من صَنْعاءَ ، فذَكَرَ أَنَّ أَصْدِقاءَ لي كَتَبوا لي كِتاباً فضَيَّعَه الرسُولُ ، قُلتُ : فهٰذا الكِتابُ ، فقالَ : الحَمدُ لله ، ففَضَّهُ فقَرَأَهُ ، فقُلتُ : أَقْرِئْنيه فقالَ : إنِّي لأَسْتَحْدِثُ سِنَّكَ ، قُلتُ : فمَا فيه ؟ قالَ : ضَرْبُ الرِّقابِ قُلتُ : لعَلَّه كَتَبَه إلَيكَ ناسٌ حَرُورِيَّة في زَكاةِ مالِك ، قالَ : مِن أَيْنَ تَعْرِفُهم ؟!! قُلتُ : إنِّي وأَصْحاباً لي نُجالِسُ وَهْبَ ابنَ مُنَبِّه ، فيَقولُ لنا : احْذَرُوا أَيُّها الأَحْداثُ الأَغْمارُ هٰؤلاء الحَرُوراء لا يُدْخِلُونَكُم في رَأيِهم المُخالِف ، فإنَّهم عُرَّةٌ[3] لهٰذه الأُمَّة ، فدَفَعَ إليَّ الكِتابَ فقَرَأْتُه ، فإذا فيه : سَلامٌ عَليكَ ، فإنَّا نَحْمَدُ إلَيكَ اللهَ ، ونُوصِيكَ بتَقْواه ، فإنَّ دِينَ الله رُشْدٌ وهُدَىٰ ، وإنَّ دِينَ الله طَاعَةُ الله ومُخالَفَةُ مَنْ خالَفَ

---

(١) انظر السير : (المنصور) ١٥/١٥٦ـ١٥٩ ، وانظر النزهة : ١٢٠٢/٢ .

(٢) انظر السير : (المنصور) ١٥/١٥٦ـ١٥٩ ، وانظر النزهة : ١٢٠٢/٣ .

(٣) فلان عُرَّةُ أهلِه : أي شرُّهم .

سُنَّةَ نَبيِّه فإذا جاءَكَ كِتابُنا ، فانْظُرْ أنْ تُؤَدِّي ـ إنْ شاءَ الله ـ ما افْتَرَضَ اللهُ عَليكَ من حَقِّه تَسْتَحِقَّ بذَلكَ وِلايَةَ الله ، وولايَةَ أوْليائِه والسَّلام .

قُلتُ له : فإنِّي أنهاكَ عَنهُم ، قالَ : فكَيفَ أتَّبِعُ قَولَكَ وأتْرِكُ قَولَ مَنْ هو أَقْدَمُ منكَ ؟ قُلتُ : فتُحِبُّ أنْ أُدْخِلَكَ علىٰ وَهْبٍ حتىٰ تَسمَعَ قَولَه ؟ قالَ : نَعَم فنَزَلنا إلىٰ صَنْعاءَ ، فأدْخَلتُه علىٰ وَهْبٍ ، ومَسْعودُ ابنُ عَوْفٍ وَالٍ على اليَمَنِ من قِبَلِ عُرْوَة بن مُحمّد ، فوَجدْنا عند وَهْبٍ نَفَراً ، فقال لي بَعضُ النَّفَرِ : مَنْ هٰذا الشَّيخُ ؟ قُلتُ : له حاجَةٌ ، فقامَ القَومُ فقالَ وَهْبُ : ما حاجَتُكَ يا ذا خَوْلان ؟ فهَرَجَ[1] وجَبُنَ ، فقالَ لي وَهْبٌ : عَبِّرْ عَنهُ ، قُلتُ : إنَّه من أَهْلِ القُرآنِ والصَّلاحِ واللهُ أعْلَمُ بسَريرَتِه ، فأخْبَرَني أنَّه عَرَضَ له نَفَرٌ من أَهْلِ حَرُوراءَ فقالوا له : زَكاتُكَ التي تُؤَدِّيها إلى الأُمَراءِ لا تُجْزِىءُ عَنكَ ، لأنَّهم لا يَضَعونَها في مَواضِعِها فأدِّها إلَيْنا ، ورَأيتُ يا أبا عبد الله أنَّ كَلامَكَ أشْفَىٰ له من كَلامي ، فقال : يا ذا خَوْلان ، أتُريدُ أن تَكونَ بعد الكِبَرِ حَروريَّاً تَشهَدُ علىٰ مَنْ هو خَيرٌ منك بالضَّلالَة ؟ فماذا أنت قائِلٌ لله غداً حين يَقِفُكَ اللهُ ومَنْ شَهِدتَ عليه ؟ فاللهُ يَشهَدُ له بالإيمانِ ، وأنتَ تَشهَدُ عليه بالكُفْرِ ، والله يَشهَدُ له بالهُدَىٰ وأنتَ تَشهَدُ عليه بالضَّلالَة ، فأين تَقَعُ إذا خالَفَ رَأيُكَ أمرَ الله ، وشَهادَتُكَ شَهادَةَ الله ؟ أخْبِرْني يا ذا خَوْلان ، ماذا يَقُولونَ لكَ ؟ فتَكلَّمَ عند ذلك وقال لِوَهْبٍ : إنَّهم يَأمُرُونَني أن لا أتَصَدَّقَ إلاَّ علىٰ مَنْ يَرَىٰ رَأيَهم ولا أسْتَغفِرُ إلاَّ له فقالَ : صَدَقْتَ ، هٰذه مِحْنَتُهم الكاذِبَة ، فأمَّا قَولُهم في الصَّدَقَة ، فإنَّه قد بَلَغَني أنَّ رَسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، ذَكَرَ أنَّ امْرأةً من أَهْلِ اليَمَنِ دَخَلت النَّارَ في هِرَّةٍ رَبَطَتْها ، أفَإنْسانٌ مِمَّنْ يَعبُدُ اللهَ يُوَحِّدُه ولا يُشْرِكُ به أحَبُّ إلى الله أن يُطْعِمَه من جُوعٍ ، أو هِرَّة ؟ والله يَقولُ : ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾[2] . الآيات .

وأمَّا قَولُهم لا يُسْتَغْفَرُ إلاَّ لِمَنْ يَرَىٰ رَأيَهم ، أهُم خَيرٌ أم المَلائِكَة ، والله يَقولُ :

---

(١) هَرَجَ في الحديث : خَلَطَ فيه .

(٢) سورة الإنسان ، الآية : ٨ .

﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾[١] ، فوالله ما فَعَلت المَلائِكَةُ ذلكَ حتىٰ أُمِرُوا به ﴿ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴾[٢] ، وجـاء مُيَسَّـراً : ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[٣] .

يا ذا خَوْلان إني قد أدْرَكْتُ صَدرَ الإسْلام ، فوالله ما كانت الخَوارِجُ جَماعَةٌ قَطُّ إلاَّ فَرَّقَها اللهُ علىٰ شَرِّ حالاتِهم ، وما أظْهَرَ أَحَدٌ منهم قَولَه إلاَّ ضَرَبَ اللهُ عُنُقَه ، ولَوْ مَكَّنَ اللهُ لهم من رَأيِهم لَفَسَدت الأرضُ ، وقُطِعَت السُّبُلُ والحَجُّ ، ولعادَ أمرُ الإسْلام جاهِليَّةً ، وإذاً لقامَ جَماعَةٌ ، كلٌّ منهم يَدْعُو إلىٰ نَفْسِه الخِلافَة ، مع كلِّ واحِدٍ منهم أكْثرُ من عَشْرةِ آلافٍ يُقاتِلُ بَعضُهُم بَعضاً ويَشهَدُ بَعضُهُم علىٰ بَعضٍ بالكُفْرِ ، حتىٰ يُصْبحُ المُؤمِنُ خائِفاً علىٰ نَفسِهِ ودِينِه ودَمِه ومالِه لا يَدري مع مَنْ يَكونُ ، قال تَعالَىٰ : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾[٤] ، وقال : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[٥] فلَو كانوا مُؤمِنينَ لنُصِرُوا ، وقال : ﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾[٦] ، ألا يَسَعُك ياذا خَوْلان من أهْلِ القِبْلَة ما وَسِعَ نُوحاً من عَبَدَة الأصْنام ، إذْ قالَ له قَومُه : ﴿ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾[٧] إلىٰ أنْ قالَ : فقالَ ذُو خَوْلان : فما تأمُرُني ؟ قال : انْظُر زَكاتَك فأدِّها إلىٰ مَنْ وَلاَّهُ الله أمرَ هـٰذه الأُمَّة وجَمَعَهُم عليه ، فإنَّ المُلكَ من الله وَحْدَه وبِيَدِه ، يُؤْتيه مَنْ يَشاءُ ، فإذا أدَّيْتَها إلىٰ وَليِّ الأمرِ بَرِئْتَ منها ، وإنْ كانَ فَضلٌ فَصِلْ به أرْحامَك ومَوالِيكَ وجِيرانَك والضَّيفَ ، فقال : أشْهَدُ أنِّي نَزَلتُ عن رَأي الحَروريَّة[٨] .

* * *

---

(١) سورة الشورىٰ ، الآية : ٥ .
(٢) سورة الأنبياء ، الآية : ٢٧ .
(٣) سورة غافر ، الآية : ٧ .
(٤) سورة البقرة ، الآية : ٢٥١ .
(٥) سورة غافر ، الآية : ٥١ .
(٦) سورة الصافات ، الآية : ١٧٣ .
(٧) سورة الشعراء ، الآية : ١١١ .
(٨) انظر السير : (وهب بن مُنبه) ٤/ ٥٥٤ـ٥٥٧ ، وانظر النزهة : ٣/ ٥٥٥ .

رابعاً : السَّالِميَّة

قال ابنُ عَساكِر : كانَ الأهْوازيُّ علىٰ مَذْهَب السَّالِميَّة[1] يَقولُ بالظَّاهِر ويتمسَّكُ بالأحاديثِ الضعيفَة التي تُقَوِّي رَأيَه .

قال الكتَّانيُّ : وكان مُكْثِراً من الحَديثِ ، وصَنَّفَ الكَثيرَ في القِراءاتِ وفي أسانيدِها ، له غَرائِبُ يَذكُرُ أنَّه أخَذَها رِوايَةً وتِلاوَةً ، ومِمَّن وَهَّاهُ ابنُ خَيْرون .

وقال الدَّاني : أخَذَ القِراءاتِ عَرْضاً وسَماعاً من أصْحابِ ابنِ شَنَبُوذ وابنِ مُجاهِد قال : وكانَ واسِعَ الرِّوايَة ، حافِظاً ضابِطاً ، أقْرأَ دَهْراً بِدِمَشْقَ .

قال الذهبيُّ : في نَفْسي أمورٌ من عُلُوِّه في القِراءاتِ[2] .

وقِيلَ : كان الإمامُ الزُّبَيْديُّ يَذهَبُ إلىٰ مَذْهَبِ السَّالِميَّة ، ويَقولُ : إنَّ الأمْواتَ يَأكُلُونَ ويَشْرَبونَ ويَنكِحونَ في قُبورِهم ، وإنَّ الشَّارِبَ والزَّاني لا يُلامُ لأنَّه يَفعلُ بقَضاءِ الله وقَدَرِه .

قال الذَّهبيُّ : يَحْتجُّ بقِصةِ آدَمَ ومُوسَىٰ عليهما السَّلامُ ، وبِقَولِ آدَمُ : أتَلُومُني ؟ وأنَّه حَجَّ موسىٰ ، ولَوْ سَلَّمنا أنَّ الزَّاني لا يُلامُ ، فعَلَيْنا أنْ نَحُدَّه ونُغَرِّبَه ، ونَذُمَّ فِعْلَه ، ونَرُدَّ شَهادَتَه ، ونَكْرَهَه ، فإنْ تابَ واتَّقَىٰ أحْبَبْناه واحْتَرَمْناه ، فالنِّزاعُ لَفْظيٌّ[3] .

* * *

---

(١) قال العَلاَّمةُ الكَوْثَريُّ في تعليقِه علىٰ « تَبيين كذب المفتري » ٣٦٣ : السالِميةُ فِرقة من المُشبِّهة ، يقولون : إنَّ اللهَ تعالَىٰ يُرىٰ في صورة آدَميّ وإنَّه تعالَىٰ يَقرأ علىٰ لسان كل قارىء وإنهم إذا سَمعوا القُرآنَ من قارىء يَروْنَ أنَّهم إنَّما يَسْمَعونَه من الله تعالَىٰ ويَعتقدون أنَّ المَيِّتَ يأكلُ في القَبرِ ويشرَبُ ويَنكِحُ إلىٰ غَيرِ ذلك ، وهـٰذه النِّحْلَة مَعروفَةٌ بالبَصْرة وسَوادِها بالسَّالِميَّة نِسْبةً إلىٰ مَقالَةِ الحَسَن بنِ مُحمّد بنِ أحْمد بنِ سالم السَّالِميّ البَصْريّ وابنِه أبي عبد الله المُتَصَوِّف .

(٢) انظر السير : (الأهوازي) ١٨/ ١٣ـ١٨ ، وانظر النزهة : ٤/١٣٧٧ .

(٣) انظر السير : (الزُّبَيدي) ٢٠/ ٣١٦ـ٣١٩ ، وانظر النزهة : ٣/١٥٥٥ .

خامساً : الشِّيعَةُ والرَّوافِضُ

١ـ التَّشَيُّعُ الخَفيفُ :

وقالَ أحمدُ بنُ عبد الله العِجْليّ : كان مَنصُورُ بنُ المُعْتَمِر أثْبَتَ أهْلِ الكُوفَة ، لا يَخْتلفُ فيه أحَدٌ ، صالحٌ مُتعَبِّدٌ ، أُكْرِهَ على القَضاءِ فقَضىٰ شَهْرينِ ، قال : وفيه تَشَيُّعٌ قَليلٌ وكان قد عَمِشَ من البُكاءِ .

قال الذهبيُّ : تَشَيُّعُهُ حُبٌّ وَوَلاءٌ فقَط[١] .

قال حَفصُ بنُ غياث ، مِنْ طَريقِ عَليِّ بنِ خَشْرَم ، عنه : سَمعتُ شُرَيْكاً يقولُ : قُبِضَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم ، واسْتَخارَ المُسلِمونَ أبا بَكْرٍ ، فلَوْ عَلِموا أنَّ فيهم أحَداً أفْضَلَ منه كانوا قد غَشُّونا ، ثم اسْتَخْلَفَ أبو بَكْر عُمَرَ ، فقامَ بما قامَ به من الحَقِّ والعَدْلِ ، فلمَّا حَضَرَتْهُ الوَفاةُ ، جَعَلَ الأمرَ شُورَىٰ بينَ سِتَّةٍ ، فاجْتَمَعوا علىٰ عُثمانَ ، فلَوْ عَلِموا أنَّ فيهم أفْضَلَ منه كانوا قد غَشُّونا[٢] .

قال عليُّ بنُ خَشْرم : فأخْبَرَني بَعضُ أصْحابِنا من أهْلِ الحَديثِ ، أنَّه عَرضَ هـٰذا علىٰ عبدِ الله بنِ إدْريس ، فقالَ ابنُ إدْريس : أنتَ سَمعتَ هـٰذا من حَفْص ؟ قُلتُ : نَعَمْ : قال : الحَمدُ لله الذي أنْطَقَ بهـٰذا لسانَه ، فوالله إنَّه لشِيعي ، وإنَّ شُرَيْكاً لَشيعي[٣] .

قال الذهبيُّ : هـٰذا التَّشَيُّعُ الذي لا مَحْذورَ فيه إنْ شاءَ الله إلاَّ من قَبيلِ الكَلام فيمَنْ حارَبَ عَليّاً رضي الله عنه من الصَّحابَة ، فإنَّه قَبيحٌ يُؤَدَّبُ فاعِلُه ، ولا نَذْكُرُ أحَداً من الصَّحابَة إلاَّ بخَيرٍ ، ونَترَضَّىٰ عنهم ، ونقولُ : هم طائِفَةٌ من المُؤمنينَ بَغَتْ على الإمام عَليٍّ رضي الله عنه ، وذلك بنَصِّ قَولِ المُصْطَفَىٰ صلى الله عليه وسلم لِعَمَّارٍ : « تَقْتُلُك

---

(١) انظر السير : (منصور بن المعتمر) ٥/ ٤٠٢ـ ٤١٢ ، وانظر النزهة : ٧/٦١٧ .

(٢) انظر السير : (شُريك) ٨/ ٢٠٠ـ ٢١٦ ، وانظر النزهة : ١/٧٤٤ .

(٣) انظر السير : (شُريك) ٨/ ٢٠٠ـ ٢١٦ ، وانظر النزهة : ٢/٧٤٤ .

الفِئَةُ البَاغِيَةُ » ، فنَسأَلُ اللهَ أنْ يَرْضىٰ عن الجَميعِ ، وألاَّ يَجْعَلَنا مِمَّنْ في قَلبه غِلٌّ للمُؤْمنينَ . ولا نَرْتابُ أنَّ عَليّاً أفْضَلُ مِمَّنْ حارَبَه ، وأنَّه أوْلَىٰ بالحَقِّ رضي الله عنه[1] .

قال الذهبيُّ : والظَّاهِرُ أنَّ وَكيعاً فيه تَشَيُّعٌ يسيرٌ لا يَضُرُّ إنْ شَاءَ الله ، فإنَّه كُوفيٌّ في الجُملَة ، وقد صَنَّفَ كتابَ فَضائِلِ الصَّحابَة ، سَمعْناهُ قَدَّمَ فيه بابَ مَناقِبَ عليٍّ علىٰ مَناقِبِ عُثمانَ ، رَضيَ اللهُ عَنهُما[2] .

وقال الوَزيرُ ابنُ حِنْزابَة : سَمعتُ مُحمّدَ بنَ موسَى المَأْمُونيّ ـ صاحبَ النَّسائيّ ـ قال : سَمعتُ قَوماً يُنْكِرونَ علىٰ أبي عبد الرَّحمَـٰن النَّسائيّ كتابَ « الخَصائِصْ » لِعَليٍّ رضي الله عنه ، وتَرْكَه تَصْنيفَ فَضَائِلَ الشَّيْخَينِ ، فذَكَرتُ له ذلكَ ، فقالَ : دَخلتُ دِمَشقَ والمُنْحَرِفُ بها عن عليٍّ كَثيرٌ ، فصَنَّفْتُ كتابَ « الخَصائِصِ » رَجَوتُ أنْ يَهْديَهم اللهُ تعالَىٰ ثم إنَّه صَنَّفَ بعدَ ذلكَ فَضَائِلَ الصَّحابَة ، فقِيلَ له وأنا أسْمَعُ : ألا تُخْرِجْ فَضَائِلَ مُعاويَةَ رضي الله عنه ؟ فقال : أيُّ شيءٍ أُخْرِجُ!! ؟ حَديثَ « اللَّهُمَّ لا تُشْبِعْ بَطْنَه » فسَكتَ السَّائلُ .

قال الذهبيُّ : لَعَلَّ أنْ يُقالَ : هـٰذه مَنْقَبَةٌ لمُعاويَة لقَولِه صلى الله عليه وسلم : « اللَّهُمَّ مَنْ لَعَنْتُهُ أَوْ سَبَبْتُهُ فَاجْعَلْ ذَلِكَ لَهُ زَكاةً وَرَحْمَةً » .

قال الحاكِمُ : كَلامُ النَّسائيّ علىٰ فِقْه الحَديثِ كَثيرٌ ، ومَنْ نَظَرَ في سُنَنِه تَحَيَّرَ في حُسن كَلامِه[3] .

وعن حَمْزَةَ العَقبيّ المِصْريّ وغَيرِه ، أنَّ النَّسائيَّ خَرَجَ من مِصْرَ في آخِرِ عُمرِه إلىٰ دِمَشْقَ ، فسُئِلَ بها عن مُعاويَة وما جاءَ في فَضَائِله ، فقالَ : لا يَرْضَىٰ رَأساً برَأسٍ حتىٰ يُفَضَّل ؟!! ، قال : فما زالُوا يَدْفَعونَ في حِضْنَيه[4] حتىٰ أُخْرِجَ من المَسْجِد ، ثم حُملَ إلىٰ مَكةَ فتُوفِيَ بها ، كذا قال ، وصَوابُه : إلى الرَّمْلَة .

---

(١) انظر السير : (شُرَيك) ٨/ ٢٠٠ـ ٢١٦ ، وانظر النزهة : ٣/٧٤٤ .
(٢) انظر السير : (وَكيع) ٩/ ١٤٠ـ ١٦٨ ، وانظر النزهة : ٥/٨١٠ .
(٣) انظر السير : (النَّسائيّ) ١٤/ ١٢٥ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٣/١١٣٧ .
(٤) وهما جنباه ، وفي شذرات الذهب « خصيتيه » .

قال أبو سَعيد بنُ يُونُس في « تاريخِه » : كانَ أبُو عبد الرَّحمَـٰن النَّسائيّ إماماً حافِظاً ثَبْتاً ، خَرَجَ من مِصْرَ في شَهرِ ذي القِعْدة من سَنةِ اثْنَتَينِ وثلاثِ مِئَة وتُوفِّيَ بفِلَسْطينَ في يومِ الإثْنَينِ لثلاثَ عَشرَةَ خَلتْ من صَفَر سَنةَ ثلاث(١) .

قال الذهبيُّ : ولَم يَكُنْ أحَدٌ في رَأسِ الثلاثِ مِئَة أحْفَظَ من النَّسائيّ ، هو أحْذَقُ بالحَديثِ وعِلَلِه ورِجالِه من مُسْلِم ، ومن أبي دَاوُدَ ، ومن أبي عِيسَىٰ وهو جارٍ في مِضْمارِ البُخاريِّ ، وأبي زُرْعَة إلاَّ أنَّ فيه قَليلَ تَشَيُّع وانْحِرافاً عن خُصُومِ الإمامِ عليٍّ ، كمُعاويَة وعَمرٍو ، واللهُ يُسامِحُه .

وقد صَنَّفَ مُسْنَدَ عليٍّ وكِتاباً حافلاً في الكُنَىٰ ، وأمَّا كتابُ « خَصائِص عليّ » فهو داخلٌ في « سُنَنِه الكَبير » وكذلكَ كتابُ « عَملُ يَومٍ ولَيلَة » وهو مُجلّدٌ ، وهو من جُملَة « السُّنَنِ الكَبير » في بَعضِ النُّسَخ ، وله كتابُ « التَّفْسير » في مُجلّد ، وكتابُ « الضُّعَفاء » وأشْياءَ والذي وَقَعَ لنا من سُنَنِه هو الكتابُ المُجْتَنَىٰ منه ، انْتِخابُ أبي بَكر ابن السُّنيّ(٢) .

٢ـ التَّشَيُّعُ الغَالي :

قال الإمامُ الذهبيُّ : بعدَما ذَكَرَ سِيرَةَ العَشْرَة المُبَشَّرينَ فهـٰذا ما تَيَسَّرَ من سِيرَةِ العَشْرَةِ وهُم أفْضَلُ قُرَيشٍ ، وأفْضَلُ السَّابِقينَ المُهاجِرينَ ، وأفْضَلُ البَدْرِيِّينَ ، وأفْضَلُ أصْحابِ الشَّجَرَة ، وسادَةُ هـٰذه الأمَّة في الدُّنيا والآخِرَة ، فأبْعَدَ اللهُ الرَّافِضَة ، ما أغْواهُم وأشَدَّ هَواهُم ، كَيفَ اعْتَرَفوا بفَضْلِ واحِدٍ منهم وبَخَسُوا التِّسْعَةَ حَقَّهم ، وافْتَرَوْا عليهم بأنَّهم كَتَموا النَّصَ في عَليٍّ أنَّه الخَليفَة ، فواللهِ ما جَرَىٰ من ذلكَ شيءٌ ، وأنَّهم زَوَّرُوا الأمرَ عَنه ، بزَعْمِهم ، وخَالَفُوا نبيَّهم ، وبادَرُوا إلىٰ بَيْعَةِ رَجلٍ من بَني تَميم يَتَّجِرُ ويَتكَسَّبُ ، لا لِرَغْبَةٍ في أموالِه ولا لِرَهْبَةٍ من عَشيرَتِه ورِجالِه ، وَيْحَكْ!! أيَفْعلُ هـٰذا مَنْ له مِسْكَةُ عَقلٍ!! ؟ ولَو جازَ هـٰذا علىٰ واحِدٍ لمَا جازَ علىٰ جَماعَة ، ولَو

---

(١) انظر السير : (النَّسائيّ) ١٤/ ١٢٥ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٢/١١٣٨ .
(٢) انظر السير : (النَّسائيّ) ١٤/ ١٢٥ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ١/١١٣٩ .

جازَ وُقوعُه من جَماعَة ، لاسْتَحالَ وُقوعُه ، والحالَةُ هـٰذه ، من أُلوفٍ من سادَة المُهاجِرينَ والأنْصارِ ، وفُرْسانِ الأُمَّة وأبْطالِ الإسْلامِ ، لكن لا حِيلَةَ في بُرْءِ الرَّفضِ فإنَّه داءٌ مُزْمِن ، والهُدَىٰ نُورٌ يَقذِفُه الله في قَلبِ مَنْ يَشاءُ ، فلا قُوَّةَ إلاَّ بالله[1] .

قال الذهبيُّ في ترجَمة محمَّدِ بنِ الحَنفيّة : كانت الشِّيعَةُ في زَمانِه تتَغالَىٰ فيه ، وتَدَّعِي إمامَتَه ، ولَقَّبُوهُ بالمَهْديِّ ، ويَزْعُمونَ أنَّه لَمْ يَمُتْ[2] .

وكان أبو جَعْفَر مُحمّد الباقِر أحَدَ مَنْ جَمَعَ بين العِلْمِ والعَمَل والسُّؤْدَدِ ، والشَّرَف ، والثِّقَة ، والرَّزانَة ، وكان أهْلاً للخِلافَة ، وهو أحَدُ الأئِمَّة الاثْنَي عَشر الذين تُبَجِّلُهم الشِّيعَةُ الإماميّة وتقولُ بعِصْمَتِهم وبمَعْرِفَتِهم بجَميعِ الدِّينِ ، فلا عِصْمَةَ إلاَّ للمَلائِكَةِ والنَّبِيِّينَ ، وكلُّ أحَد يُصِيبُ ويُخْطِىءُ ، ويُؤخَذُ من قَولِه ويُتْرَكُ سِوَى النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، فإنَّه مَعْصُومٌ ، مُؤيَّدٌ بالوَحْي[3] .

وكان النَّاسُ في الصَّدرِ الأوَّلِ بعدَ وَقْعَة صِفِّينَ علىٰ أقْسام : أهْلُ سُنَّة ، وهُم أُولُو العِلْمِ ، وهُم مُحِبُّونَ للصَّحابَة كافُّونَ عن الخَوضِ فيما شَجَرَ بَينَهم ، كَسَعْدٍ وابنِ عُمَر ومُحمّد بنِ مَسْلَمَة وأُمَمٌ ، ثم شِيعَة يَتوالُونَ ويَنالُونَ مِمَّنْ حارَبُوا عَليّاً ويَقولون : إنَّهم مُسلِمون بُغاةٌ ظَلَمَةٌ ، ثم نَواصِب وهم الذين حارَبوا عَليّاً يومَ صِفِّين ، ويُقِرُّونَ بإسْلامِ عَليٍّ وسابِقِيه ، ويقُولونَ : خَذَلَ الخَليفَةَ عُثْمان .

فما عَلِمْتُ في ذلكَ الزَّمانِ شِيعيّاً كَفَّرَ مُعاوِيَةَ وحِزْبَهُ ، ولا ناصِبيّاً كَفَّرَ عَليّاً وحِزْبَه ، بلْ دَخَلُوا في سَبٍّ وبُغْضٍ ، ثم صارَ اليومَ شِيعَةُ زَمانِنا يُكَفِّرونَ الصَّحابَة ، ويَبْرَؤُونَ منهم جَهْلاً وعُدْواناً ، ويَتَعدَّوْنَ إلى الصِّديقِ ، قاتَلَهُم الله ، وأمَّا نَواصِبُ وَقْتِنا فقَليلٌ ، وما عَلِمْتُ فيهم مَنْ يُكَفِّرُ عَليّاً ولا صَحابيّاً[4] .

---

(١) انظر السير : (سعيد بن زيد) ١/ ١٢٤ـ١٤٣ ، وانظر النزهة : ٢/١٤٠ .
(٢) انظر السير : (ابن الحنفية) ٤/ ١١٠ـ١٢٩ ، وانظر النزهة : ٢/٤٥٨ .
(٣) انظر السير : (أبو جعفر الباقر) ٤/٤٠١ـ٤٠٩ ، وانظر النزهة : ٢/٥٢١ .
(٤) انظر السير : (الفأفاء) ٥/ ٣٧٣ـ٣٧٤ ، وانظر النزهة : ٢/٦١٣ .

قال وَكيعٌ : حَسنُ بنُ صالح عندي إمامٌ ، فقيل له : إنَّه لا يَترحَّم علىٰ عُثمان فقال : أفَترحَّمُ أنت على الحَجَّاج ؟[1] .

قال الإمامُ الذهبيُّ : لا بارَكَ الله في هٰذا المِثالِ ومُرادُه : أنَّ تَرْكَ التَّرَحُّمِ سُكوتٌ ، والسَّاكِتُ لا يُنْسَبُ إليه قَولٌ ، ولكنْ مَنْ سَكَتَ عن تَرحُّم مثل الشَّهيدِ أميرِ المُؤمنينَ عُثمان ، فإنَّ فيهِ شَيئاً من تَشيُّع ، فمَنْ نَطَقَ فيه بِغَضٍّ وتَنَقُّصٍ فهو شِيعيٌّ جَلْدٌ يُؤَدَّب ، وإنْ تَرَقَّىٰ إلى الشَّيْخَينِ بذَمٍّ ، فهو رَافِضِيٌّ خَبيثٌ ، وكذا مَنْ تَعَرَّضَ للإمام عَليٍّ بِذَمٍّ ، فهو ناصِبيٌّ يُعَزَّرْ ، فإنْ كَفَّرَه فهو خارِجيٌّ مارِقٌ ، بَلْ سَبيلُنا أنْ نَسْتَغْفِرَ للكُلِّ ونُحِبَّهم ، ونَكُفَّ عمَّا شَجَرَ بينهم[2] .

وقد كان عليُّ الرِّضَا كَبيرَ الشَّأنِ ، أهْلاً للخِلافَة ، ولكن كَذَبَت عليه وفيه الرَّافِضَةُ ، وأَطْروهُ بما لا يَجُوزُ ، وادَّعَوا فيه العِصْمَة ، وغَلَتْ فيه ، وقد جَعَلَ الله لكلِّ شيءٍ قَدْراً[3] .

وعن صالح جَزَرة ، قال : كان عَبَّادُ ابنُ يَعقُوب الأسَديّ الرَّواجِنيّ يَشْتِمُ عُثمانَ رضي الله عنه ، وسَمعتُهُ يقولُ : اللهُ أَعْدَلُ مِن أنْ يُدْخِلَ طَلْحَةَ والزُّبَيْرَ الجَنَّةَ ، قاتَلا عَليّاً بعدَ أنْ بايَعاه[4] .

وقال ابنُ جَرير : سَمعتُه يقولُ : مَنْ لَمْ يَبْرأ في صَلاتِه كلَّ يومٍ من أعْداءِ آلِ مُحمّد ، حُشِرَ مَعَهم .

قال الإمامُ الذهبيُّ : هٰذا الكَلامُ مَبْدَأُ الرَّفضِ ، بَلْ نَكُفُّ ، ونَسْتَغفِرُ للأُمَّة ، فإنَّ آلَ مُحمّد في إيَّاهم قد عادَىٰ بَعضُهم بَعضاً واقْتَتَلوا على المُلكِ وتمَّتْ عَظائم ، فمِنْ أيِّهم نَبرأ ؟!![5] .

---

(١) انظر السير : (الحَسن بن صالح) ٧/ ٣٦١ـ٣٧١ ، وانظر النزهة : ٧/٧٠٣ .
(٢) انظر السير : (الحَسن بن صالح) ٧/ ٣٦١ـ٣٧١ ، وانظر النزهة : ١/٧٠٤ .
(٣) انظر السير : (علي الرِّضَىٰ) ٩/ ٣٨٧ـ٣٩٣ ، وانظر النزهة : ٤/٨٣٢ .
(٤) انظر السير : (الرَّواجنيّ) ١١/ ٥٣٦ـ٥٣٨ ، وانظر النزهة : ١/٩٧٠ .
(٥) انظر السير : (الرَّواجنيّ) ١١/ ٥٣٦ـ٥٣٨ ، وانظر النزهة : ٢/٩٧٠ .

وقال ابنُ حَزْم : الإماميّةُ كُلُّهم علىٰ أنَّ القُرآنَ مُبَدَّلٌ ، وفيه زِيادَةٌ ونَقْصٌ سِوَى المُرْتضَىٰ ، فإنَّه كَفَّرَ مَنْ قال ذلكَ ، وكذلكَ صاحِباهُ أبُو يَعْلى الطُّوسيّ ، وأبُو القاسِم الرَّازي[1] .

قال الإمامُ الذهبيُّ : وفي تَواليفِه سَبُّ أَصْحابِ رَسولِ الله صلى الله عليه وسلم فنَعُوذُ بالله من عِلْمٍ لا يَنْفَع .

وقد تُوفِّي المُرْتَضَىٰ في سَنَةِ سِتٍّ وثلاثينَ وأَرْبعِ مِئَة[2] .

٣ـ آلُ البَيتِ أهْلُ سُنَّة وجَماعَة ، وهم بَريئُونَ من عَقائِدِ الشِّيعَة الغالِيَة والرَّافِضَة :

قال أبُو حازِمِ المَدَنيّ : ما رَأيتُ هاشِمياً أفْقَهَ من عليِّ بنِ الحُسَينِ ، سَمعتُهُ وقد سُئِلَ : كَيفَ كانت مَنْزِلَةُ أبي بَكْرٍ وعُمَرَ عند رَسولِ الله صلى الله عليه وسلم ؟ فأشارَ بيَدِه إلى القَبْرِ ، ثم قال : بمَنْزِلَتِهما منهُ السَّاعة[3] .

قال أبو نُعَيم : حَدَّثنا عيسىٰ بنُ دينار ـ ثِقَةٌ ـ قال : سَألتُ أبا جَعفرٍ عن المُخْتارِ ، فقال : قامَ أبي علىٰ بابِ الكَعْبَة ، فلَعَنَ المُخْتارَ ، فقِيلَ له : تَلْعَنُه وإنَّما ذُبِحَ فيكم ؟ قال : إنَّه كان يَكذِبُ على الله وعلىٰ رَسُولِه صلى الله عليه وسلم[4] .

عن أبي جَعفَر ، قال : كُنَّا لَنُصَلِّي خَلفَهم ـ يَعني الأُمَويّة ـ من غَير تُقْيَة ، وأَشْهَدُ علىٰ أبي أنَّه كان يُصَلِّي خَلفَهم من غَيرِ تُقْيَة[5] .

قال ابنُ فُضَيل : عن سالِمِ بنِ أبي حَفْصَة : سألتُ أبا جَعْفَرٍ وابنَه جَعْفراً عن أبي بَكْر وعُمَرَ ، فقالا لي : يا سالِم ، تَوَلَّهُما وابْرَأ من عَدُوِّهِما ، فإنَّهُما كانا إمَامَيْ هُدَىٰ[6] .

كان سالِم فيه تَشَيُّعٌ ظاهِرٌ ، ومع هٰذا فيَبُثُّ هٰذا القَولَ الحَقَّ وإنَّما يَعرِفُ الفَضْلَ

---

(١) انظر السير : (المُرتضىٰ) ١٧/ ٥٨٨ـ ٥٩٠ ، وانظر النزهة : ٣/١٣٦٦ .
(٢) انظر السير : (المُرتضىٰ) ١٧/ ٥٨٨ـ ٥٩٠ ، وانظر النزهة : ٤/١٣٦٦ .
(٣) انظر السير : (عليُّ بن الحُسين) ٤/ ٤٠١ـ ٤٠٩ ، وانظر النزهة : ٥/٥١٩ .
(٤) انظر السير : (عليُّ بن الحسين) ٤/ ٣٨٦ـ ٤٠١ ، وانظر النزهة : ١/٥٢٠ .
(٥) انظر السير : (عليُّ بن الحسين) ٤/ ٣٨٦ـ ٤٠١ ، وانظر النزهة : ٢/٥٢٠ .
(٦) انظر السير : (أبو جعفر الباقر) ٤/ ٤٠١ـ ٤٠٩ ، وانظر النزهة : ٤/٥٢١ .

لأهلِ الفَضلِ ذُو الفَضْلِ ، وكذلك ناقِلُها ابنُ فُضَيْل ، شِيعيٌّ ثِقَةٌ ، فعَثَّرَ الله شِيعَةَ زَمانِنا ما أَغْرَقَهُم في الجَهْلِ والكَذبِ ، فيَنالُونَ من الشَّيْخَينِ وَزِيرَيْ المُصْطَفَىٰ صلى الله عليه وسلم ، ويَحْمِلونَ هٰذا القَولَ من الباقِرِ والصَّادِق على التُّقْيَة[1] .

عن عبدِ المَلكِ بنِ أبي سُلَيْمان : قُلتُ لمُحمّد بنِ عليّ : ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴾[2] قال : هُم أصْحابُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم قُلتُ : إنَّهم يَقولونَ : هُو عَليٌّ قال : عَليٌّ منهُم[3] .

وقالَ شُبابَة : أنْبأنا بَسَّامٌ : سَمعتُ أبا جَعْفَرٍ يقُولُ : كان الحَسَنُ والحُسَيْنُ يُصَلِّيانِ خَلفَ مَرْوانَ يَتبادَران الصَّفَ ، وكان الحُسَينُ يَسُبُّ مَرْوانَ وهو على المِنْبَرِ حتىٰ يَنزِلَ أفَتُقْيَةٌ هٰذه ؟!![4] .

وقال مُصْعبٌ الزُّبَيريُّ : كان فُضَيلُ بنُ مَرْزُوق يقولُ : سَمعتُ الحَسَنَ بنَ الحَسَن يَقولُ لرجُلٍ من الرَّافِضَة : أَحِبُّونا فإنْ عَصَيْنا اللهَ فأبْغِضُونا ، فلَوْ كانَ اللهُ نافِعاً أحَداً بقَرابَتِه من رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم بغَيرِ طاعَة لنَفَعَ أباهُ وأُمَّه[5] .

وقال عيسَىٰ بنُ يُونُس : جاءَت الرَّافِضَةُ زَيْداً ، فقالوا : تَبَرَّأ من أبي بَكْر وعُمَر حتىٰ نَنْصُرَكَ ، قالَ : بَلْ أتولاَّهما ، قالوا : إذاً نَرْفُضُك ، فمِنْ ثَمَّ قِيلَ لهم : الرَّافِضَة ، وأمَّا الزَّيْدِيَّة ، فقالوا بقَولِه ، وحارَبوا مَعَه[6] .

وعن زَيْد بنِ عليٍّ ، قال : كانَ أبُو بَكْر رضي الله عنه إمامَ الشَّاكِرين ، ثم تَلا : ﴿ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾[7] ، ثم قالَ : البَراءَةُ من أبي بَكْر هي البَراءَةُ من عليّ[8] .

---

(١) انظر السير : (أبو جعفر الباقر) ٤/ ٤٠١ـ ٤٠٩ ، وانظر النزهة : ٥٢١/ ٥ .
(٢) سورة المائدة ، الآية : ٥٥ .
(٣) انظر السير : (أبو جعفر الباقر) ٤/ ٤٠١ـ ٤٠٩ ، وانظر النزهة : ٥٢٣/ ١ .
(٤) انظر السير : (أبو جعفر الباقر) ٤/ ٤٠١ـ ٤٠٩ ، وانظر النزهة : ٥٢٣/ ٢ .
(٥) انظر السير : (الحَسَن) ٤/ ٤٨٣ـ ٤٨٧ ، وانظر النزهة : ٥٣٧/ ٣ .
(٦) انظر السير : (زيد بن عليّ) ٥/ ٣٨٩ـ ٣٩١ ، وانظر النزهة : ٦١٥/ ١ .
(٧) سورة آل عمران ، الآية : ١٤٤ .
(٨) انظر السير : (زيد بن عليّ) ٥/ ٣٨٩ـ ٣٩١ ، وانظر النزهة : ٦١٥/ ٣ .

وكان جَعْفرُ بنُ مُحمّد بن عليّ بنِ الحُسَين يَغْضَبُ من الرَّافِضَة ، ويَمْقُتُهم إذا عَلِمَ أنَّهم يَتعرَّضونَ لجَدِّه أبي بَكْر ظاهِراً وباطِناً ، هٰذا لا رَيْبَ فيه ، ولكنَّ الرَّافِضَةَ قومٌ جَهَلَةٌ قد هَوَىٰ بهم الهَوَىٰ في الهَاوِيَة فبُعْداً لهم .

وُلِدَ سَنةَ ثَمانينَ ورَأىٰ بَعضَ الصَّحابَة ، أحْسَبُه رَأىٰ أنَسَ بنَ مالِك وسَهْلَ بنَ سَعْد[1] .

عن سالِم بنِ أبي حَفْصَة : سألتُ أبا جَعْفَرَ وابنَه جَعْفراً عن أبي بَكْر وعُمَرَ ، فقالا لي : يا سالِم ، تَوَلَّهُما وابْرَأ من عَدُوِّهما ، فإنَّهُما كانا إمَامَيْ هُدَىٰ ثم قال جَعفَرٌ : يا سالِم ، أيَسُبُّ الرَّجُلُ جَدَّه ؟!! لا نالَتْني شَفاعَةُ مُحمّد صلى الله عليه وسلم يومَ القيامَة إنْ لَمْ أكُنْ أتَوَلاهُما وأبْرأُ من عَدُوِّهما[2] .

٤ـ إنْكارُ بعضُ آلِ البيتِ على الشِّيعَة ما غَلَوْا فيه :

وكان الشِّيعَةُ يقولونَ لابنِ الحَنَفيّة : سَلامٌ عليكَ يا مَهْديّ ، فقال : أجَلْ أنا مَهْديٌّ أهْديْ إلى الرُّشْد والخَيرِ ، اسْمِي مُحمّد ، فقُولوا : سَلامٌ عليكَ يا مُحمّد أوْ يا أبَا القاسِم .

وعن أبي جَمْرَة قال : سِرْنا مع ابنِ الحَنَفيّة من الطَّائِف إلىٰ أَيْلَة[3] بعدَ مَوتِ ابنِ عَبّاس ، وكان عبدُ المَلِك قد كَتَبَ له علىٰ أنْ يَدخُلَ في أرْضِه هو وأصْحابُه ، حتىٰ يَتَّفِقَ النَّاسُ علىٰ رَجلٍ واحِدٍ ، فلمَّا قَدِمَ مُحمّد الشَّامَ ، كَتَبَ إليه عبدُ المَلِكِ ، إمَّا أنْ تُبايِعَني وإمَّا أنْ تَخْرُجَ من أرْضِي ـ ونحنُ يَومئذٍ سَبعَةُ آلافٍ ـ فبَعَثَ إليه : علىٰ أنْ تُؤَمِّنَ أصْحابي ، ففَعَل ، فقامَ فحَمِدَ اللهَ وأثْنَىٰ عليه ، ثم قال : اللهُ وَلِيُّ الأمُور كُلِّها وحاكِمُها ، ما شاءَ اللهُ كانَ وما لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ ، والذي نَفسُ مُحمّد بيَدِه لَيَعُودَنَّ فيهم الأمرُ كما بَدَأ ، الحَمدُ لله الذي حَقَنَ دِماءَكم ، وأحْرَزَ دينكم مَنْ أحَبَّ منكم أنْ يأتِيَ

---

(١) انظر السير : (جعفر بن محمد) ٦/ ٢٥٥ـ ٢٧٠ ، وانظر النزهة : ٦٤٧/ ٢ .
(٢) انظر السير : (جعفر بن محمد) ٦/ ٢٥٥ـ ٢٧٠ ، وانظر النزهة : ٦٤٧/ ٣ .
(٣) أيلَة : مدينة علىٰ ساحل البحر الأحمر مما يلي الشام ، وتُسمى اليوم العقبة .

مَأمَنَه إلىٰ بَلَدِه آمِناً مَحْفوظاً فلْيَفْعَل ، كلُّ ما هُو آتٍ قَريبٌ ، عَجَّلْتُم بالأمرِ قبلَ نُزُولِه ، والذي نَفسي بيَدِه إنَّ في أَصْلابِكُم لَمَنْ يُقاتِلُ معَ آلِ مُحمّد ، أمرُ آلِ مُحمّد مُسْتَأخَرٌ قال : فبَقِيَ في تِسْعِ مِئَة ، فأَحْرَمَ بعُمْرَة وقَلَّدَ هَدْياً ، فلمَّا أَرَدْنا أنْ نَدْخُلَ الحَرَمَ ، تَلَقَّتْنا خَيلُ ابنِ الزُّبَيْر ، فمَنَعَتْنا أنْ نَدخُلَ ، فأرْسَلَ إليه مُحمّد : لقد خَرَجْتُ وما أُريدُ قِتالاً ، ورَجَعتُ كذلك ، دَعْنا نَدخُلْ ، فلْنَقْضِ نُسُكَنا ثم لنَخْرُج عَنكَ ، فأبَىٰ ، قال : ومَعَنا البُدْنُ مُقلَّدَةٌ فرَجَعْنا إلى المَدينَة ، فكُنَّا بها حتىٰ قَدِمَ الحَجَّاجُ ، وقَتَلَ ابنَ الزُّبَيْر ، ثم سارَ إلى العِراقِ ، فلمَّا سارَ مَضَينا فقَضَينا نُسُكَنا ، وقد رَأيتُ القَمْلَ يَتَناثرُ من ابنِ الحَنَفيَّة ، قال : ثم رَجَعنا إلى المَدينَةِ فمَكَثَ ثلاثةَ أشْهُر ثم تُوُفِّي[1] .

وعن يَحْيَىٰ بنِ سَعيد ، عن عليِّ بنِ الحُسَين : يا أَهْلَ العِراق ، أَحِبُّونا حُبَّ الإسْلامِ ، ولا تُحِبُّونا حُبَّ الأصْنامِ ، فمَا زالَ بنا حُبُّكُم حتىٰ صارَ علَيْنا شَيْناً[2] .

وعن سالِم بنِ أبي حَفْصَة وكان يَتَرَفَّضُ ، قال : دَخلتُ علىٰ أبي جَعْفَر وهو مَريضٌ فقال ـ وأظُنُّ قالَ ذلكَ مِن أجْلي ـ : اللَّهُمَّ إنِّي أَتَوَلَّىٰ وأُحِبُّ أبا بَكْر وعُمَرَ ، اللَّهُمَّ إنْ كان في نَفسي غَيرُ هٰذا ، فلا نالَتْني شَفاعَةُ مُحمّد ـ يومَ القيامَة ـ صلى الله عليه وسلم[3] .

وعن عُرْوَة بنِ عبدِ الله ، قال : سَأَلتُ أبا جَعْفَرٍ مُحمّد بنَ عليّ عن حِلْيَةِ السُّيوفِ ، فقالَ : لا بَأسَ به ، قد حَلَّىٰ أبو بَكْر الصِّدِّيقُ سَيفَه ، قُلتُ : وتَقولُ الصِّدِّيقُ ؟!! ، فوَثَبَ وَثْبةً واسْتَقبَلَ القِبلَة ثم قال : نَعَم الصِّدِّيق ، نَعَم الصِّدِّيق ، فمَنْ لَمْ يَقُلِ الصِّدِّيق ، فلا صَدَّقَ اللهُ له قَولاً في الدُّنيا والآخِرَة[4] .

وقال فُضَيلُ بنُ مَرْزوق : سَمِعتُ الحَسَنَ بنَ الحَسَن يقولُ لِرجُلٍ من الرَّافِضَة : إنَّ قَتْلَكَ قُرْبَةٌ إلى الله ، فقال : إنَّكَ تَمْزَحُ ، فقال : والله ما هو منِّي بِمُزاح[5] .

---

(١) انظر السير : (ابن الحنفيّة) ٤/ ١١٠ـ ١٢٩ ، وانظر النزهة : ١/٤٦٠ .
(٢) انظر السير : (عليّ بن الحُسين) ٤/ ٣٨٦ـ ٤٠١ ، وانظر النزهة : ٧/٥١٧ .
(٣) انظر السير : (أبو جعفر الباقر) ٤/ ٤٠١ـ ٤٠٩ ، وانظر النزهة : ٥/٥٢٢ .
(٤) انظر السير : (أبو جعفر الباقر) ٤/ ٤٠١ـ ٤٠٩ ، وانظر النزهة : ٤/٥٢٣ .
(٥) انظر السير : (الحَسن بن الحَسن) ٤/ ٤٨٣ـ ٤٨٧ ، وانظر النزهة : ٢/٥٣٧ .

ورَوىٰ فُضَيلُ بنُ مَرْزوق ، قال : سَمعتُ الحَسَنَ يقولُ : دَخَلَ عليَّ المُغيرَةُ بنُ سَعيد ـ يَعني الذي أُحْرِقَ في الزَّنْدَقَة ـ فذَكَرَ من قَرابَتي وشَبَهي برَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ـ وكُنتُ أُشبَّهُ وأنا شابٌّ برسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ـ ثم لَعَنَ أبا بَكْر وعُمَرَ فقُلتُ : يا عَدُوَّ الله ، أعِنْدي ؟!! ، ثم خَنَقْتُه ـ والله ـ حتىٰ دَلَعَ لِسانُه .

تُوفِّيَ الحَسَنُ بنُ الحَسَن سَنَةَ تِسعٍ وتِسعينَ .

وقِيلَ : كانت شِيعَةُ العِراقِ يُمَنُّونَ الحَسَنَ الإمارَةَ مع أنَّه كان يَبْغَضُهُم دِيانَةً وكان يَصْلُحُ للخِلافَة[1] .

٥ـ حُبُّ عَليٍّ وعُثمَانَ :

قال أبو الحُسَين أحمَدُ بنُ مُحمّد الواعِظُ ، حَدَّثنا أبو العَبَّاس بنُ عُقْدَةَ إمْلاءً سَنَةَ ثلاثينَ وثلاثِ مِئَة ، حَدَّثنا عبدُ الله بنُ الحُسَين بنِ الحَسَن بنِ الأشْقَر قال : سَمعتُ عَثَّامَ بنَ عليٍّ العامِريَّ قال : سَمعتُ سُفْيانَ ، وهو يقولُ : لا يَجْتَمعُ حُبُّ عليٍّ وعُثمانَ إلاَّ في قُلوبِ نُبَلاءِ الرِّجال[2] .

قال الذهبيُّ : قد رُمِيَ ابنُ عُقْدَةَ بالتَّشيُّع ، ولكنْ روايَتُه لهـٰذا ونَحْوه يدُلُّ علىٰ عَدَم غُلوِّه في تَشيُّعِه ، ومَنْ بَلَغَ في الحِفظِ والآثارِ مَبْلَغَ ابنِ عُقْدَة ثم يَكونُ في قَلبِه غِلٌّ للسَّابقينَ الأوَّلينَ ، فهُو مُعانِدٌ أوْ زِنْديقٌ ، واللهُ أعْلَم[3] .

٦ـ تَقديمُ عُثمانَ علىٰ عليٍّ :

وقال أبو نُعَيم : سَمعتُ شَريكاً يقولُ : قُدِّمَ عُثمانُ يومَ قُدِّمَ ، وهو أفْضَلُ القَومِ[4] .

قال حَفصُ بنُ غياث ، مِنْ طَريقِ عَليِّ بنِ خَشْرَم ، عنه : سَمعتُ شَريكاً يقولُ :

---

(١) انظر السير : (الحَسن بن الحَسن) ٤/ ٤٨٣ـ٤٨٧ ، وانظر النزهة : ٤/٥٣٧ .

(٢) انظر السير : (ابن عُقْدة) ١٥/ ٣٤٠ـ٣٥٥ ، وانظر النزهة : ٢/١٢٣٤ .

(٣) انظر السير : (ابن عُقْدة) ١٥/ ٣٤٠ـ٣٥٥ ، وانظر النزهة : ٣/١٢٣٤ .

(٤) انظر السير : (شَريك)٨/ ٢٠٠ـ٢١٦ ، وانظر النزهة : ٢/٧٤٣ .

قُبِضَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم ، واسْتَخارَ المُسلِمونَ أبا بَكْرٍ ، فلَوْ عَلِموا أنَّ فيهم أَحداً أفْضَلَ منه كانوا قد غَشُّونا ، ثم اسْتَخْلَفَ أبو بَكْر عُمَرَ ، فقامَ بما قامَ به من الحَقِّ والعَدْلِ ، فلمَّا حَضَرَتْهُ الوَفاةُ ، جَعَلَ الأمرَ شُورَىٰ بينَ سِتَّةٍ ، فاجْتَمَعوا علىٰ عُثمانَ ، فلَوْ عَلِموا أنَّ فيهم أفْضَلَ منه كانوا قد غَشُّونا[١] .

قال الذهبيُّ : لَيسَ تَفْضيلُ عليٍّ برَفْضٍ ولا هو بِدْعَة ، بل قد ذَهَبَ إليه خَلقٌ من الصَّحابَة والتَّابعينَ ، فكُلٌّ مِنْ عُثمانَ وعليٍّ ذو فَضلٍ وسابِقَة وجِهاد ، وهما مُتقابِلانِ في العِلمِ والجَلالَةِ ، ولَعلَّهُما في الآخِرَة مُتساويان في الدَّرجَة ، وهما من سادَة الشُّهَداء رَضيَ الله عنهُما ولكنَّ جُمهُورَ الأُمَّة علىٰ تَرجيحِ عُثمانَ على الإمامِ عليٍّ ، وإليه نَذْهَبُ والخَطْبُ في ذلكَ يَسيرٌ ، والأفْضَلُ منهُما لا شَكَّ أبو بَكْر وعُمَر ، مَنْ خالَفَ في ذا فهُو شيعِيٌّ جَلد ، ومَنْ أبْغَضَ الشَّيخَينِ واعْتَقَدَ صِحَّةَ إمامَتِهما فهو رَافِضيٌّ مَقيتٌ ، ومَنْ سَبَّهُما واعْتَقَدَ أنَّهما لَيْسا بإمامَيْ هُدَىٰ فهو من غُلاة الرَّافِضَة أبْعَدَهم الله[٢] .

٧ـ لَيسَ تَقديمُ عليٍّ علىٰ عُثمانَ بدعَةً ولا رَفْضاً :

قال الدارَقُطنيُّ : اخْتَلفَ قَومٌ من أهْلِ بَغدادَ ، فقال قومٌ : عُثمانُ أفْضَل ، وقال قومٌ : عليٌّ أفْضَل ، فتَحاكَمُوا إليَّ ، فأمْسَكتُ وقُلتُ : الإمْساكُ خَيرٌ ، ثم لَمْ أرَ لِدِينيَ السُّكوتَ ، وقُلتُ للذي اسْتَفْتاني : ارْجِعْ إليهِم ، وقُل لهم : أبو الحَسَن يقولُ : عُثمانُ أفْضَلُ من عليٍّ باتِّفاقِ جَماعَةِ أصْحابِ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ، هـٰذا قَولُ أهْلِ السُّنَّة وهو أوَّلُ عَقْد يُحلُّ في الرَّفْض[٣] .

قال الذهبيُّ : لَيسَ تَفْضيلُ عليٍّ برَفْضٍ ولا هو بِدْعَة ، بل قد ذَهَبَ إليه خَلقٌ من الصَّحابَة والتَّابِعينَ ، فكُلٌّ مِنْ عُثمانَ وعليٍّ ذو فَضلٍ وسابِقَة وجِهاد ، وهما مُتقابِلانِ في العِلمِ والجَلالَةِ ، ولَعلَّهُما في الآخِرَة مُتساويان في الدَّرجَة ، وهما من سادَة الشُّهَداء رَضيَ الله عنهُما ولكنَّ جُمهُورَ الأُمَّة علىٰ تَرجيحِ عُثمانَ على الإمامِ عليٍّ ، وإليه نَذْهَبُ

---

(١) انظر السير : (شَريك) ٨/ ٢٠٠ـ٢١٦ ، وانظر النزهة : ١/٧٤٤ .
(٢) انظر السير : (الدارَقُطني) ١٦/ ٤٤٩ـ ٤٦١ ، وانظر النزهة : ٣/١٣٠٥ .
(٣) انظر السير : (الدارَقُطني) ١٦/ ٤٤٩ـ ٤٦١ ، وانظر النزهة : ٢/١٣٠٥ .

والخَطْبُ في ذلكَ يَسيرٌ ، والأفْضَلُ منهُما لا شَكَّ أبو بَكْر وعُمَر ، مَنْ خالَفَ في ذا فهُو شِيعِيٌّ جَلد ، ومَنْ أبْغَضَ الشَّيخَينِ واعْتَقَدَ صِحَّةَ إمامَتِهما فهو رَافِضيٌّ مَقيتٌ ، ومَنْ سَبَّهُما واعْتَقَدَ أنَّهما لَيْسا بإمامَيْ هُدَىٰ فهو من غُلاة الرَّافِضَة أبْعَدَهم الله[١] .

٨ـ تَفْضيلُ أبي بَكر وعُمَرَ علىٰ باقي الصَّحابَة :

عن عليٍّ : إنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم نَظَرَ إلىٰ أبي بَكر وعُمَر فقال : « هـٰذان سَيِّدا كهولِ أهلِ الجَنَّة من الأوَّلين والآخرين إلاَّ النَّبيِّين والمُرسَلين ، لا تُخْبِرْهما يا عليّ »[٢] .

وقال ابنُ مَسْعود : قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم : « لَوْ كنتُ مُتَّخِذاً خليلاً لاتَّخَذْتُ أبا بَكرٍ خَليلاً »[٣] .

ورَوىٰ مثلَه ابنُ عبَّاس فزادَ : « ولكنْ أخي وصاحِبي في الله ، سُدُّوا كلَّ خوخَة[٤] في المَسْجدِ إلاَّ خوخَةَ أبي بَكر »[٥] .

عن عُمرَ رضي الله عنه أنَّه قالَ : « أبو بَكر سَيدُّنا وخَيرُنا وأحَبُّنا إلىٰ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم » .

عن عبدِ الله بن شقيق قال : قلتُ لعائشَة : أيُّ أصحابِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم كان أحَبَّ إلىٰ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالت : أبو بَكر ، قلتُ : ثم مَنْ ؟ قالت : عُمَرُ ، قلتُ : ثم مَنْ ؟ قالت : أبو عُبَيْدَة ، قلتُ : ثم مَنْ ؟ فسَكتَت .

عن أبي سَعيد الخُدْريّ أنَّ رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم جَلسَ على المِنْبَر فقال : « إنَّ عَبداً خَيَّرَه اللهُ بينَ أنْ يُؤْتيَه من زَهرَة الدُّنيا ما شاءَ وبينَ ما عندَه فاخْتارَ ما عندَه » ، فقال أبو بَكر : فَدَيْناكَ يا رسُولَ الله بآبائنا وأمَّهاتنا ، قال : فعَجِبْنا ، فقال النَّاسُ :

---

(١) انظر السير : (الدارَقُطني) ١٦/٤٤٩ـ ٤٦١ ، وانظر النزهة : ٣/١٣٠٥ .
(٢) انظر السير : (أبو بَكر الصدِّيق) ، وانظر النزهة : ١/٢٤ .
(٣) انظر السير : (أبو بَكر الصدِّيق) ، وانظر النزهة : ٢/٢٤ .
(٤) الخوخة : نافذة كبيرة بين دارين ، عليها باب يخترق بينهما .
(٥) انظر السير : (أبو بَكر الصدِّيق) ، وانظر النزهة : ٣/٢٤ .

انظُروا إلىٰ هـٰذا الشَّيخ يُخْبرُ رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم عن عَبدٍ خَيَّره اللهُ ، وهو يقولُ : فَدَيْناكَ بآبائنا وأمَّهاتنا ، قال : فكان رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم هو المُخَيَّر ، وكان أبو بَكر أعْلَمَنا به[١] .

وعن أبي هُرَيْرَة قال : قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم : « ما لأَحَدٍ عِنْدَنا يَدٌ إلاَّ كافَأْناهُ ما خَلا أبا بَكر ، فإنَّ له عِندَنا يَداً يُكافِئُهُ اللهُ بها يومَ القيامَة ، وما نَفَعَني مالٌ قَطُّ ما نَفَعَني مالُ أبي بَكر ، ولَوْ كنْتُ مُتَّخِذاً خَليلاً لاتَّخَذْتُ أبا بَكر خَليلاً ألا وإنَّ صاحِبكم خَليلُ الله »[٢] .

قال مُحمَّدُ بنُ جُبَيْر بنُ مُطْعَم : أخْبرَني أبي أنَّ امرأةً أتَتْ رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم فكلَّمَته في شيء ، فأمَرَها بأمْرٍ ، فقالت : أرأيتَ يا رسُولَ الله إنْ لَمْ أجدْكَ ؟[٣] ، قال صلى الله عليه وسلم : « إنْ لَمْ تَجديني فَأْتِ أبا بَكر »[٤] .

عن عائشَةَ قالت : قال لي رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم في مَرَضه : « أُدْعُ لي أبَاكِ وأخَاكِ حتىٰ أكْتُبَ كتاباً فإنِّي أخافُ أنْ يَتمَنَّىٰ مُتَمنٍّ ويقولَ قائلٌ ، ويأبَى اللهُ والمؤمنونَ إلاَّ أبا بَكر »[٥] .

وأخْرجَ البُخاريُّ من حَديث أبي إدْريسَ الخَولاني قال : سَمعتُ أبا الدَّرْداء يقولُ : كان بينَ أبي بَكر وعُمَرَ مُحاوَرَة فأغْضَبَ أبو بَكر عُمَر ، فانْصَرَفَ عنه عُمَرُ مُغْضَباً فاتَّبعَه أبو بَكر يسْأَلُه أنْ يَستغفرَ له ، فلَمْ يَفعَل حتىٰ أغلقَ بابَه في وجهه ، فأقبلَ أبو بَكر إلىٰ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ، فقال أبو الدَّرْداء : ونحن عنده ، فقال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم : « أمَّا صاحِبُكم هـٰذا فقَد غامَر » ، قال : ونَدِمَ عُمرُ علىٰ ما كان منه ، فأقبلَ حتىٰ سَلَّمَ وجلسَ إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم فقَصَّ علىٰ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم الخَبرَ ، قال أبو الدَّرْداء : وغَضِبَ رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) انظر السير : (أبو بَكر الصدِّيق) ، وانظر النزهة : ٢٤/ ٤ .
(٢) انظر السير : (أبو بَكر الصدِّيق) ، وانظر النزهة : ٢٤/ ٥ .
(٣) قال جُبيرُ بن مطعم : كأنها تعني الموت .
(٤) انظر السير : (أبو بَكر الصدِّيق) ، وانظر النزهة : ٢٥/ ١ .
(٥) انظر السير : (أبو بَكر الصدِّيق) ، وانظر النزهة : ٢٥/ ٢ .

وجَعلَ أبو بَكر يقول : والله يا رسُولَ الله لأنا كُنتُ أظْلَمَ فقالَ رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم : « هَلْ أنتُم تارِكونَ لي صَاحِبي ؟ إنِّي قُلتُ : يا أيُّها النَّاسُ إنِّي رسُولُ اللهِ إلَيْكم جَميعاً ، فقُلتُم : كذَبْتَ ، وقال أبو بَكر : صَدَقْتَ »[١] .

عن عبد الرَّحمَـٰن بنِ أبي لَيْلىٰ أنَّ عُمرَ صَعدَ المِنْبَر ثم قال : ألا إنَّ أفْضَلَ هـٰذه الأُمَّة بعدَ نَبيِّها أبو بَكر ، فمَنْ قالَ غَيرَ ذلكَ بعدَ مَقامي هـٰذا فهو مُفْتَرٍ ، عليه ما على المُفْتَري[٢] .

وقال أبو مُعاويَة وجَماعة : ثنا سُهيلُ بنُ أبي صالح ، عن أبيه ، عن ابنِ عُمَرَ قال : كنَّا نقوُل علىٰ عَهد رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم : إذا ذَهبَ أبو بكر ، وعُمرُ ، وعُثمانُ ، اسْتَوى النَّاسُ فبلَغَ ذلكَ رسُول الله صلى الله عليه وسلم فلَمْ يُنْكِرْه[٣] .

وقال عليٌّ رضي الله عنه : « خَيْرُ هـٰذه الأُمَّةِ بَعدَ نَبيِّها أبو بَكر ، وعُمَر » .

قال الذهبيُّ : هـٰذا والله العَظيم قاله عليٌّ وهو مُتواترٌ عنه ، لأنَّه قالَه علىٰ مِنْبَر الكُوفَة ، فقاتَلَ اللهُ الرَّافِضَةَ ما أجْهَلَهُم .

وقال السُّديُّ ، عن عبد خَير ، عن عليٍّ رضي الله عنه قال : « أعْظَمُ النَّاسِ أَجْراً في المَصاحِف أبو بَكر ، كان أوَّلَ مَنْ جَمَعَ القُرآنَ بينَ اللَّوْحَين » إسْنادُه حَسَن .

وعن عائشَةَ قالت : « أوَّلُ ما بدىء مَرضُ أبي بَكر أنَّه اغْتَسَلَ ، وكان يوماً بارداً فحُمَّ خَمسةَ عَشرَ يوماً لا يَخرجُ إلىٰ صَلاة ، وكان يأمُرُ عُمرَ بالصَّلاة ، وكانوا يَعودُونَه ، وكان عُثمانُ ألْزَمَهُم له في مَرَضِه ، وتُوفِّيَ مساء ليلة الثلاثاء لثمانٍ بَقين من جُمادى الآخِرة ، وكانت خِلافَتُه سَنَتَين ومائة يوم .

وقال أبو معشر : سنتين وأربعة أشهر إلاَّ أربع ليالٍ ، عن ثلاث وستين[٤] .

---

(١) انظر السير : (أبو بَكر الصدِّيق) ، وانظر النزهة : ٣/٢٥ .
(٢) انظر السير : (أبو بَكر الصدِّيق) ، وانظر النزهة : ٢/٢٦ .
(٣) انظر السير : (أبو بَكر الصدِّيق) ، وانظر النزهة : ٣/٢٦ .
(٤) انظر السير : (أبو بَكر الصدِّيق) ، وانظر النزهة : ٤/٢٦ .

وقال القاسمُ ، عن عائشَةَ : إنَّ أبا بَكر حين حَضرَه الموتُ قال : إنِّي لا أعْلمُ عندَ آلِ أبي بَكر غيرَ هـٰذه اللقحَة وغيرَ هـٰذا الغُلام الصَّيقل ، كان يَعملُ سُيوفَ المسلمين ويَخْدمُنا ، فإذا مِتُّ فادْفَعيه إلىٰ عُمَرَ ، فلمَّا دفَعْتُه إلىٰ عُمَر ، قال عُمَرُ : رَحِمَ اللهُ أبا بَكر لقَد أتْعبَ مَنْ بَعدَه .

وقال الزُّهريُّ : أوْصَىٰ أبو بَكر أنْ تُغَسِّلَه امْرأتُه أسْماءَ بنتُ عُمَيْس ، فإنْ لَمْ تَسْتطِعْ اسْتعانَت بابنِه عبد الرَّحمَـٰن[1] .

وقال سَعيدُ بنُ جُبَيْر : ﴿ وَصَـٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[2] نَزلَت في عُمرَ خاصَّة[3] .

وعن ابنِ عبَّاس قالَ : قالَ رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم : « إنَّ لي وَزِيرَيْنِ من أهْلِ السَّماءِ ووَزِيرَيْنِ من أهْلِ الأرْضِ ، فوَزِيرايَ من أهْلِ السَّماءِ جِبْريلُ وميكائيلُ ، ووَزيرايَ من أهْلِ الأرْضِ أبو بَكر وعُمَر » .

قال الذهبيُّ : حَديثُ ابن عبَّاس حَسَن[4] .

وعن حُذَيفَة قال : قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم : « اقْتَدُوا باللَّذَيْنِ من بَعدي أبي بَكر وعُمَر »[5] .

وقالت عائشةُ : قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم : « قَدْ كانَ في الأُمَمِ مُحَدَّثون[6] فإنْ يَكنْ في أُمَّتي أحَدٌ فعُمَرُ بنُ الخطَّاب » .

وقال أنَسٌ : قالَ عُمَرُ : وافقْتُ ربِّي في ثلاثٍ : في مَقامِ إبْراهيمَ ، وفي الحِجابِ ، وفي قَولِه تَعالَىٰ : ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ ﴾[7] ،[8] .

---

(1) انظر السير : (أبو بَكر الصدِّيق) ، وانظر النزهة : ١/٢٨ .
(2) سورة التحريم : الآية ٤ .
(3) انظر السير : (عُمرُ بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ٤/٤٤ .
(4) انظر السير : (عُمرُ بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ٢/٤٥ .
(5) انظر السير : (عُمرُ بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ٣/٤٥ .
(6) قال ابن وهب : مُلهَمون .
(7) سورة التحريم ، الآية : ٥ .
(8) انظر السير : (عُمرُ بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ٧/٤٥ .

قال عليٌّ رضي الله عنه بالكُوفَة علىٰ مِنْبَرها في مَلأ من النَّاسِ أيَّامَ خِلافَتِه : « خَيْرُ هٰذه الأُمَّة بعد نَبيِّها أبو بَكر ، وخَيرُها بعد أبي بَكر عُمَرُ ، ولو شِئتُ أنْ أُسَمِّي الثالثَ لسَمَّيتُه » وهٰذا مُتواتر عن عليٍّ رضي الله عنه ، فقَبَّحَ اللهُ الرَّافِضَة .

وقالت عائشَةُ : قال أبو بَكر : ما علىٰ ظَهر الأرْضِ رَجلٌ أحَبُّ إليَّ من عُمَر .

وقالت عائشَةُ : دَخلَ ناسٌ علىٰ أبي بَكر في مَرضِه فقالوا : يَسَعُك أنْ تُوَلِّي عَلينا عُمَرَ وأنتَ ذاهبٌ إلىٰ ربِّك فما تَقولُ له ؟ قال : وَلَّيتُ عليهم خيرَهم .

وقال الزُّهريُّ : أوَّلُ مَنْ حيَّا عُمرَ بأمير المؤمنين المُغيرَةُ بنُ شُعبَة[1] .

وعن أسْلَم قال : كُنَّا نَقولُ : لَوْ لَمْ يَرفَع اللهُ المَحْلَ عامَ الرَّمادَة لظَنَنَّا أنَّ عُمرَ يَموتُ[2]، [3] .

وقال سُفيانُ الثَّوريُّ : مَنْ زَعَمَ أنَّ عَليّاً كان أحَقَّ بالولايَة من أبي بَكرٍ وعمرَ فقد خطَّأَ أبا بَكر وعُمرَ والمهاجرينَ والأنْصار[4] .

وقالَ شَريكٌ : لَيسَ يُقدِّمُ عليّاً علىٰ أبي بَكر وعُمرَ أحدٌ فيه خَيرٌ[5] .

وقال أبو أسامة : تَدرونَ مَنْ أبو بَكر وعُمَرُ ؟ هما أبو الإسْلام وأمُّه[6] .

عن ابنِ عُمرَ قال : وُضِعَ عُمرُ بينَ القَبر والمِنْبَر ، فجاءَ عليٌّ حتىٰ قامَ بينَ الصُّفوف فقال : « رَحمَةُ الله عَليكَ ، ما مِنْ خَلقٍ أحَبُّ إليَّ مِنْ أنْ ألْقَى اللهَ بصَحيفَته بعد صَحيفَةِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم من هٰذا المُسَجَّىٰ عليه ثَوبُه » وقد رُويَ نَحوُه من عدَّة وجوه عن عليٍّ رضي الله عنه .

---

(١) انظر السير : (عُمرُ بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ٤٦/ ٤ .
(٢) زاد ابن سعد في طبقاته (٣/ ٣١٥) : « هَمّاً بأمر المسلمين » .
(٣) انظر السير : (عُمرُ بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ٥٢/ ٢ .
(٤) انظر السير : (عُمرُ بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ٥٢/ ٣ .
(٥) انظر السير : (عُمرُ بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ٥٢/ ٤ .
(٦) انظر السير : (عُمرُ بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ٥٢/ ٥ .

وقال معدانُ بنُ أبي طَلحَة : أُصيبَ عُمرُ يومَ الأرْبعاء لأرْبعٍ بَقين من ذي الحجَّة ، وكذا قال زَيدُ بنُ أسْلَم وغيرُ واحد .

وقال إسْماعيلُ بنُ محمَّد بنِ سَعد بنِ أبي وقَّاص : إنَّه دُفِنَ يومَ الأحَد مُسْتهَلَّ المُحرَّم .

وعن جَرير بنِ عبد الله سَمعَ مُعاويَة يَخطبُ ويقول : مات رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم وهو ابنُ ثلاثٍ وستِّين ، وأبو بَكر وعُمرُ وهما ابنا ثلاثٍ وستِّين[1] .

وعن مُحمّد بنِ يُوسُف الفريابيّ قال : حَدَّثنا أبي : سَمعتُ سُفْيانَ يقولُ : إنَّ قَوماً يَقولونَ : لا نَقُولُ لأبي بَكر وعُمَرَ إلاَّ خَيراً ، ولكنَّ عَلَيّاً أَوْلَىٰ بالخِلافَة منهُما ، فمَنْ قالَ ذلكَ ، فقَد خَطَّأَ أبا بَكر وعُمَرَ وعَليّاً والمُهاجِرينَ والأنْصارِ ، ولا أدْري تَرْتفعُ مع هـٰذا أعْمَالُهُم إلى السَّماءِ ؟!![2] .

وقال ابنُ القاسِم : سَألتُ مالِكاً عن عليٍّ وعُثمانَ فقال : ما أدْرَكتُ أَحَداً مِمَّنْ أَقْتَدي به إلاَّ وهو يَرى الكَفَّ عَنهُما ، قال ابنُ القاسِم : يُريدُ التَّفْضيلَ بَينَهُما فقُلتُ : فأبُو بَكر وعُمَر ؟ فقال : لَيسَ فيهِما إشْكالٌ ، إنَّهُما أفْضَلُ مِن غَيرِهما[3] .

وقالَ ابنُ عُيَيْنَة : قِيلَ لشَريك : ما تَقولُ فيمَنْ يُفَضِّلُ عَليّاً علىٰ أبي بَكر ؟ قال : إذاً يَفتَضِحُ يَقولُ أخْطَأَ المُسلِمونَ[4] .

وعن سَلَمَةَ بنِ شَبيب قال : سَمعتُ عبدَ الرَّزَّاق ، يَقولُ : ما انْشَرَحَ صَدري قَطُّ أنْ أُفَضِّلَ عَليّاً علىٰ أبي بَكرٍ وعُمَرَ ، فرَحِمَهما الله ، ورَحِمَ عُثمانَ وعَليّاً ، مَنْ لَمْ يُحِبَّهم فما هو بِمُؤمِن ، أَوْثَقُ عَملي حُبِّي إيَّاهُم[5] .

---

(١) انظر السير : (عُمرُ بن الخطَّاب) ، وانظر النزهة : ٢/٥٧ .
(٢) انظر السير : (سُفيان) ٧/٢٢٩ـ٢٧٩ ، وانظر النزهة : ٣/٦٩٧ .
(٣) انظر السير : (مالك الإمام) ٨/٤٨ـ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٤/٧٣٥ .
(٤) انظر السير : (شَريك) ٨/٢٠٠ـ٢١٦ ، وانظر النزهة : ٣/٧٤٣ .
(٥) انظر السير : (عبد الرَّزَّاق بن همّام) ٩/٥٦٣ـ٥٨٠ ، وانظر النزهة : ١/٨٤١ .

٩ـ التعْريفُ بفَضْلِ مُعاويَة رضي الله عنه :

قال الخَطيبُ : سَمعتُ غَيرَ واحِد يَحْكِي عن أبي عُمَرَ ، مُحمّد ابن عبد الواحِد ، أنَّ الأشْرافَ والكُتَّابَ كانوا يَحْضُرونَ عندَه ليَسْمَعوا منه كُتُبَ ثَعْلَبَ ، وغَيرِها ، وله جُزءٌ قد جَمَعَ فيه فَضائِلَ مُعاويَة ، فكانَ لا يَتْرُكُ واحِداً منهُم يَقْرأُ عليه شَيئاً حتىٰ يَبْتَدىءَ بِقِراءَة ذلكَ الجُزءَ .

وكان جَماعَةٌ من أهْلِ الأدَبِ لا يُوَثِّقونَ أبا عُمَرَ في عِلمِ اللُّغَة حتىٰ قالَ لي عُبَيدُ الله بنُ أبي الفَتْح : يُقالُ : إنَّ أبا عُمَرَ كانَ لَوْ طارَ طائِرٌ لقالَ : حَدَّثنا ثَعْلَبٌ عن ابنِ الأعْرابيِّ ، ثم يَذكُرُ شَيئاً في مَعْنَىٰ ذلكَ(١) .

١٠ـ شِعرٌ في مُوالاة الخُلَفاء الأرْبَعَة وحُبِّهِم :

قالَ المُصَنِّفُ في الميزانِ : ٣/ ٥٢٥ تَعْليقاً علىٰ قَولِ السَّمْعانيِّ عن أبي العز القلانسي : أمَّا الرَّفضُ ، فَلا ، فلَه أبْياتٌ في تَعْظيمِ الأرْبَعةِ الرَّاشِدينَ إنْ لَمْ يَكُنْ نَظَمَها تُقْيَةً .

وقالَ الحافِظُ في « اللِّسانِ » : ٥/ ١٤٤ والأبْياتُ المَذْكورَة أوْرَدَها ابنُ السَّمْعانيِّ عن سَعدِ الله بنِ مُحمّد المُقْرىء أنَّه أنْشَدَه ، قالَ : أنْشَدَني أبُو العِزِّ القلانسيُّ لِنَفْسِه :

إنَّ مَنْ لَمْ يُقَدِّم الصِّدِّيقَا ... لَمْ يَكُنْ لِي حَتَّى المَماتِ صَديقَا
والذي لا يَقُولُ قَوْلِي في الفَا ... رُوقِ أَهْوَىٰ لِشَخْصِهِ تَفْرِيقَا
وَبِنَارِ الجَحِيمِ باغِضُ عُثْمَا ... نَ وَيَهْوِي مَنْهَا مَكَاناً سَحِيقَا
مَنْ يُوَالِي عِنْدِي عَلِيّاً وعَادَا ... هُمْ جَمِيعَاً عَدَدْتُهُ زِنْدِيقَا

قالَ ابنُ السّمعانيّ : كُنتُ أعْتَقِدُ في أبي العِزِّ أنَّه يَميلُ إلى الرَّفضِ حتىٰ سَمِعتُ له هٰذهِ الأبْياتِ(٢) .

---

(١) انظر السير : (أبو عُمَرَ الزَّاهد) ١٥/ ٥٠٨ـ ٥١٣ ، وانظر النزهة : ٤/١٢٥٥ .

(٢) انظر النزهة : ١٥٠٢/ هامش رقم (٢) .

١١٢ـ الرَّدُّ على الشِّيعَةِ الاثْنَي عَشْرِيّة :

قال الذهبيُّ في تَرجَمَة المُنتَظَرِ أبي القاسِم مُحمّد بن الحَسَن العَسْكَريّ : خاتِمَةُ الإثْنَيْ عَشَرَ سَيِّداً ، الذينَ تَدَّعي الإماميَّةُ عِصْمَتَهم ـ ولا عِصْمَةَ إلاَّ لِنَبيٍّ ـ ومُحمَدٌ هذا هو الذي يَزعُمُونَ أنَّه الخَلَفُ الحُجَّةُ ، وأنَّه صاحِبُ الزَّمانِ ، وأنَّه صاحِبُ السِّرْدابِ بِسَامِرَّاءَ ، وأنَّه حَيٌّ لا يَمُوتُ ، حتّىٰ يَخْرُجَ ، فيَمْلأَ الأرضَ عَدْلاً وقِسْطاً ، كمَا مُلِئَتْ ظُلماً وجُوراً فوَدِدْنا ذلكَ ـ واللهِ ـ وهُم في انْتِظارِهِ من أرْبَعِ مِئَةٍ وسَبعينَ سَنةً ، ومَنْ أحالَكَ علىٰ غائِبٍ لَمْ يُنْصِفْكَ ، فكَيفَ بمَنْ أحالَ علىٰ مُسْتَحيلٍ ؟!! ، والإنْصافُ عَزيزٌ فنَعُوذُ باللهِ من الجَهلِ والهَوَىٰ(١) .

١٢ـ ذِكْرُ الأئِمَّة الاثْنَي عَشْرِيَّة وفَضْلِهِم :

قال الذهبيُّ : مَوْلانا الإمامُ عليٌّ مِن الخُلَفاءِ الرَّاشِدينَ ، المَشْهودِ لهُم بالجَنَّةِ رضي الله عنه ، نُحِبُّه أشَدَّ الحُبِّ ، ولا نَدَّعِي عِصْمَتَه ، ولا عِصْمَةَ أبي بَكْرٍ الصِّدِّيق .

وابْناهُ الحَسَنُ والحُسَيْنُ : فسِبطَا رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ، وسَيِّدا شَبابِ أهْلِ الجَنَّة ولَوْ اسْتُخلِفَا لكَانَا أهْلاً لذلكَ وزَيْنُ العَابدينَ : كَبيرُ القَدْرِ من سادَة العُلَماءِ العامِلينَ ، يَصْلُحُ للإمامَة ، وله نُظَراءُ ، وغَيرُه أكْثرُ فَتْوَىٰ منه ، وأكْثرُ روايَة وكذلك ابنُه أبو جَعْفَر الباقِر : سَيِّدٌ ، إمامٌ ، فَقيهٌ ، يَصْلُحُ للخِلافَة وكذا وَلَدُه جَعْفَرٌ الصَّادِق : كَبيرُ الشَّأنِ ، من أئِمَّةِ العِلمِ ، كانَ أوْلَىٰ بالأمرِ من أبي جَعْفَر المَنْصور وكان وَلَدُه موسَىٰ كَبيرَ القَدْرِ ، جَيِّدَ العِلمِ ، أوْلَىٰ بالخِلافَة من هارُونَ ، وله نُظَراءُ في الشَّرَفِ والفَضْلِ وابنُه عليُّ بنُ موسَى الرِّضَا كَبيرُ الشَّأنِ ، له عِلمٌ وبَيانٌ ، ووَقْعٌ في النُّفوسِ ، صَيَّرَه المَأمونُ وَلِيَّ عَهْدِه لجَلالَتِه فتُوفِّيَ سَنةَ ثلاثٍ ومِئَتَينِ وابنُه مُحمّدٌ الجَوَّادُ : من سادَة قَومِه ، لَمْ يَبلُغْ رُتْبَةَ آبائِه في العِلمِ والفِقْه وكذلك وَلَدُه المُلَقَّبُ بالهَادي : شَريفٌ جَليلٌ ، وكذلك ابنُه الحَسَنُ بنُ عليّ العَسْكَريّ ، رَحِمَهم اللهُ تَعالَىٰ .

فأمَّا مُحمّدُ بنُ الحَسَن هذا : فنَقَلَ أبو مُحمّد بنُ حَزْمٍ : أنَّ الحَسَنَ ماتَ من غَيرِ

---

(١) انظر السير : (المُنتَظَر) ١٣/١١٩ـ١٢٢ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٦٢ .

عَقِبٍ قال : وَثَبَتَ جُمهورُ الرَّافِضَة علىٰ أنَّ للحَسَنِ ابناً أَخْفَاهُ .

وممَّن قال إنَّ الحَسَنَ العَسْكري لم يُعقبْ : محمّد بنُ جَرير الطَّبريّ ، ويَحْيَىٰ بنُ صاعِد ، وناهيكَ بهما معرفةً وثقةً[1] .

١٣ـ مَنْ قُتِلَ من عُلَماء أَهْلِ السُّنَّة بِسَبب إنْكارِه على الشِّيعَة :

قال عبدُ الله أحمَدُ بنُ الدُّحَيْميّ : سَمعتُ المَرَّارَ بنَ حَمَّويْه يقولُ : اللَّهُمَّ ارْزُقْني الشَّهادَة ، وأَمَرَّ يَدَه علىٰ حَلْقِه ، قِيلَ : لمَّا وَقَعَتْ فِتْنَةُ المُعْتَزِّ والمُسْتَعينِ كان علىٰ هَمَذانَ الأميرانِ جَبَّاخ وجُغْلان من قِبَل المُعتَزِّ ، فاستَشارَ أهلُ هَمَذان المَرَّارَ والجُرْجانيَّ في مُحارَبَتِهما ، فأَمَراهُم بلُزوم مَنازِلِهم ، فلمَّا أغارَ أَصْحابُهُما علىٰ دارِ سَلَمَةَ بنِ سَهْل وغَيرِها ، ورَمَوا رَجُلاً بسَهْم ، أَفْتَياهُم في الحَرْبِ ، وتَقَلَّدَ المَرَّارُ سَيفاً ، فخَرَجَ مَعَهم فقُتِلَ عَدَدٌ كثيرٌ من الفَريقَينِ ، ثم طلب مُفلِحٌ المرَّارَ ، فاعْتَصَم بأهلِ قُم ، وهَرَبَ معَه إبراهيمُ بنُ مَسْعود المُحَدِّثُ ، فأَمَّا إبراهيمُ فهازَلَهُم وقارَبَهُم فسَلِم ، وأمَّا المرَّارُ ، فأظْهَرَ مُخالَفَتَهم في التَّشَيُّعِ ، وكاشَفَهم ، فأَوْقَعوا به وقَتَلوه ، رَحِمَه الله .

ورَوَى الحُسَينُ بنُ صالح أنَّ عَمَّه المَرَّارَ قُتِلَ في سَنةِ أَرْبعٍ وخَمسينَ ومِئَتَينِ وله أَرْبَعٌ وخَمسونَ سَنةً قال صالِحُ بنُ أحمَدَ التَّميميُّ : قُتِلَ المرَّارُ في السُّنَّة شَهيداً .

قال الذهبيُّ : كان من أئِمَّة الإسْلام[2] .

قال الذهبيُّ في تَرجَمَة الشَّهيدِ ابنِ البَرْدُون ، أبو إسْحاقَ إبْراهيمُ بنُ مُحمّد : أنَّه كانَ مُناقِضاً للعِراقيِّينَ ، فدارَتْ عليه دَوائِرُ في أيّام عُبَيْد الله وضُرِبَ بالسِّياطِ ثم سَعَوْا به عند دُخولِ الشِّيعيِّ إلى القَيْروانِ ، وكانت الشِّيعَةُ تَميلُ إلى العِراقيِّين لمُوافقَتِهم لهم في مَسْأَلَةِ التَّفْضيلِ ورُخصَة مَذْهَبِهم ، فرَفَعوا إلىٰ أبي عبد الله الشِّيعيِّ : أنَّ ابنَ البَرْدونِ وأبا بَكْر ابنَ هُذَيْل يَطْعَنانِ في دَولَتِهم ، ولا يُفَضِّلانِ عَليّاً فحَبَسَهما ، ثم أمَرَ مُتَولِّي

---

(١) انظر السير : (المُنْتَظر) ١٣/١١٩ـ١٢٢ ، وانظر النزهة : ٣/١٠٦٢ .

(٢) انظر السير : (المَرَّار بن حمويه) ١٢/٣٠٨ـ٣١١ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٠٣ .

القَيْرَوانَ أنْ يَضْربَ ابنَ هُذَيل خَمْسَ مِئَةِ سَوْطٍ ، ويَضرِبَ عُنقَ ابنَ البَرْذُونِ فغَلَطَ المُتولِّي فقتَلَ ابنَ هُذَيل ، وضَرَبَ ابنَ البَرْذُونِ ، ثم قتَلَه من الغَدِ[1] .

وقِيلَ لابنِ البَرْدونِ لمَّا جُرِّدَ للقَتْلِ : أتَرْجعُ عن مَذْهبك ؟ قال : أَعَنِ الإسْلامِ أرْجعُ ؟!! ، ثم صُلِبَا في سَنة تِسعٍ وتِسعينَ ومِئَتَينِ ، وأمَرَ الشِّيعيُّ الخَبيثُ أن لا يُفْتَىٰ بمَذْهبِ مَالِك ، ولا يُفْتَىٰ إلاَّ بمَذْهبِ أهلِ البَيتِ ويَرَوْنَ إسْقاطَ طَلاقِ البَتَّة ، فبَقِيَ مَنْ يَتَفقَّهُ لمَالِك إنَّما يَتَفقَّه خِفْيَةً[2] .

قال بَعضُهم : كُنتُ جالساً عند ابنِ أبي خِنْزيرٍ فدَخلَ شَيخٌ ذو هَيئَة وخُشوع ، فبَكَى ابنُ أبي خِنزير وقال : السُّلطانُ ـ يَعْني عُبَيْدَ الله ـ وَجَّهَ إليَّ يأمُرُني بدَوْسِ هـٰذا ـ يَعْني أبو جَعفَر بنَ خَيرون ـ حتىٰ يَموتَ ، ثم بَطَحَه ، وقَفَزَ عليه السُّودانُ حتىٰ ماتَ ، لِجِهادِه وبُغْضِه لعُبَيدِ الله وجُندِه[3] .

وجاءَ في تَرجَمَة هَيَّاجِ بنِ عُبَيْد ، قالَ الذهبيُّ : الإمامُ الفَقيهُ ، الزَّاهِدُ شَيخُ الإسْلامِ ، أبو مُحمّد الشَّاميُّ الحِطِّينيُّ الشَّافِعيُّ ، شَيخُ الحَرَمِ ، وُلِدَ بعدَ التِّسْعينَ وثلاثِ مِئَة .

وكان اعْتِناؤُه جَيِّداً بالحَديثِ ، وله بَصَرٌ بالمَذْهب ، وقَدَمٌ في التَّقْوىٰ وجَلالَةٌ عَجيبَةٌ[4] .

قال ابنُ طاهِر : كان هَيَّاجٌ قد بَلَغَ من زُهْده أنَّه يَصُومُ ثلاثَةَ أيّامٍ ويُواصِلُ ، لكن يُفطِرُ علىٰ ماءِ زَمْزَمَ ، فمَنْ أتاهُ بعد ثلاث بشَيءٍ أكَلَه وكان قد نَيَّفَ علىٰ الثَّمانينَ ، وكان يَعتمِرُ كلَّ يوم ثلاثَ عُمَرٍ ، ويُدَرِّسُ عدَّةَ دُروسٍ ويَزورُ ابنَ عَبَّاسٍ بالطَّائِف كلَّ سَنةٍ مرَّة ، لا يأكُلُ في الطريقِ شَيئاً ويَزورُ قَبرَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم كلَّ سَنةٍ معَ أهلِ مَكَّةَ ، فيَخرُجُ فمَنْ أخَذَ بيَدِه ، كان في مَؤونَتِه حتىٰ يَرجِعَ ، وكان يَمشي حافياً من مَكَّةَ

---

(١) انظر السير : (ابن البَرْدون) ١٤/ ٢١٥ـ٢١٧ ، وانظر النزهة : ١١٤٦/ ٤ .

(٢) انظر السير : (ابن البَرْدون) ١٤/ ٢١٥ـ٢١٧ ، وانظر النزهة : ١١٤٦/ ٥ .

(٣) انظر السير : (ابن خَيرون) ١٤/ ٢١٧ ، وانظر النزهة : ١١٤٧/ ٢ .

(٤) انظر السير : (هَيَّاج ابن عُبَيد) ١٨/ ٣٩٣ـ٣٩٥ ، وانظر النزهة : ١٤٢٥/ ١ .

إلى المَدينَة ، وسَمِعتُ مَنْ يَشكُو إليه أنَّ نَعْلَيهِ سُرِقَتا ، فقال : اتَّخِذْ نَعْلَينِ لا يَسْرِقُهُما أحَدٌ ـ يَعْني الحِفاءَ ـ ورُزِقَ الشَّهادَةَ في كائِنَةٍ بينَ السُّنَّة والرَّافِضَة وذلكَ أنَّ بَعضَ الرَّافِضَة شَكَا إلىٰ أميرِ مَكّةَ أنَّ أهْلَ السُّنَّة يَنالونَ مِنَّا ، فأَنْفَذَ ، وطَلبَ هَيَّاجاً وأبا الفَضْلِ بنَ قَوَّام وابنَ الأنْماطيِّ ، وضَرَبَهم ، فماتَ هـٰذان في الحالِ ، وحُمِلَ هَيَّاجٌ ، فماتَ بعدَ أيّام ، رَضِيَ الله عَنهُم .

ماتَ هَيَّاجٌ سَنةَ اثْنَتَينِ وسَبعينَ وأرْبعِ مِئَة[1] .

١٤ـ مَنْ هُدِّدَ بالقَتل من عُلَماء السُّنَّة بسَبب عَدم مُوافَقَته للشِّيعَة :

قال الذهبيُّ في تَرجَمَة الإمامِ أبي الخَيرِ الطَّالِقانيّ : وظَهَرَ التَّشيُّعُ في زَمانِه بسَبب الصَّاحِبِ ، فالْتَمَسَ العامَّةُ منه على المِنْبَرِ يومَ عاشُوراءَ أنْ يَلْعَنَ يَزيدَ ، فامْتَنَع ، فهَمُّوا بقَتْلِه مرَّات ، فلَمْ يُرَعْ ، ولا زَلَّ ، وسارَ إلىٰ قَزْوينَ ، وضَجَعَ[2] لهم ابنُ الجَوْزيّ[3] .

١٥ـ الشِّيعَةُ المُجاهِدون :

سَيفُ الدَّولَة :

هو أبُو الحَسَن عليُّ بنُ عبدِ الله بنِ حمْدان ، صاحبُ حَلَب ، مَقْصدُ الوُفودِ ، وكَعْبةُ الجُود ، وفارسُ الإسْلامِ ، وحامِلُ لِواءِ الجِهاد .

كان أَديباً مَليحَ النَّظْمِ ، فيه تَشَيُّع[4] .

ويُقالُ : ما اجْتَمَعَ ببابِ مَلِكٍ من الشُّعَراءِ ما اجْتَمَعَ ببابِه ، وكان يَقولُ : عَطاءُ الشُّعَراءِ من فَرائِضِ الأُمَراءِ .

وقد جُمِعَ له من المَدائِحِ مُجلَّدان[5] .

---

(١) انظر السير : (هَيَّاج ابن عُبَيد) ١٨/ ٣٩٣ـ ٣٩٥ ، وانظر النزهة : ٣/١٤٢٥ .

(٢) ضَجعَ لهم : أي مال إليهم ووافقهم .

(٣) انظر السير : (الطّالقانيّ) ٢١/ ١٩٠ـ ١٩٣ ، وانظر النزهة : ١/١٦١١ .

(٤) انظر السير : (سَيفُ الدولة) ١٦/ ١٨٧ـ ١٨٩ ، وانظر النزهة : ٤/١٢٨٢ .

(٥) انظر السير : (سَيفُ الدولة) ١٦/ ١٨٧ـ ١٨٩ ، وانظر النزهة : ٥/١٢٨٢ .

يُقالُ : تَمَّ له من الرُّومِ أربَعونَ وَقْعَة ، أكْثَرُها يَنْصُره الله عَليهم[1] .

وقِيلَ : إنَّه في عيد نفَّذَ إلى النَّاسِ ضَحايا لا تُعدُّ كَثرةً ، فبَعَثَ إلى اثنَيّ عَشرَ ألفَ إنْسانٍ ، فكانَ أكثرُ ما يَبعَثُ إلى الكَثيرِ منهم مِئَةَ رَأسٍ[2] .

وتُوفِّيت أختُه ، فخَلَّفَت له خَمسَ مئةَ ألفِ دينار ، فافْتكَّ بجَميعها أَسْرَىٰ[3] .

مَولدُه في سنة إحْدَىٰ وثلاثِ مئَة ، وله غَزوٌ ما اتَّفقَ لملكٍ غيرُه وكان يُضرَبُ بشَجاعَتِه المَثلُ ، وله وَقعٌ في النُّفوس ، فاللهُ يَرْحمه[4] .

ماتَ بالفالِج ، وقِيلَ بعُسْر البَوْل ، سَنةَ ستٍّ وخَمسين ، وكان قد جَمعَ من الغُبار الذي يَقعُ عليه وَقتَ المَصافَّات قَدْرَ الكَفِّ ، وأَوْصَىٰ أن يُوضَعَ علىٰ خَدِّه .

وكانت دولَتُه نيِّفاً وعشرينَ سنةً[5] .

ثابِتُ بنُ أَسْلَم :

قال الذهبيُّ في تَرجَمته : هو العَلاَّمَة أبو الحَسَن الحَلبيُّ ، فَقيهُ الشِّيعَة ، ونَحَويُّ حَلَب .

تَصدَّرَ للإفادَة ، وله مُصنَّفٌ في كَشف عُوارِ الإسْماعيليَّة وبَدء دَعْوتهم وأنَّها على المَخاريق ، فأخذَه داعي القومِ ، وحُملَ إلىٰ مِصْرَ ، فصَلبَه المُسْتَنْصِرُ ، فلا رَضيَ اللهُ عمَّن قَتلَه ، وأُحرِقَت لذلك خِزانَةُ الكُتب بحَلَب ، وكان فيها عَشرةُ ألافِ مجلَّدة ، فرَحِمَ اللهُ هـٰذا المُبتَدِع الذي ذَبَّ عن الملَّة ، والأمْرُ لله[6] .

---

(١) انظر السير : (سَيفُ الدولة) ١٦/ ١٨٧ـ ١٨٩ ، وانظر النزهة : ١٢٨٢/٦ .
(٢) انظر السير : (سَيفُ الدولة) ١٦/ ١٨٧ـ ١٨٩ ، وانظر النزهة : ١٢٨٢/٧ .
(٣) انظر السير : (سَيفُ الدولة) ١٦/ ١٨٧ـ ١٨٩ ، وانظر النزهة : ١٢٨٢/٨ .
(٤) انظر السير : (سَيفُ الدولة) ١٦/ ١٨٧ـ ١٨٩ ، وانظر النزهة : ١٢٨٢/٩ .
(٥) انظر السير : (سَيفُ الدولة) ١٦/ ١٨٧ـ ١٨٩ ، وانظر النزهة : ١٢٨٣/١ .
(٦) انظر السير : (ثابِتُ بنُ أَسْلَم) ١٨/ ١٧٦ ، وانظر النزهة : ١٣٩٦/ ثابت بن أسلم .

١٦ـ من عُلماء الشِّيعَة :

الجِعَابي :

جاء في ترجمة الجِعَابيّ ، قال الذهبيُّ : الحافظُ البارع العلاَّمَة ، قاضي المَوصِل ، أبو بكر محمد بنُ عُمر بنِ محمد التَّيميُّ البغداديُّ الجِعَابيّ .

مَولُده سنة أربع وثمانين ومئتين[١] .

قال ابنُ الفَضْل القطَّان : سَمعتُ ابنَ الجِعَابيِّ يقول : دَخلتُ الرَّقَّة ، وكان لي ثَمَّ قِمْطران[٢] كُتب ، فجاء غُلامي مَغموماً وقد ضاعَت الكتبُ ، فقلتُ : يا بُنيّ لا تَغْتَم ، فإنَّ فيها مئتي ألف حَديث لا يُشكِلُ عليَّ حديثٌ منها ، لا إسْنادُه ولا مَتْنُه .

ونَقلَ الخطيبُ عن أشْياخه أنَّ ابن الجِعَابيّ كان يَشربُ في مَجلس ابنِ العَميد .

وقال أبو عبد الرحمـٰن السُّلمي : سألتُ الدارَقُطنيَّ عن ابنِ الجِعَابيِّ فقال : خلَّط ، وذكرَ مَذهبَه في التَّشَيُّع ، وكذا نقلَ أبو عبد الله الحاكم ، عن الدارَقُطنيِّ قال : وحدَّثني ثقةٌ أنَّه خلَّى ابنَ الجِعَابي نائماً وكَتبَ علىٰ رِجلِه ، قال : فكنتُ أراهُ ثلاثةَ أيَّام لمْ يَمسَّه الماءُ .

قال الخطيبُ : سَمعتُ ابنَ رزْقوَيه يقولُ : كان ابنُ الجِعَابيّ يَمتلىءُ في مجلِسه ، وتَمْتلىءُ السِّكةُ التي يُملي فيها والطريق ، ويحضرُ الدارَقُطنيُّ ، وابنُ المظفر ويُملي من حِفْظه .

قال الأزهَريُّ : كانت سكينةُ نائحةُ الرَّافِضَة تَنوحُ في جِنازَته ، مات سنةَ خمسٍ وخمسين وثلاث مئة[٣] .

١٧ـ من عُلماء الشِّيعَة الغالين :

الرَّوَاجنيّ :

جاء في تَرجمة الرَّوَاجنيّ ، قال الذهبي : الشَّيخُ العالِم الصَدوقُ ، مُحدِّثُ

---

(١) انظر السير : (الجِعَابيّ) ١٦/٨٨ـ ٩٢ ، وانظر النزهة : ١٢٦٨/٣ .

(٢) تَثْنيةُ قِمْطر : ما يُصان في الكتب .

(٣) انظر السير : (الجِعَابيّ) ١٦/٨٨ـ ٩٢ ، وانظر النزهة : ١٢٦٨/٤ .

الشِّيعَة ، أبو سَعيد عَبَّادُ بنُ يَعقُوب الأسدي الرَّوَاجنيُّ الكُوفيُّ المُبتَدِع .

وقال الحاكمُ : كان ابن خُزَيْمَة يقولُ : حَدَّثنا الثِّقَةُ في رِوايَتِه المُتَّهَمُ في دِينه ، عبَّادُ بنُ يَعقُوب .

وقال ابنُ عدي : فيه غُلوٌّ في التَّشَيُّع[1] .

وعن صالح جزَرة ، قال : كان عَبَّادُ بنُ يَعقُوب الأسَديّ الرَّواجنيّ يَشْتِمُ عُثمانَ رضي الله عنه ، وسَمعتُهُ يقُولُ : اللهُ أَعْدَلُ مِن أنْ يُدْخِلَ طَلْحَةَ والزُّبَيْرَ الجَنَّةَ ، قاتَلا عَليّاً بعدَ أنْ بايَعاه[2] .

وقال ابنُ جَرير : سَمعتُه يقولُ : مَنْ لَمْ يَبْرَأ في صَلاتِه كلَّ يومٍ من أعْداءِ آلِ مُحمّد ، حُشِرَ مَعَهم .

قال الإمامُ الذهبيُّ : هـٰذا الكَلامُ مَبْدَأُ الرَّفضِ ، بَلْ نَكُفُّ ، ونَسْتَغفِرُ للأُمَّة ، فإنَّ آلَ مُحمّد في إيَّاهم قد عادَىٰ بَعضُهم بَعضاً واقْتَتَلوا على المُلكِ وتمَّتْ عَظائم ، فمِنْ أَيِّهم نَبْرأ ؟!![3] .

وقال محمدُ بنُ مُظفَّر الحافظُ ، حدَّثنا القاسِمُ المُطرِّز ، قال : دَخلتُ علىٰ عبَّاد بالكُوفَة ، وكان يَمتحِنُ الطَّلَبَة ، فقال : مَنْ حَفرَ البَحرَ ؟ قلتُ : اللهُ قال : هو كَذاك ، ولكن مَنْ حفرَه ؟ قلتُ : يَذكُر الشَّيخُ ، قال : حَفرَه عليٌّ ، فمَنْ أجْراهُ ؟ قلتُ : اللهُ قال : هو كَذلك ، ولكن مَنْ أجْراهُ ؟ قلتُ : يُفيدني الشَّيخُ قال : أجراهُ الحُسَينُ ، وكان ضَريراً ، فرأيتُ سَيفاً وحَجَفَةً[4] فقلتُ : لمنْ هـٰذا ؟ قال : أعْدَدتُه لأقاتل به مع المَهدي ، فلمَّا فَرغتُ من سَماع ما أردْتُ ، دَخلتُ عليه ، فقال : مَنْ حَفرَ البَحرَ ؟ قلتُ : حفَرَهُ مُعاويةُ رَضيَ اللهُ عنه ، وأجْراهُ عَمرو بنُ العاص ، ثم وَثَبتُ وعَدَوْتُ فجعلَ يَصيحُ : أدْركوا الفاسِقَ عَدوَّ الله ، فاقْتُلوه إسْنادُه صَحيح ، وما أدْري كيف

---

(١) انظر السير : (الرَّواجنيّ) ١١/ ٥٣٦ـ ٥٣٨ ، وانظر النزهة : ٣/٩٦٩ .
(٢) انظر السير : (الرَّواجنيّ) ١١/ ٥٣٦ـ ٥٣٨ ، وانظر النزهة : ١/٩٧٠ .
(٣) انظر السير : (الرَّواجنيّ) ١١/ ٥٣٦ـ ٥٣٨ ، وانظر النزهة : ٢/٩٧٠ .
(٤) الحجفة : هي الترس .

تَسَمَّحوا في الأَخْذِ عمَّن هـٰذا حالُه ؟ وإنَّما وَثِقوا بصِدْقِه .

قال البُخاريُّ : ماتَ عبَّادُ بنُ يَعقُوب في سنة خمسين ومئتين .

ورأيتُ له جُزءاً من كتاب « المَناقِب » ، جَمعَ فيها أشياءَ ساقِطَة قد أغْنى اللهُ أهلَ البَيتِ عنها ، وما أعتَقده يَتعمَّدُ الكَذبَ أبداً[1] .

ابن خِراش :

وجاء في ترجَمة ابن خِرَاش ، قال الذهبيُّ : الحافظُ ، الناقِدُ ، البارِعُ ، أبـو محمّـد ، عبـدُ الـرحمـٰـن بـنُ يـوسُـف بـنُ سَعيـد بـنُ خِـرَاش ، المَـرْوَزيّ ، ثـم البَغداديّ[2] .

وقالَ بَكرُ بنُ محمّد : سَمعتُه يقولُ : شَربتُ بَوْلي في هـٰذا الشَّأن ـ يَعني الحَديث ـ خَمسَ مرَّات .

قال أبو نُعَيم بنُ عَدي : ما رَأيتُ أحداً أحفَظَ من ابنِ خِرَاش .

وقال ابنُ عَدي : قد ذُكرَ بشَيءٍ من التشيُّع ، وأرجو أنَّه لا يَتعمّدُ الكَذب سَمعتُ ابنَ عُقْدَة يقولُ : كان ابنُ خِرَاش عندنا إذا كَتبَ شَيئاً في التشَيُّع يقولُ : هـٰذا لا يَنْفَق إلاَّ عندي وعندك وسَمعتُ ابنَ عَبْدان يقولُ : حملَ ابنُ خِرَاش إلىٰ بُنْدار عندنا جُزْأَين صَنَّفَهما في مَثالب الشَّيخَين ، فأجازه بألفَي دِرهَم ، بني له بها حُجرةٌ ببغداد ليُحدِّث فيها ، فمات حين فُرِغَ منها .

وقال أبو زُرْعَة ، محمدُ بنُ يوسُف الحافظُ : خرَّجَ ابنُ خِرَاش مَثالب الشَّيخَين وكان رافِضيّاً .

وقال ابنُ عَدي : سَمعتُ عَبْدانَ يقولُ : قلتُ لابنِ خِرَاش : حديثُ : « ما تَرَكناهُ صَدَقَةٌ » فقالَ : باطِلٌ .

---

(١) انظر السير : (الرَّواجنيّ) ١١/٥٣٦ـ٥٣٨ ، وانظر النزهة : ٣/٩٧٠ .

(٢) انظر السير : (ابن خِرَاش) ١٣/٥٠٨ـ٥١٠ ، وانظر النزهة : ١/١١١٢ .

قال الذهبيُّ : هٰذا مُعَثَّر مَخذول ، كان عِلمُه وَبالاً ، وسَعيُه ضَلالاً ، نَعوذُ بالله من الشَّقاء .

ماتَ سنةَ ثلاثٍ وثمانين ومئتين[1] .

الشَّيخُ المُفيد :

وجاء في ترجمة الشَّيخِ المُفيد ، قال الذهبيُّ : عالمُ الرَّافِضَة ، محمدُ ابنُ محمدِ بنِ النُّعمان ، البَغدادي ، الشِّيعي ، ويُعرف بابنِ المُعَلِّم .

كان صاحبَ فُنون ، وبُحُوث ، وكَلام ، واعْتزال ، وأدَب[2] .

ذكرَه ابنُ أبي طَي في « تاريخ الإمامية » فأطْنَب وأسْهَب ، وقال : كان أوْحدَ في جَميع فُنون العِلم : الأصْلَين ، والفِقْه ، والأخْبار ، ومَعرفة الرِّجال ، والتَّفسير ، والنَّحْو ، والشِّعْر وكان يُناظِر أهلَ كلِّ عَقيدة مع العَظمة في الدَّولة البُوَيْهيَّة ، والرُّتبَة الجَسيمة عند الخُلفاء ، وكان قَويَّ النَّفس ، كَثيرَ البرِّ ، عَظيمَ الخُشوع ، كَثيرَ الصَّلاة والصَّوْم ، يَلبسُ الخَشنَ من الثِّياب ، وكان مُديماً للمُطالَعَة ، والتعْليم ، ومن أحْفَظ النَّاس ، قِيل : إنَّه ما تَركَ للمُخالِفين كتاباً إلاَّ وحَفظَه ، وبهٰذا قَدر علىٰ حَلِّ شُبَه القَوم ، وكان من أحْرَص الناسِ على التَّعْليم ، يَدورُ على المَكاتب وحَوانيت الحاكَة فيَتلمَّحُ الصَّبيَّ الفَطِن ، فيَسْتأجِرُه من أبَوَيه ـ يَعني فيُضِلَّه ـ قال : وبذلك كَثُر تَلامذتُه[3] .

عاش ستّاً وسَبعين سَنة ، إلىٰ أن قال : مات سَنة ثلاث عَشرة وأربع مئة ، وشَيَّعه ثمانون ألفاً .

وقِيلَ : بَلغت تَواليفُه مئتين ، لمْ أقِفْ علىٰ شيءٍ منها ولله الحَمد[4] .

---

(١) انظر السير : (ابن خِرَاش) ١٣/٥٠٨ـ ٥١٠ ، وانظر النزهة : ٢/١١١٢ .
(٢) انظر السير : (الشيخ المفيد) ١٧/ ٣٤٤ـ ٣٤٥ ، وانظر النزهة : ١/١٣٤٤ .
(٣) انظر السير : (الشيخ المفيد) ١٧/ ٣٤٤ـ ٣٤٥ ، وانظر النزهة : ٢/١٣٤٤ .
(٤) انظر السير : (الشيخ المفيد) ١٧/ ٣٤٤ـ ٣٤٥ ، وانظر النزهة : ٣/١٣٤٤ .

١٨ـ مُناظَرات مع الشِّيعَة :

جاء في ترجمة ابنِ الحَدَّاد ، سعيدِ بنِ محمد بنِ صُبيح بن حَدَّاد المغربي ، صاحبِ سُحْنون ، شيخ المالكية ، قال ابنُ حارث : له مَقامات كريمة ، ومَواقفُ مَحمودة في الدَّفْع عن الإسلام ، والذَّبِّ عن السُّنَّة ، ناظَرَ فيها أبا العبَّاس المعجوقي أخا أبي عبد الله الشِّيعي الدَّاعي إلىٰ دَولة عُبَيد الله ، فتكلَّم ابنُ الحَدَّاد ولم يَخفْ سَطوة سُلطانهم ، حتىٰ قال له ولدُه أبو محمد : يا أبتِ اتَّقِ الله في نفسِك ولا تُبالغ ، قال : حَسبي مَنْ له غَضبتُ ، وعن دِينه ذَبَبتُ .

وله مع شَيخ المُعتزلة الفَرَّاء مُناظَرات بالقَيْرَوان ، رَجعَ بها عَددٌ من المُبتدعة[١] .

قال أبو بكر بن اللَّباد : بينا سَعيدُ بنُ الحَدَّاد جالسٌ أتاه رسولُ عُبَيد الله ـ يَعني المَهْدي ـ قال : فأتَيتُه وأبو جَعْفَر البَغدادي واقفٌ فتكلَّمتُ بما حَضرني ، فقال : اجْلسْ ، فجَلستُ ، فإذا بكتابٍ لَطيف ، فقال لأبي جَعْفَر : اعْرِض الكتابَ على الشَّيخِ ، فإذا حَديثُ غَديرِ خُمّ[٢] قلتُ : وهو صَحيحٌ وقد رَويناه .

فقالَ عُبَيد الله : فما للنَّاسِ لا يَكونون عَبيدنا ؟ قلتُ : أعزَّ الله السيِّد ، لم يرد وِلايَة الرِّق ، بل وِلايَة الدين ، قال : هل مِنْ شاهدٍ ؟ قلتُ : قال الله تَعالىٰ : ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ ﴾[٣] فما لَمْ يَكُنْ لنَبيٍّ الله لَمْ يَكُنْ لغَيرِه قال : انصَرِف لا يَنالُك الحرّ فتَبعَني البَغداديُّ فقالَ : اكْتُم هـٰذا المَجْلس[٤] .

---

(١) انظر السير : (ابنُ الحَدَّاد) ١٤/ ٢٠٥ـ ٢١٤ ، وانظر النزهة : ١١٤٤/٥ .

(٢) أخرج الإمام أحمد في « مسنده » ٢/ ٣٧٢ عن سفيان ، ثنا أبو عوانة ، عن المغيرة عن أبيه ، عن ميمون قال : قال زيد بن أرقم ـ وأنا أسمع : نزلنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بوادٍ يُقال له : وادي خُمّ ، فأمر بالصلاة ، فصلاها بهجير ، قال : فخطبنا وظُلِّلَ لرسول الله صلى الله عليه وسلم بثوب علىٰ شجرة سمرة من الشمس ، فقال : « ألستم تعلمون ، أولستم تشهدون أنِّي أولَىٰ بكل مؤمن من نفسه ؟ » قالوا : بلىٰ ، قال : « فمن كنتُ مَوْلاهُ فإنَّ عَليّاً مَوْلاهُ ، اللَّهمَّ عادِ مَنْ عاداه ووَالِ مَنْ والاه » وإسنادُه صحيح .

(٣) سورة آل عمران ، الآية : ٧٩ .

(٤) انظر السير : (ابنُ الحَدَّاد) ١٤/ ٢٠٥ـ ٢١٤ ، وانظر النزهة : ١١٤٤/٦ .

وقال مُوسىٰ بنُ عبد الرَّحمَـٰن القطَّان : لو سَمعتُم سَعيدَ بنَ الحَدَّاد في تلك المَحَافل ـ يَعني مُناظرته للشِّيعي ـ وقد اجتمعَ له جَهَارةُ الصَّوتِ وفَخامَةُ المَنْطِق ، وفَصاحَةُ اللِّسانِ ، وصَوابُ المَعْنىٰ ، لَتَمنَّيْتُم أنْ لا يَسْكُت[1] .

وقيل : إنَّه سار لتَلقِّي أبي عبد الله الشِّيعي ، فقال له : أوَلمْ يَقلْ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « وأَقْضاكم عليٌّ » ، فساقَ له مُوسىٰ تَمامَه ، وهو « وأَعْلَمُكم بالحَلال والحَرام مُعَاذٌ ، وأَرْأَفكم أبو بَكر ، وأشَدُّكم في دينِ الله عُمَر » ، قالَ : كيفَ يكونُ أشَدَّهم وقد هَربَ بالرَّايَة يومَ خَيبَر ؟ قال موسىٰ : ما سَمعنا بهـٰذا فقلتُ : إنَّما تحيَّزَ إلىٰ فئَةٍ فليس بفارٍّ .

وقال في ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾[2] إنَّما نَهاهُ النبيُّ صلى الله عليه وسلم عن حُزْنه لأنَّه كان مَسخُوطاً ، قلتُ : لمْ يكُنْ قَولُه إلاَّ تَبشيراً بأنَّه آمنٌ علىٰ رسولِ الله وعلىٰ نفسه ، فقال : أين نَظيرُ ما قُلتَ ؟ قلتُ : قَولُه لموسىٰ وهارون : ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾[3] .

فلمْ يَكنْ خَوفُهما من فِرْعَون خَوفاً بسخطِ الله .

ثم قال : يا أهلَ البَلدَة : إنَّكم تَبغضُون عَليّاً ؟ قلتُ : علىٰ مُبغِضه لَعنةُ الله فقال : صَلى الله عليه قلتُ : نَعم ، ورَفعتُ صَوتي : صَلى الله عليه وسلَّم ، لأنَّ الصَّلاةَ في خِطابِ العَرَب الرَّحْمةُ والدُّعاء ، قال : ألمْ يقُلْ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « أنتَ منِّي بمَنْزِلَة هارُون من مُوسىٰ » ؟ قلتُ : نَعم ، إلاَّ أنَّه قالَ : « إلاَّ أنَّه لا نَبيَّ بَعدي » وهارونُ كان حُجَّة في حَياة موسىٰ ، وعليٌّ لمْ يَكنْ حُجَّة في حَياة النَّبيِّ ، وهارونُ فكان شَريكاً ، أفَكانَ عليٌّ شَريكاً للنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم ، في النبُوَّة ؟ وإنَّما أرادَ التَّقْريبَ والوزارَة والوِلايَة قال : أوَلَيسَ هو أفْضَلَ ؟ قلتُ : أَليسَ الحقُّ مُتَّفقاً عليه ؟ قال : نعم قلتُ : قد مَلكْتَ مَدائنَ قَبلَ مَدينَتِنا ، وهي أعظمُ مَدينة ، واسْتفاضَ

---

(١) انظر السير : (ابنُ الحَدَّاد) ١٤/ ٢٠٥ـ ٢١٤ ، وانظر النزهة : ١/١١٤٥ .

(٢) سورة التوبة ، الآية : ٤٠ .

(٣) سورة طه ، الآية : ٤٦ .

عَنكَ أنَّكَ لمْ تُكْرِه أحداً علىٰ مَذْهَبك ، فاسْلُك بنا مَسْلَك غَيرنا ونَهَضْنا .

وقيلَ : لمْ يُرَ أغْزرَ دَمعةً من سَعيدِ بنِ الحَدَّاد ، وكان قد صَحبَ النُسَّاك ، وكان مُقلاً حتىٰ ماتَ أخٌ له بصِقلِّيَّة ، فوَرِثَ منه أربعَ مئة دينار فبَنىٰ منها داره بمئتي دينار واكْتَسَىٰ بخَمسين ديناراً ، وكان كَريماً حَليماً[1] .

١٩ـ القِتالُ بين السُنَّة والرَّافِضَة :

جاء في ترجمة الخليفة أبي القاسم الفَضْلِ بن المُقْتدر ، المُطيعُ لله ، قال الذهبيُّ : وكان يُقامُ مأتَمُ عاشوراءَ ببَغداد ، ويَقع فتنٌ كبارٌ لذلك[2] .

وجاء في ترجمة الطَّائع لله ، قال الذهبيُّ : وتَحارَبت الشِّيعَةُ والسُّنَّةُ مدَّة ، ثم وَثبوا على الطَّائع لله في دارِه في تاسِع عَشر شَعبان سَنة ٣٨١ هـ ، وسَبَبُه أنَّ شَيخَ الشِّيعَة ابنَ المُعلِّم كان من خَواصِّ بَهاء الدولَة ، فحُبِسَ ، فجاء بَهاءُ الدولَة ، وقد جَلسَ الطَّائعُ في الرِّوَاق مُتَقلِّد السَّيف ، فقبَّل الأرضَ وجلسَ علىٰ كُرْسيٍّ ، فتقدَّم جَماعةٌ من أعْوانه ، فجَذَبوا الطَّائعَ بحَمائلَ سَيفه ، ولَفُّوه في كِساء وأُصْعِدَ في سَفينته إلىٰ دارِ المملكة .

وأُشهِدَ على الطَّائع بخَلعِ نفْسِه ، وأنَّه سَلَّمَ الخِلافَة إلى القادِر بالله ، وشَهدَ الكُبراء بذلك ، ثم طلبَ القادِرُ ، واسْتحَثُّوه على القُدوم ، واسْتُبيحَت دارُ الخِلافَة حتىٰ نُقِضَ خَشَبُها .

وكانت دَولتُه ثمانيَة عَشرة سَنة ، وبَقيَ بعدَ عَزْله أعْواماً إلىٰ أنْ ماتَ سنةَ ثلاث وتسعين وثلاثِ مئة فصَلَّىٰ عليه القادِرُ وكبَّرَ خَمساً .

وعاش ثلاثاً وسَبعين سنةً رَحمَه الله[3] .

وعَملت الرَّافِضةُ عيدَ الغَدير ، فثارَت السُّنَّةُ ، وقَووا ، وخَرَّقوا عَلَمَ السلطان ، وقُتلَ جَماعةٌ ، وصُلِبَ آخَرون ، فكَفُّوا .

---

(١) انظر السير : (ابنُ الحَدَّاد) ١٤/ ٢٠٥ـ ٢١٤ ، وانظر النزهة : ٢/١١٤٥ .

(٢) انظر السير : (المُطيعُ لله) ١٥/ ١١٣ـ ١١٨ ، وانظر النزهة : ١/١١٩٠ .

(٣) انظر السير : (الطَّائع لله) ١٥/ ١١٨ـ ١٢٧ ، وانظر النزهة : ١/١١٩٣ .

وفي سنة ٣٨٣ هـ اسْتفحَلَ البَلاءُ بالعَيَّارين ببغداد ، ولمْ يَحُجَّ أحدٌ من العِراق[١] .

وكان الرَّفضُ عَلانيةً بدمَشْقَ في سَنة أربع مئة ، ولقد أخَذَ نائبُها « تمصُولُت البَرْبَريُّ » رَجلاً في سنة ثلاثٍ وتسعينَ وثلاثِ مئة فطِيفَ به علىٰ حمارٍ : هـٰذا جزاء مَنْ يُحبُّ أبا بكرٍ وعُمرَ ، ثم قُتِل .

وفي هـٰذا الوَقت انبثَّتْ دُعاة الحاكم في الأطْرافِ ، فأمَرَ القادرُ بعَمل مَحْضَر يتضمن القَدْحَ في نَسَب العُبَيْديَّة ، وأنَّهم مَنْسُوبون إلىٰ دَيْصانَ بنِ سَعيد الخُرَّمي ، فشَهدوا جَميعاً أنَّ النَّاجِمَ بمِصْرَ مَنصورَ ابنَ نزارٍ الحاكمَ حكمَ اللهُ عليه بالبَوار ، وأنَّ جَدَّهم لمَّا صارَ إلى الغَرب تَسمَّىٰ بالمَهْدي عُبَيد الله ، وهو وسَلفُه أرْجاسٌ خَوارج أدْعياء ، وأنَّ هـٰذا النَّاجمَ وسَلفَه كُفَّارٌ زَنادِقَة ، ولمَذْهَب الثَّنَويَّة[٢] والمَجوسيَّة مُعْتقدون ، عَطَّلوا الحُدودَ ، وأباحوا الفُروجَ وسَفكوا الدِّماءَ ، وسَبُّوا الأنْبياءَ ، ولَعَنوا السَّلَفَ ، وادَّعَوا الرُّبوبيَّة .

واسْتتابَ القادرُ فُقهاءَ المُعتْزلَة ، فتبرَّؤا من الاعْتِزالِ والرَّفضِ وأُخِذَت خُطوطُهم بذلك .

وامتثلَ ابنُ سُبُكتكين أمرَ القادر ، فبَثَّ السُّنَّة بممَالكه وتَهدَّد بقَتلِ الرَّافِضَة والإسْماعيليَّة والقَرامِطَة ، والمُشبِّهَة والجَهْميَّة والمُعْتَزلَة ، ولُعِنوا على المَنابِر[٣] .

وافْتَتَحَ ابنُ سُبُكْتِكين عِدةَ مَدائِنَ بالهِنْدِ ، ووَرَدَه كِتابُ القَادِرِ بالله ، ففيهِ : صَدَرَ العَبدُ من غَزْنَةَ في أوَّلِ سَنةِ عَشرٍ وأربَعِ مِئَة ، وانتُدَبَ لتنفِيذِ الأوامِرِ فرتَّبَ في غَزْنَةَ خَمسةَ عَشرَ ألفَ فارِسٍ ، وأنْهَضَ ابنَه في عِشرينَ ألفاً وشَحَنَ بَلْخَ وطَخارُسْتَانَ باثني عَشرَ ألفَ فارسٍ ، وعَشرةِ آلافِ راجلٍ ، وانتُخَبَ ثلاثينَ ألفَ فارِسٍ ، وعَشرَةَ آلافِ راجِلٍ لصُحْبَةِ رَايَةِ الإسْلام ، وانضَمَّ إليه المُطَّوِّعَةُ ، فافْتَتَحَ قِلاعَاً وحُصُوناً وأَسلَمَ زُهَاءَ عِشرينَ ألفاً ، وأدَّوْا نَحوَ ألْفِ ألْفٍ من الوَرِقِ ، وثلاثين فِيلاً ، وعِدَّةُ الهَلْكَىٰ خمسُونَ

---

(١) انظر السير : (القادِرُ بالله) ١٥/ ١٢٧ـ ١٣٨ ، وانظر النزهة : ١/١١٩٤ .

(٢) أصحاب الإثنين الأزليين النور والظُلمة ، يزعمون بأنهما أزليان قديمان انظر « الملل والنحل » .

(٣) انظر السير : (القادِرُ بالله) ١٥/ ١٢٧ـ ١٣٨ ، وانظر النزهة : ٢/١١٩٤ .

ألفاً ووَافَى العَبدُ مدينةً لهم عَايَنَ فيها نَحوَ ألفِ قَصرٍ ، وألفَ بيتٍ للأَصْنَام ، ومَبْلَغُ ما على الصَّنَمِ ثمَانِيَةٌ وتِسْعونَ ألفَ دينارٍ ، وقَلَعَ أَزْيَدَ من ألفِ صَنَمٍ ، ولهم صَنَمٌ مُعَظَّمٌ يُؤَرِّخُونَ مُدَّتَه بجَهَالَتِهم بثلاثِ مِئَةِ ألفِ سَنَةٍ ، وحَصَّلْنا من الغَنَائِمِ عِشْرينَ ألفَ ألفِ درهمٍ ، وأُفْرِدَ الخُمْسُ من الرَّقِيقِ ، فبَلَغَ ثلاثةً وخَمْسِينَ ألفاً ، واسْتَعْرَضْنَا ثلاث مِئَةٍ وسِتةٍ وخَمسِينَ فِيلاً .

وفي سَنَةِ اثْنَتَينِ وعِشرينَ وأرْبَعِ مِئَةٍ ، ماتَ القَادِرُ باللهِ ، وعَاشَ سَبْعاً وثمَانِينَ سَنَةً سِوَىٰ شهرٍ وثمانيةَ أيَّامٍ ، وما عَلِمْتُ أحداً من خُلَفَاءِ هـٰذهِ الأُمَّةِ بَلَغَ هـٰذا السِّنَّ ، ولا حتىٰ عُثْمانَ رضي الله عنه[1] .

وجَرَت فَتنةٌ مَهولَةٌ ببَغدادَ بينَ النَّاسِ وبينَ الرَّافِضَة ، وقُتلَ عِدَّةٌ من الفَريقين ، وعَظُم البلاءُ ، ونُهِبَ الكَرْخُ ، فحَنقَ ابنُ العَلْقَميّ ، الوَزيرُ الرَّافِضيُّ ، وكَاتبَ هُولاكُو ، وطمَّعَه في العِراق ، فجاءَت رُسُلُ هُولاكُو إلىٰ بَغدادَ ، وفي الباطِنِ مَعهُم فَرَماناتٍ لغَيرِ واحدٍ ، والخَليفةُ لا يَدْري ما يَتمُّ ، وأيامُه قد وَلَّتْ ، وصاحبُ دِمَشْقَ شابٌّ غِرٌّ جَبانٌ ، فبَعثَ وَلدَه الطِّفلَ مع الحافظيِّ بتقادم وتُحِف إلىٰ هُولاكُو فخَضَعَ له ، ومِصْرُ في اضْطِرابٍ بعدَ قَتْلِ المُعزِّ ، وصاحبُ الرُّومِ قد هَربَ إلىٰ بلاد الأشْكُري ، فتمرَّدَ هُولاكُو وتَجبَّر ، واسْتولَىٰ على المَمالك وعاثَ جُندُه الكَفَرَةُ يَقْتُلون ويَأسِرُون ويَحْرِقُون .

ودخلت سنةُ ستٍّ فسَارَ عَسْكَرُ الناصر ، وعَليهم المُغيثُ ابنُ صاحبِ الكَرْك ، ليأخُذوا مِصْرَ فالتَقاهُم المُظفَّرُ قُطُز ، وهو نائبٌ للمَنصور عليٍّ وَلدِ المُعزِّ ، بالرَّمْلِ فكَسَرَهم ، وأسَرَ جَماعَةَ أُمَراء فضَرَبَ أعْناقَهم[2] .

٢٠ـ انْتشارُ الرَّفضِ ببَعضِ عَواصِم الإسْلام :

جاء في ترجمة « المُطيع لله » ، قال الذهبيُّ : وفي سنة ستين وثلاثِ مئة فُلجَ المُطيعُ ، وبَطُلَ نصْفُهُ ، وتَملَّكَ بَنو عُبَيد مِصرَ والشَّامَ ، وأذَّنوا بدِمَشْقَ بـ « حَيَّ علىٰ

(١) انظر السير : (القادرُ بالله) ١٥/ ١٢٧ـ١٣٨ ، وانظر النزهة : ٣/١١٩٤ .
(٢) انظر السير : (المستعصم بالله) ٢٣/ ١٧٤ـ ١٨٤ ، وانظر النزهة : ٤/١٧٢٤ .

خَيرِ العَمَل » وغَلت البلادُ بالرَّفْضِ شَرقاً وغَرباً ، وخَفِيَت السُّنَّةُ قَليلاً ، واسْتباحَت الرُّومُ نَصِيبينَ وغَيرَها ، فلا قوَّةَ إلاَّ بالله .

ولمَّا تَحكَّم الفالِجُ في المُطيعِ دَعاهُ سُبُكْتكينُ الحاجبُ إلىٰ عَزلِ نَفسِه وتَسليمِ الخِلافَة إلى ابنِه الطَّائع ، ففَعَلَ ذلكَ سنةَ ثلاثٍ وستِّين ، وأثْبَتوا خَلعَه علىٰ أبي الحَسَن بنِ أمِّ شَيْبانَ القاضي ، ثم كان بعد يُدعَى الشَّيخَ الفاضِل .

وفيها أُقِيمَت الدَّعْوةُ العُبَيْديَّة بالحَرَمين للمُعِزِّ ، واسْتفحَلَ البلاءُ باللُّصُوصِ ببَغْداد ، ورَكبوا الخَيلَ ، وأخَذوا الخِفَارَة ، وتَلقَّبوا بالقُوَّاد ، ثم إنَّ المُطيعَ خَرجَ ووَلدُه الخَليفةُ الطَّائعُ لله إلىٰ وَاسِط فماتَ هناك في المُحرَّم سنةَ أرْبع وستِّينَ وثلاثِ مئة بعد ثلاثةِ أشْهُر من عَزلِه ، وعُمرُه ثلاثٌ وستُّونَ سنةً ، رَحمه الله ، فكانت خِلافَتُه ثلاثينَ سنةً سِوىٰ أشْهر ، وفي أيّامِه تَلقَّبَ صاحبُ الأنْدَلُس الناصرُ المَرْوَانيُّ بأميرِ المؤمنين ، وقال : أنا أحَقُّ بهـٰذا اللَّقب من خَليفةٍ مِنْ تَحتِ يدِ بني بُوَيْه ، وصَدقَ النَّاصرُ فإنَّه كان بَطلاً شُجاعاً ، سائساً مَهيباً ، له غَزواتٌ مَشْهودَة ، وكان خَليقاً للخِلافَة ، ولكنْ كانَ أعظمَ منه بكثير المُعزُّ العُبَيْديُّ الإسْماعيليُّ النِّحْلَة ، وأوْسَعَ مَمَالك حَكمَ على الحَرَمين ومِصْرَ والشَّامَ والمَغْربَ[(١)] .

وكان الرَّفضُ عَلانيةً بدمَشْقَ في سَنة أربع مئة ، ولقد أخَذَ نائبُها « تمصُولُت البَرْبَريُّ » رَجلاً في سنة ثلاثٍ وتسعينَ وثلاثِ مئة فطِيفَ به علىٰ حمارٍ : هـٰذا جزاء مَنْ يُحبُّ أبا بكرٍ وعُمرَ ، ثم قُتِل .

وفي هـٰذا الوَقت انبثَّتْ دُعاة الحاكم في الأطْرافِ ، فأمَرَ القادرُ بعَمل مَحْضَر يتضمن القَدْحَ في نَسَب العُبَيْديَّة ، وأنَّهم مَنْسُوبون إلىٰ دَيْصانَ بنِ سَعيد الخُرَّمي ، فشَهدوا جَميعاً أنَّ النَّاجمَ بمِصْرَ مَنصورَ بنَ نزارٍ الحاكمَ حكمَ اللهُ عليه بالبَوار ، وأنَّ جَدَّهم لمَّا صارَ إلى الغَرب تَسمَّىٰ بالمَهْدي عُبَيد الله ، وهو وسَلفُه أرْجاسٌ خَوارج أدْعياء ، وأنَّ هـٰذا النَّاجِمَ وسَلفَه كُفَّارٌ زَنادِقَة ، ولمَذْهَب الثَّنَويَّة[(٢)] والمَجوسيَّة

---

(١) انظر السير : (المطيع لله) ١٥/ ١١٣ـ١١٨ ، وانظر النزهة : ١١٩٠/٤ .

(٢) أصحاب الإثنين الأزليين النور والظُلمة ، يزعمون بأنهما أزليان قديمان انظر « الملل والنحل » .

مُعْتقدون ، عَطَّلوا الحُدودَ ، وأباحوا الفُروجَ وسَفكوا الدِّماءَ ، وسَبُّوا الأنْبياءَ ، ولَعَنوا السَّلَفَ ، وادَّعَوا الرُّبوبيَّة .

واسْتتابَ القادرُ فُقهاءَ المُعتْزِلَة ، فتبَرَّؤا من الاعْتِزالِ والرَّفضِ وأُخِذَت خُطوطُهم بذلك .

وامتثلَ ابنُ سُبُكتكين أمرَ القادر ، فبَثَّ السُّنَّة بمَمالكه وتَهدَّد بقَتلِ الرَّافِضَة والإسماعيليَّة والقَرامِطَة ، والمُشبِّهَة والجَهْميَّة والمُعْتَزِلَة ، ولُعِنوا على المَنابِر[1] .

قال الذهبيُّ في ترجمة المُعِزِّ : ظَهرَ هٰذا الوَقتُ الرَّفضُ ، وأبْدَىٰ صَفحَتَه ، وشَمَخَ بأنفِه في مِصْرَ والشَّامِ ، والحِجازِ والغَربِ بالدَّولة العُبَيْديَّة ، وبالعِراقِ والجَزيرَة والعَجَم بَني بُوَيه ، وكانَ الخَليفةُ المطيعُ ضَعيفَ الدَّسْتِ والرُّتبَة مع بَني بُوَيه ثم ضَعُفَ بَدَنُه ، وأصَابَه فالِجٌ ، وخَرَسٌ فعَزَلوهُ ، وأقاموا ابنَه الطَّائعَ لله ، وله السِّكةُ والخُطْبَةُ ، وقَليلٌ من الأمُور ، فكانت مَمْلكةُ هٰذا المُعزِّ أعظَمَ وأمْكَن .

وأُعلنَ الأذانُ بالشَّامِ ومِصْرَ بـ « حَيِّ علىٰ خَيرِ العَملَ » ، فللّٰهِ الأمرُ كلُّه .

قِيلَ : ما عُرِفَ عن المُعزِّ غيرُ التَّشيُّع ، وكان يُطيلُ الصَّلاةَ .

وثارَت عليه القَرامِطَةُ ، واسْتولوا علىٰ كَثيرٍ من الشَّامِ ، وساروُا حتىٰ أتَوا مِصْرَ ، فحارَبهم جَوْهَرٌ ، وجَرَت أمورٌ مَهُولَة .

وصلَّىٰ بالنَّاسِ المُعزُّ يَومَي العِيد صَلاةً طويلةً ، بحَيثُ أنَّه سَبَّح في السُّجودِ نَحوَ ثلاثين ، ثم خَطبَهم فأبْلَغ وأحَبَّته الرَّعيَّةُ .

وصَنَعَ شَمسيَّة لتُعمَلَ على الكَعْبَة ثَمانيَة أشْبارٍ في مثلِها من حَريرٍ أحْمَر ، وفيها اثْنا عَشرَ هِلالاً من ذَهَب ، وفي الهِلال تُرُنْجَةٌ[2] قد رُصِّعَت بجَواهِرَ وياقُوتٍ وزُمُرُّدٍ ، لم يُشاهِد أحَدٌ مثلَها .

ماتَ المُعزُّ سنةَ خَمسٍ وستِّين وثلاثِ مئة بالقاهِرَة المُعزِّيَّة ، وكان مَولدُه بالمَهْديَّة ،

---

(١) انظر السير : (القادرُ بالله) ١٥/ ١٢٧ـ١٣٨ ، وانظر النزهة : ٢/١١٩٤ .

(٢) ثمرة كالليمون ، ذهبية اللون ، زكية الرائحة ، ذات طعم حامض .

التي بَناها جَدُّهُم ، وعاشَ سِتاً وأربعينَ سنةً وكانت دولتُه أربعاً وعشرين سنةً .

وقد جَرىٰ علىٰ دِمَشْقَ وغيرِها من عَساكِرِ المَغاربة كلُّ قَبيحٍ من القَتلِ والنَّهْبِ وفعَلوا ما لا يَفعَلُه الفِرَنجُ ، ولولا خَوفُ الإطالَة لسُقتُ ما يُبْكي الأعْيُن[1] .

قال الذهبيُّ في ترجمة « عَضُدِ الدولَة » : فنَحْمدُ اللهَ على العافيَة ، فلقد جَرىٰ على الإسْلام في المئة الرابعَة بلاءٌ شَديدٌ بالدولَة العُبَيديَّة بالمَغرب ، وبالدولَة البُويْهيَّة بالمَشْرق ، وبالأعْرابِ القَرامِطَة ، فالأمر لله تعالىٰ[2] .

وجاء في ترجمة « ابنِ السِّمْسَار » ، قال الذهبيُّ : مات ابنُ السِّمْسار سنة ثلاث وثلاثين وأربع مئة ، وقد كَمَّلَ التسعين ، ولعلَّ تَشَيُّعَه كان تَقيَّةً لا سَجيَّة ، فإنَّه من بَيتِ الحَديثِ ، ولكن غَلَت الشَّامُ في زَمانِه بالرَّفضِ ، بل ومِصْرَ والمَغْربَ بالدولَة العُبَيْديَّة ، بل والعِراق ، وبعض العجم بالدولة البُويْهيَّة ، واشْتدَّ البلاءُ دَهراً ، وشَمخَت الغُلاةُ بأنفِها ، وتَواخَى الرَّفضُ والاعْتِزالُ حينئذٍ ، والنَّاسُ علىٰ دين المَلك ، نَسألُ اللهَ السَّلامةَ في الدِّين[3] .

٢١ـ نادرة لواحد من أهل السنة مع شيعيٍّ غالٍ :

وقال محمدُ بنُ مُظفَّر الحافظُ ، حدَّثنا القاسِمُ المُطرِّز ، قال : دَخلتُ علىٰ عبَّاد بالكُوفَة ، وكان يَمتحِنُ الطَّلبَة ، فقال : مَنْ حَفرَ البَحرَ ؟ قلتُ : اللهُ قال : هو كَذاك ، ولكن مَنْ حَفرَه ؟ قلتُ : يَذكُر الشَّيخُ ، قال : حَفرَه عليٌّ ، فمَنْ أجْراهُ ؟ قلتُ : اللهُ قال : هو كَذلك ، ولكن مَنْ أجْراهُ ؟ قلتُ : يُفيدني الشَّيخُ قال : أجراهُ الحُسَينُ ، وكان ضَريراً ، فرأيتُ سَيفاً وحَجَفَةً[4] فقلتُ : لمنْ هـٰذا ؟ قال : أعْدَدتُه لأقاتل به مع المَهدي ، فلمَّا فَرغتُ من سَماع ما أردْتُ ، دَخلتُ عليه ، فقال : مَنْ حَفرَ البَحرَ ؟

---

(١) انظر السير : (المُعِزّ) ١٥/١٥٩ـ١٦٧ ، وانظر النزهة : ٢/١٢٠٤ .
(٢) انظر السير : (عَضُد الدولة) ١٦/٢٤٩ـ٢٥٢ ، وانظر النزهة : ٣/١٢٩٣ .
(٣) انظر السير : (ابنُ السِّمسار) ١٧/٥٠٦ـ٥٠٧ ، وانظر النزهة : ٢/١٣٥٦ .
(٤) الحجفة : هي الترس .

قلتُ : حفرَهُ مُعاويةُ رَضيَ اللهُ عنه ، وأجْراهُ عَمرو بنُ العاص ، ثم وَثَبتُ وعَدَوْتُ فجعلَ يَصيحُ : أدْركوا الفاسِقَ عَدوَّ الله ، فاقْتُلوه إسْنادُه صَحيح ، وما أدْري كيف تَسَمَّحوا في الأخْذِ عمَّن هٰذا حالُه ؟ وإنَّما وَثِقوا بصِدْقِه .

قال البُخاريُّ : ماتَ عبَّادُ بنُ يَعقُوب في سنة خمسين ومئتين .

ورأيتُ له جُزءاً من كتاب « المَناقِب » ، جَمعَ فيها أشياءَ ساقِطَة قد أغْنى اللهُ أهلَ البَيتِ عنها ، وما أعتَقده يَتعمَّدُ الكَذبَ أبداً[1] .

٢٢ـ تَعريفُ الخَليفَة ابنه بجَهْلِ الرَّافِضَة :

قال ابنُ النجَّار : حَكى ابنُ صَفيّة أنَّ المُقْتَفي رَأى ابنَه يُوسُفَ في الحَرِّ ، فقال : أيش في فَمِك ؟ قال : خَاتم يَزْدَن عليه أسماءُ الإثني عشَر ، وذلك يُسكِّنُ العَطَش ، قال : وَيْلَك يُريدُ يَزْدَن أنْ يُصيِّرَكَ رافِضيّاً ، سَيِّدُ الإثني عَشر الحُسينُ رضي الله عنه وماتَ عَطشان[2] .

٢٣ـ رُؤْيا تُفيدُ التَّحذيرَ مِنْ سَبِّ الشَّيخَينِ :

قال ابنُ قانِع : سَمعتُ عيسىٰ بنَ محمّد الطَّهمانيَّ ، سَمعتُ الأميرَ إسْماعيلَ يقولُ : جاءَنا أبُونا بمؤدِّبٍ ، فعلَّمنا الرَّفْضَ ، فنِمتُ ، فرأيتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم ومَعه أبو بَكر وعُمر ، رَضي الله عَنهما ، فقال لي : « لِمَ تَسُبُّ صَاحِبَيَّ ؟ » فوقَفتُ ، فقال لي بيَدِه فنَفَضَها في وَجْهي فانتَبَهتُ فَزِعاً أرْتَعدُ من الحُمَّىٰ ، فكُنتُ على الفِراشِ سَبعَةَ أشْهُر ، وسَقطَ شَعري ، فدَخلَ أخي ، فقال : أيش قِصَّتُك ؟ فأخْبَرتُه ، فقال : اعْتَذِرْ إلىٰ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، فاعتذَرتُ وتُبتُ ، فما مَرَّ لي إلاَّ جُمُعَة حتىٰ نَبَتَ شَعري .

قال الذهبيُّ : كان هو وآباؤُه مُلوكَ بُخارَىٰ وسَمَرْقَند ، وله غَزَواتٌ في التُّرْك ، وهو

---

(١) انظر السير : (الرَّواجنيّ) ١١/ ٥٣٦ـ٥٣٨ ، وانظر النزهة : ٩٧٠/ ٣ .

(٢) انظر السير : (المُستَنْجِد بالله) ٢٠/ ٤١٢ـ٤١٨ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٦٩ .

الذي ظَفِرَ بعَمرو بنِ اللَّيثِ وأسَره ، فجاءَه من المُعْتضِد التَّقليدُ بولاية خُراسان وما يَليها ، وكانت سَلطَنتُه مدّة سَبع سِنين .

تُوفِّيَ ببُخارَىٰ سنة خمس وتسعين ومئتين ، فتملَّكَ بعدَه ابنُه أحمد .

وماتَ ابنُه السُّلطانُ أبو نَصْر أحمدُ سنةَ إحْدىٰ وثلاثِ مئَة ، قَتَلَه مَماليكُه ، ثم مَلَّكُوا وَلدَه نصراً ، فدامَ ثلاثينَ عاماً ، فأحْسَنَ السِّيرَة ، وعَظُمَتْ هَيبَتُه[1] .

* * *

(١) انظر السير : (صاحبُ خُراسَان) ١٤/ ١٥٤ـ١٥٥ ، وانظر النزهة : ٣/١١٣٩ .

سادساً : الفلاسفة والمناطقة

١ـ النَّظرُ في كُتُبِ الفَلاسِفَة ـ بغير علمٍ شَرعيٍّ وتَوفيقٍ إلَـٰهيٍّ ـ مُهْلِك :

جاء في ترجمة الفَارَابي ، قال الذهبيُّ : شَيخُ الفَلسَفَة الحَكيمُ ، أبو نَصر ، محمدُ بنُ محمدِ بنِ طَرْخَان بنِ أَوْزَلَغ التُّركيُّ الفَارَابيُّ المَنْطِقيُّ ، أحدُ الأذْكياء .

له تَصانيفُ مَشهورَة ، مَنِ ابْتَغى الهُدَىٰ منها ، ضَلَّ وحَارَ ، ومنها تَخرَّجَ ابنُ سِينا ، نَسألُ اللهَ التوفيق .

وقد أحْكَمَ أبو نَصر العَربيَّةَ بالعِراق ، ولَقِيَ مَتَّىٰ بنَ يونُس[1] صاحبَ المَنْطِق ، فأخَذَ عنه ، وسارَ إلىٰ حرَّان فلَزِمَ بها يُوحَنّا بنَ جيلان النَّصْراني ، وسارَ إلىٰ مِصْرَ ، وسَكنَ دِمَشْقَ .

وكان يحبُّ الوَحْدَة ، ويصنِّف في المواضع النَّزِهَة ، وقلَّ ما يُبيِّضُ منها .

وكان يتَزهَّدُ زُهدَ الفَلاسِفة ، ولا يَحتفلُ بمَلْبَسٍ ولا مَنزِلٍ ، أجْرَىٰ عليه ابنُ حمدانَ في كلِّ يومٍ أربعَةَ دَراهم .

ويُقالُ : إنَّهم سألوه أأنتَ أعلمُ أو أرِسْطو ؟ فقال : لو أدركتُه لكنتُ أكبرَ تلامذتِه .

ولأبي نَصْر نظْمٌ جيِّد ، وأدعِيةٌ مَليحَة على اصْطِلاحِ الحُكماء .

ذكرَه ابو العبَّاس بن أبي أُصَيْبِعَة ، وسَردَ أسامِيَ مُصنَّفاته ، وهي كثيرة ، منها مقالَة في إثباتِ الكيمياء ، وسائرُ تَواليفِه في الرِّياضيِّ والإلهيِّ .

وبدمَشْق كان موتُه سنةَ تسع وثلاثين وثلاث مئة عن نَحو من ثمانين سنة[2] .

---

(١) إليه انتهت رياسة المنطقيين في عصره ، وكان نصرانياً ، توفي ببغداد سنة ٣٢٨ هـ انظر « طبقات الأطباء » : ٣١٧ ، واسمه فيه « متّى بن يونان » .

(٢) انظر السير : (الفارَابيُّ) ١٥/ ٤١٦ـ٤١٨ ، وانظر النزهة : ١٢٤٥/ الفارابي .

٢ـ الاشْتغالُ بالفَلسَفَة والمَنْطِق لا يأتي بخَير :

(أ) الشَّهْرَسْتانيّ :

قال الإمام الذهبيُّ في ترجمة « الشَّهْرَسْتانيّ » : هو الأفضلُ محمدُ ابنُ عبد الكَريم بنِ أحمد الشَّهْرَسْتانيّ ، أبو الفَتح شَيخُ أهلِ الكَلام والحِكْمة ، وصاحبُ التَّصانيف .

برَعَ في الفِقْه ، وقَرأ الأصُولَ ، وصنَّف كتاب « نِهايَة الإقْدام » وكتاب « المِلَلْ والنِّحَل » ، وكان كَثيرَ المَحْفوظ ، قَويَّ الفَهْم ، مَليحَ الوَعْظ .

وُلدَ سَنة سَبع وسِتين وأربع مئة .

وقال في « التَّحْبير » : هو من أهل « شَهْرسْتانة » ، كان إماماً أُصولياً ، عارفاً بالأدَب وبالعُلوم المَهْجُورة ، قال : وهو مُتَّهم بالإلْحاد غالٍ في التشيُّع .

وقال ابنُ أرْسلان في « تاريخ خَوارِزْم » : عالمٌ كَيِّسٌ مُتقِنٌ ، ولولا مَيلُهُ إلىٰ أهل الإلْحاد وتَخبُّطُه في الاعْتقاد ، لكان هو الإمام ، وكثيراً ما كنَّا نَتعجَّبُ من وفُور فَضله كيف مال إلىٰ شيء لا أصْلَ له ؟!! نعوذ بالله من الخُذْلان ، وليس ذلك إلاَّ لإعْراضِه عن علم الشَّرْع ، واشْتغاله بظُلماتِ الفَلسفَة ، وقد كانت بيننا مُحاوَرات فكيفَ يُبالغ في نُصْرة مَذهب الفَلاسفَة والذبِّ عنهم .

حَضرتُ وَعْظَه مرَّات فلم يكنُ في ذلك قال الله ، ولا قال رسولُه ، سأله يوماً سائلٌ ، فقال : سائرُ العُلماء يَذكرون في مَجالِسِهم المَسائل الشَّرعيَّة ، ويُجيبون عنها بقول أبي حَنيفة والشَّافعيِّ وأنت لا تَفعلُ ذلك ؟! فقال : مَثَلي ومَثَلُكم كمَثَل بَني إسْرائيلَ يأتيهم المَنُّ والسَّلْوَىٰ ، فسألوا الثُّوْمَ والبصَل .

ماتَ بشَهْرسْتانَة سنة تسع وأربعين وخَمس مئة[١] .

---

(١) انظر السير : (الشَّهْرَسْتانيّ) ٢٠/ ٢٨٦ـ٢٨٨ ، وانظر النزهة : ١٥٥٢/ الشَّهْرَسْتانيّ .

(ب) صَدقَة بنُ الحُسَين :

قال الإمام الذهبيُّ : هو العلاَّمة أبو الفَرج ابنُ الحَدَّاد البَغداديُّ الحَنْبَليّ النَّاسِخُ الفَرَضي ، المُتكلِّم ، المتَّهَم في دينه[١] .

قال ابنُ الجَوْزي : يَظهرُ من فَلتَات لسانِه ما يَدلُّ علىٰ سُوء عَقيدَتِه ، وكان لا يَنْضَبطُ ، وله مَيلٌ إلى الفَلاسِفَة ، قال لي مرَّة : أنا الآن أخاصِمُ فَلَكَ الفلك .

وقال لي القاضي أبو يَعْلى الصَّغيرُ : مُذْ كَتبَ صَدقةُ « الشِّفاء » لابنِ سينا تغيَّرَ .

وقال للظَّهير الحَنَفي : إني لأفْرَحُ بتَعثيري لأنَّ الصَّانعَ يَقْصِدُني .

مات في سنة ثلاث وسبعين وخَمس مئة ، وهو في عَشْر الثمانين .

وكان يَطلبُ من غير حاجَة[٢] ، وخلَّف ثلاث مئة دينار ، ورُويت له مَنامات نَجِسةٌ أعَاذَنا الله من الشَّقاوَة[٣] .

٣ـ فَتوىٰ في الفلسفة والمنطق :

قال الإمام الذهبيُّ في ترجَمة « ابنِ الصَّلاح » : ومن فَتَاويه أنَّه سُئل عَمَّن يَشتغلُ بالمَنْطِق والفَلسفَة ، فأجابَ : الفَلسفَةُ أُسُّ السَّفَه والانْحِلال ، ومادَّةُ الحَيْرَة والضَّلالِ ، ومَثارُ الزَّيْغ والزَّنْدَقَة ، ومَنْ تَفلسَف عَميَت بَصيرَتُه عن مَحاسِن الشَّريعَة المُؤيَّدَة بالبَراهين ، ومَنْ تلبَّسَ بها ، قارَنَهُ الخُذْلانُ والحِرْمانُ ، واسْتَحْوذَ عليه

---

(١) انظر السير : (صَدَقَةُ بن الحُسَين) ٢١/٦٦ـ٦٧ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٩٧ .

(٢) نقل ابن رجب عن ابن النجار قوله : « وقد نسخ بخطه كثيراً للناس من سائر الفنون ، وكان قوته من أجرة نسخه ، ولم يطلب من أحد شيئاً ، ولا سكن مدرسة ، ولم يزل قليل الحظ ، منكسر الأغراض ، متنغص العيش ، مقتراً عليه أكثر عمره فكان ربما شكا حاله لمن يأنس به ، فيشنع عليه من له فيه غرض ، ويقول : هو يعترض على الأقدار وينسبه إلىٰ أشياء الله أعلم بحقيقتها » (الذيل : ١/٣٣٩ـ٣٤٠) ، ويظهر لنا أن ابن الجوزي قد حطَّ عليه في تاريخه حطّاً بليغاً لم يكن كله من الحق ، قال أبو الحسن القطيعي في ما نقل عنه الحافظ ابن رجب : « كان بينه وبين ابن الجوزي مباينة شديدة ، وكل واحد يقول في صاحبه مقالة الله أعلم بها » (الذيل : ١/٣٤٠) ، وقد أثنىٰ عليه محدِّثُ بغداد المحب ابن النجار في تاريخه ، وقال : « وله مصنفات حسنة في أصول الدين » .

(٣) انظر السير : (صَدَقَةُ بن الحُسَين) ٢١/٦٦ـ٦٧ ، وانظر النزهة : ٣/١٥٩٧ .

الشَّيطانُ ، وأظلَمَ قلبُه عن نُبوَّة محمد صلى الله عليه وسلم ، إلىٰ أنْ قالَ : واسْتعمالُ الاصْطلاحَات المَنْطِقيَّة في مَباحِث الأحْكام الشَّرعيَّة من المُنْكَرات المُستَبشَعة ، والرَّقاعَات المُستحْدَثة ، وليس بالأحْكام الشَّرعية ـ ولله الحمد ـ افْتِقارٌ إلى المَنْطِق أصْلاً ، هو قعاقعٌ قد أغْنى الله عنها كلَّ صَحيح الذِّهن ، فالوَاجِبُ على السُّلطان أعزَّه الله أنْ يَدفَعَ عن المسلمين شَرَّ هَؤلاء المَشائيم ، ويُخرجَهم من المَدارس ويُبعدَهم .

تُوفِّي الشَّيخُ تقيُّ الدين ـ رَحمَه الله ـ في سَنة الخَوارزْميَّة سنة ثلاث وأربَعين وستِّ مئة ، وحُملَ على الرُّؤوس ، وازْدَحمَ الخَلقُ علىٰ سَريرِه ، وكان علىٰ جنازَته هَيبةٌ وخُشوعٌ ، فصُلِّيَ عليه بجامع دِمَشْقَ ، وشَيَّعوه إلىٰ داخل باب الفَرَج فصلُّوا عليه بداخله ثاني مرَّة ، ورَجعَ النَّاسُ لمكانِ حِصارِ دِمَشْقَ بالخَوارِزْميَّة وبعَسْكَر المَلك الصَّالح نَجمِ الدين أيُّوب لعَمِّه المَلك الصَّالح عِماد الدِّين إسْماعيل ، فخَرَجَ بنَعْشِه نَحو العَشْرة مُشمِّرين ، ودَفَنوه بمَقابِر الصُّوفيَّة .

وقَبرُه ظاهرٌ يُزارُ في طَرف المَقْبرَة من غَربيِّها على الطَّريقِ ، وعاشَ ستّاً وستينَ سنة[1] .

٤ـ أمْثلةٌ على الفَلاسِفَة :

(أ) يَعقُوبُ بنُ إسْحاق بنِ الصَّبَّاح :

قال الذهبيُّ : هو ابنُ الصَّبَّاح ، الكِنديُّ الأشْعَثيُّ الفَيلسُوفُ ، صاحبُ الكُتب ، من وَلدِ الأشْعَث بنِ قَيسِ ، أميرِ العَرَب[2] .

كان رَأساً في حِكْمة الأوَائل ومَنطِق اليُونان والهَيئَة والتَّنْجيم والطِّبِّ وغَير ذلك ، لا يُلحَق شَأوُه في ذلك العلم المَترُوك ، وله باعٌ أطْوَلُ في الهَندسَة والمُوسيقىٰ .

كان يُقالُ له : فَيلسوفُ العَرب ، وكان متَّهَماً في دينِه ، بَخيلاً ساقِطَ المَروءَة ، وله

---

(١) انظر السير : (ابنُ الصَّلاح) ٢٣/ ١٤٠ـ ١٤٤ ، وانظر النزهة : ٢/١٧١٧ .

(٢) انظر السير : (يعقوب بن إسحاق) ١٢/ ٣٧٧ ، وانظر النزهة : ٦/١٠٠٥ .

نَظمٌ جيِّد وبلاغَة وتلامِذَة ، همَّ بأن يَعملَ شَيئاً مثل القُرآن ، فبعدَ أيام أذعَنَ بالعَجْز[1] .

وقال عبدُ الرَّحمـٰن بنُ يَحْيَىٰ بنُ خاقان : رَأيتُه في النوم ، فقلتُ : ما فعلَ اللهُ بك ؟ قال : ما هو إلاَّ أنْ رآني فقال : ﴿ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾[2] ،[3] .

(ب) السَّرَخْسيّ :

قال الذهبيُّ في ترجمة « السَّرْخَسيِّ » : الفَيلسوفُ البارِعُ ، ذو التَّصانيف ، أبو العبَّاس ، أحمدُ بنُ الطَّيِّب السَّرْخَسيّ ، من بُحور العلم الذي لا يَنفَع .

وكان مُؤدِّب المُعْتَضِد ، ثم صار نَديمَه وصاحِبَ سرِّه ومَشورَته ، وله رئاسَةٌ وجَلالَةٌ كَبيرَة ، وهو تلميذُ يَعقوبَ بنِ إسْحاق الكِندي الفَيلسُوف .

ثم إنَّ المُعْتَضِد انتَخَىٰ لله ، وقَتَلَ السَّرْخَسيَّ لفَلسَفتِه وخُبثِ مُعْتَقدِه فقيلَ : إنَّه تَنصَّلَ إليه ، وقالَ : قد بِعتُ كُتبَ الفَلسَفة والنُّجوم والكَلام ، وما عندي سِوَىٰ كُتب الفِقْه والحَديث ، فلمَّا خَرجَ قال المُعْتَضِد : والله إنِّي لأعلَمُ أنَّه زِنْديقٌ ، فَعلَ ما زَعمَ رِياءً .

ويُقالُ : إنَّه قالَ له : لكَ سالِفُ خِدَم ، فكيف تَختارُ أنْ نَقْتُلَك فاختارَ أنْ يُطعَم كَبابَ اللَّحم ، وأن يُسْقَىٰ خَمراً حتىٰ يَسْكر ، ويُفصَد في يديه ، ففُعِلَ به ذلك ، فصُفِّي من الدَّم ، وبقِيَت فيه حياةٌ ، وغَلبَت عليه الصَّفراءُ ، وجُنَّ ، وصاحَ ، وبقي يَنطَحُ الحائطَ لفَرْطِ الآلام ، ويَعدوا كثيراً حتىٰ مات ، وذلك سَنة ستٍّ وثمانين ومئتين[4] .

(ج) ابنُ سِينا :

قال الذهبيُّ في تَرجمة « ابنِ سينا » : العلاَّمة الشَّهير الفَيلسُوف ، أبو عليّ ، الحُسَينُ بنُ عبد الله بنِ الحَسَن بنِ عليٍّ ابنِ سينا ، البَلْخِي ثم البُخاري ، صاحِبُ التَّصانيف في الطِّبِّ والفَلسَفَة والمَنْطِق .

---

(١) انظر السير : (يعقوب بن إسحاق) ١٢/ ٣٧٧ ، وانظر النزهة : ١٠٠٦/ ١ .
(٢) سورة المرسلات ، الآية : ٢٩ .
(٣) انظر السير : (يعقوب بن إسحاق) ١٢/ ٣٧٧ ، وانظر النزهة : ١٠٠٦/ ٢ .
(٤) انظر السير : (السَّرَخْسيّ) ١٣/ ٤٤٨ـ٤٤٩ ، وانظر النزهة : ١١٠٢/ السَّرَخْسيّ .

كان أبوهُ كاتباً من دُعاة الإسْماعيليَّة ، فقالَ : كان أبي تَولَّى التَّصرفُ بقَرية كَبيرة ، ثم نزل بُخارَىٰ ، فقرأتُ القُرآنَ وكَثيراً من الأدَب ولي عَشرٌ ، وكان أبي مِمَّنْ آخَىٰ داعي المصْريِّين ، ويُعَدُّ من الإسْماعيليَّة .

ثم ذكَر مَبادىء اشْتغاله ، وقُوَّةَ فَهْمه ، وأنَّه أحْكَم المَنْطِق وكتاب إقْلِيدَس إلىٰ أنْ قالَ : ورَغِبتُ في الطِّبِّ ، وبرَّزْتُ فيه ، وقَرؤوا عليَّ ، وأنا مع ذلك أختلفُ إلى الفِقْه ، وأُناظِرُ وليَ سِتَّ عَشرة سَنة .

ثم قَرأتُ جَميعَ أجْزاء الفَلسفَة ، وكنت كلَّما أتَحيَّر في مَسألَة ، أو لمْ أظْفَر بالحَدِّ الأوْسَط في قياس ، تردَّدتُ إلى الجامع ، وصلَّيتُ ، وابتهَلْتُ إلىٰ مُبدِع الكلِّ حتىٰ فُتحَ لي المُنْغَلقُ منه ، وكنتُ أسهرُ ، فمَهْما غَلبَني النومُ شَربتُ قَدَحاً إلىٰ أنْ قالَ : حتى اسْتحكَم معي جَميعُ العُلوم .

واتَّفقَ لسُلطان بُخارَىٰ نوح مرضٌ صَعبٌ ، فأُحضرْتُ مع الأطِباء ، وشاركتُهم في مُداواتِه ، فسألتُ إذناً في نَظر خزانَة كُتبه ، فدخلتُ فإذا كتبٌ لا تُحصَىٰ في كلِّ فنٍّ ، فظَفرتُ بفَوائدَ إلىٰ أنْ قالَ : فلمَّا بَلغتُ ثمانية عَشرَ عاماً ، فَرغتُ من هٰذه العُلوم كلِّها ، وكُنتُ إذ ذاك للعلم أحفظُ ، ولكنَّه معي اليومَ أنْضَج ، وإلاَّ فالعلمُ واحدٌ لمْ يَتجدَّد لي شيءٌ ، وصنَّفتُ « المَجموعَ » فأتيتُ فيه علوم ، وسألني جارُنا أبو بكر البرقي ، وكان مائلاً إلى الفقه والتفسيرِ والزُّهْد ، فصنَّفتُ له « الحاصِلَ والمَحْصولَ » في عِشرينَ مُجلَّدةً ، ثم تَقلَّدتُ شَيئاً من أعمال السُّلطان وكنتُ بزيِّ الفُقَهاء إذْ ذاك .

ثم نزل الريَّ وخَدمَ مَجدَ الدولَة وأُمَّه ، ثم خرجَ إلىٰ قَزْوينَ وهَمَذانَ فوزَرَ بها ، ثم قامَ عليه الأُمَراءُ ، ونَهَبوا دارَه ، وأرادُوا قَتلَه ، فاخْتَفىٰ فعاوَد مُتوَلِّيها شمسَ الدولة القُولَنْجُ ، فطلبَ الرئيس ، واعتذرَ إليه فعالَجَه فبَرأَ ، واسْتوزرَه ثانياً ، وكانوا يَشتغلون عليه ، فإذا فَرَغوا حَضرَ المُغنُّون ، وهُيِّىءَ مَجلسُ الشَّراب ثم مات الأميرُ ، فاخْتَفىٰ أبو عليّ عند شَخص ، فكان يؤلِّفُ كلَّ يوم خَمسينَ وَرَقَة ، ثم أُخِذَ وسُجِنَ أربعة أشْهرٍ ثم تَسحَّب إلىٰ أصْبَهان مُتنكِّراً في زيِّ الصُّوفيَّة هو وأخُوه وخادِمُه وغُلامان .

وقاسوا شدائدَ ، فبالغ صاحبُ أصْبَهان عَلاءُ الدولَة في إكْرامِه وكان الشَّيخُ قَويَّ

القُوىٰ كلِّها ، يُسرفُ في الجِماع ، فأثَّرَ في مِزاجِه ، وأخذَه القَوْلَنجُ ، ثم حَصَل له الصَّرَع ، وسَقطَت قوتُّه ، فأهْملَ العلاجَ .

قال ابنُ خَلِّكان : ثم اغتسلَ وتابَ ، وتَصدَّقَ بما معه على الفُقراء وردَّ المَظالم ، وأعْتَق مَماليكَه ، وجَعلَ يختِمُ القُرآنَ في كلِّ ثلاثٍ ، ثم ماتَ سنةَ ثمانٍ وعشرين وأربع مئة ، ومَولدُه في سَنةِ سَبعين وثلاث مئة .

وهو رأسُ الفَلاسفَة الإسْلاميَّة ، لمْ يأتِ بعدَ الفارابي مثلُه ، فالحمدُ لله على الإسلام والسُّنَّة .

وله كتابُ « الشِّفاء » ، وغيرُه وأشياءَ لا تُحْتمَل ، وقد كفَّرَه الغَزاليُّ في كتاب « المُنْقِذُ من الضَّلال » وكفَّر الفارابي[1] .

وقال الرئيسُ : قد صَحَّ عندي بالتَّواتُر ما كان بجَوْزجان في زَمانِنا من أمر حديد ـ لعلَّه زِنَةَ مئة وخمسين مَنّاً ـ نزلَ من الهَواءِ ، فنشَبَ في الأرض ، ثم نَبا نَبْوَة الكُرة ، ثم عادَ ، فنَشبَ في الأرض ، وسُمع له صوتٌ عظيمٌ هائلٌ ، فلمَّا تَفقَّدوا أمرَه ، ظَفِروا به ، وحُملَ إلىٰ والي جوزجان فحاوَلوا كَسْرَ قِطعَة منه ، فما عَملت فيه الآلاتُ إلاَّ بجَهدٍ ، فراموا عَمل سَيفٍ منه ، فتَعذَّر ، نقَلُه في « الشِّفاء »[2] .

(ج) السُّهْرَوَرْديّ :

قال الذهبيُّ في ترجَمة السُّهْرَوَرْديِّ : العلاَّمة الفيلسوف السِّيماويُّ ، شهابُ الدين يَحيىٰ بنُ حَبَش السُّهْرَوَرْديُّ ، مَنْ كان يتَوَقَّدُ ذكاءً ، إلاَّ أنَّه قليلُ الدِّين .

وقال ابنُ أبي أُصيبعة : اسمه عُمر ، وكانَ أوحدَ في حِكْمة الأوَائل ، بارِعاً في أصُول الفِقْه ، مُفرطَ الذكاء ، فَصيحاً ، لمْ يُناظِرْ أحداً إلاَّ أرْبىٰ عليه[3] .

وقال ابنُ أبي أُصَيبِعَةَ : وحَدَّثني إبراهيمُ بنُ صدقَة الحَكيمُ ، قال : خَرَجْنا من بابِ

---

(١) انظر السير : (ابنُ سينا) ١٧/ ٥٣١ـ ٥٣٧ ، وانظر النزهة : ٢/١٣٥٧ .

(٢) انظر السير : (ابنُ سينا) ١٧/ ٥٣١ـ ٥٣٧ ، وانظر النزهة : ١/١٣٥٩ .

(٣) انظر السير : (السُّهْرَوَرْديُّ) ٢١/ ٢٠٧ـ ٢١١ ، وانظر النزهة : ٤/١٦١٣ .

الفرجِ معه ، فذَكَرْنا السِّيمياءَ فقالَ : ما أَحْسَنَ هٰذه المَواضِعَ ، فنظَرْنا من ناحيةِ الشَّرقِ جواسَقَ مُبيضةً كبيرةً مُزَخْرَفةً ، وفي طاقاتِها نِساءٌ كالأَقْمَارِ ومَغاني ، فتعَجَّبنا ، وانْذَهَلْنا ، فبَقِينا ساعةً ، وعُدْنا إلىٰ ما كُنَّا نَعْهَدُه ، إلاَّ أنِّي عِندَ رُؤْيَة ذلك بَقيتُ أُحِسُّ من نَفْسِي كأنَّني في سَنَةٍ خَفيةٍ ، ولَمْ يَكُنْ إدْراكِي كالحَالَةِ التي أتَحقَّقُها منِّي وحَدَّثني عَجَمِيٌّ قالَ : كُنَّا مع السُّهْرَوَرْديِّ بالقابُونِ[1] فقُلنَا : يا مَوْلانا ، نُرِيدُ رَأْسَ غَنَم ، فأعْطانا عَشْرَةَ دَراهِمَ ، فاشْتَرَيْنا بها رَأْساً ، ثمَّ تَنَازَعْنا نَحنُ والتُّرْكُمانيّ[2] ، فقالَ الشَّيخُ : رُوحُوا بالرَّأْسِ ، أنا أُرْضِيهِ ، ثمَّ تَبِعَنا الشَّيخُ ، فقال التُّرْكُمانيُّ : أرْضِني ، فما كَلَّمَه ، فجاءَ ، وجَذَبَ يَدَهُ ، فإذا بيَد الشَّيخِ قد انْخَلَعَتْ من كَتِفِه ، وبَقِيَتْ في يَدِ ذَاكَ ، ودَمُها يَشْخَبُ ، فرَماها ، فأخَذَ الشَّيخُ يَدَه باليَدِ الأُخْرَىٰ ، وجاءَ .

وله كِتابُ « التَّلْويحاتِ اللَّوْحيَّة والعَرْشيَّة » ، وكِتابُ « اللَّمْحَة » ، وكِتابُ « هَياكِلِ النُّور » ، وكِتابُ « المَعَارِجُ والمُطَارَحَات » ، وكِتابُ « حِكْمَةُ الإشْراقِ » وسائِرُها لَيْسَ من عُلُومِ الإسْلام .

قال ابنُ خلِّكان : وكان يُتَّهَمُ بالانْحِلالِ والتَّعْطِيلِ ، ويَعْتَقدُ مَذهبَ الأوَائِل ، اشْتُهِرَ ذلكَ عَنه ، وأَفْتىٰ عُلَماءُ حَلَبَ بقَتْلِه .

قال الذهبيُّ : أَحْسَنُوا وأَصابُوا[3] .

وقال المُوَفَّقُ يَعيشُ النَّحْويُّ : لمَّا تَكلَّمُوا فيه ، قالَ له تِلميذُه : إنَّكَ تَقُولُ : النُّبُوَّةُ مُكْتَسَبَةٌ ، فانزِحْ بنا ، قالَ : حتىٰ نأكُلَ بطيخَ حَلبَ ، فإنَّ بي طَرَفاً من السُّلِّ ، ثمَّ خَرَجَ إلىٰ قَريةٍ بها بطيخٌ ، فأقَمْنا أيّاماً ، فجَاءَ يَوماً إلىٰ مَحْفرةٍ فحَفَرَ حتىٰ ظَهرَ له حَصَىٰ ، فدَهَنَه بدُهْنٍ معَه ، ولَفَّهُ في قُطنٍ ، وحَمَلَه في وَسَطِه أيّاماً ، ثمَّ ظَهرَ كُلُّهُ ياقُوتاً أحْمَر ، فباعَ منه ، ووَهَبَ أصْحابَه ، ولمَّا قُتِلَ كان مَعهُ منْهُ .

قال الذهبيُّ : كانَ أحمَقَ طيَّاشاً مُنْحَلاً .

---

(١) قرية علىٰ باب دمشق في طريق من يتوجه إلىٰ حلب .

(٢) صاحب الغنم .

(٣) انظر السير : (السُّهْرَوَرْديُّ) ٢١/ ٢٠٧ـ ٢١١ ، وانظر النزهة : ١/١٦١٤ .

قُتِلَ في أوائِلِ سَنةَ سَبعٍ وثمانينَ وخَمسِ مِئَة[١] .

٥ـ حاكمٌ يَكْرَهُ عالماً لاشْتِغاله بالفلسفة والمَنْطِقْ :

جاء في ترجمة « السَّيْف » ، سيفُ الدين عليٌّ بن أبي عليٍّ بن محمد ابن سالم التغْلِبيِّ الآمديِّ ، الحَنبَليُّ ، ثم الشافعيُّ .

قال الذهبيُّ : كان أولادُ العادِل كلُّهم يَكرَهونه لما اشْتُهر عنه من علم الأوَائل والمَنْطِق ، وكان يَدخُلُ على المُعَظَّم فلا يَتحرَّكُ له ، فقلتُ : قم له عِوَضاً عنِّي ، فقال : ما يَقبلُه قَلبي .

وكان القاضي تقيُّ الدين سُليمانُ بنُ حَمزة يَحْكي عن شَيخِه ابنِ أبي عُمر قال : كنا نَتردَّدُ إلى السَّيْف ، فشَكَكْنا هل يُصلِّي أمْ لا ؟ فنامَ ، فعَلَّمْنا علىٰ رجلِه بالحِبْر فبَقيت العَلامَةُ يومَين مَكانَها ، فعَلِمْنا أنَّه ما توضَّأ ، نَسألُ اللهَ السَّلامَة في الدِّين .

قال لي شَيخُنا ابنُ تَيْمية : يَغلبُ على الآمديِّ الحِيرَةُ والوَقفُ ، حتىٰ إنَّه أَوْرَد علىٰ نَفسِه سُؤالاً في تَسَلسُل العِلَل ، وزَعمَ أنَّه لا يَعرفُ عَنه جَواباً وبنَىٰ إثْباتَ الصَّانعِ علىٰ ذلك ، فلا يُقَرِّرُ في كُتبِهِ إثْباتَ الصَّانع ، ولا حُدوثَ العالَم ، ولا وَحْدانيَّةَ اللهِ ، ولا النبُوَّات ، ولا شَيئاً من الأُصُولِ الكِبار .

قال الذهبيُّ : هٰذا يَدلُّ علىٰ كَمال ذِهْنه ، إذْ تَقريرُ ذلك بالنَّظَر لا يَنهضُ وإنَّما يَنهَضُ بالكِتابِ والسُّنَّة ، وبكلٍّ قد كان السَّيْفُ غايةً ، ومَعرفَتُه بالمَعْقول نهايَة ، وكان الفُضَلاءُ يَزْدَحِمونَ في حَلقَتِه .

قال ابنُ خَلِّكان : سَمعتُ ابنَ عبدِ السَّلام يقولُ : ما سَمعتُ مَنْ يُلقِي الدَّرسَ أَحْسنَ من السَّيْف ، كأنَّه يَخطُب ، وكان يُعظِّمُه[٢] .

* * *

---

(١) انظر السير : (السُّهْرَوَرْديُّ) ٢١/ ٢٠٧ـ ٢١١ ، وانظر النزهة : ٢/١٦١٤ .

(٢) انظر السير : (السَّيْف) ٢٢/ ٣٦٤ـ ٣٦٧ ، وانظر النزهة : ١/١٧٠٢ .

سابعاً : القَدَريَّة والجَبْريَّة

١ـ عِلاجُ الفِكر في القَدَر :

قال قَتادَة : قال مُسلمُ بنُ يَسار في الكَلامِ في القَدَر : هُما وَادِيان عَميقان ، يَسلُك فيهما النَّاسُ ، لن يُدرَك غَورُهما ، فاعْمَلْ عَملَ رَجلٍ تَعلمُ أنَّه لَنْ يُنجِيكَ إلاَّ عَملُك ، وتَوكَّل توكُّلَ رَجلٍ تَعلم أنَّه لا يُصيبُك إلاَّ ما كَتبَ اللهُ لك[١] .

وقال عبدُ الله بنُ بَكر : أَخْبرتني أختي قالت : كان أَبُوكَ قد جعلَ علىٰ نفسِه أنْ لا يَسمَع رَجلَين يَتنازَعان في القَدَر إلاَّ قامَ فصلَّىٰ رَكعتين .

قال الذهبيُّ : هـٰذا يَدلُّ علىٰ أنَّ البَصْرةَ كانت تَغلي في ذلك الوقت بالقَدَر ، وإلاَّ فلو جَعلَ الفَقيهُ اليومَ علىٰ نفسِه ذلك لأَوْشَكَ أنْ يَبقَى السَّنَةَ السَّنتَينِ لا يَسمعُ مُتنازعَين في القَدَر ولله الحَمدُ ، ولا يَتظاهرُ أحدٌ بالشَّامِ ومِصْرَ بإنْكارِ القَدَر[٢] .

قال ربعيُّ بنُ إبراهيم : حدَّثني جارٌ لنا يُقالُ له عُمر : إنَّ بعضَ الخُلفاء سَألَ عُمرَ بنَ ذَر عن القَدَر فقال : ها هنا ما يشغلُ عن القَدَر ، قال : ما هو ؟ قال : ليلةٌ صَبيحتُها يومُ القيامَة فبَكىٰ ، وبَكىٰ معه[٣] .

٢ـ الخَليفةُ يَزيدُ بنُ الوَليد دَعا إلى القَدَر وحَملَ النَّاسَ عَليه :

عن محمّدِ بن عبدِ الله بنِ عبدِ الحَكَم : سَمعتُ الشَّافعيَّ يقولُ : لمَّا وَلِيَ يَزيدُ بنُ الوَليد ، دَعا النَّاسَ إلى القَدَر ، وحَملَهم عليه ، وقَرَّب غيلانَ القَدَري أو قالَ أصْحابَ غيلان .

قال الذهبيُّ : كان غيلانُ قد صَلبَه هشامُ قبلَ هـٰذا الوقت بمدَّة .

---

(١) انظر السير : (مسلم بن يسار) ٤/ ٥١٠ـ ٥١٤ ، وانظر النزهة : ٦/٥٤٧ .

(٢) انظر السير : (بكر بن عبد الله) ٤/ ٥٣٢ـ ٥٣٦ ، وانظر النزهة : ٩/٥٤٩ .

(٣) انظر السير : (عُمر بن ذَر) ٦/ ٣٨٥ـ ٣٩٠ ، وانظر النزهة : ٢/٦٦٠ .

مات يَزِيدُ الناقص سنة ستٍّ وعشرين ومئة ، فكانت دَولتُه ستَّة أشهر ، وكان شاباً أسْمرَ نَحيفاً ، حَسنَ الوجه ، وقِيلَ : مات بالطَّاعون ، وبُويع من بعده أخوهُ إبراهيمُ بنُ الوَليد ، ودُفنَ بباب الصَّغير ، سامَحه الله[1] .

٣ـ عُلماءُ اتُّهِموا في هٰذه المَسْألَة :

قال ابنُ مَعين : كان عبدُ الحَميد ثقةٌ يُرمَىٰ بالقَدَر .

قال الذهبيُّ : قد لُطِّخَ بالقَدَر جَماعةٌ وحَديثُهم في « الصَّحيحَين » أو أحدِهما لأنَّهما مَوْصُوفون بالصِّدْق والإتْقان .

مات عبدُ الحَميد في سنة ثلاث وخمسين ومئة[2] .

٤ـ مَسْألةٌ في الجَبْر :

وقِيلَ : كان الإمامُ الزُّبَيْديُّ يَذهَبُ إلىٰ مَذْهَبِ السَّالِميَّة ، ويَقولُ : إنَّ الأمْواتَ يَأكُلُونَ ويَشْرَبونَ ويَنكِحونَ في قُبورِهم ، وإنَّ الشَّارِبَ والزَّاني لا يُلامُ لأنَّه يَفعلُ بقَضاءِ الله وقَدَرِه .

قال الذَّهبيُّ : يَحْتجُّ بقِصةِ آدَمَ ومُوسَىٰ عليهِما السَّلامُ ، ويَقولُ آدَمُ : أتَلُومُني ؟ وأنَّه حَجَّ موسىٰ ، ولَوْ سَلَّمنا أنَّ الزَّاني لا يُلامُ ، فعَلَيْنا أنْ نَحُدَّه ونُغرِّبَه ، ونَذُمَّ فِعْلَه ، ونَرُدَّ شَهادَتَه ، ونَكْرَهَه ، فإنْ تابَ واتَّقَىٰ أحْبَبْناه واحْتَرَمْناه ، فالنِّزاعُ لَفْظيٌّ[3] .

٥ـ أمثلةٌ على القَدَريَّة :

مَعْبَد الجُهَني :

قال الجُوزجانيُّ : كان قومٌ يَتكلَّمون في القَدَر ، احْتمَلَ النَّاسُ حَديثَهم لِما عَرفوا من اجتهادهم في الدِّين والصِّدْقِ والأمَانَة ، ولمْ يُتوَهَّم عليهم الكَذِب ، وإنْ بُلُوا بسُوء

---

(١) انظر السير : (يَزيد بن الوليد) ٥/ ٣٧٤ـ ٣٧٦ ، وانظر النزهة : ٢/٦١٤ .

(٢) انظر السير : (عبد الحميد بن جعفر) ٧/ ٢٠ـ ٢٢ ، وانظر النزهة : ٤/٦٧٢ .

(٣) انظر السير : (الزَّبِيْدي) ٢٠/ ٣١٦ـ ٣١٩ ، وانظر النزهة : ٣/١٥٥٥ .

رأيِّهم ، منهم مَعبد الجُهنيّ ، وقَتادَة ، ومَعبَدُ رأسُهم[1] .

وقال محمدُ بنُ شُعيب : سَمعتُ الأوْزاعيَّ يقولُ : أوَّلُ مَنْ نَطَق في القَدَر سَوْسَنُ بالعِراق ، كان نَصرانيّاً فأسْلمَ ، ثم تَنَصَّرَ ، فأخَذَ عنه مَعبَدُ ، وأخَذَ غيلانُ القَدَريُّ عن مَعبَد[2] .

وقال مرحومٌ العطَّار : حَدَّثنا أبي وعمِّي ، سَمِعا الحَسنَ يقول : إيَّاكم ومَعبَد الجُهَني فإنَّه ضالٌّ مُضلٌّ[3] .

وقال يونُسُ : أدْركتُ الحَسنَ يَعيبُ قولَ مَعبَد ، ثم تلطَّف له مَعبَدٌ فألْقَىٰ في نفسِه ما ألْقَىٰ .

قال طاووس : احْذَروا قَولَ مَعبَد ، فإنَّه كان قَدَريّاً[4] .

* * *

(١) انظر السير : (مَعْبَد بن عبد الله) ٤/ ١٨٥ـ ١٨٧ ، وانظر النزهة : ١/٤٧٤ .
(٢) انظر السير : (مَعْبَد بن عبد الله) ٤/ ١٨٥ـ ١٨٧ ، وانظر النزهة : ٢/٤٧٤ .
(٣) انظر السير : (مَعْبَد بن عبد الله) ٤/ ١٨٥ـ ١٨٧ ، وانظر النزهة : ٣/٤٧٤ .
(٤) انظر السير : (مَعْبَد بن عبد الله) ٤/ ١٨٥ـ ١٨٧ ، وانظر النزهة : ٤/٤٧٤ .

ثامناً : القُرْآنيُّون

١ـ القُرآنيُّون ضَالُّون :

قال الذهبيُّ : وإذا رَأيتَ المُتكَلِّمَ المُبْتَدِعَ يقُولُ : دَعْنا من الكتاب والأَحَاديثِ الآحادِ ، وهَاتِ العَقْلَ فاعْلَمْ أنَّه أبو جَهْل ، وإذا رَأيتَ السَّالِكَ التَّوحيديَّ يَقولُ : دَعْنا من النَّقْلِ ومن العَقْلِ ، وهَاتِ الذَّوْقَ والوَجْدَ ، فاعْلَمْ أنَّه إبْليسٌ قد ظَهَرَ بصُورَةِ بَشَر ، أو قد حَلَّ فيه ، فإنْ جَبُنْتَ منه ، فاهْرُبْ ، وإلاَّ فاصْرَعْهُ وابْرُكْ علىٰ صَدرِهِ واقْرَأْ عليه آيةَ الكُرْسيِّ واخْنُقْهُ[1] .

٢ـ الردُّ عليهم :

قال مُطَرِّفُ بنُ عبدِ الله ، سَمعتُ مَالِكاً يَقُولُ : سَنَّ رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم ووُلاةُ الأمْرِ بَعدَهُ سُنَناً ، الأخْذُ بها اتِّباعٌ لِكتابِ الله ، واسْتِكْمالٌ بطَاعَةِ الله ، وقُوةٌ علىٰ دِينِ الله ، لَيسَ لأحَدٍ تَغْييرُها ، ولا تَبْديلُها ، ولا النَّظَرُ في شيءٍ خالَفَها ، مَنْ اهْتَدَىٰ بها ، فهُوَ مُهْتَدٍ ، ومَنْ اسْتَنْصَرَ بها ، فهُوَ مَنْصُورٌ ، ومَنْ تَرَكَها ، اتَّبَعَ غَيرَ سَبيلِ المُؤمِنينَ ، ووَلاَّهُ اللهُ ما تَوَلَّىٰ ، وأصْلاهُ جَهَنَّمَ وسَاءَتْ مَصِيراً[2] .

* * *

---

(١) انظر السير : (أبو قِلابَة) ٤/٤٦٨ـ ٤٧٥ ، وانظر النزهة : ٤/٥٣٤ .

(٢) انظر السير : (مالك الإمام) ٨/٤٨ـ ١٣٥ ، وانظر النزهة : ٣/٧٣٤ .

تاسعاً : الكرَّاميّة

جاء في ترجَمة محمدِ بنِ كرَّام ، قال الذهبيُّ : السِّجسْتانيُّ ، المُبتَدِع ، شيخ الكَرَّاميَّة ، كان زاهداً عابداً ربانيّاً بَعيدَ الصِّيتِ ، كَثيرَ الأصْحابِ ، ولكنَّه يَروي الوَاهِيات كما قال ابنُ حِبَّان .

خُذِلَ حتى التَقطَ من المَذاهب أرْداها ، ومن الأحاديث أوْهاها ، ثم جالسَ الجُوَيْباريَّ ، وابنَ تَميم ، ولَعلَّهما قد وَضعا مئةَ ألفِ حَديث ، وأخَذَ التقشُّفَ عن أحمدَ بنِ حَرْب .

قال الذهبيُّ : كان يقولُ : الإيمانُ هو نُطْقُ اللِّسانِ بالتَّوْحيد ، مُجرَّدٌ عن عَقد قَلبٍ وعَملِ جَوارح وقال خَلْقٌ من الأتباع له : بأنَّ الباري جِسْمٌ لا كالأجْسامِ ، وأنَّ النبيَّ تَجوزُ منه الكَبائر سِوى الكَذِب .

وقد سُجنَ ابنُ كرَّام ، ثم نُفيَ وكان ناشفاً عابداً ، قَليلَ العِلمِ .

قال الحاكمُ : مَكثَ في سِجْنِ نِيسابُور ثَماني سنين ، وماتَ بأرضِ بَيتِ المَقْدِس سَنةَ خَمسٍ وخَمسين ومئتين .

قال الذهبيُّ : طوَّلنا ترجمَته في « تاريخ الإسلام » .

وكانت الكرَّاميَّة كَثيرين بخُراسان ، ولهم تَصانيف ، ثم قلُّوا وتلاشَوْا نَعوذُ باللهِ من الأهْواء[1] .

* * *

(١) انظر السير : (محمد بن كرَّام) ١١/ ٥٢٣ـ ٥٢٤ ، وانظر النزهة : ١/٩٦٥ .

عاشراً الكلابيّة

جاء في ترجمة « ابنِ كلاَّب » ، قال الذهبيُّ : رأسُ المُتكلِّمين بالبَصْرَة في زَمانه ، أبو محمد عبدُ الله بنُ سَعيد بنُ كلاَّب القَطَّان ، البَصْريُّ ، صاحبُ التَّصانيف في الردِّ على المُعتَزلَة ، وربَّما وافَقَهم[١] .

وكان يُلقَّب كلاَّباً لأنه كان يَجُرُّ الخَصمَ إلىٰ نفسِه ببيَانِه وبلاغَتِه ، وأصحابُه هم الكلاَّبيَّة ، لَحِقَ بعضَهم أبو الحَسَن الأشْعَري ، وكان يَردُّ على الجَهْميَّة[٢] .

وقال بعضُ مَنْ لا يَعلم : إنَّه ابتَدَعَ ما ابتَدَعَه ليَدُسَّ دينَ النَّصارَىٰ في مِلَّتنا ، وإنَّه أرْضَىٰ أُختَه بذلك ، وهـٰذا باطِلٌ ، والرجلُ أقرَبُ المُتكلِّمين إلى السُّنَّة ، بل هو في مُناظِريهم[٣] .

وصَنَّف في التوحيد ، وإثبات الصِّفات ، وأن عُلُوَّ الباري علىٰ خَلقِه مَعلومٌ بالفِطْرَة والعَقل علىٰ وِفْق النَّص ، وكذلك قال المُحاسَبيُّ في كتاب « فَهْمِ القُرآن » ولـمْ أقَع بوَفاة ابنِ كلاَّب ، وقد كان باقياً قبل الأربعين ومئتين[٤] .

* * *

---

(١) انظر السير : (ابنُ كلاَّب) ١١/ ١٧٤ـ١٧٦ ، وانظر النزهة : ١/٩٢٢ .

(٢) انظر السير : (ابنُ كلاَّب) ١١/ ١٧٤ـ١٧٦ ، وانظر النزهة : ٢/٩٢٢ .

(٣) انظر السير : (ابنُ كلاَّب) ١١/ ١٧٤ـ١٧٦ ، وانظر النزهة : ٣/٩٢٢ .

(٤) انظر السير : (ابنُ كلاَّب) ١١/ ١٧٤ـ١٧٦ ، وانظر النزهة : ٤/٩٢٢ .

حادي عشر : المُرجِئة

قال معمر : قلتُ لحمَّادَ بنِ أبي سُليمان : كنتَ رَأساً ، وكنتَ إماماً في أصْحابِك ، فخالفتَهم فصِرتَ تابِعاً قال : إنِّي أنْ أكونَ تابعاً في الحَقِّ خيرٌ من أنْ أكونَ رأساً في الباطِل .

قال الذهبيُّ : يُشيرُ مُعمَّرٌ إلىٰ أنَّه تَحوَّلَ مُرجئاً إرْجاءَ الفُقَهاء ، وهو أنَّهم لا يَعدُّون الصَّلاةَ والزَّكاةَ من الإيمان ، ويقولُون : الإيمانُ إقْرارٌ باللِّسان ، ويَقينٌ في القَلبِ ، والنِّزاعُ علىٰ هـٰذا لَفظيٌ إنْ شاء الله ، وإنَّما غُلُوُّ الإرْجاء مَنْ قالَ : لا يَضرُّ مع التوحيدِ تَركُ الفَرائِض ، نَسألُ اللهَ العافيَة .

وقال أبو حاتم الرَّازي : هو مُستقيمٌ في الفِقْه ، فإذا جاءَ الأثرُ شَوَّش[1] .

قال صاحبُ النُّزْهَة : قد يُطلَقُ الإرْجاءُ علىٰ أهل السُّنَّة والجَماعة من مُخالِفيهم من المُعتَزلَة الذين يَزعُمون تَخليدَ صاحبِ الكَبيرَة في النارِ ، لأنَّهم لا يَقطَعون بعِقابِ الفُسَّاق الذين يَرتكِبون الكَبائر ، ويُفوِّضون أمرَهم إلى الله : إنْ شاءَ عَذَّبَهم ، وإنْ شاءَ غَفَرَ لهم ، ويُطلَق علىٰ مَنْ يقولُ بعَدَم دُخول الأعْمالِ في الإيمان ، وأنَّ الإيمانَ لا يَزيدُ ولا يَنقُص ، ويُطلَق علىٰ مَنْ يقولُ : « الإيمانُ هو مَعرفَةُ الله » ويَجعلُ ما سِوَى الإيمانِ من الطَّاعات ، وما سِوَى الكُفرِ من المَعاصي غَيرَ مُضِرَّة ولا نافِعَة وهـٰذا القسمُ الأخيرُ من الإرْجاء هو المَذْمومُ صاحبُه ، المُتَّهَم في دينِه .

وقد قال الذهبيُّ في « ميزانه » ٤/ ٩٩ : « مِسْعَر بن كدَام حُجَّةٌ إمام ، ولا عِبرَة بقَول السُّليماني : كان من المُرجِئَة ، مِسْعَرٌ ، حَمَّاد بنُ أبي سُليمان ، والنُّعمانُ ، وعَمرو بنُ مُرَّة ، وعبدُ العزيز بن أبي رواد ، وأبو مُعاوية ، وعَمرو بنُ ذَر ، وسَردَ جَماعَةً ، قلتُ : الإرْجاءُ مَذهَبٌ لعِدَّة من جِلّة العُلماء لا يَنبَغي التحامُل علىٰ قائلِه »[2] .

---

(١) انظر السير : (حمَّاد بن أبي سُليمان) ٥/ ٢٣١ـ ٢٣٩ ، وانظر النزهة : ٢/٥٩٨ .

(٢) انظر السير : (مِسْعَر) ٧/ ١٦٣ـ ١٧٣ ، وانظر النزهة : ٦٨٩/ هامش (١) . .

وقال أبو داوُد عن إبراهيمَ بنِ طَهْمان : ثِقةٌ من أهْل سَرْخَس ، خرجَ يُريد الحَجَّ ، فقَدِمَ نيسابورَ ، فوَجدَهم علىٰ قول جَهْم ، فقال : الإقامة علىٰ هـٰؤلاء أفضلُ من الحَجِّ ، فأقام فنقَلَهم من قول جَهْم إلى الإرجاء[1] .

وقال صالحُ بن محمد جَزَرَة : ثقةٌ ، حَسنُ الحَديث ، يَميل شيئاً إلى الإرْجاء في الإيمان ، حَبَّبَ الله حديثَه إلى النَّاس ، جَيِّدُ الرِّوايَة .

وقال أبو الصَّلتِ عبدُ السَّلام بنُ صالح الهَرَوي : سَمعتُ سُفيانَ ابنَ عُيَيْنَة يقول : ما قَدِمَ علينا خُراسانيٌّ أفضلُ من أبي رَجاء عبد الله ابنِ واقِد[2] .

قلتُ له : فإبراهيمُ بنُ طَهْمان ؟ قال : كان ذاكَ مُرْجِئاً ثم قال أبو الصَّلت : لمْ يكنْ ارْجاؤُهم هـٰذا المَذهَب الخَبيث : أنَّ الإيمان قَولٌ بلا عَمل ، وأنَّ تَرْكَ العَملِ لا يَضُرُّ بالإيمان ، بل كان إرْجاؤُهم أنَّهم يَرجُونَ لأهل الكَبائر الغُفرانَ ، رَداً على الخَوارج وغَيرِهم ، الذين يُكفِّرون الناسَ بالذُّنوب ، وسَمعتُ وَكيعاً يقولُ : سَمعتُ الثَّوْريَّ يقولُ في آخر أمرِه : نحن نَرجو لجَميع أهل الكَبائر الذين يَدينُون دِيننَا ، ويُصلُّونَ صَلاتنا ، وإنْ عَملوا أيَّ عَملٍ قال : وكان شَديداً على الجَهْميَّة[3] .

* * *

---

(١) انظر السير : (إبراهيم بن طَهْمان) ٧/ ٣٧٨ـ ٣٨٥ ، وانظر النزهة : ٧٠٥/ ٢ .
(٢) انظر السير : (إبراهيم بن طَهْمان) ٧/ ٣٧٨ـ ٣٨٥ ، وانظر النزهة : ٧٠٥/ ٣ .
(٣) انظر السير : (إبراهيم بن طَهْمان) ٧/ ٣٧٨ـ ٣٨٥ ، وانظر النزهة : ٧٠٥/ ٤ .

ثاني عَشَر : المُعْتَزِلَة

١ـ من عَقائد المُعْتزِلَة :

قال ثُمامَةُ بنُ أشْرَس : المُقَلِّدون من أهلِ الكتابِ وعَبَدَة الأوثان لا يَدخُلونَ النّارَ ، بل يَصيرونَ تُراباً ، وإنَّ مَنْ ماتَ مُسْلِماً وهو مُصِرٌّ علىٰ كَبيرَةٍ خُلِّدَ في النّارِ ، وإنَّ أطْفالَ المؤْمنينَ يُصَيَّرونَ تُراباً ، ولا يَدخلون جنَّةً .

قال الذهبيُّ : قَبَّحَ اللهُ هٰذه النِّحْلَةَ[1] .

٢ـ من عُلماء المُعْتزِلَة :

(أ) ثُمامَةُ بنُ أشْرَس :

قال الذهبيُّ في ترجمَة « ثُمامَة بن أشْرس » : العلاَّمَة أبو معن النُّميري البَصْريُّ المُتكلِّم ، من رُؤوس المُعْتزِلَة ، وكان نَديماً ظريفاً صاحبَ مُلَح ، اتصَلَ بالرَّشيد ، ثم بالمَأمون رَوىٰ عنه تلميذُه الجَاحظُ[2] .

قال ثُمامَةُ بنُ أشْرَس : المُقَلِّدون من أهلِ الكتابِ وعَبَدَة الأوثان لا يَدخُلونَ النّارَ ، بل يَصيرونَ تُراباً ، وإنَّ مَنْ ماتَ مُسْلِماً وهو مُصِرٌّ علىٰ كَبيرَةٍ خُلِّدَ في النّارِ ، وإنَّ أطْفالَ المؤْمنينَ يُصَيَّرونَ تُراباً ، ولا يَدخلون جنَّةً .

قال الذهبيُّ : قَبَّحَ اللهُ هٰذه النِّحْلَةَ[3] .

قال المُبَرِّدُ : قال ثُمامَةُ : خرجتُ إلى المأمونِ ، فرأيتُ مَجنوناً شُدَّ ، فقال : ما اسمُك ؟ قلتُ : ثُمامَة ، فقال : المُتكَلِّمُ ؟ قلتُ : نَعم ، قال : جلستَ علىٰ هٰذه الآجُرَّة ، ولم يأذن لك أهلُها ، فقلتُ : رأيتُها مَبذُولة ، قال : لعل لهم تَدبيراً غَير

---

(١) انظر السير : (ثُمامَة بنُ أشْرَس) ١٠/ ٢٠٣ـ٢٠٦ ، وانظر النزهة : ٢/٨٦٨ .
(٢) انظر السير : (ثُمامَة بنُ أشْرَس) ١٠/ ٢٠٣ـ٢٠٦ ، وانظر النزهة : ١/٨٦٨ .
(٣) انظر السير : (ثُمامَة بنُ أشْرَس) ١٠/ ٢٠٣ـ٢٠٦ ، وانظر النزهة : ٢/٨٦٨ .

البَذْلِ ، متىٰ يجدُ النَّائمُ لذَّةَ النَّوم ؟ إنْ قُلتَ : قبلَه ، أحلْتَ ، لأنَّه يَقظَانُ ، وإنْ قُلتَ : في النَّومِ ، أبطَلتَ ، إذْ النَّائمُ لا يَعْقل ، وإنْ قُلتَ : بعدَه فقد خَرجَ عنه ، ولا يوجَدُ شيءٌ بعدَ فَقْدِه ، قال : فما كان عندي فيها جَوابٌ[1] .

وعنه قال : عُدتُ رجلاً ، وتَركتُ حِماري علىٰ بابه ، ثم خرجتُ فإذا صَبيٌّ راكبُه ، فقلتُ : لِمَ ركِبْتَه بغير إذني قال : خفتُ أن يَذهَبَ ، قلتُ : لو ذهبَ كان أهْوَنَ عليَّ ، قال : فهَبْهُ لي ، وعُدَّ أنَّه ذَهبَ ، واربَحْ شُكْري ، فلم أدرِ ما أقول[2] .

وقال الجاحظُ : حدَّثني ثُمامَةُ ، قال : شَهدُتُ رجُلاً قدَّم خَصْمَه إلىٰ والٍ ، فقال : أصْلَحكَ الله ، هـٰذا ناصِبيٌّ ، رافِضيٌّ ، جَهْمِيٌّ ، مُشَبِّهٌ ، يَشْتمُ الحجَّاجَ بنَ الزُّبَيرِ الذي هدمَ الكَعْبَةَ علىٰ عليٍّ ، ويَلْعَنُ مُعاويَةَ بنَ أبي طالب[3] .

وقالَ هارُونُ الحَمَّالُ : حَدَّثنا مُحمَّدُ بنُ أبي كَبْشَة قال : كُنتُ في سَفينَةٍ ، فسَمِعتُ هاتِفاً يقولُ : لا إلـٰهَ إلاَّ الله ، كَذَبَ المَريسِيُّ على الله ، ثُمَّ عادَ الصَّوتُ يَقولُ : لا إلـٰهَ إلاَّ الله ، علىٰ ثُمامَةَ والمَريسِيِّ لَعْنةُ الله ، قالَ : ومَعَنا رَجُلٌ من أصْحابِ المَريسِيِّ في المَرْكبِ ، فَخَرَّ مَيِّتاً[4] .

(ب) أبو يُوسُف القَزوينيّ :

قال الذهبيُّ في ترجمة « أبو يوسُف القَزْوينيّ » : الشَّيخُ العلاَّمَة ، البارِعُ ، شَيخُ المُعْتَزلَة وفاضِلُهم ، أبو يوسُف عبدُ السَّلام بنُ محمد بنُ يوسُف القَزْوينيُّ ، المُفَسِّرُ ، نَزيلُ بَغداد .

وقال ابنُ عقيل في « فُنونه » : قدِمَ علينا من مِصْرَ القاضي أبو يوسُف القَزْويني ، وكان يَفتخرُ بالاعْتزال ، ويتوسَّعُ في قَدْح العُلماء ، وله جُرْأةٌ ، وكان إذا قَصدَ بابَ نظام المُلك ، يقولُ استأذنوا لأبي يوسُف المُعْتَزليِّ ، وكان طَويلَ اللِّسان بعلمٍ تارة ،

---

(١) انظر السير : (ثُمامَة بنُ أشْرَس) ١٠/ ٢٠٣ـ٢٠٦ ، وانظر النزهة : ٨٦٨/ ٣ .
(٢) انظر السير : (ثُمامَة بنُ أشْرَس) ١٠/ ٢٠٣ـ٢٠٦ ، وانظر النزهة : ٨٦٨/ ٤ .
(٣) انظر السير : (ثُمامَة بنُ أشْرَس) ١٠/ ٢٠٣ـ٢٠٦ ، وانظر النزهة : ٨٦٨/ ٥ .
(٤) انظر السير : (ثُمامَة بنُ أشْرَس) ١٠/ ٢٠٣ـ٢٠٦ ، وانظر النزهة : ٨٦٨/ ٦ .

وبسَفَهٍ تارةً ، لم يكن مُحَقِّقاً إلاَّ في التفسير ، فإنَّه لَهِجَ بذلك حتىٰ جَمعَ كتاباً بلغ خمس مئة مُجلَّد ، فيه العَجائبُ ، رأيتُ منه مُجلَّدَةً في آيةٍ واحدة ، وهي ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ﴾(١) ، فذكرَ السِّحْرَ والملوك الذين نفَق عليهم السِّحْرُ ، وتأثيراتِه وأنْواعِه(٢) .

وقال محمدُ بنُ عبد المَلك : مَلكَ من الكتب ما لم يملكْهُ أحدٌ قيلَ : ابتاعَها من مِصْرَ بالخُبزِ وقتَ القَحْطِ ، وحدَّثني عبدُ المحسن بنُ محمد أنَّه ابتاعَها بالأثْمان الغاليَة ، كان يَبتاعُ من كتب السيرافيِّ وكانت أزيدَ من أربعين ألف مُجلَّد ، فكان أبو يوسف يَشتري في كل أسبوع بمئة دينار ، ويقول : قد بعتُ رَحْلي وما في بيتي وكان الرُّؤساء يَصِلونَه(٣) .

وقيلَ : دخلَ الغَزاليُّ إليه ، وجلسَ بينَ يَديه ، فقال : من أين أنتَ ؟ قال : من المدرسة ببغداد قال الغَزاليُّ : لو قُلتَ : إنِّي من طوس لذكر تَغْفيلَ أهلِ طوس ، ومن أنَّهم سألوا المأمونَ ، وتَوسَّلوا إليه بقبرِ أبيه عندهم ، وطلَبوا أن يُحوِّلَ الكعبةَ إلىٰ بلدِهم ، وأنَّه جاء عن بعضِهم أنَّه سُئلَ عن نَجْمِهِ ، فقال : بالتَّيْسِ ، فقِيلَ له ، فقال : كان من سنتينِ بالجَدْيِ ، والساعةَ قد كَبِرَ .

وقال ابنُ ناصر : مات سنةَ ثمانٍ وثمانين وأربعِ مئة(٤) .

قالَ اليَزيديُّ وآخَرُ : تَكلَّمَ عَمرُو بنُ عُبَيد في الوَعيدِ سَنةً ، فقالَ أبو عَمرِو بنُ العَلاء : إنَّكَ لألْكَنُ الفَهمِ ، إذْ صَيَّرتَ الوَعيدَ الذي في أعْظَمِ شَيءٍ مِثلَهُ في أصْغَرِ شَيءٍ ، فاعْلَمْ أنَّ النَّهيَ عن الصَّغيرِ والكَبيرِ ليْسا سَواء وإنَّما نَهَى اللهُ عَنهُما لِتَتِمَّ حُجَتُّه علىٰ خَلقِه ، ولِئلا يَعْدلَ عنْ أمْرِه ووَرَاءَ وَعيدِه عَفْوُهُ وكَرَمُه ثمَّ أنْشَدَ :

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ١٠٢

(٢) انظر السير : (أبو يوسُف القَزْوينيّ) ١٨/ ٦١٦ـ ٦٢٠ ، وانظر النزهة : ٢/١٤٤٨ .

(٣) انظر السير : (أبو يوسُف القَزْوينيّ) ١٨/ ٦١٦ـ ٦٢٠ ، وانظر النزهة : ١/١٤٤٩ .

(٤) انظر السير : (أبو يوسُف القَزْوينيّ) ١٨/ ٦١٦ـ ٦٢٠ ، وانظر النزهة : ٢/١٤٤٩ .

ولا يَرْهَبُ ابنُ العَمِّ ما عِشْتُ صَوْلَتِي ولا أختَتِي[1] مِنْ صَوْلَةِ المُتَهَدِّدِ
وإنِّـي وإنْ أَوْعَـدْتُـهُ وَوَعَـدْتُـهُ لَمُخْلِفُ إيعـادِي ومُنْجِزُ مَوْعِدِي

فقالَ عَمرُو بنُ عُبَيد : صَدَقتَ إنَّ العَربَ تَتَمدَّحُ بالوَفاءِ بالوَعدِ والوَعيدِ ، وقد يُمْتَدَحُ بهما المَرءُ ، تَسَمَّعْ إلىٰ قَولِهِم :

لا يُخْلِفُ الـوَعْـدَ والـوَعِيـدَ ولا يَبِيـتُ مِـنْ ثـأْرِهِ عَلـىٰ فَـوْتِ

فقَدْ وافقَ هـٰذا قَولَه تعالَىٰ : ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ ﴾[2] .

قالَ أبُو عَمرٍو : قَد وافقَ الأوّلُ أخْبارَ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم والحَديثُ يُفَسِّرُ القُرآنَ[3] .

* * *

(١) ولا أخْتَتِي : أي لا أَسْتَترُ خوفاً .
(٢) سورة الأعراف ، الآية : ٤٤ .
(٣) انظر السير : (أبو عَمرو بن العَلاء) ٦/٤٠٧ـ٤١٠ ، وانظر النزهة : ١/٦٦٦ .

جَماعاتٌ ضَالَّةٌ خَارجَةٌ عن الدِّين

أولاً : الباطِنيَّة

١ـ من عَقائِدِهم :

قال الذهبيُّ في ترجَمة الطَّلَمَنْكيِّ : وألَّفَ كتاباً في الرَّدِ على الباطنيَّة ، فقال : ومنهم قومٌ تعبَّدوا بغير علمٍ ، وزَعَموا أنَّهم يَرونَ الجنَّةَ كلَّ ليلةٍ ، ويأكلُونَ من ثِمارِها ، وتَنزَّلُ عليهم الحُورُ العِينُ ، وأنَّهم يَلوذونَ بالعرشِ ، ويرَونَ اللهَ بغيرِ واسِطةٍ ، ويُجالِسونَه[١] .

٢ـ مَن فَضَحَهم من عُلماء المسلمين :

جاء في ترجمة المستظهر بالله ، قال الذهبيُّ : ولابنِ الباقِلانيِّ ، والغَزاليِّ ، وعبدِ الجبَّار المُعْتَزليِّ كُتبٌ في فَضائحِ هٰؤلاء ـ يعني الباطنيَّة[٢] .

٣ـ تاريخُهُم وأُمَراؤُهم :

(أ) ابنُ غطَّاش :

جاء في ترجمة « ابنِ غَطَّاش » ، قال الذهبيُّ : طاغية الإسماعيلية[٣] ، هو الرئيسُ أحمد بنُ عبد المَلك بن غَطَّاش العجمي كان أبوه من كبار دُعاة الباطنيَّة ، ومن أذكياء الأُدَباء ، له بلاغَة وسرعة جَواب ، استغوىٰ جماعةً ثم هَلَك ، وخلَفَه في الرياسة ابنُه هٰذا ، فكان جاهلاً ، لكنه شجاعٌ مُطاع ، تجمَّع له أتباع ، وتحيَّلوا حتىٰ مَلكوا قلعةَ أصْبَهان التي غرِمَ عليها السلطانُ « مَلكْشاه » ألفي ألف دينار ، وصاروا يقطعون السُّبُل ، والتفَّ عليهم كلُّ فاجر ، ودام البلاءُ بهم عشرُ سنين ، حتىٰ نازَلَهم محمدُ بنُ مَلكْشاه أشْهُراً ، فجاعوا ، ونزلَ كثيرٌ منهم بالأمان ، وعصى ابنُ غَطَّاش في بُرج

---

(١) انظر السير : (الطَّلَمَنْكيّ) ١٧/٥٦٦ـ٥٦٩ ، وانظر النزهة : ٢/١٣٦٥ .

(٢) انظر السير : (المستظهر بالله) ١٩/٣٩٦ـ٤١٢ ، وانظر النزهة : ٣/١٤٩١ .

(٣) قال ابن الأثير : وهم الذين كانوا يُسمَّون قبل ذلك القرامطة .

أياماً ، وجرت أمورٌ طويلة ، ثم أخِذَ وسُلِخَ ، وتأمَّرَ على الباطنية بعده ابنُ صبَّاح[1] ، وكانوا بلاءً على المسلمين ، وقَتلوا عَدَداً من الأعيان بشغل السكين[2] .

والتقى السلطانُ محمدُ بنُ مَلكْشاه وأخوه بَرْكيا رُوق مرات ، وغَلَت الأقطارُ بالباطنية ، وطاغوتهم الحسن بن الصَّبَّاح المَرْوزيّ الكاتب ، كان داعيةً لبني عُبَيد ، وتعانَوْا شُغْلَ السكين ، وقَتلوا غِيلَةً عدةً من العلماء والأمراء وأخذوا القِلاعَ ، وحاربوا ، وقَطعوا الطرقَ ، وظَهروا أيضاً بالشام ، والتَفَّ عليهم كلُّ شَيطان ومارق ، وكلُّ ماكرٍ ومُتحَيِّل[3] .

وقال الغزاليُّ في « سِرِّ العَالَمين » : شاهدتُ قصَّةَ الحَسَنِ ابنِ الصَّبَّاحِ لمَّا تَزَهَّدَ تَحتَ حِصْنِ الألَموتِ ، فكانَ أهلُ الحِصْنِ يَتمنَّونَ صُعودَه ، ويَتَمنَّعُ ويقولُ : أما تَرَونَ المُنْكَرَ كَيفَ فَشَا ، وفَسَدَ النَّاسُ ، فصَبا إليه خَلقٌ وذَهَبَ أميرُ الحِصْنِ يَتَصيَّدُ ، فوَثَبَ على الحِصْنِ فتَمَلَّكَه ، وبَعَثَ إلى الأميرِ مَنْ قتَلَه ، وكَثُرَت قِلاعُهُم ، واشْتَغَلَ عَنهُم أولادُ مَلِكْشاه باخْتِلافِهِم[4] .

(ب) عَبدُ الغَني :

وجاء في ترجمة « عبد النبيِّ » ، قال الذهبيُّ : هو ابنُ المَهديِّ عليِّ ابنِ مَهْدي ، كان أبوهُ قد وعظَ ، واشتغلَ ، ودعا إلىٰ نفسه ، وجرت له أمور وغلبَ على اليمنِ ، وعسَفَ وظلمَ ، وفَجَرَ ، وشقَّق بُطونَ الحبالىٰ ، وتمرَّدَ على الله ، وكان من دُعاة الباطنية فقَصَمَه الله سنةَ نيِّفَ وخمسينَ .

---

(١) هو الحسن بن صباح بن عليّ الإسماعيليّ صاحب الدعوة النزارية ، وجدُّ أصحاب قلعة الموت ، قال الإمام الذهبيُّ في « الميزان » ١/ ٥٠٠ : كان من كبار الزنادقة ، ومن دُهاة العالم ، وله أخبار يطول شَرحُها لخصتها في تاريخي الكبير في « حوادث سنة أربع وتسعين وأربع مئة » ، وأصله من مرو ، وقد أكثر التطواف ما بين مصر إلىٰ بلد كاشغر ، يغوي الخلق ويُضلُّ الجَهَلة إلىٰ أن صار منه ما صار ، وكان قوي المشاركة في الفلسفة والهندسة ، كثير المكر والحيل ، بَعيد الغَور ، لا بارك الله فيه .

(٢) انظر السير : (ابنُ غَطَّاش) ١٩/ ٢٦٧ ، وانظر النزهة : ١٤٧٦/ ابنُ غَطَّاش .

(٣) انظر السير : (المُسْتظهرُ بالله) ١٩/ ٣٩٦ـ ٤١٢ ، وانظر النزهة : ١٤٩١/ ١ .

(٤) انظر السير : (المُسْتظهرُ بالله) ١٩/ ٣٩٦ـ ٤١٢ ، وانظر النزهة : ١٤٩١/ ٢ .

فقام بعده عبدُ النبيِّ هـٰذا ، ففعل كأبيه ، وسَبى الحريم ، وتَزَنْدَقَ وبنىٰ علىٰ قبرِ أبيه المَهْديِّ قُبَّةً عظيمة ، وزَخرَفَها ، وعمل أستارَ الحَرير عليها ، وقَناديل الذَّهب ، وأمرَ الناسَ بالحجِّ إليها ، وأن يَحملَ كلُّ أحدٍ إليها مالاً ، ولمْ يَدَعْ أحدٌ زيارتها إلاَّ وقتله ، ومَنعَهم من حجِّ بيتِ الله ، فتجمَّع بها أموالٌ لا تُحصَىٰ ، وانهمك في الفواحش إلىٰ أن أخذَه الله علىٰ يد شمسِ الدولة ، أخي السلطان صلاح الدين ، عذَّبَهُ ، ثم قَتلَه ، وأخذ خزائنَه ، فللَّهِ الحمدُ علىٰ مَصرع هـٰذا الزِّنْديق ، وكان ذلك في قرب سنة سبعين وخمس مئة ، فإنَّ مُضيَّ شَمسِ الدولة تُوران شاه إلى اليمن وأخْذَها كان في سنة تسع وستين ، فأسرَ هـٰذا المجرمَ وشَنَقَه وتملَّكَ زَبيدَ وعَدَنَ وصَنْعاءَ ولعبدِ النبيِّ أخبارٌ في الجَبَروتِ والعُتُوِّ ، فلا رَحمَه الله[1] .

(ج) ابنُ سنان :

جاء في ترجمة « سنان » ، قال الذهبيُّ : هو راشدُ الدين ، كبيرُ الإسماعيلية وطاغوتهم ، أبو الحسن سنانُ بنُ سَلْمان بن محمد البَصْريُّ الباطنيُّ ، صاحبُ الدَّعْوَة النِّزاريَّة[2] .

وقال الذهبيُّ : الدعوةُ النِّزاريَّة ، نِسْبَةً إلىٰ نِزار بن خليفة العُبَيدية المُسْتنصِر ، صيَّرَهُ أبوهُ ولِيَّ عَهْدِه ، وبثَّ له الدُّعاة ، فمنهم صَبَّاح جدُّ أصحاب الألَمُوت ، أحدُ شياطين الإنس ، ذو سَمتٍ وذلقٍ ، وتَخَشُّع ، وتَنَمُّش ، وله أتباعٌ ، دخلَ الشامَ والسواحل في حدود ثمانين وأربع مئة ، فلم يتمَّ له مرامه ، فسار إلى العجم ، وخاطَبَ الغُتْمَ[3] الصُّمَّ ، فاستجابَ له خلقٌ ، وكَثُروا ، وأظهَروا شُغل السكين والوُثوب على الكبار ، ثم قصدَ قلعةَ الألَموت بقَزْوين ، وهي منيعة بأيدي قوم شُجْعان ، لكنَّم جَهَلةٌ فُقَراء ، فقال لهم : نحنُ قومٌ عُبَّادٌ مَساكين ، فأقاموا مدَّةً ، فمالوا إليهم ، ثم قال :

---

(١) انظر السير : (عبدُ النبيِّ) ٢٠/ ٥٨٢ـ ٥٨٣ ، وانظر النزهة : ١/١٥٨٦ .

(٢) انظر السير : (سنان) ٢١/ ١٨٢ـ ١٩٠ ، وانظر النزهة : ١/١٦٠٧ .

(٣) الغتم : جمع أغتم ، وهو الذي لا يُفصحُ شيئاً ، وفي « تاريخ الإسلام » : وتكلم مع أهل الجبال والغتم الجهلة من تلك الأراضي .

بِيْعُونا نصفَ قَلعَتكم بسَبعةِ آلاف دينار ، ففعلوا ، فدخلوها ، وكَثروا ، واستولىٰ صبَّاح على القلعة ، ومعه نحو الثلاث مئة ، واشْتُهرَ بأنَّه يُفْسدُ الدين ، ويحلُّ من الإيمان ، فنهد له ملك تلك الناحية ، وحاصر القلعَةَ مع اشتغاله بلعبه وسُكْره ، فقال عليٌّ اليَعْقوبيُّ من خَواص صَبَّاح : أيش يكون لي عليكم إذا قَتلْتُه ؟ قالوا : يكون لك ذُكْرانٌ في تسابيحنا ، قال : رَضيتُ ، فأمرهم بالنزول ليلاً ، وقسَّمَهم أرباعاً في نواحي ذلك الجيش ، ورتَّبَ مع كل فرقة طُبولاً ، وقال : إذا سمعتُم الصَّيْحَةَ فاضربوا الطبولَ ، فاختبَطَ الجيشُ ، فانتهزَ الفُرصَة ، وهجمَ على الملك فقتله ، وقُتلَ ، وهرب العسكرُ فحوَت الصّبَّاحيةُ الخيامَ بما حَوت ، واستغنَوا ، وعَظُمَ البلاء بهم ، ودامت الألموتُ مئةً وستينَ عاماً ، فكان سنان من نوَّابهم .

فأمَّا نِزارٌ ، فإنَّ عَمته عملت عليه[1] وعاهدت الأمراء أن تقيم أخاه صبياً ، فخاف نزار ، فهرب إلى الإسكندرية ، وجَرت له أمور وحروب ، ثم قُتلَ ، وصار صبَّاح يقول : لم يمت ، بل اختفىٰ ، وسيظهر ، ثم أحبلَ جاريةً ، وقال لهم : سَيظهرُ من بَطنِها ، فأذعنوا له ، واغتالوا أمراءَ وعُلماءَ[2] ، وخافَتهُم الملوكُ ، وصانَعوهم بالأموال[3] .

وبَعثَ صَبَّاحٌ الدَّاعي أبا مُحمّدٍ إلى الشَّامِ ، ومَعهُ جَماعَةٌ ، فقَوِيَ أمْرُه ، واسْتَجابَ له الجبليَّةُ ، واسْتَولَوا علىٰ قَلعَةٍ من جَبَلِ السَّماقِ[4] .

ثم هَلكَ هـٰذا الدَّاعي ، وجَاءَ بَعدَه سِنانُ ، فكانَ سَخطَةً وبَلاءً ، مُتَنَسِّكاً ، مُتَخَشِّعاً ، واعِظاً ، كان يَجلسُ علىٰ صَخْرةٍ كأنَّه صَخْرةٌ لا يَتَحرَّك منْهُ سِوَىٰ لِسَانُه ، فرَبَطَهُم ، وغَلَوا فيه ، واعْتَقدَ منهم فيه الإلَهيَّة ، فتَبّاً له ولِجَهْلِهم ، فاسْتَغْواهُم بسِحْرٍ وسيمياءَ ، وكان له كُتبٌ كَثيرةٌ ومُطالَعَةٌ ، وطالَتْ أيّامُه .

---

(١) يعني عملت ضده .

(٢) ذكر الذهبيُّ في « تاريخ الإسلام » أن الاغتيال بالسكاكين سُنَّة سنَّها اليعقوبيُّ .

(٣) انظر السير : (سنان) ٢١/ ١٨٢ـ ١٩٠ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٠٧ .

(٤) انظر السير : (سنان) ٢١/ ١٨٢ـ ١٩٠ ، وانظر النزهة : ١/١٦٠٨ .

وأمَّا الألَمُوت[1] فوَلِيَها بعدَ صَبَّاحٍ ابنُهُ مُحمّد ، ثمَّ بَعدَهُ حَفيدُه الحَسَنُ بنُ مُحمّدٍ الذي أظْهَرَ شِعارَ الإسْلامِ ، ونَبذَ الانْحلالَ تَقِيَّةً ، وزَعَمَ أنَّه رَأى الإمامَ عَليّاً ، فأمَرَه بإعادَةِ رسومِ الدين ، وقالَ لخَواصِّهِ : ألَيْسَ الدينُ لي ؟ قالوا : بلىٰ ، قال : فتارَةً أضَعُ عليكُم التَّكاليفَ، وتارَةً أرْفُضُها ، قالوا : سَمِعنا وأطَعْنَا ، واسْتَحْضَرَ فُقَهاءَ وقُرَّاءَ ليُعَلِّمُوهم[2] .

نعم ، وكان سنان قد عرجَ من حَجرٍ وقع عليه في الزلزلة الكبيرة زمنَ نور الدين ، فاجتمع إليه مُحبُّوه علىٰ ما حكى الموفقُ عبدُ اللطيف ليقتلوه ، فقال : ولِمَ تَقتلوني ؟ قالوا : لتَعودَ إلينا صَحيحاً ، فشَكرَ لهم ، ودعا ، وقال : اصبروا عليَّ ، ثم قتلهم بحيلةٍ ولمَّا أراد أن يحلَّهم من الإسلام ، نزل في رمضان إلىٰ مَقْثَأةٍ[3] فأكلَ منها ، فأكلوا معه[4] .

أَوْصَىٰ يَوماً أتْباعَه ، فقالَ : عَليكُم بالصَّفاءِ بَعضُكُم لبَعضٍ ، لا يَمْنَعَنَّ أحَدَكُم أخاهُ شَيئاً له ، فأَخَذَ هـٰذا بنتَ هـٰذا ، وأخَذَ هـٰذا أُخْتَ هـٰذا سِفاحاً ، وسَمُّوا نُفوسَهم الصُّفاةَ ، فاسْتَدْعاهُم سِنانُ مَرَّةً ، وقَتَلَ خَلْقاً منهم[5] .

قال ابنُ العديم : تَمكَّنَ في الحُصونِ وانْقادُوا له ، وأخْبَرَني عليُّ ابنُ الهَوَّاريّ أنَّ صَلاحَ الدِّين سَيَّرَ رَسُولاً إلىٰ سِنانٍ يَتَهدَّدُه ، فقالَ للرسُولِ : سأُريكَ الرِّجالَ الذين ألْقاهُ بهِم ، فأشَارَ إلىٰ جَماعَةٍ أنْ يَرْمُوا أنْفُسَهم من الحِصْنِ من أعْلاه ، فألْقَوا نُفوسَهم ، فهَلَكُوا[6] .

قال : وبلغني أنَّه أحلَّ لهم وَطْءَ أُمَّهاتهم وأخواتهم وبناتهم ، وأسقطَ عنهم صومَ رمضانَ[7] .

---

(١) انظر عن هـٰذه القلعة وتاريخها « دائرة المعارف الإسلامية » : ٤/ ٣٧١ (ط الجديدة) .
(٢) انظر السير : (سنان) ٢١/ ١٨٢ـ ١٩٠ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٠٨ .
(٣) المقثأة : الموضع الذي يُزرع فيه القثَّاء .
(٤) انظر السير : (سنان) ٢١/ ١٨٢ـ ١٩٠ ، وانظر النزهة : ٣/١٦٠٨ .
(٥) انظر السير : (سنان) ٢١/ ١٨٢ـ ١٩٠ ، وانظر النزهة : ١/١٦٠٩ .
(٦) انظر السير : (سنان) ٢١/ ١٨٢ـ ١٩٠ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٠٩ .
(٧) انظر السير : (سنان) ٢١/ ١٨٢ـ ١٩٠ ، وانظر النزهة : ٣/١٦٠٩ .

وكتب سنانُ إلىٰ صلاح الدين[1] :

يـا للـرجـالِ لأمـرٍ هـالَ مَقْطَعُـهُ ... مـا مـرَّ قـطُّ علـىٰ سَمعـي تـوقُّعُـهُ
فـإذا الـذي بقـراعِ السَّيـفِ هَـدَّدنـا ... لا قامَ مَصْرعُ جَنْبي حين تَصْرَعُهُ
قـام الحَمـامُ إلـى البـازي يُهـدِّدُه ... استيقَظَـتْ لأُسـودِ البَـرِّ أضْبُعُـهُ

وقفتُ علىٰ تفصيلِ كتابكم وجمله ، وعلمنا ما هدَّدنا به من قوله وعمله ، فيا لله العجبُ من ذبابة تطِنُّ في أُذُنِ فيلٍ ، وبَعوضَةٍ تَعُضُّ في التماثيلِ ، ولقد قالها مِنْ قبلِك قومٌ ، فدمَّرْنا عليهم ، وما كان لهم من ناصرين أَلِلْحَقِّ تدحضون ، وللباطلِ تَنْصرون ؟! ، وسَيَعْلَمُ الذينَ ظَلَموا أيَّ مُنْقَلَبٍ يَنقَلبون لئن صَدَرَ قولُك في قطع رأسي ، وقلعك لقلاعي من الجبال الرواسي ، فتلك أمانيٌّ كاذبة ، وخيالاتٌ غير صائبة ، فإنَّ الجواهرَ لا تزولُ بالأعراض ، كما أنَّ الأرواحَ لا تَضْمَحلُّ بالأمراض ، وإنْ عُدنا إلى الظَّاهرِ ، وعَدَلْنا عن الباطن ، فلنا في رسول الله أسْوَةٌ حَسَنَة : « ما أُوذِيَ نَبيٌّ ما أُوذِيتُ »[2] ، وقد علمتَ ما جرىٰ علىٰ عِترَته وشيعَته ، فالحالُ ما حالَ ، والأمرُ ما زالَ ، وقد علمتُم ظاهِرَ حالِنا ، وكَيفيَّةَ رِجالِنا ، وما يتمَنَّونَه من الفَوات ، ويتَقَرَّبونَ به من حِياضِ الموتِ ، وفي المَثَلِ ، أوَ للبطِّ تُهَدِّدُ بالشَّطِّ ؟ ، فهَيِّء للبَلايا أسْباباً ، وتدَرَّع للرَزايا جِلْباباً ، فلأظْهَرَنَّ عليكَ منك ، وتَكونُ كالباحثِ عن حَتْفِهِ بظلفِه ، وما ذلك على الله بعزيز ، فكُنْ لأمرِنا بالمِرْصادِ ، واقْرأْ أوَّلَ « النَحْلِ »[3] وآخرَ « ص »[4] .

فدخلَ السُّلطانُ في مَرْضاة سنان ، مات سنان في سنة تسع وثمانين وخمس مئة[5] .

---

(١) انظر السير : (سنان) ٢١/ ١٨٢ـ ١٩٠ ، وانظر النزهة : ٤/١٦٠٩

(٢) رُوِيَ بأسانيد ضعيفة من حديث أَنَس وبُريدَة ، وجابر ، انظر « الجامع الصغير » وشرحه ٥/ ٤٣٠ـ ٤٣١ .

(٣) ﴿ أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ ﴾ .

(٤) ﴿ وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعۡدَ حِينِۭ ﴾ .

(٥) انظر السير : (سنان) ٢١/ ١٨٢ـ ١٩٠ ، وانظر النزهة : ٥/١٦٠٩ .

٤ـ مُحاولَة قَتلهم الأُمَراء والخُلَفاء والوُزَراء وكلُّ مَنْ فيه خَيرٌ للإسْلام :

جاء في ترجمة المُستعلي بالله العُبَيْدي ، قال الذهبيُّ : وفي دولته كَثُرَت الباطنيَّة الملاحدَة الذين هم الإسماعيليَّة ، وأخَذوا القُفُول[١] ، وتَمَلَّكوا قلعة أصْبَهان ، وفَتكوا بعدد كثير من الكبار والعلماء ، وشَرعوا في شُغل السكِّين ، وجَرت لهم خُطوب وعَجائب .

وفي سنة خمس وتسعين وأربع مئة مات المُسْتَعلي وأقاموا وَلَدَه الآمر بأحكام الله منصوراً ، وله خمسُ سنين ، وأَزِمَّةُ المُلك إلى الأفضَل أمير الجيوش ، ويُقالُ : إنَّه سُمَّ وقُتلَ سِرّاً[٢] .

وجاء في ترجمة « نظام الملك » ، قال الذهبيُّ : كان مَولدُه في سنة ثمان وأربع مئة ، وقُتلَ صائماً في رمضان ، أتاه باطنيٌّ في هيئة صُوفيٍّ يُناوله قِصّة ، فأخذها منه ، فضربه بالسِكِّين في فؤادِه ، فتَلِفَ ، وقَتلوا قاتلَه ، وذلك سنة خمس وثمانين وأربع مئة ، بقرب نهاوَند ، وكان آخرُ قولِه : لا تَقتلوا قاتلي ، قد عَفوتُ ، لا إلَـهَ إلاَّ الله .

قال ابنُ خلِّكان : قد دَخلَ نظامُ الملك على المُقْتَدي بالله فأجلَسَه وقال له : يا حَسَنُ ، رَضيَ اللهُ عَنكَ ، كَرِضا أمير المؤمنين عنك .

وكان شافعيّاً أشْعَريّاً .

وقيلَ : إنْ قَتْلَه كان بتدبير من السُّلطان ، فلم يُمْهَلْ بعدَه إلاَّ نَحو شهر[٣] .

والتقى السلطانُ محمدُ بنُ مَلكْشاه وأخوه بَرْكْيا رُوق مرات ، وغَلَت الأقطارُ بالباطنية ، وطاغوتهم الحسن بن الصَّبَّاح المَرْوزيّ الكاتب ، كان داعيةً لبني عُبَيد ، وتعَانَوْا شُغْلَ السكين ، وقَتلوا غِيلَةً عدةً من العلماء والأمراء وأخذوا القِلاعَ ،

---

(١) جمع قافلة .

(٢) انظر السير : (المُسْتَعْلي بالله) ١٥/ ١٩٦ـ١٩٧ ، وانظر النزهة : ٣/١٢١٣ .

(٣) انظر السير : (نِظامُ المُلك) ١٩/ ٩٤ـ٩٦ ، وانظر النزهة : ٥/١٤٦٤ .

وحاربوا ، وقَطعوا الطرقَ ، وظَهروا أيضاً بالشام ، والتَفَّ عليهم كلُّ شَيطان ومارق ، وكلُّ ماكرٍ ومُتَحَيِّل(١) .

وصارت الأمراء يلازمون لبس الدروع تحت الثياب خوفاً من فَتك هـٰؤلاء المَلاحِدَة، ورَكب السلطانُ بَرْكْيا رُوق في تطلُّبهم ، ودَوَّخَهم ، حتىٰ قتلَ جماعةً برآء ، سعىٰ بهم الأعداء ، ودخلَ في ذلك أهلُ عانة ، واتُّهم إلْكيا الهرَّاسي بأنَّه منهم ، وحاشاه ، فأمر السلطانُ محمدُ ابن مَلكْشاه بأن يُؤخَذ حتىٰ شَهدوا له بالخَير ، فأُطلِق(٢) .

وفي سنة خمس وتسعين وأربع مئة كانت حروبٌ بين الأخَوَين بَرْكْيا رُوق ومحمد ، وبلاءٌ وحصار ، ونازَلت الفِرَنجُ طَرَابُلْسَ ، فسارَ للكَشف عنها جُندُ دمشقَ وحمصَ ، فانكسَروا ، ثم التقى العسكرُ ، وبغدوين ، فهزَموه وقلَّ مَنْ نَجا من أبطاله ، وظَفِرَ ثلاثةٌ من الباطنيَّة علىٰ جَناح الدولة صاحب حمص ، فقتلوه في الجامع ، فنازَلتها الفِرَنجُ ، فصولحوا علىٰ مال ، وتسلَّمها شَمسُ المُلوك ، وقَتلت الباطنيَّةُ الأعزَّ ، وزيرَ بَرْكْيا رُوق(٣) .

وفي أوّل سنة سبع وتسعين وأربع مئة وثبَ باطنيٌّ بجامع دمشقَ علىٰ صاحب المُوصل ، مَودود بن ألتونتكين ، فقتله ، وأُحرِقَ الباطنيُّ(٤) .

وقد وقفَ ليَحْيىٰ بنِ الملك تميم بن المُعزِّ بنِ باديس الحِمْيري ثلاثةُ غُرباء ، وزَعموا أنهم يعملون في الكيمياء فأحضَرَهم ليتفرَّج وأخلاهم ، وعنده قائدُ عسْكره ، إبراهيمُ ، والشريفُ أبو الحسن ، فسلَّ أحدُهم سكيناً ، وضرب الملك ، فما صنع شيئاً ، ورَفَسَه الملكُ دحرجه ، ودخل مجلساً وأغلقَه ، وقتلَ الآخرُ الشريفَ ، وشدَّ إبراهيمُ بسيفه عليهم ، ودخل المماليكُ ، وقتلوا الثلاثة ، وكانوا باطنيَّة أظنُّ الآمرَ العُبَيْديَ ندبَهم لذلك(٥) .

---

(١) انظر السير : (المُسْتظهرُ بالله) ١٩/ ٣٩٦ـ ٤١٢ ، وانظر النزهة : ١/١٤٩١ .
(٢) انظر السير : (المُسْتظهرُ بالله) ١٩/ ٣٩٦ـ ٤١٢ ، وانظر النزهة : ١/١٤٩٢ .
(٣) انظر السير : (المُسْتظهرُ بالله) ١٩/ ٣٩٦ـ ٤١٢ ، وانظر النزهة : ٢/١٤٩٢ .
(٤) انظر السير : (المُسْتظهرُ بالله) ١٩/ ٣٩٦ـ ٤١٢ ، وانظر النزهة : ٦/١٤٩٣ .
(٥) انظر السير : (صاحبُ إفريقية) ١٩/ ٤١٢ـ ٤١٤ ، وانظر النزهة : ٢/١٤٩٤ .

وجاء في ترجمة السُّمَيرميِّ ، قال الذهبيُّ : هو الوزيرُ الكبير ، أبو طالب عليُّ بنُ أحمدَ بنِ عليِّ السُّمَيْرميِّ ، وزيرُ السلطان محمد السلجوقي ، صَدرٌ مُعظَّم ، كبيرُ الشأن ، شَديد الوَطأة ، ذو عَسْف وظلم ، وسوء سيرة ، وقف مدرسةً بأصْبَهان ، وعملَ بها خزانة كتب نفيسة ، وكان يقول : قد استحييت من كثرة الظلم والتعدي ، ولمَّا عزم على السفر ، أخذ الطالع ، وركب في موكب عظيم ، وبين يديه عِدَّة بالسيوف والحراب والدبابيس ، قال ابنُ النجار : فمرَّ بمَضيق ، وتقدَّمه الكلُّ وبقي منفرداً فوثب عليه باطنيٌّ من دكة ، فضربه بسكين ، فوقعت في البغلة وهرب ، فتَبعَه كلُّ الأعْوان ، فوَثبَ عليه آخرُ فضربه في خاصرته وجذَبه رماه عن البَغلة إلى الأرض وجَرحَه في أماكن ، فرد الأعوان ، فوثب اثنان فحملا ، هما والقاتل عليهم ، فانهزم الجمع ، وبقي الوزيرُ ، فكَرَّ قاتلُه ، وجَرَّه ، والوزيرُ يستعطفُه ويتضرَّعُ له ، فما أقلَعَ حتىٰ ذَبَحَه وهو يُكبِّرُ ويَصيح : أنا مسلمٌ موحِّدٌ فقُتلَ هو والثلاثةُ ، وحُملَ الوزيرُ إلىٰ دار أخيه النَّصير ، ثم دُفنَ ، وذلك سنة ستَّ عشرة وخمس مئة[1] .

وقِيل : إنَّ الذي قتله عبدٌ كان للمؤيد الطُّغرائي وزير السلطان مسعود ، فإن السُّميرميَّ قتل أستاذه ظُلماً ، ونَبزَه بأنَّه فاسد الاعتقاد ، وكلُّ قاتلٍ مَقتول[2] .

قال ابنُ ناصر خرجَ المسترشدُ بالله سنة تسع وعشرين وخمس مئة إلىٰ هَمَذان للإصلاح بين السلاطين ، واختلاف الجند ، وكان معه جمعٌ كثير من الأتراك ، فغَدَرَ به أكثرُهم ، ولَحِقوا بمَسعود بن محمد ابن مَلِكْشاه ، ثم التقى الجَمعان ، فانهزمَ جَمعُ المُسترشِد بالله وقُبضَ عليه ، وعلىٰ خواصِّه ، وحُملوا إلىٰ قلعةٍ هناك ، فحُبسوا بها ، وبقي الخليفةُ مع السلطان مسعود ، وحُملَ معهم إلىٰ مَراغة ، ثم إنَّ الباطنيَّة ألَّفوا عليه جماعة من المَلاحِدَة ، وكان قد أُنزلَ ناحيةً من المعسكر ، فدخلوا عليه ، ففَتكوا به ، وبجماعةٍ كانوا علىٰ باب خَرَكَاهِه[3] ، وقُتلُوا .

وجاء الخبرُ إلىٰ بَغداد ، فكَثُرَ النَّوحُ والبكاءُ بها ، وعُملَ العَزاءُ .

---

(١) انظر السير : (السُّمَيرميّ) ١٩/ ٤٣٢ـ ٤٣٣ ، وانظر النزهة : ٣/١٤٩٥ .

(٢) انظر السير : (السُّمَيرميّ) ١٩/ ٤٣٢ـ ٤٣٣ ، وانظر النزهة : ١/١٤٩٦ .

(٣) الخركاء بالفارسية : الخيمة الكبيرة .

قال الذهبيُّ : بُويعَ عندَ موتِ أبيه سنة اثنتي عشرة وخمس مئة ، فكانت دولتُه سبع عشرةَ سنة وسبعة أشهر ، وعاش ستّاً وأربعين سنة فقيل : إنَّ الذين فَتكوا به جهَّزَهم مَسعودٌ ، وكانوا سبعة عشر نفساً فأُمْسِكوا وقتلهم السلطانُ ، وأظهرَ الحُزنَ والجَزَع .

وقيل : بعث السلطانُ سَنْجرُ بنُ مِلِكْشاه إلى ابن أخيه مسعود يُوَبِّخُه على انتهاك حُرمة المُسترشِد ، ويأمُرُه بردِّه إلىٰ مَقرِّ عِزِّه ، وأن يمشي بين يديه بالغاشية ويخضع ، ففعل ذلك ظاهراً ، وعملَ علىٰ قتلِه[1] .

وجاء في ترجمة « الراشد بالله » ، قال الذهبيُّ : كان حسنَ السيرة ، مُؤثراً للعَدلِ ، فَصيحاً عذبَ العبارة ، أديباً ، شاعراً ، جَواداً ، لم تَطُلْ أيامُه حتىٰ خرجَ إلى الموصل ، ثم إلىٰ أذربيجان ، وعاد إلىٰ أصبهان ، فأقام علىٰ بابها مع السلطان داود ، محاصراً لها ، فقتله المَلاحدةُ هناك ، وكان بعد خروجه من بغداد مجيءُ السلطان مسعود بن محمد ابن مِلَكْشاه فاجتمع بالأعيان ، وخَلعوا الراشد ، وبايعوا عمَّه المقتفي[2] .

جاء في ترجمة « تاج الملوك » ، قال الذهبيُّ : ولمَّا علم ابنُ صبّاح صاحبُ الألَموتَ بما جرىٰ علىٰ أشياعه الإسماعيلية بدمشقَ ، تنمَّرَ ، وندبَ طائفة لقتل تاج الملوك ، فعيَّنَ اثنين في زيِّ الجُندِ ، ثم قدما فاجتمعا بناسٍ منهم أجنادٌ ، وتحيَّلا علىٰ أن صارا من السَّلحدانة ، وضمنوهما ، ثم وَثَبا عليه فقتلاه[3] .

قال أبو يعلى القلانسيّ : وثبوا عليه في خامس جمادى الآخرة سنة خمس وعشرين ، فضربَه الواحد بالسيف قصد رأسه ، فجرحه في رقبته جُرحاً سليماً ، وضربه الأخر بسكين في خاصرته ، فمرَّت بين الجلد واللحم .

قال الذهبيُّ : كان تعلَّل من ذلك ، ولكنه تُوفِّي في رجب سنة ستٍّ وعشرين وخمس مئة[4] .

---

(١) انظر السير : (المُستَرشِد بالله) ١٩/ ٥٦١ـ٥٦٨ ، وانظر النزهة : ١/١٥١٥ .
(٢) انظر السير : (الرَّاشِدُ بالله) ١٩/٥٦٨ـ٥٧٣ ، وانظر النزهة : ٣/١٥١٦ .
(٣) انظر السير : (تاج الملوك) ١٩/٥٧٣ـ٥٧٥ ، وانظر النزهة : ٣/١٥١٧ .
(٤) انظر السير : (تاج الملوك) ١٩/٥٧٣ـ٥٧٥ ، وانظر النزهة : ٤/١٥١٧ .

وجاء في ترجمة « عَضُد الدين » ، قال الذهبيُّ : وقد عُزِلَ ثم أُعِيدَ ، وتمكَّن ثم تهَيَّأ للحَجِّ ، وخرجَ في رابع ذي القعدة سنة ثلاث وسبعين ، وكان قد هَيَّأ ستَّ مئة جَمَل ، سَبَّل منها مئة ، صاح الباطنيُّ : مظلومٌ! مظلومٌ! وتقرَّبَ ، فزجَرَه الغِلْمانُ ، فقال : دَعُوه ، فتقدَّمَ إليه ، فضربَه بسكين في خاصِرَته ، فصاحَ الوَزيرُ قَتلَني ، وسَقطَ ، وانكشَفَ رأسُه ، فغَطَّىٰ رأسَه بكُمِّه ، وضُربَ الباطنيُّ بسيفٍ ، فعادَ وضربَ الوزيرَ ، فهَبَّرُوه بالسُّيوفِ وكان معَه اثنان ، فأُحْرِقُوا ، وحُملَ الوَزيرُ إلىٰ دارٍ ، وجُرِحَ الحاجبُ ، وكان الوزيرُ قد رأىٰ في النومِ أنَّه مُعانِقٌ عُثمانَ رضي الله عنه ، وحَكىٰ عنه ابنُه أنَّه اغتسَلَ قبلَ خُروجه ، وقال : ذا غُسلُ النومِ والإسلام ، فإنِّي مَقتولٌ بلا شَكٍّ ثم ماتَ بعد الظهر ، ومات الحاجبُ ، وقيل : إنَّ الوزيرَ بقيَ يقولُ : اللهُ! اللهُ! كثيراً ، وقال : ادفنوني عند أبي[1] .

وجاء في ترجمة « ابن قائد » ، قال الذهبيُّ : قَدِمَ أَوَانا[2] واعظٌ باطنيٌّ ، فنالَ من الصحابَة ، فحُملَ ابنُ قائدٍ في مِحفَّتِه ، وصاحَ به : يا كلبُ انزِلْ ، ورَجَمَتهُ العامَّةُ ، فهربَ ، وحدَّثَ سِناناً[3] بما تمَّ عليه ، فندَبَ له اثنين فأتَيَاهُ ، وتَعبَّدا معه أشْهُراً ، ثم قَتلاه ، وقَتلا خادِمَه ، وهَربا في البَساتين ، فنكِرَهما فَلاَّحٌ ، فقتَلَهُما ، ثم تُيُقِّنَ أنَّهما اللَّذانِ قَتلا الشيخَ بصفَتِهما ، ثم أُحْرِقا[4] .

٥ـ مُحارَبَةُ المُسلمينَ لهم وقَتلهم :

جاء في ترجمة « السلطان » يَمين الدولة ، قال أبو النَّضرِ القاميُّ : لمَّا قَدمَ التَّاهَرْتيُّ الدَّاعي من مصرَ على السلطان يَدعوهُ سراً إلىٰ مَذهَب الباطنيَّة ، وكان التَّاهَرْتيُّ يركبُ بَغْلاً ، يتلوَّن كل ساعة من كل لون ، ففهم السلطان سرَّ دَعوتهم ، فغَضبَ ، وقتَلَ التَّاهَرْتيَّ الخَبيث ، وأهْدىٰ بَغْلَه إلى القاضي أبي منصور محمد بن محمد الأزْدي ،

---

(١) انظر السير : (عَضُد الدولة) ٢١/ ٧٥ـ ٧٧ ، وانظر النزهة : ١/١٦٠٠ .

(٢) قرية من نواحي دجيل شمالي بغداد مما يلي الموصل .

(٣) يعني راشد الدين سنان بن سلمان كبير الإسماعيلية .

(٤) انظر السير : (ابنُ قائد) ٢١/ ١٩٥ ، وانظر النزهة : ٣/١٦١١ .

شَيخ هراة ، وقال : كان يَركَبُه رأسُ المُلْحِدين ، فليَرْكبْه رأسُ المُوَحدِّين[١] .

وجاء في ترجمة « رضوان » ، صاحب حَلَب ، قال الذهبيُّ : كان ذَميم السيرة ، قَرَّبَ الباطنية ، وعمل لهم دارَ دعوة بحلب ، وكَثروا ، وقَتلَ أخويه أبا طالب وبهراماً ، ثم هلك في سنة سبع وخمس مئة ، فتملَّك بعده أخوهُ الأخْرسُ إلب آرسلان ، وله ستَّ عشرة سنة ، فقَتلَ أخَوين له أيضاً ، وقتلَ رأسَ الباطنية أبا طاهر الصائغ ، وجماعةً من أعيانهم ، وهربَ آخرون ، ، فقتلَ الأُمراءُ الأخْرسَ بعدَ سنة ، وملَّكوا أخاه سلطان شاه[٢] .

وجاء في ترجمة « المستظهر بالله » ، قال ابنُ الأثير : وفي سنة أربعمائة وأربع وتسعين ، أمر السلطانُ بَرْكْيا رُوق بقتل الباطنيّة ، وهُم الإسماعيلية ، وهم الذين كانوا قَديماً يُسمَّونَ القَرامِطَة[٣] .

وقال أيضاً ، وتجرَّدَ بأصبهان للانتقام منهم الخُجَنْديُّ[٤] ، وجمع الجمَّ الغفيرَ بالأسلحة ، أمرَ بحفر أخاديدَ أُوقِدَتْ وفيها النيران ، وجعلوا يأتون بهم ويُلقُونهم في النَّار إلىٰ أنْ قَتلوا منهم خَلْقاً كثيراً[٥] .

وصارت الأمراءُ يلازمون لُبْسَ الدُّروع تحتَ الثِّياب خَوفاً من فَتك هـٰؤلاء المَلاحِدَة ، وركب السلطان بَرْكْيا رُوق في تطلُّبِهم ، ودَوَّخَهم ، حتىٰ قتل جماعةً برآء ، سعىٰ بهم الأعداء ، ودخل في ذلك أهلُ عانة ، واتُّهم إلْكيا الهرَّاسي بأنه منهم ، وحاشاه ، فأمر السلطان محمدُ ابن ملكشاه بأن يُؤخَذ حتىٰ شَهدوا له بالخَير ، فأُطْلِق[٦] .

وقال الذهبيُّ في تَرْجَمَة طَغْتِكِين صاحِبِ دِمَشْقَ الأتابك : قد كان طَغْتِكِينُ سَيْفاً

---

(١) انظر السير : (السُّلطان) ١٧/ ٤٨٣ـ ٤٩٥ ، وانظر النزهة : ٢/١٣٥٢ .

(٢) انظر السير : (رضوان) ١٩/ ٣١٥ـ ٣١٦ ، وانظر النزهة : ٢/١٤٧٩ .

(٣) انظر السير : (المستظهر بالله) ١٩/ ٣٩٦ـ ٤١٢ ، وانظر النزهة : ٤/١٤٩١ .

(٤) هو أبو القاسم مسعود بن محمد الخُجَنْدي الفَقيه الشَّافعيّ .

(٥) انظر السير : (المستظهر بالله) ١٩/ ٣٩٦ـ ٤١٢ ، وانظر النزهة : ٥/١٤٩١ .

(٦) انظر السير : (المستظهر بالله) ١٩/ ٣٩٦ـ ٤١٢ ، وانظر النزهة : ١/١٤٩٢ .

مَسْلُولاً على الفِرَنْج ، ولكن له خَرْمَةٌ ، كان قد اسْتَفْحَلَ البَلاءُ بدَاعِي الإسْماعيليّة بَهْرام بالشَّام ، وكان يَطُوفُ المَدائِنَ والقِلاعَ مُتَخفِّياً ، ويُغْوي الأغْتامَ والشُّطَّارَ ، ويَنْقادُ له الجُهَّالُ إلىٰ أنْ ظَهَرَ بدِمَشْقَ بتَقْريرٍ قَرَّرَهُ صاحبُ ماردين إيلغازي مع طَغْتِكِين ، فأخَذَ يُكْرِمُهُ ، ويُبالِغُ ، اتِّقاءً لِشَرِّه ، فتَبعَهُ الغَوْغاءُ ، والسُّفَهاءُ والفَلاَّحُونَ ، وكَثُرُوا ، ووَافَقَهُ الوَزيرُ طاهرُ المزدقانيُّ ، وبَثَّ إليه سِرَّه ، ثم الْتَمَسَ من المَلِكِ طَغْتِكِين قَلعَةً يَحْتَمي بها فأعْطَاهُ بانياسَ في سَنَةِ عِشْرينَ وخَمسِ مِئَة ، فعَظُمَ الخَطْبُ ، وتَوَجَّعَ أهْلُ الخَير ، وتَسَتَّروا مِنْ سَبِّهم ، وكانوا قد قَتَلُوا عِدَّة من الكِبار ، فما قَصَّرَ تاجُ المُلوكِ فقَتَلَ الوَزيرَ كَمالَ الدّين طاهِرَ ابنَ سَعد المَذْكور سَنَةَ ثلاثٍ وعِشْرينَ بالقَلْعَة ، ونَصبَ رَأسَه ، ورَكِبَ جُنْدَه ، فوَضَعُوا السَّيفَ بدِمَشْقَ في المَلاحِدَة الإسْماعيليّة ، فسبّكوا منهم في الحالِ نَحْواً من سِتّة آلافِ نَفْسٍ في الطُّرُقات ، وكانوا قد تَظاهَروا ، وتَفاقَمَ أمرُهُم ، ورَاحَ في هٰذه الكائِنَةِ الصَّالحُ بالطَّالِحِ[1] .

وأمَّا بَهْرام ، فتمرَّدَ وعَتا ، وقتلَ شابّاً من أهل وادي التيم اسمه برْق ، فقام عشيرتُه ، وتحالفوا علىٰ أخذ الثأر ، فحاربَهم بَهْرامُ فكبسوه ، وذبحوه إلى اللَّعنَة[2] .

وجاء في ترجمة « تاج الملوك » ، قال الذهبيُّ : تملّكَ بعدَ أبيه سنة اثنتين وعشرين ، وكان ذا حلمٍ وكرمٍ ، له أثر كبيرٌ في قتلِ الإسماعيلية ، وكان مَولدُه في سنة ثمان وسبعين وأربع مئة[3] .

٦ـ مَنْ قرَّبهم من أُمَراء المسلمين :

وجاء في ترجمة « رضوان » ، صاحب حَلَب ، قال الذهبيُّ : كان ذَميم السيرة ، قَرَّبَ الباطنية ، وعمل لهم دارَ دعوة بحلب ، وكَثروا ، وقَتلَ أخويه أبا طالب وبهراماً ، ثم هلك في سنة سبع وخمس مئة ، فتملَّك بعده أخوهُ الأخْرسُ إلب آرسلان ، وله ستّ

---

(١) انظر السير : (طُغْتِكين) ١٩/٥١٩ـ ٥٢١ ، وانظر النزهة : ٣/١٥٠٥ .
(٢) انظر السير : (طُغْتِكين) ١٩/٥١٩ـ ٥٢١ ، وانظر النزهة : ١/١٥٠٦ .
(٣) انظر السير : (تاج الملوك) ١٩/٥٧٣ـ ٥٧٥ ، وانظر النزهة : ٢/١٥١٧ .

عشرة سنة ، فقتَلَ أخَوين له أيضاً ، وقتلَ رأسَ الباطنية أبا طاهر الصائغ ، وجماعةً من أعيانهم ، وهربَ آخرون ، ، فقتلَ الأُمراءُ الأَخْرسَ بعدَ سنة ، وملَّكوا أخاه سلطان شاه[1] .

وقال الذهبيُّ في تَرْجَمَة طَغْتِكِين صاحِبِ دِمَشْقَ الأتابك : قد كان طَغْتِكِينُ سَيْفاً مَسْلُولاً على الفِرَنْج ، ولكن له خَرْمَةٌ ، كان قد اسْتَفْحَلَ البَلاءُ بدَاعِي الإسْماعيليَّة بَهْرام بالشَّام ، وكان يَطُوفُ المَدائِنَ والقِلاعَ مُتَخَفِّياً ، ويُغْوي الأغْتامَ والشُّطَّارَ ، ويَنْقادُ له الجُهَّالُ إلىٰ أنْ ظَهَرَ بِدِمَشْقَ بتَقْريرٍ قَرَّرَهُ صاحبُ ماردين إيلغازي مع طَغْتِكِين ، فأَخَذَ يُكْرِمُهُ ، ويُبالِغُ ، اتِّقاءً لِشَرِّه ، فتَبِعَهُ الغَوْغاءُ ، والسُّفَهاءُ والفَلاَّحُونَ ، وكَثُرُوا ، ووَافَقَهُ الوَزيرُ طاهرُ ألمزدقانيُّ ، وبَثَّ إليه سِرَّه ، ثم الْتَمَسَ من المَلِكِ طَغْتِكِين قَلعَةً يَحْتَمي بها فأَعْطَاهُ بانياسَ في سَنةِ عِشْرينَ وخَمسِ مِئَة ، فعَظُمَ الخَطْبُ ، وتَوَجَّعَ أهْلُ الخَير ، وتَسَتَّروا مِنْ سَبِّهم ، وكانوا قد قَتلُوا عِدَّة من الكِبار ، فما قَصَّرَ تاجُ المُلوكِ فقَتَلَ الوَزيرَ كَمالَ الدّين طاهِرَ ابنَ سَعد المَذْكور سَنةَ ثلاثٍ وعِشْرينَ بالقَلْعَة ، ونَصبَ رَأسَه ، ورَكِبَ جُندَه ، فوَضَعُوا السَّيفَ بدِمَشْقَ في المَلاحِدَة الإسْماعيليّة ، فسبّكوا منهم في الحالِ نَحْواً من سِتّة آلافِ نَفْسٍ في الطُّرُقات ، وكانوا قد تَظاهَروا ، وتَفاقَمَ أمرُهُم ، ورَاحَ في هـٰذه الكائنَةِ الصَّالحُ بالطَّالِحِ[2] .

٧ـ عَلاقَتُهم بالعُبَيْدِيِّين الفاطِميِّين :

قال الذهبيُّ في ترجمة صاحب إفريقية ، الملك أبو طاهر يَحْيى ابن تميم : وقد وقفَ ليَحْيىٰ بنِ الملك تميم بن المُعزِّ بنِ باديس الحِمْيري ثلاثةُ غُرباء ، وزَعموا أنهم يعملون في الكيمياء فأحضَرَهم ليتفرَّج وأخلاهم ، وعنده قائدُ عسْكره ، إبراهيمُ ، والشريفُ أبو الحسن ، فسلَّ أحدُهم سكيناً ، وضرب الملك ، فما صنع شيئاً ، ورَفَسَه الملكُ دحرجه ، ودخل مجلساً وأغلقَه ، وقتلَ الآخرُ الشريفَ ، وشدَّ إبراهيمُ بسيفه

---

(١) انظر السير : (رضوان) ١٩/٣١٥ـ٣١٦ ، وانظر النزهة : ٢/١٤٧٩ .

(٢) انظر السير : (طُغْتِكين) ١٩/٥١٩ـ٥٢١ ، وانظر النزهة : ٣/١٥٠٥ .

عليهم ، ودخل المماليكُ ، وقتلوا الثلاثة ، وكانوا باطنيَّة أظنُّ الآمرَ العُبَيْديَ ندبَهم لذلك[1] .

جاء في ترجمة « سنان » ، قال الذهبيُّ : هو راشدُ الدين ، كبيرُ الإسماعيلية وطاغوتهم ، أبو الحسن سنانُ بنُ سَلْمان بن محمد البَصْريُّ الباطنيُّ ، صاحبُ الدَّعْوَة النِّزاريَّة[2] .

وقال الذهبيُّ : الدعوةُ النِّزاريَّة ، نِسْبَةً إلىٰ نِزار بن خليفة العُبَيدية المُسْتنصِر ، صيَّرَهُ أبوهُ ولِيَّ عَهْدِه ، وبثَّ له الدُّعاة ، فمنهم صَبَّاح جدُّ أصحاب الألَمُوت ، أحدُ شياطين الإنس ، ذو سَمتٍ وذلقٍ ، وتَخَشُّع ، وتَنَمُّش ، وله أتباعٌ ، دخلَ الشامَ والسواحل في حدود ثمانين وأربع مئة ، فلم يتمَّ له مرامه ، فسار إلى العجم ، وخاطَبَ الغُتْمَ[3] الصُّمَّ ، فاستجابَ له خلقٌ ، وكَثُروا ، وأظهَروا شُغل السكين والوُثوب على الكبار ، ثم قصدَ قلعةَ الألَموت بقَزْوين ، وهي منيعة بأيدي قوم شُجْعان ، لكنَّم جَهَلَةٌ فُقَراء ، فقال لهم : نحنُ قومٌ عُبَّادٌ مَساكين ، فأقاموا مدَّةً ، فمالوا إليهم ، ثم قال : بِيْعُونا نصفَ قَلعَتكم بسَبعةِ آلاف دينار ، ففعلوا ، فدخلوها ، وكَثروا ، واستولىٰ صبَّاح على القلعة ، ومعه نحو الثلاث مئة ، واشْتُهرَ بأنَّه يُفْسدُ الدين ، ويحلُّ من الإيمان ، فنهد له ملك تلك الناحية ، وحاصر القلعَةَ مع اشتغاله بلعبه وسُكْره ، فقال عليٌّ اليَعْقوبيُّ من خَواص صَبَّاح : أيش يكون لي عليكم إذا قَتلْتُه ؟ قالوا : يكون لك ذُكْرانٌ في تسابيحنا ، قال : رَضيتُ ، فأمرهم بالنزول ليلاً ، وقسَّمَهم أرباعاً في نواحي ذلك الجيش ، ورتَّبَ مع كل فرقة طُبولاً ، وقال : إذا سمعتُم الصَّيْحَةَ ، فاضربوا الطبولَ ، فاختبَطَ الجيشُ ، فانتهَزَ الفُرصَة ، وهجمَ على الملك فقتله ، وقُتلَ ، وهرب العسكرُ فحَوَت الصَّبَّاحيةُ الخيامَ بما حَوت ، واستغنَوا ، وعَظُمَ البلاء بهم ، ودامت الألموتُ مئةً وستينَ عاماً ، فكان سنان من نوَّابهم .

---

(١) انظر السير : (صاحب إفريقية) ١٩/ ٤١٢ـ ٤١٤ ، وانظر النزهة : ٢/١٤٩٤ .

(٢) انظر السير : (سنان) ٢١/ ١٨٢ـ ١٩٠ ، وانظر النزهة : ١/١٦٠٧ .

(٣) الغتم : جمع أغتم ، وهو الذي لا يُفصحُ شيئاً ، وفي « تاريخ الإسلام » : وتكلم مع أهل الجبال والغتم الجهلة من تلك الأراضي .

فأمَّا نِزارٌ ، فإنَّ عَمته عملت عليه[1] وعاهدت الأمراء أن تقيم أخاه صبياً ، فخاف نزار ، فهرب إلى الإسكندرية ، وجَرت له أمور وحروب ، ثم قُتلَ ، وصار صبَّاح يقول : لم يمت ، بل اختفىٰ ، وسيظهر ، ثح أحبلَ جاريةً ، وقال لهم : سَيظهرُ من بَطنِها ، فأذعنوا له ، واغتالوا أمراءَ وعُلماءَ[2] ، وخافَتهُم الملوكُ ، وصانَعوهم بالأموال[3] .

٨ـ عَلاقَتُهم بالصَّليبيِّين :

جاء في ترجمة « طُغْتِكين » ، صاحب دمشق ، قال الذهبيُّ : وسلَّمت المَلاحدةُ بانياس للفرنج وذَلُّوا[4] .

وقيلَ : إنَّ المزدقانيَّ كاتَبَ الفِرَنجَ ليُسلِّم إليهم دمشق ، ويُعطوه صور ، وأنْ يَهجموا البلدَ يوم جمعة ، ووكَّل الملاحدةَ تُغْلق أبواب الجامع على الناس ، فقَتلَه لهٰذا تاجُ المُلوك ، رحمه الله ، وقد التقى الفِرَنْجَ وهزمَهم ، وكانت موقعةً مَشهودةً[5] .

وجاء في ترجمة « شمس الملوك » ، قال الذهبيُّ : استنقذَ بانياس من الفرنج في يومين ، وكانت الإسماعيلية باعوها لهم من سبع سنين ، وسَعَّرَ بلادَهم ، وأوْطانهم ذُلاً ، ثم سار فحاصرَ أخاه ببعْلَبَك ، ونازلَ حماة ، وهي للأتابك زنكي ، وأخذها ثم بدا له ، فكاتب الأتابك زنكي ليسلمَ إليه دمشقَ ، فخافته أُمُّه زُمُرُّدَ والأمراء ، فهيّأت أُمُّه مَنْ قتله ، لأنه تهَدَّدها ـ لمَّا نَصحَتهُ ـ بالقَتل ، وكانت الفِرنجُ تخافُه لمَّا هَزَمهم ، وبيَّتهم ، وشنَّ الغارة علىٰ بلادهم وعثَّرهم .

قال ابن القلانسي : بالغ في الظلم ، وصادر وعذَّبَ ، ولما علم بأنَّ زنكي علىٰ

---

(١) يعني عملت ضده .

(٢) ذكر الذهبيُّ في « تاريخ الإسلام » أن الاغتيال بالسكاكين سُنَّة سنَّها اليعقوبيُّ .

(٣) انظر السير : (سنان) ٢١/١٨٢ـ١٩٠ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٠٧ .

(٤) انظر السير : (طُغْتِكين) ١٩/٥١٩ـ٥٢١ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٠٦ .

(٥) انظر السير : (طُغْتِكين) ١٩/٥١٩ـ٥٢١ ، وانظر النزهة : ٣/١٥٠٦ .

قصد دمشق بعثَ يستحِثُّه ليُعطيه إيّاها لهَذَيان تخيَّله ، ويقول : إنْ لم تجيء سلمتُها إلى الفرنج ، كتب هذا بيده ، فأشفق الناس ، فحمل صفوةَ المُلك دينها علىٰ حسم الداء ، فأهلكَته ، وكَثُرَ الدُّعاءُ لها .

قُتل سنة تسع وعشرين وخمس مئة ، وله ثلاث وعشرون ، وتملَّكَ بعدَه أخوه محمود ، ثم تزوَّجَت أمُّه بصاحب حَلب زنكي[1] .

٩ـ تَهْديدُ صَلاحِ الدِّينِ لهم ورَدُّهم عليه :

جاء في ترجمة « سنان » ، كبير الإسماعيلية ، قال ابنُ العديم : تَمَكَّنَ في الحُصونِ وانْقادُوا له ، وأَخْبَرَني عليُّ بنُ الهَوَّاريّ أنَّ صَلاحَ الدِّين سَيَّرَ رَسُولاً إلىٰ سِنانٍ يَتهدَّدُه ، فقالَ للرسُولِ : سأُرِيكَ الرِّجالَ الذين أَلْقاهُ بهِم ، فأَشَارَ إلىٰ جَماعَةٍ أنْ يَرْمُوا أنْفُسَهم من الحِصْنِ من أعْلاه ، فألْقَوا نُفوسَهم ، فهَلَكُوا[2] .

وكتب سنانُ إلىٰ صلاح الدين[3] :

يـا للـرجـالِ لأمـرٍ هـالَ مَقْطَعُـهُ	مـا مـرَّ قـطُّ علـىٰ سَمعي تـوقُّعُـهُ
فـإذا الـذي بقـراعِ السَّيـفِ هَـدَّدنـا	لا قامَ مَصْرعُ جَنْبي حين تَصْرَعُهُ
قـام الحَمـامُ إلـى البـازي يُهَـدِّدُه	استيقَظَـتْ لأُسـودِ البَـرِّ أَضْبُعُـهُ

وقفتُ علىٰ تفصيلِ كتابكم وجمله ، وعلمنا ما هدَّدنا به من قوله وعمله ، فيا لله العجبُ من ذبابة تطِنُّ في أُذُنِ فيلٍ ، وبَعوضَةٍ تَعُضُّ في التماثيلِ ، ولقد قالها مِنْ قبلِك قومٌ ، فدمَّرْنا عليهم ، وما كان لهم من ناصرين ألِلْحَقِّ تدحضون ، وللباطلِ تَنْصرون ؟! ، وسَيَعْلَمُ الذينَ ظَلَموا أيَّ مُنْقَلَبٍ يَنقَلبون لئن صَدَرَ قولُك في قطع رأسي ، وقلعك لقلاعي من الجبال الرواسي ، فتلك أمانيٌّ كاذبة ، وخيالاتٌ غير صائبة ، فإنَّ الجواهرَ لا تزولُ بالأعراض ، كما أنَّ الأرواحَ لا تَضْمَحلُّ بالأمراض ،

---

(١) انظر السير : (شمسُ الملوك) ١٩/ ٥٧٥ـ٥٧٦ ، وانظر النزهة : ٢/١٥١٨ .
(٢) انظر السير : (سنان) ٢١/ ١٨٢ـ ١٩٠ ، وانظر النزهة : ٢/١٦٠٩ .
(٣) انظر السير : (سنان) ٢١/ ١٨٢ـ ١٩٠ ، وانظر النزهة : ٤/١٦٠٩ .

وإنْ عُدنا إلى الظَّاهرِ ، وعَدَلْنا عن الباطن ، فلنا في رسول الله أسْوَةٌ حَسَنَة : « ما أُوذِيَ نَبِيٌّ ما أُوذِيتُ »[١] ، وقد علمتَ ما جرىٰ علىٰ عِترَته وشِيعَته ، فالحالُ ما حالَ ، والأمرُ ما زالَ ، وقد علمتُم ظاهِرَ حالِنا ، وكَيفيَّةَ رِجالِنا ، وما يتمَنَّونه من الفَوات ، ويتَقَرَّبونَ به من حِياضِ الموتِ ، وفي المَثَلِ ، أوَ للبطِّ تُهَدِّدُ بالشَّطِّ ؟ ، فهَيِّء للبَلايا أسْباباً ، وتدَرَّع للرَزايا جِلْباباً ، فلأظْهَرَنَّ عليكَ منك ، وتَكونُ كالباحث عن حَتْفِهِ بظلفِه ، وما ذلك على الله بعَزيز ، فكُنْ لأمرِنا بالمِرْصادِ ، واقْرأْ أوّلَ « النَحْلِ »[٢] وآخرَ « ص »[٣] .

فدخلَ السُّلطانُ في مَرْضاة سنان ، مات سنان في سنة تسع وثمانين وخمس مئة[٤] .

١٠ـ مُحاوَلتُهم قَتلَ صَلاحِ الدِّين :

وفي سَنَةِ إحْدَىٰ وسَبْعين وثَبَتْ عليه البَاطِنيَّةُ فجَرَحُوه .

وفي سَنَةِ ثلاثٍ كَسَرَتْه الفِرنْجُ على الرَّمْلَةِ ، وفَرَّ في جَماعَةٍ ونجا ، وفي سَنَةِ خَمْسٍ الْتَقَاهُم وكَسَرَهُم .

وفي سَنَةِ ثمانٍ عَدَّى الفُرَاتَ ، وأَخَذَ حَرَّانَ ، وسَرُوجَ ، والرَّقَّةَ ، والرُّهَا ، وسِنْجَار ، والبِيْرَةَ ، وآمِدَ ، ونَصِيْبِينَ ، وحَاصَرَ المَوْصِلَ ، ثمَّ تَمَلَّكَ حَلَبَ ، وعَوَّضَ عنها صاحِبَها زِنْكِي بسِنْجَار ، ثم إنه حاصر المَوْصِلَ ثانياً وثالثاً ، ثمَّ صَالَحَه صاحِبُها عِزُّ الدِّين مَسْعُود[٥] .

وقال ابنُ واصِل في حِصَارِ عزاز : كانت خَيْمَةٌ كان السُّلطانُ يَحْضُرُ فيها ، ويَحُضُّ

---

(١) رُوِيَ بأسانيد ضعيفة من حديث أَنَس وبُرِيدَة ، وجابر ، انظر « الجامع الصغير » وشرحه ٥/ ٤٣٠ـ ٤٣١ .

(٢) ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ .

(٣) ﴿وَلَتَعۡلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعۡدَ حِينِۭ﴾ .

(٤) انظر السير : (سنان) ٢١/ ١٨٢ـ ١٩٠ ، وانظر النزهة : ٥/١٦٠٩ .

(٥) انظر السير : (صلاح الدين وبنوه) ٢١/ ٢٧٨ـ ٢٩١ ، وانظر النزهة : ٣/١٦١٩ .

الرِّجَالَ ، فحَضَرَ باطِنيَّةٌ في زِيِّ الأجْنَادِ ، فقفَزَ عليه واحدٌ ضَرَبَه بسِكِّينٍ لَوْلا المِغْفَرُ الزَّرَدُ[1] الذي تحتَ القَلَنْسُوة لقتَلَه ، فأمْسَكَ السُّلطَانُ يَدَ البَاطِنيِّ بيَدَيْه ، فبقِيَ يَضْرِبُ في عُنُقِ السُّلطَانِ ضَرْباً ضَعِيفاً ، والزَّرَدُ تَمْنَع ، وبادَرَ الأميرُ بازكوج ، فأمْسَكَ السِّكِّينَ ، فجَرَحَتْه ، وما سَيَّبَها الباطِنيُّ حتّىٰ بَضَّعُوه ، ووَثَبَ آخَرُ ، فوَثَبَ عليه ابنُ منكلان ، فجَرَحَه الباطِنيُّ في جَنْبه ، فمَاتَ ، وقُتِلَ الباطِنيُّ ، وقَفَزَ ثالثٌ ، فأمْسَكه الأميرُ عليُّ بنُ أبي الفَوَارِس ، فضَمَّه تحتَ إبِطِه ، فطَعَنَهُ صاحِبُ حمص ، فقتَلَهُ ، ورَكَبَ السُّلطانُ إلىٰ مُخَيَّمِه ، ودَمُه يَسِيلُ علىٰ خَدِّه ، واحْتَجَبَ في بَيْتِ خَشَبٍ ، وعَرَضَ جُنْدَهُ ، فمَنْ أَنْكَرَهُ ، أَبْعَدَهُ[2] .

* * *

---

(١) زرد يُنسَجُ علىٰ قدر الرأس ، يُلبَس تحت القَلَنسوة .

(٢) انظر السير : (صلاح الدين وبنوه) ٢١/ ٢٧٨ـ ٢٩١ ، وانظر النزهة : ٤/ ١٦٢٠ .

ثانياً : الحلوليّة الاتّحاديّة

أُناسٌ اتُّهِموا بالقول بالحلول والاتّحاد :

(أ) ابنُ الفارِض :

هو شاعرُ الوقت شرفُ الدين عُمرُ بنُ عليّ بن مُرْشد الحَمَويُّ ، ثم البَصريُّ ، صاحب الاتحاد الذي قد ملأ به التّائيّة .

تُوفِّيَ سنةَ اثنتين وثلاثين ، وله ستٌّ وخمسون سنة[1] .

حدَّث عنه المُنْذِريُّ ، فإن لم يكن في تلك القَصيدة صَريحُ الاتحاد الذي لا حيلة في وجوده ، فما في العالم زَنْدَقةٌ ولا ضَلالٌ ، اللهُمَّ ألهِمنا التقوىٰ وأعِذْنا من الهَوىٰ ، فيا أئمة الدين ألا تَغضَبون لله ؟! فلا حَولَ ولا قُوَّةَ إلاَّ بالله .

وشِعْرُه في الذروَة ، لا يُلْحَق شَأْوُه[2] .

(ب) ابنُ العَربيِّ الحاتميّ :

قال الذهبيُّ في ترجمته : سكنَ الرُّومَ مدّة ، وكان ذكيّاً كثير العلم ، كتبَ الإنشاءَ لبعض الأمراء بالمغرب ، ثم تَزهَّدَ وتَفرَّدَ ، وتَعبَّدَ ، وتَوَحَّدَ ، وسافر وتَجرَّد ، وأتْهَم وأَنْجَد ، وعملَ الخَلوات ، وعلَّقَ شيئاً كثيراً في تصوُّف أهل الوحدة ، ومَن أرْدإِ تواليفه كتاب « الفُصُوص » ، فإن كان لا كفْرَ فيه ، فما في الدُّنيا كفرٌ ، نسألُ اللهَ العَفوَ والنَّجاةَ ، فواغَوثاه بالله!![3] .

وقد أوردتُ عنه في « التاريخ الكبير » وله شعرٌ رائق ، وعلمٌ واسع ، وذهنٌ وقَّادٌ ، ولا رَيبَ أنَّ كثيراً من عباراته له تأويلٌ إلاَّ كتابَ « الفُصُوص »[4] .

---

(١) انظر السير : (ابنُ الفارض) ٢٢/٣٦٨ـ٣٦٩ ، وانظر النزهة : ١/١٧٠٣ .
(٢) انظر السير : (ابنُ الفارض) ٢٢/٣٦٨ـ٣٦٩ ، وانظر النزهة : ٢/١٧٠٣ .
(٣) انظر السير : (ابنُ العَربيّ) ٢٣/٤٨ـ٤٩ ، وانظر النزهة : ٢/١٧١٤ .
(٤) انظر السير : (ابنُ العَربيّ) ٢٣/٤٨ـ٤٩ ، وانظر النزهة : ٤/١٧١٤ .

ثالثاً : الزَّنادِقَة

أُناسٌ اتُّهِموا بالزَّنْدَقَة :

(أ) ابنُ أبي العَزاقِر :

جاء في ترجمة « ابن أبي العَزاقِر » ، قال الذهبيُّ : الزِّنْديقُ المعثَّر ، أبو جعفر ، محمدُ بنُ عليّ ، الشَّلْمَغانيُّ الرافضيُّ .

قال بالتناسُخ ، وبحُلول الإلهيَّة فيه ، وأنَّ اللهَ يَحلُّ في كلِّ شيءٍ بقدر ما يَحتمله ، وأنَّه خلقَ الشيءَ وضدَّه ، فحلَّ في آدمَ وفي إبليسِهِ ، وكلٌّ منهما ضدٌّ للآخَر .

وقال : إنَّ الضِّدَّ أقربُ إلى الشيء من شِبهِه ، وإنَّ الله يحلُّ في جسَد مَن يأتي بالكرامَات ليدُلَّ علىٰ أنه هو ، وأنَّ الإلهيَّة اجتمعت في نوح ، وإبليسِه وفي صالحٍ وعاقِرِ النَّاقَة ، وفي إبراهيمَ ونَمْروذَ ، وعليٍّ وإبْليسه .

وقال : مَن احتاجَ الناسُ إليه ، فهو إلـٰهٌ .

وسمَّىٰ موسىٰ ومحمداً الخائنَيْنِ ، لأنَّ هارونَ أرْسلَ موسىٰ ، وعَليّاً أرسَلَ مُحمَّداً ، فخاناهما ، وإنَّ عليّاً أمهَلَ محمداً ثلاثَ مئة سنة ثم تذهبُ شَريعتُه[1] .

ومِنْ رَأيِّه تَركُ الصَّلاةِ والصَّوم ، وإباحَةُ كلِّ فَرْجٍ ، وأنَّه لا بُدَّ للفاضِلِ أنْ يَنيكَ المَفْضُولَ ليُولِجَ فيه النُّورَ ، ومَنْ امْتَنَعَ مُسِخَ في الدَّورِ الثاني ، فرَبَطَ الجَهلَةَ وتَخرَّقَ ، وأضَلَّ طائِفَةً ، فأظْهَرَ أمرَهُ أبُو القاسِم الحُسَينُ بنُ روح ـ رَأسُ الشِّيعَة ، المُلَقَّبُ بالبَاب ـ إلىٰ صاحِبِ الزَّمانِ ، فطُلِبَ ابنُ أبي العزاقر ، فاخْتَفَىٰ ، وتَسَحَّبَ إلى المُوصِل ، فأقامَ هناكَ سِنينَ ورَجَعَ ، فظَهَرَ عَنهُ ادِّعاءُ الرُّبوبيّةِ ، واتَّبَعَه الوَزيرُ حُسَينُ ابنُ الوَزيرِ القاسِمِ بنِ عُبَيدِ الله بنِ وَهْب ـ وَزيرُ المُقْتَدِر ـ فيما قِيلَ ، وابْنا بِسْطام وإبراهيمُ بنُ أبي عَون ، فطُلِبُوا ، فتَغَيَّبوا ، فلمَّا كان في شَوَّالَ من سَنَةِ اثنتَينِ وعِشرينَ ظَفَرَ الوَزيرُ

---

(١) انظر السير : (ابنُ أبي العَزاقِر) ١٤/٥٦٦ـ٥٦٩ ، وانظر النزهة : ١١٧٤/٣ .

ابنُ مُقلة بهـٰذا ، فسَجَنَه ، وكَبَسَ دَارَه ، فوَجَدَ فيها رقاعاً وكُتُباً مِمَّا يُدَّعَىٰ عليه ، وفيها خِطابُهُ بما لا يُخاطِبُ به بَشَر فعُرِضَتْ عليه فأقَرَّ أنَّها خُطوطُهم ، وتَنصَّلَ ممَّا يُقالُ فيها ، وتَبرَّأَ منهم فمَدَّ ابنُ عَبْدُوس يَدَه ، فصَفَعَه ، وأمَّا ابنُ أبي عَون فمَدَّ يَدَه إليه فارْتَعَدَتْ يَدُه ، ثمَّ قَبَّلَ لِحْيَته ورَأسَه وقال : إلـٰهي ، ورازِقِي ، وسَيِّدي! فقالَ له الرَّاضي بالله : قد زَعَمتَ أنَّكَ لا تدَّعي الإلَهيَّة ، فمَا هَـٰذا ؟ قالَ : وما عليَّ مِنْ قَولِ هـٰذا ؟ واللهُ يَعلَمُ أنَّني ما قُلتُ له : إنَّني إلَـٰهٌ قطُّ .

فقالَ ابنُ عَبْدُوس : إنَّه لَمْ يَدَّعِ إلَـٰهيَّة ، إنَّما ادَّعَىٰ أنَّه البابُ إلى الإمام المُنْتَظَر ثمَّ إنَّهم أُحْضِروا مَرَّاتٍ بمَحْضر الفُقَهاء والقُضاة ، ثمَّ في آخِر الأمْر أفْتَى العُلماءُ بإباحَةِ دَمِه ، فأُحْرِقَ في ذي القَعْدة من السَّنَة وضُرِبَ ابنُ أبي عَون بالسِّياطِ ، ثمَّ ضُرِبَتْ عُنُقه وأُحْرِق .

وله مُصَنَّفاتٌ أدَبيَّة ، وكانَ من كِبارِ الكُتَّاب .

وقُتِلَ بسَبَبِه وَزيرُ المُقْتَدِر ، الحُسَينُ ، اتُّهِمَ بالزَّنْدَقَة ، وقُتِلَ أبُو إسْحاق إبراهيمُ بنُ أحمَدَ بنِ هِلال بن أبي عَون الأنْباريُّ الكاتِب .

وقد كانَ أبُو عليٍّ الحُسَينُ ـ ويُقالُ : الجمَّال ـ وزَرَ للمُقْتَدِر في سَنة تِسْع عَشرةَ وثلاث مِئَة ، ولَقَبُّوه عَميدَ الدولة ، وعُزِلَ بعدَ سَبعةَ أشْهرٍ وسُجِنَ ، وعُقِدَ له مَجْلسٌ في كائِنَة الشَّلْمَغانيّ ، ونُوظِرَ ، فظَهَرَت رِقاعُهُ يُخاطِبُ الشَّلْمَغانيَّ فيها بالإلَهيَّة ، وأنَّه يُحْييه ويُميتُه ، ويَسْألُه أنْ يَغْفِرَ له ذُنوبَه ، فأخْرِجَت تِلكَ الرِّقاعُ ، وشَهِدَ جَماعَةٌ أنَّه خَطُّه ، فضُرِبَت عُنُقُه وطِيفَ برأسِه في ذي الحِجَّة سَنَةَ اثنَتين وعِشْرينَ وثلاث مِئَة وعاشَ ثمانياً وسَبعينَ سَنةً[1] .

(ب) أبو حَيَّان التَّوحيديّ :

جاء في ترجمة « أبو حيّان التوحيديّ » ، قال الذهبيُّ : الضالُّ المُلحِد ، أبو حيّان ، عليُّ بنُ محمد بن العبَّاس ، البَغداديُّ ، الصُّوفيُّ ، صاحبُ التصانيف

---

(١) انظر السير : (ابنُ أبي العَزاقِر) ١٤/ ٥٦٦ـ ٥٦٩ ، وانظر النزهة : ٤/١١٧٤ .

الأدبيّة والفَلسفيّة ، ويُقالُ : كان من أعيان الشّافعيّة .

قال ابنُ بابي في كتاب « الخَريدة والفَريدة » : كان أبو حيّان هـٰذا كذّاباً قليلَ الدِّين والوَرَع عن القَذفِ والمُجاهَرة بالبُهتان ، تعرَّضَ لأمور جسام من القَدح في الشَّريعة والقَول بالتَّعْطيل ، ولقد وَقف سيِّدُنا الوزيرُ الصاحبُ كافي الكفاة علىٰ بعض ما كان يُدغِلُه ويُخْفيه من سوء الاعتقاد ، فطلَبَه ليَقتُلَه ، فهَربَ ، والتجأَ إلىٰ أعدائه ، ونَفَقَ عليهم تزَخرُفُه وإفْكُه ، ثم عَثَروا منه علىٰ قَبيح دِخْلته وسُوء عَقيدته ، وما يُبطِنُه من الإلْحَاد ، ويَرومُه في الإسْلام من الفَسَاد ، وما يُلْصِقُه بأعلام الصَّحَابَة من القَبَائح ، ويُضيفُه إلى السَّلف الصالح من الفَضَائح ، فطلبَه الوزيرُ المُهَلَّبيُّ ، فاسْتَتَر منه وماتَ في الاسْتتار ، وأراح الله ، ولم يؤثَر عنه إلاَّ مثلبةٌ أو مُخزيةٌ .

وقال أبو الفرج ابنُ الجَوزيّ : زَنادِقَة الإسْلام ثلاثةٌ : ابنُ الرَّاوَندي ، وأبو حيّان التوحيديّ ، وأبو العلاء المعرِّي ، وأشَدُّهم على الإسْلام أبو حيّان ، لأنهما صَرَّحا ، وهو مَجْمَجَ ولم يُصَرِّحْ .

قال الذهبيُّ : وكان من تلامذة عليِّ بن عيسى الرُّمَّاني ، ورأيتُه يُبالغ في تعظيم الرمَّاني في كتابه الذي أَلَّفَه في تَقريظ الجاحظ ، فانظُر إلى المادِح والمَمْدوح!! ، وأجوَدُ الثلاثة الرُّمَّانيُّ مع اعْتِزاله وتشَيُّعِه .

وهو الذي نسب نفسه إلى التوحيد ، كما سمَّى ابنُ تُومَرت أتباعَه بالمُوَحِّدِّين ، وكما يُسمِّىٰ صُوفيّةُ الفَلاسفة نُفوسَهم بأهل الوحدة وبالاتحاديَة[1] .

(ج) الجَصَّاص :

جاء في ترجمة « الجَصَّاص » ، قال الذهبيُّ : شَيخُ الزُّهَّاد ، أبو محمد ، طاهرُ بنُ حَسن بنِ إبراهيم ، الهَمَذانيُّ الجَصَّاص .

وله أحْوالٌ وخَوارقٌ ، وبعضُهم رَماهُ بالزَّنْدَقَة ، وقد عَظَّمَه شِيرَوَيْه الدَّيْلَميُّ وبالَغ .

---

(١) انظر السير : (أبو حيّان التوحيديّ) ١٧/١١٩ـ١٢٣ ، وانظر النزهة : ١٣٢٥ ـ ١٣٢٦ .

وكان يَقرأُ القُرآنَ والتَّوراةَ والإنْجيلَ والزَّبُورَ ، ويَعرفُ تَفسيرها فيما قِيل[١] .

وقال مكِّيُّ بنُ عمر البَيِّع : سمعتُ محمدَ بنَ عيسىٰ يقولُ : صامَ طاهرٌ أربعين يوماً أربعينَ مرّةً ، فآخرُ أربعينَ عَملَها صام علىٰ قِشرِ الدُّخنِ ، فَلِيُبْسِه قَرِعَ رأسُه ، واختلَطَ في عقلِه ، ولم أرَ أكثرَ مجاهدةً منه .

قال الذهبيُّ : فِعْلُ هـٰذه الأربعينات حرامٌ قطعاً ، فعُقباها موتٌ من الخَوَر ، أو جُنونٌ واختلاط ، أو جَفافٌ يُوجبُ للمرء سَماعَ خِطابٍ لا وُجودَ له أبداً في الخارج فيَظنُّ صاحبُه أنَّه خطابٌ إلِّي[٢] ، كلا والله .

وقال ابنُ زيرك : حضرتُ مَجْلساً ذُكرَ فيه الجَصَّاصُ ، فبعضُهم نسبه إلى الزَّنْدَقة ، وبعضُهم نَسبَه إلى المَعْرفَة .

وقيل : كان تركَ اللَحْمَ والخُبْزَ ، فحُوقِقَ في ذلك ، فقال : إذا أكلتُها طالَبتني نفسي بتقبيل أمرد مليح .

وكان عليه قملٌ مفرطٌ ، ولا يقتُله ، ويقول : لا يُؤذيني .

تُوفِّيَ سنة ثمان عشرة وأربع مئة ، وقَبْرُه يُزارُ بهَمَذان[٣] .

(د) الحَريريّ :

جاءَ في تَرجَمَةِ الحَريريّ ، قال الذهبيُّ : كَبيرُ الفُقراء البَطَلَة ، الشيخُ عليُّ بنُ أبي الحَسَن بنِ مَنْصُورِ ابنِ الحريري الحَورانيّ .

مَولِدُه بِبُسْرَ ، وبها مات في سنة خمسٍ وأربعين وستٍّ مئة ، وقد قارب التسعين[٤] .

---

(١) انظر السير : (الجَصَّاص) ١٧/ ٣٩٠ـ٣٩٢ ، وانظر النزهة : ١/١٣٤٦ .

(٢) أي إلـٰهي ، فقد جاء في اللسان : الإلُّ : اللهُ عزَّ وجلَّ ، والمعنىٰ أنه مما يوسوس له يخيل إليه أنه يسمع كلاماً ويظنُّ أن اللهَ يُخاطبُه به .

(٣) انظر السير : (الجَصَّاص) ١٧/ ٣٩٠ـ٣٩٢ ، وانظر النزهة : ٢/١٣٤٦ .

(٤) انظر السير : (الحَريريّ) ٢٣/ ٢٢٤ـ٢٢٧ ، وانظر النزهة : ٢/١٧٣٢ .

قرأتُ بخطِّ السَّيفِ الحافظ : كان الحريريُّ من أفْتن شيءٍ وأضَرِّه على الإسلام ، تَظهرُ منه الزَّندقةُ والاسْتهزاءُ بالشَّرْع ، بلَغَني من الثِّقاتِ أشْياءُ يُسْتَعظَمُ ذِكْرُها من الزَّنْدَقة والجُرأة على الله ، وكان مُسْتَخِفّاً بأمرِ الصَّلوات[1] .

وحدَّثَني أبو إسحاق الصَّريفيني ، قال : قلتُ للحريريِّ : ما الحُجَّةُ في الرَّقْصِ ؟ قال : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾[2] وكان يُطعمُ ويُنفق ويتبعه كلُّ مُريبٍ شهدَ عليه خلقٌ كثيرٌ بما يُوجبُ القتلَ ، ولم يُقْدمِ السُّلطانُ علىٰ قَتْله ، بل سَجَنَه مرّتين[3] .

وعندي مجموعٌ من كلام الشيخ الحَريريّ فيه : إذا دخلَ مُريدي بلادَ الرُّوم ، وتَنصَّرَ ، وأكلَ الخِنْزيرَ ، وشَربَ الخَمْرَ ، كانَ في شُغْلي!![4] .

وقال لأصحابه : بايعوني علىٰ أن نَموتَ يهودَ ، ونُحْشَر إلى النَّار ، حتىٰ لا يصحَبَني أحدٌ لعلَّة[5] .

ومن ذلك قوله : أمرَدُ يُقدِّمُ مَداسي أخْيَرُ من رضوانكم ، وربع قَحْبَة عندي أحسَنُ من الولدان[6] .

وقال عليُّ بنُ أنجب في تاريخه : الفَقيرُ الحَريريُّ شَيخٌ عَجيبٌ ، كان يُعاشِرُ الأحْداثَ ، كان يُقالُ عنه : إنَّه مُباحيٌّ ولم تكن له مُراقَبة ، وكان يُخرِّب ، والفقهاءُ يُنكرون فِعْلَه ، وكان له قَبولٌ عَظيم[7] .

ومِمَّنْ انتُصَرَ له وخَضَعَ لِكَشْفِه الإمامُ أبو شامَة[8] ، فقال : كانَ عندَه من القيامِ

---

(١) انظر السير : (الحَريريّ) ٢٣/ ٢٢٤ـ ٢٢٧ ، وانظر النزهة : ٣/١٧٣٢ .

(٢) سورة الزلزلة ، الأية : ١ .

(٣) انظر السير : (الحَريريّ) ٢٣/ ٢٢٤ـ ٢٢٧ ، وانظر النزهة : ٤/١٧٣٢ .

(٤) انظر السير : (الحَريريّ) ٢٣/ ٢٢٤ـ ٢٢٧ ، وانظر النزهة : ١/١٧٣٣ .

(٥) انظر السير : (الحَريريّ) ٢٣/ ٢٢٤ـ ٢٢٧ ، وانظر النزهة : ٢/١٧٣٣ .

(٦) انظر السير : (الحَريريّ) ٢٣/ ٢٢٤ـ ٢٢٧ ، وانظر النزهة : ٣/١٧٣٣ .

(٧) انظر السير : (الحَريريّ) ٢٣/ ٢٢٤ـ ٢٢٧ ، وانظر النزهة : ٤/١٧٣٣ .

(٨) لم نجد هـٰذا الكلام في ذيل الروضتين لأبي شامة حين ترجم له في وفاته سنة ٦٤٥ هـ ، بل نجد خلاف ذلك ذمّاً له ، وقد نسب ابن تغري بردي إلىٰ أبي شامة أيضاً أنه أثنىٰ على الحريري .

بواجِبِ الشَّريعَةِ ما لَمْ يَعْرِفْه أحدٌ من المُتَشَرِّعين ظاهراً وباطِناً ، وأكْثَرُ النَّاسِ يَغْلِطُونَ فيه ، كان مُكاشِفاً لما في الصُّدورِ بحَيثُ قد أطْلَعَه اللهُ على سَرائِرِ أوْليائِه[1] .

قال الذهبيُّ : ما هَـٰذا ؟!! ، اتَّقِ اللهَ ، فالكَهَنَةُ وابنُ صَائدٍ مُكاشِفُونَ لما في الضَّمائِرِ .

قالَ عن نَفْسه :[2]

فَقِيرٌ ولكِنْ مِنْ صَلاحٍ ومِنْ تُقَىَ   وشَيْـخٌ ولكـنْ للفُسُـوقِ إمَـامُ

* * *

(١) انظر السير : (الحَريريّ) ٢٣/ ٢٢٤ـ ٢٢٧ ، وانظر النزهة : ٥/١٧٣٣ .

(٢) انظر السير : (الحَريريّ) ٢٣/ ٢٢٤ـ ٢٢٧ ، وانظر النزهة : ٦/١٧٣٣ .

رابعاً : الزَّنْج

قال صاحبُ النُّزْهَة : وإنما وضَعْتُها في هٰذا الموضع لفَساد عَقيدة رئيسهم الطاغية وإفساده عقائد أصحابه ، ولادِّعائه النُّبوَّة .

جاء في ترجمة الرِّياشيِّ ، قال ابنُ دُرَيد : قَتلَته الزَّنج بالبَصْرَة سنة سَبع وخَمسين ومئتين[١] .

وقال عليُّ بنُ أبي أُمَيَّة : لمَّا كان من دُخُولِ الزِّنْجَ البَصْرَة ما كان وقَتْلِهم بها مَنْ قَتَلُوا ، وذلك في شَوَّال سَنَةَ سَبعٍ ، بَلَغنا أنَّهم دَخَلُوا علىٰ عبَّاس بنِ الفَرج الرِّياشِيِّ المَسجِد بأسْيَافِهم ، والرِّياشِيّ قائِمٌ يُصلِّي الضُّحَىٰ ، فضَرَبُوه بالأَسْيافِ : وقالوا : هاتِ المَالَ ، فجَعَلَ يقولُ : أيُّ مالٍ ؟ حتىٰ ماتَ فلمَّا خَرَجَتِ الزِّنْجُ عن البَصْرة ، دَخَلْناها ، فمَرَرْنا ببَنِي مازِن الطَّحانين ـ وهناك كان يَنزِلُ الرِّياشِيّ ـ فدَخَلْنا مَسجدَه ، فإذا به مُلْقىً وهو مُسْتَقبلٌ القِبلَةَ كأنَّما وُجِّه إليها ، وإذا بشَمْلَةٍ تُحَرِّكُها الرِّيحُ وقد تَمَزَّقَت ، وإذا جَميعُ خَلْقِه صحيحٌ سَويٌّ لَمْ يَنْشَقَّ له بَطْن ، ولَمْ يَتَغيَّر له حال ، إلاَّ أنَّ جِلْدَه قد لَصُقَ بعَظْمِه ويَبُس ، وذلك بعد مَقْتَلِه بسَنَتَيْن رَحمَه الله[٢] .

قالَ الذهبيُّ : فِتْنَةُ الزِّنجِ كانت عَظيمَةً ، وذلكَ أنَّ بَعضَ الشَّياطِينِ الدُّهاةِ كانَ طُرقيّاً أوْ مُؤدِّباً ، له نَظَرٌ في الشِّعْرِ والأخْبارِ ، ويَظْهَرُ من حَالِه الزَّنْدَقَةُ والمُروقُ ، ادَّعَىٰ أنَّه عَلَويّ ، ودَعَا إلىٰ نَفْسِه ، فالْتَفَّ عليه قُطَّاعُ طَريقٍ ، والعَبيدُ السُّودُ من غِلْمانِ أهْلِ البَصْرَةِ ، حتىٰ صارَ في عِدَّةٍ وتَحَيَّلوا وحَصَّلوا سُيوفاً وعِصيّاً ، ثمّ ثارُوا علىٰ أطْرافِ البَلَدِ ، فبَدَّعوا وقَتَّلوا وقَوُوا ، وانْضَمَّ إليهم كُلُّ مُجرِمٍ ، واسْتَفْحَلَ الشَّرُّ بهم ، فسارَ جَيشٌ من العِراقِ لحَرْبِهم ، فكَسَروا الجَيشَ ، وأَخَذُوا البَصْرَةَ ، واسْتَباحُوها ، واشْتَدَّ الخَطْبُ ، وصارَ قائِدُهم الخَبيثُ في جَيشٍ وأُهْبَة كاملة ، وعَزَمَ علىٰ أخْذِ بَغْدادَ ، وبَنَىٰ

---

(١) انظر السير : (الرِّياشيُّ) ١٢/ ٣٧٢ـ٣٧٦ ، وانظر النزهة : ١٠٠٩/ ٢ .

(٢) انظر السير : (الرِّياشيُّ) ١٢/ ٣٧٢ـ٣٧٦ ، وانظر النزهة : ١٠٠٩/ ٣ .

لنَفسِه مَدينَةً عَظيمَةً ، وحارَ الخَليفَةُ المُعْتَمدُ في نَفسِه ، ودامَ البَلاءُ بهذا الخَبيثِ المَارِقِ ثلاثَ عَشرةَ سَنةً ، وهابَتْهُ الجُيوشُ ، وجَرَتْ معه مَلاحِمُ ووَقَعاتٌ يَطُولُ شَرحُها ، قد ذَكَرَها المُؤرِّخُونَ إلىٰ أنْ قُتِلَ ، فالزِّنجُ هم عِبارَةٌ عن عَبيدِ البَصْرَةِ الذين ثارُوا مَعَه ، لا بارَكَ اللهُ فيهِم(١) .

وجاء في ترجمة « المُعْتَمد على الله » ، قال الذهبيُّ : الخليفةُ ، أبو العبَّاس ، وقيل : أبو جَعْفر بنُ المُتوَكِّل على الله جَعفرُ بنُ المُعْتَصم وُلدَ سنة تسع وعشرين ومئتين .

اسْتُخلِفَ بعدَ قتلِ المُهْتَدي بالله ، سنةَ ستٍّ وخمسينَ ومئتين(٢) .

وانْهمكَ في اللَّهْوِ واللَّعب ، واشْتَغَل عن الرَّعيَّة ، فكَرهُوه ، وأحبُّوا أخاه المُوفَّق(٣) .

وفي رَجبَ أيضاً اسْتولَت الزَّنجُ على البَصْرَة والأُبُلَّة والأهْواز ، وقَتلوا وسَبوا ، وهم عَبيدُ العَوام ، وغَوغاءُ الأنْذال المُلتفِّين على الخَبيث وقام بالكوفة عليُّ بنُ زَيد العلويّ ، واسْتفحَل أمْرُه ، وهَزمَ جَيشَ الخَليفَة ، وظَهرَ أخُوه حَسنُ بنُ زيد بالريِّ .

وقتلت الزَّنجُ بالأُبُلَّة نحوَ ثلاثين ألفاً فحارَبَهم سَعيدٌ الحاجب ثم قَووا عليه ، وقَتلوا خَلقاً من جُندِه ، وتمَّت بينهم وبين العَسكر وَقَعاتٌ .

وفي سنة ثمانٍ وخمسين ومئتين جرت وقعة بين الزَّنج وبين العَسْكَر ، فانهَزَمَ العَسْكَرُ وقُتلَ قائدُهم مَنصور ، ثم نَهضَ أبو أحمد المُوفَّق ومُفلح في عَسكَرٍ عَظيم إلى الغاية لحرب الخبيث ، فانهزمَ جَيشُه ، ثم تهيأ وجمع الجيوش وأقبلَ فتمت ملحمةٌ لم يُسمعْ بمثلها ، وظهر المسلمون ، ثم قُتل مُقدَّمهم مُفلح فانهَزمَ الناسُ ، واسْتباحَهم الزَّنجُ ، وفرَّ المُوفَّقُ إلى الأُبُلَّة ، وتراجَعت إليه العَساكِرُ ، ثم التَقى الزَّنجُ فانتَصر ، وأَسَرَ طاغيتهم يَحيىٰ ، وبَعَثَ به إلىٰ سامرَّاء فذُبح ، ووَقَع الوَباءُ ، فمات خَلائقُ ، ثم

---

(١) انظر السير : (الرِّياشيُّ) ١٢/ ٣٧٢_٣٧٦ ، وانظر النزهة : ١/١٠١٠ .

(٢) انظر السير : (المُعْتَمد على الله) ١٢/ ٥٤٠_٥٥٣ ، وانظر النزهة : ١/١٠٣١ .

(٣) انظر السير : (المُعْتَمد على الله) ١٢/ ٥٤٠_٥٥٣ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٣١ .

التَقى المُوفَّقُ الزَّنجَ فانكسرَ ، وقُتلَ خَلقٌ من جَيشِه ، وتَحيَّزَ هو في طائفةٍ ، وعَظُمَ البلاءُ وكادَ الخَبيثُ أن يَملِكَ الدنيا ، وكان كذَّاباً مُمَخْرِقاً ، مَاكراً ، شُجاعاً ، داهيَةً ، ادَّعَىٰ أنَّه بُعثَ إلى الخَلق ، فردَّ الرسالَة ، وكان يَدَّعي علمَ الغَيبِ ، لَعنَه الله .

ودَخلت سَنةُ تسع وخَمسينَ ومئتَين ، فعَرض المُوفَّقُ جَيشَه بواسِط ، وأمَّا الخبيثُ فدخلَ البَطائحَ ، وبَثَقَ حولَه الأنهارَ ، وتَحصَّنَ ، فهجمَ عليه الموفَّقُ ، وأحْرقَ وقَتلَ فيهم ، واسْتنقَذَ من السَّبايا ، وردَّ إلىٰ بغداد ، فسارَ خَبيثُ الزَّنج إلى الأهواز ، فوَضعَ السَّيفَ ، وقتلَ نحواً من خَمسين ألفاً ، وسَبىٰ أرْبعينَ ألفاً ، فسارَ لحَرْبِه مُوسَىٰ بنُ بُغا ، فتَحارَبا بضعَةَ عشرَ شَهْراً ، وذهب تحتَ السَّيفِ خَلائقُ من الفَريقين ، فإنَّا لله ، وإنَّا إليه راجعون .

وفي سنة ستٍّ وستين ومئتين ، أقبلَت الرُّومُ إلىٰ ديار رَبيعَة ، وقَتلوا وسَبوا ، وهَربَ أهلُ الجَزيرة واستباحت الزَّنجُ رامَهُرْمُز .

وفي سنة سبعٍ وستين ومئتين كَرُّوا علىٰ واسِط ، وعَثروا أهلَها ، فجهَّزَ المُوفَّقُ ولدَه العبَّاس الذي صارَ خليفَة ، فقَتلَ وأسَرَ ، وغرَّقَ سُفُنَهم ، ثم تجمَّعَ جَيشُ الخَبيثِ ، والتقوا بالعبَّاس فهَزَمهم ، ثم التقوا ثالثاً فهزمَهم ، ودام القِتالُ شَهْرين ، ورغبوا في أبي العبَّاس ، واستأمن إليه خلقٌ منهم ، ثم حارَبَهم حتىٰ دَوَّخَ فيهم ، ورَدَّ سالماً غانماً ، وبَقي له وَقعٌ في النُّفوس ، وسار إليهم المُوفَّقُ في جَيشٍ كَثيفٍ في الماء والبَرِّ ، ولَقيَه ولدُه ، والْتَقوا الزَّنجَ فهَزموهم أيضاً ، وخارت قُوىٰ جَيش الخَبيث ، وألَحَّ المُوفَّقُ في حربهم ونازَلَ طِهْثيَّا ، وكان عليها خمسةُ أسوار ، فأخَذَها ، واسْتخلَصَ من أَسْرِ الخُبَثاء عَشرةَ آلافِ مُسْلِمَة ، وهَدَمَها ، وكان المُهَلَّبيُّ القائدُ مُقيماً بالأهْواز في ثلاثين ألفاً من الزَّنج ، فسار المُوفَّقُ لحَرْبه ، فانهَزَم ، وتفرَّق عسكرُه ، وطلَبَ خلقٌ منهم الأمان ، فأمنَّهم ، ورَفَق بهم ، وخَلعَ عليهم ، ونزلَ المُوفَّقُ بتُسْتَر ، وأنفق في الجيش ، ومهَّدَ البلاد ، وجهَّزَ ابنَه المُعْتَضد أبا العبَّاس لحَرب الخَبيث ، فجهَّزَ له سُفناً فاقْتَتلوا ، وانتصر أبو العباس وكتبَ كتاباً إلى الخَبيث يُهدِّدُه ، ويَدعُوه إلى التَّوبَة ممَّا فعل ، فعَتا وتَمرَّدَ وقَتلَ الرسُولَ ، فسارَ المُوفَّقُ إلىٰ مَدينَة الخَبيث بنَهْر أبي الخَصيب ،

ونَصَبَ السَّلالمَ ، ودَخلوها ، ومَلكُوا السُّورَ ، فانْهَزمَ الزَّنج ، ولمَّا رأى المُوفَّقُ حَصانتَها اندهَشَ ، واسمُها المُخْتارَة ، وهالَه كثرةُ المقاتلة بها ، لكن استأمنَ إليه عدّة فأكرَمَهم .

قال الذهبيُّ : ونقلتُ تفاصيل حُروب الزَّنج في « تاريخ الإسلام » ، فمِن ذلك لمَّا كان في شَعبان سنة سبع وستين ومئتين ، برزَ الخَبيثُ وعسكرُه فيما قِيلَ في ثلاث مئة ألفٍ ما بين فارسٍ وراجلٍ ، فركبَ المُوفَّقُ في خَمسين ألفاً ، وحَجزَ بينهم النهرُ ، ونادى المُوفَّقُ بالأمان ، فاسْتأمنَ إليه خَلقٌ ، ثم إنَّ المُوفَّقَ بَنىٰ بإزاءِ المُخْتارَة مَدينةً علىٰ دِجْلَة سَمَّاها المُوَفَّقيّة ، وبَنىٰ بها الجامع والأسْواق ، وسَكنها الخَلقُ واستأمن إليه في شهرٍ خَمسةُ آلاف ، وتَمَّت مَلحمةٌ في شَوَّال ونُصِرَ المُوفَّقُ .

وفي ذي الحِجَّة عَبرَ المُوفَّقُ بجَيشِه إلىٰ ناحية المُخْتارَة ، وهَربَ الخَبيثُ ، لكنَّه رَجعَ وأزَالَ المُوفَّقَ عنها .

في ثمانٍ وستين ومئتين تتابع أجْنادُ الخَبيثِ في الخُروج إلى المُوفَّق ، وهو يُحسِنُ إليهم ، وأتاه جَعْفَرُ السَّجَّانُ صاحبُ سِرِّ الخَبيث ، فأعطاه ذَهباً كثيراً ، فرَكب في سَفينة حتىٰ حاذَىٰ قَصرَ الخَبيث ، فصاحَ إلىٰ متىٰ تَصْبرون على الخَبيث الكَذَّاب ؟ وحَدَّثَهم بما اطَّلَع عليه من كَذِبِه وكُفْرِه ، فاسْتأمن خَلقٌ ، ثم زَحفَ المُوفَّقُ على البَلد ، وهَدَّ من السُّور أماكن ، ودَخلَ العَسكرُ من أقْطارِها واغْترُّوا ، فكَرَّ عليهم الزَّنجُ ، فأصابوا منهم ، وغَرِقَ خَلقٌ ، ورَدَّ المُوفَّقُ إلىٰ بلَده حتىٰ رَمَّ شَعثَه ، وقَطع الجَلْبَ على الخَبيثِ ، حتىٰ أكَلَ أصحابُه الكِلابَ والمَيتَةَ ، وهَربَ خَلقٌ ، فسَألَهم المُوفَّقُ ، فقالوا : لنا سَنة لمْ نَرَ الخُبزَ وقُتلَ بهبُودُ أكبرُ أمراءِ الخَبيث ، وقَتلَ الخَبيثُ ولَدَه لكونه هَمَّ أنْ يخرُجَ إلى المُوفَّقِ .

وفي سنة تسع وستين ومئتين ، دَخلَ المُوفَّقُ المُخْتارَة عَنوَةً ، ونادى الأمانَ ، وقاتَلَ حاشيةُ الخَبيث دُونَه أشَدَّ قتال ، وحازَ المُوفَّقُ خَزائنَ الخَبيث ، وألقى النارَ في جَوانب المَدينة ، وجُرحَ المُوفَّقُ بسَهمْ فأصْبحَ على الحَرب ، وآلمه جُرحُه ، وخافوا ، فخَرَجوا حتىٰ عُوفي ، ورَمَّ الخَبيثُ بلَدَه .

وفي شَوَّال كانت المَلْحَمةُ الكُبرىٰ بين الخَبيث والمُوفَّق ، ثم وَقَعَت الهَزيمةُ على الزَّنج ، وكانوا في جُوعٍ شَديد وبَلاءٍ ، لا خَفَّفَ اللهُ عَنهم ، التقى الخَبيثُ والمُوفَّقُ ، فانْهَزَمت الزَّنج أيضاً ، وأحاطَ الجَيشُ ، فحَصَروا الخَبيثَ في دار الإمارة ، فانملَسَ منها إلىٰ دار المُهَلَّبيِّ ، أَحَدُ قُوَّادِه ، وأُسِرَت حُرَمه ، فكان النساءُ نحوَ مئة ، فأحسَنَ إليهنَّ المُوفَّقُ ، وأُحْرِقَت الدَّارُ ، ثم جَرت مَلحَمَةٌ بين المُوفَّق والخَبيث في أوَّل سنة سبعين ومئتين ، ثم وَقعةٌ أخرىٰ قُتلَ فيها الخَبيثُ ، لا رَحمَه اللهُ ، وكان قد اجْتَمعَ من الجُند ، ومن المُطَّوعَة مع المُوفَّق نحو ثلاث مئة ألف ، وفي آخر الأمر شَدَّ الخَبيثُ وفُرسانُه فأزالوا النَّاسَ عن مَواقِفِهم ، فحَملَ المُوفَّقُ فهَزَمَهم ، وساقَ وراءَهم إلىٰ آخر النَّهر ، فبَيْنا الحَربُ تَستعرُ إذ أتىٰ فارسٌ إلى المُوفَّق وبيده رأسُ الخَبيث فما صَدَّق ، وعَرَضَه علىٰ جماعة ، فقالوا : هو هو فترجَّلَ المُوفَّقُ والأُمراءُ وخَرُّوا ساجدين لله وضَجُّوا بالتَّكبير ، وبادَرَ أبو العبَّاس بنُ المُوفَّق في خَواصِّه ، ومَعه رأسُ الخَبيث علىٰ قَناةٍ إلىٰ بَغْدادَ ، وعُملت قِبابُ الزِّينَة ، وكان يوماً مشهوداً ، وشَرعَ الناسُ يَتراجعون إلى المَدائن التي أخذَها الخَبيثُ ، وكانت أيّامُه خَمسَ عَشرةَ سنة .

قال الصُّوليُّ : قد قَتلَ من المسلمين ألفَ ألفٍ وخَمسِ مئة .

قال الذهبيُّ : وكذا عَددُ قَتلَىٰ بابَك .

قال : وكان يصْعَدُ علىٰ مِنْبَره بمَدينتِه ، ويَسُبُّ عُثمانَ وعَليّاً وطَلحَةَ وعائشةَ كمَذْهب الأزارِقَة ، وكان يُنادِي على المَسبيَّة العَلويَّة في عَسكره بدِرْهَمين ، وكان عند الزَّنجي الواحد نحو عَشر عَلَويَّات ، يَفترِشُهنَّ ويَخْدُمْنَ امرأتَه[1] .

وفي سَنةِ سَبعِين ومئتين نازَلتِ الرُّومُ في مِئَةِ ألفٍ طَرَسُوسَ ، فبَيَّتَهم يازْمانُ الخادِمُ فقِيلَ : قُتِلَ منهُم سَبعُونَ ألفاً ، وقُتِلَ مَلِكُهُم ، وأُخِذَ منهم صَلِيبُ الصَّلَبُوت فالحَمدُ لله علىٰ هـٰذا النَّصرِ العَزيزِ الذي لَمْ يُسْمَع بمِثْلِه ، مع تَمامِ المِنَّةِ على الإسْلامِ بمَصْرَعِ الخَبيث .

وعادَ المُوَفَّقُ إلىٰ بَغْدادَ مَرِيضاً من نِقرسٍ ، ثمَّ صَارَ داءَ الفِيلِ وقَاسَىٰ بلاءً ، فكان

---

(١) انظر السير : (المُعْتَمد على الله) ١٢/ ٥٤٠ـ٥٥٣ ، وانظر النزهة : ٣/ ١٠٣١ـ١٠٣٤ .

يقولُ : في دِيوانِي مِئَةُ ألفِ مُرْتزَقٍ ، ما أَصْبحَ فيهِم أَسْوَأُ حالاً منِّي ، ثمَّ ماتَ .

وفي سَنَةِ تَسع وسَبعينَ خُلِعَ المُفوَّضُ بنُ المُعْتَمِد من وِلايَةِ العَهْدِ ، وقُدِّمَ عليه أبو العَبَّاس المُعْتَضِدُ بنُ المُوَفَّق نَهَضَ بذَلِك الأُمَرَاءُ .

وفيها مَنَعَ أبو العَبَّاسِ القُصَّاصَ والمُنَجِّمينَ ، وأَلْزَمَ الكُتبيِّينَ أنْ لا يَبيعُوا كُتُبَ الفَلْسَفَةِ والجَدَلِ ، وضَعُفَ أمْرُ عَمِّه المُعْتَمِد معه ، ثمَّ ماتَ فَجْأَةً لإحْدَىٰ عَشر ليلةً بَقِيَتْ من رَجَبَ سَنَةَ تِسْع وسَبْعِينَ ومِئَتَينِ ببَغْدَادَ ونُقِلَ فدُفِنَ بسَامِرَّاءَ ، فكانت خِلافَتُه ثلاثاً وعِشْرينَ سَنةً وثلاثةَ أيَّامٍ[1] .

مات الْمُعْتَمِدُ على الله بالقَصْرِ الحَسَنيِّ مع النُدَماء والْمُطْربينَ ، أكَلَ في ذلك اليوم رُؤوسَ الجِدَاء ، فيُقالُ : سُمَّ ، وماتَ مَعه مَنْ أكلَ منها ، وقِيلَ : نامَ فغَمُّوه ببُساطٍ وقِيلَ : سُمَّ في كأسٍ ، وأدْخَلوا إليه إسْماعيلَ القاضي والشُّهودَ ، فلمْ يَرَوا به أثراً ، واستُخلِفَ أبو العبَّاس المُعْتَضِدُ وكانت عُرَيبُ جاريةُ المُعتمَد ذاتَ أموالٍ جَزيلة ، ولها في المُعتمَد مَدائحُ ، وكان يَسكَرُ ويُعَرْبِدُ على النُّدَماء ، سامَحَه الله ، وكانت دَولَتُه بِهِمَّةِ أخيه المُوفَّق لا بأس بها[2] .

وجاء في ترجمة « الخَبيثِ » ، قال الذهبيُّ : هو طاغية الزِّنْج ، عليُّ ابن محمد بن عبد الرحمـٰن العَبْدي ، من عبد القَيْس افْتَرىٰ ، وزَعمَ أنَّه وَلدُ زَيْد بنِ عَليٍّ العَلَويِّ ، وكان مُنَجِّماً ، طُرُقيّاً ، ذَكيّاً ، حَرُوريّاً[3] ، ماكِراً ، داهيَةً مُنْحَلاً ، علىٰ رأيِ فَجَرَة الخَوارج ، يَتَسَتَّرُ بالانتماء إليهم ، وإلاَّ فالرَّجلُ دَهْريٌّ ، فَيْلَسوفٌ زِنْديقٌ ، ظَهرَ بالبَصْرة ، واسْتغوىٰ عَبيدَ النَّاس وأوْباشَهم ، فتجمَّعَ له كلُّ لصٍّ ومُريبٍ وكثُروا ، فشَدَّ بهم علىٰ أهْلِ البَصْرَة ، وتَمَّ له ذلك ، واسْتباحوا البلدَ واسْتَرَقُّوا الذُّرِّية ، ومَلكوا ، فانتُدب لحَربهم عَسكرُ المُعْتَمد ، فالتَقى الفَريقان ، وانتصرَ الخَبيثُ واسْتفحلَ بَلاؤه ، وطَوى البلادَ ، وأبادَ العِبادَ ، وكادَ أنْ يَملكَ بَغداد ، وجَرت بينه وبين الجَيش عِدّةُ

---

(١) انظر السير : (المُعْتَمد على الله) ١٢/ ٥٤٠ـ٥٥٣ ، وانظر النزهة : ١/١٠٣٤ .

(٢) انظر السير : (المُعْتَمد على الله) ١٢/ ٥٤٠ـ٥٥٣ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٣٤ .

(٣) نسبةً إلى الحَرْوَريّة : وهم الخوارج الذين خالفوا عليّاً رضي الله عنه بعد رجوعه من صِفِّين إلى الكوفة ، إذ انحازوا إلىٰ « حروراء » مَوضع بظاهر الكوفة ، وكان أوّل اجتماعهم به ، فسُمّوا « الحرورية »

مَصَافَّاتٍ ، وأنشأَ مَدينةً سمَّاها « المُخْتارَة » في غاية الحَصانَة ، وزادَ جَيشُه علىٰ مئة ألفٍ ، ولَولا زَندَقَتُه ومُروقُه لاسْتولىٰ على المَمالك .

قال نِفْطَوَيه : كان أوّلاً بوَاسِط ، وربما كتب العُوَذ فأخذه محمدُ ابنُ أبي عَون ، فحبَسَه ، ثم أطْلَقه ، فما لَبثَ أنْ خَرَجَ واسْتغوى الزِّنجَ ـ يَعني عَبيد الناس والذين يَكْسَحون ويَزْبِلون[1] ـ فصار من أمرِه ما صار ، وخافَته الخُلفاءُ ، ثم أظفَرهم اللهُ به بعد حُروبٍ تُشيِّبُ النَّواصي .

وقُتل ولله الحمد في سنة سبعين ومئتين ، وله ثمانٍ وأربعون سنة .

ولو أفْرَدتُ أخبارَه ووقائعه لبلَغت مُجلَّداً وكان مُفْرطَ الشَّجاعَة ، جَريّاً داهيةً[2] .

رُئِيَ أبوه أنَّه بالَ في مَسجِد رسولِ الله صلى الله عليه وسلم بَوْلَةً أحرَقت نصفَ الدنيا .

وكانت أمُّ الخَبيث تقولُ : لمْ يدَعْ ابني أحَداً عندَه علمٌ بالرأيِّ حتىٰ خالَطَهم ، ثم خرجَ إلىٰ خُراسان ، فغابَ عنِّي سَنتين ، وجاءَ ثم غابَ عنِّي غَيبتَه التي خَرجَ فيها ، فوَردَ عليَّ كتابُه من البَصْرَة ، وبَعثَ إليَّ بمالٍ ، فلمْ أقْبلْه ، لِمَا صَحَّ عندي من سَفْكِه للدِّماء ، وخَرابِه للمُدُن .

قال الذهبيُّ : وكان أبوهُ داهيةً شَيطاناً كوَلدِه فقال عليٌّ : مَرِضتُ وأنا غُلام ، فجلسَ أبي يَعودُني ، وقال لأُمِّي : ما خَبرُه ؟ قالت : يَموتُ قال : فإذا ماتَ ، مَنْ يَخْربُ البَصْرَة ؟ قال : فبقيَ ذاكَ في قَلبي[3] .

قال الذهبيُّ : بعد مَصْرع المُتَوكِّل وابنِه ، وأولئك الخُلفاء المُستضعَفين المَقتولين ، نَقصَ أمرُ الخِلافَة جداً ، وطمِعَ كلُّ شَيطان في التوثُّب ، وخَرجَ الصَّفَّارُ بخُراسان ، واتَّسعت مَمالكُه ، وخرجَ هٰذا الخَبيثُ بالبَصْرَة ، وفعلَ ما فعَل ، وهاجَت الرُّومُ ، وعَظُمَ الخَطبُ[4] .

---

(١) الكَسْح : الكَنس ، والكساحة : الكُناسَة ، ويَزْبلون : أي يُصلحون الأرض بالزِّبْل .
(٢) انظر السير : (الخَبيث) ١٣/ ١٢٩ـ١٣٦ ، وانظر النزهة : ١/١٠٦٣ .
(٣) انظر السير : (الخَبيث) ١٣/ ١٢٩ـ١٣٦ ، وانظر النزهة : ١/١٠٦٤ .
(٤) انظر السير : (الخَبيث) ١٣/ ١٢٩ـ١٣٦ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٦٤ .

ثمَّ بعدَ سَنوات ثارت القَرامطَةُ والأعْرابُ ، وظَهرَ بالمَغْربِ عُبَيْدُ الله ، المُلقَّبُ بالمَهْديِّ ، وتَملَّك ثم دامت الدولة في ذُريَّة الباطنيَّة إلىٰ نور الدين ، رَحمَه الله[١] .

فادَّعَىٰ بعدَ الخَمْسينَ هَـٰذا الخَبيثُ بِهَجَر[٢] أنَّه عَليُّ بنُ مُحمّد ابنُ الفَضْلِ بنُ حُسَيْنِ بنُ عبدِ الله بنُ عَبَّاس بنُ عَليٍّ بنُ أبي طَالِب ، ودَعَا إلىٰ نَفْسه ، فمَالَ إليه رَئيسُ هَجَر ، ونابَذَهُ قَومٌ ، فاقْتَتلوا ، فتَحوَّلَ إلى الأحْسَاء ، واعْتَصَمَ ببَنِي الشمَّاس ، وإنَّما قَصَدَ البَحْرَينِ لِغَبَاوَةِ أهْلِها ، ورَوَاجِ المَخاريق عَليهِم ، فحَلَّ منهم مَحلّ نَبيٍّ ، وصَدَّقُوهُ بمَرّةٍ ، ثم تَنكّروا له لدبره ، فَشَخَصَ إلى البَادِيَة يَسْتَغْوي الأعَاريبَ بنُفوذِ حِيَلِه ، وشَعْوَذَتِه ، واعْتَقَدُوا فيه أنَّه يَعْلمُ مَنْطِقَ الطَّيْرِ ، وجَعَلَ يُغِيرُ على النَّواحي ، ثم تَمَّتْ له وَقْعَةٌ كبيرةٌ ، هُزِمَ فيها وقُتِلَ كُبَراءُ أتْباعِه وكَرِهَتْهُ العَربُ[٣] .

وذَهبَ إلىٰ بَغْدادَ فأقَامَ سَنةً يَسْتَغوي النَّاسَ ويُضِلُّهُم ، فاسْتَمالَ عِدَّة من الحاكَة بمَخاريقِه ، والجَهَلَةُ أسْبَقُ شيءٍ إلىٰ أرْبابِ الأحْوالِ الشَّيْطانيّة ، ومَاتَ مُتولِّي البَصْرَة ، وهَاجَت الأعْرابُ بها ، وفَتَحُوا السُّجونَ ، فتَخَلَّصَ قَومُه فبَادَرَ إلى البَصْرَة في رمَضانَ سَنةَ خمس وخمسين ومئتين ، وحَولَهُ جَماعَةٌ ، واسْتَجابَ له عَبيدٌ زُنوج للنَّاسِ ، فأفْسَدَهم وجَسَّرَهم ، عَمَدَ إلىٰ جَريدَةٍ ، فكَتَبَ علىٰ خِرقَةٍ عليها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾[٤] وكَتبَ اسْمَه ، وخَرجَ بهم في السَّحَر للَيْلَتَين بَقِيَت من رمَضانَ في ألفِ نَفْسٍ ، فخَطَبَهُم ، وقال : أنْتُم الأُمَراءُ وسَتَمْلِكُون ووَعَدَهم ، ومَنَّاهُم .

ثم لَمْ يَزَلْ يَنْهَبُ ويُغِيرُ ، ويَكْثُرُ جَمْعُه من كلِّ مائِقٍ[٥] وقاطِع طريق ، حتى اسْتَفْحَلَ أمرُه ، وعَظُمَتْ فِتْنَتُه ، وغَنِمَ الخُيولَ والسِّلاحَ ، والأمْتِعةَ والأمْوالَ والمَواشي ، وصَارَ من المُلوك وصَارَ كُلَّما حارَبَه عَسكَرٌ وانْهَزَموا ، فَرَّ إليه غِلْمانُ العَسكَر ، فحَشَدَ له أهلُ

---

(١) انظر السير : (الخَبيث) ١٣/ ١٢٩ـ١٣٦ ، وانظر النزهة : ٣/١٠٦٤ .
(٢) هجر : مدينة في البحرين .
(٣) انظر السير : (الخَبيث) ١٣/ ١٢٩ـ١٣٦ ، وانظر النزهة : ٤/١٠٦٤ .
(٤) سورة التوبة ، الآية : ١١١ .
(٥) مائق : حاقد ، والمأقة : الحِقْد .

البَصْرَة في ذي القعْدَة من العام ، والتَقوا ، فهَزَمَهُم ، وقتَلَ منهم مَقْتلَة ، ووَقَعَ رُعْبُه في النُّفوسِ ، فوَجَّهَ الخَليفَةُ جَيشاً ، فما نَفعُوا .

ثم أخَذَ الأهْوازَ ، فخَافَه أهْلُ البَصْرة ، وانجَفَلُوا ، فأخَذَها بالسَّيفِ في شَوَّالَ ، سَنةَ سَبعٍ وخمسين ، وقْتَ صَلاةِ الجُمُعَة ، وهَرَبَ جُندُها فأحْرَقَ الجامِعَ بمَنْ حَوَىٰ ، ولَمْ تَزَلْ الحَربُ بَينَه وبَينَ المُوَفَّقِ سِجالاً .

واسْتَباحَ واسطَ في سَنة أربعٍ وسِتِّين ، وحَصَلَ للخَبيثِ جَواهِرُ وأمْوالٌ ، فاسْتأثَرَ بها ، فأنْكَرَ عليه المُتَقشِّفونَ من أصْحابِه ، وذَكَرُوا له سِيرَةَ أبي بَكْرٍ وعُمَرَ ، فقالَ : لَيسَ فيهِما قُدْوَة .

وادَّعَىٰ أنَّه هُو عَبدُ الله المَذْكُور في : ﴿قُلْ أُوحِىَ﴾[1] وزَعَمَ أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم ما يَمْتازُ عليه إلاَّ بالنُّبُوَّة وزَعَمَ أنَّه تَكلَّمَ في المَهْدِ ، صِيحَ به : يا عَليّ! فقالَ : يا لَبَّيْك .

وكان يَجْمعُ اليَهودَ والنَّصارَىٰ ، يَسْألُهم عمَّا في التَّوْراةِ والإنْجيلِ مِنْ ذِكْرِه ، وهم يَسْخَرونَ منه ، ويَقْرَؤُونَ له فُصُولاً ، فيَدَّعي أنَّها فيه وزادَ من الإفْكِ فنَفَرَت منه قُلوبُ خَلقٍ من أتْباعِه ومَقَتُوه وبَقِيَ المُوَفَّقُ يُكْرِمُ كلَّ مَنْ فَرَّ إليه ، ويَخْلعُ عليهم ، وكَتَبَ إلى الخَبيثِ يَدعُوهُ إلى التَّوبَة من ادِّعاءِ مُخاطَبَة المَلائِكَة ، ومن تَحْريفِه القُرآنَ وضَلالَتِه ، فما أجابَ بشيءٍ ، وحَصَّنَ مَدينَتَه (المُخْتارَة) التي بِنَهْرِ أبي الخَصيبِ ، حتّىٰ بَقيَتْ يُضْرَبُ بها المَثَلُ ، ونَصَبَ فيها المَجانيقَ والأسْلِحَةَ بما بَهَرَ العُقولَ ، وبها نَحْوُ مِئَتي ألفِ مُقاتِلٍ ، فما قَدِرَ عليها الجَيشُ إلاَّ بالمُطاوَلَة ، وأنْشَأَ تِلْقاءَها المُوَفَّقُ مَدينَةً وسَكَنَها ، ولَمْ يَزَلْ إلىٰ أنْ أخَذَ (المُخْتارَة) فهَرَبَ الخَبيثُ إلىٰ مَضائِقَ في نَهْرِ أبي الخَصيب ، لا تَصِلُ إليها سَفينَةٌ ولا فارِسٌ ثم بَرَزَ في أبْطَالِه وقَاتَلَ أشَدَّ قِتالٍ ، وهو يَقولُ :

وعَـزيمَتِـي مِثْـلُ الحُسَـامِ وهِمَّتِـي ... نَفْـسٌ أصُـولُ بهـا كَنَفْـسِ القَسْـوَرِ

---

(١) سورة الجن ، الآية : ١ .

وإذا تُنازِعُني أقُولُ لها اسْكُتِي قَتْلٌ يُرِيحُكِ أوْ صُعُودُ المِنْبَرِ[1]

وجاءَ في تَرجَمَةِ المُعْتَضِد باللهِ قالَ الذهبيُّ : ولمَّا قُتِلَ المُتوكِّلُ غِيلَةً ، ثم قُتلَ المُعْتَزُّ ، ثُمّ المُسْتَعينُ والمُهْتَدي وضَعُفَ شأنُ الخِلافَةِ تَوثَّبَ ابْنا الصَّفَّارِ إلىٰ أنْ أخذَا خُراسَانَ بعدَ أنْ كانا يَعْمَلانِ النُّحاسَ ، وأقْبَلا لأخْذِ العِراقِ وقَلْعِ المُعْتَمِد .

وتَوثَّبَ طُرُقِيٌّ داهيةٌ بالزِّنج على البَصْرَة ، وأبادَ العِباد ومزَّقَ الجُيوشَ ، وحارَبوه بِضْعَ عَشرةَ سنةً إلىٰ أنْ قُتلَ وكان مارِقاً ، بلغَ جُنْدُه مئة ألف[2] .

فبَقِيَ يَتَشَبَّهُ بهَؤلاءِ كُلُّ مَنْ في رَأسِه رِئاسَةٌ ، ويَتَحَيَّلُ على الأُمَّة ليُرْديهِم في دِينِهم ودُنْياهُم ، فتَحَرَّكَ بقُرَى الكُوفَةِ رَجلٌ أظْهَرَ التَّعَبُّدَ والتَّزَهُّدَ ، وكانَ يَسفُّ الخُوصَ ويُؤثِر ، ويَدْعُو إلىٰ إمامِ أهْلِ البَيْتِ ، فتَلَفَّقَ له خَلقٌ وتَألَّهُوا إلىٰ سَنةِ سِتٍّ وثَمانينَ ، فظَهَرَ بالبَحْرَينِ أبو سَعيد الجَنَّابيّ ، وكانَ قَمَّاحاً ، فصَارَ مَعهُ عَسْكرٌ كَبيرٌ ، ونَهَبُوا ، وفَعَلُوا القَبَائِحَ ، وتَزَنْدَقُوا ، وذَهَبَ الأخَوانِ يَدْعُوان إلى المَهْديِّ بالمَغْرِبِ ، فثارَ مَعهُما البَرْبَرُ ، إلىٰ أنْ مَلَكَ عبدُ الله المُلَقَّبُ بالمَهْديِّ غَالِبَ المَغْرِبَ ، وأظْهَرَ الرَّفْضَ ، وأبْطَنَ الزَّنْدَقَةَ ، وقامَ بَعدَهُ ابنُهُ ، ثُمّ ابنُ ابنِه ، ثُمّ تَمَلَّكَ المُعِزُّ وأوْلادُه مِصْرَ والمَغْرِبَ واليَمنَ والشَّامَ ، دَهْراً طَويلاً فَلا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلاَّ بالله .

وفي سَنةِ ثَمانينَ ومئتين عاثَتْ بَنُو شَيْبانَ ، فسَارَ المُعْتَضِدُ ، فلَحِقَهُم بالسِّنِّ ، فقَتَّلَ وغَرَّقَ ومَزَّقَهُم ، وغَنِمَ العَسكَرُ من مَواشِيهِم ما لا يُوصَفُ ، حتّىٰ أُبيعَ الجَمَلُ بخَمسَةِ دَراهِم ، وصَانَ نِساءَهُم وذَراريهِم ، ودَخَلَ المُوصِلَ ، فجاءَتْهُ بَنُو شَيْبانَ ، وذَلُّوا ، فأخَذَ منهُم رَهائِنَ ، وأعْطَاهُم نِساءَهُم ، ومَاتَ في السِّجْنِ المُفَوِّضُ إلى الله ، وقِيلَ : كانَ المُعْتَضِدُ يُنادِمُه في السِّرِّ[3] .

* * *

---

(١) انظر السير : (الخَبيث) ١٣/ ١٢٩ـ١٣٦ ، وانظر النزهة : ١/١٠٦٥ .

(٢) انظر السير : (المُعتَضد بالله) ١٣/ ٤٦٣ـ٤٧٩ ، وانظر النزهة : ٢/١١٠٦ .

(٣) انظر السير : (المُعتَضد بالله) ١٣/ ٤٦٣ـ٤٧٩ ، وانظر النزهة : ٣/١١٠٦ .

خامساً : القَرامِطَة

جاء في ترجمة المعتضد بالله ، قال الذهبيُّ : وفي سنة ثمانٍ وسبعين ومئتين كان أوّلُ شأنِ القَرامِطَة[1] .

وفي سنة ستٍّ وثمانين ومئتين ، ظهر بالبَحْرَينِ رأسُ القَرامِطَة أبو سَعيد الجنَّابي ، وكثُرت جُموعُه ، وانضافَ إليه بَقايا الزَّنج ، وكان كَيَّالاً بالبَصْرَة ، فَقيراً يَرفو الأعْدال ، وهم يَسْتخِفُّونَ به ، ويَسْخَرونَ منه ، فآل آمرُه إلىٰ ما آل ، وهزمَ عَساكرَ المُعْتَضد مرَّات ، وفَعلَ العَظائم ، ثم ذُبح في حمَّام قَصرِه ، فخلفَه ابنُه سُليمانُ الذي أخذَ الحَجَرَ الأسْوَد ، وقَتَلَ الحَجيجَ حَولَ الكَعْبَة ، وهو جَدُّ أبي عليّ الذي غلب على الشام ، وهلك بالرَّملة في سنة خمس وستين وثلاث مئة[2] .

وفي سنة سبع وثمانين ومئتين : استفحل شأنُ القَرامِطَة ، وأسْرَفوا في القَتل والسَّبي ، والتقى الجنَّابيُّ وعبّاسٌ الأمير ، فأسَره الجنَّابيُّ ، وأسرَ عامَّة عَسكره ، ثم قَتلَ الجَميعَ سِوىٰ عبَّاس ، فجاء إلى المُعتَضِد وحدَه في أسْوأ حال .

ووقع الفناءُ بأذَرْبيجان ، حتىٰ عُدِمَت الأكفانُ جُمْلةً ، فكُفِّنوا في اللُّبود .

واعتلَّ المعتضدُ في ربيع الآخر ، ثم تماثَلَ ، وانتكَسَ ، فماتَ في الشهر ، وقام المُكْتَفي لثمانٍ بَقين من الشهر ، وكان غائباً بالرَّقَّة ، فنهَضَ بالبَيْعَة له الوَزيرُ القاسمُ بنُ عُبَيد الله .

وكانت خِلافة المعتضد تسعَ سنين ، وتسعةَ أشْهُر وأيَّاماً .

وقد وَليَ الخِلافة من بَنيه : المُكْتَفي عليٌّ ، والمُقْتَدِرُ جَعْفَرٌ ، والقَاهِرُ محمّدٌ ، وله عِدَّةُ بناتٍ ، وهارون[3] .

---

(١) انظر السير : (المُعتَضد بالله) ١٣/ ٤٦٣ـ ٤٧٩ ، وانظر النزهة : ١/١١٠٥ .

(٢) انظر السير : (المُعتَضد بالله) ١٣/ ٤٦٣ـ ٤٧٩ ، وانظر النزهة : ٢/١١٠٨ .

(٣) انظر السير : (المُعتَضد بالله) ١٣/ ٤٦٣ـ ٤٧٩ ، وانظر النزهة : ٣/١١٠٨ .

وجاء في ترجمة « المُكْتَفي بالله » ، قال الذهبيُّ : وفي سنة أربع وتسعين ومئتين : أخذَ زَكْرَوَيْه القِرْمِطيّ ركب العراق ، وكنّ نساء العرب يُجْهِزْنَ على الجَرْحَىٰ ، فيُقالُ : قَتلوا عشرين ألفاً ، وأخذوا ما قيمته ألفا ألفِ دينار ، ووقَع النَّوحُ في المُدُن ، وجهَّزَ المُكْتَفي جَيشاً لحَرْبه ، فلا تسأل ما فعل هـٰذا الكلبُ بالوَفْدِ!! ثمّ التَقوا فقُتل عامَّةُ أصحاب زَكْرَوَيْه ، وأُسِرَ هو وعِدَّة ، ثم مات من جراحه ، وأُحْرِقَ هو وجَماعة .

وفي سنة خمس وتسعين ومئتين : كان الفِداءُ بين المسلمين والرُّوم ، فافتُكَّ نحو ثلاثةُ آلاف نَفَر ، ومات المُكْتَفي شاباً ، في سابع ذي القعدة من السنة ، وعاشَ إحْدَىٰ وثلاثين سنةً وأشْهُراً[1] .

جاء في ترجمة « القِرْمِطيِّ » ، قال الذهبيُّ : عَدوُّ الله مَلكُ البَحْرَين ، أبو طاهر ، سُليمانُ بنُ حسن ، القِرْمِطيُّ[2] ، الجنَّابيُّ[3] ، الأعْرابيُّ الزِّنْديقُ الذي سارَ إلىٰ مكَّة في سبع مئة فارسٍ ، فاسْتباحَ الحَجيجَ كلَّهم في الحَرم ، واقْتَلعَ الحجَرَ الأسْوَدَ ، وردَمَ زَمْزَمَ بالقَتْلىٰ ، وصَعد علىٰ عتبة الكعبة يَصيحُ :

أنـــا بـــالله وبـــالله أنـــا   يَخْلُــقُ الخَلْــقَ وأُفْنيهــم أنــا

فقَتلَ في سِكَكِ مكَّة وما حَولها زُهاءَ ثلاثين ألفاً ، وسَبى الذُّرِّيَّةَ وأقامَ بالحَرمِ ستّةَ أيّام .

بذلَ السيفَ في سابع ذي الحجَّة ، ولمْ يُعرِّفْ[4] أحدٌ تلك السنة ، فللَّه الأمر وقَتلَ أميرَ مكَّة ابنَ مُحارب ، وعَرَّى البَيتَ ، وأخذَ بابَه ، ورجَعَ إلىٰ بلادِ هَجَر .

وقيل : دخلَ قِرْمِطيٌّ سَكرانٌ علىٰ فرسٍ ، فصفَّر له ، فبالَ عند البيت وضرَبَ الحجَرَ بدَبُّوس هشَّمَه ، ثم اقتلعَه ، وبقيَ الحجَرُ الأسودُ عندَهم نيِّفاً وعشرين سنة .

---

(١) انظر السير : (المُكْتَفي بالله) ١٣/ ٤٧٩ـ ٤٨٥ ، وانظر النزهة : ١/١١١٠ .

(٢) نِسْبَة إلىٰ حمدان قِرْمط ، وهو أوّل من نَشرَ مَذهبَ القَرامطة .

(٣) هـٰذه النسبة إلىٰ جنَّابة ، وهي بلدة من أعمال فارس متصلة بالبحرين عند سيراف ، والقرامطة منها ، فنُسبوا إليها .

(٤) لم يقف أحدٌ علىٰ جبل عرفة .

ويُقالُ : هلك تحتَه إلىٰ هَجَر أربعون جَمَلاً ، فلمَّا أُعيدَ كان علىٰ قَعُودٍ ضَعيف ، فسَمنَ .

وكان بُجْكم التُّرْكيُّ[1] دفعَ لهم فيه خمسين ألف دينار ، فأبوا وقالوا : أخذناه بأمرٍ ، وما نَرُدُّه إلاّ بأمرٍ .

وقِيلَ : إن الذي اقتَلَعَه صاحَ : يا حَمير ، أنتُم قُلتُم : ومَنْ دَخَلَه كان آمِناً ، فأيْنَ الأمنُ ؟!! قال رجلٌ : فاستَسْلمتُ ، وقلتُ : إنَّ اللهَ أرادَ : ومَنْ دخله فأمِّنُوه ، فلَوَىٰ فرَسَه وما كلَّمَني[2] .

واتَّفقَ أنَّ أبيَ السَّاجِ الأميرَ نَزَلَ بأبي سَعيدٍ الجَنَّابيِّ فأكْرَمَه ، فلمَّا سَارَ لِحَرْبِه ، بَعَثَ يَقولُ : لكَ عليَّ حَقٌّ ، وأنْتَ في خَمْسِ مِئَة وأنا في ثلاثينَ ألفاً فانْصَرِفْ ، فقالَ للرسُولِ : كَمْ معَ صَاحِبك ؟ قالَ : ثلاثُونَ ألفَ راكبٍ ، قال : ولا ثَلاثَة ، ثم دَعَا بعَبْدٍ أسْوَدٍ ، فقالَ له : خَرِّقْ بَطْنَكَ بهٰذه السِّكين ، فبَدَّدَ مَصارينَه ، وقالَ لآخر : اغْرَقْ في النَّهْرِ ، ففَعَل ، وقال لآخَر : اصْعَدْ علىٰ هٰذا الحَائِط ، وانْزِلْ علىٰ مُخِّكَ ، فهَلَكَ فقال للرسُولِ : إنْ كانَ مَعَهُ مِثلَ هٰؤلاء ، وإلاَّ فمَا مَعَه أحَدٌ .

وقِيلَ صَعَدَ قِرْمِطيٌّ لقَلعِ المِيزاب ، فسَقَطَ ، فماتَ وكان ذلكَ سَنةَ سَبعَ عَشْرَة وثلاث مئة ، وكان أميرُ العِراقَيْنِ مَنصُورُ الدَّيْلَميّ وجافَتْ[3] مكَّةُ بالقَتْلَىٰ .

قال المَراغيُّ : حَدَّثنا أبو عبدِ الله بنُ مخْرم ، وكانَ رسُولَ المُقْتَدِرِ إلى القِرْمِطيِّ ، قال : سألْتُه بعدَ مُناظَرَات عن اسْتِحْلالِه بما فَعَلَ بمَكّة فأحْضَرَ الحجر في الدِّيْباجِ ، فلمَّا أُبْرزَ كَبَّرتُ ، وأرَيْتُهم من تَعْظيمِه والتَّبَرُّكِ به علىٰ حالَةٍ كبيرةٍ ، وافْتُتِنَتْ القَرَامِطَةُ بأبي طاهر ، وكان أبُوهُ قد أطْلَعَه وحْدَه علىٰ كُنُوزٍ دَفَنَها ، فلمَّا تَمَلَّكَ ، كان يقولُ : هُنا كَنْزٌ ، فَيَحْفِرُون ، فإذا هم بالمَالِ فيَفْتَتِنُونَ به ، وقالَ مَرّةً : أريدُ أنْ أحْفرَ هُنا عَيْناً ، قالوا : لا تَنْبُع ، فخَالَفَهُم ، فنَبَعَ المَاءُ ، فازْدادَ ضَلالُهُم به ، وقالوا : هُوَ إلٰهٌ ، وقالَ

---

(١) أمير الأمراء في بغداد زمن الرَّاضي بالله والمُتَّقي كان داهيةً ، شُجاعاً ، قتلَه الأكْرادُ سنة ٣٢٩ هـ .

(٢) انظر السير : (القِرْمِطيّ) ١٥/ ٣٢٠ـ ٣٢٥ ، وانظر النزهة : ١٢٣٠ ـ ١٢٣١ .

(٣) جافت : أي أنتنت .

قَومٌ : هُوَ المَسيحُ ، وقِيلَ : نَبيٌّ وقد هَزَمَ جُيوشَ بَغْدادَ غَيرَ مَرّة ، وعَتَا وتَمَرَّدَ[1] .

قال مُحمّدُ بنُ رزام الكُوفيّ : حَكَىٰ لي ابنُ حمْدان الطَّبيبُ ، قال : أقَمتُ بالقَطيفِ أُعالِجُ مَريضاً ، فقالَ لي رَجلٌ : إنَّ اللهَ ظَهَرَ ، فخَرَجْتُ فإذا النَّاسُ يُهْرَعونَ إلىٰ دَارِ أبي طَاهِر ، فإذا هو ابنُ عِشْرينَ سَنة ، شَابٌّ مَليحٌ عَليه عَمامَةٌ صَفْراءُ ، وثَوبٌ أصْفَرُ علىٰ فَرسٍ أشْهَبْ ، وإخْوَتُه حَوْلَه فصَاحَ : مَنْ عَرَفَني عَرَفَني ، ومَنْ لَمْ يَعْرِفْني ، فأنا أبو طاهر سُلَيْمانُ بنُ أبي سَعيدِ الحَسَنُ ، الجَنَّابيُّ اعْلَمُوا أنَّا كُنَّا وإيّاكُم حَميراً ، وقد مَنَّ اللهُ عَلينَا بهَـٰذا ، وأشَارَ إلىٰ غُلامٍ أمْرَدَ ، فقالَ : هَـٰذا رَبُّنا وإلَـٰهُنا وكُلُّنا عِبادُهُ فأخَذَ النَّاسُ التُّرابَ ، فوَضَعُوهُ علىٰ رُؤوسِهم ثمَّ قالَ أبُو طاهر : إنَّ الدِّينَ قَد ظَهَرَ وهُو دينُ أبينا آدَمَ ، وجَميعُ ما أوْصَلَت إليكُم الدُّعاةُ باطِلٌ مِنْ ذِكْرِ مُوسَىٰ وعيسَىٰ ومُحمّد ، هَؤلاءِ دَجَّالُونَ وهـٰذا الغُلامُ هو أبُو الفَضْلِ المَجُوسيّ ، شَرَعَ لهُم اللِّواطَ ، ووَطْءَ الأُخْتِ ، وأمَرَ بقَتْلِ مَنْ امْتَنَعَ فأُدْخِلتُ عليه وبَينَ يَديْه عِدّةُ رُؤوسٍ ، فسَجَدْتُ له ، وأبُو طاهر والكُبَرَاءُ حَولَهُ قِيامٌ فقالَ لأبي طاهر : المُلوكُ لَمْ تَزَلْ تُعِدُّ الرُّؤوسَ في خَزائِنِها فسَلُوهُ كَيفَ بَقاؤُها ؟ فسُئِلْتُ ، فقُلتُ : إلَـٰهُنا أعْلَمُ ، ولكِنِّي أقُولُ : فجُمْلَةُ الإنْسانِ إذا مَاتَ يَحْتاجُ كَذَا وكَذَا صَبْراً وكافُوراً والرَّأسُ جُزْءٌ فيُعْطَىٰ حِسَابَه فقال : ما أحْسَنَ ما قال ثم قالَ الطَّبيبُ : ما زِلْتُ أسْمَعُهُم تِلكَ الأيّامَ يَلْعَنونَ إبْراهيمَ ومُوسَىٰ ومُحمَّداً وعَليّاً ورَأيتُ مُصْحَفاً مُسِحَ بغَائِطٍ .

وقال أبُو الفَضْلِ يَوماً لكاتِبه : أُكْتُبْ إلى الخَليفَةِ ، فصَلِّ لهم علىٰ مُحمَّد ، وكِلْ مِنْ جِرابِ النُّورَة[2] قالَ : واللهِ ما تَنْبَسِطُ يَدي لذلك ، فافْتَضَّ أبُو الفَضْل أُخْتاً لأبي طاهر الجَنَّابيِّ ، وذَبَحَ ولَدَها في حِجْرِها ثمَّ قَتَلَ زَوجَها ، وهَمَّ بقَتْلِ أبي طاهر ، فاتَّفَقَ أبو طاهر مع كاتِبه ابنِ سَنْبر ، وآخَر عليه فقالا : يا إلَـٰهَنا ، إنَّ والِدَةَ أبي طاهر قد ماتَتْ فاحْضَرْ لِتَحْشُوَ جَوْفَها ناراً ، قال : وكان سُنَّةً له ، فأتَىٰ فقالَ : ألا تُجيبَها ؟ قال : لا فإنَّها ماتَتْ كافِرَةً ، فعاوَدَهُ ، فارْتابَ وقالَ : لا تَعْجَلا عليَّ ، دَعاني أَخْدِمُ دَوابَّكُما

---

(١) انظر السير : (القِرْمِطِيّ) ١٥/ ٣٢٠ـ ٣٢٥ ، وانظر النزهة : ١/١٢٣١ .

(٢) أي اعمل معهم بالتُّقية .

إلىٰ أنْ يَأتِيَ أبي ، قالَ ابنُ سَنْبر : وَيْلَكَ هَتَكْتَنا ، ونَحنُ نُرَتِّبُ هـٰذه الدَّعوَةَ من سِتِّين سَنةً ، فلَوْ رآكَ أبُوكَ لَقتلَكَ أُقْتُلهُ يا أبا طاهر ، قال : أخافُ أنْ يَمْسَخَني ، فضَرَبَ أخُو أبي طاهر عُنُقَه ، ثمَّ جَمعَ ابنُ سَنْبر النَّاسَ ، وقالَ : إنَّ هـٰذا الغُلامُ وَرَدَ بكَذِب سَرقه من مَعْدن حَقّ ، وإنَّا وَجَدْنا فَوْقَهُ مَنْ يَنْكِحُه ، وقد كُنَّا نَسْمَعُ أنَّه لا بُدَّ للمُؤمنينَ مِنْ فِتْنةٍ يَظْهَرُ بَعدَها حَقٌّ ، فأطْفِئُوا بُيُوتَ النِّيرانِ وارْجِعُوا مِنْ نِكاحِ الأُمِّ ، ودَعُوا اللِّواطَ ، وعَظِّمُوا الأنْبياءَ ، فضَجُّوا وقالوا : كلُّ وَقتٍ تَقولُونَ لنا قَوْلاً ، فأنْفَقَ أبُو طاهر الذَّهَبَ حتّىٰ سَكَنُوا .

قال الطَّبيبُ : فأخْرَجَ إليَّ أبُو طاهر الحَجَرَ ، وقالَ : هـٰذا كانَ يُعْبَدُ .

قُلتُ : كلاَّ ، قالَ : بَلَىٰ قُلتُ : أنْتَ أعْلَمُ ، وأخْرَجَهُ في ثَوبٍ دَبيقيٍّ[1] مُمَسَّك .

ثمَّ جَرَت لأبي طاهر مع المُسلمينَ حُروبٌ أوْهَنَتْه وقُتِلَ جُنْدُه ، وطَلَبَ الأمانَ علىٰ أنْ يَرُدَّ الحَجَرَ ، وأنْ يأخُذَ عن كلِّ حَاجٍّ ديناراً ويَخْفِرَهم .

قال الذهبيُّ : ثمَّ هَلَكَ بالجُدَريِّ ـ لا رَحِمَهُ الله ـ سَنَةَ اثْنَتينِ وعشرينَ وثلاثِ مِئَة بهَجَر كَهْلاً وقامَ بَعدَه أبُو القاسِم سَعيد[2] .

* * *

---

(١) نسبة إلىٰ « دبيق » وهي بُليدَة كانت بين الفرما وتنيس ، من أعمال مصر .

(٢) انظر السير : (القِرْمِطِيّ) ١٥/ ٣٢٠ـ ٣٢٥ ، وانظر النزهة : ١/١٢٣٢ .

سادساً : مُتنبِّئون

جاء في ترجمة « القَسْري » ، قال محمد بن يزيد الرفاعيّ ، سَمعتُ أبا بكر بن عيَّاش يقول : رأيتُ خالداً القَسْري حين أتىٰ بالمُغيرَة ابن سعيد وأصحابه ، وكان يُريهم أنَّه يُحْيي المَوتَىٰ ، فقَتلَ خالدٌ واحداً منهم ، ثم قال للمُغيرَة : أَحْيِه ، فقال : والله ما أُحْيي المَوتَىٰ ، قال : لتُحيينَّه أو لأضْربَنَّ عُنقَك ، ، ثم أمر بطنٍّ من قصب فأضرموه ، وقال : اعتنقه ، فأبىٰ ، فعدا رجلٌ من أتباعه فاعتنقه ، قال أبو بكر : فرأيتُ النَّار تأكُله وهو يُشيرُ بالسبَّابة ، فقال خالد : هـٰذا والله أحقُّ بالرئاسة منك ، ثم قتلَه وقتلَ أصحابه[1] .

قال الذهبيُّ : كان المُغيرَةُ بنُ سَعيد رافضيّاً ، خَبيثاً ، كذّاباً ، ساحراً ، ادَّعى النُّبـوَّة ، وفضّـل عَليّـاً علـى الأنبيـاء ، وكـان مُجَسِّمـاً ، سُقـتُ أخبـارَه فـي « ميـزان الاعتدال » .

وكان خالدٌ علىٰ هِنَاته يَرجع إلىٰ إسلام[2] .

وعن المأمون قال : أعْياني جَوابُ ثلاثة :

صِرتُ إلىٰ أُمِّ ذي الرِّياسَتين ، الفَضلِ بن سَهْل ، أُعَزِّيها فيه ، وقلتُ : لا تأسَيْ عليه ، فإنِّي عِوَضُهُ لك ، قالت : يا أميرَ المؤمنين وكيفَ لا أحْزَنُ علىٰ ولدٍ أكْسَبَني مثلَك[3] .

وأُتيتُ بمُتَنبىءٍ ، فقلتُ : مَنْ أنتَ ؟ قال : أنا موسى بن عِمْران ، قلتُ : وَيْحَك! ، موسى بن عِمْران كانت له آياتٌ ، فائتِني بها حتىٰ أؤمنَ بك قال : إنَّما أتَيتُ بالمُعْجِزات فِرْعَونَ ، فإنْ قُلتَ : أنا رَبُّكُم الأعْلىٰ كما قالَ ، أتَيتُكَ بالآياتِ .

---

(١) انظر السير : (القَسْري) ٥/ ٤٢٥ـ ٤٣٢ ، وانظر النزهة : ٦/٦١٨ .

(٢) انظر السير : (القَسْري) ٥/ ٤٢٥ـ ٤٣٢ ، وانظر النزهة : ١/٦١٩ .

(٣) انظر السير : (المأمون) ١٠/ ٢٧٢ـ ٢٩٠ ، وانظر النزهة : ٥/٨٧٦ .

وأتىٰ أهلُ الكوفَة يَشْكونَ عاملَهم ، فقال خَطيبُهم : هو شَرُّ عاملٍ ، أمّا في أوّلِ سنةٍ ، فبعْنا الأثاثَ والعَقارَ ، وفي الثانية بِعْنا الضِّياعَ ، وفي الثالثة نَزَحْنا وأتيناكَ ، قال : كذَبتَ ، بلْ هو مَحْمودٌ ، وعَرَفتُ سُخطَكم على العُمَّال قال : صَدَقتَ يا أميرَ المؤمنين ، وكذَبتُ ، قد خَصَصْتَنا به مدّة دون باقي البلاد ، فاستعمِلْه علىٰ بلدٍ آخرَ لِيَشْمَلَهم من عَدلِهِ وإنْصافِه ما شَمِلَنا فقُلتُ : قُمْ في غير حِفظِ الله ، قد عَزَلْتُه[1] .

وكانت الحُروبُ شَديدةً بينَ عَسْكرِ الإسلام وبين بابك ، وظَهَر باليَمنِ الصَّناديقيُّ ، وقَتلَ ، وسَبىٰ ، وادَّعَى النُّبوَّةَ ، ثم هَلَكَ بالطَّاعُونِ[2] .

* * *

(١) انظر السير : (المأمون) ١٠/ ٢٧٢ـ ٢٩٠ ، وانظر النزهة : ١/٨٧٧ .

(٢) انظر السير : (المأمون) ١٠/ ٢٧٢ـ ٢٩٠ ، وانظر النزهة : ٦/٨٧٧ .

سابعاً : مُرْتَدُّون

جاء في ترجمة « عِماد الدولة بن هود » ، قال الذهبيُّ : وكان ابنُ رُذمير مَعروفاً بالوفاء ، حدَّثَني مَنْ أثقُ به أنَّ رجلاً كانت له بنتٌ من أجْمل النساء ففقَدَها ، فأُخْبِرَ أنَّ كَبيراً من رؤوس الرُّوم خَرجَ بها إلىٰ سَرَقُسْطَة ، فتبَعه أبَواها وأقاربُها ، فشَكَوه إلى ابن رذمير ، فأحضرَه ، وقال : عليَّ بالنار ، كيف تَفعَلُ هـٰذا بمَنْ هو في جواري ؟ فقالَ الرُّوميُّ : لا تَعْجَل عليَّ ، فإنَّها فَرَّت إلىٰ ديننا ، فجيء بها ، فأنكَرَت أبَوَيْها ، وارتَدَّت ولمّا دخلَ سَرَقُسْطَة ، أقرَّهم على الصلاة في جامِعِها سبعةَ أعوام ، وبعد ذلك يعمل ما يَرىٰ ، وحاصَر قُتُنْدَة[1] بعد سَرَقُسْطَة سنتين ، فلمّا كان في آخر سنة أربع عشرة ، قصَدَه عبد الله بن حيونة في جيش فيهم قاضي المَريّة ، أبو عبد الله بنُ الفراء ، وأبو علي ابنُ سُكَّرة ، فبرزَ لهمُ اللَّعينُ ، فقتَلَ خَلْقاً ، وأُسرَ آخرون ، واستُشْهدَ المَذْكوران ، فبنىٰ عليهم ابنُ رذمير قُبوراً ، ثم سُلِّمَ البلدُ إليه ، وأخذَ في تلك المدة دورقة ، وقلعة أيُّوب ، وطَرَسُونة ، وأكثر من مئتي مسَوَّر ، ولم يَبْقَ أكثرُ من ثلاثة مدائن لم يأخذها ، وبقي من أعمال بَني هود لا رِدَة ولا إفراغة ، وطُرْطُوشَة ، وغير ذلك معاملة عشرة أيام لم يَظْفَرْ اللَّعينُ بها ، فقام بلارِدة الهُمامُ البَطَلُ أبو محمد ، وقام بإفراغة الزاهدُ المُجاهدُ محمد مَردنيش الجُذامي جَدُّ الأمير محمد بن سَعْد[2] .

وجاء في ترجمة « يوسف بن أيُّوب » ، قال الذهبيُّ : سَمعتُ صافيَ ابنَ عبد الله الصُّوفيّ يقول : حَضرتُ مَجْلِس يوسف في النظاميّة ، فقام ابنُ السقَّاء ، فآذَى الشيخَ ، وسألَه عن مَسألةٍ ، فقال : اجلس ، إنِّي أجدُ من كَلامك رائحَةَ الكُفْر ولَعَلَّكَ تَموتُ علىٰ غير الإسْلام ، فاتَّفَقَ أنَّ ابنَ السَّقّاء ذهبَ في صُحْبَة رسولِ طاغية الرُّومِ ، وتَنَصَّر بقُسْطَنْطينيّة[3] .

---

(١) وهي ثغر سرقسطة من قُرىٰ مرسية .

(٢) انظر السير : (عماد الدولة بن هود) ٢٠/ ٣٧ـ ٤١ ، وانظر النزهة : ١/١٥٢٦ .

(٣) انظر السير : (يوسُف بن أيُّوب) ٢٠/ ٦٦ـ ٦٩ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٣١ .

وأمّا ابنُ السَّقّاء المذكورُ ، فقال ابنُ النجّار : سَمعتُ عبدَ الوَهّاب ابنَ أحمد المُقرىء يقولُ : كان ابنُ السَّقّاء مُقرئاً مُجَوِّداً ، حَدَّثَني مَنْ رآه بالقُسْطَنْطينيّة مَريضاً علىٰ دكَّةٍ ، فسألتُه : هل القُرآنُ باقٍ علىٰ حِفْظك ؟ قال : ما أذكُرُ منه إلاّ آيةً واحدةً : ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴾[1] والباقي نَسيتُه[2] .

وجاء في ترجمة « المُعِزِّ » عزِّ الدنيا والدين ، أيْبَك التُّرْكمانيّ ، قال الذهبيُّ : ومَلَّكوا وَلدَه المنصور ، عليَّ ابنَ أيْبَك ، وله خمس عشرة سنة .

عاشَ المُعِزُّ ، أيْبَك التُّركمانيُّ نَيِّفاً وخمسين سنة وقُتِلَ في سنة خمسٍ وخمسين وستِّ مئة[3] .

وأمّا المنصورُ عليُّ بنُ أيْبَك فعُزِلَ وتمَلَّكَ قُطزُ الذي كَسَرَ التَّتارَ ، فبعثَ بعليٍّ وبأخيهِ قليج إلىٰ بلاد الأشكُري ، فحدَّثَني سيفُ الدين قليج هـٰذا أنَّ أخاه تَنَصَّرَ بقُسْطَنْطينيّة وتزَوَّجَ وجاءَته أولادٌ نَصارىٰ ، وعاش إلىٰ نَحْو سنة سبع مئة ، وسمَّىٰ نفسَه ميخائيل[4] .

قال الذهبيُّ : نَعوذُ بالله من الشَّقاء ، فهـٰذا بعد سَلطَنة مصرَ كفرَ وتعثَّرَ[5] .

* * *

---

(١) سورة الحجر ، الآية : ٢ .

(٢) انظر السير : (يوسُف بن أيُّوب) ٢٠/٦٦ـ٦٩ ، وانظر النزهة : ٥/١٥٣١ .

(٣) انظر السير : (المُعِزّ) ٢٣/١٩٨ـ٢٠٠ ، وانظر النزهة : ١/١٧٢٩ .

(٤) انظر السير : (المُعِزّ) ٢٣/١٩٨ـ٢٠٠ ، وانظر النزهة : ٣/١٧٢٩ .

(٥) انظر السير : (المُعِزّ) ٢٣/١٩٨ـ٢٠٠ ، وانظر النزهة : ٤/١٧٢٩ .

ثامناً : مَلاحِدَة

الرِّيوَندِي

جاء في ترجمة « الرِّيوَندي » ، قال الذهبيُّ : المُلْحِدُ ، عَدوُّ الدِّين ، أبو الحَسَن أحمدُ بنُ يَحْيىٰ بنُ إسْحاق الرِّيوَندي ، صاحبُ التصانيف في الحَطِّ من الملَّة ، وكان يُلازِمُ الرَّافِضَة والمَلاحِدَة ، فإذا عُوتِبَ قال : إنَّما أريدُ أن أعرفَ أقْوالَهم .

ثم إنَّه كاشَف وناظَرَ ، وأبْرَزَ الشُّبَهَ والشُّكوكَ .

قال ابنُ الجَوزي : كنتَ أسْمَعُ عنه بالعَظائم ، حتىٰ رأيتُ له ما لم يَخْطُرْ علىٰ قلب

قال ابنُ عَقيل : عَجَبي كيف لم يُقْتلْ!! وقد صَنَّفَ « الدَّامِغَ » ، يَدْمَغُ به القُرآنَ ، و« الزُّمُرُّدَة » ، يُزْري فيها على النُّبوَّات وقال ابنُ الجَوْزي : فيه هَذَيانٌ باردٌ لا يتعلَّقُ بشُبهَة!! ، يقولُ فيه : إنَّ كلام أكْثَمَ بنِ صَيفي فيه ما هو أحْسَنُ من سورة الكوْثَر!! ، وإنَّ الأنبياءَ وَقعوا بطَلاسم وألَّفَ لليَهود والنَّصارىٰ يحْتَجُّ لهم في إبْطالِ نُبوَّة سَيِّد البشَر وقد سَردَ ابنُ الجَوْزي من بَلاياه نَحْواً من ثلاثة أوْراق .

قال ابنُ النجَّار : أبو الحَسَن ابنُ الرِّيوَندي المُتكلِّمُ من أهلِ مروِ الرُّوذ ، سكنَ بَغدادَ ، وكان مُعْتَزليّاً ، ثم تَزَنْدَق ، وقيلَ : كان أبُوه يَهوديّاً فأسْلمَ هو ، فكان بعضُ اليَهودِ يقولُ للمسلمين : لا يُفسِدُ هـٰذا عَليكم كتابَكم ، كما أفسَدَ أبوهُ علينا التَّوْراةَ .

قال البَلخيُّ : لم يكن في نُظَراء ابن الرَّاوَندي مثلُه في المَعقول وكان أوّلَ أمرِه حَسَنَ السِّيرَة ، كَثيرَ الحَياء ، ثم انْسَلَخَ من ذلك لأسباب ، وكان عِلمُه فوقَ عَقلِه .

قال : وقد حُكيَ عن جماعة أنَّه تاب عند مَوْته .

وقال في بعض المُعْجِزات : يقولُ المُنَجِّمُ كهـٰذا .

وقال : في القُرآنِ لَحْنٌ .

وألَّفَ في قِدَم العالَم ، ونَفْي الصَّانع .

وقال : يقولون : لا يأتي أحدٌ بمثل القُرآن ، فهـٰذا إقْليدس[1] لا يأتي أحدٌ بمثله ، وكذلك بَطْلَيْموس[2] .

ماتَ سنة ثمان وتسعين ومئتين .

وقيل : ما طال عُمْرُهُ ، بل عاشَ ستّاً وثلاثينَ سنةً .

لعَنَ اللهُ الذَّكاءَ بلا إيمانٍ ، ورَضيَ اللهُ عن البَلادَة مع التَّقْوَىٰ[3] .

* * *

(١) مظهر الهندسة والمبرز فيها ، وهو من الفلاسفة الرياضيين .

(٢) فلَكيٌّ ، رياضيٌّ شَهير ، وهو الذي أخرجَ عِلم الهَندسَة من القوة إلى الفعْل .

(٣) انظر السير : (الرِّيوَندِي) ١٤/٥٩ـ ٦٢ ، وانظر النزهة : ١١٢٩ ـ ١١٣٠ .

تاسعاً : مَجُوس

مَجُوسٌ خَرجوا لإقامَةِ مِلَّتِهم « الخُرَّمِيَّة »

جاء في ترجمة « المَأمُون » ، قال الذهبيُّ : وكانت الحُروبُ شَديدةً بينَ عَسْكرِ الإسلام وبين بابَك ، وظَهَر باليَمنِ الصَّناديقيُّ ، وقَتلَ ، وسَبىٰ ، وادَّعَى النُّبوَّةَ ، ثم هَلَكَ بالطَّاعُونِ(١) .

وفي سنة اثنتي عشرة : سار محمد بن حميد الطوسي لمحاربة بابَك ، وأظهَر المَأمُونُ تفضيلَ عليٍّ على الشَّيْخَين ، وأنَّ القُرآنَ مَخْلوقٌ ، واستعملَ علىٰ مِصْرَ والشَّامِ أخاهُ المُعْتَصم ، فقتلَ طائفةً وهذَّبَ مِصْرَ ، ووقع المَصافُّ مع بابَك مرّات(٢) .

وجاء في ترجمة « المُعْتصِم » ، قال الذهبيُّ : واشتدَّ البَلاءُ ببابَك ، وهزمَ الجُيوشَ ، ودخلَ في دينه خَلائق من العَجَم ، وعَسكَرَ بهَمَذَان ، فبرزَ لقتالِه إسْحاقُ المُصْعَبِيّ ، فكانت مَلْحمَةً عُظمَىٰ ، فيُقالُ : قُتلَ منهم ستُّونَ ألْفاً ، وهَربَ باقيهم إلى الرُّومِ(٣) .

وفي سنة اثنتينِ وعشرينَ ومئتَين ، كان المَصَافُّ بين بابَك الخُرَّمي وبين الأفشين ، فطحَنَه الأفشينُ ، واستباحَ عَسكرَه ، وهَربَ ، ثم إنَّه أُسِرَ بعد فُصولٍ طَويلة ، وكان أحدَ الأبطالِ ، أخافَ الإسلامَ وأهْلَه ، وهزمَ الجُيوشَ عشرينَ سنةً ، وغلَبَ علىٰ أذَرْبيجانَ وغيرِها ، وأرادَ أنْ يُقيم المِلَّةَ المَجُوسيَّة(٤) .

وكان المُعْتصِم والمَأمُونُ قد أنفَقوا علىٰ حرب بابَك قناطيرَ مُقَنْطَرة من الذَّهب والفِضَّة ، ففي هٰذه السَّنَة ، بعثَ المُعْتصِم نَفَقات إلىٰ جَيشِه مع الأفشين ، فكانت

---

(١) انظر السير : (المأمون) ١٠/ ٢٧٢ـ ٢٩٠ ، وانظر النزهة : ٦/٨٧٧ .

(٢) انظر السير : (المأمون) ١٠/ ٢٧٢ـ ٢٩٠ ، وانظر النزهة : ٧/٨٧٧ .

(٣) انظر السير : (المُعْتَصم) ١٠/ ٢٩٠ـ ٣٠٦ ، وانظر النزهة : ٨/٨٧٨ .

(٤) انظر السير : (المُعْتَصم) ١٠/ ٢٩٠ـ ٣٠٦ ، وانظر النزهة : ٩/٨٧٨ .

ثَلاثينَ ألفَ ألفِ درْهَم ، وأُخِذَت البَذُّ ، مَدينةُ بابَك اللَّعين ، واخْتَفىٰ في غَيضةٍ ، وأُسِرَ أهْلُه وأولادُه ، وقُطِعَ دابرُ الخُرَّميَّة[1] .

وقال المسعوديُّ : هرب بابَك بأخيه وأهلِه وخَواصِّه في زيِّ التُّجَار ، فنزلَ بأرض أرْمينيَّة بعمل سَهل بن سنباط ، فابتاعوا شاةً من راعٍ ، فنكِرَهم ، فأتىٰ سَهْلاً فأعلَمَه ، فقال : هـٰذا بابَكُ بلا شكٍّ ، فركب في أجناده حتىٰ أتىٰ بابَك ، فترجَّل وسلَّم عليه بالمُلك ، وقال : قُمْ إلىٰ قَصْرك ، فأنا عَبدُك ، فمَضىٰ معه ، ومدَّ السِّماطَ له ، وأكلَ معه ، فقال بابَكُ : أمثلُكَ يأكلُ مَعي!! فوقفَ واعتَذَر ، ثم أحضرَ حَدَّاداً ليُقيِّدَه ، فقال : أغَدْراً يا سَهلُ ؟ قال : يا ابنَ الفاعلة ، إنَّما أنتَ راعيَ بقرٍ ، ثم قيَّدَ أتباعَه ، وكاتبَ الأفشين ، فجهَّزَ أربعة آلاف ، فتسلَّموه وجاءَ سَهلٌ ، فخَلَعَ عليه الأفشينُ ، وبُعثَت بطاقةٌ بذلك إلىٰ بَغدادَ ، فضَجَّ الناسُ بالتكبير والشُّكرِ لله ، ثم قدموا ببابَك في صَفر سنة ثلاث وعشرين ومئتين[2] .

وكان هـٰذا الشَّقيُّ ثَنويّاً علىٰ دين ماني ومَزْدَك ، يقول بتَناسُخ الأرْواح ، ويَسْتَحلُّ البنتَ وأُمَّها[3] .

وقيلَ : إنَّه أبادَ من الأُمَّة خَلائقَ ، وبخَطِّ الإمام ابن الصَّلاح ، : أنَّ قَتْلَىٰ بابَك بلَغوا ألفَ ألفٍ وخَمس مئة ألف ، وأُحْصِيَ قَتْلَىٰ أبي مسلم الخُرسانيّ ، فبَلَغوا ألفي ألف[4] .

وجاء في ترجمة « المعتضد بالله » ، قال الذهبيُّ : فظهر بعد المئتين بابَك الخُرَّميُّ ، زِنْديقٌ بأذْرَبيجانَ ، وكان يُضرَبُ بفَرْطِ شَجاعَته الأمثالُ ، فأخذَ عِدَّة مَدائن ، وهَزَم الجُيوشَ إلىٰ أنْ أُسِرَ بحيلةٍ ، وقُتلَ[5] .

* * *

---

(١) انظر السير : (المُعْتَصم) ١٠/ ٢٩٠ـ ٣٠٦ ، وانظر النزهة : ٨٧٩/ ١ .
(٢) انظر السير : (المُعْتَصم) ١٠/ ٢٩٠ـ ٣٠٦ ، وانظر النزهة : ٨٧٩/ ٢ .
(٣) انظر السير : (المُعْتَصم) ١٠/ ٢٩٠ـ ٣٠٦ ، وانظر النزهة : ٨٧٩/ ٣ .
(٤) انظر السير : (المُعْتَصم) ١٠/ ٢٩٠ـ ٣٠٦ ، وانظر النزهة : ٨٧٩/ ٤ .
(٥) انظر السير : (المُعْتَضدُ بالله) ١٣/ ٤٦٣ـ ٤٧٩ ، وانظر النزهة : ١١٠٦/ ١ .

المعْجِزاتُ والكرامات

أولاً : المُعْجِزَات

من مُعْجزات سَيِّد الخَلق محمدٍ صلى الله عليه وسلم :

جاء في ترجمة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، لما قَدِمَ عليه أَسْرىٰ كِسْرَىٰ وفيهم الهُرْمُزان ، قال الذهبيُّ : فقال عُمرُ الحَمدُ لله الذي سَلبَ كِسْرَىٰ وقَومَه حُليَّهم وكِسْوتَهم وألْبَسَها سُراقَةَ ، ثم دَعا الهُرمُزانَ إلى الإسْلام فأبَىٰ ، فقال عليُّ بنُ أبي طالب : يا أميرَ المؤمنين فَرِّقْ بين هـٰؤلاء ، فحَملَ عُمرُ الهُرْمُزانَ وجُفَيْنَةَ وغيرَهما في البَحر ، وقال : اللَّهُم اكْسِر بهم ، وأرادَ أن يَسيرَ بهم إلى الشَّام فكُسرَ بهم ولمْ يَغْرَقوا فرَجَعوا فأسْلَموا ، وفَرضَ لهم عُمرُ ألْفَين ألفَين ، وسَمَّى الهُرمُزانَ عَرْفَطَة .

قال المِسْوَرُ بنُ مَخْرَمة : رأيتُ الهُرْمُزانَ بالرَّوْحاءِ مُهلاً بالحَجِّ مع عُمرَ ، وقال عليُّ بنُ زَيد بنِ جُدعان ، عن أنسٍ قال : ما رأيتُ رَجلاً أَخْمَصَ بَطْناً ولا أبْعدَ ما بينَ المِنْكَبين من الهُرْمُزان .

وعن عبد الرزَّاق ، عن معمر ، عن الزُّهْري : أخبرني سَعيدُ بنُ المُسَيِّب ، أنَّ عبدَ الرحمـٰن بن أبي بكر ـ ولم تُجرَّب عليه كَذبَةٌ قَطُّ ـ قال : انتَهيتُ إلى الهُرْمُزان ، وجُفَيْنَة وأبي لؤلؤة ، وهم نَجِيٌّ فتَبعتُهم ، وسَقطَ من بَينِهم خِنْجَرٌ له رَأسان ، نِصابُه في وَسَطِه ، فقالَ عبدُ الرحمـٰن : فانظُروا بم قُتلَ عُمرُ ، فنَظَروا فوَجدوه خِنْجَراً علىٰ تلك الصِّفَة ، فخرَجَ عُبيدُ الله بنُ عُمر ابن الخطاب مُشْتَملاً على السَّيف ، حتىٰ أتى الهُرْمُزان فقال : اصْحَبني نَنظُر فَرَساً لي ـ وكان بَصيراً بالخَيْل ـ فخَرج يمْشي بين يَديه فعَلاه بالسَّيف ، فلمَّا وَجَدَ حدَّ السَّيف قال : لا إلـٰه إلا الله ، فقَتلَه ، ثم أتىٰ جُفَيْنَة ، وكان نَصْرانيّاً ، فلمَّا أشْرَفَ له عَلاهُ بالسَّيف ، فصَلبَ بين عَينيه ، ثم أتىٰ بنتَ أبي لؤلؤة جاريَةً صَغيرة تَدَّعي الإسْلامَ فقتَلَها ، وأظْلَمَت الأرضُ يَومئذٍ علىٰ أهلها ، ثم أقْبلَ

بالسَّيف صَلْتاً في يده ، وهو يقولُ : والله لا أترُكُ في المَدينَة سَبياً إلاَّ قَتلتُه وغَيرُهم ، كأنَّه يُعرِّضُ بناسٍ من المُهاجرين ، فجَعلوا يَقولون له : ألقِ السَّيفَ ، فأبىٰ ، ويَهابُونَه أنْ يَقْربوا منه ، حتىٰ أتاه عَمرو بنُ العَاص فقال : أعْطِني السَّيفَ يا ابنَ أخي ، فأعْطَاه إيَّاه ، ثم ثارَ إليه عُثمانُ فأخذَ برأسِه فتَناصَيا[1] حتىٰ حَجزَ الناسُ بينهم ، فلمَّا وَلِيَ عُثمانُ قال : أشِيروا عليَّ في هـٰذا الذي فَتقَ في الإسْلام ما فَتَق ، فأشار المُهاجرون بقَتْلِه ، وقال جَماعَةُ الناسِ : قُتلَ عُمرُ بالأمس ويُتْبعُونَه ابنَه اليومَ!! أبْعَدَ اللهُ الهُرْمُزانَ وجُفَيْنَة ، فقال عَمرو : إنَّ اللهَ قد أعْفاكَ أنْ يكونَ هـٰذا الأمرُ في وِلايَتِك ، فاصْفَحْ عَنه[2] ، فتَفرَّقَ الناسُ علىٰ قَول عَمرو ، وَوَدىٰ عُثمانُ الرَّجُلين والجَارِيَة[3] .

وعن ابنِ مَسْعودٍ رضي الله عنه قال : كُنتُ أرْعَىٰ غَنماً لعُقبَة بنِ أبي مُعَيْط ، فمَرَّ بي رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وأبو بَكر ، فقال : « يا غُلامُ! هلْ من لَبَنٍ ؟ » قلتُ : نَعم ، ولكنِّي مُؤتَمَنٌ ، قال : « فهَلْ من شاةٍ لمْ يَنزُ عليها الفَحلُ ؟ » فأتَيتُه بشاةٍ ، فمَسَح ضِرْعَها ، فنزلَ لبنٌ ، فحَلبَ في إناءٍ فشَربَ ، وسَقىٰ أبا بَكر ، ثم قال للضَّرعِ : « اقْلُصْ » ، فقَلصَ ، ثم أتيتُه بعد هـٰذا فقلتُ : يا رسولَ الله! عَلِّمني من هـٰذا القَولَ ، فمَسحَ رَأسي وقال : « يَرحَمك اللهُ إنَّك غُلَيِّم مُعلَّم » .

قال الذهبيُّ : هـٰذا حَديثٌ صَحيحُ الإسنادِ ، ورَواه أبو عُوانَة عن عاصِم بن بَهْدَلة ، وفيه زيادة منها : فلقد أخَذتُ من فيه صلى الله عليه وسلم سَبعين سُورةً ما نازَعَني فيها بَشرٌ[4] .

عن أبي هُرَيْرَة رضي الله عنه قال : والله ، إنْ كنتُ لأعْتَمدُ على الأرض من الجُوع ، وإنْ كُنتُ لأشُدُّ الحَجَرَ علىٰ بَطني من الجُوع ، ولقد قَعدتُ علىٰ طَريقِهم ، فمرَّ بي أبو بَكر ، فسَألتُه عن آية في كتاب الله ـ ما أسْألُه إلاَّ ليَسْتَتبِعَني ـ فمرَّ ، ولمْ

---

(١) تناصيا : أي تواخذا بالنواصي .

(٢) قال صاحب النزهة : أي أن عثمان لم يكن قد تولَّى الخلافة حين صنع عبيد الله ما صنع ، ولم يكن أمر المسلمين قد اجتمع علىٰ إمام بعد .

(٣) انظر السير : (عمر بن الخطاب) ، وانظر النزهة : ٢/٥٨ .

(٤) انظر السير : (عبد الله بن مسعود) ١/ ٤٦١ـ ٥٠٠ ، وانظر النزهة : ١/١٩٣ .

يَفعلْ ، فمرَّ عُمرُ فسَألتهُ فكذلك ، حتىٰ مرَّ بي رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فعَرفَ ما في وَجهي من الجُوع ، فقال صلى الله عليه وسلم : « أبو هُرَيْرَة ؟ » قلتُ : لَبَّيكَ يا رسولَ الله ، فدَخلتُ مَعه البَيتَ ، فوَجدَ لبناً في قَدحٍ ، فقالَ : « مِنْ أَيْنَ لَكمْ هَـٰذا » ، قِيلَ : أَرسَلَ به إليكَ فُلان .

فقال صلى الله عليه وسلم : « يا أبا هُرَيْرَة ، انْطَلِق إلىٰ أهْلِ الصُّفَّة[1] فادْعُهم » ـ وكان أهْلُ الصُّفَّة أضْيافُ الإسْلام ، لا أهْلَ ولا مَالَ ، إذا أتَتْ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم صَدقَةٌ أرسَلَ إليهم بها ، ولم يُصِبْ منها شَيئاً ، وإذا جاءَته هَديةٌ ، أصابَ منها ، وأشْرَكَهم فيها ـ فسَاءَني إرسالُه إيَّاي ، فقلتُ : كنتُ أرْجُو أن أُصيبَ من هـٰذا اللَّبن شَربَةً أتَقوَّىٰ بها ، وما هـٰذا اللَّبنُ في أهل الصُّفَّة .

ولمْ يكنْ من طاعَة الله ورسُولِه صلى الله عليه وسلم بُدٌّ ، فأتَيتُهم ، فأقبَلوا مُجيبين ، فلمَّا جَلسُوا ، قال صلى الله عليه وسلم : « خُذْ يا أبَا هُرَيْرَة فَأَعْطِهِمْ » ، فجعلتُ أُعطي الرجلَ ، فيَشربُ حتىٰ يَروَىٰ ، حتىٰ أتَيتُ علىٰ جَميعِهم ، وناوَلتُه رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم فرَفعَ رأسَه إليَّ مُبتَسِماً ، وقال : « بَقِيتُ أنا وأنْتَ » . قلتُ : صدقت يا رسولَ الله ، قال صلى الله عليه وسلم : « فاشْرَبْ » ، فشَربتُ ، فقال صلى الله عليه وسلم : « اشْرَبْ » ، فشَربتُ ، فما زالَ يقولُه : « اشْرَبْ » ، فأشْرب ، حتىٰ قلتُ : والذي بَعَثكَ بالحَقِّ ، ما أجدُ له مَساغاً ، فأخذَ ، فشَربَ من الفَضْلَة[2] .

وقال يَزيدُ بنُ عبد الرحمَـٰن ، حدَّثني أبو هُرَيْرَة ، قال : والله ، ما خَلقَ اللهُ مُؤمناً يَسمَعُ بي إلاَّ أحَبَّني . قُلتُ : وما عِلْمُك بذلك ؟ قال : إنَّ أمِّي كانت مُشْركَة ، وكنتُ أدْعُوها إلى الإسْلام ، وكانت تأبَىٰ عليَّ ، فدَعَوتُها يوماً ، فأسْمَعَتْني في رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ما أكرَه ، فأتيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وأنا أبْكي ، فأخْبَرتُه ، وسَألتُه أنْ يَدعُوَ لها ، فقال صلى الله عليه وسلم : « اللَّهُمَّ اهْدِ أُمَّ أبي

---

(١) الصفة : كانت في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة يكون فيها فقراء المهاجرين ، ومن لا منزل له منهم ، وأهلها منسوبون إليها .

(٢) انظر السير : (أبو هريرة) ٢/٥٨٧ـ ٦٣٢ ، وانظر النزهة : ٦/٣٠٧ .

هُرَيْرَةَ » . فخَرجتُ أعْدُو أُبَشِّرُها ، فأتَيتُ ، فإذا البابُ مُجاف ، وسَمعتُ خَضْخَضَةَ الماءِ ، وسَمعَتْ حِسِّي ، فقالت : أشْهَدُ أنْ لا إلَـٰهَ إلاَّ الله ، وأنَّ مُحمَّداً عَبدُهُ ورَسُولُه .

قال فرَجَعتُ إلىٰ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم أبْكي من الفَرَح كما بَكيتُ من الحُزْن ، فأخْبَرتُه ، وقُلتُ : ادْعُ اللهَ أنْ يُحَبِّبَني وأُمِّي إلىٰ عِبادِه المؤمنين ، فقال صلى الله عليه وسلم : « اللَّهُمَّ حَبِّبْ عُبَيْدَكَ هَـٰذَا وأُمَّهُ إلىٰ عِبَادِك المؤمنين ، وحَبِّبْهُ إلَيهِما » إسنادُه حَسَن .

وكان حِفظُ أبي هُرَيْرَة الخارقُ من مُعجِزاتِ النُّبوَّة[1] .

وقال أبو بَكْرَة : رَأيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم على المِنبَر والحَسَن إلىٰ جَنبه وهو يقولُ : « إنَّ ابْنِي هَـٰذا سَيِّدٌ ، ولَعَلَّ اللهَ أنْ يُصْلِحَ به بَينَ فِئَتَيْنِ مِن المُسْلِمِين »[2] .

وعن عبدِ اللهِ بنِ جَعْفَر ، قال : أرْدَفَني رسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم ذَاتَ يومٍ خَلفَه ، فأسَرَّ إليَّ حَديثاً لا أُحَدِّثُ به أحداً . فدَخلَ حَائِطاً ، فإذا جَملٌ فلمَّا رَأى النبيَّ صلى الله عليه وسلم حَنَّ وذَرفَت عيناهُ[3] ،[4] .

وجاء في ترجمة « المستعصم » ، قال الذهبيُّ : وفي سَنة أرْبَع وخَمسين وستٍّ مئة كان ظُهورُ الآية الكُبرىٰ ، وهي النَّارُ بظاهِر المَدينة النَّبويَّة ، ودَامَت أيّاماً تَأكلُ الحِجارَة ، واستغاثَ أهلُ المَدينة إلى الله وتابوا ، وبَكَوا ، ورَأىٰ أهلُ مكَّةَ ضَوءَها من مكَّة ، وأضاءَت لها أعْناقُ الإبل ببُصْرىٰ ، كما وعدَ بها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فيما صحَّ عنه ، وكُسِفَ فيها الشمسُ والقَمرُ ، وكان فيها الغَرقُ العَظيمُ ببَغدادَ ، وهلكَ خَلقٌ من أهلها ، وتَهدَّمَت البُيوتُ ، وطفحَ الماءُ على السُّور[5] .

---

(١) انظر السير : (أبو هريرة) ٢/٥٧٨ـ٦٣٢ ، وانظر النزهة : ١/٣٠٨ .

(٢) انظر السير : (الحسن بن علي بن أبي طالب) ٣/٢٤٥ـ٢٧٩ ، وانظر النزهة : ٧/٣٧٨ .

(٣) وتمامه : فأتاه النبيُّ صلى الله عليه وسلم فمسح ذفراهُ فسكتَ ، فقال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ ربُّ هـٰذا الجمل ؟ » فجاء فتىً من الأنصار فقال : لي يا رسول الله . فقال صلى الله عليه وسلم : « أفلا تتقي الله في هـٰذه البهيمة التي ملكك الله إياها ؟ ، فإنه شَكا إليَّ أنَّك تُجيعه وتدئبه » .

(٤) انظر السير : (عبد الله بن جعفر) ٣/٤٥٦ـ٤٦٢ ، وانظر النزهة : ٣/٤٠٧ .

(٥) انظر السير : (المستعصم بالله) ٢٣/١٧٤ـ١٨٤ ، وانظر النزهة : ٢/١٧٢٤ .

ثانياً : الكرامَات

١ـ ضَابطٌ لقَبولِ الكرامَة :

قال أبو حَفْص بنُ شاهين : حدَّثنا أحمدُ بنُ محمَّد المُؤذِّن ، سَمعتُ محمَّدَ بنَ مَنصور الطُّوسيَّ ، وحَواليه قَومٌ ، فقالوا : يا أبا جَعْفَر ، أيش اليوم عندَك ؟ ، قد شَكَّ النَّاسُ فيه ، أيومَ عَرفَة هو أو غَيره ؟ فقال : اصْبروا ، فدَخلَ البيتَ ، ثم خَرجَ ، فقالَ هو يومُ عَرفَة ، فاسْتَحيوا أن يقولوا له : مِنْ أينَ ذلك ، فعَدُّوا الأيَّامَ فكانَ كما قال . فسَمعتُ أبا بَكْر ابنَ سَلام الورَّاقُ يقول له : مِنْ أينَ عَلمتَ ؟ قال : دَخلتُ ، فسَألتُ رَبِّي فأراني النَّاسَ في المَوْقِف . !!

قال الذهبيُّ : لا أعرفُ هٰذا المُؤذِّن ، ولمْ يَبعُد وُقوعُ هٰذا لمثلِ هٰذا الوَليِّ ، ولكن الشأنُ في ثُبوت ذلك[١] .

وقال سُلطان العَارفينَ ، أبو يَزيد البَسْطاميّ : لله خَلقٌ كَثيرٌ يَمشون على الماء ، لا قِيمَةَ لهم عند الله ، ولو نَظرتُم إلىٰ مَنْ أُعْطِيَ من الكَراماتِ حتىٰ يَطيرَ ، فلا تَغْترُّوا به حتىٰ تَروا كيفَ هو عند الأمرِ والنَّهْي ، وحِفظِ الحُدود والشَّرع . وله هٰكذا نُكتٌ مَليحَة[٢] .

٢ـ تَعليلٌ لكثرَة الكرامَات في بَني إسْرائيلَ وقِلَّتها في هٰذه الأُمَّة :

جاءَ عن بَكرٍ المُزنيِّ ، وهو في « الزُّهْد » لأحمدَ ، قالَ : كان الرجلُ في بَني إسرائيلَ إذا بَلغَ المَبْلَغَ ، فمَشىٰ في النَّاسِ تُظلُّه غَمامةٌ .

قال الذهبيُّ : شَاهدُه أنَّ الله قال : ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ ﴾[٣] ، ففَعلَ بهم تعالىٰ

---

(١) انظر السير : (محمد بن منصور) ١٢/ ٢١٢ـ ٢١٤ ، وانظر النزهة : ٢/٩٩٤ .
(٢) انظر السير : (أبو يزيد البَسْطامي) ١٣/ ٨٦ـ ٨٩ ، وانظر النزهة : ٣/١٠٥٥ .
(٣) سورة البقرة ، الآية : ٥٧ .

ذلك عاماً وكان فيهم الطائعُ والعاصي ، فنبيُّنا صَلوات الله عليه أكْرَمُ الخَلْقِ علىٰ ربّه وما كانت له غَمامَةٌ تُظلُّه ، ولا صَحَّ ذلك ، بل ثَبتَ أنَّه لمَّا رَمَى الجَمرَةَ كان بلالٌ رضي الله عنه يُظِلُّه بثَوبِهِ من حَرِّ الشمس ، ولكن كان في بَني إسْرائيلَ الأعاجيبُ والآيات ، ولمَّا كانت هـٰذه الأمَّةُ هي خَيرُ الأمَم ، وإيمانُهم أثْبتُ ، لم يَحتاجوا إلىٰ بُرهان ، ولا إلىٰ خَوارِقَ ، فافْهَم ذلك ، وكلَّما ازدادَ المؤمنُ عِلماً ويَقيناً ، لمْ يَحْتَجْ إلى الخَوارِق ، وإنَّما الخَوارقُ للضُّعَفاء ، ويَكثُر ذلك في اقْترابِ السَّاعة[1] .

٣ـ الرَّدُّ على الذي يُعجَبُ من الكرامَة :

جاءَ في تَرجمَة أبي يَزيد البَسْطاميِّ ، قال الذهبيُّ : وقيلَ له : إنَّك تمرُّ في الهَواء ، فقال : وأيُّ أُعْجُوبَة في هـٰذا! ؟ وهـٰذا طَيرٌ يأكلُ المَيْتَة ، يَمرُّ في الهَواء[2] ،[3] .

٤ـ الرَّد على الذي لا يُصَدِّقُ الكرامَات :

عن قَتادَة قال : كان مُطرِّفُ بنُ عبد الله وصاحبٌ له سَرَيا في ليلة مُظلمة ، فإذا طَرفُ سَوط أحدُهما عندَه ضَوءٌ ، فقال : أما إنَّه لو حَدَّثْنا النَّاسَ بهـٰذا ، كذَّبونا ، فقال مُطرِّفٌ : المكذِّبُ أكْذَبُ[4] .

وعن غيلان بنِ جَرير قال : أقبلَ مُطرِّفٌ مع ابن أخٍ له من الباديَة ـ وكان يَبدُو ـ فبَينا هو يَسيرُ سَمعَ في طَرف سَوطِه كالتَّسْبيح ، فقال له ابنُ أخيه : لو حَدَّثْنا النَّاسَ بهـٰذا كذَّبونا . فقال مُطرِّفٌ : المكَذِّبُ أكْذَبُ النَّاس[5] .

٥ـ الاسْتقامَة عَينُ الكرامَة :

قال الرَّازيُّ : سَمعتُ عليَّ بنَ محمد المصريّ ـ ونحن في جنازةِ ابنِ أبي حاتم ـ يقول : قَلَنْسوة عبد الرحمـٰن من السَّماء ، وما هو بعجب ، رجلٌ مُنذُ ثمانينَ سنةٍ علىٰ

---

(١) انظر السير : (بكر بن عبد الله) ٤/ ٥٣٢ـ ٥٣٦ ، وانظر النزهة : ١/٥٥٠ .
(٢) انظر حلية الأولياء : ١٠/ ٣٥ ، وتتمة الخبر فيه : « والمؤمن أشرف من الطير » .
(٣) انظر السير : (أبو يزيد البَسطامي) ١٣/ ٨٦ـ ٨٩ ، وانظر النزهة : ٥/١٠٥٤ .
(٤) انظر السير : (مطرِّف بن عبد الله) ٤/ ١٨٧ـ ١٩٥ ، وانظر النزهة : ٢/٤٧٦ .
(٥) انظر السير : (مطرِّف بن عبد الله) ٤/ ١٨٧ـ ١٩٥ ، وانظر النزهة : ٣/٤٧٦ .

وتيرةٍ واحدة ، لَم يَنحَرِفْ عن الطريق ، وسَمعتُ عليَّ بنَ أحمد الفَرَضي يقول : ما رأيتُ أحداً ممن عَرَفَ عبدَ الرَّحمـٰن ذَكرَ عنه جَهَالةً قَطُّ . وسَمعتُ أحمدَ بنَ محمد بنِ الحُسَيْن الحافظ يَحكي عن عليّ بنِ الحُسَيْن الدَّرستيني ، أنَّ أبا حاتم كان يَعرفُ الاسمَ الأعْظَم ، فَمَرِضَ ابنُه ، فاجتَهَدَ أنْ لا يَدعُوَ به ، فإنَّه لا يُنالُ به الدُّنيا ، فلمَّا اشتَدَّت العِلة ، حَزِنَ ودعا به ، فعُوفِي ، فرأىٰ أبو حاتم في نومه : استجبتُ لك ولكنْ لا يُعقِبُ ابنُك . فكان عبدُ الرحمـٰن مع زوجته سَبعين سنةً فلَم يُرزَق ولداً[1] .

وقيلَ للمُرْتَعشي : فُلانٌ يَمشي على الماءِ ، قال : عندي أنَّ مَنْ مَكنَّه الله من مُخالَفَة هَواه فهو أعْظَمُ من المَشيِ على الماءِ .

وسُئِلَ : أيُّ العَمل أفْضَل ؟ قال : رُؤيَةُ فَضْل الله .

تُوفي المُرْتَعشيُّ ـ رَحمه الله ـ سنة ثمانٍ وعشرين وثلاث مئة[2] .

وقال أبو الفَضلِ بنُ خَيرون : كان أبو الحُسَين بنُ الغَريق صائمَ الدَّهْر ، زاهداً ، قَضىٰ ستاً وخَمسينَ سَنةً ، وخَطبَ ستاً وسبعين سَنةً لم تُعرَف له زَلَّة ، وكانت تلاوَتُه أحسنَ شيءٍ[3] .

وجاء في ترجمة ابنِ عَساكر ، قال أبو المَواهِب : وأنا أقولُ : لم أرَ مثلَه ولا مَنْ اجْتمعَ فيه ما اجْتَمَع فيه من لُزوم طَريقة واحدة مدَّة أربعينَ سنةً من لُزومِ الجَماعَة في الخَمس في الصَّفِّ الأوَّل ، إلاَّ من عُذرٍ ، والاعْتكافِ في رَمضانَ وعَشرِ ذي الحِجَّة ، وعَدمِ التَّطَلُّع إلىٰ تَحصيل الأمْلاك وبناءِ الدُّور ، قد أسْقطَ ذلك عن نَفسه ، وأعْرَضَ عن طَلَبِ المَناصِب من الإمَامَةِ والخَطابَةِ ، وأباها بعد أن عُرِضَت عليه ، وقِلَّةِ الْتِفاتِه إلى الأُمَراء ، وأَخذِ نَفسِه بالأمْرِ بالمَعْروف والنَّهْي عن المُنْكر لا تَأخُذُه في الله لَومَةُ لائمٍ . قال لي : لمَّا عَزمتُ على التَّحْديث ، والله المُطَّلِعُ أنَّه ما حَملَني علىٰ ذلك حُبُّ الرِّئاسَة والتَّقدُّم ، بلْ قُلتُ : مَتىٰ أَرْوي كُلَّ ما قد سَمعتُه ، وأيُّ فائدَة في كَوني أُخَلِّفُه بَعدي

---

(١) انظر السير : (عبد الرحمـٰن بنُ أبي حاتم الرَّازي) ١٣/ ٢٦٣ـ ٢٦٩ ، وانظر النزهة : ١/١٠٧٩ .

(٢) انظر السير : (المُرْتَعشيّ) ١٥/ ٢٣٠ـ ٢٣١ ، وانظر النزهة : ١/١٢٢٤ .

(٣) انظر السير : (ابن المهتدي بالله) ١٨/ ٢٤١ـ ٢٤٤ ، وانظر النزهة : ٤/١٤٠٨ .

صَحائفَ ؟ فاسْتَخرْتُ اللهَ ، واسْتأذَنتُ أعْيانَ شُيوخي ورُؤساءَ البَلدِ ، وطُفْتُ عليهم ، فكلٌّ قال : ومَنْ أحقُّ بهـٰذا منكَ ؟ فشَرعتُ في ذلك سنةَ ثلاثٍ وثلاثين[1] .

٦ـ قَولٌ جَميلٌ للتُّسْتَري يُنبِّه المُعْجَبَ بكرامَته :

قال ابنُ سالم الزَّاهد ، شَيخُ البَصْرة : قال عبدُ الرحمَـٰن لسَهْلِ ابنِ عبدِ الله : إنِّي أتَوَضَّأُ فيَسيلُ الماءُ من يَدي ، فيَصيرُ قُضبانَ ذَهبٍ ، فقال : الصِّبْيَانُ يُناوَلون خَشْخَاشَةً[2] .

٧ـ العالم يُفرِّقُ بين الكرامَةِ والاسْتِدْراج :

جاء في تَرجَمة « أبي مَيْسَرَة » ، قال الذهبيُّ : كان يَختمُ القُرآنَ كلَّ ليلة في مَسْجِده ، فرأىٰ لَيلةً نُوراً قد خَرجَ من الحائطِ ، وقال : تَملأْ من وَجهي ، فأنا ربُّك ، فبَصَقَ في وَجْهِهِ ، وقال : اذْهَبْ يا مَلْعُون ، فطُفِىءَ النورُ[3] .

٨ـ أمثلة جميلة علىٰ كرامات الصالحين :

جاء في تَرجَمة أميرِ المؤمنين عُمرَ بنِ الخَطَّاب ، قال الذهبيُّ : فلمَّا نزلَ سعدُ بنُ أبي وَقَّاص بَهُرَسيرَ ـ وهي المدينة التي فيها مَنزِلُ كِسْرَىٰ ـ طلبَ السُّفُنَ ليَعبُرَ بالنَّاسِ إلى المَدينة القُصْوَىٰ ، فبَقِيَ أيّاماً حتىٰ أتَاهُ أعْلاجٌ فدَلُّوهُ علىٰ مَخاضَة ، فأبَىٰ ، ثم إنه عَزَمَ له أنْ يَقْتَحمَ دِجْلَة ، فاقْتَحَمَها المسلمون وهي زائدةٌ تَرمي بالزَّبَد ، ففَجِىءَ أهلَ فارس أمرٌ لمْ يكُنْ لهم في حِساب ، فقاتَلوا ساعةً ثم انْهَزَموا ، وتَركُوا جُمْهُورَ أمْوالِهم ، واسْتَولَى المسلمون علىٰ ذلك كله ، ثم أتَوا إلى القَصرِ الأبْيَض ، وبه قَومٌ قد تَحَصَّنوا ثم صالَحُوا[4] .

---

(١) انظر السير : (ابن عساكر) ٢٠/ ٥٥٤ـ ٥٧١ ، وانظر النزهة : ١/١٥٨٥ .

(٢) انظر السير : (سَهل بن عبد الله « التُّسْتَريّ ») ١٣/ ٣٣٠ـ٣٣٣ ، وانظر النزهة : ٦/١٠٩٣ .

(٣) انظر السير : (أبو مَيْسرة) ١٥/ ٣٩٥ـ٣٩٦ ، وانظر النزهة : ٢/١٢٤٠ .

(٤) انظر السير : (عمر بن الخطَّاب) رضي الله عنه ، وانظر النزهة : ١/٦٦ .

وقِيلَ إنَّ الفُرْسَ لمَّا رَأوا اقْتحامَ المسلمين الماءَ تَحيَّروا وقالوا : واللهِ ما نُقاتِلُ الإنْسَ ولا نُقاتِلُ إلاَّ الجنَّ ، فانْهَزَموا .

ونزَلَ سَعدٌ القَصرَ الأبْيض ، واتَّخذَ الإيوانَ مُصلَّىٰ ، وإنَّ فيه لتَماثيل جَصّ فما حَرَّكَها .

ولمَّا انتهىٰ إلىٰ مكان كِسْرَىٰ أخذَ يقرأُ ﴿ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٢٥ وَزُرُوعٍ . . ﴾ الآية[1] .

قالوا : وأتَمَّ سَعدٌ الصَّلاةَ يومَ دَخلَها ، وذلك أنَّه أرادَ المُقامَ بها ، وكانت أوّلَ جُمُعَة جُمِعَت بالعِراق ، وذلك في صَفَر سنةَ ست عشرة .

قال الطبريُّ : قسَّمَ سَعدٌ الفَيءَ بعد ما خمَّسَه ، فأصابَ الفارسُ اثنا عشرَ ألفاً ، وكلُّ الجَيشِ كانوا فُرْساناً[2] .

وبينما عُمرُ رضي الله عنه يَخطبُ إذْ قال : « يا سَاريَةَ الجَبلَ » ، وكان عُمرُ قد بَعثَ سَاريَةَ بنَ زنيم الدُّؤَلي إلىٰ فسا ودارا بَجِرد[3] ، فحاصَرَهم ، ثم إنَّهم تَداعَوا وجاؤُوه من كل ناحِيَة ، والتَقَوا بمكان ، وكان إلىٰ جِهَة المسلمين جَبلٌ لوِ اسْتَنَدوا إليه لَمْ يُؤتَوا إلا من وَجْه واحد ، فلَجَأوا إلى الجَبلِ ، ثم قاتلوهم فهَزَموهم ، وأصابَ سَاريَةُ الغَنائمَ ، فكان منها سفط جَوْهرَ ، فبَعثَ به إلىٰ عُمرَ ، فرَدَّه وأمَرَه أنْ يَقسِمَه بينَ المسلمين ، وسَألَ النجَّابَ[4] أهـلُ المَدينَة عن الفَتْح ، وهل سَمِعوا شيئاً ، فقال : نعم ، « يا سَاريَةَ الجَبلَ . الجَبلَ » ، وقد كِدْنا نَهلك ، فلَجَأنا إلى الجَبلِ ، فكانَ النَّصرُ[5] .

قال سُليمانُ بنُ بلال ، عن يَحْيىٰ بنِ سَعيد ، عن سَعيدِ بنِ المسَيَّب ، أنَّ زَيدَ بنَ

---

(١) سورة الدخان ، الآية : ٢٥ .
(٢) انظر السير : (عمر بن الخطَّاب) رضي الله عنه ، وانظر النزهة : ١/٦٦ .
(٣) هي في بلاد فارس .
(٤) هو الذي أرسله سارية مبشراً بالفتح .
(٥) انظر السير : (عمر بن الخطَّاب) رضي الله عنه ، وانظر النزهة : ٧٦ .

خارجَة تُوفِّي زَمنَ عُثمان رضي الله عنه ، فسُجِّيَ بثوبٍ ، ثم إنَّهم سَمعوا جَلْجَلَةً في صَدرِه ، ثم تكلَّم فقالَ : أحمدُ أحمدُ في الكتاب الأوّل ، صَدَقَ صَدَقَ أبو بَكر الضَّعيفُ في نَفسِه القَويُّ في أمرِ الله في الكتاب الأوّل ، صَدَقَ صَدَقَ عُمرُ القَويُّ الأمينُ في الكتاب الأوّل ، صَدَقَ صَدَقَ عُثمانُ علىٰ مِنْهاجِهم ، مَضتْ أربعُ سنين وبَقيَتْ سَنتان ، أتَتْ الفِتنُ وأكلَ الشَّديدُ الضَعيفَ ، وقامت السَّاعةُ ، وسيأتيكم خَبرُ بِئْرِ أريس ، وما بِئْرُ أريس .

قال ابنُ المُسَيِّب : ثم هَلكَ رجلٌ من بَني خطمة ، فسُجِّيَ بثوب فسَمعوا جَلْجَلَةً في صَدرِه ، ثم تكلَّم فقال : إنَّ أخا بَني الحارث بنِ الخَزْرَج صَدَقَ صَدَقَ .

قال ابنُ عبد البَرّ : هـٰذا هو الذي تكلَّم بعدَ المَوتِ ، لا يَختلفون في ذلك ، وذلكَ أنَّه غُشيَ عليه وأُسريَ بروحه ، ثم راجَعته نفسُه فتكلَّم بكلامٍ في أبي بَكر ، وعُمرَ ، وعُثمانَ ، ثم مات لوَقْته[1] .

وعن ماويَّة مَولاة حُجَير ، وكان خُبَيْبُ بن عَديّ قد حُبِسَ في بيتها ، فكانت تُحدِّثُ بعد ما أسلمت ، قالت : والله إنَّه لمَحْبوسٌ إذْ اطَّلَعتُ من صِير الباب إليه ، وفي يده قِطْفُ عِنَب مثلُ رَأس الرجل يأكلُ منه ، وما أعلمُ في الأرض حبَّةُ عنب[2] .

وعن عبدِ الله بنِ عبدِ الرحمَـٰن بن أبي صَعْصَعَة أنَّه بَلغَه أنَّ عَمرو ابنَ الجَموح ، وابنَ حِرام كان السَّيلُ قد خرَّبَ قَبرَهما ، فحُفرَ عنهما ليُغيَّرا من مَكانِهما ، فوُجِدا لمْ يَتغيَّرا ، كأنَّما ماتا بالأمس ، وكان أحدُهم قد جُرِحَ ، فوَضَعَ يدَه علىٰ جُرحِه ، ، فدُفن كذلك ، فأُميطَت يَدُه عن جُرحِه ، ثم أُرسِلَت ، فرَجعَت كما كانت ، وكان بين يوم أُحُد ويوم حُفِرَ عليهما ستٌّ وأربَعون سنة[3] .

وكان أبو هُريرَة يقولُ : رَأيتُ من العَلاء ثلاثةَ أشْياء لا أزالُ أحِبُّه أبداً : قطعَ البحرَ

---

(١) انظر السير : (عثمان بن عفان) ، وانظر النزهة : ٨٢ .
(٢) انظر السير : (خُبَيْبُ بن عَديّ) ١/ ٢٤٦ـ٢٤٩ ، وانظر النزهة : ١/ ١٥٦ .
(٣) انظر السير : (عَمرو بن الجَموح) ١/ ٢٥٢ـ ٢٥٥ ، وانظر النزهة : ٤/ ١٥٨ .

علىٰ فَرَسِه يومَ دارين[1] ، وقَدِمَ يُرِيدُ البَحْرين ، فدعا الله بالدَّهْناء ، فنَبع لهم ماءٌ فارتَوَوا ، ونَسِيَ رجلٌ منهم بعضَ مَتاعه ، فردَّ فلقيَه ، ولم يَجد الماءَ .

ومات ونحنُ علىٰ غير ماء ، فأبْدى اللهُ لنا سَحابةً ، فمُطرنا ، فغَسَّلناه ، وحَفرنا له بسُيوفنا ، ودفنَّاه ، ولم نُلْحِدْ له[2] .

وعن جَابرٍ قال : رُمِيَ سعدٌ يومَ الأحْزابِ ، فقَطَعُوا أكْحلَه ، فمَسَّهُ النبيُّ صلى الله عليه وسلم بالنَّارِ ، فانتُفخَتْ يَدُه ، فترَكَه ، فنزَفَه الدَّمُ ، فحَسَمَه أُخْرَىٰ ، فانتُفَخَتْ يَدُه ، فلمَّا رَأَىٰ ذلكَ ، قال : اللَّهُمَّ لا تُخْرِجْ نَفْسِي حتىٰ تُقرَّ عَينِي من بَنِي قُرَيْظَة . فاسْتَمْسَكَ عِرْقُه ، فما قَطَرَتْ منه قَطْرَةٌ . حتىٰ نزَلُوا علىٰ حُكْمِ سَعدِ بنِ مُعَاذ ، فأرْسَلَ إليه رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم فحَكَمَ أنْ يُقْتَلَ رجَالُهم ، وتُسْبَىٰ نِسَاؤُهم وذَرَارِيهم ، قال : وكانُوا أرْبَعَ مِئَةٍ ، فلمَّا فُرِغَ من قَتْلِهم ، انْفَتَقَ عِرْقُه[3] .

وعن محمدِ بنِ شُرَحْبيل بنِ حَسْنة قال : أخذَ إنسانٌ قَبضَةً من تُرابِ قَبر سَعد فذهب بها ، ثم نَظرَ فإذا هي مِسْكٌ[4] .

وقد تَواتَرَ قولُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم : « إنَّ العَرْشَ اهْتَزَّ لِمَوْتِ سَعْدٍ فَرَحاً به » ، وثَبتَ أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال في حُلَّةٍ تَعجَّبوا من حُسْنِها : « لَمَناديلُ سَعدِ ابنِ مُعَاذ في الجنَّة خيرٌ من هٰذه » .

وعن جابرٍ قال : جاء جِبريلُ إلىٰ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : مَنْ هٰذا

---

(١) داري هي فرضة بالبحرين يجلب إليها المسك من الهند ، والنسبة إليها داريّ ، وقال ياقوت الحموي في « معجم البلدان » ، وفي كتاب سيف : أن المسلمين اقتحموا إلىٰ دارين البحر مع العلاء بن الحضرمي ، فأجازوا ذلك الخليج بإذن الله جميعاً يمشون علىٰ مثل رملة ميثاء فوقها ماء يغمر أخفاف الإبل ، وإن ما بين دارين والساحل مسيرة يوم وليلة لسفر البحر في بعض الحالات ، فالتقوا ، وسبوا ، فبلغ منهم الفارس ستة آلاف ، والرجل ألفين ، فقال في ذلك عفيف بن المنذر :

ألـم تـر أنَّ الله ذلّـل بحـره ... وأنـزلَ بـالكفـار إحـدى الجـلائـل

دعـونـا الـذي شـقَّ البحـار فجـاء ... بـأعجـب مـن فلـق البحـار الأوائـل

(٢) انظر السير : (العَلاء بن الحَضْرميّ) ١/ ٢٦٢ـ٢٦٦ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٩ .

(٣) انظر السير : (سَعد بن مُعاذ) ١/ ٢٧٩ـ٢٩٧ ، وانظر النزهة : ١/١٦٤ .

(٤) انظر السير : (سَعد بن مُعاذ) ١/ ٢٧٩ـ٢٩٧ ، وانظر النزهة : ٣/١٦٥ .

العَبدُ الصَّالحُ الذي مات ؟ ، فُتحَتْ له أبوابُ السَّماءِ ، وتَحرَّك له العَرْشُ ، فخرج رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا سَعدٌ ، قال : فجَلسَ علىٰ قَبْرِه . الحديث .

قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « هـٰذا العَبدُ الصَّالحُ الذي تَحرَّكَ له العَرْشُ وفُتِحَتْ له أبْوابُ السَّمَاءِ ، وشَهِدَه سَبعونَ ألفاً من المَلائكة لَمْ يَنْزِلوا إلى الأرْضِ قَبلَ ذلك ، لقدْ ضُمَّ ثم أُفْرِجَ عَنه » . يَعني سَعداً[1] .

وكان عبَّاد بنُ بِشْر من سادَة الأَوْس ، عاشَ خَمساً وأربَعين سَنةً ، وهو الذي أضاءَت له عَصاتُه ليلةَ انقلَبَ إلىٰ مَنزِله من عندِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، أَسْلَمَ علىٰ يد مُصْعَب بنِ عُمَير ، وكان أحدَ مَنْ قَتلَ كعْبَ ابنَ الأشْرَف اليَهوديّ ، واستعمَلَه النبيُّ صلى الله عليه وسلم علىٰ صَدقات مُزَينة وبني سليم ، وجعله علىٰ حَرَسه في غَزوَة تَبوك ، وكان كبيرَ القَدْر رضي الله عنه ، أبلىٰ يوم اليَمامَة بلاءً حسناً ، وكان أحدَ الشُّجْعان المَوْصُوفين[2] .

قال قَيسُ بنُ أبي حَازِم : سَمعتُ خَالدَ بنَ الوَلِيدِ يقولُ : مَنَعَني الجِهَادُ كثيراً من القِراءَةِ ورَأَيتُه أَتَىٰ بسُمٍّ ، فقالوا : ما هـٰذا ؟ قالوا : سُمٌّ ، قال : بِسْمِ الله . وشَرِبَه .

قال الذهبيُّ : هـٰذه والله الكَرَامَةُ ، وهـٰذه الشَّجَاعَةُ[3] .

وعن أبي البُختريّ ، قال : بينا أبو الدَّرْداء يُوقدُ تحت قِدْر له ، إذ سَمعتُ في القِدْر صَوتاً يَنْشُجُ كَهَيئة صَوت الصَّبيِّ ، ثم انْكَفأت القدرُ ، ثم رجعَت إلىٰ مكانِها ، لَمْ يَنصبّ منها شيءٌ . فجَعلَ أبو الدَّرْداء يُنادي : يا سَلمانُ انظُر إلىٰ ما لم تَنْظُر إلىٰ مثله أنْتَ ولا أبُوك!! فقال له سَلمانُ : أما أنَّكَ لَوْ سَكتَّ ، لسَمعتَ من آيات ربِّكَ الكُبرىٰ[4] .

وقال مُطَرِّفُ بنُ عبد الله : قال لي عِمْرانُ بنُ حُصَين : أحدِّثُكَ حَديثاً عَسى الله أنْ

---

(١) انظر السير : (سَعد بن مُعاذ) ١/ ٢٧٩ـ ٢٩٧ ، وانظر النزهة : ١/١٦٦ .

(٢) انظر السير : (عَبَّاد بن بِشْر) ١/ ٣٣٧ـ ٣٤٠ ، وانظر النزهة : ٢/١٧٣ .

(٣) انظر السير : (خالد بن الوليد) ١/ ٣٦٦ـ ٣٨٤ ، وانظر النزهة : ٦/١٧٩ .

(٤) انظر السير : (أبو الدرداء) ٢/ ٣٣٥ـ ٣٥٣ ، وانظر النزهة : ٣/٢٧٢.

يَنفعَك به : إنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم جَمعَ بين الحَجِّ والعُمرة ، ولمْ يَنْهَ عنه حتىٰ مات ، ولمْ يَنزِلْ فيه قُرآنٌ يُحرِّمُه ، وأنَّه كان يُسلِّمُ عليَّ - يَعني المَلائكَة - قال : فلمَّا اكْتَويْتُ ، أمسَكَ ذلك ، فلمَّا تركتُه ، عاد إليَّ[1] .

وعن خالدِ بنِ محمّد الكِنْدي - وهو وَالدُ أحمدَ بنِ خالد الوَهْبي - سَمع أبا الزَّاهرية : سَمعتُ أبا ثَعْلبة يقولُ : إنِّي لأرْجُو ألا يَخْنقَني اللهُ كما أراكم تُخْنَقون .

فبَينا هو يُصلِّي في جَوفِ اللَّيلِ ، قُبضَ ، وهو سَاجدٌ ، فرَأتْ بنتُه أنَّ أباها قد مَاتَ ، فاسْتَيْقظَت فَزِعَة ، فنادَت أمَّها : أينَ أبي ؟ قالت : في مُصَلاَّه ، فنادَتْه ، فلم يُجِبْها ، فأنبَهَتهُ فوَجَدتْه مَيِّتاً . تُوفيَ سنة خمس وسبعين[2] .

وعن ابنِ عَباس ، قال : كُنتُ مع أبي عند النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، وكان كالمُعْرِض عن أبي ، فخَرَجْنا من عندِه ، فقال : ألم ترَ ابنَ عَمِّكَ كالمُعْرِضِ عَنِّي ؟ فقلتُ : إنَّه كان عندَه رَجلٌ يُناجيه ، قال : أوَ كان عنده أحدٌ ؟ قلتُ : نعم . فرجعَ إليه ، فقال : يا رسولَ الله هل كان عندك أحدٌ ؟ فقال لي : « هل رأيتَه يا عبدَ الله ؟ » قالَ : نَعَم . قال صلى الله عليه وسلم : « ذَاكَ جِبريلُ فهُو الذي شَغلَني عَنكَ »[3] .

وقال أبو الزُّبَير : لمَّا ماتَ ابنُ عَباس جاءَ طائرٌ أبيض ، فدخلَ في أكْفانِه ، رَواها الأجْلَحُ ، عن أبي الزُّبَير ، فزادَ : فكانوا يُرَوْنَ أنَّه عِلمُه .

وعن سَعيدٍ ، قال : ماتَ ابنُ عَباس بالطَّائف ، فجاءَ طائرٌ لَمْ يُرَ علىٰ خِلْقَته ، فدَخلَ نَعشَه ، ثم لمْ يُرَ خارجاً منه ، فلمَّا دُفِنَ ، تُليَت هـٰذه الآية علىٰ شَفير القَبْر ، لا يُدرَىٰ مَنْ تلاها : ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾[4] .

تُوفيَ ابن عبَّاس سنة ثمانٍ أو سبعٍ وستين ، وقيل : عاش إحْدىٰ وسبعين سنة[5] .

---

(١) انظر السير : (عِمرانُ بن حُصَين) ٢/ ٥٠٨-٥١٢ ، وانظر النزهة : ٢٩٨/ ٢.
(٢) انظر السير : (أبو ثعلبَة الخُشَنيّ) ٢/ ٥٦٧- ٥٧١ ، وانظر النزهة : ١/٣٠٦ .
(٣) انظر السير : (عبد الله بن عباس البحر) ٣/ ٣٣١-٣٥٩ ، وانظر النزهة : ١/٣٩٠ .
(٤) سورة الفجر ، الآيتين : ٢٧ ، ٢٨ .
(٥) انظر السير : (عبد الله بن عباس البحر) ٣/ ٣٣١-٣٥٩ ، وانظر النزهة : ٣/٣٩٢.

وعن أبي أمامةَ : أرسلني النبيُّ صلى الله عليه وسلم إلىٰ باهِلَة ، فأتَيتُهم فرحَّبوا بي ، فقلتُ : جئتُ لأنهاكُم عن هـٰذا الطعام ، وأنا رسولُ رسولِ الله لِتُؤمنوا به ، فكذَّبوني ، ورَدُّوني ، فانطَلقتُ وأنا جائعٌ ظَمآنُ ، فنمتُ فأُتيتُ في منامي بشَربةٍ من لَبن ، فشَربتُ ، فشَبعتُ ، فعَظُمَ بَطني ، فقال القومُ : أتاكم رجلٌ من أشرافكم وخياركم ، فرَدَدْتموه ؟ قال : فأتَوني بطعام وشرابٍ ، فقلتُ : لا حاجةَ لي فيه ، إنَّ الله قد أطعمني وسقاني ، فنَظروا إلىٰ حالي ، فآمَنوا[١] .

وعن عُروةَ بنِ رُوَيم ، عن العِرْباضِ بنِ سارية ، وكان يحبُّ أن يُقبَضَ ، فكان يدعو : اللَّهُمَّ كَبُرتْ سني ، ووهن عظمي ، فاقبضني إليك ، قال : فبَينا أنا يوماً في مَسجد دمَشْق أصلِّي وأدعو أنْ أُقبَضَ ، إذ أنا بفتىً من أجمل الرجال ، وعليه دُوَّاجٌ أخضر[٢] ، فقال : ما هـٰذا الذي تَدعُو به ؟ قُلتُ : كيفَ أدْعو يا ابنَ أخي ؟ قال : قُلْ : اللَّهـمَّ حَسِّن العَملَ وبلِّغ الأجَل ، فقُلتُ : ومَنْ أنتَ يَرحَمُكَ الله ؟ قال : أنا رُتْبابيل الذي يَسُلُّ الحُزْنَ من صُدور المؤمنين ، ثم التَفَتُّ فلمْ أرَ أحداً[٣] .

وعن جَرير بنِ حَازم ، عن حُمَيد بنِ هِلال ، عن صِلَة ، قال : خَرجنا في قَرية وأنا علىٰ دابَّتي في زمان فُيوض الماء ، فأنا أسيرُ علىٰ مُسَنَّاة[٤] ، فسرتُ يوماً لا أجدُ ما آكلُ ، فلَقيَني عِلْجٌ يحملُ علىٰ عاتِقه شيئاً ، فقلتُ : ضَعْهُ ، فإذا هو خُبزٌ . قُلتُ : أطْعِمْني ، فقال : إنْ شِئْتَ ولكن فيه شَحمُ خِنْزير ، فتَركتُه ، ثم لَقيتُ آخرَ ، قالَ : هو زَادي لأيّام ، فإنْ نَقصْتَه ، أَجعْتَني ، فتَركتُه . فوالله إنِّي لأسيرُ ، إذْ سَمعتُ خَلفي وجْبَةً كَوَجْبَة الطَّير ، فالتفتُ ، فإذا هو شيءٌ مَلفوفٌ في سِبٍّ أبْيَض ، فنَزلتُ إليه ، فإذا دَوْخَلةٌ من رُطَب في زمانٍ ليس في الأرض رُطَبَة ، فأكلتُ منه ، ثم لفَفْتُ ما بقي ، ورَكِبْتُ الفَرسَ ، وحملتُ معي نواهُنَّ .

---

(١) انظر السير : (أبو أُمامَة الباهِليّ) ٣/ ٣٥٩ـ٣٦٣ ، وانظر النزهة : ٢/٣٩٣ .
(٢) الدُوَّاج : ضَربٌ من الثياب .
(٣) انظر السير : (العِرْباض بن ساريَة السُّلَمي) ٣/ ٤١٩ـ٤٢٢ ، وانظر النزهة : ١/٤٠٥ .
(٤) المُسَنَّاة : السَدّ .

قال جَرير بن حازم : فحدَّثني أَوْفَىٰ بنُ دِلْهَم ، قال : رأيتُ ذلك السِّبَّ[1] . مع امرأتِه فيه مُصْحَف ، ثم فُقِدَ بعد .

قال الذهبيُّ : فهٰذه كرامةٌ ثابتة[2] .

وقال إسْماعيل بنُ عَيَّاش : حدثنا شُرحْبيلُ : إنَّ الأسودَ[3] . تنبَّأ باليَمن ، فبَعثَ إلىٰ أبي مُسْلم فأتاه بنارٍ عَظيمة ، ثم إنَّه ألقىٰ أبا مُسْلم فيها فلَمْ تَضرَّه ، فقيلَ للأسْوَد : إنْ لمْ تَنفِ هٰذا عَنك أفْسدَ عليك مَن اتَّبَعك . فأمرَه بالرَّحيلِ ، فقَدِمَ المَدينةَ ، فأناخَ راحلَتَه ، ودخلَ المَسْجد يُصلِّي ، فبَصُرَ به عُمرُ رضي الله عنه ، فقامَ إليه ، فقال : مِمَّن الرَّجلُ ؟ قال من اليَمن . قال : ما فَعلَ الذي حَرقَه الكَذَّابُ بالنَّار ؟ قال : ذاكَ عبدُ الله بنُ ثُوَب . قال : نَشَدتُك باللهِ أنتَ هو ؟ قال : اللَّهمَّ نَعَم . فاعْتَنَقَه عُمرُ وبَكىٰ ، ثم ذهبَ به حتىٰ أَجْلَسَه فيما بينه وبين الصدِّيق ، فقال : الحمدُ لله الذي لم يُمِتْني حتىٰ أراني في أمَّةِ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم مَن صُنعَ به كما صُنعَ بإبراهيمَ الخَليل .

رَواه عبدُ الوهّاب بنُ نَجْدة ، وهو ثقةٌ ، عن إسْماعيلَ لكنَّ شُرحْبيل أرسلَ الحكاية[4] .

وقيل : كان أبو مُسلم الخولاني يَرفعُ صَوتَه بالتَّكْبير حتىٰ مع الصِّبيان ، ويقولُ : اذْكُر اللهَ حتىٰ يَرى الجاهلُ أنَكَ مَجْنون[5] .

وعن محمَّدِ بنِ زِياد ، عن أبي مُسلم الخَولانيّ أنَّ امرأةً خَبَّبَتْ عليه[6] امرأتَه ، فدَعَا عليها فعَمِيَت ، فأتَتْه فاعتَرَفَت وتابَتْ قال : اللَّهُمَّ إنْ كانت صادِقَةً ، فارْدُدْ إليها بَصَرَها ، فأبْصَرَت[7] .

---

(١) السِّب : الخِمار ، الدوخَلة : زبيل من خوص يُجعل فيه التمر .

(٢) انظر السير : (صِلَة بن أشْيَم) ٣/ ٤٩٧ـ ٥٠٠ ، وانظر النزهة : ٣/٤١٦ .

(٣) هو الأسود العنسي ، واسمه عيهلة .

(٤) انظر السير : (أبو مسلم الخَولاني) ٤/ ٧ـ ١٤ ، وانظر النزهة : ٢/٤٣٠ .

(٥) انظر السير : (أبو مسلم الخَولاني) ٤/ ٧ـ ١٤ ، وانظر النزهة : ٣/٤٣١ .

(٦) يقال : خبب فلان صديقه إذا أفسد عليه .

(٧) انظر السير : (أبو مسلم الخَولاني) ٤/ ٧ـ ١٤ ، وانظر النزهة : ٥/٤٣١ .

وعن عَطاءٍ الخُرسانيّ ، أنَّ امرأةَ أبي مُسلم قالت : لَيسَ لنا دَقيقٌ ، فقال : هل عندك شيءٌ ؟ قالت : دِرْهمٌ بعنا به غَزْلاً . قال : ابْغِينيه ، وهاتي الجِرابَ ، فدَخلَ السُّوقَ ، فأتاه سائلٌ ، وألحَّ ، فأعْطاهُ الدِّرْهمَ ، ومَلأَ الجِرابَ نُشارَةً مع تُراب ، وأتىٰ وقَلْبُه مَرْعُوبٌ منها ، وذَهبَ ، ففَتحَه فإذا به دَقيقٌ حُوَّاري[1] ، فعَجنَت وخَبزَت ، فلمَّا جاءَ لَيلاً وضَعَتهُ ، فقالَ : من أين لك هٰذا ؟ قالت : من الدَّقيقِ ، فأكلَ وبَكىٰ[2] .

وعن سَعيدِ بنِ عبدِ العَزيز ، أنَّ أبا مُسلم الخَولاني اسْتبطأ خبرَ جيشٍ كان بأرض الرُّوم ، فدخل طائرٌ فوقع ، فقال : أنا رتبابيل مُسلي الحُزن من صدور المؤمنين ، فأخبرهُ خبرَ الجيش فقال : ما جئتَ حتى استبطأتُك ؟[3] .

وعن الحَسنِ ، قال : ماتَ هَرِمُ بنُ حيَّان ، في يوم حارٍّ ، فلمَّا نَفضوا أيديَهم عن قَبرِه جاءت سَحابةٌ حتىٰ قامت على القَبرِ ، فلمْ تكنْ أطولَ منه ولا أقصرَ منه ، ورَشَّته حتىٰ رَوَّته ، ثم انْصَرفَت[4] .

وعن قَتادَة ، قال : أُمطِرَ قبرُ هَرِم بنِ حيَّان من يومِه ، وأنبتَ العُشب[5] .

وعن عبدِ الرحمٰن بنِ عِمارَة بنِ عُقْبة ، قال : حَضرتُ جِنازَة الأَحْنفِ بالكُوفَة ، فكُنتُ ممَّن نَزلَ قبرَه ، فلمَّا سوَّيتُه ، رأيتُه قد فُسحَ له مدَّ بَصري ، فأخبرتُ بذلك أَصْحابي ، فلم يَروا ما رأيتُ[6] .

عن قَتادَة قال : كان مُطرِّفُ بنُ عبد الله وصاحبٌ له سَرَيا في ليلة مُظلمة ، فإذا طَرفُ سَوط أحدِهما عندَه ضَوءٌ ، فقال : أما إنَّه لو حَدَّثْنا النَّاسَ بهٰذا ، كذَّبونا ، فقال مُطرِّفٌ : المكذِّبُ أكْذَبُ[7] .

---

(١) أي أبيض .
(٢) انظر السير : (أبو مسلم الخَولاني) ٤/ ٧ـ ١٤ ، وانظر النزهة : ٢/٤٣٢ .
(٣) انظر السير : (أبو مسلم الخَولاني) ٤/ ٧ـ ١٤ ، وانظر النزهة : ٣/٤٣٢ .
(٤) انظر السير : (هَرِم بن حيَّان) ٤/ ٤٨ـ ٥٠ ، وانظر النزهة : ٢/٤٤١ .
(٥) انظر السير : (هَرِم بن حيَّان) ٤/ ٤٨ـ ٥٠ ، وانظر النزهة : ٣/٤٤١ .
(٦) انظر السير : (الأَحْنَف بن قيس) ٤/ ٨٦ـ ٩٧ ، وانظر النزهة : ١/٤٥٤ .
(٧) انظر السير : (مُطرِّف بن عبد الله) ٤/ ١٨٧ـ ١٩٥ ، وانظر النزهة : ٢/٤٧٦ .

وعن غيلان بنِ جَرير قال : أقبلَ مُطرِّفُ مع ابن أخٍ له من الباديَة ـ وكان يَبدُو ـ فبَينا هو يَسيرُ سَمعَ في طَرف سَوطِه كالتَّسْبيح ، فقال له ابنُ أخيه : لو حَدَّثْنا النَّاسَ بهـٰذا كذَّبونا . فقال مُطرِّفُ : المكَذِّبُ أكْذَبُ النَّاس[1] .

وقال سُليمانُ بنُ المُغيرَة : كان مُطرِّفٌ إذا دخلَ بَيتَه ، سَبَّحَتْ مَعهُ آنيةُ بيتِه[2] .

وقال الوَاقديُّ : حدَّثنا طَلحَةُ بنُ محمد بنِ سَعيد بنِ المُسَيِّب ، عن أبيه ، قال : كان سَعيدُ أيَّام الحِرَّة في المَسْجد لَمْ يَخرج ، وكان يُصلِّي معهم الجُمُعَة ويَخرُجُ في اللَّيل ، قال : فكُنتُ إذا حانت الصلاةُ أسْمعُ أذاناً يَخرجُ من قِبَلِ القَبرِ حتىٰ أمِنَ النَّاس[3] .

وعن الحارثِ الغَنوي ، قال : آلىٰ رِبعيُّ بنُ حِراش أنْ لا تَفترَّ أسنانُه ضاحكاً حتىٰ يَعلمَ أينَ مَصيرُه . قال الحارثُ : فأخْبرَ الذي غَسَّلَه أنَّه لم يَزل مُتَبَسِّماً علىٰ سَريرِه ونحنُ نُغَسِّلُه ، حتىٰ فَرغْنا منه ، رحمةُ الله عليه[4] .

وعن عبدِ المَلكِ بنِ عُمَير ، عن رِبعيٍّ ، قال : كنَّا أرْبَعةَ إخْوة ، فكان الرَّبيعُ أكثَرُنا صَلاةً وصِياماً في الهَواجِر ، وإنَّه تُوفِّي ، فبَينا نحنُ حَولَه قد بَعثْنا مَنْ يَبْتاعُ له كَفَناً ، إذْ كَشَفَ الثوبَ عن وَجْهه ، فقال : السَّلامُ عَليكم ، فقال القومُ : عَليكُم السَّلامُ يا أخا عِيسَىٰ ، أبَعدَ الموتِ ؟ قال : نعم ، إنِّي لَقيتُ ربِّي بَعدَكم ، فلَقيتُ ربَّاً غَير غَضْبان ، واسْتقبلَني بِرَوْحٍ ورَيحان وإسْتَبْرَق ، ألا وإنَّ أبا القاسم يَنتظرُ الصَّلاةَ عليَّ ، فعَجِّلوني . ثم كان بمَنزِلة حَصاةٍ رُميَ بها في طَسْتٍ .

فنَمَى الحَديثُ إلىٰ عائشَةَ رَضيَ الله عنها ، فقالت : أما إنِّي سَمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقولُ : « يتكلَّمُ رَجلٌ من أُمَّتي بَعدَ المَوت »[5] .

---

(١) انظر السير : (مُطرِّف بن عبد الله) ٤/ ١٨٧ـ ١٩٥ ، وانظر النزهة : ٣/٤٧٦.

(٢) انظر السير : (مُطرِّف بن عبد الله) ٤/ ١٨٧ـ ١٩٥ ، وانظر النزهة : ٩/٤٧٦.

(٣) انظر السير : (سعيد بن المسيب) ٤/ ٢١٧ـ ٢٤٦ ، وانظر النزهة : ١/٤٨٤.

(٤) انظر السير : (رِبعيُّ بن حِراش) ٤/ ٣٥٩ـ ٣٦٢ ، وانظر النزهة : ٥/٥١٠.

(٥) الخبر في الحلية ٤/ ٣٦٧ ، ٣٦٨ ، وذكره ابن عبد البر في « الاستيعاب » في ترجمة زيد ابن خارجة ، ورجال إسناده ثقات ، لكن ليس فيه المرفوع ، وهو الأصح فقد رواه عن عبد الملك غير واحد فما رفعه.

قال أبو نعيم : ورَواهُ عن عبدِ المَلك زَيدُ بنُ أبي أُنَيْسَة ، وإسْماعيلُ ابنُ أبي خالد ، والثَّوريُّ ، وابنُ عُيَيْنَة ، وما رَفعَه سِوىَ عُبَيْدَة .

وبه قال أبو نعيم : حدَّثنا أبو عليّ محمدُ بنُ أحمد بنِ الحَسَن ، حدَّثنا محمدُ بنُ يَحيىٰ ، حَدثنا عاصمُ بنُ عليّ ، حدَّثنا المَسْعوديُّ ، عن عبدِ المَلكِ بنِ عُمَير ، عن رِبعيٍّ ، قال : مات أَخٌ لنا ، فسَجَّيْناه ، فذَهبتُ في التِماسِ كَفَنِه ، فرَجعتُ وقد كَشفَ الثوبَ وهو يقول : فذكرَ نحوه ، وفيه : وَعَدتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ألاَّ يَذهَبَ حتىٰ أُدْركَه . قال : فما شبَّهْتُ خُروجَ نفسِه إلاَ كَحصاةٍ أُلقِيَتْ في ماءٍ فرسَبتْ . فذُكِرَ ذلك لعائشةَ ، فقالت : قد كُنَّا نتحدَّثُ أنَّ رَجُلاً من هٰذه الأمَّة يتكلَّمُ بعد الموت . تُوفِّيَ سنةَ إحْدَىٰ وثمانين[1] .

وعن رَشيدِ بنِ كيْسان ، قال : كنَّا برُودِس[2] وأميرُنا جُنادَةُ ابنُ أبي أُميَّة ، فكَتبَ إلينا مُعاويَة : إنَّه الشِّتاءُ فتَأهَّبوا ، فقال تُبَيْعُ ابنُ امرأةِ كعْب : تقفُلُون إلىٰ كذا وكذا ، فأنكروا ، حتىٰ قال له صاحبُه : ما يُسَمُّونَك إلاَّ الكذَّاب . قال : فإنَّه يَأتيهم الإذْنُ يوم كذا ، ويأتي ريحٌ يومئذٍ تقلَع هٰذه البنيّة ، فانتُشَرَ قولُه ، وأصْبَحوا يَنتظرون ذلك ، فأقْبلَت ريحٌ أحاطَت بالبنيّة فقلعَتها وتَصايحَ الناسُ ، فإذا قاربٌ في البحر فيه الخَبرُ بمَوت مُعاويَة وبَيْعَة يَزيد . وأُذِنَ لهم في القُفُول ، فأثْنَوا علىٰ تُبَيْع .

تُوفِّيَ تُبَيْعُ عن عُمرٍ طويل ، سنةَ إحدىٰ ومئة بالإسكندرية[3] .

ويُروَىٰ أنَّ أبا قِلابَة عَطِشَ وهو صائمٌ فأكْرَمَه اللهُ لمَّا دَعا ، بأنْ أظلَته سَحابةٌ وأمْطَرت علىٰ جَسَده فذَهبَ عَطشُه[4] .

عن معاويةَ بن قُرَّة ، قال : كان مُسلم بنُ يَسار يَحُجُّ كلَّ سَنَةٍ ويُحَجِّجُ معه رجالاً من إخوانه تَعوَّدوا ذلك ، فأبطَأ عاماً حتىٰ فاتَتْ أيامُ الحَجّ ، فقالَ لأصحَابِه : اخرُجُوا ،

---

(١) انظر السير : (ربعيُّ بن حِراش) ٤/٣٥٩ـ ٣٦٢ ، وانظر النزهة : ٦/٥١٠.
(٢) رُودس : جزيرةٌ مقابل الإسكندرية علىٰ ليلة منها في البحر ، وهي أوَّلُ بلاد إفرنجة .
(٣) انظر السير : (تُبَيْع بن عامر) ٤/٤١٣ـ ٤١٤ ، وانظر النزهة : ٢/٥٢٥.
(٤) انظر السير : (أبو قلابة) ٤/٤٦٨ـ ٤٧٥ ، وانظر النزهة : ٦/٥٣٤.

فقالوا : كيف!! ؟ قال : لا بُدَّ أن تَخرُجوا ، فَفَعَلوا استحياءً منه فأصابَهم حين جَنَّ عليهم الليلُ إعصارٌ شَديدٌ ، حتىٰ كادَ لا يَرَىٰ بعضُهم بعضاً ، فأصبَحوا وهم يَنظرُون إلىٰ جِبالِ تِهامَة ، فَحَمِدوا الله ، فقال : ما تَعجَبُون من هـٰذا في قُدرة الله تعالىٰ[1] .

وعن حَمَّاد بنِ سَلَمَة قال : كان ثابتُ بنُ أَسْلَم يقول : اللَّهُمَّ إنْ كنتَ أعطيتَ أحداً الصلاةَ في قبرِه فأعطني الصلاةَ في قَبري ، فيُقَالُ : إنَّ هـٰذه الدَّعوة استُجِيبَت له ، وأنَّه رُئِيَ بعد موته يُصَلي في قَبره فيما قيل[2] .

وعن نافِع قالَ : لمَّا غُسِّلَ أبو جَعْفَر ، نَظَروا ما بَينَ نَحْرِه إلىٰ فُؤادِه كورَقة المُصْحَف ، فما شَكَّ مَن حَضَرَه أنَّه نور القرآن[3] .

وعن عِمْرانَ بنِ عَمرو ، قال : كان عَمِّي زُبَيدٌ حاجّاً ، فاحْتاجَ إلى الوُضوء ، فقام فتنَحَّىٰ ثم قَضىٰ حاجَتَه ، ثم أقبَلَ ، فإذا هو بماءٍ في مَوْضعٍ لَمْ يكنْ مَعهم ماءٌ ، فتَوضَّأ ، ثم جاء ليُعْلِمَهم ، فأتَوا ، فلمْ يَجدوا شَيئاً[4] .

وعن عُبَيد الله بنِ أبي جَعْفَر ، قال : غَزَوْنا القُسْطَنْطينيَّة فكُسِرَ بنا مَركَبُنا ، فألقانا المَوْجُ علىٰ خَشَبَة في البَحْر ، وكنَّا خَمسةً أو ستَّةً فأنْبَتَ الله لنا بِعَدَدنا ، ورَقَةً لكل رجلٍ مِنَّا ، فكنا نَمُصُّها فتُشْبِعُنا وتَرْوينا ، فإذا أمْسَينا ، أنبَتَ الله لنا مَكانَها[5] .

وكان أيُّوب السَّخْتياني في طَريقِ مكّة ، فأصابَ الناسَ عَطَشٌ شَديدٌ حتّىٰ خافُوا . فقال أيُّوبُ : أَتكتُمونَ عليَّ ؟ قالوا : نَعَم . فدوَّرَ رِداءَه ودَعا ، فنَبعَ الماءُ ، وسَقوا الجِمالَ ، ورَوَوا ، ثم أمرَّ يَدَه على المَوْضِع فصار كما كان[6] .

وعن شُجاعِ بنِ صبيح ، مَوْلَىٰ كرز بنِ وَبَرة ، قال : أخبَرَني أبو سُلَيمان المُكتِب ، قال : صَحِبْتُ كرْزَاً إلىٰ مكّة ، فاحتبَسَ يوماً وقتَ الرَّحيل ، فانْبَثُّوا في طلَبه ، فأصَبْتُه

---

(١) انظر السير : (مسلم بن يَسار) ٤/ ٥١٠ـ ٥١٤ ، وانظر النزهة : ٥/٥٤٧ .
(٢) انظر السير : (ثابت بن أسلم) ٥/ ٢٢٠ـ ٢٢٥ ، وانظر النزهة : ٧/٥٩٦ .
(٣) انظر السير : (أبو جعفر القارىء) ٥/ ٢٨٧ـ ٢٨٨ ، وانظر النزهة : ٥/٦٠٤ .
(٤) انظر السير : (زُبَيدُ بن الحارث) ٥/ ٢٩٦ـ ٢٩٨ ، وانظر النزهة : ١/٦٠٥ .
(٥) انظر السير : (عُبَيد الله بن جعفر) ٦/ ٨ـ ١٠ ، وانظر النزهة : ٣/٦٢٥ .
(٦) انظر السير : (أيُّوب السَّخْتياني) ٦/ ١٥ـ ٢٦ ، وانظر النزهة : ١٣/٦٢٦ .

في وَهْدة يُصلِّي في ساعةٍ حارَّة ، وإذا سَحابَة تُظِلُّه ، قال لي : اكتُم هـٰذا ، واسْتَحْلَفَني[١] .

وعن النَّضْرِ بنِ عبدِ الله ، حدَّثتني رَوْضَة مَوْلاةُ كرْز : قلتُ : من أين يُنفِقُ كرْز ؟ قالت : كان يَقولُ لي يا رَوْضَة إذا أرَدْتِ شَيئاً فخُذي من هـٰذه الكُوَّة ، فكنتُ آخذُ كلَّما أردتُ[٢] .

وعن إبراهيمَ بنِ إسْماعيلَ ، قال : اسْتعَارَ سُلَيمانُ التَّيْميّ من رجل فَروة ، فلبسَها ثم رَدَّها ، قال الرجلُ : فما زلتُ أجدُ فيها ريحَ المسْك[٣] .

وكان بينَه وبينَ رجلٍ تَنازُع ، فتناول الرجلُ سُلَيمانَ ، فغَمزَ بَطْنَه ، فجَفَّتْ[٤] يَدُ الرجل[٥] .

وكان كهْمَسُ ـ رَحمَه الله ـ بَرَّ بأُمِّه ، فلمَّا ماتت ، حجَّ وأقامَ بمكَّة حتّىٰ مات ، وكان يَعملُ الجَصَّ ، وكان يؤَذِّن ، قال يَحْيَىٰ بنُ كثير البَصْري : اشترىٰ كهْمسُ دَقيقاً بدرْهَم فأكل منه ، فلمَّا طال عليه ، كالَه ، فإذا هو كما وَضَعَه[٦] .

وقال ابنُ وَهْب : كان حَيْوَة يأخُذُ عَطاءَه في السَّنة ستين ديناراً ، فلمْ يَطلُع إلىٰ مَنزِله حتىٰ يَتصدَّقَ بها ، ثم يَجيءُ إلىٰ مَنزِله ، فيَجدُها تَحت فِراشِه ، وبلغَ ذلك ابنُ عمٍّ له ، فأخذَ عَطاءَه ، فتصدَّق به كُلِّه ، وجاء إلىٰ تَحْت فِراشِه فلمْ يَجدْ شَيئاً ، فشَكا إلىٰ حَيْوَة ، فقال : أنا أعْطيتُ ربِّي بيَقين ، وأنتَ أعْطَيْتَه تَجْربةً . وكنَّا نَجلسُ إلىٰ حَيوَةَ في الفِقْه فيقولُ : أبْدَلَني اللهُ بكم عَموداً أقومُ وراءَه أُصلِّي ثم فعل ذلك[٧] .

وعن خالدٍ الفَزْر ، قال : كان حَيْوَةُ بنُ شُرَيح من البَكَّائين ، وكان ضَيِّقَ الحال جداً

---

(١) انظر السير : (كرْز بن وَبَرة) ٦/ ٨٤ـ ٨٦ ، وانظر النزهة : ٦٣٣/ ٣ .
(٢) انظر السير : (كرْز بن وَبَرة) ٦/ ٨٤ـ ٨٦ ، وانظر النزهة : ٦٣٣/ ٤ .
(٣) انظر السير : (سُليمان بن طَرْخان) ٦/ ١٩٥ـ ٢٠٢ ، وانظر النزهة : ٦٤١/ ٦ .
(٤) جفَّت يد الرجل : يَبِست ، والمضارع يجفُّ بكسر الجيم .
(٥) انظر السير : (سُليمان بن طَرْخان) ٦/ ١٩٥ـ ٢٠٢ ، وانظر النزهة : ٦٤١/ ٧ .
(٦) انظر السير : (كهْمَس) ٦/ ٣١٦ـ ٣١٧ ، وانظر النزهة : ٦٥٣/ ٤ .
(٧) انظر السير : (حَيْوَة بن شُرَيح) ٦/ ٤٠٤ـ ٤٠٦ ، وانظر النزهة : ٦٦٤/ ٦ .

ـ يعني فَقيراً مِسْكيناً ـ فجلَسْتُ وهو مُتَخلٍّ يَدعو ، فقلتُ : لو دَعوتَ اللهَ أن يُوَسِّعَ عليك ؟! فالتفتَ يميناً وشِمالاً فلم يرَ أحداً ، فأخذَ حَصاةً فرَمىٰ بها إليَّ فإذا هي تَبرة في كَفِّي ، والله ما رأيتُ أحسَنَ منها ، وقال : ما خَيرٌ في الدنيا إلاَّ للآخرة ، ثم قال : هو أعلَمُ بما يُصلِحُ عبادَه . فقلتُ : ما أصنَعُ بهـٰذه ؟ قال : استَنْفِقْها فهِبْتُه والله أن أرُدَّها[1] .

وقال ابنُ أبي الحُواريّ : قال لي أبو سُليمان : أصابَ عبدَ الواحد الفالجُ ، فسألَ اللهَ أن يُطْلِقَه في وقتِ الوُضوء ، فكان إذا أرادَ الوُضوءَ انطَلَق ، وإذا رَجَعَ إلىٰ سَريرِه فَلَجَ[2] .

ورُوِيَ أنَّ نافعاً كان إذا تكلَّمَ تُوجَدُ من فيهِ ريحُ مِسْكٍ ، فسُئلَ عنه قال : رأيتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم في النَّومِ تَفَلَ في فِيّ .

ووَثَّقَهُ ابنُ مَعين ، وقال أبو حاتم : صَدُوق[3] .

وعن عصامِ بنِ رَوَّاد : سَمعتُ عيسىَ بنَ حازِمِ النَّيسابُوري يقولُ : كنَّا بمكَّة مع إبراهيمَ بنِ أدْهَم ، فنظرَ إلي أبي قُبَيْس ، فقال : لو أن مُؤمناً مُسْتكمِلِ الإيمان ، يَهزُّ الجَبَلَ لتحرَّك ، فتَحرَّكَ أبو قُبَيس ، فقال : اسْكُنْ ليسَ إيَّاك أرَدْتُ[4] .

وعن الحارِث بنِ النُّعْمان ، قال : كان إبراهيمُ بنُ أدهَم يَجْتَني الرُّطَبَ من شَجر البلُّوط[5] .

وقيلَ : إنَّ أبا مُعاويَة الأسْود ذَهبَ بَصَرُه ، فكان إذا أرادَ التِّلاوَةَ في المُصْحَفِ أبصَرَ بإذنِ الله[6] .

---

(١) انظر السير : (حَيْوَة بن شُرَيح) ٦/ ٤٠٤ـ ٤٠٦ ، وانظر النزهة : ١/٦٦٥ .
(٢) انظر السير : (عبد الواحد بن يزيد) ٧/ ١٧٨ـ ١٨٠ ، وانظر النزهة : ٢/٦٩١ .
(٣) انظر السير : (نافع) ٧/ ٣٣٦ـ٣٣٨ ، وانظر النزهة : ٧٠١/ ٤ .
(٤) انظر السير : (إبراهيم بن أدهم) ٧/ ٣٨٧ـ ٣٩٦ ، وانظر النزهة : ٦/٧٠٨ .
(٥) انظر السير : (إبراهيم بن أدهم) ٧/ ٣٨٧ـ ٣٩٦ ، وانظر النزهة : ٧/٧٠٨ .
(٦) انظر السير : (أبو معاوية الأسود) ٩/ ٧٨ـ٧٩ ، وانظر النزهة : ٣/٧٩٩ .

وعن ابنِ شِيرَويه ، قلتُ لمَعْروفٍ الكَرْخيّ : بلَغَني أنَّكَ تَمشي على الماءِ . قال : ما وَقَعَ هـٰذا ، ولكنْ إذا هَمَمْتُ بالعُبورِ جُمِعَ لي طَرَفا النهرِ فأتَخَطَّاه[1] .

وعن محمدِ بنِ مَنصور الطُّوسيّ ، قال : كُنتُ عند مَعْروف الكَرْخي ، ثم جئتُ ، وفي وَجْهِه أثرٌ ، فسُئلَ عنه ، فقال للسَّائلِ : سَلْ عمَّا يَعنيك عافاكَ اللهُ ، فأقسَمَ عليه ، فتغيَّرَ وَجْهُه ، ثم قال : صلَّيتُ البارِحَةَ ، ومَضَيتُ فطُفتُ بالبيتِ ، وجئْتُ لأشْرَبَ من زَمْزَمَ فزَلِقْتُ فأصاب وَجْهي هـٰذا[2] .

وجاءَ في ترجمة عليِّ بنِ بكَّار ، قال الذهبيُّ : وكان فارساً ، مرابطاً ، ومجاهداً كثيرَ الغَزو ، فرُوِيَ عنه أنه قال : واقَعْنا العَدوَّ ، فانهَزَمَ المسْلمون ، وقصَّر بي فَرَسي ، فقُلتُ : إنَّا لله وإنَّا إليه راجِعُونَ ، فقالَ الفَرَسُ : نعَم ، إنَّا لله وإنَّا إليه راجِعُونَ ، حيثُ تتَّكِلُ علىٰ فُلانَة في عَلفي ، فضَمنتُ أنْ لا يَليه غَيري[3] .

وقال الحاكمُ : سَمعتُ أبي : سَمعتُ أبا عَمرو العَمْرَويَّ والي البلد يقول : بينا أنا نائمٌ ذاتَ ليلة على السَّطحِ ، إذْ رأيتُ نوراً يَسْطَعُ إلى السَماء ، من قَبرٍ في مَقْبَرَة الحُسَين ، كأنَّه مَنارة بَيْضاء ، فدَعوتُ بغُلامٍ لي رامٍ ، فقُلتُ : ارمِ ذاكَ القبرَ الذي يَسْطَعُ منه النُّور ، ففعلَ ، فلمَّا أصْبَحْتُ ، بكَّرتُ بنفسي ، فإذا النشَّابة في قبر يَحْيَىٰ بنِ يَحْيَىٰ رَحمةُ الله عليه .

وقال أحمدُ بنُ سيَّار المَرْوزي : يَحْيَىٰ بنُ يَحْيَىٰ من مَوالي بَني مِنْقَر ، كان ثقةً ، حسَنَ الوَجْه ، طَويلَ اللِّحْيَة ، خَيِّراً ، فاضِلاً ، صائناً لنفسِه[4] .

وقال الحسَنُ بنُ محمد الحَربيّ : سَمعتُ جَعْفَرَ بنَ محمد الصَّائغ يقولُ : رأيتُ أحمدَ بنَ نَصْر حين قُتلَ قال رأسُهُ : لا إلـٰهَ إلاَّ الله .

---

(١) انظر السير : (مَعْروف الكَرْخي) ٩/ ٣٣٩ـ٣٤٥ ، وانظر النزهة : ٨٢٦/ ١٠ .
(٢) انظر السير : (مَعْروف الكَرْخي) ٩/ ٣٣٩ـ٣٤٥ ، وانظر النزهة : ٨٢٦/ ١١ .
(٣) انظر السير : (عليّ بن بكّار) ٩/ ٥٨٤ـ٥٨٥ ، وانظر النزهة : ٨٤١/ ٤ .
(٤) انظر السير : (يَحْيَى بن يَحْيىٰ) ١٠/ ٥١٢ـ٥١٩ ، وانظر النزهة : ٨٨٩/ ٥ .

قال المَرْوذيُّ : سمعتُ أحمدَ بنَ حَنْبَل ذكرَ أحمدَ بنَ نَصْر الخُزاعيَّ ، فقال : رحمَهُ الله ، لقَدْ جادَ بنفسه[1] .

ونُقِلَ عن الموكَّل بالرأسِ أنه سمعَه في اللَّيل يقرأُ « يس » ، وصَحَّ أنَّهم أقْعَدوا رَجُلاً بقصَبةٍ ، فكانت الرِّيحُ تُديرُ الرأسَ إلى القبلَة ، فيُديرُه الرجُلُ[2] .

قالَ السّراجُ : سَمعتُ خَلفَ بنَ سالم ، يقول : بعد ما قُتلَ ابنُ نَصْر وقيلَ له : ألا تَسْمَع ما النَّاس فيه يَقولون : إنَّ رأسَ أحمدَ بنِ نَصْر يقرأ ؟! . فقال : كان رأسُ يَحْيَىٰ يَقْرأ[3] .

وقالت فاطمةُ بنتُ أحمدَ بن حَنْبَل : وقع الحَريقُ في بيتِ أخي صالح ، وكان قد تزَوَّجَ بفَتيَّة ، فحَملوا إليه جهَازاً شَبيهاً بأربعة آلاف دينار فأكلَتْهُ النَّارُ ، فجَعلَ صالحُ يقولُ : ما غَمَّني ما ذهب إلاَّ ثوبٌ لأبي كان يُصَلِّي فيه أتبَرَّكُ به وأصَلِّي فيه . قالت : فطُفِيءَ الحَريقُ ، ودَخَلوا فوَجَدوا الثَّوبَ علىٰ سَريره قد أكلَت النَّارُ ما حَوْلَه وسَلِمَ[4] .

وقال ابنُ الجَوْزيُّ : بَلَغَني عن قاضي القُضاة عليِّ بنِ الحُسَين الزَّينَبي ، أنَّه حَكَىٰ أنَّ الحَريقَ وَقعَ في دارهم ، فأحْرَقَ ما فيها إلاَّ كتاباً كان فيه شيءٌ بخَطِّ الإمام أحمد . قال : ولمَّا وقعَ الغَرَقُ ببَغْدادَ في سنَة أربع وخمسين وخمسمائة ، وغَرقَتْ كُتبي ، سَلِمَ لي مجلَّدٌ فيه ورقتان بخَطِّ الإمام[5] .

قال الذهبيُّ : وكذا اسْتَفاضَ ، وثبتَ أنَّ الغرَقَ الكائنَ بعد العِشْرينَ وسَبع مئة ببَغْدادَ عامَ علىٰ مَقابِرِ مَقبَرَة أحمدَ ، وأنَّ الماءَ دَخلَ في الدِّهْليزِ عُلُوَّ ذِراع ، ووقفَ بِقُدرة الله ، وبَقيَتْ الحُصْرُ حَولَ قَبرِ الإمام بغُبارِها ، وكان ذلك آيةً[6] .

---

(١) انظر السير : (الخُزَاعيُّ) ١١/ ١٦٦ـ ١٦٩ ، وانظر النزهة : ٩١٩/ ١.
(٢) انظر السير : (الخُزَاعيُّ) ١١/ ١٦٦ـ ١٦٩ ، وانظر النزهة : ٩١٩/ ٣.
(٣) انظر السير : (الخُزَاعيُّ) ١١/ ١٦٦ـ ١٦٩ ، وانظر النزهة : ٩١٩/ ٤.
(٤) انظر السير : (أحمدُ بن حَنبَل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٩٣١/ ١.
(٥) انظر السير : (أحمدُ بن حَنبَل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٩٣١/ ٢.
(٦) انظر السير : (أحمدُ بن حَنبَل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٩٣١/ ٣.

قال أبو حَفْص بنُ شاهين : حدَّثنا أحمدُ بنُ محمَّد المُؤذِّن ، سَمعتُ محمَّدَ بنَ مَنصور الطُّوسيَّ ، وحَواليه قَومٌ ، فقالوا : يا أبا جَعْفَر ، أيش اليوم عندَك ؟ ، قد شَكَّ النَّاسُ فيه ، أيومَ عَرفَة هو أو غَيره ؟ فقال : اصْبروا ، فدَخلَ البيتَ ، ثم خَرجَ ، فقالَ هو يومُ عَرفَة ، فاسْتَحيوا أن يقولوا له : مِنْ أينَ ذلك ، فعَدُّوا الأيّامَ فكانَ كما قال . فسَمعتُ أبا بَكْر بنَ سَلام الورَّاقُ يقول له : مِنْ أينَ عَلمتَ ؟ قال : دَخلتُ ، فسَألتُ رَبِّي فأراني النَّاسَ في المَوْقِف . !!

قال الذهبيُّ : لا أعرفُ هٰذا المُؤذِّن ، ولمْ يَبعُد وُقوعُ هٰذا لمثلِ هٰذا الوَليِّ ، ولكن الشأنُ في ثُبوت ذلك[١] .

وقال يَعقوبُ بنُ إسْحاقَ بنِ مَحمود : سَمعتُ يَحْيىٰ بنَ بَدْر القُرشي يقولُ : كان عبدُ الله بنُ مُنير قبلَ الصَّلاةِ يكونُ بفِرَبْر ، فإذا كان وقتُ الصَّلاةِ يَرونَه في مَسجدِ آمل ، فكانوا يقولون : إنَّه يَمشي على الماء ، فقيل له في ذلك ، فقالَ : أمَّا المَشيُ على الماء فلا أدري ، ولكن إذا أرادَ اللهُ جَمعَ حافَّتَيْ النَهرِ ، حتىٰ يَعْبُرَ الإنسانُ[٢] .

قال : وكان إذا قامَ من المَجْلِس خرجَ إلى البَرِّيَّة مع قَوم من أصْحابه ، يَجمَعُ شَيئاً مثل الأُشنان وغَيره ، يَبيعُه في السُّوق ويَعيشُ منه ، فخرجَ يوماً مع أصْحابِه ، فإذا هو بالأسَدِ رابضٌ فقال لأصْحابِه : قِفُوا ، وتَقدَّمَ هو إلى الأسَدِ ، فلا نَدري ما قالَ له ، فقامَ الأسَدُ فذَهب[٣] .

وسُئلَ ابنُ راهَويه : أيَدْخُلُ الرجلُ المَفازَةَ بغَيرِ زادٍ ؟ قالَ : إنْ كانَ مثلَ عبدِ اللهِ بنِ مُنيرٍ ، فنعَم .

وقيلَ : كانَ ابنُ مُنيرٍ يُعَدُّ من الأبْدالِ[٤] .

وقال محمدُ بنُ أحمد بنُ الفَضْل البَلْخيِّ ، سَمعتُ أبي يقولُ : ذَهبَتْ عَيْنا

---

(١) انظر السير : (محمد بن مَنصور) ١٢/ ٢١٢ـ ٢١٤ ، وانظر النزهة : ٢/٩٩٤ .

(٢) انظر السير : (عبد الله بن مُنير) ١٢/ ٣١٦ـ ٣١٧ ، وانظر النزهة : ٧/١٠٠٤ .

(٣) انظر السير : (عبد الله بن مُنير) ١٢/ ٣١٦ـ ٣١٧ ، وانظر النزهة : ١/١٠٠٥ .

(٤) انظر السير : (عبد الله بن مُنير) ١٢/ ٣١٦ـ ٣١٧ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٠٥ .

محمدِ بنِ إسْماعيل في صِغَره ، فرأتْ والِدَتُه في المَنام إبراهيمَ الخَليلَ ، فقالَ لها : يا هَـٰذه قد رَدَّ اللهُ على ابنِكِ بَصَرَه لكثرَة بُكائِك ، أو كَثرةِ دُعائِك ـ شَكَّ البَلْخِيُّ ـ فأصْبَحْنا وقد ردَّ اللهُ عليه بَصَرَه[1] .

وقال محمدُ بن أبي حاتم : سَمعتُ أبا مَنصُور غالبَ بنَ جِبْريل ، وهو الذي نَزَلَ عليه أبو عبدِ الله البُخَاريُّ ، يقولُ : إنَّه أقامَ عندنا أياماً ، فمرِضَ واشْتَدَّ عليه المَرَضُ حتىٰ وَجَّهَ رَسولاً إلىٰ مَدينة سَمَرْقَند في إخراج محمد ، فلمَّا وَافَىٰ تَهيَّأ للرُّكوب ، فلبسَ خُفَّيْه ، وتَعَمَّمَ ، فلمَّا مَشىٰ قَدْرَ عِشْرينَ خُطوة أو نَحْوَها ، وأنا آخِذٌ بعَضُدِهِ ، ورجلٌ آخَرُ مَعي يَقودُه إلى الدَابّة ليَركَبَها ، فقال رَحمَه اللهُ : أَرْسِلوني ، فقد ضَعُفْتُ ، فدعا بدَعَواتٍ ، ثم اضطَجَع فقَضىٰ رَحمَه اللهُ ، فسالَ منه العَرَقُ شيءٌ لا يُوصَف ، فما سكَنَ منه العَرقُ إلىٰ أنْ أدْرَجْناه في ثيابه . وكان فيما قالَ لنا ، وأَوْصَىٰ إلينا أنْ كفِّنوني في ثلاثة أثوابٍ بيضٍ ليس فيها قَميصٌ ولا عَمامَةٌ ، ففَعَلنا ذلك ، فلمَّا دفَنَّاه فاحَ من تُرابِ قَبْرِه رائحَةٌ غاليةٌ أَطْيَبُ من المِسْك ، فدامَ ذلك أيّاماً ، ثم عَلَتْ سَوَاريُّ بيضٌ في السماء مُستَطيلة بحِذاء قبرِه ، فجعلَ النَّاسُ يختلفونَ ويتعجَّبونَ ، وأمَّا التُّرابُ فإنَّهم كانوا يَرفَعون عن القَبر ، حتىٰ ظهَرَ القَبرُ ولمْ نكنْ نَقدرُ علىٰ حفظِ القَبرِ بالحُرَّاس ، وغُلِبْنا علىٰ أنفسِنا ، فنَصَبْنا على القَبرِ خَشَباً مُشبَّكاً لمْ يَكنْ أحدٌ يقدرُ على الوصُول إلى القَبر ، فكانوا يَرفَعونَ ما حولَ القَبرِ من التُّراب ، ولمْ يكونوا يَخلُصون إلى القبر ، وأمَّا ريحُ الطِّيبِ فإنَّه تَداوَمَ أيّاماً كثيرة ، حتىٰ تَحدَّثَ أهلُ البَلْدَة وتَعجَّبوا من ذلك ، وظهرَ عند مُخالِفيه أمرُه بعد وَفاتِه ، وخرَجَ بعضُ مُخالفيه إلىٰ قَبرِه وأَظْهَروا التَّوْبَةَ والنَّدامَة ممَّا كانوا شَرعوا فيه من مَذموم المَذْهَب[2] .

وجاء في ترجمة أبو حفص النيسابوري ، قال أبو عَمرو بنُ حمْدان : كان أبو حفص حدَّاداً ، فكان غُلامُه يَنفُخُ عليه الكِيرَ مرّةً ، فأدخَلَ أبو حفص يدَه ، فأخرَجَ

---

(١) انظر السير : (أبو عبد الله البُخاريّ) ١٢/ ٣٩١ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ٣/١٠١٠.

(٢) انظر السير : (أبو عبد الله البُخاريّ) ١٢/ ٣٩١ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ٣/١٠٢٠.

الحَديدَ من النارِ ، فغُشيَ على الغُلام ، فتركَ أبو حفص الحانوتَ وأقبلَ علىٰ أمرِه[1] .

وقال المُرْتَعشيُّ : دخلتُ مع أبي حَفْص علىٰ مَريضٍ ، فقال : ما تَشْتَهي ؟ قال : أنْ أبْرَأ . فقال لأصْحابِه : احمِلوا عنه ، فقام مَعنا ، وأصْبَحْنا نُعادُ في الفُرُش[2] .

وقيلَ : أتى ابنَ عَبْدوسَ رجلٌ ، فقال : ما تقولُ في الإيمانِ ؟ قال : أنا مؤمنٌ . فقال : عندَ الله ؟ قال : أمَّا عند اللهِ فلا أقْطَعُ لنَفسِي بذلك ، لأني لا أدْري بمَ يُخْتَمُ لي ، فبَصَقَ الرجلُ في وجْهه ، فعَميَ من وَقْتِهِ الرَّجُلُ[3] .

وعن محمدِ بنِ القاسِم بنِ بِشْر : سَمعتُ محمدَ بنَ يَزيدَ الفَسَويَّ العطَّار ، سَمعتُ يَعْقوبَ بنَ سُفيان يقولُ : كنتُ في رِحْلتي في طَلَبِ الحَديث ، فدخلتُ إلىٰ بَعضِ المُدُن ، فصادَفتُ بها شَيخاً احتجْتُ إلى الإقامَةِ عليه للاسْتكثارِ عنه ، وقلَّتْ نَفَقَتي ، وبَعُدْتُ عن بَلَدي ، فكنتُ أُدْمِنُ الكتابَةَ ليلاً ، وأقرأُ عليه نَهاراً ، فلمَّا كان ذاتَ ليلَة ، كنتُ جالساً أنسَخُ ، وقد تصَرَّمَ الليلُ ، فنزلَ الماءُ في عَيْنَيَّ ، فلم أُبصِرُ السِّراجَ ولا البَيتَ ، فبكيتُ على انقِطاعي ، وعلىٰ ما يَفوتُني من العلمِ ، فاشتدَّ بُكائي حتى اتّكأتُ علىٰ جَنْبي ، فنِمْتُ ، فرأيتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم في النَّومِ ، فناداني : يا يَعقوبُ بنَ سُفيان ، لمَ أنتَ بَكَيتَ ؟ فقلتُ : يا رسولَ الله ذَهبَ بَصَري ، فتحسَّرتُ علىٰ ما فاتني من كَتْبِ سُنَّتِك ، وعلى الانقطاعِ عن بَلَدي . فقال صلى الله عليه وسلم : أُدْنُ مِنِّي . فدَنَوْتُ منه ، فأَمَرَّ يَدَه علىٰ عَيني ، كأنَّه يَقرأُ عليهما . قال : ثم استيقَظْتُ فأبصَرتُ ، وأخذْتُ نُسَخي وقَعَدتُ في السِّراجِ أكْتُبُ .

ماتَ يَعقوبُ بنُ سُفيان بفَسَا سنة سَبعٍ وسَبعين ومئتَين[4] .

وقال الحُسَينُ بنُ أحمد الصفَّار : سَمعتُ عبد الرحمَـٰن بنَ أبي حاتم يقولُ : وقعَ عندنا الغَلاءُ ، فأنفَذَ بعضُ أصْدقائي حُبوباً من أصْبَهان ، فبِعْتُه بعشْرينَ ألفاً ، وسألني

---

(١) انظر السير : (أبو حَفْص النيسابوري) ١٢/ ٥١٠ـ ٥١٣ ، وانظر النزهة : ٣/١٠٢٥.

(٢) انظر السير : (أبو حَفْص النيسابوري) ١٢/ ٥١٠ـ ٥١٣ ، وانظر النزهة : ٧/١٠٢٥.

(٣) انظر السير : (ابن عَبْدوس) ١٣/ ٦٣ـ ٦٤ ، وانظر النزهة : ٣/١٠٥١.

(٤) انظر السير : (الفَسَوي) ١٣/ ١٨٠ـ ١٨٤ ، وانظر النزهة : ٣/١٠٦٨.

أنْ أشْتَريَ له داراً عندَنا ، فإذا جاءَ ينزِلُ فيها ، فأنفقْتُها في الفُقَراء ، وكَتبتُ إليه : اشْتَريتُ لك بها قَصْراً في الجَنَّة ، فبعثَ يقولُ : رَضيتُ ، فاكتُبْ علىٰ نفسِكَ صَكّاً ، ففعَلتُ ، فأُريتُ في المَنامِ : قد وفَّيْنا بما ضَمِنْتَ ، ولا تَعُدْ لمثلِ هـٰذا[1] .

وذكر عبد الرحمـٰن بن أحمد عن ، أبيه : أن امرأةً جاءَت إلىٰ بَقِيٍّ فقالت : إنَّ ابْني في الأسْرِ ، ولا حِيلَةَ لي ، فلَوْ أشَرْتَ إلىٰ مَنْ يَفْديه ، فإنَّني والِهَةٌ . قال : نعم ، انصَرفي حتىٰ أنظرَ في أمره ، ثم أَطْرَقَ ، وحرَّكَ شَفَتيه ، ثم بعد مُدَّةٍ جاءت المَرأةُ بابنها ، فقال : كنتُ في يَدِ مَلِكٍ ، فبَيْنا أنا في العَمَلِ ، سَقَطَ قَيدي . قال : فذكرَ اليومَ والسَّاعَة ، فوافَقَ وقتَ دُعاءِ الشَّيخ . قال : فصاحَ عليَّ المُرَسَّم بنا ، ثم نَظَرَ وتَحيَّرَ ، ثم أحضَرَ الحدَّادَ وقيَّدني ، فلمَّا فرغه ومَشَيتُ سَقطَ القَيدُ ، فبُهِتوا ، ودَعَوا رُهْبانَهم ، فقالوا : أَلَكَ والدةٌ ؟ قلتُ : نَعم . فقالوا : وافَقَ دُعاءَها الإجابة[2] .

وقال أبو عَمرو بنُ نُجَيد : سَمعتُ أبا عُثمانَ سَعيدَ بنَ إسْماعيلَ يقولُ : تَقدَّمتُ لأُصافحَ أبا عبدِ الله البُوشَنْجي تَبرُّكاً ، فقَبَضَ عَنِّي يَدَه ، ثم قال : يا أبا عُثمان! لَستُ هُناك[3] .

وقال عُثمانُ بنُ جَعْفَر اللَّبان ، حدَّثَني محمدُ بنُ نَصر قال : خَرجتُ من مِصْرَ ومعي جاريةٌ ، فرَكبتُ البَحْرَ أُريدُ مَكَّةَ ، فغَرقتُ ، فذهب منِّي ألفا جُزء ، وصِرتُ إلىٰ جَزيرةٍ أنا وجَاريَتي ، فما رأينا فيها أَحَداً ، وأخذَني العَطَشُ فلمْ أَقْدِرْ على الماءِ ، فوَضَعتُ رأسي علىٰ فَخِذِ جاريَتي مُسْتَسْلماً للمَوتِ ، فإذا رجلٌ قد جاءَني ومعه كوزٌ ، فقال لي : هاه . فشَربتُ وسَقيْتُها ، ثم مَضَىٰ ، فما أدْري من أينَ جاءَ ؟ ولا من أينَ راحَ ؟[4] .

وقال الذهبيُّ في تَرجمَة أبي عُثمان الحِيَري : ذكرَ الحاكمُ أخبارَ أبي عُثمان في

---

(١) انظر السير : (عبد الرحمـٰن بن أبي حاتم الرازي) ١٣/ ٢٦٣ـ ٢٦٩ ، وانظر النزهة : ١/١٠٨٠ .
(٢) انظر السير : (بَقِيُّ بن مَخْلَد) ١٣/ ٢٨٥ـ ٢٩٦ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٨٥ .
(٣) انظر السير : (البُوشَنْجي) ١٣/ ٥٨١ـ ٥٨٩ ، وانظر النزهة : ١/١١١٨ .
(٤) انظر السير : (محمد بن نصر) ١٤/ ٣٣ـ ٤٠ ، وانظر النزهة : ٣/١١٢٦ .

خمسٍ وعشرين ورَقَة في غُضون ذلك من كلامِه في التَّوكلِ واليَقين والرِّضَا ، قال الحاكمُ : وسَمعتُ أبي يقولُ : لمَّا قَتلَ أحمدُ بنُ عبد الله الخُجُستاني ـ الذي اسْتولَىٰ على البلادِ ـ الإمامَ حيكانَ بنَ الذهليّ ، أخذَ في الظُّلم والعَسفِ ، وأمرَ بحَرْبَةٍ رُكزَت علىٰ رأس المربّعة[1] ، وجمعَ الأعْيانَ ، وحلفَ : إنْ لمْ يَصُبُّوا الدَّراهمَ حتىٰ يغيبَ رأسُ الحَرْبَة ، فقد أحلُّوا دماءَهم ، فكانوا يَقتَسِمون الغرامَة بينهم ، فخُصَّ تاجرٌ بثلاثين ألفَ درهم ، فلم يكنْ يَقدرُ إلاَّ علىٰ ثلاثة آلاف درهم ، فحملها إلىٰ أبي عُثمان وقال : قد حلف هـٰذا كما بلَغَكَ ، ووالله لا أهْتَدي إلاَّ إلىٰ هـٰذه . قال : تأذَنُ لي أن أفعَل فيها ما يَنفَعُك ؟ قال : ففرَّقَها أبو عُثمان ، وقال للتاجر : امكُثْ عِندي ، وما زالَ أبو عُثمان يَتردَّدُ بين السِّكَّةِ والمَسْجدِ ليلَتَه حتىٰ أصْبَحَ ، وأذَّنَ المؤَذِّنُ ، ثم قال لخادِمه : اذهبْ إلى السُّوق ، وانظُرْ ماذا تَسْمَع ، فذَهبَ ، ورجَعَ فقال : لم أرَ شَيئاً ، قال : اذْهَبْ مرّةً أُخرَىٰ ، وهو في مُناجاتِه يقول : وحَقِّكَ لا أقَمتُ ما لم تُفرِّجْ عن المَكْروبين ، قال : فأتىٰ خادمُه الفَرغانيُّ يقول : وكَفَى اللهُ المؤمنينَ القِتالَ ، شُقَّ بَطنُ أحمدَ ابنَ عبد الله ، فأخذَ أبو عُثمانَ في الإقامَة .

قال الذهبيُّ : بمثلِ هـٰذا يَعظُمُ مَشايخُ الوَقت .

قال أبو الحُسَين أحمدُ بن أبي عُثمان : تُوفيَ أبي سَنةَ ثمان وتسعين ومئتين ، وصلَّىٰ عليه الأميرُ أبو صالح[2] .

وقيلَ : إنَّ الجُنَيد مَرِضَ مرَّةً فعادَه النُّوريُّ ، فوضَع يدَه عليه ، فعُوفيَ لوَقْتِه . تُوفِّيَ النُّوريُّ قبلَ الجُنَيد وذلك في سَنة خمسٍ وتسعينَ ومئتين ، وقد شاخَ رحمَه الله ، وموتُ الجُنَيد في سَنة ثمانٍ وتسعين[3] .

وجاء في تَرجمة عليِّ بنِ أبي طاهِر قال الذَّهبيُّ : وثَّقَه الخَليليُّ ، قال : سَمعتُ

---

(١) في « اللِّسان » والمربعة : خشيبة قصيرة يرفع بها العِدلُ ، وقال الأزهريُّ : هي عَصاةٌ تُحمَلُ بها الأثقال حتىٰ تُوضَع علىٰ ظهر الدواب .

(٢) انظر السير : (أبو عُثمان الحِيري) ١٤/ ٦٢ـ ٦٦ ، وانظر النزهة : ١١٣١/ ٥ .

(٣) انظر السير : (النُّوريّ) ١٤/ ٧٠ـ ٧٧ ، وانظر النزهة : ١١٣٥/ ١ .

الحَسنَ بنَ أحمد بنَ صالح يَحْكي عن سُليمانَ بنِ يَزيد : أنَّ عليَّ ابنَ أبي طاهر لمَّا رَحلَ إلى الشَّام ، وكَتبَ الحَديثَ جَعلَ كُتبَه في صُندوقٍ ، وقَيَّرَه وركَبَ البَحرَ ، فاضْطَربَت السَّفينةُ وماجت ، فألْقَى الصُندوقَ في البَحرِ ، ثم سَكنَتْ السَّفينَةُ ، فلمَّا خَرجَ منها أقامَ على السَّاحلِ ثلاثاً يَدعُو اللهَ ، ثم سَجدَ في اللَّيلَة الثَّالِثَة ، وقال : إنْ كان طَلَبي ذلك لوَجْهك وحبِّ رسُولِك ، فأغِثْني بردِّ ذلك ، فرفَعَ رأسَه ، فإذا بالصُندوقِ مُلقىً عندَه ، فقَدمَ ، وأقامَ بُرْهَة ، ثم قَصَدوه لسَماع الحَديثِ فامْتَنَع منه . وقال : فرأيتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم ، في مَنامي ، ومَعه عليٌّ رضي الله عنه ، فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « يا عَليُّ مَنْ عامَلَ اللهُ بما عامَلَكَ به علىٰ شَطِّ البَحْر ؟!! ، لا تَمتَنِعْ من رِوايَة أحاديثي » . قال : فقُلتُ : قد تُبتُ إلى الله ، فدَعا لي وحَثَّني على الرِّوايَة .

ماتَ عليُّ بنُ أبي طاهِر سنة نيِّف وتسعين ومئتين ، رَحمَه الله[1] .

نقل أبو عبد الرحمـٰن السُّلميّ في « مِحَن الصُّوفيّة » أن بُناناً الحَمَّال قام إلىٰ وزير خُمارويه ـ صاحب مصر ـ وكان نَصْرانيّاً فأنزله عن مَركوبه وقال : لا تركب الخيلَ وعيِّر ، كما هو مَأخوذ عليكم في الذِّمَّة ، فأمر خُمارويه بأن يُؤخَذ ويُوضع بين يدي سَبُع ، فطُرِحَ ، فبقي ليلةً ، ثم جاؤوا والسَّبُعُ يلحَسُه وهو مستقبل القِبْلَة ، فأطلَقه خُمارويه واعتذر إليه[2] .

ويُروَىٰ أنه كان لرجلٍ علىٰ آخرَ دَينٌ مئة دينار ، فطلبَ الرجلُ الوثيقةَ فلمْ يَجدْها ، فجاء إلىٰ بُنانَ ليَدعوَ له ، فقال : أنا رجلٌ قد كَبرتُ ، وأحبُّ الحَلْواءَ ، اذهَبْ اشترِ لي من عندِ دارِ فرج رطلَ حَلوَاء حتىٰ أدعوَ لك ، ففعَل الرجلُ وجاءَ ، فقال بُنانٌ : افتَحْ ورقةَ الحَلواء ، ففتحَ ، فإذا هي الوَثيقةُ ، فقال : هي وثيقَتي . قال : خُذْها ، وأطْعِم الحَلواءَ صِبْيانَك[3] .

---

(١) انظر السير : (عليُّ بن أبي طاهر) ١٤/ ٨٧ـ ٨٨ ، وانظر النزهة : ١١٣٥/ ٥ .
(٢) انظر السير : (بُنَانُ الحَمَّال) ١٤/ ٤٨٨ـ ٤٩٠ ، وانظر النزهة : ١١٦٩/ ١ .
(٣) انظر السير : (بُنَانُ الحَمَّال) ١٤/ ٤٨٨ـ ٤٩٠ ، وانظر النزهة : ١١٦٩/ ٤ .

وجاء في ترجمة البَرْبَهاريّ ، قال الذهبيُّ : تُوفِّيَ مُسْتَتِراً في رجب سنة ثمانٍ وعشرين وثلاث مئة ، فدُفِنَ بدارِ أختِ توزون[1] . فقيلَ : إنَّه لمَّا كُفِّن ، وعنده الخادمُ صلَّىٰ عليه وحدَه ، فنظرتْ هي من الرَّوْشَن[2] ، فرأت البيتَ ملآنَ رجالاً في ثيابٍ بيضٍ ، يُصلُّون عليه ، فخافَت وطلَبَت الخادمَ ، فحَلَفَ أنَّ البابَ لمْ يُفْتَحْ[3] .

وقال المحَدِّثُ أبو سَهْل القَطَّان : كنتُ مع الوزيرِ ، عليِّ بن عيسىٰ لمَّا نُفيَ بمكَّة ، فدَخَلْنا في حرٍّ شَديد وقد كِدْنا نَتلَف ، فطافَ يوماً ، وجاءَ فرمَىٰ بنفسه ، وقال : أشْتَهي على الله شَرْبَةَ ماء مَثْلوج . قال : فنَشَأَتْ بعد ساعةٍ سحابَةٌ ورَعَدَت وجاء بَرَدٌ كثيرٌ جمَعَ منه الغِلْمانُ جِراراً ، وكان الوَزيرُ صائماً ، فلمَّا كان الإفطارُ جِئتُه بأقداح من أصناف الأَسْوقة فأقبلَ يَسْقي المجاوِرين ، ثم شَربَ وحمِدَ اللهَ ، وقال : لَيْتَني تَمَنَّيْتُ المَغْفِرَة .

وكان الوَزيرُ مُتواضِعاً ، قال : ما لَبِسْتُ ثَوْباً بأزيَدَ من سَبْعَة دنانير .

قال أحمدُ بنُ كامل القاضي : سَمعتُ عليَّ بنَ عيسَى الوَزيرَ ، يقولُ : كَسَبْتُ سَبع مئة ألفِ دينار ، أخرجْتُ منها في وجُوه البِرِّ ستَّ مئة ألفٍ وثمانينَ ألفاً .

تُوفِّيَ في آخرِ أربع وثلاثين وثلاثِ مئة ، وله تسعُون سنة[4] .

وجاء في ترجمة أبي ميسَرَة ، فقيه المَغْرِب ، قال الذهبيُّ : وقع في ذِهْنِ المَنصُور أنَّ أبا مَيْسَرَة لا يَرى الخُروجَ عَليه ، فأرادَه ليُوَلِّيه القَضاءَ ، فقالَ : كيفَ يَلي القَضاءَ رجلٌ أعْمَىٰ ، يَبولُ تَحْتَه ، فما عَلِمَ أحدٌ بضَرَره إلاَّ يومئذٍ ، فقالَ : اللَّهُم إنَّكَ تعلمُ أنِّي انْقَطَعْتُ إليكَ وأنا شابٌّ فلا تُمَكِّنهم منِّي ، فما جاءَت العَصْرُ إلاَّ وهو من أهلِ الآخِرَة ، فوَجَّه إليه المنصورُ بكَفَنٍ وطِيب .

---

(١) توزون ، أحدُ القادة الأتراك ، خلع عليه المتَّقي وجعله أمير الأمراء ، ودامت إمارته حتىٰ وفاته سنة أربع وثلاثين وثلاث مئة ، وهو الذي سَمَل المتَّقي بالله وخلعه ، وبايع المسْتَكْفي.

(٢) الرَّوْشَن : الكُوَّة .

(٣) انظر السير : (البَرْبَهاريّ) ١٥/ ٩٠ـ٩٣ ، وانظر النزهة : ١/١١٨٦ .

(٤) انظر السير : (الوَزير ، عليُّ بن عيسى بن داود) ١٥/٢٩٨ـ ٣٠١ ، وانظر النزهة : ١/١٢٣٠ .

تُوفِّيَ سنة ثمانٍ وثلاثين وثلاث مئة ، وكان مُجابَ الدَّعْوَة ، رحمَه الله[1] .

قال أبو القاسم بنُ عَلان الواسطيُّ : لمَّا أصابَ أبا الحسَن الكَرْخيّ الفَالجُ في آخر عُمُره ، حضَرْتُه ، وحضَرَ أصْحابُه : أبو بَكْر الدَّامغانيُّ ، وأبو علي الشَّاشيُّ ، وأبو عبد الله البَصْريُّ ، فقالوا : هـٰذا مَرَضٌ يَحتاجُ إلىٰ نفَقَةٍ وعِلاجٍ ، والشَّيخُ مُقلٌّ ، ولا يَنبَغي أن نَبذُلَه للنَّاس ، فكَتبوا إلىٰ سَيْفِ الدّولَة بنِ حَمْدان ، فأَحسَّ الشَيخُ بما هم فيه ، فبَكىٰ وقال : اللّهم لا تَجْعَلْ رِزْقي إلاَّ من حَيثُ عَوَّدْتَني ، فماتَ قبلَ أن يُحْمَلَ إليه شيءٌ ، ثم جاءَ من سَيفِ الدّولَة عَشْرةُ آلاف دِرْهم ، فتُصُدِّقَ بها عنه .

تُوفِّيَ رحمَه اللهُ في سَنة أربَعين وثلاث مئة ، وكان رَأساً في الاعْتِزال ، اللهُ يُسامِحُهُ[2] .

وقال أبو محمد بنُ حَزْم : أخْبَرني حَكَمُ بنُ مُنذِر بنُ سَعيد ، أخْبَرَني أبي أنَّه حَجَّ راجِلاً مع قَومٍ رجّالة ، فانقَطَعوا وأعْوَزَهم الماءُ في الحِجاز وتاهوا ، قال : فأَوَينا إلىٰ غارٍ نَنْتَظِرُ المَوْتَ ، فوَضَعتُ رأسي مُلصَقاً بالجَبَل ، فإذا حَجَرٌ كان في قُبالَته ، فعالَجْتُه ، فنَزَعْتُه فانبَعَثَ الماءُ ، فشَرِبْنا وتَزَوَّدْنا[3] .

وقال أحمدُ بنُ عليّ البَادي ، سَمعتُ أبا الفَتْح القَوَّاس يقولُ : لَحِقَتْني إضاقَة ، فأخذتُ قَوساً وخُفَّين لأبيعَهُما ، فقلتُ : أحضُرُ مَجْلسَ ابنِ سَمْعونَ ثم أبيعُ ، فحَضَرتُ ، فلمَّا فَرغَ نادَاني : يا أبا الفَتْح لا تَبِعِ الخُفَّيْن والقَوْسَ فإنَّ اللهَ سَيأتيك برِزْقٍ من عندِه[4] .

وقال أبو عليّ بنُ أبي موسَى الهاشميّ ، قال : حَكىٰ لي مَوْلى الطَّائع أن الطَّائعَ أمرَه ، فأحضَرَ ابنَ سَمعُون ، فرأيتُ الطَّائعَ غَضْبانَ ـ وكان ذا حِدَّة ـ فسلَّمَ ابنُ سَمعُون بالخِلافَة ، ثم أخذَ في وَعْظِه فقال : رُويَ عن أمير المؤمنين عليٍّ رضي الله عنه كذا .

(1) انظر السير : (أبو مَيْسَرة) ١٥/ ٣٩٥ـ٣٩٦ ، وانظر النزهة : ٣/١٢٤٠ .
(2) انظر السير : (الكرْخيّ) ١٥/ ٤٢٦ـ٤٢٧ ، وانظر النزهة : ١/١٢٤٦ .
(3) انظر السير : (مُنذر بن سعيد البَلُّوطيّ) ١٦/ ١٧٣ـ١٧٨ ، وانظر النزهة : ٢/١٢٧٨ .
(4) انظر السير : (ابنُ سَمعون) ١٦/ ٥٠٥ـ٥١١ ، وانظر النزهة : ٣/١٣١٠ .

ووَعَظَ حتىٰ بَكى الطَّائعُ وسُمعَ شَهيقُه ، وابتَلَّ منديلٌ من دُموعِه ، فلمَّا انصَرفَ سُئلَ الطَّائعُ عن سَببِ طَلبه ، فقال : رُفعَ إليَّ أنَّه يَنتَقِصُ عَليّاً ، فأرَدْتُ أقابلَه ، فلمَّا حَضر افتَتحَ بذِكْره والصَّلاة عليه ، وأعادَ وأبْدَىٰ في ذِكْره ، فعلِمْتُ أنَّه وُفِّقَ ، ولعلَّه كُوشِفَ بذلك[1] .

وقالَ أبو محمَّد الجَوْهَريّ : سَمعتُ أخي الحُسَينَ يَقُولُ : رَأيتُ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم في الْمَنامِ ، فقُلتُ : يا رَسُولَ الله قد اختلفَتْ عليَّ المَذاهِبُ ، فقالَ : عَليكَ بابنِ بَطَّة فأصْبَحتُ ولَبستُ ثيابي ، ثم أصْعَدتُ إلىٰ عُكبرا ، فدخلتُ وابنُ بطَّة في الْمَسجدِ فلمّا رآني قالَ لي : صَدقَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم ، صَدقَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم .

وكان مُسْتجابَ الدَّعْوَة .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : لابنِ بَطَّة مع فَضلِه أوْهامٌ وغَلطٌ[2] .

وقيلَ إنَّ مُحْرزاً التونسيَّ أُتِيَ بابنَةِ أبي زَيد وهي زَمِنَة فدعَا لها ، فقامت ، فعَجبوا ، وسَبَّحوا اللهَ ، فقال : والله ، ما قلتُ إلاَّ : بحُرْمَة والدِها عندَك اكْشِفْ ما بها . فشَفاها اللهُ .

قال الذهبيُّ : وكان رحمَه الله علىٰ طَريقَةِ السَّلَف في الأصول ، لا يَتأوَّل ، فنسألُ اللهَ التوفيقَ[3] .

وقال ابنُ حيّان : تُوفِّي الفَقيهُ الحافظُ المُشاوَرُ ، المسْتبحِرُ الراويَة البعيدُ الأثَر ، الطَويلُ الهجرة في طلب العلم ، الناسِكُ المُتقَشِّفُ ، أبو عبد الله بنُ الفَخَّار بمدينة بَلَنْسيَة سَنةَ تسعَ عشرة وأربع مئة ، فكان الحفل في جنازَته عَظيماً ، وعايَنَ الناسُ فيها آيةً من طُيورٍ شبهِ الخُطَّاف ـ وما هي بها ـ تخلَّلت الجَمعَ رَافَّةً فوقَ النَّعْشِ ، جانحةً إليه مُشْفِقَةً إليه ، لم تُفارِق نعشَه إلىٰ أن وُورِيَ ، فتفرَّقَت ، وتحدَّثَ الناسُ بذلكَ وَقْتاً ،

---

(١) انظر السير : (ابنُ سَمعون) ١٦/ ٥٠٥ـ ٥١١ ، وانظر النزهة : ١٣١٠/ ٤ .

(٢) انظر السير : (ابن بَطَّة) ١٦/ ٥٢٩ـ ٥٣٣ ، وانظر النزهة : ١٣١٤/ ٣.

(٣) انظر السير : (ابن أبي زيد) ١٧/ ١٠ـ ١٣ ، وانظر النزهة : ١٣١٩/ ٣.

مَكَثَ مدّة بِبَلَنْسيَةَ مُطاعاً ، عَظيمَ القَدرِ عند السُّلطانِ والعامَّة ، وكان ذا مَنزِلَةٍ عَظيمة في الفِقْه والنُّسُك ، صاحبَ أنْباء بَديعة .

وكان يُقالُ : إنَّه مُجابُ الدّعوَة ، واختُبرَت دعوَتُه في أشْياء .

وقال أبو عَمرو الدَّاني : وهو آخرُ الفُقَهاء الحُفَّاظ ، الرّاسخينَ العالمين بالكتابِ والسُّنَّة بالأندَلُس ، رحمَه الله[١] .

وقال أبو بكر محمدُ بنِ أحمد بنِ طَلْحَة بنِ المُنَقِّي : حَضَرَتْ والدي الوفاةُ ، فأوْصَىٰ إليَّ بما أفعَلُهُ ، وقال : تَمضِي إلى القَزْويني ، وتقولُ له : رأيتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم في المَنام ، وقالَ لي : اقرأ على القَزْوينيِّ منِّي السَّلامَ ، وقل له : بالعَلامَة أنَّكَ كُنتَ بالمَوْقِفِ في هذه السَّنة فلمَّا ماتَ ، جِئتُ إليه ، فقال لي ابتداءً : مات أبوك ؟ قلتُ : نَعَم . قال : رَحِمَه اللهُ ، وصدقَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، وصدَقَ أبوكَ ، وأقسَمَ عليَّ أن لا أُحدِّثَ به في حَياتِه .

قال السَّلَفيُّ : سألتُ شُجاعاً الذُّهْليَّ عن أبي الحسَن القَزْويني ، فقال : كان عَلَمَ الزُّهَّاد والصالحين ، وإمامَ الأتْقياء الوَرِعين ، له كَراماتٌ ظاهرةٌ مَعْروفَة يَتداوَلُها النَّاسُ ، لم يَزَلْ يُقْرِىءُ ويُحدِّثُ إلىٰ أنْ مات[٢] .

وقال هِبَةُ الله بن المُجْلي في كتابِ « مَناقِب القَزْويني » : كان كلمةَ إجماعٍ في الخَير ، ومِمَّن جُمعَت له القُلوبُ . سَمعتُ أبا العبَّاس المؤدِّبُ وغَيرَه يَقولان : إنَّ القَزْويني سَمعَ الشَّاةَ تَذكرُ اللهَ تَعالَىٰ . وحدَّثني هِبةُ الله بنُ أحمد الكاتبُ أنَّه زارَ قَبرَ ابنَ القَزْويني ، ففتَح خَتمةً هناك وتَفاءَلَ للشَّيخ ، فطلع أولُ ذلك : ﴿ وَجِيهًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾[٣] ، [٤] .

ورُويَ عن أقْضَى القُضاة الماوَرْديِّ قال : صَلَّيتُ خلفَ أبي الحَسَن القَزْويني ،

---

(١) انظر السير : (ابن الفَخَّار) ١٧/ ٣٧٢ـ٣٧٤ ، وانظر النزهة : ٣/١٣٤٥ .
(٢) انظر السير : (القَزْويني) ١٧/ ٦٠٩ـ٦١٣ ، وانظر النزهة : ٢/١٣٦٧ .
(٣) سورة آل عمران ، الآية : ٤٥.
(٤) انظر السير : (القَزْويني) ١٧/٦٠٩ـ٦١٣ ، وانظر النزهة : ٣/١٣٦٧ .

فرأيتُ عليه قَميصاً نَقيّاً مُطَرَّزاً ، فقلتُ في نَفسِي : أين الطرزُ من الزُّهد ؟ فلمَّا سلَّمَ قال : سُبحانَ الله! الطرزُ لا ينقُصُ حُكمَ الزُّهد[1] .

وذكر محمدُ بنُ حُسَين القَزَّاز قال : كان ببغْدادَ زاهدٌ خَشِنُ العَيش ، وكان يَبلُغُه أنَّ ابنَ القَزْوينيِّ يأكلُ الطَّيِّبَ ، ويَلبَسُ الرَّقيقَ ، فقال : سُبحانَ الله! رجلٌ مُجْمَعٌ علىٰ زُهْدِه ، وهـٰذا حالُه! أشْتَهي أن أراهُ . فجاء إلى الحربيَّة ، فرآه ، فقال الشيخُ : سبحانَ الله! رجلٌ يُومَأُ إليه في الزُّهدِ يُعارِضُ اللهَ في أفْعالِه ، وما هُنا مُحَرَّمٌ ولا مُنْكر . فشَهِقَ ذلك الرجلُ ، وبَكَىٰ[2] .

ثم سَرَدَ له ابنُ المُجْلي كَراماتٍ منها شُهودُه عَرفَة وهو ببَغْدادَ ، ومنها ذَهابُه إلىٰ مَكَّة ، فطافَ ، ورجَعَ من لَيلَتِه[3] .

وعن جَعْفَر الهَمداني ، أخبَرنا السلَفيُّ : سَمعتُ جَعْفَراً السَّرَّاجَ يقول : رأيتُ علىٰ أبي الحسَن القَزْوينيِّ ثَوباً رَقيقاً ، فخطر لي : كيفَ مثْلُه في الزُّهدِ يَلْبَسُ هـٰذا ؟! فنظرَ في الحال إليَّ ، وقال : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾[4] ،[5] .

وحضرتُ عندَه يوماً للسَّماع إلىٰ أن وصلت الشمسُ إلينا ، وتأذَّينا بحَرِّها ، فقلتُ في نَفْسي : لو تحوَّلَ الشَّيخُ إلى الظِّلِ ، فقال لي في الحالِ : ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّاۚ﴾[6] ،[7] .

وقال السَّمْعانيُّ : سَمعتُ الحَسَنَ بنَ محمد بنِ الرِّضا العَلويّ يقول : سَمعتُ خالي أبا طالب بنَ طَباطبا يقولُ : كنتُ أشْتُمُ أبداً عبدَ الرحمـٰن ابنَ مَنْدَه ، فسافرتُ إلىٰ جَرْباذَقان[8] ، فرأيتُ أميرَ المؤمنين عُمرَ في النَّومِ ويدُه في يد رجلٍ عليه جُبَّةٌ زَرْقاء ،

---

(١) انظر السير : (القَزْويني) ١٧/ ٦٠٩ـ ٦١٣ ، وانظر النزهة : ١٣٦٨/ ١ .
(٢) انظر السير : (القَزْويني) ١٧/ ٦٠٩ـ ٦١٣ ، وانظر النزهة : ١٣٦٨/ ٢ .
(٣) انظر السير : (القَزْويني) ١٧/ ٦٠٩ـ ٦١٣ ، وانظر النزهة : ١٣٦٨/ ٣ .
(٤) سورة الأعراف ، الآية : ٣٢ .
(٥) انظر السير : (القَزْويني) ١٧/ ٦٠٩ـ ٦١٣ ، وانظر النزهة : ١٣٦٨/ ٤ .
(٦) سورة التوبة ، الآية : ٨١ .
(٧) انظر السير : (القَزْويني) ١٧/ ٦٠٩ـ ٦١٣ ، وانظر النزهة : ١٣٦٨/ ٥ .
(٨) بلدة قريبة من هَمَذان .

وفي عَيْنَيه نكتةٌ ، فسَلمتُ عليه فلم يرُدَّ عليَّ ، وقال : تَشتُمُ هٰذا . فقيلَ لي في المَنامِ : هٰذا عُمرُ وهٰذا عبدُ الرحمَٰن بنُ مَندَه . فانتبَهتُ ، ثم رجعتُ إلىٰ أصْبَهان ، وقَصَدتُ عبدَ الرحمَٰن ، فلمَّا دخَلتُ عليه ، صادَفتُه كما رأيتُه في النَّوم ، فلمَّا سَلَّمتُ عليه قالَ : وعليكَ السَّلامُ يا أبا طَالِب . وقبلَها ما رآني ، ولا رَأيتُه ، فقالَ لي قبلَ أن أُكلِّمَه : شيءٌ حَرَّمَه الله ورسُوله يَجوزُ لنا أن نُحِلَّه ؟ فقلتُ : اجْعَلني في حِلٍّ ، وناشَدْتُه اللهَ وقَبَّلتُ عَيْنَيْه ، فقال : جعلتُكَ في حِلٍّ فيما يَرجعُ إليَّ .

وعن صاعد بنِ سيّار ، سَمعتُ الإمام أبا إسماعيلَ الأنصاريَّ يقولُ في عبدِ الرحمَٰن بنِ مَنده : كانت مَضرَّته أكثرَ من مَنْفَعَته في الإسْلام .

قالَ الإمامُ الذهَبيُّ مُعقِّباً : أطْلقَ عِباراتٍ بَدَّعَه بَعضُهم بها ، اللهُ يُسامحُه ، وكان زَاعِراً علىٰ مَنْ خالَفَه ، فيه خارجيَّةٌ ، وله مَحاسِنُ ، وهو في تَواليفِه حاطِبُ ليلٍ ، يَرْوي الغَثَّ والسَّمين ، ويَنظِمُ رَديىءَ الخَرَزِ مع الدُّرِّ الثمين .

ماتَ سَنة سَبعين وأربع مئة ، وشَيَّعَه عالَمٌ لا يُحْصَوْن[١] .

قال عُمرُ المَحْموديُّ : لمَّا ماتَ الوَخْشيُّ كنتُ قد راهَقتُ ، فلمَّا وَضَعوه في القَبرِ ، سَمعْنا صَيْحَةً ، فقيلَ : إنَّه لمَّا وُضِعَ في القَبرِ ، خَرجَت الحَشَراتُ من المَقْبَرة ، وكان في طَرفِها وادٍ فأخذَتْ إليه الحَشَراتُ ، فذَهَبتْ والنَّاسُ لا يَعْرِضونَ لها .

مات الوَخْشيُّ سَنة إحْدىٰ وسَبعينَ وأربع مئة ببَلْخ وله ستٌّ وثَمانونَ سَنة[٢] .

وقال أبو سَعيد السَّمْعانيُّ : قال لي شَيخٌ : كان جَدُّكَ أبو المُظَفَّر عَزمَ على المُجاوَرَة في صُحْبة سَعدٍ الإمام ، فرأىٰ والدَتَه كأنمَّا كَشَفتْ رأسَها تقولُ : يا بُنيَّ ، بحَقِّي عليكَ إلاَّ ما رَجعتَ إليَّ ، فإنِّي لا أُطيقُ فِراقَك ، قال : فانتَبَهتُ مَغْموماً ، وقلتُ : أُشاورُ الشَّيخَ ، فأتيتُ سَعْداً ، ولمْ أقدِرْ من الزِّحامِ أنْ أُكلِّمَه ، فلمَّا قام

---

(١) انظر السير : (ابنُ مَندَه) ١٨/ ٣٤٩ـ٣٥٤ ، وانظر النزهة : ١٤٢٠/١ .

(٢) انظر السير : (الوَخْشيّ) ١٨/ ٣٦٥ـ٣٦٧ ، وانظر النزهة : ١٤٢٢/٢ .

تَبِعْتُه ، فالتفتَ إليَّ ، وقال : يا أبا المُظَفَّر ، العَجُوزُ تَنتَظِرُك ، ودخلَ بَيتَه ، فعَلمتُ أنَّه كاشَفَني ، فرَجَعتُ تلكَ السَّنَة[1] .

وقال ابنُ طاهِر : دخلتُ عليه وأنا ضَيِّقُ الصَدْرِ من شيرازيٍّ ، فقال لي من غير أن أعْلِمَه : لا تُضَيِّق صَدْرَك ، في بلادِنا يُقالُ : بُخْلُ أهْوازيٍّ ، وحَماقَةُ شِيرازيٍّ ، وكَثْرَةُ كلام رازيٍّ . وأتَيْتُه وقد عَزَمتُ على الخُروجِ إلى العِراقِ ، فقال : أراحِلونَ فَنَبْكي أمْ مُقيمونا ؟ . فقلتُ : ما يأمرُ الشَّيخ ؟ فقال : تَدخُلُ خُراسانَ ، وتَفوتُك مِصْرُ فيبقىٰ في قلبِكَ منها . اخْرُجْ إلىٰ مِصْرَ ، ثم منها إلى العِراق وخُراسان ، فإنَّه لا يَفُوتُك شيءٌ . فكان في رأيِه البَرَكَة .

سُئِلَ إسْماعيلُ بنُ محمد التيميُّ الحافظُ ، عن سَعدٍ الزَّنْجانيِّ ، فقال : إمامٌ كبيرٌ ، عارِفٌ بالسُّنَّة .

تُوفِّيَ سنة إحْدىٰ وسبعين وأربع مئة ، وله تسعونَ عاماً[2] .

قال أبو الحَسَن ، عليُّ بنُ أحمد العابد : سَمعتُ الشَّيخَ ابنَ بَخيساه قال : كنا نَدخلُ على القاضي أبي الحَسَن الخِلَعيِّ في مَجْلسِه ، فنجدُه في الشِّتاء والصَّيفِ وعليه قَميصٌ واحدٌ ، ووَجْهُه في غايَةٍ من الحُسْن ، لا يَتغيَّرُ من البَردِ ولا من الحَرِّ ، فسألْتُه عن ذلك ، فتغيَّرَ وَجْهُه ، ودَمِعَتْ عَينُه ، ثم قال : أتَكْتُمُ عليَّ ما أقولُ ؟ قلتُ : نَعم . قال : غَشِيَتْني حُمَّىٰ يوماً ، فنِمْتُ في تلكَ اللَّيلَة ، فهَتَفَ بي هاتفٌ ، فناداني باسْمي ، فقلتُ : لَبَّيْك داعيَ الله ، فقال : لا ، قُلْ لَبَّيْكَ رَبِّيَ الله ، ما تَجدُ من الألَم ؟ فقُلتُ : إلَـٰهي وسَيِّدي ، قد أخَذَت منِّي الحُمَّىٰ ما قد عَلِمتَ ، فقال : قد أمَرْتُها أنْ تُقْلِعَ عَنْكَ ، فقلتُ : إلَـٰهي ، والبَردَ أيْضاً ؟ قال : قد أمَرتُ البَرْدَ أيضاً أنْ يُقْلِعَ عَنْكَ ، فلا تَجدُ البَرْدَ ولا الحَرَّ ، قال : فوَالله ما أُحِسُّ بما أنْتُم فيه من الحَرِّ ولا من البَرْدِ .

مات الخِلَعِيُّ بمِصْرَ سنة اثنَتين وتسعينَ وأربع مئة[3] .

---

(١) انظر السير : (الزَّنْجانيّ) ١٨/ ٣٨٥ـ ٣٨٩ ، وانظر النزهة : ٣/١٤٢٣ .

(٢) انظر السير : (الزَّنْجانيّ) ١٨/ ٣٨٥ـ ٣٨٩ ، وانظر النزهة : ٢/١٤٢٤ .

(٣) انظر السير : (الخِلَعي) ١٩/ ٧٤ـ ٧٩ ، وانظر النزهة : ٤/١٤٦١ .

قال أبو القاسِم بنُ عَساكر : سَمعتُ أبا الفَضْل محمدَ بنَ محمدِ بنِ عطَّاف يَحْكي أنَّه طَلعَ في بعضِ أولادِ الرؤساءِ ببَغْدادَ إصْبَعٌ زائدة ، فاشتدَّ ألمُه له ، فدخلَ عليه ابنُ الخاضِبَة فمَسَحَ عليها ، وقال : أمرُها يَسير ، فلمَّا كان اللَّيلُ نام وانتبَهَ ، فوجدَها قد سَقَطَتْ ، أو كما قال .

مات ابنُ الخاضِبَة سنةَ تسع وثمانين وأربع مئة ، وكانت جنازتُه مَشْهودَة ، وخُتِمَ علىٰ قَبرِه عِدَّةُ خَتمات[1] .

وجاء في ترجمة « يوسف بن أيُّوب » ، قال الذهبيُّ ، سَمعتُ صافيَ ابنَ عبد الله الصُّوفيّ يقول : حَضرتُ مَجلِس يوسف في النظاميّة ، فقام ابنُ السقَّاء ، فآذَى الشيخَ ، وسألَه عن مَسألةٍ ، فقال : اجلس ، إنِّي أجدُ من كَلامك رائحَةَ الكُفْر ولَعَلَّكَ تَموتُ علىٰ غير الإسْلام ، فاتَّفَقَ أنَّ ابنَ السَّقَّاء ذهبَ في صُحْبَة رسولِ طاغية الرُّومِ ، وتَنَصَّر بقُسْطَنْطينيَة[2] .

وأمّا ابنُ السَّقّاء المذكورُ ، فقال ابنُ النجّار : سَمعتُ عبدَ الوَهَّاب ابنَ أحمد المُقرىء يقولُ : كان ابنُ السَّقّاء مُقرئاً مُجَوِّداً ، حَدَّثَني مَنْ رآه بالقُسْطَنْطينيّة مَريضاً علىٰ دكَّةٍ ، فسألتُه : هل القُرآنُ باقٍ علىٰ حِفْظك ؟ قال : ما أذكُرُ منه إلاَّ آيةً واحدةً : ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ﴾[3] . والباقي نَسيتُه[4] .

وقال محمدُ بنُ ناصِر الحافظُ : حدَّثنا أبو جَعْفَر محمدُ بنُ الحَسَن ابنُ أخي إسْماعيلَ الحافظ ، حدَّثني أحمدُ الأسْواريُّ الذي تَوَلَّىٰ غَسْلَ عَمِّي ، وكان ثقةً ، أنَّه أراد أنْ يُنَحِّيَ عن سَوْأتِه الخِرْقَة لأجْلِ الغُسْل ، قال : فجَذَبَها إسْماعيلُ بيَدِه ، وغَطَّىٰ فَرجَه ، فقال الغاسِلُ : أحَياةٌ بعدَ مَوْتٍ ؟!![5] .

---

(١) انظر السير : (ابنُ الخاضِبَة) ١٩/ ١٠٩ـ ١١٤ ، وانظر النزهة : ١٤٦٧/ ١ .
(٢) انظر السير : (يوسُف بن أيُّوب) ٢٠/ ٦٦ـ ٦٩ ، وانظر النزهة : ١٥٣١/ ٢ .
(٣) سورة الحِجْر ، الآية : ٢ .
(٤) انظر السير : (يوسُف بن أيُّوب) ٢٠/ ٦٦ـ ٦٩ ، وانظر النزهة : ١٥٣١/ ٥ .
(٥) انظر السير : (التَّيْميّ) ٢٠/ ٨٠ـ ٨٨ ، وانظر النزهة : ١٥٣٢/ ٥ .

وقال ابنُ الجَوْزيّ : حدَّثني الفَقيهُ عبدُ الرحمـٰن بنُ عيسَىٰ ، سَمعتُ الزَّبيديَّ قال : خرجتُ إلى المَدينَة على الوحدة ، فآواني اللَّيلُ إلىٰ جَبلٍ ، فصَعَدتُ ، وناديتُ اللَّهُمَّ إنِّي اللَّيلَةَ ضَيْفُك . ثم نُوديتُ : مَرْحَباً بضَيْفِ الله إنَّكَ مع طُلوعِ الشَّمسِ تمرُّ بقومٍ علىٰ بئرٍ يأكُلونَ خُبْزاً وتَمْراً ، فإذا دَعَوْكَ فأجبْ ، فسِرْتُ من الغَد ، فلاحَت ليَ أهْدافُ بئرٍ فجئتُها ، فوجدتُ عندَها قَوماً يأكُلونَ خُبْزاً وتَمراً ، فدَعَوْني ، فأجَبتُ[1] .

وجاء في ترجمة أبي الحُسَين الزَّاهد ، قال الذهبيُّ : ألَّفَ الحافظُ الضِّياءُ سيرَتَهُ في جزءٍ ، أنبأني به الشيخُ أبو عبد الله بنُ الكَمال وغيرُه بسَماعِهم منه ، فقالَ : حدَّثني الإمامُ عبدُ الله بنُ أبي الحَسَن الجُبّائي قال : مَضيتُ إلىٰ زيارة أبي الحُسَين الزَّاهد بحلَبَ ، ولم تكُنْ نيَّتي صادِقةً ، فقال : إذا جِئتَ إلى المَشايخ فلتَكُنْ نيَّتُكَ صادِقةً في الزِّيارَة[2] .

قال أبو سَعْد السَّمعانيّ : سَمعتُ سنانَ بنَ مُشيّع الرَّقِّي يقول : رأيتُ أبا الحُسَين المَقْدسيَّ برأس عَينٍ في مَوْضعٍ عُرْياناً قد اتَّزَرَ بقَميصِه ، ومَعَه حمارٌ ، والناسُ قد تكابُّوا عليه ، فقالَ : تَعال . فتقدَّمتُ ، فأخَذَ بيَدي ، وقال : نَتَواخَى ؟ قلتُ : ما لي طاقة . قال : أيش لك في هـٰذا وآخاني ، وقال لواحدٍ من الجَماعَة : حِماري يَحْتاجُ إلىٰ رَسَن ، فقالوا : ثمنُه أربعةُ فُلوس ، فأشارَ إلىٰ مَوْضعٍ في الحائط ، فإنِّي جزتُ ها هنا وخبَّأتُ ثمّ أربعَ فلوس ، اشْتروا لي بها حَبْلاً ، ثم قال : أريدُ أن تَشْتري لي بدينارٍ سَمَكاً ، قلتُ : كرامة ، ومن أينَ لك ذهب ؟ قال : بلىٰ مَعي ذهبٌ كثيرٌ . قلتُ : الذهبُ يكونُ أحْمَر . قال أبصِرْ تحتَ الحَشيش ، فأخذتُ الحشيشَ ، فخرجَ دينارٌ ، فاشتريتُ له به سَمَكاً فنظَّفْتُه ، وشَواهُ ، ثم قلاه ، ثم أخرجَ منه الجلدَ والعِظامَ ، وجعلهُ أقْراصاً وجفَّفَه ، وتركَه في جِرابِه ، ومَضىٰ وله سنون ما أكلَ الخُبزَ ، وكان يسْكُنُ جبالَ الشَّام ويأكلُ البَلُّوطَ والخرنوبَ[3] .

---

(١) انظر السير : (الزَّبِيْديُّ) ٢٠/٣١٦ـ٣١٩ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٥٥ .

(٢) انظر السير : (أبو الحُسين الزَّاهد) ٢٠/ ٣٨٠ـ٣٨٤ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٦٦ .

(٣) انظر السير : (أبو الحُسين الزَّاهد) ٢٠/ ٣٨٠ـ٣٨٤ ، وانظر النزهة : ٣/١٥٦٦ .

وكان عَظيمَ الشأن ، يَقعُدُ خَمسَةَ عشرَ يوماً لا يأكلُ سوىٰ أكلةٍ ويتقوَّتُ من الخَرُّوب البرِّي ، ويُجَفِّفُ السَّمَكَ ، وحدَّثني يوسُفُ ابنُ الشيخ أبي الحُسَين أنَّ الشيخَ استفَّ من صُرَّةٍ ، فرآه رجلٌ ، فأرادَ أن يسْتفَّ منه ، فإذا هو مُرٌّ ، فلمَّا جاء الشيخُ ، قال يا سَيِّدي : ما في الصُرَّة ؟ فناوَلَه منها كَفّاً ، فإذا هو سُكّر وقَلبُ لَوْزٍ[1] .

وعن مَسْعود اليَمَني ، قالت الفِرَنْجُ : لو أنَّ فيكُم آخرَ مثلَ أبي الحُسَين لاتَّبعْناكُم علىٰ دينِكُم ، مَرُّوا يَوماً ، فرأوه راكِباً علىٰ سَبُعٍ وفي يده حيَّةٌ ، فلما رآهم ، نزَل ومَضىٰ[2] .

وقال السَّمعانيُّ : سَمعتُ عبدَ الوَاحد بالكَرج يقول : سَمعتُ الكُفَّارَ يقولون : الأسُودُ والنُّمورُ كأنَّها نَعَمُ أبي الحُسَين[3] .

وقال الضِّياءُ : سَمعْنا له غَيرَ ذلك من مَشي الأسَد معهُ ، عمل حلاوةً من قُشور البطيخ ، فغرف حلاوةً من أحسن الحلاوة[4] .

وحدَّثني عنه المُحْسِنُ بنُ محمدِ بن الشَّيخ ، حدَّثنا أبي قال : كان والدي يَعملُ لنا الحلاوَةَ من قُشورِ البطيخ ، ويَسُوطها بيده ، فعملْنا بعده فلم تنعَمل ، فقالت أمِّي : بقيت تُعْوزُ المِغرفة[5] .

وحُكيَ أن أبا الحُسَين أرادَ لصٌّ أن يأخُذَ حِمارَه ، فيَبسَتْ يدُه ، فلمّا أبعدَ عنه عادَت[6] .

وعن محمدِ بنِ مَحمودِ المَراتبيِّ ، سَمعتُ الشيخَ أبا بَكر العمادَ رحمَه اللهُ يقولُ : كنتُ قَرأتُ في أصُولِ الدِّين ، فأوقَعَ عندي شَكّاً ، فقُلْتُ : حتىٰ أمضيَ إلىٰ مَجلسِ

---

(١) انظر السير : (أبو الحُسين الزَّاهد) ٢٠/ ٣٨٠ـ ٣٨٤ ، وانظر النزهة : ١٥٦٦/ ٤ .
(٢) انظر السير : (أبو الحُسين الزَّاهد) ٢٠/ ٣٨٠ـ ٣٨٤ ، وانظر النزهة : ١٥٦٧/ ١ .
(٣) انظر السير : (أبو الحُسين الزَّاهد) ٢٠/ ٣٨٠ـ ٣٨٤ ، وانظر النزهة : ١٥٦٧/ ٢ .
(٤) انظر السير : (أبو الحُسين الزَّاهد) ٢٠/ ٣٨٠ـ ٣٨٤ ، وانظر النزهة : ١٥٦٧/ ٣ .
(٥) انظر السير : (أبو الحُسين الزَّاهد) ٢٠/ ٣٨٠ـ ٣٨٤ ، وانظر النزهة : ١٥٦٧/ ٤ .
(٦) انظر السير : (أبو الحُسين الزَّاهد) ٢٠/ ٣٨٠ـ ٣٨٤ ، وانظر النزهة : ١٥٦٧/ ٥ .

الشَّيخ عبدِ القادِر ، فقد ذُكرَ أنَّه يتكلَّمُ عن الخَواطِر ، فمَضيتُ وهو يتكلَّمُ ، فقال : اعتقادُنا اعتقادُ السَّلَف الصَّالح والصَّحابَة . فقلتُ في نَفسِي : هٰذا قالَه اتِّفاقاً ، فتكلَّمَ ثم التَفتَ إلىٰ ناحيَتي فأعادَه ، فقلتُ : الواعظُ قد يَلْتَفِتُ ، فالتَفتَ إليَّ ثالثةً ، وقال : يا أبا بَكْر ، فأعادَ القولَ ، ثم قال : قُمْ قد جاءَ أبوكَ ، وقد كان غائباً ، فقُمتُ مُبادِراً وإذا أبي قد جاءَ[1] .

وعن جمال الدين يَحْيَىٰ بنِ الصَّيرَفيّ ، سَمعتُ أبا البقاءِ النَّحْويَّ قال : حَضرتُ مجلسَ الشيخِ عبدِ القادِر ، فقَرؤُوا بينَ يَديْه بالألْحان ، فقُلتُ في نَفسِي : تُرَىٰ لأيِّ شيءٍ ما يُنْكِرُ الشيخُ هٰذا ؟ فقال : يَجيءُ واحدٌ قد قرأ أبواباً من الفِقْه يُنكِر . فقلتُ في نَفسِي : لعلَّ أنَّه قصَدَ غَيْري ، فقال : إيَّاكَ نَعْني بالقَولِ ، فتُبتُ في نَفسِي من اعْتِراضي ، فقال : قد قبلَ اللهُ تَوْبَتَك[2] .

وسَمعتُ الإمامَ أبا العبّاس أحمدَ بنَ عبدِ الحَليم ، سَمعتُ الشيخَ عزَّ الدين الفاروثي ، سمعتُ شَيخَنا شِهابَ الدِّينِ السُّهْرَوَرْديَّ يقولُ : عَزمتُ على الاشْتغالِ بأُصول الدين ، فقُلتُ في نفسي : أستشيرُ الشيخَ عبدَ القادِر ، فأَتيتُه ، فقال قبلَ أنْ أنْطِقَ : يا عُمَرُ ، ما هو من عُدَّة القَبرِ ، يا عُمَرُ ما هو من عُدَّة القبرِ[3] .

وقال ابنُ النجَّار : كتبَ إليَّ عبدُ الله بنُ أبي الحُسَين الجُبَّائيُّ قال : قال لي الشيخُ عبدُ القادِر : كنتُ في الصحْراء أُكرِّرُ في الفِقْه وأنا في فاقةٍ ، فقال لي قائلٌ لمْ أرَ شَخْصَه : اقْترِضْ ما تَسْتعينُ به علىٰ طلب الفِقْه ، فقلتُ : كيف أقْترِضُ وأنا فَقيرٌ ولا وَفاء لي ؟ قال : اقْترِضْ وعلينا الوَفاء . فأتيتُ بقَّالاً ، فقلتُ : تُعاملُني بشَرطِ إذا سَهَّلَ اللهُ أعْطَيْتُك ، وإنْ مِتُّ تَجعَلُني في حِلٍّ ، تُعْطيني كلَّ يوم رَغيفاً ورشاداً ، فبَكىٰ وقال : أنا بحُكْمكَ ، فأخذتُ منه مدَّةً ، فضاقَ صَدْري ، فأظُنُّ أنَّه قال : فقيلَ لي :

---

(١) انظر السير : (الشيخُ عبد القادر) ٢٠/٤٣٩ـ٤٥١ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٧٣ .
(٢) انظر السير : (الشيخُ عبد القادر) ٢٠/٤٣٩ـ٤٥١ ، وانظر النزهة : ١/١٥٧٤ .
(٣) انظر السير : (الشيخُ عبد القادر) ٢٠/٤٣٩ـ٤٥١ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٧٤ .

امضِ إلىٰ مَوْضعِ كذا ، فأيَّ شيءٍ رأيتَ على الدَّكَّة فخُذْهُ وادْفَعْه إلى البقَّال ، فلمَّا جئتُ رأيتُ قِطعَةَ ذَهبٍ كبيرة فأعطَيتُها البَقْليَّ[1] .

قال الجُبَّائيُّ : وقال لي الشيخُ عبدُ القادر : كنتُ أُومَرُ وأُنهىٰ في النَّومِ واليَقظَة ، وكان يَغلبُ عليَّ الكلامُ ، ويَزدَحمُ علىٰ قَلبي إنْ لمْ أتكلَّم به حتىٰ أكادُ أختَنِقُ ، ولا أقْدِرُ أسكُتُ ، وكان يجلِسُ عندي رَجُلان وثلاثةٌ ، ثم تَسامَعَ الناسُ بي ، وازدحَمَ عليَّ الخَلقُ ، حتىٰ صارَ يحضُرُ مَجْلسي نَحوٌ من سبعينَ ألفاً ، وقال : فَتَّشتُ الأعْمالَ كلَّها ، فما وَجدتُ فيها أفضلَ من إطْعامِ الطَّعام ، أوَدُّ لو أنَ الدُّنيا بيدي فأُطْعِمُها الجِياعَ ، كَفِّي مَثقوبَة لا تَضبطُ شَيئاً ، لو جاءَني ألفُ دِينار لم أُبيِّتْها[2] .

وقال الجُبّائيُّ : كنتُ أَسْمعُ في « الحِلْيَة » على ابنِ ناصر ، فرقَّ قَلبي ، وقلتُ : اشْتَهَيتُ لو انقَطَعتُ ، وأشْتغِلُ بالعِبادَة ، ومَضيتُ فصلَّيتُ خلفَ الشَّيخ عبدِ القادر ، فلمَّا جَلسْنا ، نظرَ إليَّ وقال : إذا أردْتَ الانقِطاعَ ، فلا تَنقَطِع حتىٰ تَتَفقَّهَ وتُجالِسَ الشُّيوخَ وتَتأدَّبَ ، وإلاَّ فتنقَطعُ وأنتَ فُرَيْخٌ ما رَيَّشْتَ[3] .

وعن أبي الثَّناء النهرملكيِّ ، قال : تَحدَّثنا أنَّ الذُّبابَ ما يقعُ على الشيخ عبدِ القادر ، فأتَيْتُه ، فالتَفتَ إليَّ ، وقال : إيش يعمل عندي الذُّبابُ ، لا دِبْسُ الدُّنيا ، ولا عَسَلُ الآخِرة[4] .

وقال أحمدُ بنُ ظَفَر بنُ هُبيرة : سألتُ جَدِّي أنْ أزورَ الشيخَ عبدَ القادر ، فأعطاني مَبْلَغاً من الذَّهَبِ لأُعْطيَه ، فلمَّا نزلَ عن المِنْبَر سَلَّمتُ عليه وتحَرَّجْتُ من دَفْع الذَّهبِ إليه في ذَلِكَ الجَمع ، فقال : هاتِ ما مَعَكَ ولا عَليكَ من النَّاسِ ، وسَلِّمْ على الوَزيرِ .

---

(١) انظر السير : (الشيخُ عبد القادر) ٢٠/ ٤٣٩ـ ٤٥١ ، وانظر النزهة : ١/١٥٧٥ .
(٢) انظر السير : (الشيخُ عبد القادر) ٢٠/ ٤٣٩ـ ٤٥١ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٧٥ .
(٣) انظر السير : (الشيخُ عبد القادر) ٢٠/ ٤٣٩ـ ٤٥١ ، وانظر النزهة : ١/١٥٧٦ .
(٤) انظر السير : (الشيخُ عبد القادر) ٢٠/ ٤٣٩ـ ٤٥١ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٧٦ .

قال صاحبُ « مرآةِ الزَّمان » : كان سُكوتُ الشيخِ عبد القادر أكثرَ من كَلامِه ، وكان يتكلَّمُ على الخَواطِر ، وظهرَ له صِيتٌ عَظيمٌ وقَبولٌ تامٌّ ، وما كان يَخْرجُ من مَدْرَسَتِه إلاَّ يومَ الجُمعَة أو إلى الرِّباطِ ، وتابَ على يده مُعظَمُ أهْلِ بَغْدادَ ، وأسْلَمَ خَلقٌ ، وكان يَصْدَعُ بالحَقِّ على المِنْبَر ، وكان له كَراماتٌ ظاهرةٌ .

قال الذهبيُّ : ليسَ في كِبار المَشايخ مَن له أحْوالٌ وكَراماتٌ أكثرُ من الشيخِ عبدِ القادر ، لكنَّ كَثيراً منها لا يَصِحُّ ، وفي بَعضِ ذلك أشْياء مُسْتَحيلةٌ[1] .

وقال ابنُ فَرْتون : ظَهرت لأبي محمد بنِ عُبَيدِ الله كَراماتٌ ، حدَّثنا شَيخُنا الراويةُ محمدُ بنُ الحَسَن بنِ غازٍ ، عن بنتِ عمِّه ـ وكانت صالحةً ، وكانت اسْتُحيضَتْ مُدّة ـ قالت : حُدِّثتُ بمَوتِ ابنِ عُبيدِ الله ، فشقَّ عليَّ ألاَّ أشْهَدَه ، فقلتُ : اللّهُمَّ إنْ كان وَليّاً من أَوْليائك ، فأَمْسِكْ عنِّي الدَّمَ حتىٰ أُصلِّيَ عليه ، فانقَطَعَ عنِّي لوَقْتِه ، ثم لم أرَهُ بعدُ .

ماتَ ابنُ عُبيدِ الله في المُحرّم سنةَ إحْدىٰ وتسعينَ وخمس مئة ، وكانت جنازَتُه مَشْهودَةً بسَبْتَة[2] .

وجاء في ترجمة الحافظِ عبدِ الغَنيّ ، قال الحافظُ الضِّياءُ : سَمعتُ الحافظَ أبا موسىٰ بنَ عبد الغَني يقول : كنتُ عند والدي بمِصْرَ ، وهو يذكُرُ فَضائلَ سُفْيانَ الثَّوْريِّ ، فقلتُ في نفسي : إنَّ والدي مثلُه ، فالتَفتَ إليَّ ، وقال : أينَ نَحْنُ من أولـٰئك ؟

سَمعتُ أبا موسى ابنَ الحافظِ ، حدَّثَني أبو محمد أخو الياسمينيّ ، قال : كنتُ يوماً عند والدِك ، فقلتُ في نفسي : أشْتَهي لو أنَّ الحافظَ يُعْطيني ثَوْبَه حتىٰ أُكَفَّنَ فيه . فلمَّا أردْتُ القيامَ خلعَ ثَوْبَه الذي يَلي جَسَدَه وأعْطانيه ، وبقيَ الثوبُ عندَنا ، كلُّ مَنْ مَرِضَ تَركوهُ عليه فيُعافَىٰ .

---

(١) انظر السير : (الشيخُ عبد القادر) ٢٠/ ٤٣٩ـ ٤٥١ ، وانظر النزهة : ٣/١٥٧٦ .

(٢) انظر السير : (الحَجْريّ) ٢١/ ٢٥١ـ ٢٥٤ ، وانظر النزهة : ٣/١٦١٦ .

وحدَّثني فضائلُ بنُ محمد بنِ عليّ بنِ سرور بجمّاعيل ، حدَّثني ابنُ عمِّي بَدْرانُ بنُ أبي بَكْر ، قال : كنتُ مع الحافظِ ، يَعْني في الدار التي وقَفَها عليه يُوسُفُ المسجّف ، وكان الماءُ مَقْطوعاً ، فقامَ في اللَّيلِ ، وقال : املأ لي الإبريقَ ، فقَضَى الحاجَة ، وجاءَ فوَقفَ ، وقال : ما كُنتُ أشْتَهي الوُضوءَ إلاَّ من البِرْكَة ، ثم صَبرَ قَليلاً ، فإذا الماءُ قد جَرىٰ ، فانتَظرَ حتىٰ فاضَتْ البِرْكَةُ ، ثم انقَطَعَ الماءُ ، فتَوضَّأَ ، فقلتُ : هـٰذه كَرامَةٌ لكَ ، فقالَ لي : قُلْ أستغْفِرُ اللهَ ، لعلَّ الماءَ كان مُحْتَبَساً ، لا تَقُلْ هـٰذا .

وسَمعتُ الرَّضيَّ عبدَ الرحمـٰن يقولُ : كان رَجلٌ قد أعْطى الحافظَ جاموساً في البَحْرَة ، فقال لي : جيءْ به وبِعْهُ ، فمَضيتُ فأخَذتُه فنفر كثيراً وبَقيَ جماعةٌ يَضْحَكونَ منه ، فقلتُ : اللَّهُمَّ ببرَكَة الحافِظ سَهِّل أمرَه ، فسُقْتُه مع جاموسَين ، فسَهُلَ أمرُه ، ومَشىٰ فبِعْتُه بقرية[1] .

وقالَ الضِّياءُ سَمعتُ الحَافِظَ اليُونينيّ يقولُ : لمَّا كُنتُ أسْمَعُ شَناعَةَ الخَلقِ على الحَنابِلَة بالتَّشْبيهِ عَزَمْتُ علىٰ سُؤالِ الشَّيخِ المُوَفَّق ـ ابنَ قُدامَة ـ وبَقيتُ أشْهُراً أريدُ أنْ أسْأَلَه ، فصَعَدتُ مَعَه الجَبَلَ ، فلمَّا كُنَّا عندَ دَارِ ابنِ مُحارِب قُلتُ : يا سَيِّدي ، وما نَطَقْتُ بأكْثرَ مِنْ سَيِّدي ، فقالَ لي : التَّشْبيهُ مُسْتَحيلٌ فقُلتُ : لِمَ ؟ قالَ : لأنَّ مِنْ شَرْطِ التَّشْبيهِ أنْ نَرَى الشَيءَ ، ثمّ نُشَبِّهُه ، مَنِ الذي رَأى اللهَ ثمّ شَبَّهَه لنَا ؟!! ، وذَكَرَ الضِّياءُ حِكاياتٍ في كَرَامَاته[2] .

وجاء في ترجمة أبي محمد الروابطيِّ ، قال الذهبيُّ : أخذَ عنه ابنُ مَسْديّ ، وقال : مات سنة سبع وعشرين وستِّ مئة ، كان يَسيحُ بثُغور الأندلس ، يأوي في مَساجد البرِّ ، له كَرامَاتٌ ، أُسِرَ إلىٰ طَرْطُوشَة وقَيَّدوه ، فقام النَّصْرانيُّ ليلةً فرَآه يُصلِّي ، وقَيْدُه إلىٰ جَنْبه ، فتَعجَّبَ ، فلمَّا أصبحَ رآه في رجلِه ، فرقبَه ثانيَ ليلةٍ فكذلك فذَهبَ فأخبرَ القُسَسَ ، فقالوا : أَحْضِرهُ ، فجاءَ به ، وجَرَتْ بينه وبينهم مُحاوَرَة ، ثم

---

(١) انظر السير : (عبدُ الغَنيّ) ٢١/ ٤٤٣ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ١٦٥١/ من فراسة الحافظ وكَراماته . .
(٢) انظر السير : (ابن قُدامَة) ٢٢/ ١٦٥ـ ١٧٣ ، وانظر النزهة : ١٦٨٢/ ٣ .

قالوا : لا يَحِلُّ أنْ نَأسِرَكَ ، فاذْهَبْ ، ولِطَرْطُوشَة نهرٌ تُعمَلُ فيه السُّفُن ، فلَقيَه أسيرٌ فقال : بالله خُذْني ، فأخذَه بيده وخاضَ إلىٰ نصْفِ السَّاق ، فتعجَّبَ النَّصارَىٰ ، وشاعَت القِصَّةُ[1] .

* * *

(١) انظر السير : (أبو محمد الروابطيّ) ٢٢/٣٢٩ـ٣٣٠ ، وانظر النزهة : ٣/١٦٩٥ .

التَّصَوُّفْ والصوفيَّة

١ـ ما كان عليه الصَّحابة والتَّابعون هو أكملُ المَراتب :

جاء في ترجمة ابنِ الأعْرابيِّ ، قال الذهبيُّ : فإنَّما التَّصوُّفُ والتَّألُّه والسُّلوكُ والسِّيَرُ والمَحبَّةُ ما جاءَ عن أصْحابِ محمَّدٍ رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم ، من الرِّضا عن الله ، ولُزومِ تَقْوى الله والجِهادِ في سبيلِ الله ، والتأدُّبِ بآدابِ الشَّريعَة من التِّلاوَة بترتيلٍ وتَدَبُّرٍ ، والقيام بخَشْيَةٍ وخُشوعٍ ، وصَوْمِ وَقتٍ وإفْطارِ وَقت ، وبَذْلِ المَعْروفِ ، وكَثْرَةِ الإيثار ، وتَعْليمِ العَوامِّ ، والتَّوَاضُعِ للمؤمنين ، والتعزُّزِ على الكافرين ، ومع هٰذا فاللهُ يَهْدي مَن يَشاءُ إلىٰ صِراطٍ مُسْتَقيم[(١)] .

وجاء في ترجمة شيخ الإسلام الهَرَويّ ، قال الذهبيُّ : قد انتفَعَ به خَلقٌ ، وجَهِلَ آخرون ، فإنَّ طائفةً من صَوَفَةِ الفَلْسَفَة والاتِّحاد يخضَعون لكلامه في « مَنازل السَّائرين » ويَنْتَحِلونَه ويَزْعُمونَ أنَّه مُوافقُهم ، كلاَّ ، بل هو رجلٌ أثَريٌّ ، لَهِجَ بإثْبات نُصوصِ الصِّفاتِ ، مُنافِرٌ للكَلامِ وأهْلِه جداً ، وفي « مَنازِلِه » إشاراتٌ إلى المَحْوِ والفَناء ، وإنَّما مُرادُه بذلك الفَناء هو الغَيبَةُ عن شُهودِ السِّوَىٰ ، ولم يَردْ مَحْوُ السِّوَىٰ في الخارِجِ ، ويا لَيْتَه لا صَنَّفَ ذلك ، فما أحْلىٰ تَصَوُّفَ الصَّحابَة والتَّابعين ، ما خاضوا في هٰذه الخَطَرات والوَساوس ، بلْ عَبدوا اللهَ وذَلُّوا له وتَوَكَّلوا عليه ، وهم من خَشْيَته مُشْفِقون ، ولأعْدائِه مُجاهِدون ، وفي الطَّاعَة مُسَارعون ، وعن اللَّغْو مُعْرضون ، والله يَهْدي مَنْ يَشاءُ إلىٰ صراطٍ مُسْتَقيم .

قال أبو الوَقْتِ السَّجْزيُّ : دخلتُ نيسابورَ ، وحَضرتُ عند الأستاذ أبي المَعالي الجُوينيِّ ، فقال : مَنْ أنتَ ؟ قلتُ : خادمُ الشَّيخِ أبي إسْماعيلَ الأنْصاريِّ ، فقال : رضيَ الله عنه .

---

(١) انظر السير : (ابن الأعْرابيّ) ١٥/ ٤٠٧ـ٤١٢ ، وانظر النزهة : ٣/١٢٤٣ .

قال الذهبيُّ : اسْمَع إلىٰ عَقلِ هـٰذا الإمام ودَعْ سَبَّ الطَّغَام ، إنْ هم إلاَّ كالأنْعام .

وقال عبدُ الغَافِرِ بنُ إسْماعيل : كان أبو إسْماعيلَ الأنْصاريُّ علىٰ حَظٍّ تامٍّ من مَعْرِفَة العَربيّة والحَديث والتَّوَاريخ والأنْسَاب ، إماماً كاملاً في التفسير ، حَسَنَ السِّيرَة في التَّصَوُّف ، غيرَ مُشتَغلٍ بكَسْبٍ ، وعنه أخذَ أهلُ التبكير بالفجر ، وتَسْمِيةَ الأولاد غالباً بعَبدِ المُضافِ إلىٰ أسْماء الله تَعالَىٰ[1] .

٢ـ ضابطٌ لنَوْعَيّ التصوُّف الحَسَن والفاسِد :

قال الحافظُ أبو سَعيد النقَّاش في كتاب « طَبَقات الصُّوفيَّة » : محمدُ بنُ مَنْصور الطُّوسيُّ أسْتاذُ أبي سَعيد الخَزَّاز ، وأبي العبَّاس ابنِ مَسْروق كتب الحَديثَ الكَثير ، ورَواهُ .

قال الذهبيُّ : مَتىٰ رأيتَ الصُّوفيَّ مُكبّاً على الحَديثِ فثِقْ به ، ومَتىٰ رأيتَه نائياً عن الحَديثِ ، فلا تَفْرَحْ به ، لا سيّما إذا انْضافَ إلىٰ جَهْله بالحديثِ عُكوفٌ علىٰ تُرَّهاتِ الصُّوفيّة ، ورُموزِ الباطنيّة ، نسألُ اللهَ السَّلامَة ، كما قال ابنُ المُبارَك :

وهـل أفسـد الـديـن إلا الملـوك ... وأحبـار سـوء ورهبـانهـا[2]

وقال أبو علي الثَّقَفيّ : كان أبو حَفْص يقولُ : مَنْ لَمْ يَزِنْ أحْوالَه كلَّ وَقْتٍ بالكتابِ والسنَّة ، ولَمْ يَتَّهِم خَواطرَه ، فلا تَعُدَّه[3] .

٣ـ من أُصول التصَوُّف الصحيح :

قال أبو بَكْر الجَوْرَبي : سمعتُ سَهْلَ بنَ عبد الله يقول : أُصولُنا ستَّةٌ : التَّمَسكُ بالقُرآن ، والاقْتداءُ بالسنَّة ، وأكْلُ الحَلالِ ، وكَفُّ الأذَىٰ ، واجْتِنابُ الآثامِ ، والتَّوْبَةُ ، وأداءُ الحُقوق[4] .

---

(١) انظر السير : (شيخُ الإسْلام أبو إسْماعيل الأنْصاريّ الهَرَويّ) ١٨/٥٠٣ـ ٥١٨ ، وانظر النزهة : ٤/١٤٣٧ .

(٢) انظر السير : (محمد بن منصور) ١٢/ ٢١٢ـ ٢١٤ ، وانظر النزهة : ٣/٩٩٤ .

(٣) انظر السير : (أبو حَفص النيسابوري) ١٢/ ٥١٠ـ ٥١٣ ، وانظر النزهة : ٩/١٠٢٥ .

(٤) انظر السير : (سَهل بن عبد الله) ١٣/ ٣٣٠ـ ٣٣٣ ، وانظر النزهة : ٤/١٠٩٣ .

وعن عليٍّ بن هارون وآخر قالا : سمعنا الجُنَيدَ غير مرَّة يقول : عِلْمُنا مَضبوطٌ بالكتاب والسنَّة ، مَنْ لَمْ يَحفَظِ الكتابَ ، ويَكْتبِ الحَديثَ ، ولَمْ يَتفقَّه ، لا يُقْتَدىٰ به .

قال الخَلْديُّ : لَمْ نَرَ في شُيوخِنا مَنِ اجتمَعَ له علمٌ وحالٌ غيرَ الجُنَيد كانت له حالٌ خَطيرةٌ ، وعلمٌ غَزيرٌ ، إذا رأيتَ حالَه رَجَّحْتَه علىٰ عِلْمه ، وإذا تَكلَّمَ رَجَّحْتَ عِلْمَه علىٰ حالِه(١) .

وعن النُّوريِّ قال : مَنْ رأيتَه يَدَّعي مع الله حالةً تُخْرِجُ عن الشَّرْع ، فلا تَقرَبَنَّ منه(٢) .

وقال يوسُفُ بنُ الحُسَين : إذا رَأيتَ المُريدَ يشْتَغلُ بالرُّخَص فاعْلمْ أنَّه لا يَجيءُ منه شيءٌ .

قال السلميُّ : كان ـ مع عِلْمِه وتَمام حالِه ـ هَجَرَهُ أهلُ الرَّي وتكلَّموا فيه بالقَبائح ، خُصوصاً الزُّهاد ، وأفشَوا أُموراً ، حتىٰ بَلَغني أنَّ شَيخاً رأىٰ في النَّومِ كأنَّ براءةً نَزلَت من السَّماء فيها مَكتوبٌ : هـٰذه بَراءَةٌ ليُوسُفَ بنِ الحُسَين ممّا قيل فيه . فسَكَتوا(٣) .

وعن ابن الجَلاَّء قال : آلةُ الفَقيرِ صِيانَةُ فَقْرِه ، وحِفْظ سِرِّه ، وأداءُ فَرْضِه .

تُوفِّيَ سَنة ستٍّ وثلاث مئة(٤) .

ومن كَلام الكَتَّانيِّ ، قال : مَنْ يدخل في هـٰذه المَفازَة يَحْتاجُ إلىٰ أربَعٍ : حالٍ تَحْميه ، وعلمٍ يَسُوسُه ، ووَرَعٍ يَحْجُزُه ، وذِكرٍ يؤنسُه(٥) .

وقال : التصوُّفُ خُلُقٌ ، فمَنْ زادَ عليك في الخُلُق ، زادَ عليك في التَّصوُّف(٦) .

---

(١) انظر السير : (الجُنَيد) ١٤/ ٦٦ـ ٧٠ ، وانظر النزهة : ١/١١٣٣ .
(٢) انظر السير : (النُّوريّ) ١٤/ ٧٠ـ ٧٧ ، وانظر النزهة : ٤/١١٣٤ .
(٣) انظر السير : (يوسُف بن الحُسين) ١٤/ ٢٤٨ـ ٢٥١ ، وانظر النزهة : ٧/١١٤٧ .
(٤) انظر السير : (ابنُ الجَلاَّء) ١٤/ ٢٥١ـ ٢٥٢ ، وانظر النزهة : ٥/١١٤٨ .
(٥) انظر السير : (الكتّاني) ١٤/ ٥٣٣ـ ٥٣٥ ، وانظر النزهة : ١/١١٧٢ .
(٦) انظر السير : (الكتّاني) ١٤/ ٥٣٣ـ ٥٣٥ ، وانظر النزهة : ٢/١١٧٢ .

وعنه قال : من حُكْم المُريد أن يكونَ نَومُه غَلَبَة ، وأكْلُهُ فاقَة ، وكَلامُه ضَرورة .

قال الذهبيُّ : نَعم للصَّادقِ أن يُقِلَّ من الكَلام والأكْلِ والنَّوم والمُخالَطة ، وأن يُكْثِرَ من الأوْرادِ ، والتَّواضُع ، وذِكْرِ المَوت ، وقَولِ لا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلاَّ بالله[1] .

وعن النَّهْرَجُوريِّ : أفضلُ الأحْوالِ ما قارَن العلمَ[2] .

وعن إبراهيمَ ، قال القِرْميسينيُّ : مَنْ أرادَ أنْ يتعطَّلَ ويتَبطَّل ، فَليلْزَم الرُّخَص[3] .

وقال : علمُ الفَناء والبَقاء يدورُ علىٰ إخْلاصِ الوَحْدانيَّة ، وصحَّة العُبوديَّة ، وما كان غيرَ هـٰذا فهو من المُغالَطَة والزَّنْدَقَة[4] .

قال الذهبيُّ : صَدقتَ والله فإنَّ الفَناءَ والبقاءَ من تُرَّهات الصُّوفيَّة أطلَقَهُ بَعضُهم فدخلَ من بابِه كلُّ إلْحاديٍّ وكلُّ زِنْديق ، وقالوا : ما سِوَى اللهَ باطِلٌ فانٍ ، واللهُ تَعالىٰ هو الباقي ، وهو هـٰذه الكائنات ، وما ثَمَّ شيءٌ غيرُه .

ويقولُ شاعِرُهم :

وما أنت غير الكون بل أنت عينه

ويقولُ الآخَرُ :

وما ثَمَّ إلاَّ الله ليسَ سِواهُ

فانظُرْ إلىٰ هـٰذا المُروقِ والضَّلال ، بل كلُّ ما سِوَى الله مُحْدَثٌ مَوْجودٌ .

قال اللهُ تَعالَىٰ : ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾[5] .

وإنَّما أرادَ قُدماءُ الصُّوفيَّة بالفَناءِ نِسْيانَ المَخْلوقات وتركَها وفَناءَ النَّفْس عن التَّشاغُل بما سِوَى الله ، ولا يُسَلَّمُ إليهم هـٰذا أيضاً ، بلْ أمَرَنا اللهُ ورسُولُه بالتَّشاغُل بالمَخْلوقات

---

(١) انظر السير : (الكتّاني) ١٤/ ٥٣٣_٥٣٥ ، وانظر النزهة : ٣/١١٧٢ .
(٢) انظر السير : (النَّهْرَجوريّ) ١٥/ ٢٣٢_٢٣٣ ، وانظر النزهة : ٥/١٢٢٤ .
(٣) انظر السير : (القِرْميسيني) ١٥/ ٣٩٢_٣٩٤ ، وانظر النزهة : ٣/١٢٣٩ .
(٤) انظر السير : (القِرْميسيني) ١٥/ ٣٩٢_٣٩٤ ، وانظر النزهة : ٤/١٢٣٩ .
(٥) سورة السجدة ، الآية : ٤ .

ورُؤيَتِها والإقْبالِ عليها وتَعْظيمِ خالِقِها ، قال تَعالَىٰ : ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ﴾[١] .

وقال : ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[٢] .

وقال صلى الله عليه وسلم : « حُبِّبَ إليَّ النِّسَاءُ والطِّيبُ » .

وكان يُحبُّ عائشةَ ، ويحبُّ أباها ، ويحبُّ أُسامَةَ ، ويحبُّ سِبْطَيْه ، ويحبُّ الحَلْواءَ والعسَلَ ، ويحبُّ جَبَلَ أُحُدٍ ، ويحبُّ وَطَنَه ، ويحبُّ الأنْصارَ ، إلىٰ أشْياءَ لا تُحصَىٰ ممَّا لا يغني المؤمن عنها قطُّ[٣] .

وقال الذهبيُّ في ترجمة ابنِ الأعْرابيِّ : والعالِمُ إذا عَرِيَ من التَّصَوُّف والتألُّه ، فهو فارغٌ ، كما أنَّ الصُّوفيَّ إذا عَرِيَ من عِلْمِ السنَّة ، زلَّ عن سَواء السبيل[٤] .

وقد كان ابنُ الأعْرابيِّ من عُلماء الصُّوفيَّة ، فتَراهُ لا يَقبلُ شيئاً من اصطلاحات القَومِ إلاَّ بحُجَّة .

تُوفِّيَ بمكَّة ، سَنةَ أربَعين وثلاث مئة ، وله أربعٌ وتسعون سنةً وأشهُر[٥] .

وجاء في ترجمة ابنِ نُجَيد ، قال أبو عبد الرحمـٰن السُّلمي : جدِّي له طريقةٌ يَنفَرِدُ بها من صَون الحال وتَلبيسِه ، سمعتُه يقول : كلُّ حالٍ لا يكون عن نتيجةِ علمٍ وإنْ جلَّ ، فإن ضَررَهُ علىٰ صاحبِه أكبرُ من نَفْعِه[٦] .

وجاء في ترجمة النَّصْراباذيِّ ، قال الحاكمُ : سمعتُه يقولُ : إنْ كان بعد الصِّديقين موحِّدٌ فهو الحَلاَّجُ .

قال الذهبيُّ : وهـٰذه وَرْطَةٌ أخْرىٰ ، بل قُتلَ الحَلاَّجُ بسيفِ الشَّرع على الزَّندَقَة ،

---

(١) سورة الأعراف ، الآية : ١٨٥ .

(٢) سورة يونس ، الآية : ١٠١ .

(٣) انظر السير : (القِرْميسيني) ١٥/ ٣٩٢ـ ٣٩٤ ، وانظر النزهة : ٥/١٢٣٩ .

(٤) انظر السير : (ابنُ الأعْرابيّ) ١٥/ ٤٠٧ـ ٤١٢ ، وانظر النزهة : ٤/١٢٤٣ .

(٥) انظر السير : (ابنُ الأعْرابيّ) ١٥/ ٤٠٧ـ ٤١٢ ، وانظر النزهة : ٥/١٢٤٣ .

(٦) انظر السير : (ابنُ نُجَيد) ١٦/ ١٤٦ـ ١٤٨ ، وانظر النزهة : ٣/١٢٧٥ .

وقد جَمعْتُ بَلاياهُ في جُزْأين ، وقد كان النَّصْرَاباذي صحبَ الشِّبْليَّ ومَشىٰ علىٰ حَذْوِه ، فوَاغَوْثاه بالله .

ومن كَلامِه : نِهاياتُ الأَوْلياءِ بِداياتُ الأنْبياء[1] .

وقال : أصلُ التصوُّف مُلازَمَةُ الكتاب والسنَّة ، وتَركُ الأهْواء والبِدَع ، ورُؤيَةُ أعْذارِ الخَلْق ، والمُداوَمَة على الأوْرادِ ، وتَركُ الرُّخَصِ[2] .

وجاء في ترجمة أبي عُثمانَ المَغْربيِّ ، قال السُّلميُّ : سَمعْتُه يقولُ : عُلومُ الدَّقائق عُلومُ الشَّياطين ، وأسْلمُ الطُّرق من الاغترار لُزومُ الشَّريعَة .

تُوفِّيَ سنة ثلاث وسبعين وثلاث مئة[3] .

وقال ابنُ باكويه : نظرَ أبو عبد الله بنُ خَفيف يوماً إلى ابنِ مَكْتوم وجماعة يَكتُبون شيئاً ، فقال : ما هٰذا ؟ قالوا : نَكتُبُ كذا وكذا ، قال : اشْتَغِلوا بتعَلُّم شيءٍ ، ولا يَغُرنَّكم كَلامُ الصُّوفيَّة ، فإنِّي كنتُ أخبىءُ مَحْبَرَتي في جَيبِ مُرقَّعَتي ، والورَقُ في حجزةِ سَراويلي وأذهبُ في الخِفْيَة إلىٰ أهْلِ العِلْم ، فإذا عَلِموا بي ، خاصَموني ، وقالوا : لا يُفْلح ، ثم احتاجوا إليَّ .

قال الذهبيُّ : قد كان هٰذا الشَّيخُ قد جَمَعَ بين العِلمِ والعَمَل ، وعُلوِّ السَّنَد ، والتَّمَسُّك بالسُّنَن ، ومُتِّعَ بطول العُمر في الطَّاعَة[4] .

وجاء في ترجمة السُّلَميِّ ، قال الخَشَّابُ : أصلُ التصوُّف مُلازَمَةُ الكتاب والسُّنَّة ، وتَركُ الأهْواءِ والبِدَعِ ، وتَعْظيمُ حُرمات المَشايخ ، ورؤيةُ أعْذارِ الخَلْق ، والدَّوامُ على الأوْرادِ .

قال القُشَيْريُّ : سَمعتُ أبا عبد الرحمٰن السُّلَميَّ يسْألُ أبا عَليٍّ الدَّقاق ، فقال: الذِّكْرُ أتَمُّ أمْ الفِكْرُ ؟ فقال: ما الذي يُفْتَحُ للشيخ فيه ؟ قال : أبو عبد الرحمٰن :

---

(١) انظر السير : (النَّصْراباذيّ) ١٦/ ٢٦٣ـ ٢٦٧ ، وانظر النزهة : ١/١٢٩٥ .

(٢) انظر السير : (النَّصْراباذيّ) ١٦/ ٢٦٣ـ ٢٦٧ ، وانظر النزهة : ٢/١٢٩٥ .

(٣) انظر السير : (أبو عُثمان المَغربي) ١٦/ ٣٢٠ـ ٣٢١ ، وانظر النزهة : ٥/١٢٩٧ .

(٤) انظر السير : (ابنُ خَفيف) ١٦/ ٣٤٢ـ ٣٤٧ ، وانظر النزهة : ١/١٢٩٩ .

عندي الذِّكْرُ أَتَمُّ، لأنَّ الحقَّ يُوصَفُ بالذِّكْرِ، ولا يُوصَفُ بالفِكْرِ . فاسْتَحْسَنَه أبو عليّ[1] .

وعن الرِّفاعيِّ ، قال : أَقْربُ الطَّريق الانْكِسارُ والذُّلُّ والافْتِقارُ ، تُعَظِّمُ أَمْرَ الله ، وتُشْفِقُ علىٰ خَلْقِ الله ، وتَقْتَدي بسُنَّة رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم[2] .

٤ـ الصُّوفيَّةُ الأوائلُ لا يُحبُّون الانْحِرافَ والشَّطَح :

قال أبو نَصْر السَّرَّاج ، صاحبُ « اللّمع » : بَلَغَني أنَّ أبا حَمْزَة البَغْداديَّ دخلَ على الحارث المُحاسَبي ، فصاحَت شاةٌ : ماع . فشَهَقَ ، وقال : لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ يا سَيِّدي . فغَضبَ الحارثُ ، وأخذَ السِّكينَ ، وقال : إنْ لمْ تَتُبْ أذْبَحُك .

نقلَ الخَطيبُ وَفاتَه في سنة تسع وستين ومئتين .

وكذا ورّخه ابنُ الأعْرابيُّ ، وقال : جاء من طَرْسُوسَ ، فاجْتمعوا عليه ببَغْدادَ ، وما زالَ مَقْبولاً ، حضَرَ جِنازَتَه أهلُ العِلْم والنُّسُك ، وغَسَّله جماعةٌ من بني هاشم ، وقُدِّمَ الجُنَيْدُ في الصَّلاةِ عليه ، فامتَنَع ، فتقدَّمَ ولدُه ، وكنتُ بائتاً في مَسْجده ليلةَ مَوْته ، فأُخبِرْتُ أنَّه كان يَتلو حزْبَه ، حتىٰ خَتمَ تلكَ اللَّيلة . وكان صاحبَ ليلٍ ، مُقدَّماً في علم القُرآن ، وخاصةً في قِراءَة أبي عَمرو ، وحملَها عنه جَماعةٌ . وكان سَببُ عِلَّتِه أنَّ النَّاسَ كثروا ، فأُتيَ بكُرسي ، فجلسَ ، ومرَّ في كلامه شيءٌ أعْجَبَه ، فردَّدَه وأُغْميَ عليه ، فسَقطَ ، وقد كان هٰذا يُصيبُه كثيراً ، فانصَرَفَ بين اثنين يومَ الجُمعَة ، فتَعلَّلَ ودُفِنَ في الجُمعَة الثانية بعد الصَّلاة[3] .

٥ـ الصُّوفيَّة الأوائل بُرآءٌ ممَّا أحْدَثَ المُتأخِّرون :

قال الذهبيُّ في ترجمة حاتم الأصَمّ : هٰكذا كانت نُكَتُ العارفين وإشاراتهُم ، لا كما أحدَثَ المُتأخِّرونَ من الفَناء والمَحْو والجَمع الذي آلَ بجَهَلَتِهم إلى الاتّحاد ، وعَدَم السِّوَىٰ .

---

(١) انظر السير : (السُّلَمي) ١٧/ ٢٤٧ـ ٢٥٥ ، وانظر النزهة : ٢/١٣٣٨ .

(٢) انظر السير : (الرِّفاعيُّ) ٢١/ ٧٧ـ ٨٠ ، وانظر النزهة : ٣/١٦٠١ .

(٣) انظر السير : (أبو حَمزَة البَغْدادي) ١٣/ ١٦٥ـ ١٦٨ ، وانظر النزهة : ٤/١٠٦٧ .

تُوفِّيَ حاتمُ الأصمُّ ، رحمَه الله ، سنَة سبعٍ وثلاثين ومئتين[1] .

وقال القِرْميسينيُّ : علمُ الفَناء والبَقاء يدورُ علىٰ إخْلاصِ الوَحْدانيَّة ، وصحَّة العُبوديَّة ، وما كان غيرَ هـٰذا فهو من المُغالَطَة والزَّنْدَقة[2] .

قال الذهبيُّ : صَدقتَ والله فإنَّ الفَناءَ والبقاءَ من تُرَّهات الصُّوفيَّة أطلَقَهُ بَعضُهم فدخلَ من بابِه كلُّ إلْحاديٍّ وكلُّ زِنْديق ، وقالوا : ما سِوَى اللهَ باطِلٌ فانٍ ، واللهُ تَعالَىٰ هو الباقي ، وهو هـٰذه الكائنات ، وما ثَمَّ شيءٌ غَيرُه .

ويقولُ شاعرُهم :

وما أنت غير الكون بل أنت عينه

ويقولُ الأخَرُ :

وما ثَمَّ إلاَّ الله ليسَ سِواهُ

فانظُرْ إلىٰ هـٰذا المُروقِ والضَّلال ، بل كلُّ ما سِوَى الله مُحْدَثٌ مَوْجودٌ .

قال اللهُ تعالَىٰ : ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾[3] .

وإنَّما أرادَ قُدَماءُ الصُّوفيَّة بالفَناءِ نِسْيانَ المَخْلوقات وتَركَها وفَناءَ النَّفْس عن التَّشاغُل بما سِوَى الله ، ولا يُسلَّمُ إليهم هـٰذا أيضاً ، بلْ أمَرَنا اللهُ ورسُولُه بالتَّشاغُل بالمَخْلوقات ورُؤيَتِها والإقْبالِ عليها وتَعْظيمِ خالِقِها ، قال تَعالَىٰ : ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ﴾[4] .

وقال : ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[5] .

---

(١) انظر السير : (حاتم الأصَم) ١١/ ٤٨٤ـ٤٨٧ ، وانظر النزهة : ٢/٩٦١ .
(٢) انظر السير : (القِرْميسيني) ١٥/ ٣٩٢ـ٣٩٤ ، وانظر النزهة : ٤/١٢٣٩ .
(٣) سورة السجدة ، الآية : ٤ .
(٤) سورة الأعراف ، الآية : ١٨٥ .
(٥) سورة يونس ، الآية : ١٠١ .

وقال صلى الله عليه وسلم : « حُبِّبَ إليَّ النِّسَاءُ والطِّيبُ » .

وكان يُحبُّ عائشةَ ، ويحبُّ أباها ، ويحبُّ أُسامَةَ ، ويحبُّ سِبطَيْه ، ويحبُّ الحَلْواءَ والعسَلَ ، ويحبُّ جَبَلَ أُحُدٍ ، ويحبُّ وَطَنَه ، ويحبُّ الأنْصارَ ، إلىٰ أشْياءَ لا تُحْصَىٰ ممَّا لا يغني المؤمن عنها قطُّ[1] .

وقال ابنُ الأعْرابيّ : فإذا سَمعتَ الرَّجلَ يَسْأَلُ عن الجَمْع أو الفَناء ، أو يُجيبُ فيهما ، فاعْلَمْ أنَّه فارغٌ ، ليسَ من أهْلِ ذلك ، إذْ أهْلُهما لا يَسْألونَ عنه لعِلْمهِم أنَّه لا يُدرَكُ بالوَصْفِ[2] .

٦ـ بعضُ مُتأخِّري الصُّوفيَّة الصَّالحين :

(أ) الجِيلاني :

جاء في ترجمة الشيخ عبد القادر ، قال الذهبيُّ : الشيخُ ، الإمامُ ، العالِمُ ، الزَّاهِدُ ، العارِفُ ، القُدوَة ، شَيخُ الإسْلام ، عَلَمُ الأوْلياء ، مُحْيي الدين ، أبو محمد ، عبدُ القادِر بنُ أبي صالح عبد الله بن جنكي دوست الجيليُّ الحَنْبَليُّ ، شيخُ بَغْداد .

مَوْلدُه بجيلان[3] في سنة إحْدىٰ وسبعين وأربع مئة .

قال السّمعانيُّ : كان عبدُ القادر ـ من أهلِ جيلان ـ إمامَ الحَنابلَة وشيخَهم في عَصره ، فقيهٌ صالحٌ ديِّنٌ خيِّرٌ ، كثيرُ الذِّكْرِ ، دائمُ الفِكْرِ ، سَريعُ الدَّمْعَة ، وكان يَسكنُ بابَ الأزَج في مَدرسَة بُنيَتْ له ، مَضينا لزيارته فخرجَ وقَعَدَ بين أصْحابه ، وخَتَموا القُرآنَ ، فألقىٰ دَرساً ما فَهمتُ منه شيئاً ، وأعجَبُ من ذا أنَّ أصْحابَه قاموا وأعادوا الدَّرس ، فلعلَّهم فَهِموا لإلْفِهِم بكَلامه وعِباراتِه[4] .

---

(١) انظر السير : (القِرْميسيني) ١٥/ ٣٩٢ـ ٣٩٤ ، وانظر النزهة : ٥/١٢٣٩ .

(٢) انظر السير : (ابنُ الأعْرابيّ) ١٥/ ٤٠٧ـ ٤١٢ ، وانظر النزهة : ١/١٢٤٣ .

(٣) وهي بلاد متفرقة وراء طبرستان ، ويُقال لها : كيل وكيلان ، والنسبة إليها جيلي وجيلاني وكيلاني .

(٤) انظر السير : (الشيخ عبد القادر الجيلاني) ٢٠/ ٤٣٩ـ ٤٥١ ، وانظر النزهة : ١/١٥٧٣ .

وعن محمد بن محمد المراتبيّ ، سَمعتُ الشيخَ أبا بَكْر العمادَ رحمَه اللهُ يقولُ : كنتُ قرأتُ في أصولِ الدين ، فأوقَعَ عندي شَكّاً ، فقُلتُ : حتىٰ أمضيَ إلىٰ مَجلس الشيخ عبد القادر ، فقد ذُكرَ أنّه يتكلّمُ عن الخَواطِر ، فمضيتُ وهو يتكلّمُ ، فقال : اعتقادُنا اعتقادُ السَّلَف الصَّالِح والصَحابَة . فقلتُ في نفسي : هـٰذا قالَه اتِّفاقاً ، فتكلَّمَ ثم التَفتَ إلىٰ ناحيَتي فأعادَه ، فقلتُ : الواعظُ قد يَلْتَفِتُ ، فالتَفتَ إليَّ ثالثةً ، وقال : يا أبا بَكْر ، فأعادَ القولَ ، ثم قال : قُمْ قد جاءَ أبوكَ ، وقد كان غائباً ، فقُمتُ مُبادِراً وإذا أبي قد جاءَ[1] .

وعن جمال الدين يَحْيَىٰ بنِ الصَّيرَفيّ ، سَمعتُ أبا البقاءِ النَّحْويَّ قال : حَضرتُ مجلسَ الشيخ عبد القادر ، فقرؤوا بين يديه بالألحان ، فقُلتُ في نفسي : تُرَىٰ لأيِّ شيءٍ ما يُنْكِرُ الشيخُ هـٰذا ؟ فقال : يَجيءُ واحدٌ قد قرأ أبواباً من الفِقْه يُنكِر . فقلتُ في نفسي : لعلَّ أنَّه قصَدَ غَيْري ، فقال : إيَّاكَ نَعْني بالقَولِ ، فتُبتُ في نفسي من اعتراضي ، فقال : قد قبلَ اللهُ تَوْبَتَك[2] .

وسَمعتُ الإمامَ أبا العبّاس أحمدَ بنَ عبد الحَليم ، سَمعتُ الشيخَ عزَّ الدين الفاروثي ، سمعتُ شَيخَنا شِهابَ الدين السُّهْرَوَرْديَّ يقولُ : عَزمتُ على الاشْتغالِ بأُصول الدين ، فقُلتُ في نفسي : أستشيرُ الشيخَ عبد القادر ، فأتيتُه ، فقال قبلَ أن أنطِقَ : يا عُمَرُ ، ما هو من عُدَّة القَبرِ ، يا عُمَرُ ما هو من عُدَّة القبرِ[3] .

وقال ابنُ النجّار : قرأتُ بخطِّ أبي بَكْر عبد الله بن نَصر بن حَمزَة التَّيْميِّ ، سَمعتُ الشيخَ عبدَ القادر يقولُ : بَلغَتْ بي الضَّائقةُ في الغَلاء إلىٰ أن بَقيتُ أيّاماً لا آكلُ طَعاماً ، بلْ أتَّبعُ المَنْبوذاتِ ، فخَرجْتُ يوماً إلى الشطِّ ، فوَجدتُ قد سَبَقني الفُقَراءُ ، فضَعُفْتُ ، وعَجَزتُ عن التَّماسُك فدخَلتُ مَسْجداً ، وقَعدتُ ، وكدتُ أُصافحُ المَوتَ ، ودخلَ شابٌّ أعْجَميٌّ ومَعه خُبزٌ وشِواءٌ ، وجلسَ يأكُلُ ، فكنتُ أكادُ كُلَّما رَفعَ

---

(١) انظر السير : (الشيخ عبد القادر الجيلاني) ٢٠/ ٤٣٩ـ ٤٥١ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٧٣ .
(٢) انظر السير : (الشيخ عبد القادر الجيلاني) ٢٠/ ٤٣٩ـ ٤٥١ ، وانظر النزهة : ١/١٥٧٤ .
(٣) انظر السير : (الشيخ عبد القادر الجيلاني) ٢٠/ ٤٣٩ـ ٤٥١ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٧٤ .

لُقمَةً أفْتَحُ فَمي ، فالتَفَتَ فرآني ، فقال : باسم الله ، فأبيتُ ، فأقسَمَ عليَّ ، فأكلتُ مُقصِّراً ، وأخذَ يَسْألُني ، ما شُغْلك ؟ ، ومن أين أنتَ ؟ فقلتُ : مُتَفَقِّهٌ من جيْلان ، قالَ : وأنا من جيْلان ، فهلْ تَعرفُ لي شاباً جيلانياً اسْمُه عبدُ القادر ، يُعْرَفُ بسبط أبي عبد الله الصومعي الزّاهد ؟ فقلتُ : أنا هو . فاضطرَبَ لذلك ، وتغيَّرَ وَجهُه ، وقال : والله يا أخي ، لقد وصَلتُ إلىٰ بَغْدادَ ومَعي بقيّةُ نَفقَةٍ لي ، فسألتُ عنكَ ، فلمْ يُرْشدني أحدٌ إلىٰ أنْ نَفِدَت نَفَقَتي ، وبَقيتُ بعدَها ثلاثةَ أيّام لا أجدُ ثَمنَ قُوتي إلاّ من مالِك ، فلمَّا كان هـٰذا اليوم الرابع قلتُ : قد تجاوزَتْني ثلاثة أيّام ، وحلّت المَيْتَة ، فأخذْتُ من وَديعَتك ثمنَ هـٰذا الخُبزَ والشِّواء ، فكُلْ طَيِّباً ، فإنَّما هو لك ، وأنا ضَيْفُك الآن ، فقلتُ : وما ذاك ؟ قال : أمُّك وجَّهَت معي ثمانيةَ دَنانير ، والله ما خُنْتُك فيها إلى اليوم ، فسكَّنْتُه ، وطَيَّبتُ نَفسَه ، ودَفعتُ إليه شَيئاً منها[١] .

وقال ابنُ النجَّار : كتبَ إليَّ عبدُ الله بن أبي الحُسَين الجُبّائيُّ قال : قال لي الشيخُ عبدُ القادر : كنتُ في الصحْراء أُكرِّرُ في الفِقْه وأنا في فاقةٍ ، فقال لي قائلٌ لمْ أرَ شَخْصَه : اقْتَرِضْ ما تَسْتعينُ به علىٰ طلب الفِقْه ، فقلتُ : كيف أقْتَرِضُ وأنا فَقيرٌ ولا وفاء لي ؟ قال : اقْتَرِضْ وعلينا الوَفاء . فأتيتُ بقَّالاً ، فقلتُ : تُعاملُني بشرطِ إذا سَهَّلَ اللهُ أعطَيْتُك ، وإنْ مِتُّ تَجعَلُني في حِلٍّ ، تُعْطيني كلَّ يوم رَغيفاً ورشاداً ، فبَكىٰ وقال : أنا بحُكْمكَ ، فأخذتُ منه مدَّةً ، فضاقَ صَدري ، فأظنُّ أنَّه قال : فقيلَ لي : امضِ إلىٰ مَوْضعِ كذا ، فأيَّ شيءٍ رأيتَ على الدَّكَّة فخذه وادفَعْه إلى البقَّال ، فلمَّا جئتُ رأيتُ قطعةَ ذَهبٍ كبيرة فأعطَيتُها البَقْليَّ[٢] .

قال الجُبّائيُّ : وقال لي الشيخُ عبدُ القادر : كنتُ أُؤمَرُ وأُنهىٰ في النَّوم واليَقظَة ، وكان يَغلبُ عليَّ الكلامُ ، ويَزدحمُ علىٰ قلبي إن لم أتكلَّم به حتىٰ أكادُ أختَنِقُ ، ولا أقدر أسكُتُ ، وكان يجلِسُ عندي رجلان وثلاثةٌ ، ثم تَسامَعَ الناسُ بي ، وازدحَمَ عليَّ الخَلقُ ، حتىٰ صارَ يحضُرُ مَجْلسي نَحوٌ من سبعينَ ألفاً ، وقال : فَتَّشتُ الأعْمالَ

---

(١) انظر السير : (الشيخ عبد القادر الجيلاني) ٢٠/٤٣٩ـ٤٥١ ، وانظر النزهة : ٣/١٥٧٤ .
(٢) انظر السير : (الشيخ عبد القادر الجيلاني) ٢٠/٤٣٩ـ٤٥١ ، وانظر النزهة : ١/١٥٧٥ .

كلَّها ، فما وَجدتُ فيها أفضلَ من إطْعامِ الطَّعام ، أوَدُّ لو أنَ الدُّنيا بيدي فأُطْعِمُها الجِياعَ ، كَفِّي مَثقوبَة لا تَضبطُ شَيئاً ، لو جاءَني ألفُ دينار لم أُبيِّتْها[1] .

قال الجُبائي : قال لي الشيخُ عبد القادر الجيلاني : أتمنَّىٰ أن أكون في الصَّحاري والبَراري كما كُنتُ في الأول لا أرى الخَلقَ ولا يَروني ، ثم قال : أرادَ اللهُ منِّي منفعةَ الخَلق فقد أسلمَ علىٰ يديَّ أكثرُ من خمس مئة ، وتابَ علىٰ يديَّ أكثرُ من مئة ألف ، وهٰذا خيرٌ كثير[2] .

وتَرِدُ عليَّ الأثقالُ التي لوْ وُضِعَت على الجِبالِ تَفسَّخَت فأضَعُ جَنبي على الأرضِ ، وأقولُ : إنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْراً ، إنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْراً ، ثم أرفَعُ رأسي وقد انفرَجَتْ عنِّي[3] .

وقال : إذا وُلدَ لي ولدٌ أخذْتُه علىٰ يَديَّ ، وأقولُ : هٰذا مَيّتٌ ، فأُخرِجُه من قَلْبي ، فإذا ماتَ لم يُؤثِّر عندي مَوْتُه شيئاً[4] .

وقال الجُبّائيُّ : كنتُ أسْمعُ في « الحِلْيَة » على ابنِ ناصر ، فرقَّ قَلبي ، وقلتُ : اشْتَهَيتُ لو انقَطَعتُ ، وأشْتَغِلُ بالعِبادَة ، ومَضيتُ فصلَّيتُ خلفَ الشَّيخ عبدِ القادر ، فلمَّا جَلسْنا ، نظرَ إليَّ وقال : إذا أردْتَ الانقِطاعَ ، فلا تَنقَطِع حتىٰ تَتَفقَّهَ وتُجالِسَ الشُّيوخَ وتَتأدَّبَ ، وإلاَّ فتنقَطعُ وأنتَ فُرَيْخٌ ما رَيَّشْتَ[5] .

وعن أبي الثَّناء النهرملكيِّ ، قال : تحدَّثنا أنَّ الذُّبابَ ما يقعُ على الشيخِ عبدِ القادر ، فأتَيْتُه ، فالتَفتَ إليَّ ، وقال : أيشٍ يعمل عندي الذُّبابُ ، لا دِبْسُ الدُّنيا ، ولا عَسَلُ الآخرة[6] .

وقال أحمدُ بنُ ظَفَر بن هُبيرة : سألتُ جَدِّي أنْ أزورَ الشيخَ عبد القادر ، فأعطاني مَبْلَغاً من الذَّهَبِ لأُعطيَه ، فلمَّا نزلَ عن المِنْبَر سَلَّمتُ عليه وتحَرَّجْتُ من دَفْعِ الذَّهبِ إليه

---

(١) انظر السير : (الشيخ عبد القادر الجيلاني) ٢٠/ ٤٣٩ـ ٤٥١ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٧٥ .
(٢) انظر السير : (الشيخ عبد القادر الجيلاني) ٢٠/ ٤٣٩ـ ٤٥١ ، وانظر النزهة : ٣/١٥٧٥ .
(٣) انظر السير : (الشيخ عبد القادر الجيلاني) ٢٠/ ٤٣٩ـ ٤٥١ ، وانظر النزهة : ٤/١٥٧٥ .
(٤) انظر السير : (الشيخ عبد القادر الجيلاني) ٢٠/ ٤٣٩ـ ٤٥١ ، وانظر النزهة : ٥/١٥٧٥ .
(٥) انظر السير : (الشيخ عبد القادر الجيلاني) ٢٠/ ٤٣٩ـ ٤٥١ ، وانظر النزهة : ١/١٥٧٦ .
(٦) انظر السير : (الشيخ عبد القادر الجيلاني) ٢٠/ ٤٣٩ـ ٤٥١ ، وانظر النزهة : ٢/١٥٧٦ .

في ذَلِكَ الجَمع ، فقال : هاتِ ما مَعَكَ ولا عَليكَ من النَّاسِ ، وسَلِّمْ على الوَزيرِ .

قال صاحبُ « مرآةِ الزَّمان » : كان سُكوتُ الشيخِ عبد القادر أكثرَ من كَلامِه ، وكان يتكلَّمُ على الخَواطِر ، وظهرَ له صِيتٌ عَظيمٌ وقَبولٌ تامٌّ ، وما كان يَخْرجُ من مَدْرَسَتِه إلاَّ يومَ الجُمعَة أو إلى الرِّباطِ ، وتابَ علىٰ يده مُعظَمُ أهْلِ بَغْدادَ ، وأسْلَمَ خَلقٌ ، وكان يَصْدَعُ بالحَقِّ على المِنْبَر ، وكان له كَراماتٌ ظاهرةٌ .

قال الذهبيُّ : ليسَ في كِبار المَشايخ مَن له أحْوالٌ وكَراماتٌ أكثرُ من الشيخِ عبدِ القادر ، لكنَّ كَثيراً منها لا يَصِحُّ ، وفي بَعضِ ذلك أشْياء مُسْتَحيلةٌ[١] .

قال الجُبَّائيُّ : كان الشيخُ عبدُ القادر يقولُ : الخَلْقُ حِجابُك عن نَفْسِك ، ونَفْسُكَ حِجابُك عن ربِّك .

عاش الشيخُ عبدُ القادر تسعين سنة ، وانتَقلَ إلى الله سنةَ إحْدىٰ وستّين وخَمس مئة ، وشَيَّعَه خلقٌ لا يُحْصَون ، ودُفِنَ بمدرَسَته رحمه اللهُ تعالىٰ .

وفي الجُملة الشيخُ عبدُ القادر كَبير الشأن ، وعليه مآخذُ في بعض أقوالِه ودَعاويه ، والله المَوْعِدُ ، وبعضُ ذلك مَكْذوبٌ عليه[٢] .

(ب) السُّهْرَوَرْديُّ :

جاء في ترجمة السَّهْرَوَرْديِّ ، قال الذهبيُّ : الشيخُ ، الإمامُ ، العالِمُ ، القُدْوَة ، الزَّاهِدُ ، العارِفُ ، المُحدِّثُ ، شَيخُ الإسْلامِ ، أَوْحَدُ الصُّوفيّة ، شِهابُ الدين أبو حَفْص وأبو عبد الله عُمَر بنُ محمد بنِ عبد الله القُرَشيّ ، التَّيْميُّ ، البَكْريُّ ، السُّهْرَوَرْديُّ ، الصُّوفيُّ ثم البَغْداديُّ .

وُلِدَ في سنة تسع وثلاثين وخمس مئة ، وقَدِمَ من سُهْرَوَرْد وهو شابٌّ أمْرَدٌ ، قال ابنُ الدُّبيثيّ : قدِمَ بَغْدادَ وكان له في الطريقة قَدَمٌ ثابتٌ ، ولِسانٌ ناطِقٌ ، ووَلِيَ عدّةَ رُبُط للصُّوفيّة ، ونُفِّذَ رسولاً إلىٰ عدّة جهات .

---

(١) انظر السير : (الشيخ عبد القادر الجيلاني) ٢٠/٤٣٩ـ ٤٥١ ، وانظر النزهة : ٣/١٥٧٦ .

(٢) انظر السير : (الشيخ عبد القادر الجيلاني) ٢٠/٤٣٩ـ ٤٥١ ، وانظر النزهة : ٤/١٥٧٦ .

قال ابنُ النجَّار : وكان شهابُ الدين شَيخَ وَقْته في عِلم الحَقيقَة ، وانتَهتْ إليه الرِّياسَةُ في تَربية المُريدين ، ودُعاء الخَلْق إلى الله والتسليك ، صَحبَ عمَّه وسلك طريق الرياضات والمُجاهَدات ، وقَرأَ الفِقْهَ والخِلافَ والعَربيّة ، وسَمعَ ، ثمَّ لازَمَ الخلوَةَ والذِّكْر والصَّوم إلىٰ أن خطر له عند علوِّ سنِّه أن يَظهَرَ للنَّاسِ ويتكلَّم ، فعقَدَ مَجْلِسَ الوَعْظ بمدرسَة عمِّه ، فكان يتكلَّمُ بكلام مُفيدٍ من غير تَزْويق ، ويَحْضرُ عنده خلقٌ عظيمٌ ، وظهرَ له القَبولُ من الخاصِّ والعامّ ، واشْتُهرَ اسْمُه ، وقُصِدَ من الأقْطار ، وظَهرَت بركاتُ أنْفاسِه علىٰ خَلقٍ من العُصاة فتابوا ، ووَصَل به خلقٌ إلى الله ، وصار أصحابُه كالنُّجوم . ثم إنَّه أُضِرَّ وأُقْعِدَ ، ومع هٰذا فما أخلَّ بالأوْرادِ ودَوام الذِّكْر وحُضورِ الجُمَع في مَحَفَّة ، والمُضيِّ إلى الحَجِّ ، إلىٰ أن دخلَ في عَشْر المئة وضَعُفَ فانقَطَع .

قال : وكان تامَّ المروءَة ، كَبير النَّفسِ ، ليس للمال عندَه قدرٌ ، لقد حصل له أُلوفٌ كثيرةٌ ، فلم يَدَّخِرْ شَيئاً ، وماتَ ولمْ يُخلِّفْ كَفَناً ، وكان مَليحَ الخَلْقِ والخُلُق ، مُتَواضِعاً ، كاملَ الأوْصاف الجَميلة .

صنَّفَ في التَّصوُّف كتاباً شرحَ فيه أحْوالَ القَوْم ، وحدَّثَ به مَراراً ، يعني « عَوارِف المَعارف » .

وقال ابنُ نُقطَة : كان شيخَ العِراق في وَقْتِه ، صاحبَ مُجاهَدَة وإيثارٍ وطَريقٍ حَميدَةٍ ومَروءَة تامّة ، وأوْرادٍ علىٰ كِبَر سنّه .

تُوفِّيَ الشيخُ شهابُ الدين رحمَه اللهُ ببَغْدادَ سنةَ اثنتين وثلاثين وستٍّ مئة[1] .

٧ـ من الصُّوفيّة مَنْ لم يُعرَف صَلاحُه إلاَّ بعد مَوته :

جاء في ترجمة ذي النُّون المِصْريِّ ، قال يوسُفُ بنُ أحمد البَغْداديُّ : كان أهلُ ناحيتِه يُسَمُّونَه الزِّنْديق ، فلمَّا ماتَ أظَلَّت الطَّيرُ جِنازَتَه ، فاحْتَرموا بعدُ قَبرَه[2] .

---

(١) انظر السير : (السُّهْرَوَرْديّ) ٢٢/ ٣٧٣ـ٣٧٨ ، وانظر النزهة : ١٧٠٤ ـ ١٧٠٥ .

(٢) انظر السير : (ذو النون المصري) ١١/ ٥٣٢ـ٥٣٦ ، وانظر النزهة : ٢/٩٦٧ .

٨ـ مَنْ اتُّهِمَ منهم بالزَّندَقة وهو منها براءٌ :

قال السُّلميُّ في « مِحَن الصُّوفيَّة » : ذو النُّون المِصْري أوّلُ مَنْ تَكلَّمَ ببَلْدَته في تَرتيبِ الأحْوال ، ومَقامات الأوْلياء ، فأنْكَرَ عليه عبدُ الله ابنُ عبد الحَكم ، وهَجَرَه عُلماءُ مِصرَ . وشاعَ أنَّه أحْدَثَ عِلْماً لم يَتكلَّمْ فيه السَّلفُ وهَجَروه حتىٰ رَمَوهُ بالزَّنْدَقَة . فقال أخُوه : إنَّهم يقولون : إنَّكَ زِنْديقٌ ، فقال :[1] .

وَمَا لي سِوَى الإطْراقِ والصَّمْتِ حِيلَةٌ　　وَوَضْعي كَفِّي تَحتَ خَدِّي وتَذْكاري

قال : وقال محمدُ بنُ الفَرْخيّ : كنتُ مع ذي النُّون في زَوْرَقٍ ، فمَرَّ بنا زَوْرقٌ آخر ، فقِيلَ لذي النُّون : إنَّ هـٰؤلاء يَمُرُّونَ إلى السلطان ، يَشهَدُون عليكَ بالكُفر . فقال : اللَّهُمَّ إن كانوا كاذبين ، فغَرِّقهم ، فانقلَبَ الزَوْرَقُ وغَرقُوا . فقلتُ له : فما بالُ المَلاَّح ؟ قال : لِمَ حَمَلَهم وهو يعلمُ قَصْدَهُم ؟ ولأَنْ يقفُوا بين يَدَي الله غَرقَىٰ خَيرٌ لهم من أن يقفوا شُهُودَ زُور ، ثم انتَفَضَ وتَغَيَّر ، وقال : وعِزَّتِكَ وجَلالِكَ لا أدْعُو علىٰ أحدٍ بعدها ثم دَعَاهُ أميرُ مصرَ ، وسَألَهُ عن اعتِقَادِه ، فتكَلَّمَ ، فرَضِيَ أمرَه وطَلَبَه المتوكل ، فلمَّا سَمعَ كَلامَه ولِعَ به وأحَبَّه . وكان يقولُ : إذا ذُكِرَ الصَّالحونَ ، فَحَي هلا بذي النون[2] .

وقال أبو نعيم : سَمعتُ عُمرَ البنَّاءَ البَغْدادي بمكّة يَحْكي مِحْنَةَ غُلام خليل ، قال : نَسَبوا الصُّوفيَّة إلى الزَّنْدَقَة ، فأمر الخَليفةُ المُعْتَمدُ في سنة أربع وستِّين ومئتين بالقَبْضِ عليهم ، فأُخذَ في جُملَتهم النُّوريّ فأُدْخِلوا على الخَليفَة ، فأمرَ بضَرْب أعْناقِهم ، فبادَرَ النُّوريُّ إلى السَّيَّاف فقيلَ له في ذلك ، فقال : آثرتُ حياتَهم علىٰ نَفْسي ساعة ، فتَوقَّف السَّيَّافُ عن قَتْله ، ورَفَعَ أمْرَه إلى الخَليفَة فردَّ الخَليفَةُ أمرَهم إلىٰ قاضي القُضاة إسْماعيلَ بن إسْحاق ، فسَألَه أبو الحُسَين النُّوريّ عن مَسائل العِبادات فأجاب ، ثم قال : وبعد هـٰذا ، فللَّه عِبادٌ يَنْطِقون بالله ، ويأكُلون بالله ، ويَسْمَعون بالله ، فبَكَىٰ

---

(١) انظر السير : (ذو النون المصري) ١١/ ٥٣٢ـ ٥٣٦ ، وانظر النزهة : ١/٩٦٨ .

(٢) انظر السير : (ذو النون المصري) ١١/ ٥٣٢ـ ٥٣٦ ، وانظر النزهة : ٢/٩٦٨ .

إسْماعيلُ القاضي ، وقال : إن كان هٰؤلاء القَوْم زَنادِقَة ، فليسَ في الأرض مُوَحِّدٌ ، فأطْلَقوهم[1] .

٩ـ تأوُّلُ الذهبيِّ لمَن نُسِبَتْ إليهم أقوالٌ لا تُقبَلُ شَرعاً :

جاء في ترجمة أبي يَزيد البَسْطاميِّ ، قال الذهبيُّ : وجاء عنه أشياء مشكلة لا مَساغَ لها ، الشأنُ في ثُبوتِها عنه ، أو أنَّه قالَها في حال الدَّهْشَة والسُّكر[2] ، والغَيبَة والمَحْو ، فيُطوىٰ ، ولا يُحْتَجُّ بها ، إذ ظاهرها إلْحَادٌ ، مثل : سُبحاني ، وما في الجُبَّة إلاَّ الله ، ما النَّارُ ؟ لأسْتَندَنَّ إليها غَداً ، وأقول : اجْعَلْني فداءً لأهْلِها ، وإلاَّ بلعْتُها . ما الجَنَّة ؟ لُعبَةُ صِبْيان ، ومُرادُ أهْلِ الدُّنيا . ما المُحدِّثون ؟ إنْ خاطَبَهم رجلٌ عن رجلٍ ، فقد خاطَبَنا القلبُ عن الرَّب .

وقال في اليَهودِ : ما هَؤلاء ؟ هَبْهُم لي ، أيُّ شيءٍ هَؤلاء حتىٰ تُعَذِّبَهم ؟

قال السُّلَميُّ في « تاريخ الصُّوفيَّة » : تُوُفِّيَ أبو يَزيد عن ثلاث وسبعين سنة ، وله كلامٌ حَسَنٌ في المُعامَلات[3] .

وجاء في ترجمة أبي حَمْزَة البغداديِّ ، قال الذهبيُّ : ولأبي حَمْزَة انْحِرافٌ وشَطَحٌ له تأويل[4] .

وقال الذهبيُّ في ترجمة « الشِّبْليِّ » : وكان فَقيهاً عارفاً بمَذْهَب مالك ، وكتبَ الحديثَ عن طائفة ، وقال الشِّعْرَ ، وله ألفاظٌ وحِكَمٌ وتَمَكُّن ، لكنَّه كان يحصُلُ له جَفافُ دِماغ وسُكْر ، فيقولُ أشْياءَ يُعْتَذَرُ عنه فيها .

وقيل : إنَّ ابنَ مُجاهد قال له : أين في العِلْم إفْسادُ ما يَنفع ؟ قال : قولُه : ﴿ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴾[5] ،[6] ، ولكن يا مقرىء أين معك أن المحبَّ لا يُعذِّبُ

---

(١) انظر السير : (النُّوريّ) ١٤/ ٧٠ـ ٧٧ ، وانظر النزهة : ٢/١١٣٤ .

(٢) المقصود بالسُّكر هنا : الشَّوقُ والوَلَهُ بالله تَعالىٰ .

(٣) انظر السير : (أبو يَزيد البَسْطامي) ١٣/ ٨٦ـ ٨٩ ، وانظر النزهة : ٤/١٠٥٥ .

(٤) انظر السير : (أبو حَمزَة البغدادي) ١٣/ ١٦٥ـ ١٦٨ ، وانظر النزهة : ٣/١٠٦٧ .

(٥) سورة ص ، الآية : ٣٣.

(٦) ذلك لأنه كان من شأن الشبلي إذا لبس شيئاً خَرَّق فيه موضعاً ، وفي الاستشهاد بالآية نظر .

حَبيبَه؟ فسكتَ ابنُ مُجاهد. قال : قوله : ﴿ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم ﴾[1] .

وكان رحمه الله لَهِجاً بالشِّعْر الغَزِل والمَحَبَّة ، وله ذَوْقٌ في ذلك ، وله مُجاهَداتٌ عَجيبَة انحَرَفَ منها مِزاجُه .

قال السُّلَميُّ : سَمعتُ محمدَ بنَ الحَسَن ، سَمعتُ الشِّبْليَّ يقول : أعْرِفُ مَنْ لمْ يَدخُل في هـٰذا الشَّأن حتىٰ أنفقَ جميعَ مُلْكِه ، وغرَّق سبعين قِمَطْراً بخطِّه ، في دِجْلَة التي تَرَوْنَ ، وحَفِظَ « المُوَطَّأ » ، وتَلا بكذا وكذا قراءة يعني : نفسَه .

وسُئِلَ : ما عَلامَةُ العارِف ؟ قال : صدرُه مَشْروحٌ ، وقَلْبُه مَجْروحٌ ، وجِسْمُه مَطْروح .

تُوفِّيَ ببَغْدادَ سنةَ أربع وثلاثين وثلاث مئة عن نيّف وثمانين سنة[2] .

١٠ـ تَأوُّلُ غيرُ الذهبيِّ لهـٰؤلاء :

جاء في ترجمة « أبي يَزيد البَسْطامي » ، قال السُّلَميُّ في « تاريخ الصُّوفيّة » : تُوفِّيَ أبو يَزيد عن ثلاث وسَبعين سنة ، وله كلامٌ حَسَنٌ في المُعامَلات .

ثم قال : ويُحْكَىٰ عنه في الشَّطْح أشياء ، منها ما لا يَصحُّ ، أو يكونُ مُقوَّلاً عليه ، وكان يرجعُ إلىٰ أحْوالٍ سَنيَّة ، ثم ساقَ بإسْنادٍ له ، عن أبي يَزيد ، قال : مَنْ نَظَرَ إلىٰ شاهِدي بعَينِ الاضطراب ، وإلىٰ أوْقاتي بعَين الاغْتراب ، وإلىٰ أحْوالي بعَين الاسْتدراج ، وإلىٰ كَلامي بعَين الافْتراء ، وإلىٰ عِباراتي بعَين الاجْتراء ، وإلىٰ نَفسي بعَين الازْدِراء ، فقد أخْطأ النَّظَرَ فيَّ[3] .

١١ـ ضَبطُ الذهبيِّ بَعضَ عِبارات الصُّوفيَّة :

قال أبو محمّد الجَريريُّ : سَمعتُ الجُنَيْدَ يقولُ : ما أخذْنا التصوُّفَ عن القال والقِيل ، بلْ عن الجُوعِ ، وتَرْكِ الدُّنيا ، وقَطعِ المَألوفات[4] .

---

(١) سورة المائدة ، الآية : ١٨ .
(٢) انظر السير : (الشِّبْليُّ) ١٥/ ٣٦٧ـ ٣٦٩ ، وانظر النزهة : ٢/١٢٣٧ .
(٣) انظر السير : (أبو يَزيد البَسْطامي) ١٣/ ٨٦ـ ٨٩ ، وانظر النزهة : ٥/١٠٥٥ .
(٤) انظر السير : (الجُنَيد) ١٤/ ٦٦ـ ٧٠ ، وانظر النزهة : ٤/١١٣٣ .

قال الذهبيُّ : هٰذا حَسَنٌ ، ومُرادُه : قَطعُ أكثرِ المَألوفات ، وتَركُ فُضول الدُّنيا ، وجوعٌ بلا إفْراطٍ ، أمَّا مَنْ بالَغَ في الجُوعِ كما يَفعَلُ الرُّهْبانُ ، ورَفضَ سائرَ الدُّنيا ، ومَألوفاتِ النَّفسِ من الغِذاءِ ، والنَّومِ ، والأهْلِ ، فقد عرَّضَ نفسَه لبَلاءٍ عَريض ، ورُبّما خُولِطَ في عَقْلِه ، وفاتَه بذلك كَثيرٌ من الحَنيفيَّة السَّمْحَة ، وقد جَعلَ اللهُ لكل شيءٍ قَدْراً ، والسَّعادَةُ في مُتابَعَة السُّنَن فَزِنِ الأمُورَ بالعَدْلِ ، وصُمْ وأفْطِرْ ، ونَمْ وقُمْ ، والْزَمِ الوَرَعَ في القُوتِ ، وارْضَ بما قَسمَ اللهُ لك ، واصمُتْ إلاَّ من خَيرٍ ، فرحمَةُ الله على الجُنَيْدِ ، وأينَ مثلُ الجُنَيْد في عِلْمِه وحَالِه ؟[1] .

١٢ـ ذَمُّ الذهبيِّ بعضَ أفْعالِ المُتَصوِّفَة المخالفة للشَّرع :

جاء في ترجمة ابنِ عَطاء ، قال الذهبيُّ : وقِيلَ : إنَّ ابنَ عَطاء فقَدَ عَقلَه ثمانيةَ عشرَ عاماً ، ثم ثابَ إليه عَقلُه .

ثَبَّتَ اللهُ علينا عُقولَنا وإيمانَنا ، فمَنْ تَسبَّبَ في زَوالِ عَقلِه بجُوعٍ ورياضَة صَعْبَة ، وخَلْوَة ، فقد عَصىٰ وأَثِمَ ، وضاهَىٰ مَنْ أَزالَ عَقلَه بعضَ يومٍ بسُكْرٍ ، فما أحْسَنَ التَّقيُّدَ بمُتابَعة السُّنَن والعِلْم[2] .

وقال الغَزاليُّ : وذَهبت الصُّوفيَّةُ إلى العُلوم الإلْهاميَّة دونَ التعليميَّة ، فيجلِسُ فارغَ القلبِ مَجْموعَ الهَمِّ يقولُ : الله الله ، على الدَّوام ، فليُفَرِّغْ قلبَه ، ولا يَشْتغِلُ بتِلاوَةٍ ولا كُتبِ حَديث ، قال : فإذا بلَغَ هٰذا الحَدَّ ، التَزَم الخُلوَة في بيتٍ مُظْلِم ، وتَدَثَّرَ بكِسائه ، فحينَئذٍ يَسْمَعُ نداءَ الحقِّ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴾[3] ، و﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴾[4] .

قال الذهبيُّ : سَيِّدُ الخَلْقِ إنَّما سَمعَ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴾[5] . من جبْريلَ عن الله ، وهٰذا الأحْمَقُ لمْ يَسْمَعْ نداءَ الحقِّ أبداً ، بلْ سَمعَ شَيْطاناً ، أو سَمعَ شَيئاً لا حَقيقَةَ من طَيشٍ

---

(١) انظر السير : (الجُنيد) ١٤/ ٦٦ـ ٧٠ ، وانظر النزهة : ٥/١١٣٣ .

(٢) انظر السير : (ابنُ عَطاء) ١٤/ ٢٥٥ـ ٢٥٦ ، وانظر النزهة : ٥/١١٤٩ .

(٣) سورة المدَّثِّر ، الآية : ١ .

(٤) سورة المُزَّمِّل ، الآية : ١ .

(٥) سورة المدَّثِّر ، الآية : ١ .

دِماغِه ، والتوْفيقُ في الاعتصام بالسُّنَّة والإجماع .

قال ابنُ عَساكِرْ : حجَّ أبو حامد وأقامَ بالشَّام نَحْواً من عشر سِنينَ وصنَّفَ ، وأخذَ نفسَه بالمُجاهَدَة ، وكان مُقامُه بدمشقَ في المَنارَة الغَربيّة من الجامع ، سَمعَ « صَحيحَ البُخاري » من أبي سَهْل الحَفْصي ، وقَدِمَ دمشْقَ في سنَة تسْع وثمانين .

قال أبو العبَّاس أحمدُ الخطيبي : كنتُ في حلقَة الغَزاليِّ ، فقال : ماتَ أبي وخلَّفَ لي ولأخي مقْداراً يَسيراً فَفَنيَ بحيثُ تعذَّرَ علينا القُوتُ ، فصِرْنا إلىٰ مدرسَة نَطلُبُ الفِقْهَ ، ليسَ المُرادُ سِوَىٰ تَحْصيل الوَقْت ، فكان تعلُّمُنا لذلك ، لا لله ، فأبَىٰ أن يَكونَ إلاَّ لله .

وممَّا أُخِذَ عليه قال : إنَّ للقَدَرِ سِرَّاً نُهينا عن إفْشائه ، فأيُّ سِرٍّ للقَدر ؟ فإنْ كان مُدْرَكاً بالنظَرِ ، وُصِلَ إليه ولا بُدَّ ، وإنْ كان مُدْرَكاً بالخَبَر فما ثَبُتَ فيه شيءٌ ، وإنْ كان يُدْرَكُ بالحالِ والعِرْفان ، فهٰذه دَعْوَىٰ مَحْضَة فلعلَّه عَنَىٰ بإفْشائه أنْ نُعَمِّق في القدَر ، ونَبحَثَ فيه[1] .

١٣ـ ذَمُّ الذهبي بعضَ مُصْطَلحات التصَوُّف :

جاء في ترجمة الخَرَّاز ، قال الذهبيُّ : ويقالُ : إنَّ الخرَّازَ أوّل مَنْ تَكلَّمَ في عِلم الفَناء والبَقاء[2] ، فأيُّ سَكْتَةٍ فاتَتْه ، قصدَ خَيراً ، فوَلَّد أمراً كبيراً ، تشبَّث به كلُّ اتِّحاديٍّ ضالّ .

وتُوفِّيَ سنةَ سِتّ وثمانين ومئتين .

قال السُّلميُّ : هو إمامُ القَوم في كلِّ فَنٍّ من عُلومِهم ، له في مَبادِيء أمره عَجائبُ وكَرامات ، وهو أحْسَنُ القَوم كَلاماً ، خَلا الجُنَيْد ، فإنَّه الإمامُ[3] .

وقال أبو عبد الرحمٰن السُّلمي : أخرجوا الحَكيمَ من تِرْمِذ ، وشَهدوا عليه

---

(١) انظر السير : (الغَزَّالي) ١٩/ ٣٢٢ـ٣٤٦ ، وانظر النزهة : ١/١٤٨٣ .

(٢) انظر ما كتبَه ابنُ القيّم رحمَه اللهُ في « مَدارج السّالكين » (١/ ١٤٨ـ ١٧٣) عن الفَناء وأقسامه ومَراتبه ، وما هو مَذموم ، وما هو مَحْمود .

(٣) انظر السير : (الخَرّاز) ١٣/ ٤١٩ـ ٤٢٢ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٩٧ .

بالكُفرِ ، وذلك بسَببِ تَصْنيفِه كتاب : « خَتمِ الولايَة » ، وكتاب : « عِلَلُ الشَّريعَة » ، وقالوا : إنَّه يقولُ : إنَّ للأولياء خاتماً كالأنبياء لهم خاتم ، وإنَّه يُفَضِّلُ الوِلايَة على النُّبُوَّة ، واحْتجَّ بحَديث : « يَغْبِطُهُمُ النَّبِيُّونَ والشُّهَداء » . فقَدِمَ بَلْخَ ، فقَبلوه لمُوافقَتِه لهم في المَذْهَب[1] .

وقال السُّلميُّ : هُجِرَ لتَصْنيفِه كتاب : « خَتم الوِلايَة » ، و« عِلَلْ الشَّريعَة » ، ولَيسَ فيه ما يُوجِبُ ذلك ، ولكن لبُعْدِ فَهْمِهم عنه[2] .

قال الذهبيُّ : كذا تُكُلِّمَ في السّلميِّ من أجلِ تأليفِه كتابَ : « حَقائقُ التَّفْسير » ، فيالَيْتَه لمْ يُؤلِّفْه ، فنَعوذُ بالله من الإشَارات الحَلاَّجيَّة ، والشَّطَحات البسْطاميَّة ، وتَصَوُّفِ الاتِّحاديَّة ، فواحُزْناهُ علىٰ غُرْبَة الإسْلام والسُّنَّة ، قال اللهُ تَعالَىٰ : ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾[3] ، [4] .

وقال القِرْميسينيُّ : علمُ الفَناء والبَقاء يدورُ علىٰ إخْلاصِ الوَحْدانيَّة ، وصحَّة العُبوديَّة ، وما كان غيرَ هٰذا فهو من المُغالَطَة والزَّنْدَقَة[5] .

قال الذهبيُّ : صَدقتَ والله فإنَّ الفَناءَ والبقاءَ من تُرَّهات الصُّوفيَّة أطلَقَهُ بَعضُهم فدخلَ من بابِه كلُّ إلْحاديٍّ وكلُّ زِنْديق ، وقالوا : ما سِوَى اللهَ باطِلٌ فانٍ ، واللهُ تَعالَىٰ هو الباقي ، وهو هٰذه الكائنات ، وما ثَمَّ شيءٌ غَيرُه .

ويقولُ شاعِرُهم :

ومـــا أنـــتَ غيـــرَ الكَـــو ن بـــلْ أنـــتَ عيْنُـــهُ

ويقولُ الآخَرُ :

وما ثَمَّ إلاَّ الله ليسَ سِواهُ

---

(١) انظر السير : (الحَكيمُ التِّرْمذيّ) ١٣/ ٤٣٩ـ ٤٤٢ ، وانظر النزهة : ٦/١١٠٠ .
(٢) انظر السير : (الحَكيمُ التِّرْمذيّ) ١٣/ ٤٣٩ـ ٤٤٢ ، وانظر النزهة : ٧/١١٠٠ .
(٣) سورة الأنعام ، الآية : ١٥٣ .
(٤) انظر السير : (الحَكيمُ التِّرْمذيّ) ١٣/ ٤٣٩ـ ٤٤٢ ، وانظر النزهة : ٨/١١٠٠ .
(٥) انظر السير : (القِرْميسيني) ١٥/ ٣٩٢ـ ٣٩٤ ، وانظر النزهة : ٤/١٢٣٩ .

فانظُرْ إلىٰ هـٰذا المُروقِ والضَّلال ، بل كلُّ ما سِوَى الله مُحْدَثٌ مَوْجودٌ .

قال اللهُ تعالَىٰ :

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾[١] .

وإنَّما أرادَ قُدَماءُ الصُّوفيّة بالفَناءِ نِسْيانَ المَخْلوقات وتَركَها وفَناءَ النَّفْس عن التَّشاغُل بما سِوَى الله ، ولا يُسَلَّمُ إليهم هـٰذا أيضاً ، بلْ أمَرَنا اللهُ ورسُولُه بالتَّشاغُل بالمَخْلوقات ورُؤيَتِها والإقْبالِ عليها وتَعْظيمِ خالِقِها ، قال تعالَىٰ :

﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ﴾[٢] .

وقال : ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[٣] .

وقال : « حُبِّبَ إليَّ النِّساءُ والطِّيبُ » .

وكان يُحبُّ عائشةَ ، ويحبُّ أباها ، ويحبُّ أُسامَةَ ، ويحبُّ سِبْطَيْه ، ويحبُّ الحَلْواءَ والعسَلَ ، ويحبُّ جَبَلَ أُحُدٍ ، ويحبُّ وَطَنَه ، ويحبُّ الأنْصارَ ، إلىٰ أشْياءَ لا تُحصَىٰ ممَّا لا يغني المؤمن عنها قطُّ[٤] .

وقال ابنُ الأعْرابيّ : فإذا سَمعتَ الرَّجلَ يَسْألُ عن الجَمْع أو الفَناء ، أو يُجيبُ فيهما ، فاعْلَمْ أنَّه فارغٌ ، ليسَ من أهْلِ ذلك ، إذْ أهْلُهما لا يَسْألونَ عنه لعِلْمهِم أنَّه لا يُدرَكُ بالوَصْفِ[٥] .

قال الذهبيُّ : إي والله ، دقَّقُوا وعَمَّقوا ، وخاضوا في أسْرارٍ عَظيمة ، ما معهم علىٰ دَعْواهم فيها سِوَىٰ ظَنٍّ وخَيالٍ ، ولا وُجودَ لتلك الأحْوال من الفَناء والمَحْو والصَّحْو والسُّكْر إلاَّ مُجرَّد خَطَرات ووَساوس ، ما تفوَّه بعِباراتِهم صِدِّيقٌ ، ولا صاحبٌ ، ولا إمامٌ من التَّابعين ، فإنْ طالبْتَهم بدَعاويهم مقَتوك ، وقالوا :

---

(١) سورة السجدة ، الآية : ٤ .
(٢) سورة الأعراف ، الآية : ١٨٥ .
(٣) سورة يونس ، الآية : ١٠١ .
(٤) انظر السير : (القِرْميسيني) ١٥/ ٣٩٢ـ ٣٩٤ ، وانظر النزهة : ٥/١٢٣٩ .
(٥) انظر السير : (ابنُ الأعْرابي) ١٥/ ٤٠٧ـ ٤١٢ ، وانظر النزهة : ١/١٢٤٣ .

مَحْجوبٌ ، وإنْ سَلَّمتَ لهم قِيادَك تخبَّطَ ما مَعكَ من الإيمان ، وهَبطَ بك الحالُ على الحَيْرَة والمُحال ، ورَمَقْتَ العُبَّادَ بعَين المَقْتِ ، وأهلَ القُرآن والحَديثِ بعَين البُعْد ، وقُلتَ : مَساكين مَحْجُوبون . فلا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلاَّ بالله[1] .

١٤ـ رَدُّ الذهبيّ علىٰ أخْطاء بعض المُتَصَوِّفَة :

جاء في ترجمة النَّصْراباذيِّ ، قال الذهبيُّ : ومع عِظَم محلّه كم من مرّة ضُربَ وأُهينَ ، وكم حُبسَ ، فقيل له إنَّك تقول : الرُّوحُ غَيرُ مَخْلوقَة ، فقال : لا أقولُ ذا ، ولا أقولُ إنَّها مَخْلوقَة ، بلْ أقولُ : الرُّوحُ من أمرِ رَبِّي ، فجَهِدُوا به ، فقال : ما أقولُ إلاَّ ما قالَ الله .

قال الذهبيُّ : هـٰذه هَفْوَةٌ ، بلْ لا رَيبَ في خَلْقِها ، ولمْ يكُنْ سُؤالُ اليَهودِ لنَبيِّنا صلى الله عليه وسلم عن خَلْقِها ، ولا قِدَمِها ، إنَّما سألوا عن ماهيَّتها وكَيفيَّتها ، قال اللهُ تَعالَىٰ : ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾[2] ، فهو مُبْدِعُ الأشْياءَ ومُوجِدُ كل فَصيح وأعْجَم ، ذاته وحياته وروحه وجسده ، وهو الذي خلق الموتَ والحياةَ والنُّفوسَ ، سُبْحانَه[3] .

ثم قال السُّلميُّ : وقيلَ له : إنَّك ذَهبتَ إلى النَّاووس وطُفْتَ به وقُلْتَ : هـٰذا طَوافي فتَنَقَّصْتَ بهـٰذا الكَعْبَة!! قال : ولكنَّهما مَخْلوقان لكن بها فَضْلٌ ليسَ هُنا ، وهـٰذا كمن يُكْرِمُ كَلباً ، لأنَّه خَلْقُ الله ، فعُوتِبَ في ذلك سنين .

قال الذهبيُّ : هـٰذه وَرْطَةٌ أخرىٰ . أَفَتكونُ قِبْلَة الإسْلام ، كَقبرٍ يُطافُ به ، فقد لَعَنَ رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم مَنْ اتَّخَذَ قَبراً مَسْجداً .

قال السُّلَميُّ : سَمعتُ جَدِّي يقولُ : منذُ عَرفْتُ النَّصْراباذيَّ ما عَرفتُ له جاهليَّة .

وقال الحاكمُ : هو لسانُ أهْلِ الحَقائق في عَصْرِه ، وصاحبُ الأحْوال الصَّحيحَة ،

---

(١) انظر السير : (ابنُ الأعْرابي) ١٥/ ٤٠٧ـ ٤١٢ ، وانظر النزهة : ٢/١٢٤٣ .
(٢) سورة الزُّمَر ، الآية : ٦٢.
(٣) انظر السير : (النَّصْراباذي) ١٦/ ٢٦٣ـ ٢٦٧ ، وانظر النزهة : ٢/١٢٩٤ .

وكان يَعِظُ ويُذَكِّرُ ، وجاوَرَ في سنة خمسٍ وستّين ، وتَعبَّدَ حتىٰ دُفِنَ بمكَّة ، سنةَ سبع وستّين وثلاث مئة ، ودُفنَ عند الفُضَيلِ ، بيعَتْ كُتُبُه ، فكَشفت تلك الكُتبُ عن أحْوال والله أعلم[1] .

وسَمعتُه يقول : إن كان بعد الصدِّيقين مُوحِّدٌ فهو الحَلاَّج .

قال الذهبيُّ : وهـٰذه وَرْطَةٌ أخرىٰ ، بل قُتلَ الحَلاَّجُ بسيفِ الشَّرع على الزَّندَقَة ، وقد جَمعْتُ بَلاياهُ في جُزأين ، وقد كان النَّصْراباذي صحبَ الشِّبْليَّ ومَشىٰ علىٰ حَذْوِه ، فوَاغَوْثاه بالله .

ومن كَلامِه : نِهاياتُ الأوْلياء بِداياتُ الأنْبياء[2] .

وقال القُشَيْريُّ : سَمعتُ السُّلميَّ يقولُ : خَرجتُ إلىٰ مَرْو في حياة الأستاذ أبي سَهْل الصُّعْلوكي ، وكان له قبلَ خروجي أيّام الجُمَع بالغَدَوات مَجْلسُ دور القُرآن بختم ، فوجدتُه عند رجوعي قد رفع ذلك المَجْلس ، وعَقَد لابن العُقابي في ذلك الوقت مَجْلسَ القول ، فداخَلَني من ذلك شيءٌ ، وكنتُ أقولُ في نفسي : اسْتبدَلَ مَجلسَ الخَتم بمجلس القول ـ يَعْني الغناء ـ فقال لي يوماً : يا أبا عبد الرحمـٰن : أيش يقولُ النَّاسُ لي ؟ قلتُ : يقولون : رفعَ مَجْلسَ القُرآن ، ووضَعَ مَجلس القَولِ . فقال : مَنْ قالَ لأُسْتاذِه : لِمَ ؟ لا يُفْلِحُ أبداً .

قال الذهبيُّ : يَنْبَغي للمُريد أنْ لا يقولَ لأُسْتاذِه : لِمَ ، إذا عَلمَه مَعْصوماً لا يَجوزُ عليه الخَطأ ، أمَّا إذا كان الشيخُ غيرَ مَعْصومٍ وكَرِهَ قولَ : لِمَ ؟ فإنَّه لا يُفْلِحُ أبداً ، قال اللهُ تعالىٰ : ﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾[3] .

وقال تَعالَىٰ : ﴿ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾[4] ، ﴿ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴾[5] .

---

(1) انظر السير : (النَّصْراباذي) ١٦/ ٢٦٣ـ٢٦٧ ، وانظر النزهة : ٣/١٢٩٤ .
(2) انظر السير : (النَّصْراباذي) ١٦/ ٢٦٣ـ٢٦٧ ، وانظر النزهة : ١/١٢٩٥ .
(3) سورة المائدة ، الآية : ٢ .
(4) سورة العصر ، الآية : ٣ .
(5) سورة البلد ، الآية : ١٧ .

بَلىٰ هنا مُريدون أثقالٌ أنْكادٌ ، يَعتَرضون ولا يَقْتَدون ، ويَقولون ولا يَعمَلون ، فهَؤلاء لا يُفْلِحون .

قال الذهبيُّ : وللسُّلَميِّ سُؤالات للدَّارَقُطنيِّ عن أحْوالِ المَشايخ ، والرُّوَاة سُؤالَ عارفٍ ، وفي الجُمْلة ففي تَصانيفِه أحاديثُ وحكاياتٌ مَوْضوعَةٌ ، وفي « حَقائق تفسيره » أشياءَ لا تسوغُ أصْلاً ، عدَّها بعضُ الأئمَّة من زَنْدَقَة الباطنيَّة ، وعَدَّها بعضُهم عِرْفاناً وحَقيقةً ، نَعوذُ بالله من الضَلال ومن الكَلام بهَوىٰ ، فإنَّ الخَيرَ كُلَّ الخَيرِ في مُتابَعة السنَّة والتمَسُّك بهَدْي الصَّحابَة والتابعين ، رضي الله عَنهم .

ماتَ السُّلَميُّ ، سنةَ اثنَتي عَشرة وأربع مئة بنيسابور ، وكانت جنازَتُه مَشهودَةً[1] .

١٥ـ مَنْ غَلا في مُحارَبَة الصُّوفيَّة :

جاء في ترجمة غُلام خَليل ، قال ابنُ الأعْرابيّ : قَدمَ من وَاسط غُلامُ خَليل ، فذُكِرَت له هـٰذه الشَّناعَات ـ يَعني خَوضَ الصُّوفيَّة ـ ودَقائقَ الأحْوال التي يَذُمُّها أهلُ الأثَر ، وذُكرَ له قَولُهم بالمَحبَّة ، ويَبْلُغُه قولَ بَعضهم : نحنُ نُحبُّ رَبَّنا ويُحِبُّنا ، فأسْقَطَ عنَّا خَوْفَه بغلبةِ حُبِّه ـ فكان يُنْكِرُ هـٰذا الخَطأ بخَطأ أغْلَظَ منه ، حتىٰ جَعَلَ مَحبَّةَ الله بدْعَةً ، وكان يقولُ : الخَوفُ أوْلَىٰ بنا . قال : وليسَ كما تَوهَّم ، بلْ المَحبَّة والخَوفُ أصْلان ، لا يَخْلو المؤمنُ منهُما ، فلم يزَلْ يقُصُّ بهم ، ويُحَذِّرُ منهم ، ويُغْري بهم السُّلطانَ والعامَّة ، ويقولُ : كان عندنا بالبَصْرَة قومٌ يقولون بالحُلول ، وقومٌ يقولون بالإباحَة ، وقومٌ يقولون كذا ، فانتَشَر في الأفْواه أن بِبَغْدادَ قَوماً يقولون بالزَّنْدَقَة .

وكانت تَميلُ إليه والدةُ الموَفَّق ، وكذلك الدَّولَة والعَوام ، لزُهْدِه وتَقَشُّفه ، فأمَرَت المُحْتَسِبَ أن يُطيعَ غُلامَ خَليل ، فطَلَبَ القَومَ ، وبَثَّ الأعْوانَ في طَلبِهم ، وكُتِبوا ، فكانوا نيّفاً وسَبعين نَفْساً ، فاخْتَفىٰ عامّتُهم ، وبعضُهم خلَّصَتْه العامّة ، وحُبِسَ منهم جماعةٌ مدّة[2] .

---

(١) انظر السير : (السُّلَميّ) ١٧/ ٢٤٧ـ ٢٥٥ ، وانظر النزهة : ١/١٣٣٩ .

(٢) انظر السير : (غُلام خَليل) ١٣/ ٢٨٢ـ ٢٨٥ ، وانظر النزهة : ٣/١٠٨٣ .

١٦ـ ضُلاَّل نَسَبوا أنفسَهم إلى التَّصَوُّف :

الحَلاَّج :

هو الحُسَينُ بنِ مَنصور بنُ مَحْمي ، أبو عبد الله ، الفارسيُّ ، البَيْضاويُّ الصُّوفيُّ ، والبَيْضاءُ : مَدينةٌ ببلاد فارس ، وكان جَدُّه مَحْميٌّ مَجوسيّاً .

وكان يصحِّح حالَه أبو العبَّاس بن عطاء ، ومحمد بن خفيف ، وإبراهيم أبو القاسم النصر آباذي .

وتَبرَّأ منه سائرُ الصُّوفيّة والمَشايخ والعُلماء ، لِما سَترىٰ من سوء سيرته ومُروقه ، ومنهم من نسبَه إلى الحُلول ، ومنهم من نَسبَه إلى الزَّنْدَقَة وإلى الشَّعْبَذَة والزَّوْكَرة ، وقد تَستَّرَ به طائفةٌ من ذَوي الضَّلال والانْحِلال وانتَحلوه ورَوَّجوا به على الجُهَّال ، نَسْألُ اللهَ العِصْمَةَ في الدين .

قال أبو نصر السَّراج : صَحبَ الحَلاَّجُ عَمرو بنَ عُثْمان ، وسَرقَ منه كُتُباً فيها شيءٌ من علم التَّصوُّف ، فدَعا عليه عَمرو : اللَّهُم اقطَعْ يَديْه ورجلَيه .

قال ابنُ الوَليد : كان المَشايخُ يَستثْقلون كَلامَه ، ويَنالون منه لأنَّه كان يأخذُ نفسَه بأشياء تُخالِفُ الشَّريعَة ، وطَريقَةَ الزهَّاد ، وكان يَدَّعي المَحبَّة لله ، ويَظْهَرُ منه ما يُخالفُ دَعْواه .

قال الذهبيُّ : ولا رَيبَ أنَّ اتِّباعَ الرسولِ صلى الله عليه وسلم ، عَلَمٌ لمَحَبَّة الله لقَوْله تعالَىٰ : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾[1] .

قال السُّلميُّ : سَمعتُ أبا عليٍّ الهَمَذانيَّ يقولُ : سألتُ إبراهيمَ بنَ شَيْبانَ عن الحَلاَّج ، فقال : مَنْ أحَبَّ أنْ يَنظُرَ إلىٰ ثَمراتِ الدَّعَاوَى الفاسدة فليَنظُرْ إلى الحَلاَّج وما صارَ إليه .

قال النَّديمُ : كان يَعْرفُ في الكيمياء ، وكان مِقْداماً جَسوراً على السَّلاطين ، مُرْتَكباً للعَظائم ، يَرومُ إقْلابَ الدُّوَل ، ويَدَّعي عند أصْحابِه الإلهيَّة ، ويقولُ

---

(١) سورة آل عمران ، الآية : ٣١ .

بالحُلولِ ، ويُظْهِرُ التَشيُّعَ للمُلوك ، ومَذاهبَ الصُّوفيَّة للعَامَّة ، وفي تَضاعيف ذلك يَدَّعي أنْ الإلهيَّة حلَّت فيه ، تعالَى اللهُ وتَقدَّسَ عمَّا يقول[1] .

قال التَّنُوخيُّ : أخبَرَنا أبي قال : مِنْ مَخاريق الحَلاَّج : أنَّه كان إذا أرادَ سَفراً ومَعه مَنْ يَتنمَّسُ عليه ويَهُوسُه ، قدَّمَ قبلَ ذلك من أصْحابه الذين يَكشِفُ لهم الأمرَ ، ثمَّ يَمْضي إلى الصَّحْراءِ ، فيَدْفِنُ فيها كَعْكاً ، وسُكَّراً وسَويقاً ، وفاكِهةً يابسَةً ، ويعلِّمُ علىٰ مَواضِعها بحَجَر ، فإذا خَرجَ القَومُ وتَعِبُوا قال أصْحابُه : نُريدُ السَّاعَةَ كَذا وكَذا . فيَنْفَرِدُ ويُرَىٰ أنَّه يَدْعو ، ثمَّ يَجيءُ إلى المَوْضِعِ فيُخْرِجُ الدَّفينَ المَطلُوبَ منه ، أخْبَرَني بذلكَ الجَمُّ الغَفيرُ ، وأخْبَرُوني قالُوا : رُبَّما خَرَجَ إلىٰ بَساتينِ البَلَدِ ، فيُقدِّمُ مَنْ يَدْفِنُ الفالوذَجَ الحار في الرُّقاقِ ، والسَّمَكَ السُّخنَ في الرُّقاقِ ، فإذا خَرَجَ طَلبَ منه الرَّجُلُ ـ في الحالِ ـ الذي دَفَنَه ، فيُخْرِجُه هو .

وقال التَّنُوخيُّ : أخْبَرَنا أبي : سَمعتُ أحمَدَ بنَ يُوسُفَ الأزْرقُ : أنَّ الحَلاَّجَ لمَّا قَدمَ بَغدادَ اسْتَغْوَىٰ خَلقاً من النَّاسِ والرُّؤساءِ ، وكانَ طَمَعُه في الرَّافِضَةِ أقْوَىٰ لِدُخوله في طَريقِهم ، فراسَلَ أبا سَهل ابنَ نوبخت يَسْتَغْويه وكانَ أبُو سَهل فَطِناً ، فقالَ لرَسُولِه : هٰذه المُعْجِزاتُ التي يُظْهِرُها يُمْكنُ فيها الحِيل ، ولَكنِّي رَجلٌ غَزلٌ ، ولا لذَّةَ لي أكْبَرُ من النِّساءِ ، وأنا مُبْتَلىً بالصَّلَع ، فإنْ جَعَلَ لي شَعْراً ورَدَّ لِحْيَتي سَوداءَ ، آمَنْتُ بما يَدْعُوني إليه وقُلتُ : إنَّهُ بابُ الإمَام ، وإنْ شَاءَ قُلتُ : إنَّه الإمامُ ، وإنْ شاءَ قُلتُ : إنَّه النَّبيُّ ، وإنْ شاءَ قُلتُ : إنَّه اللهُ ، فأَيِسَ الحَلاَّجُ منهُ وكَفَّ .

وقالَ الفَقيهُ أبو عليّ بنُ البَناءِ : كانَ الحَلاَّجُ قَد ادَّعَىٰ أنَّه إلَـٰهٌ وأنَّه يَقولُ بحُلُولِ اللاَّهُوتِ في النَّاسُوتِ ، فأحْضَرَهُ الوَزيرُ عليُّ بنُ عيسَىٰ فلَمْ يَجدهُ ـ إذْ سَألَه ـ يُحْسِنُ القُرآنَ والفِقْهَ ولا الحَديثَ فقالَ : تَعَلُّمُكَ الفَرضَ والطَّهورَ أجْدَىٰ عَليكَ من رَسائِلَ لا تَدْري ما تَقُولُ فيها . كَمْ تَكتُبُ ـ وَيْلَك ـ إلى النَّاسِ : تَبارَكَ ذو النُّورِ الشَّعْشَعانيّ ؟! ما أَحْوَجَكَ إلىٰ أدَبٍ! وأمَرَ به فصُلِبَ في الجانِبِ الشَّرْقيِّ ، ثمَّ في الغَربيِّ ، ووَجدَ في كُتُبِه : إنِّي مُغْرِقُ قَومِ نُوحٍ ، ومُهْلِكُ عادٍ وثَمُودَ.

---

(١) انظر السير : (الحَلاَّج) ١٤/ ٣١٣ـ٣٥٤ ، وانظر النزهة : ٤/١١٥٤ .

وكان يَقولُ للواحِدِ من أصْحابِه ، أنْتَ نُوحٌ ، ولآخَرَ : أنْتَ مُوسَىٰ ولآخَرَ : أنْتَ مُحمّدٌ .

وقالَ مُحمّدُ بنُ يَحْيَى الرّازي : سَمعتُ عَمرَو بنَ عُثمانَ يَلْعنُ الحَلاَّجَ ويَقولُ : لَوْ قَدَرتُ عَليه لقَتَلتُه بيَدِي . فقُلتُ : أيش وَجَدَ الشَّيخُ عليه ؟ قالَ : قَرأتُ آيَةً من كِتابِ الله فقال : يُمْكِنُني أنْ أُؤلِّفَ مِثلَه .

وقال أبُو يَعقُوبَ النُّعمانيُّ : سَمعتُ أبا بَكر مُحمّدَ بنَ داوُدَ الفَقيه يَقولُ : إنْ كانَ ما أَنْزَلَ اللهُ علىٰ نبيِّه حَقاً ، فما يَقولُ الحَلاَّجُ باطِلٌ ، وكان شَديداً عليه[1] .

قالَ أبُو القاسِم التَّنُوخيّ : أخبرَنا أبي : حَدَّثني حُسَينُ بنُ عَبَّاس عَمَّنْ حَضَرَ مَجلِسَ حامِد وجاؤُوهُ بدَفاتِرِ الحَلاَّجِ ، فيها : إنَّ الإنْسَانَ إذا أرادَ الحَجَّ فإنَّه يَسْتَغْني عنه بأنْ يَعمِدَ إلىٰ بَيتٍ في داره ، فيَعْملُ فيه مِحْراباً ، ويَغْتَسلُ ويُحْرِمُ ويَقولُ كَذا وكَذا ، ويُصَلِّي كَذا وكَذا ، ويَطُوفُ بذلك البَيتِ ، فإذا فَرَغَ فقَد سَقَطَ عَنهُ الحَجُّ إلى الكَعْبةِ ، فأَقَرَّ به الحَلاَّجُ وقالَ : هـٰذا شيءٌ رَوَيتُه كَما سَمعتُه ، فتَعَلَّقَ بذلكَ عليه الوَزيرُ ، واسْتَفْتى القاضِيَين : أبا جَعفَر أحمدَ ابنَ البُهْلول ، وأبا عُمَرَ مُحمّدَ ابنَ يُوسُف ، فقال أبو عُمَر : هَـٰذه زَنْدَقَةٌ يَجبُ بها القَتلُ . وقال أبو جَعفَر : لا يَجبُ بهـٰذا قَتلٌ إلاَّ أنْ يُقِرَّ أنَّه يَعْتَقدُه ، لأنَّ النَّاسَ قد يَرْوُونَ الكُفرَ ولا يَعْتقِدُونَه ، وإنْ أخْبَرَ أنَّه يَعتَقِدُه اسْتُتيبَ منه ، فإنْ تابَ فلا شيء عليه ، وإلاَّ قُتِلَ ، فعَمِلَ الوَزيرُ علىٰ فَتْوَىٰ أبي عُمَر علىٰ ما شاعَ وذاعَ من أمْرِه ، وظَهرَ من إلْحادِه وكُفْرِه فاسْتُؤذِنَ المُقتَدِرُ في قَتْلِه ، وكان قد اسْتَغوَىٰ نَصْراً القشُوريَّ من طَريقِ الصَّلاحِ والدِّين ، لا بما كان يَدعُو إليه ، فخَوَّفَ نصرٌ السَّيدةَ أُمَّ المُقتَدِر من قَتْله وقال : لا آمَنُ أنْ يَلْحَقَ ابنُكِ عُقوبَةُ هـٰذا الصَّالِح . فمَنَعَت المُقتدرَ من قَتْله ، فلَمْ يَقبَلْ ، وأمَرَ حامِداً بقَتْله ، فحُمَّ المُقتدرُ يَومَه ذلك ، فازْدادَ نَصرٌ وأُمُّ المُقتدِر افْتِتَاناً ، وتَشَكَّكَ المُقتدرُ ، فأنْفَذَ إلىٰ حامد يَمنَعُه من قَتْله ، فأخَّرَ ذلك أيّاماً إلىٰ أنْ عُوفِيَ المُقتدرُ ، فألَحَّ عليه حامدٌ وقال : يا أميرَ المُؤمنينَ ، هـٰذا إنْ بَقِيَ قَلَبَ الشَّريعَةَ ، وارْتَدَّ خَلقٌ علىٰ يَدِه ، وأدَّىٰ ذلكَ إلىٰ زَوالِ سُلطانِك ، فدَعْني أقْتُلهُ ، وإنْ

---

(١) انظر السير : (الحلاّج) ١٤/٣١٣ـ٣٥٤ ، وانظر النزهة : ١/١١٥٥ .

أصابَكَ شَيءٌ فاقْتُلني ، فأذِنَ له في قَتْلِه ، فقتَلَه مِنْ يَومِه ، فلمَّا قُتِلَ قال أصْحابُه : ما قُتِلَ وإنَّما قُتِلَ بِرْذَوْنٌ كان لفُلان الكاتب ، نَفَقَ[1] . يومَئِذٍ وهو يَعودُ إلَيْنا بعدَ مُدّة ، فصارَتْ هٰذه الجَهالَةُ مَقالَةَ طائِفَة . قال : وكانَ أكْثَرُ مَخاريق الحَلاَّج أنَّه يُظْهِرُها كالمُعْجِزاتِ ، يَسْتَغْوِي بها ضَعَفَةَ النَّاسِ .

ثمَّ قُطِعَتْ يَدُه ، ثمَّ رِجلُه ، ثمَّ حُزَّ رَأسُهُ ، وأُحْرِقَتْ جُثَّتُه ، ونُصِبَ الرَّأسُ يَومَينِ ببَغْدادَ ، ثمَّ حُمِلَ إلىٰ خُراسَانَ وطِيفَ به . وأقْبَلَ أصْحابُه يَعِدُونَ أنْفُسَهُم برُجُوعِه بعدَ أرْبَعينَ يَوماً .

قال السُّلميُّ : وحُكِيَ عَنهُ أنَّه رُئِيَ واقِفاً في المَوْقِفِ ، والنَّاسُ في الدُّعاءِ ، وهو يَقولُ : أُنَزِّهُكَ عمَّا قَرَفَكَ به عبادُك ، وأبْرَأُ إليكَ ممَّا وَحَدَّكَ به المُوَحِّدون .

قال الذهبيُّ : هٰذا عَينُ الزَّندَقَة ، فإنَّه تَبَرَّأَ ممَّا وَحَّدَ اللهَ به المُوحِّدون الذين هم الصَّحابَةُ والتَّابِعُونَ وسائِرُ الأمَّة ، فهلْ وَحَّدوهُ تَعالَىٰ إلاَّ بكلِمَةِ الإخْلاصِ التي قال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم « مَنْ قَالَهَا مِنْ قَلْبه فقَدْ حَرُمَ مَالُهُ ودَمُهُ » ، وهي : شَهادَةُ أنْ لا إلَـٰهَ إلاَّ اللهُ وأنَّ مُحمَّداً رسُولُ الله . فإذا بَرِىءَ الصُّوفيُّ منها ، فهُو مَلْعونٌ زِنْديقٌ ، وهو صُوفيُّ الزِّيِّ ، والظاهِر ، مُتستِّرٌ بالنَّسَبِ إلى العارِفينَ ، وفي الباطِنِ فهُو من صُوفيَّة الفَلاسِفَة أعْداءِ الرُّسُلِ كمَا كانَ جَماعَةٌ في أيَّامِ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم مُنْتَسِبون إلىٰ صُحْبَتِه وإلىٰ مِلَّتِه ، وهُم في البَاطِنِ من مَرَدَةِ المُنافِقين ، وقَد لا يَعْرِفُهُم نَبيُّ الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يَعْلَمُ بهم ، قال اللهُ تَعالَىٰ : ﴿ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ﴾[2] ،[3] .

فإذا جازَ علىٰ سيِّد البَشَر أنْ لا يَعْلَمَ ببعضِ المُنافقين ، وهم معه في المدينة سَنوات ، فالأوْلَىٰ أنْ يَخفَىٰ حالُ جَماعة من المنافقين الفارغين علىٰ دين الإسلام بعده عليه السلام على العُلماء من أمَّتِه ، فما يَنْبَغي لك يا فَقيهُ أنْ تُبادرَ إلىٰ تَكْفيرِ المُسْلمِ إلاَّ

---

(١) نَفَق : أي مات.

(٢) سورة التوبة ، الآية : ١٠١ .

(٣) انظر السير : (الحَلاَّج) ١٤/٣١٣ـ٣٥٤ ، وانظر النزهة : ١/١١٥٦ .

ببُرْهانٍ قَطعي ، كما لا يَسُوغُ لك أنْ تَعْتقدَ العِرْفانَ والوِلايَة فيمن قد تَبرهَنَ زَغَلُه ، وانْهَتَكَ باطِنُه وزَنْدَقَتَه ، فلا هٰذا ولا هٰذا ، بل العَدْلُ أنَّ مَنْ رآه المسلمون صالحاً مُحْسِناً ، فهو كذلك ، لأنَّهم شُهَداءُ الله في أرضِه ، إذِ الأُمَّة لا تَجْتَمعُ علىٰ ضَلالَة ، وأنَّ مَنْ رآه المسلمون فاجراً أو مُنافِقاً أو مُبْطِلاً ، فهو كذلك ، وأنَّ مَنْ كان طائفَةٌ من الأُمَّة تُضَلِّلُه ، وطائفَةٌ من الأُمَّة تُثْني عليه وتُبَجِّلُه ، وطائفَةٌ ثالثةٌ تَقِفُ فيه وتَتورَّع من الحَطِّ عليه ، فهو ممَّن يَنْبَغي أن يُعْرَضَ عنه ، وأنْ يُفَوَّضَ أمرُه إلى الله ، وأن يُستغفَر له في الجُملَة ، لأنَّ إسْلامَه أصْليٌّ بيَقين ، وضَلالَه مَشْكوكٌ فيه ، فبهٰذا تستَريحُ ويَصْفو قلبُك من الغِلِّ للمؤمنين .

ثم اعْلم أنَّ أهْلَ القبلَة كلُّهم ، مؤمنُهم وفاسِقُهم وسُنيُّهم ومُبتدِعُهم ـ سِوى الصحابَة ـ لم يُجْمعوا علىٰ مسلم بأنَّه سعيدٌ ناجٍ ، ولم يُجْمِعوا علىٰ مسلم بأنَّه شَقيٌّ هالك ، فهٰذا الصدِّيقُ فردُ الأمَّة ، قد عَلمتَ تفرُّقَهم فيه ، وكذلك عُمَر ، وكذلك عُثْمان ، وكذلك عليّ ، وكذلك ابنُ الزُّبَير ، وكذلك الحَجَّاج ، وكذلك المَأمون ، وكذلك بِشْر المَريسي ، وكذلك أحمدُ بنُ حَنبَل ، والشَّافعي ، والبُخاري ، والنَّسَائي ، وهَلمَّ جرّا من الأعْيان في الخَير والشَّر إلىٰ يومك هٰذا ، فما من إمام كامل في الخَير إلاَّ وثَمَّ أُناسٌ من جَهَلَة المسلمين ومُبْتدعيهم يَذمُّونَه ويَحُطُّون عليه ، وما من رأسٍ في البدعَة والتجهُّم والرَّفْض إلاَّ وله أُناسٌ يَنْتَصرون له ، ويَذبُّون عنه ، ويَدينون بقَوله بهَوىً وجَهل ، وإنَّما العِبرَةُ بقَول جُمهور الأُمَة الخالين من الهَوىٰ والجَهْل المُتصِفين بالوَرَع والعلم ، فتدبَّر ـ يا عبد الله ـ نِحْلَة الحَلاَّج الذي هو رأسٌ من رؤوس القَرامطَة ودُعاة الزَّندَقَة ، وأنْصِفْ وتَورَّع واتَّقِ ذلك ، وحاسب نفسَك ، فإنْ تَبرهَن لك أنَّ شَمائلَ هٰذا المَرْء شَمائلَ عَدوٍّ للإسلامِ ، مُحبٍّ للرئاسَة حَريصٍ على الظُّهور بباطل وبحقٍّ ، فتَبرأ من نِحْلَته ، وإنْ تَبرهَن لك ، والعياذُ بالله ، أنَّه كان ـ والحالةُ هٰذه ـ مُحِقًّا هادياً مَهديّاً ، فجَدِّدْ إسْلامَك واستَغِث بربِّك أن يُوفِّقك للحقِّ وأن يُثبِّتَ قلبَك علىٰ دينِه ، فإنَّما الهُدَىٰ نورٌ يَقذفُه الله في قلبِ عبده المسلم ، ولا قُوَّةَ إلاَّ بالله ، وإنْ شَكَكْتَ ولم تعرف حقيقَته ، وتَبرّأتَ ممَّا رُمِيَ به ، أرَحْتَ نفسَك ، ولمْ يَسْألكَ الله عنه أصْلاً .

وقال أبو عُمرَ بن حَيوَة : لمَّا خَرجَ الحَلاَّجُ ليُقْتَل ، مَضيتُ وزَاحَمتُ حتىٰ رأيتُه ، فقال لأصْحابه : لا يَهُولنَّكم ، فإنِّي عائدٌ إليكم بعدَ ثَلاثين يَوماً .

فهٰذه حكايةٌ صَحيحة تُوضِّحُ لك أنَّ الحَلاَّجَ مُمَخْرَقٌ كذَّاب ، حتىٰ عند قَتلِه .

وقال الصُّوليُّ : قيلَ : إنَّه كان في أوَّل أمرِه يَدعُو إلى الرِّضا من آلِ محمّد ، وكان يُري الجاهلَ أشْياء من شَعبَذَته ، فإذا وَثِقَ منه دَعاهُ إلىٰ أنَّه إلـٰه[1] .

وقالَ ابنُ باكويه : سَمعتُ ابنَ خَفيف يُسألُ : ما تَعْتَقدُ في الحَلاَّجِ ؟ قالَ : أعْتقدُ أنَّه رَجلٌ من المُسْلِمين فقَط . فقِيلَ له : قد كَفَّرَهُ المَشايخُ وأكْثَرُ المُسلِمينَ ، فقالَ : إنْ كانَ الذي رَأيْتُهُ مِنْهُ في الحَبْسِ لَمْ يَكُنْ تَوحِيداً ، فلَيسَ في الدُّنيا تَوحيدٌ .

قال الذهبيُّ : هـٰذا غَلَطٌ من ابنِ خَفيف ، فإنَّ الحَلاَّجَ عندَ قَتلِهِ ما زالَ يُوَحِّدُ اللهَ ويَصيحُ : اللهَ اللهَ في دَمي ، فأنا على الإسْلامِ . وتَبرَّأَ ممَّا سِوَى الإسْلام . والزِّنْديقُ فيُوَحِّدُ اللهَ عَلانيَةً ، ولكنَّ الزَّنْدَقَةَ في سِرِّهِ ، والمُنافِقُونَ فقد كانوا يُوَحِّدُونَ ويَصُومُونَ ويُصَلُّونَ عَلانيَةً ، والنِّفاقُ في قُلوبِهم ، والحَلاَّجُ فما كان حِماراً حتىٰ يُظْهرَ الزَّندَقَةَ بإزاءِ ابنِ خَفيف وأمْثالِه ، بلْ كان يَبُوحُ بذلك لمَنْ اسْتَوثَقَ مِنْ رِباطِه ، ويمكنُ أنْ يَكونَ تَزَندَقَ في وقْتٍ ، ومَرَقَ وادَّعَى الإلَهيّةَ ، وعَمِلَ السِّحرَ والمَخاريقَ الباطِلَةَ مُدّة ، ثم لمَّا نَزَلَ به البَلاءُ ورَأى المَوتَ الأحْمرَ أسْلَمَ ورَجَعَ إلى الحَقِّ ، واللهُ أعْلَمُ بسِرِّه ، ولكن مَقالَته نَبرأُ إلى اللهِ مِنْها ، فإنَّها مَحْضُ الكُفرِ ، نَسألُ اللهَ العَفْوَ والعَافيَةَ .

كان مَقْتَلُ الحَلاَّجِ في سَنَةِ تِسْعٍ وثلاثِ مِئَة[2] .

١٧ـ تَعليلٌ لبَعضِ ما يَسْمَعُه بَعضُ زُهَّاد المُتَصَوِّفَة من المُخاطَبات :

جاء في ترجمة أحمد بن أبي الحَواريِّ ، قال الذهبيُّ : ثم إنَّ العابدَ العَريَّ من العِلْم ، متىٰ زَهدَ وتَبتَّلَ وجاعَ ، وخَلا بنفسِه ، وتركَ اللَّحْمَ والثِّمارَ ، واقْتَصَر على

---

(١) انظر السير : (الحَلاَّج) ١٤/٣١٣ـ٣٥٤ ، وانظر النزهة : ١/١١٥٨ .

(٢) انظر السير : (الحَلاَّج) ١٤/٣١٣ـ٣٥٤ ، وانظر النزهة : ١/١١٥٩ .

الدِّقَّة والكِسْرَة ، صَفَتْ حَواسُّه ولَطُفَت ، ولازَمَتْه خَطراتُ النفس ، وسمعَ خِطاباً يتولَّدُ من الجُوعِ والسَّهَر ، لا وُجُودَ لذلك الخطاب ـ والله ـ في الخارِجِ ، ووَلجَ الشَّيطانُ في باطِنِه وخرجَ ، فيَعْتَقدُ أنَّه قد وصلَ ، وخُوطِبَ وارتَقىٰ ، فيتمَكَّنُ منه الشَّيطانُ ، ويُوَسْوِسُ له ، فينظُرُ إلى المؤمنينَ بعَينِ الازْدِراء ، ويَتذَكَّرُ ذُنوبَهم ، ويَنظُرُ إلىٰ نفسه بعينِ الكَمال ، ورُبَّما آل به الأمرُ إلىٰ أنْ يَعتَقدَ أنَّه وَليٌّ ، صاحبُ كَراماتٍ وتَمكُّن ، ورُبَّما حصلَ له شَكٌّ ، وتَزَلْزلَ إيمانُه ، فالخلوَة والجُوع أبو جادِ التَّرَهُّب ، وليس ذلك من شَريعَتنا في شيء ، بلى السلوك الكامل هو الوَرَعُ في القُوت ، والوَرَعُ في المَنْطِق ، وحِفْظُ اللِّسان ، ومُلازَمةُ الذِّكْر ، وتَركُ مُخالَطة العامَّة ، والبُكاءُ على الخَطيئَة ، والتِّلاوَة بالتَّرْتيل والتَّدبُّر ، ومَقْتُ النَّفس وذَمُّها في ذات الله ، والإكْثارُ من الصَّوم المَشْروع ، ودَوامُ التَّهَجُّد ، والتَّواضُعُ للمسلمين ، وصِلةُ الرَّحِم والسَّماحَة وكَثرةُ البِشْر ، والإنْفاقُ مع الخَصاصَة ، وقَولُ الحَقِّ المُرِّ برِفْق وتُؤَدَة، والأمرُ بالعُرْف ، والأخذُ بالعَفو ، والإعْراضُ عن الجَاهلين ، والرِّباطُ بالثَّغْرِ ، وجِهادُ العَدوِّ ، وحَجُّ البَيتِ ، وتَناوُلُ الطيِّبات في الأحايين ، وكثرةُ الاستغفار في السَّحَر ، فهٰذه شَمائلُ الأولياء ، وصِفاتُ المحمَّديّين ، أماتَنا اللهُ علىٰ مَحبَّتِهم[1] .

وقال ابنُ هِلالَة : جَلستُ عند نَجْمِ الدِّين الكُبْرىٰ في الخلوَة مِراراً ، وشَاهَدتُ أُموراً عَجيبَةً ، وسَمعتُ مَنْ يُخاطِبُني بأشْياءَ حَسَنَة .

قال الذهبيُّ : لا وُجودَ لمَنْ خاطَبَك في خلوتِك مع جُوعك المُفرط ، بلْ هو سَماعُ كلامٍ في الدِّماغ الذي قد طاشَ وفاشَ وبقيَ قَرعة كما يَتمُّ للمُبَرْسَم[2] والمَغْمور بالحُمّىٰ والمَجْنون ، فاجْزِمْ بهٰذا واعبُد اللهَ بالسُّنَن الثابتة تُفْلحْ[3] .

---

(١) انظر السير : (أحمد بن أبي الحَواريّ) ١٢/ ٨٥ـ ٩٤ ، وانظر النزهة : ٢/٩٨٦ .

(٢) البرسام : عِلّة يُهْذَىٰ فيها .

(٣) انظر السير : (نَجم الدين الكُبرَىٰ) ٢٢/ ١١١ـ ١١٤ ، وانظر النزهة : ١/١٦٧٠ .

١٨ـ الخَرَّاز أوّلُ مَنْ تكلَّم في مُصْطَلَح الفَناء والبَقاء :

جاء في ترجمة الخَرَّاز ، قال الذهبيُّ : ويُقالُ إنَّه أوّل من تكلَّم في عِلم الفَناء والبَقاء[1] ، فأيُّ سَكْتَة فاتَته ، قصدَ خَيراً ، فولّد أمراً كَبيراً ، تَشبَّثَ به كلُّ اتِّحاديٍّ ضالّ .

وتُوفِّي سنة ستٍّ وثمانين ومئتين .

قال السُّلميُّ : هو إمامُ القَوم في كل فنٍّ من عُلومِهم ، له في مَبادىء أمره عَجائبٌ وكَرامات ، وهو أحْسَنُ القَوم كَلاماً ، خَلا الجُنَيد ، فإنَّه الإمامُ[2] .

* * *

---

(١) انظر ما كتبه ابنُ القيم رحمه الله في « مَدارج السّالكين » (١٤٨/١ـ ١٧٣) عن الفَناء وأقسامه ومَراتبه ، وما هو مَذموم ، وما هو مَحمود .

(٢) انظر السير : (الخَرّاز) ٤١٩/١٣ـ ٤٢٢ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٩٧ .

مَسائل عَقديّة مُتفرِّقة

١ـ التجْسيم :

جاء في ترجمة الطَّلَمَنْكيِّ ، قال الذهبيُّ : رأيتُ له كِتاباً في السنَّة في مُجلَّدين عامَّته جيِّد ، وفي بَعضِ تَبويبه ما لا يُوافَقُ عليه أبداً ، مثل : باب الجَنْب لله ، وذكرَ فيه : ﴿ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ ﴾[١] ،[٢] .

٢ـ التَّشْبيه :

قال أبو سَهْل بنُ زياد القَطَّان ، أخبرَنا محمدُ بنُ إسْماعيل التِّرمذيّ ، سَمعتُ نُعَيمَ بنَ حمَّاد يقول : مَنْ شَبَّهَ اللهَ بخَلقِه فقد كَفَر ، ومَنْ أنْكرَ ما وَصفَ به نفسَه فقد كَفَر ، وليَسَ في ما وَصَفَ اللهُ به نفسَه ولا رسُولُه تَشْبيه[٣] .

قال الإمامُ الذهبيُّ : هـٰذا الكَلامُ حقٌّ ، نَعوذُ بالله من التَشْبيه ومِن إنْكارِ أحاديثِ الصِّفات ، فمَا يُنكِرُ الثَّابتَ منها مَنْ فَقُهَ ، وإنَّما بعد الإيمان بها هنا مَقامان مَذمومان :[٤] .

تأويلُها وصَرْفُها عن مَوضِع الخِطاب ، فما أوَّلَهَا السَّلَفُ ولا حرَّفوا ألْفاظَها عن مَواضِعِها ، بل آمَنُوا بها ، وأمَرُّوها كما جاءَت[٥] .

المَقامُ الثاني : المُبالَغَةُ في إثْباتِها ، وتَصوُّرها من جِنسِ صِفاتِ البَشَر ، وتَشَكُّلِها في الذِّهْن ، فهـٰذا جَهلٌ وضَلالٌ ، وإنَّما الصِّفةُ تابعةٌ للمَوْصوفِ ، فإذا كانَ المَوْصوفُ

---

(١) سورة الزمر ، الآية : ٥٦ .

(٢) انظر السير : (الطَّلَمَنكي) ١٧/٥٦٦ـ٥٦٩ ، وانظر النزهة : ١/١٣٦٥ .

(٣) انظر السير : (نُعيم بن حمّاد بن مُعاوية) ١٠/ ٥٩٥ـ ٦١٢ ، وانظر النزهة : ٢/٨٩٩ .

(٤) انظر السير : (نُعيم بن حمّاد بن مُعاوية) ١٠/ ٥٩٥ـ ٦١٢ ، وانظر النزهة : ٣/٨٩٩. .

(٥) انظر السير : (نُعيم بن حمّاد بن مُعاوية) ١٠/ ٥٩٥ـ ٦١٢ ، وانظر النزهة : ٤/٨٩٩ .

عَزَّ وجَلَّ لَمْ نَرَه ، ولا أخْبرَنا أحدٌ أنَّه عاينَه مع قَولِه لنا في تَنزيلِه : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾[1] . فكَيفَ بَقي لأذْهانِنا مَجالٌ في إثْباتِ كَيفيّةِ البارىءِ ، تَعالى اللهُ عن ذلك ، فكذلك صِفاتُه المقدَّسَة ، نُقِرُّ بها ونَعتَقدُ أنَّها حقٌّ ، ولا نُمثِّلُها أصْلاً ولا نَتَشكَّلُها[2] .

وقالَ الضِّياءُ سَمعتُ الحَافِظَ اليُونينيّ يقولُ : لمَّا كُنتُ أسْمَعُ شَناعَةَ الخَلقِ على الحَنابِلَة بالتَّشْبيهِ عَزَمْتُ علىٰ سُؤالِ الشَّيخِ المُوَفَّق ـ ابنَ قُدامَة ـ وبَقيتُ أشْهُراً أريدُ أنْ أسْألَه ، فصَعَدتُ مَعَه الجَبَلَ ، فلمَّا كُنَّا عندَ دَارِ ابنِ مُحارب قُلتُ : يا سَيِّدي ، وما نَطَقْتُ بأكْثَرَ مِنْ سَيِّدي ، فقالَ لي : التَّشْبيهُ مُسْتَحيلٌ فقُلتُ : لِمَ ؟ قالَ : لأنَّ مِنْ شَرْطِ التَّشْبيهِ أنْ نَرَى الشَيءَ ، ثمّ نُشَبِّهُه ، مَنْ الذي رَأى الله ثمّ شَبَّهَه لنَا ؟!! ، وذَكَرَ الضِّياءُ حِكاياتٍ في كَرَامَاته[3] .

٣ـ تَعليلٌ لانتشار عِلم الكَلام في المَغْرب والأنْدَلُس :

جاء في ترجمة أبي ذَرّ الهَرَوي ، قال الذهبيُّ : الحافظُ ، الإمامُ ، المُجَوِّدُ ، العَلاَّمَة ، شَيخُ الحَرم ، أبو ذَر ، عبدُ بنُ أحمد بن محمد ، المَعْروف ببلدِه بابنِ السَّمَّاك ، الأنْصاريُّ ، الخُرسانيُّ ، الهَرَويُّ ، المَالكيُّ ، صاحبُ التَّصانيف .

قال : وُلدتُ سنة خمسٍ أو ستٍّ وخمسين وثلاث مئة .

مات بمكّة ، سنة أربع وثلاثين وأربع مئة ، وكان علىٰ مَذهَب مالك ومَذْهَب الأشْعَريِّ[4] .

قال الذهبيُّ : أخذَ الكَلامَ ورأيَ أبي الحسَن عن القاضي أبي بَكْر بن الطيِّب ، وبثَّ ذلك بمكّة ، وحَملَه عنه المَغارِبَةُ إلى المَغْرب ، والأندَلُس ، وقبل ذلك كانت عُلماء المَغْرب لا يَدخُلون في الكلام ، بل يُتقِنونَ الفِقْهَ أو الحَديث ، أو العَربيّة ،

---

(١) سورة الشورى، الآية: ١١.

(٢) انظر السير : (نُعيم بن حمّاد بن مُعاوية) ١٠/ ٥٩٥ـ ٦١٢ ، وانظر النزهة : ١/٩٠٠ .

(٣) انظر السير : (ابن قُدامَة) ٢٢/ ١٦٥ـ ١٧٣ ، وانظر النزهة : ٣/١٦٨٢ .

(٤) انظر السير : (أبو ذَرّ الهَرَوي) ١٧/ ٥٥٤ـ ٥٦٣ ، وانظر النزهة : ١/١٣٦١ .

ولا يَخوضون في المَعْقولات ، وعلىٰ ذلك كان الأصيليُّ ، وأبو الوَليد بنُ الفَرَضي ، وأبو عُمر الطَّلَمَنكيُّ ، ومَكِّي القَيْسيُّ ، وأبو عَمرو الدَّانيُّ ، وأبو عُمر بن عبد البَرِّ ، والعُلماءُ[1] .

٤ـ التَّعَلُّق بالقُبور :

(أ) أحْوالُ العَوامِّ المُتعلِّقين بالقُبور في القَرن الثامن :

جاء في ترجمة السيدة نفيسَة ، قال الذهبيُّ : ولِجَهَلة المِصْريّين فيها اعْتِقادٌ يَتجاوَزُ الوَصْف ، ولا يَجوزُ ممَّا فيه من الشِّرْك ، ويَسْجُدون لها ، ويَلْتَمسون منها المَغْفِرَة ، وكان ذلك من دَسائس دُعاة العُبَيديّة[2] ،[3] .

(ب) زيارةُ قَبر النبيِّ :

عن سُهَيل وسَعيد مولى المهري ، عن حَسن بن حَسَن بن عليّ أنَّه رأىٰ رجلاً وقفَ علىٰ البيت الذي فيه قَبرُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم يَدعو له ويُصلِّي عليه ، فقالَ للرجلِ : لا تَفْعَل فإنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا تَتَّخِذُوا بَيْتِي عِيداً ، ولا تَجْعَلُوا بُيُوتَكم قُبُوراً ، وَصَلُّوا عَلَيَّ حَيْثُ كنتُم ، فَإنَّ صَلاتَكم تَبْلُغُنِي » .

قال الذهبيُّ : هـٰذا مُرسَل ، وما استدَلَّ به حَسنٌ في فَتْواه باطلٌ من الدَّلالَة ، فمَنْ وَقَفَ عند الحُجرَة المُقدَّسَة ذَليلاً مُسَلِّماً مُصَلِّياً علىٰ نبيِّه ، فيا طُوبَىٰ له ، فقد أحْسَنَ

---

(١) انظر السير : (أبو ذَرّ الهَرَوي) ١٧/ ٥٥٤ـ ٥٦٣ ، وانظر النزهة : ٢/١٣٦١ .

(٢) قال صاحبُ النُّزهَة : قال ابنُ كثير في البداية والنهاية (١٠/ ٢٦٢) : وإلى الآن قد بلغ العامة في اعتقادهم فيها وفي غيرها كثيراً جداً ، ولا سيَّما عَوام مصر ، فإنهم يطلقون فيها عبارات بشيعة مجازفة تؤدي إلى الكفر والشرك ، وألفاظاً يجب أن يعرفوا أنها لا تجوز ، وربما نسبها بعضهم إلىٰ زين العابدين ، وليست من سلالته ، والذي ينبغي أن يعتقد فيها ما يليق بمثلها من النساء الصالحات ، وأصل عبادة الأصنام من المغالاة في القبور وأصحابها ، وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم بتسوية القبور وطمسها ، والمغالاة في البشر حرام ، ومن زعم أنها تفك من الخشب ، أو أنها تنفع أو تضر بغير مشيئة الله تعالىٰ فهو مشرك ، رحمها الله وأكرمها .

(٣) انظر السير : (نفيسة بنت الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب) ١٠/١٠٦ـ١٠٧ ، وانظر النزهة : ٢/٨٥٦ .

الزِّيارَة ، وأجْمَلَ في التَّذَلُّل والحُبِّ ، وقد أتىٰ بعبادَةٍ زائدَة علىٰ مَنْ صَلَّىٰ عليه في أرضِه ، أو في صَلاتِه ، إذِ الزائرُ له أجرُ الزِّيارَة وأجْرُ الصَّلاة عليه ، والمُصَلِّي عليه في سائر البلاد له أجْرُ الصَّلاة فقط .

فمَنْ صَلَّىٰ عليه واحدةً صَلَّى اللهُ عليه عَشْراً ، ولكنَّ مَنْ زارَه ـ صَلواتُ الله عليه ـ وأساء أدَبَ الزيارَة ، أو سَجَدَ للقَبرِ ، أو فَعلَ ما لا يُشْرَع ، فهـٰذا فعلَ حَسَناً وسَيِّئاً ، فيُعَلَّم برِفق ، واللهُ غَفورٌ رَحيم ، فوالله ما يَحْصُلُ الانْزعاجُ لمسلم ، والصِّياحُ وتَقْبيلُ الجُدْران ، وكَثرَةُ البُكاء ، إلاَّ وهو مُحبٌّ لله ولرَسولِه ، فحُبُّه المِعْيارُ والفَارِقُ بين أهْل الجَنَّة وأهْلِ النَّار ، فزيارَةُ قَبرِه صلى الله عليه وسلم من أفْضَلِ القُرَب ، وشَدُّ الرِّحال إلىٰ قُبور الأنْبياء والأوْلياء ، لئنْ سَلَّمْنا أنَّه غَيرُ مَأذونٍ فيه لعُموم قَوله صَلَواتُ الله عليه : « لا تَشُدُّوا الرِّحَالَ إلاَّ إلىٰ ثَلاثَة مَسَاجد » ، فشَدُّ الرِّحال إلىٰ نَبيِّنا صلى الله عليه وسلم مُستلزِمٌ لشَدِّ الرَّحْل إلىٰ مَسْجِده ، وذلك مَشْروعٌ بلا نِزاع ، إذْ لا وُصُولَ إلىٰ حُجْرَتِه إلاَّ بعد الدُّخُول إلىٰ مَسْجِده ، فليَبْدأ بتَحيَّة المَسْجد ، ثم بتَحيَّة صاحب المَسْجِد ، رَزَقَنا اللهُ وإيّاكم ذلك ، آمين[1] .

٥ـ ضَمَّةُ القَبْر :

بيانُ أنَّ ضَمَّةُ القَبر بالنِّسْبَة للمؤمن الصَّالح لَيست عَذاباً :

عن عبدِ الرحمَـٰن بن جابر ، عن أبيه : لمَّا انتُهوا إلىٰ قَبرِ سَعدِ بنِ مُعاذ ، نَزلَ فيه أربعَةٌ : الحَارِثُ بنُ أَوْس ، وأُسَيْدُ بنُ الحُضَير ، وأبو نائلَة سِلْكان ، وسَلَمَةُ بن سَلامَة بنِ وَقْش ، ورسُولُ الله صلى الله عليه وسلم واقِفٌ ، فلمَّا وُضِعَ في قَبرِه ، تَغيَّرَ وَجْهُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، وسَبَّحَ ثلاثاً ، فسَبَّحَ المسلمون حتى ارْتَجَّ البَقيعُ ، ثمّ كبَّرَ ثلاثاً ، وكبَّرَ المسلمون ، فسُئِلَ عن ذلك ، فقال صلى الله عليه وسلم : « تَضايَقَ عَلَىٰ صَاحِبِكم القَبْرُ ، وضُمَّ ضَمَّةً لَوْ نَجا منْها أحَدٌ لَنَجا هو ، ثُمَّ فَرَّجَ اللهُ عَنْه » .

---

(١) انظر السير : (الحَسَنْ) ٤/ ٤٨٣ـ٤٨٧ ، وانظر النزهة : ٢/٥٣٦ .

قال الذهبيُّ : هـٰذه الضَمَّةُ لَيست من عَذاب القَبْر في شيء ، بلْ هو أمرٌ يجدُه المؤمنُ كما يجدُ أَلَمَ فَقْد وَلدِه وحَميمِه في الدُّنيا ، وكما يَجدُ من أَلَمِ مَرَضِه ، وأَلَمِ خُروجِ نَفْسِه ، وأَلَمِ سُؤالِه في قَبْرِه وامْتِحانِه ، وأَلَمِ تأثُّره ببُكاءِ أهْله عليه ، وأَلَمِ قيامه من قَبْره ، وأَلَمِ المَوْقِف وهَولِه ، وأَلَمِ الوُرودِ على النَّار ، ونَحْوِ ذلك . فهـٰذه الأراجيفُ كلُّها قد تَنالُ العَبدَ وما هي من عَذاب القَبْر ، ولا من عَذاب جهَنَم قطُّ ، ولكن العَبدَ التَّقيَّ يَرْفُقُ اللهُ به في بَعض ذلك أو كُلِّه ، ولا راحَةَ للمؤمن دُونَ لِقاء ربِّه . قال اللهُ تَعالَىٰ : ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ﴾[1] ، وقال : ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾[2] . فنسألُ اللهَ العفْوَ واللُّطْفَ الخَفي .

ومع هـٰذه الهزَّات ، فسَعدٌ ممَّن نَعلمُ أنَّه من أهْل الجَنَّة ، وأنَّه من أرْفَع الشُهَداء رضي الله عنه ، كأنَّك يا هـٰذا تَظُنُّ أنَّ الفائزَ لا يَنالُه هَوْلٌ في الدَّارَين ، ولا رَوْعٌ ، ولا أَلَمٌ ، ولا خَوْفٌ . سَل ربَّكَ العَافيَةَ ، وأنْ يَحْشُرَنا في زُمْرَة سَعد .

عن عائشَةَ ، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم : « لَوْ نَجا أَحَدٌ مِنْ ضَمَّةِ القَبْرِ ، لَنَجا سَعدٌ »[3] .

٦ـ كيف يُدفَن النبيُّ صلى الله عليه وسلم في بَيتِ عائشةَ مع كونِه صلى الله عليه وسلم نَهَىٰ عن الدَّفْنِ في البُيوتِ وجَعْلِها مَقابر :

قال قُتَيْبَةُ : حدَّثنا ابنُ لَهيعَة ، عن أبي الأَسْود ، عن عُروَة ، عن عائشَة ، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم قال : « اجْعَلُوا مِنْ صَلاتِكم في بُيوتِكم ، ولا تَجْعَلُوهَا عَلَيْكم قُبُوراً ، كما اتَّخذَتِ اليَهُودُ والنَّصارَىٰ في بُيُوتِهِم قُبُوراً ، وإنَّ البَيْتَ لَيُتْلَىٰ فيه القُرآنُ فيَتَراءَىٰ لأهْلِ السَّماءِ كمَا تَتَراءَى النُّجُومُ لأهْلِ الأرْضِ » .

قال الذهبيُّ : هـٰذا حَديثٌ نَظيفُ الإسْناد ، حَسَنُ المَتْنِ ، فيه النَّهْيُ عن الدَّفْنِ في البُيوتِ ، وله شاهدٌ من طَريقٍ آخَر ، وقد نَهَىٰ عليه السلام أن يُبْنَىٰ على القُبورِ ، ولو

---

(١) سورة مريم ، الآية : ٣٩.

(٢) سورة غافر ، الآية : ١٨ .

(٣) انظر السير : (سَعد بن مُعاذ) ١/ ٢٧٩ـ٢٩٧ ، وانظر النزهة : ١٦٥/ ٥ .

انْدَفَنَ النَّاسُ في بُيوتِهِم ، لصارَت المَقْبَرَةُ والبُيوتُ شَيئاً واحداً ، والصَّلاةُ في المَقْبَرَةِ فمَنْهيٌّ عنها نَهْيَ كَراهيَة ، أو نَهْيَ تَحْريم ، وقد قال عليه السلام : « أفْضَلُ صَلاةِ الرَّجُلِ في بَيْتِه إلاَّ المَكْتُوبَة » . فناسَبَ ذلك ألاَّ تُتَّخذَ المَساكِنُ قُبوراً .

وأمَّا دَفْنُهُ صلى الله عليه وسلم في بَيتِ عائشَة فمُخْتَصٌّ به ، كما خُصَّ ببَسْطِ قَطيفَةٍ تَحْتَه في لَحْدِه ، وكما خُصَّ بأنْ صَلُّوا عليه فُرادَىٰ بِلا إمام ، فكان هو إمامَهم حيّاً ومَيّتاً في الدُّنْيا والآخِرَة ، وكما خُصَّ بتأخيرِ دَفْنِه يومَين ، ويُكْرَه تأخيرُ أُمَّتِه ، لأنَّه هو أُمِنَ عليه التَّغْييرُ بخِلافِنا ، ثم إنَّهم أخَّرُوه حتىٰ صَلُّوا كُلُّهم عليه داخلَ بيتِه ، فطالَ لذلك الأمرُ ، ولأنَّهم تردَّدُوا شَطرَ اليوم الأوَّل في مَوْتِه حتىٰ قَدمَ أبو بكر الصِّديقُ من السُّنْحِ ، فهٰذا كان سَبَبُ التأخير[1] .

٧ـ فِتْنَة خَلْق القُرآن :

(أ) فِتْنَة القَول بخَلْق القُرآن والمِحَنُ التي صاحَبَتْها :

قال ابنُ سَعدٍ : كان أبو مُسْهِرٍ راويَةَ سعيدِ بنِ عبد العَزيزِ ، وكان أُشْخِصَ من دِمَشْقَ إلى المَأمُونِ بالرَّقَّةِ ، فسَألَه عن القُرآنِ ، فقال : هُوَ كلامُ الله ، وأبَىٰ أنْ يقُولَ : مَخْلُوقٌ ، فدَعَا له بالنَّطْعِ والسَّيْفِ ليَضْرِبَ عُنُقَهُ ، فلمَّا رأىٰ ذلكَ ، قال : مَخْلُوقٌ فترَكَهُ من القَتْلِ ، وقال : أمَا إنَّكَ لَوْ قُلتَ ذاكَ قبلَ السَّيْفِ ، لقَبِلْتُ منْكَ ، ولكنَّكَ تَخْرُجُ الآنَ فتقولُ : قُلتُ ذاكَ فَرَقاً من القَتْلِ ، فأمَرَ بحَبْسِه ببَغْدادَ في رِبيعِ الآخر سَنَةَ ثمَانِ عشرة وماتَ بعدَ قليلٍ في الحَبْسِ في غُرَّةِ رَجَبَ من السَّنَة ، فشَهِدَهُ قومٌ كثيرٌ من أهْلِ بَغْدادَ[2] .

قال حَنْبَلٌ : حَضرتُ أبا عبد الله وابن مَعين ، عند عَفَّان بعدما دَعاه إسْحاقُ بنُ إبراهيم للمِحْنَة ، وكان أوّل مَنِ امْتُحِنَ من النَّاس عَفّان ، فسألَه يَحْيَىٰ من الغَد بعدما امْتُحِنَ ، وأبو عبد الله حاضرٌ ونَحنُ مَعه ، فقال : أخْبِرْنا بما قال لك إسْحاق ؟ قال :

---

(١) انظر السير : (عبد الله بن لَهيعَة) ٨/١١ـ ٣١ ، وانظر النزهة : ١/٧٢٢ .

(٢) انظر السير : (أبو مُسْهِر) ٢٢٨/١٠ـ٢٣٨ ، وانظر النزهة : ٤/٨٧١ .

يا أبا زكريّا لمْ أُسَوِّدْ وَجْهَكَ ولا وُجوهَ أصْحابِك ، إنّي لم أجب ، فقال له : فكيف كان ؟ قال : دَعاني وقَرأ عليَّ الكتابَ الذي كتب به المأمون من الجَزيرَة ، فإذا فيه : امْتَحِنْ عَفَّانَ ، وادْعُهُ إلىٰ أن يقولَ : القُرآنُ كَذا وكَذا ، فإنْ قالَ ذلك فأقِرَّه علىٰ أمْرِه ، وإنْ لمْ يُجبْك إلىٰ ما كَتبتُ به إليك فاقْطَعْ عنه الذي يُجْرَىٰ عليه ـ وكان المَأمونُ يُجْري علىٰ عفَّانَ كلَّ شهرٍ خمسَ مئة دِرْهَم ـ فلمَّا قرأ عليَّ الكتابَ قال لي إسْحاقُ : ما تَقولُ ؟ فقرَأتُ عليه ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾[1] حتىٰ خَتَمْتُها ، فقُلتُ : أمَخْلوقٌ هـٰذا ؟ فقال : يا شَيخُ إنَّ أميرَ المؤمنين يقولُ : إنَّك إنْ لم تُجبْه إلى الذي يَدْعُوكَ إليه يَقْطَعُ عَنكَ ما يُجْري عليك . فقُلتُ : ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾[2] فسَكَتَ عَنّي ، وانْصَرفْتُ ، فسُرَّ بذلك أبو عبد الله ويَحْيَىٰ .

قال الذهبيُّ : هـٰذه الحِكايَة تَدلُّ علىٰ جَلالَة عَفَّان وارتفاع شأنِه عند الدَّولَة ، فإنَّ غَيرَه امْتُحِنَ وقُيِّدَ وسُجِنَ ، وعفَّان فما فَعَلوا معه غيرَ قَطْع الدَّراهم عنه[3] .

قال القاسمُ بنُ أبي صالح : سَمعتُ إبراهيمَ بنَ ديزيل يقولُ : لمَّا دُعيَ عَفَّانُ للمِحْنَة كنتُ آخذاً بلِجامِ حِمارِه ، فلمَّا حَضَرَ عُرِضَ عليه القَولُ ، فامْتَنعَ أنْ يُجيبَ ، فقيلَ له : يُحْبَسُ عَطاؤك ـ قال : وكان يُعْطَىٰ كُلَّ شَهرٍ ألفَ دِرْهم ـ فقال : ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾[4] ، فلمَّا رَجعَ إلىٰ داره عَذَلَه نِساؤُه ومَنْ في دارِه ، قال : وكان في دارِه نَحْوَ أرْبَعينَ إنْساناً ، فدَقَّ عليهم داقٌّ البابَ ، فدخلَ عليهم رجلٌ شَبَّهْتُه بسمَّان أو زَيَّات ، ومَعه كيسٌ فيه ألفُ دِرْهَم ، فقال : يا أبا عُثْمان ثَبَّتَكَ اللهُ كما ثَبَّتَّ الدِّين ، وهـٰذا في كُلِّ شَهر[5] .

وجاء في ترجمة المُعْتَصِم ، قال الذهبيُّ : وامْتُحِنَ النَّاسُ بخَلقِ القُرآن ، وكَتَبَ

---

(١) سورة الإخلاص ، الآية : ١ .
(٢) سورة الذاريات ، الآية : ٢٢ .
(٣) انظر السير : (عفَّان) ١٠/ ٢٤٢ـ ٢٥٥ ، وانظر النزهة : ٣/٨٧٣ .
(٤) سورة الذاريات ، الآية : ٢٢.
(٥) انظر السير : (عفَّان) ١٠/ ٢٤٢ـ ٢٥٥ ، وانظر النزهة : ١/٨٧٤ .

بذلك إلى الأمْصار ، وأخذَ بذلك المؤذِّنين وفُقَهاء المَكاتب ، ودامَ ذلك حتىٰ أزالَه المُتوكِّلُ بعد أرْبَعةَ عَشرَ عاماً[1] .

وقال عُبَيدُ الله بنُ يَحْيَىٰ : حدَّثَنا إبراهيمُ بنُ أسْباط ، قال : حُملَ رجلٌ مُقيَّدٌ ، فأُدخِلَ على ابنِ أبي دُواد بحُضورِ الوَاثِق ، فقالَ لأحْمدَ : أخْبرني عن ما دَعَوْتُم النَّاسَ إليه ، أَعَلِمَهُ رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم فيما دَعا إليه ، أمْ شيءٌ لم يَعْلَمْه ؟ قال : بَلْ عَلِمَه . قال : فكانَ يَسَعُه أن لا يَدعوَ النَّاسَ إليه ، وأنتُم لا يَسَعُكم ؟! ، فبُهِتُوا ، وضَحِكَ الوَاثِقُ ، وقامَ قابِضاً علىٰ فَمِه ، ودَخلَ مَجْلساً ، ومدَّ رجْلَيه وهو يقولُ : أمرٌ وَسِعَ رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم أنْ يَسْكُتَ عنه ولا يَسَعُنا! ، ثم أمرَ أن يُعْطَى الشيخُ ثلاثَ مئة دينار ، وأنْ يُرَدَّ إلىٰ بَلدِه[2] .

وفي سنة إحْدىٰ وثلاثين : قَتلَ أحْمدَ بنَ نصرٍ الخُزاعيَّ الشَّهيدَ ظُلماً ، وأمرَ بامْتِحان الأئمَّة والمؤذِّنين بخَلْق القُرآن ، وافْتكَّ من أسْرِ الرُّوم أرْبعة آلاف وستَّ مئة نفس ، فقال ابنُ أبي دُواد : مَنْ لمْ يقُل : القُرآنُ مَخْلوقٌ ، فلا تَفْتكُّوه .

وفيها جاءَ المَجوسُ الأرْدمانيُّون في مَراكب من ساحِل البَحْر الأعْظَم ، فدَخلوا إشْبيليَّة بالسَّيفِ ، ولمْ يَكنْ لها سورٌ بعدُ ، فجهَّزَ لحَرْبهم أميرُ الأنْدَلُس ، عبدُ الرحمَـٰن المَرْوانيُّ ، جَيشاً ، فالتَقَوا ، فانْهَزَمَ الأرْدمانيُّونَ وأُسِرَ منهم أربعةُ آلاف ، ولله الحَمدُ[3] .

قال ابنُ عَمَّار المَوْصِليّ في « تاريخِه » : قال لي عليُّ بنُ المَديني : ما يَمْنَعُك أنْ تُكَفِّرَ الجَهْميّة ، وكُنتُ أنا أوّلاً لا أُكَفِّرُهم ؟ فلمَّا أجابَ عليٌّ إلى المِحْنَة ، كتبتُ إليه أُذَكِّرُه ما قال لي ، وأُذكِّرُه اللهَ . فأخْبَرَني رجلٌ عنه أنَّه بَكىٰ حين قرأَ كتابي . ثم رأيتُه بعدُ فقال لي : ما في قَلبي ممَّا قلتُ وأَجبتُ إلىٰ أيِّ شيء ، ولكنِّي خِفْتُ أنْ أُقْتَل ،

---

(١) انظر السير : (المُعْتَصِم) ١٠/ ٢٩٠ـ٣٠٦ ، وانظر النزهة : ٦/٨٧٨ .
(٢) انظر السير : (الوَاثق) ١٠/٣٠٦ـ٣١٤ ، وانظر النزهة : ٤/٨٨٠ .
(٣) انظر السير : (الوَاثق) ١٠/٣٠٦ـ٣١٤ ، وانظر النزهة : ١/٨٨١ .

وتَعْلمُ ضَعْفي أنّي لو ضُربتُ سَوْطاً واحداً لمِتُّ ، أو نَحْوَ هـٰذا[1] .

وقال ابنُ عَمَّار : ودَفعَ عَنّي عليٌّ امْتِحانَ ابنِ أبي دُواد إيايّ ، شَفعَ فيَّ ودَفعَ في غَيرِ واحدٍ من أهْلِ الموصل من أجْلي ، فما أجابَ ديانةً إلاَّ خَوفاً[2] .

وقال عبدُ الرحمَـٰن بنُ أبي حاتِم : كان أبو زُرْعَة تركَ الرِّوايَةَ عن عليٍّ من أجْلِ ما بَدا منه في المِحْنَة ، وكان والدِي يَرْوي عنه لِنُزوعِه عمَّا كان منه . قال أبي : كان عليٌّ عَلَماً في النَّاس في مَعْرفَة الحَديث والعِلَل .

قال الذهبيُّ : ويُرْوَىٰ عن عبد الله بن أحمدَ ، أنَّ أباه أمْسَكَ عن الرِّوايَة عن ابن المَدينيِّ ، ولمْ أرَ ذلك ، بلْ في « مُسْنَدِه » عنه أحاديثَ ، وفي « صَحيحِ البُخاري » عنه جُملة وافِرَة .

مات عليُّ بنُ المَديني بسامرَّاء في سنة أربع وثلاثين ومئتين[3] .

قال الصُّولِيُّ : كان أحمدُ بنُ نَصْرالخُزاعِيّ وسَهلُ بنُ سَلامَة حين كان المَأمُونُ بخُراسَان بايَعَا النَّاسَ على الأمر بالمَعْروف والنَّهيِّ عن المُنكَر ، ثم قَدِمَ المَأمُونُ فبايَعَه سَهْلٌ ، ولَزِمَ ابنُ نَصْرٍ بَيْتَه ، ثمَّ تَحرَّكَ في آخِر أيام الوَاثِق ، واجتمَعَ إليه خَلْقٌ يَأمُرون بالمَعْروف ، قال : إلىٰ أنْ مَلَكُوا بَغْدادَ ، وتَعَدَّىٰ رَجُلانِ موسِران من أصحابه فبَذَلا مالاً وعَزَما على الوُثُوبِ في سنة إحْدَىٰ وثلاثين فنَمَا الخَبَرُ إلىٰ نائِبِ بَغْدادَ إسْحاقَ بنِ إبْراهِيمَ ، فأخَذَ أحمَدَ وصاحِبَيْه وجَمَاعَةً ، ووَجَدَ في مَنزِل أحَدِهما أعْلاماً ، وضَربَ خادِماً لأحْمَدَ ، فأقَرَّ بأنَّ هـٰؤلاء كانوا يَأتُونَ أحمَدَ ليلاً ويُخبِرُونه بما عَمِلوا . فحُمِلُوا إلىٰ سَامَرَّاء مُقيَّدِين . فجَلَسَ الوَاثِقُ لهم ، وقال لأحمَدَ : دَعْ ما أُخِذْتَ له ، ما تقُولُ في القُرآنِ ؟ : قال : كَلامُ الله . قال : أفَمَخْلُوقٌ هو ؟ قال : كَلامُ الله . قال : فتَرَىٰ رَبَّكَ في القِيامَة ؟ قال : كَذَا جاءَت الرِّوايَةُ . قال : وَيْحَك يُرَىٰ كَما يُرَى المَحْدُودُ المُتَجَسِّمُ ، ويَحْويه مكانٌ ويَحصُرُه نَاظِرٌ ؟ أنا كَفَرتُ بمَنْ هـٰذِه صِفَتُه ، ما تَقُولُون فيه ؟

---

(١) انظر السير : (عليُّ بن المَديني) ١١/ ٤١ـ ٦٠ ، وانظر النزهة : ٩٠٨/ ٣ .
(٢) انظر السير : (عليُّ بن المَديني) ١١/ ٤١ـ ٦٠ ، وانظر النزهة : ٩٠٨/ ٤ .
(٣) انظر السير : (عليُّ بن المَديني) ١١/ ٤١ـ ٦٠ ، وانظر النزهة : ٩٠٨/ ٥ .

فقال قاضي الجانبِ الغَرْبيّ : هو حَلالُ الدَّمْ ، ووَافَقَه فُقَهاءُ ، فأَظْهَرَ أحمَدُ ابنُ أبي دُواد أنَّه كارِهٌ لقَتْله . وقال : شَيخٌ مُخْتلٌّ تَغَيَّرَ عَقلُه ، يُؤَخَّر . قال الوَاثِقُ : ما أَرَاه إلاَّ مُؤَدِياً لكُفْرِه قائماً بما يَعْتَقدُه ، ودَعَا بالصَّمْصَامَة وقام ، وقال : أَحْتَسِبُ خُطَايَ إلىٰ هٰذا الكَافِر ، فضَرَبَ عُنُقَه بعد أن مَدُّوا له رَأسَه بحَبْلٍ وهو مُقَيَّد ونُصِبَ رأسُه بالجانبِ الشَّرقِيّ ، وتُتُبِّعَ أصحابُه فسُجِنُوا[1] .

وعُلِّقَ في أُذُنِ أحمدَ بنِ نَصْر ورقةٌ فيها : هٰذا رأسُ أحمد بن نصر ، دَعاهُ الإمامُ هارون إلى القَولِ بخَلْقِ القُرآن ، ونَفْيِ التشْبيه ، فأبىٰ إلاَّ المُعانَدَة ، فجَعَلَه اللهُ إلىٰ نارِه ، وكتبَ محمدُ بنُ عبد المَلك[2] .

وقد كان ابنُ أبي دُوَاد يومَ المِحْنَة إلْباً على الإمام أحمد ، يقول : يا أميرَ المؤمنين ، اقْتُلْه ، هو ضالٌّ مُضِلٌّ[3] .

قال عبدُ الله بنُ أحمد : سَمعتُ أبي ، سَمعتُ بِشْرَ بنَ الوَليد ، يقول : اسْتَتَبْتُ أحمدَ بنَ أبي دُوَاد من قَوله : القُرآنُ مَخْلوقٌ في ليلةٍ ثلاثَ مَرّات ، ثم يَرْجِع[4] .

وجاء في ترجمة الإمام أحمدَ بنِ حَنْبَل ، قال الإمامُ الذهبيُّ مُتحدِّثاً عن الفِتْنَة : الصَّدْعُ بالحَقِّ عظيمٌ ، يَحْتاجُ إلىٰ قُوَّةٍ وإخْلاصٍ ، فالمُخْلِصُ بِلا قُوَّةٍ يَعْجزُ عن القِيامِ به ، والقَويُّ بِلا إخْلاصٍ يُخْذَلُ ، فمَنْ قامَ بهما كاملاً ، فهُوَ صِدِّيقٌ . ومَنْ ضَعُفَ ، فلا أقَلَّ من التَّأَلُّمِ والإنْكارِ بالقَلْبِ ، لَيْسَ وَرَاءَ ذلك إيمانٌ ، فلا قُوَّةَ إلاَّ باللهِ .

عن ثَوْبانَ قال : قال رسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : « إنَّ أَخْوَفَ ما أَخافُ علىٰ أُمَّتِي الأئِمةُ المُضِلونَ ، وإذا وُضِعَ السَّيْفُ عليهم ، لَمْ يُرْفَعْ عَنْهُم إلىٰ يوم القِيامَةِ ، ولا تَزَالُ طائِفَةٌ من أُمَّتِي على الحَقِّ ظاهِرِينَ ، لا يَضُرُّهُم مَنْ خالَفَهُم أَوْ خَذَلَهُم حتىٰ يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ »

---

(١) انظر السير : (الخُزاعيُّ) ١١/١٦٦ـ١٦٩ ، وانظر النزهة : ٣/٩١٨ .
(٢) انظر السير : (الخُزاعيُّ) ١١/١٦٦ـ١٦٩ ، وانظر النزهة : ٢/٩١٩ .
(٣) انظر السير : (أحمدُ بن أبي دُوَاد) ١١/ ١٦٩ـ ١٧١ ، وانظر النزهة : ١/٩٢١ .
(٤) انظر السير : (أحمدُ بن أبي دُوَاد) ١١/ ١٦٩ـ ١٧١ ، وانظر النزهة : ٢/٩٢١ .

عن أبي سَعِيدٍ قال : قال رسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم : « لا يَحْقِرَنَّ أَحَدُكمْ نَفْسَهُ أنْ يَرَىٰ أمْراً للهِ فيهِ مَقَالٌ ، فَلا يَقُولُ فيهِ ، فيُقَالُ لَهُ : مَا مَنَعَكَ ؟!! فيَقُولُ : مَخَافَةُ النَّاسِ . فيَقُولُ : فإيَّايَ كنْتَ أحَقَّ أنْ تَخافَ »(١) .

قال الإمامُ الذهبيُّ : كانَ النَّاسُ أُمَّةً واحدَةً ، ودِينُهُم قَائماً في خِلافَةِ أبي بَكرٍ وعُمَرَ فلَمَّا استُشْهِدَ قُفْلُ باب الفِتْنَةِ عُمَرُ رضي الله عنه ، وانْكَسَرَ البَابُ ، قَامَ رُؤوسُ الشَّرِّ على الشَّهيدِ عُثْمانَ رضي الله عنه حتّىٰ ذُبِحَ صَبْراً . وتَفرَّقَتْ الكَلمَةُ وتَمَّتْ وَقْعَةُ الجَمَلِ ، ثم وَقعَةُ صِفّينَ ، فظَهَرت الخَوارِجُ ، وكَفَّرَتْ سَادَةَ الصَّحابَةِ ، ثم ظَهَرَت الرَّوافِضُ والنَّواصِبُ(٢) .

وفي آخِرِ زَمَنِ الصَّحابَةِ ظَهَرت القَدَريّة ، ثم ظَهَرَت المُعْتَزِلَةُ بالبَصْرَة ، والجَهْمِيّة والمُجَسِّمَة بخُراسَانِ في أثْناءِ عَصْرِ التَّابِعِين مع ظُهورِ السُّنَّةِ وأهْلِها إلىٰ بَعدِ المِئتَين ، فظَهَرَ المَأمُونُ الخَليفَة ـ وكانَ ذَكيّاً مُتكَلِّماً ، له نَظَرٌ في المَعْقُولِ ـ فاسْتَجْلَبَ كُتُبَ الأوائِل ، وعَرَّبَ حِكْمَةَ اليُونانِ ، وقَامَ في ذلكَ وقَعَدَ ، وخَبَّ ووَضَعَ ، ورَفَعَت الجَهْمِيّةُ والمُعْتزِلَةُ رُؤُوسَهَا ، بلْ والشِّيعَةُ ، وآلَ به الحَالُ إلىٰ أنْ حَمَلَ الأمَّةَ على القَولِ بخَلْقِ القُرآنِ ، وامْتَحَنَ العُلمَاءَ ، فلَمْ يُمْهَلْ ، وهَلكَ لعامِه ، وخَلَّىٰ بعدَه شَراً وبلاءً في الدين . فإنَّ الأُمَّة ما زالت علىٰ أنَّ القُرآنَ العَظيمَ كلامُ الله تَعالَىٰ ووَحْيُه وتَنزيلُه ، لا يَعرفون غَير ذلك ، حتىٰ نَبغَ لهم القولُ بأنَّه كلامُ الله مَخْلوق مَجْعول ، وأنَّه إنَّما يُضافُ إلى الله تَعالَىٰ إضافةَ تَشْريف ، كبَيت الله ، وناقَة الله . فأنْكرَ ذلك العلماءُ ولَمْ تكن الجَهْميَّة يَظهرون في دَولة المَهدي والرَّشيد والأمين ، فلمَّا وَلِيَ المأمونُ ، كان منهم ، وأظهَرَ المَقالة .

رَوىٰ أحمدُ بنُ إبراهيم الدَّوْرَقي ، عن محمدِ بنِ نوح : أنَّ الرَّشيدَ قالَ : بَلَغني أنَّ بِشْرَ بنَ غِياث المَريسي ، يقولُ القُرآنُ مَخْلوق ، فلِلَّه عليَّ إنْ أظْفَرَني اللهُ به ، لأقْتُلَنَّه .

---

(١) انظر السير : (أحمدُ بنُ حَنبل) ١١/١٧٧ـ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٥/٩٣١ .

(٢) انظر السير : (أحمدُ بنُ حَنبل) ١١/١٧٧ـ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ١/٩٣٢ .

قال الدَّوْرَقيُّ : وكان مُتوارياً أيام الرَّشيد ، فلمَّا ماتَ الرَّشيدُ ظَهَرَ ودَعا إلى الضَّلالَة[1] .

قال الذهبيُّ : ثم إنَّ المَأمونَ نَظرَ في الكَلام ، وناظَر ، وبَقِيَ مُتوقِّفاً في الدُّعاء إلىٰ بِدْعَته[2] .

وقال أبو الفَرَجُ بنُ الجَوْزيّ : خَالَطَه قومٌ من المُعْتَزِلَة ، فحَسَّنوا له القَوْلَ بخَلْقِ القُرآن ، وكان يَتردَّدُ ويُراقِبُ الشُّيوخَ ، ثم قَويَ عَزْمُه وامْتَحنَ النَّاسَ .

وعن ابنِ عَرْعَرَة ، حدَّثني ابنُ أكْثَم ، قال : قال لنا المَأمونُ : لَولا مَكانُ يَزيدَ بنِ هارون ، لأظْهَرتُ أنَّ القُرآنَ مَخلوقٌ ، فقال بعضُ جُلسائه : يا أميرَ المؤمنين ، ومَنْ يَزيدُ حتىٰ يُتَّقَى ؟ فقال : وَيْحَك!! إنِّي أخافُ إنْ أظْهَرْتُه فيَرُدَّ عليَّ يَختلفُ الناسُ ، وتَكونُ فِتنةً ، وأنا أكْرهُ الفِتنَةَ . فقال الرجلُ : فأنا أخْبُرُ ذلكَ منه ، قال له : نَعَم ، فخرجَ إلىٰ وَاسِط ، فجاءَ إلىٰ يَزيدَ ، وقال : يا أبا خالد ، إنَّ أميرَ المؤمنين يُقرئُك السَّلامَ ، ويقولُ لك : إنِّي أُريدُ أنْ أُظْهِرَ خَلقَ القُرآنِ ، فقال : كَذبتَ علىٰ أميرِ المؤمنين . أميرُ المؤمنين لا يَحملُ النَّاسَ علىٰ ما لا يَعْرفُونَه ، فإنْ كُنتَ صادقاً ، فاقْعُد . فإذا اجْتَمَعَ النَّاسُ في المَجْلسِ ، فقُلْ . قال : فلمَّا كان الغَدُ ، اجتمعوا . فقامَ ، فقال كمَقالَتِه ، فقال يَزيدُ : كَذبتَ علىٰ أميرِ المؤمنين ، إنَّه لا يَحملُ النَّاسَ علىٰ ما لا يَعرفُونه ، وما لَمْ يَقُلْ به أحَدٌ . قال : فقَدِمَ ، وقال : يا أميرَ المؤمنين ، كُنتَ أعْلمَ ، وقَصَّ عليه ، قال : وَيْحَك يُلْعَبُ بك!! .

قال صالحُ بنُ أحمد : سَمعتُ أبي يقولُ : لمَّا دَخَلْنا علىٰ إسْحاقَ ابنِ إبْراهيمَ للمِحْنة ، قَرأ عَلينا كتابَ الذي صار إلىٰ طَرَسُوس ، يَعْني : المَأمونَ ، فكان فيما قُرِئَ علينا ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ﴾[3] .

---

(1) انظر السير : (أحمدُ بنُ حَنبل) ١١/ ١٧٧ـ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٢/٩٣٢ .
(2) انظر السير : (أحمدُ بنُ حَنبل) ١١/ ١٧٧ـ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ١/٩٣٣ .
(3) سورة الشورىٰ ، الآية : ١١ .

﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾[1] ، فقلتُ : ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾[2] .

قال صالحٌ : ثم امتُحنَ القومُ ، ووُجِّهَ بمن امتنعَ إلى الحَبْس ، فأجابَ القومُ جميعاً غيرَ أرْبَعَة : أبي ، ومحمّد بن نُوح ، والقَواريري ، والحَسن ابن حمّاد سجّادة . ثم أجابَ هٰذان ، وبَقيَ أبي ومحمد في الحَبْس أيّاماً ، ثم جاء كتابٌ من طَرَسوس بحَمْلهما مُقيَّدَين زَميلَين[3] .

وعن الأصَم ، حدَّثنا عبّاسُ الدُّوريُّ : سَمعتُ أبا جَعْفرٍ الأنْباري يقول : لمّا حُملَ أحْمدُ إلى المأمونِ ، أُخْبِرتُ ، فعَبرتُ الفُراتَ ، فإذا هو جالسٌ في الخان ، فسَلَّمتُ عليه ، فقال : يا أبا جَعْفَر ، تَعنَّيْتَ ، فقلتُ : يا هٰذا أنتَ اليومَ رأسٌ ، والنَّاسُ يَقْتَدونَ بك ، فوالله لئن أجبتَ إلىٰ خَلقِ القُرآن لَيُجيبَنَّ خَلقٌ ، وإنْ أنتَ لمْ تُجِبْ ، لَيَمْتَنعَنَّ خَلقٌ من النَّاس كَثير . ومع هٰذا فإنَّ الرجلَ إنْ لمْ يَقْتُلْكَ فإنَّكَ تموتُ ، لا بُدَّ من المَوْت ، فاتَّقِ اللهَ ولا تُجِبْ ، فجَعلَ أحمدُ يَبْكي ، ويقولُ : ما شاءَ الله . ثم قال : يا أبا جَعْفَر ، أَعدْ عليَّ ، فأَعَدتُ عليه ، وهو يقولُ : ما شاء الله[4] .

وقال محمَّدُ بنُ إبْراهيمَ البوشَنْجي : جَعلوا يُذاكرون أبا عبد الله بالرَّقة في التَّقيَّة وما رُويَ فيها . فقال : كيف تَصْنَعون بحَديثِ خَبَّاب : « إنَّ مَنْ كانَ قَبْلَكمْ كانَ يُنْشَرُ أَحَدُهُم بالمِنْشَارِ ، لا يَصُدُّهُ ذَلكَ عَنْ دِينِهِ » فأَيِسْنا منه[5] .

وقال : لَستُ أُبالي بالحَبْس ، وما هو ومَنْزلي إلاَّ واحدٌ ، ولا قَتلاً بالسَّيفِ إنَّما أخافُ فِتنَةَ السَّوْط . فسَمعَه بعضُ أهل الحَبْس ، فقال : لا عَليك يا أبا عبد الله ، فما هما إلاَّ سَوْطان ، ثم لا تَدري أين يَقعُ الباقي ، فكأنَه سُرِّيَ عنه[6] .

وعن محمَّدِ بنِ إبْراهيمَ بنِ مُصْعَب ، وهو يومئذٍ صاحبُ شُرطَة المعتصم خِلافَةَ

---

(١) سورة الأنعام ، الآية ١٠٢ .
(٢) سورة الشورىٰ ، الآية : ١١ .
(٣) انظر السير : (أحمدُ بنُ حَنبل) ١١/١٧٧ـ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٢/٩٣٣ .
(٤) انظر السير : (أحمدُ بنُ حَنبل) ١١/١٧٧ـ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٣/٩٣٣ .
(٥) انظر السير : (أحمدُ بنُ حَنبل) ١١/١٧٧ـ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ١/٩٣٤ .
(٦) انظر السير : (أحمدُ بنُ حَنبل) ١١/١٧٧ـ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٢/٩٣٤ .

لأخيه إسْحاقَ بنِ إبْراهيم ، قال : ما رأيتُ أحداً لم يُداخِلِ السُّلطانَ ، ولا خالَطَ المُلوكَ ، كان أثْبَتَ قَلْباً من أحمدَ يومئذ ، ما نحنُ في عَينه إلاّ كأمثال الذُّباب .

قال صالحُ بنُ أحمد : قال أبي : فلمّا صِرْنا إلىٰ أَذَنَة ، ورَحَلنا منها في جوف اللّيل ، وفُتحَ لنا بابُها ، إذا رجلٌ قد دَخلَ . فقال : البُشْرَى! قد ماتَ الرجلُ ـ يَعْني المَأمونَ ـ قال أبي : وكنتُ أدْعو اللهَ ألا أراه .

وبَقيَ أحمدُ مَحْبوساً بالرَّقّة حتىٰ بُويعَ المُعْتصمُ إثْرَ مَوتِ أخيه ، فرُدَّ أحمدُ إلىٰ بَغْداد[1] .

قال أبو عبد الله : ما رأيتُ أحداً علىٰ حَداثَة سِنّه ، وقدْرِ عِلْمِه أقوَمَ بأمر الله من محمّدِ بنِ نُوح ، إنّي لأرجو أن يكون قَدْ خُتمَ له بخَير ، قال لي ذاتَ يومٍ : يا أبا عبد الله ، الله . الله ، إنّكَ لَستَ مثلي . أنتَ رجلٌ يُقْتَدَىٰ بك . قد مَدَّ الخَلقُ أعْناقَهم إليك ، لِمَا يكون منك ، فاتَّقِ اللهَ واثْبُتْ لأمر الله ، أو نَحْو هـٰذا . فماتَ ، وصَلَّيتُ عليه ودَفَنْتُه .

قال صالحٌ : وصارَ أبي إلىٰ بَغْدادَ مُقيَّداً ، ثم حُبسَ في دارٍ اكتُريت عند دار عُمارة ، ثم حُوِّلَ إلىٰ حَبْسِ العامّة في درب المَوْصِليّة . فقال : وذلك بعد مَوْت المَأمونِ بأربعةَ عَشر شَهراً ، حُوِّلتُ إلىٰ دار إسْحاقَ ابنِ إبراهيمَ ـ يَعْني : نائبَ بَغداد .

فلمّا كان في اللَّيلة الرابعة ، وَجَّهَ ـ يَعْني المُعْتَصم ـ بِبُغا الكَبير إلىٰ إسْحاقَ ، فأمرهُ بحَملي إليه ، فأُدْخلتُ علىٰ إسْحاقَ ، فقال : يا أحمدُ إنَّها والله نَفْسُك ، إنَّه لا يَقْتُلُك بالسَّيفِ ، إنَّه قد آلَىٰ ، إنْ لَمْ تُجبْهُ ، أن يَضربَكَ ضَرباً بعد ضَرب وأنْ يَقْتُلَكَ في مَوضعٍ لا يُرىٰ فيه شَمسٌ ولا قَمرٌ . أليسَ قد قال اللهُ تعالَىٰ : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾[2] . أفَيكونُ مَجْعولاً إلاَّ مَخْلوقاً ؟ فقلتُ : فقد قال اللهُ تعالَىٰ : ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾[3] ، أفخَلَقَهم ؟ قال : فسكتَ ، فلمّا صِرْنا إلى المَوْضع المَعروف بباب

---

(١) انظر السير : (أحمدُ بنُ حَنبل) ١١/ ١٧٧ـ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٣/٩٣٤ .

(٢) سورة الزخرف ، الآية : ٣ .

(٣) سورة الفيل ، الآية : ٥ .

البُسْتان أُخرجتُ ، وجيءَ بدابةٍ فأُركبتُ وعليَّ الأقْيادُ ، ما مَعي مَن يُمْسِكُني ، فكِدتُ غيرَ مرَّة أن أخِرَّ علىٰ وَجْهي لِثقلِ القيود . فجيءَ بي إلىٰ دار المُعْتَصم ، فأُدخلتُ حُجْرةً ، ثم أُدخلتُ بَيتاً ، وأُقفِلَ البابُ عليَّ في جَوفِ اللَّيل ، ولا سِراج ، فأردْتُ الوُضوءَ ، فمَدَدتُ يَدي ، فإذا بإناءٍ فيه ماءٌ ، وطسْتٌ مَوضوعٌ ، فتَوَضأتُ وصَلَّيتُ .

فلمَّا كان من الغَد ، أَخرجتُ تَكَّتي ، وشَدَدتُ بها الأقْيادَ أَحْملُها وعطفتُ سَراويلي . فجاء رسُولُ المُعْتَصم ، فقال : أَجِبْ ، فأخذَ بيَدي ، وأدخلَني عليه ، والتَّكةُ في يدي ، أَحْملُ بها الأقْيادَ ، وإذا هو جالسٌ ، وأحمدُ بنُ أبي دُوَاد حاضرٌ ، وقد جَمعَ خَلقاً كَثيراً من أَصْحابه ، فقال لي المُعْتَصِمُ : ادْنُه . ادْنُه . فلم يَزَلْ يُدْنيني حتىٰ قَرُبتُ منه ، ثم قال : اجْلِسْ . فجَلَسْتُ ، وقد أثقَلَتْني الأقْيادُ ، فمَكثَ قَليلاً ، ثم قُلتُ : أَتأذَنُ في الكلام ؟ قال : تكلَّمْ ، فقلتُ : إلىٰ ما دَعا اللهُ ورسولُه ؟ فسَكتَ هُنَيْهَةً ، ثم قال : إلىٰ شَهادة أنْ لا إلـٰهَ إلاَّ الله ، فقُلتُ : فأنا أَشْهَدُ أنْ لا إلـٰهَ إلاَّ الله . ثم قلتُ : إنَّ جَدَّكَ ابنَ عبّاس يقول : لَمَّا قَدمَ وَفْدُ عبد القَيْس علىٰ رسُول الله صلى الله عليه وسلم ، سَألوه عن الإيمان ، فقال : « أَتَدْرُونَ مَا الإيمَانُ ؟ » قالوا : اللهُ ورسولُه أعْلم ، قال : « شَهَادَةُ أنْ لا إلـٰهَ إلاَّ الله ، وأنَّ مُحمَّداً رَسُولُ الله ، وإقَامُ الصَّلاة ، وإيتَاءُ الزَّكاة ، وأنْ تُعْطُوا الخُمْسَ مِنَ المَغْنَم » . قال أبي : فقال ـ يَعْني المُعْتَصم : لَوْلا أنِّي وَجَدتُك في يَد مَنْ كان قَبْلي ، ما عَرَضْتُ لك[1] .

ثم قال : يا عبدَ الرحمَـٰن بنَ إسْحاق ، أَلَمْ آمُرْكَ برَفْع المحْنَة ؟ فقلتُ : اللهُ أكْبر !! إنَّ في هـٰذا لَفَرَجاً للمُسلمين . ثم قال لهم : ناظِروه وكَلِّموه ، يا عبدَ الرحمَـٰن كَلِّمْه . فقال : ما تَقولُ في القُرآن ؟ قلتُ : ما تَقولُ أنتَ في عِلْم الله ؟ فسَكتَ ، فقال لي بَعضُهم : أليسَ قال اللهُ تعالَىٰ : ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾[2] . والقُرآنُ أليسَ شَيئاً ؟ فقلتُ : قال اللهُ : ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ ﴾[3] .

---

(١) انظر السير : (أحمدُ بنُ حَنبل) ١١/١٧٧ـ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٤/٩٣٤ .
(٢) سورة الرعد ، الآية : ١٦ .
(٣) سورة الأحقاف ، الآية : ٢٥ .

فدمَّرَت إلاَّ ما أرادَ الله . فقال بعضُهم : ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾[١] . أَفَيكونُ مُحدَثٌ إلاَّ مخْلُوقاً . فقلتُ : قال اللهُ : ﴿صٓۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾[٢] فالذكْرُ هو القرآنُ ، وتلك ليسَ فيها ألف ولام . وذَكرَ بعضُهم حَديثَ عِمْرانَ بن حُصَين : « إنَّ اللهَ خَلَقَ الذِّكرَ » فقلتُ : هـٰذا خَطأٌ ، حدَّثَنا غَيرُ واحد : « إنَّ اللهَ كَتَبَ الذِّكرَ » . واحْتجُّوا بحَديث ابنِ مَسْعود : « مَا خَلَقَ اللهُ مِنْ جَنَّةٍ ولا نَارٍ ولا سَماءٍ ولا أَرْضٍ أَعْظَمَ مَنْ آيَةِ الكرْسِيِّ » . فقلتُ : إنَّما وَقعَ الخَلقُ على الجَنَّة والنَّارِ والسَّماء والأرضِ ، ولمْ يَقعْ على القُرآن . فقال بعضُهم : حَديثُ خَبَّاب : « يا هَنَتاه تَقَرَّب إلى اللهِ بما اسْتَطَعْتَ ، فَإنَّكَ لَنْ تَتَقَرَّبَ إليهِ بِشَيْءٍ أَحَبَّ إليهِ مَنْ كلامِه » . فقلتُ : هَـٰكَذا هو .

قال صالحٌ : وجَعلَ ابنُ أبي دُوَاد يَنظرُ إلىٰ أبي كالمُغْضَب . قال أبي : وكان يتكلَّمُ هـٰذا ، فأردُّ عليه . ويَتكلَّمُ هـٰذا فأَرُدُّ عليه ، فإذا انقَطعَ الرجلُ منهم ، اعْتَرضَ ابنُ أبي دُوَاد ، فيقولُ : يا أميرَ المؤمنين ، هو والله ضالٌّ مُضِلٌّ مُبْتَدعٌ!! فيقولُ : كلِّموه ، نَاظِروه . فيُكلِّمُني هـٰذا ، فأردُّ عليه ، ويُكلِّمُني هـٰذا فأَرُدُّ عليه . فإذا انقَطَعوا ، يقول المُعْتَصمُ : وَيْحَكَ يا أحمَد ، ما تَقولُ ؟ فأقولُ : يا أميرَ المؤمنين ، أَعْطوني شَيئاً من كتاب الله أو سُنَّة رَسولِه ، صلى الله عليه وسلم ، حتىٰ أقولَ به . فطالَ المَجْلسُ ، وقامَ ، ورُدِدْتُ إلى المَوْضِع .

فلمَّا أصْبحنا ، جاء رسولُه ، فأخذَ بيَدي حتىٰ ذهبَ بي إليه ، فقال لهم : ناظِروه وكَلِّموه ، فجَعلوا يُناظِرونني ، فأرُدُّ عليهم ، فإذا جاؤوا بشيء من الكَلامِ ممَّا ليسَ في الكتاب والسُّنَّة ، قلتُ : ما أدْري ما هـٰذا ، قال : فيقولون : يا أميرَ المؤمنين ، إذا تَوَجَّهَتْ له الحُجَّة عَلينا ، وإذا كلَّمْناه بشيء ، يقول : لا أدْري ما هـٰذا ؟ فقال : ناظِروه ، فقال رجلٌ : يا أحمدُ ، أراكَ تذكرُ الحَديثَ وتَنْتَحلُه ، فقلتُ : ما تقولُ في قَوله : ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَـٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ﴾[٣] ، قال : خصَّ الله بها

---

(١) سورة الأنبياء ، الآية : ٢ .
(٢) سورة ص ، الآية : ١ .
(٣) سورة النساء ، الآية : ١١ .

المؤمنين ، قلتُ : ما تقولُ إنْ كان قاتلاً أو عَبْداً ؟ فسَكتَ ، وإنَّما احْتَجَجْتُ عليهم بهٰذا ، لأنَّهم كانوا يَحْتَجُّونَ بظاهر القُرآن ، فحَيثُ قال لي : أراكَ تَنْتَحِلُ الحَديثَ ، احْتَجَجْتُ بالقُرآن ، يَعني : وإنَّ السُّنَّة خَصَّصَت القاتلَ والعَبْدَ ، فأخْرَجَتهُما من العُموم ، قال : فلمْ يَزالوا كذلك إلىٰ قُرْبِ الزَّوال ، فلمَّا ضَجرَ ، قال : قُوموا ، ثم خَلا بي ، وبعبدِ الرحمَـٰنِ بنِ إسْحاق ، فلمْ يَزَلْ يُكلِّمُني ، ثم قامَ ودَخلَ ، ورُدِدْتُ إلى المَوْضع .

قال : فلما كانت الليلة الثالثة ، قلتُ : خَليقٌ أنْ يَحْدُثَ غداً من أمري شيءٌ ، فقلتُ للمُوَكَّل بي : أُريدُ خَيطاً ، فجاءَني بخَيطٍ ، فشَدَدْتُ به الأَقْيادَ ، ورَدَدْتُ التِّكَّة إلىٰ سَراويلي مَخافَةَ أن يَحْدُثَ من أمْري شيءٌ فأتَعَرَّىٰ . فلمَّا كان من الغد أُدخِلتُ إلى الدَّار ، فإذا هي غاصَّةٌ فجَعَلتُ أدخلُ من مَوْضع إلىٰ مَوْضع ، وقومٌ مَعَهم السُّيوف ، وقَومٌ مَعَهم السِّياط وغَيرُ ذلك ، ولم يكنْ في اليومين الماضيين كَبيرُ أحدٍ من هَؤلاء . فلما انتَهيتُ إليه قال : اقْعُد . ثم قال : ناظِروه ، كَلِّموه ، فجَعَلوا يُناظِرونني يَتكلَّمُ هـٰذا ، فأرُدُّ عليه ، ويتكلَّمُ هـٰذا ، فأرُدُّ عليه وجَعلَ صَوْتي يَعْلو أصْواتَهم ، فجَعَلَ بعضُ مَنْ هو قائمٌ علىٰ رأسي يُومِىءُ إليَّ بيَدِه ، فلمَّا طالَ المَجْلسُ نَحَّاني ثم خَلا بهم ، ثم نَحَّاهم ، ورَدَّني إلىٰ عندِه ، وقال : وَيْحَكَ يا أحمد! أَجِبْني حتىٰ أُطلقَ عَنكَ بيَدي ، فرَدَدْتُ عليه نَحْوَ رَدِّي ، فقال : عليك ، وذَكَرَ اللَّعْنَ ، خُذُوه ، اسْحَبوه ، خَلِّعُوه . فسُحبتُ ، وخُلِّعْتُ[1] .

قال : وقد صار إليَّ شَعْرٌ من شَعْرِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم في كُمِّ قَميصي ، فوَجَّه إليَّ إسْحاقُ بنُ إبراهيم ، يقول : ما هـٰذا المَصْرورُ ؟ قلتُ : شَعْرٌ من شَعرِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، وسَعَىٰ بعضُهم ليَخْرقَ القَميصَ عنِّي ، فقال المُعْتَصمُ : لا تَخْرقوه ، فنُزِعَ ، فظَنَنْتُ أنَه إنَّما دُرِىءَ عن القَميص الخَرق بالشَّعْر . قال : وجَلَسَ المُعْتَصمُ علىٰ كُرسيٍّ ثم قال : العُقابَيْن والسِّياط ، فجِيءَ بالعُقابَين ، فمُدَّت يَدايَ ،

---

(١) انظر السير : (أحمدُ بنُ حَنبل) ١١/ ١٧٧ـ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ١/ ٩٣٦ ـ ٩٣٨ .

فقال : بعضُ مَنْ حَضَرَ خَلفي : خُذْ ناتِىءَ الخَشَبتَين بيدَيك ، وشُدَّ عليهما ، فلمْ أفْهَم ما قال ، فتخَلَّعَتْ يَداي .

قال محمدُ بنُ إبراهيمَ البُوشَنْجي : ذَكروا أنَّ المُعْتَصمَ ألانَ في أمر أحمد لمَّا عُلِّقَ في العقابَين ، ورَأىٰ ثَباتَه وتَصْميمَه وصَلابتَه ، حتىٰ أغْراهُ أحمدُ بنُ أبي دُوَاد ، وقال : يا أميرَ المؤمنين ، إنْ تَركْتَه ، قيل : قد تَرَكَ مَذْهَبَ المَأمون ، وسَخَّطَ قَوْلَه ، فهاجَه ذلك علىٰ ضَرْبه .

قال صالحٌ : قال أبي : ولمَّا جيءَ بالسِّياط ، نظرَ إليها المُعْتَصمُ فقال : ائْتوني بغَيرها ، ثم قال للجَلاَّدين : تَقدَّموا ، فجعَلَ يتقدَّمُ إليَّ الرجلُ منهم ، فيَضْربُني سَوْطَين ، فيقولُ له : شُدَّ ، قطَعَ اللهُ يَدَك ، ثم يَتَنحَّىٰ ويتقدَّمُ آخرُ ، فيَضْربُني سَوْطَين ، وهو يقولُ في كلِّ ذلك : شُدَّ ، قَطَعَ اللهُ يَدَك ، فلمَّا ضُربتُ سَبعَةَ عَشرَ سَوْطاً ، قامَ إليَّ ، يعني المُعْتَصمَ ، فقال : يا أحمدُ ، عَلامَ تَقْتُلُ نَفْسَك ؟ إنِّي والله عَليكَ لَشَفيقٌ ، وجَعَلَ عُجَيفُ يَنخَسُني بقائمَة سَيْفِه ، وقال : أتُريدُ أن تَغلبَ هـٰؤلاء كلَّهم ؟ وجعلَ بعضُهم يقول : وَيْلَك!! إمامُكَ علىٰ رأسِك قائمٌ ، وقال بعضُهم : يا أميرَ المؤمنين دَمُهُ في عُنُقي ، اقْتُلْه ، وجَعَلوا يقولون : يا أميرَ المؤمنين أنتَ صائمٌ ، وأنتَ في الشَّمْسِ قائمٌ!! فقال لي : وَيْحَك يا أحمدُ ، ما تقولُ ؟ فأقول : أعْطوني شيئاً من كتاب الله أو سُنَّة رسول الله أقولُ به ، فرجعَ وجلَسَ ، وقالَ للجَلاَّد : تقدَّم وأَوْجِعْ ، قطَعَ اللهُ يَدَك ، ثم قامَ الثانية وجَعلَ يقول : وَيْحَك يا أحمد : أَجْبْني ، فجَعَلوا يُقْبلونَ عليَّ ، ويقولون : يا أحمدُ ، إمامُكَ علىٰ رأسِك قائمٌ! ، وجَعَل عبدُ الرحمـٰن يقول : مَنْ صَنَعَ من أصْحابِك في هـٰذا الأمر ما تَصنَع ؟ والمُعْتَصمُ يقولُ : أجِبْني إلىٰ شيء لك فيه أدْنىٰ فَرجٍ حتَّىٰ أطلقَ عنك بيدي ، ثم رجعَ ، وقال للجَلاَّد : تقدَّم ، فجعلَ يَضْربُني سَوْطَين ويَتنَحَّىٰ ، وهو في خلال ذلك يقول : شُدَّ قَطَع اللهُ يَدَك ، فذَهبَ عَقلي ، ثم أفَقْتُ بعد ، فإذا الأقْيادُ قد أُطلِقَت عنِّي . فقالَ لي رجلٌ مِمَّن حضرَ : كَبَبْناكَ علىٰ وَجْهِكَ ، وطَرَحْنا علىٰ ظهرك باريَّةً[1] ودُسْناك! قال أبي : فما

---

(١) الحَصير المنسوج .

شَعرتُ بذلك ، وأتَوني بسَويقٍ ، وقالوا : اشْرَبْ وتَقيًّا ، فقلتُ : لا أُفْطِرُ ، ثم جِيءَ بي إلىٰ دار إسْحاق بنِ إبراهيم ، فحضَرت الظُّهرُ ، فتقدَّمَ ابنُ سَماعَة ، فصلَّىٰ ، فلمَّا انفتَلَ من صَلاتِه ، وقال لي : صَليتَ والدَّمُ يَسيلُ في ثَوْبِك ؟ قلتُ : قد صَلَّىٰ عُمرُ ، وجُرْحُه يَثْعَبُ دَماً[1] .

قال صالحٌ : ثم خُلِّيَ عنه ، فصار إلىٰ مَنْزِله ، وكان مُكْثُه في السِّجْن منذ أُخذَ إلىٰ أن ضُربَ وخُلِّيَ عنه ، ثمانية وعشرين شَهْراً ، ولقد حدَّثَني أحدُ الرجُلين اللذين كانا معه ، قال : يا ابن أخي ، رحمَةُ الله علىٰ أبي عبد الله ، والله ما رأيتُ أحداً يُشْبِهُهُ ، ولقد جَعلتُ أقولُ له في وقت ما يُوجَّه إلينا بالطَّعام : يا أبا عبد الله ، أنتَ صائمٌ ، وأنتَ في مَوْضع تَقيَّة . ولقد عَطِشَ ، فقالَ لصاحبِ الشَّراب : ناوِلني ، فناوَلَه قَدَحاً فيه ماءٌ وثَلجٌ ، فأخَذَه ونَظَرَ فيه ، ثم ردَّه ، ولمْ يَشْربْ ، فجَعلتُ أعْجَبُ من صَبرِه على الجوع والعَطَش ، وهو فيما هو فيه من الهَوْل!!

قال صالحٌ : فكنتُ ألتَمسُ وأحْتالُ أن أوصِلَ إليه طَعاماً أو رَغيفاً في تلك الأيَّام ، فلمْ أقْدِرْ ، وأخْبَرني رجلٌ حضَرَه : أنَّه تفقَّدَه في الأيام الثلاثة وهم يُناظِرونَه ، فما لَحَنَ في كَلمَة . قال : وما ظَنَنْتُ أنَّ أحداً يكونُ في مثل شَجاعَته وشدَّة قَلبه .

قال حَنْبلٌ : سَمعتُ أبا عبد الله يقول : ذَهبَ عَقلي مِراراً ، فكان إذا رُفعَ عنِّي الضَّربُ ، رَجعَتْ إليَّ نفسي ، وإذا اسْترخَيتُ وسقَطتُ ، رُفعَ الضَّربُ أصابَني ذلك مِراراً ، ورأيتُه ـ يَعني المُعْتَصمَ ـ قاعداً في الشَّمسِ بغَيرِ مظَلَّة ، فسمعتُه وقد أفَقتُ ، يقول : لابن أبي دُوَاد : لقد ارتَكبتُ إثْماً في أمر هـٰذا الرجل . فقال : يا أميرَ المؤمنين ، إنَّه ـ والله كافرٌ مُشْرِكٌ ، قد أشْرَكَ من غَير وَجْه . فلا يَزالُ به حتىٰ يَصْرفَه عمَّا يُريد . وقد كان أرادَ تَخْليَتي بلا ضَرْبٍ ، فلمْ يَدَعْه ، ولا إسْحاق ابن إبراهيم .

قال حَنْبَلٌ : وبَلَغَني أنَّ المُعْتَصمَ قال لابنِ أبي دُوَاد بعدَما ضُربَ أبو عبد الله : كَمْ ضُربَ ؟ قال : أربعَة أو نَيفاً وثلاثين سَوْطاً[2] .

---

(١) أي : يَجري ويتفجّر منه الدم .
(٢) انظر السير : (أحمدُ بنُ حَنبل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ١/ ٩٣٨ـ ٩٤٠ .

قال ابنُ أبي حاتِمٍ : حَدَّثني أحمَدُ بنُ سِنانٍ قال : بَلَغَني أنَّ أحمدَ ابنَ حَنبَلٍ جَعَلَ المُعْتَصِمَ في حِلٍّ يومَ فَتَحَ عاصِمةَ بابك وظَفِرَ به ، أَوْ في فَتْحِ عَمُّورِيَةَ ، فقال : هو في حِلٍّ من ضَرْبِي[1] .

وقال ابنُ أبي حاتم : سَمعتُ أبا زرعَة يقول : دَعا المُعْتَصِمُ بعَمٍّ أحمدَ ، ثم قال للنَّاس : تَعْرفونَه ؟ قالوا : نَعم ، هو أحمدُ بنُ حَنْبَل ، قال : فانظُروا إليه ، أليسَ هو صَحيحُ البَدَن ؟ قالوا : نعم ، ولولا أنَّه فعل ذلك ، لكنتُ أخافُ أنْ يَقعَ شيءٌ لا يُقامُ له ، قالوا : ولما قال : قد سَلَّمْتُه إليكم صَحيحَ البَدَن ، هَدأَ النَّاسُ وسَكَنوا .

قال الذهبيُّ : ما قال هٰذا مع تَمكُّنِه في الخِلافَة وشَجاعَته إلاَّ عن أمرٍ كَبير كأنَّه خافَ أنْ يَموتَ من الضَّرْب ، فتَخرجُ عليه العامَّة ، ولو خَرجَ عليه عامَّةُ بَغْداد لرُبَّما عَجزَ عنهم . وبَلَغَنا أنَّ المُعْتَصمَ نَدمَ ، وأُسْقطَ في يَده ، حتىٰ صَلُحَ[2] .

وسَمعتُه يقول : كلُّ مَنْ ذَكَرَني ففي حِلٍّ إلاَّ مُبتَدعاً ، وقد جَعَلتُ أبا إسْحاقَ ـ يَعْني المُعْتَصمَ ـ في حلٍّ ، ورأيتُ اللهَ يقول : ﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾[3] ، وأمرَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم أبا بكر بالعَفوِ في قِصّة مِسْطَح . قال أبو عبد الله : وما يَنْفعُك أنْ يُعذِّبَ اللهُ أخاكَ المسلم في سَببك ؟!![4] .

مِحْنَةُ الوَاثق :

قال حَنبلٌ : لمْ يَزلْ أبو عبد الله بعد أنْ بَرىءَ من الضَّرب يَحضُرُ الجُمعَة والجَماعَة ، ويُحدِّثُ ويُفْتي ، حتىٰ ماتَ المُعْتَصمُ ، ووَلِيَ ابنُه الوَاثقُ فأظْهَر ما أظْهَر من المِحْنَة والمَيْل إلىٰ أحمد بن أبي دُوَاد وأصْحابه . فلمَّا اشْتدَّ الأمرُ علىٰ أهْلِ بَغْداد وأظْهَرت القُضاةُ الفتنَة بخَلْق القُرآن ، وفُرِّقَ بين فَضْل الأنْماطيِّ وبينَ امرأتِه ، وبينَ أبي صالح وبينَ امرأتِه ، كان أبو عبد الله يَشْهَدُ الجُمُعَة ، ويُعيدُ الصَّلاةَ إذا رَجعَ ،

---

(١) انظر السير : (أحمدُ بنُ حَنبل) ١١/ ١٧٧ـ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ١/٩٤٠ .
(٢) انظر السير : (أحمدُ بنُ حَنبل) ١١/ ١٧٧ـ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٢/٩٤٠ .
(٣) سورة النور ، الآية : ٢٢ .
(٤) انظر السير : (أحمدُ بنُ حَنبل) ١١/ ١٧٧ـ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٣/٩٤٠ .

ويقولُ : تُؤتَى الجُمعَة لفَضْلِها ، والصَّلاةُ تُعادُ خَلفَ مَنْ قال بهـٰذه المَقالَة[١] .

وجاءَ نفرٌ إلىٰ أبي عبد الله ، وقالوا : هـٰذا الأمرُ[٢] قد فَشا وتَفاقَم ، ونحنُ نَخافُه علىٰ أكثَر من هـٰذا ، وذَكَروا ابنَ أبي دُوَاد ، وأنَّه علىٰ أنْ يأمُرَ المُعلِّمينَ بتَعليم الصِّبْيانَ في المَكاتب : القُرآنُ كَذا وكَذا ، فنحنُ لا نَرضَىٰ بإمارَته . فمَنَعَهم من ذلك وناظَرَهم . وحَكَىٰ أحمدُ قَصْدَه في مُناظَرَتهم ، وأمَرَهم بالصَّبْر . قال : فبَينا نحنُ في أيام الواثق ، إذ جاء يَعقوبُ ليلاً برسالَةِ الأمير إسْحاق بن إبراهيم إلىٰ أبي عبد الله : يقولُ لك الأميرُ : إنَّ أميرَ المؤمنين قد ذَكَرَكَ فلا يَجْتمعَنَّ إليك أحدٌ ، ولا تُساكِنِّي بأرضٍ ولا مَدينَة أنا فيها ، فاذْهَبْ حَيثُ شئتَ من أرضِ الله . قال : فاخْتَفىٰ أبو عبد الله بَقيَّةَ حياة الوَاثِق ، وكانت تلك الفِتْنَة ، وقُتِلَ أحمدُ بنُ نَصْر الخُزاعيّ ، ولمْ يَزَلْ أبو عبد الله مُخْتَفياً في البيتِ لا يَخْرُج إلى الصَّلاة ولا إلىٰ غَيْرِها حتىٰ هَلَكَ الوَاثقُ[٣] .

وعن إبراهيمَ بنِ هانِىء ، قال : اخْتَفىٰ أبو عبد الله عندي ثلاثاً ثم قال : اطلبْ لي مَوْضِعاً ، قلتُ : لا آمَنُ عليك ، قال : افْعَل ، فإذا فَعَلْتَ ، أفَدْتُك . فطلبتُ له مَوْضِعاً ، فلمَّا خَرجَ قال : اخْتَفىٰ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم في الغَارِ ثلاثةَ أيامٍ ثم تَحوَّل[٤] .

وجاء في ترجمة البُوَيْطيِّ ، قال الذهبيُّ : سُعيَ بالبُوَيْطيِّ حتىٰ كتبَ فيه ابنُ أبي دُوَاد إلىٰ وَالي مِصْرَ ، فامْتَحَنَه ، فلم يُجبْ ، وكان الوَالي حَسَنَ الرَّأي فيه ، فقال له : قُلْ فيما بَيْني وبَيْنَك ، قال : إنَّه يَقْتَدي بي مئةُ ألف ، ولا يَدْرُونَ المَعْنىٰ ، قال : وقد كان أُمِرَ أنْ يُحمَلَ إلىٰ بَغْداد في أَرْبَعينَ رَطل حَديد[٥] .

وقال أبو الدَّحْداح الدِّمَشقيُّ : حدَّثنا الحُسَينُ بنُ حامد أنَّ كتاب المَأمونِ وَرَدَ علىٰ

---

(١) انظر السير : (أحمدُ بنُ حَنبل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٩٤١/ ١ .
(٢) أي القول بخَلق القُرآن .
(٣) انظر السير : (أحمدُ بنُ حَنبل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٩٤١/ ٢ .
(٤) انظر السير : (أحمدُ بنُ حَنبل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ٩٤١/ ٣ .
(٥) انظر السير : (البُوَيْطي) ١٢/ ٥٨ـ ٦١ ، وانظر النزهة : ٩٨٢/ ١ .

إسْحاقَ بنِ يَحْيىٰ بنِ مُعاذ أميرِ دِمَشْق : أنْ أحْضِرْ المُحدِّثينَ بدِمَشْق فامْتَحنْهُم . قال فأَحْضَرَ هشامَ بنَ عمّار ، وسُليْمانَ ابنَ عبد الرحمٰن ، وابنَ ذَكْوان ، وابنَ أبي الحَواريّ ، فامتَحَنَهم امْتِحاناً ليسَ بالشَّديد ، فأجابوا ، خَلا أحمدَ بنَ أبي الحَواريّ ، فجَعلَ يَرْفُقُ به ، ويقولُ : أليسَ السَّماواتُ مَخْلوقَةً ؟ أليسَ الأرضُ مَخْلوقَةً ، وأحمدُ يَأبىٰ أنْ يُطيعَه ، فسَجَنَه في دار الحِجارَة ، ثم أجابَ بعدُ فأطلقه[1] .

وقال الحاكِمُ : حَدَّثنا طاهِرُ بنُ مُحمَّد الوَرَّاق ، سَمعتُ مُحمَّدَ ابنَ شاذِل يقولُ : لمَّا وَقَعَ بينَ مُحمَّدِ بنِ يَحْيَىٰ والبُخاريِّ ، دَخَلْتُ على البُخاريِّ فقُلتُ : يا أبا عبدَ اللهِ أَيشٍ الحيلَةُ لنا فيما بَيْنَكَ وبينَ مُحمَّد ابنِ يَحْيَىٰ كُلُّ مَنْ يَخْتلِفُ إلَيْكَ يُطْرَدُ ؟ ، فقال : كَمْ يَعْتَرِي مُحمَّدَ ابنَ يَحْيَى الحَسَدُ في العِلْمِ . والعِلْمُ رِزْقُ الله يُعْطِيهِ مَنْ يَشاءُ . فقُلتُ : هـٰذه المَسْألَةُ التي تُحْكَىٰ عَنْكَ ؟ قال : يا بُنيَّ ، هـٰذه مَسْألَةٌ مَشْؤومَةٌ ، رَأيْتُ أحْمَدَ بنَ حَنْبلَ وما نالَهُ في هـٰذه المَسْألَة ، وجَعلتُ علىٰ نَفْسِي أن لا أتَكَلَّمَ فيها[2] .

قال الإمامُ الذهبيُّ : المَسْألَةُ هي أنَّ اللَّفْظَ مَخْلوقٌ ، سُئِلَ عنها البُخاريُّ ، فوَقَفَ فيها ، فلمَّا وَقَفَ واحْتَجَّ بأنَّ أفعالَنا مَخْلُوقَةٌ ، واسْتَدَلَّ لذلكَ ، فَهِمَ منه الذُّهليُّ أنَّه يُوَجِّهُ مَسْألَةَ اللَّفْظِ ، فتكَلَّمَ فيه ، وأخَذَهُ بِلازِمِ قَوْلِهِ هو وغيره[3] ،[4] .

قال الحاكِمُ : أخْبَرَنا أبو عبدِ الله مُحمَّدُ بنُ يَعْقوبَ بنِ الأخْرَم سَمعتُ ابنَ عليٍّ المَخْلَديّ ، سَمعتُ مُحمَّدَ بنَ يَحْيَىٰ يقولُ : قد أظْهَرَ هـٰذا البُخاريُّ قَوْلَ اللَّفْظيَّةِ واللَّفْظيَّةُ عندي شَرٌّ من الجِهَميَّة .

قال مُحمَّدُ بنُ نَصْر المَرْوزيُّ : سَمعتُهُ يقولُ : مَنْ زَعَمَ أنِّي قُلتُ : لَفْظي بالقُرآنِ

---

(١) انظر السير : (أحمد بن أبي الحَواري) ١٢/ ٨٥ـ ٩٤ ، وانظر النزهة : ٣/٩٨٧ .

(٢) انظر السير : (أبو عبد الله البُخاري) ١٢/ ٣٩١ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ٣/١٠١٧ .

(٣) ولازم المذهب ليس بلازم كما هو مذهب جمهور المحققين من العلماء ، ونقل ابن ناصر الدين في مقدمة كتابه « الرد الوافر » ٢٠ ، عن الإمام الذهبي ـ ووصفه بإمام التعديل والجرح ، والمعتمد عليه في المدح والقدح ـ كلمة جاء فيها : ونعوذ بالله من الهوىٰ والمِراء في الدين ، وأن نكفِّرَ مُسْلماً مُوَحِّداً بلازم قوله ، وهو يفر من ذلك اللازم ، وينزه ويعظِّم الرَّب .

(٤) انظر السير : (أبو عبد الله البُخاري) ١٢/ ٣٩١ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ٤/١٠١٧ .

مَخْلُوقٌ فهُو كذَّابٌ ، فإنِّي لَمْ أَقُلْهُ ، فقُلتَ له : يا أبا عبدَ الله ، قد خاضَ النَّاسُ في هـٰذا وأكْثَروا فيه ، فقال : لَيْسَ إلاَّ ما أقولُ[١] .

قال : وسَمعتُ مُحمَّدَ بنَ يَعْقُوبَ الحافِظَ يقولُ : لمَّا اسْتَوطَنَ البُخاريُّ نيسابُورَ أكْثَرَ مُسْلِمُ بنُ الحَجَّاجِ الاخْتِلافَ إليه ، فلمَّا وَقَعَ بينَ الذُّهليِّ والبُخاريِّ ما وَقَعَ في مَسْأَلَةِ اللَّفْظِ ونادَىٰ عليه ، ومَنَعَ النَّاسَ عنه ، انْقَطَعَ عنه أكْثَرُ النَّاسِ غيرَ مُسْلمٍ .

فقال الذُّهليُّ يوماً : ألا مَنْ قالَ باللَّفْظِ فلا يَحِلُّ له أنْ يَحْضُرَ مَجْلِسَنا فأخَذَ مُسْلمٌ رِداءً فَوقَ عَمامَتِهِ وقام علىٰ رُؤوسِ النَّاسِ وبَعَثَ إلى الذُّهليِّ ما كَتَبَ عنه علىٰ ظَهْرِ جمَّال وكان مُسْلمٌ يُظْهِرُ القَوْلَ باللَّفْظِ ولا يَكْتُمُه[٢] .

وقال مُحمَّدُ بنُ أبي حاتِمٍ : أتىٰ رَجلٌ أبا عبدَ اللهِ البُخاريَّ ، فقال : يا أبا عبدَ اللهِ ، إنَّ فُلاناً يُكَفِّرُكَ ! ! . فقال : قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : « إذا قَالَ الرَّجُلُ لأخِيهِ : يا كافِرُ ، فقَدْ بَاءَ بِهِ أحَدُهُمَا »[٣] .

وقال عبدُ الرَّحمـٰن بنُ أبي حاتِمٍ في « الجَرْحِ والتَّعْدِيلِ » قَدِمَ مُحمَّدُ ابنُ إسْماعيل الرَّيَّ سَنةَ خَمْسينَ ومِئَتَيْنِ ، وسَمِعَ منه أبِي وأبو زَرْعَةَ وتَرَكا حَديثَهُ عندَما كَتَبَ إليهما مُحمَّدُ بنُ يَحْيَىٰ أنَّه أظْهَرَ عندَهُم بنِيسابُورَ أنَّ لَفْظَهُ بالقُرآنِ مَخْلُوقٌ[٤] .

قال الإمام الذهبيُّ : إنْ تَرَكا حَديثَه ، أوْ لَمْ يَتْرُكاهُ ، البُخاريُّ ثِقَةٌ مَأمُونٌ مُحتَجٌّ به في العَالَمِ[٥] .

قال أبو نعيم عبدُ الملك بنُ الحَسَنِ الإسْفراييني ، ابنُ أخت أبي عَوانَة : سَمعتُ أبي يقول لأبي عليّ النيسَابوري الحافِظ : دَخلتُ أنا وأبو عَوانَةَ البَصْرَة ، فقيلَ : إنَّ أبا خَليفَةَ قد هُجِرَ ، ويُدَّعَىٰ عليه أنَّه قال : القُرآنُ مَخلوق . فقال لي أبو عَوانَةَ : يا بُني!

---

(١) انظر السير : (أبو عبد الله البُخاري) ١٢/ ٣٩١ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ١/١٠١٨ .
(٢) انظر السير : (أبو عبد الله البُخاري) ١٢/ ٣٩١ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ٣/١٠١٨ .
(٣) انظر السير : (أبو عبد الله البُخاري) ١٢/ ٣٩١ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ٤/١٠١٨ .
(٤) انظر السير : (أبو عبد الله البُخاري) ١٢/ ٣٩١ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ٥/١٠١٩ .
(٥) انظر السير : (أبو عبد الله البُخاري) ١٢/ ٣٩١ـ ٤٧١ ، وانظر النزهة : ٦/١٠١٩ .

لا بدَّ أنْ نَدخُلَ عليه ، قال : فقالَ له أبو عَوانَة : ما تقولُ في القُرآن ؟ فاحْمَرَّ وجهُهُ وسَكتَ ، ثم قال : القُرآنُ كَلامُ الله غَيرُ مَخْلوق ، ومَنْ قال : مَخْلوقٌ ، فهو كافرٌ ، وأنا تائبٌ إلى الله من كل ذَنبٍ إلاَّ الكَذبَ ، فإنِّي لمْ أكْذب قَطُّ ، أسْتغفرُ اللهَ . قال : فقام أبو عليّ إلىٰ أبي ، فقبَّلَ رأسَه ، ثم قال أبي : قام أبو عَوانَة إلىٰ أبي خَليفَة ، فقبَّلَ كَتِفَه .

تُوفِّيَ أبو خَليفَة سنة خمسٍ وثلاث مئة بالبَصْرَة[1] .

(ب) مُناظَرةٌ في خَلْق القُرآن :

جاءَ في تَرجَمة الإمامِ أحمدَ بنِ حَنْبَل ، ثم قال المُعْتَصِمُ : يا عبدَ الرحمَـٰن بنَ إسْحاق ، أَلَمْ آمُرْكَ برَفْع المحْنَة ؟ فقال الإمامُ أحمدُ : اللهُ أكْبر!! إنَّ في هـٰذا لَفَرجاً للمسلمين . ثم قال المُعْتَصِمُ لهم : ناظِروه وكَلِّموه ، يا عبدَ الرحمَـٰن كَلِّمْه . فقال : ما تَقولُ في القُرآن ؟ قلتُ : ما تَقولُ أنتَ في عِلْم الله ؟ فسَكتَ ، فقال لي بَعضُهم : أليسَ قال اللهُ تَعالَىٰ : ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾[2] . والقُرآنُ أليسَ شَيئاً ؟ فقلتُ : قال اللهُ : ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ ﴾[3] .

فدمَّرَت إلاَّ ما أرادَ الله . فقال بعضُهم : ﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ ﴾[4] أفَيكونُ مُحدَثٌ إلاَّ مخْلُوقاً . فقلتُ : قال اللهُ : ﴿ صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴾[5] فالذكْرُ هو القرآنُ ، وتلك ليسَ فيها ألف ولام . وذَكرَ بعضُهم حَديثَ عِمْرانَ بنِ حُصَين : « إنَّ اللهَ خَلَقَ الذِّكرَ » فقلتُ : هـٰذا خَطأٌ ، حدَّثَنا غيرُ واحد : « إنَّ اللهَ كَتَبَ الذِّكرَ » . واحْتجُّوا بحَديث ابنِ مَسْعود : « مَا خَلَقَ اللهُ مِنْ جَنَّةٍ ولا نَارٍ ولا سَماءٍ ولا أَرْضٍ أَعْظَمَ مَنْ آيَةِ الكرْسِيِّ » . فقلتُ : إنَّما وَقعَ الخَلقُ على الجَنَّة والنَّارِ والسَّماء والأرضِ ، ولمْ

---

(١) انظر السير : (أبو خَليفة) ١٤/٧ـ١١ ، وانظر النزهة : ٣/١١٢٢ .
(٢) سورة الرعد ، الآية : ١٦ .
(٣) سورة الأحقاف ، الآية : ٢٥ .
(٤) سورة الأنبياء ، الآية : ٢ .
(٥) سورة ص ، الآية : ١ .

يَقَعْ على القُرآن . فقال بعضُهم : حَديثُ خَبَّاب : « يا هَنَتاه تَقَرَّب إلى اللهِ بما اسْتَطَعْتَ ، فإنَّكَ لَنْ تَتَقرَّبَ إليهِ بِشَيْءٍ أَحَبَّ إليهِ مَنْ كلامِه » . فقلتُ : هٰكذا هو .

قال صالحٌ : وجَعلَ ابنُ أبي دُوَاد يَنظرُ إلىٰ أبي كالمُغْضَب . قال أبي : وكان يتكلَّمُ هٰذا ، فأردُّ عليه . ويَتكلَّمُ هٰذا فأرُدُّ عليه ، فإذا انقَطعَ الرجلُ منهم ، اعْتَرضَ ابنُ أبي دُوَاد ، فيقولُ : يا أميرَ المؤمنين ، هو والله ضالٌّ مُضِلٌّ مُبْتَدعٌ !! فيقولُ : كلِّموه ، نَاظِروه . فيُكلِّمُني هٰذا ، فأردُّ عليه ، ويُكلِّمُني هٰذا فأرُدُّ عليه . فإذا انقَطَعوا ، يقول المُعْتَصمُ : وَيْحَكَ يا أحمَد ، ما تَقولُ ؟ فأقولُ : يا أميرَ المؤمنين ، أَعْطوني شَيئاً من كتاب الله أو سُنَّة رَسولِه ، صلى الله عليه وسلم ، حتىٰ أقولَ به . فطالَ المَجْلسُ ، وقامَ ، ورُدِدْتُ إلى المَوْضِع .

فلمَّا أصْبحنا ، جاء رسولُه ، فأخذَ بيَدي حتىٰ ذهبَ بي إليه ، فقال لهم : ناظِروه وكَلِّموه ، فجَعلوا يُناظِرونِي ، فأرُدُّ عليهم ، فإذا جاؤوا بشيء من الكَلامِ ممَّا ليسَ في الكتاب والسُّنَّة ، قلتُ : ما أدْري ما هٰذا ، قال : فيقولون : يا أميرَ المؤمنين ، إذا تَوَجَّهَتْ له الحُجَّة عَلينا ، وإذا كلَّمْناه بشيء ، يقول : لا أدْري ما هٰذا ؟ فقال : ناظِروه ، فقال رجلٌ : يا أحمدُ ، أراكَ تذكرُ الحَديثَ وتَنْتَحلُه ، فقلتُ : ما تقولُ في قَوله : ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴾[1] ، قال : خصَّ الله بها المؤمنين ، قلتُ : ما تقولُ إنْ كان قاتلاً أو عَبْداً ؟ فسَكتَ ، وإنَّما احْتَجَجْتُ عليهم بهٰذا ، لأنَّهم كانوا يَحْتَجُّونَ بظاهر القُرآن ، فحَيثُ قال لي : أراكَ تَنْتَحِلُ الحَديثَ ، احْتَجَجْتُ بالقُرآن ، يَعني : وإنَّ السُّنَّة خَصَّصَت القاتلَ والعَبْدَ ، فأخْرَجَتهُما من العُموم ، قال : فلمْ يَزالوا كذلك إلىٰ قُرْب الزَّوال ، فلمَّا ضَجِرَ ، قال : قُوموا ، ثم خَلا بي ، وبعبدِ الرحمٰنِ بنِ إسْحاق ، فلمْ يَزَلْ يُكلِّمُني ، ثم قامَ ودَخلَ ، ورُدِدْتُ إلى المَوْضع .

قال : فلما كانت الليلة الثالثة ، قلتُ : خَليقٌ أنْ يَحْدُثَ غداً من أمري شيءٌ ، فقلتُ للمُوَكَّل بي : أُريدُ خَيطاً ، فجاءَني بخَيطٍ ، فشَدَدْتُ به الأَقْيادَ ، ورَدَدْتُ التِّكَّة

---

(١) سورة النساء ، الآية ١١ .

إلىٰ سَراويلي مَخافَةَ أن يَحْدُثَ من أمْري شيءٌ فأتَعَرَّىٰ . فلمَّا كان من الغد أُدخِلتُ إلى الدَّار ، فإذا هي غاصَّةٌ فجَعَلتُ أدخلُ من مَوْضع إلىٰ مَوْضع ، وقومٌ مَعَهم السُّيوف ، وقَومٌ مَعَهم السِّياط وغَيرُ ذلك ، ولم يكنْ في اليومين الماضيين كَبيرُ أحدٍ من هَؤلاء . فلما انتَهيتُ إليه قال : أقْعُد . ثم قال : ناظِروه ، كَلِّموه ، فجَعَلوا يُناظِرونني يَتكلَّمُ هـٰذا ، فأرُدُّ عليه ، ويتكلَّمُ هـٰذا ، فأرُدُّ عليه وجَعلَ صَوْتي يَعْلو أصْواتَهم ، فجَعَلَ بعضُ مَنْ هو قائمٌ علىٰ رأسي يُومِىءُ إليَّ بيَدِه ، فلمَّا طالَ المَجْلسُ نَحَّاني ثم خَلا بهم ، ثم نَحَّاهم ، ورَدَّني إلىٰ عندِه ، وقال : وَيْحَكَ يا أحمد! أَجِبْني حتىٰ أُطلقَ عَنكَ بيَدي ، فرَدَدْتُ عليه نَحْوَ رَدِّي ، فقال : عليك ، وذَكَرَ اللَّعْنَ ، خُذُوه ، اسْحَبوه ، خَلِّعُوه . فسُحبتُ ، وخُلِّعْتُ[1] .

وقال طاهرُ بنُ خَفيف : سَمعتُ المُهْتَدي بالله محمدَ بنَ الوَاثق ، يقول : كان أبي إذا أرادَ أن يَقتُلَ أحداً ، أحْضَرَنا ، فأُتيَ بشيخٍ مَخْضوبٍ مُقيَّد ، فقال أبي : ائذَنوا لأبي عبد الله وأصْحابِه ، يَعني ابنَ أبي دُوَاد ، قال : فأُدخِلَ الشيخُ ، فقال : السَّلامُ عليك يا أميرَ المؤمنين ، فقال : لا سلَّمَ اللهُ عليكَ ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ، بئسَ ما أدَّبَكَ مُؤدِّبُك ، قال اللهُ تَعالَىٰ : ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآۗ ﴾[2] ، فقال ابنُ أبي دُوَاد : الرجلُ مُتكلِّم . قال له : كلِّمْه ، فقال : يا شيخُ ما تقولُ في القُرآن ؟ قال : لمْ يُنْصِفْني ، وليَ السُّؤال . قال : سَلْ ، قال : ما تقولُ في القُرآن ؟ قال : مَخْلوقٌ . قال الشيخُ : هـٰذا شيءٌ عَلِمَه النبيُّ صلى الله عليه وسلم ، وأبو بَكر وعُمَر ، والخُلفاءُ الراشدون ، أمْ لم يَعْلَموه ؟ قال : شيءٌ لمْ يَعْلَموه ، فقال : سُبحانَ الله! شيءٌ لمْ يعْلَمْه النبيُّ صلى الله عليه وسلم ، عَلِمْتَه أنتَ ؟ فخَجِلَ ، فقال : أقِلْني ، قال : المَسْأَلَةُ بحالِها . قال : نعم عَلِموه ، فقال : عَلِموه ولمْ يَدْعوا النَّاسَ إليه ، قال : نعم . قال : ألا وَسِعَكَ ما وَسِعَهم ؟ قال : فقامَ أبي فدخلَ مَجْلساً ، واسْتلقَىٰ ، وهو يقول : شيءٌ لمْ يَعْلَمْه النبيُّ صلى الله عليه وسلم ، ولا أبو بَكر وعُمر

---

(١) انظر السير : (أحمد بن حنبل) ١١/ ١٧٧ـ ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ١/٩٣٦ .
(٢) سورة النساء ، الآية : ٨٦ .

وعُثمان وعَليّ ، ولا الخُلَفاء الراشدون ، عَلمتَه أنت! سُبحانَ الله! شيءٌ عَلِموه ، ولمْ يَدْعوا النَّاسَ إليه ، أفلا وَسِعَك ما وَسِعَهم ؟!! ثم أمرَ برفع قُيودِه ، وأنْ يُعْطَىٰ مئة دينار ، ويُؤذَنَ له في الرُّجوع ، وسَقطَ من عَينه ابنُ أبي دُوَاد ، ولـمْ يَمْتَحن بعدَها أبداً .

وهـٰذه قصّة مَليحة ، وإنْ كان في طَريقِها مَنْ يُجْهَل ولها شاهد[1] .

(ج) انتهاء فِتنة الامتحان بخَلْق القُرآن :

جاء في ترجمة المُتوَكل ، قال الذهبيُّ : وفي سنة أربع وثلاثين ومئتين أظْهَرَ المُتوَكلُ السُّنَّة وزَجرَ عنْ القولِ بخَلقِ القُرآن ، وكتبَ بذلك إلى الأمصار ، واسْتَقدَم المُحدِّثين إلىٰ سامَرَّاء ، وأجْزَلَ صِلاتِهم ورَوَوا أحاديثَ الرُّؤيَة والصِّفات .

وفي سَنة ستٍّ أحضرَ القُضاة من البُلْدان ليَعْقدَ بولاية العَهد لبَنيه : المُنْتَصر محمد ، ثم للمُعْتزِّ ، ثم للمُؤيَّد إبراهيم ، وكانت الوَقْعَة بين المسلمين والرُّوم ، ونَصر الله[2] .

وغَضبَ المُتوَكلُ علىٰ أحمدَ بنِ أبي دُوَاد ، وصادَره ، وسَجَنَ أصْحابَه ، وحُمِّلَ ستّة عشر ألف درهم ، وافْتَقرَ هو وآله ، ووَلِيَ يَحْيىٰ بنَ أكْثم القَضاء ، وأطْلَقَ مَنْ تبَقّىٰ في الاعتقال مِمَّن امتنعَ عن القَول بخَلْق القُرآن ، وأُنزِلَت عِظامُ أحمدَ بنِ نَصْر الشَّهيد ، ودَفَنَها أقاربُه ، وبَنَىٰ قَصْرَ العروس بسامِرَّاء ، وأنفقَ عليه ثلاثين ألفَ ألفِ درهم ، والتَمسَ المُتوَكلُ من أحمدَ بنِ حَنْبَل أن يأتيه ، فذَهبَ إلىٰ سامِرَّاءَ ولمْ يَجتمعْ به ، اسْتَعْفىٰ فأعْفاه ، ودخلَ علىٰ وَلدِه المُعْتزّ ، فدَعا له[3] .

(د) ردُّ الذهبيِّ غُلوَّ بعضِ العُلماء في التكفير بسبب تلك الفتنة :

قال أبو داود : سألتُ أحمدَ بنَ صالح عمَّن قال : القُرآنُ كَلامُ الله ، ولا يقولُ مَخلوقٌ ، ولا غيرَ مَخلوق . فقال : هـٰذا شاكٌّ ، والشَّاكُّ كافر .

---

(١) انظر السير : (أحمد بن حنبل) ١١/ ١٧٧ـ٣٥٨ ، وانظر النزهة : ١/٩٤٦ .
(٢) انظر السير : (المُتوكل على الله) ١٢/ ٣٠ـ٤١ ، وانظر النزهة : ٤/٩٧٧ .
(٣) انظر السير : (المُتوكل على الله) ١٢/ ٣٠ـ٤١ ، وانظر النزهة : ٣/٩٧٨ .

قال الذهبيُّ : بلْ هـٰذا سَاكتٌ ، ومَنْ سَكَتَ تَوَرُّعاً لا يُنْسَبُ إليه قَولٌ ، ومَنْ سَكتَ شاكّاً مُزْرياً على السَّلف ، فهـٰذا مُبْتَدعٌ[1] .

وقال محمدُ بنُ موسى المصري : سألتُ أحمدَ بنَ صالح ، فقلتُ : إنَّ قَوماً يقولون : إنَّ لَفظَنا بالقُرآن غيرُ الملفوظ ، فقال : لَفظُنا بالقُرآن هو المَلْفوظ ، والحِكايَةُ هي المَحْكيُّ ، وهو كَلامُ الله غيرُ مَخْلوق ، مَنْ قال : لَفْظي به مَخْلوقٌ ، فهو كافِرٌ .

قال الذهبيُّ : إنْ قال لَفظي ، وعَنىٰ به القُرآن ، فنَعَم ، وإنْ قال لَفظي وقَصَدَ به تلَفُّظي وصَوْتي وفِعْلي أنَّه مَخْلوق ، فهـٰذا مُصيبٌ ، فاللهُ تَعالَىٰ خالِقُنا ، وخالقُ أفْعالِنا وأدَواتِنا ، ولكن الكَفَّ عن هـٰذا هو السُّنَّة ، ويَكفي المَرْءَ أن يُؤمنَ بأنَّ القُرآنَ العَظيمَ كَلامُ الله ووَحْيُه وتَنْزيلُه علىٰ قَلب نَبيِّه وأنَّه غيرُ مَخْلوق ، ومَعْلومٌ عند كلِّ ذي ذهنٍ سَليمٍ أنَّ الجَماعَةَ إذا قَرؤوا السُّورَة ، أنَّهم جَميعاً قَرؤوا شَيئاً واحداً ، وأنَّ أصْواتَهم وقِراءَتَهم وحَناجرَهم أشياءُ مُخْتلفَة ، فالمَقْروءُ كَلامُ ربِّهم ، وقِراءتُهم وتَلَفُّظهم ونَغَماتِهم مُتباينَة ، ومَنْ لمْ يَتصوَّر الفَرقَ بينَ التلفُّظ وبين المَلفوظ ، فدَعْه وأعْرضْ عَنه[2] .

قال الحافظُ أبو عبد الله بنُ مَندَة في مسألة الإيمان : صَرَّحَ محمدُ بنُ نَصْر في كتاب « الإيمان » بأنَّ الإيمانَ مَخْلوق ، وأنَّ الإقْرارَ ، والشَّهادَةَ ، وقِراءةَ القُرآن بلَفْظه مَخْلوق . ثم قال : وهَجَرَه علىٰ ذلك عُلماءُ وَقْته وخالَفَه أئمَّةُ خُراسانَ والعِراق[3] .

قال الذهبيُّ : الخَوضُ في ذلك لا يجوزُ ، وكذلك لا يجوزُ أنْ يُقالَ : الإيمانُ ، والإقْرارُ ، والقِراءةُ ، والتَّلفُّظُ بالقُرآن غَيرُ مَخْلوق ، فإنَّ اللهَ خَلقَ العِبادَ وأعْمالَهم ، والإيمانُ : فقَولٌ وعَمل ، والقِراءَةُ والتَّلفُّظُ : من كَسْب القارىء ، والمَقْروءُ المَلْفوظُ : هو كَلامُ الله ووَحْيُه وتَنزيلُه ، وهو غَيرُ مَخْلوق ، وكذلك كَلمَةُ الإيمان ،

(١) انظر السير : (أحمد بن صالح) ١٢/ ١٦٠ـ ١٧٧ ، وانظر النزهة : ٩٩١/ ٢ .
(٢) انظر السير : (أحمد بن صالح) ١٢/ ١٦٠ـ ١٧٧ ، وانظر النزهة : ٩٩١/ ٣ .
(٣) انظر السير : (محمد بن نَصر) ١٤/ ٣٣ـ ٤٠ ، وانظر النزهة : ١١٢٧/ ١ .

وهو قَوْلُ « لا إلـٰهَ إلاَّ الله ، محمَّدٌ رَسُولُ الله » داخلةٌ في القُرآن ، وما كان من القُرآن فليس بمَخْلوق ، والتكلُّمُ بها من فِعْلِنا ، وأفْعالُنا مَخْلوقَة ، ولو أنَّا كُلما أخطأ إمامٌ في اجْتِهادِهِ في آحادِ المَسائل خطأً مَغْفوراً له ، قُمْنا عليه ، وبَدَّعْناه ، وهَجَرْناه ، لما سَلِمَ مَعنا لا ابنُ نَصْر ، ولا ابنُ مَنْدَة ، ولا مَنْ هو أكْبرُ منهما ، واللهُ هو هادي الخَلْقِ إلى الحَقِّ ، وهو أرْحَمُ الراحمين ، فنَعوذُ بالله من الهَوىٰ والفَظاظَة[1] .

(هـ) البُعدُ عن الخَوْض في هـٰذه المسْألَة وأمْثالها أَوْلَىٰ :

قال أحمدُ بنُ كامل القاضي : أخْبَرَني أبو عبد الله الوَرَّاق أنَّه كان يُوَرِّقُ علىٰ داوُدَ بنِ عليٍّ ، وأنَّه سَمعَه يُسْألُ عن القُرآن ، فقال : أمَّا الذي في اللَّوْح المَحْفوظِ فغَيرُ مَخْلوقٍ ، وأمَّا الذي هو بينَ النَّاس فمَخْلوق[2] .

والخَوْضُ في هـٰذا خَطِرٌ ، نسْألُ اللهَ السَّلامَةَ في الدين ، وفي المَسْألَة بُحوثٌ طَويلَة ، والكَفُّ عَنها أَوْلَىٰ ، ولا سيَّما في هـٰذه الأزْمنَة المُزْمِنَة[3] .

وقال الحاكمُ : سَمعتُ الأسْتاذَ أبا الوَليد يقول : قال لي أبي : أيُّ شيءٍ تَجْمَع ؟ قلتُ : أخرِّجُ علىٰ كتاب البُخاريّ ، فقال : عَليكَ بكتاب مُسْلم ، فإنَّه أكثرُ بَرَكَةً ، فإنَّ البُخاريَّ كان يُنْسَبُ إلى اللَّفْظ[4] .

قال محمدُ بنُ الذهبيّ : ومُسْلمٌ أيضاً نُسِبَ إلى اللَّفْظ ، ألا تراهُ كيف قام من مَجْلس الذُّهْليِّ علىٰ رأسِ المَلأ لمَّا قال : ألا مَنْ كان يقولُ بقولِ محمّد بن إسْماعيل ، فلا يَقْرَبنا ؟ فهـٰذه مَسْألةٌ مُشْكلَة ، وقد كان أحمدُ بنُ حَنْبَل وغَيرُه لا يَرَوْنَ الخَوْضَ في هـٰذه المَسْألة ، مع أنَّ البُخاريَّ ـ رحمَه اللهُ ـ ما صَرَّحَ بذلك ، ولا قال : ألْفاظُنا بالقُرآن مَخْلوقَة ، بلْ قال : أفْعالُنا مَخْلوقَة ، والمَقْروءُ المَلْفوظُ هو كَلامُ الله تَعالَىٰ ، وليسَ بمَخْلوق ، فالسُّكوتُ عن تَوَسُّع العِبارات أسْلمُ للإنسان .

---

(١) انظر السير : (محمد بن نَصر) ١٤/ ٣٣ـ ٤٠ ، وانظر النزهة : ٢/١١٢٧ .
(٢) انظر السير : (داوُد بن عليّ) ١٣/ ٩٧ـ١٠٨ ، وانظر النزهة : ٢/١٠٥٧ .
(٣) انظر السير : (داوُد بن عليّ) ١٣/ ٩٧ـ١٠٨ ، وانظر النزهة : ٣/١٠٥٧ .
(٤) انظر السير : (أبو الوَليد الفقيه) ١٥/ ٤٩٢ـ ٤٩٦ ، وانظر النزهة : ٣/١٢٥٣ .

ولقد كان أبو الوَليد هـٰذا من أرْكان الدين .

قال الحاكمُ : أرانا أبو الوَليد نَقشَ خاتمه « الله ثِقَة حَسَّان بن محمد » ، وقال : أرانا عبدُ الملك بنُ محمد بنِ عَديّ نَقشَ خاتمه « الله ثِقَة عبد الملك ابن محمد » ، وقال : أرانا الرَّبيعُ نَقشَ خاتمه « الله ثِقَة الرَّبيع بن سُليمان » ، وقال : كان نَقشُ خاتم الشَّافعي : « الله ثِقَة محمد بن إدْريس » .

مات الوَليدُ سنةَ تسْعٍ وثلاث مئة[1] عن اثنتين وسبعين سنة[2] .

* * *

(١) انظر السير : ١٥/٥٠٦ـ٥٠٨ .

(٢) انظر السير : (أبو الوَليد الفَقيه) ١٥/٤٩٢ـ٤٩٦ ، وانظر النزهة : ٤/١٢٥٣ .

محتوى الكتاب